

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية
تصدرها شبكة الأزهر
في كل شهر من دورتي خريف

الجزء الأول	الهرم سنة ١٣٥٦	المجلد الثامن
-------------	----------------	---------------

مدير ادارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفيع الدين

الاشتراك	الاعداد
<p>داخل القطر المصري ٣٠</p> <p>خارج القطر المصري ٤٠</p> <p>للمعلم غير المدرسين وائمة الساجد وللأذنين ومعلمي المدارس الأولية والطلاب ومعلمي الحكومة ومجالس المديرية</p> <p>للطلاب وائمة الساجد</p>	<p>ميدان الأزهر</p> <p>تيلون : ٨٤٣٣٣</p> <p>الرسائل تكون باسم مدير المجلة</p>

نمن الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة الأزهر

١٣٥٦ - ١٩٣٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة السنة الثامنة

الحمد لله على ما هدانا اليه من الدين القويم ، وأقامنا عليه من الصراط المستقيم ، وما حبانا من وصاياه المحيية للقلوب ، وتعاليمه الجامعة بين أشتات الشعوب ، حمدا يرشحننا للمزيد من حسناته ، ويؤهلنا للفوز بمرضاته .

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، بما حملة اليهم من النور المبين ، والحق الدامخ لبطلان الباطلين ، وعلى إخوانه النبيين ، وآله وصحبه وأتباعه من أقاموا الدين ، وحاطوه من العلم بسياج متين .

(أما بعد) فإن هذه المجلة ما فتئت منذ تأسست تعمل على أداء رسالتها من الدفاع عن الدين ، والدعوة اليه ، مستمدة من الله العون على ما انتدبت له ، غير وانية ولا مُتَلَوِّمة ، حتى كسبت رضا العالم الاسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ، فأصبحت لسانهم الناطق بحجتهم ، الداعي الى شرعتهم ، النافع عن حقيقتهم . فلا غرو أن بلغت في هذا المدى القصير الى حد من الانتشار لم تبلغه مجلة شهرية في الشرق الى اليوم .

وإن ارتياح الناس الى هذه المجلة يقتنن دائما بالابتهاال الى الله جل وهز يحفظ حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ممززا في ملكه ، مؤيدا في حكمه ، حاصلا على كرامة ربه ، فإن ما يتوالى على الأزهر وعلماؤه من سيب فضله ، وما ينالهم من حسن إقباله ، وما يحفظه له الناس من احترامه الدين ، وقيامه بحقوقه ، كل ذلك كان له أكبر تأثير في قيام الأزهر بمهمته ، وقيام أعلامه بواجباتهم ، وانتظام جميع ما يتصل اليه واليهم بسبب ، أو بحث بعمل .

ولا يذكر الأهر وعلماءه وما يتصل به إلا وذكر الأستاذ الأكبر، الامام
المصلح العظيم، حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى الراغى، فقد أقاض من
عقربته العالمة على هذه الجامعة الكريمة من روح النظام، وبواعث النهوض، وعوامل
التطور، ما أقامها على جادة أكمل الجامعات العالمية، وضمن لها الوصول الى أبعد غاياتها.
وقد لا تمضى سنوات معدودة حتى تظهر آثار جهوده المنظمة جائلة باهرة، نحمل
الأهر مكانته من عميل الدين الحق، تميلا يتفق ورسالته العامة للأمم كافة.

هذا ونسأل الله ونحن فى مسهل السنة الثامنة لهذه المجلة، أن يوفقنا ويوفق أصحاب
الفضيلة الذين يعاونونا فى تحريرها، لأن تتابع خطوات هذا الإصلاح الجليل، وأن ييسر
لنا مهمتنا من بيان الدين والإدلاء بحجته، ونشر كلمة الله والدعوة الى محبته، إنه ولى
الكفاية، وهو المستعان !

مدير مجلة الأهر

محمد قريير ومبرى

العام الرجري الجديد

يفتتحه الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر بنصائح من صميم الدين ولباب الحكمة

بذكر المسلمون في مستهل كل عام قرى هجرة خاتم النبيين من مكة الى المدينة ،
وبذكرون بهذه المناسبة تاريخ الاسلام وما كان من نتائج انتشاره من الانقلابات
الفكرية والدينية والاجتماعية بين شعوب الأرض قاطبة .

أمضى محمد صلى الله عليه وسلم من عمره أربعين سنة لا يحدث نفسه بأن يقوم
بدعوة ، ولكنه لم يفتأ جامد القلب ، ولا خامد العقل ، على ما كان عليه الناس المحيطون
به ، فشمع بما هو فيه من الحيرة بين أديان قاتمة لا يسبغها عقله ، وحقائق خفية لم
يوصله اليها إدراكه ، فكان يعتزل الناس ويأوى الى غار في الجبل ، يتجرد فيه من جميع علائق
الدنيا ، لاجئاً الى مبدعه أن يهديه لما تتوق اليه نفسه ، ويطلب به قلبه . فبينما هو
في جولة من جولات تفكيره إذ فجأة من عالم الروح ما فجئه ، فأنكشف له ما أنكشف
لكل نبي قبله ، وكانت ثمرة ذلك تكليفه بدعوة قومه الى الدين الحق ، وإلى الطريقة
التي للحياة ثم ما لبث أن كلف بدعوة الخلق كافة الى دين الفطرة .

مهمة كان مجرد الفكر فيها يوقع في اليأس ، ويوجب الحيرة . عالم يفلى بالاضطرابات
والفتن ، ويفور بالسفائم والاحسن ، وأم تتفاخر تتأخر الضواري ، وطوائف تتزاحم
تزاحم الجحيم على الأوشال ، وانصراف عن التفكير والتأمل لا بدع لصاحب دعوة أملا
في أن يصح له فضلاً عن أن يجاب الى ما يدعو اليه ، وجود على التقاليد والموروثات
لا تترك لجهد خيالاً من توقع الفوز فيما هو بدهى ، فما ظنك بما يحتاج لروية ؟

مضى صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى الاسلام كما أمره ربه ، فكان جواب قومه

عليها كما ذكره الله تعالى عنهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أَجْمَلُ الآلهة لها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجيب . وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » ، وقالوا بأبيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنتم من الصادقين ، الخ الخ .

هذا كان جواب قومه الأقرين ، الذين كانوا يلقبونه قبل الدعوة بالأميين ، ويعرفون أنه على خلق متين ، فإظنك بالبدء عنه والأبعدين ؟ فكان الله بحسنه على الصبر ، ويحضه على المضى فيما نذبه له ، غير مهال يعمود الجامدين ، وغفلة الغافلين ، ولا آبه بهديد المهملين ، وعدوان العادين ، حتى تأمر القوم على قتله غيلة ، وتفريق دمه في القبائل . فأمره الله بالهجرة إلى المدينة ، وكان قد هدى إلى الإسلام نفرا من أهلها بشوا فيها دعوته . فخرج إليها في جنح الظلام الدامس ، وأوى في طريقه إلى غار محش ، فلما تمتم به وروا انقطاع أثره عند ذلك الغار ، تأمروا أن يقتحموه ، فتهيبوا ذلك لهول ما كان عليه من الظلمة وكثرة الهوام ، واستعظموا أن يكون قد أوى إليه الرسول ، فتركوه . وخرج صلى الله عليه وسلم وصاحبه قاصدين المدينة ، فبلغوها سالمين ، فاستقبلهم أهلها باحتفاء عظيم ، وعاهدوه على أن يحموه ويحموا دعوته ضد الأيبيض والأحمر ، حتى يظهر الإسلام أو يموتوا أجمعين .

إيمان راسخ لم يمهله شبيه في جزيرة العرب ، ونزوع مدهش من طائفة مزقة الأوصال ، تكاد لا تكن وسائلها لحياة نفسها ، تلتذب لأن تقف في وجه العالم أجمع ذيادا عن دعوة لا ينتظر من ورائها مغنم ، ولا يتوقع أن يجاوز صداها البقعة التي تقوم عليها في وسط شعاب وهضاب لا يعرف العالم لها وجودا ، ولا يسمع من أهلها ذكرا .

كل شيء عجيب في هذا الدين ، ولا يقبل التعليل بالأمور المادية : رجل يقوم في بيته هي أبعد البيئات عن النظم الاجتماعية ، والأصول العلمية والفلسفية . يدعى أنه

أرسل خاتماً للمرسلين ، ليصالح ما فسد من الشرائع ، ويعمل ما انعكس من الأوضاع ، ويمسك بالروح فيما مات من النفوس ، وبالنور الى ما أظلم من القلوب ، فلا يرفع قومه بدعوته رأساً ، فيأوى الى قوم آخرين ثم أقل من قومه عدداً ، وأضمت مدداً ، فيأبهون أن يؤيدوه ، وأن يمرضوا أنفسهم لمعاداة العالم كله ، أو على القليل لمعاداة العرب أجمعين ! لاجرم أن هذا مجال بعيد الأرجاء لدراسة حالة نفسية خطيرة لم يسمع تاريخ الاجتماع بمثل لها ، وخاصة في البلاد العربية .

إن أهل المدينة الذين انتدبوا لهذا الأمر الجليل يتأفون من قبيلتين : بنى الأوس وبنى الخزرج ، من القبائل اليمنية التي هجرت ديارها واستقرت في شمال بلاد العرب ، وكانت الحرب بينهما دائمة الاشتعال على مثال جميع قبائل العرب ، وزاد في اشتعالها نزوح جماعات يهودية من سورية الى تلك المدينة هرباً من الاضطهاد الديني هنالك . كانت هاتان القبيلتان كاسائر القبائل العربية تعيش معيشة أهل البداوة ، على الشامية ، وما تسمح به الأراضى المجدية من التمر ، وليست على شيء يذكر من الثروة ولا العمد ، وليس لها في نظر العرب ميزة تجعلها متميزة الخوذة ، مرعية الجانب . وكانت كاسائر القبائل العربية تحفظ وجودها حيال القبائل المادية لها بعدد المحالفات ، والتعاون على دفع الغارات . تخفقها والحالة هذه للدفاع عن دعوة دينية ، ظهرت بوادر مزجعة لنفوس العرب منها ، بما حدث من موقف قريش حيالها ، يعتبر مجازفة منها بوجودها ، وليس فيما بين يدينا ما يقفنا على سبب هذه المجازفة الجارية ، إن أردنا فهمها على ضوء الأمور العادية .

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بذى مال يطمح في نواله ، ولا لأصحابه من الجاه ما يفرى أهل المدينة باستناده ، فقد كان أكثرهم فقراء ، ومن كان منهم على شيء من الثروة ، تركها ورائه وفريدينه لا يملك غير نفسه ، فالذي يحفز قبيلتي الأوس والخزرج على الأخذ بناصر قوم على هذه الحال من الفقر وقلة الوسائل المادية ؟

اللهم لا شىء غير ما أشرق فى قلوبهم من الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما فاض عليهم من روح الله للقيام بمهمة عالمية كان لابد منها لتدارك الأمم من الفوضى ، والممران من الخراب فى تلك الأيام المظلمة .

ولكن هذه طفرة ، نعم ؛ والطفرة محال ، نعم ؛ إلا فى عهود النبوات حيث يتجلى العالم الروحانى على العالم المادى بواسطة الرسول القائم بالدعوة ، فتحدث مفاجآت وخوارق عادات تعتبر من آيات الله الكبرى .

وأى شىء فى تاريخ الدعوة الاسلامية لا يعتبر من خوارق العادات ؟ إن العشر السنين التى عاشها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، تم فيها من الأعمال ما يقتضى كل واحد منها قرونا متوالية . فقد تم فيها بناء دين ، وتأسيس دولة ، ووضع دستور ، وسن شريعة ، وقيام أمة . وكل عمل من هذه الأعمال تم على أكل حال ، ولم يترك ناقصا ليتم تدريجيا فى خلال أجيال متعاقبة ، كما جرت عليه الأحوال الانسانية فى الأمور العادية .

ومما يجب لفت النظر اليه أن الدعوة الاسلامية التى نكصت عنها فريش ، وخيل لها أنها تقضى عليها فى المهجر الذى أوت اليه ، وحذا حذوها العرب أجمعون ، ولم يقبل الدفاع عنها إلا قبضة من الرجال ، قد تأبدت بروح من عند الله ، وبورك عليها حتى طافت المعمور كله فى سنين معدودة ، مما لم يحدث مثله لدعوة تقدمتها فى تاريخ الأمم كافة ، وآتت ثمراتها فقبلتها أمم من أصول ولغات وألوان مختلفة ، لا تمت الى المرب ولا الى لغتهم بسبب .

فأى إنسان يسه أن يتخيل أن دعوة تقوم فى بقعة هى أبعد بقاع الأرض عن الممران ، تقوى وتشتد ، وتعاوف العالم كله ، وتأخذ بها شعوب كان يحفل بعضها وجود بعض ، وتشرق سور الصين المنيع فىرن لها فيها صدى يسمعه كل من له أذنان ؟ على هذا النحو من الإعجاز يؤيد الله الحق ، ويملى مكانته بين الخلق . ومما يجب أن

يُعلم أن هذه المعجزات المحمدية تبقى ما بقيت السموات والأرض، ويزيد ما تقدم العلوم النفسية والاجتماعية قوة على قوتها، وتكون أدلة قاطعة على صدق رسالة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

هذه كلمة سقتها في مناسبة العام الهجري الجديد الذي احتفلات به مشيخة الأزهر احتفالاً عظيماً، افتتحه حفرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي بكلمة قيمة أودعها نصوصاً ثمينة من ابواب الدين، وصيغ الحكمة، كان لها تأثير في السامعين يعجز القلم عن وصفه، وأنا حرصاً على هذه الدرر الثمينة نجعلها قلادة في جيب هذا العدد :

كلمة الاستاذ الاكبر

حضرات السادة : إخواني العلماء ، أبنائي الطلبة :

أحييكم بتحية الاسلام ، وأهنيكم بالعام الهجري الجديد ، وأسأل الله أن يكون خيراً من سابقه ، وأن يكون عام خير وسعادة ومجد الاسلام والمسلمين وللاُمة المصرية السعيدة .

وأوصيكم وأوصي نفسي بالتخلق بأخلاق الرسول الكريم ، صلوات الله عليه ، الذي تحتفل الليلة بهجرته ، وأن تتدبروا ما في الهجرة وما أساطبها من ممان وأغراض سامية حملت المسلمين على أن يعتبروها مبدأ للتاريخ .

وليس من غرضي الليلة أن أعرض لهذه المعاني ، وستسمعون من حضرات الخطباء والشعراء ما فيه غناء ، إن شاء الله .

ادخلوا في العام الجديد على بركة الله ، وفي رعاية الله ، وتوفيق الله ، معتمدين عليه ، واثقين من أن مرّة الأُمور جميعها اليه وحده ، عاملين على طاعته وطاعة رسوله وإعزاز كلمته وإعلاء كتابه .

واعلموا أن الدين عقيمة ، وخلق ، وعمل ؛ وأن سعادة البشرية لا تنال إلا في ساحته ونحت ظلاله .

وفي العبادات إذا حسن أدائها تهذيب للنفس وردع عن الشرور ، وفيها لذة الوصل والقرّب من الواحد الأحد جل شأنه . وفي الأخلاق الدينية تمويده على احتمال المكاره وتسلية عما في الحياة من مصاعب . ولا تطامن النفس إلا إذا آمنت بما في الحياة من حكمة ، وبما في الآخرة من جزاء . فتقوية روح التدين سبي لايجاد وسيلة من وسائل السعادة ، وأداة من أدوات الطمأنينة والاستقرار .

والشواهد أمامكم ماثلة تدلّكم على اضطراب الحياة العامة حتى عند أقوى الدول بسبب البعد عن الدين فقد أوجد البعد منه مذاهب تشمر الانسانية الآن بقسوتها ووحشيتها وبمدمعها عن العقل والفضيلة . ولولا أولئك الذين زعموا لها أساسيد من الفلسفة والعلم ما نبئت ولا أفرخت ولا عاشت .

ونحن الآن في معر نشعر بقسوة الحياة بالقياس الى الماضي ، لأن الدنية خلقت ألوانا من العيش لم نعهد لها من قبل . والألوان البعيدة عن الدين منها هي التي تطابت نفقات لم يقو على احتمالها من انغمسوا فيها ، فاستندأوا وأسرفوا ، وذلوا أمام دائيتهم ، ومكنوا الدائنين من التصرف فيهم دون رحمة ولا شفقة .

وإني لأخشى أن ينحدر الفلاحون فيما انحدر اليه غيرهم ، فتكون المصيبة عظيمة لانقاف عند إضعاف الفلاح في جسده وإنتاجه ، بل تعتمد الى ضعف الذل والذراي . فليتدبر العقلاء هذا ، وليحاربوه بكل القوى : بقوة الدين ، وبقوة السلطان .

أوصيكم أيها الاخوان ألا تهجروا القديم لأنه قديم ، وألا ترفضوا الجديد لأنه جديد . خذوا من كل شيء ، أحسنه . خذوا ما يوافق العقل والدين والهادات القومية التي أثبتت التجارب الطويلة صحتها ، وارضضوا كل مردول بجانب الدين والفضيلة والهادات الصحيحة ، وبجانب صفات الجد والوقار وما يجب أن يكون عليه الرجال .

إياكم أن تدخلوا فيما لا تعلمون ولا تفقهون ، وإياكم والغرور والطيش ، فهذه صفات لا يصلح منها عمل ، ولا يستقيم بها أمر فرد أو أمة ، ويعرف كل امرئ قدر نفسه ، فان معرفة النفس أصل من أصول السعادة ورفق المجتمع .

أبنائي الطلبة :

ههنا حياتكم للعالم ، وللخلق الكريم ، وللجد ، وروضوا أنفسكم على الصبر وعلى احتمال المسكاره ، وقبوا أجسامكم وعقولكم لتقدروا على الكفاح في هذه الحياة .

أما أنتم أيها الاخوان من العلماء ، فلا تظنوا الأمانة التي وضعت بين أيديكم :

أخلصوا الله في تعليم أبنائكم وتهذيبهم ، وتقويم أخلاقهم ، وإرشادهم إلى الطريق الحق .
وكما أوصيت بالمحافظة على الدين وإني أوصي كل مصري بالإخلاص لوطنه ، وأن يهود
كل واحد للوطن بما يقدر عليه .

وكل شخص أتقن عمله وأحسنه وراقب الله فيه فهو غناص لوطنه ، وكل شخص
أنفق ما يقدر عليه لمجد الوطن فهو محلاص لوطنه .

أصلح الله أحوالنا ، ووقانا سوء المنقاب ، وهدانا إلى سبيل الخير :
هذا وإني أسأل الله جات قدرته أن يكلأ حضرة صاحب الجلالة الملك ، وريعه
بعنايته ، ويحمل أيامه على هذه البلاد ألبم سعادة وطأ نينة واستقرار ، وأن يوفق القائمين
بأمر الدولة إلى خير العمل ، ويلهمهم طريق الصواب .

بعد ما أتم فضيلته ما تفضل بالعلماء منهم علماء أعلام ، فذكروا من تاريخ الهجرة
وآثارها المالية ما كان له أعظم موقع في النفوس مما سنعود إلى الأمام به .

وسكتي اليوم بنشر قصيدة عهية لفضية الاستاذ الموقر الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة :

محيك أسى في الميوت وأبدع	وذكرك أسى في القلوب وأدوع
رجعت إلى الاسلام ذكرى شبابه	فهل ماضى من سالف المجد يرجع ؟
فيا طالما ، زان الوجود جماله	لملك بالتجج للوأمّل تطلع
حشدنا لك الآمال غرا تقودها	نوازع في آلاء عهدك تطمع
ويسوبها في أفق سمعك نهضة	مسددة السرى ، وشمل يجمع
إذا الأزهر للممرور قام خطيبه	أصاخ له الشرق للقدس أجمع
تساقى بنوه ، والحوادث تلتقى	ووجه الليالي والأمانى أسفح
هلموا بنا ، نجمع شتات جهودنا	فإن اجتماع الرأي لاضم أرفع

ضمان على مجد المروية أن تُرى دعا الدين ، فلتأت الأمانى خواضما
وأعلامنا فوق الهجرة ترفع ويأدهر فلتقبل ، ويأرب فاسموا
إذا سيم ورد الذل لا يتورع فداء العلا ، المحض كل موا كل



بنى الشرق ، هذا الغرب قد طار مجده يطلول زهر النيرات ويفرق
مفاته نسي العقول ، وسحره يروق الليون الناظرات فتقيم
ولاشرق آداب بناها قديمه نسن سليل للكرامات وتشرع
هي السؤدد الباق على الدهر فخره هي الدر في الليات ، بل هي أبدع
فإن لم تصنها عزة حرية مضى بينها سيله المتدفع



وهذى وفود الدين تغدو على اسمه تجدد من بنيانه وترقم
ففي الشرق أعلام يفيض هداهمو كما فاض هطلال من النيث مرم
وفي الغرب رواد ، هم النحل أبكرت تطوف في روض العلوم وتجمع
هم الجند : جند الله ، في الله جاهدوا وبالنصر والتوفيق منه تدرعوا
توحد في الفصد النبيل جهودهم وتقتل في طرق العلا وتنوع



رعى الله أيام الرافعي ومهد رمى فيه للمرفان شمس منيرة
بظلاله مهد لفاروق أقبلت ملك كما الدنيا جمالا شبابه
سبيلي الليالي والسنين ، وعمره سيبي جديدا ، نشره يتنوع

عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة العربية

قصيدة عصماء أخرى

لحضرة الشاعر الكبير ، والأديب المشهور ، الأستاذ أحمد عمر ، فقد حوت
من عبر التاريخ في معرض من بديع الفريض ما لا يتاح إلا لألمى مثله من أعلام الأدب ،
قال أنابه الله :

أقبل ، عليك من الشعوب سلام	فزع (الصليب) إليك و (الاسلام)
(عيسى) يناجي فيك سيف (محمد)	والدمع سيل ، والهموم ركام
الأرض ولهى ، والممالك رجف	والناس حرب ، والزمان خصام
دنيا تموج بها للشرور ، وعالم	نظنى على جنباته الآتام
لا الحل حل في شرائع أهله	عند القضاء ، ولا الحرام حرام
عبث (الفلاسفة الكبار) بأمنه	وجنى عليه (السادة الأعلام)
أقبل كمهدك موقظا ومنبها	إن البصائر وللعقول نيام
وانشر كتابك هاديا ومهذبا	فالتس ضلال ، وأنت إمام
هنا كتاب للحياة مفصل	وضعت به الآيات والأحكام
مضت الدهور ، وما يزال كأنه	يمكنه ، ما مضى عنه ختام
نمت للمالك في ظلالك واجتات	أم الزمان سنناك والأقوام
أشرقت ، والدنيا ضلال مطبق	والكوث شر شامل وظلام
وطامت ، والحق البين مشرد	يبقى المقام ، وأين منه مقام ؟
القتل يطلبه ، ويركض خلفه	والبل حيرى ، والخطوب جمام
والجاهلية في مظاهرها	ما يتقضى صلف لها وعُرام
بطل تأهب للجهاد يقيمه	ومضى ، فلا خور ولا استسلام
ما للظن بالضرغام سار مهاجرا ؟	ضاق العرين ، فهاجر الضرغام

يمشى وصاحبه ، وما من ثالث
 لم تله الدنيا ولم يلب به
 الحق من دنيا الهوى وخيالها
 ولقد ينال الفرد في إيماءه
 النفس ملء الدهر ، أو هي فرة
 ما يستبين مكانها فترى ولا
 حررت من رق الجهالة أنفسا
 عن الحياة على النفوس كذيرة
 يا منقذ الضعفاء من آلامهم
 جرحى على جرحى ثثن ، ألا يد
 هات الرسالة من يمين (محمد)
 وإذا الحياة تنكرت أعلامها
 إنا جهلناها ، وعنفسك عليها
 هو إذ سألت أولى المعارف : ما اسمه ؟
 زاعت بصائرنا ، فأصبح أمرنا
 نمضى على هون بكل مضلة
 والقوم إن عصف بهم أهواؤهم
 لا (الجاهلية) إذ تقادم صدها
 أقبل على الدنيا بعمد صالح
 بالمسلمين ، وأنت من آملهم
 م في النابر السب وجوانح
 نظروك فازدلفوا نهل شعوبهم
 أوما لست صدورهم فمرفقها ؟

إلا الإله الواحد العلام
 منها متاع زائل وحطام
 للنفس حرز مانع وعصام
 ما لا ينال الجيش وهو لحام
 مما تثير وتغض الأقدام
 هي بالتي يُمنى بها فتقام
 ليثت يهان عزيزها ويضام
 وأشدّها الأهواء والأوهام
 أم البسيطة كلها آلام
 تأسو الجراح ، لعلها تلتام ؛
 إنا نسيتا الدين كيف يقام
 فالدين (دستور) لها و (نظام)
 والجهل داء للشعوب عظام
 سل يذيب حياتها وجذام
 بيد الآلى نام الحياة وقاموا
 حتى كأننا في البلاد سوام
 هفت العقول ، وطاشت الأحلام
 درست معالمها ، ولا (الأصنام)
 نحيّا به الآمل ، وهي رمام
 ظمأ إليك مبرح وأوام
 وعلى المآخذ أعين أوهام
 فلكل شعب ضجة وزحام
 ومن الترائب والصدور ضرام

حال الزمان ، ودارت الأيام
 نامت سيوف للفاتحين فآزها
 طُبع بأخبار السماء ، بهيجه
 جمع الأزمنة للمصاب يقودها
 ولكل شعب إن توثب أو مضى
 بأبها العام الوليد ، ورتها
 ثم انطوت عنا وزال نعيمها
 كم مات قبلك من وليد وارث
 بقر شعوب للسليين بطائر
 زالت عن الشرق للسمود ، فلم تدم
 اضرب لنا مثل الجهاد ، وسر بنا
 هل أسلم (الهادي الأمين) قياده
 يبني ويهدم جاهداً ، ما مثله
 رفع الحياة على أساس صالح
 (أحد) و(بدر) شاهدان ، فاحلى
 هل جال في تلك المشاهد (مصنف)
 إنا لنلمح في جبينك آية
 تلك البشارة ، إن تنب فدايلها
 إن يخلف الزمن الكنود قربا
 إنا أخذنا للحياة عتادها
 لا ياتر منا الرماة بمقتل
 نسى ونعمل دائيين لقومنا

قضى الجبان ، وأحجم للقدام
 يقظ الأسته والسيوف هم
 عند الكواكب مطلب ومرام
 فكل صعب في يديه زمام
 يبنى الفريسة مصرع وحام
 دنيا ورثناها ، ونحن كرام
 فكأننا من بعدها أيتام
 وكذا تموت وتولد الأعوام
 سعد ، فاللنحس منك فقام
 أيتام فيه للنحوس دوام ؟
 نفثى الوقائع ، فالحياة صدام
 أم كان منه النقض والإبرام ؟
 في الدهر بناء ولا هدام
 و(السيف) ركن و(الكتاب) دعاء
 من يسفح الدم في الحقوق ملام
 أم جال فيها (مصنف وحسام) ؟
 مما يخطط الوحي والإلهام
 هذا الهلال الشرق البسام
 وقت الجود ، وبرت الأقسام
 ومضت بنا هم نجيش عظام
 فلنا نبال مثلهم وسهام
 نبنى القمام ، وللأمور تمام

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ
أَلَهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بَيِّنَاتٍ لِّبَنِي آدَمَ ،
وَأَنْصُرِيكُمْ أَلْوِيَاكُ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَّآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ) :

وأبنا أن نفسر لك الآية الكريمة تفسيرا يوضح معناها ويبين مقراها وإن كان موجزا ،
ثم نذكر لك بعد ذلك متمات فيها فوائد بديمة وأنظار رفيعة ، فقول :

« إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وما فيها من الآيات البينات والبدايع المدهشات
— التي ستمتع بعضها — ونخصيصها بمصا أمها التي كان يجوز عليها ألا تكون بها ، وأن تصف
باضدادها .

« وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أي تعاقبها وكون كل منهما خلقا للآخر ، أو اختلاف كل منهما
في نفسه الزيادة وانتقاصا أو ظلمة ونورا .

« وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » من التناورات المختلفة وتبادل المنافع بين
الأمم ، فيأخذ الشرق ما ثبت في الغرب ، ويأخذ الغربي ما ثبت في الشرق .

الفلك يستعمل مقردا كقوله تعالى : « فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » وجما كما في قوله : « فِي الْفُلْكِ
وَجَرِينِ بِهِم » . أما الاستدلال به فن حيث إن إلهام صنعه من الله تعالى ، وكذا العلم بكيفية
إجرائه وتسخير الريح والبحر لذلك ، أو أنه سبب الاطلاع على البحر ومجائبه . وعلى كل حال فائدة

الملك والبحر والريخ وقمل الانسان وإصلاح أمره كله من خلق الله تعالى « والله خلقكم وما تمسون » « إليه يرجع الأمر كله » .

« وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض » بتبويض قواها النامية ، وإظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والازهار والاشجار « بعد موتها » باحتيلاء اليبس عليها حسباً تقتضيه طبيعتها .

« وبث فيها من كل دابة » : معنى بث الدواب تكثيرها بالنوال والتولد .

« وتصريف الرياح » أي تغليب الله تعالى لها جنوباً وشمالاً ، وقبلاً ودبوراً ، حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وعقياً وملقحة ، مرة بالرحمة وحرة بالعذاب . وليس يخفى ما في تصريف الرياح من تربية النبات وبقاء حياة الحيوانات التي تدب على وجه الأرض .

« والسحاب المسخر بين السماء والأرض » : معنى تسخير السحاب أن الله يحسكه بين السماء والأرض ، مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفاً وهبوطه إن كان كثيفاً ، ثم يسوقه إلى ما شاء من بلد ميت فيحيي به الأرض بعد موتها .

« لايات » أي آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة .

« لقوم يعقلون » : فيه تعريض بأن من لم يفكر في آيات الله فهو بمعزل عن العقل . « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » « لهم قلوب لا يفقهون بها » الخ .

هذا وقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » . وإنما قيل آيات بصيغة الجمع نظراً إلى المذكورات كلها ، ويصح أن يراد كل واحد منها على حدة ، فإن من تأمل في هذه الآيات وجد كل واحدة منها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية ، إذ كل منها قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عدها مستتبها لا آثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده ، فضلاً عن وجوده على الوجه الخاص المستتب لتلك الآثار الجليلة وهاتيك المنافع الجليلة .

وبعد : ففي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية ، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله ، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة .

مضامين :

١ — إذا نظرت الى النهار والليل في السنة كلها وجدتهما يتساويان أى أن ساعات أحدهما في السنة تساوى ساعات الآخر .

٢ — اختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية يدفع الى اختلاف الحرارة والبرودة في الاقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فتتري الامطار تتساقط من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لدوران الافلاك وسير الشمس في البروج . وبذلك الترتيب البديع تشأ ممالك النبات والحيوان والانسان . أما الرياح فتهب فتسير السفن كما تسير السحب ، فلا يتحرك السحاب إلا بالرياح ، وهي المسخرة بالحرارة المبعثة من الاجرام العلوية .

ولاشك أن هذا العالم على هذا النسق يحتاج أدناه الى أعلاه ، فالأعلى مفيد للأسفل ، والأسفل مستمد من الأعلى ومستفيد منه ، وعليه أصبح هذا العالم كجسم واحد .

ومادورة المياه والرياح المسحرات ودورات الشموس أو الاقار الاكدورة الدم في أجسامنا . ولا جرم أن الجسم الواحد مديره واحد . فارتباط العوالم واستمدادها يدل دلالة واضحة على أن مديرها واحد لا شريك له . وقد جعل الحكماء من أدلة التوحيد وحدة النظام : « لو كان فيهما إله إلا الله لفسدتا » « إذا ذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض » .

فهذه الآية دليل على ما نطق به الآية السابقة في قوله تعالى : « وإلهم إله واحد » . فارتباطها بما قبلها كارتباط الدليل بالدعوى . وإذا نظرت الى ما فيها من النعم الكبرى والرحمة العظمى وجدتها مشيرة لحبة الله عز وجل من أعماق القلوب : « أحبوا الله لما يمدوكم به من نعمة » . ولذلك عقها بقوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله » . فما أعظم هذا التناقض ، وما أبعد هذا الارتباط ! وهذا تعلم أن ارتباطها بما بعدها كارتباط السبب بالمسبب والمقدمات بالنتيجة التي هي غاية الغايات ونهاية النهايات ، وهي محبة الله تعالى التي هي حياة القلوب وألذ من كل مطلوب . وربما أطلنا الحديث معك فيها بعد إن شاء الله .

وحدثني يا سعد عنهم فزدني شجونا فزدني من حديثك يا سعد

هوام هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

٣ — لو جعل الله الارض على غاية القرب من الشمس لم يعيش عليها نبات ولا حيوان ،

فأما على ذلك القرض تكون قطعة من جهنم ، ولو جعلها على غاية البعد لم يشع عليها نبات ولا حيوان ، لأن الشمس ضرورية للحيوان والنبات .

فانظر الى تلك الحكمة الباهرة والنعمة الظاهرة !

وإذا نظرت الى أن الأرض كانت جزءا من الشمس ثم انفصلت عنها على ما يقررونه الآن ، أخذ منك المحب كل ما أخذ من تلك الأرض التي أودع الله فيها بذور الحياة لسكل نبات وحيوان وإنسان مع كونها قطعة من الشمس التي هي نار متبهة — وليت شعري ما اتار وبذور الحياة — ثم جعلها نحرنا لسكل ما يريد . فسبحان من جعلها كنزا ثمينا نستخرج منه كل ما نحتاج اليه من لدواء ولعذاء والقواكه الشبيهة والرياض البهية وكل ما نشاء . حتى الرجال والنساء ، لأن الطافة من الغذاء والغذاء من النبات والنبات من الأرض . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنفثرون . أليس من المحب العاجب أن تكون في الأرض هذه المعجائب كلها التي لا يعرف لها أول ولا آخر ! أما جلس الحيوان والنبات فبهما من المعجائب ما لا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهورا وأجيالا . وانظر الى ما قالوه من أن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش في نقطة ماء صغيرة وتنمو هناك وتنكثر كما تعيش حيوانات البر في القفار .

فانظر وعاك الله الى مسألة الحياة . نجد أمرا مدهشا ، ونبا عجيبا . ستجد أنها لا تتوقف على حال من الاحوال . فإن قلنا لا بد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسماك ، ينقصه أننا وحدنا الحياة بلا فقار فيها هو أسفل منها كالعسكبوت والحشرات والنبات وأمثالها . وإن قلنا إن الحياة لا بد فيها من فقار في ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية لا فقار لها . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان سلبا وجدنا النمل والاسفنجيات ليست كذلك .

ثم انظر نظرة بسيطة في جسم الانسان تجد فيه المعجائب الناطقة بحكمة مبدعه وقدره خالقه . فإن في الجسم الانساني أكثر من مئتي عظم ، ولكل منها شكل مخصوص ، ولولا ما فيها من الاتقان والحكمة لعاقبت حركاتها التي تأتيها كل وقت كما نشاء . ثم انظر الى ما هو أدنى من هذا : تجد الخالق الحكيم قد جعل لاجل وصول الاصوات إليك عجائب وغرائب من صيوان وصياخ وطبله وثلاث عظمات ودهايز وقنوات هلاية وأخرى قوقعية ، وسائل ورمالات حافضات للصوت ، وعصى وشعرات في القوقعة ، وأعصاب سمعية ، الى آخر ما لا يمكننا تفصيله . والعين في تركيبها ومليقاتها وفائدة كل طبقة منها أعجب وأغرب . فسبحان الحكيم العظيم القادر العظيم !

وهي أمور لا يسع إلا الامناع اليها والدلالة عليها ، أما تفصيلها فلا تنفي به المجملات . وهل العلوم على كثرتها والكتب على تنوع ما فيها من يوم خلق الله العالم الى أن تقوم الساعة ،

والمكتشفات التي برز فيها المبرزون وسبرون منها أكثر مما يتخيلون ، هل كل ذلك بلا شرح لتلك الموالم التي أشارت إليها الآية الكريمة ؟

وحاصل القول : أننا غارقون في الآيات البينات ، والنعم الفُصُصات ، من مبدع الأرض والسموات ، ولكن لا عبادها وعدم انقطاعها لا تمت إليها ، لأن كل مبدول لا تآبه له النفس ولا يتفعل به القلب .

وقد رأينا أن نختم هذا المقال بشيء عن اللورد افبرى لاسكايزى الفيلسوف الشهير فنقول :

كلام اللورد افبرى :

« تنالت المصور ، وتولت الدهور ، والبشر معجبون مسحورون بحال القبة الزرقاء وحلاها ، يتناولون إلى إدراكها بانطباع ، ويستزلونها إلى الأرض بالقرائح ، فلم يستظلموا من أمرها ويخبروا من خبرها إلا بما هو مشوب بالآوهام وشبيه بالاحلام » .

إلى أن قال في الكلام على الشمس :

« إنها محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهي التي تبخر مياه البحر وترفعها غيوما في الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجري جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى غرسنا ، وتثير الرياح وتهيج الأنواء فتطهر الهواء وتنقيه ، وترجى النفس والمراكب في عباب المحيط » إلى أن قال :

« أما عدد النجوم فحسب المثل لما لا يحصى ولا يحصر ، وقولا كنجوم السماء ورمال البحر عددا ، ما لوف متداول والحقيقة أن النجوم التي ترى بالعين المجردة معدودة محصورة ، وهي نحو ٣٠٠٠ فقط ، ولكن المنظار المقرب يرى نحو ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ والمنظر العالى أظهر ملايين الملايين » . إلى أن قال :

« أما أبعاد النجوم وأحجامها فننقض بالعجب العجيب ككثرتها الفاتكة الخضر . فالشمس البريانية نجمة أثقل من الشمس جرما بـ مئتين مرة ، ونورها خمسون ضعف نور الشمس ، وهي أبعد منها مليون ضعف بعدها عنا » . إلى أن قال :

« وثلاث من بنات نكس : مايا والسكرات والسيون ، يعضن الشمس وينقطنها نورا ومارا : الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية بأربعمائة وثمانين ، والثالثة بألف ضعف ، أما مهبل فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسة مائة مرة . والملك الراح « المرزم » أسطع منها نمانية آلاف مرة » . إلى أن قال :

« أما السماك الراح فهو على حد علمنا أسرع النجوم سيرا وأشدها تألقا وأكبرها حجما ،
تقدر سرعته بثلاثمائة ميل في الثانية الواحدة . ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ،
وحجمه ثمانون ضعف حجمها . أما بعده عنا فتخيله لتسلك عند ما تعلم أن نوره لا يصلنا
في بضع دقائق كسور الشمس وهي على « ٩٢٥٠٠٠٠٠ ميل منا » بل في سنين (وفي لا أقل
من مائتين من السنين) . ويؤمن الفلكيون أن بمقدورنا أن نرى نحو ألف وخمسة مائة مليون
من الأميال » . الى أن قال :

« إن السماك الراح يسير ٢٢٠٠٠ ميل في الدقيقة ، أو ٣٢٠٠٠٠٠٠ ميل في اليوم » .
الى أن قال :

« ولنعلم أيضا أن في السماء غير العوالم التي تبدو قلمان ما لا يمد ولا يحصر من الاحرام
الخفية ، إما لمرط بمدىها أو صغر حجمها أو ضعف نورها » . الى أن قال :

« وقد اتخذ الفلكيون سرعة النور مقياسا عليه وأساسا لتقدير تلك المسافات المظلمة
فقالوا مثلا : إن سرعة النور ١٨٠٠٠٠ ميل في الثانية ، ومئات من السنين تمضي وتمر قبلما
يتمهي إلينا نور نرى به مصدره السديمي » . الى أن قال :

« ولئن أخذتنا الحيرة واستولى علينا الذهول لدى تأمل أبعاد الأجرام السماوية وضخامة
أحجامها وعظمة تلك العوالم التي لا تعرف لها نهاية . فكيف عسى أن نغير أذهاننا ونذهل عقولنا
إذا بحثنا في الوقت الذي انطوى دون وجودها والزمان الذي مضى عليه » . الى أن قال :

« هنا ليكسر الحساب قلعه ، وليضرب التاريخ بياعه عرض الحائط ، وليقف الذهن قليلا
والعقل مخبولا ، وليطلق الخيال في هذا المجال ولا إخاله إلا رائدا مردودا يؤثر الاحتباس
تحت القبة الزرقاء المشهودة يخبط خبط عشواء في ظلمات الأزل الشديدة » اهـ

ولنقهر القلم على ترك الجسولان في هذا الميدان فهو بحر لا ساحل له ، وسنعود إليه
إن شاء الله .

ولننل هنا قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى
من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر غاسقا وهو حسير » .

يوسف الزهرى
من جماعة كبار العلماء

جمع المذاهب الفقهية

نشر الاسناد القانوني الكبير الدكتور عبد السلام ذهني بك ، مذكروح من الزمان ، بحثا قويا تحت عنوان (التوثيق لانهوض العقبي وعذته) ، ثم شرفنا بزيارة وتحدث الينا طويلا في ضرورتنا جمع المذاهب الفقهية كلها في مجموعة واحدة ، لما يتوقع من وراء ذلك من التأثير العظيم في البيئات الفقهية في العالم كله ، عند ما يرى رجالها رأي العين سقى المسلمين الى وضع مبادئ لم تكن معروفة في التراث القديم التي تعتبر مصادر لجميع الشرع ، تقع الوضعية في العصر الحاضر ، وأرادنا على إفادة نشر هذا البحث القيم ليسكون تحت نظار أعلام الشريعة الاسلامية ، ورجانا أن نبدي رأينا فيه .

الموضوع جد خطير ، وخاصة في هذا العهد الذي تقدر فيه أقدار الأمم بما قدمته من آثار ماحدة ، في إقامة صرح المدنية العالمية ، وبما كان لعبقريه بعض آحادها ، وألجهاود بعض طوائفها من ثمرات عقلية زادت بها مادة التراث الأدبي للاسانية طافية .

وقد أثبتت البحوث الاستقرائية في تاريخ المسلمين ، أنهم أمدوا هذا التراث العام في كل منحي من مناحي النشاط العقلي والعمل ، بما لم يجارهم فيه أية أمة كانت قبلهم ، فسمجنت لهم علوما ابتكروها ، وصناعات اخترعوها ، وفنوننا أوجدوها أو جددوها ، مما أثبتنا على ذكر الكثير منه في هذه المجلة ، مثبتنا بالأدلة التاريخية عن الاجانب أنفسهم . ألا يدهش القارئ حين يقف على قول الاستاذ دبير المدرس في جامعة نيويورك في كتابه (المزاغة بين العلم والدين) : « إننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم (أي المسلمين) من الآراء العلمية ما كما نلقنه من نتائج العلم في هذا العصر » ؟ وقول الفيلسوف الكبير هوستاف لوبون في كتابه (تاريخ العرب) : « إنهم في كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شاف فيها إلا أن » ؟ وقول المؤرخ الانجليزى الكبير جيون : « كان من أثر تنشيط الأشراف المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى الى فارس وقرطبة » ؟ وأنت خير بما يقوم في كل هذه المسافة من أمم وشعوب مختلفة اللغات والاجناس والألوان .

غير انه توجد ناحية من نواحي النشاط العقلي لا يأبئها الأولين ، لم ينأت للباحثين الأوروبيين سبر غورها ، وليست بأقل من سواها قيمة تاريخية ، نخبطوا فيها خبط عشواء ، ألا وهي الناحية الفقهية . ومن أبشع مظاهر هذا الخبط ، زعم جمهور أن الشريعة الاسلامية منقولة عن القوانين الرومانية .

أما السبب في هذا الخبط في نظرنا فهو يرجع الى الصعوبة العظيمة التي يمانها كل مستشرق في تفهم الكتب الفقهية ، وفي الوقوف منها على أصولها الاولى ، فكثرتنا الفقهية لا تزال

من ناحية الترتيب على النحو الذي كانت عليه أيام صدورهما لغة وثموبيا ونظاما ، وزادها الشراح والمحشون والمعلقون تركبا ، فأصبحت صعبة المآخذ ، متوترة المسالك ، لايسهل الأخذ منها إلا على العلماء المشتغلين بها ، فإذا اعتبر العمل الذي قام به المرحوم قدوري بأشأ من تلخيص مذهب الامام أبي حنيفة عظيما ، فاذك إلا بسبب الجهد الذي قام به في استخلاص ما تصدى لجمعه من أحكام ذلك المذهب من كتبه المقررة .

فإذا كان هذا شأن العالمين بالعربية ، والمحاورين لأعلامها ، فما ظنك بالاوربيين الذين لم يالفوا هذا الضرب من التأليف ، ولم يسمفوا بمن يهذبهم الى طرق الأخذ منه ، فاضطروا الى الانصراف عنه ، وصار كل مايقولونه عنه رجما بالغيب ، ليس فيه أثر من التحصيل ولا التحليل ؟

وعليه فالحاجة أصبحت ماسة جدا الى وضع كل مذهب على حدة ، وضعا يتفق وما اعتاد أهل لعصر الحاضر أن يروا عليه المؤلفات العلمية ، ثم جمع تلك المدايب وجميع الآراء الفقهية التي سبقتها وانتهى بمجموعة واحدة ، ليسهل على المشتغلين بالامور الفقهية الاستمداد منها ، ويستطيع الاجاب الاطلاع عليها . وهذا مايدعو اليه المستشار الفاضل عبد السلام ذهني لك في مقالته المنشورة هنا . ولست بعد ذلك أشك في أن شهة القائلين بأشتقاق الفقه الاسلامي من الفقه الروماني تضمحل وتلاشي ، وتتحل عظمة الشريعة السمحة جليلة واضحة تبهر الانظار ، وتستهوي الأبواب ، ويشهد الوجود لها بانها الشريعة الخالدة ، فتحل محل الفقه الروماني في إمداد جميع الشرائع بالاصول والمبادئ القانونية .

الفقه الروماني :

لا أنكر أن الرومانيين وجهوا عناية خاصة الى دراسة الامور الشرعية ، وكان لهم من اتساع دائرة ملكهم ، واختلاف الاجناس الواقعة تحت سلطانهم ، وضرورة سن نظم لحفظ هذه الجماعات المتباينة أصولا ومادات ولفات في دائرة معاملات مرنة ، ممرح فسيح للشر الفقهى ، ومحال صالح ائتمية الأملعية الاشتراعية ، ولكنتهم مع كل هذه الوسائل لم يخرجوا في تاصيل أصولهم ، وبناء قواعدهم ومبادئهم عن الدائرة التي كانت محصورة فيها جميع الشرائع ، وهي دائرة الحق للقوة حيث كانت القوة في الفرد أو في الجماعة . فالسراة والمحاربون كانوا أقوى من العامة ، ولذلك خصوا بامتيازات وحقوق حرم منها أفراد الشعب ، حتى كان العامة يضطرون للدخول تحت حماية السراة ، فكان لكل منهم حام يحميه إذا لحقه ضيم .

ومبدأ الحق للقوة يقتضى تقسيم الناس الى طوائف ، لأن القوة تتفاوت درجاتها ، فكانت هذه الطوائف تنعم بالامتيازات ، على حين أن عامة الشعب يوزحون تحت جميع الاعباء الاجتماعية .

وكانت العقوبات مناسبة لهذا التقييم ، فما تحكم فيه الشريعة بالقتل على أحد العامة ، كانت تخفف فيه العقوبة إذا صدرت من أحد أفراد الخاصة ، حتى قد لا يحكم عليه بأكثر من النذير الكلاسي .

ولما كان الأب أقوى أفراد الأسرة فقد خول كل حق على زوجته وأولاده وعبيده ، حتى حق معاقبتهم بالقتل .

أما الأرقاء والاعاجيب فلم يكن لهم أدنى حق أمام القانون .

ولما كانت الدولة أقوى من ممتلكاتها ومستعمراتها ، فقد كان لا حد لسلطانها عليها . نعم إن هذه الشريعة قد هذبت من مبادئها في خلال القرون السكثيرة التي عاشتها ، ولكنها فعلت ذلك تحت ضغط ضعفائها الذين كانوا كثيرا ما يهجرون المدن ويمتصمون بالجمال ، مضربين عن الحياة مع الخاصة ، فكانوا يسترضون بتلطيف بعض الاحكام الشرعية . وعلى كل حال فان هذه الشريعة لم تخرج قط عن مبادئها الاولية ، وأصولها القانونية .

ولكن الشريعة الاسلامية بنبت من أول وجودها على الحق المطلق ، فهي لا تعتمد بالاحوال والملايسات التي تحيط بالساس ، وتمنى بتقرير الحق لصاحبه أيا كانت حاله وجنسه وديانته وثقته ولونه . فامامها الشريف والوضيع والخاص والعامى ، والعالم والجاهل ، والحر والعبد ، والكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، سواء .

هذا المدأ الاسلامى كما سرى على الافراد ، سرى كذلك على الجماعات ، فالأمة صاحبة السيادة ، والامم التابعة لها سواء كذلك فى الحقوق والواجبات ، وقد مرح أمير المؤمنين عمرو بن الخطاب بهذا المبدأ عند ما أمر أن يقتل أحد المصريين من ابن عمرو بن العاص قاتله : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟ وخطب يوما فقال :

« أيها الناس . إني والله ما أُرسل محالا إليكم ليصبر أو أشارككم ، ولأليحذوا أموالكم ، ولكى أرحمهم اليكم ليعلموكم دينكم وملتكم ، ويقضوا بينكم مالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقتنه منه (أى لأجعلنه يقتل منه أى يضربه كما ضربه) .

فوقف عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين : أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ، فادب بعضهم ، إلك لتقتنه منه ؟

فقال عمر : « إى والذى نفس عمر بيده ، إنى لأقتنه منه . وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل من نفسه » .

فالشريعة الاسلامية لا ترى إلا الى تحقيق العدالة باخص معانيها . وأن هذا من الشرائع

الوضعية التي تقدمتها ، وهي لا تنظر الى العدالة إلا من خلال حجب كثيفة من السيادة القومية ، والقوارق الطائفية ، والامتيازات الوضعية ؟ فإذا كانت العدالة في الشريعة الإسلامية تعتبر أمراً عملياً لا ممدى عنه على إطلاقه ، فإنها في الشرائع الوضعية تعد مثلاً أعلى يتقرب منه ولا يوصل اليه ، والفرق بين الحالتين كما بين الحقيقة الواقعة والخيال . ومدى هذا الفرق يقين من الحادثة الآتية :

أسلم جيلة بن الأبيهم ملك قسان وكان نصرانياً ، وبينما هو يطوف بالبيت طلى بدوى على ذيل رداءه . فمز ذلك على جيلة فطم البدوى على وجهه ، فرفع هذا أمره الى عمر ، فاحضر جيلة وسأله فاعترف ، فحكم عليه أن يطمه البدوى كما فعل به . فقال له جيلة : أئسوون بين السوقة والملوك ؟ فقال له أمير المؤمنين : ليس في الإسلام أمام العدالة سيد ومسود .

فممر طبق المثل الأعلى من العدالة ، لم تقطعه عنها الملابس والاضاع البشرية ، ولكن هذا التطبيق محال في جميع الشرائع الوضعية ، وربما عده بمصهم لغاية الأهواء على تقويمهم مملاً وحشياً .

فأساس العدالة في الشريعة الإسلامية تطبيق المثل الأعلى نفسه ، ولكن أساسها في الشرائع الوضعية تطبيق ما يقرب منه ، وربما قذفت بها الأحوال الى ما يبعد عنه . وهذا مشاهد محسوس حتى في شرائع هذا العصر ، فساطك بشرى اليونان أو الرومان في العصور البعيدة عنا ؟

فكيف يطوف برأس متجمل أن الشريعة الإسلامية مشتقة من الشريعة الرومانية ، مع اختلافهما في فهم معنى العدالة وتطبيقها ؟

فلقد يحوز العقل أن يقتبس الفقهاء من الشرائع السابقة بعض الأساليب والوسائل المؤدية لتحقيق الحرام ، أو لكشف شبهاتها ، أو لتنظيم نفاذ القضايا والمرافعات الخ . كما يقتبس فقهاءنا الآن الطرق الجديدة المفضية الى تنظيم عمل المحاكم الشرعية . فهذا وأمثاله لا يقال عنه أخذ شريعة من شريعة ، فإن الشرائع شيء ، وما يحيط بها من نظام التحقيق والمرافعات والتطبيق أشياء أخرى لا تمس الجوهر في شيء ، بل لا ماس من لامة نشأة جديدة ، وقد اقتبس النبي صلى الله عليه وسلم كل ما بلغه من الأساليب الحسنة في الحرب ، وأمر باقتباس كل حسن من كل قبيل ولو كان مشركاً .



نعود الى ذكر جمع المذاهب الفقهية فنقول : إن تحقيق هذه الرغبة يعتبر من أجل الاعمال وأبعدها أثراً في خدمة الشريعة الإسلامية . فإذا كان نخباء المسلمين يتزعون اليوم الى بناء القوانين والنظم على مبادئ القومية ، فهذا لا يمكن حصوله إلا بعد أن يتجلى لامة المشرعين

في هذا العصر أنها أجمع الشرائع لأقوم الأصول، وأسمى المبادئ الاشتراعية، وهذا لا يتحقق وكتبها على الحالة التي هي عليها اليوم من التأليف والوضع، فلا بد من إعادة صياغتها على الأسلوب الذي ياله جبهة المتعلمين في هذا العهد، ووضع جميع أصولها ومبادئها مرتبة بحيث يسهل فهمها ومراجعتها عند الحاجة، مع التنبيه على ما أخذها من الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وبيان وجوه الخلافات في جميع المذاهب وعليها. إذا تم هذا العمل فلا شك في أن العالم سيدهش من تفوقها على جميع الشرائع الوضعية، وسبقها إلى الأصول والمبادئ التي تحسب عصية بحتة، ويكون ذلك باعثاً لراكين الشئون الفقهية في العالم المنحدن إلى الاعتراف بفضلها والاقتناس منها، فإن نزاعاً بعد ذلك إلى جعلها أملاً لقوانيننا ونظمنا، لم يحتاج أحداً شك في أننا نتحرى بذلك أحسن المصادر وأكملها.

ولكنا نخالف الدكتور العلامة ذهني بك في توجيه طلب هذه الرغبة الكريمة إلى معالي وزير الحفانية، ونرى وجوب توجيهها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، فإنه يعتبر قيم الشريعة الإسلامية وشيخ أسياسها وأعلامها، وهو أعرف من سواه بالصالحين من رجالها للقيام بهذه المهمة الخطيرة، ومن حسن الاتفاق أن تصدر هذه الأمنية في عهد الأستاذ الإمام المصلح الكبير الشيخ المراغي، فهو بقدر عظمة هذا المشروع حق قدره، ويستطيع بما أوتيته من اطلاع بعيد المدى على أسرار الشريعة، وقدره فائقة على تذليل العقبات، أن يهون كل صعب في سبيل تحقيقه، متى رأى أن الوقت قد آن للشروع فيه.

محمد فريد ومجدي

فقرات بليغة لبعض الأكابر

- قال ابن عباس رضي الله عنه : الرحمة من الله صدقة ، فلا تردوا صدقته .
وقال : لكل داخل هبة ، فأبدوا بالتحية ، ولكل طاعم حشمة فأبدوا بالمعنى .
وقال ابن مسعود : الدنيا كلها هموم ، فما كان منها في سرور فهو دمج .
وقال عمرو بن العاص : من كثر إخوانه كثر غرماؤه .
وقال : أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم العار والنار .
نقول : لنا رى هذا الرأي فإن السفهاء إذا أكرموا استهتروا في غيهم ، وأمعسوا في بغيهم ، فأيكفوننا من العار والنار يكفينا الله بياها بكمال الرجولة ، وتتمام الفضيلة .
وقال المغيرة بن شعبه : العيش في لقاء الحشمة . وفي كل شيء سرف إلا في المعروف .
وقال مصعب بن الزبير : التواضع من مصايد الشرف .

التوثيق للنهوض الفقهي وعده

الرق الفقهي عنوان التشريع السليم

صدر التجميع أول من حل النهوض القانوني والتشريعي -
التجميع الروماني وجوستنيان والتجميع الاسلامي والحمد الحاضر - خلود
الفقه الروماني وديونه العالمي من القرن السادس الميلادي ثلاث - ضرورة
التجميع الفقه الاسلامي في المعاملات هي ضرورة خلود وديونه - التجميع
لروماني وجوستنيان والتجميع الاسلامي وقانون

كان الملك بوخوريوس مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين أول من جمع شتات القوانين وأمر بتعديلها تعديلًا يتماشى مع مقتضيات زمانه ؛ وقد سميت مجموعته مجموعة قوانين بوخوريوس ؛ وكان التعديل التشريعي مشعبًا بروح قوانين حكمائه الآشوريين والسكندانيين ؛ وكان أظهر مكان للتعديل والاحذ بالاصول السكندانية والآشورية هو الجزء الخاص بالالتزامات على اعتبارها الاصل الاول للقانون ، وعليها تركز أسس المعاملات ، وفيها تنحلي وحدة التشريع العالمي إن صححت الاحلام يوما واعتسقت الشعوب جملة أصولا واحدة في المعاملات مصدرها أصول الالتزامات العامة ، كما يرغب في ذلك الاستاذ المعروف ادوار لامبير في بحثه المستفيضة ، وسميت بمجموعة بوخوريوس فيما بعد عند الاغريق بقانون لمقود .

ومن سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد حكم مصر أميس الثاني أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين ، وأصدر هو الآخر مجموعة سميت باسمه ، أي مجموعة أميس .

ومن سنة ٤٠٥ الى سنة ٣٩٩ جاء ملك نغريت مؤسس الاسرة الثامنة والعشرين وأعاد العمل بمجموعة بوخوريوس بعد تعديلها وتمذيبها .

ويقول المؤرخون بل يؤكدون أن العمل بمجموعة بوخوريوس نغريت - ظل قائما في بعض العصور الرومانية حتى سنة ٢١٢ ميلادية .

وقد تأثرت تشريعات البلاد القائمة على شواطئ البحر الابيض المتوسط بالاصول التشريعية المصرية بالرجوع الى بوخوريوس ، وبوخوريوس نغريت . وقد أخذت التشريعات الاغريقية شيئا كثيرا عنها ، أي أن الاخذ التبادلي التشريعي كان معروفا لدى المصريين والاعريق . وظل للتشريعات المصرية القديمة أثرها في التشريعات الرومانية حتى سنة ٢١٢ م كما تقدم . وأكثر الاغريق من الاخذ من التشريع المصري القديم عندما حضر لمصر مشرعهم المعروف سولون ، ثم ماد ليلاده بعد ذلك وهو يحمل في رأسه ما شاءت له قدرته العلمية القانونية من

الآثار التشريعية المصرية ، حتى ذاعت الاصول القانونية المصرية القديمة ذيوها ظاهرا الاثر في التشريعات الاغريقية .

لم يقف أثر التشريع المصرى القديم عند الاغريق لحسب ، بل ذهب الى روما كما تقدم ، ولما قام هيرودوت وأشادى الالامب الاولمبية بمناة التشريعات المصرية ، وأخصها بمجموعة أحسن ، التفت الرومانيون الى ذلك واقتبسوا منها شيئا كثيرا وأودعوها بمجموعة الاثنى عشرة لوحة الموضوعة سنة ٥٤٤ — ٤٤٩ قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كان فيه أحسن الثانى يحكم مصر باعتباره أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين .

ومجموعة الاثنى عشرة لوحة الموضوعة قبل التاريخ الميلادى بأربعة قرون ونصف قرن هى أول مرحلة من مراحل عهد التجميع عند الرومان ، حيث قامت بعملها جماعة من أشرافه الرومان ، وعدد أفرادها عشرة ، صاغوها وأفرغوها فى قالب تشريعى وقدموها لمجلس الشعب ، وعلقت بمسد ذلك بالسوق العام ، ثم أحرقها الفاليون عندما أحرقوا روما سنة ٣٩١ قبل الميلاد . والقوالب الموجودة بعد إنما هى صورتها لأصلها .

من هذا يتبين أن التشريع المصرى القديم دخل بلاد الاغريق وبلاد البحر المتوسط ودخل روما وظل العمل آخذًا باصوله حتى سنة ٣١٢ م .

ولعل السبب فى هذا انقرب التشريعى إنما يرجع الى قاعدة التجميع ، وهى حصر الاصول المشتقة وتعديلها وتهذيبها وتعديلا يشابه مع ظروف عصر التجميع ، مع بيان الاصل منفردا والتعديل بعده . وأخذ الرومان من أربعة قرون ونصف قبل الميلاد الى القرن السادس بعد الميلاد — أى عصر جوستينيان — يعملون فى تهذيب الاصول القانونية وشرحها شرحا مستفيضا ، حتى استفاضت البحوث ، وذاعت التفسيرات العلمية ذيوها عظيما ، وكثرت المؤلفات الى أن بلغت أثنى مئة تقريبا . فأمر الامبراطور جوستينيان بتلخيصها فقها وتشريعا ، وجمعت فى أربع مجموعات فى النصف الاول من القرن السادس . وكان ومازال أهمها المجموعة الفقهية فى تقرير الاصول القانونية ، وهى مجموعة الديجست أو الباندكت ، عبارة ما أخرجته أدمغة مهترعى الرومان مدة عشرة قرون ، أربعة قبل الميلاد وستة بعد الميلاد ، وقد أصبحت هدى للشعوب الحاضرة حتى قال عنها المشتريخ « اهرنج » الالماني : إن القانون الرومانى أصبح عنصرا لازما من عناصر المدنية .

وقد عنيت به درسا وتحليلا الام الأوريسية فى القرون الوسطى ، وعلى الاخص جامعة بولونيا فى القرن الحادى عشر ، وأطلق على أمانذتها الشارحون اسم جماعة الشارحين أو أصحاب الحواشى ، وعلى رأسهم العالم الايطالى « اينريوس » ، وجاء بعده الشارحون الاربعة المعروفون ودون الكل أبحاثهم فى مجموعة عرفت بمجموعة « آكورس » . ثم أعقهم الشارحون

للمشاهير السابقين وظهروا في إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولعل أشهرهم الإيطالي « بارتول » الذى كان له القدح الممل فى التعاليل والشرح . وفى القرن السادس عشر نبغ فى القانون الرومانى من حيث الشرح والتحليل وتعب المصادر عدد غير قليل من العلماء فى إيطاليا وألمانيا وهولاندا وفرنسا ، وعرف فى هذه الأخيرة على الأخص العالمات « دوما » و « بواتيه » الذى طبقت شهرته الآفاق العلمية والأوساط القانونية حتى اعتبر مصدرا للقوانين الفرنسية الموضوعة سنة ١٨٠٤ وأحصاه القانون المدنى . وفى ألمانيا نبغ فى القانون الرومانى من الناحية التاريخية والفلسفية ، وذلك فى القرن التاسع عشر ، العالمان الشهيران « سافيني » و « اهرنج » .

وفى الوقت الذى بلغ فيه الفقه الرومانى والتشريع الرومانى هذا المبلغ العظيم ، وهو القرن السادس بعد الميلاد ، لما يظهر بعد التشريع الإسلامى ، ولما تظهر العلوم الفقهية الإسلامية . وزيد هنا بعبارة الأصول الفقهية الأحكام القانونية والمبادئ الأصلية الخاصة فقط بالمعاملات وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض أو علاقاتهم بالحكومات ، أى بحثنا مقصور على غير ما يتناوله البحث الذى البحث .

ويظهر لنا من استقراء التاريخ أن الأصول العلمية الفقهية والأحكام التشريعية الإسلامية لم تظهر ظهورا جليا معينا إلا فى العصر المسمى بالعصر العلمى الذى بدأ بظهور الدولة العباسية حوالى أوائل القرن الثامن الميلادى (سنة ١٣٢ هـ ٧١٣ م) حيث ظهر الأئمة الأربعة وراجت مذاهبهم ، وأذاعها تلاميذهم ومريدوم ، وآخر المذاهب الأربعة مذهب الامام ابن حنبل ، إذ ظهر فى أوائل القرن التاسع الميلادى .

وفتح العرب مصر ، وكانت مصر قبل دخولهم مسووسة بالأصول القانونية الرومانية . وبدخول العرب زال التشريع الرومانى ، وحل محله التشريع الإسلامى ، وأخذ فيها على الأخص بمذهب الامام الشافعى ، ثم بمذهب الشافعية ، وأخيرا سادت المذاهب الأربعة فى القرن الميلادى الثالث عشر فى عهد الظاهر بيبرس (سنة ١٢٤٤ م) .

ولما دخل المماليك مصر حملوا معهم القوانين التترية ، وفى طبيعتها مجموعة الأحكام التى وضعتها ملك التتر جنكيز خان ، وهى المعروفة عند المصريين فى ذلك العهد بالسياسة ، واسمها الحقيقى الياسة ، على أنهم أبقوا العمل بالشريعة الإسلامية بجانب القوانين التترية .

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ١٥١٦ م أخذوا فى تطبيق الأحكام الشرعية الإسلامية ، واعتبروا مذهب الامام أبى حنيفة المذهب الرسمى .

ولما دخل الفرنسيون مصر فى حملتهم المعروفة أحدثوا انقلابا خاصا فى النظم المالوفة ، ولكنهم عادوا وأخذوا بنظام القاضى الشرعى من حيث تحديد دائرة اختصاصه .

وفي عهد محمد علي ذاعت أحكام الشريعة الإسلامية، ووضعت قوانين أخرى يحاكيها كانت تدهو إليها حالة تطور البلاد، وأخيرا وضعت القوانين المختلطة سنة ١٨٧٥ أخذنا عن القوانين الفرنسية، ووضعت القوانين الأهلية سنة ١٨٨٣ أخذنا عن القوانين المختلطة مع بعض التعديل من القانون الإيطالي في المرافعات .

ومن هذه الممجة الشريعة نرى أن التشريع المصري القديم دخل بلاد الاغريق وبعض بلاد البحر الابيض المتوسط، وتسرب الى روما، وانتسب الى القوانين الرومانية من أربعة قرون قبل الميلاد وقرنين بعد الميلاد . وظهرت الشريعة الإسلامية عذاهبها لأربعة المعروفة ابتداء من القرن الثامن لميلاد، أي بعد مضي قرنين على عهد النجمي التشريعي الروماني في عصر الاءبراطور جوستنيان . ثم دخلت الشريعة الإسلامية مصر بفتح العرب لها، وبقيت بها بعد فتح العثمانيين ودخول الحلة العرفناوية فيها، وظلت قائمة للآن .

ولما قامت المذاهب الأربعة وتعددت التفسير بعد ذلك، وأخذت طوائف العلماء بحول وتصول في البحث والتحليل في أصول الأحكام الشرعية من حيث المعاملات، غمرت الكتب البلاد العربية، وتشعبت البحوث، وفاضت الآراء حتى كثرت كثرة زادت بكثير على الكثرة الفقهية الرومانية . وإذا كان الرومان قد أحسوا في القرن السادس للميلاد بضرورة التجميع واختصار المؤلفات المديدة للامام بها إماما سريعاً، ولحفظها مع الزمن حتى لا تفتى فيه فناء يطويها لا تعود بعده الى الوجود، فكان أجدي الآن على أهل النظر في مصر أن يفعلوا في مؤلفاتهم الإسلامية الشرعية ما فعله جوستنيان، وعلى الاخص في هذا العصر عصر الاستقلال والنهوض بمصر بعد تحريرها من قيود غلت أيديها زماناً طويلاً .

وإذا كان وزير المعارف الحاضر قد عني العناية كلها بالاشراف على طبع بعض الكتب الأدبية العربية القديمة، والمساهمة في النهضة العربية مساهمة سنكون لها آثار قيعة فيما بعد تسجل له أريحيته وتحسده له ذكراه في الأيام المقبلة، فإن وزير الحفانية الحاضر، وقد عرفت له نحوه لبلاد، وقد رت له عزته الحق، جدير به أن يعني هو الآخر بأحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات، وأن يعمل على تكوين لجنة على رأسها قانوني بارع معروف، كما فعل جوستنيان في أوائل القرن السادس لميلاد، لتقوم تلك اللجنة في ظرف أشهر معدودة في جمع الكتب الخاصة بالقانون وأحكام المعاملات لتلخيصها جميعها، والاشارة في كل مبدأ الى واضعه وشارحه، ووضعها وضما موحزا محكما بالاسلوب الذي سار عليه جوستنيان، فتذيع بعد ذلك الأصول الشرعية الإسلامية ذبوعا يحوي مواتها، ويعيد إليها حياة الماضي المحيد، وتصبح بعد الآن مراجع سهلة للقاصدين وجماعات الباحثين، ويكون لها من الشأن ما كان للأصول الرومانية من الذبوع والشهرة وبعد السمعة بعدا جعل روح التشريعات الرومانية في أصولها ومبادئها

يتغلغل حتى الآن في الشرائع المصرية الحاضرة . وأصبحت الاحكام الرومانية في الوقت الحاضر وقلة أحكاما عامة دولية اعتنقها وتمتعتها الشعوب ، على ما بين هذه الشعوب من الاختلافات في التقاليد والعادات والاخلاق .

ومهمة التجميع التشريعي الاسلامي فيما يتعلق بالمعاملات أصبح ميسور العمل الآن بعد هذا الجهد الجليل الذي قام به وحده المشرع المصري القدير قدرى باشا ، وتلك مواده التي وضعها في المعاملات والوقف وغيرها خير هاد ومرشد لما نشير اليه .

إن بحوث أهل الشريعة الاسلامية في المعاملات مستفيضة بكثرة لاحد لها ، وفيها كنوز قيمة من البحوث العلمية والعملية في المعاملات هي أكبر تراث تركه الآباء في البلاد الناطقة بالفتاد .

ولما كنت مدينة ليون طالبا في قسمي الدكتوراه في سنة ١٩١١ الى سنة ١٩٢٠ كان أستاذنا « لامبير » يشير دائما على المصريين أن يعنوا بوضع رسائل الدكتوراه في الشريعة الاسلامية ، وكان يرى ولا زال يرى أن الكتب والمؤلفات الموضوعة في الشريعة الاسلامية في المعاملات هي كثر لا يفتنى ومنبع لن ينضب ، وأنه خير ما يلجأ اليه المصريون في العصر الحاضر في البحوث العلمية ، حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمي الذي أخذ الزمان يلويه بحكم الاهمال وعدم العناية به .

وقد أنجرت نصيحة الاستاذ لامبير عند أول طالب مصرى تتلمذ عليه وأخذ القانون عنه ، وهو المرحوم الدكتور محمود فتحي الحامى بينى سويى ، إذ وضع رسالته في الدكتوراه في مذهب الاعتراف في استعمال الحق والخروج عن حدود الحق في غير ماشرع له الحق ، وذلك سنة ١٩١١ . وما كاد يظهر كتابه سنة ١٩١١ ويذيع في ألمانيا على الأخص حتى تقدم في نصف عام . وكتبت عنه المحلات القانونية في ألمانيا كثيرا ، وأشادت بالعظمة القانونية الاسلامية . وأذكر أن مجلة نشرت مقالا لعالم ألماني في القانون وهو « كهر » ذكر فيها أن الألمان كانوا يتبهون محبا على غيرهم في خالق نظرية الاعتراف في استعمال الحق والتشريع لها في القانون المدنى الألماني الذي وضع سنة ١٧٨٧ . أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي وأفاض في شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الاسلامي وأبان بان رجال الفقه الاسلامي تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد ، فانه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ الى أهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية .

وهاهو ذلك المصري الآخر الدكتور محمد صادق فهمى بك القاضى والمحكم المختطة قد أخرج رسالته في الاثبات باللغة الفرنسية سنة ١٩٢٣ ، وأرصد الجزء الأهم فيها لما قرره علماء

الشريعة الإسلامية ، وعلى رأسهم ابن قيم الجوزية في كتابه أعلام الموقعين . فلما عرض على اللجنة وأقرته ، مهرة أستاذة « ليني أولمان » الأستاذ المعروف بكلية الحقوق بباريس بمقدمة نشرت في صدر الكتاب فيما بعد بكفي في مطالعتها أن يدرك المصري مآل الشأن المؤلفات العربية القديمة من حسن التأثير في أذهان الاجاب ، الأمر الذي جعل صاحب المقدمة لا يتردد في القول ، لما رآه من مناعة الاستنتاج وقوة التدليل . إن كتاب الدكتور صادق حدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة . كل ذلك على اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدرا حيا للقانون المصري ، ومناطاً للحق في أدواره المختلفة .

وأذكر أنه عندما مأم أحد المصريين سنة ١٩١٤ بوضع رسالة في مسئولية الدولة بكلية الحقوق في ليون ، وأراد أن يعالج هذا البحث في كتب الشريعة الإسلامية ، اتسعت وفندك أمامه وحده التمهيد حتى رأى أن يقصر رسالته مؤقتاً على حصر الموضوع في القوانين الحاضرة على أن يرجع فيما بعد إلى معالجه في الشريعة الإسلامية . وقد كتب رجال الفقه الإسلامي في مسئولية بيت المال ، وهي نظرية مسئولية الدولة في أحدث رأي لها الآن ، وهو الرأي القائل بمبدأ الخطأ ، شيئاً كثيراً بحيث لو لم يجمع وشرح وطرح البحث بما يحد عمل من تقدمنا من الأكباء والأجداد ، وبما فيه إحياء لمجد ينحصر لولا نهاية تأتي في مثل هذا الظرف الذي تسير فيه بلاد مصر الآن ، فتدعو الضرورة في وقت التجميع إلى جمع الأصول القانونية الإسلامية المشتقة ، وحصرها في ملحقات معينة ، فيعود للشريعة مجدها الثالث ، ونحيا عظمتها حياة ترفع رهوس الساطقين بالضاد في وقت نحن أحوج فيه إلى الجمع بين محمد بنبيه ، ومحمد سابق في أيدينا نستبقه . وإن أس غاي لا أنسى أن ذلك المصري لما أراد أن يضع بحثاً مستفيضاً في نظرية المسئولية الخاصة بين الأفراد ، وأراد أن يرجع فيها إلى ما كتبه علماء الشريعة الإسلامية ، وجد كتاباً موضوعاً في ذلك البحث وحده ، أذكر الآن أن عنوانه « مجمع الضمانات » أعاد طبعه بالمطبعة الحكومية مستشار سابق محكمة استئناف مصر الأهلية حوالى سنة ١٨٩٨ . وفي هذا الكتاب وحده أتى وأصحه بما شئت له قدرته العلمية من آراء مختلفة في المسئولية ، وحوادث القضاء والفسد ، والحوادث القهرية والقوة الاجبارية ، وذهب في تحليل الأحوال التي يمكن أن تقع في عالم الحياة ، مذاهب شتى ، وكان يرجع في تقرير الرأي ووضع الحكم إلى أصول علمية قانونية تحير الفكر ويقف القارئ أمامها محالاً لمجد إنجابه .

وكلنا يعلم أن هناك من الكتب الإسلامية في المعاملات ما لا يكاد يحده حصر ويحيط به بحث . فإذا تكون عظمة مصر لوجعت هذه الكتب في ضوء مجموعات قدرى بأشأ ، ذلك الرجل الخالد حقيقة ، ولخصت وأوجرت كما وضعت الديجست الرومانية ؟ إنها تكون عظمة هذه تاريخ مجد جديد لمصر . وهل لوزير الحفانية رجل للقانون والفقه والدرس والاربعية أن يكون له

البداية في إقامة صرح هذا المجد ، فيأمر بالمعاني بالمعاملات في الشريعة الإسلامية وتكوين لجنة أو لجان لتلخيصها ؟ إن الأمر ليس مستحيلا . وها قدرى باشا قد عمل وحده بعد اثني عشر قرنا من عمل جوستينيان ما يمد الآن صرحا قانونيا خالدا في الحق والواقع .

إن البلاد تشرع الآن تشريعات جديدة لعهدا الجديد ، أو ليس من الجدير بعظمة مصر العربية وعظمة أجدادها حملة العلوم القانونية الإسلامية ، أن يكون بين المشرعين الحاضرين « ديجيست » و « باندكت » إسلامية تعيد مجد الاقدمين ، وتذكر الحاضرين لملوكهم وتفوقهم القانوني الخالد ؟

إن الفرصة سانحة لدى وزير الحقانية ، إذ تستطيع اللجنة التي تشغل لمن قوانين عصرية في الاحوال الشخصية تلثم مع العصر الحاضر وزماته وملابساته ، أن تقوم أيضا هي بنفسها أو تقوم بجانبها لجنة أخرى تعمل على جمع الكتب وتلخيصها فيما يتعلق بالمعاملات ، وتعاون اللجان مما على الجمع والاختزال ، إذ درج علماء الشريعة الأسبقون على الجمع مما في الشرح بين المعاملات والاصول الدينية . فإذا حملت اللجان الواحدة بجانب الثانية أخرجت لنا كل منهما ديجيست وباندكت إسلامية : إحداها خاصة بالاحوال الشخصية ، والاخرى خاصة بالمعاملات . والأمر في ذلك ميسور كما قدمنا ، لأن كتب قدرى باشا من خير ما يلجأ اليه العاملون في وضع هذه المجلات الإسلامية . وستكون الديجست والباندكت الإسلامية خير معوان أيضا للجنة القوانين المدنية ، إذ تستطيع هذه اللجنة الأخيرة أن تمندى وتسترشد بما يوجز في هذه الموسوعات الإسلامية في المعاملات ، فتخرج القوانين المدنية الجديدة وقد أشبعت بروح الاصول الإسلامية التي تفللت في البلاد من قديم تفللت ظهرت آثاره بالقوانين المدنية المصرية الموضوعة سنة ١٨٨٣ — كما في الصور المشتركة والحوالة ، وأصبحت أيضا بجانب روح الشريعة الإسلامية بروح أصول علم القانون المقارن بالمعنى الذي أراده الاستاذ القدير « ادوار لامبير » والذي حمل على إذهائه وإعائه من سنة ١٨٩٥ الى الآن حتى بعد بلوغه سن التقاعد سنة ١٩٣٦ ، وأصبحت أخيرا بالاصول التي قررت أحكام القضاء الاهلي والمختلط بما لا يتناقى مع النهضة القومية الحاضرة ، وبما لا يتعارض مع النزعة الاستقلالية الواسعة التي أخذت بادعة الافراد وأصبحت عقيدة راسخة لا تنزعزع .

إن حمل وزير المعارف من جانبه في الأخذ بيد الزعة الادبية الحاضرة في إحياء موان الحياة الادبية الفائرة ، وفي إذكاء نور النهضة الحاضرة ، من إعادة طبع كتب قديمة ، ومن الاطاعة بمجهودات أهل الفكر والانتاج الادبي في عصرنا الحاضر — هذا العمل له وجهته من الناحية الادبية ، وله أثره في تغذية النهوض الحاضر من ناحية الادب ولا محالة .

وإذا قام وزير الحقانية بما رجونه منه ، وسامم هو الآخر من جانبه في إقامة صرح النهضة

الحاضرة ، فاحيا موات الاصول القانونية التي أقرها علماء الشريعة الاسلامية في المعاملات ، وشاد لنا صرحا نفيا من صروح العظيمة القانونية ، وهو قائم بها على ما اعلم ، وما عرفناه فيه من ماض عديد ، وزعة قومية وثابة ، وخلود الى القومية المصرية ، فان مصر تفتبط إذ ذاك كل الاعتبار حقا ، وتمتدح لبنها باخلاصهم لها وحبهم إياها .

إنا نحن المصريين من قانونيين وغيرهم نرقب توثيق النهضة الحاضرة من شغف ودرجة في الوصول الى المبتغى ، ونرجو أن ينصف وزير الحقانية مصره الخالدة بأحكامها الشرعية الخالدة ، وقدرى باشا خالده ، ونرجو أن يخلد بجانبه غالب باشا ، والخلود ثمرة الاخلاص القومي . وقد أخلص غالب كما أخلص من قبله قدرى ، والله ولي المخلصين .

نرجو أن تتحقق هذه الامنية ، ونأمل أن تكون النهضة القانونية نهضة مجبوكة الاطراف تستند الى مجد الاسبقين كما تستند الى جهود الحاضرين .

هذا العهد الجديد عهد إنقاء وتجديد في عهد استقلال جديد .

وإذا كان لكل أمة ناهضة في ماضيها وحاضرها جولات وثابة في ميادين الحياة ومجالات العمل يسجلها لها التاريخ فيقول عنها بعصر التجديد والانقاء وعصر النهضة الاقتصادية وعصر القوة الحربية — فانه يسجل لها أيضا عصر النهضة القانونية .

وقد سجل التاريخ في القرن السادس الميلادي عصر التجميع القانوني للإمبراطور جوستنيان ، فقد حيي القانون الروماني بعصره حياة نشهد الآن نحن جميعا آثارها الخالدة في القوانين المصرية الحاضرة .

فهل نبخل على مصر ، والطرف الآن موات ، أن نهيب القرمصة السانحة لمصر حتى يسجل التاريخ لها عصر التجميع في عهد فاروقها الاول ؟

إن حكومة الاستقلال ، وحكومة مصافي وصحة ، وحكومة المهادنة ، وحكومة النهضة القومية الوثابة الحاضرة ، جديرة بتحقيق هذه الامنية والله الموفق ؟

عبد السلام زهني

المستشار

الاسلام والفلسفة

- ٩ -

تنقذ البحث في فلسفة ابن سينا :

يرى ابن سينا أن حركة الأفلاك حادثة ، لأنها ترمى الى الكمال بطبيعة خلقتهما ، فهي لا تقف طمعا عن الحركة ما دامت لم تلحق الفرض الذي خلقت له وإن كانت قد لحقت منه شيئا لا يستهان به ، ولا تزال سائرة في سبيل الكمال في الدائرة الممكنة . وقد ورد عليه الامام الغزالي في هذه النقطة أيضا بما دحض حجته من الداحية الفلسفية ، ولولا أننا سردنا لك في الفصول الماضية كثيرا من ردود الامام الغزالي على ابن سينا لاثبتنا هنا رده عليه في نظرية خلود الحركة . لأنه رد قيم حدير بالذات والانتفات ، ولكننا نكتفي بالإشارة اليه محليكم على كتب الامام الغزالي .

وعنده أن علم الله يشمل جميع الاشياء من غير استثناء ، ولكن بطريقة كلية عامة لا أثر فيها للتفاصيل الجزئية كأن يعلم مثلا أن الانسان في صومعه من شأنه أن يفكر ، وأن يأكل ويشرب ، ويموت ، ويؤمن ويكفر ، ولكنه لا يعلم أن زيدا بعينه ولد في يوم كذا أو فكر في موضوع كذا أو مات في يوم كذا أو كان مؤمنا أو كافرا أو غير ذلك من الامور المتعاقبة على هذا الانسان تعاقبا حتميا في الحياة . وحجة ابن سينا في هذا هو أن هذه المعلومات الجزئية متعاقبة ، وتعاقبا يستلزم تغيرها ، وتغير المعلوم يقتضي تغير العلم ، وتغير العلم يستتبع بالضرورة تغير العالم ، والتغير على الله محال ، فالعلم بالجزئيات إذا محال إذا استثنينا من تلك الجزئيات ما لا يتخصص برمان ولا مكان ، ولا يوجد بعد أن لم يكن ، ولا ينعدم بعد أن كان .

ونحن إذا نظرنا الى هذه الحجة في ذاتها وجدنا أنها أميل الى المغالطة منها الى المطلق المسقيم ، لأن تغير المعلوم لا يقتضي بوجه من الوجود تغير العلم كما يزعم الشيخ الرئيس ، إذ المعروف أن هذا العلم كان قبل وجود الشيء الذي سيوجد ، متعلقا به على سبيل أنه سيوجد بعد أن لم يكن موجودا ، وأن تعلقه بعد وجوده هو تعلق به على سبيل أنه وجد بعد أن كان معدوما ، وبدأ ، فتغير المعلوم أو تعلق الرمان به يقتضي تغير نواحي التعلق في العلم ، لا تغير العلم نفسه ، وبالتالي لا سبيل الى تصور تغير العلم بحال من الاحوال .

على أن هذه الحجة ليست هي الوحيدة التي يستند اليها ابن سينا وأضرابه في نفى العلم بالجزئيات عن البارئ ، بل هناك حجة أخرى يكتنون اليها في هذا السبيل ، وهي أن العلم هو انطباع المعلوم في دلت العالم ، ولما كان هذا الانطباع يستلزم قابلية في الذات المطبوع فيها وكانت القابلية

أولى خواص الحوادث أو خواص الممكنات التي تنزه الباري عن الاتصاف بها ، فقد وحسب الجزم بتنزيه الباري عن العلم بالجزئيات الذي هو انطباع مستقرم للقابلية التي هي من خواص الممكنات . فإذا أضفنا الى هذا استحالة تصور قيام العلم بالحدوث الممكن بالباري الأزل الواجب الوجود لذاته ومن ذاته ، فقد تحتم القول بنفي علم الجزئيات عن المبدع الأول .

ولا شك أن الباحث المفكر لا يجد عناء في الرد على ابن سينا في هذه النقطة أيضاً ، إذ يسأله أولاً : لم خصصت هذا الانطباع بالعلم الجزئي دون الكلّي ؟ وما الفرق بينهما من جهة المعلوماتية ؟ وسواء أجاب ابن سينا على هذا السؤال أم لم يجب فإن الحجة فيه قد رمت ، ولا ينبغي من لزومها إياه مغالطته بأن العلم بالكلّيات هو علم من جهة سامية لا تتصل بزمان ولا بمكان ، وهذا السمو هو منشا الفرق بينه وبين العلم بالجزئيات .

على أننا لا نسلم له بأن العلم هو انطباع المعلوم في ذات العالم إلا بالنسبة إلى الممكنات إذا تسامحنا في هذه المحارة ، أما بالنسبة إلى الباري فأننا نرى أن التعريف الصحيح للعلم هو ذلك التعريف الذي وصحه « أوكليد الميجاري » وهو : « العلم هو استقلاء العالم على المعلوم » . فإذا أخذنا بهذا التعريف ، وهو ما يوجب المطلق علينا قوله ، فقد سقطت حجة ابن سينا من أساسها ، إذ لا يكون هناك انطباع ولا قابلية ولا إمكان .

غير أن ابن سينا حينما أدرجه — فيما يظهر — بمض المتكلمين ، لجأ إلى مغالطة أخرى وهي قوله : إن الباري يعلم الكلّيات بطريقة مباشرة ، ويعلم الجزئيات بواسطة النفوس الملكية .

ولا ريب أن هذا رأى في منتهى الخطأ والضلال ، بل هو مستوجب للبرؤ والسخرية ، إذ كيف يعقل أن يظل الآله جاهلاً بما يجري في ملكه حتى تنطبع تلك المعلومات الجزئية في النفوس الملكية ثم يطلع عليها في هذا الوقت المتأخر ، في الذي قدرها إذا ؟ ومن الذي طبعها في هذه النفوس ؟ وهل يقدر أحد شيئاً لا يعلمه ؟ ولكن يجب ألا ننسى أن هؤلاء الفلاسفة الإسلاميين يرون أن الباري — تعالى عما يقولون علواً كبيراً — لا يشتغل بجزئيات هذا العالم ، وإنما العقل العاشر هو الذي يديرها تبعاً للنواميس الطبيعية التي لا يملك هو ولا غيره تبديل شيء منها !

وبناء على هذا يكون علم الله بالجزئيات عن طريق المحرك المباشر متمشياً مع مسقطهم الواسع المحطم القواعد والأركان . على أني أريد أن ألقضهم بأرائهم نفسها ، وألزمهم الحجة من عين أقوالهم التي صرحوا بها في كتبهم كثيراً ، فأقول لهم : إنكم تجزمون بأن العقول أقل كمالاً من الباري ، وأن النفوس الملكية أقل كمالاً من العقول ، أفلا توافقوني على أن الناقص معرض للخطأ والضلال وطواري الحوادث ؟ وإذا ، فن الجائز أن يكون بعض ما انطبع في هذه النفوس خطأ فبعله الباري على هذا الخطأ ، وهذه أحط مراتب النقص والضعف . ثم ألا ترون مني

أن الباري حتى إذا كان كل ما نقلته إليه النفوس الفلسفية صحيحا يكون مقترا في علم شيء الى بعض خلقه ، وهل يصح الاعتقاد كمال ؟ ولكن ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن ابن سينا ومن على شاكلة اندفعوا في منيلات هذه المسائل في التيار الأهوج الذي حلقة أرسطو ، فهوت بسببه فلسفته الالهية في حضيض يستوحى الرحمة والاشفاق أكثر مما يستوحى النقد والتأنيب ، إذ زعم أن علم المحرك الأول لا يتعلق بالعالم ، لأن تعلقه بالنافس يحط من قدره ، فأعطانا بهذا صورة غريبة لاله المصمم الذي لم يخلق العالم ولا يعلم به !

على أنى لا أدري كيف يتفق قول ابن سينا بأن الله لا يعلم الجزئيات إلا عن طريق النفوس الفلسفية مع قوله : « إن الأول موجود لا في مادة ، وكل موجود لا في مادة فهو عقل محض ، وكل ما هو عقل محض لجميع المقولات مكشوفة له ، فإن المانع عن درك الأشياء كلها التعلق بالمادة والاشتغال بها ، ونفس الآدمي مشغولة بتدبير المادة أى البدن ، وإذا انقطع شغله بالموت ولم يكن قد تدنس بالشهوات البدنية والصفات الرديئة المتعدية إليه من الآه والظبيعية ، انكشفت له حقائق المقولات كلها .

غاذاً ، الخلو من المادة هو علة كشف كل شيء ، والبارى حائض من المادة حلوصا تاما ، فما الذى يحجب علمه جل شأنه عن الجزئيات ؟ ولكنه الخاطى والوهم والتناقض والاضطراب

النفس غمرة :

أما النفس عند ابن سينا فهي جوهر شفاف هبط الى الأحسام البشرية من عالم الأزل وحكم عليه الباري بالبقاء فيها زمنا محدودا ، وكان في أول الأمر أسفا شاعرا لغرفته ، متضايقا من حصره في هذه القفاوة المادية الصيقة ، ولكنه لم يلبث أن شعر بمرور عظيم ، لأنه رأى ما لم يكن يرى لو أنه استمر في عالمه المنوى ، وهي في الأصل من عالم الكمال ، ولكنها قد تصاب بنقص من اصطحابها للأجسام فتصعق مفتقرة الى التطهر والنقاء الذين لا تعود الى مرتبتها الاولى الايها ، وهي لا تبلغ هذه المنزلة إلا بالشرطين الآتين : (١) أن تتخذ الفصائل شعارا لها . (٢) أن تقتشف حتى تصير طامة شكل ما من شأنها أن تعلمه ، وهو يتحقق في أن تحيط بالأنظمة العقلية والمعارف الذهبية ، وأن تلمق في ذاتها كل المقولات العالية حتى يطبع فيها شبه صغير بالمبدع الاول ، وتصبح قادرة على حاق صور عقلية لكل ما في هذا الكون من حقائق محضة . وإليك ما قاله ابن سينا في تصوير النفس :

هبطت إليك من المحلل الأرفع	ورقاء ذات تمسز وتنعس
محسوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سمرت ولم تتبرقع
وصرلت على كه إليك وريما	كرهت فراقك وهي ذات تجمع
أنتت وما أنتت فلما واصلت	ألفت محاورة الخراب البلقع
وأظنها نصبت عهدا بالحنى	ومنازلا بفراقها لم تقسع

حتى إذا انصلت بهاء هبوطها
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت
تبكى إذا ذكرت ديارا بالحي
وتظل ساجدة على الدمن التي
إذ ماها الشوك الكثيف وصدها
حتى إذا قرب المسير الى الحي
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت
وغدت مفارقة لكل مخلف
وبدت تغرد فوق ذروة شاهق
فلأى شيء أهبطت من شاهق
إن كان أرسلها الاله لحكمة
فهبوطها إن كان ضربة لازب
وتمود عالمة بكل خفية
وهي التي قطع الزمان طريقها
فكانها برق تألق قلحي

في ميم مركزها بذات الاجرع
بين المعالم والطلول الخضع
بمصادم همى ولما تقطع
دوست بتكرار الرياح الأربع
قصص عن الاوج القسيح الأربع (١)
ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
ما ليس يدرك بالعيون المصمغ
عنها حليف الترب غير مشيع
والعلم يرفع كل من لم يرفع
سام الى قعر الحضيض الاوضع
طويت عن الفطن الليب الأروع
لتكون سامعة بما لم تسمع
في العالمين ، غرقها لم يرفع
حتى لقد غرت بغير المطمع
ثم انطوى فكاته لم يلمع

لا ريب أن من يرى هذا الرأي لابن سينا في النفس ، وهو ذلك التليذ الوفي ، والمريد
المخلص لأرسطو ، يدهش كل الدهش إذ يراه يستق غير سفته ويتجهج عكس منهجه ، ولكنه نه
حين يعلم أن ابن سينا في رأيه هذا متأثر بتلك الرسالة المصنوعة التي لفقها الاسكندريون
من مختلف المذاهب ونسبوها الى أرسطو ، تزول دهشه ، ويقف على منشأ هذا السمو
والأفلاطوني الأفلوطيني ، الذي ظهر جليا في تلك العينة المتقدمة .

نظريّة المعرفة عنده :

لا يكاد رأى ابن سينا في المعرفة يختلف عن رأى الفارابي ، لأنه يرى مثله أن وسيلة
المعرفة هي الحواس الخارجية والحواس الداخلية ، وأهي الحواس والعقل ، غير أنه يقسم المعرفة
الى ثلاثة أقسام : (الاول) معرفة المبادئ الأولى ، و(الثاني) معرفة تجواهر المحقولات ، و(الثالث)
معرفة المستقبل . والقسمان الاول والثاني هما اللذان يصلان الى الانسان عن طريق الوحي
والالهام ، ويسمى مدرك القسمين الاولين بالاداة الطبيعية ، أما أداة القسم الثالث فوسيلة
خارقة للمادة . والاداة الطبيعية عند ابن سينا قسمان : فطرية واكتسابية . فأما الفطرية فهي
ملككة مشتملة على قوة خاصة مستعدة لادراك المبادئ الأولى ، مثل قواعد الكل أعظم من
الجزء ، والواحد نصف الاثنين ، وإذا ساوى ثالث أحد القسمين المتعادلين وجب أن يساوي

الثاني - أما القسم المكتسب فيحتاج في إدراكه الى مجهود أكبر من مجهود القسم الاول . ويجب أن تبدأ عملية التفكير فيه بالشعور الوثيق بوجود اتصال الصور التحديدية من عالم الحس . وكيفية الابتداء أن يتصور الشخص أن ما في عقله ليس هو الحجر ولا الحيوان ، وإنما هو صورتهما . أما الإلهام فوسيلته الفضيلة والتسلية ، لأن الروح لا تعرف المستقبل إلا بمقدار اتصالها بالكائن الاعلى ، وهي لا تنصل به إلا إذا تغلبت على الجسم . ولذلك فهي في حالة النوم تكون أكثر اتصالاً بالملا الاعلى منها في حالة اليقظة ، وهي بعد الموت أكثر منها في حالة النوم .

الخلاصة :

يرى ابن سينا - كبقية إخوانه من اللاهوت والمعتزلة المأثرين بشعائر أرسطو - أن الخير هو ما حسنه العقل ، وأشر ما قبحه العقل ، بل هو يرى أن العقل إذا تمزق وارتق استطاع أن يحول الشر الظاهر الى خير ، لأن الشر الحقيقي غير موجود أبنة ، إذ الله عنده خير محض ، ولهذا لا يتعلق به إلا خير ، أما الشر فهو ناشئ من المادة وحدها ، وهو لذلك يجوز بأنه لا يوجد في الكون شر محض ، لأن المادة لا توجد وحدها بدون صورة . على أن كل شر في هذا الوجود خير في ذاته ، وإنما يحوله سوء التصرف بواسطة المادة الى شر ، فمثلاً لا تحرق النار إلا غير المتبر ، ولكنها هي في ذاتها خير ، وإحراقها لهذا الشيء التصرف لا يخرجها عن خيريتها . وإذا ، فلا يملك الإنسان إصدار حكم مطلق على خيرية الأشياء وشريتها بناء على ما يراه من نتائجها التي هي وليدة الظروف لا وليدة الطبيعة . وهو في هذا كله أفلاطوني أكثر منه أرسطو طاليسياً ، وتظهر أفلاطونية جدية في الاخلاق النظرية حين يقرر أن الفضيلة تستطيع أن تكشف للنفس أسرار الكون ، وأن الإلهام الذي يختص به الله الاختيار من عباده هو إحدى وسائل المعرفة البشرية ، وأن السوء مكتسبة يفوز بها كل من توفرت فيه شروطها ، الى آخر ما قرره في هذا الشأن .

أما أخلاقه العملية فكانت - فيما روى التاريخ - صورة صادقة لمذهبه النطري ، إذ يمدنا المؤرخون أنه كان إذا حربه فهم مسألة من المسائل العويصة ، اتجه توا الى المسجد وظل فيه راکماً ساحداً مبتهلاً لا يقادر الحراب حتى يفك على مرها

ولا ريب أن هذا هو معنى قوله : إن الإلهام إحدى وسائل المعرفة ؟

الدكتور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

السليقة العربية

وقواعد اللغة

كان العرب في جاهليتهم يجهلون في أحاديثهم ومحاوراتهم وخطبهم وأشعارهم على مقتضى سليقتهم التي امتازت بإخراج الكلام صحيح الوزن مستقيم الأعراب ، فلما جاء الإسلام واتسعت الفنون ، وخرج العرب من حيزتهم ، واختلطوا بغيرهم من الأمم ، وكثرت فيما بينهم حراء الأماجم ، وانتشرت بحكم الإسلام في بيناتهم ومجتمعاتهم ، تسرب اللحن إلى اللغة ، والنوت الألسنة عن جادة السليقة الصحيحة ، وشاع الخطأ في المفردات والتراكيب ، حتى وصل إلى تلاوة القرآن الكريم ، فأفزع ذلك العلماء ، ودفعهم إلى التفكير فيما يصون قواعد اللغة ، ويحفظ على السليقة العربية أصولها وما جرت عليه من استقامة بناء الكلمات ، وصحة إعرابها ، فصوروا عن ساعد الجسد ، ووضعوا قوانين النحو . واختلفت الروايات التاريخية في أول من فكر في ذلك ، وأشهر الروايات تسنده إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وتلميذه أبي الأسود الدؤلي ، وبعضها يسنده إلى زياد بن أبي سفيان ، وأخرها تلك الرواية التي يحدثنها بها ابن الأثير عن حميد بن الخطاب رضي الله عنه فيقول : قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من يقرأ شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة فقال : « إن الله يرى » من المشركين ورسوله « بالجرف لفظ « رسوله » فقال الأعرابي : أو قد يرى الله من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى يرى من رسوله فأنا أرى منه ! فطلع عمر عليه السلام مقالة الأعرابي ، فدعاه فقال له : يا أعرابي : أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إني قدمت المدينة ولا أعلم بالقرآن ، فسألت من يقرئني ؟ فأقرأني هذا سورة براءة فقال : « إن الله يرى » من المشركين ورسوله « فقلت : أو قد يرى الله تعالى من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى يرى من رسوله فأنا أرى منه . فقال عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « إن الله يرى » من المشركين ورسوله « بالرفع ، فقال الأعرابي : فأنا أرى ممن يرى الله ورسوله منهم . وأمر صمورضي الله عنه أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يصح النحو . وهذه القصة — إذا بحث — تدل على مكانة الأعراب من اللغة العربية ، وأنه من أهم العوامل في تحديد المعنى المقصود ، ورفع الاشتباه واللبس عن القارئ والسماع ، خلافاً لما يزعم من الباحثين المعاصرين أن الأعراب لا فائدة منه إلا التعميد ، وكانهم يرموا بقواعده فأرادوا التحلل من قيوده ليستترك لهم الأمر سبيلًا بلا ضابط ، وهذا بلا شك من أخطر ما تصاب به اللغة العربية ، وقاها الله شره !

وتذكرنا قصة الاعراب وما فيها من التدليل على قيمة الاعراب بما وقع لبعض الخوارج مع هـد الملك بن مروان ، فقد روى أن الخوارج على عهده بايعوا باخلافة رجلا من زعمائهم يقال له شبيب بن بنى أشجع ، فقال شاعرهم :

فنا يزيد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فطلبه عبد الملك ، ولما وقف بين يديه قال له : أنت القائل : ومنا أمير المؤمنين شبيب ؟ فقال : لم أقل هكذا ، إنما قلت : ومنا أمير المؤمنين شبيب ، وفتح الراء يوم أنه أراد النداء ، فصحك عبد الملك وعفا عنه لحسن تخلصه بقطنته ، فهذا أيضا من محاسن الاعراب في اللغة .

وتدلتنا أيضا قصة الاعراب على ما في الفطرة العربية من دقة الاحساس ، وسرعة الخاطر في إدراك معاني الكلام واختلاف أغراضه باختلاف عوامل الاعراب وأماراته ، وتدلتنا على أن اللحن أسرع السير الى اللغة فاستقبلها وهي لا تزال فتية : وتدلتنا على أن العامل الديني أو بالحري القرآن الكريم كان هو الباعث الأول على وضع قواعد اللغة ، وأن أبا الاسود الدؤلي كان محور الروايات كلها في اتفاقها على أنه حميد المدرسة النحوية الاولى ، وقد تلمذ عليه جماعة من الموالى ، من أشهرهم « غيبة بن ممدان » ويقال له غيبة القيل ، وأصله من أهل ميسان ، و « ميمون الاقرن » و « عبد الرحمن بن هرمز » و « يحيى بن يعمر » وهو عربي مضري ، وكان يتفاحص ، ويتعاضد بالقرى ، وقدولى القضاء بخراسان من قبل يزيد بن المهلب ، فيحكى أن امرأة غاصت اليه زوجها فقال لرجل : إني سألتك بمن شكرها وشبك أنفأت تطلها وتضهلها ؟

وجاء بعد هؤلاء جماعة أخذوا العلم عنهم ، ولكنهم توسعوا فيه بحثا ودرسا ، وكان من أبرعهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي ملأ الى القياس ، وعيسى بن عمر النخعي شيخ سيبويه الأول قبل الخليل بن أحمد ، وهو أول من ألف في علم النحو ، وأبو عمرو بن السلاء ، وهو أوسع رجال حلبته علما بكلام العرب ولغاتها ، وأصدقهم لهجة ، وهؤلاء ومن شايهم رماء مدرسة البصرة . ولما أسست مدرسة الكوفة ، وسلكت طريقا في التفريع والاستنباط جديدا يختلف عن طريق البصريين ، قوى النزاع بين المدرستين ، واشتد الخلاف في القواعد اللغوية ، فعمد كل فريق الى العرب في مضارب خباياهم بروى عنهم ، ويستند الى كلامهم ، وكثرت الرواية وراجت سوقها حتى كان ذلك من أسباب الالتحال في الشعر الذي اشتهر عن الكوفيين في آخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حتى إن نحوي الكوفة زعموا أنهم يعرفون من شعر العرب ما لا يعرف البصريون ، لأنه — فيما زعموا — كان لديهم ديوان الشعر الذي مدح به النعمان بن المنذر وأهل بيته ودون في الطنوج « الكراريس » .

كان هم هؤلاء وأولئك المحافظة على اللغة وحمايتها من الالفن ، فوضعوا لها القواعد ، ومهدوا التياس ، ودرسوا الأدب العربي على هذا الاساس ، وغنوا برواية الشعر ودراسته على منهجهم في التعمص للجانب القفوى ، وإثبات الغريب ، مما جعلهم على المنافسة في جمع غرائب اللغة والتشدد في المحافظة على قواعدهم ، ورفض كل ما ند عنها ، واعتباره شاذاً لا يمول عليه ، وقد انتقدوا العرب أنفسهم إذا حادوا عن سنن تلك القواعد ، وأخذوا على الشعراء الأقدمين ما أخذ رأوها خارجة على ما تواضعوا عليه من أقيسة وأصول ، فأخذوا على امرئ القيس قوله :

فاليوم أشرب غير مستحب إنما من الله ولا وائل

إذا جزم الفعل المضارع « أشرب » ولا جازم له ، وقد روى أبو العباس المبرد في كامله هذا البيت فاليوم « أسقى » ، واختلاف الروايات الى حد الكثرة الطائفة مما ابتلى به الادب العربي ، وليس بعيد أن يكون بعضه متعمداً ليجتج به على قاعدة نحوية أو مسألة علمية ، فبيت امرئ القيس المذكور يبعد أن يكون التغيير فيه من « أشرب » الى « أسقى » أو من « أسقى » الى « أشرب » غير مقصود ، لأنه ليس للفطنتين اشتباه خطي أو لفظي يمكن أن يستند إليه الظن في التفسير لجرد الرواية ، والشاعر لا بد أن يكون قد قال واحدة منهما فقط ، ونحن بين أمرين : إما أن يكون الشاعر قال : « أشرب » فعزم بغير جازم ، فجاء من يزعم أن السليقة العربية لا تخطئ وغيره الى « أسقى » ، وإما أن يكون الشاعر قال « أسقى » فجاء من يجوز أن السليقة العربية قد تحيد عن الأهم المؤلف فقيره الى « أشرب » مجزوما بدون جازم ، وقد ددد أبو العلاء المعري البيت بين الروايتين ، وحاول تخريج رواية « أشرب » على وجه يجعلها متمشية مع القواعد وزعم بعض العلماء أنه يجوز أن يكون ثم إشارة الى الضم لا حكم لها في الوزن ، وتقل عن سببويه أنهم يفعلون ذلك في قول الراجل :

مضى ألام لا يؤرقنى الكرى ليلا ولا أسمع صوت المسطى

ويسميه ابن فارس اختلاس الحركات ، وهذا كله تكلف جر إليه اضطراب الامر في الرواية والتعمص المذهبي .

وأخذوا على طرفة بن العبد قوله : قد رفع الفخ شاذاً تحذرى .

فقد حذف نون الفعل المضارع وهو « تحذرى » من غير موجب لهذا الحذف . وأخذوا على النابغة الذبياني قوله :

فبت كائن ساورنى ضئيلة من الرقص في أنيابها السم ناقع

لأنه رفع كلمة « نافع » وحققا التعمص على الحال . وبعض النحاة يصحح ما قاله النابغة .

وقد لج الخصاص بين الشعراء المتقدمين وعلماء اللغة ، وكان من أعجبه ما وقع بين الفرزدق وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي كان يتتبع سقطات الفرزدق ويميب عليه شعره ، والفرزدق يضيق به ذوماً ، قال ابن الأنباري : وكان ابن أبي إسحاق يرد كثيراً على الفرزدق ، ويكلمه في شعره ، فقال فيه الفرزدق -

فلو كان عبد الله مولى محوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له الحضرمي - ولقد لحنت أيضاً في قولك « مولى مواليا » . قال يونس بن حبيب - كان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس تسلياً للعرب ، وكان عبد الله بن أبي إسحاق ، وعيسى بن صهر يطعنان على العرب ، وقد كان أبو عمرو يدافع عن الفرزدق ويجهد في تخرج كلامه على وجه صحيح ، حكى أبو عمرو أن ابن أبي إسحاق سمع قول الفرزدق -

وعض زمان يا بن سروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلف

فقال له . على أي شيء ترفع « أو مجلف » ؟ فقال : على ما يسوءك ويشوءك . قال أبو عمرو : فقلت للفرزدق : أصبت ، وهو جاز على المعنى . أي أنه لم يبق سواء ، وكان الفرزدق إذا اعترض عليه أحد يقول : على أن أقول ، وعليكم أن تخرجوا .

وقد اختلف العلماء قديماً : هل يقع الغلط في كلام العرب الغلط ؟ فقال قوم : لا يقع ذلك في كلامهم ، وما يروى منه عنهم ظاهراً هو من الضرورات الجائزة ، وقال آخرون : لا مانع من وقوع ذلك منهم ، وهم ناس كثيرهم ليسوا بمعصومين ، وإذا وقع فلا يتأمنون عليه ، قال العلامة الألويسي في كتاب الصرائر : « العرب قد غلطوا في كلمات أوردوها في شعرهم .. فعد ذلك بعض أئمة العربية من الصرائر الشعرية ، منهم الامام أبو سعيد القرشي ، والسيد المرتضى ، وذهب الجمهور إلى أن أغلاط العرب ليست من قبل الضرورة ، وأنها لا تغفر لهم ، ولا يمدرون فيها ، ولا يتأمنون عليها كما يتأمنون في الصرائر » . وقال ابن فارس . « والشعراء أمراء الكلام يقصرون الممدود ، ويمدون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويومنون ويشيرون ، ويحتسبون ويميرون ويسميرون ، فأما الحس في إعراب وإزالة كلمة عن نهج صواب فليس ذلك لهم .. ما جعل الله الشعراء معصومين ، يوقون الغلط والخطأ ، فما صحت من شعرهم فقبول ، وما أبته العربية فردود » .

وقد نقل الامام ابن جني عن أستاذه أبي علي النافسي السبب في وقوع الغلط من العرب فقال : إنما دخل هذا النحو في كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ، ولا قوانين يستمعون بها ، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما يطقون به ، فربما استهواهم الشيء فراغوا به عن القصد .

وربما كان قريبا من الصواب — إن شاء الله — أن كل ماصح عن العرب قبل الاسلام يجب التسليم له والاخذ به ، ويتفاوت في الاجودية فقط بحسب الكثرة والشيوع ، والقلّة وعدم التبوع ، فالاول فعده أجود ، والثاني فعده صحيحا جيدا ، ولكنه دون الاول ، ولا يقال لمتابعه من المولدين غلط محض ، فثلا إذا صح أن شاعرا عربيا قبل الاسلام قال : ولكنى سليبي أقول فأعرب . فنسب الى فعيلة على لفظها لمبلي ، فلا بأس على من يقول من المولدين في النسب الى طبيعة مثلا : طبيعي ، وأجود منه من يقول : طبعى متابعة للأكثر الاشهر . أما اللحن في الاعراب فلا أكاد أفهم وقوعه من العربى القح ، وبما هى ألسنة صنعها الله تتحرك بالاعراب في غير صنعة ولا تكلف .

صادق ابراهيم عمره

مداعبات بالكسنايات

قال معاوية بن أبى سفيان للاحنف بن قيس سيدى حنيفة أحبرنى هن قول الشاعر :

إذا ما مات ميت من تميم فسرّك أن يعيى غنى* يزاد
بخر أو بتمر أو لسمن أو الشئ الملقف في البجاد
تراه يطوف في الآفاق حرما لبأ كل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشئ الملقف في البجاد ؟

قال الاحنف : السفينة يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : واحدة بأخرى والبادى أظلم .

والسفينة طعام كانت تملأه قريش من دقيق وهو الحريرة فكانت تسب به . وفيه يقول

حصان بن ثابت :

زحمت سفينة أن تنقلب ربهما وليظن مغالب الفضلاب

وقال غيره : أمشوا من سفينتهم فناموا .

ولما عزل عثمان بن عفان رضى الله عنه عمرو بن العاص عن مصر وولاه ابن أبى سرح ،

دخل عمرو على عثمان وعليه جبة محشوة ، فقال له عثمان : ما حشو جبتك يا عمرو ؟

قال عمرو : أنا يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة : قد علمت أنك فيها . ثم قال له عمرو : أشمرت أن اللقاح درت بعدك ألبانها ؟

فأجاب عمرو : لأنكم أعجنتم أولادها (أى أهزلتمهم)

فسكنى عثمان عن خراج مصر باللقاح وهى النوق الحلوب ، وكفى عمرو عن إهلاك الوالى

لأهلها بأهزال أولادها .

ما هو الاثير

حدث في الشهر الماضي أن أحد المحاضرين في بعض الجامعات الادبية اقتدب لتفسير بعض الآيات القرآنية المتشابهة والواردة في نكت الانظار الى بعض الظواهر الطبيعية ، فجعل الاثير معوله في التفسير والتمايل ، وكان بين الحضور جم غفير من طلبة العلم والعلماء ، فلم نقع منهم تلك المحاضرة موقع القبول لاعتمادها على مادة افتراضية ، وأقبل علينا بمضمون يرجو منا أن نكتب كلمة في حقيقة الاثير ، فلم يسعنا إلا تلبية الطلب ، فقول :

تردد كلمة الاثير في أفواه العلماء عند كلامهم على أصل المادة وعلى النور والحرارة والكهرباء وغيرها من القوى الطبيعية ، فيحاولون به ما أشكل عليهم حله من معميات الكون ، ويشكون ما استبهم من طلائمه .

ما الذي دعا الطبيعيين الى افتراض شيء لا يدرك بالحواس ، ولا يخضع للتجربة ، ويناقض بخصائصه وبصفاته كل ما يعرف من اشياء الطبيعة ؟

الذي دعاهم لذلك هو :

كان الطبيعيون الاقدمون يظنون أن النور والحرارة ينتقلان من بعض الاجسام الى بعض بتأثيرها الذاتي من بعد ، فلما تأملوا في ذلك في العصور الحديثة وجدوه مما لا يعقل ولا يفهم ، فافترضوا أنهما يسريان من الاجسام المنيرة والحارة على صورة أمواج ، فأجهوا على قبول هذا الافتراض ، وكان أول من قال به الطبيعيون من المسلمين (راجع ما قاله العلامة دويبر) .

ولكن العلماء اعترضهم أمر جلل وهو : جهلهم على أي حامل تسري هذه الامواج الضوئية والحرارية البينا من الشمس والكواكب ، وليس بيننا وبينها هواء ؟ فان الهواء جسم نازي محيط بالكرة الارضية الى نحو خمسة وعشرين كيلو مترا منها . ولو كان الهواء ما لنا للهواء الموجود بيننا وبين الكوكب لبلغ ثقله على الارض حدا لا تمكن المعيشة فيه ، ولصد الكواكب الاخرى عن الجولات كما تصدها الحجب الفولاذية .

وإن افترض العلماء أن ذلك الحامل ليس بالهواء ولكنه شيء مادي أल्प منه ، ولم منه كل ما يلزم من الهواء ، لانه مادام ذلك الشيء ماديا فان لانهايته تجعله أكتف من الصوان . وإتنا إنما نرى ما وراء الهواء من الكواكب والشموس لأن طبقة قليلة السمك ، ومع ذلك فهو يلون السماء باللون الأزرق ويكسر الاشعة المنبعثة البينا من الكواكب ، فيخذلنا عن أماكنها ، ويرينا أجرامها قبل أن تظهر على الافق . فما ظنك به لو كان مائتا هذه اللانهاية ؟ لما آتس العلماء كل هذه الصعوبات من افتراض الحامل للاشعاعات ماديا ، اضطروا

أن يفترضوه غير مادي ، لا بمعنى أنه روحاني ، بل بمعنى أنه شيء لم يصل لدرجة المادية فلا تسري عليه قوانينها . وم لأجل أن يخلصوا من كل الإيرادات التي يمكن أن توجه الى ذلك الشيء فتحول بينهم وبين التعليل به ، أخذوا فيه لانفسهم كل حيلة ، فافترضوه شيئاً مائلاً لوجوده كله لا يحلونه قعر ذرة في الارض ولا في السماء ، لا وزن له ولا مسم ، وغير قابل للاصطفاط وعابة في العاطفة . بل قالوا إن كل شيء مادي ناشئ منه فهو أصل جميع الموجودات الكونية .

في عهد الشهور بالضرورة الماسة لافتراض الاثير ، كان العقل يجد لوجدان نظرية جديدة غير نظرية الجوهر الفردي الذي جعلوه أصلاً للعادة ، لهدم انطباق هذه النظرية على بدهاة العقل ، فانسوا في الاثير مخزناً لهم من الترميم في عقبات تصورها ناشئة من جواهر مادية لا تقبل الانقسام ، فتحيلوها حركة زوهمية في الاثير ، أي أن جزءاً من الاثير يتحرك ، بسبب غير معلوم ، حركة سريعة لدرجة القصوى على هيئة زوهمية ، وبانضمام عدد كبير من هذه الروابع بعضها الى بعض تتألف منها المادة ، وإنما تتنوع بتنوع درجات تلك السرعة ، ونظام تألف وحداتها .

ولما رأى العلماء أن بعض القوى تستحيل الى بعض كاستحالة الحرارة الى كهرباء أو نور أو العكس الخ ، قرروا أن هذه القوى كلها ليست بشيء سوى حركات حاصلة في ذلك الاثير . فالاثير بكل هذه الاعتبارات هو في نظر العلماء الطبيعيين . الموجود المطلق الذي لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، مصدر كل موجود ، ومستقر كل قوة ، ومستودع كل إبداع . أضر وأما أكتب هذا بأن القاري البعيد عن المسائل العلمية قد أخذ منه المصعب كل مأخذ من إجماع رجال يعتبرون أنهم الناس عقولاً عن الأوهام على القول بوجود شيء خلقوه بخيالهم ، ونحلوه كل الصفات التي يحتاجون اليها في تمثيلاتهم ، وليس لهم على ذلك دليل ولا شبه دليل . ثم يتساءل ذلك القاري بعد هذا : إذ كان هذا شأن علماء الطبيعة والعبأ الى افتراض الخيالات ، فوصول الى تعليل وجود الكائنات ، فلم يشورون على المتدينين في اعتقادهم بوجود واجب الوجود المبره عن المادة والماديات ، الاول الذي لا موجود قبله ، والآخر الذي لا موجود بعده ؟

ما الذي بقي من الفروق بين الصفات التي يوصف بها الخالق عز وجل ، وبين الصفات التي تمنح للاثير في هذا العصر ؟ المرق أن المتدينين يعتقدون أن خالق الكون ومدبره حكيم مرشد ، ولكن العلماء الطبيعيين لا ينحلون الاثير هاتين الصفتين . ولا أدري كيف إذا جردوا الاثير من هاتين الصفتين يستطيعون أن يعللوا وجود المادة بعد أن لم تكن موجودة ، وبلغ الكائنات من الإبداع الى هذه الدرجة التي لا غاية بعدها ، وكيف يعللون وجود العقل البشري وليس له ما يستمد وجوده منه في الكون ؟

كل هذه المعاضل لا يمكن أن يحلها افتراض وجود الاثير ، إلا إذا افترضت له الصفات

المطلقة التي أدركها العقل البشرى لواجب الوجود نفسه ، وإذن في ضرورة تسمية الخالق جل وعز بالاثير ، وما وجه هرب الماديين من الايمان بالغيب وهم يؤمنون بهذا الاثير وخصائصه ؟ لقد لحظ هذا التناقض اشددم تمصبا للفلسفة الطبيعية ، وعلى رأسهم الاستاذ الكبير هيكييل الماني Haekel المدرس بمحاضرة بينا ، فكتب في كتابه (وحدة الوجود) قوله :

« إن هذا الترقى في إدراك الاثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة . ذلك أن الآراء الضالة التي كانت تقول بوجود الفراغ وتأثير المواد بعضها على بعض من بعد ، قد زالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية وإن كانت المادة لا تشغلها كلها فأنها يرمتها مشغولة بالاثير » ثم قال :

« نعم : إن نظرية الاثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا للدين ، ذلك إذا جعلنا إزاء هذه الكتلة الحامدة الثقيلة أي المادة ، ذلك الاثير الشامل لجميع الاحياز الوجودية المتحرك ، الذي هو الاله الخالق » . ثم أبد الاستاذ هيكييل رأيه هذا برأى الاستاذ خليلسحر الالماني الذي أبداه في خطابة ألقاها في التنبورغ من المانيا فذكر عنه أنه قال :

« إن أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية ، وأكبر محلى من مجالى الحياة الآلية ، يمكن أن يعمل وجودها على السواء بفعل قوى طبيعية واحدة ، ولما كانا من ناحية أخرى يشتركان في الصدور من الأصيل الأصيل المتوحد الذي يعلأ الوجود اللانهاى ، وهو الاثير ، فيمكن اعتبار هذا الاثير (إلها حاما) ويكون نتيجة ذلك هو الحكم بأن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية » .

الى هذا الحد وصل الاعتداد بالاثير لدى العلماء المعاصرين لنا ، فهم إن كانوا لم يجمعوا على ألوهيته ، فقد أجمعوا على ضرورته ، لفهم كل صغيرة وكبيرة في الكون .

والذى يتبادر للعقل أن العلماء الذين قالوا بألوهية الاثير كان الاولى بهم أن يقبلوا العقيدة النظرية المنبثقة في النفوس الانسانية من ضرورة وجود إله متره عن الجسمانية قادر حكيم . وجد الوجود وأمدته بكل القوى العاملة فيه ، ولا يزال يربه ويرقيه ليبلغ الى أرقى ما قدره له من كمال وجلال .

أما تخيل وجود سيال مموه الاثير وتصوره لطيفا غاية اللطف مائلا للكون كله وليس فيه مسام ولا يقبل الضغط ولا وزن له الخ من الصفات المتناقضة ، ثم رفع هذا السيل الى درجة الألوهية ، فلمب بالاتفاظ لا يصح صدوره من كبار الرجال ؟

محمد فريد وجري

حياة المتنبي

تنبؤه (١)

ليس في حياة أبي الطيب مسألة أشد غموضاً من مر هذا القرب الذي نبزوه به ، ومهما يكن في حياته من الدقة والغموض فاما نعرف بقوة الدقة والغموض اللذين أحاطا بهذا القرب ؛ وآية ذلك أن الكتاب ما رواه يكتبون عن أبي الطيب منذ كان إلى يوم الناس هذا وهم يختلفون في الإجابة عن حقيقة هذا القرب ، وكتاب عصرنا هذا يختلفون أيضاً في الاستنتاج والتعليل ؛ ولقد حاولت أن أفق على الوضع الحقيقي لهذه المسألة متخذاً من شعره وأخباره نبراساً أسنسى به فأعياى تطلابه ، ووقعت في حيرة ولبس مما شر من الاعراض عنه ؛ ذلك أنه لم يكن أحد ممن حاصر المتنبي أو قرب من عصره بالبحث مما يشوقنا اليوم أن نعرفه ، بمننا يتلج صدر الحقيقة ويملأ قلب الناس يقينا بصحة أسبابه ونتائجها ؛ فكل ما بين أيدينا كلمات مشوارة في بطون الكتب جرى بعضها على ألسنة قوم عرفوا بالهوى فيه والتعصب له إلى حد التغاضي عن القبيح ، وجرى بعضها الآخر على لسان قوم لم يعرف الناس عنهم شيئاً أو عرفوا عنهم الكراهية له إلى حد تشويه محاسنه . فهمة الباحث اليوم من أشق ما يتصوره عقل . وكل ما يمكن أن يصل إليه باحث ، غنون قد لا يطول به الأمد حتى تتكشف له عن نفسها كغدة من خدع الغرور .

حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت المتنبي يقول : إنما لقيت بالمتنبي لقولى :

أما ترب السدى ورب الفساقى وممام المداد وغيظ الحسود

أما فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى محمود

وفى هذه القصيدة يقول :

مامقاي بأرض نخلة إلا كقيام المسيح بين اليهود

وليس هذا الذى ذكره أبو الفتح إلا كالتعليلات التى يرتكبا بعض الناس بإخراج الألفاظ عن أوضاعها ومعانيها ، ذلك بأن أبا الطيب نفسه كان يتألم إذا نبزوه بهذا القرب ؛ فهو يعلم أن الناس لا يظلمون عليه ذلك تشبيهاً بالأنبياء ، وإن كانت هذه الصيغة قد تستعمل فى العربية لأداة معنى التشبيه .

وذكر أبو الملاء فى رسالة الضمران ما كان أعداء أبي الطيب يتحدثون به عنه ، فقال : « وحدثنى الثقة عنه حديثاً معاً أنه لما حصل فى بنى عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له

وقد تبيسوا دعواه : هاهنا ناقة صبيبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل ، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي راحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فغرت ساعة وتكررت برهة ، ثم سكن تقارها وهدت منى المسحة ، وأنه ورد بها المسحة وهو راكب عليها ، فمجبوا له كل المعجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم . وحدثت أيضا أنه كان في ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقابت على يده سكنين لجرحته جرحا مفرطا ، وأن أبا الطيب تغفل عليها من ريقه وشدها عليها غير منتظر ، وقال للجروح : لا تمهلها في يومك ، وعد له أياما وليالي ؛ وأن ذلك الكتاب قبل منه فبرئ الجرح ؛ فماروا يمتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : هو كجبي الاموات . وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية ، أو في غيرها من السواحل ، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع - فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما في الساح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إليك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد لرجل إلى الأمر على ما ذكر . ولا ينع أن يكون أعداه شيئا من المطاعم مسجوما وألقاه له وهو يجني من صاحبه ما فعله اه وقال أبو العلاء في رسالة الغفران مرة أخرى : « وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا القلب قال : هو من النبوة يعني المرنم عن الأرض ؛ وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير ، يديرها في العلو مدير ، يظهر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتمد أن يخفق . وقد دات أشياء في ديوانه أنه كان متألها ، ومثل غيره من الناس متدلها ، فمن ذلك قوله :

ولا قابلا إلا طائفه حكا

وقوله : ما أقدر الله أن يخزي بريقه ولا يصدق قوما في الذي زعموا

« وإذا رجع إلى الحقائق ، فنطق اللسان لا يني عن اعتقاد الحنان ؛ لأن العالم مجبول على الكذب والفتاى ، ويحتمل أن يظهر الرجل تدبيرا ، وإنما يجمل ذلك زينا ، يريد أن يسل به إلى ثناء ، أو فحش من أفراس الخالصة أم القناه اه

وأبو العلاء في هذه العبارات مضطرب كل الاضطراب ؛ فبينا هو يقص عليك معجزات أبي الطيب التي محرق بها على شئ عدى ؛ إذا هو يذكر لك أنه إنما طمع فيما طمع فيه من هو دونه بعد حمة وعلو نفس ، ولا يمكن أن يكون مقصوده بذلك النبوة ، ثم هو بعد ذلك يعود فيذكر لك أن أبا الطيب كان يعترف بالله تعالى ، ويرشدك إلى دلائل هذه العقيدة من شعره ، ويعود إلى التشكيك في دلالة هذه الأقوال على ما في نفسه لأن نطق اللسان لا يني عن اعتقاد الحنان ؛ وكأن أبا العلاء كان يعاني ما تعانيه اليوم من صموص حال المتنبي وشدة حاشا .

والذي نستطيع أن نقوله أن هذا القلب قد نبزه به أعداؤه ، وليس له حقيقة برزت

في الوجود ، وإن أبا الطيب كان يقوم بدعوة سياسية - كان يطلب الملك ويعنى نفسه به ، ويعمد له عدته التي ظن أنها تصل به إليه - من المران على الحرب ، وجمع المال ، والاستكثار من الاعوان ، وتدبير المؤامرات ؛ ولم يكن يحسر على الجهر بذلك في عواصم الملك التي عاش فيها ؛ فكان يخرج الى الموادى يتحين الفرصة ويستجمع الثوب وتحقق ما في نفسه من آمال ، وهذا سر من أسرار انتقاله من ملك الى ملك ، وقد ساعده على هذا الحلم الذي ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن واطقلاب ، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سمعت به قدم ، وكان دائما قنع بأقل من الملك فرغب في ولاية من الولايات يخلمها عليه كافور ، ولعل هذه القناعة لم تكن إلا لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه الى الملك كالذي كان يراه في جماعة من ملوك عصره ، ولعل كافورا لم تخف عليه سريره لخرمه الولاية التي كان وعده إياها ، ولعله هو نفسه قد شعر بأن كافورا فطن لدخيلة نفسه فقر من مصر تحت جناح الليل ؛ أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه :

وغير كثير أن يرودك واجل فيرجع ملكا للعراقين واليا
حتى إذا تأخر عنه جواب كافور ، وخشى أن يفوته المأمول ، أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية ؛ طوده بقوله :

فأرم بي حينما أردت فاني أسد القلب آدمى الرواء
وقوادي من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء
ولم يزل يظهر لكافور تلغفه على إنجاز موعوده ، بالنهريض مرة وبالتصریح مرة أخرى حتى أدركه اليأس وعلم أن في الأمر شيئا ؛ انظر الى قوله :

إذا لم تنط بي ضبعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب
ثم انظر الى قوله :

وهل نأفى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطاة سكوتى بيان عندها وخطاب
قال أبو منصور الثعالبي : وما زال في يرد صباه الى أن أخلق يرد شبابه وتضاعفت عقود عمره ؛ يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضر من كامن وسواسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجمان ، والاستيلاء على بعض الاطراف ، ويستكثر من التصريح بذلك في مثل قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقم حتى لات مقتنم
لأتركن وجوه الخيل سامحة والحرب أقوم من ساق على قدم

وكقوله :

سأطلب حتى بالقنا ومشاج
تقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا
كأنهم من طول ما النشعوا مرء
كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا
وطس كأن الطمن لا طمن بعده
و ضرب كأن النار من حره برد
إذا هتئت حنت بي على كل ساج
رجال كأن الموت في فها شهد

« وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة أبعد من آماله ، ويمشى في مناكب الأرض ، ويعطوي المدهل والمراحل ، ولا راد إلا من ضرب الخراب على صفحة المهراب » اهـ
هذه فيما تمتد حقيقة حاله ، فأما ادعاء النبوة فلا نستطيع أن نقبله ، هما زعم الناس أن العصر الذي عاش فيه ورغشته في أن يكون أبعد أهل عصره أملا ، وكثرة الدعوات الدينية والسياسية كل أولئك تقرب الى العقل أنه ادعى النبوة ؛ تقول ذلك بعد علما تقدير الناس لمقام النبوة ورسوخ عقيدة الاسلام في أذهانهم ، ومنها أن محمد صلى الله عليه وسلم ختام الانبياء ، حتى إن الدعوات الدينية التي ادعاها المدعون بعد ذلك لم تكن إلا في نواحي الامامة وما يتصل بها ؛ ونحن نرى كل هذه الدعوات كانت تستند الى نصوص يزعم الرايون لها أنها صدرت عن رسول الله ، أو أنهم في نصوص أخرى ثابته ، ولو أن أبا الطيب كان قد ادعى النبوة لما وجد من الناس من ينظر عليه حتى يتم دعواه ؛ ولعله لم يكن من الحكمة في دعواه التي ارتضينا أسرها بحيث يخفى شأنه ، فكان لذلك لا يأمن جانب أحد ، وكان لا يدخل لها إلا لتقذف به الى بلد ، ثم كانت بعد ذلك نهايته المضمومة .

أبو الطيب والنحاة :

ليس يسوغ لي في مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ ، فهو حافظ لغريها حفظ الباحث المستقصى حتى ليسأله أبو علي الفارسي : كم لنا من الجوع على وزن فعل ؟ فيسأله بقوله - حجل وطرني ، ويبحث أبو علي ليلته في كتب اللغة لعله يثر لها على ثالث فلا يجد ، ويقول أبو علي في شأنه : « ما رأيت رجلا في معناه مثله » . وهذه الشهادة من أبي علي الذي كان يصابه العداوة ويتحامل عليه كافية للدلالة على قدره . وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريها طالما بمواطن استعمالها متمكنا من قواعدها خيرا بلغات القبائل ؛ وله شعر جزل لا نظير له في شعر أحد من شعراء العربية ، وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ ونجائب كل انتقاد ، ولكن له مع ذلك شعرا قد جانب الطرق المشهورة في العربية الى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجاري على الألسنة ، ورسومه قواعد أرادوا أن تكون هي لسان الناس عامة . وإن يكن أحد قد نال من أبي الطيب في حياته وبعد موته منالاه وجه صحيح وقد بقي أثره والدليل عليه ، فأولئك هم النحاة ؛ ولما نمتي

بالحفاة علماء الاعراب فحسب ، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم في فرع من فروع العربية ؛ ف هؤلاء هم الذين جرحوا عزة المتنبي وطامنوا من كبريائه ؛ وهؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعا وتنالم نفسه إذا وجه واحد منهم خطابه اليه . وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التي يكتسب بها رضا الناس وهم يعمدون الى هذه الوسيلة فيضممون من شأنها ويحاولون أن يقللوا من قيمتها ؟ ولم يكن النعاة فيها لفتقد قد أكثروا من تمقبه والحلة عليه لوجه العلم ولا انتصارا للحق ، وإنما كان ذلك منهم سلاحا من أسلحة السياسة التي وجهت الى الرجل ؛ وليس يعنينا بحث ذلك الآن ، ولكننا نذكر أنه — مع عدم توفر حسن البية — قد أمكن للنعاة أن يمجّدوا في شعر أبي الطيب ما يستمكن به عليه ويستغذونه ذريعة للتشفي منه ولإرضاء سادتهم ، وكانوا يجبهونه بذلك أحيانا ، وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذف في سبابه أحيانا ، شأن المغيظ المحق الذي يداخله الهك في أمره ، وكان ربما ضن عليهم بالإجاة فأحاطهم على بعض أصدقائه من النعاة . حدثوا أن ابن خالويه وجه الى أبي الطيب نقدا في حضرة سيف الدولة فقال له أبو الطيب : اسكت وبمك فأنك أعجمي فمالك وللعرية ! وكان مع ابن خالويه مفتاح فضربه به فشق رأسه . وحدثوا أن سائلا سأله عن قوله في مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل بن الصميد :

باد هـواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمك أوجرى

فقال له : كيف قلت لم تصبرا ؟ فقال : لو كان أبو الفتح حاضرا لأجاب ؛ يريد أبا الفتح عثمان بن جنى وكان صديقا حميلا له . وبعض المأخذ التي أخذها عليه النعاة تافه أو لا وجه له كالذي حدثوا أن ابن خالويه محمه بفشد سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشعاه طامحه بأن تسعدا والدمع أشعاه طامحه

فقال له : يا أبا الطيب ، إنما يقال شجاء ، يشوهه فعلا ماضيا ، فقال له أبو الطيب : اسكت فما وصل الامر إليك ، يعني أنه أفعل تفضيل .

وبعض المأخذ التي أخذوها عليه صحيح لا شبهة في أنه أخطأ فيه الجادة ؛ كالتمقيد الفظي والمعنوي ، واستعمال الغريب الوحشي والعدول عن سنن القياس ، وقيح بعض المطالع وبعض المقاطع ، واستعمال اللغات المهجورة ، وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول .

وفي كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يمدون بعضها في عيون الشعر ومحاسنه ، ويعدون بعضها الآخر في رذيل الشعر ومستكرهه .

أما علماء الاعراب فقد جروا على قاعدتهم في عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع أبي الطيب ؛ ولكن كثيرا منهم يذكر أبيتانا من شعره في موطن من ثلاثة مواطن : موطن التثليل لا الاستشهاد ، وموطن مخالفة القياس ، وموطن التطبيق وذلك في المعتمد من شعره . وقد

ذكر العلامة رضى الدين فى شرح السكامة بعض أبيات المتنبي على أنها مخالفة للقياس ،
والعلامة المحقق جمال الدين بن هشام صاحب معنى اليبى ولا فى السعادات بن الشجرى
فى أماليه شروح وتخریجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبي الطيب ، وقد كان لا فى الفتح
عثمان بن جنى صديق المتنبي اليد الطولى فى توجيه أنظارها الى هذه الساحة بما بدله من جهد
فى تخریج شعر المتنبي ؛ حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له : « إني لم أقل هذا الشعر لهؤلاء
النعاة ، وإنما أقوله لك » .

أيها السادة . هذه كلتي التي كتبتها على عجل ، وإني لسميد بأن أنشرف بالقائما بين يديكم ،
وأشكر لجنة المهرجان التي أتاحت لي هذه الفرصة النادرة للتعرف اليكم . والسلام عليكم
ورحمة الله .

محمد محي الدين عبد الحميد
المدرس فى كلية اللغة العربية

أطروفة من كلام المأمون

اجتمع أمير المؤمنين المأمون يوما بثنوى يقول بوجود بلعين اثنين ، فقال له المأمون .
أسألك عن حرفين لا أزيد عليهما ؛ هل ندم مسمى قط على إساءته ؟
قال الثنوى : بل .

قال المأمون : فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان ؟
قال الثنوى : بل إحسان .

قال الخليفة : فالذى ندم هو الذى أساء أم هو غيره ؟
قال المعدد : بل هو الذى أساء .

قال أمير المؤمنين : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر .
قال الرجل : فإني أقول الذى ندم غير الذى أساء .

قال المأمون . فندم على شيء كان منه ، أم على شيء كان من غيره ؟
ثم قال له أيضا :

أخبرني عن قولك بالهين اثنين : هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقا لا يستعين فيه بصاحبه ؟
قال الثنوى : نعم .

قال المأمون : فما تصنع باثنين ؟ واحد يحاكي كل شيء خير لك وأصح !

المطالب العالية في النفس الناطقة.

وصلتها بالانسان

عرضنا في البحث السابق كمجالة للمشهور من المذاهب في النفس الناطقة لا فرق بين المتكلمين وبعض فرق الصوفية والفلاسفة الاقدمين منهم والمتأخرين ، ولم يتسع بنا المجال لكشف عما هو الباطل منها وما هو الحق لطروف مفاجئة . لكن يبقى بعد ذلك أن أصحاب هذه المذاهب اعترفوا في اتجاهاتهم الى مناح شتى لها أوتى اتصال بصميم كل مذهب والمدى الذي ينتهي اليه وما يستنبه من آثار مخرقة أو نتائج لها مقدمات متصلة بقضايا علوم النفس وأقيسها ، فغرق أصحاب هذه المذاهب في بحوث متصلة بعلوم النفس بما لا يجيد الباحث عنه غناء ، وما يفتح عين رواد الحقائق العلمية على نظريات قيمة ذات أثر بين في علوم الاخلاق وعلوم النفس وعلوم التربية .

من تلك النظريات أنهم قالوا : هل النفوس الناطقة مجردة أو مادية ؟ وهل هي عين المزاج أم غيره ؟ ومنها أنها هل هي قديمة أو حادثة ؟ وهل مع ذلك تبقى بعد حراب البدن أو يمرض لها العناء فتفنى ؟ وهل هي متحدة بالحقيقة في أفراد النوع الانساني أو هي مختلفة الحقائق فيه ؟ ثم هل بعد ذلك هل تنتقل في الابدان على معنى أن تقناوسها في عروضها لبدن بعد آخر حين يحمل النماء بالبدن السابق ، أو أنها تفنى لأول بدن حلت فيه ؟ وهل هي المدركة لكليات والجزئيات أم هي مدركة لكليات حجب ، وأن مدرك الجزئيات هي الحواس دون النفس الناطقة ؟ وهل هي متناهية أو غير متناهية ؟

فالقائلون بقدم النفوس الناطقة يذهبون إلى أن تعطلها وعدم تعلقها بالبدن مستحيل الوجود ، ويرتبون على نظريتهم أنها منتقلة من بدن الى بدن . وهذا هو عين القول بالتناسخ . ثم إن المعتقد لهذا الرأي بعد ذلك افترقوا على مناح شتى :

فذهب بعضهم الى أن النفوس دائمة التردد في الابدان من غير تمحض الى عالم المجرذات أبدا ، على معنى أنها متأثرة أبدا بما يحيط بها من البدن ، فكلما استديرت بدنا عرض له الفناء ، استقبلت آخر يستوحى البقاء ، فهي منقطعة عن عالم المجرذات بما هي لها من ذلك التناوب في الابدان حتى أحاطها متقلة بالا جرام وعلاقتها والطبيعة وغاياتها .

ويرى البعض الآخر لقيض هذا الرأي ، فيذهب الى أن النفس الانسانية إما أن تكون كاملة في ذاتها ، وإما أن تكون ناقصة ، فعلى الاول تكون كالآلات المتلاحقة قد برزت من القوة الى الفعل في آثارها المترتبة عليها وفيوضاتها التي تحملها على الانسان ، فهي تبقى

بجدة بعد المفارقة . وإما أن تكون ناقصة فنتردد في جسم أفراد النوع الانساني بالتعاقب عليها، تنتقل من تدبير بدن إنساني الى تدبير بدن إنساني آخر بينهما اتصال ووجه شبه في الاخلاق والملكات ، فلا تزال ترقى في هذا النوع حتى تبلغ الغاية القصوى في أخلاقها وملكاتها ، ويسمى أصحاب هذا الرأي ذلك الانتقال (نسعا) .

والمعجب من أصحاب هذا المذهب اناثلين يقدم النفوس الناطقة أنهم يذهبون الى أن النفوس الناقصة الرديئة منها قد تنحط الى منزلة أقل من مستواها فتتعلق مثلا ببدن حيوان يكون أليق بها وأقرب اليها كبذن الاسد للشجاعة والارنب للحن والحقد للجمل والصفع والخور للحمل والشراسة للنمر ، ودعموا نظريتهم تلك بعض ما يشاهد في الحيوانات من الاحوال الدالة على أن لها نفوسا مجردة كاتخاذ النحل رئيسا في كواراة العسل ، وتلذذ الابل بسماع ما يشوقها ويشير فيها شهوات متنوعة ، وتلذذ بعض الخيل بالإيقاع والمشاهد التي تحرك فيها نوازع الواحد إلى أليف غريب ، وتحنانها الى صاحبها البعيد ، وأخلاقها المعجبة في بعض أفراد الحيوان كالكبرياء في فصيلة السبع وكلفه بإرياسة وتجبسه مقاضبة ما عدها من الحيوان ترقعا واستكبارا ، ويسمون هذا الانتقال (منعا) .

وقد تنتزل هذه النفوس التي لم تستكمل أجاس الفضايل الى عالم النبات ، ويسمى ذلك التنزل (رسخا) . وقد تنتزل الى الاحسام الجارية ، ويسمى ذلك التنزل (فسخا) .

ومما يبعث على العجب العاجب من تفكير أصحاب هذا المذهب أنهم زعموا أن الأولى لقبول ذلك الفيض الهابط من النفوس الناقصة هو النبات لا غير ، ورتبوا على تلك النظرية نظرية أخرى هي أن كل نفس تفيض على النبات ثم ينتقل منها بعد ذلك الى ما هو أرق ، وهكذا حتى ينتهي الى المرتبة المتأخرة لأولى مراتب الحيوان ، ثم يتردد بعد ذلك في مراتب الحيوان مترقية منها الى الأعلى فالأعلى حتى تصن الى آخر مرتبة ، وهكذا تترقى رويدا رويدا حتى تصعد الى مرتبة الانسان متمحصنة ليها ، ثم ينزل تتردد بعد ذلك في المراتب الانسانية مترقية من مرتبة من الأعلى فالأعلى حتى تبلغ أعلى المراتب ، وهنا قد تخلص من حكم الابدان بصيرورتها كاملة في الانسانية ، وقد تتعلق ببعض الاجرام السماوية لكن لا على سبيل التعريف والتدبير لها كما هو ظاهر ، بل تذاق شوق وهيام ومشاهدة وحالات قدسية تهبط اليها من الملأ الأعلى قنفوز بالسعادة السرمدية . وفي الحق أن أصحاب هذه الآراء قد أخطاوا المحجة وتنكبوا الصراط السوي .

فما لمرية فيه أن هذه المذاهب وتلك الآراء — حاشا مذهب المتكلمين وبعض فرق الصوفية — باطلة ألبه .

فقد أورد المتكلمون على المذاهب القائلة بالناسخ تعقيبات لا يحصى لأصحاب هذه الآراء

من التزامها . وإذ يلتزمونها تقوم عليهم الحجة . فالتكلمون بقولون في معرض تدليامهم على فساد مذاهب التناسخ في سائر مناحيها . لو أمكن التناسخ لسكانت النفس المنطقه الآن مثلا بدن مسبوقة التعلق ببدن آخر ، ولو كانت كذلك لسكان من مستقراتها أن تتذكر الآن أنها كانت منطوقة قبل ذلك ببدن آخر ، لما تضافرت عليه الأوضاع من أن جوهر النفس الناطقة محل للعلم والحفظ والتذكر ، فهي صفات قائمة بذاتها لا تختلف بتعاقب أحوال البدن ، ضرورة أن النفس في ذاتها وصفاتها مجردة عن البدن ، فيدعى أن تبقى علومها بعد المفارقة عن ذلك البدن حتى تذكر في هذا البدن كيفية أحوالها وملايساتها والأعراض المتعاقبة عليها . وغنى عن البيان أنها لم تتذكر شيئا كان لها ثم انفصل عنها ، وهذا يدل على أنها لم تكن موجودة في بدن آخر .

ونقل الخوحة الطوسي عن جمهرة من أهل التحقيق تعقبا على القائلين بالتناسخ يتلخص في أنه لو تعلققت النفس الناطقة بعد مفارقتها بدن آخر لم أن يكون عدد الهالكين مساويا لعدد الكائين والإقيت بعد المفارقة مجردة ، فيلزم عن ذلك التجرد تطلها ، وقد تضافر علماء الطبيعة على منع الممطل في الطبيعة مع أنه قد يهلك في الطوفان السكلى أو الوباء العام على افتراض حدوثهما أبدان كثيرة لا تقع فظاثرها إلا في أزمان متطاولة وآماد متباعدة ، وهذا بطبيعته ينتقص من إحدى السكتين أبدأ فالايتيسر إلحاقها بأبدان كائنة حية . لكن أوردوا على هذا التعقيب تعقيبات أخرى ، فقالوا : لانسلم أن يكون عدد الهالكين مساويا لعدد الكائين ضرورة أن التعلق ببدن آخر ليس مشروطا فيه أن يكون لازما من فوره ، فاما إذا كان جائزا أو لازما ولو بعد زمان فلا يمكن أن يقوم عدم التساوى بين الهالكين والكائين برهان على نطلان التناسخ لا مكان أن تعقل تقوس الهالكين بعد حدوث الأبدان الكثيرة على التراخي . وأيضا فقد منعوا كون التماسدات أكثر من السكائنات ، ووقوع الوباء العام أو الطوفان السكلى الذي يهلك فيه كل ذى نفس حتى تحقق معه زيادة الهالك عن الكائن ، غير معلوم الوقوع بالضرورة .

وأورد على القائلين بالتناسخ تعقيب آخر ينقص رأيهم من أساسه ويجعله مجرد خيال ليس له من الواقع منزع ولا من الحقيقة مرد ، فاستدل أصحاب هذا التعقيب على نطلان التناسخ بأن النفوس حادثة وحدثت العوالم لاسيما الجواهر منها لا بد أن ينتهى إلى علل قديمة ، ولا بد أن يسكون حدوث تلك العوالم عن تلك العلل في وجودها موقوفا على حدوث استعدادات القوابل ، والقابل للنفس إنما هو البدن ، فيلزم عن ذلك أن يكون حدوث النفس عن علل القديمة موقوفا على حدوث الأمزجة الصالحة لقبولها ، حتى إذا تكونت في البدن مزاج صالح لقبولها أقاضت عليه النفس المدبرة ، فإذا حدث البدن وفرض أن نفسا تعلقت به على سبيل التناسخ فلا بد أن تعقب عليه نفس أخرى ، كما يستتبع ذلك مذهبهم ، فيلزم بالتالى أن يكون لكل بدن نفسان وذلك يهدى البطلان لما ثبت من أن لكل نفس واحدة بدنا واحدا .

على أن القائلين بالتناسخ شبهات استنفدت شطرا غير قليل من بحوثهم ودراساتهم ، وعلى كثير من علماء الكلام بدحض هذه الشبهات ، فن حق الاستقصاء على كل باحث أن يمرض لجانب من تلك الشبهات حتى يكون القارئ على بينة منها . فقد استدلوا على التناسخ بوجوه عدة لا بأس أن نورد جانباً يسيراً منها ، قالوا : من المسلم به ألا معطل في الوجود ، فإذا لم تتعلق النفس بعد المفارقة ببذن آخر كانت معطلة البتة ، وأن الشأن الأول للنفوس والمطمح الاعلى لها إنما هو الاستكمال من خصائص الوجود ومميزاته ، والاستكمال في أقل مراتبه لا يكون إلا بتمتعها بالبدن .

ودعوا نظريتهم بحجة آيات من القرآن ساقوها في معرض تعزيز ما ذهبوا اليه من الآراء ، قال تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمتناكم » على معنى أنها كانت شعوباً وطوائف مثلكم في الصور والمعاش والمهلك وغيرها من الصناعات المختلفة التي يمارسها البشر في سائر مساحيه ومختلف أقالمه ، غير أن تلك الأمم وهذه الشعوب قد انقضت نفوسهم من الصورة الانسانية واستحالوا منها إلى حالتهم الراهنة المائلة لميولكم . كذلك في قوله تعالى : « فقلنا لهم كوافردة غاسقين » أي بعد كونهم أممى حرى عليهم الخطاب فعلياً لهم وتنويعاً بقادح عقوبتهم حتى استحالوا من أممى مخاطبين إلى فردة غاسقين . وفي قوله تعالى : « وجعلنا منهم الفردة والخازير وعبد الطاغوت » . فهذه الآيات تدل على التناسخ في حتمتها . ولعل القائلين به يمترون تلك الآيات في معرض تدليلهم وسوق براهينهم ، لكن قال العلامة الشيرازي في شرح كتاب حكمة الاشراف : ليس في هذه النصوص الكريمة على كثرتها ما يصلح أن يكون مرجحاً لرأى التناسخ ، ضرورة أنها رموز بديهية وسرار إلهية قصد بها زجر الأمم الخارجة عن محبة الصواب ، وإلقاء أفضل المثل على الأمم الرشيدة التي أخذت بأفضل أنماط النعالم الإلهية ، حتى قال القرطبي : إن المراد بالمسخ هو المسخ الخلقى لا المسخ التصويري . من أجل ذلك قال سعد الدين في بعض شروحه على المقاصد : مما لا مرأى فيه أن المتنازع عليه هو أن النفوس بعد مفارقتها الأبدان تنعاق في الدنيا بأبدان أخرى للتدبير والتصرف والاكتساب لحسب ، وليس ذلك على معنى أن تبدل صور الأبدان كما في المسخ ، أو يجمع ذراتها الأولى بعد التفريق ، فتجد إليها النفوس كافي المعاد ، على توهم بعضهم . ويدهى أن تبدل صور الأبدان مستتبع لتبطلها قطعاً ، فإن تمام كل شيء بصورته لا بآدته ، فإذا تبدلت الأبدان في هذا العالم بأبدان أخرى فلا يحسب من لزوم التناسخ ، لكن تبدل الأبدان بأبدان أخرى مستحيل الوجود ، فكذلك التناسخ كما لا يخفى على من له مسكة في هذه الصناعة .

واستيفاء البحث موعدنا به العدد القادم إن شاء الله .

عيسى ط

المجاهد الشرعي

العلم والدين^(١)

يظن بعض من لا خبرة له بالعلم أو بالدين الاسلامي أو بكليهما ، أن هذه العلوم المسماة بالعلوم الطبيعية ، والتي يصح تسميتها بعلوم الفطرة ، علوم مستحدثة ، وأنها غريبة عن الدين ، وأن من الجائز وجود تناقض بين حقائقها وحقائقه . لكن ظنهم هذا باطل ، لأن هذه العلوم الطبيعية هي في الواقع علوم إسلامية ، لأنها في الواقع علوم قرآنية ، قرآنية في موضوعها ، قرآنية في ماريقتها ، بل قرآنية في اسمها ، لأن مادة (علم) بهذا المعنى الطبيعي المعروف واردة أيضا في القرآن .

فأما ورود مادة (علم) في القرآن الكريم بمعنى العلم الكوني الذي يسمى الآن بالعلم الطبيعي فذلك نراه في القرآن في أكثر من آية . ففي سورة الانعام وردت آيات كثيرة موضوعها الحث على طلب هذا العلم بآيات الله في الكون ، نذكر منها قوله تعالى : « وهو الذي جعل لكم السحوم تهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . كذلك وردت آيات عدة في سورة الروم ، نذكر منها قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ليلنكم وألوانكم » ، إن في ذلك لآيات للعالمين » . كذلك في سورة طه آيات كونية ، نذكر منها قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نباتات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغريب سود » ، ومن الناس وادواب و الانعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » . وواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا هم الصالحون بالآيات وأسرار المخلوق التي أودعها الله سبحانه فيما أشارت إليه هذه الآيات الكريمة .

هؤلاء العلماء إذا كانوا مؤمنين بحملهم علمهم بأسرار الفطرة على خفية الله فاطر الفطرة ، لأنهم يسكبون علمهم أنصر بعظمة الله سبحانه وحلاله وقدرته المنجية في آيات صنعه . وهذا في الواقع هو الحسكة الكبرى التي من أجلها أمر الله الانسان في كثير من آيات القرآن بالظر فيما خلق الله في السموات والارض من خلق . وهناك طبعا الى هذه الحسكة الكبرى حكم أخرى هي مايتبع طاب هذه العلوم الكونية من منافع مادية دنيوية آتية من استخدام حقائق العلم في شئون الانسان ، كالا تنفاع مثلا بمخاوص الكهرباء والنخار والحديد في هذه القطارات والسفن البخارية ، وهذه المركبات والمصاييح الكهربائية . والحكم كلها مرادة

(١) هذا هو الباب الاول من كتاب حيل الفائدة وصمه حديثنا الاستاذ المحترم محمد احمد الشراوى «درس تكليق الطب وأصول الدين تحت عنوان (في سعة الله الكونية) نشره إدلالا على فضله » وهو من أحسن ما يكتب تحت عنوان العلم والدين .

له سبحانه حين أمر الإنسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، إلا أن الحكمة الأولى حكمة خشية الله المشار إليها في « إنما يخشى الله من عباده العلماء » هي الحكمة الكبرى ، إذ عبادة الله وخشيته هي الغاية الأولى والآخرة من وجود الإنسان .

العلم قرآني بموضوعه :

وأما قرآنية موضوع هذه العلوم الطبيعية فذلك واضح من الآيات السابق ذكرها ، وما لا يتيسر الآن ذكره من نحو خمس آيات القرآني وإن تيسر ذكر بعضه ، مثل قوله تعالى من سورة النحل : « وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن تمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا ، إن الله عليم قدير » . ومثل قوله تعالى من سورة الجاثية : « الله الذي ححر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتنبثوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فموضوع هذه الآيات السريعة ، ما ذكر منها وما لم يذكر ، هو نفس موضوع العلم الطبيعي بأوسع معانيه ، ما عرفه الإنسان منه وما سيعرفه .

فالعالم الطبيعي ، كما قلنا ، يبحث عن الأشياء الكونية : طوائفها وخواصها ، والعلاقات بينها ، ثم عن حقيقتها إن أمكن ، أي عن آيات الله المودعة في هذه الأشياء . ففي آية طار مثلا لا يعرف سر نزول الماء من السماء إلا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء ، ولا يعرف الابات والأمطار والماء فيهما إلا بعلم النبات ، ولا يعرف ما الجبال ولا ما طرائقها لبيض والحر والسود إلا بعلم طبقات الأرض ، ولا يعرف اختلاف أجسام الناس والدواب والأنعام إلا بعلم أصل الشعوب والحيوان الخ . وعلى هذه الآيات فقس غيرها . فهذه العلوم الطبيعية ليست قراءة الموضوع فقط ، بل هي لابد منها لتفسير الآيات الكونية في القرآن .

العلم قرآني بطريقته

أما أن طريقة العلم في طلب سرار الطبيعة هي نفس الطريقة التي أمر بها القرآن فيدين مما يأتي :

أولا : أن العلم لا يقول من شيء إنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع ، والقراءان الكريم يأمر كذلك بأن لا يقبل الانسان شيئا على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان . يقين ذلك من مثل قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، تلك أما نهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وقوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون » . والعلم هذا هو الحق اليقيني القائم الثابت بالحجة القاطعة ، بدليل عيبه عليهم إزاهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين في قوله تعالى : « إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون » .

ثانيا : أن العلم يحاذر كل الهاذرة أن يحمل يقينيا ما ليس بيقيني ، وأن ينزل الظن منزلة اليقين ، أو أن ينزل المرض والتخمين منزلة الظن والترجيح . فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التي تشهد بالقضية ، فإذا كانت الحجة قاطعة فالقضية حق ، وإذا كانت غير قاطعة فالتقصية ظن ، ويسمى العلم في هذه الحالة نظرية إذا كانت أرجحيتها كبيرة ، إذ من الواضح أن هناك في الرجحان مراتب بعضها أرقى من بعض . أما إذا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها ، فذلك هي القضية المجهولة التي وقعت موقعا وسطا بين الحق والباطل لا يدري إلى أيهما هي أقرب . وأمثال هذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة في منطقة الرجحان ، قل حظها من الرجحان أو كثر ، هي موضع النظر العلمي والبحث ، لا يزال العلم يبحث عنها ويحصيها حتى ينتهي فيها إلى حكم قاطع فيأخذها إما بالحق اليقيني وإما بالباطل اليقيني . وهذا التفريق من العلم في المنزلة بين ما هو حق وما هو راجح وما هو دون الراجح ينفق تماما مع روح القراءان الكريم في النظر ، ومع طريقته المنهجية في القراءان الكريم كله ، خصوصا تلك الآيات منه التي من قبيل ما ذكر تحت . (أولا) مثل قوله تعالى من سورة النجم : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألمك الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأفتس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . ومثل قوله تعالى من سورة الجاثية : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » وقوله تعالى من سورة يونس : « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغني من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون » .

ثالثا ، وهو ما حق بالأسلين السابقين : أن العلم يمح التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم قديما في هذا ، لأن العلماء قديما ، خصوصا في القرون الوسطى ، كانوا كثيرا ما يفتنون في الاستدلال على الصحة أو البطلان بآيات أن

القضية توافق أو تخالف رأى فلان أو إعلان من المشاهير ، فكان ما يشتهر عن أرسطو مثلاً يتخذ حجة قاطعة في موضوعه من غير أن ينظر في رأى أرسطو هذا في ذاته ، ومن غير أن يسأل مدلول أرسطو . وكان هذا منيع شر كبير ، ولعله كان سبب كثير من الشبه الكلامية التي قامت بين علماء المسلمين ، بعد أن ترجمت كتب اليونان في العصر العباسي ، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة وما كانوا يسمونه الحكمة ، يريدون بالحكمة ، قالوا ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون وأرسطو وأصراهما ، حتى جاء أمثال الغرالي من المسلمين فوضعوا الأمر في نصابه .

والعلم في منعه التقيد الأعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذي شدد السكينة على أناس كانوا يستسكرون بالرأى ، لآلائهم عقوله ، ولكن لأن آباءهم فعلوه . ترى ذلك من مثل قوله تعالى من سورة البقرة : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وقوله تعالى من سورة المائدة « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » أو قوله تعالى من سورة الزخرف « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ونا على آئارهم ، هتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ونا على آئارهم مقتدون . قال أولو جئكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » فانتقمنا منهم فالظر كيف كان طغية المكذبين » ، فالتقليد الأعمى ، أى الاحتذاء بالرأى من غير دليل أو رغم الدليل متبادلة لزيد أو لبكر من الناس ، محرم على أهل النظر في حكم لعلم وفي حكم القرآن .

والأصل الجامع لذلك كله في العلم وفي الدين هو تحكيم العقل في كل ما يمرض للناس من أمر . والمراد بالعقل ليس هو العقل الخاص عقل الفرد ، ولكن العقل العام أو العقل المطلق الذي منبسط قوانين تفكيره عن طريق الاستقراء وأودعت ما يسمى بعلم المطلق . هذا العقل هو الحكم في العلم ، وهو الحكم في الدين . فالقرءان دعماً يحاكم إلى العقل ويسمى على من لا يستعمله . بل إن العقل قد أكبره الإسلام إكباراً دون أى إكثار ، حتى لقد أوجب الشرع تأويل النص إلى ما يطابق العقل إذا كان ظاهر النص يناقض ما ثبت قطعياً بالعقل . وكلمة « قطعياً » هنا مهمة ، فلا يجوز تأويل النص من أجل ما هو راجح عند العقل ، لأن العقل نفسه يجيز بطلان ذلك الراجح ، فلا حكمة هناك إذا تأويل النص الشرعى من أجل ما قد يثبت المستقبل أنه من الباطل . والامثلة التي ضربت في الشرع لوجوب التأويل كلها من باب قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » فإن نسبة الجارحة إلى الله تعالى محال ، فوجب تأويل الآية عن ظاهرها إلى معنى من المعانى المجازية اللائقة به تعالى ، فأولوا اليد إلى القدرة . لكن من الممكن

أن يقال إن هذا النوع من التأويل غير لازم عند النظر في الآيات الكونية القراءانية . بل كثيرا ما يكون المعنى الحرفي للآية السكريمة هو المنطبق على ما ثبت عند العلم بالبرهان .
رابعا : أن العلم في تطبيقه قوانين التفكير المجموعة في علم المسطق القياسي يتخذ أصليا اثنين يبنى عليهما :

الاول : أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق ، فليس من الممكن أن ينقض حق حقا ، وما ينقض حقا إذا فهو باطل . وهذا يصح أن يسمى بأصل نوافذ الحقائق .
الثاني : أصل اطراد الفطرة . فثبت أنه حق في وقت ما سيكون دائما حقا ، أو بصارة أخرى أن الحق مستقل عن الزمان والمكان .

وليس عند العلم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه الماسية ، فانه لم يشاهد مطلقا أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية ، أي لم يشاهد مطلقا نقضا بين حقائق العلم ، سواء اكتشفت تلك الحقائق في الماضي أم في الحاضر ، في الأرض أم في كوكب من الكواكب ، بل كثير من حقائق العلم إنما استنتج بناء على هذين الأصلين : أصل اتساق الحقائق أو امتناع التناقض بينها ؛ وأصل اطراد الفطرة ؛ وكانت التجربة دائما تؤيد الاستنتاج . بل من الواضح أن العلم يصبح مستحيل الوجود ومستحيل النمو لو انهار أحد هذين الأصلين أو كلاهما . وهذا سبب آخر يجعل العلم يستمسك بهذين الأصلين محافظة على وجود نفسه ، وإن عجز العلم عن إقامة الدليل على صحتهما فيما يتعلق بالمستقبل .

هذان الأصلان اللذان يستمسك العلم بهما هذا الاستمسك هما أصلان قرآنيان أكدهما منزل القراءان سبحانه كل التأكيذ ، وهو سبحانه أعلم بما خلق . فأصل اطراد الفطرة ثابت قرآنيا من مثل آية الاحزاب : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » او آية طه : « فهل ينظرون إلا سنة الاولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا » ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » وآية الروم : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » . فهذه آيات صريحة في اطراد الفطرة وبقاء سن الله فيها على الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل . والفطرة ومنها هنا تشمل كل ما وجد في ملكوت الله ، سواء في ذلك ما تعلق بغير الانسان من جماد ونبات وحيوان ، أو ما تعلق بالانسان من ناحية النفس والروح في الفرد والجماعة مما لم يرتق العلم اليه الى الآن .

أما أصل نوافذ الحقائق أو استحالة تناقضها فثبت قرآنيا من الآيات السابقة ، لأن تناقض الحقائق يستلزم تناقض الفطرة ، ويزداد ثبوتها بقوله تعالى من سورة تبارك : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، فالتفاوت هو أكبر التفاوت ، فإذا ما اتقى التفاوت في خلق الله لم أن يبنى التناقض في خلق الله أيضا .

خامسا : أصل الملاحظة .

عرفنا أن العلم في بحثه عن الحقيقة يسلك سبيل العقل ، فلا يعتبر حقا إلا ما قام البرهان على أنه حق . فالعلم دائم البحث إذاً عن البراهين التي تثبت حقائق الأشياء . هذه البراهين عرفنا من أنواعها النوع القياسي ، أي الذي يتوصل اليه بالقياس الصحيح . لكن القياس الصحيح إنما يؤدي الى نتيجة صحيحة إذا صححت المقدماتان كلتاهما . أما إذا كانت إحداها باطلة أو مشكوكا فيها فإن النتيجة يصيبها من الطلان أو الشك مثل ذلك ، وإن صححت طريقة الاستنتاج . وبعبارة أخرى يلزم لصحة النتائج شرطان : صحة المقدمات كلها ، وصحة طريقة الاستنتاج التي هي نفس القياس . أما صحة طريقة الاستنتاج فقد تكفل بها المدقق القياسي ، لكن المقدمات ما شأنها وما طريق التثبت من صحتها ؟

كثير من المقدمات ناتج عن طريق القياس من مقدمات أولية بديهية الصحة لا يختلف في صحتها العقلاء ويصلون إليها مستقلا بعضهم عن بعض . وعلم الهندسة النظرية على تعقد نظرياته مستفجج كله من أمثال هذه البديهيات . لكن ليس كل المقدمات يمكن ردها الى بديهيات كهذه عند إثبات صحتها . ولا بد إذاً في إثبات صحة هذا النوع الثاني من طريق آخر غير طريق الاستنتاج من البديهيات . هذا الطريق الآخر هو طريق الملاحظة الصحيحة . وهو الطريق الذي سلكه الى حد ما العلم قديما ، ويسلكه دائما العلم حديثا حتى صار طابعه الذي طبع به وميزته التي امتاز بها .

هذه الملاحظة العلمية تستعمل فيها الحواس خصوصا السمع والبصر ، لكن بشرط ترتيبها وتدريبها من ناحية ، وإعطائها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى . هذه الآلات هي في الواقع وسائل هدى الله إليها الانسان ليزيد في مدى حسه ، ويزيد في مدى إحصاره مثلا بالمجاهر أو (المكروسكوبات) التي يستطيع الانسان بها أن يرى من الأجسام ما صغر حتى دق من أن تبصره العين المجردة ، كالجراثيم وكرات الدم وخلايا الأجسام الحية ، أو يزيد في مدى إحصاره بالمراقب (التلسكوبات) التي تقرب للانسان الأجسام البعيدة فيرى منها ما لم يكن يراه من قبل . فأما المجاهر فتستعمل كثيرا في المعامل ، وأما المراقب فتستعمل غالبا في المراسد .

هذا الأصل أصل الملاحظة الصحيحة هو إذن الطريق الثاني الذي يسلكه العلم الطبيعي للوصول الى مقدمات صحيحة ، ولولاه ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع ولا نمت هذا الخلق ولا كشفت ما كشفت من أسرار الخلق . فالملاحظة أصل علمي عظيم ، وهي أيضا أصل قوامي عظيم ، فإن الآيات التي تأسر بالملاحظة واستعمل السمع والبصر والعقل كثيرة في القرآن ، نذكر منها ما يأتي :

(١) استعمال البصر مع العقل :

« قل سبروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، المنكسوت . » أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، تبارك . « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ » الآيات - الغافية .

(٢) استعمال السمع مع العقل :

« أفلم يسبروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ » الحج .

(٣) استعمال السمع والبصر مع العقل :

« ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » الأعراف .

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تفكرون » النحل .

« ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » الأمراء .

(٤) استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل :

« أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » الأعراف .
فهذه الآيات القرآنية الكريمة تحض الإنسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إليها من طرق المشاهدة الصحيحة بجميع أساليب الحض ، ثم هي مع ذلك تؤدبه من حيث استعمال هذه المواهب على وجهها الصحيح . فآية « ولا تقف ما ليس لك به علم » الآية : تنهاه من ناحية أن يجرى مع الهم أو الظن ، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول إلى ما ليس بوم ولا ظن ، أي إلى اليقين والحق عن طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل . « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وفي قوله سبحانه « كل أولئك كان عنه مسئولا » ليس فقط أمر شديد بإحسان استعمال البصر والسمع والعقل وعدم إهمالها بل فيه أيضا أمر بالاستمسك بما يهتدى إليه الإنسان من الحق عن طريقها . ففي هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هي جماع أصول النظر العلمي :

الأول . ألا يتبع الإنسان إلا الحق المعلوم يقينا « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

الثاني : أن طريق الوصول الى هذا الحق هو المشاهدة

المسيحية والتفكير الصحيح ١ «إن السمع والبصر والفؤاد

الثالث أن على الانسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق / كل أولئك كان عنه مسئولا»
عن طريق هذه المشاهدة والتفكير الصحيحين

على أن علم الانسان كله مصدره العقل والمشاهدة الصحيحة . بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عن طريق التجارب والمشاهدات . فلو أخذ طفل وحبس عن العالم إلا فيما يكفى لحياته من طعام وشراب ، فانه وإن نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال لا ينمو عقله عن عقل الطفولة . بهذا يقول علماء التربية ، والى هذا تشير الآية الكريمة « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تفكرون » ، فان هذه الآية تسكاد تكون صريحة في أن ما يحصله الانسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل .

مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث :

وأصل المشاهدة الصحيحة هذا هو من أهم الفروق بين العلم الحديث والعلم القديم ، فان القدماء كانوا في جهلهم يمتدحون أن من الممكن أن يصل الانسان الى ما يشاء من علم عن طريق العقل وحده ، أي لم يكونوا يقولون بضرورة المشاهدة للحصول العلم ، بل منهم من كان يرى أن المشاهدة تضل العقل لان الحواس غير مأمونة في أثنائها ، ترى الشيء صغيرا كالنجم مثلا وهو كبير . لذلك كانوا كثيرا ما يكتفون في طلب العلم وأسرار الفطرة بالجلوس والتفكير ، فكانوا يصلون الى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق ، ولما يقيم عاينا دليل ، إنما كان دليلهم فروضا يترصونها برونهاحقا ويركضون اليها في الاثبات ، فقيثا غورث مثلا يقول عن السكون : إنه منفرد كامل كروي لأن الكرة أكمل الاشكال ، وإنه حتى مائل لأن ما هو حى ومائل خير مما ليس بحى ولا مائل . فتل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي غير المرتكز على حقائق يقينية ينسكبه العلم الحديث كما ينسكبه القراءان .

ومن هنا وقع قدماء الفلاسفة من اليونان في أغلاط كثيرة من حيث لا يشعرون ، كقولهم : إن للأجرام السماوية في أفلاكها نفثات يعارب لها من يسمعا ، وإن لهذه الأجرام أترا كبيرا فيما يصيب الانسان من نحس أو سعود . وقد سقط كثير من المسلمين في نفس هذه الاغلاط حين أخذوا علم اليونان كله على أنه حق من غير أن يطبقوا الله فيه فيمحصروه ، ومن غير أن يردوه الى القسرة ان . بل مانع بهم الامر أنهم كانوا يردون القراءان اليه ، كقول اخوان الصفا : إن إدريس عليه السلام هو هرمس المثلث بالحكمة ، صفت نفسه فصعدت الى السماء

وطافت مع بعض أجراءها ثلاثين عاما ، وشاهدت من المعجائب ما لا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف ، وأنى الى هذا فى زعمهم يشير القراءان الكريم فى قوله تعالى : « ورقمناه مكانا عليا » . وهذا نوع من فهم القراءان لا يحير القراءان كما رأيت ولا العقل . ولعلنا لو بحثنا فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، وما كان بين علماء المسلمين من خلافت كلامية ، لوحدنا أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلها راجعا الى قضايا فلسفية أخذها المدونون عن اليونان من غير تمحيص .

كان قدماء الفلاسفة إذن يرون العقل مصدرا للحقائق مستقنيا بذاته عن الملاحظة ، أما محدثوهم فيرونه وسيلة . أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث فهي خارج النفس ، خارج العقل . كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضروريا لطالب الحقيقة ، أما المحدثون فلا يرون سبيلا للوصول الى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل . والعلم الحديث باختراعاته واكتشافاته قد ولد حين ترك الانسان مذهب الأقدمين فى طلب العلم عن طريق التفكير الدحت ، وبدأ هو بطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير . لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث هو دور مشاهدة تكاد تكون بحثة ، ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها .

ما قيل فى الشيب

قيل للبي صلى الله عليه وسلم : عجّل عليك الشيب يا رسول الله . قال شيبتي هود وأخواتها (يريد سورة هود وأخواتها لما فيها من الاوامر والنواهي)
وقيل لعمد الملك بن مروان : قد عجّل عليك الغيب يا أمير المؤمنين .
قال : شيبتي ارتقاء المنايا ، وتوقع الحسن .
وقيل لرجل من الشعراء : عجّل عليك الغيب .
فقال : وكيف لا يعجل وأنا أعصر قلبي فى حمل لا يرجى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .
وقال حبيب الطائي

غدا الشيب مخمطا بقودى خلة طريق الردى منها الى النفس ضيع
هو الزور يخفى والمعاشر يحتوى وذو الالف يبلى والحبيب يرقع
له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع
وقال محمود الوراق :

بكيت لعزب الأجل وبعد قنات الامل
ووافد شيب طيرا بعقب شاب رحل
شباب كان لم يكن وشيب كان لم يزل

تاريخ الادب العربي في العصر الاموي^(١)

في الشام والعراق

لم تصادف فوق الأدب الاجواء الهادئة في المتاحكات العربية من الشام الى العراق مثل التي صادفتها في بلاد العرب الأصلية إبان حكم الأمويين ، ولم تغد الحال في ذلك من تطورات الحياة بالمستعمرات في جميع أطوار التاريخ ، فان التقدم السريع المصاحب بمواصف الحاس والمنازعات كان دائما أبدا من مظاهر الحياة و، وانها في الاصطاع التي اكتسبت بطريق الغزوات ، بعكس التطور الهادئ والتقدم المعتدل على الوتيرة القديمة في الأوطان الأصلية ، خصوصا أن العرب كانوا قد ضموا بفتحهم تلك البلاد الى حضارتهم حضارتين قديمتين ، فكانت الحياة المتوطنة والسكنى الدائمة في بلدين مثل العراق ودمشق بما فيها من تباين في أسباب المهيئة وأساليبها من حياة البدو والترحلة ، مدعاة لمواصف السياسية الشديدة التي لم يقو على كبح جماحها أحد قبل عبد الملك والحاكم الحديدي الحجاج بن يوسف ، ولم تمر هذه العواصف دون أن تترك أثرا ظاهرا في تطور فنون الشعر ، وتطعيمها بطابعها الخاص في هاتين البلدين .

وأول من استحق مركزا ممتازا بين الشعراء في هذا العصر هو الأخطل غياث بن غوث شاعر ملوك بني أمية ، وهو من قبيلة تغلب التي هاجرت قبل الاسلام واستوطنت العراق ، وكان الأخطل مسيحيا مثل عشيرته التي ينتمى اليها ، وبقي أبدا محمدا لدين آباءه ، ولم يحقد عليه ولي نعمته عبد الملك بسبب عقيدته وهو شاعره المصطفى ، بل على عكس ذلك بالمرّة فانه كان يستعمل في أغراضه كلما أراد الرد على متطرفي السنة من أهل المدينة .

بدأ الأخطل حياته الشعرية في عهد معاوية الاموي بحوء الشاعر المدني عبد الرحمن بن الحكم ، الذي نفرت منه البيوتات المسكية القديمة بسبب أشعاره الغزلية المدعاة في بناتهم ، الى أن تحاصر أخيرا بمهاجمة إحدى أميرات بني أمية بشعره ، فلما صده الأخطل وقضى عليه اكتسب ثناء يزيد وعطفه ، وكان إذ ذاك وليا لعمد ، فلما صار اليه الحكم عام ٦٠ هـ أخذه في بطانته وبقي بالبلاط كذلك في عهد خلفائه وخامسة عبد الملك .

وكما كان حسان بن ثابت بشعره في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحقه بق أغراضه ،

(١) تسكمت نقال المنشور في الجزء الثامن من المجلد السابع (١٣٥٥ هـ) مترجما عن الألمانية بتلا عن كتاب « تاريخ الادب العربي » للمشرق الألماني الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

كانت أشعار الاخطل دائماً في خدمة أغراض سيده وولى نعمته لتهيئة الرأي العام ، وقيمته السياسية هذه تهمر لنا مركزه الممتاز .

وكانت الروح البدوية تغلب على الاخطل بين آونة وأخرى ، فكان يقيم حيناً بين عشيرته في البادية ، وتزوج هناك عدة مرات ، ولم تكن ديانته المسيحية بمعاقبة له عن الطلاق ، واشترك مع قبيلته في منافراتها بالقول والفعل ، وكثيراً ما حاق به الاذى بسبب ذلك .

واشترك كذلك زماً طويلاً في المنافرة الشهيرة التي قامت بين شاعري المراق الكبيرين جرير والفرزدق ، وحكم في صالح الاخير ، ومات معمرًا عام ٩٢ هـ .

وأجمع نقاد العرب على وضعه في مرتبة هــ الذين الشاعرين دون أن يتفقوا على أي الثلاثة أفضل ، وكان علماء العرب اللغويون يرفعون منزلته ويملكون من قيمته بسبب انقياده الاممي وتقليده للأسلوب القديم ، مما يجعلنا أقرب للحكم على ضعف شعره ، ولو أننا لا نعطفه حقاً في السيطرة النامة على اللغة والصناعة الشعرية ، ونعترف بتفوقه في هذا الفن خصوصاً في السخرية اللاذعة .

وتتمتع بمثل شهرة الاخطل جرير بن عطية بن الخطمي شاعر الحجاج بن يوسف حاكم العراق ، ولد جرير في أسرة كلب من قبيلة تميم في خلافة علي بن أبي طالب ، واكتسب عطف يزيد بن معاوية ، وانضم بعد ذلك الى بطانة الحجاج ، وأكثر من مديحه بقصائد عديدة ، واشتهر بمنافراته الشعرية التي أنزلت من قدر الدن الشعري القديم في المهجاء ، ولقد اشتبك مع جميع الشعراء من معاصريه ولم يتغلب عليه أحد .

لم يجد جرير من هو في منزلته من الشعراء سوى الفرزدق ، فدارت بينهما المسافرات العنيفة حتى وفاته ، وكانت محور حديث جميع طبقات الشعب ، وقام الحدل طويلاً في الافضل منهما بين معاصريهما ، بل دام الى أبعد من ذلك ، فشق كثيرًا من علماء اللغة المتأخرين .

وبالرغم من الحاح الباهر الذي أحرزه جرير ، فإنه لم يكتسب عطف ملوك بني أمية ورضاهم ، فلم يستقبله عبد الملك في بلاطه إلا بعد إلحاح طويل من محمد بن الحجاج وكان قد قدم بصحبته ، ولما صادفه الوليد بن عبد الملك بالمدينة أمر بحبسه مع أحد الشعراء لتضهيرهما لسيدات من بطانة الملك ، ولم يعرف عنه سوى عمر بن عبد العزيز الذي كان دائماً يمجّد عن جميع خلفاء بني أمية في تصرفاته في كل الامور ، فوحد منه عطفًا كبيرًا ، وتوفي جرير عام ١١٠ هـ بضيقه باليأس في بلاد العرب الوسطى .

وأما الفرزدق همام بن غالب ، ويعتبر ثالث الشعراء العظام في هذا العصر ، فترجع شهرته الى منافراته مع جرير التي أمنت فيها الفرزدق موهبته الممتازة في الهجو ، وهو من عشيرة دارم من قبيلة تميم ، وولد عام ٢٠ هـ من أسرة بدوية عريقة كانت استوطنت البصرة من قبل ،

وكان يجمع كل الخصال الذميمة التي امتاز بها العرب الذين استوطنوا العراق من شهوات قوية وشغف بالمناع الديبوي ، وعدم تقيد بالقواعد الخلقية أو الروابط القانونية ، حتى كبرت حماهم الحكومة الحازمة ، ولم يجد الفرزدق عن مواطنيه في الصفات الخلقية إلا يتمسكه الحيد بالاحلام لا لعل على بن أبي طالب وتبجيلهم حتى في أخرج المواقف وأشد الازمات ، فلما كان شبيها في السبعين من عمره تقابل مع هشام بن عبد الملك بمكة وأنشده قصيدته المشهورة في مدح حفيد علي رضي الله عنه ، وهو يعلم علم اليقين أن أقل حزاء على ذلك هو الحسن .

وكانت أول أعماله الشعرية هجاء بني نهشل ، وهم سلالة أسرة طالبة في الحسب بالبصرة ، وكان لهم مركز مرموق يار حكم زياد بن أبي سفيان وإلى العراق ، نفخى بأسه ونقمت عليه فهدر إلى المدينة حيث انغمس في المغامرات الدنيوية التي كانت ناشية بالمدينة موطن شعراء الغزل ، وأخذ قسطا وافرا من هذا الفن دون أن يترك الهجاء ، مما أثار عليه حقد مروان بن الحكم الذي أمر بنفيه بعد أن صارت إليه حكومة المدينة ، وبلغه خبر وفاة زياد وهو في طريقه إلى مكة فعاد حرا طليقا إلى موطنه بالعراق .

وكانت النساء تلعب دورا هاما في حياته ، فأكثر من شعر الغزل والتشهير بهن ، خصوصا ما أنشده في علاقته بنوار إحدى قريباته التي أرغمها على الزواج منه فيما بعد ، وكانت حياتها معه ملأى بالمناعب ، التي استغلها منافسه جرير في حملته عليه ، ويرجح أنه توفي عام ١١٠ هـ .

كان الهجاء أبرز أشعار الفرزدق ، فانه بالرغم من مغامراته المديدة كانت قصائده الغزلية لا تمحى إلا مرا كز ثانويا بين أشعاره ، بينما بدء جرير في هذه الداحية من الشعر مع أنه لم يعرف عن علاقاته للنسائية شيء ، وامتاز الفرزدق بسيطرته المطلقة على اللغة ومترادفاتها الكثيرة ، ولكنه كان قبليل التعرج في الناحية الأدبية ، فلم يسكتف بتقليد الشعراء القدماء بل لم يخش سرفقة معاصريه بكل جرأة .

وإلى جانب هؤلاء الشعراء الذين ظهروا في الحياة السياسية العاصفة وبرزوا في فنون الهجو الشخصي ، كان يوجد أيضا بالشام شعراء استموتهم الحياة عملاذها ، واستعدوا مناع الدنيا ، فبرز في ناحية الغزل بسلاط الوليد بن عبد الملك عبد الرحمن بن اسماعيل الوضاح وهو من شعراء جنوب بلاد العرب ، واشترك لشمال الشام في مناقشات الحدود ضد البيزنطيين ، ثم استوطن دمشق ، وذاعت بها قصائده الغزلية ، إلى أن اجترأ على امرأة الخليفة بقصائده الغرامية ، فقتله الوليد شر قتلة .

وأما الحريات الشعرية فانها كانت ممثلة في هذا العصر خير تمثيل في الأمير لاموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وولد عام ١٠٥ هـ وفقد أباه وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وانغمس في ملاذ الشباب وشهواته ، وكان يريد له همه وراثته الملك ، ولكنه عدل عن رأيه وأوصى بها

لأنه مسلمة ، فلما أراد إسماعيل طلب منه قيادة قافلة الحج نية استعباده الى مكة فيبقى بها إشباعاً لزواته الجنوبية ، وقد تمت له هذه المكيدة ، فاستمذّب الوليد بها حياه المجون ، وفقد بذلك حقه في الخلافة ، إلا أن الحكم قد آلى اليه بالرغم من ذلك بعد وفاة هشام عام ١٢٥ هـ وروى عنه في أيام حكمه القصيرة خروج على الدين والتقاليد الاسلامية ، ولم تقو أخلاقه الضعيفة على الوقوف أمام هواصف هذا العصر وتياراته الجارفة فحسكت حوله الدسائس من الاحزاب المعارضة في جنوب بلاد العرب ، وقتل بعد مضي عام على توليه الحكم .

وكانت أغلب أشعاره في وصف الجرم متخذاً له مثلاً من عدى بن زيد ، وهو مسيحي اشتهر بأشعاره في هذا المصارع قبل الاسلام ، وله كذلك عدة قصائد غزلية ، كما أنشد مقطوعات في فنون الغناء الذي حاول أن يبرز في ميدانه ببعض الألقان والمؤلفات الموسيقية .

أما المرائي ، وكانت في الجاهلية سبباً في ذبوع اسم الخنساء وشهرتها الشعرية ، فلما وجدت في هذا العصر أيضاً من عنصر النساء في ليل الأخيالية من يحمل لواءها وينشر فيها ، وهي من قبيلة بني عامر ، وكانت تبادل أحد أبناء عشيرتها الغرام ، فسقط فتيلاً في غزوة بني عوف بن عقيل عام ٨٥ هـ ، حُرقت عليه حزناً شديداً وتنهت ملكتها الشعرية بفجيعتها عليه وورثته بقصائد عديدة ، وذاعت بذلك شهرتها ، فقرأها الخلفاء من دورهم ، وكانت موضع إكرام عبد الملك وعطف الحجاج ، وتوفيت عام ٨٩ هـ وهي في طريقها الى خراسان لقاء القائد المعروف فتية بن مسلم بميدان القتال ، وكان يمت لها بصلة القرابة .

وكما شغلت المناضلة بين الشعراء الثلاثة الدير برزوا في هذا العصر نقاد المنة ، فإن الادب العربي حفل كذلك بالمناضلة بين الخنساء وليلى الاخيالية ، فنسب الى الاولى دقة الشعور وإخلاصها ، والى الثانية قوة التعبير ورهافة العبارة .

ولم تكن فنون الشعر في هذا العصر مقصورة على بطانات الملوك وحواشيهم ، بل إنها ازدهرت كذلك بميدة عن ظاهم غنية عن رعايتهم وتشجيعهم ، فلما نجد أن الروح البدوية القديمة والنفس العربية الالية بقيت حرة طليقة تحيا حياة زاهرة في وصال الصحراء ، وأنتجت من الممارالادبية ما لا يزال مذكوراً بين أحسن المجهودات الفنية الرائعة ، وظهر من بين هذه الفئة قطري بن النعمان ، وهو من الابطال الشعراء ، وقائد فرقة الازارقة الخارجة التي ثارت على نظام الملك اليراني دافعا عن المبادئ التي تضمن لكل مسلم حق الانتخاب في الخلافة ، وسقط وهو على رأس فرقته في ميدان القتال أمام القائد الاموي سفيان الكلبي عام ٧٨ هـ ببلاد الفرس ، وامتازت أشعاره بالمباراة المثيرة والحماس الحربي .

واشتهر كذلك من بين أهداء الأميرة الاموية الحاكمة الكعبة بن زيد من قبيلة سعد بن ثعلبة ، وولد عام ٦٠ هـ ، وله قصائد عديدة في مناقب المهائمين ومديحهم ، وهم الذين يعلون

أحققتهم في الخلافة لقرابتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت إحدى قصائد مدبحه فيهم سببا في إثارة حقد الخليفة هشام الاموي فأمر بقتله ، واعتقله حاكم الكوفة ، ولكنه تمكن من الهرب ثم عفى عنه ، إلا أنه قتل بعد ذلك في ثورة قامت ضد رجال الحكومة .

أخذت فنون الشعر بمد ذلك في العصر الاموي في فقدان صبغتها العربية الوطنية بسبب اختلاط الشعوب في البلدان التي فتحها العرب ، فدخل الشعر عناصر جديدة ، أهمها من أصل فارسي ، كانت فيما بعد ذات أثر بعيد في تطور تاريخ الادب العربي . وأهم من يستحق الذكر في هذا العصر حماد بن سabor الراوية ، وولد بالكوفة عام ٧٥ هـ من والدين ديلميين ، ولو أن إنتاجه في الشعر لم يكن هو كل ما يستحق الثناء ، بل إن أكبر شهرته إنما ترجع الى روايته للاخبار القديمة ، فكان بذلك مرجعا هاما لها ، كما كانت معلوماته الكثيرة في هذه الناحية سببا في رعاية ملوك بني أمية له ، وعلى الاخص هشام الذي أكثر من إكرامه ، على خلاف ما لاقاه من الاساءة بسبب ذلك من الخليفة المنصور ، وتوفي عام ١٥٥ هـ وقيل في بعض الروايات عام ١٥٨ هـ .

تصحيح خطأ في الممد العاشر

جاء في السطر العاشر من صفحة ٧٣٠ من الممد السابق :

كتب وقت نزوله . والصواب : كتب به وقت نزوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مشكلة الشبان المتعلمين في مصر

قرأت في « الاهرام » يوم الجمعة الماضي ، تحت هذا العنوان ، تلخيراً مطولاً من مراسله بلندن ، طُعن فيه مقالاً للمستردوم لاندوغال ، نشره في حريدة « سكينا تور » ، ألم فيه بمشكلة الشبان المتعلمين في مصر من ناحية المثل ، والعاطفة الوطنية ، والسياسة الحكومية ، والروح الدينية . ولست بمعنى من كل ما كتبه إلا بالسؤال الأخيرة ، فهي التي تحتاج في نظري لمناقشة جدية ، مبنية على الحقائق . وقد اعترف هو نفسه بأن هذه المسألة أولى بالصاية من سواها فقال : « ولكن الأهم من هذا كله الوجه الروحي لمسألة » .

ثم مضى في معالجة هذا الموضوع فقال :

« إذا كان كثيرون من الطلبة متمسكين بالمظاهر الخارجية ، فإن الدين لم يعد مأملاً مهماً في حياتهم ، أو يجدوا فيه (فلسفة) يمكن تطبيقها على الأحوال التي تبدلت وتغيرت . بل إن كثيرين يمدونه الملجأ الأخير للمحافظة على التقاليد الدينية العتيقة ، والخزعبلات في الشرق » . قال : « ولقد أعرب لي الدكتور طه حسين بك — وهو على الأرجح يعرف مصر الحديثة أكثر من أي رجل آخر — عن ارتياحه الشديد في هل للإسلام تقوُّد إنشائي ما في شباب اليوم . مما يدل على أنهم يجدون أنفسهم في الهواء تماماً ، حتى إنه يمكن القول بأن مجرم الظاهري عن تكوين معتقداتهم الروحية ، أو مطامعهم ، كان نتيجة مباشرة لذلك » .

« ولكن في البلدان الإسلامية ، من السهل أن يصحح الدين والوطنية شيئاً واحداً . وإذا كان ليس من الصواب القول أن الشبان المصريين ماديون ملعونون ، فكذلك ليس من الصواب القول أنهم شديدو العناية بالأمور الروحية » .

ثم قال المستردوم لاندوغال :

« وهناك آخرون يشعرون بقلق ، من جراء الميل بين معلمى الإسلام المصريين ، إلى التوفيق بين تعاليم القرآن الكريم والعلوم المادية والعقلية ، وهم يتساءلون : ألا يفقد الإسلام بذلك تقوُّده بين كثيرين من أنصاره والمتمسكين به من القدماء ، دون أن يستميل إليه أنصاراً جديداً ؟ وليست هذه أول مرة يتبين فيها أن مسايرة العلم المادى تعود بالنوائب على الدين » .

ثم ختم المستردوم مقالته بهذه العبارة :

« لا يعتقد منصف بأن مشكلة الشبان في مصر يمكن حلها من دون إصلاح روحى بعبد الآخر ، يتناول الشبان وزعماء السياسيين على السواء » انتهى .

نقول : بصرف النظر عما فى هذه المبارات من الغموض والمناقضات ، ينضح للقارى منها أن المستر روم لاندوال حريص أشد الحرص على أن يصحح الشبان المسلمون وزعماءهم متمسكين بالاسلام على أكل ما يكون ، ولكن بعد إحداث إصلاح روحى عظيم يتناولهم هم وزعماء السياسيين .

لم هذا الاستدراك ؟ لأن الاسلام فى حالته الراهنة ليس له (فلسفة) يمكن تطبيقها اليوم على شؤون الحياة التى تبدلت عما كانت عليه من قبل ، حتى أن كثيرا من المتعلمين أصبحوا فى الهواه لا يرون فى دينهم إلا أنه فرارة لتقاليد بالية وخزعبلات شرقية !

وقد استأنس المستر روم فى حكمه هذا بما ألقى به اليه الدكتور طه حسين بك ، من أنه لم يعد للاسلام نفوذ إنشائى فى شباب اليوم ، وكان من آثار ذلك عليهم أنهم عجزوا عن تكوين معتقدات روحية لأنفسهم .

ثم ذكر ما ألقى به اليه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى من أنه أدخل المواد العلمية الى الأزهر ، ولكن المستر روم يشك فى فائدة ذلك ، لأن التوفيق فى نظره بين تعاليم القرآن والعلوم المادية والعقلية ، يفقد الاسلام سلطاه على المتمسكين بالتقديم ، دون أن يستميل اليه أنصارا جدد ، لأن مسايرة الدين لعلم المادى كثيرا ما عادت عليه بالنوائب . ولم يذكر سبب طرء هذه النوائب . ولكن المتبادر للذهن أن سببها من استحالة التوفيق بين مقررات الاسلام ومقررات العلم ، فيستتبع ذلك إلهاء جمهرة المتعلمين كما حدث لدى الأوروبيين حين هموا بمثل هذا التوفيق بين دينهم والعلم .

وبعد :

إننا نشكر المستر روم لاندوال اهتمامه بالشئون الاسلامية ، وغيثه على الشبهة المصرية وزعمائها الى هذا الحد . ولكننا نستأده فى أن نقول : إن بحثه هذا كان يستدعى منه أن يعرف ماهية الاسلام ، وكنه الاصول التى يقوم عليها ، وحقيقة الغرض الذى يرى اليه من قيادة النفوس فى معمار التطورات العقلية والاجتماعية .

الاسلام لا يفرض على الناس (فلسفة) كلامية غير قابلة للتطور ، تتحجر وتنحل بمرور الزمان وتغير الاحوال ؛ ولم يدين لوضع هذه (الفلسفة) طائفة تستأثر بالسلطان الروحى على النفوس ، وتجميع بينه وبين السلطان المادى ، أو تتنازل عنه لبعض المنفلين ، وتقوم حيالهم على قدم التصارع والتزعاج . ولكن الاسلام فرض على الناس كافة أسسولا خلقية ، وآدابا نفسية ، ومبادئ حيوية ، هى أقصى ما يمكن أن يتخيلة العقل من الاطلاق والسمو ، مثلا عليها

لا يأتياها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تؤدي الآخذين بها الى السمو المادى والأدبى معا ، تاركاً لهم حرية تكليف أحوالهم على موحها ، غلبا الطريق في وجوهم لجميع التطورات والانتقالات المعنوية والصورية .

هذه قضية يقيم فيها مجال القول ، ولا يقبلها العقل إلا بسلطان ، غايك هذا السلطان في مثال محسوس :

انظر الى جماعة المسلمين الاولين في أول نشوئها ، وإلى الحال التي قامت عليها ، وإلى العوامل التي دفعتها للحركة ، وإلى ما تطورت اليه بالانقياد لها . فان هذا النظر يكشف من معنى الاسلام ، ومن اتجاه الاصول التي أقام جماعته عليها ، والأغراض التي تؤدي اليها تأدية طبيعية لا تكلف فيها ، ما لا تكشفه البحوث المسخضة ، والمناقشات المطولة .

ترك النبي صلى الله عليه وسلم الجماعة التي ألفها وليس فيها شريعة مدونة ، ولا شكل حكومى مقرر ، ولا طائفة مختارة ، ولا هيئات مهيمنة ، بل لم يمين من يقوم بالامر من بعده . ولكنه وكلها الى تأثير الاصول الأولية ، والمبادئ الحيوية التي منها فيها واطاها على أن تعمل بها ، فاطر ماذا كان أثر ذلك :

كان أول ما فكرت فيه هذه الجماعة أن تؤلف لنفسها حكومة ، وكان أول ما شعرت به أن تستكمل وجودها كأمة . فدفعها هذا الشعور لاسترداد أطراف بلادها شمالاً وشرقاً وجنوباً من المنحكين فيها . ف وقعت في حرب مع الرومانيين والفرس في آن واحد . وكانت نتيجة هذه الحرب استرداد شمال بلاد العرب ، والاستيلاء على الشام ومصر وشمال أفريقيا ، واسترجاع اليمن والعراق ، وحل دولة الفرس ، كل هذا ولم يمض عليها بعد انتقال رسولها ، عشرين .

كانت هذه الفتوح سببا في احتكاك أفراد تلك الجماعة بأهم لديها علوم وصنائع وفنون ، فالتهموها التها ما وقروا أعتها وأكرموم . وما زالت هذه الجماعة سائرة على هذا النهج حتى أتى عليها قرنان ، فاذا بها زعيمة العالم كله ، في كل ناحية من نواحي النشاط العلمى والعملى والسياسى .

هذا التطور الخير للعقل من جماعة ساذجة لم يكن لديها خطوط مكتوبة ، غير آيات كتابها المقدس ، ولم يكن قد جمع حين توفي رسول الله بين دفتين ، الى دولة لم تبلغ شأوها في سعة الملك أمة الى اليوم ، كانت غاصة بالعلماء والفلاسفة والمشتغلين والسياسيين الخ في مدى أقل من قرنين ، يرينا من ماهية الاسلام ، وتأثير مبادئه ما لا تربناه أية دراسة علمية في الأرض .

وهل وصلت جماعة المسلمين الى ما وصلت اليه من العلم وسعة السلطان ، إلا بتقبل كتب المعارف الأجنبية الى لغتها ، ونشر ما فيها بين خاصتها واطمتها ، وفيها ما كان فيها من الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية ، والشبهات الدينية ؟ أما تناولت كل ذلك وهضمته وتمثلته واحتملت بلينها كل ما أتمرته من حركات فكرية ، وانتقالات أدبية ، وتطورات عقلية واجتماعية ؟ فان كان

قد أدركها القصور بعد أكثر من ألف سنة أمضتها في التموق على الأمم ، فقد كان ذلك ، باعترافاها ، بسبب انحرافها عن أصولها الأولية .

تلك الأصول والمبادئ الأولية التي أحدثت هذا التطور المعجز ، لا تزال حبة سليمة من التحريف ، مستعدة لأن تثمر ثمراتها الطبيعية في كل عصر بما يناسبه ، متى التفت إليها وهي بالأخذ بها .

فلو كان للإسلام فلسفة معينة غير قابلة للتطور على مثال ما هو موجود منها في كل الأديان المعروفة ، لبقيت جامدة الأولية على ما كانت عليه على عهد مؤسسها الأول ، ولبادت تلك الجماعة تحت تأثير الصروف المختلفة وهي في حالة تحجر لا تخلص لها منه .

يروى المستر روم لاندوفاً عن الأستاذ طه بك حبيب : أنه يرتاب أشد الارتباب في تأثير الإسلام في نفوس الشباب تأثيراً عملياً . ولنا نرى محلاً لهذا الارتباب بعد ما تبين للخاص والعام أن الإسلام مجموعة أصول ومبادئ خالدة ، هي المثل العليا للإيصال إلى الحسنيين مادة ومعنى . لأنه فلسفة معينة ، أو مذهب مقرر ، يفرض على الناس فرضاً ولا يجوز لأحد أن يتعاطاه إلى غيره . فإذا كانت هذه الشبهة لا تستطيع تكوين عقائد لها في رعاية المثل العليا ، وتحت ظلال الحرية ، ففي رعاية أية فلسفة قالة لنحجر نستطيع ذلك ؟ وإذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا ، فتحت أي ضوء تنتظر أن لا تعجز إذن ؟

لم يقل أحد في الإسلام منذ وجد إلى اليوم ، وقد مضى عليه نحو أربعة عشر قرناً ، إن مذهباً بعينه يجب الأخذ به دون غيره ، أو إن ما عمله الأوائل لا يمكن أن يعمل أكل منه . فتركت للعقول حريتها تصل إلى أرق ما يمكن أن تصل إليه في حدود الأصول الخالدة ، وفي كل زمان بما يناسبه ، فهل نجد أننا نسنا هذه الحرية فننخذ لنا فلسفة ونفرضها على الناس فرضاً ؟ هل مثل هذا القول يسهل وقمه على الأسماع في البيئات العلمية في العصر الزهري ؟

إن الأزهر الذي يوصف ظاهراً بأنه ملعاً بالتقاليد العتيقة والخزعبلات الشرقية ، ليس فيه رجل واحد يخالفني فيما أذهب إليه من هذا الرأي ، الذي قد يعتبره المستر روم لاندوفاً مكشراً في رأي أنطاب القديم في الأزهر .

كل ما في الأزهر أنه لم يوزق مصلحاً يرقى أصوارب التعليم فيه ، فبقى خاملاً في القرنين الأخيرين . أما وقد رزق اليوم هذا المصلح العظيم في شخص الامام المراغي فسيكون له شأن جليل بعد سنين قليلة . فهل بلغ المستر روم ، وهذا الامام المجدد يسرى عليه أصول الجامعات الكبرى ، ويدخل إليه الفئات الأجنبية ، ويوصل منه طلاباً إلى أوروبا ، أن واحداً من أقدم رجال الأزهر يرى أن هذه الإصلاحات بدعة ؟ أليس الأزهر نفسه هو الذي طلب أن يسلم مقاليد هذا الامام المجدد ؟

نعم : إن شيوخا في الأزهر عارضوا قبل ثلاثين سنة في إدخال أوليات العلوم الطبيعية اليه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك باعتبار أن هذه العلوم تنافي نصوص القرآن أو نصرة ، ولكن باعتبار أنها قد تصرف طلبته عن التفرغ للعلوم الدينية .

ألم يعلم المستر روم أن (مجد على) موجد مصر الحديثة ، وهو بسبيل بناء صرح العلم الطبيعي ، وإقامة صديقته ، استنجد بالأزهر ، فأنجده بنصر من أنجب طلابه ، أرسلهم إلى أوروبا ليحبوا من مواردها ، فلما آثروا بني علي . كنا فهم هذا الصرح العلمي الذي تضرع به اليوم ؟ وإلى منذ أكثر من ثلاثين سنة ، أعلنت موافقة الأصول الإسلامية لأرقى أصول الفلسفة الأوروبية ، فما وجدت من شيوخ الأزهر ، حتى القدامى منهم ، إلا تشجيعا وإطراء ، بل كانوا هم أعد طوائف الأمة إجماعا بما كتبت .

وقد أن أخت هذه الحالة أسأل المستر روم . على أي أساس يؤكد أن الشبيبة المصرية تعجز عن تكوين معتقداتها ؟

أظن أن ذلك يكون لأن مئات من الآيات القرآنية تدعوها للنظر في الكون والكونيات ، وللتأمل في القوى العاملة فيها ، والنواميس السائدة عليها ، دون أن تجد لها حدا تقف عنده ، أو تعين لها محالا لا تعداه إلى غيره ، ناهية إياها عن التقليد الأعمى ، والجلود على الموروثات ، مؤكدة لما أنها توجب على حمرة جهادها وإن أخطأت فيه ؟

إن كان لا مناص من أن يتهم المستر روم الشبيبة الإسلامية بعجز ما ، فهي تعجز ، وقد وصلت إلى هذا المستوى من العلم المصري ، أن تخيل أن الإسلام يصدها عن أي ترق علمي أو فلسفي ، أو لا ينير طريقها للوصول إلى أقصى عقيدة كتبت للبشر .

بقيت لنا كلمة :

يرى المستر روم لاندو قال أن الإسلام لا يصلح مقوما للنفوس إلا بعد إحداث إصلاح عظيم فيه ، وهو لم يذكر كلمة (إصلاح) إلا لأنه يتخيل أن الإسلام كسائر الأديان يقوم على (فلسفة) مؤلفة من آراء القدماء ومذاهبهم ، وشروحهم وتؤويلاتهم ، فرضت على عقول أهله فرضا ، وحرّم عليهم النظر في أدلتها ، وفي مبلغ مناسبتها لأحوال الزمان والمكان ، وفي تعديلها كلما احتاجت إلى تعديل في حدود الأصول الإسلامية .

ولو كان المستر روم يعلم أن الإسلام يقوم على أصول ومبادئ هي نواميس الحياة الإنسانية الكاملة التي لا تتبدل ، وأن المسلمين الأولين بنوا آراءهم ومذاهبهم في حدودها ، وأنهم لا أقول لم يحرموا تعديها وتعديها لحسب ، بل حرموا على الناس أن يأخذوا بها تقليدا بغير نظر ، وأن يعتبروها نهايات ليس بعدها مذهب ، قالت : لو كان المستر روم ، أما هذا ، لما ذكر

كلمة (إصلاح) لأنه لا موجب له مع وجوده عنصرا رئيسيا في تركيب هذا الدين ومستترقا به من جميع المسلمين ، وبمعدل عن كلمة إصلاح الى كلمة (عمل) ، فصح لمسلمين أن يعملوا بدينهم ، مدكرا بإمام بأصوله الاولية المخالفة التي تسع في حدودها كل ما يمكن أن يتصوره العقل من تكلل مادي وأدبي دون أن يصادف السالك اليه أى حرج ما

محمد فرير محمد

لا غلو في الدين

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبنى بالحنيفية الصمعة ، ولم يعمنى بالرهبانبة المبتدعة ، سننى الصلاة والنوم ، والافطار والصوم ، فن رغب عن سننى فليس منى » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فان المنيبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « خير هذه الامة الخط الاوسط ، رجع اليهم الغالى ، ويلحق بهم التالى »

وقال مطرف بن عبد الله الشخير لابنه ، وكان قد تعبد : « يا بني إن الحسنه بين السيتين (يعنى الدين بين الافراط والتقصير) ، وخير الامور أوسطها ، وشر السير الحقيقه .

وقال بعض العلماء : « حامل البر كأككل الطعام إن أكل منه قوتا عصمه ، وإن أسرف منه نشمه » أى أنحمه .

وروى عن عيسى عليه السلام كما ذكره ابن عبدويه في العقد ، أنه لى رجلا فقال له : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : فن يعود عليك ؟ قال : أخى . قال عيسى عليه السلام : هو أتعبد منك .

قال ابن عبد ربه : ونظير هذا أن رفقة من الاشعرين كانوا في سمر فلما قدموا قالوا : ما رأينا يا رسول الله بمك أفضل من فلان : كان يصوم النهار فاذا زلا قام من الليل حتى يزحم ، قال : من كان يعمى له ويكمه ؟ قالوا : كذا . قال النبي صلى الله عليه وسلم : كاسم أفضل منه .

وروى علي بن ماصم عن أنى إسحق عن الشيباني قال : رأيت محمد بن الحنفية واقفا بعرفات على برذون وعليه مطرف خز أصفر .

وروى للسدى عن ابن جريجه عن ابن عباس قال : كان يندى برده بألف .

تدل هذه الروايات على أن ليس في الاسلام حرج على طامم أو كاس إلا إذا خرج من حد الاعتدال ، أو كان من المحرمات .

التفسير

سورة لقمان

- ٤ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ اللَّهُ تَعَالَى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَثَبَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَاءِ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَرِيمٍ) :

قد سبق أن توعد الله الذين يحيدون عن آياته الحكيمه التي هي هدى ورحمة الى الهو الحديث ، مضلين عن سبيل الله ، هازئين بالآيات البينات ، مستكبرين معرضين عنها كأن لم يسمعوها ، توعدهم بالعذاب الاليم ، وساق ذلك الوعيد بلفظ البشرى ليكتمهم ويغيطهم أشد الغيط ، وليصورهم وهم في مرحهم وطروم بأنهم يدظرون في تلك الحالة أن تتصل حلقات مرحهم عسرات تتلوها ، فإذا سمحوا كلمة « بشره » اشترأت اليها أعناقهم ، فإذا حصدوا بعدها بأن البشرى إنما هي بالعذاب الاليم كانت النكايه بهم أبلغ ، وكانت حالهم حينئذ أشنع .

ثم أردف ذلك الوعيد بالوعد الحسن للذين آمنوا وصملوا الصالحات بأن لهم جبات النعيم ، أى أن الجنات بما فيها لهم يستعملون فيها بما يشاءون غير مدافعين ولا منازعين ، تمنع الملاك بما يملكون ، كما يؤخذ من اللام في لهم ، ومن الاستناد الى الجنات نفسها ، وهو أبلغ من الاستناد الى نعيمها ، فمن ملك الشيء كان استمتاعه بكل ما فيه أتم ، بحلاف من ملك صفة من صفاته فإن تصرفه يقتصر على تلك الصفة ، وذلك كما ترى من التفرق بين المالك والمستأجر ، و ترى من هذا دقة الفرق بين لهم جبات النعيم ، ولهم نعيم الجنات .

ثم أردف كلا من الوعيد والوعد بما يقرر تنفيذهما ، إذ قال عز وجل : « وعد الله حقاً » فقرر أن هذا الوعد من الله ، ومن أوفى بمعهده من الله ، وزاده بقوله : « حقاً » زيادة

في التقرير والتثبيت ، وختم الآية بقوله : « وهو العزيز الحكيم » أي هو القادر الغالب على أمره ، الذي لا يرد له مراد لمزته ، الحكيم الذي يصع الاشياء في مواضعها ويقرها في لصاها .

وقد أردف هذا بقوله : « خالق السموات بغير عمد ترونها » الخ ، تقريراً لمزته وباهر قدرته ، وتوضيحاً لحكته وإتقان صنئته . ينجلي الاول وهو كمال القدرة في « خلق السموات بغير عمد » وينجلي الثاني وهو كمال الحكمة في « ألقى في الارض رواسي أن تُميد بكم » الخ الآية ، بل كل منهما عند التأمل يظهر فيه القدرة والحكمة .

والخلق : أصله التقدير ، يقال : خلق الخياط الثوب إذا قدره قبل أن يقطعه ؛ ومنه قول الشاعر :

وأراك تفسري ما خلقت وبعـض القوم يخلق ثم لا يفسري
ولكنه كثر استعماله في الإيجاد ، ولا سيما فيما يسند منه الى الله عز وجل ، وكأن في ذلك إغارة الى أنه جل شأنه متى قدر أمراً وأراد على وجه خاص وجد لا محالة « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

فمعنى خلق السموات إيجادها على وجه مقدر يحكم لا خلل فيه ولا نقص ولا تفاوت .

والسموات : جمع مياه ، وهي كما سبق لنا في تفسير سورة الرعد عند أكثر العلماء الاسلاميين : هذه الأجرام الفلكية المحيطة بنا ، المتحلية بلون الزرق ، وذلك ما يدل عليه ظواهر النصوص والأخبار الكثيرة .

وبعضهم يرى أن هذا اللون ليس لون السموات ، فانه يحدث من أسباب عدة : كان يكون أجزاء بخارية جوية يسطع عليها ضوء الكواكب ويلبها طبقة مظلمة ، فيحصل من امتزاج الضوء الكوكبي بالأجزاء المظلمة لون متوسط بين المواد والبياض هو لون الزرق ؛ أو من تعاقب ذرات ذات ألوان متعددة ، فيحصل من امتزاجها ذلك اللون المخصوص ، فلا يلزم أن يكون هذا المرق هو لون السماء .

ويمكن الرد على هذا الوجه بأن حصول لون الزرق لهذا السبب الذي ذكره لا يمنع أن يحصل لسبب آخر ويكون هو لون السماء حقيقة ، فيكون كلا الأمرين في نظر العقل جائزاً ، وقد جاءت ظواهر النصوص مفيدة أن ما نراه هو السماء ، فلا موجب لصرفها عن ظاهرها .

وأصحاب هذا الرأي الثاني منهم من يفسر السموات بأنها الكواكب ، وكل ما ارتفع فهو سماء ؛ ومنهم من يفسرها بأنها المناطق التي تسبح فيها الكواكب ، وهي أيضاً مرتفعة . ولا يخفى عليك أن ظهور آثار القدرة إنما يكده ، فـ « فم شيء ذي وجود حقيقي » أما المناطق الخالية

التي لم تزد عن أنها فراغ تسبح فيه السموات ، فليس في ارتفاعه وهو خلق أثر لقدرة ، ولا يقال : إننا نراه مرتفعاً .

وبعد : فالذي ينتدح في اللحن وتطش اليه النفس ، هو أن هذا المرئي هو السماء ، وذلك ظاهر النصوص ، فإذا قام الدليل العقلي على انتفاء ذلك وأثبت أنه ليس هناك شيء بالمعنى الجرمي المتعارف ، صح المعير إلى التأويل ، وإلا كان التأويل والصرف عن الظاهر تشبهاً بلا موجب . ولتنبه إلى أنه فرق بين قيام الدليل العقلي على اتناء السموات وبين عدم قيامه على وجودها ، فالأول يصلح صارفاً للنصوص من ظواهرها بخلاف الثاني ، كما أن هناك فرقاً بين الدليل الموجب للحزم والدليل المحصل للتحديد والنظن ، فالأول يصاح لتأويل النصوص بالآلاف الثاني .

« بغير حمد ترونها » :

العمد : اسم جمع عمود أو عماد ، وقيل جمع عمود كأديم وأدم . ومعلوم أن فعلاً وفعلوا متشاركان في الأحكام غالباً . والعمود : ما يعمد عليه ويستند إليه . وقوله : « ترونها » أي تبصرونها ، ضميره عائداً على السموات ، والخلة مستأنفة كأنها دليل على أنها ليس لها حمد ، أو جواب لمن يقول : ومن أين لنا أنها لا حمد لها ؟ فيقال : هأنذا تراها ولا حمد لها ولو كان لها حمد لرأيت حمدها كما رأيته . وبعضهم أرجع ضمير ترونها إلى حمد ، وكأن المعنى : خلق السموات بغير حمد مرئية ، فلا مانع أن يكون لها حمد غير مرئية ، فقبل والعمد غير المرئية هي قدرته عز وجل ، وهو بعيد عن بلاغة الأسلوب القرآني كما ترى ، فإن تسمية قدرة الله حمداً للسموات لا يسجد يسينه الذوق السليم . وقيل بل العمد غير المرئية حمد حقيقية لا تراها ، وقد وردت بها الأخبار . ومثل هذا القول لا يلتفت إليه ، فلم يصح فيما نعلم خبر في هذا ، وما يرويه بعض المفسرين من إسرائيليات مستغربة فذلك مما ابتلى به المفسرون قديماً ، وفسد على كثير منهم أمرهم ، فلا تمويل على مثل تلك الروايات . وكأن الحامل لهم على جعل الضمير عائداً على العمد أنه جاء في قراءة « بغير حمد ترونها » ولا يمكن أن يعود على السموات لأنها مؤنثة ، فتعين عوده على العمد ، والقراءات يفسر بعضها بعضاً . وأما خبر بأن هذا لا يتمين في عود الضمير على العمد ، فقد يكون عائداً على الخلق الذي جاء في « خلق » أي ترون أثر ذلك الخلق فيما تشاهدون ، أليس تبصرونها ولا حمد لها ؟

« وألقي في الأرض رواسي أن تحمدنكم » :

الالقاء : الرص ، وفي الغالب يكون خطأ من أعلى إلى أسفل ، وإذا كان الملقى ذا قوة وبطش استندعى إلغاؤه ثبات الملقى غالباً . والرواسي : جمع راسي ، من رما برسو ثبت واستقر ، وهو قريب من معنى الرسوخ . وقوله : « أن تحمدنكم » : مثل هذا التركيب يقع كثيراً في عبارات الناس فيقدر معناه بقوله : خشية أن يحصل كذا ، أو حذر

أن يحصل كذا ، ولما كانت الخفية والحفر مما لا يليق نسبته الى الله استبدلوا بها كلمة «كراهة» أى كراهة أن تميد بكم ومنهم من يقول : إن المعنى على حذف «لا» أى لئلا تميد بكم ، ولا داعى زيادة لامع ظهور المعنى بدونها ، وليس هذا من موضع حذفها مع مراعاة معناها . والمبدؤ والميدان . الاضطراب والترنول . والظاهر أن المراد به هنا تزلزل أجزائها وتحولها إذا لم تكن متماصكة بما يصطبها ويربط بعضها ببعض . والجمال هى تلك الأجرام الأرضية المتماصكة الصلبة من الحجارة وما فى معناها ، تظهر على وجه الأرض سائخة القواعد فى داخلها ، فيكون فى تماسكها فى ذاتها وتماصك أطرافها بعضها ببعض إمساك للأرض أن تنهار أجزاؤها وتضطرب فى أحياز متعددة تمنع كمال الانتفاع بها والطمانينة عليها . وفى التفسير بقوله : « بكم » بعد تميد ، إظهار لموقع النعمة الموحدة للشكر والاعتراف بالجلل ، من حيث كان منع الاضطراب فى مصلحة الخاطئين ، أى حتى لا تكونوا مزلزلين غير مستقرين فتتعرضوا للأخطار ويلحق مصالحكم البوار .

وقوله . « وث فيها من كل دابة » لفت الأنظار الى أثر آخر من آثار الاقندار ، وهو إيجاد الحياة المتنوعة منتشرة فى أرجائها ، فأينما تنقلتم فيها صادفتم نوعا من الاحياء جديدة يدل على عظمة قدرته عز وجل ، واستطعتم أن تنفعوا منها بما يتيسر لكم الانتفاع به ، فكل مسخر لكم ، وقد أعطيتكم من قوة العقل وسعة الحيلة ودقة البحث ما يمكنكم من الانتفاع بها فى عدة وجوه ، وإذا أعوزكم الانتفاع ببعض منها فله يوحى بكم من يهتدى الى وجوه منفعة لم تدركوها ، فربما لكم من منفعة بعضها لا يمنع من انتفاع من هو أدق نظرا وأوسع عقلا . على أن وجوه الانتفاع إنما تلزم حين يراعى ما فيها من معنى الرحمة والنعمة عليكم ، وإلا ففى شاهدة فى تركيبها وتنوع أجناسها وألوانها وطوائفها وقواها نعمة مبدعها وكمال قدرته ، وشاهدة فى استكمال كل نوع منها قوى تحفظ نوعه وتحمى أفراده وتعلم حياته ، شاهدة فى ذلك كمال حكمته ، فهو العزيز الحكيم ، وهو الرؤوف الرحيم .

قال . « وأنزلنا من السماء ماء فأنزلنا فيها من كل زوج كريم » :

دليل إثر دليل ، حتى تمتلئ النفس يقينا وإيمانا ، والأدلة المترادفة تعجب لكل منها أثرا خاصا فى تنمية اليقين ، حتى ينتقل النظر الى الضرورى ، والمسندل عليه الى ما يقارب المشاهد . والمدلول فى هذا من ضمير الغائب فى : خلق ، وألقى ، وث ، الى ضمير المتكلم «أنزلنا» «أنبشاه» يسمى فى البلاغة التفاعا ، ونكتته أن تنويع الكلام من طريق الى طريق من شأنه أن يحدد من نشاط السامع ويقوى انتباهه ويدفع عنه سآمة التكرار على وتيرة واحدة . ويمتاز هنا بديرة أخرى وهى إظهار الامتنان من المتكلم على السامعين وسوقه مساق مالا مساغ لتداخل متداخل فى إبراره ، فما كان لأحد أن يدعى أن له مدحلا فى تكوين الامطار ونزالتها من

السما ، في حين أن بث الدواب قد يخون اصراً عقلة فيه في بعض الأحيان فيقول : قد كان لي من حسن القيام على دوابي وأنعمي باستيلادها وتغذيتها وحمايتها من العوادي ما جعلها تسمو وتتشرب ، وما أكثر غرور الانسان ، وما أقرب انخداعه بما يتوهم أن له فيه مدحلاً !
والجاء . جهة الماء ، ولا تكاد تجد ماء يحصل للانبات إلا ماء المطر النازل من السماء حيث تضر به الرياح فتسقيه من الأملاح ، فلما استخدم في الانبات مباشرة ، وإما تضر به الأرض فسلك ينابيع فيها ثم ظهر في عيون مائة في جهات متفرقة ، وإما جرى أنهارا على وجه الأرض فنقل مطراً من جهة جبلية لا تنفع به في الانبات إلى أرض مهيبة ضبطته وانتفع به أهلها ، أو كان زائداً على مواقعه فيجرى ليم نفعه جهات ثانية . وعلى الجبل فأكثر ما يسند الانبات إلى الماء المنزل من السماء ، وأما الماء المحيط بمعظم سطح الأرض وهو ماء المحيطات والبحار لمتفرقة منها ، فلا يكاد يستند إليه الانبات .

وقوله تعالى : «فأنبثنا» بضمير المنكلم ليأخذ الطريق على الناظر المتأمل ، حتى لا ينخدع بالظواهر السطحية ويؤمن أن هذا الماء هو المنبت فيقصر نظره على ما شاهدته حواسه ويعطل عقله عن أن ينفذ إلى الحقائق من ورائها . ونأهيك بقوم عبدوا الأنهار وقد سوها لأنها مظاهر الانبات الذي ماد عليهم بالموائد ، فقتلهم كمثل رجل حكم عليه قاض بحكم وسعده قلمه فلم يرضه الحكم ، فأخذ القلم يكسره ، أو حكم له بحكم أرضاء فأخذ القلم يقبله ، فألفقلم وما للحكم له أو عليه ؟
ولكنه النظر القصير لا يصدو طرف الأنف ، بل العمى والعمه في البصائر والأبصار !
وقوله « فيها » دون أن يقول : « به » كما في موضع آخر ، لأن الآية وإن سبقت للاستدلال بالغرض توحى النفوس إلى شكر المنعم المتفضل .

وقوله : «من كل زوج كريم» : الزوج هو الشيء ينضم إلى غيره ويتزواج ليكون من بين انضمامها إنتاج مقصود ، وقد يطلق على مجموع المتزاوجين كلمة زوج ، ولكن معناه الأملى هو الشيء المنضم إلى غيره ، فهما زوجان ، وكل منهما زوج . ومعنى الكريم : المتبع الصالح للانتفاع به ، السكامل في وجوده . والاثنيان بمن هنا كما في قوله « من كل دابة » للإشارة إلى أن في قدرته تعالى أن يضاعف من الخلق أضعافاً ، وأن هذا الذي أوجده إنما هو شيء مما تسمعه قدرته .

ثم الغاء في قوله : «فأنبثنا» للتفريع على كل من أزال الماء ، وحفظ الأرض من أن تميد . أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأن في سكونها هوماً على استقرار البذر في موضعه منها حتى ينضجر ويكمل استعداداته للسات ، وإلا فلا كانت أجزاؤها ماثدة متحركة ما حصل نبات البذر فيها ، كما يقولون . الحجر المتدحرج لا يست عليه زرع . وهذا ترى كيف كانت أجزاء الآية متماسكة متمسكة أكبر تماسك وأقوى اتصال . والله أعلم ؟

محبة الله عز وجل

ذكرنا في مقالنا السابق تفسير قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض الخ » كلمة عن سعة الملك الإلهي الذي يهر العقل ما فيه من عجائب المصنوعات وبدائع المخلوقات :

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَيْنَاتٍ مَا يَحَارُ فِيهِنَّ إِلَّا الْكَافُورُ

وقد وعدنا القارئ الكريم أن نكتب كلمة تثير محبة الله من القلوب ، فإنا نرى القرآن قد تعرض عقيب تلك الآية التي ذكر فيها دلائل التوحيد لذكر تلك المحبة حيث يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله » ، وكأنه يشير إلى أن محبة المؤمنين تدبني على معرفة الآيات والدلائل ، بخلاف محبة غيره فانها مبنية على تقليد الآباء واتباع الآوهام والآهواء .

ولنخض بك خمار الموضوع فنقول :

يا دُر لدرك الذي قد مات من عمرك ولتخف زادك التوحيد في سفرك
أيا مليك الوري يا منتهى أملي ما أشوق السر والمني إلى خبرك
ما ظل لي أمل في غير مشهدكم ولا قرأت كتابا ليس في سيرك

إذا كنت تحب احدا لما يهرك من علمه وسعة فطره من علماء الأمم ، فأحب الله تعالى الذي أنقذ كل العوالم وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلا سفة أوديا إشراق شعاع من نور شمسه ، حتى قال سبنسر الانجليزى ما ترجمه : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الاسمى أن يشرف الانسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك المنظمة الالهية من وراء تلك الحدود التي يفتنى إليها علم الطبيعة » .

ويكميك ما اشتمل عليه الانسان من الأسرار المدهشة التي تسكنل بها علم التفرع وعلم وظائف الاعضاء مما بهر علماء الفيزيولوجيا فطأطؤا له الروس ، وعشوا أماءه كما يشو الخفاش أمام الشموس .

وإن كنت تحب احدا لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تديره من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم السموات والأرضين ، ورب العالمين ، ومدير الخلق أجمعين ، من أمره بين الركاف والنون ، وإذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب احدا لاجسائه وحزبه إنعامه وعظيم تميزه في باب الفضل والمكرم ، فأحب منبع النعم ومعدن الكرم وأين كل ما تخيله إذا قمته نقطة من بحار فضله ؟ وماذا

نمدد لك من نعمه أو نسرده عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة في الوجود، وأنه رب الكرم والجود ؟ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا يرسلك من بعده ، وهو العزيز الحكيم .

ولعمري الانصاف إن هذا لمقام يجب أن تنكسر فيه الأقلام ، وتخرس فيه الألسن ، فلن نطبق شرح نعمة واحدة من نعمه .

وانظر إن شئت لنعمة الهواء التي يتوقف عليها وجود كل حي إلى آخر ما يتفرع منها وينشعب عنها . وإن شئت فانظر إلى نعمة الصياء أو الماء ، وما أودعه في الأشياء من الكهرباء بياهر حكمته وعظيم تدبيره : « ذلك تقدير العزيز العليم » . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم كفار .

وقد أحس تلك العظمة المدهشة وذلك الانعام الفاضل على كل من في الوجود ، ذلك الرجل العظيم صاحب البصيرة المطلقة من القيود الميسوف (ليه) الفريولوجي الفرنسي الذي كان يدعو وجدانه فيجيبه ، ويناجيه شعوره الحلي فلا يتغافل عنه — وهو عندي مؤمن لاهالة — قال : « إن الله الأزل الكبير العالم بكل شيء قد تجلى لي ببديع صنائمه حتى صرت مدهوشا مبهوتا ! فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده لافرق بين أصغر الأشياء وأكبرها ! إن المسافع التي تستمدّها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذي سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها يفتي براسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشي وتمجدها يشعر بجلالته وعظمته ! » .

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكلها ، فأحب من أوجدتها في أحسن تقويم ، وشق سمعها وبصرها وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ما تتنوع به لذتك وتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد ضمرت نعمائه ، وأشرق عليك ضياؤه ، وعذب لك ماؤه ولطف هواؤه ، وألمستك بدائع أكوانه : من رياض غمام ، وصحار فيحاء ، وبهار شهية ، وألوان حية ، ونفحات شجيرة ، ومنظر تطير بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب ، من شموس وأقمار ، وأطياف وأزهار ، وليل ونهار ، أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل الباطنة والنعم الفاضلات ما قال ذلك البدوي الذي لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمتع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواء اذكار	وليال خلائق نهار
وجبال شوامخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم تلوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار

وشمس مضيئة للبرايا في نهار وفي الدجا آثار
ورياح تهب من كل فج وريوق وراءها أمطار
إن شئت الاله شان كبير جل ربا وجلت الآثار
والذي قد ذكرت دل على الله به تقوما لها هدى واعتبار

أو نقول كما قال غيره غاطبا نفسه مستعنا لها على العبرة ومطالة الفكرة حيث يقول :

تبصر حيث كان لك التبصر وفي ذات الاله دع التمعكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع الملوك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حازرات
ولكن الأداة والنمحات أصول من لجين راهرات
على أخصانها ذهب صبيك

شمس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوما سابحات إلى مالست أدري طائرات
يطير بها له الجرم السميك

رياض موقوفات منعشات وألوان لعينك مدعشات
وأغصان تمرك فاضرات على قضب الوجود شاهداث
بأن الله ليس له شريك

أو يقول وقد امتلأت نفسه بالوجود الحق، الذي ظهر في جميع الأشياء، وتحلى نوره في عوالم الأرض والسماء، وإن غاب عن الأبصار وجل أن يدرك بالأنظار :

ظهر الوجود الحق في الأشياء متجاليا جهرا بغير خفاء
إن الوجود من البصائر غائب من حيث ما هو ظاهر للرأي
والله يكشف أن ثمة شاحسا متحكما فيه بغير مرأه
فرايته من حيث لم تعلم به وعلمته في رتبة الأسماء
والشمس لا تستطيع رؤية ذاتها لتألق فيها وفطر ضياء

أو يقول ما قال ذلك الرجل الذي رأى ظاهرا في آثاره ظهور الشمس، وإن تعالى بحقيقته من العقول :

حسن تراءى في المراتي وبه تحير كل راء
والكائنات جميعها موج على صفحات ماء
والأمر أمر واحد فيه التقارب والتناهي

والسكون عرس زينت	ذى الارض فيه مع السماء
بمكواكب ومواكب	والنجم خضاق الهواء
والطبل أجام الملا	والزمر أرواح القضاة
وصدا جميع الكائنات	ت أحى من أشهى الفناء
هو باطن هو ظاهر	ما حذره من وجه الخفاء
وإطابه من وجه الظهور	رتجده في كل المراتى
شمس وكل الخلق في	أوارها مثل الجباء
لكن إذا أنكرتها أصعبت من	حتى الخلائق لا من العقلاء
يا قوم كيف حقولنا	لا تفضل من البهاء

أويقول عند ما يرى الأشجار تهادى في حلل الأوراق والأزهار معجبا برؤيتها متعجبا
من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبا لملايس قد حاكها من لم يعد لها يدا

فقل لي بميفك هل من الحياء ، والحياء خلق كل كريم ، أن تتمتع بما خلق الله لك
من الاضواء والاصباح والامساء ، وما أوجدتك من بدائع الاشياء وصنعتك من الارض
والسما ، وكان الامر على ما يقول عز وجل : « وأنبئ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ثم لا تؤدى
شكره ولا تعرف قدره ؟

إني لأعجب ممن قد رأى طرفا من فرط لطيفك وبى كيف ينساكا

فإن كان لا يؤثر في نفسك فأنس إنعامه ومزيد إحسانه ولا ما هو عليه من قدرة يتعجب
فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها الواصفون ، وعلم لا يعرب عنه مثقال ذرة في الارض
ولا في السماء ، وحكمة أتقن بها جميع الاشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجلال
وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك سلطان الحسن الذى تشاهده بمينك أو تلمسه
بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فاعما هو غل من ظلال ذاك الجلال
المطلق الذى يحل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا
بعض سرائه ، ولا تمثل لك أى امرأة من سراياه إلا بعض مزاياه . وأنى يسع المحدود من لا يقبل
التحديد ؟ وكيف لا يضيق المقيد ممن لا يدخل في سجن التقيد ؟

إن قلت هذا فإن الحد يحصره	أو قلت ذا فكللام لست أدريه
أو قلت عندي جاء التارف يطلبه	والطرف حق ولكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجودا لست أدريه	إلا الذى أنا معنى من معانيه

فعلوني لمن شم عرق شذاه أو شام برق سناه ، وهيتا لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا ،
أو نظر اليه ولو شدرا ، فإذا لم يدر ما هو تائق اليه ومنلف عليه قال :

شيء به فتن الوري وهو الذي يدعى الجال ولست أدري ما هو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشقاقون الى الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم
ينفقون الى إصلاح لا يتناهى وجمال لا يتناهى وكمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع الى سلامة فطرك ، وحدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجمل الالهي الذي تحبي
على صفات الموجودات ، واقراء بين سطورتك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله الى أي حد انتهيت ،
ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوی الاحساس بالجمال إلا وقد وصلت
الى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن ، إذ تعبدك أحست بجمال لا يتناهى ، وغرقت في بحر
من الجلال لا يحده ولا يأتي عليه التعبير :

فطورا في الجلال على التذاذ وطورا في التذاذ بالجمال
وعند ذلك ينطق لسانك منقادا :

عجبت لعاقل في الكاس أضفى يرى هذا الجمال ولا يهيم
ويترنم بلبل روحك مفردا :

لمعرك كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن إلا جماله
فاستجلب هذا الحسن رعاك الله في كل شيء تراه من العلويات أو السفليات :

إن شئت في فلك أو شئت في ملك أو شئت في مدر أو شئت في حجر
فالسكل ينطق أن : الله خالقه وهو المليك ورب النعم والضرر

وهل الشمس وهي أظهر ما علمت ، وأظهر ما رأيت ، وأجل ما وقع عليه البصر ، وأبهى
ما وصل اليه النظر ، إلا أثر من آثاره وبور من أنواره ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ،
والعزة والجلال ، فنحن نقرأ فيها قدرة مخرها ساجدين ، وحكمة تقف أمامها مبهورين ، وجمالا
يذوقه الوجدان وإن كان لا يكفه ، فتمتلي به النفوس وإن كانت لا تعرفه ، ويطالع فيها رحمة
تجملنا فائقين بلسان الشاكرين : وتبارك الله أحسن الخالقين ، اوحقه ، وما أكبر حقه ،
لو تفرغت من الشواغل التي أحدثتك ولم تدع منك شيئا لمشتقت ففقت ففقت :

تراه إن غاب عن كل جراحة في كل معنى لطيف رائق بهج
وفي مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار مستبج
وفي مسارح غزلان الخائل في برد الأصائل والاصباح في البلج
وفي مساحب أذيل النسيم إذا أهدي الى سحيرا ألييب الأرج

عظم واقفه البرهان وامتناع الوجدان ووصل الامر الى حد العيان وليس بعد العيان بيان ، ولكن قويت الانوار فغشيت الابصار 1 وكل ما اعتيت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط من القلب وقعه وإن عظم قعته ، ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا بمن أخله الى الارض من الغافلين والجامدين .

خليلي قد طال المنام على القذى وحال على ذا الحال يا قوم أحوال
يمسر زمانى بالأمانى وينقضى على غير ما أبنى وبيع وشوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت . فان كنت تحب أحدا لما بينك وبينه من التفاضل والتناسب فأحب الملائكة على سكان ملكوت الله تعالى فان فيك ما يشاكلهم تمام المشاكهة « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » . وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء والهناء ، ولا أميته إلا الاطلاق من جميع التقييدات والاطلاع على جميع المنهيات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيت مالك الاول منذ طرقت واشتغلت بمطالبا هذا الهيكل الجسماني الذي لا بد له من الصفاء ، فأنت بالظلمات وتمرت على احتمالات الآفات :

من بين يسمل الهوان عليه ما الجرح بجيت إسلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أمان أفضل غريزة فيه ، بل أمان خاصيته التي هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول : « أومن كان ميتا فأحييناه وجهنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » ؟

وقد استولت عليك هذه المطالبات الجسمانية حتى أمنتك عالم البهجة والبهاء ، وصرت لا تعرفه ولا تحس به ، وإنه لموطن روحك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها . وأما مطلبها الذاتي وغذاؤها الأصلي فهو الأمرار والأنوار . ولما طال بها العهد وهي في سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ما هي مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو في الحقيقة نسيان لنفسها « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فكان لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بين المحزون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التي أضغمت منها تلك الحاسة العليا التي هي ساطع لذتها التكبري وشرفها الاعلى وخاصيتها الاولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الانبياء الذين هم أطباء الارواح وأسادة النفوس بمحبه وكرمه ، به على ما يشاء قدیر ، وبالإجابة جدير 1

يوسف الرحوي

من جماعة كبار العلماء

أسباب الهجرة النبوية وآثارها

عندما احتفلت مشيخة الأزهر برأس السنة الهجرية كان العدد الأول من هذه المجلة قد تم إعداده للطبع ، فلم نستطع أن نشر فيه كل ما ألقى في تلك الليلة من الخطب القيمة . فالיום وإن كانت المناسبة قد زالت فاننا نؤثر أن نشر خطبة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محيي الدين المدرس بكلية اللغة العربية ، حرصا على ما فيها من فرائد تاريخية ، وتفصيلات محلية ، وبيانات اجتماعية . وهي هذه :

لعل حادث الهجرة - هجرة الرسول وأصحابه من مكة ، لدم الذي فيه نشأوا ، وموطنهم الذي درجوا منه وألقوه ، وفيه أموالهم وأهلهم ، ولهم مسكنه شرف ورعاية على سائر العرب ، لأن فيه حرم الله الآمن ، وبيته المطهر من عهد أبيهم إبراهيم ، مع ما جعلت عليه طبيعة العربي من حب الوطن والقبيلة ، والحرص عليه والدود عنه وتعمدته بالآمن والأموال إلى المدينة ، وهي إدادك بلد وبني معروف بالحي ، ولم يسبق لا كثرهم به عهد . لعل هذه الهجرة أظهر الأحداث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابه ، ولعل أصحاب الرسول أنفسهم كانوا يرونها بهذه المثابة ويقدرونها هذا التقدير ، فإنا لنراهم - بعد أن انقضت إقامة الرسول بينهم بما كان فيها من حلال الأهمال وخطر الأحداث - يمددون إليها وحدها ، فيذكرونها ويتخذونها رمزا حالدا لحياة الإسلام ، ويسجلون ذكراها في معاهداتهم ومبايعاتهم وسائر شئونهم ، وما يزال المسلمون إلى يوم الناس هذا يمجّدون في هذا الحادث من المعنى السامي ما وجدته سلفهم فيه ؛ ذلك بأنهم يرون فيه صورة التفضية العظيمة في سبيل الحق ، والمنل الواضح للجلاد الدائب في نصرته العقيمة ، والاستهانة بما في الحياة من راحة ودعة في سبيل الدعوة إلى الله ، ويرونه أخيرا مبدأ الطريق الصحيحة العاتية في وجه الباطل ، والصريح المنتهب لدمر الظلم والعدوان .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحي بالمنزلة التي لا يمحذ فيها قصه : من أكرم قريش نسبا ، وأصلهم بيتا ، وأحسنهم خلقا ؛ فلما جاء قومه بما عرفوا من الحق حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه ؛ فعنوا على الله ولجوا في كفرهم وعداؤهم ، وظهر ما كان مستورا من العداوات القديمة التي كانت بين بطون قريش وبني هاشم ، وقام رؤوس بني عبد شمس بظواهرهم رؤوس بني مخزوم وغيرهم ؛ فأخذوا يورثون العداوة ويشيرون الحفائظ ، ويصدون الناس عن الاستماع لدعوة النبي ؛ فيقول أبو جهل الحكم بن هشام المخزومي : « تآزرنا نحن وبني هاشم الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ،

حتى إذا تخاذلنا على الركب قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فنتى ندرك مثل هذه ١٦
والله لا يؤمن به أبدا » ا

لم يكونوا يشكون في صدقه ؛ لأنهم لم يجربوا عليه كذبا قط ، ولأنه ما كان ليدع الكذب
على الناس ويكذب على الله ، ولأن هذا الكتاب الذي ينلوه عليهم ويدعومهم الى الايمان به بما
لا عهد لآذان بسلع مثله ؛ ولكنهم يخافون أن يظهر أمره ، ويحشون إن آمنوا به أن ينبه
ذكره فيضلل ما لهم من ذكر ؛ فكانوا إذا خلا بعضهم الى بعض اعترفوا بالحق وذكروا وجه
الصواب فيه ؛ فإذا صاروا في ملا من الناس كذبوا على أنفسهم وعلى الناس ورموه بالسحر
والكهانة والشعر والجنون ، وفي ذلك يقول لهم النضر بن الحارث : « يا معشر قريش : إنه
والله قد نزل بكم أمر ما أنيتم له بحيلة قط ، قد كان عهد فيكم غلاما حدانا ، وكان أوصاكم فيكم ،
وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ؛ حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم :
ساحر ، لا والله ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحرة وثقتهم وعقدهم وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو
بكاهن ؛ لقد رأينا الكهنة وتحالهم وسمعتنا سحهم وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو شاعر ،
لقد رأينا الشعر وسمعتنا أصنافه كلها ؛ وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ؛ لقد رأينا الجنون
فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ؛ يا معشر قريش ، انظروا في أمركم ، فإله والله قد نزل
بكم أمر عظيم ا » .

حاولوا أن يغروه أول الأمر بمناع الحياة الدنيا وزينتها ليرجع عما يباينهم به من الدعوة
الى توحيد الله ؛ فيقول له عتبة بن ربيعة . « إن كنت إنما تريد عما جئت به من هذا الأمر
مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا
فلا تقطع أمرا دولك ؛ وإن كنت تريد به ملكا ملكناك » فلا يجيبه على ذلك إلا إجابة
الساحر بمعارض عليه ، الموقن بانتصار حقه على باطلهم ، ينال عليه القرآن ، وفيه الدعوة الى الله
والتحذير من عقابه وتسفيه عقول قومه ، فيقول له : « أقدر فرغت يا أبا الوليد ؟ » فيقول :
« نعم » قال : « فاستمع مني » قال : أفصل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تنزيل
من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ، فأعرض
أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ولا آذاننا وقر ومن بيننا
وبينك حجاب فأعسل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى إنما الحكم إله واحد
فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون .
فإذا انتهى من قراءة السورة قال له : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ؛ فأنت وذلك » .

ثم يرفعون أمره الى محم أبي طالب الذي يظاھره ويدفع عنه ، ويعرضون على محم مثل
ما عرضوه عليه ، ثم يخبرونه عاقبة تماديهم في نصرته ابن أخيه ، فيقول له محم : « يا ابن أخي ،

إن قومك قد جاءوني في أمرك، فابق على وعلى نفسك» فيقول له: «ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته!» ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك همه وقد ظن أنه خادله، فناداه همه ثم قال له: «أذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلك لك شئ أبدا»!

فإذا ينسوا من اغرائه وعللوا أنه صلب الفتاة، وأنه جاد في طريقه غير آبه لما يتهددونه به، دافعوه بالقوة والكيد والقطيعة، فأغروا به سفهاءهم فمالوه وصحابه بالأذى، وأعلنت بطون قريش مقاطعة بني هاشم، وكتبوا بذلك عهدا علقوه في الكعبة توثيقا لأمره بينهم؛ فكان لا يصل شيء إلى بني هاشم إلا سرا يستخفي به من أراد صلته من قريش؛ ومشوا إلى أختان رسول الله فأمرهم أن يطلقوا بناته ليشغلوه بهن؛ وهول ذلك كله صابر رابط الجأش شديد الثقة بالله، عالم أنه لا بد ناصره ومؤيده، وهو لا يفتأ يأمر أصحابه وقومه بمثل ذلك من الصبر ورباطة الجأش.

فإذا رأت قريش أن ذلك كله لا يغت في عضده ولا يهن من قوته وعزمه، يبتوا قتله؛ ولقد هموا بذلك أكثر من مرة، ولكن الله تعالى منعه في كل مرة مما يريدون؛ فقد اجتمع يوما جماعة منهم، فقال أبو حنبل بن هشام: «يا معشر قريش، إن عدا قد أبى إلا ما ترون؛ من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أعلامنا، وسب آلهتنا؛ وإني أعاهد الله لأجسسن له غدا بمحجر ما أطبق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني؛ فليصنع بعد ذلك بنوعه مناف ما بدا لهم»! فقالوا: «والله لا نسلك لك شئ أبدا، فامض لما تريد». وأبى الله تعالى عليه ما عقد بينه عليه؛ وأنت أم جميل حاملة الخطب زوج أبي لُب وفي يدها دهر من حجارة تريد أن تلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما هو إلا أن بلغت المسجد حتى أخذ الله بصرها فلا ترى إلا أبا بكر رضى الله عنه، فتقول: «يا أبا بكر - أين صاحبك؟ فوالله لو وجدته لضربت بهذا القهر فاه».

وقد كان يشجعه على احتمال هذا الأذى والصبر على ما ينالونه به من المسكاره همه أبو طالب، وكان له عضدا وحرزا في أمره، وكان له منعة وناصر على قومه؛ وزوجه خديجة بنت خويلد التي كانت تواسيه وتدعوه إلى الجهد والصبر؛ فلما ماتا واشتد إيذاء قريش له، وتقافت شرورهم عليه، وتناولوا منه بهما ما لم يكونوا ليفعلوه، فكر في الرحلة عنهم، وتعمى أن يؤذنه بالانتقال؛ وأراد الله به وبدينه خيرا؛ فبدأ أول الأمر بمرض نفسه على قبائل العرب؛ فكان يخرج إليهم في مواعدهم أحيانا، ويتلقاهم في مواسم الحج أحيانا أخرى؛ وكان أهل يثرب من الأوس والخزرج أسرع الناس إلى قبول دعوته، لأنهم كانوا قد عرفوا بعض شأنه مما كان اليهود يحدثونهم به

هذه ؛ فلما هو إلا أن ذكر لهم أمره ودعاهم إلى الإيمان به ، حتى قال بعضهم لبعض : « يا قوم : تعلموا والله إنه نبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه » .

فأجابوه إلى ما دعاهم إليه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، ورجوا أن يؤلف الله به بين قلوبهم ؛ فلما اعتزموا العودة إلى يثرب أرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الدين ، فكان له أثر عظيم في دعوة أهل المدينة إلى دين الله ؛ فلما كان الموسم من العام الثاني لتي النبي ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من أهل المدينة ، فدعاهم إلى الله ورغبهم في الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وبايعهم على السمع والطاعة في السر واليسر ، وألا ينازعوا الأمر أهله ، وأن يقولوا الحق أينما كانوا لا يحافون في الله لومة لائم ؛ فلما تم له ذلك وأصبح له أنصار في بلد آخر رحل إليهم ويأنس بهم ؛ ويطمئن إلى حوارهم ، ويبتسح بهم ممن أرادته بسوء ، اطمان إلى الهجرة ، وأمر أصحابه الذين كانوا يؤذون في مكة بأن يهاجروا ، وقال لهم : « إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا يأمنون بها » فخرجوا أرسالا ، وأقام هو بعدهم ينتظر إذن الله له بالخروج .

ولم يكن مشركو قريش يحبون أن يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه من بين أظهرهم ؛ لأنهم كانوا يحذرون عاقبة هذه الهجرة ؛ فكاووا كلاما رثا جماعة من أصحابه خرجوا من مكة ، حاولوا إعادتهم ليؤذونهم ويقتنومهم عن دينهم إن استطاعوا ؛ فان أفلتوهم أحدهم انقلب وساورتهم المخاوف . ولقد احتجموا يتشاورون في الأمر ويدرون الرأي فيه ؛ فقال أحدهم : « احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه ما تم ترصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من الموت » فأجابوه : « والله ما هذا لارأي ، لن حبسه كما تقول ليجرحن أمره من وراء الباب الذي أغلقنا دونه إلى أصحابه فلا وشكوا أن يشدوا علينا فينتزعوه من بين أيدينا ثم يكاثرونا به حتى يغلبونا على أمرنا » وقال قائل منهم : « نخرجه من بين أظهرنا فنفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع » فقالوا : « والله ما هذا لنا برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أتم أن يحمل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتأبوه عليه ثم يسير بهم إليكم » وإذ ذلك ينهري أبو جهل من بين القوم فيقول : « أرى أن تأخذ من كل قبيلة مني جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيصربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فستريح منه ؛ فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فغلبناهم لهم » فإذا سمعوا ذلك من أبي جهل وافقوا عليه ، وتفرقوا وهم يجمعون له ؛ ولكن الله يريد أن ينصر رسوله ويؤيده ويظهر دينه فيأذن لرسوله بالخروج فيخرج وهم باباه راصدون له متعينون لتنفيذ قرارهم فيأخذ الله بأبصارهم فلا يرونه .

وكان الذي خافت قريش أن يكون في نجرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ولو أخرجوه كما قال قائلهم لكان أشرف لهم وأبقى على سمعتهم ، وعصمه الله منهم فلم ينالوا منه ما طمعوا فيه . وكانت لهذه الهجرة المباركة آثارها التي توفعوها ، وآثار أخرى لم تكن تخطر لأحدهم ببال ، فقد أصبحوا يخافون أهل المدينة وهم في طريقهم في تجارتهم إلى الشام . وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزدون كل يوم ، وهذا رسول الله بحسن حديثه وكريم أخلاقه وسمو مبادئه ونبل غايته ، يفعل في نفوس العرب وعقولهم فعلة ، وحبه يجري منهم مجرى الدم من المروق ، حتى إن أحدهم يرى الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ، ويقضتهم لما يأتي به وحرصهم على معرفة مبادئه تبلغ النهاية التي لا طمع وراءها ، فهم يحصون ألفاظه ، ويحيطون بأحواله كلها ، فلا تغيب عن وعيهم حركة من حركاته . ولنبى وأصحابه في كل حين صرعى من صناديد الشرك وأبطال الضلال ، وأخيراً يحيى هذا الذي أذكوه وألوا عليه وألجأوه إلى القرار بدينه فيقتحم عليهم مكة ويدخلها ، كما كانوا يخافون ، بمن اجتمع إليه من قبائل العرب .

وكان من آثار هذه الهجرة أن هدأت الحال ، وأصبح للمسلمين وجود اجتماعي ، فاعرذ نزول الوحي على الرسول يضع له ولائته أسعى ما عرفته الإنسانية إلى يوم الناس هذا من قوانين العدل والمساواة والحرية ، وألف بين قلوب أهل دعوته فأصبحوا سمعة الله إخواناً ، وهذب نفوسهم وراض ما صعب من أخلاقهم ، وجنبهم حمية الجاهلية الأولى ، وجعل رابطة الدين والعقيدة فوق كل رابطة ، وسوى بينهم في الحقوق والواجبات ، فلا فغل لعربي على عجمي إلا بالقوى ، وجعل الكبير صغيراً حتى يؤخذ الحق منه ، والصغير كبيراً حتى يؤخذ الحق له ، وضمن حماية العقل والنفس والمال ، وحذر من الفحشاء والمسكر والبنى ، ودعا إلى الاخلاص في السر والعلن ، ولم يترك مبدءاً سامياً إلا أخذ الله لبيه منه بأوفر حظ ، وأرشدته إلى المنزل الأعلى فيه .

فإذا احتفى المسلمون في مشارق الأرض ومقاربها بذكرى هذا الحادث فانهم إنما يذكرون اثره العظيم في دماء هذا الدين ، ويذكرون مع ذلك عزيمة قائدهم الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعزيمة أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، تلك العزيمة الماسية التي آتت أن تخضع لغير الحق ، واعتصمت بالله وحده ، فأخذ الله داصرهما حتى ألح بها أسمى مكان .

ولمحمي نضرع إلى الله تعالى في مهتل هذا العام أن يجعله مقروفاً باليمن والبركة على مصر وسائر بلاد المسلمين ، وأن يؤيد برعايته حصرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، وأن يوفق رجال حكومته إلى ما فيه خير الأمة وسعادتها ، آمين ؟

محمد محيي الدين عبد الحميد

محمد صلى الله عليه وسلم

في تقدير قادة الآراء في العالم (١)

« لنتحول الآن من الكلام من حياة مؤسس الاسلام الى الكلام من الاسلام نفسه وإنما قدمنا بيان حياة مؤسسه لأنه لا يجوز جهل مؤسس أى نحلة عند الكلام عنه ، فان ذلك قلب كل دين والروح المحرك له .

« أما وقد آن لنا أن نتكلم عن الاسلام فان الأصل الذى له المكانة الأولى فيه هو توحيد الله ، وهو أساس كل دين مبادئ . أما ما هو خاص بالدين الذى جاء به النبي العربي في هذا الموطن ، فهو أن توحيد الله يقتضى كونه الملك والمولى والمشرع ، وهو ما نسميه نحن معشر النصوصوفية : إشماراً ، أى الكلمة العليا . فقد تكرر في القرآن مدلول هذه السورة : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . فهذا هو صميم هذا الدين ، ورسالته السامية . ولكل دين كلمة خاصة يقولها ، ورسالة ذاتية يؤديها . فكما أن الكلمة العليا في الهند وستانية هي عمومية الذات الالهية ، فهي في كل شيء وكل الخلق فيه ، كذلك للاسلام كلمة عليا هي وحدة الله باعتبار أنه السيد المطلق ، ليس له شريك في الملك ، ولا ثاني يليه في الدرجة . وإني لأسطيع أن أستشهد بأيات كثيرة من القرآن على صحة ما أقول ، ولكن ليست الحاجة تدمر الى ذلك فأكتفى بأيتين اثنتين هما « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يرفع عنده إلا بذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم » . إن حلاله هذه الآية ظاهرة لحياتنا دفها من قصور الترجمة عن بلوغ شأوها . اليك الآية الثانية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

« ثم يلي هذه العقيدة في الرتبة الاعتقاد بالأنبياء ، لا بنبى واحد فحسب ، ولكن بجميع الانبياء . فقد صرح القرآن في مواطن كثيرة أنه لا يجوز التفرقة بين الانبياء ، فكلام مرسلون من قبل الله ، وقد خص كل منهم بأمة ، وقام بما عهد اليه نحوها . وقد دل الكتاب الذى جاء به محمد جلة وتفصيلاً على أنه كان يعتقد بجميع المرسلين ، ولا يحاول أن يتدخل في أعمالهم : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله » ، « قولوا آمنا بالله وما أنزل اليها وما أنزل الى ابراهيم

(١) تابع ما نشرناه قبل هذا من البحث القيم الذى نشرته مدام آني بيزات وجملة جميات النصوصوفية المالية .

وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى اليبوس من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ، « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون ثؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك ميلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا لكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما » .

« إن ما كان يعنيه النبي من كلمة إسلام تنفق اتفاقا تاما وهذه الروح الحرة التي قنا بإقامة الدليل عليها هنا فقد كان يقول دائما إنه لا يوجد إلا دين واحد هو الإسلام ، ولكن ماذا يعني الإسلام وعلى أي مراد كان يطلقه عند ؟ الإسلام يعني لغة ، الاستسلام والخضوع ، وفي الاصطلاح الديني ، يعني الخضوع لإرادة الله . وإذا كان الرسول يقول إنه هو الدين الوحيد الصحيح ، فهو كذلك في الواقع . ولكن هل هذا يعتبر مجديدا أو جده النبي في البلاد العربية ؟ اللهم لا ، فإنه هو نفسه لا يقول بذلك . فقد جاء في الكتاب : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ، « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين » ، « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

« فالإسلام بهذا المعنى وحده يصبح الدين الوحيد في العالم ، فالناس جميعا على اختلاف أديانهم إذا حصصوا لإرادة الله أصحوا أثناء الإسلام حقا بالمعنى الذي كان يطلقه النبي على هذه الكلمة . ولا يهمنا بعد ذلك إن كان أتباعه قد صبقوا من هذا المعنى في الأزمان الأخيرة . وإنني لأشكو إلى النبي أتباعه على هذا التضيق الذي ارتكبوه ، كما شكوت النصارى إلى المسيح ، والهندوسيين إلى الريشيين : « يوم تدعو كل ألس باماءهم فن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظهرون غيبلا » ، « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » ، « ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل . ولا تسبوا الدين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » ، « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن لبسكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

« كذلك نهى الإسلام عن خصاصة أهل الأديان الأخرى وإن كانوا على الوثنية ، لأنهم جميعا كما يقول سبحانه سيحشرون إلى الله يوم القيامة فبين لهم ما كانوا فيه يختلفون . فإجل هذه العبارة وهي قوله : « إلى الله مرجعكم جميعا » والمراد منها أن تترك منازعاتنا حتى يشرق علينا النور

الالهى فتتحلى لنا الحقيقة كاملة لاننا لا نرى منها الاّ الآن لا حرجا . فلتترك متازمانا كما يأمر به هذا الكتاب حتى يثير العقل الالهى بعناثر الناس ليروا كيف لا تعنى العقائد المختلفة إلا عقيدة واحدة .

« لسجاوز الآن هذا الموطن الى المظهر الخارجى للاسلام : فنجد فيه وجوب الايمان بالأربع الملائكة الاعلى الذين يتولون شئون العالم بأمر من الله ، وهم ميكائيل الموكل بحماية الخليقة ، وجبرائيل المسكف بالبلاغ رسالات الله ، وعزرائيل المعهود اليه قبض الأرواح ، وإسرافيل الذى عليه أن ينفخ فى الصور يوم القيامة ، فمؤلاء الاربع الملائكة لاعلون يشبهون الديفاراجا Devarājas عند الهنود . ثم يليهم المبلغون الذين يكتبون أعمال الناس ، وقد خص كل إنسان باثنين منهم ، ويأتى بعدهم جماعات من الملائكة تحيط بنا من جانب ، وهم ينفذون أوامر الله فى ملكه ، وينفذون إرادته ، ويرشدون الناس الى الخير ، ويحمونهم من الأخطار ، وهؤلاء يشبهون الديفا Devas عند الهنود . ثم نحى . بعدهم الطبقات السفلية وهم الجن الذين نسميهم نحن معشر البيوصوفيين بالكائنات العنصرية السفلى ، وهم خمس طوائف ، واحدة منها لكل عنصر من العناصر الطبيعية ، وهذا مطابق كل المطابقة لتعاليم علم الباطن .

« وفى الاسلام أيضا المذهب السباعى كالطباق السبع للسماء ، والدركات السبع للجهنم ، كما هو الشأن فى التعاليم الظاهرية لكل دين .

« وأخيراً نجد ذكرا عن إبليس الذى عصى أوامره هو وقبيله من الجنة العاصين ، وقد أهبط الى الأرض وصار ميرا للهواء وعدوا للناس أجمعين .

« لتتكم الآن من واجبات الفرد فى الاسلام : فأولها وأعلىها قيمة هى الاستقامة . وقد ورد فى هذا الموضوع آية جلية القدر أتلوها عليكم وهى : « ايس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتبان والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والصراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . » وآية أخرى وهى : « إن الله يامر بالعدل والاحسان وإيئاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمسكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ، وآية ثالثة وهى : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفقتين ، وهديناه البهدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقعة ، أو إعطام فى يوم مضى مضغة ، يتجأ ذا مقربة ، أو مسكينا ذا مقربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة . » . وقد خطب النبي محمد قال : « إن أفضل ما يدخره الانسان لمعاده ، هو ما يسديه من الخير لآخوانه

في هذه الحياة . فإنه إذا مات ابن آدم تساءل الناس ماذا آخر ، وتساءل الملائكة في القبر ماذا قدم ؟ .

« وبما يحسن شكل باحث في هذا الدين أن يفعله هو أن يتذكر الحالة التي وجد النبي عليها آمنه ، وهي الحالة التي وصفناها في مقدمة هذه المحاضرة ، وأن يتذكر أيضا بعد ذلك أن هذه الامة نفسها قد عملت بما وصاها به من هذه التعاليم .

(مجلة الأزهر) . لقد وصلت السيدة الجليلة (آتى بيزات) الى فهم معنى الاسلام كما يفهمه أهله ، ولستنا نأخذ عليها أنها اتهمتهم بتضييق معناه ، ولعلها تؤاخذهم جميعا بما وجدت عليه طائفة من غلاتهم في الهند أو غيرها . وقد سبق لها أن قالت فيما أشرناه لها في العدد العاشر : « احكموا على الاديان بالنظر الى سيرة أرقى ممثلها ، لا الى انحرافات أخط الآخذين بها » . ونحن نطالها بالجري على هذه القاعدة التي وضعتها .

أما قولها : « كذلك نهى الاسلام عن غصامة أهل الاديان الاخرى وإن كانت على الوثنية ، لأنهم جميعا سيبحثرون الى الله يوم القيامة فبين لهم ما كانوا فيه يختلفون . » فإن كانت تقصد بالغصامة هنا مقابلتهم بالمعدوان ، ومعاملتهم بالصف ، فهي مصيبة فيما تقول ، وإن كان غرضها ترك دعوتهم الى الهدى ، وإزالة بصائرهم لتعرف الحق ، على أسلوب لا يشير تعوسهم ، ولا يجرح كرامتهم ، فيكون في قولها صدق من الثور في المائشير في الغلام الهرم . وقد وضع الاسلام لبث هذا الثور بين المحرومين منه قاعدة لا يعقل أن يكون أعذل منها وهي قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم عن ضل عن سبيله وهو أعلم بالهتدين » . وليس من أية دعوة بالحكمة يستذكر في الذوق العام ، بل هو أمر لاد منه ، فإن أمر الانسان قد نبى على فهم الحقائق وتعرفها ، ودوام الترقى في تذوقها ، لا على الجسود والتحجر انتظارا ليوم القيامة حيث يبين الله للناس فيه ما كانوا فيه يختلفون .

محمد قنبر ومجدي

رذيلة السعاية

سأل رجل عبد الملك بن مروان الخليفة فقال لأصحابه : إذا شئتم فقوموا . فلما تروا الرجل لكلام قال له عبد الملك : إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسى منك ، أو تكذبني فإنه لا رأى لكذوب ، أو تسعى الى أحد ، وإن شئت أفانك . فقال الرجل : ألقني يا أمير المؤمنين وانصرف .

النقد الأدبي

في صدر الاسلام

النقد يرجع في حقيقته العامة الى غريزة حب الاستطلاع ، والكشف عن حقائق الأشياء التي تقع تحت حواسنا ، فهو مركز في الفطرة الانسانية منذ خلق الله في الساس إحصاسا وشمورا ، وعقلا يميزون به بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والصار والنافع ، وكان نظام الحياة العام وما جرت به سنن الله تعالى في الكون يوحى الى الطوائع الاساسية النقد الماحص والنظر المميز في ظواهر الوجود التي تفرغ الانسان أول ما يتصل بالحياة ، لينعرف منها ما يلائم خصائصه .

والنقد الأدبي نوع من هذا النظر ينصب على الآثار الادبية لمعرفة مواقفها لأصول الكلام الجيد وما تشتمل عليه من معنى جميل مستحسن ، أو ردل مستهجن ، ومقدار صلة هذا المعنى بالحياة ، ومعرفة ما أضاف اليها من صور جديدة ، أو ما كشف عنه من مناحيها المجهولة ، وتبيان الاثر الذي يحدثه في نفس القائل أولا ، والسامع ثانيا ، وما قيمته من الصدق والشعور ؟ وفي أي طرز وضع ؟

وإذا كان لابد لنا من سلوك طريق التعريف فلنستطيع على هذا الاساس أن نعترف « النقد الأدبي » بأنه : « انظر في الآثار الادبية وتحللها لمعرفة موافقتها لقوانين البلاغة ، وما فيها من المعاني ، وما لها من الاثر للوصول بالادب الى غايته من الكمال » . ولا شك أن هذا النحو من البحث لم يعرف لدى طائفة العرب قبل الاسلام تأثما على قوانين علمية ، وقواعد فنية ، وإنما عرفت عنهم خطرات فطرية ، وسائنحات سليقية ، كالذي يحكيه الرواة عن « طرفة بن العبد » وقد صرح « المسيب بن عيسى » يقول :

وقد أناسي لهم عند احتضاره بشاج عليه الصبيرة مكدم

فقال : « استنوق الجل » . قال في الحسان : والصبيرة اعتراض في السير ، وهو من الصبر ، والصبيرة صفة في النوق خاصة ... ولما صبح طرفة هذا البيت من المسيب قال : استنوق الجل ، أي أنك كنت في صفة جل ، فلما قالت « الصبيرة » عدت الى ما توصف به النوق .

أما حاسة الشعراء الذين عرفوا بالتسقيح كزهير والخطيب فذهبهم في الشعر يدل دلالة قوية على أن لهم منهجا في نقد الكلام غير السليقة المجردة ، ولكننا لا نستطيع تحديد ذلك المصحح تحديدا علميا لأننا نعيدون عن أن نجد قاعدة ثابتة يقوم عليها عندم ، وكل الذي نعرفه أن نقرأ

من شعراء الجاهلية كانوا يحفلون بأشعارهم وينقحونها تنقيحاً يذهب بعضها ويبقى على بعضها ، ثم نفاها للناس في صورة رضى عنها الشاعر ويطمئن الى نسبتها اليه . قال أبو هلال العسكري : « وكان هذا (التنقيح) دأب جماعة من حذاق الشعراء ، المحدثين والقدماء ، منهم زهير ، كان يعمل القصيدة في سنة شهر ، ثم يهذفها في سنة أشهر ، ثم يظهرها ، فسمى الحوليات . وكان الخطيبنة يعمل القصيدة في شهر ، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها » . فذلك التهذيب من زهير في ستة أشهر ، وهذا النظر من الخطيبنة في ثلاثة أشهر ، لا بد أن يكون قائماً على شيء أزيد من السليقة والنفرة .

ومهما يكن فالنقد الأدبي كان مروجاً عند العرب قبل الاسلام معرفة عامة لا تتضح معالمها إلا بمقدار ما سمحت به الحياة إذ ذاك . فلما نزل القرآن الكريم ، وفتح على العرب أبواباً في المعاني والمقائيق جديدة ، تناولت التشريع والعقيدة ، والسياسة ، والاجتماع ، والأخلاق ، والأدب ، وكان في أسلوبه طرزا فريدا لا يبارى ، اتخذته فصحاء العرب نبراسا لأساليبهم الأدبية ، وتأثروا في كلامهم ، وإلى جانبه البلاغة النبوية لها من المميزات والخصائص ما ليس لغيرها من كلام البشر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أتقى الناس بصيرة ، وأحدم مذهبا ، وأعرفهم بطرائق الخطاب ، ومواقع الكلام من النفوس ، وهو القائل : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » ، والقائل : « إياي والتشادق » ، وفي حديث آخر : « إن أبغضكم الى الترنادون المنهيقون » ، وروى أن رجلا تكلم بين يديه في شأن جنازة على حين قتال . كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس ذلك دمه قد يطر ؟ فقال النبي صلوات الله عليه . أسجما كسبح الكهان ؟ ! وهذا نحو من النقد الأدبي البارع ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يحمد من المسكلم هذا المذهب في الكلام لما فيه من التكلف والثبات ، وكذا النفس من غير موجب .

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الاحزاب : من يحبى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب : أما يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : إياك يحسن الشعر ، وقال حسان : أنا يا رسول الله ، قال : نعم اجمعهم أنت فسيبعبك روح القدس ، وهذه موازنة صامتة بين شاعري الاسلام ، والمؤارة من أخص ضروب النقد في الأدب ، والنبي صلى الله عليه وسلم معلم ومرشد ، يعلم أمته الحكمة ، ويرشدها الى طرائق الخير ، في أفعالها وأقوالها ، فكما ظهر عقيدة الأمة ، وجاءها بأكل شريعة ، أدبها في مناهج خطاياها ، وأرشدتها الى أفضل أساليب الكلام بما جبله الله عليه من السجوى في هذا المقام .

وقد جرى أصحابه على سنته ، فكان فيهم ناقدون عبقريون ، لم يشغلهم الدين عن الدنيا ، ولا صرفهم علم الشريعة عن النظر في الأدب ، فهذا عمر بن الخطاب ، وهو من هو في الدين

وسياسة الامة : كان من آدب الناس وأتقدم ، روى أنه قال لابن عباس : أنشدني لأشعر شعرائكم ، قال : من هو ؟ قال الذي يقول :

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس عملا

قال ابن عباس : ذلك زهير ، قال : فذلك أشعر الشعراء ، قال : وبم كان أشعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاقل في المنطق ، وكان يتجنب وحشي الكلام ، ولم يعدح أحدا إلا بما فيه . وهنا يجب أن نتقف مع القارئ الاديب قليلا لنأمل في هذا القانون الذي استقته صر ابن الخطاب في النقد الادبي ، فهو يرى أن مقياس الجودة في الادب التجاني عن التعميد والتعميس في المعاني ، والبرام السلاسة والسهولة في التعبير ، وصدق الاحساس والشعور ، وهذه الاسباب الثلاثة هي جماع الاصلاح الادبي التي يجب أن يقوم على أساسها النقد حتى يوثق مخرجه المرجوة .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أديبا حكيما ، وناقدا صيرفيا ، قال السيوطي في المزمع : وكان أبو بكر رضي الله عنه يقدم النافذة ، ويقول : هو أحسنهم شعرا ، وأعذبهم بحرا ، وأبهدم قمر ، وهو مذهب في النقد يتجه بالشعر الى حق التصوير ، والوصول بالمعاني الى غاياتها ، وحلاوة الرنين الموسيقي في الالفاظ ومناسبة الوزن للمعنى . أما على كرم الله وجهه فحسبك به من أديب خبير وناقذ بصير ، قال صاحب المصنف : حكى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : لو أن الشعراء المتقدمين ضمه زمان واحد ، ونصبت لهم راية ، لجروا معاه علمنا من السابق منهم ، وإذا لم يكن ، فالتى لم يقل لرغبة أو رهبة . فقيل : ومن هو ؟ فقال : الكندي ، قيل : ولم ؟ قال : لأنى رأيت أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة . هذه الشريعة في النقد المبنى على الموازنة بين الشعراء من أصدق وأحسن قواعد النقد ، لأن اجتماع الشعراء في زمان واحد معناه تساويهم في التأثر بروح العصر ، والبيئات العامة والخاصة ، ونصب راية لهم في تسابقهم معناه اتفاق الغرض حتى تصح الموازنة ، وإذا لم يكن ذلك فالميزان الصادق ، الشعور وصدق العاطفة ، وعدم الرغبة أو الرهبة بالنظر الى عوامل خارجية عن ضمير الشاعر . ولا يتسع لنا المقام لاستقصاء الروايات الادبية التي تنسب الى كثير من أجلاء الصحابة في النقد الادبي : كابن عباس ، والسيدة عائشة ، وعروة بن الزبير وسواهم ، وحسان ابن ثابت على براعته في الشعر فإنه كان مافداً حاذقا ، قيل له : لأن شعرك في الاسلام ، فقال : إن الاسلام يحجز عن الكتف . وعرف له سيدنا عمر بن الخطاب هذه المكانة الادبية فمكان يحكمه في مواقف المصاع . روى أن النعماني الشاعر عجا بنى العجلان ، فاستعدوا عليه عمر ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لقد عجانا السجاني ، فقال : وما قال ؟ فألشدوه :

إذا الله عادي أهمل ثوم ورقة فعادي بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب له ، فقالوا : إنه قال :
 قبيحة لا يندرون يذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
 فقال عمر : ليتني من هؤلاء ، قالوا : فانه قال :
 ولا يردون الماء إلا عسبة إذا صدر الورد عن كل منهل
 فقال عمر : ذلك أقل لزحام ، قالوا : فانه قال :
 تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن موف ونهشل
 فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحه ، فقالوا : فانه قال :
 وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد والعجل
 فقال عمر : كنا عبداً ، وخير القوم خادمهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع
 ذلك ، فقالوا فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله ، فقال حسان : ما هجاء ، ولكنه سلع عليهم .
 وهذه القصة إذا صحت تفيد أموراً من العلم والأدب ، فإن عمر رضى الله عنه كان فيها رجل
 الاسلام الذي لا يريد تأريث العداوات بين بطون العرب وقبائلهم ، وهو أعلم بأن النجاشي
 هجاشي العجلان هجاء جاهلياً ممضاً ، فهم في جاهليتهم كانوا يرون المثل الأعلى في نحو قول زهير :
 ومن لم يذ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
 وكأنه رضى الله عنه كان يريد توجيه أفكار الشاكين في رفق ولطف الى مبادئ التسامح
 وترك المنجنيات ، وهو في حديثه ، بهم يحمل نفسه محلاً لهذا ، فيقول : ليتني من هؤلاء ،
 ويقول : كلما عبداً ، وخير القوم خادمهم ، أما حسان فكان في حكمه أديباً قنياً ، وشاعراً يعلم
 مواطن الإصابة والألم في الكلام تطبيقاً على المؤلف من العادات .
 وروى أن ابن عباس سأل الخطيب : من أشعر الناس ؟ قال : من الماضين أم من الباقين ؟
 قال : من الماضين ، قال الذي يقول :
 ومن يجمل المعروف من دون عرضه يفرد ومن لا ينق الشتم يشتم
 وما بدونه الذي يقول :
 ولست بمستبق أحداً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
 ولكن الضراعة أفسده ، كما أفسدت « جرولا » ، يعني نفسه ، والله لو لا الجشع لكنت
 أشعر الماضين وأما الباقون فما أشك أي أشعرهم ، قال ابن عباس : كذلك أنت يا أبا مليكة .
 وموضع الدقة في مذهب الخطيب القدي عرفانه بأثر الجشع في إفساد الفطرة الانسانية ،
 وقتله للاباء والكرامة ، مع صراحته في الاعتراف به على نفسه ؟

صادق إبراهيم عرجون

الفقه الاسلامي

إنشاء مجمع فقهي ملكي لخدمته — إيجاد دائرة معارف مه
اقترح على مشيخة الأزهر الجليلة

يذكرني ما نشرته مجلة الأزهر الشريف في عددها الصادر في المحرم سنة ١٣٥٦ لحضرة
العلامة الجليل مدير تحريرها تحت عنوان « جمع المذاهب الفقهية » ولحضرة القانوني الكبير
الدكتور عبد السلام ذهني بك المستشار تحت عنوان « التوثيق للنهوض الفقهي » الى أن ألقى
بدلوي في الدلاء ، وأعرض ما يلي

ما من ريب في أن الفقه الاسلامي محيط أعظم لا ساحل له ، ولا تبليغ أكبر دائرة من دوائر
المعارف القانونية الاوربية بالنسبة له غير بحيرة الى هذا المحيط .

حوى هذا الفقه من الظلم والاحكام ما يكفي المجتمع البشري في التشريع في كل زمان
ومكان . وما من حكم طائل أو نظام صالح إلا ولعالم من علماء المذاهب الفقهية قول فيه .

ومع غنى هذا الفقه وإحاطته التي لا نظير لها لم يعص به المتأخرون ، ولم يظموه التنظيم
الحسن الذي يمكن من الاستفادة منه بسهولة ، ولم يعرضوه العرض المشوق الذي يدعو الى
الرغبة فيه والاقتراب منه ، لأنهم لو عتبروا به لآلئوا منه دائرة معارف فقهية خاصة بكل مذهب ،
ودائرة معارف كبرى تحيط بجميع المذاهب بأداتها ، وتجمع جميع الفتاوى والأقوال منسقة
تتسبق دوائر المعارف القانونية الاوربية ، لتعين الباحث وتسهل له المراجعة ، وتوفر له الوقت
والمجهود ، ويقف منها القارئ في دقائق معدودة على ما قاله العلماء في نحو أربعة عشر قرناً
في المعنى الذي يفشده من غير أن يتكبد المشاق ويضيع الوقت الطويل في مراجعة عشرات
المجلدات للوصول الى ذلك المعنى المنشود كما هو حاصل الآن .

فاذا كان السالمون لم يفكروا في وضع دائرة معارف فقهية خاصة بكل مذهب ، ودائرة
المعارف الفقهية « الكبرى المحيطة بجميع المذاهب » فإن الناس في هذه الايام يتوقمون أن
يقوم الأزهر الشريف ، في عصر مليكنا المعدي فاروق الاول ؛ وعلى يد مولانا الاستاذ
الاكبر والامام المصلح الشيخ المراغي بهذا الواجب ، وسد هذا النقص .

فإن فضيلة مولانا الامام ، وهو من أركان النهضة ، وفي مقدمة رجال الإصلاح ، وقد عرف
بالمسارعة الى عمل كل ما فيه الخير والرق والتقدم ، هو الذي يستطيع أن يعمل على إصدار
مرسوم بإنشاء « المجمع الفقهي الملكي » على مثال المجمع اللغوي الملكي لخدمة الفقه الاسلامي

وبإنشاء دوائر المعارف الخاصة والعامة منه ، وهو الذي يحكه أن يرصد المبالغ في ميزانية الازهر سنويا للقيام بهذا العمل العلمي الجليل . وهو الذي يحكه أن يكلف علماء كل مذهب في الازهر بإنشاء دائرة معارف خاصة بمذهبهم ، وهو الذي يستطيع أن يكون المحقق الرئيسية والقرعية من علماء الازهر الشريف ورجال القضاء والقانون الذين اطلعوا على دوائر المعارف القانونية في اللغات الأوروبية ، ويقسم أبواب الفقه على هذه المحان ليساهم كل في هذا العمل العظيم الشأن الذي لم يوفق أحد من قبل للقيام به ، مع أن الفقه وطلابه الباحثين فيه ، وعالم التشريع والقانون في شدة الحاجة اليه .

إنني أتقدم بهذا الاقتراح لحضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الامام المصلح الاكبر شيخ الازهر الشيخ المراغي ، فانه كما قال الاستاذ رئيس التحرير هو الذي يقدر عظيمة هذا المشروع حق قدره ، ويستطيع بما أوتيته من اطلاع بعيد المدى على أمرار الشريعة ، وقدرة فائقة على تذليل العقبات ، أن يهون كل صعب في سبيل تحقيقه .

ولقد تشرفت بمرض هذا الاقتراح على فضيلة مولانا في سنة ١٩٣٥ فنفضل بتشجيعي عليه ، وإبداء الارتياح منه ، مما يدل على ان فضيلته فكر في هذا الموضوع قبل أن يفكر غيره فيه ، وأنه عازم على تنفيذه من غير أن يطلب أحد منه ذلك ، متى رأى أن الوقت قد ان للشروع فيه .

أشاه الله وأدامه ، وأعز به الاسلام والمسلمين !

السيد عفيفي

بمحكمة مصر الشرعية

من حديث الاجواد

بيننا خالد بن عبد الله القسري جالس في مظلة له إذ نظر الى امرأى يجف به بعيره مقبلا نحوه ، فقال لحاجبه : إذا قدم فلا تحجبه ، فلما قدم أدخله عليه ، وسلم وقال :

أصلحك الله قل ما بيدي فما أطبق العيال إذ كثروا
أماخ دهر ألقى بكلا فأرسلوني إليك وانتظروا

فقال خالد : أرسلوك وانتظروا ، والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرهم ، وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة

وخرج رجل من الثمراء الى يزيد بن حاتم ، فلما بلغ مصر وجده قد مات ، فقال فيه :

لئن مصر فانتى بما كنت أرتجى وأخلفتني منها الذي كنت آمل
فأكل ما يخفى الفتي بمصيه ولا كل ما يرجو الفتي هو نائل
وما كان بيني لو قمينك سالما وبين الفتي إلا ليال قلائل

استحضار الارواح في أوربا

نشرت مجلة الدنيا الاسبوعية حديثنا عن حضرة الاسناذ الكبير ابراهيم الهلباوى بك الحامى ، ذكرت فيه أنه لما شخص الى أوربا في سنة ١٨٩٥ رأى هو ولطيف سليم باشا رحمه الله ، أن يجربا مسألة استحضار الارواح التي شاعت في أوربا من سنة ١٨٤٧ وحققها علماء كثيرون هنالك واعتقدوا صحتها ، فقدموا الى وسيطة مشهورة في باريس ، جلست وها معها حول منضدة واضحة يديها عينا ، وفعل لطيف باشا مثل ما فعلت ، ولم تمض هبة حتى وقمت في غيبوبة ، ثم أفاقت وقالت للاسناذ : ها هي الروح التي طلبت في نفسك أن تحضر قد حضرت . فسألها : روح من هي ؟

فقلت : روح عبد .

فسألها : أي روح عبد توفيق باشا ؟

فقلت : لا ، ولكن روح عبد النبي ، وأخذت تصفها بأوصافها التي وردت عنها في كتب السير . ثم قالت لها : سلاها ما شئت .

قال الهلباوى بك : فخرت في أمرى ، واعتزاني تيب عظيم ، لم أملك معه قياد نفسي . ولم أستطع أن أبس بكلمة فقلت للطيف باشا : كلها أنت . فادابا به قد اعتراه مثل ما اعتزاني فلم يرد على أن قال : يا ... سو ... ل الله . ثم أرتج عليه وصمت .

فلما شق علينا الأمر ، استعينا الوسيطة من الاستمرار ، متذرين بما أصابنا ، وخرجنا . قال فما كان اليوم الذي أعدنا الكرة ، وعزمت على أن أستحضر روح زوجتى . فكان من الوسيطة ما كان بالأمس من الغيبوبة ثم الافاقة . وقالت لى : ها هي الروح التي طلبت في نفسك أن تسكلمها . فقلت ما اسمها ؟ قال : فأخبرتني من اسم زوجتى المتوفاة . ثم أحدث تقبض في وصف صورتها ، فلم تحظى في شيء من حليتها ، وهي لا تعرف عنها شيئا قبل ذلك .

قال : فسكلمتها بما أردت وصرت من ذلك اليوم أعتقد بصحة استحضار الارواح .

ثم قال : فلما عدنا الى مصر أخبرنا معارفنا بما شاهدناه ، وكان منهم طرس فالى باشا ، قوهى ما قلناه ، ولما ذهب الى باريس قصد الى تلك الوسيطة وغيرها ، وتحقق من صحة اتصال الاحياء بعالم الموتى .

ثم قال : ولم يقف لطيف باشا عند هذا الحد ، فتوصل الى إيجاد وسيط واتفق أن كان خادما عنده ، فحضرت إحدى تجاريه معه ، وطلبت في نفسي أن تحضر روح على بن أبى طالب ،

فقال الوسيط : هاهي قد حضرت . فكلمتها فكان جوابها كلاما عاليا من نوع الكلام الممزو الى علي بن أبي طالب في نهج البلاغة ، وكان الوسيط أميا .

ثم ختم الاساذ الكبير حديثه بأنه من المؤمنين بإمكان مساجاة الأرواح ، بعد ما ظهرت له صحتها بالدلائل المحسوسة ، وأن هذه المسألة سيكون لها تأثير كبير في العالم .

هذا ما نشر من حديث شيخ المحاماة في مصر ، وما كاد يذيع بين القراء حتى وافانا من غير واحد منهم سؤال عن مبلغ مسألة اتصال الاحياء بالأرواح من الصحة ، وعن حكمها من الدين ، فلم يسهنا إلا بإفاضة الكلام فيها نزولا على إرادة حضرات السائلين ، فقول :

أصل هذه المسألة من التاريخ :

أثبت التاريخ أن مساجاة الأرواح كانت معروفة لدى القدماء منذ أوف من السنين . فقد تبين أن المصريين والعيليين والهنديين وغيرهم كانوا يتصلون بأرواح الموتى ، ويتخاطبونهم على نحو ما عليه الحال في أوروبا الآن ، وقد بلغوا فيها شأوا أعدهم بما بلغاه في هذا العصر . ولا تخلو أساطير أمة في الأرض من ذكر ظهور أرواح الموتى للأحياء ، بل لا يخلو بلد في الأرض من حوادث ، تروى من ظهور كائنات مجردة عن المادة للناس في دور مأهولة أو مهجورة أو خارجها في الغلوات والطرق . ولكن العلم لم يكن يعا بكل ذلك ، ذهابا منه أنها من توليدات الخيال ، وأوهام الجهال .

فلما كانت سنة ١٨٤٧ حدثت فجأة في صحافة أمريكا حول حادث ظهور روح في بيت ، وثبتت ظهورها لرجال الشرطة والنيابة . فأغرى ذلك كثيرا من رجال العلم والسياسة والقضاء الى التحقق من هذا الامر ، فكان كل من يزور أسرة المستر فوكس في بيتها بمدينة هيدسفيل بقرب نيويورك ، يشهد حوادث لا يجد الى إسكارها من سبيل ، ويعلم ما رآه غير غاش في الحق لومة لأثم . من هؤلاء المشرع آدموندس Edmonds رئيس مجلس الشيوخ الأمريكي ، والاساذ (مابس) Mapes اساذ الكيمياء بالجمع الملقى . والاساذ (روبرت هير) R. Hare وغيرهم من كبار المفكرين ، ولم يكتفوا بما اعتقدوه في أنفسهم ، كما فعل إخواننا المصريون الذين رأوا بعض حوادثها ، بل نشر كل منهم بحنه على رهوس الأشهاد . حتى أنه لما اشتدت لهجة الجرائد في حق المشرع آدموندس ، كان عليه إما أن يترك هذه المباحث أو يستقيل ، فاستقال من منصبه الخطير وعرض منته للتعارب ، وكانت قد ظهرت فيها خاصة الوساطة . وهكذا تغوز الحقائق بالظهور في بلاد الغرب ، وتجد لها جوا صالحا للزهار والانتار ، ونحو في الشرق وتنطس معالمها ولا تجد لها نصيرا .

لم يكن ما أثبتته الباحثون في منزل المستر فوكس أن الحادثة تنحصر في حدوث طرقات واضطرابات لا يمكن تعليلها إلا بنسبتها الى عالم غير منظور ، ولكنها تتجاوز ذلك الى التفاهم

بين أفراد من ذلك العالم وبينهم . فقد اتفقت مدام فوكس ومحدث الاضطراب على الجواب بواسطة الطرق : طريقة واحدة هنيءة ، وطريقتان للاممات ، ثم سألتها قائلة : هل أنت روح ؟ فأجابت أوف نعم ، بواسطة طريقتين . وما زالت تسألها وهي تجيب بنعم ولا ، حتى علمت منها أنها روح ساكن سابق لهذه الدار ، قتله جاره وسلب ماله ودفنه بجوار جدار فيه . فما وسع مدام فوكس إلا أن أشهدت على هذه الاجابات بعض الجيران ، ثم قصت الى دار الشرطة وأخبرت رئيسها بما حدث . واتفق أن إدارة الشرطة كانت تبحث عن مفقود كان يسكن منزل مدام فوكس قبلها فلم تهتد اليه . فشخص الضابط الى تلك الدار على رأس كنيبة من رجاله وحاصرها من كل مكان ، واحتل بعض أفراد الكنيبة السطح والغرف المجاورة . ولكن على الرغم من كل هذه التحولات أحدثت الروح الطرقات ، وأجابت على كل ما وجه اليها من السؤالات ، ودلت على القاتل . فلم يسع ضابط الشرطة إلا أن أبلغ الخبير الى النيابة ، فحضر بعض رجالها واتخذوا ما أمكنهم اتخاذه من التحولات ، وسمعوا أقوال الروح . وألقى القبض على المتهم فاعترف بجريمته

وكان لمدام فوكس بنتان ، أكبرهما في الرابعة عشرة ، أنسا بهذه الروح فكانتا تبادلانها السؤال والجواب ، ثم اتفقتا وإياها على طريقة أخرى للتقام ، وهي أن تسرد واحدة منهما حروف الهجاء ، فتطرق الروح طريقتين عند كل حرف تزيده ، وتتولى الأخرى إثباته على الورق حتى ينتهي ما تريد الاقضاء به ، ثم تركب من تلك الحروف المنثورة كلمات ، ثم تقرأ فيكون الجواب .

أمضت البناتان فترة من الزمن وهما تشغفلان بدعاية الروح بالمسائل النافهة ، فما واعهما إلا أنها قالت لهما يوما : إنها لم تكلف الظهور لهما إلا لأجل أن تقوم بواجب خطير ، البصر في أشد الحاجة إليه في هذا العصر ، وهو أن تثبت هي وأخواتها اللاتي كانت تأتي معها ، للذين لا يعتقدون بحياة الأرواح بعد الموت ، أن الأرواح حية تزرق ، وأنها في عالم أرفع من هذا العالم . وعلى هذا فهي تكلف البنين بأن تملأ في الصحف عن حملة روحية تقبيلها في إحدى حجر المحاضرات العامة . ومتى حضر الناس وجلسا على المسرح قامت الروح بأحداث خوارق مذهلة ، تثبت بها النظرارة أنهم من إلحادهم في ضلال مبين ، وأن عالم الأرواح حق لا شبهة فيه .

فريعت البناتان من هذا الطلب ، وكبر على أمهما أن تعرضهما لنهمة الشعوذة ، فأجبن الروح بمجمات بعدم إمكان قبول طلبها .

فأجابتهم الروح قائلة : إذا كان الأمر كما تظن ، فاقى لن أحضر إليكم بعد اليوم ، وودعتن وانصرفت . واتقطع اتصالهما بهن . ووجد البناتان وحشة من فراقها لهما ، وكانتا تألمان بالاتصال بها كل الأنس . وفكرتا في تعديل الطلب وجعله أقل تمرضا لفالة الجاهل .

وطلبنا الروح لحضرت ، فقالنا لها : إن التعرض للجماهير علنا أمر لم تتعوداه ، وقد رأنا مرضاة لصديقتكما الروح أن تنوسطا في الأمر فتجاسا في حفلات تتخذ في أهباء دور بعض الأمر الكبيرة .

قبالت الروح هذا الافتراح فكات الأمر الكبيرة تدهور الاخمين ، فتدلان المديرة وتجلسان بين سائر المدعويين من عليه الماس ، فتحدث خوارق تحمل من براها على التصديق بمالم الارواح . وقد تبين من اتصال الروح بهاتين الفتاتين ، وعمامه العلماء من البحوث في هذه الأمور ، أن الاتصال بمالم الارواح لا يمكن أن يكون إلا بوسيط آدمي ، فيه استعداد خاص لأن تستمد منه الروح مادة تستطيع معها أن تؤثر في الاشياء تأثيرا يحس به الاحياء . وقد يكون الوسيط هو المحرب نفسه ، كما تبين للكثير من كبار الرجال ، فقد اتضح أن الاستاذ الطبيعي (مورجان) والكاتب الفيلسوف (وليم ستيد) ، والمالم اللاهوتي ستونف موزس ، وسطاه ، وكلام من أعيان الانجليز ، وأن بنتي آدموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكي ، وامرأة أكرأ كوف الوزير الروسي وغيرهن من كرام العقائل ، وسيطات أيضا .

فاذا لم يكن المحرب نفسه يصلح للوساطة ، وجب أن يبحث عن وسيط غيره ، وليست الوساطة بالأمر الهين ، فقد تستولى الروح على يده فتخرجها عن إرادته وتمكتب بها ما تشاء ، وقد تستولى على لسانه أو صمعه ، وقد تمقطسه وتوقعه في غيبوبة وتأتي ما تأتيه أمام المحربين ، وهو قافل عما تفعل . وقد شوهد أن بعض الارواح تتجسد مستعيرة جسدها من الوسيط ، فاذا وزن وهي متحدة ، ظهر أن جسده آل الى نصف ما كان عليه . وقد شوهد أن الروح تتجسد بتحليل النصف الأسفل من جسم الوسيط ، لتكون لنفسها منه جسدا تطوره للمحربين . وقد رئي أن الروح تضمر جسده الوسيط فتقصر أذرعته وساقيه ، وتفرغ حسيه من بعض العضلات والقصم ، ثم ترده الى حالته متى انصرفت .

هذه مسائل محيرة للعقل شغلت بال كثير من علماء أوروبا ، فوقفوا حياتهم على دراستها ، وبذلوا الاموال الوفيرة لتهيئة أسبابها . ألقوا لها جميعات وأقاديبيات ، وأقاموا مؤتمرات كان آخرها مؤتمر برشلونه سنة ١٩٣٥ ، ولهذه البحوث مئات من المجلات الخاصة بها . وهي كما ترى خليفة بان يفتق في سبيلها كل جهد . لذلك تراها قد شغلت من العقول ما لم تشغله مسألة أخرى من قبل .

إني أرى أن من واجباتي ، وقد عرض ذكر هذه المباحث ، أن أعطي قراء هذه المجلة صورة كاملة عنها ، وكل ما ذكرته من هذه الخوارق ، مشاهدات حققها رجال من أقطاب العلم ، وعملوا عنها محاضر مذهبة بتوقيعاتهم ، وتناقلوها في مؤلفاتهم ، والقراء أحرار في أن يتبعوها في تلك المؤلفات ، أو ينقروها بدون بحث ، كما يفعل علماء أوريبون كثيرون ، بحجة أنها منافية

للتواضع الطبيعية المعروفة التي لا يؤمنون إلا بها ، ولا يتخيلون أن فوقها قوة تستطيع أن تحولها من مجراها المادي .

من أشهر الجمعيات التي تشغل بهذه الامور جمعية المباحث النفسية التي ألفتها مدرسو جامعة كمبردج في سنة ١٨٨٢ ، ولا تزال موجودة ، وقد جمعت من تجاربها وتجارب سواها أكثر من خمسين مجلدا ، تعتبر ثروة علمية لا تقدر بثمن .

ومنها جماع المباحث النفسية في باريس ونيويورك وورلين وروما وغيرها ، وكلها يديرها العلماء ، وهذه غير جمعيات لا يخصص لها عدد منبثة في جمع عواصم الأرض .

ولا غرو فان موضوعها من أسس المواضيع بالانسان ، وأداتها لتفكيره وعيانه ، فهي تبحث في هل له روح تبقى بعد موت جسده ، وتخلد في عالم غير هذا العالم أم لا ؟

وقد نشأ من الخوارق التي تاتىها الأرواح مواضيع لدراسات فيزيولوجية وبيولوجية ونفسية من المخلوطة بمكان عظيم ، بحيث ينتظر أن يترقى العلم بها الى درجات لم يكن يحلم بها أحد من قبل ، وتخل بواسطتها شبهات دينية كانت أكبر عقبة في سبيل الأديان في عصور النهضة العلمية في الامم .

تقرير اللجنة العلمية عن هذه الخوارق :

لما انتشرت هذه المباحث في أوروبا ، وأعلن كثير من العلماء تصديقهم لها ، طالب الرأي العام البريطاني المجمع العلمي بأبداء رأي فيها ، فندب اثنين وثلاثين عالما من أعلامه لفحصها ، وإبداء رأيهم فيها . فقاموا بما دعه اليهم ، ودأبوا ثمانية عشر شهرا على دراستها ، ثم كتبوا عنها تقريرا وقع في أكثر من خمسمائة صفحة ، جاء في آخره ما يأتي :

« كل الاجتماعات التي عقدت لفحص هذه المسألة كانت في الدور الخاصة بأعضاء هذه اللجنة ، لكي كل احتمال في إيراد آلات لاحداث هذه الظواهر ، أو أية وسيلة من أي نوع كان . »
« وقد حملنا تجاربنا في ضوء الغاز ، ما عدا عددا قليلا منها ، اقتضى شأنه الخاص أن نعمله في الظلام دقائق محدودة .

« وقد تمحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة في الخارج ، أو الذين يأخذون أحرار على عملهم هذا . فكان واسطنا الوحيد أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له غرض مالى يرمى إليه ، ولا أى مصلحة في غش اللجنة . (نقول : هذا الاستاذ هو العالم الطبيعي مورجان رئيس شركات التلغرافات البريطانية) .

« كل تجربة من التجارب التي عماناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن نتخيله من الدقة ،

حملت بصبر وأناة . وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة ، لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وإبعاد كل احتمال لنفس أو توم .

« وقد بدأ نحو أربعة أخصاس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بانها نتيجة التدليس أو التوم ، أو أنها حادثة بواسطة حركات غير إرادية للمعضلات . ولم يقنازل هؤلاء الاعضاء المتشددون في الانكار عن فروضهم إلا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته ، وفي شروط تتقن كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات صحيحة لا غبار عليها » انتهى .

بعد صدور هذا التقرير مذيلا بتوقيع اثنين وثلاثين قطبا من أقطاب العلم الرسمي في إنجلترا ، أدرك الناس كافة أنهم حيال آية جديدة أراد الله أن تظهر لتخليص الإنسانية من شبح المادية التي كادت تهوى بها إلى مكان سحيق .

ما هي طبيعة الكائنات التي تحدث هذه الخوارق :

الصعوبة في نظر المسلمين وغيرهم من الدينيين ليست في حدوث هذه الخوارق أو أعظم منها ، لأنهم يعتقدون أن الوجود مشحون بكائنات روحانية علوية وسفلية ، قد يظهر بعضها من نفسه لبعض المستعدين لرؤيتها ، ويستحضر بعضها الآخر وسائل قررها الروحانيون منهم ، ولكن الصعوبة هي في ادعاء هذه الكائنات أنها أرواح الموتى الذين كانوا عائشين على الأرض ، وفي إمكان المجربين استحضارها في أي وقت يريدون ، حتى ولو كانت في عاين ، وهم من الأديين . والذي أنكره جمهور قراء مجلة الدنيا من المسلمين ينحصر في هذه النقطة ، فقد عز عليهم أن يصدقوا أن روح محمد صلى الله عليه وسلم تنزل من عليائها الروحاني ، وتلقي دعوة واحد من الناس بواسطة امرأة قد لا تكون من المسكنة الروحانية بحيث تصلح لمثل هذه الوساطة ، وباستدعاء رجال قد لا يكونون لاستدعائها أهلا .

هذه المسألة لم تفت كبار المجربين من الأوروبيين ، فخذروا الناس من الانخداع بالأسماء السكيرية التي تنتحلها بعض الكائنات الروحانية المسحطة ، فتدعى أنها أرواح علوية وهي في الحقيقة من الأرواح السفلية التي دأبها تضايل الماحثين . فكثيرا ما اتصلت بهم كائنات مجردة من هذا الطراز واتحلت شخصيات سقراط وأفلامون وفابليون وغيرهم ، ثم انضح من البحث أنها من درجات منحلة ولا تقصد غير السخرية من المجربين .

وهنا يجب علينا أن ننبه القارئ إلى أمر جدير باهتمامهم ، وهو أن هذه البحوث يشتغل بها في أوروبا فريقان من الناس : فريق المستطلعين الماديين ، وهؤلاء ينخدعون بالظواهر ، وليس

لهم قدرة على تحليلها ، فيصدقون كل ما يقال لهم وكل ما يروونه ، فيتحمسون له ولا يقبلون فيه تشكيكا ، وغريق المماء والمنقذين ؛ وهؤلاء يعنيهم قبل كل شيء التحقيق والتحصيل ، وبناء الأحكام على أساس علمي ركين .

فما اكنى به الاستاذ الهلباوي بك ولطيف باشا سليم من الذهاب الى دار الوسيطة ، والجلوس اليها على منضدة ، وسماع أقوالها مما يكتنى به السواد الاعظم من المجريين ، لا يرضى به العلماء المحققون ، ولا يمدون نتيجه تجربه يصح أن تدفع عنهم .

ذلك لأنها تدل في نظرم بطل طبيعية تدعى صلتها بالعالم الروحاني ، فيقولون : إن الوسيطة توقع نفسها في نوم مغناطيسي ، وقد حذى بعضهم طريقة ذلك بدون منوم ، فيتصل عقلها بالباطن بمقول المجريين ، فتعرف كل ما يجيش في صدورهم من صور وأقوال . فسما قرأت في نفس الهلباوي بك أنه يطلب روح النبي صلى الله عليه وسلم أو روح زوجته ، قرأت كذلك كل ما يعلوه من تاريخهما ، وما عرفه من حليتهما ، فردته له بدون تحريف ، تغيل اليه أنه في حضرة روح النبي الكريم ، أو روح زوجته المرحومة ، وما هو إلا حبال ما اخترته عقله الباطن عنهما محدودا عليه .

وقد جاوز العلماء المجربون هذه الدائرة في التمليل الى ما هو أوسع منها ، إذا أتى الوسيط أو الوسيطة بما لا يعلمه المستحضر من تاريخ الروح التي يستحضرها ، فقالوا : إن العقل الباطن للوسيط بما منع به من خاصية السريان والكشف ، يستطيع أن يطلع على ما يريد من كتب التاريخ أو من عالم المثال نفسه ، حيث تمثل جميع الحوادث فيه قبل وقوعها ، كما يرى المنوم بعض الحوادث المستقبلية وينبئ عنها فتقع كما أنبأ . وما هو إنباء بالغيب وإنما هو رؤية حوادث خلقت ولما تدل الى العالم المحسوس ، وليس هو كذلك صادرا من الروح التي يطلبها المجرب ولكن من روح الوسيط نفسه .

وفي مجموعة التجارب الروحية ألوف من مثل تجربة الهلباوي بك لا يرفع العلماء المعصون بها رأسا ، ولا يمدونها من الادلة التي يعتد بها في هذا الشأن الخطير .

أما وقد وصلنا الى هذا الحد فقد وجب علينا أن نسردهم ضرور التحولات التي يتخذها العلماء المجربون لعدم الاتخاذ نظواهر هذه المسائل ، تميز الما يمكن أن يحدث بالقوى الذاتية لروح الوسيط ، مما يرجح أنه آت من أرواح مستقلة عنه ، لأن التمييز بين هاتين الحالتين من أشق الأمور ، وفي حاجة الى خبرة واسعة بالمعارف النفسية ، وخصائص العقل الباطن .

بعض ضرور التحولات التي يتخذها العلماء المجربون :

أول شرط عند العلماء لتحصيل التجارب أن يأتي الوسيط الى دورهم الخاصة أو الى معاملهم ، وأن يخضع لما يسومونه إياه من ضرور التحولات .

فيحردونه من ثيابه ويلبسونه سواها ، ويفحصون فيه وأذنيه خشية أن يكون قد أحق فيها أداة صغيرة أو مادة تميد فيها هو يصدده .

ويشدون يديه ورجليه الى الكرسي الذي يجلس عليه شدا وثيقا ، ويسمرون أطراف الأربطة في الأرض ، ويختمونها بالشمع الأحمر ، ويطبقونها بخاتم ، ويضعون عليه قمعا من الحديد مسمرا على الأرض .

ويصلون جسمه بجهاز كهربائي (جلفانومتر) ، يجعل عليه كل حركة مهما صغرت من حركاته .

ويكونون به رجلين منهم يراقبانه .

ويفتشون الحجرة التي هم فيها ويقفلون بابها ونوافذها ويأخذون مفاتيحها ، ويختمون كل ذلك بالشمع الأحمر .

فإن كان الوسيط امرأة ، وكلوا بها نساءم لتفتيشها وإلباسها ألبسة غير التي جاءت بها . وقد أزعجهم أنهم أضجوا الوسيطة مرة على الأرض ، وصعروا شعرها فيها ، بحيث لا تستطيع الحركة .

بعد أن يتخذوا هذه التحركات أو ما يعانلقها على حسب الاحوال ينتظرون ما يكون . وكثيرا ما تجسدت أمامهم ، والوسيط على تلك الحال ، أيد الى الماصم تسلم عليهم وتكسب ، أو أذرع كاملة ، أو رموس لا اجساد لها تكلمهم وتقبلهم ، أو أنصاف اجساد ، أو اجساد كاملة . وهم في كل هذه الاحوال يستأذنونها في أن يفحصوها ، فتأذن لهم ، فلا يدعون في جسدها شعرا ولا عضلا ولا وزنا إلا يفحصوه وقدره .

وهم يرونها تتجسد أمام أعينهم ، وينفأ أولا في جو الحجرة نحو بخار أبيض لا شكل له ، يأخذ بعد ثوان شكلا إنسانيا ثورانيا ، ثم يزداد جسمها كثافة حتى يكون جنما كامل الخلق ، ذكرا أو أنثى ، فإذا أمسك أحد بيدها ، أحس بيد إنسانية ذات عصل وعظام وحرارة ، فإن أصر على أن لا يتركها ، أفانت ، منه بتحليل يدها وهي في قبضة يده ثم أعيدها الى ما كانت عليه حرة طليقة .

فإذا طلب منها أن زول ، ذابت أمامهم كالمذوب الناج ، وانكس في ثوان ، فإذا استدعوا ظهور ظهرت في ثوان أخرى .

هؤلاء العلماء لم يتركوا صريا من ضروب التجارب إلا فعلوه ، وقد أودعوا تحاريم كتبنا تعد بالآلاف . ومع كل هذا (لم يجمعوا) بأن هذه الكائنات هي أرواح الموتى الذين تتحل أسمائهم . ورغما عن ظهور أمهات وآباء وأخوات وإخوان وبنات وإماء لاهليهم من الجبريين ،

بصورهم التي كانوا عليها بين ظهرانيهم ، وبمميزات عقولهم وعواطفهم ، وطارز أحاديثهم ، وجميع خصائصهم ، رغمًا عن كل هذا لا يزال بعض العلماء من الجريين يتردد في أنهم صادقون فيها يدعون ، لاشكا في أنهم من عالم الروح ، ولكن في أنهم الذين كانوا بين ظهرانيهم مائتين . فبعضهم يثنى أن روح الوسيط تتجرد وتظهر لهم بصورة أهلهم .

وبعضهم يخشى أن تكون أرواحا خبيثة تشكل بأشكال ذويهم وليست بهم .

وبعضهم لا يستبعد أن يكون ما يرونه صور ما لا تكن في ضائهم .

وقد رد العلماء المصدقون على هذا الفريق من العلماء الشاكرين بقولهم : اذا كانت روح بعض الوسطاء تكذب فلا يعقل أن تكذب أرواحهم أجمعين ، ومنهم من هم أقارب للجريين .

وردوا على شبهة الأرواح الخبيثة بقولهم : لا يعقل أن تجمع تلك الأرواح على هذا الحبث في كل بلد ، وفي مدى تسعين سنة مرت في البحث والتنقيب .

وأما شبهة التوهم فقد دفعه الناقدون بقولهم . إن تلك الكائنات ترفع الأخوة الثقيلة وتضع عليها الكرامى والمناسد ، وتكسر الأشياء الجامدة ، وتظهر صورها بالتوتوغرافيا ، فهل يرفع الوهم الأجسام الصلبة ويكسرها ، وهل يقبل الوهم التصوير ؟

يسمع كل من يستبعد من المسلمين خضوع الأرواح الانسانية للوسطاء والجريين ، أن ينضموا الى فريق العلماء الشاكرين ، أو يهزوها لشياطين .

فسواء أصح أن هذه الكائنات هي أرواح إنسانية أم أرواح شيطانية ، فقد أصاب إثبات وجودها الفيلسفة الاخلادية في مقنلتها ، فقد كانت تزعم أن الوجود لا يعمره غير المادة ، وأن كل ما يقال من كائنات روحانية عائشة في عالم غير مرئي ، فهو هراء ولده الخيال ، وجد عليه الناس في خلال الاجيال .

فاذا قل قائل - وماذا بهم المؤمنين من مزاعم الملاحدين ؟ نقول : يهمهم ظهور خطتهم فيما كانوا يزعمون من أن المؤمنين ما جمعهم يتمسكون بما ورثوه من وجود العالم الروحاني ، إلا أنهم لم يتذوقوا العلم ، ولم يصدروا عن أسلوبه الصارم في التحجيس ، وهذه شبهة قد أثرت أقوى تأثير في نفوس المتعلمين على الطراز الحديث . ولستكنهم اليوم لا يستطيعون أن يستندوا في نفي العلم الروحاني على العلم ولا على أسلوبه ، فقد تولى العلم منذ تسعين سنة البحث في هذا الموضوع على موجب دستور المقر فثبت له وجوده ثبوتًا لا يمكن التشكك فيه .

قال الاسناد (ميرس) H W. Myers المدرس بجامعة كامبردج الانجليزية في كتابه الشخصية الانسانية (The human personality) .

« حر والى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادى قد أوغل في الأرض حتى وصل

إلى سواحلنا، وبلغ أوج سلطته على العقول، اجتمع ثلثة من الزملاء في جامعة كبردرج، وأجمعوا على أن هذه المسائل المويضة المتنازع عليها (يريد المباحث الروحية) تستحق النفقات، وجهدا جديا، أكثر مما عولجت به إلى ذلك الحين. إذ كنت أرى أما أن محاولة جدية بهذا الاسم لم تعمل إلى ذلك الوقت لبثت فيما إذا كنا أهلا أو غير أهل للامام بشيء يختص بالعالم غير المرفىء (أي العالم الروحاني). وكنت مقنعا بأنه لو أمكنت معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يستطيع العلم أن يقبله ويحفظه، فلا يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة، ولا بمجرد التفكير فيما بعد الطبيعة، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة، وبتسريقتنا على الظواهر التي تحدث فينا وفيما حولنا أساليب الأمور البقيةية نفسها، وهي الأساليب للنزيرة المستروى فيها، أي تلك الأساليب التي نحن مدينون لها بمعارفنا الطبيعية عن العالم المحسوس.

« فالبعث الذي علينا أن نقوم به، لا يمكن أن يقتصر فيه على تحايل ساذج للأسانيد التاريخية، أو التي صدرت عن هذا الوحي أو ذاك، مما كان يوحى به في الزمان الماضي، ولكن يجب أن يؤسس هذا البحث قبل كل شيء - ككل بحث على المعنى الدقيق لهذه الكلمة - على تجارب يكسبها تكرارها اليوم، مؤمنين أن نزيد عليها غدا. وهذا البحث لا يمكن أن يكون إلا بحثا مؤسسا على هذه القضية، وهي: أنه إذا كان يوجد عالم روحاني، وكان هذا العالم الروحاني موجودا في أي عهد كان، وكان قابلا لأن يظهر ويستكشف، فيجب أن يكون كذلك في أيامنا هذه.

« فمن هذه الوجهة، وقياما على هذه الاعتبارات العامة، واجهت الجمعية التي أنا عضو فيها هذه المسألة ».

نقول: وهذه الجمعية هي جمعية المباحث النفسية الانجليزية، وهي قائمة إلى اليوم، وقد مر ذكرها. نقول: وقد مضى على تأسيس هذه الجمعية أكثر من خمسين سنة، وكشف البحث في خلالها أموراً لا يمكن في بيانها أقل من مجلد ضخيم، وكلها تثبت بأدلة عيانة وجود العالم الروحاني، وهو ما كان يعموز الناس على وجوده الدليل العلمي القاطع. أما وقد وجد هذا الدليل فقد انفتح الطريق أمام الدين الحق، ولم يبق بين الناس والانسانية الكاملة، والمدنية الفاصلة، إلا أن يعملوا بتعاليم الجامعة بين سمادتي الحياتين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

محمد فريد وجدي

بَابُ الْأَسْبَاطِ وَالْفَتَاوَى

في الوقف

بإيه إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

رجل وقف جميع أملاكه على زوجته ، وعلى ما عسى أن يتزايد لها من أولاد وأولادهم وأولاد أولادهم ... الخ ، فإذا انقرضوا ولم يوجد لها عقب ، رجع ذلك إلى أقرب الناس بالحس عائياً يوم الرجوع ، ثم على أعقابهم وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا ، وإذا انقرض العقب أو الذرية رجع ذلك حبساً على زاوية الوالي الصالح (فلان) ، وقد احتفظ الواقف بثلة الموقوف مدة حياته . ثم توفي الواقف دون أن يعقب من روجه الموقوف عليها ، وانتقلت جميع الأعيان الموقوفة بجميع مشتملاتها وغلاتها إلى الزوجة ، ثم اقترنت الزوجة بزواج آخر ، ورزقت منه بغيلاً ، وتوفيت على أثر ذلك ، فتمتد أخوها مع إخوة له ، وادعوا أنهم أصبحوا مستحقين لربع الوقف المذكور ، لأن الواقف ما كان يقصد بالطبع إلا الأولاد الذين ترزق بهم زوجته منه ، لا من آخر بعد وفاته ، وإذا فتعبر الموقوف عليها بأنها توفيت دون عقب ، وقد نص في الوقف على أنه إذا توفيت دون عقب ، فإن الموقوف يرجع إلى أقرب الناس إليها ، وهؤلاء هم إختوتها الأشقاء . ويقول زوج المتوفاة : إن الوقف بجميع مشتملاته قد أصبح حقاً لولده من المتوفاة الموقوف عليها طبقاً لنص الواقف ، فإني من يؤول هذا الوقف ؟

على محمود السرجاني

الجواب :

الأصل أن اللفظ العام يحمل على مومه الذي يتبادر منه ، ولا يجوز تخصيصه إلا بمخصص ملفوظ في الكلام ، أو ملحوظ قامت عليه القرائن السكاكية .

وبالرجوع إلى ما ورد في السؤال نجد أن الواقف جعل وقفه على زوجته ، وعلى ما عسى أن يتزايد لها من أولاد ، وهذا عام يشمل جميع من ولد لزوجته منه أو من غيره ، ولا يختص بأولادها منه ، إذ لا دليل في كلامه على هذا التخصيص ، بل في كلامه ما يدل على أنه أراد التعميم وعدم الفرق بين أولادها منه وأولادها من غيره ، وهو قوله . « فإذا انقرضوا عن آخرهم ، ولم يوجد لها عقب رجع ذلك إلى أقرب الناس بالحس عائياً يوم الرجوع » ، إذ أن هذا النص واضح منه أن رجوع الوقف إلى أقرب الناس مشروط بعدم وجود أي عقب للزوجة ، سواء أكان ذلك العقب من الواقف أم من غيره ، والمطلع على كتاب الوقف يتبين أن الواقف يريد أن يبر زوجته وعن يمت إليها بصلة القرابة أي كان ، وأنها هي وأولادها مقدمون في الاستحقاق على من عداهم ، فلا يستحق أحد ما دامت الزوجة أو واحد من أولادها على قيد الحياة .

وبناء عليه يكون الوقف لولدها المذكور ، وما تزايد لها من ولد ، وإن لم يكن من الواقف ، والله أعلم .

وجاء أيضا الى لجنة الفتوى ما يأتي :

رجل وقف أملاكه على زوجته من بعده ، واشترط لنفسه الشروط العشرة وحق تكرارها أكثر من مرة ، وأباح لزوجته من بعده الشروط العشرة ، ولم ينص على التكرار ، وقد أدخلت الزوجة بعد أن آل إليها الوقف مستحقا جديدا خصصت استحقاقه من استحقاق من يؤول اليه الوقف من بعدها ، لأن الواقف ذكر طقات المستحقين بعد الزوجة طقة بعد طقة وبعد أن أدخلت لزوجته المستحق الجديد توفي ، فعملت مآل الوقف لمستحق آخر ، وحرمت باقي المستحقين بعدها ، وتنازلت في حصة إدخال المستحق الجديد بدل المستحقين الأصليين من الشروط العشرة ، والمطلوب معرفته هو :

(أولا) هل إدخال المستحق الأول الذي توفي يعتبر من الشروط العشرة ، وكذلك إحلال المستحق الثاني محل المستحقين الأصليين يعتبر من الشروط العشرة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز للزوجة تكرار الشروط العشرة مع أنه لم ينص في الحجة على التكرار ؟
(ثانيا) هل للزوجة الحق في التنازل عن الشروط العشرة ؟ وهل لا تستطيع بعدها إجراء أي شيء منها ، أو أن هذا ليس من حقها ؟

(ثالثا) هل للزوجة المذكورة الحق في المدول عما سبق أن كررت من إحلال مستحق بدل المستحقين الأصليين ، والعودة الى ما هو مدون بحجة الواقف الأصلية من الاستحقاقات بعد أن تنازلت عن الشروط العشرة ، أولا ؟
بعد طلعت الفرناوى

الجواب :

يقين من كتاب الوقف أن الواقف قد جعل لنفسه حق إعطاء الشروط العشرة لمن شاء ، ولكنه لم يجعل لنفسه حق إعطاء غيره تكرارها ، بل جعل حق تكرارها لنفسه خاصة ، وإذا لا يسوع له أن يعطى السيدة كليرى زوجته إلا نفس الشروط العشرة دون أن يكون لها حق تكرار العمل بها .

وبناء على ذلك يكون ما عملته السيدة المذكورة أولا من إدخال الحاج عبد اللطيف أغارأفت ضمن مستحق هذا الوقف عملا صحيحا تملكه ، وأن ما عملته ثانيا بعد ذلك من إدخال الجمعية الجغرافية المملكية غير صحيح أما تنازلها عن الشروط العشرة بعد ذلك فهو تنازل صحيح لا تملك الرجوع عنه ، ولا التصرف في شيء من الشروط العشرة بعد هذا التنازل ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الاسلام والفلسفة

— ١٠ —

ابن رشد

نسبه — حياته :

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في قرطبة في سنة ١١٢٦ من أسرة ماحدة عالية الشأن توارث أفرادها منذ زمن بعيد بعض المناصب الراقية في الدولة ، فكان أبوه قاضيا في قرطبة وورث القضاء عن جده ، وقد مكثه ثراء والده من أن يتلقى دراسة طالية في كثير من العلوم والفنون : مثل الفلسفة والرياضة والفقه وعلم الكلام والحج والموسيقى والطب والفلك حتى صار أعلم أهل عصره فاطبة بكل هذه العلوم . وفي سنة ١١٦٩ تولى ابن رشد منصب قاضي القضاة في قرطبة بعد وفاة أبيه ، لحمدت سيرته ، وأثنى الناس عليه لعادلته ، وذاع ذكره في أنحاء العاصمة ، فسمع به الأمير أبو يوسف الموحدي فقرره من مجلسه ، وأتم عليه بما شجعه وزاد في إقباله على دراسة الفلسفة .

ولما رأى نبوغه وشاهد عبقريته رغب في أن يبتفع به العلم في عصره ، فجعل يوجه اليه أسئلة في المنطق وما وراء الطبيعة ، لأن هذا الأمير كان لا يقل ثقافة عن علماء عصره . وحين آمن بعلم ابن رشد ، صرح أمام ابن طفيل بأنه في حاجة الى فيلسوف ذكي يشرح كتب « أرسطو » ويوضح مراميها ، فاعتذر ابن طفيل عن هذه المهمة بأن لديه من مشاغل حياته ما يمنعه من مزاولتها ، ثم ذكر أمامه ابن رشد بخير وأثنى على عبقريته وأنبأه بأنه قريب بتحقيق إرادة الأمير . ولما خلا ابن رشد أباهه رغبة صاحب العرش ، وطلب اليه أن ينزل عند إرادته ، فأجاب سؤله ، وكان عسده عليه به ، فآخذ يصول ويبحول في كتب أرسطو ، فالتقى على ظلماتها الخالكة شماعاتا قويا من نور ذكائه الوفاة وعلمه الفياض ، وآرائه النقدية الثابتة حتى كشف غامضها ، وأوضح مراميها ، وجعلها في متناول أذهان كل من له إلمام بالحسكة بعد أن كانت مقصورة على تلاميذ أرسطو في معهد « النيسيه الاتيني » . ولهذا قال عنه بعض فلاسفة أوروبا : « ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ، ثم جاء ابن رشد فالتقى على فلسفه أرسطو نظرة فاقية ففسرها وشرح غامضها » .

ولما تولى الخليفة المصور بالله كانت ابن رشد قد انقطع لدراسة الفلسفة ووقف نفسه على بحوث الحسكة ، وأفرغ جهده في توجيه فلسفه أرسطو وتعليمها وإعلاء شأنها ، وكان

هذا الأمير قد خالف نهج سائقه ، فمحرر الفلسفة ومال الى التصوف ، وجعل حوله بطانة من شيوخ الطرق الذي لتجوا رأسه بما أحققه على ابن رشد وبفضه فيه . ومن سوء حظ هذا الفيلسوف أن جماعة من أعدائه قد أندسوا بين هؤلاء المنصوفين وأخذوا يكيدون له من وراء ستار الدين حتى إذا استحك العداء في نفس الأمير أمر بالقبض على ابن رشد وتلاميذه المختصين له ، فحبس بهم وحوكروا أمام مجلس عاظم ، ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم ، وأسفرت المحاكمة عن نعيمهم فنقلوا الى « أليسانا » .

وقد انتهر خصومه هذه الفرصة وشتموا عليه ، وأذاعوا أن الأمير تهاوى الى بلاد أجداده اليهود ، غير أن هذا الذي لم يدم طويلا ، إذ لم يلبث جماعة من أعيان اشبيلية أن شهدوا بأن ما نسب اليه غير صحيح ، فندم الأمير على ما فرط منه نحوه ، وأعاده وتلاميذه الى بلادهم معززين موفوري الكرامة بعد سنة واحدة من تقيهم . وفي سنة ١١٩٨ حبا كوكب حياة ابن رشد بعد أن ظل يتلألأ في سماء الأمة العربية زهاء أربعين سنة قضاه في عالم التفكير والتأليف ، وكانت سنة ثنتين وسبعين سنة ، وقد قيل عنه إنه لم يترك في حياته مذاكرة العلم لا ليلتين : ليلة وفاة والده ، وليلة بنائه بزوجته .

مؤلفاته :

كانت مؤلفات ابن رشد مكتمة بتمامها ، فقد كتب في الفلك والطب والفقه وعلم الكلام والنحو ، وكل هذا لا يمتينا في بحثنا الحاضر ، وإنما الذي يهمنا هو الفلسفة ، وخير ما كتبه فيها المؤلفات الآتية : (١) « تهافت التهافت » (٢) « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » (٣) « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » (٤) « سعادة النفس » . وفي هذه الكتب ظهرت آراء ابن رشد الفلسفية في الالهيات والنفس والعالم من حيث القدم والحدوث ، وفي علم الله وإحاطته بالجزئيات ، وفي البعث وهل هو للأرواح أو للأجسام . ولو أننا حاولنا أن نتمقب هذه الآراء في مواطنها الأصلية وهي كتب ابن رشد ، لطال بنا المدي وترامت أمامنا أطراف المجال ، ولكننا سنقتصر على إيجاز رأيه في هذه النقاط عند الكلام على فلسفته . أما لأن فائنا نكتفي مع الإشارة الى ما سبق من كتبه بذكر ما ظممه وشرحه من كتب أرسطو . وإليك بعض هذه الكتب : « تلخيص السماع الطبيعى » « تلخيص السماء والعالم » . « تلخيص الكون والفساد » . « تلخيص الآثار العلوية » . « تلخيص كتاب النفس » . « تلخيص تسع مقالات من كتاب الحيوان » « تلخيص الحس والمحسوس » . « تلخيص ما بعد الطبيعة » . « تلخيص كتاب الأخلاق » . « شرح كتاب السماء والعالم » . « شرح السماع الطبيعى » . « شرح كتاب النفس » . « شرح كتاب البرهان » . « تلخيص المنطق » . « شرح ما بعد الطبيعة » . « شرح كتاب القياس » .

فلسفته :

يعلم الواقف على تاريخ الحركة العقلية العالمية أن أهم ما كان يشغل فلاسفة العرب هو (١) « قدم العالم وخلوده أو حدونه وفناؤه » . (٢) « تعلق علم الله بالجزئيات أو اقتصره على الكليات » . (٣) « حشر الأرواح في الأجسام أو وحدها » . (٤) « نظرية المعرفة » . وهذه النظريات كلها لا تظهر واضحة عند فيلسوف آخر ظهورها في فلسفة ابن رشد ، فهو الذي أبان فاضها ، وأوضح شكلها ، ووضع بها الحد الفاصل بين الفلاسفة والمتكلمين في الاسلام ، وبين المسيحيين والمثاليين في أوروبا ، فكادت سببا في اشتعال حرب ضروس بين الدين والفلسفة وبين كثير من الطبقات عدة قرون . ولم يقتصر ابن رشد على ذكر رأيه في هذه النظريات القديمة ، بل أتى بذهب جديد مستقل كان مبعث النهوض ومبسع أشعة نور العلم في أوروبا طوال القرون الوسطى . وإليك هذه الفلسفة الرشدية في شيء من الإيجاز :

بعد هذا الجهاد الطويل الذي قامت به الفلسفة انعاما في البحث عن استمرار الكون ومبدعه ، وصلت في عهد ابن رشد الى نظريتين جوهريتين : أولاهما أن المادة قديمة ، والعالم أولي ، وأن الحركة الموجودة بها هي طبيعية فيها ، وأن الاله لا يريد على أنه صانع مصور يضع التصميم لمادة موجودة ويمنحها الصورة التي تقتضيها الحكمة ، وهو محرك أول غير محدود ، وأن الانتاج الجلي الموجود في الكون هو آت عن طريق التناسل والتوالد ، لا عن طريق الخلق والإيجاد ، وأن مهمة الباري في هذه الأحوال هي تحميل الأبناء من الآباء ، لا الخلق والانشاء .

وأما النظرية الثانية ، فهي ترى أن الله وحده هو الأولي ، وأن كل ما عداه محدث مخلوق له . وبناء على ذلك يكون الله جل شأنه هو الخالق الحقيقي ، ويكون تعاقب الاحبال إيجادا محصا ينشئ الله الأفراد فيه من عدم بطريقة مباشرة . وبالأرى الأول قال بعض الفلاسفة ومنهم ابن رشد ، وبالأرى الثاني قال المتكلمون .

وكيفية نشوء الأفراد من المادة القديمة هي أن تلتقي عناصر الوجود بعضها ببعض بواسطة حركة طبيعية قوامها الحرارة الموجودة في الكون . فكلما انضمت الحرارة بخصري الماء والتراب البارد نبتت من ذلك نبات أحيوان ، وهي تلتقي بها إلا في أوقات وحالات محدودة ، ولكن هذا التماس الذي يحدث بين العناصر يقع بطريقة منظمة كأنه تسير قوة حافظة مدبرة مع أن طبيعة العناصر في ذاتها محرومة من كل عقل وتدير ، وليس فيها إلا الشوق الطبيعي الموجود في كل كبيرة وصغيرة من أجزاء الكون ، وإنما المسير المباشر لهذا النظام هو تلك القوى المتغلغلة في الأفلاك .

وبناء على كل هذا ، فالباري لم يمتحدث شيئا ، لأن الاستحداث من العدم مستحيل

ما دمتا تؤمن بأن المدم لا ينتج وجودا . وعلى ذلك يكون الامام الفرسالى ومن تحما نحوه
من المتكلمين القائلين بأن البارى هو منتهى الكون من عدم ومناخ الصور غطائين فى رأى
ابن رشد .

أما ابن سينا فهو يعتبره من أجل تعبيره بكلمة الخالق إما غطئا أو تقويا ، وإنما الحق
الذى لا ريب فيه ، هذه هو أن هناك أزليين : البارى ، والمادة المعتملة على قوة كائنة ، ولكن
أزلية البارى تختلف عن أزلية المادة ، لأن الآلة علة فى الناية ؟

الدكتور محمد محبوب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

ما قيل فى مسابقة الأيام

قال حكيم : « اصحب الأيام بالوادعة ، ولا تسابق الدهر وشكب » .
وقال الشاعر :

من ساق الدهر كما كسوة لم يستقاها من خطا لدهر
فاخط مع الدهر إذا ما حطا واجر مع الدهر كما يجرى

لا أظن أن الشاعر بقصد من مسابقة الدهر ومجاراته أن يدفع فى التيار الذى ينشئه أهل
العساد فيه ، فإن ذلك فعلا عن منافاته لكرامة الشخصية ، فهو شديد الخطر على المجموع ،
فإن المدنية الفاضلة تقضى أن تسود الفضائل ، وأن يعلو شأن المحامد ، فإذا وطن كل إنسان
نفسه على أن يسقاد لشهوات أهل الشهوات ، تغلبت الرذائل على المجتمع ، وباد كما باد غيره
ولا كرامة

وقال بشار العبيلى :

أما دل إن الدهر سوف يفيق وإن يسارا من غد خلقي
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا صحت وإن ماق الزمان أموق

هذا يجب أن يعتبر زجرا للذين على هذه الشاكلة ، فإن من يحمق إذا حق الزمان كان
شاهدا على نفسه بأنه من الذين يعيشون لينعموا وإن افتضت النعمة أن يبذلوا فى سبيلها
كرامتهم ومروءتهم . ولا يخيل لى أن إنسانا يذم نفسه بأشنع من هذا .

السُّنَّةُ

الاخلاص

عن أبي أسامة قال : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر : ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرار ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ، ثم قال : إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه » . رواه أبو داود والنسائي بسند جيد — من كتاب الترغيب والترهيب .

هذا الحديث صريح في أن الله لا يقبل الأعمال إلا إذا كانت خالصة ؛ ويتعلق بذلك أمور .
(١) فضل الاخلاص وقيمته في نظر الدين الاسلامي (٢) حقيقة الاخلاص ماهي (٣) بيان حكمة مشروعية الاخلاص (٤) هل عدم الاخلاص يحبط أجر العمل فقط أو يستلزم مع ذلك الالتم ؟

١ — فأما فضل الاخلاص في نظر الدين الاسلامي فانه يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله أوضح دلالة ؛ وقد ورد فيها ما يفيد أن الاخلاص هو الأساس الذي تنبنى عليه الأعمال الصحيحة المقبولة ؛ فمن لم يخلص في اعتقاده وقوله وعمله فانه لا يحق له أن يطمع في قبول شيء منها لا قليلا ولا كثيرا ، بل قد تكون عند الله شرا ووبالا عليه كما ستعرفه بعد . فعلى أساس الاخلاص أمر الله الناس بمبادته ، قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، وذلك صريح في أن الذي يعبد الله غير مخلص لا يكون محصلا لعبادة التي أمره الله بها قطعا . وعلى أساس الاخلاص وعد الله النائيين من المنافقين بالقبول والأجر العظيم مع المؤمنين العاملين ، قال تعالى : « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما » .

وهذا المعنى قد جاء في كثير من الأحاديث الصحاح ، ومنها حديث أسامة الذي تتكلم فيه هنا . ويؤخذ من مجموع الأحاديث أن الإنسان لا يحسب في عداد المؤمنين العاملين إلا إذا كان مخلصا في عقيدته ، مخلصا في معاملة الخالق والمخلوق حسبما أمره الله تعالى . وكفى بذلك دلالة على فضل الاخلاص وقيمته في نظر الدين . ولذا قال بعض علماء الأخلاق : إن

أمر الدين كله يرجع الى أصليين : عمل من الله لعبده ، وعمل من العبد لربه ، فمن أراد أن ينظر بالسعادة الخالدة فعليه أن يرضى بعمل خالقه ، ويخلص هو في عمله له . فدار الدين كله على الرضا والاخلاص .

٢ - أما حقيقة الاخلاص فقد بينها علماء الاخلاق الدينية بيانا حسنا ؛ وإليك توضيح ما قالوا : إن الاخلاص هو عبارة عن تخلص العمل عن كل ما يمكن أن يخالطه من شوائب الشرك يحمله مقصورا على السبب الذي حصل الفعل من أجله . وهذا السبب يجب أن يكون صحيحا بمدوحا في نظر الدين ، فإذا عمل الانسان مفعلا مقصورا على سبب فاسد كما إذا قصد بمبادته الحصول على لذة من اللذات كشهرة أو مال أو جاه ، فإنه لا يكون مخلصا في عبادته لربه ، وإنما يكون مخلصا لذلك الغرض الذي يمتد على العبادة ، وهذا لا يسمى إخلاصا شرعيا طيبا .

ويتضح من هذا البيان أن الاخلاص أمر يتعلق بالقلب ؛ وإن شئت قلت يتعلق بالنية ، وذلك لأن النية هي الارادة صفة نفسية يترجح بها تحصيل الفعل المرغوب فيه ، فإذا مالت إرادة الانسان الى أمر يرغبه وتعلقت به ، سخرت القدرة لتحصيل ذلك الأمر ، فإذا تعلقت الارادة بالفعل لسبب باعث صحيح بدون أن يزاحمه حبيب آخر ، كانت تلك النية خالصة والفعل المترقب عليها خالصا . وقد يسمى الفعل في هذه الحالة إخلاصا . مثلا إذا تعلقت إرادة الانسان بالجهاد في سبيل الله ، أو بالحج الى بيت الله ، فتحررت أعضاؤه لتحصيل ذلك الفعل ، فإن اتبعات الارادة وتعلقها بالجهاد أو الحج لا بد أن يكون لغرض من الأغراض ، فإن كان ذلك الغرض مقصورا على ابتغاء مرضاة الله كما ورد في الحديث ، كانت النية خالصة ، وكان الفعل المترتب عليها خالصا ، وكان الفاعل مخلصا . ومثل ذلك ما إذا تعلقت نيته بالجهاد لغرض تحصيل الثواب الآخروي الذي وعد الله به المحاهدين ، فإن ذلك السبب يرجع الى مرضاة الله . أما إذا تعلقت إرادته بالجهاد لتحصيل الثواب وليكون له ذكرى حسنة كأَن يقال عنه : إن هذا الرجل شعاع يحسب الذمار ، وبذلك يعظم قدره في أعين الناس ، فإن عمله هذا لا يكون فيه إخلاص ، وذلك لأنه بناء على حبيبين : قصد الثواب ، وقصد الشهرة وعلو المكانة في أعين الناس ؛ والسبب الثاني غير صحيح في نظر الدين ، فكانت نتيجة بناء العمل عليه حبوط أجر ذلك العمل وضياؤه حتى كأنه لم يكن .

وهذا المعنى هو كقول بعض علماء الاخلاق : إن الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا ، بل يعمل لجرد الغرض الديني الذي يمتد الى العمل . وعلى أي حال فالاخلاص أمر يعكس تحصيله بسهولة متى كانت النفس مهذبة نشأت على حب الفضيلة ومجافاة الرذيلة ؛ بل ربما كان العمل بدون الاخلاص أشق على تلك النفوس الطاهرة من غيره ، فلا يجدون اللذة الحقيقية إلا في العمل الخالص خالصا لهم . ولا ريب في أن الذي يعمل لمرضاة الاله القادر الذي

بيده مكافأة العاملين ، سينال من الجزاء أحسنه ، ومن المكافأة ما تقر به عينه من غير أن يتكلف قصد المكافأة والجزاء . على أن الأغراض الدنيوية إذا كانت مما يترتب على عمله فإنها تتحقق بدون أن يقصدها ، وقد يتحقق منها أضعاف ما يمكن أن يتصور وهو غافل عنه . فمن سوء التربية الخلقية أن يجعل الإنسان أعمال البر مبلية على الشهوات الفاسدة .

ويتبين من هذا أن الإخلاص كغيره من الفضائل لمسكة التي كلف الله بها عباده . ولكن بعض علماء الأخلاق قد توسع في ضرب الأمثلة التي يتميز بها الإخلاص عن غيره ، فأتى منها بما يصوره في صورة الأمر المتعذر الذي يكاد يكون تحصيله مستحيلا ، اللهم إلا على الخواص والمقربين ، حتى ثقل عن بعضهم أنه قال : من سلم له من عمره لحظة واحدة حالمة نجا . ومن الأمثلة الدقيقة التي رويت أن رجلا مكث يصلي في الصف الأول ثلاثين سنة ثم عرض له ذات يوم عذر فصلى في الصف الذي يليه ، فاعتراه الحجل من الناس الذين رأوه على هذه الحالة فعرف بذلك أن صلاته في الصف الأول كان لها علاقة بنظر الناس إليه ، فأدرك أن صلاته كل هذه المدة لم تكن خالصة وهو لا يدري . ولكن الواقع غير هذا ، لأن الله تعالى قد أمر العقلاء المكافئين بالإخلاص في دينهم وفي عبادتهم كما ذكرنا آنفا ، لا فرق في ذلك بين خاصة الناس وعامةهم ، وهو سبحانه لم يكلف عباده عسيرا بل كلفهم يسيرا ، فليس من المعقول حينئذ أن يؤخذ الله الإنسان بما خفى عليه ، وإنما يؤخذ بما هو معلوم له قادر عليه ، قال تعالى : « لا يكلف الله شيئا إلا وسعها » .

ولعل السبب الذي حمل هؤلاء المرشدين على التشدد في بيان الإخلاص هو المبالغة في تحذير الناس من خلط الأغراض الصحيحة بالفاسدة في أعمال البر ، لأنها تحبطها وهم غافلون . أو لعلهم يريدون أن يضربوا الأمثال بالصلحين الذين يتخرجون من خفايا الأمور ودقائقها ليكون للناس منهم أسوة حسنة ، وإلا فالإخلاص في ذاته أمر سهل ، ولا يصعب إلا على من أشرب قلبه حب الشهوات ، وغفل عن الفضائل الخلقية التي أجلها الإخلاص لله الواحد القهار .

(٣) أما حكمة مشروعية الإخلاص فإنها ترجع إلى أمرين عظيمين . (أحدهما) البعد عن الوثنية وما يشاكلها ولو ظاهرا . (ثانيهما) استمرار أعمال البر ودوامها . فأما الأول فإن الدين الإسلامي قد جاء بتوحيد الإله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، وأنه هو وحده المستحق للعبادة لكونه موجدا للعالم وموجدا للوسائل التي بها يبقى العالم إلى الأجل الذي يريد . فهو الخالق الرازق . أما الأصنام والألهة التي يشركونها مع الإله في العبادة فإنها مخلوقة لاخالقة ، ولا تغلك لهم رزقا ، فهي عاجزة عن إيجادهم وعن إيجاد ما به يعيشون ، فمن السفه عبادتها ، ولذا قال تعالى : « إنما تعبدون من دون الله آثانا ونخلقون إسكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه » . من أجل ذلك فرض الله الإخلاص

ونتهت القرعة الاسلامية من بناء الاعمال الدينية على أسباب غير مشروعة نهيًا جازما لما فيها من التشبه بالوثنيين الذين تحملهم تقاليدهم وعاداتهم على عبادة الاوثان . ومن المضحك أنهم كانوا يعبدونها مشركين في عبادتها من نواح كثيرة . فمنهم من كان يجعل السبب في عبادتها الخوف من لوم الناس واتهامهم إياه بالمروق من دين آيائه وأجداده . ومنهم من كان يعبدها خوفاً من أن تنهار سلطته ويضيع جاهه . ومنهم من كان يعبدها لأنها تقرب الى الله . وقد جاء كل ذلك في القرآن الكريم والسنة . فجاء الاسلام لمحاربة الوثنية والشرك من جميع نواحيه ، وجعل من أول واجبات المؤمنين والمؤمنات أن يجتنبوا كل ما يفتن منه رائحة الوثنية ، أو يكون فيه تشبه بالوثنيين ولو ظاهرا . ولذا نهى الدين نهيًا جازما عن تعظيم الأشجار والأحجار والهيكل ونحو ذلك لما فيه من التشبه بالوثنيين ، وفرض على الناس أن يخلصوا لله سبحانه ، فلا يجعل المؤمن ولا مؤمنة أن يبنى محله الديني على سبب فاسد لا يقره الدين ، بل لا بد من قصر أعماله الصالحات كلها على مرضاة الله تعالى امتثالاً لا مره واجتناباً لما نهى عنه .

وأما الثاني وهو استمرار العمل الصالح وعدم انقطاعه ، فذلك لأن الدين قد جاء بكل فضيلة ونهى عن كل رذيلة ، لحث الناس جميعا على تحصيل كل ما فيه سعادة المجتمع في الدنيا والآخرة . فكل أعمال البر التي يترتب عليها عز الأمم ومجدها وهناؤها في حيانها أمر بها الاسلام ، فقد فرض الاتحاد والتعاون على أعمال البر ، ونهى عن الفرقة والتخاذل ، وأمر بالعطف على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وفرض للمحتاجين قدرا معينا في أموال الأغنياء . قال تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وأمر بإغاثة الملهوف وإنقاذ المكروب ، وإغاثة الضعيف ، والأخذ بناصر المظلوم ، وأمر بالتساعف فيما يترتب عليه تقوية الروابط بين الناس ، وأمر بصلة الأرحام ومراعاة حقوق الجوار ، والصدق والعفاف والعذل ، إلى غير ذلك من الأعمال التي يسعد بها المجتمع سعادة حقيقية .

وبديهي أن هذه الأعمال التي يتوقف عليها صلاح المجتمع وتنبت عليها سعادته في الدنيا والآخرة يجب أن تستمر وتبقى ، فلا يصح أن تنقطع مادام الإنسان ، وهي لا تبقى إلا إذا كانت مرتكزة على سبب دائم مستمر ، وإلا انقطعت بانقطاع أسبابها الزائلة ، وهذا السبب الدائم الذي لا يتغير أبدا هو مرضاة الله ، فإذا عمل الإنسان هذه الأعمال امتثالاً لأمر الله واجتهاد مرضاته كانت لازمة دائمة لا تنقطع ، أما إذا عملها لغرض شهوى فانها تنقطع بانقطاعه طبعاً . مثلاً : إذا تصدق على الفقراء ليمدحه الناس بالسخاء فانه لا يتأخر عن قطع هذه الصدقة إذا استغنى عن سماع مديحهم بعرض آخر أو بشئ من ذلك المديح ، وكذا إذا أتقى بعض ماله في أعمال البر للحصول على منصب أو جاه ، كما إذا شيد مدرسة أو مصعفاً أو أمان طلبة العلم أو نحو ذلك من أعمال البر ، فانه يقطع ذلك الاتفاق بمجرد الحصول على المنصب أو اليأس منه ، وفي ذلك غبن ظاهر للمجتمع . ومثل ذلك ما إذا جاهد في سبيل الله ليظهر بمظهر الدعاء

في عين امرأة يوجب في زواجها ، فانه يستغنى عن الجهاد ويقطعه حتا متى عقر بها أو يتيس منها ؛
ولذا قال صلى الله عليه وسلم في الهجرة : « فن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله
ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

وبالجملة فكل أعمال البر إذا لم تكن مبنية على سبب دائم فاتها تنقطع عند انقطاع سببها .
ومن مصلحة الأفراد والجماعات أن تستمر أعمال البر فيما بينهم ، فلا تنقطع مادامت الحياة الدنيا .
فن أجل ذلك فرض الله الاخلاص كي يقصر الناس أعمالهم على مرضاة الله تعالى ، ويروضوا
أنفسهم على أن يتسابقوا على أعمال البر طمعا في مرضاة الله تعالى بصرف النظر عن الفوائد
والأغراض الأخرى ، لتدوم الأعمال الصالحة ، ويحظى العاملون بأعلى الدرجات ما

« يتبع »

عبد الرحمن الجزيري

من علماء الأزهر

فضل الحسنة

قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن فلانا لا يعرف الشر . قال : ذلك أحقر أن يقع فيه .
وقال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، إنما العاقل الذي يعرف
خير الشرين .

وفي مثل هذا قول الشاعر :

رضيت ببعض الدل خوف جميعه كذاك بعض الشر أهون من بعض

وسئل المغيرة بن شعبه عن عمر بن الخطاب فقال : كان والله له فضل بمنه من أن يندفع ،
وعقل بمنه من أن يندفع .

وقال إياس : لست بحب وأغلب لا يندفعي .

وقال أبو أيوب : من أصحابي من أرتجى بركته ولا أقبل شهادته .

ومن هذا قولهم : حاب فلان الدهر أشطره ، وشرب أفريقه إذا فهم خيره وشره ، فإذا
نزل به الخناء عرفه ، وإذا نزل به البلاء لم ينكره .

وفي ذلك قول الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرقني ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أنعمي الشر والشر تاركي ولكن متى أحل على الشر أركب

هل يلغى الوقف الاهلى

من مزايا القوة أن يرى الناس كل ما عليه أهلها حسنا وإن لم يكن بحسن ، وكل ما ليسوا عليه قبيحا وإن لم يكن بقبيح . هذا ضرب من السحر شعر به الضملاء قديما وحديثا ووقعوا تحت تأثيره مرغمين .

ولكن إذا هان أن يقع فيه الافراد فيما بينهم ، فليس يهون أن تقع فيه الجماعات ، وخاصة إذا كانت تصد إحداهن انقلاب في أمر تشرىمى قال به وقام عليه أكثر رجالها الأولين . طبع الانسان على أن يعنى بأسرته ، ويمن يمت اليه بصلة من رحم أو مودة ، ويكره أن كان له عقار من ساء أو مزرعة أن يدعه بين أيديهم بعد موته نهبا للهابين ، وفهم الطفل النائم والمهددة الخفرة ، والمجوز القعيدة ، والشيخ الكبير .

ألا يجب كل إنسان إذا طاف مثل هذا الفكر في رأسه أن يجد وسيلة تكفل بها لمؤلاؤه أن يعيشوا بسلام ما بقي من أيامهم التي قدرت لهم في هذه الحياة ؟ لا تغفل بحسبه أن يترك لهم ما يملكه من مال وعقار ، لأنه يرى بعينه أن الثروة مهما بلغ قدرها وهن ولد غير نجيب يتولاها فيسدر بها في الهواء ، أو صهر غير صالح يسددها حيث شاء .

ولا تغفل أيضا لو كان في نظام الوقف خير لهدى اليه المتمدنون ، فكم من نظم قيمة لم يمتدوا اليها ، وهل قصر المتمدنون في طلب خير مما هم فيه ، وهم يقيمون على تبرمهم بشتونهم كل يوم ألف دليل ؟ ألا ترى رؤوس زعمائهم وقادتهم تغنى بالمذاهب والآراء ، وبلادهم تغور كالمرجل بالنورات والانقلابات ، مما لو تأمل فيه المتأمل لا اعتراه الدوار من هول ما يقرأ وما يسمع ؟ هل كانت الاحوال مستقرة لديهم لما كان نعمة داع لكل هذه الصيحات التي تدوى بصداها الآفاق ويسمها الصم من مكان سحيق .

فهل نهدم نحن ونبنى على مثل هذا القرار المضطرب من أحوالهم ونكون مصيين ؟

ما هي الميوب التي يراها حصوم الوقف الاهلى فيه وبينون عليها وجوب إلغائه ؟

يقولون - إنه قد يحمل على مخالفة الشريعة في توزيع الأنصبة ؛ وينشئ طائفة من العاطلين يعيشون حالة عليه ؛ ويفضى الى خراب الاعيان وضياع قائمتها ؛ ويمكن الظفار عليه من اغتياله وحرمان المستحقين فيه ؛ وتؤول أنصبة مستحقه بنوال غموم الى أقدار لا تسمن ولا تغنى من جوع .

تقول: أما مخالفته للشرعة فليس لخصومه أن يمنحوا به ، لأن هذه المخالفة مرت في جميع الأجيال على أئمة الدين فلم يروا فيها بأسا على أن علاج المخالفة لا يكون بالالغاء وإنما يكون بالمطالبة برد القسمة الى أصول الشرعة إن كانوا يدافعون عنها .

وأما أنه ينشئ طائفة من الماطلين ، فليس بمسألة تقتصر على الوقف وحده ، ولكنها تسرى على نظام الوراثة أيضا . وهي من حجج الاشتراكيين الفلاة والشيوعيين ، ولنا منهم في شيء .

أما أنه يفضي الى خراب الاعيان ، فليس بمسألة فورية ، لأن الخراب سببه الاهمال ، والاهمال كما يكون وصفا لمنتهى الا وقاف يكون كذلك وصفا للمالكين . وإنه لتوجد في القاهرة وسواها ألوف من الدور تركها أصحابها لمحاول البلى لسبب من الاسباب . ودواء هذا ليس إلغاء الوقف ولا إلغاء الملكية ، ولكن أن تسن الحكومة قانونا يقضى بوجوب إصلاح كل متخرب . فان لم يستطع المالك أو المستحق إصلاح ما تحت يده من العقار فيعبر على بيمة إن كان ملكا ، واستبدال غيره به إن كان وقفا . هذا إن كان يعنى الحكومة هذا الامر .

وأما أنها يمكن النظر من اغتياله ، فليس هذا بعيب للوقف نفسه ، ولكنه نقص في التشريع الخاص به ، وعلاجه أن تطالب الحكومة بوجوب معاملة نازل الوقف كمعاملة مدير الشركة سواء لسواه . وقد طالبت المحاكم الشرعية منذ سنين بوضع مثل هذا التشريع فلم يلب أحد لها طلبا .

ولو عومل مديرو الشركات كما يعامل نازل الأوقاف لعلت شكاوى المساهمين منهم كما تثار شكاوى المستعقنين من النظار سواء بسواء . وإذا كان الامر كذلك أكان يوجد في مصر مقل يطالب بمثل جمع للشركات ؟

أما مسألة استعالة الانصبة بمرور الزمن الى أقدار لا تذكر ، فهذه مسألة تستحق النظر ، ولكنها لا توجب إلغاء الوقف ، وإنما توجب وضع نظام للوقف يمنع من إضاعة الثمرة المقصودة منه بعد حين ، وتطلق به يد الحكومة في تحويله الى غرضه الخيري متى كانت الضرورة تقضى به .

أليس نظام الوقف لدى المسلمين يفضل نظام الوصية عند الاوربيين ؟

نعم : وذلك من عدة وجوه وجيبة :

(أولا) أنه يحفظ الأثر من الانحلال بعد موت مائلها ، خلافا للوصية فان الموصى اليه يستطيع أن يبدد الثروة في أيام معدودة ، فتتحل بذلك أسرة كانت كريمة في المجتمع ، ويصبح أفرادها حالة على الناس . وحفظ الأثر مما تعنى الامم المتقدمة أكبر عناية لأنها دعامات للبيئة الاجتماعية تحفظها من خطر التقلبات التجائية . وأماننا إنجلترا ، وهي أقوى أمم الارض بنية ، تلجأ في حفظ الأثر الى وسيلة فذة لا تقوم عليها أمة سواها ، وهي اختصاص الابن

الأكبر بالثروات كله دون سائر أفراد الأسرة . فإذا كان من أهم أغراض الوقف حفظ الأسرة من الانحلال فهو غرض يجب أن يقابل بالأكبار ، وخاصة في هذا العصر الذي أصبحت فيه الثروات مهددة بخاطر الاغراق في الشهوات ، وبخطر التسرب الى خارج البلاد .

(ثانيها) أنه بعد انقراض الأسرة يصبح ملكا للامة ، فيصرف ريعه في وجوه البر بها والاحسان اليها ، خلافا للوصية ، فعلى فرض أنها تحفظ الثروة من الضياع تصبح بعد انقراض مالكيها ملكا للحكومة تصرفه في شئونها ، ولا يخفى الفرق بين الحالتين . فإذا علمت أن الداء الاجتماعي الدغال الناجب عن انقراض اليوم والجماعات والدافع لأفرادها الى انتحال المذاهب المتطرفة هو الفاقة ، رأيت أن كل ثروة تؤول الى سد مفارقة الناس تعتبر عملا اجتماعيا لا يمد له صمل في شرف الفاية ، وحفظ الاجتماع .

(ثالثها) أن الوقف يحفظ الثروة للامة التي اكتسبت منها ، ولا يتسرب الى أمم أخرى ، وحكمته في الوقت الحاضر من أظهر الحكم وأدناها للاعجاب ، خلافا للوصية فإن الثروة التي تتحصل منها قد تتسرب الى خارج البلاد وخسوم الوقف من أعلم الناس بوجوه هذا التسرب المالي وخطره على المجتمعات .

بمد كل هذا بقيت عقدة يمزقها الحل وهي :

الى أي وسيلة يلجأ رب أسرة يعول نسوة ضعفا وأطفالا صغارا وشيوخا هرمي ، ليضمن الضروريات لهم بعد وفاته ، وهو يرى أن له أولادا معوجي السيرة يتربصون به الموت ليستولوا على تركته فيسدوها في سبيل شهواتهم في أيام معدودة ؟

ربما يقال : يسع هذا الرجل ما يسع كل إنسان غيره من أبناء الامم الأخرى .

ولماذا نسقيه هذه الكأس المريرة وفي أوضاعه الشرعية ما يدفع عنه هذه الكأس ، ولا يجمله بزهب الموت كلما ألم به طائف منه ؟

لقد جال هذا الغمطر في رهوس كثير من رجالات هذه الامة في الصدر الاول من الاسلام ، لحبس كثير من الصحابة دورا ومزارع على أمرهم بعد موتهم ، وجرى على نهجهم اتباعيون ومن تلام الى هذا العهد الحديث ، فوقف أكثر رجالات الاسر الكبيرة أملاكهم على ذويهم ومن يلوذ بهم ، طموا بذلك بيوتهم من الانحلال . وكان أكثرهم يتف جزءا من ممتلكاتهم ويترك باقيها ملكا حرا لوارثهم . فكانت النتيجة أن أكثر هؤلاء الوارثين بددوا ما ورثوه شذرا يند في سبيل شهواتهم ، ولم تنق لهم إلا الاملاك الموقوفة ، فعاشوا بفضل غلتها مستورين ، ولولاها لتصدعت دعام تلك البيوت ، وتفرق نسوتها أيما يتسمسون العيش إما بإرافة ماء وجوههم في السؤال ، أو باحتراف المهن الحاطة من كرامة تلك البيوت ، وهذا مشاهد لا يحتاج لبحث طويل .

وهل يصح في العقول أن يمتد الوقف شيئا إلى الحد الذي يصوره به خصومه ، بعد أن رأى الناس أن كبراء هذه الأمة وصغرة متعلميها عولوا عليه مختارين حتى في هذا العهد الذي تحمل عليه طائفة من حملات صيفة ، وتعمده رزء اجتماعيا يحجب تلافيه ؟

إن هذا الشعور القوي بالحاجة إلى حماية الأسرة لا يمكن أن يثلاثى من القلوب ، فإن سد في وجهه سبيل الوقف تحرى سبيلا آخر إليها ، ودل ما تمكر فيه حرية الإيصال ، والبيع الصحيحة والصورية ، وأشد ما أتوقعه أسرب الثروة للمصارف الاحصية من طريق إيداع الأموال فيها واشتراط توزيع رباها على الورثة بعد موت طائهم ، وأكثر ما يتسرب من هذا الطريق الثروات الكبيرة التي يملكها كبار المثرين .

فعلى الذين يصلون جاهدين على إلغاء الوقف الأهل أن يزواكل ما ذكرناه بيزان المصلحة الاجتماعية ، وأن لا يحملهم ما سبته له العادات من العيوب على الاندفاع في طريق إلغائه ، فإن هذه العادات يمكن سد الطريق عليها بأخطئه بتشريع حكيم ، يستمد من روح الشريعة السحمة ، فيجرد الوقف بهذه الوسيلة من عيوبه الكثيرة ، ويصبح وضعا إسلاميا جبالا قد نقهه عنا الأمم ويصبح لنا المفضل فيه .

أما هدم الأوضاع الصالحة التي شوهرتها عادات السوء هربا من مناه إصلاحها وبمجة أنها لا توجد عند سوانا ، فليس من السداد ، ولا هو من عمل المصالحين .

نحن في هذه العجالة لا نبحث فيما يجب أن يوضع للوقف الأهل من التحفظات التي تجمع من استعالتة إلى الحالة التي لا تتفق والمصلحة العامة والغرض المقصود منه ، ولكننا نقول إن الشريعة السحمة لا تضيق ساحتها من قبول كل نظام يكفل القيام على أكل الحالات في أي أمر من الأمور ، لأن مرماها السكالك حبث وجد ، وأصولها صريحة في وجوب مسابة كل إصلاح ، وهي تستنهض الحمم لنشدن خير الأمور في كل ماله علاقة بالإنسانية والإنسان .

وبإذا كانت الشعوب الإسلامية اليوم محفوزة بروح نهضة قوية لبلوغ أقصى شأو بلغته الأمم المعاصرة فلا يستدعي ذلك أن تأتي على جميع أوضاعنا التي ليس لديها شبيه لها ، فإن ذلك يفضي إلى فتناثنا فيها من أقرب طريق .

ومما يجب أن يعرفه العالمون على إصلاح العادات والأوضاع أننا أن اللحاق بالأمم الراقية يكفي فيه إصلاح النفوس وبث روح الفضائل فيها وتعميم التعليم ، فلا تلبث الأمة أن ترقى رقا ، مطردا لا تكلف فيه . وفي نهضة الأمة الياباية مسيرة المختبرين ، فقد بلغت أبعاد شأو في المدنية ، ولا تزال مقبلة على أكثر طاداتها وأوضاعها ، وذلك مصداق لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

حول مشروع قانون العقوبات الجديد

وصلته بتنفيذ أحكام المحاكم الشرعية في مواد النفقة بأنواعها المختلفة

تدلت الاصرام مؤخرا الى قرائنها فيما نقلت أن اللجنة الموط بها وضع مشروع قانون العقوبات قد فرغت من وضعه ولم يبق إلا أن ترفعه الى الجهات المسؤولة للانتهاء من مراحلها الأخيرة، وقد رأت اللجنة رغبة في حماية الأسرة إضافة لنص جديد بمعاينة كل من يلزم بالانفاق على أحد من ذويه بحكم قضائي ويمنع من أداء هذا الواجب، بالحبس لمدة لا تزيد عن سنة، وبغرامة لا تزيد على مائة جنيه. فرأينا أن نأتي في هذه المصاحبة على ضروب النفقة في الاسلام تنويرا للأذهان، وتنوينا بفضل شريعة القرآن في بناء العمران:

نوع التشريع الاسلامي النفقة الى ثلاثة أنواع: نفقة واجبة على الزوج لزوجته، ونفقة واجبة للأبناء ومن في حكمهم على الآباء ومن في حكمهم، ونفقة واجبة للأبوين ومن في حكمهما على الأبناء ومن في حكمهم. ففرض في باب نفقة الزوجية تلك النفقة على الزوج لزوجته ولو في بيت أبيها ما لم يطالبها الزوج بالنفقة وتحتج بغير حق؛ وقرضها كذلك في حالة ما إذا كان الزوج مومرا وكانت لامرأته خادمة تجب عليه نفقتها بقدر ما يكفيها على حسب العرف، بشرط أن تكون الخادمة مملوكة لها ملكا تاما ومتفرغة لخدمتها لا شغل لها غيرها، وإذا زفت اليه بخدم كثير استحققت نفقة الجميع عليه إن كان ذا يسار، وإذا رزق أولادا لا يكفهم خادم واحد يفرض عليه نفقة خادمين أو أكثر على قدر حاجة أولاده. وفي حالة ما إذا مرضت المرأة مرضا يمنع من مباشرتها بعد الزفاف والنقلة الى منزل زوجها أو قبلها ثم انتقلت اليه وهي مريضة أو لم تنتقل ولم تمنع نفسها بغير حق فأبى النفقة عليه، فلو مرضت في بيت الزوج ثم انتقلت الى بيت أهلها فإن طالبها الزوج بالنفقة ولم يمكنها الانتقال لخافة أو نحوها فلها النفقة.

وقد أوجب التشريع الاسلامي النفقة للأبناء على الآباء بأنواعها الثلاثة: فأوجب للأب النفقة على الأب الحر ولو ذميا لولده الصغير الفقير ذكرا كان أو أنثى حتى يبلغ الذكر حد الكسب وحتى تزف الأنثى الى بعلها. وأوجب على الأب النفقة لابنه الكبير الفقير العاجز عن الكسب كزمن وذو عاهة تمنعه عن الكسب، ومن كان من أبناء الاشراف أو من في حكمهم ولا يستاجرهم الناس في عمل من شأه أن يغض من صمته بينه أو يزرى بكرامته، وللأنثى الكبيرة الفقيرة ولو لم تكن لها زمانة أو عاهة إلا إذا تزوجت، فإذا تبين أن الأب معسر عاجز عن الكسب أو به عاهة تحول دون استئدار النفقة على غيره، ألحق بالميت، وتحت في هذه الحالة النفقة على من يليه في المرتبة مع تحقق شرائط الوجوب. ومعلوم أن النفقة تعتمد الجزئية والارث في وجوبها.

أما إذا كان الأب معسرا ولا زمانة به ولا حاجة تحول دون اكتسابه فلا تسقط عنه النفقة لعدم إعساره لولده ، بل مفروض عليه أن يكتسب وينفق عليه بقدر الكفاية ، فان نفقة الأقارب معتبرة عند الفقهاء ضرورة طارئة ، وإنما تقدر الضرورة بقدر ملائمتها فان أبي مع قدره على الاكتساب يجبر على ذلك ويحس في نفقة ولده ، فان لم ينف اكتسابه حاجة الولد أو لم يكتسب لعدم تيسر الكسب ، أمر القريب بالاتفاق على الولد بالبقاء عن أبيه ليرجع على الوالد إذا أيسر مستقبلا . والام في حالة إعسار الأب أولى من سائر الأقارب بالاتفاق على ولدها ، فإذا كانت موسرة مع إعسار الأب أمرت بالاتفاق على ولدها ولا يشاركها الجد ، فان كان الأبوان معسرين ولهما أولاد يستحقون النفقة أمر بها القريب من مترانها كما سلفنا ، فإذا أبي الاتفاق عليهم مع يسره أحبره القاضي عليها ، ويكون إنفاق القريب في هذه الحالة دينا على أبيهم المعسر يرجع به القريب عليه إذا أيسر ، سواء كان المنفق أما أو جدا أو غيرها ، فان كان الأب معسرا أو زمتا حاجزا عن الكسب فلا رجوع لاحد عليه بما أنفقه على ولده ، وإذا كان أبوالصغير الفقير معدوما وله أقارب موسرون من أصوله فان كان بعضهم وارثا له وبعضهم غير وارث وتساووا في القرب والحزبية يعتبر الأقرب جزئية ويلزم بالنفقة ، فان كان له أم وجد لأم فنفقته على الأم ، وإن كانت أصوله وارثين كلهم فنفقته عليهم بقدر استحقاقهم في الارث ، فلو كان له أم وجد لأب فنفقته عليهما أثلاثا : على الأم الثلث وعلى الجد الثلثان فان كانت أقارب الطفل الفقير المعدوم أبوه بعضهم أصول وبعضهم حواش فان كان أحد الصنفين وارثا والآخر غير وارث يعتبر الأصل لا الحاشية ويلزم بالنفقة سواء كان هو الوارث أم لا ، فلو كان لولده جد لأب وأخ شقيق فنفقته على الجد ، ولو كان له جد لأم وعم فنفقته على الجد لأم ، فان كان كل من الأصول والحواشي وارثا يعتبر الارث ونجب عليهم النفقة على قدر أنصبتهم في الارث ، فلو كان للصغير أم وأخ عصبي أو أم وابن أخ كذلك أو أم وعم كذلك فنفقته عليهما أثلاثا : على الأم الثلث وعلى العمبة الثلثان .

فان غاب الأب وله أولاد ممن تجب نفقتهم عليه وله مال عديم من جنس النفقة ، جاز للقاضي أن يأمر بالاتفاق منه عليهم . وكذلك الحال إذا كان للغائب مال مودع عند أحد أو في بعض المصارف المالية أو كان له دين وكان من جنس النفقة وأقر المودع عنده أو المدين بالمال أولم يقر وقرائن المشاهدات قائمة على وجود تلك الوديعة عند المودع وبالدن عند المدين بواسطة صكوك ومستندات تثبت ذلك . أما إذا كان مال الغائب ليس نقودا من جنس ما يحكم به بان كان عقارا أو عروضاً فلا يباع منه شيء بالنفقة ، بل تؤمر الأم بالاستدانة عليه للأولاد . لكن حقق صاحب ملتي الابحر وصاحب ككتاب أنفع الوسائل أن للقاضي في هذه الحالة أن يقدر الملائات المحيطة بتلك الحالة توافقا ، فإذا تمردا استدانة الأم على العقار أو المروض وتحققت حالة استثنائية وهي خشية تعرض الأولاد للجوع والعاقبة ، جاز أن يباع العقار وأن تباع

تلك العروض بالقدرة التي يدفع عن الاولاد غائلة الختمصة ، والضرورة تقدر بقدرها ، بدليل أن الفقهاء أجازوا في بعض الحالات الولد الذي لم يبلغ حد الكسب أن ينفق من مال أبيه الغائب إذا كان هذا المال من جسد النفقة على قدر كفايته من غير رجوع في ذلك الى قضاء القاضي .

وتبدو وجهة الشارع الحكيم مقرونة بالعدل العامل في حالات كثيرة من أبواب النفقة ، كحالة ما إذا كان الولد الفقير ممسرا وله أب غني ، فقد أوجب نفقة زوجته على أبيه الموسر إذا ضمنها في العقد ، وأوجها عليه إطلاقا على أن يرجع بها على ولده إذا أسره ، لأنها تكون دينا في ذمته لا تبرأ منها إلا إذا أداها بعد يساره .

فإن بلغ الولد حد الاكتساب فإن كان دكرا جارا للاب أن يؤخره على ما يحتمل ممارسته من الاعمال ، أو أن يدفعه الى حرفة ليكتسب بها ، وإذا ذلك ينفق منها أبوه عليه ، وما بقي من كسبه يحفظه أبوه له ليسلمه إليه بعد بلوغه ، وإن لم يف كسب الغلام بمراقفة الضرورية كان على أبيه الموسر إتمام كفايته منها . وإذا استغنت الأنثى كذلك بكسبها من الخياطة أو الغزل أو نحوهما فنفتها في كسبها إن وفي بحاجتها ، وإن قهر كسبها عن شئونها الضرورية فعلى أبيها إتمامها .

وإن شكت الأم امتناع الأب عن الاتفاق أو التقتير على ولدها منه جاز للقاضي أن يفرض النفقة ويأمر بإعطاء الصغير لأمه لتنفق عليه حتى إذا تحققت خيانتها في الاتفاق عليه تحرر القاضي أمثل الطرق في إيصال النفقة الى الولد . وهنا يرى بعض الفقهاء أن تسلم النفقة الى الأم وجبة بعد أخرى من وحدات اليوم أو تسلم لها النفقة على دفعتين في اليوم ، واحدة في الصباح وأخرى في المساء ، لكن ما عليه حمل المحاكم الشرعية اليوم غير ذلك كما هو شاهد ، لأن في حمل المحاكم اليوم تسييراً أهم على الناس وتربياً لهم أعانق بالمصاحبة من هذا الرأي ، فإن وقمت المصاحبة بين الأم وزوجها على الاولاد فيما يتعاق بالاتفاق عليهم أو صالحت الحاضرة أب الصغير عليه كذلك ، وقع الصريح صحيحاً في حالة واحدة وهي ما إذا كان المصالح عليه قائماً بكفاية الاولاد ، أما إذا كانت غير داحلة في تقدير أسقطها القاضي من حساب الصلح وفرضها بالقدر الملائم ، وإن كان القدر المصالح عليه أقل من نفقة الكفاية زادها القاضي الى ذلك القدر الذي يكفيهم .

وعليه يتفرع حال آخر وهو ما إذا قضى القاضي نازوحة على زوجها أو لحاضنة على أب الصغير أو أحد قرابته الواجبة عليه نفقته فهي في حكم نفقة الزوجة في عدم سقوطها بمعنى شهر فأكثر من تاريخ الفرض حتى ولو فرضت بغير استئذنة من القاضي ، وعليه عمل كثير من المحاكم الآن ، وهو الارق بمصالح المتقاضين وأمس بحاجاتهم المتجددة بخلاف سائر المحارم .

فإن فرض القاضي تلك النفقة للصغير على أبيه ومضت مدة دون أن تقبضها الأم من الاب جتى مات فإن كانت مستدانة بامر القاضي كان للأمم الرجوع بها في تركه أبيه كما

ترجع بها عليه لو كان حياً، فإن لم يقض القاضى باستدانة هذه النفقة وكان في ذمة والد الصغير متجعد حتى مات سقط هذا المتجعد ولم يحجز للام أن تطالب به ورثة الميت اندافا .
فلما تطور التشريع في الاحوال الشخصية وروحي قدر الامكان ما يجب للأسر من حرمة ،
عنى المشرعون بإيجاد ضوابط كانت أوسع نطاقاً وأكثر تيسيراً وأفضل تحريماً لاصوالح الأسر
وإحاطة الاحوال الشخصية بسياج صفيق يكفل لها الخير في أوسع حدوده ، ويدراً الشرى أضيق
صوره . فرضت لائحة ترتيب المحاكم الشرعية رقم ٧٨ صدر بها مرسوم في ٢٤ ذى الحجة
سنة ١٣٤٩ هـ موافق ١٢ مايو سنة ١٩٣١ م فكانت تلك اللائحة صورة أقرب الى مصلحة
الأسر والاهلئالات مما سبقها من اللوائح ، وكفأت خيراً كثيراً يعود على المجتمع بقسط غير قليل
من الرضاية والاستقرار في حالات الزوجية ، وبخاصة ما يتعلق منها بالنفقات في مختلف
حدودها وأنواعها

وقد يكون من المفيد جداً لقراء المجلة أن تضع على أعينهم جانباً مما كفلته لائحة ترتيب
المحاكم الشرعية وإجراءاتها الصادر بها مرسوم رقم ٧٨ سنة ١٩٣١ في باب النفقات :
المادة الخامسة من الباب الأول من الكتاب الثاني .

(أ) تختص تلك المادة لبيان ما يقع في اختصاص المحاكم الجزئية الشرعية (وهي أقل
درجات القضاء المشوثة في أنحاء القطر) .

(١) نفقة الزوجة :

(٢) نفقة الصغير بجميع أنواعها إذا لم يزد ما يطلب المحكم في كل نوع على مائة قرش صاغ
في الشهر أو لم يحكم بأكثر من ذلك إن كان الطلب غير معين . وكل ذلك بشرط ألا يزيد
مجموع ما يحكم أو يطلب المحكم به للزوجة أو للصغير على ثلثمائة قرش صاغ في الشهر .

(ب) النفقة من مدة سابقة على رفع الدعوى إذا لم يزد مجموع ما يطلب على أثنى قرش أو لم
يحكم بأكثر من ذلك إن كان الطلب غير معين . ثم إن اللائحة كملت في الكتاب الرابع بيان
حالات التنفيذ والاعلانات ، وجاءت تعليمات الحبس في مواد النفقات بمنشور أذاعه وزير
الحقانية على المحاكم ، وانتدبت وزارة الحقانية لكل محكمة قاضياً يفصل في مواد الحبس .

عباس طه

المحامى الشرعى

تاريخ الادب العربي

في العصر العباسي (١)

كان لظهور الاسلام أثر بعيد المدى في حياة العرب من الوجهة السياسية ، فثناؤها والتغيير الكثير وحضمت للتطورات الخطيرة ، ولكنها بقيت بالرغم من ذلك إيان حكم الأمويين محتفظة في جوهرها بصورتها القديمة ، فصعدت أمام الحضارة الآرامية في الشام وبابل ، حيث اختلط البدو بمدينة العمران ونشأوا فيها مع حكمهم الشديد بمحيراتهم القومية وتقاليدهم القديمة زمنا طويلا ، وكانت الأسرة المالكة تستند الى التقاليد العربية القديمة وتستنعين بها على الحكم ، وبها قويت على مكافحة المطالب الدخيلة التي كانت تثيرها جماعة المتطرفين من رجال الدين .

تغيرت هذه الحال مع ظهور العباسيين الذين آلت اليهم السلطة بفصل مساعدة المسلمين من غير العرب على أثر ضعف الأمويين من المقاومة الحدية ، وكانت حكومة الأمويين تخضع لشعور العرب غير مراعية لأصول الاسلام الاولى التي كانت تدعو الى المساواة في الحقوق بين جميع المؤمنين ، مما أثار عليها شرق البلاد الاسلامية في خراسان حيث لم يكن للعرب شأن حطير ، اللهم إلا نفر قليل منها في الوظائف العامة أو بين الجند ، فكانت مستودعات الانفجار متوفرة بين أهالي هذه النواحي من الآريين ، خصوصا أنهم نشأوا على احترام المبدأ الوراثي خلال مئات السنين العديدة في ظل حكومة ملوكهم الوطنيين ، وعلى هذا النظام الوراثي قامت دعوة الدولة العباسية في المطالبة بالسيادة لقرابتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وكانت الفرس أول من ساعد العباسيين على تولى عرش الخلافة ، فكان لهم حظ وافر ونفوذ كبير في بلاطهم ، فوصلوا الى أعلى مناصب الدولة وأقرب بطانة الخليفة ، بعد أن كان نصيب هؤلاء الغرباء خلال حكم الأمويين لا يتجاوز بعض مسائل الإدارة الداخلية لحبرتهم الواسعة وحضارتهم القديمة .

وهكذا كانت الحال في الحياة العسكرية ، فان هذا التغيير في السيادة القومية قد طبعها بطابعه الخاص ، فإكان من مزاحمة الممتلكات العربية إيان حكم الأمويين وتقويتها على موطن العرب الأصلي ، أصبح في حكم العباسيين أمراً واقعا وحقيقة مستقرة ، فتركزت الحياة العسكرية ببلاد العراق ، وعلى الأخص في بغداد حاضرة الدولة العباسية الجديدة ، وأما مزاحمة الأفكار

(١) مترجمة من الألمانية فلامن كتاب « الادب العربي » المستشرق الألماني الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

والعبارة الجديدة التي بدأت في العصر الأموي وظهرت على الأسلوب البدوي القديم ، فانها تغلبت عليه نهائياً حتى أصبح في العصر العباسي لا يجد من يمنه إلا من تتمد التقليد ، ولم يقدره إلا العلماء المارفون ، وبذلك اضمحل شأنه وهبطت قيمته ، وضاع أثره في تطور الأدب على مرور السنين ، فالقصائد ، وكانت لا يربط أجزائها منذ القدم إلا برباط ضعيف ، تمكك بعضها عن بعض كل التمسك ، وظهرت أنواع جديدة في أبواب الشعر أهمها المرح والعيد ، وأخذت مكانها في الأدب العربي بدلا من كل من المراثي ، وكانت تحيا مذهب بعيد حياة مستقلة ، ومن أشعار الغزل والخريات التي كان قد مهد لها سبيل الاستقلال والتطور صر بن أبي ربيعة ورفقه من ناحية ، والوليد الثاني من ناحية أخرى .

وأظهر ما امتاز به الشعر في هذا العصر هو أثر الديانة الإسلامية فيه الى حد بعيد ، بعد أن كانت بعيدة عنه كل البعد ، وإنما يرجع السبب في ذلك الى رغبة خلفاء الدولة العباسية في إظهار الدين في جميع مرافق الحياة العامة ، هذا فضلا عن تمبير الشعوب الآرية بما امتازت به من معاصر دنيوية .

وكذلك تقدم الشعر في الأدب العربي بخطوات واسعة بفضل المؤثرات الفارسية ، فكانت تمده في أغلب الأحيان بأغنى المواد . ونهج المؤرخون على مثال من سبقهم في الفرس ، فنشطت علوم التاريخ وأثرت ثمرا غنية ، كما كان للفرس أيضا نصيب الوافر في بناء مصارع العلوم الفلسفية والدينية التي اتسع نطاقها بعد ذلك ، ولو أن السبب الأول في نهجهم هذا المنهج كان بفضل اختلاطهم بالحضارة الفرية .

وكانت بغداد وهي الحضارة الجديدة التي أنشأها الخليفة المنصور للدولة العباسية قد اجتذبت اليها جميع الشعراء النابيين من النواحي المختلفة للبلاد الإسلامية ، وأول من عرف ممن تحرر في الشعراء من الأسلوب البدوي القديم هو مطيع بن أبياس ، وهو من أصل سامي ، ولكن لغائه بالكوفة وتلقبه العلم بها ساعده على التعرف بأصول الحضارتين في بده امتزاجهما . ولقد حاول الظهور في أول أمره في عهد الأمويين ، ولكنه رأى شروق شمس العباسيين فآثر الانضمام اليهم ، وظهرت موهبته الشعرية وهو في لطافة الخليفة المنصور ، وكانت أشعاره سهلة تقسج في أوزانها مع ما اختص به في الموصوعات الغزلية والخريات ، كما كان لا يتقيد بصياغة المقدمات الشهوانية لقصائده الغرامية مثل من سبقه من المتقدمين ، بل كان يتكلم على من نحوا نحوهم من المقلدين .

ولقد بذل في فنون الشعر في صدر هذا العصر بشار بن برد ، فكان أغنى منه فكرة وأحكم وزنا للشعر ، وهو ابن أحد أرقاء الفرس ، وكان كثير الزهو بما يدعيه من نسبة الى الملوك ، وقد جرى كذلك في صناعته الشعرية ، على تحطيم قيود التقاليد القديمة ، فلما ضريراً بالبصرة ،

وأول ما بدأ حياته الشعرية ، بالغزل ، وكانت قصائده في هذا المضمار رائعة ذات جاذبية ساحرة ، خشي أثرها الخليفة المهدي فصد عنها اجتماعها للفتنة ، وكان كثير الاختلاط بأصحاب العقائد الحرة في موطنه ، الذين يريدون تفسير العقائد الإسلامية على حسب المبادئ الفلسفية ومراميتها ، كما كان يظهر عطفه على ديانة أبيه على مبادئ راروسترا ، ولما اكتملت رجولته تقرب من الخليفة المهدي ونظم له قصائد عديدة في مدحه ، ولكنه ما لبث بعد أن انضح له بخله أن تهكم عليه وعلى وزيره يعقوب ، فأمر بقتله عام ١٦٧ هـ .

وجاء من بعده أبو نواس الحسن بن هاني الحسكي ، وظهرت به بلغت شعراء الملوك أعلى درجات الكمال ، ولد أبو نواس في أواخر النصف الأول من القرن الثاني من الهجرة بمدينة الأهواز ، وكان يجرى فيه الدم الفارسي من ناحية أمه على الأقل ، جاء أبو نواس إلى البصرة في مقتبل عمره ، وتلقى بها علوم اللغة على أكبر علماء هذا العصر ، فساعده ذلك كثيرا على سيطرته النامة على دقائق اللغة العربية ، وحرى على مثال هؤلاء العلماء اللغويين أن قام أبو نواس أماما بالصحراء حيث كانت لغة أهلها من البدو تمثل العربية الصحيحة ، وأخذ صناعة الشعر عن والده الذي اصطحبه إلى الكوفة حيث أكل دراساته اللغوية ، وبعد أن اشتهرت قصائده الأولى رحل إلى بغداد فكان موضع إكرام هارون الرشيد وخلفه الأمين ، وامتازت من بين أشعاره الخريات فبلغت درجة في الكمال لم تبلغها من قبل ، ولو أنه لم يكن في هذا المضمار مبتكرا مجددا ، بل إنه كان ينهل من موارد من سبقه من أمثال الوليد ورفاعة ، كما أنه أخذ عن الحسين ابن الضحاك وكان زميلا له في الدراسة بالبصرة ، وقد نسبت بعض أشعاره خطأ إلى أبي نواس . والمعروف أن الأسماء التي خصصت في وصف الخمر لم تنسح دائرتها الفكرية لمعاني كثيرة ، وإنما كانت تنحصر بدرجة حيويتها وصدق مشاعرها ، وكانت حياة أبي نواس ملأى بمغامرات الخمر والعشق ، وبذا كانت أشعاره التي تلى الخريات في القيمة تنصب في حياة الجون والعشق التي لاحد لها ولا رادع ، فكانت كثيرا ما تخرج عن دائرة المشاعر المأدبة الجميلة إلى القول الغليظ والمباراة الجارحة التي ينبو عنها الفن الجميل ومعها النوق الأدبي السليم ، وكانت علاقته ببلاط الخليفة تحمله في بعض الأحيان على صياغة قصائد مديح الخلفاء ، فكان يلجأ إليها احترافا ، وهنا كانت تظهر براعته اللغوية التي أثبتت سيطرته النامة على فنون الكلام وصياغة الألفاظ ، ولم يكن بها ما يدور للأعجاب بشاعريته الصادقة . وأما المراتي فكانت أعلى قمة من الناحية الشعرية ، فكانت قلما تخلو من تعبير عن شعور صادق وإحساس مخلص وكان أبو نواس أول من أوجد للصيد بابا مستقلا في الشعر ، ظهرت فيه صور رائعة في وصف حياة الحيوانات وطباعها ، وملأ الصيادين ولحوم ، ولم يأت أبو نواس أيضا في هذا المضمار دائما بالجديد المقطع النظير ، فان قصائد العصر الجاهلي كانت ملأى بالصور الغاتية في وصف حيوانات البيداء ، التي عرفها شعراؤهم من طريق المشاهدة المباشرة ، كما أن هذا الشيء لم يكن

قد صار إلى الفناء النام في عصر الأمويين ، ولو أننا لا نعرف الآن أسماء من اتخذهم أبو نواس مثالا له في هذا المضمار ، ينعكس الحال في جرياته كما سبق لنا التنويه .

استغرق أبو نواس طويلا في حياة المجون ، ولم يترك من ملاذ الحياة منها إلا ملامنه كأسه حتى أصبح شهوته ، ولما لم يبق له منها مطاب ارتقى في شيخوخته في أحضان البذائة ، ولم يخرج بذلك عن الظاهرة المعينة التي امتاز بها الشرق بدون شدوذ ، خصوصا بين الفارسيين حتى العصر الحاضر ، فصار من مباح للخمر والمشق لدرجة التمثيل ، إلى ناسك متكشف ، ولم يبق له من ذكريات الشباب الماحس والحياة الطرونة سوى ما حمله يحمل ألم فراق الحياة والحسرة عليها . ولم يشد أبو نواس عن رفاقه في هذا الفن ، فجعل منه حملات ماكرة ضد من كرههم من الناقدين له بأشعار مقدعة ، أثارت عليه غضب أسرة فارسية هريقة كانت تقيم بغداد بسبب أشعاره التهمكية ، فأثارت عليه من يلتقم منه ، وكان من جراء ذلك أن عومل بالآذى وبلغ في الاساءة اليه حتى تولى بسبب تكرار الانتقام منه ، ومات عام ١٩٨ هـ .

وظهر من المعاصرين لأبي نواس من الشعراء النابيين أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم ، فانتار عنه بالتسع دائر المكرة ولو أنه كان أبسط منه في الأسلوب . أقام أبو العتاهية في شبابه بالكوفة ، وجاء إلى بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد ، وجرفه تيار ملاذ الحياة في أول الأمر ، فأخذ قسطا واما من متاع الدنيا ، وأشد أغلب قصائده في الغزل ، ولكنه سرعان ما تحولت نفسه عن هذه الحياة ، وانقطع للأشعار الدينية ، ووجدت أشعاره ذيوما بين طبقات الشعب المختلفة أكثر من تداولها بين بطانة الخليفة وحاشيته ، فنجح إلى حد بعيد في تهذيب الأفكار العامة ، ولم يتجاوز بأشعاره الدثرة الدينية إلا قليلا ، فكان كثير التشاؤم يتردد حديث الموت وعذابه في أشعاره ، ولم يذكر البعث مما جعل الكثيرين في حيرة من أمره ، وحمل بعض المتشككين على الريبة في صحة عقيدته وثبات إيمانه ، ولم يستطع أبو العتاهية أن يبرز دائما في ميدان الشعر بقريحة مجددة أو ذهن مبتكر ، ولو أن ذلك لا يقلل من قيمة عمله ، فهو أول من عرف أن يجعل أشعاره في أسلوب سهل قريب من فهم عامة الناس مبتعد عن الفنون المصطنعة في صياغة الألفاظ التي كانت توجه إليها أعراض من سبقه من شعراء الملوك ، ولكنه لم يكن موهوبا في هذا الطريق الذي أراد تمجده ، ولم يكن لنفسه ثمار ، ولم يفر على إيفاء وعد الذوق العربي الذي كان تبارك أخذه في السمو شيئا فشيئا ، ومات أبو العتاهية عام ٢١١ هـ .

وأخر من ظهر من الشعراء البارزين الذين كانوا يمثلون هذا الفن في بلاط خلفاء الدولة العباسية هو أبو العباس محمد بن المعتز ، وهو ابن الخليفة المعتز ، ولد عام ٢٤٧ هـ ولم تكن له في أول الأمر مطامع سياسية ، فانقطع لاشباع ميوله الفنية والعلمية ، إلى أن اجترفه تيار

الحوادث السياسية التي كانت تتوالى في هذا العصر ، فآثرته من حياته الشعرية ، وبإيماء
بالتخالف بعض الإنصار من المعارضين في الحكم عام ٢٩٦ هـ . ولكنه لم يبق بها طويلا ،
إذ تمكن حرس الخليفة المقتدر في أسرع وقت من التغلب على أنصاره وتفتيتهم ، ففر هاربا
وبقي مخبئا في بيت أحد رمايه المخلصين الى أن عثروا عليه وقتلوه خنقا في الثاني من ربيع
الثاني عام ٢٩٦ هـ .

وكان ابن المعتز في شعره مخلصا لعصره ، فكان على شاكلة زملائه في محاكاة القدماء
في هذا الفن والسير على مناهجهم ، ولم يخرج عنهم إلا فيما أنشده في الغزل والعشق ، فإن هذا
الموضوع كان يستدرجه الى طريق أبي نواس وأتباعه الحداثيين ، وأهم أعماله الشعرية
التي استحققت تقديرا ممتازا قصيدته المعروفة في مدح الخليفة المعتضد ، وقد نظمها في أربعمائة
وتسعة عشر بيتا من الشعر تحقيقا للرغبة التي أبدتها الخليفة لتدوين أعماله في الحكم ، وهذه
القصيدة على جانب كبير من الأهمية ، فهي تمثل نوعا خاصا هو القصص المظوم الذي لم يظهر
في الأدب العربي كامل المصوج في أي وقت آخر من الأوقات ، وكان العرب منذ القدم يعنون
بهذا النوع من الشعر ، فظهرت بدايته في نظم بعض الموضوعات القصصية في أخبار الحروب القديمة ،
ولكنه لم يتقدم إلا في عصر ازدهار الفنون الشعرية ، فعالج بعض الشعراء الحوادث التاريخية ،
وأهم ما عرف من ذلك القصيدة المشهورة التي نظمها أبو يعقوب الخرمي في وصف حالة بغداد
أثناء حصارها في الحرب التي قامت بين ولدي هارون ، وكان الوصف هو الساحة الغالبة فيها
بعكس القصة التاريخية التي أهملت وأخذت المرتبة الثانية من الأهمية ، وأما القصيدة التي وضعها
ابن المعتز لتدوين تاريخ الخليفة المعتضد فكانت آية في الكمال الفني ، وفيها وصف دقيق للحالة
السيئة التي كانت قد صارت اليها البلاد قبل خلافة المعتضد ، ثم جاء على مرد أعماله لصالح
الأمبراطورية المفاظ بليغة وصارفة سامية ، وبقيت هذه القصيدة بدون أثر يذكر
في تطور الأدب العربي زما طويلا ، الى أن جاء في العصور المتأخرة بعض الشعراء المحترفين
ونظموا بعض قصص الأبطال التي نشأت عن الروايات العربية القديمة .

ولم يقتصر ابن المعتز في أعماله الأدبية على الشعر ، بل إنه دون تاريخ الشعراء من الأمراء ،
وجمع أعمال أصحاب الخريات بمد دراسة واقية للشعر القديم ، ووضع مؤلفا هاما في تاريخ
الشعر الحديث على نمط مؤلفات علماء اللغة .

« يتبع »

المرأة في الاسلام

لا يعدم الحق نصيرا

في شمال أفريقيا التابعة لفرنسا حركة للمطالبة بالاصلاح ، اتخذت شكلا مقلقا لحكومة الجمهورية ، فصب رجال من خيرة النواب الفرنسيين يطالبون وزارتهم بإعادة تلك الشكايات آذانا مصفية ، ونقول ما يمكن قبوله من مطالبهم ، وقد اقترح النائب الميسور فيولت أن تملأ طائفة من الجزائريين الحقوق المدنية التي تساوى أفرادها بالفرنسيين أنفسهم ، وهو لا يزال يحاول حل الحكومة على تحقيق غرضه فانار هذا الاقتراح فائز الجرائد الاستعمارية ، فكشبت فصولا مستفيضة في التشريع على هذا التجديد ، متذرة بانحطاط المرأة في الاسلام ، قائلة إن الاسلام وضع النساء في مستوى أحط من مستوى الرجال ، فاذا عومل هؤلاء الناس بالقانون الذي يعامل به الفرنسيون ، فلا يمكن تطبيقه على النساء اللاتي يعتبرن في نظرنا واجهن في حكم الأسيرات .

فانبرت لهذه الصحف سييدة فرنسية تدعى (ماريا فيرون) في جريدة (فانديدي) الباريزية ، وكتبت ردا عليهم ترجمه على علانته للقارئ ، قالت :

« منذ ظهور مسألة منح الجزائريين حقوق الانتخاب ، مع الاحتفاظ بقانون الاحوال الشخصية لديهم ، أهرق مداد كثير في بيان حالة المرأة المسلمة ، وخاصة من جانب كثير من الذين لم يهتموا فيما مضى من الزمان بتغيير حالة هؤلاء المسكينات اللاتي تؤلمهم حالتهم الآن . وقد طال ما كتب بعض الناس هنا كتابات كان الغرض منها التندليل على أن عرب شمال أفريقيا أكثر شعوب المسلمين تاخرا ، ولكن الحكومات المتعاقبة لم تعر هذه الكتابات آذانا صاغية ، وقد حذا حدوهم القائمون بالامر هناك ، ولم تفر بشئ من الاصلاح إلا نساء القبائل ، وهن بأثبات كغيرهن على السواء . ولم يلتفت الرأي العام الى الحالة التي تعامل بها النساء الغريات في بلد عد منذ أكثر من قرن من الممتلكات الفرنسية .

ولقد تيقظ المسلمون كافة بعد فتور دام عدة قرون ، فبدأت النهضة في تركيا الكالية ، وبين يوم وتاليه رأينا النساء يخرجن من سجن الحريم ، ويصرن مساويات لرجال ، ويدخلن في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسة .

قد يعترض علينا هنا معترض فيقول : هذا أثر من أثر البعد عن الدين ، فان أحكام القرآن لا تسمى الا ان على الحكومة والأفراد هناك .

وقد ذكرت السيدة مارية فيرون ان تاريخ المسلمين يحفظ أسماء نساء شواعر ، وقاتها أن تقول : ونساء عالقات أيضا .

وذكرت أن الاسلام سمح لها بالتعلم ، وقاتها أن تذكر أنه سمح لها بالتعليم أيضا ، وسمح لها فوق ذلك بتولى الافناء والقضاء ، ولكن فى غير الدماء . وهذا حق لا تزال أرقى نساء العالم محرومات منه

وذكرت أن الاسلام سمح لها بحرية التصرف فى ملكها ، وقاتها أن تذكر بأن هذا حق لم تفوز به المرأة الأوروبية الى اليوم متى كانت متروجة .

ولكن السيدة (مارية فيرون) هما قصرت فى بيان حقوق المرأة فى الاسلام ، فهى تفكر كل الشكر على ما صرحت به من القدر الذى ألت به عنها ، وهذه فضلة عظيمة القيمة وخاصة فى بيئة كبايز لا تعرف عن الاسلام كبير شىء . وليس حبل هذه البشة تقع تبعته عايبا وحدها ، ولكن على جمهور المسلمين أيضا ، فأنهم لجل سوادهم الاعظم يدينهم بحقوق فى ماملة نسايتهم مع العادات المحلية ، والاهواء النفسية . وأولو الامر فيهم لا يبالون بما تجرره هذه الحالة من السمعة السيئة على دينهم وعلى كتابهم .

أليس من نكد الدنيا على العارفين ، أن يكون الاسلام قد بلغ الغاية فى تمويل المرأة بحقوقها المهضومة ، حتى إنه سبق الام كافة الى أصول من ذلك لوانكشفت للاوربيين لأصبحت فى نظرم من الأدلة على أن القرآن ليس من وضع البشر ، ويتم الاسلام مع ذلك بأنه حط من قيمة المرأة وأغرق فى هضم حقوقها .

هذا غريب ومؤلم للنفس فى آن واحد ، ولكن سببه معروف وهو إهمال خاصة المسلمين أمر عامتهم ، وتركهم وما توحى به اليهم طاداتهم ، وما توحى به عليهم حوائتهم ولا يوجد فى الأرض دين جى أهله عليه مثل هذه الجنابة . فان الذى زاء على عكس هذا الأمر ، ذلك بأن دين أيديا أديانا ليست على شىء من سلامة الأصول ، ولا من صحة المبادئ ، ولكن أهيا حاطوها بمعارفهم ، وصحة رجولتهم ، فانمكس عليها منهم مظهر من السموا ليس لها نصيب منه لولام .

وقد نبه كتابنا الكريم ، تقاديا من مثل هذه الحالة ، الى وحوالات الاتصال بالعامه وتعليمهم وتهذيبهم ، ونههم عن المنكر ، وأمرهم بالمعروف ، وأوصى القائمين بالأمر بأن لا يقرروا المنكرات ، وأن لا يفضوا الطرف عنها ، وقد وصف الله قوما من المنافقين فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لنا من المعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ايداطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحكيم حيرانا » وقد رأينا السلف شديدي الحرم على إزالة المنكرات ، حتى أنشأوا لها خطة خاصة تعرف

هذا صحيح ، ولكن من يجبل نظره في الشرق يرى أن ترقيات محسوسة قد تمت في كل مكان من العالم الاسلامي .

ففي مختلف الولايات الهندية تعطى المرأة صوته في الانتخابات على مثال الرجال ، وفي بلاد المجر وسورية توجد نساء قد هجرن عادة التحجب ، وألن جماعات نسوية ، وهن يجتمعن على شكل مؤتمرات لتحررو مطالبهن الاجتماعية .

وفي مصر نجد الحساء النسائية قد تطورت تطورا كاملا بفضل المدارس الخاصة التي تمدن لأن يلتحقن بالسكانات المختلفة ، ليصرن محاميات وطبيبات .

ألم نر في العهد الأخير أن فتاة مصرية قد حصلت على شهادة دبان ؟ والرجال كيف يقابلون هذه الانقلابات ؟ هل احتجوا عليها باعتبار أنها مخالفة للدين ؟ لا مشاحة في أن بعضهم قد راعه ذلك ، ولكن الاكثريين على عكس ذلك قد سرهم أن يروا بلادهم تقوم بقدم ثابتة على طريق التقدم .

ومما هو جدير بالتحجب ، أنك تصادف أشد المنتصرين للمرأة من الذين هم أكثر من سوام اعتقاداً بصحة الدين ، وهم يدعون أنهم موافقهم هذا يحسنون القيام بوصايا نبيهم وتعاليمه . فلنصنع إذن الى ما يقولون .

إنهم يقولون : إن المرأة قبل ثمة عذ كانت لا تعتبر شيئاً يذكر . فقد كانت عادة وأد البنات شائعة بقصد التخليص من إعالتهن . وقد حرم الاسلام ذلك . ولما لم يكن يمكننا أن يحرم الاسلام تمديد الزوجات ، فقد توسط النبي في الأمر فحصر عدد الزوجات في أربع مع التوصية بالأكتفاء بواحدة ، بحجة أن الانسان لا يستطيع مراعاة قواعد العدل بين النساء ولو حصر من على ذلك أشد الحصر .

وأما من الساحة الوراثية فقد قرر القرآن حصص الثلث والام والوجة ، وأما مسألة التحجب فقد علم أنه ليس فيه إيجاب .

وقد صبح الاسلام للمرأة بأن تتعلم ، وقد حفظت أسماء نساء شواهر مشهورات . ويجب التنويه بصورة خاصة بأن المروجة حق التصرف بما لها دون أن تسكف الاثاق على نفسها وهي على ذمة زوجها .

فيأبها الفرنسيون ألا تحجلون إذا قرأتم ما ذكرت ا

(مجلة لازهر) نقول : إننا ترجمنا هذه القطعة على علائها ، وفيها هتات لا نحق على القاري ، ولكنها تعتبر في جللتها دفاً عن الاسلام في بيئة ترى أنه أشد على المرأة من كل نظام اجتماعي في الأرض .

باسم الحسبة مملا بقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . فكل مسلم مكلف بهذا النص الصريح بالمعاونة على إقامة دولة الاحسان والصلاح ، وإزالة أصول الشر والفساد ، مما لو أخذ به المسلمو اليوم لاصبح كل إنسان مهيمننا على الفضيلة في الناحية التي هو فيها ، فلا تنقي الرذائل باقية ؛ وتكون ثمرة ذلك كله أن الأمة تقوى روحها ، وتشد أوصالها ، فتصبح لها شخصية معنوية سامية تعجب الناظر اليها ، وتكون حجة لما هي عليه من دين ومذهب .

وقد آل أمر المدافع عن الاسلام اليوم الى موقف غير منيع ، فهو كلما اضطر لدفع فرية توجه اليه ، حمد لا الى توجيه نظرها بها لحالة الآخذين بهذا الدين من السداد والرشد ، ولكن الى سرد أصوله الكريمة ، ومبادئه القويمة التي بينها وبين ما عليه المروء الاعظم بون بعيد .

محمد فريز وجرى

التاس الرزق

قال النبي صلى الله عليه وسلم « العائد على أهله وولده كالجاهد المربط في سبيل الله » . وقال صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ عن تعول » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول ، اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، وتلا قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفتحون »

وقال الشافعي : أحرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل الى السلامة من ألسنة العامة . ومثل هذا قول مالك بن دينار : من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه .

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام ينشد :

لا ينقص الكامل من كماله ما ساق من خير الى عياله

وقال عمر بن الخطاب : يا معشر القراء الحسوا الرزق ولا تسكونوا مالة على الناس .

وقال أكرم بن صبيح : من ضيع زاده اتسكل على زاد غيره .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خيركم من لم يدع آخرته لدينه ولا دنياه لآخرته » .

وقال عمرو بن العاص : اعمل لدينك عمل من يعيش أبدا واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا .

كتب جديدة

مقام ابراهيم :

هو اسم خطبة ألقاها الاستاذ الجليل محمد اسماعيل النشاشيبي بدمشق في حفلة تأبين فقيد العرب البطل المجاهد ابراهيم هنانو . وقد أحسن بطبعها على حديثها ، فانها قطعة من الادب العالي الذي يقرأ ويحفظ . وقد زادها حتى بتعليقات لغوية وفارسية وعلمية على كل ما تضمن فيها تروى على الاصل نحو ثلاثة أضعاف . فله الشكر على ما أحسن ، وله الشكر على ما هدى .

القرآن والقصاص :

هو خلاصة درس ألقاه فضيلة الشيخ عبد الشير النيفر المدرس بمسجد الرثونة بتونس . فقد قسم القصص في القرآن ، وذكر طريقته في إيرادها وفوائدها الادبية وحكمها ، وإنه لدرس مفيد لطلبة العلم الديني . فنشكر لفضيلة الاستاذ هذه الخدمة الادبية .

شرح دنوان علقمة للفعل :

من غول شعراء الجاهلية وأحد الذين يجب أن يذاع شعرهم بين طلاب العربية . عني بشرحه وطبعه الاستاذ السيد احمد صقر فأحسن كل الاحسان ، وكتب عليه الدكتور البايه زكي مبارك مقدمة قال فيها : « فلا تستقلوا هذه القصائد والمقطوعات والايات ، فان الجوهر الجيد ليس فيه قليل » .

كمال أناتورك :

هذا عنوان ملحق لمجلة الهلال نشرته في نهاية سنة ١٩٣٦ على عادتها في نهاية كل سنة من سنى حياتها المباركة . وموضوع هذا الملحق من أجل الموضوعات وأنفعها ، درس حياة عبقري أنقذ أمته من غياب الهلاك ، وزاد على ذلك بأن دفعها للتقدم بخطوات لم يعهد لها منيل ولا في تقدم الامة اليابانية . فها الكتاب آخذ باللب من رواية ، وأنفع للقارئ من كتاب علمي .

الملك هنري الخامس :

هذا اسم رواية وضعها شكسبير ، ويكفيها أن نذكر هذا الاسم فيذكر القارئ مبلغ قيمتها من الادب والحكمة . فان انجلترة الى اليوم صورة من صور عقلية شكسبير . وقد قام

الاديب البليغ سامي افندي الجريديني بترجمة هذه الرواية ترجمة تناسب وعبرة الاصل ، ونشرتها دار الهلال ملحقا لها من الملاحق الكثيرة التي تمنحها قارئها .

سير المظاء :

هي رسالة صغيرة وضمها حضرة الاستاذ الفاضل حسان أورهاب افندي ناظر مدرسة فاروق الاول الابتدائية ، وضمها على شكل قصص يحفز لمطالعتها ، ويغري بفهمها ، وغرضه منها أن ينشئ الرجل في قلوب الناشئة ، ويبعث فيها حب الاخلاق النبيلة ، ويوظف بجوابها غرائز الطموح وتطلب التفوق . فهذه القصة التي تدبجها راحة رجل حبر النفوس الناشئة ، ودروس طرق التأثير فيها من خير ما يمول الآباء والامهات والمربون في تقوم طباع أبنائهم وتلاميذهم .

المسيح والتثليث :

كتاب يقع في ٢٢٧ صفحة مطبوع طبعا نظيفا على ورق جيد . موضوعه ديني جدلي كما يدل عليه اسمه لم تنفرغ بعد لقراءته حتى تعطيه حقه من القدر والتقريظ . ألفه حضرة النائب الدكتور محمد وصفي يتبين لنا من قراءة فهرسه أنه تعمق في دراسة الديانة النصرانية . فأتى على المسيح عليه السلام والاتاحيل ، وحياة بولس وكتبه ، ودعوى ألوهية المسيح وقد أفاض فيها وألم بمعتقدات الفرق المسيحية فيها . وذكر الاقايم ، ومباحث مجمع نيقة . وخرج من ذلك لدراسة اصل التثليث من العقائد الهندية وغيرها . ومر بمقيدتي العداء والصلب . وحتم كتابه بما جاء عن المسيح في القرآن .

رسول للمواطن :

هو اسم ديوان شعر للشاعر الناشئ العجيب الامناذ محمد محمد الجندى ، قد طالعنا نفا منه فاذا نحن نرى شاعرية تتمشى نحو التكامل ، ونفسية مؤمنة هادئة بعيدة عن التشاؤم ، وما رأيناه في هذا الديوان يبشر بمستقبل حسن في هذا المجال الادبي الجليل .

مفكرة الأمير :

اعتاد حضرة المجتهد عباس افندي عبد الرحمن بشارع محمد على إصدار مفكرة متقنة الصنع في رأس كل سنة . وقد أهدانا مفكرة هذه السنة فاذا بها من أجمل المفكرات شكلا ، وأرقاها وضعا . فنشئ على همة ، ونرجو له النجاح في صناعته .

his nostrils, and washed his face and arms, after which he let the water flow over his head, and washed his body. Finally he shifted his place and washed his feet.

I brought him a napkin, but he refused it and proceeded to rub the water off with his hand."

CHAPTER 17.

If a man remembereth in the mosque that he is in a state of ritual uncleanness through sexual intercourse, he should go out just as he is, and not merely perform a dry ablution.

We are informed by 'Abdullāh b. Muhammad, who had it from 'Uthmān b. 'Umar, who received it from Yūnus, through Az-Zuhri, through Abu Salamah, through Abu Hurairah, who said:

"The call for standing to prayer had been made, and the ranks of the Faithful had stood up in order, when the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) came out to us from his house. When he stood up to prayer in his place, he remembered that he was in a state of ritual uncleanness through sexual intercourse, so telling us to keep our places, he returned home and performed a ghusl. He then came out to us again with his head dripping, whereupon he called the takbīr and we performed our prayer with him."

This hadith is confirmed by 'Abdu-l-A'ālā as fellow-witness with 'Uthmān b. 'Umar, through Ma'mar, through Az-Zuhri. It is also related by Al-Auzā'i, through Az-Zuhri.

وَذَرَاَعَيْنِهِ، ثُمَّ أَقْلَصَ عَلَى رَأْسِهِ
الْمَاءَ، ثُمَّ غَسَلَ جَسَدَهُ، ثُمَّ
كَتَحَّى فَغَسَلَ رِجْلَيْهِ.

قَالَتْ: فَأَتَيْتُهُ بِخِرْقَةٍ فَلَمْ
يُردِّهَا فَجَعَلَ يَنْضِضُ الْمَاءَ يَتَدَوِّدُ.

- 17 -

بَابُ: إِنْ ذَكَرَ فِي الْمَسْجِدِ
أَنَّهُ جُنُبٌ يَخْرُجُ كَمَا هُوَ
وَلَا يَتَيَمَّمُ:

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا
عُثْمَانُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ أَخْبَرَنَا يُونُسُ عَنْ
الزَّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:
«أَقْبَمَتِ الصَّلَاةُ وَوُعدَّتِ
الصفوفُ قِيَامًا فَخَرَجَ إِلَيْنَا
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَلَبَّا قَلَمٌ فِي مَصَلَاهُ ذَكَرَ أَنَّهُ
جُنُبٌ فَقَالَ لَنَا: مَكَاتَكُمْ،
ثُمَّ رَجَعَ فَغَسَلَ، ثُمَّ خَرَجَ
إِلَيْنَا وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ، فَكَبَّرَ
فَصَلَّيْنَا مَعَهُ.»

تَابِعَتْهُ عَبْدُ الْأَعْلَى عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ
الزَّهْرِيِّ، وَرَوَاهُ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ الزَّهْرِيِّ.

he began by washing his hands and performing the wuddû as for prayer, after which he proceeded to the ghusl, passing his wet fingers through his hair, until when he thought he had moistened his skin, he poured water over his hair three times. Finally he washed the rest of his body.

The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and I used to wash from the same vessel, scooping water from it together."

CHAPTER 16.

On one who performed the wuddû in a state of ritual uncleanness through sexual intercourse, and then washed the rest of his body without repeating the action for the parts covered by the wuddû.

We are informed by Yûsuf b. 'Isâ, who had it from Al-Fadl b. Mûsa, who received it from Al-A'mash, through Sâlim, through Kuraib the freedman of Ibn 'Abbâs, through Ibn 'Abbâs, through Maimûnah, who said:

"The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) set ready the water for his ghusl in consequence of ritual uncleanness through sexual intercourse. He poured water with his right hand on to his left two or three times and washed his parts. He then struck the ground or the wall with his hand two or three times, rinsed his mouth, cleansed

اغْتَسَلَ ثُمَّ يَخْلُلُ يَدَهُ شَعْرَهُ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَرَوَى بَشَرَتَهُ
أَفَاضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ غَسَلَ
سَائِرَ جَسَدِهِ،

وَقَالَتْ : كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا
وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنَاءٍ
وَاحِدٍ نَغْرِفُ مِنْهُ جَمِيعًا.

— 16 —

بَابُ مَنْ تَوَضَّأَ فِي الْجَنَابَةِ
ثُمَّ غَسَلَ سَائِرَ جَسَدِهِ وَلَمْ يُعِدْ
غَسْلَ مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مَرَّةً
أُخْرَى :

حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عِيسَى قَالَ أَخْبَرَنَا
الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى قَالَ أَخْبَرَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ
سَالِمٍ عَنْ كُرَيْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ
عَبَّاسٍ عَنْ مَيْمُونَةَ قَالَتْ :

« وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَضُوءًا لِلْجَنَابَةِ فَأَكْفَأَ
يَسْمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ
ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ فَرْجَهُ، ثُمَّ
ضَرَبَ يَدَهُ بِالْأَرْضِ أَوْ بِالْحَائِطِ
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَضَضَ
وَأَسْتَنْشَقَ وَغَسَلَ وَجْهَهُ

"When I mentioned to 'A'ishah the words of Ibn 'Umar : 'I do not care to rise in the morning in a state of ihrâm, reeking with perfume, and questioned her on them, she replied : 'I did perfume the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), after which he visited his wives in turn, and then rose in the morning in a state of ihrâm.'"

2. We are informed by Adam, who had it from Shu'bah, who received it from Al-Hakam, through Ibrâhîm, through Al-Aswad, through 'A'ishah, who said :

"I still seem to see the sheen of the perfume on the parting of the Prophet's hair (Allâh bless him and give him peace) when he was in a state of ihrâm."

CHAPTER 15.

On one passing his wet fingers through his hair, until when he thought that he had moistened his skin, he poured water on his hair.

We are informed by 'Abdân, who had it from 'Abdullâh, who received it from Hishâm b. 'Urwah, through his father, through 'A'ishah, who said :

"When the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) used to perform a ghusl in consequence of ritual uncleanness through sexual intercourse,

سَأَلْتُ عَائِشَةَ قَدْ كَرَّرْتُ لَهَا
قَوْلَ ابْنِ مُعْتَمِرٍ : مَا أَحَبُّ أَنْ أَصْبَحَ
مُحَرِّمًا أَنْتَضِخُ طِيْبًا - فَقَالَتْ
عَائِشَةُ : أَنَا طَيِّبْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ خَالَفَ فِي نِسَائِهِ
ثُمَّ أَصْبَحَ مُحَرِّمًا .

٢ - حَدَّثَنَا آدَمُ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ
حَدَّثَنَا الْحَكَمُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ عَنْ
عَائِشَةَ قَالَتْ :

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَيَعْزِرِ الطَّيِّبِ
فِي مَفْرَقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَهُوَ مُحَرِّمٌ .

- ١٥ -

بَابُ تَخْلِيلِ الشَّعْرِ حَتَّى
إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَرَوَى بَشَرَتَهُ
أَفَاضَ عَلَيْهِ :

حَدَّثَنَا عَبْدَانُ قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ
أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ
قَالَتْ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ غَسَلَ
يَدَيْهِ وَتَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ

When Qatādah asked Anas if he was capable of it, he replied: 'We used to say among ourselves that he was endowed with the strength of thirty men.'

Sa'id related through Qatādah that Anas told them it was nine wives. (1)

CHAPTER 13.

On washing away prostatic secretion and performing the wudû' in consequence of it.

We are informed by Abu-l-Walid, who had it from Zâ'idah, through Abu Hasin, through Abu 'Abdu-r-Rahman, through 'Ali, who said:

"I was subject to prostatic secretions, so I charged a certain man to ask the Prophet (Allâh bless him and give him peace) — owing to his daughter's connection with me. He did so, and the Prophet replied: 'Perform the wudû' and wash thy member.' " (2)

CHAPTER 14.

On one who hath perfumed himself and later performed the ghusl, with the traces of the perfume remaining on him.

1. We are informed by Abu-n-Nu'mân, who had it from Abu 'Awânah, through Ibrâhîm b. Muhammad b. Al-Muntashir, through his father, who said:

قال قلت لانس: أو كان يطيقه؟
قال كننا نتحدث أنه أعطي
قوة ثلاثين.

وقال سعيد عن قتادة إن أنسا
حدثهم: تسع نسوة.

- ۱۳ -

باب غسل المذي والوضوء
منه:

حدثنا أبو الوليد قال حدثنا زائدة
عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن عن
علي قال:

«كنت رجلاً مذياً فأمرت
رجلاً أن يسأل النبي صلى الله
عليه وسلم لمكان ابنتي،
فقال: «توضأ واغتسل»
ذكره.

- ۱۴ -

باب من تطيب ثم
اعتسل وبقي أثر الطيب:

۱ - حدثنا أبو العباس قال حدثنا
أبو عوانة عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر
عن أبيه قال:

(1) The eleven wives presumably include two slaves, namely Maria and Raihânah, since the Prophet never had more than nine wives at the same time.

(2) The washing of the member should precede the wudû', which would be nullified by touching the member. The waw (و) here is a mere connective which does not imply sequence. In Al-Tahâwî's and Râfi's narrations, however, the logical order is observed.

CHAPTER 12.

On whether one ghusl is sufficient if a man have sexual intercourse with his wife and then repeat it; and on one who cohabiteth with his wives in turn, performing a single ghusl.

1. We are informed by Muhammad b. Bashshār, who had it from Ibn Abu 'Adiyy and Yahyā b. Sa'īd, through Shur'bah, through Ibrāhīm b. Muhammad b. Al-Muntashir, through his father, who said :

"When I related to 'A'ishah the words spoken by Ibn 'Umar, (1) she replied: 'May Allāh have mercy on Abu 'Abdu-r-Rahmān (Ibn 'Umar)! I used to perfume the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace), after which he visited his wives in turn, and then rose in the morning in a state of iḥrām, reeking with perfume."

2. We are informed by Muhammad b. Bashshār, who had it from Mu'adh b. Hishām, who was told it by his father, through Qatādah, who received it from Anas b. Mālik, who said :

"The Prophet (Allāh bless him and give him peace) used to visit his wives in turn in a single space of time, during the night or the day, their number being eleven.

— ١٢ —

بَابُ إِذَا تَجَامَعَ ثُمَّ عَادَ ،
وَمَنْ ذَكَرَ عَلَى نِسَائِهِ فِي غُسْلٍ
وَاحِدٍ :

١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالَ حَدَّثَنَا

ابْنُ أَبِي عَدَى وَبُحَيِّ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ شُعْبَةَ
عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْتَشِرِ عَنْ أَبِيهِ
قَالَ :

« ذَكَرْتُهُ لِعَائِشَةَ فَقَالَتْ : يَرْحَمُ
اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! كُنْتُ أُغْلِبُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَيَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ ثُمَّ يُصْبِحُ
عُحْرًا يَنْفُخُ طِيًّا . »

٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالَ حَدَّثَنَا

مَعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ
قَالَ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ :

« كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَذُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ
الْوَحْدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُنَّ
أَحَدَى عَشْرَةً . »

(1) Namely — ما أحب ان أصبح عوراً ينفخ طياً = I do not care to rise in the morning in a state of iḥrām, reeking with perfume.

CHAPTER II.

On one who poured water with his right hand over his left during the ghusl.

We are informed by Mûsa b. Ismâ'îl, who had it from Abu 'Awânah, who received it from Al-A'mash, through Sâlim b. Abu-l-Ja'd, through Kuraib the freedman of Ibn 'Abbâs through Ibn 'Abbâs, through Maimûnah bint Al-Hârith, who said :

"I placed ghusl-water before the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), and covered his head.⁽¹⁾ He then poured water over his hand which he washed once or twice (Sulaimân⁽²⁾ said he was uncertain whether Sâlim mentioned three times or not). After that, pouring water with his right hand over his left, he washed his parts. Then rubbing his hand on the ground or the wall, he rinsed his mouth, cleansed his nostrils, and washed his face, hands, and head. Next he poured water over his body, and shifting his place he finally washed his feet. I offered him a napkin, but he made a gesture of refusal and did not take it."

(1) Or — screened him off

(2) i.e. Al-A'mash, one of the narrators.

- ١١ -

بَابُ مَنْ أَفْرَغَ يَمِينَهُ
عَلَى شِمَالِهِ فِي الْغُسْلِ :

حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا
أبو عروة حدثنا الأعمش عن سالم بن
أبي الجعد عن كريب مولى ابن عباس
عن ابن عباس عن ميمونة بنت الحارث
قالت :

وَوَضَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُسْلًا وَتَرْتُمُهُ، فَصَبَّ
عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَهَا مَرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ (قَالَ سَلِيمَانُ : لَا أَدْرِي
إِذَا كَرَّرَ الثَّلَاثَةَ أَمْ لَا) ، ثُمَّ أَفْرَغَ
يَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَّلَ
فَرْجَهُ ، ثُمَّ ذَلِكَ يَدَهُ بِالْأَرْضِ
أَوْ بِالْحَائِطِ ، ثُمَّ تَمَضَّمَصَرَ
وَأَسْتَنْشَقَ وَغَسَّلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ ،
وَفَسَّلَ أَسْنَهُ ، ثُمَّ صَبَّ عَلَى
جَسَدِهِ ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَّلَ قَدَمَيْهِ ،
فَنَازَلَتْهُ بِخُرْقَةٍ فَقَالَ يَدِهِ هَكَذَا
وَلَمْ يَرُدَّهَا .

Muslim and Wabib relating this hadith through Shur-bah, add من الجنة (required after sexual intercourse).

CHAPTER 10.

On the lawfulness of interrupting the ghusl and the wudû';

and on the statement transmitted by Ibn 'Umar that he washed his feet after the wudû'-water had dried upon him.

We are informed by Muhammad b. Mahbûb, who had it from 'Abdu-l-Wâhid, who received it from Al-A'mash, through Sâlim b. Abu-l-Ja'd, through Kuraib the freedman of Ibn 'Abbâs, through Ibn 'Abbâs, who stated that Maimûnah said :

"I placed water before the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) for his ghusl. He poured water over his hands and washed them twice severally or three times, after which he poured it with his right hand over his left and washed his parts. Then after rubbing his hand on the ground, he rinsed his mouth, cleansed his nostrils, and washed his face and hands, and his head three times. (1) Next he poured water over his body, and then shifting his place, he washed his feet."

وَأَذَى مُسْلِمٌ وَوَبِيبٌ عَنْ شُرْبَةَ
« مِنْ الْجَنَّةِ » .

— ١٠ —

بَابُ تَفْرِيقِ الْغُسْلِ
وَالْوُضُوءِ :

وَيَذْكُرُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ
غَسَلَ قَدَمَيْهِ بَعْدَ مَا جَفَا
وُضُوءُهُ .

حدثنا محمد بن محبوب قال حدثنا
عبد الواحد قال حدثنا الأعمش عن سلم
ابن أبي الجعد عن كريب مولى ابن عيسى
عن ابن عيسى قال قالت ميمونة :

« وَضَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مَاءً يَغْتَسِلُ بِهِ ، فَأَفْرَغَ
عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَهُمَا مَرَّتَيْنِ
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَفْرَغَ
يَسَمِيهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ
مَذَا كَبِيرَهُ ، ثُمَّ ذَلِكَ يَدَهُ بِالْأَرْضِ ، ثُمَّ
مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ، ثُمَّ غَسَلَ
وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَغَسَلَ رَأْسَهُ ثَلَاثًا ،
ثُمَّ أَفْرَغَ عَلَى جَدِّهِ ، ثُمَّ تَنَحَّى
مِنْ مَقَامِهِ فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ » .

(1) The three times may apply either to the head only, or to all three parts.

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة جامع صحيح البخارى

مؤلفه ابراهيم بن محمد المومني

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

by

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of GHUSL

CHAPTER 9. (continued)

3. We are informed by Abu-l-Walid, who had it from Shu'bah, through Abu Bakr b. Hafs, through 'Urwah, through 'A'ishah, who said

"I used to perform my ghusl together with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) from the same vessel, after pollution by sexual intercourse."

This hadith is also related through 'Abdu-r-Rahmān b. Al-Qāsim, through his father, through 'A'ishah to the same effect

4. We are informed by Abu-l-Walid, who had it from Shu'bah, through 'Abdullāh b. 'Abdullāh b. Jahri, who heard Anas b. Mālik say :

"The Prophet (Allāh bless him and give him peace) and any one of his wives used to perform their ghusl together from the same vessel".

كتاب الغسل (تابع ما قبله)

٣- حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة

عن أبي بكر بن حفص عن عروة عن عائشة قالت :

« كُنْتُ أُغْتَسِلُ أَمَّا وَالنَّبِيُّ صَلَّى

الله عليه وسلم مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ مِنَ الْجَنَائِزِ .

وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه

عن عائشة مثله .

٤- حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة

عن عبد الله بن عبد الله بن جبر قال :

سمعت أنس بن مالك يقول :

« كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَالْمَرْأَةُ مِنْ نِسَائِهِ يَغْتَسِلَانِ

مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ . »

مولد محمد خاتم المرسلين

نهضة العلم والفلسفة المعقول والقلوب لقبول الاسلام ديننا عالميا

مصدقاً لقوله تعالى : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ »

إننا معشر المسلمين نستقبل هذا العيد في كل عام بقلوب يعمرها الحب والإكبار لصاحبه صلى الله عليه وسلم ، فنحتفل به في مشارق الأرض ومغاربها ، لما حصلنا بهديه من هداية ، وما بلغنا من كرامة ، وليس المهد الذي يكون فيه هذا اليوم عيداً للبشرية كافة يبعيد . فإن العقل الذي أطلقه محمد صلى الله عليه وسلم من إيساره ، والعلم الذي حرره من رقيقته ، لا يفتآن بعملان ، على غير قصد منهما ، على نكت الأنظار إلى النور الذي جاء به . ومتى أنما العمل الذي بدأه من إلقاء نير التقليد الأعمى عن الأعناق ، ورفع حجاب التعصب المذموم عن الصدور ، وإزالة غشاوة الجهالة الوراثية عن العيون ، نجأت للناس الآية الكبرى من آيات الروح المحمدية العالمية ، فوجد الناس أنفسهم مسلمين ، ولسان أمثالهم يقول كما قال البقري الألساني (جوت) قبل نحو قرن من الزمان : « إذا كان الاسلام هو هذا فنحن إذن فيه » ، وسيكون هذا تحقيقاً لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » .

نعم : إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإيمانه في النقد والتخييص ، يتمشى على غير قصد منه إلى الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة في الأرض ترقده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدينة ، وارتكست الجماعات الانسانية عن وجهها العلمية . هذا إجمال يحتاج لبيان ، فإليك :

قُدِّفَ بالإنسان الى هذا العالم جاهلاً به غاية الجهل ، غمياً عن أسرار كل العماة ، ولولا أن الخالق جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات لمات ظمأً وسقياً ، ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضواري التي كانت تتعقبه ، ويحتمي من العوارض الطبيعية التي كانت تنصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة ، ولكنه وهب عقلاً ليس لسلطانه حد يفق عنده ، فأخذ يستهدي بنوره يسيراً يسيراً حتى استطاع أن يأمن شر المواد ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة ، ثم ما برح يرقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل في المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مسائر الوجود ، واخترع الآلات العجيبة ، وهو اليوم يتحدث نفسه بالصمود الى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم في نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذي يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغي أن يقيمه لتوحيده من النبل الأعلى الإنسانية الصحيحة

في أثناء تمشي الإنسان في هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط في نظره ، الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة ، والتعصبية التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة في أقداسه ، عاداً ذلك من متهمة وجوده الأدبي .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية في هذه الناحية تأمس الأصول الآتية :

(أولاً) زوال آثار الوراثة الدينية .

(ثانياً) انقطاع التعصب المذموم للمعتقد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلي مقام التقليد الأعمى .

(رابعا) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

(خامسا) الليل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأهم ، والجماعة إياها شيئا .

(سادسا) الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف أو فرد من الأفراد

هذه الأصول الستة لا يحصى من تولدها كشرة طبيعية للثقافة المصرية . وقد تولدت فعلا وصارت جزءا من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوروبية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لا بد من بلوغها هذه للنزلة بعد قرنين أو ثلاثة .

فاذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعمق ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الاسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

هذا مصداق الآية القرآنية التى أتينا بها فى صدر هذا البحث . وكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولْيَكُونَنَّ لَهُمْ دِينُهُم الذى أَرَفَى لَهُمْ ، وَلْيُبَيِّدْ لَهُمْ مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمْنًا الْآيَة » ، وقد كانوا يعبدون الله سرا وبخشون أن يتخلفهم أعداؤهم ويمزقونهم شفر مذر ، فأتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كلمتك ستصدق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق ، وقد ظهرت بوادر

ذلك في أقوال الكثيرين من كبار العلماء في الغرب ، وقد رأى بعضهم أن أوربا قد لا يعضى عليها قرن ان حتى تكون قد اتخذت الاسلام ديناً .

لو كان أحد المسلمين قال هذا القول لاعتبر منه مبالغه في التفاؤل ، ولكن الذي قاله الكاتب الفيلسوف الأرنندي (برنارد شو) ، وهو لم يقله ليهزأ به قارئوه ، وبحسبه من سقطاته ، ولكنه قاله بعد اقتناع به . وأى شئ يمد بعيداً فيه ؟ أليست الأصول الستة التي أئبدها هنا ، وهي أخص نتائج الدستور العلمى ، هي نفسها أخص أصول الاسلام ، بل هي معناه وروحه ، وللموجب لجملة ديناً للعالمين كافة في كل زمان ومكان ؟ لقد كلّف الاسلام كل داخل فيه أن يكون متجرداً من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثه وتقليد ووعم وخيال ، وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمت له هذه التصفية ، ولقن أمور الدين ، أمر أن يتعقلها ، وأن ينظر في أدهتها ، ونهى أن يأخذ بها تقليداً مهما كانت مكانة الرجل الذي يقلده ، وكلّف أن يتأمل فيما نصبه الله في الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتبع لأسرار الخلق ، مخضماً كل ما يحصله لأدق أساليب التحصيل والتحليل ، حتى لا يتورط في الأخطاء . فيضل ويضل ، وهو مستول عن كل ما يسخره في هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسن حتى على جيشات خواطره . وإنما لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فإليك :

قال الله تعالى في ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة ، فقرر أنها مثل الحالة التي يكون عليها الطفل ساعة ميلاده ، فقال : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق ، ولكن أبويه يتقشان في عقله من الصور ما يفتن به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى في ذم اتباع الظنوت والأوهام : « إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » وقال : « وما يتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يَنْفَعُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » .
وقال تعالى في النهي عن اتباع الهوى : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .
وقال في وجوب إقامة سلطان العقل : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » وكرر ذلك في آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال تعالى في ذم الذين لا يرفعون للعقل حقه : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْءُ ، الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ » . وقال : « صمَّ بكم عَمَى فَمَه لَا يَعْقِلُونَ » وقال : « وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » . وقال : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّتْ لَهُمْ أَصْحَابُ السَّعِيرِ » .

وقال تعالى في المسئولية الشخصية ، وفي عدم جواز الاعتماد على الغير : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ » . وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءُ الْآتِي » . وقال : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (أَى فداء) » .

وقال تعالى في ذم التقليد الأعمى : « وَقَالُوا (أَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا » . وقال : « إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (أَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ) مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » . وقال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِبَارِحِينَ مِنَ النَّارِ » .

وقال تعالى في وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفي النهي على الذين يعمدون تقليدا بغير حجة : « وَمَنْ يَدَّعِ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » . وقال في وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

وقال في تسفيه أحلام الذين يحمدون على ما ورثوه من آباءهم من الأباطيل : « وإذا قيل لهم انبموا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما أفقينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » ، وقال : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . هذا دستور ديني جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمن لم يمكن فيه لاستور أيا كان نوعه دولة في الأرض ، لامن الناحية السياسية ، ولامن الناحية العلمية . أما من الناحية الدينية فقد كان لا يعرف أحد أن للاعتقاد دستورا قط . فكان الناس من أمر السياسة غرقى الى يأفخنهم في حكومة الفرد ، لا يعرفون لهم حقوقا عليها ، ولا وجودا معها . بادت دساتير اليونان والرومان قبل عهد البعثة المحمدية بأكثر من ألف سنة ، فكانت الأمم تجهل أنها كانت لها جمهوريات ومجالس نيابية ودساتير مدونة . وكانوا من أمر العلم في غيبة مظلمة لا يعرفون له حَفَظَة غير زعمائهم الدينيين ، وناهيك بهم وفي هذا الوطن .

أما أمر الدين فكان دستوره عديم : « اعتقد وأنت أعمى » ، كما قاله العلامة لاروس في دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج لدليل ، فعبارات كانت تبحر الى النار المحرقة في تناير أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الديني والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المترتبة بعضها على بعض ، وقد جندوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل ولا يحبون أن يسموا داعيا يدعوهم الى نفيه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون وقد حكى الله ما قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور ، فقال تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » . وقالوا : « إنا لنأركو آلهتنا لشاعر مجنون » ؟ فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرتهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهي في البقعة الفسيحة من الأرض التي استولى

عليها المسلمون في أول الاسلام دخول أم رمتها فيه ، بغير إيجاب ، بل بغير دعابة منظمة ، والمقول لم تصقلها العلوم ، والنفوس لم توقظها الشكوك ، فإذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الاسلام حق معرفته ، وتبين للناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى فحسب ، ولكن أصوله الأولية هي ذلك الدستور نفسه ، بالغا لكل ما يمكن أن يصل اليه من السمو والاحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر ؟

العالم المنهزم يحاول حل مسألة الربيع :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم في الكلام عن العالم للمتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يهدد بمخاطرها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول ، فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها ، فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فأليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجييه) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخي قد حطم كل الأشكال المتعجزة في الآديان ، فانه لم يستطع أن يصدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الانسان مفعور على الاعتقاد بالله رغم أنه . ففي كل حبة وكل زمان قد شوهدت حاجة الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في أحسن الآديان الوثنية ، كما هي في أرق المذاهب الروحانية . هذه

هى الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية ، تاريخ المقارنة بين الأديان ، فن الحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل .
ثم قال :

«إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين ، فجاء جاك روسو ، وليرتين ، ولانميه ، وميشليه ، وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقرب من إرنست رينان ، وجيو ، وشوريه ، وسبتييه ، قد أمدوها بقوة جديدة عظيمة .
نقول : ما هى هذه الديانة الفطرية التى يمتدح المفكرون فى الغرب بأنها الديانة العالمية العالمية المستقبلة ؟

نأنيك بها عن لسان أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف (كارو) فقد قال فى كتابه :
(البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خالق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن الموائم الكونية وعن النوع الانسانى ؛ ووجود روح للانسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان للمادى أمدا لتبدل فيه . وهذه الروح تستطيع إرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله لإخلاقها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحوبة الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيق لساعة الموت بالزهادة . وأخيراً الاعتراف بناموس الترقى ، ولكن بدون فصل ترقى الانسان فى مدارج السعادة للمادية عن المواطن الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » انتهى

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين غير محاولة الرجوع

لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، في الآفاق المهيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطري آت لا محالة ، مثله كمثل كل ما يدعوا الى وجوده للقلب والعقل ، والدين الفطري هو الاسلام بنص كتابه ، وبوجوب أصوله ، فإذا آانس الناس نلصقوا في التمثي اليه ، فذلك أمر طبيعي ، لأن أكثر الناس عوام يحمدون على ما ورثوه ، ويستमितون في تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائية على صهر العقول جيلا فجيلا ، ونفى الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق في الوقت نفسه زداد ذبوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى في الناس من يستقد ما لا يعقل ، وإذا ذاك تحمل الروح الاسلامية في العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمي يتمناه للصالحون في العصر الراهن . في ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنري بيرنجيه) للتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشيء غير مظاهر رمزية للمعاطفة الدينية فتتلاشى الأديان آجلا أو عاجلا كمثل الآثار الانسانية ، ولكن تلك المعاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك ، لأنه يجد الدين الأخير منها ، هو تلك المعاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه في قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبدل خلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك المعاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات ، مشروط فيه الرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير ورفق ، فهو في شرعة هذا الدين الفطري دين ، وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل ، فهو في شرعته كفر . هذا هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ديننا عاما للبشر كافة ، فهل تجد

محيسا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ؟ وهل للبشر عبيد منهما مهما حاولوا ذلك ونسكفوه ؟ فإن كان في العالم أصلان كلا أعمت في البعد فهما ، ازدادت قرباً منهما ، فهما الفطرة والعقل .

أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : إن اليوم الذي يحتفل فيه العالم أجمع بميلاد خاتم المرسلين ليس بعييد ؟

فاللهم صل وسلم وبارك على محمد في الآخرين ، كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم في الأولين ، إنك حميد مجيد : محمد فريد ومجدي

ذم البخل

قال الله تعالى : « فاما من أعطى واتق ، وصديق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى (أى للفضيلة الموجبة لليسر) ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى (أى للردية المؤدية للعسر) .

وقال تعالى : « ولا يحسن الدين يعملون بما آتاهم الله من فضله ، هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ، وثمة ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » . نقول سيطوقون ما بخلوا به . أى سيلزمون به لزوم الطوق في الاعتناق .

وبما هو جدير بالندب الطويل في هذه الآية قوله تعالى « ولا يحسن الدين يعملون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر » ، فإن في صميمها علما جيا . ذلك أن الذي يعنى به الابقاء عن الانفاق يحيل إليه أن ذلك داع الى نمائه ، والواقع أنه داع الى نفاذه . فإن الدين يعنى بأمورهم عن بذلها في المنافع العامة تضيف جماعاتهم وتذل حيل الجاعات المازحة لها ، فيقتضى نظام الوجود أن يستولى الأقوى على الأضعف ويمتص عصارته ، فلا يبقى له ولا يذر . ومن شاء الدليل فليتلأم الأئم التي يبذل آحادها الملايين في سبيل المرافق العامة ، تجدهم لا يزدادون إلا ثروة ، خلافا لأفراد الجاعات الذين يدخرون المال ولا يتفقونه ، فستراهم يتدهورون جهاهير وفرادى في تهور اتفاقية . فإن استطاع مؤسس الأسرة فيها أن يحتفظ بثروته بتقيره على نفسه ، خلفه عليها من ينفقها بددا في أهواء بدنه .

الاحتفال بالمولد النبوى بالأزهر

خطبة إصلاحية جامعة لفضيلة الأستاذ الامام

احتفل الجامع الأزهر في مساء السبت ١٢ ربيع الأول بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فاحتشدت فيه جماهير من العلماء والوجهاء والطلاب يستمعون لآيات من التنزيل الحكيم ، وما وافقت الدقيقة الخامسة والأربعون بعد الساعة الثامنة حتى نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ عبد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فألقى خطبة من لباب الحكمة الاسلامية ، جمعت من أصول الإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى ، فى بلاغة تسترعى الاسماع ، ويبان يستهوى الالباب ، ما المسلمون فى العالم قاطبة فى أشد الحاجة للآخذ به والقيام عليه . ولنا نشك فى أن هذا القيس من السور الذى ألفاه فصيلته على هذه الأصول يسيرى فى الجامعات الاسلامية ، فتستنير به عقول ، وتحيا قلوب ، وتنفثش آمال . قال حفظه الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة على رسوله .

وبعد : فان الأمم تمنى بذكرى عظيما للاشادة بأقدارهم ، وتقدير أمهاتهم ، وفاء لحقهم عليها ، وتذكيرا للعاصرين بأعمال الماضين ، ليحفزوا همهم على الاقتداء بهم ، والسعى لبلوغ درجات المجد التى استحقوا عليها التكريم .

وتختلف هذه الذكريات فى أشكالها تبعاً لاختلاف الأمم فى أمرجتها وميولها وماداتها . وسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فى غير حاجة الى تكريم الناس بعد أن كرمه الله ، فرفع ذكره ، وأعلى قدره ، وخلده اسمه فى كتابه الكريم ، وفى أنواع من العبادات مفروضة وغير مفروضة . فى كل يوم وفى كل لحظة له عند المسلمين تعظيم وإجلال يفوقان كل إكبار وتقدير . ومقام النبي الكريم ليس بالمقام الذى ينال بالكسب ، ولا بالمقام الذى تشرئب اليه الأعناق وتشخص اليه الأبصار ، فهو منحة الله وفضله يختص به من يشاء من عباده الذين أعدم لها تيك الدرجات ، ونفاهم لمثل هذه التفعيات .

فذكرى مولده صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون باحياء سنته ، وإحياء المبادئ السامية والأخلاقى الكريمة التى اتصف بها ودعا الناس اليها . فلا يكتفى أن تتلى قصة المولد وترتل ، وأن

نضاء المصاييح وتنظم ، وأن تلقى العظات والسير ثم تلتسى . فلم يكن صاحب الذكرى قوالا ، بل كان فعالا ، وكان فعله أكثر من قوله . والكلام إذا لم يتبعه العمل ولم يحدث في النفس أثره بحيث يحملها على المصايرة والمنايرة ، كان الايمان به ضعيفا ، أو كان كما يقول أهل النظر : تصورات لا تصديقات .

ولا يكفي المحبوب أن تقول له : إني أحبك ، بل هو يقاضيك تبعات الحب وما يكلفه الحب من المتابعة واحتمال المصائب وتحشم المشاق في سبيل رضا المحبوب : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين .

وما ابتليت أمة من الأمم بشر من كثرة القول وقلة العمل . ذلك هو الداء النوى ، والعقاب الذي يترله الله تعالى على من غضب عليه من عباده ، وحاد عن الجادة وعن السنن الإلهية ، وغفل عن سنن الكون وعن هدى الاجتماع .

الامة الإسلامية مبتلاة منذ أزمان طويلة بهذا ، ومبتلاة بالجبدل العقيم : تجادل في أصول العقائد ، وتجادل في الفروع ، وتجادل فيما هو أقل شأنًا من الأصول والفروع ، راضية بهذا الجبدل ، لاهية عن سر الاسلام وسر عظمتها ، وعن سر دعوة الرسول الأكرم ، وعن مقومات الامم التي لا تستطيع أمة أن تحيا وترفع رأسها إلا بها ، ولا أن تسمع الناس كلتها إلا بها ، ولا أن تجد مكانها في العز والمجد إلا بها .

سحرت بالطعام وبالشراب ، وتلتهت بالأحاديث وبالمظاهر الكاذبة المخادعة ، وانصرفت عن طرق المجد الصحيحة ، وغفلت عن الكون وحما أودعه الله فيه من أسرار ، ومن قوى خلقت للانتفاع بها ، وابتعدت عن التحلي بالعزائم الصادقة والأخلاق القويمة التي كانت حماد الرسول الأكرم في دعوته وإبلاغ رسالته .

ولم تكشف بهذا بل اتقسم أبنائها ولما دوا ، وأقاموا الحروب بعضهم على بعض ، كل له مذهب ينصره ورأى يدافع عنه ، وكل ينظر الى مصلحة خاصة فردية أو قومية أو جنسية أو مذهبية ، فصارت القوى من عوامل فناء الامة لا من عوامل بقائها ، ومن أسباب شقتها لا من أسباب معادتها .

هذا والقرآن الكريم يدعو الى الوحدة ، ويدعو الى رد ما اختلف فيه الى الله ورسوله . وصنهم بالأخوة وقال : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله » فلم يمثلوا أمره ولم يتقوا الله ، بل عملوا على التفريق ، وعلى توسيع شقة الخلاف . ووصف النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر ،

فلم يكن منهم إلا أنه إذا اشتكى عضو رادوا ألمه وسروا نكاته ، واتهموا فرصة مرضه لا تتراع ما بيده .

لم يقف أمر التخاذل بينهم عند التخاذل بين الأمم ، بل تحاذلوا جماعات ، وتحاذلوا أفراداً ، وتقطعت الروابط بينهم ، فلا يعنى المرء إلا نفسه ، لا يبالي في سبيل مجده أن يهدم غيره ولم يقف له في طريق ، ولا يبالي بمن مرض ولا بمن جاع ولا بمن ابتلى ، كأن الدنيا كلها شخصه ، فإذا سلم فقد سلت الدنيا جميعها .

إذا كان الناس جادين وقد آن أوان الحد ، فيجب أن تكون ذكرى صاحب هذا المولد الشريف وافية بالغرض من الذكرى ، محققة لمبدأ الوحدة الإسلامية ، محققة لمبدأ التعاون والتناصر ، وللغرض الاسمي الذي نزل به الوحي وجاهد محمد صلى الله عليه وسلم في سبيله طول حياته . فتؤلف الجماعات من المفكرين والقادة في الأقطار الإسلامية للبحث عن أدواء الأمم الإسلامية وأمراسها ، في الدين والاجتماع والأخلاق والسلطان ، وتنفى في هذه الجماعات أمانة الأفراد بل وأمانة الجماعات والأجناس ، وينظر الى الأمة باعتبارها طائفة واحدة يحددها الاتجاه الى القبلة والصلاة اليها ، فلا ينظر الى جنس ولا الى مذهب ، بل الى وحدة خلق الاسلام عليها ثوبه وجمعها تحت رايته ، فاصطبغت بصيغته ودانت بكتابه .

ولدى الأمة الإسلامية قضايا كثيرة معقدة : قضية الرجوع بالدين الى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراسخين ؛ وقضية التعليم الديني وغير الديني على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب في الحياة ، وما أخرحته العقول من ثمرات ناضجة ؛ وقضية حماية الدين من العدوان والدمرة اليه كما أمر الله بالحكمة ؛ وقضية نظام الأمم الإسلامية وارتباطها ببعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ؛ وقضية الفقراء والصفاء واليأى والمساكين وتدير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة ويقتنع المجتمع بهم .

وهناك قضية هي أم القضايا ، وهي مقومات الأمم الإسلامية التي يجب أن يحافظ عليها ويبنى المجد على أساسها ، وهي قضية دقيقة يثور من حولها ، من قصد أو غير قصد ، خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين ، والمتدينين وغير المتدينين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ، ونظام التقاليد والمادات .

ولدى الأمة الإسلامية ماضٍ يحجر أبواب الفخر والشر في كل ميادين الحياة : في ميدان العلم ، وفي ميدان الفنون ، وفي ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضى والتخلص منه والوراية عليه والخط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضى صلة .

وليس أدعى الى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التي فيها عقوق الآباء

للآباء ، ونكران الجليل وإسكار التاريخ ، وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور .
وهل يستطيع قائل أن ينكر أن لنا أسساً صحيحة قويمة من دين وعلم وتقاليد ومقومات ،
من حقها أن نحافظ عليها ، وأن نعتبرها تراثاً عزيزاً لا يليق أن نبده كما يفعل الوارث السفیه ؟
يحاول بعض الناس هذا مع أن بعض الأم التي ليس لها ماض ، تحاول أن تخلق لها نسباً
بماض مجيد . وبعض الأفراد الذين لهم ذكر نابه بأعمالهم وليس لهم نسب معروف بالمجد
يحاولون أن يخلقوا لهم أنساباً معروفة بالمجد والشرف ، ليحدثوا في نفوس الأبناء شعوراً
بعضمة من حقها أن يحافظ عليها .

من الحق علينا أن نعتبر بام خلت ، وأنم باقية فذقت بماضيها في النار فاحرقتها تلك النار
وأصاب غيرها من الأم شواظ منها ، ثم هي تحاول الغلاص مما وقعت فيه فلا تجد الطريق .
فليعتبر أولو البصائر بعبر الماضي والحاضر ، وليفكر أولو الشأن في الأم الإسلامية ،
فإن الله سألهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .
هذا وأسأل الله أن يديم لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول توفيقه وروايته ،
وأن يجعل عهده السعيد عهد يمن وبركة ، وأن يوفق القائمين بأمر هذه الأمة إلى ما فيه رضاه
الله ورضاه العباد .



ذكرى المولد النبوى الكريم

هو فى الكون نوره وبهاؤه واحد الدهر أنجبت العرايب جاء والكون جهلة وضلال كل قلب فى حقه بتترى واثد البنت يستطبل نفارا لم تزل قلبهم وحدة الدين أرأيت السماء تقطر قوما أرأيت الشفاء وافى مريضا أرأيت الربيع ينظر فى الرو أرأيت الصباح يسم فى السكو إنه أحمد النبيين وافى مفرق الشمس دون مولد قد وضياء القلوب أجدى وأبقى



رب قلب يحور بالشك مورا فاطمات من الصدورة — بوب يكدر القلب إذ بداخله الشك وكذلك النفوس بالشك حبرى



رب ذكرى تبث فى القلب روبا وبذكرى محمد يشرق العسكو قف الى المجد وانشد العمريسفك من ماء الخيال يهبط وحيا



يا بني الدين والحياة جهاد دينكم بالجهاد ثم علاؤه
 صيحة الحق في القلوب تدوى قلام الضلال يطفى بلاؤه ؟
 لن تروا كالهوض بلخلق والدن من همادا يميز منكم بشاؤه
 إن في أنفس الأنام فسادا عبثت في سميها أدواؤه
 فلتكونوا من الفساد أساة إن ذاك المريض طال شقاؤه



في ظلال الفاروق تخطون عالمه عد ظليلا رقيقة أفياءه
 ذاك مام في ظله قد تقضى فتوالت بينه آلاؤه
 ظفر النيل باتصار مبين أخلص السمي للعلازماءه
 والمرأى شيخ مصر المفسدى نافذ الدهن والحما وشاؤه
 فاستجيبوا لقائد لا يبارى بهر الدهر حله وذكاؤه

محمد شفيع السبر

المدرس بكلية اللغة العربية

الشكر على المعروف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .
 وقال بعض الأدباء : من لم يشكر نعمته ، استحق قطع النعمة .
 وقال غيره : من كفر نعمة المفيد ، استوجب حرمان المزيد .
 وقال آخر : من أنكر الصنيعة ، استوجب قبح القطيعة
 وأنشد بعض الشعراء :

من جاوز النعمة بالشكر لم ينحس على النعمة مقنا لها
 لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي ظاهها
 لن شكركم لأزيدنكم لكننا كفرهم ظاهها
 والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والفكر أبقى لها

ذكري المولد الشريف

أميلاد الرسول ، كرمت عيدنا
 دنت بك شرعة الهدى المصلى
 وراحت بإسماك الأيام نشوى
 سنا ، أضى على الدنيا جمالا
 وعقد مكارم ضمنت حلاه
 تلافى فيه أشنات المعالي
 فاشرق رحمة ، وإبسم سعودا
 وطابت مصدوا ، وصفت ورودا
 ترده ، ورحمت لها نفيدا
 وألبسها من النعمى يرودا
 طريف المجد ، والمجد التليدا
 فصار بأفئها مثلا شرودا

ويوم أغل الأيام سيقا
 سرت لسمائه فى الكون رومنا
 ومادت من مهابة عروش
 تولى الله جلوته ، فجلى
 تجلت فيه مكة ، وهى عرس
 أطل على البرية من ذراه
 فما روما ، إذا غفروا بروما
 هنا مهد ، بعرض الله نيطت
 هنا سر الحياة ، هنا هداها
 فذاك العرش لا عرش هواء
 به شئ المباد وما ألدوا
 غدا فى الدهر جوهره القريدا
 أغل الغور ، وانتظم النجودا
 أبت عند الصواعق أن تميدا
 وقيلبه الزمامة والخلودا
 غدت زهر النجوم له بنودا
 محمد ، أكرم الدنيا وليدا
 وما الأيوان ، تياها مشيدا ؟
 عراه ، فراح يخرق الحدودا
 هنا القطب الذى أرمى الوجردا
 تولى النار وأدخ الخديدا
 وشر الناس من أشقى العبيدا

أموه أحمد ذكراك طيب
 طلعت على الوجود وكان قفرا
 وكان العرب فى فترات ضعف
 غيايل فيك لم يحجب سناها
 يفيض أريجها ندا وعمودا
 فعاد الكون بإماما صميذا
 فكنت النصر والفتح المهيذا
 أنلت للأذلاء الصمودا

عذرك من قريس يذهبها رداك وأنت تمنحها الطلودا
بنيت لهم على الأيام مجدا تطاول لن عيود لن يبيدا
كذاك الجهل يصى ماتولى وكان الجهل شيطانا مريدا



بنفس سيد الثقلين تلقى رسالته التجهم والصدودا
أهذا النور تنكره عيون أهذا الحق يحتمل الجحودا ؟
سوافر من بديع الآى غر عن الأفكار حطمت القبودا
وعسل مثل حد السيف همت شريته السود والمسودا
وأخلاق كما رقت شمال وداعت الخائل والورودا
وآلاء كما انهكت غيوث كفلن الأمن والعيش الرغودا
عوارف ليس يحصيهن عد بهرن فلن يقبلن المزودا
غدا الاحلام منها فى جنود إذا عدموا الاسنة والجنودا



شفيت بذكر خير الخلق نفسى ولم أرد المدح ولا القصيدا
ولكن غنت الدنيا احتفاء بمولده فرددت النشيدا

عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة العربية

الحلم وما قيل فيه

الحلم ضبط النفس عند ثوران الغضب . وقد قالت الحكماء : ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الجواد إلا فى الصبرة ، والشجاع إلا فى الحرب ، والحليم إلا فى الغضب . وقال الشاعر :

ليست الاحلام فى حال الرضا إنما الاحلام فى حال الغضب
وقال آخر :

من يدعى الحلم أغضبه لثورته لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) :

الدعوة الى الاتحاد شعار كل مصلح ، ومقصد كل ناصح ، وغاية كل واعظ ومرشد ، ولما تحدى امرء يدعو الى فضيلة ، بل فلما تحدى من يدعو الى سلوك خطية ، واتباع شرعة مهما قام في وجهه مخالف وممانده معاند ، إلا وهو يدعو الى الاتحاد . غير أن الممانعة المختلفين إذا سنلوا : علام يتحد الناس ؟ فسر كل منهم الاتحاد الذي يدعو اليه بالاندماج في خطته والاذعان لرأيه واتباع منهجه ، ويقال له معاندوه بمثل دعوته ، ويفسرون الاتحاد في رأيهم بالاقبال على ما هم عليه وترك ما عداه ، فترام داعيا في أمر مريخ ، وتري دعوتهم غالبا تذهب أدراج الرياح ، وترام قد اتحدوا في أن لا يتحدوا . ذاك أن كلا منهم حين يدعو الى الاتحاد لم يترك أنانيته ، ولم يقصد بالاتحاد أكثر من أن يندمج رأي غيره في رأيه ويترك كل امرئ ما عنده الى ما عند ذلك الداعي ، وأنى له ذلك وعند كل منهم من الاعتماد بنفسه والحصرص على تقديس رأيه ما عند صاحبه سواء بسواء ؟

فهل كانت دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد على هذا الوجه الذي تسكرو له النفل وحق له أن يفشل وأن يفشل ؟ لا لا ، ما كان مسلكه صلى الله عليه وسلم هذا المسلك ، ولا نحو هذا المنحى ، ولكنه سلك مسلكا مهيذا ، واتبع طريقا معبدا ، أوضحه بالبينات والهدى ، ودعا الجميع الى السير فيه عن بينة وبصيرة ، ويرهن عليه بالبرهان الساطع والحجة الدامغة ، فإذا السالكون فيه قد اتحدوا من تلقاء أنفسهم ، وإذا هم قلب واحد واتجاه واحد ، ووجدان واحد ، وإذا هم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحى والصبر ، وإذا هم كالبنيان يهد بضعة بضمها .

هاك شريسته التى أوحاها اليه ربه وأمره أن يبلغها لكافة المخلائق ، فانظر اليها فى أصل عقيدتها وفروع عاداتها وأنواع معادلاتها ومظاهر أخلاقها ، انظر الى كل قسم من ذلك على حدة ثم استوضحها جملة واحدة ، وانظر اليها متناسقة وبعد ذلك احكم عليها بما تراه من حكم مادل فى جملتها وتفصيلها .

تأمل فى خطابه للمعادين المعتزين بما أوتوا من كتاب أنزل عليهم ، فهم لا يتفكرون بدعوى

اليه لا شئ سوى أن في يدهم كتابا، فلا تسمح قومهم بأن يتركوه الى غيره مهما وضع الحق وقامت الحجة، انظر الى خطابه لهم تجده يقول فيما أوحى اليه به وأمره به: «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله» ثم يقول عقبها: «فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» فإذا ترى في هذا؟ تراه وقد اطرح الانانية، واطرح استمسك كل واحد بما عنده لجحد أنه عنده، وقال: «تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم» لا على وجه أسك خضعتم لنا أو أنا خضعنا لكم، وإنما على أننا جميعا خضعنا لاله واحد لا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئا، فتمثل الأمر لأنه أمره لآلته أمر بعضنا بعضا، فإذا كان هذا الأمر قد علمتموه عن طريقنا فلا أنه قد أمرنا أن بلغكموه، وأيدنا وصدقنا في دعوانا بما شاهدتموه من آيات بيّنة وحجة قاطعة لاتخذ قومكم الى الظعن فيها سبيلا، ولا يجد الشك معها الى النفوس المعكرة مسلكا، فإذا يحول بينكم وبين أمر ربكم؟ تعالوا وأطيعوا الرسول لا لأنه هو فلان بن فلان، وإنما لأنه رسول الله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وعلى هذا تجدد الانانية التي من شأنها أن تحول بين المرء وبين الاذعان للدعوة والاستجابة لما قد زالت وقصى عليها.

وينخرط في هذا السلك ما تقرأ في قوله تعالى: «إن الدين آتونا والدين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وصل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ماذا تفهم منها بعد التأمل الصحيح والتفكير الصادق؟ إنك حين تأمل فيها وتفهمها حق فهمها تجدها تتاديك بطراح الانانية وإظهار أن المسألة ليست مسألة نحن، وأنتم، وهم، وأمثال ذلك مما يستمسك فيه كل فريق بما عنده، حتى يقال عنهم: كل حزب بما لديهم فرحون، وإنما الأمر أمر القانون العام والحجة الواضحة التي يجب أن تكون الحكم الفاصل بين الجميع، وهو أن من صدق عليه أنه آمن بالله حق الايمان، وآمن بيوم الجزاء حيث لا يفيد المرء إلا ما عمل، وقام بالعمل الصالح حق القيام، فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن يلحقه، فأيضا يتحقق فيه هذا الوصف فهو صاحب هذا الحكم حتما، هل تجد من ينفر من حكم هذه القضية الصادقة العادلة؟ كلا، إذا فتعلوا مرض إيماننا بالله وإيمانكم الذي تزعمون، على محك النظر الصحيح. إننا نجد أنفسنا قد أسلنا أمرنا لله ورضينا بكل ما حكم الله، وامتنلنا كل ما أمرنا به الله، ولكم أنتم اتخذتم الحكم أهواءكم، وقلتم: «إن أوتيت هذا نخذه وإن لم تؤتوه فاحذروا»، وأنتم ببعض وكفرتم ببعض، إذا ليس الممثل عندكم هو أمر الله، وليس إيمانكم هو الايمان بالله، وإلا لا طرد الامتثال في كل ما قامت الحجة عليه أنه أمر من الله، وإذا فأنتم لم تؤمنوا حق الايمان باليوم الآخر، وإلا لحفرتم خطر الجراء العدل لمن حالف أمر ربه مالك يوم الدين، وإذا فلم يكن القصد في حملكم الى الصالحات، ولا صالح الا مراضيه لكم ربكم وأمركم به المهيم عليكم، وإنما أنتم تحييون داعي أهوائكم وتقومون بما مالت اليه قومكم.

هذا نموذج واضح جد الوضوح في بيان كيفية الدعوة الى الله ، وأنها كانت تظهر على وجه اطراح الانانية ، وأنها إنما كانت توجه الى الحق من حيث هو الحق بقطع النظر عن نام به ودعا اليه ، وهي أشبه شيء بقولهم انظر الى ما يقال لا الى من قال . وهل بعد هذا منهج يرفع الخلاف وأسبابه ، ويمكن للاتحاد في النفوس فضل تمكين ؟

تعال وانظر متى بعد ذلك في فروع العبادات ، تجدتها قد بنيت على ما يثبت روح الاتحاد في القلوب ويمكنها من النفوس . وما نحن أولاء نجلوها عليك في أركان الاسلام الحسة :

١ — « شهادة أن لا إله إلا الله » :

ماذا تقول في قوم جزموا حزم اليقين ، وعلموا علم الشهود أن إلههم جميعا واحد لا يعبدون إلا إياه ، فهم يشعرون جميعا بأنهم خاضعون أمام عظمة واحدة هي مصدر وجودهم ، ومنشأ ما هم فيه من نعم جلت أو دقت ؟ إنها أكبر داع الى توحيد قلوبهم ، وتوحيد اتجاههم ، وتوحيد غايتهم ، وهي الفوز بالزلى إليه واكتساب مرضاته .

٢ — « إقام الصلاة » :

ماذا تشهد في جموع متصافاة مترامة كالبنيان تنطق بلسان واحد « الله أكبر » وتقوم في وقت واحد بتحميده وتحميده ، وتوجه اليه خالص العبادة ، وتساله كلها في آن واحد أن يمنحها معونته ، ويهديها اليه الصراط المستقيم ، فإذا ركعت خضوعا لعظمته كانت جميعا في خضوعها ، وإذا استكانت أمام عـ.و مجده كانت جميعا في استكانتها وذلتها ، وإذا وقفت قائمة لديها مطيعة لأمره كانت كلها معا خاشعة قائمة ، ثم هي تنحى الى حية واحدة أمرها ربها أن تنحى إليها ، أليس الاشتراك في هذا كله مدعاة الى اتحاد الاتجاه ، واتحاد الأعمال والأقوال ، وبالتالي يشر اتحاد القلوب ؟

٣ — « إنشاء الزكاة » :

ماذا تراه في قوم تعاطفوا وتراحوا ، وشارك فقيرهم غنيهم فيما أنعم الله عليه به من رزق فأخذوه من يده حلالات طيبا : هذا يؤدي أمانة ائتمنه الله عليها ، وهي حق الفقير في ماله ، طيبة بها نفسه ، وهذا يتسلم وديعة من الوديع من طيب خاطر فيتمتصان وكل منهما قد امتلأ قلبه محبة نحو أخيه : هذا بما استفاد من رزق ، وهذا بما كسب من أجر ، وكلاهما بما ساد بينهما من عطف ، أليس في هذا أكبر داع الى اتحاد القلوب ؟

٤ — « صيام رمضان » :

يجب انقصور بآمالك الله قوما قد دعوا الى توحيد أذواقهم ووجدانهم الخصوصية : فسلطوا أن يكفروا عن مشتهياتهم في وقت واحد ، وأن يتناولوها في وقت واحد ، كم يكون

بينهم من الشهور بأتحاد الوحدات واتحاد الميول والاتحاد في المسح والحرمان ؟ إن من جرب حالة قوم جهمتهم ظروف خاصة تأسوا فيها معا مرارة ما في الحياة وأفرج عنهم دفعة واحدة فنعيموا معا في وقت واحد، يجد أنهم اعتبروا هذا الاشتراك جامعا بينهم لا يزالون يذكرونه طول حياتهم ولو صادفهم في العمر مرة ، فكيف وهذا يتكرر على المسلمين في كل عام مرة بل في كل عام ثلاثين مرة ؟ إن قليلا من الانتباه يجعلك هذا المعنى بمنتهى الوضوح إذا كنت من المنصفين .

• — « حج البيت من استطاع إليه سبيلا » :

ناهيك بهذا المؤتمر العام يعقده المسلمون في كل عام ليشهدوا منافع لهم ، وليطوفوا بالبيت الحرام ، هل يخفى عليك ما فيه من توكيد الربط بينهم والوثام ؟ سبحانه لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، والحمد لله الذي آلم علينا بنعمة الايمان والاسلام . أما إذا نظرت الى قسم المعاملات بين الناس فيكفيك منه اجتلاء فاحية عامة فيه ، هي أنه ينشأ على العدل ، ودعى فيه الى الفضل ، وأتى اتحاد يثبت من بين إقامة العدل وزيادة الفضل ؟ ارجع بنفسك أنت الى أثر هذين المبدأين الجليلين فتعرف أنت بنفسك أكثر وأكثر بما نستطيع أن نسطره لك في هذه الكلمة الوجيزة .

ولا يقتصر هذا على قصة المعاملات المدنية ، بل نجد ماريافا في باب روابط الأسرة والحياة المنزلية ، انظر الى أحكام الزوجين وما دعوا اليه ، واتل إن شئت قوله تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ثم انفتحت الى باب نفقات الأقارب وما تضمنه من مغزى ربط القلوب وتنجيب أفراد الأسرة بعضهم لبعض ، وتنجيب كل منهم أن يكون الباقي في نعمة ويسار ، إما ليسكني مؤنته أو يستفيد معونته . بل انظر الى أحكام الجنائيات والمقاصات تجد العدل في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وفي قوله تعالى : « فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا » وتجد القصد يتجلى في قوله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » وتجد ما قد تجليا معا على وجه يأخذ بالآداب في قوله جل شأنه : « وإن طابعتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

هذا قليل من كثير من دواعي الاتحاد في المعاملات ، وكلما تأملت في باب منها وجدت ما يملأ قلبك اقتناعا ، ونفسك هسدي ونورا . والاساس فيه كما قلنا تقرير العدل والترغيب في الفضل ، ولا يكون الفضل فضلا مثمرا إلا إذا نشأ من رغبة واختيار .

فاذا أنت رجعت الى الأخلاق التي بعث صلى الله عليه وسلم لتسميها فكم يتجلى لك هذا واضحا جليا . اقرأ إن شئت قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ومتى تعارفوا تألفوا ، واقرأ ما يحفظ من آيات في سورة الحجرات .

وليتك تراجع ما نشرناه على صفحات هذه المجلة من تفسير هذه المودة الكريمة . واعترض ما شئت من مثل حديث « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسله الخ » وحديث « لا تحاسدوا ولا تباؤوا ولا تناجسوا وكونوا عباد الله إخوانا » الى غير ذلك مما لا يكاد يأتي عليه الحصر في مثل هذه الكلمة .

نعم : لقد جاءت الدعوة الى الاتحاد ، وقررت عوامل تسميته في النفوس مستفيضة متفشية في كل أبواب الشريعة الفراء ، وليس لمعترض أن يقول : فإبنا نرى المسلمين متفرقين إلا قليلا منهم ؟ فإنا نحبيه بأن هذا كقولك : فإبنا نرى الكثير من المسلمين قد تركوا العمل بأحكام دينهم وغرتهم ملاهى غيرهم ؟ والجواب عن هذا وذاك أن مرجع هذا الى قوسهم واتباع أهوائهم ، لا لنقص في ضوء دينهم ونور هديهم :

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر
نسأل الله أن يوفقنا برحمته الى اتباع هدى شريعته ، والعمل بسنة نبيه ، إنه هو الفعال لما يشاء

ابراهيم الجبالي

فضيلة الحياء

روى أبو سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والخفاء في النار » .
وقال بعض الحكماء : « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .
وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياؤك فأحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

يظن بعض الفضل أن الحياء ضعف في النفس ، والحقيقة أن عدمه هو الضعف ، فإن التوقع لا يزال يدفع صاحبه لتشيان التجللات حتى يسقط اعتباره ، ومن انتهى الى هذه الدركة تلك لا محالة .

عظمته صلى الله عليه وسلم

وشىء من سيرته الباهرة وآياته الظاهرة

تعرف عظمة الرجل بتحليل نفسيته الكبيرة، وأخلاقه الرفيعة، ثم بآثاره الخالدة. ولا نجد نفسية أعظم من نفسيته عليه السلام ولا آثاراً كآثاره. وكل من تتبع شريف أحواله وما اشتملت عليه سيرة حياته، وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سياسته ولطف دعوته، ورفيع حكمته، وعلمه بمجامع السعادات، وسوقه إليها بالوسائل المختلفة والطرق المعجبية التي تفوق كل ما جاء في حكمة الحكماء وسير العلماء، وما نهم له من سياسة الخلق ونفیر الشرائع وتأصيل الآداب الكريمة والشيم الحيدة، إلى فنون العلوم المختلفة دون تعلم ولا مدرسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى العلماء والحكماء، بل هو نبى أمى لم يعرف شيئاً من ذلك، حتى شرح الله صدره وأبان أمره، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً، وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطئه يمينك إذا لارتاب المبطلون». بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون». «وكذلك أوحينا إليك رؤىنا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لَنَهْدَى إِلَى صراط مستقيم». «هو الذى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لَنَ ضَالِّينَ مبينين». «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

تقول: كل من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم دراسة مدققة، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة تامة، لم يخالفه أقل ريب في أنه واسطة عقد الكمال، وأنه سيد الأولين والآخرين، وأفضل الخلق أجمعين. على أن من يريد بيان كماله واستقصاء أحواله فإنما يحاول عد ما في البحر من درر، أو استقصاء ما في السماء من نجوم:

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بعم
ولتقرب لك ذلك بمض التقريب ، ولنفضله شيئاً من التفصيل ، فنقول :
إن فيما أتى به من الأوامر الحكيمة التي تكفل مصالح الدنيا والآخرة ، وفي إرشاده
إلى ما يكفل سعادة الأبد وراحة المجتمع وصلاح العيش ، وفيما بيّنه من الحقائق وهدى
الخلايق ، وفيما أتى به بما يعرفه العقل جملة ويميز عنه تفصيلاً - ما يعلم به للنصف البصير
أنه من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي يابن بها الخلق ، فكل ما يعلم الناس أنه حق
وأنه خير فهو أعلم منهم به . وهو بمد ذلك أنصح الخلق للخلق ، وأبر الناس بالناس ،
وأصدقهم فيما يقول ، وأقومهم فيما يفعل .

وبعبارة أخرى نقول : إنه جمع مالم يجتمع لأحد ، ولم يمد مثله في السنن الطبيعية
لإنسان . فإن من نظر إلى تديره الحروب متلا وعرف أنه أتى فيها بأحسن الخطط ،
قال إنه رجل حرب وجه كل حمة وفكره لمبالدة الأعداء ورسم خطط الحروب ، ومن
كان كذلك لا يكاد يحسن غير ذلك .

فإذا نظرت إلى زهده وعبادته حتى تورمت قدماءه ، وكان يسمع لصدره أزيز كأزيز
المرجل من البكاء في الصلاة ، وكان يطيل السجود حتى تظن عائشة أنه قدماء ، تقول
إنه رجل ترك الدنيا وما فيها ، فهو جاهل بها لا يحسن تديرها ولا العمل لها بوجه من
الوجوه ، فضلاً عن إعداد الوسائل لقوم جهال متفرقين متوحشين لأن يكونوا خير
أمة أخرجت للناس ، فأجاب ، ولا ثقل وتقه ولا تقهر ، مادامت متمسكة بما جاء به .
وإذا نظرت إلى وعظه الذي يأخذ به جامع القلوب ، قلت إنه لا يحسن غير ذلك .

وإذا نظرت إلى حسن تربيته وتعليمه الذي جعل السيدة عائشة تكون من أعلم
العلماء ، بحيث نجرؤ على أن نخطف "عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس
وعم من أكبر الصحابة وأعلمهم ، وقد مات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة ، وقد صار
بفضل هذه التربية الحكيمة وتلك الأساليب العجيبة أبوهريرة أكبر من رويناه عنه
الشرعة في أربع سنين .

إذا نظرت الى ذلك كله قلت إنه من أكبر أساتذة علم النفس، حيث جاء بتلك النتائج الباهرة التي لم تعرف لأحد من علماء التربية وأساتذة علم الاجتماع حتى الآن. بل نقول: كان يجيئه الأعرابي فلا يمكث معه إلا قليلا من الزمن حتى يرجع عالماني نفسه معلما لقومه.

وإذا صادفك التأييد ونظرت الى ما كان من تأثيره في الأمة العربية، رأيت العجب المعجاب، فقد تبدلت طبائع العرب على اختلاف قبائلهم وزعامتهم بهدايته صلى الله عليه وسلم: من الظلم الى العدل، ومن الجمل الى العلم، ومن الفسق الفاحش الى العدل العظيم الذي لم يبلغه أعظم الفلاسفة، وقد أسقطوا كلهم أولهم وآخرهم بفضل تعاليمه صلى الله عليه عليه وسلم طلب الثأر، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له، صحبة الإخوة المتعابين دون خوف يجمعهم، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم، ولا مال يتمتعون به.

وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وليس يغيب عنك أن جمهور أتباعه غرباء من غير قومه، لم يمتهم بدنيا ولا وعدم ملك، بل بأيهم على ألا ينازعوا الأمر أهله، وأن يوطنوا أنفسهم على الأثرة عليهم، ولم يفعل ذلك لأقاربه أنفسهم، ولا ترك لهم ميراثا يورث عنه. (وهذا لا يتكره أحد من الناس). وخلاصة القول أنه صلى الله عليه وسلم لم يشغله ظاهر عن باطن، ولا إصلاح الدنيا عن إصلاح الآخرة، ولا ما بهم النفوس والأبدان عما يجمع الأرواح والأسرار، ولا موجبات الغضب عن استعمال الحكمة (ولا غرو فهو ينظر في الأشياء بنظر الله فسيان حربه وسلمه).

ثم انظر بعد ذلك الى ما جاء به من مجامع السعادة للفرد والمجتمع، فتراه أوصاك بخاصتك من أهل بيتك وأقاربك، ثم أوصاك بميرانك والأبعد عنك، ثم على المسلمين وأهل الدمة، ثم أوصى الرئيس أن يرحم المرءوس، والمرءوس أن يطيع الرئيس.

ومما ينبغي أن نعرفه من حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعمل الشدة في موضعها والرحمة في موضعها ، ولكنه متخلق بأخلاق الله الفائل : «سبقت رحمي غضبي» . الى غير ذلك مما ينبغي أن يوضع فيه كتاب مخصوص . وهذه أنظار واسعة لا يتأني في العادة أن يحيط بها إنسان ، وحكمة عالية تضع الأشياء في مواضعها بموازين القسط الدقيقة ، وأكثر الحكماء إن أصابوا التشريع لم يمكنهم استعمال الحكمة ولا القدرة عليها عند التنفيذ والتطبيق ، فقلما يطابق العلم العمل ، وقلما يطابق العمل العوالب ، وقلما يستطيع الإنسان للضغط على نفسه في ظروف كثيرة ، وقلما ينجو العقل من تلبس الهوى وجهل النفس وساطان الشهوة التي ترين القبيح حتى تغفل العقل بغطاء كثيف لا يكاد ينفذ منه بصره الى الحقيقة (حبك الشيء يعمي ويصم) وإذا لا يستمد العقل إلا من العاطفة ، وتكون هي السيطرة عليه العملية له ، فلا ينظر إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها . ولديك أبواب المواطف من الأحزاب المختلفة في الدين والدنيا .

وبالجملة فسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تديرها تقضى بتصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله حقا ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته عليه السلام لكنى . فإنه صلى الله عليه وسلم نشأ في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ، ولا خرج عن تلك البلاد إلا خرجتين : إحداهما الى الشام وهو صبي مع عمه الى أول أرض الشام ثم رجع ؛ والأخرى أيضا الى أول أرض الشام ولم يطل بها البقاء ، بل رجع بشهادة حبر من أخبار أهل الكتاب بنبوته عليه السلام وهو بحيرا الراهب ، وحبر آخر وهو نسطورا الراهب كما هو معروف .

وناهيك ما وصلت اليه أمتة بفضل تلك التربية ، حتى إنها في أقل من عشر سنين بعد وفاته فتحت أعظم ممالك الأرض إذ ذاك (مملكة الفرس ومملكة الرومان) . وفي أقل من قرن وصلت من آسيا الى الهند والعين ، ومن إفريقيا الى أرض مراکش ثم تخطتها الى أوروبا فأسست بها تلك المملكة الفيعاء (مملكة الأندلس) ، ووصلت

الى بر دو من أرض فرنسا ، الى غير ذلك مما دهش له التاريخ وعجب له فلاسفة أوروبا ، وكل ذلك بفضل تلك الترية النبوية الحكيمة .

وقد قال جوستاف لويون الفرنسي في حقهم وهو من أعظم فلاسفة أوروبا : « إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شذ العرب فوصلوا الى الاستقلال في جيل واحد » . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحا أعذل ولا أرحم من العرب » .

وقد أذكرني ذلك قول صاحب الحمزية في أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نواهة فقراء علماء أئمة أمراء

ثم تقول بعد ذلك :

إن قوانين العالم المتحدين الى الآن لم تصل الى تلك الغايات السامية ، ولا أنت بتلك السعادة المنشودة ، ولا أورتتنا هنا ، ولا صفاء . بل يمكننا أن نقول :

إن تلك القوانين وهاتيك المدينيات الفاسقة مازادت العالم إلا شقاء وبلاء . على أن سبب تهمزتهم من كبوتهم واستيقاظهم من نومهم وإنقاذهم من جهالتهم إنما هو علم المسلمين والاحتسكك بهم كما هو معروف من تاريخ الأندلس وتاريخ الكنيسة وتاريخ الحروب الصليبية ، فكانت القرون الوسطى أو القرون المظلمة على ما يقولون في ذلك العهد عندم لا عندنا (وإن كان شبانتنا بكل أسف لا يعرفون ذلك لأنهم جهلوا تاريخ آباؤهم ونبغوا فيما جاء عن الأجانب فناء فيهم وافتتانا بهم) : فإن مدينتهم لا تعنى إلا بالماديات . فمورها الذي تدور عليه هو المادة ، فنها يبدون واليها ينتهون . أما إصلاح النفوس وسعادة الانسانية ، وراحة القلوب وهدوء الأفكار ، والتنعم بتلك الإحساسات الشريفة والملكات الفاعلة ، فهم بمنزل عنها ، بل سرت عدواهم اليها ، فأقترت نفوسنا من فضائل ديننا وآداب أسلافنا ، ولم تصل أيدينا الى مثل دينهم وقوتهم واتحادهم ونشاطهم ،

فأصبحنا مستعبدين وقد كنا السادة، وجاهلين وقد كنا العلماء، وأذلة وقد كنا الأحرار !
وقد شط بنا القلم، ولكنها نفثة مصدور، فلنرجع الى ما كنا فيه، فنقول :

إن تشريعه صلى الله عليه وسلم لم يصل اليه تشريع الى الآن وقد مضى عليه أربعة عشر قرناً تقريباً. ذلك التشريع الذي تكفل بإصلاح النفوس والأبدان، وضمن سعادة الدنيا والآخرة، وحرّم على أبنائه أن يكونوا أذلاء، فقال : « وفي العزة ولرسوله والمؤمنين » وقال في وصفهم أيضاً : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين »، وقال لهم بعد ما سلّحهم بتلك الأسلحة وحلّاهم بهاتيك المكارم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »، وقد قال في آية أخرى في وصفهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ».

وما أبهر هذه الآية في نفسى ! فإنها تشير على ما بها من إيجاز الى ما يجب أن تكون عليه الأمة مع أعدائها، وقد أشير الى ذلك بقوله : « أشداء على الكفار »، وإلى ما يجب أن يكون قانونها الداخلي بين أبنائها. وقد أشير الى ذلك بقوله : « رحماء بينهم »، وإلى ما يجب أن يكون بينهم وبين الله، وقد أشير الى ذلك بقوله : « تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً »، فإذا بقي بعد هذا أصلح ظواهرهم وبواطنهم، ثم أرشدنا الى ما يجب أن يعملوا مع أعدائهم، وما يجب أن يكونوا عليه فيما بينهم، وما يجب أن يتحلوا به أمام خالفهم. وكلم للقرآن من إيجاز وإعجاز :

وقد أذكرني ذلك قول سديو الفرنسي : « لو وجد المصحف في فلاة لقلنا إنه كلام الله ». وكلم للنصفين منهم من شهادات لدين الاسلام ونبي الاسلام :

ويلتحق بذلك معجزات طيبة وعلمية لا يمكننا أن نشير إليها إلا إشارة وجيزة . فإن الذي حرّمه كلهم الخنزير مثلاً تبين أن فيه ضرراً كبيراً . فقد عرفوا الآن أن فيه بهيئاً كثيرة، وأنه يولد الدودة الوحيدة . ووراء ذلك شيء كثير كالخمر الذي حرّمته أممنا لما عرفت أضراره الكثيرة (والخمر تكفى عندنا بأمر الخبائث) .

ومن تلك الآيات العلية قول القرآن : « وأرسلنا الرياح لواقح » . وما عرف تلقيح الرياح للأشجار إلا من عهد قريب . وقوله : « ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » . ولم يكن في ذلك العهد شيء أصفر من النذرة وإن كانت الميكروبات التي عرفناها أخيراً هي أصفر من النذرة . وكقوله : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ولم يعرف أن في النباتات ذكراً وأنثى إلا منذ عهد قريب : « سبعان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وبعد : ففي القرآن من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه المعب ، حيث يعبر بالمبارات التي تسير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ في تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد نسب لمفسري الآيات لالها ، ووُجدت هي أكثر انطباقاً على ما قضي به العلم المعص والاكشاف الجديد ، مما يدهش اللب ، وينطق بأنه ما أنزله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض .

أفلا يحق له أن يقول بعد ذلك : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ؟ وإني أستعطفك بملك وإنصافك أن تنظر في هذه الآية نظر الباحث المدقق حتى تعلم أن مثل ذلك التحدى لا يجوز أن يكون إلا من الله تعالى العالم بكافة الأشياء وما عليه عباده من القوى والقدر . ولا يتصور أن يقول ذلك مخلوق ولا يتحدى جميع الخلق بمثل هذا عاقل ؛ فإن العاقل لا يعرض نفسه للهزم والسخرية بتحدى الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ومن هذا القبيل في الدلالة على صحة دعونه وصدق رسالته قوله : « يحدونه مكتوباً عندم في التوراة والإنجيل » ، وقوله في حق أهل الكتاب : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . وليس يعقل أن يعتقد مثل عبد الله بن سلام وهو من أكبر علماء التوراة كذب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ثم يؤمن به ، أو يعتقد نصارى نجران

كذبه ثم لا يحييوه الى الباهلة ، بل ليس من العقول أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهانا على كذبه فيخاطبهم والتسوية بين أيديهم بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوجههم ويقرهم ويشافهم بأنهم يحدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . ولا من للتصور أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، إلى غير ذلك مما ينفرم غاية التنفير ، ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم (والكاذب ضعيف حتى عند نفسه). ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول السفهاء وأكبر الجهلاء ولطعت فيه أعداؤه ، وما أسرع ما كان ينتفض بناؤه . إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه .

آية أخرى (وما زيارهم من آية الله أكبر من أمورها) :

ومن عيب أمره وبديع حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يأخذ القلوب الى الله تعالى ، ويملا النفوس رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه ، ومع ذلك يرغب في العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التي أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التي ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة ، كما قل في حق الذين خدموا إخوانهم في السفر في يوم شديد الحر : إنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يحمل ذلك للصائمين المتعبدين في ذلك اليوم . وقد ورد موقوفاً أو صرفوا : « اعمل لدنياك كأنك تميش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وقال تعالى : « فامشوا في مَنَازِكِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » . ولكنه مع هذا حوّل كل شيء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شيء عند المسلمين طاعة بفضله هذا التعليم العالي ، وأصبح من المقرر أن العمل للمتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا صلى الله عليه وسلم بذلك بين مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة على أتم الوجوه . وفي الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ، ودنايا الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له إن لم يكن ذلك في الدنيا كان في الآخرة .

وقد أذكرني هذا قول بعض العلماء : لم يبق بعد بمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلاق فاسدة أصلاً ، لأنه صلى الله عليه وسلم أبان لنا عن مصارفها كلها : من حرص وحسد ، وشر وبخل وخوف ، وكل صفة مذمومة . فنأجراها على تلك المصارف عادت كلها مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم . فإذا صرفت ما فيك من الحرص والطمع إلى اكتساب الدرجات وفعل الطاعات ، وما فيك من الحسد والمنافسة إلى التنبؤ في العلم والحكمة وإحراز الرزق عند الله تعالى ، وما فيك من الغضب وبغية الانتقام إلى أعداء الله وبذل الوسع في سبيل الله لا لعلاء كلمة الله ، وما فيك من شهوة السرف إلى صلة الأرحام وإغاثة الملهوف ومواساة الجيران والأخوان الخ ، كنت شخص الفضل ومثال الكمال ، وعادت هذه الرذائل فضائل ، وتلك المنكرات وسيلة لأعظم الطاعات وعظيم الدرجات .

وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم لمن ركب دون الصف : زادك الله حرصاً ولا تعدم . فمفرك بذلك فضيلة الحرص وأبأن مصرفه الذي ينبغي أن يكون فيه . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير ، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويمله الناس » . فانظر كيف وجه من فيه غريزة الحسد إلى أي ناحية وصرفه عن بقية التواحي . وغريزة الغبطة التي يذكرها العلماء في شرح هذا الحديث هي بمينها غريزة الحسد ، وإنما غايتها بصرفها لغير مصرفها ، وتوجيهها إلى غير وجهتها .

هذا وقد حثنا صلى الله عليه وسلم على التزام نقطة الوسط التي هي نقطة الكمال ، وحذرننا من الانحراف عنها إلى الإفراط أو التفريط ، فتراه يقول : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » ويقول : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ، ويقول : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ،

ويقول : « إن الدين متين فأوغل فيه برفق » ، ويقول : « إن النبت لا أروضا قطع ولا ظهرا أبق » ، ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه المجالة .

وبعد : فإن الأمم التي يسمونها راقية لم تأت في باب العدل والساواة والحرية التي يتمدحون بها إلا بدعاوى مجردة وفضايا كاذبة . وليس المهدي يعيد من تلك الطغطنة التي كانت لشروط الدكتور (ولسن) وما سارت عليه بعد ذلك جمعية الأمم التي تمثل خمسا وسبعين دولة ، وما إيمانيه للعالم من جراء عدالتها وإنصافها . فانظر ذلك وقارن بينه وبين ما يقول القرآن : « يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، وقوله تعالى . « ولا تجرم منكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تمتدوا ، وتماونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » ، وقوله : « وإما تخافن من قوم خيانة فأنذرهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » ، وقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » الخ .

وانظر الى قصة عمرو بن العاص وولده عند ما ضرب رجلا بمصر من السوق فشكاه لعمربن الخطاب وقال : إنه ضربني ، ثم قال : اذهب وأما ابن الأكرمين . فأعطاه عمر الدرة وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين . فقارن بين هذا وبين ما تراه وتسمعه . وقد قال جوستاف لوبون : « لم يعرف التاريخ فاتحا أعذل ولا أرحم من العرب » كما قدمنا . ويعجبني قول غادى : « إن أوروبا اليوم لا تمثل روح الله ولا روح المسيحية ، ولكنها تمثل روح الشيطان ، وإنما يفلح الشيطان أكثر ما يفلح حينما تلوك شفاته اسم الله ، وإن أوروبا اليوم مسيحية بالاسم ، وفي الحقيقة لا إله عندها إلا إله المال »

هذا وقد تعرف أن للفقراء نصيبا من الزكاة يأخذونه من الأغنياء فهرا سيف الشريعة الإسلامية . يقابل هذا أن للأغنياء نصيبا من الربا يأخذونه من الفقراء يأخذونه فهرا بسيف القوانين الأوروبية . فقارن بين الأمرين ، ووازن بين الطريقتين :

ولعمري إن خروج هذا النبي الكريم الذي أتى بتلك السعادات كلها من تلك البيثة، وهي على أسوأ الأحوال، معجزة كبرى، وآية عظمى لدى العطاء والحكام.

ومن عجيب أمره وشريف خلاله التي خرقت السنن المعروفة، أنك ترى النفوس تتكبر وتعاظم بأقل الأشياء، وتراءى صلى الله عليه وسلم مع ذلك كله يتواضع شكرا لله، ومعرفة بمظنة الله، واعترافا بفضلته عليه. وقد كان يطأ طي رأسه يوم فتح مكة تواضعا لله، حتى إن رأسه ليكاد يمس رحله. وكانت المعجوز من نساء المدينة تكلمه في الطريق فيقف لها حتى تقضى ما أرادت منه، وربما انطلقت به الى حيث يريد.

وكان ذلك من دلائل نبوته عند عدى بن حاتم، فإن ذلك من شأن الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا (بخلاف الملوك وأهل الدنيا).

آية أخرى هي أعجب منه كل ما سمعت :

ومن عجيب أمره الذي يدهش الباحثين أنه يشير الى الأسرار الغامضة والمعلوم العالية بما لا ينفر منه العامة، بل ينتفعون بطواهره وجها من الاتضاع، ويعرفه الخاصة، وربما كان خفيا لا يكشف إلا بعد زمن طويل كهذه المسائل التي كشفها العلم حديثا مما أشرنا الى بعضه، فوجدناها لا تنافي القرآن ولا تجافي ما جاء فيه، بل وجدناه أشار لها إشارة خفية أو ظاهرة، ولا نجد في مسألة من تلك المسائل صرح فيها بنص يقوم الدليل على خلافه، مع أن كل عالم وفيلسوف إذا أراد أن يبين ما في نفسه لم يمكنه أن يسلك هذه الطريقة التي تنفع العامة والخاصة جميعا، ولا يتسنى له أن يظفر بهذه المبارات التي لا تمنحها أذواق العامة ولا تصادمها المعلوم الفلسفية ولا المكتشفات المستقبلية. (ومن ذا الذي يكون فرحا بنتائج فكره ولائذ عقله ثم لا يفصح عنه إفصاح المتبحرين به المتبحرين بالوصول اليه، فيكون محصورا في حدود ضيقة لا يتخطاها بوجه من الوجوه؟ اللهم إن هذا هو المهود في البشر المعروف في نوع الانسان).

أما ذلك الذى ينطبق على ما يقرره العلم بعد مئات السنين ، وهو فى الوقت نفسه مشتمل على ما ينفع العامة وبغيدهم تطميرا وتنويرا ، فلا يعقل إلا من العليم الحكيم . ولمصرى إنها لآية كبرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن عجيب أمره أنه نص على أن فى القرآن حكما ومتشابهات ، وأن للتشابه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم وقد أمرنا أن تمسك بالحكم ولا تعرض للتشابه ، فأدى بذلك حق العلم من جهة ، وحفظنا أن تقع فى الزيف من جهة أخرى . وما ذا علينا أن نتوسع فى التشابه أكثر مما قالوا . وبالضرورة لم ينزل ذلك للتشابه فى القرآن عبثا ، وحاشاء من العبث ، وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فن أكبر آيات القرآن أن كان فيه المحكمات والتشابهات ، لأنه لو جاء على غير هذا الوجه لم يناسب من الأزمان إلزامنا واحدا ، وقد جاء للأزمان كلها وللناس كلهم . وقد فتح بذلك فوق هذا كله باب التفكير والتأويل والأخذ والرد ، فارتقوا من العلم الى أسمى درجة ، ومن المنطق والحجة الى أرق مكان ، فكان لما أراد أن يمدم الى هذه الناية السامية وتلك الذروة الرفيعة ، كان الأمر على ما ذكرنا . وكل له من آية فى الحث على الفكر والنظر مما لا نطيل بذكره .

الخلاصة :

والخلاصة أن شريعته صلى الله عليه وسلم تشتمل على دعوة الخواص والعوام ، لأن المراد منها هداية كل منهما وارتفاعه بها على قدر استعداده « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، وهى بعد ذلك بحر لا ساحل له . ولو جمعنا ما كتبه العلماء فى فقه الشريعة المحمدية ، وما قاله صلى الله عليه وسلم فى الآداب ومكارم الأخلاق ، وما كتبوه فى أصول الفقه وأصول الدين ، وما رويوه عنه من أحاديث وما كتبوه فى سيرة ، وما دونوه فى علم الحديث دراية ورواية ، وما صنفوه فيما يتعلق بالقرآن الكريم

من تفسير وتأويل وما يلتحق بذلك كله ، لملأ الوهاد والتجاد ، ولنأت به السفن فضلا
عن الإبل ، وأظنك تعرف ذلك ولا تنكره . ولا بأس أن نسوق لك هنا شهادة
الفيلسوف برنارد شو الانكليزي في حقه صلى الله عليه وسلم :

شهادة برنارد شو الانكليزي :

قال الكاتب الكبير برنارد شو :

« كنت في كل الأحيان ولا زلت أتناول دين محمد فأقدره تقديرا عظيما ، وذلك
لروحته المعببة وحيوته العظيمة . إنه الدين الوحيد الذي تلك القدرة على هداية الغير
وملاءمة الأزمنة ، فهو حري لأن يكون دين الجميع في كل دور وطور . ويجب على العالم
دون شك أن يقدر ويعلق أهمية عظمى على ذلك .

« لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا وملائما لأوروبا في الوقت الحاضر .
إن قساسة القرون الوسطى إما لجهلهم للمطبق وإما لتمصمهم الأعمى قد رسموا الدين
الاسلامي بألوان سوداء مظلمة ، وكانوا في الحقيقة قد تطعموا على كره محمد ومقت دينه
الحنيف ، لأن محمدا كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية . أما أأفقد درست الدين الاسلامي
وشخصية محمد ، تلك الشخصية العظيمة اللامعة ، فوجدت محمدا بميدا عما يلحقونه به
من النهم . ويجب أن يسى في الحقيقة مخلص الانسانية ومنقذها .

« إنى أعتقد أن رجلا مثله لو أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة وكان حاكما
مطلقا ، لفككن أن يقود العالم أحسن القيادة ، ولتكن من تسيير العالم نحو طريق
السعادة ، وتمشيته نحو شاطئ العدل والسلام .

« إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وإنها بادئة في عشق دينه وفلسفته ، كما
أنها ستبرىء العقيدة الاسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا في القرون
الوسطى . سيكون دين محمد النظام الذي يؤسس عليه العالم دعائم السلام والسعادة ،
ويستند على فلسفته في حل المضلات وفك الشاكل والعقد . إن كثيرا من مواطني

ومن الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم محمد، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوتى فأقول:
إن بواذر المصر الاسلامى الأوربى قريبة لا محالة .

الكلمة الختامية:

وآخر القول أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم، وأصغى الى سماع أخباره
للمشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه، وسيلسته لأصناف الخلق، وهدايته
الى ضبطهم، وتألفه أصناف بنى الانسان وقوده إيام الى طاعته، مع ما يحكى من عجائب
أجوبته فى مضايق الأسئلة، وبذائع نذائره فى مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته فى تفصيل
ظاهر الشرع الذى يميز الملأ عن إدراك دقائقها فى طول أعمارهم، لم يبق له ريب
ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور
ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب
ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربى الفصح كان
يراه فيقول: والله ما هذا بوجه كذاب: فكان يشهد له بالصدق بمجرد مشاهدته،
فكيف من عرف أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده، لاسيما وقد علم أنه
أى لم يمارس العلم ولم يعالغ الكتب ولم يسافر قط فى طلب العلم؟ فنأين حصل له محاسن
الأخلاق والآداب، ومعرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة
لولا صريح الوحي؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور
الظاهرة لكان فيه كفاية. فما أعظم غباوة من ينظر فى أحواله، ثم فى أقواله ثم فى أفعاله،
ثم فى أخلاقه، ثم فى معجزاته، ثم فى استمرار شرعه إلى الآن، ثم فى انتشاره فى أقطار
العالم، ثم يتأدى بعد ذلك فى صدقه وعلو منصبه الذى لم يصل إليه فيلسوف ولا نبي من
أول تاريخ العالم إلى الآن. وأمامك تواريخ العطاء والحكماء فليستعرضها واحدا واحدا.
وما أعظم توفيق من آمن به وصدقته واتبعه فى كل ما ورد وصدر:

ولنجمل آخر كلمتنا هذه الحديث الذى روى عن عائشة رضى الله عنها:

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما قرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن .

فانظر الى مثل قوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم من اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون الخ » . « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . « واصبر وما صبرك إلا بالله الخ » . « ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . « وليصْفُوا وليَصْفَحُوا ألا نحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » . « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . « لا يسحر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » . « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، ولتنهر القلم على ترك الجولان في هذا الميدان عملا بمقتضى الحال ونظرا الى ضيق المجال ، ولندع القرآن يثنى عليه في مثل قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . « وكان فضل الله عليك عظيما » . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

إذا الله أننى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح النورى

أسأل الله أن يجعلنا من عارفى قدره ، المتمسكين بسنته ، للشرفين بمطعم محبته

بمنه وكرمه ا

يوسف الدجوى

من جماعة كبار العلماء

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

إذا احتفلت الأمم الحبة بميلاد عظيمها لما قدموه لها من حسنات معدودة ، وأسباب للسعادة محدودة ، فإن منشأ هذه النفاوة هو ما أودع فيهم من سر العظمة ، وما عرف عنهم من معاني البطولة .

ولما كانت عظمة « محمد » صلى الله عليه وسلم لا ساحل لها ، وما أسداه للمجتمع يعدو الحصر ، وجب أن يكون له في كل يوم عيد ، وفي كل طلعة شمس خفاوة ، لأن كل يوم قضاء في هذه الحياة كان خيرا وبركة على العالم أجمع ، وكل لحظة مرت به وهو في هذه الدار قدم فيها للإنسانية من ضروب السعادة ما برحت تنعم بنورها ، ومن ألوان النعيم ما زالت تتقلب في محبوبتها . وإنى سامر بالقارئ على ناحية خصبة من نواحي هذه الشخصية العامرة بالعظمة ، ويكفيها جلالاتها أبرز ناحية من نواحي العظمة الإلهية التي تجلت بأنبياء صورها في هذه الشخصية المحمدية ، وفيه در البوصيرى إذ يقول :

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وهذه الناحية هي :

في غرب القارة الآسيوية رقعة من الأرض واسعة فاحشة ماحلة ، تغطيها رمال مترامية الأطراف ، تخترقها الجبال المنددة من الجنوب إلى الشمال ، صهرتها حرارة الشمس المطلقة عليها آلاف السنين ، وصبتها الأيام والليالي بألوان مختلفة ، فن جبالها جدد بيض ، وحر مختلف ألوانه ، وغرائب سود ، يقضى الإنسان فيها حياته لا تقع عينه على نهر يجري ، ولا على ماء إلا في أمواق الأكابر وساعة نزول الأمطار .

يتوسط هذه الرقعة المقفرة بلد قديم يدعى « مكة » إذا علوت ظهر هذا البلد ، وصعدت النظر فيها حولك ، لا ترى إلا رمالا وجبالا ، وإذا سرت منها شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا حتى أعياك السير القبابي والقفور ، لا يقع ناظرك إلا على ماهو طبيعي لا يد للصنعة فيه ، فلا مدارس ولا جامعات ، ولا معامل ولا مصانع ، ولا أثر للحضارة ولا معالم العمران ، يقطن هذا البلد وما حوله أمة عربية ، تزحت إليه من عهد اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . انتصف القرن السادس الميلادي ، وهذه الأمة العربية خامدة ، خاملة متفرقة متنايضة ، تنهابها الفرس والروم ، يسجرها كل منهما لأقراضه ، منحوض غمار القوضى ، وتضرب في فياق الجبال ، لا تعرف الحضارة معنى ، ولا يربطها بالنظام سبب ، فكل مظاهر الحضارة

بميد عنها ، فلا تقود بأممها مضروبة ، ولا صناعة لها معهودة ، ولا قوانين تعبطها في تسيير أمورها ، فكانت تتعامل بنقود الفرس والروم ، وتستعين بصاعتهما حتى في بناء الكعبة المقدسة ، وترى الصناعة عارا تنهاجى به في حطبها وأشعارها ، وتخضع في تسيير أمورها للقلبة والقوة ، فالرجل الذي يسودهم هو الذي يجمع بين الشجاعة والكرم والثروة والعدد .

جمعت تلك الأمة العربية الى ما تقدم انفاها في الفساد ، وسبعا في القوضى ، واتها كما للحرمات ، وارتكابا لأفطع الجرائم ، دماء تسمعك ، وأموال تسلب ، وغنيات على البقاء تسكره ، وبنات صغيرات تدفن على الحياة تحت أطباق الرمال ، وتهالك على الخور والميسر ، الى حد جعلهم يعدون البذل في سبيلهما من دواهي الكرم والسخاء .

جمعت العرب الى كل هذه القوضى في تصرفاتها انتكاسا في عقائدها ، تسعت من الجبال أحجارا بيدها ، وتنصبها فوق الكعبة آلهة تعبدها ، تنحرف لها القبايح ، وتقدم لها النذور والقرايين .

ومع أن المعروف المرتكز في طبائع الناس ، أن الانسان لا يعبد إلا من يرجو خيره أو يخشى عذابه ، فقد بلغ الجهل بهؤلاء القوم ، أنهم يأملون الخير ويخشون الضر في قطعة من الخلوى ، يصنعونها تمثالا بأيديهم متى شاءوا وكيف شاءوا ، ثم يتقربون بها الى الله زلي ، ثم يأكلونها إذا جاعوا .

في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي وفي هذا البلد « مكة » تزوج فتى من أشرف قريش يقال له عبد الله بن عبد المطلب ، بسيدة من كرائم القرشيات ، هي أمينة بنت وهب الزهرية ، ولما بنى بها لم يطل مقامه معها حتى رحل في تجارة له الى الشام ، وبينما هو راجع وافته منيته بالمدينة ، وكانت امرأته تحمل في بطنها جنينا قد مضى على حمله شهران .

وفي صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول الموافق لعشرين من شهر إبريل سنة إحدى وسبعين وخمسة بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وضعت السيدة أمينة مولودا جميل الوجه ، أزهر اللون ، أدعج المينين ، قفى الأنف ، واسع الجبين ، فسيح الصدر ، صخم العظام ، رطب الكففين ، والقدمين ، فعمل الفسح والسرور آمنة ومن حولها ، فأمرعت بإرسال من يحمل البشري الى جده عبد المطلب الذي كان جالسا بجوار الكعبة في انتظار من يبشره عما يخفف عنه لوعة الحزن التي أصابته بموت ولده غريبا صغيرا ، وكانت سن عبد المطلب وقتئذ تبلغ مائة وست عشرة سنة ، فلما أن جاءه البشير ظهر السرور على وجهه ، وسرى ماء الحياة في جسمه وقال : « حمود » محمدًا .

وهو اسم لم تعهده العرب من قبل ، ولعله قصد بهذا الاسم الخير ، والنفوذ بأن يكون

هذا المولود محل حمد الناس وتثائمهم ، حقق الله الذي أجرى هذا الاسم على لسانه تفاؤله ، ورزق هذا المولود الدرجة الرفيعة والمقام المحمود .

مكث محمد مع أمه ثلاثة أيام ، ثم استرضعته حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب من هوازن المقبلة ببادية مكة ، فقام مسترضعاً فيهم نحو أربع سنين ، ثم رجع إلى أمه معافى سليماً .

وفي السنة السادسة من عمره عليه السلام ، ذهبت به أمه إلى المدينة لزيارة أحوال أبيه بن عبدى بن النجار ، وبينما هي عائدة به أدركتها منبتها في الطريق بالأنواء ، قرية بين مكة والمدينة .

خفضته بعد أمه جارية أبيه « أم أيمن » وكفله جده عبد المطلب . ولما بلغ من العمر ثمانى سنوات توفي جده عبد المطلب وكفله عمه أبو طالب ، وكان أبو طالب رجلاً قليل المال ، فكان عليه السلام مدة كفالة عمه مثال القناعة والحمد عن الصغار التي يتعلق بها الأطفال عادة ، قالت « أم أيمن » حاصنته كان إذا قدم الطعام وتسابق إليه الأطفال وزينا عفيفاً يقنع بما تيسر له .

ولما بلغت سنة اثنتى عشرة سنة وأراد عمه وكفيله أبو طالب السفر بتجارة إلى الشام ، تعلق به عليه السلام ، وشق عليه فراق عمه ، فحن له قلب عمه واصطحبه معه ، وهذه أول رحلة له إلى الشام ، ولم يطل فيها غيابهم كثيراً .

ولما بلغ خمساً وعشرين سنة سافر للشام للمرة الثانية ، وذلك أن خديجة بنت حويلد الأسدي كانت سيدة ذات شرف عظيم في قومها ، وكانت غنية تنخر في تجارة واسعة ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم فيه ، فها سمعت عن محمد وأمانته وصدقه ما لم تعده في غيره حتى اشتهر بين قومه بالصادق الأمين ، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً ، وتمطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحاً وبخاً عطفاً ، ونحلى لميسرة من أمانته عليه السلام وشدة محافظته على ما يسده من المال ، ما حببه إلى قلبه ، وجعله يقص ما رأى على سيدته بعد عودته .

فأرأت خديجة بصائب تدبيرها أن تنخذله لها زوجاً ليكفيها ثقلها ما لها بين أيدي رجال قد لا تتوفر فيهم شروط الأمانة ، وكانت سنة خمساً وعشرين سنة وسنها أربعين سنة ، فأرسلت إليه تحطيه لنفسها فقبل .

وذهب مع أمهم حتى دخل على حمز بن أسد ، نخطبها منه عمه أبو طالب ، وقد حطب عمه أبو طالب في هذا اليوم فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وأمل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حصنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوجاً ،

وحرما آمنة ، ثم إن ابني هذا محمد بن عبد الله لا يوازن به رجل شرفا ونسلا وقضلا ، وإن كان في المال مقلتان المال ظل زائل وأمر حائل وطارية مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق كذا وكذا . وعلى هذا تم العقد ، وصارت خديجة أرملة أبي هالة زوجا لمحمد بن عبد الله .

معيشته قبل البعثة :

لم يرث محمد صلى الله عليه وسلم من والده شيئا مذكورا ، فقد ولدتيها وحاش مائلا . ولما بلغ مبلغا يمكنه من أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في بادية بني سعد ، ولما رجع إلى مكة كان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأكل منها ، وهذا حال معظم الأنبياء من قبل لا يمدون أيديهم إلى ما منع الله به أهل الدنيا ، حتى لا يشغلوا بها عن العادة الأبدية ، فهذا إبراهيم وعيسى عليهما السلام وزهدهما في الدنيا معروف مشهور ، وهذا موسى قد قضى شطرا من حياته يرعى الغنم في مدين بأحر معلوم . تلك حكمة الله في أنبيائه لتكون حياتهم مثلا صالحا لاتباعهم ، فيعينون الضعيف ، ويشفقون على المريض ، ولا يتكالبون على الدنيا ، ولا يتناحرون على متاعها ، فنفرهم في بحار مصائبها ومعناها وبلاياها .

ولما شب وبلغ مبلغ الرجال كان يتجر ، وكان ممن شاركه في التجارة « السائب بن أبي السائب » ، ولما تزوج خديجة كان يتجر في مالها ، ويأكل من نتيجة عمله ، جمع كل ذلك الكتاب العزيز في قوله : « ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيمًا غافيا ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك ظالما فأفى » .

سيرته في قومه قبل البعثة :

كان أحسن قومه خلقا ، وأصدقهم حديثا ، وأوفرهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش ، وأفضلهم مروءة ، شهد له بذلك ألد أعدائه بعد البعثة ، عندما اجتمع زعماء قريش لينتفوا على تهمة يرمونه بها ، ليصرفوا الناس عنه ، فقال أحدهم : تقول عليه ساحر ، فقال النضر بن الحارث من بني عبد الدار : « قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدقيه الشيب وجاءكم بما جاءكم فلتنموا به ، لا والله ما هو بساحر ! ولما سأل هرقل ملك الروم أباسفيان عن رسول الله عليه السلام قائلا : « هل كنتم تهيمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال » أجاب أبوسفيان « لا » فقال هرقل : « ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله » .

قد حفظه الله في شبابه من كل أعمال الجاهلية المشينة ، وبغضت إليه الأوثان بغضا شديدا حتى كان لا يحضر لها عبدا .

وقد حدثنا عليه السلام عن نفسه فقال : « لما نشأت بفضت الى الاوثان ولم أُم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله » .

من كل هذا يتجلى لنا صورة واضحة من حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسط هؤلاء القوم ، وهو فقير يتيم يقضى حل وقته في بطون الصحارى وروءس الجبال وراء غم يرحاها لأصحابها على أجر يأكل منه ، زاهد في مجالس القوم ، بعيد عن لُهم ، نافر من معبوداتهم ، منصرف بكليته الى ما يمينه ، راض بما لا يمينه .

فلم يعرف عنه قبل الأربعين من عمره أنه خاض في نقاش علمي ، ولا عني بمجدل ديني ، ولا فخر بشعر ولا نثر .

أمده مولاه لتعمل رسالته ، فنشأ بمكة الغالصة للعرب وحدهم بعيدا عن يثرب التي يبعث فيها الجدل الديني احتكاك المشركين بمن حولهم من اليهود ، فكانت حياته هادئة وادعة بعيدة عن هوامل التنافر والتباغض .

ولم يمهّد في تاريخ البشر قديمه وحديثه أن شخصا يسلم من عمره طليعته العامرة بالفشاط ، الحافزة الى التوب وهو هادئ ساكن ، فاذا ما دخل في دور تقتر فيه القوي وتذبذب فيه القرائح ينقلب حتى الفكر صائلا المزجة ، تنفجر منه ملكات جديدة في علوم شتى ومعارف حميمة النور عويصة المباحث .

ولوضوح هذه الحجة في الدلالة على أنه رسول الله لا بطل مبقرى فحسب ، غير الله المشركين بالغفلة عنها حيث أمره أن يجيبهم على قولهم «أنت بقرآن غير هذا أو بئله» بقوله « قل ما يكون لي أن أبده من تلقاء نفسي إذ أتبع إلا ما يوحى الي » الى أن قال « فلقد لبثت فيكم ممرا من قبله آملا تملقون » .

وقطن لذلك البوصيري فقال :

كفالك بالملم في الآمى معجزة في الجاهلية والتأديب في البتم

نعم عند ما استوى على رأس الأربعين عاما من عمره لجأ العالم بما غير مجرى التاريخ وقلب نظام الكون .

لجأ قومه بما يتأير ما هم عليه ، ويخالف ما ألقوه ، فقابلوه بأشدهم من أنواع الابداء ، وقاوموه بكل ما يمكن من حول وطول ، وألبوا عليه حاضرهم وبأديبهم ، فكان سبورا قوى الصبر ، مؤمنا صادق اليمان . وستحدثك بعض مواقفه بما يجلي لك أن هذا موقف رجل موقن في دخيلة نفسه بما يقول ويفعل ، يستمد وحى ضميره من السماء ، لا موقف رجل مغامر يختلس النصر اختلاسا .

أنبأتنا الاخبار الصحيحة أن المشركين لما فتكوا بالمسلمين يوم حنين ، وذمر المسلمون

ومروا ، بقى هو وحده على نكته يقودها يوسفيان وهو يركضها نحو العدو ويقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب »

يجهر بذلك حتى سمعه المسلمون ، فرجموا اليه وكانوا قد ظنوا أنه قتل .

فهل هذا موقف رجل كاسر الرجال ، أو بطل كبقية الأبطال ، أم موقف رجل لا يعرف غير إله الدجالة ، ولا يرهب غير رب العالمين ؟ جمع أعداؤه عليه جوعهم ، وصبوا عليه كل ما يستطيعون من إهانتهم ، فكان يقابل أدام بالصبر ، ويصفح عنهم ، ويستغفر لهم ، ويمنذر عنهم ، فقد أحبرنا الأحاديث الصحيحة ، أن عمر بن الخطاب قال : لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، قلت : يا بني أنت وأمي يا رسول الله ، لقد دعا بوح على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ولو دعوت عليا بمثلها لهلكنا من آخرنا ، فلقد وطئ ظهرك ، وأدى وجهك ، وكسرت رباعينك ، فابت أن تقول : لا حيرا ، فقات : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وقد صحت الروايات أن غوث بن الحارث تصدى له ليفتك به وهو نام في حر الظهيرة تحت شجرة بعيد عن أصحابه ، وهم جميعا نائمون ، فأحس عليه السلام بحركة فانتبه فادا برجل قائم على رأسه ، والسيف مصلت في يده ، قائلا : ما يمنحك منى يا محمد ؟ فقال : الله ! فسقط السيف من يد الرجل ، فحاوله عليه السلام وقال للرجل : ما يمنحك منى ؟ فقال : كن خير آخذ ، فتركه وهذا عنه ، فرجع الرجل الى قومه يقول : جئتكم من عند خير الناس .

وحدثنا أنس بن مالك قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم برد غليظ الحاشية ، فجدبه أعرابي بردائه جدبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ، ثم قال : يا محمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإني لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت عليه السلام ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ويقادسك يا أعرابي ما فعلت بي ؟ قال : لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكاوه بالسينة السيئة ، فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعنى الآخر تمر .

هذا الحلم والنبات والنقة بالنفس والدقة في الحكم دليل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس من عند نفسه ولا يدله فيه .

ولا فأتى عقل في أي رأس يستطيع أن يتصور رجلا يأتي في مدى ثلاثة وعشرين عاما كلها حروب وأسفار ، ونعب وآلام وأهوال ، لا يؤوب من سفر حتى يستلمه سفر ، لا يكاد يرى النوم الهادئ ، ولا العيش السام ، ومع ذلك فهو رجل أمي من أمة أمية ، فقيرة مشتتة جاهلة منوغة في الجهالة ، رجل هذا حاله يأتي بما حير العقول ، وأعجز الفحول ، من يوم أن جاء الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ كل يوم تجتمع مجالس نياية وتصدر تشريعات ، بعد تمحيص

وتدقيق من كبار المشرعين ، ورجال القوانين ، ثم لا تلت عشية أو صباحا حتى يعتريها الخلل ، ويمتورها المساد ، ويظهر فيها من الميوب ما يوجب محسوها ، وإبدالها بغيرها ، وهكذا دواليك .

قانون يبطل قانونا ، وتشريع يقوم على أنقاض تشريع ، وشرع محمد ثابت لا يتغير ، وقانونه راسخ لا يتحول ، تتسكمر تحت أقدامه قوانين الإنسان ، وتنحطم على صخوته تشريعات البشر ، تدور كلها حوله ثم ترجع صاغرة إليه ، وتزهو مرتفعة ثم ترتجى بين قدميه .

وهاهي تلك شريعة شاذجة تقارع المسقول في أوج قوتها ، وتتحدى الأفكار في عز نشأتها ، في كل باب من أبواب الحياة ، وفي كل لون من ألوان الأخلاق والمعادن ، وفي كل ناحية من نواحي الاجتماع .

فبينما تراها تنظم العلاقات الخالق والمخلوق ، فاذا بها تشرح واجب المرء نحو نفسه ، ونحو أهله ، ونحو زوجه وولده ، ثم نحو المجتمع كله ، لم تترك فضيلة إلا طلبتها ، ولا رذيلة إلا حظرتها .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، صاحب هذه الرسالة ، التي لم تقتصر على طائفة دون طائفة ، ولا على المسلمين دون غيرهم ، بل تناولت روائط المسلمين بغيرهم من جمع المال والتحل ، مما يجعل هذا النبي الكريم مبعوث الإنسانية ، ورحمة العالمين ، ويتيح لكل فرد من بني الإنسان أن يقرأ في صحيفة هذا النبي الكريم أسمى المادى ، وأبلى المقاصد ، وأشرف الغايات . جاء خاتم النبيين ، وأرسل لباس كافة ، فدعا إلى الأخاء والسلام ، وجلب إلى الناس المودة والوئام ، فكان مع خصومه مثلاً أهلى للإنسان الكامل .

فيا أيها الناس ، اذكروا هذا النبي الكريم ، واسمروا حياته وسيرته . انخرجوا منها بما ينفعكم ، فسكلها دروس وعظات ، ويا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

هــمـ الجليل هـبـى أـبر الـنـصـر

شيخ معهد دمشق

محمد صلى الله عليه وسلم

وهل تلمى عظمته ؟

في شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ ميلاد المسيح عليه السلام ، وفي مكة من قرى بلاد العرب ، ولد « محمد » من أبوين كريمين ، يتصل نسبهما ببني الله اسماعيل ، وقد مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب وهو في بطن أمه آمنة بفت وهب ، لم تنفخ فيه روح الحياة ، ومكث بعد ولادته الى السنة الخامسة من عمره في بني سعد حيث كانت ترضعه حليلة السعدية ، وبعد أن عاد من الصحراء ارتحلت به أمه الى المدينة ، ومكثت به شهرا في ضيافة بني النجار أخوال أبيه عبد الله ، وقد أراد الله ألا يطول أمد اتصاله بأمه كي لا يشتغل قلبه بالأمومة ، كما لم يشتغل قلبه بالأبوة ، فاعتزها منه أثناء أوتهم الى مكة ، وهكذا نشأ ربه مستمدا على نفسه ، خالي القلب من شواغل الأبوة والأمومة ، متفرغا لما يفاض عليه من حب مولاه .

تولاه الله برعايته ، وصنعه بيده ، آواه من يتم ، وأغناه من عيلة ، وهدهاه من ضلال وحيرة ، وما زال يغمره بالفضل والاحسان ، حتى بلغ أشده واستوى في أفق الانسانية الاعلى ، وتهيأت نفسه البشرية لتلقى الرسالة العامة التي ختمت بها رسالات الحق الى الخلق ، فأرسله الله رحمة للعالمين ، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، أرسله بدين أساسه الايمان بالله واليوم الآخر ، وقوامه مكارم الاخلاق وصالح العمل « يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز طاهر ، ولا تهنن تستكثر ، ولربك فاصبر » ظل بعد ذلك بمكة يدعو الى التوحيد ، وعقيدة البعث والجزاء ، ونبذ ما كان عليه الآباء : من الشرك والوثنية ، وسوء الخلق ، وقبيح العادات ، وما كان له من سلاح في تلك الدعوة إلا سلاح الحكمة يفزوا بها القلوب ، والموعظة الحسنة يهذب بها النفوس ، ويلطف الطباع . ولما رأى أن الدعوة لا تنفلت في النفوس كما يحب ويريد ، وأن موقف المكين منه وتعميمهم لم يروا أنهم ، قد يكون له من النتائج الخطيرة مالا يتفق ونجاح دعوته ، هاجر هو ومعه الى المدينة ، وقد سبقهم اليها أريج الدعوة ، وتخللت هناك قلوبا طاهدة على أن يمنعه مما يمنعون منه الاتص والابناء والأمراء هاجروا اليهم ضما للصفوف ، وتوحيدا للسلامة ، وحمسا للقوى المتعابة في الله . هاجروا اليهم الخماسا لو سائل العزة والنصر ، ونزوعا عن مواطن القهر والاذلال :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن حاف القلى متحول
وهناك ابتدأت لدعوته حياة جديدة ، أخذت تنزوا الناس في عقر دارهم ، وتنازع الوحي

من السماء بالقانون الذى ينظم تلك الحياة ، التى سلخ فى بنائها وتنظيم تشريعها مدة حياته فى المدينة ، وقد أقر الله عينه بشجرة جهاده ، ورأى كلة التوحيد تعمل عملها فى عناصر الشرك ، وتمنى على مظاهر الضلال والبهتان ، وأزل عليه فى محكم الكتاب : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى أن يحتفلوا بميلاده فى هذا الشهر من كل عام ، يذكرون الناس بشمائله التى فطر عليها ، وعرف بها فى أهله وقومه ، يوم أن كان غلاماً حداثاً يرعى الغنم ؛ ويوم أن كان شاباً جليداً يحضر مع أصحابه حرب القبار ، وحلف الفضول ؛ ويوم أن كان رجلاً مكشعلاً وافر العقل ، يرتحل فى تجارة خديجة بنت خويلد ، ويرضاه القوم حكماً فى النزاع الذى شجر بينهم فىمن يصع الحجر الأسود فى موضعه من البيت ؛ ويوم أن كان ناسكاً متحنثاً يفر من ظلمات الدنيا ، ويلبس الابس يربه ؛ ويوم أن كان داعياً الى الله مبشراً من أجاب ، ومنذراً من أبى ؛ ويوم أن كان قائداً يتقدم الصفوف ، ويتلقى به أصحابه ، ويتلقى النبأ والقذائف ، ويوم أن كان حاكماً لا يعرف الجور ولا المحاباة ؛ ويوم أن كان هادياً مرشداً يتمهد الناس بالحكمة والموعظة .

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر لا يفكرون فى إقامة حفل خاص يذكرون فيه الناس بشمائل رسولهم ، ولا بجهات عظمتهم التى تجلت فى هذه الأطوار كلها ، ذلك لأن عظمتهم لم تكن عديم فى مكان هذه العظمة التى تالفا الأئمة فى نوابغها وأفذاذها ، ويحشون عليها الموت أو الثلاثى فى صحف الأيام الماضية ، وإما هى عظمة قارة فى نفوسهم ، منقوشة فى قلوبهم ، لها من الآثار ما أدهش العالم فى حياته ، وما بقى بعد مماته يتفلفل فى العالم ، ويسرى فى أرجائه وأصقافه ، حتى أرغم الخصوم فى المهدين على الاعتراف بها والاعتراف من سلسيلها ، عظمة لم يقتصر أثرها على جانب من جوانب الحياة مهما عظمت ، ومهما تنوعت ، بل لم يقتصر على حدود هذه الحياة ، بل مد سلطانه إلى الحياة الآخرة ، وكشف كناس عن حجب غيبها ، وصور لهم ما سيجدون فيها من نعيم أو شقاء .

ليست عظمتهم على الله عليه وسلم من عظمة الملوك الجبارين ، الذين يستعذبون أنين الإنسانية واستعباد الخلق وإدلالهم ، فاقدر خرج ذات يوم على أصحابه ينوكاً على عصاه ، فقاموا له إجلالاً واحتراماً ، فقال لهم : لا تقوموا كما تقوم الأمحاء ، يعظم بعضها بعضاً .

ودخل عليه رجل ، فأصابته رعدة من هيئته ، فقال له . هون عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش ؛ كانت تأكل القديد .

وليست من عظمة القواد الطاغين الذين يفسدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ، ولا يرون السعادة إلا فى الفتن بالضمفاء ، والتخريب والتدمير ، وترويع الأمنين ، فلقد دخل مكة

ويده جميع أسباب النصر والقوة ، ولم ينس ما أصابه فيها ثلاثة عشر عاماً من كيد وتكليل ، فلم يحضره شيء من صلف الفاتحين ، وجنود المنتصرين ، ولم تعرف ثورة انتقام الموتور ، وقد أيد بالقوة من كل جانب ، سبيلاً إلى قلبه الذي امتلأ رحمة وعطاء ، وشفقة وكرماً ، يدخل مكة فاتحاً وأعلام النصر تحف فوق رأسه ، مطاطناً حتى تكاد تمس رأسه قادمة الرجل ، ثم يجلس بعد أن يؤمن الناس ، ويجلس حوله صناديد قريش ، وهم الذين آذوه وأخرجوه من داره بغير حق إلا أن دعاهم إلى توحيد حالفهم ، وإعلان إنسانيتهم ، يجلسون يميون شاخصة ، وقلوب واحدة ، ينتظرون ما هو فاعل بهم ، وأي عذاب يصب فوق رؤوسهم ، ويعرف ذلك في وجوههم ، ويقرؤه ، ويحيا في حباهم ، ويسمع خفقات قلوبهم ، واصطكاك مفاصلهم ، فيهدى رؤوسهم ، ويقول لهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فيقولون بلهجة من يسندر العطف والرحمة : نأخ كريم ، وابن أخ كريم ، فيقول لهم تلك الكلمة الحائلة : ادعوا فأنتم الطلقاء ! تلك هي العظمة التي تنطق ببردها وسلامها عظمة نيرات المدافع ، وتذوب أمامها قوة العسف والفاخيان .

ولست من عظمة الأغنياء المورسين الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق ، ويمعنون حق السائل والمحروم ، ثم هم يسخرون عباد الله في شهواتهم وأهوائهم شيء من حطام الدنيا الزائل ، فقد كان عليه الصلاة والسلام زاهداً في الدنيا ، فلا في المال ، ومع ذلك كان أجود من الريح المرسلة . جاءه رجل من جفاة الأعراب ، ومنه نيران ، فلما دنا منه جذبته بردائه حذوة شديدة أثرت بها حاشية البرد في صفحة عنقه ، ثم قال له : يا محمد ! احمل لي على يدري هدين من مال الله الذي عندك ، فإني لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك ! أعلم ماذا كان موقف الرسول من هذا الأعرجي الذي جاء يلتمس منه الاحسان ؟ قال له صلى الله عليه وسلم : نعم يا أعرجي ، المال مال الله ، وأنا عبده ، ستمطيك ما طلبت ، ويقاد منك ما فعدت ، فقال الأعرجي : لا ، فقال النبي - ولم ؟ قال : لأنك لا تكافى السيئة بالسيئة ، ولكن تكافى السيئة بالحسنة ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وأمر أن يحمل له على أحد يديه شعير ، وعلى الآخر تمر ، فساقهما الأعرجي ، وانصرف شاكراً لله ، ورسول الله ، وهكذا كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن » ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

إن العظمة التي تعرفها الأمم لا فذاها ، وتقيم لها الذكريات ، لا تمدو في قالب أمرها أن تسكون من هذا الحزب القاشم الذي يتخذ من أرض الشعوب الهادئة وديانا يعلوها بدماء البشرية البريئة ، ومن أجسامهم أشلاء تتراكم بها طبقات الأرض ظلماً وعدواً !

وإذا قدر لامة أن يكون لبعض أبنائها حظ من العظمة الحققة النافعة ، فهذا الحظ لا يتجاوز

جانبا من جوانب هذه الحياة ، ومع ذلك لا يلبث أن يزول ، أو ينشيه حظ آخر من نوعه ، أو من نوع سواء هو أشد أمثالا أو ملاءمة للحياة الأمة المنظورة .

أما عظمة محمد ، فهي عظمة رحة وعطف ، عظمة هداية وإرشاد ، عظمة تنقيف وتهذيب ، عظمة إصلاح وتمييز ، عظمة سلم وأمان ، عظمة تهى للحياة الفاضلة هاتها ، وتعبد لها صليها .

لا أريد أن أحدثك عن عظمتة الخلقية التي نشأ فيها ، وهب عليها ، واعترف بها من لا يؤمن به ، فقد تحدث عنها كثير ، وإنى أخشى إذا تحدثت بشيء منها أن يقول من ينكر فضل الله ، ويلحد في آياته اليبسات : عظمة طواها الدهر ، وماتت بموت صاحبها . وإنما أريد أن أتحدث عن تلك العظمة الأخرى التي سارت آثارها الدهر ، واستقرت في صفة الخلود ، وأخذ العالم يستمد منها غذاء حياته الروحية والاجتماعية ، هذه العظمة التي تتمثل آثارها في تلك التعاليم التي وحدت بين قلوب متسافرة ، وربطت بين قبائل مبصرة ، فهدت من خفوتها وخففت من غلوائها ، وكونت منها أمة مهيبة الجانب ، عزيزة المنال ، عظيمة الآثار ، ذات شخصية ثابتة ، ونظام محكم منين ، استطاعت أن تسوس به شعوب الأرض على دعام قوية من الحكمة والعدل .

هذه التعاليم التي فوجئ بها قوم تمكنت فيهم عوامل التماسد في الأرض ، وحرقوا الشرائع وعبدوا غير الله ، وسوا يوم البعث والجزاء ، وتحكم قوتهم في ضعيفهم ، وانحلت أخلاقهم ، واستباحوا الدماء والأعراض والأموال ، حتى ماد العالم ، واضطربت أركانه ، وتزعزعت عناصر الحياة فيه ، وما هي إلا صرخة الحق من طريق محمد حتى ملا الإيمان قلوبهم ، وتبادلوا العطف والمحبة ، وسادت الرحمة فيما بينهم ، وتبدل شرهم خيرا ، وفسادهم صلاحا ، وأصبحوا نعمة الله إخوانا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

هذه التعاليم التي أطلقت للعقل البشري حريته ، وفكته من السلاسل والأغلال ، وأهابت به أن يتقلب في بديع الكون ، وظواهر الطبيعة ، وينتفع بما أودع فيها من أسرار وإن ، وأنحت باللائمة الشديدة على التقليد ، وماتت الجور والتعصب قوراة ، وإذا قبل لهم اتبعوا ما أزل الله ، قالوا بل نتبع ما أنقينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، هذه التعاليم التي سوت بين الذكر والانثى ، والحاكم والمحكوم ، وقررت أن الناس سواسية ، وأنه لا فضل لمربي على عجمي إلا بالتقوى ، ونطرت الى الشعوب والقبائل نظرة واحدة ، وجميعهم في ثوب واحد ، لا تفاضل فيه ولا تفاوت ، وهو ثوب الانسانية الشامل . هذه التعاليم التي قررت مبدأ حرية العقيدة ، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق ، وقالت : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها .

هذه التعاليم التي قررت حتى التشريع وتولية الحاكم وعزله للامة صاحبة الشأن يتولاه أهل الحل والعقد من أئمتنا « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

هذه التعاليم التي ما تركت فضيلة إلا حنت عليها ، ولا رذيلة إلا حذرت منها ، ولا أصلا من أصول التشريع الحلي الناهض إلا قررت ، وطلبته من الناس شرما يسعدون به في الدنيا ، وديننا ينعمون به في الآخرة .

هذه التعاليم التي كانت شفاء ورحمة للعالم ، وغرست بذور الخير في نواحيه ، وانتشلت الانسانية من كبوتها ، وسمت بها الى المسكنة اللاتقة بها — هي آثار العظمة المحمدية ، وهي كما نرى آثار عامة النفع ، مائدة الشأن . وإن عظمة هذه نتيجتها لا يليق بحلالها ، ومكانة النبي بها أن تنسى من القلوب ، وأن تذهب من النفوس وروعتها ، حتى تحتاج في إحيائها وتجديد ذكرها الى محافل تقام ، وغلب تلقى ، وفصول تكتب !

بهذا امن الاوائل من المسلمين يوم أن كان الايمان قويا ، والشعور بخلود تلك العظمة حادا ، فبدلوا نفوسهم في رسم خطاها ، والجدي نشرها ، والعمل على انتفاع الانسانية بها ، فسكانت جميع أيامهم ذكرى لتلك العظمة ، وكانت حركاتهم وسكناتهم ألسنة من نور ، رسم في صفحة الوجود العام .

هذه عظمة محمد بن عبد الله ، ولكن لما صغفت النفوس ، ونادت القلوب بحمل الامانة ، هان تقدير تلك العظمة ، ووضعوها في مستوى تلك العظمت الاخرى التي حدثناك عنها ، وظنوا أنها من نوعها ، فكرموها بصور وأساليب استدعوها ، وطلقوا عليها اسم « الاحتفال بالمولد النبوي » ، واتخذوه عيدا من أعيادهم يجتمعون له ، وينذا كرون فيه سيرة النبي العظيم ، ولم يمنهم حياء من أن ينعتوا ذلك بأنه قصة « المولد الشريف ! » وما كان لعظمة محمد أن تكون قصة ، وما كان لسيرته أن تنسى ، وما كان لآثارها أن تغفل عنها القلوب وهي تؤمن بالله واليوم الآخر .

إن التكريم الحق ، والذكرى الصحيحة لهذه العظمة ، إنما يكون بث حكمه وآدابه ، ونشر تعاليمه وأحكامه ، والتشجيع عن ساعد الحد في إقامة حدوده وشرعه ، حتى يضمحل الشر ، ويعظم الخير ، وتحقق إرادة الله في العالم « ربنا آتانا من لديك رحمة ، وهي لنا من أمرنا رشدا » !

محمد شلتوت

وكيل كلية الشريعة

محمد خاتم النبیین

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويمعبدون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا نلك اللبنة » وأنا خاتم النبیین » رواه البخاري .

حقا لقد كان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه اللبنة الأخيرة من البيت الذي بنى بواسطة الأنبياء السابقين ، وكان من أجل ذلك خاتم النبیین . وما دام محمد هو اللبنة الأخيرة من ذلك البيت ، وما دام خاتم النبیین ، فليكن ما أتى به من إصلاح ، وما نزل عليه من تشريع هو الإصلاح الذي لا ينتظر أن يعقب بإصلاح ، وهو التشريع الذي يصلح مرجعا للأجيال المقبلة ، والأزمان المتعاقبة .

لذلك لم يدع طائفة من طوائف الأمة إلا أصابعها ، ولا جماعة إلا رسم لها طريق سعادتها . أصلح الحاكم والمحكوم ، أصلح التاجر والصانع ، أصلح جماعة الأغنياء والفقراء ، أصلح الأسر التي تتكون منها البيوت ، وفيها الرجل والمرأة ، والأولاد والخدم .

فتراه يرغب ولاية الأمور في العدل ، وينهاهم عن الظلم : « إني الله بأسركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » إن الله نعماءكم به ، إن الله كان معيما بصيرا . يطلب إلى الحكام أن يسووا بين الأفراد والجماعات في تطبيق القوانين ، وأن لا يفرقوا بينهم في الحقوق التي يجب أن يتمتع بها الناس على السواء ، حتى لا يحملك بغض رجل من الناس ، أو هيبة من الهيئات ، على أن تحول بينهم وبين حقهم الطبيعي « ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى »

ولو أن الناس انتفعوا بذلك الإصلاح المحمدي ، الذي يصبط النفوس ، ويحول بينا وبين الشهوة ، فأصغوا حصومهم كما ينصفون أنصارهم ، لكان عالم أحسن من ذلك الحال الذي تراه . وهل هناك تشريع أعدل من تشريع يوجب عليك أن تدع الخصومة الشخصية جانبا ، وتعطي خصمك من الحق ما هو أهل له ؟ هل هناك تشريع أحكم من تشريع يحرم عليك أن تسير العاطفة ، حتى لا تتغلب على العقل والمصلحة ، وبذلك تكون قواما بالقسط ، شاهدا بالحق والحق ، وإن كان موقفك هذا في غير مصلحة آبائك وذويك ؟ « يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »

إن تشريعا هذا حاله ، بقدر الحق ولو لم يكن في مصلحة النفس أو الآباء والأقارب ،

ويعتبر الباطل ، هو تشريع يجب أن يبقى ويدوم ، وهو التشريع الذي سنده المسلمون زمنا طويلا ، وشهد لهم من أجله خصومهم أيام فتحهم ، حتى قال قائلهم : « لم تر لأرض فاتحها أعدل من الاسلام » . ولعلمهم ماؤدون إليه بعد أن قتلهم الشهوات ، وفرقتهم الأهواء والاحن ، وذاق بعضهم بأس بعض .

وكما أوجب الله على الحاكم أن يعدل بين رعيته ، أوجب على الأمة أن تكون عوناً للحاكم على إقامة صرح العدل ، وحرم عليها أن تمهد له سبيل الظلم ، وتعينه على الباطل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . وروى أبو داود والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعداب من عنده » .

وحسبك في التفسير من التعاون مع الظالم قول الله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

أما إصلاحه لجماعة النصارى فقرأ في أكثر من موطن من القرآن الكريم : « أوقوا السيل ولا تكونوا من الخسرين . ووزوا بالقسط المستقيم . ولا تحسوا الناس أشياءهم ولا تعنوا في الأرض مفسدين » « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا » . فترى القرآن الكريم يتوعد آكل أموال الناس بغير حق نارا ، ويبيع لهم أن يتحروا بالمال تجارة أساسها الرضا والصدق ، ثم تراه يرثي الحكمة من ذلك النهي ، إذ يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم » لأن أكل أموال الناس بالباطل ، وتخريب بيوتهم قتل لأرباب الأموال ، وإذا لم يسكن قتلا فهو طريقه الموصل إليه . ولا حل أن يريك أن الأمة متكاملة في الخير والشر ، وأن العدوان على بعضها عدوان على الجميع ، حتى إن القاتل لأخيه كالقاتل له ، وهو أسلوب من أساليب تشجيع الجرائم ، لأجل ذلك يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » . وأي تشريع أرحم من تشريع يباحث بينها وبين ذلك الشر على النحو الذي ترى ؟

أما إصلاحه لاصناف خفته على الصدق ، وترغيبه في الأمانة . وفي الحديث « من حمل علينا السلاح فليس منا » ، ومن غشنا فليس منا » رواه مسلم .

أما جماعة الأغنياء والفقراء فقد تعجب كيف وضع الدين لهم الدواء ، ونصح لهم بطريق تضمن لهم السعادة ، لأن الفتنة بالمال عظيمة ، فصاحب المال من شأنه أن يظني ، وصاحب المال من شأنه أن يترفع به عن الفقراء والمهممين ، وقد يغريه غناه أن يصرفه في محاربة ربه

وخالفه ، وصاحب الفضل الأول عليه ، ومن أجل ذلك كان المال فتنة وابتلاء ، وكان محكما للنفوس يعرف به طيبها من خبيثها « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » . ولا تقل الفتنة بالفقر عن الفتنة بالثنى ، فكثيرا ما تصل بصاحبها الى السخط ، وتوقعه في الهلكة ، فلا يرضى قسمة ربه ، ولا نظام مولاه ، وقد يحرمه الصبر والرضا فترل قدمه ، وينهار إيمانه . فالمال فتنة وابتلاء للحاصلين عليه ، وهو كذلك فتنة للمنافقين له « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

جاء خاتم النبيين والابنة الأخيرة من البيت النبوى ، فتصح الى جماعة الأغنياء أن يبذلوا شيئا من المال هو الزكاة ، ليظهر بذلك البذل نفوسهم ، ويمرّنهم على السخاء ، فإن النفوس إذا ألفت الشرح هلكت ، فأصاعت المصالح ، وعطلت المرافق ، فكان من رحمة الله بالثنى أن يصبح رجلا صالحا للحياة ، إذا دعى الى بذل ماله في سبيل الخير أجاب ، وإذا اشتبك مع بعض قراياته في تركه خلفها له أبوه خضع لقسمة الله في الموارد ، وتوقف عن الدنيا التي يرتكبها بعض الناس لحرمات أخيه من ميراث أبيه .

لم تقف آثار الزكاة عند ذلك الحد من تطهير نفوس أصحابها من الفح ، بل هي الى ذلك تستل من نفوس الفقراء والموزين حنقهم على أرباب الأموال ، وحسدهم للأغنياء ، فيصبح الثنى محبوبا للفقير ، والفقير عادما للثنى ، يحرس ماله لأن له نصيبا فيه .

وإن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية الممقوتة ما لا يقف عند حد ، لأنهم لم يرضوا بالاشتراكية المعقولة التي شرعها الله بالزكاة ، فكان ماقبة أمرهم أن سلط الله عليهم من يقض مضاحمهم ، ويزعجهم في حياتهم ؛ وتطرف بعض الشعوب فاستولوا على رؤوس الأموال ، وأخذ يحارب الاستئثار بالثروة ، ويجعلها حقا شائما للناس ، ونسى أن ذلك من شأنه أن يبعث الروح المعنوى في العامل ، ويقضى على غريزة تنازع البقاء ، والتنافس في الحياة .

وقد فطنوا لشرور ذلك العمل ، فأخذوا ينظمونه ليصلوا الى ما يرمون من سعادة ، وهيئات هيئات لما يؤملون فإن السعادة فيها شرعه له الله ، وفي أن تبقى لسكل مامل نتيجة عمله ، وفي أن تصير الحياة ومرافقتها حقا شائما يتنافس فيه الناس بمقدار ما تهيشوا له من أسباب ووسائل « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

فأنت ترى كيف تناول ذلك الإصلاح الحمدي جماعة الأغنياء والفقراء ، أما الأغنياء فأصلحهم بالبذل ، وتطهير نفوسهم بالمعطاء ، وحفظ أموالهم بالسخاء . وأما الفقراء فأصلحهم بحفظ حياتهم ، والحيلولة بينهم وبين إراقة ماء وجوههم .

وهناك إصلاح آخر لجماعة الفقراء ، هو تمهيدهم بالتربية ، وترويض نفوسهم على القناعة ، وعدتهم بأن العاير له من الجزاء عند الله ما هو أهل له ، ولأن حرم لذائذ هذه الحياة فليس يحرم لذائذ الدار الآخرة .

ولولا ذلك الإصلاح الروحي وأثره في نفوس الفقراء والمعموزين لانتقلت هذه الحياة جميعاً على الكثير من الناس ، وشقيت بها المجموعة الانسانية الى حد كبير . فمن فضل الله على البشر إيمانهم بذلك الوعد الالهي ، وثقتهم بذلك البعيم الدائم ، وأملهم في الآخرة وما أعدّه الله لمن لم تهيه له ظروفه في هذه الحياة أن ينعم بما نعم به غيره . من فضل الله تعالى ذلك الإصلاح الحمدي الذي أصلح به الفنى كما أصلح به الفقير .

أما إصلاحه للأمره فحسبك أن الله تعالى يقول في شأن كل من الزوجين : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف والمرجال عليهن درجة » فبرنا أن للرجل من الحقوق على زوجته مثل ما للمرأة على زوجها من الحق في حدود المعروف عند الناس في معاملاتهم ومعاشراتهم ، والدرجة التي للرجال هي درجة الرياسة المفسرة بقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما ألقوا من أموالهم » .

فلم يدع الحياة الزوجية بدون رئيس يرجع إليه عند الخلاف ، واختار الله الرجل لرياسة البيت لأنه أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن أجل ذلك كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والاتفاق عليها .

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومستول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته — قال : وحسبت أن قد قل : والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

ولو أن الناس عملوا بهذه النماذج ، وقام كل بما أوجبه الله عليه من زوج وزوجة وولد وخادم ، نصلحت البيوت ، وبصلاحها تصلح الأمة ، ولكنهم لم يقدروا ذلك الإصلاح ففروا .

وفقنا الله لما يحبّه ويرضاه !

محمد أسلم المصطفى

من نفحات النبوة

في صحيح البخاري من حديث هرقل : « وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سقفا على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس ، فقال بعض بطارقه : قد استكرنا هيتك ! قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إني رأيت الهييلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختن إلا اليهود ، فلا يهتك شأنهم ، واكتب إلى مديان ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أن هرقل يرسل به ملك فسان يجبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أيختن هو أم لا ؟ فظفروا إليه ، فحدثوه أنه يختن ، وسأله عن العرب ، فقال : هم يختنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . »

ملك العرب قد ظهر ، فلا قيصرية الروم في عظمتها وسلطانها ، ولا كسروية العرس في أبتها وجبروتها ، تسوق لها المنايا الإلهية هذا الملك اهل تسوقه للعرب ، تلك الأمة المتزوية في زاوية من الدنيا بعد أن طالت عليها الأحقاب فأنستها تاريخها ، وبدلتها به حياة من القوضى الاجتماعية والاضطراب ، ففسبها الزمن وأهل وجودها من ذكرياته ، فلا يعرف عنها جيرانها أخص عاداتها ، وأعرف مميزات ، كأن لم تكن على صفة الوجود . يقول هرقل لأصحاب دولته : لمن يختن من أهل هذا العصر ؟ فيقولون له : ليس يختن إلا اليهود ! فإين أمة العرب ؟ هم لا يعرفونها ، أو هم لا يأنهون لها ، لأن الحديث حديث ملك يرث دولة القياصرة ، وملك الأكلمة ، وأين يقع العرب من ذلك ؟

ظهر ملك العرب ! فإين جغافله ؟ وأين عدده وعديده ؟ وأين أسلحته وأساطيله ؟ وأين أربكنه وعرشه ؟ وأين ملوكه وسواسه ؟ وأين صولته وعظمته ؟ لا شيء ، إنما هي الصحراء القاحلة الجرداء ينتشر فيها جماعات من الناس انتثار حبات الخرج انفرط عقدتها ، والملك إنما يقوم على قواعد من القوى المتأسكة للجماعة المنظمة ، والمال المتراكم في الخزائن ، والجيوش الجواردة ، والعلم والمعرفة يشيمان في طوائف الأمة ليرفعها من حضض الجهالة إلى مستوى الرقي الفكري ونظام السياسة ، وأنى للعرب شيء من ذلك ؟

ظهر ملك العرب ! فلينبهه الفلك في دورته انبجها جديدا ، وليقف للتاريخ لجلي على الحياة درساً جديداً في نظام الجماعات وتأسيس الملك ، وليطو تلك الصفحات البالية التي سئمت الحياة أعلايتها عن ملك القهر والخبروت ، ودول الملوك والعبيد ، والسيد والممود ، والذل

والاستعباد ، والظلم والاستبداد ، وليبدأ في صفحات الخلود ، وأحاديث المثل الأعلى ،
وليتحدث عن ملك الرحمة والعدل ، الناس فيه سواسية كأسنان المشط إغمايتفاضلون بعمل
الخير والبر والتقوى ، فقد تجاوزت الانسانية من الطموحة ، وبلغت أهددها ، واستوت
أفكارها ، واكتملت عقولها ، واستمدت استعدادا جامعا لتلقى كلمة السماء لتعيش بها على الأرض
عيشة الملائكة في أبواب البشر ، حتى يكون كل فرد منها في حقيقته إنسانا بروح ملك .

ظهر ملك العرب ! وكأنما جعل الله هذه الأمة الفطرية في حياتها عنوانا على الانسانية
في مرحلة كمالها ، فاختيرت لتكون أفقا لشمس النبوة الخاتمة إذا ما بكال فطرتها ، وكأنما
كانت عزلتها عن العالم في جزيرتها إبقاء على إنسانيتها أن يقتلها القرف والاستعباد ، وهما أدوأ
الآدواء ، وأفتك الأمراض الاجتماعية بالأمم ، إنما مثلها مثل الخاتمة من الذهب الابرز في باطن
الأرض ، فما هو إلا أن تتناول أيدي الصاغة المهرة لتفنته بالصهر حتى تزول عنه أدران منته
وأوضار يئته ، فيخلص جوهره وتصفو طبيعته .

ظهر ملك العرب ! وطلع نجم النبوة الخاتمة : « وزيد أن نحن على الدين استضعفوا
في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض » لتسطل مقاييس الناس
في الماضي ، وتوضع لهم مقاييس جديدة ترجع بها كفة العقل الانساني ، ويقوم على أساسها
ملك من الحق والعدل ، والعلم والاخاء والسلام .

وى كأن الله تعالى أفرغ العرب في هذه المرحلة من تاريخهم الجاهلي عن هذه الفلسفات
الدينية ، والديانات الفلسفية ، والنظم الاجتماعية والسياسية ، ليقيمهم على فطرتهم خالصة من
تعقيد العقائد ، والتواء التفكير ، فلم تكن لهم محوسية الفرس ومزدكيتهم ، ولا أقاليم الروم
وتنينهم ، ولا نظريات اليونان وفلسفتهم ، بل كانت لهم ديانات وعقائد ، وضروب من الدين
تقليدية لا تقوم على شبهة من علم أو تفكير ، تلفقوها تلقفا ، أو ورثوها إرثا كما يرثون عن
آبائهم المال ، وكان أكثرها انتشارا تلك الوثنية الوضيعة ، وهي أظهر العقائد بطلانا وسخفا ،
فلا تحتاج في إزالة أثرها وتمويل النفوس عنها إلى دين الحق أكثر من النظر الحسي ، وتمحريك
العقل ، ولهذا كان القرآن الكريم في حجاجه لهم يتهمهم ويذري بمقولهم « إن الذين تدعون
من دون الله لن يخلفوا دبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسألهم الذباب شيئا لا يستنقده منه » .
ولم يكن لهم جدل منطقي في الدين ، ولا كانت لهم حجة يستندون عليها في عقائدهم غير التقليد
« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون
شيئا ولا يهتدون » . وكان أكثر ما سدهم عن قبول الحق في مبدأ أمرهم المصيبة الجاهلية ،
والجهل بسنن الله تعالى في شرائعه واختيار أنبيائه ورسله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن
على رجل من القرينين عظيم » كأنهم حسبوا النبوة من جنس مراتبهم البشرية لا ينالها إلا العظماء

وأهل الثراء الواسع ، والجاه العريض ، فرد الله عليهم زعمهم بقوله عز وجل : « أَمْ يَقْسَمُونَ
رحمة ربك » وأقبحهم أن شأن النبوة والرسالة شأن إلهي لا كسب فيه للإنسان ، فقال : « والله
أعلم حيث يجعل رسالته سيميب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون »
ظهر ملك العرب ! وبعث الله تعالى خاتم أنبيائه من أشرفهم بيتا ، وأظهرهم عرفا ،
وأعزهم أرومة .

إذا اجتمعت يوما قريش لمعشر فبعد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ففى هاشم أشرفها وقديمها
وإن غمرت يوما ظن عمدا هو المصطفى من مرها وكريمها

وقد نشأ الله تعالى نبيه أكرم تنشئة ، ورباه أفضل تربية ، وأدبه أحسن تأديب ، لجنته
أمور الجاهلية كلها ، وحبب إليه الخير ، وأكرمه وعظمه وكله في خلقه وحلقه ، وأثنى عليه
بقوله : « وإنا لك لعل خلق عظيم » .

عرف الله تعالى قبل نبوته بهيمته ، فعدده بالتفكر في آياته ، والتدبر في جلال مصنوعات ،
واعترل قومه وهجر أعيادهم ، وتعبد له حتى كل سنة أربعين سنة ، فأوحى إليه شريعة الاسلام ،
والاسلام في أصوله شريعة جميع الانبياء والمرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا
والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .
وإنما تختلف الشرائع في الفروع والسياسات وما به إصلاح الخلق اختلافا يقوم على أساس
استعداد الأمة لقبول التشريع والعمل به ، وأن يكون لذلك التشريع أثر في إنهاصها وإصلاح
حالتها في عقيدتها وأخلاقها وتفكيرها بقدر ما يوائم فطرتها وعقلها ، والشريعة المحمدية جامعة
الشرائع السماوية ، فهي جامعة لخيرى الدنيا والآخرة في كل زمان ومكان ، ولكل جيل وقبيل ،
قامت على تصحيح العقيدة بتوحيد الله تعالى توحيدا خالصا لا تشوبه شائبة إشراك : « قل هو
الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . وسلكت لذلك طريق
يقاظ العقل وتحريه من رق التقليد ، وإرشاده الى مواطن الاستدلال بالنظر في الكون
وبدائعه ، وما فيه من آيات تنطق بجلال الله وتفرده بالخلق والتقدير :

وفي حكل شيء له آية تسلل على أنه الواحد

ولم يعتمد القرآن الحكيم على أساليب المناطقة من المنطرفة ، بل حاطب الناس في وصوح
موجها نظرم الى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار والظلمة التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به
الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
والأرض لايات لقوم يعقلون » « ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة

في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فنبأوك الله أحسن الخالقين .

وقامت الى جاب تصحيح العقيدة وإحسان الصلة بالله تعالى بأبواب العبادات المطهرة لأدران الدموس على دماهم الاحلاق الفاضلة توثيقا لروابط المحبة بين الخلق ؛ « ولا تسئوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . ولما نزل قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتوصل من حرمك ، وتغفر ممن ظلمك . وكان رسول الله يقول في دماهم اللهم كما حسنت خلقي حسن خلقي . وقد جعل تنعيم مكارم الاخلاق أساس بعثته وقاعدته رسالته ، فقال في حديث الموطأ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » . وانظر الى التعبير بقوله أتمم وما تجد فيه من اللطف الذي يشعرك بأن الاسلام لا يعمط الفطرة الانسانية حقها ، ولا يسكر عليها ما فيها من خير ، ولكن هذا الخير الفطري لا يؤتى أكله إلا إذا خلس من طغيان الشر عليه . والذي يتأمل تاريخ الانسانية على عهد البعثة المحمدية يعلم علم اليقين أن الشر استقرى وسد منافذ الحياة ، ولم يعد للخير سبيل الى النفوس ، وجاءت البعثة المحمدية لتحكي في الفطرة الانسانية أصول الخير وتتمم مكارم الاخلاق . قال العلامة جوستاف لوبون في كتاب حضارة العرب : « إن التعاليم الاحلاقية التي جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية للكرامة ، فقد حض على الصدقة والاحسان والكرم والشفقة والاعتدال ، ودعا الى الاستمساك بالميثاق والوعد والوفاء بالدمة والعهود ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإنشاء ذى القربى ورعى الارامل والقيام على اليتامى ، ووصى في عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة ... تلك هي الآداب السامية التي دعا اليها القرآن ، وهي أهمي بكثير من آداب الانجيل » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في سمو الخلق وجمال الفضائل ، تقول عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا ، ألين الناس ، إسما صحابا ، وروى أصحاب السير « أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر : على سلقها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله كفيك العمل ، فقال : قد همت أنكم تكفوني ، ولكني أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه » . ودخل عليه أمراؤا فارتاع لهيبته ، فقال له : « خفض عليك فأنا أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » . فهل تعرف الانسانية ضربا لحمد صلى الله عليه وسلم في كمال خلقه ؟

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت لمخافيه واحتمك
قال سير وليم مور : امتاز محمد صلى الله عليه وسلم بوضوح كلامه ويسر دينه ، وأنه
أتم من الأعمال ما يدهش الأبواب ، فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق
ورفع شأن القضية في زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم !

ظهر ملك العرب ! ولم يكن العرب من وسائل الملك إلا هذا الدين القويم ، فأثربت
نفوسهم تعاليمه وآدابه ، وراحوا يبشونها للناس في مشارق الأرض ومغاربها ، جاعلين العدل
مع العدو والولى شعارهم ، والرحمة مع الكافة دثارهم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله
شهداء بالقسط ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، عدلوا هو أقرب للتقوى » حتى ضرب
الدين بجرانه ، وقام على قواعده ملك لم تغب عنه الشمس . قال الكونت هنرى دى كاسترى :
إن أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) هم الذين جمعوا بين المحاسة في معاملة المغلوبين والرغبة
في انتشار دينهم ، وهذه الرغبة هي التي دفعت العرب الى الفتوحات ، ففسر القرآن رأيه خلف
جيوشه المظفرة ، ولم يظلموا في طريقهم أثرا للجور .

واحر قلباه !! أين ملك العرب ؟ إهم سلبوه ، لأنهم لم يحسنوا سياسته ، ولم يحفظوا
دينهم الذى أسس لهم ذلك الملك ، فأضاعوا فيما بينهم تعاليمه وآدابه ، فلم يستمسكوا بفرزه ،
ولم يعملوا بوصاياه :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته كذاك من لا يمسوس الملك بخلفه

قال هرقل في مساءته لأبى سفيان : وسألتك بما يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا
الله ولا تشركوا به شيئا ، وبينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ،
فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين !

كذلك كان أساس الملك في الصدق والعفاف والاحلام لله تعالى ، والعمل الجاد في كل
ما تتطلب الحياة من شئون ، فهل يدرك المسلمون هذه الحقيقة فيحيوا حياة الجد والعمل
والخلق الطاهر حتى يعود اليهم مجد أسلافهم ؟ عندئذ يصح أن نهتف بما هتف به هرقل :
هذا ملك هذه الأمة قد ظهر !!

صادق إبراهيم هجره

في ظلال الاسلام

(١)

تفضلت مجلة الازهر فدعيتني الى كتابة كلمة تنصل المولود النبوي ، فنظرت فرأيتني أفرغت كل ما عندي من هذه المعاني في كتاب « المدائح النبوية في الادب العربي » الذي نشرته مكتبة الحلبي ، ورجعت أنظر فيما عندي من قديم الحصول فرأيتني كما قال الحريري ، خالي الوفاض ، بادي الأتفاض ، وتلك حال تضجر النفس وترد الطاهر وهو كليل .

ولكن ما الذي يقهرني على الطواف حول المولود النبوي ؟ أنا أكتب الى مجلة ، والمجلات يحسن فيها التنويع والتشكيل والتأويل ، فلا أتوكل على الله وأكتب عما صنع الاسلام في إعزاز العقل ، والدعوة الى طهارة الوجهان :

(٢)

الاسلام يدعو الى إعزاز العقل ، وهي ليست دعوة كلامية ، وإنما هي دعوة عملية ، فالاسلام هو الذي سن طرائق المنطق في الجدل ، وعلم الناس كيف ينكرون ويعترفون ، وكيف يضلون ويبتدون ، هو الذي دعا الناس الى درس أنفسهم ، وحجب اليهم السير في الأرض ، والنظر في طبائع الأشياء .

لقد اصطدم الاسلام باليهودية والنصرانية ، أفندرون ما صنع بالتوراة والانجيل ؟ ارفعوا عن أعينكم تلك الغشاوة التي توهمكم أن الرسول كان ينودد الى النصارى واليهود . ارفعوا عن أعينكم تلك الغشاوة ، فان الرسول انتصر في زمن قليل ، ولم يبق أمامه إلا التشكي من النصارى واليهود ، إن كان الاسلام يسمح لأهله بمكابدة المنهزمين .

انظروا في القرآن ، أيها الناس ، فان فعلتم فسترونه تحدث عن موسى وعيسى وعن النوراة والانجيل بأساليب من الرفق لم يعرفها النصارى ولا اليهود .

إن موسى لم يئن عليه اليهود بمثل ما أئني عليه القرآن ، وعيسى لم يئن عليه النصارى بمثل ما أئني عليه القرآن فما معنى ذلك ؟ أليس معناه أن الاسلام دين المنطق والعقل ؟ أليس معناه أن المعاني الباقية هي أول ما يحرص عليه القرآن ؟

كان يستطيع القرآن أن يسخر من الديانة اليهودية والديانة النصرانية ، ولكنه لم يفعل ، لأن القرآن لم يكن إلا نقعة مهادنة تمر الحقائق وتنصر المرسلين .

(٣)

ثم انتقل الرسول الى جوار الرفيق الاعلى ، وبقي المسلمون يظفرون بعيون الناس ، ويفقهون بقلوب الناس .

أتذكرون ما صنعوا ؟

لقد كانوا يملكون الفض من اليهودية والنصرانية ، ولكنهم لم يفعلوا ، لان دينهم حسب اليهم كلمة الحق ، وأوصام بحب الانبياء .

انظروا في مؤلفات المسلمين لتروا كيف أسسوا على موسى وعيسى ، وكيف اقتبسوا من النوراة والانجيل .

انظروا ثم احكموا .

إن رجال الدين من النصارى واليهود لا يذكرون الاسلام في مؤلفاتهم بغير الملام ، أما المؤلفون من المسلمين فلا يذكرون موسى وعيسى بغير الاعزاز والاحلال .

أكان ذلك يقع لو كان الاسلام راض أهله على عقوق العقل ؟

(٤)

أمنت بالله !

إن الاسلام حين يوصى باحترام جميع الانبياء والمرسلين إنما يشير الى حقيقة أبدية هي التعاون الانساني على تطهير القلوب من أدران الشرك والرياء .

الاسلام أكبر من أن يقول إنه صنع كل شيء ، فهو يعترف بأنه ليس إلا خطوة سديدة موفقة تريد ما جاهد في سبيله كرام الانبياء من حرب الشرك ونصرة التوحيد .

وقد فهم المسلمون روح الدعوة الاسلامية ، فاقبلوا على درس ما وصل اليهم من آثار العقول ، ثم انطلقوا فاختلقوا فيها بينهم اختلافا شديدا ، وأعزوا العلم والفلسفة بألوف من المصنفات ، ولا يعرف العالم القديم أمة أوغلت في الفاسفة على نحو ما صنعت الأمة الاسلامية ، وظل علماءها وباحثوها يذكرون بالخير ، وإن أطافوا بمعالم الشك وتكروا لاصول اليقين .

حارب الاسلام كيف شئت ، وخاصم أهله كيف أردت ، ولكن ثق أنك مردود اليهم ما دمت تحتكم الى العقل !

(٥)

قد تقولون : ولكن تاريخ الاسلام لم يخل من أحداث حورب بها العقل .

نعم ، ولكن هل وعدكم القرآن بأن الناس سبأ تلفنون على الزمان ؟

إن القرآن نفسه دعا الى احترام الخلاف حين قال :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وحين قال :

« ولو شاء ربك لَجَمَعِلِ الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ،

ولذلك خلقهم » .

وتلك دعوة صريحة الى احترام الخلاف ، وفيها النص على إهزاز العقل ، فلولاً لخلاف

ما تقدم الناس في دنيا ولا دين .

(٦)

أما بعد : ففي ظلال الاسلام تصاولت المبادئ والآراء والمقولات .

وفي ظلال الاسلام اختلف أهل الشرق والغرب ، فكانت النحل والشيعة والأحزاب .

وفي ظلال الاسلام نهضت دعوات جريئة لو نبئت في غير حماء لقوبلت بالسيف .

وفي ظلال الاسلام طاشت ديانات حمتها رعايته من الانقراض .

وتحت الراية الاسلامية عاش الزنادقة والملحدون والسفهاء ، لأن الاسلام في صميم روحه

يحترم حق الحياة ، وفي الحياة شك ويقين ، وهدى وضلال .

فإن كان في إخواني من يخاف على عواقب ما درجت عليه من قسوة الجدل وعنف النضال ،

فأني أوجه اليهم هذا القول :

لا تخافوا على أيها الرفاق ، فاني أعيش في ظلال الاسلام

زكي مبارك

حسن الاعتذار عن الاصحاب

حكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

وكان أجود فريش في زمانه : ما رأيت قوما ألام من إخوانك !

قال طلحة : مه ، ولم ذلك ؟

قالت : أراهم إذا أسرت لعموك ، وإذا أسرت تركوك .

قال طلحة : هذا والله من كرمهم : يأتوننا في حال القوة بنا عليهم ، ويتركوننا في حال الضعف

بنا عنهم .

كيف نحبي المولد النبوي؟

يوم هز جيروت الدنيا الكافرة ، أفلاتهز ذكره قلوب مسلمين ؟

(١)

على هدى الذكري ، تسم عيون الصيرة ، وما في القلوب ، نور النبوة ، فإذا طهر أطهر ،
وساء يهر ، ونبل يغمر . هذا ما الساء ، قد عا غلام التبراه ، وإني للمحة يلمعها الحديد
البصر ، ونفحة يتنفسها الملهم الحنفر . فبأيها الشعراء بالحياة ، عشاق النور ، أولياء الحق ،
هذا نعيم النفس فاغبطوا ، ثم ما هذا النور المتألق ؟ ما هذا الجمع المتدفق ؟ أكلهم يهيم
ويشيم ؟ واخطناه ! إنما هي جفان التريد المتربة ، وبضع القم المشرعة ، وأفداح الشراب
المروقة ، تتحلب لها أشداق ملتمة ، وتضاحكها أفواه شرسة . هذا اهترار المسوسين ،
واحتلاج المرورين ، وخداع الأفاكين ، يصطنع أكثرهم دل الصوفية ، وينصع سميت الصالحين .
هذه أعلام لا للكنائب ، وصراكب ليست من التجائب ، وجموع لا لحول ولا لصول ، ولا لغير
من عمل أو قول ؛ لكنها داهية البطون الدهياء ، وفتنة الأوهام العمياء . وهكذا في دنيا
الكهراء ، وأسرار الكون مجلوة ، ودقائق العلم مفترعة ، والحياة متلفعة متطلعة ، مناضة مكافئة .
ينتهج المسمون على هذا النحو ، يذكرى سر النهوض ، وإكسير الغلبة والظفر ، وميلاد الدين
والنبوة والحضارة والمدنية ، في شخص عهد عليه صلوات الله وسلامه . فأعذنا اللهم من شر
خذلائك !

(٢)

حدثوا أننا نجدنا ، فرحنا نجد قصة المولد ، نلتبس موقع الحقيقة من التاريخ ، ونصيب
الحق من الرواية ، لنقول رشدا ، وتوיד صوابا ، عفا الله عنا ! هل فهمنا ذكرى المولد ،
ووجدنا ربح النبوة ؟ ليت ذلك يكون !

وإني لأسوق هنا حديثا قديما معاداه يفهم منه الحديث الأخير المجسد ؛ فقد حدثوا
أنه لما ولد عليه السلام ، خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، فاضاءت له قصور
الشام وأسواقها ، وقد رأى العباس رضوان الله عليه ، بعداً أكثر من نصف قرن هذا ، النور ،
واستضاء به ، مرجعه من غزوة توك ، إذ أراد ملحق الرسول عليه السلام ، فقال :

وأنت لما ولدت أشرقت لك أرض وضامت بشورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسجل الرشد نخسرت

أما والله لقد كان نورا سارت الدنيا على ضوئه ، واخترقت سبيل الرشاد بهديه ؛ فلن يهول الحق أن يقال : سقطت شرفات الايوان لذلك المولد ؛ ففي الحق أن قد سقط الايوان كله بعد حين بذلك المولد . ولي يصير التاريخ أن يقال : خدت نار فارس بهذا المولد ؛ وفي التاريخ أن قد امتحت نار فارس بعد يسير بذلك المولد ؛ وكذلك يأتي المؤرخ المدرك سنن الله في كونه أن يرد الأحداث لساعتها ، ويعلمها بأقرب مما باشرها ؛ وفي مثل هذا من إدراك السبب الصحيح ، والأصل الأول ، يتفاضل الدارسون ، ويتفاوت المفكرون .

وما يغال هذا القديم من حديث النور في شعر العباس ، إلا أحدث ما ينهم به سر التاريخ وعلل الأحداث .

فهل تفهم المولد على ضوء هذا النور؟ وهل نحبي المولد على هدى ذلك النور؟

(٣)

ألا لو أننا ندرك البعيد بالقرب ، ونقيس الغائب على الشاهد ، ونحس وراء ظواهر الدنيا حقائق تسير هذه الظواهر ، ونواميس تتحكم في هذا المتبادر ، لأدركنا النور النبوي إدراك العباس له ، وفسرناه تفسير العباس له ، ولأدركنا من قرب أن الشرق قاصبه ودانيه ، قد ألهته ظواهر الكون ، وخفيت عنه ممانيه ، ولشعرنا أننا اليوم في أضيق مما بين حجرى الرحى ، ونقطع من شقي المقص ، وما هو إلا نفس فارخانة ، وآخر محرق ؛ فإذا نحن حديث في التاريخ ، وعبرة لمن يدرك الحياة ، ويشعر بمكانه فيها .

لو أدركنا هذه الأسرار التي أحاطها الاسلام في حياته الأولى حقائق ، ورددها وقائع ، لأنفسا وأكبرنا ، ولطعننا وامتنعنا ، من أن يكون إحيانا لا نذكرى المولد النبوي الذي هو أركان الجبروت في الدنيا ، لا تسكني لتهز قلوبنا نزع الإيمان وتراض بالاسلام

لو أدركنا أن وراء السطح معاني ودقائق ، لأحلتنا يوم المولد أحل من يوم عطلة ، ولعبة حاوي ، وقصعة تريد ، وثريا نور ، وخرقة ملونة ، وهزة محذوب ، ومركب ذكر ، وموسم نكر . وأن نترك بعض ذلك والسائق منه للأطفال والسذج والأغرار . فأن من إحياء هذه الذكرى نصيب المفكرين السكار ، والمجاهدين الأحرار ؟

(٤)

ألا إن هذا المولد ذكرى ميلاد دين ، وأول حياة دولة ، ومشرق حضارة ، ومطلع حرية ، وبشرى اتحاد كلمة ، واجتماع شمل ، وتكون أمة .

وما لشرق اليوم من ذلك كله قل ولا أكثر ، فهل يلتبس عقلاؤه مواسم لمولده الجديد ، ومبعت عره المتعبد ، أحل وأسمى ، وأقرب الى القلوب من موسم ذلك المولد ؟

فتى ينتهى إحياء الكبار لهذا المولد وذكراه الى عمل يوائم جلالته ، ويلائم عظمته ؟

ومتى نتناول الحياة تناولاً جدياً ، وننظر إليها نظراً عملياً ، ونعرف موقف الاسلام ورسالته فيها ؟

متى نستشعر عظمة تلك البطولة ، ونكبر تقاليدها ، وتقنّبس من نورها ، ونذكر أنّها إنما كانت إحياء للحياة ، وتسيراً للدنيا ، فيكون إحياءنا لعيدها مظهر إدراك مرها ، وآية فهم لبابها ؟

متى نوقن أنّ الاسلام خطة في الحياة ، وشرعة للمجد ، وسبيل الى العزة ، فواسمه جولات في الحياة ، وأعياده محافل للمجد ، وذكرياته مظاهر للهمة ؟

متى يكون إحياءنا للمولد ، إن قولاً ، فقول نافع ، لا لغو ذاهب مع الريح ، قول يزيد ثروة المعرفة ، فهو مثلاً قول في تأليف ناضج يقدم يوم المولد عن دور من أدوار حياة الرسول عليه السلام ، أو تاريخ عصر من عصور تلك الحياة ، أو درس لجانب من جوانب عظمة تلك الشخصية ، فيظهر في ذلك اليوم فيمنح جائزة تجمع ما تفرق من جهد رجال القول اللافي ، والمصافحة الثمينة ، في تكرار أقوال معادة مملولة ، ليس فيها جديد ولا بينها مفيد ؟

ومتى يكون إحياءنا للمولد ، إن عملاً ، فعمل من الاحسان المنظم ، يصرف ما يبسّد في الهواء من أموال الاحتفاء الساذج بهذا المولد ، في موضع الحاجة من حياتنا ، ويسد حوزنا ، من الصحة ، والخلق ، والدين ؟ لقد ولد عليه السلام يتيماً ، فما أجل أن يكون مولده مفتوح منشأة تقي البناء وتستعجبهم ، وترد على الأمة ضائع نبوغهم واستعدادهم . وطاش عليه السلام فقيراً يجاهد الفقراء ، فما أجل أن تكون ذكرياته عملاً في مطاردة الفقر ، وتأسيس معادل القضاء عليه ، وصون ما يبسّد من جهد ، وهقل ، وخلق ؟ فكذلك تحيا الذكر ، ويخلد الأثر !

ثم متى يكون إحياءنا للمولد الأمة والدين والحضارة إحياء لجانب من وجودنا ، وإعداداً لما نستطيع من قوة ، ومن رباط الخيل ، نأق به عوادي الدهر ، وأحداث الزمن ، وجور الظلم ، فنبتج في تلك الذكرى بما هو خليق بها من خطا جديدة في مسيرنا نحو الغاية النبيلة التي كان مولد الرسول عليه السلام الخطوة الأولى في الانجاء إليها ؟

ثم متى يكون هذا المطلب في إحياء المولد خطة جامعة ، يؤيدها عزم أولى العزم منا ، وتفيض عليها بركة البطولة الحمديدية ، وقوة الارادة النبوية ؟

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أصبح القولي

المدرس بكلية أصول الدين

أساس الرقي في الاسلام

إننا نحب العطاء ، ونعجدهم ، ونحبي ذكراهم ، لأنهم ذوو نفع للانسانية ، عاشوا لأجلها وماتوا لأجلها .

ونحن نحب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ونعجده ، ونعدي يوم مولده عيدا نحتفل به لأنه أخرج العالم من الظلمات الى النور ، ووضع بذور الخير والبركة في الأرض ، وس من أصول التشريع في الاخلاق والاجتماع ما على مثله تحيا الأمم ، وترقى الشعوب .

وقد تحرى المسلمون في العصر الأول التامس به ، والعمل بإرشاده ، فسمدوا ، وكانت لهم صارة الأرض ، ثم تنكب الخلف من بعدهم طريقه شيئا فشيئا ، فبعدوا من الخير والسعادة بمقدار بعدهم عن ذلك السبيل القويم .

وإن خير ما يسديه المختفل بعباده الى أمته أن يعمد الى سنة من سنته قد درست فيحياها ، والى هدى من هديه قد ضل الناس عنه فيهديهم اليه .

وقد أخذت نفسي بهذا ، وأردت أن أنشر من هديه صلى الله عليه وسلم أبعد أترا في إصلاح المجتمع ، وأعظم بركة في سعاده .

أردت أن أدرس هديه صلى الله عليه وسلم ، وأعرضه على علم الاجتماع ، وتاريخ الامم والشعوب ، فأثر على ذلك الاكبر الذي لما أخذ به الاولون من أهل الاسلام كانت لهم العزة في الأرض ، ولما تنكبوا عنه ضلوا عنها أو ضلت عنهم .

لقد اهتمت بسد لاي الى ذلك الاكبر الذي هو سر عظمة الامم قديمها وحديثها ، ورأيت محمدا لم يغفل ولم يهمل ، بل رأيت قد علمه وحض عليه ، وكانت سنته القولية داعية اليه ، وسنته الفعلية مثالا حيا له ، ليستفيده الناس بالملم والعمل ، ويتمكن في نفوسهم فضل تمكن ، فيمكن لهم بذلك في الأرض .

لن أخترن ذلك الاكبر ، ولن أضن به ، بل سأبينه وأذيعه ، فإن أم الشرق أحوج ما تكون اليه الآن .

ذلك الهدى : هو الرقي بالناس ، وترك الشدة عليهم ، ومعاملة بعضهم بعضا باللين والعدل . وسأوضح أثر هذه المعاملة في الممالك والمجتمعات ، وأثر ضدها السيء في الناس ، وأذكر معاملة النبي أصحابه وما ورد في ذلك ، وأبين أن المسلمين كانوا بخير حينما ساروا على هذه السياسة الرشيدة ، فلما أخذوا عنها يمينا ويسارا أخذ عنهم الخير يمينا ويسارا .

ليس شيء أشد ضرراً بالأمة ، ولا أضعف لها ، وأدعى إلى انحلالها وزوالها ، من معاملة بعضها بعضاً بالشدّة والتعهر والقتل .

ذاك لأن الشدّة والتعهر والعنف تضعف النفوس ، وتغيث فيها العزة والكرامة ، وتخلق فيها المذلة والهوان ، وإذا وجدت هذه في الأمة أو في الأفراد لم تسم تقوسها إلى حليل ، ولم تضطلع بخطير ، وكانت حقيرة في تقوسها هزيلة الأمل ، ولا تؤدّد لحقير في عين نفسه ، ولا حمل لمن فقد الأمل .

فإذا عامل الرجل زوجته ، والوالد أولاده ، والمرئي تلاميذه ، والرئيس مرءوسيه ، والوالي من ولى عليهم ، وكل ذي سلطان من سلط عليهم ، بالتعهر والشدّة ، أفسدوا تقوسهم ، وأذلّوهم ، وقتلوا فيهم روح الاعتداد بالنفس والعزة والكرامة ، وهي هذه الفرد والجماعة في هذه الحياة . فإذا رأيت شعباً يسير على هذه الخطة فاعلم أنه يحفر قبره بيده ، وأنه يسعى إلى نفسه بما لا يقدر أعدى أعدائه أن يسعى به إليه .

وليس شيء أصلح للأمة وأتقن لها وأدعى إلى قوتها وبقائها من معاملة بعضها بعضاً بالرفق واللين والعدل ، لأن ذلك يقوى تقوسهم ، ويحيي فيهم الكرامة والعزة والاعتداد بالنفس ، والمرء إذا وجدت فيه هذه الصفات صمت عنه ، وبعد أمه ، ورأى نفسه ليس بعد عليه شيء في الحياة ، وعمل ما ي عليه عليه معروته ، وبعد أمه ، وقوة إرادته ، وعاش شخصاً قوياً مستقلاً يقوم بنفسه ، ويأبى أن يكون ظلاً لاحد أو محمولا على غيره .

فإذا رأيت الوالد يعامل بنيه بالرفق واللين فاعلم أنه يبني منهم رجالاً أشداء أقوياء أعزاء . وكذلك قل في المرين والرؤساء والولاة . هذه قواعد علمتها الأمم العالمة ، فسلكت سبيل النجاة ، وجهلتها الأمم الجاهلة ، فسلكت سبيل الفناء .

وإني لاستعرض حياة أمم أوربة اليوم ، فأجد الأمة منهم يعامل كل ذي سلطان فيها من هم تحت يده بالرفق واللين ، وأجد هم يحتلون باستقلال المرء بنفسه ، فيفترطون في كل شيء ولا يفترطون فيه ، لذلك حفظت للمرء فيهم ذاتيته كاملة ، واستتبعت هذه الذاتية بعد ذلك آثارها كاملة .

تجد المرئي فيهم لا يأخذ المتعلم بالعنف ، إنما يحبب إليه العلم والأخلاق الفاضلة ، ويخلق في نفسه القوة المحركة إلى طريق العلم ، والخلق الفاضل ، فيسعى اليهما من ذاته راغباً مشتاقاً ، تحدوه المحبة ، ويبعثه الأمل .

ولا يسلك إلى ذلك سبيل العنف والشدّة ، لأنه يعلم أنه يفقده بذلك شجاعته واستقلاله

وكرامته ، فيكون ما يعطيه بعد ذلك أقل بكثير مما أفقده ، ثم هو بعد ذلك لا يتحرك إلا بحرك خارجي ، فإذا وثى ذلك المحرك أو فقد ، زالت كل بواعث الخير والصلاح التي كانت تحدهو إليهما .

وإني لأستعرض تاريخ الأمم الاسلامية فأجد في أولها العزة والمنعة والظفر والانتصار ، لأخذها بمبدأ الرفق والشفقة ، فلما أضاعت هذا المبدأ وطامل الوالد أبناء بالشدة والغلظة ، وطامل المربون تلاميذهم بالقهر ، وطامل كل ذي سلطان من ولى عليهم بالغلبة ، صلبوا على فساد بعضهم بعضا ، وبلغوا من أنفسهم ما لم يبلغه منهم أعداؤهم ، وصاروا الى ما صاروا اليه . وليست تعاليم أوربا بأشد حرصا على الرفق واللين وأكره للغلظة والشدة من تعاليم الاسلام ، فإن الاسلام كان يعلم ما في الشدة والقهر من شر ، ويعلم ما في الرفق من خير ، فشدد النكير على الشدة والقهر ، وحض على الرفق واللين ، ولكن المسلمين أضاعوا تعاليم دينهم ، فعدوا عن الخير بقدر ما بعدوا عن هذه التعاليم .

قال الله تعالى : ولقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فامتن على المؤمنين بأن من أرسل اليهم رؤوف بهم رحيم ، لعله بما في الرأفة والرحمة من الخير لهم ، وليعلم من قدر الرأفة والرحمة ، ويحفظهم عليها . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت بيده جريدة يتسلك بها ، ويروج بها المساكين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قرون أمتك وملأت قلوبهم رعبا ؟

لم يرض المسلمين أن تكون بيد رسولهم جريدة ، لئلا يعلأ قلوبهم رعبا ، ويكسر قوتهم ، فلا يصلحوا للاسلام ولا لأنفسهم ، فذى والد بعد ذلك يروح ويغدو على أولاده بالقهر والشدة ؟ إنه لا يفعل ذلك إلا من أراد إسادهم ، وكسر حديثهم ، وإمالة قلوبهم .

وروى أن لبي صلى الله عليه وسلم دعا الى القصر من نفسه في خدشة خدش عرابيا لم ينعمده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم العرابي فقال اقتنص مني . فقال العرابي : قد أحطلتك بأبي أنت وأمي ما كنت لا تفعل ذلك أبدا ، ولو أثبت على قمى ! فدعا له بخير .

وإنما كان منه ذلك ليعلم المسلمين أنهم سواسية ، وأنهم متساوون في الحقوق ، وأن أعراضهم ونفوسهم وأموالهم حرام لبعضهم على بعض لا يحل لهم شيء من ذلك إلا في حق من حقوق الله . وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى فيما أوصى به رسول الله في مرضه الذي مات أنه دخل المسجد وهو معتمد على الفضل بن عباس فقال : «أيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئا فهذا عرضي فليقتنص ، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئا فهذا بشرى فليقتنص ، وأيما رجل

كنت أصبت من ماله شيئا فهذا مالى فليأخذ ، واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له من ذلك شيء فآخذه أو حلقى فلقيت ربي وأنا محلل ، ولا يقولن رجل إنى أخاف المداوة والفصاء من رسول الله فانهما ليسنا من طبيعتي ولا من خلقي ، ومن غلبته نفسه على شيء فليستن في حتى أدهوله .

هذه كانت سياسة النبي أصحابه ، فقد سمع فيهم قول الله تعالى : « واحفظ جوارحك للمؤمنين » وقد سار أصحابه هذه السيرة : فأقاد أبو بكر من نفسه ، وأقاد عمر من نفسه ، وسار الخلفاء في رغبتهم سيرة رفق ورحمة ، ثم خلف من بعدهم خلف لم يعموا مافي الرقي من خير ، أو هم علموا ولكن غابت عليهم شهواتهم ، فسفكوا الدماء ، وشقوا الأشرار ، وخرّبوا الديار ، وأخافوا الرعية ، فأماوا تلك النفوس الآية ، وخلقوا أجيالا أذلاء ، فلم يكن فيهم غنى لهم ولا لأنفسهم .

من حتى على الناس وقد بينت لهم أساس رقي الأمم وسعادتها أن أطلب أجور هدايتهم ، وأجرى عليهم أن يهتدوا بذلك الهدى النبوى ، فيرقق المرء بأولاده ، ورب الأسرة بأسرته ، والمعلم بتلاميذه ، وكل دى ولاية بمن ولى عليهم ، وأن يلزموا ذلك لزوم من يعلم أنه إذا تركه هلك ، وأن يؤمروا بأن الشدة لانهل الأشرار ، وأنها أجدر ألا يعامل بها الأولياء ، وإذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا تلك الحكمة الذهبية : « الراحون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »

محمد عرفة

الادب حلية العاقل

روى الأصمعى أن أعرابيا قال لابنه : يا بني : الادب دعامة أيد الله بها الأناب ، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب .

وقال حكيم : الادب صورة العقل ، فصور عقلك كيف شئت .

وقال آخر : العقل بلا أدب كالشجر العاقر ، ومع الادب كالشجر المثمر .

وقال غيره : الفصل بالعقل والادب ، لا بالأصل والحسب ، لأن من ساء أدبه ، ضاع نسبته ، ومن قل عقله ، ضل أصله .

وقال بلنج : الادب يستريح قبيح النسب .

ذكرى الرسول الأعظم

الكون أشرق نضرة ونميا
 من الزمان إليك حتى جنته
 أنت المؤمل للمحبوب ، وهذه
 خذها من القوم الآلى جموا بها
 داو السقام فقد تفاقم وانتفى
 هاتيك (مدرسة الحياة) تقدمت
 ماذا حملت من المعارف والنهى
 (علم الحضارة) كان قبلك خافيا
 والحق ما عرف الدعاة سبيله
 بلغ رسالة من أقالمك هاديا
 ضل الآلى جحدوه واتخذوا له
 ما هذه الأرباب ؟ ما لعبادها
 جاء (الأمين الصادق الهادى) فن
 رجفت قلوب المشركين لدعوة
 «لوا : أقطع أن يصل (محمد)
 أنعزه ونذل من أصنامنا
 إنا لنأنف أن يغير ديننا
 إن يتبع النفس الضعاف سبيله
 إن المطاول بالرجال إذا بنى

هذا مكابك فأنخذ كرميا
 فطوى الحنين وردد التلميا
 دنياك لا تبغى سواك زعيا
 وأشرع لهم نهج الحياة قسويا
 طب الآلى سبقوك منه سقيا
 تلقى أجمل شيوخها تعلما
 لما حملت كتابها المرقوما ؟
 فثبتت تظهر سره المكثوما
 حتى أقمت بشاءه المهذوما
 وحباك فضلا من لفته عظما
 شركاء من أوليائهم وخصوما
 جهلوه ربا واحدا قيوما ؟
 يكفر بدين الله كان ظلوما
 طلقت تردد فى البطاح هزما (١)
 منا عقولا رجسا وحلوما ؟
 ما عظم السلف الأعر قديما ؟
 رجل قليل المال غب يتما
 فلنحى أمتع بيضة وحريما
 جعل الدماء مادة وقروما

هم شاقبوه فكان أعظم قوة
 وجدوه صمحا لا يغنيق بمذنب
 يدعوا لهم : وب اهد قوى إنهم
 لو شئت ما جهلوا السبيل ولا رضوا
 إني رسولك ، لن أمل جهادهم

وأمر منزلة ، وأشرف خبا (٢)
 ورأوه موفور الأثاة حلما
 لا يعلمون ، وكنت أنت هليما
 دينا من الخط النبي ذميا
 أو يعبدوك ، ولن أكون سؤوما

ياقوم ماذا تميدون ؟ تاملوا
دين الحجارة ، وهو من آلامكم
أرسلت بالاسلام ديناً قياً
الكفر^(١) والبنى القديم كلاهما
فلا تغسلن الأرض من أرجاسها

من قبل أن تهتروا العذاب ألياً
خير لكم ، أم دين (إبراهيم) ؟
وبعثت خيراً للشعوب عيياً
جمالاً الحياة على النفوس جعياً
ولا صدغن غلامها المركوما



بعثوا إليه من الخافة همه
زحموه حران الجوامح ينتفى
قال : أتد يا عم ، إن وراءهم
النيران لو أنهم جعلوها
والله لى يجدوا لدى هواده
عرفوه فاتخذوا السبيل الى الأذى
وتألبوا بتطلون يقتله
يا برؤس الرأى المصلل إنهم
لاموه واتقلبوا الى شيطانهم^(٢)
أىكون من كره الضلال لقومه
الله أيده وقام ينصره
بوركت من واث يصاحبه أخ^(٣)
عيا النفوس وقى الاله حياته

يزجى الرعاء غيباً محروما
دنيا الفسوة ووردها المسموما
خطباً يشقى على النفوس جعياً
يبدى زدت صرامة وعزماً^(١)
حتى يفيتوا ، أو أكون رمياً
وتعاوروه — إذما مشوما
قتلا يرون قضاءه محتوما
طلبوا دما من كيدهم معصوما
ققضى القضاء لهم ، وكان رجياً
ووى رب العالمين ملوما ؟
فتجا ، وأدير جمعهم مهزوما
صاف ، وبورك صاحباً وحياً
وسلامها المأمول راح سليماً



إن الذى أخل الديار مهاجراً
بنوا الاسنة والسيوف وراه
رجعت محبة تذيب ظنونهم
ماذا يظن المفسدون بمصلح
الكوكب الصبار فى آفاقه
أنصار دين الله حول نبيه
من (خزرجى) الهدأو (أوسيه)
أجيب به من قادم ما مثله

ملأ النفوس وساوساً وهموما
فأحادها تجرى دما وكلوما
فتذيب أرواحاً لهم وجسوما
ينى ويهدم ظاننا ومقياً ؟
ملأ البلاد أهلة ونجومها
وصلوا (ييثرب) حبله المصروما
طابوا فروما فى الملا وأروما
فى النازلين وقادة وقسوما

(١) العزيم والعزيمة بمعنى (٢) هو ابو جهل لسه الله (٣) أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

يا فاتح الدنيا ، وما فتح أهلها
أقننت هذي الأرض من آلامها
بالباطحات الشافيات من العمى
الله أنزلها عليك درارياً
أوتيت بالفرغان مشرع حكمة
خرف الزمان ، وأحطت حكماؤه
لولا بلاغته وروعة نظمه
كثر البيان ، فن تطلب للغي
قضت هلوم الدهر منه جانباً
متجدد في كل عصر ينتهي
(دستور حق) في عين (محمد)
يتعلق المولى المعظم عبده
قسم الحياة على النفوس وإن أبى
لم يخلق الله القوى بملكه
والأرض ما سطت لتحدد ربه



يا (مولد المختار) أنت بعثتها
أبكي على الاسلام يذهب عزه
نهضت شعوب الأرض ترفع مجدها
قوموا تخوم بيوتهم ، وغزاتهم
قوم هم اتخذوا بكل محلة
أولكلنا جنب المقادة مصعب
لام جنبنا الجاهل واهدنا
وتولنا في الحادثات وكن بنا

ذكرى تساجل دمي المسجوما
وببيت مطوى الجناح مضيا
وأرى شعوب المسلمين جنوما
لا يرتضون سوى النجوم تخوما
كهنأ يضم نيامهم ورقيا
في الشرق غودر ألقه مخزوما
هذا السبيل المعلم الموسوما
في النائبات إذا تنوب رحيا

(١) الهم: اللطاش.

محمد محرم

على ذكرى الميلااد النبوى

خلقه صلى الله عليه وسلم ، وأثره في نجاح الدعوة الإسلامية

هداية الناس ، وإصلاح الأمم ، وترفية الممران ، وتوفير النظام ، وإصعاد المجتمع ، وما يتصل بذلك ، وما يساعد عليه — هذه كلها أمور تعتبر في حملتها وتفصيلها الغرض الأكبر للديانات والشرائع ، والمقصد الأمم للدعاة والمصلحين .

والذين يختارهم الله تعالى من عباده المنانين لأداء هذه المهمة العظيمة ، يختار لهم إلى جانبها أمضى الاساحة ، وأنجح الوسائل ، وأقوم السبل ، وأقوى الأسباب ، حتى يكونوا ميسرين لأداء مهمتهم ، ومجهزين بما يعينهم على القيام بأعبائها ، والاحتياط لأصعابها .

ولرأنا استعرضنا جميع هاتيك الوسائل والأسباب وما يليها ، وتقرنا كمالاتها ، وسبرناها على ضوء التجربة والاختبار ، لما وجدنا بينها وسيلة أصلح لاجتياح الدعوة ، ولا سبباً أرفع في إبلاغها آخر مداهها ، من الشيم الجلية ، والأخلاق الكريمة ، والصفات النبيلة . فهي وحدها التي تجتذب القلوب النافرة ، وتذلل النفوس الجالحة ، وتقل حدة العناد ، وتسلل السخائم والأحقاد ، وتغلب على روح المصيبة ، وتقضى على بواعث الاستكبار والاستنكاف . وهي وحدها التي تستطيع أن تفق إلى التفاهم طريقاً مبدداً ، وأن تسلك إلى الوفاق مسلكاً مسدداً ، فتسهل على الداعي دعوته ، وتهون أمام المصلح مهمته .

وعلى العكس من ذلك جفوة الخلق ، وخشونة الطبع ، وسوء المعاملة ، فإنها تباعد بين الناس وبين قبول الحق ، وتغلق قلوبهم بالكراهة له ، والاشمئزاز من صاحبه ، وتزرع في قلوبهم المداوة والبغضاء ، فتعرض الدعوة لفشل ، ويصاب الداعي بالهزيمة والاندحار . ونظرة واحدة إلى ما اختص الله به نبينا الأكرم عبداً صلى الله عليه وسلم من كريم السجايا ، وإلى ما حباه إياه من حميد الخلال ، تجعلنا نحكم لأول وهلة بأنه صلى الله عليه وسلم في طليمة الكحلة من الهداة والمرشدين ، وفي مقدمة الخيرة من الأنبياء والمرسلين .



وليس يسيراً أن يتحدث المتحدث في مثل هذا الفصل القصير عن مزاياه كلها صلى الله عليه وسلم في هذه الناحية المحسنة الوفيرة ، وحببنا من ذلك أن نقدم غيضاً من قبض ، وأن نعرض زهرة من روض :

عرف صلى الله عليه وسلم بين قومه وعشيرته منذ نعومة أظفاره بحسن الخلق ، وكرم

الطباع ، وحلو الشائل ، والنفرة من مادات الجاهلية وتقاليدها المردولة فى العقيدة والأعمال .
ونشأ مشهورا بينهم بالصدق والأمانة والعفاف ، فسموا به ذلك الى مكانة ممتازة بينهم ، جعلته
محلا لثقتهم ، وأهلا لتقديرهم . فكانوا يودعون عنده ودائعهم ، ويأمنونه على أماناتهم ،
ويحكونه قبا شجر بينهم .

حدث سنة خمس وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ، أن هدمت قريش الكعبة ،
وأعدت بناءها ، فلما بلغ البنيان مريض الركن ، اختلفوا على وضع الحجر الأسود ، وأرادت
كل قبيلة رفعه الى موضعه ، ملبا للشرف والفخر ، حتى تحالفوا وتواعدوا للقتال ، وتمكثوا
على ذلك أربع ليال ، ثم تشاوروا ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش : اجعلوا
بيسكم حكما أول من يدخل من باب المسجد ، فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، قد رضينا به ، وأجبروه الخبر ، فقال : هلموا الى ثوبا ،
فأتى به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ، ثم قال : لناخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم
أرفعوه جميعا ، ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ، ثم بنى عليه .

وعند ما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من عار حراء الى خديجة رضى الله عنها ،
بعد مجيء الملك اليه ، وإخبارها بخبره ، قال لها الرسول : لقد خشيت على نفسي ، فقالت له
خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم
وتقرى للضيف ، وتعين على نوائب الحق !

ولما دعا هرقل ملك الروم أباسفيان بن حرب فى ركب من قريش ، ليسأله عن أمر رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، كان من جملة ما قاله هرقل لأبى سفيان :

وسألتك . هل كنتم تنهونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف
أنه لم يكن ليغتر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : هل ينذر ؟ فذكرت أن لا ؛
وكذلك الرسل لا تنذر . وسألتك : ما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به
شيئا ، وبهاكم عن هادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول
حقا ، فميملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو
أنى أعلم أنى أحلص اليه لنجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ! !



هذه ثلاث شهادات صادقات ، تنطق له صلى الله عليه وسلم بكال سيرته الادبية ، وببطل
صفاته الخلقية ، قبل البعثة وبعدها ، وتدلل أوضح الدلالة على أن أخلاقه الكريمة ، قد خلعت
على دعوته ثوبا من حسن الظن بها ، والثقة فيها ، وفتحت الباب على مصراعيه امام نفوذها

الى القلوب والنفوس ، وجاءت أصدق دعاية لها ، وخير مقدمة بين يديها ، ففاضت هذه الدعوة بالنجاح ، وظفرت بالنصر .



أما بسط خلقه صلى الله عليه وسلم ، ولين عريكته ، وكرم عشرته ، وجمال أدبه ، وحسن معاملته ، فهذه حديثها يطول ، والقول فيها لا يقف عند حد .

قال قيس بن سعد بن عباد : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حاراً وطأ عليه قطيفة ، فركب ، ثم قال سعد : يا قيس اصحب رسول الله . قال قيس فقال له عليه الصلاة والسلام : اركب ، فابيت ، فقال : إما أن تركب ، وإما أن تنصرف . فانصرفت .

ودخل عليه رجل ، فأصابته من هيبته رعدة ، فقال له : هون عليك ، فاني لست بعلك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد .

وكان صلى الله عليه وسلم يتفاقل عما لا يشتهي ، ولا يذم أحداً ، ولا يميزه ، ولا يشابهه بمكره ، ولا يطلب عورته ، ولا يسمع وشاية الواشين . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يملقني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فاني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . وكان يقابل السيئة بالחסنة ، ويصبر للغريب على الجفوة في المطلق والمساة ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل عنهم ، فإن كان أحدهم قائماً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً طاده . وكان إذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويعطى كل واحد من جلساته نصيبه ، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده صلى الله عليه وسلم منه ، حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها ، ولم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه . يسكرم من يدخل عليه منهم ، وربما بسط له رداءه ، وآثره بالوداعة التي تحته .

وكان صلى الله عليه وسلم كبير المهابة ، عظيم الوتار ، فكان يبسط أصحابه بالمزاح الحق ، والدعابة الصادقة ، وكان يضحك مما يضحكون ، ويسر بما يسرون .

جاءه صلى الله عليه وسلم رجل ، وطلب أن يحمله على بعير ، فقال له : إني حاملك على ولد الناقة ؟ فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهل تله الأبل إلا النوق ؟

ويذكر بعض أصحاب الحير أن لحيان بن عمرو الانصاري كان إذا دخل المدينة طرفة ،

اشترأها في ذمته ، ثم جاء بها الى النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : يا رسول الله ، هذه هدية ، فاذا جاء صاحبها يطلب منها ، جاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أهط هذا عن ماجئت به اليك ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أألم تهد ذلك في ؟ فيقول : يا رسول الله ، لم يكن عندي ثمنه ، وأحببت أن يكون لك ؛ فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمر لصاحبه بثمنه .



إن المتأمل في هذه المناقب الشريفة ، والخصال الحميدة ، لا يتردد لحظة واحدة في القطع بأنها أقدر على جمع القلوب ، وأفضل في استئالة النفوس ، وأنفذ الى مكان الشعور والخواطر من أية وسيلة أخرى غيرها من تلك الوسائل المادية المعروفة ؛ وأن البشرية معها ابتكرت من أساليب السيطرة والاستيلاء ، واقتنت في طرق المغالبة والقهر ، لا يمكن لها أن تأتي في هذا الباب بما يعمل حسن الخلق ، وطيب الصفات ، ولا بما يدانيها قوة وتأثيرا .

ولذلك استطاع صلى الله عليه وسلم باصالة رأيه ، ووجاعة عقله ، وثقوب بصيرته ، وجودة سياسته ، وحسن تديره ، وما إليها من المزايا العالية المستمدة من جمال الخلق ، وكمال التربية ، أن يسوس العرب ، ويحتمل جفام ، وأن يتسع صدره لخشوتهم ، ويصبر على أذامهم ، حتى اتقادوا له ، وآمنوا بدعوته ، والتفوا حوله ، وقتلوا وقتلوا دونه ، وحتى فضلوه على أنفسهم ، وقدموه على آبائهم وأبنائهم وأهلهم . وهكذا يفعل الخلق الطيب ما لا تفعله النار والحديد .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك » . « وإليك لملي خلق عظيم » .

فكرى يس
المدرس بالازهر

ذم البخل وأهله

قال حكيم : البخل جلباب المسكنة .

وقال بعض الأدباء : البخيل ليس له خليل .

وقال غيره : البخيل حارس نعمته ، وغازن ورثته .

ليس المراد من قوله حازن ورثته أن الأحذر لصاحب المال أن ينمقه على نفسه غير مدخر لورثته ما يعصمهم عن المسألة ، فإن هذا من التبذير ، ولكن المراد التوسط في الاتفاق ، والقصد في الاختزان ، وكلاما معروفا لا يحتاج لبيان .

مبعود الرسول

فجر أطل على الوجود فاطلما
 ظلت مطالع كل قمم لا ترى
 قبس من الرحمن لاح فلم يدع
 ما كان ميلاد الرسول المصطفى
 يوم أغر كفاك منه أنه
 ويكاد قار كل يوم قبله
 فلو استطاع لكر من أحقابه
 ويكاد مقبل كل يوم بعده
 فلو استطاع لجاء قبل أوانه
 تتنافس الأيام في الشرف الذي
 خير أفاض الله منه على الورى
 وسناً جللاه لتعمر الدنيا به
 وافي، وليل الجاهلية مطبق
 وكذا الهداية إن قذفت بها على
 نادى الى الحسى فلما أعرضوا
 والحق أمزل لا يروع فأن بدا
 والحق أخى ما يكون مجرداً
 والحق ليس بمعتد لكنه
 مثل الريح جبرت دغاه ثم لم
 بعض الانام إذا رأى نور الهدى
 ومن البرية معشر لا ينثنى
 إن الرسول مجلأ صبح بدا
 وافي بها بيضاء، عدل كلها
 للناس كلهم حواسية بها
 والناس أكرمهم بها أنقام

شمسين: قمم سناو قمم هدى مما
 من بعده شيئاً كسكة مطلما
 لألاؤه فوق البسيطة موضعا
 إلا الربيع نضارة ونضوجا
 يوم كان الدهر فيه نجمها
 ينثنى اليه جيده متطلما
 وثبا على هام السنين، ليرجما
 يسل من خلف الزمان ليسرما
 وانساب يخرق السنين وأتلما
 ملاء الوجود فلم يغادر أصبعا
 أنى جرى ترك الجنب الممرما
 من بعده ما كانت خرابا بلقما
 فأنجذب عن جنباتها وتشمعا
 ركن الغواية والصلال تصدحا
 واستكبروا شرع الزماح فأشمعا
 مستلثا لاقى الطفاه فروما
 وتراه أوضح ما يكون مدرما
 إن دافعه يد الضلال تدفعا
 تلبث فهبت بعد ذلك زعزما
 عرفت الطريق ولم يضل المهيمما
 عن فيه حتى يخاف ويغزما
 من راح يعثر في سناه، فلألما
 لا تلقين بها الضعيف مضيمما
 لا قيصرأ تلقى بها أو تبما
 ولو أنه كان الفقير المدقما

دخلت على الجبروت وهو مقطب
وأبى له حب البقاء وطبعه
الفرس ، والرومان لم يعصهما
من لم نزعزع العواصف قبلها
ثلت عروش الظالمين وملسكهم
وجرى العباد على السجية سجداً
وترام حول النبي فلا ترى
دين المساواة الصحيحة دينه
جاءت له الدنيا فأعرض راهداً
ما جر أثواب الحرير ولا معى
من ألبس الدنيا السعادة حلة
وهو الذي لو شاء نالت كفه
لم يبيها ملكاً عصواً بل دعا
ملك به اختتم الميمن رسله
يا مصطفي أدعوك دعوة شاعر
هب لي من التفتحات ما أشق به
فلعل صدراً أن تزول همومه
ولعل ذابلة الرجا ينالها
صلى عليك الله جل جلاله

صلياً فأبصر وجهها فتعزها
إلا الصيال ، فصاوت ، فتضعها
ملك الممالك كلها أن يصرها
بعثت له بنسبها فترعها
وبنت لعرش العدل ملكاً أوسعها
له ، لا لمسخريهم ، ركعها
متعلقة أو خائفا متخشعا
برعام في الله أشقى من رعي
يبقى من الأخرى المسكان الأرفعا
بالتاج من فوق الجبين مرصعا
فضفاضة ، لبس القميص مرصعا
كل الذي فوق البسيطة أحما
له لا لسواه أفضل من دعا
وأبان أسر الدين والدنيا معا
واني إليك بشعره مستشفعا
تسأ معذبة ، وقلياً موجعا
وعايل قوم أنت يصح ويضعها
بلل من الغيث العميم فتبعها
ديا وأخرى ، شافعا ومشفعا
محمد الأسمر

أعظم مثال لتواضع العظماء

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر متادياً ينادى : الصلاة جامعة ،
ثم اجتمع الناس سعد المبر خمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم قال : أيها الناس لقد
رأيتني أدعى على خالات لي من بني مخزوم ، فيقبضن لي القبضة من الثمر والزبيب ، فأظل اليوم
وأى يوم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك . فقال
عمر : ويحك يا ابن عوف إني خلوت خديتني قهي فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟

دراسة في حياة محمد

صلى الله عليه وسلم

إن انتشار اللغات الأجنبية في الشرق مكن المتعلمين من أبناءه من الاطلاع على ما كتبه الأوروبيون في السيرة النبوية ، وأكثره يحتاج لتقويم ، فإذا بقي على حاله انحرف بهم عن الجادة التي يجب أن يقوموا عليها لفهم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .
لذلك أصبح من الواجب علينا أن ننظر فيما قاله الكتبة الأوروبيون لنصحيح الباطل من آرائهم فينا ، ونقوم المموج من أحكامهم علينا .

من أسبق هؤلاء الكتبة الى إنصاف الاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، المستشرق الافرنسي الميسور (سافاري) ، فقد وضع سيرة نبوية مختصرة ، اعتمد فيها على ما قاله علماء الاسلام ، ثم أتبعها بآرائه وملاحظاته الخاصة .

فراينا في أبحاثه عن النبي صلى الله عليه وسلم يعترف له بكل معاني العبقرية والتفوق البشري سوى النبوة .

قال : « إن محمداً كان واحداً من أولئك الأفذاذ الخارقين للعادة الذين ولدوا بمواهب سامية ، وكانوا ينظرون في الآحايين على مرشح هذا الكون لأجل أن يغيروا وجهه ، ولأجل أن يقطروا البشر في جر مركباتهم » .

تقول : لا بأس فيما قلته أيها الشاب الافرنسي سوى قوله : « لأجل أن يقطروا البشر في جر مركباتهم » ، فإن هذا القول يشعر بأن نبينا صلى الله عليه وسلم إنما قام بدعوته ليسخر البشر في سبيل خطوطة النبوة كما فعل الاسكندر ونايليون .

ولا يمكننا أن نطيل الكلام في الرد عليك لأن مقام الخطابة لك ، كما لا يمكننا أن نكتب عليك لتلا ينسب المعجزات لنا ، ولهذا نكتفي بقولنا : إن سيدنا الرسول لو كان يريد أن يكون كالقيصرية والآكامرة لعاش عيشهم ، ولبدخ في الحياة بذخهم ، ولطم ذريته بخلافته من بعده مثلهم . ولو فعل لحقت كلمة الاحتجاج عليه .

أما عمله الخلافة في قومه (قريش) فلأن القرآن عربي ، والشريعة — كما قال صاحب كتاب المواقفات — عربية ، ولا يفهمها حق الفهم ، إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم .

ثم قال العلامة المستشرق :

« إذا تأمل الانسان في الوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه محمد ، وفي قوة العظمة التي باقيا ، تعجب مما تستطيع العبقرية البشرية أن تفعله إذا ساعدتها الظروف » .

لم يخطئ "خطيبنا الداب في وصف مبقرته صلى الله عليه وسلم ، لكننا نقول : إنها عبقرية نبوة ، لا عبقرية فتوة ، وساعدتها الظروف ، لكنها ظروف محاوية ، لا ظروف اتفاقية .

قال خطيبنا العلامة :

« ولد محمد وثليا ، وارتقى الى معرفة إله واحد » .

نقول : لو قلت أيها المستشرق الفاضل : « ولد في قوم وثنيين » لكنت أحسنت ، لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يسجد لمتم قط ، حتى في زمن طفولته ، فقد روى علماء السيرة ، أنه لما اجتمع ببعض الأراهب - وكان صبيا - استحلفه بحيرا باللات والعزى على شيء ، فقال له النبي : « لا تسألني باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما » .

وقولك « إن محمدا ارتقى الى معرفة إله واحد » كلام حق ، فإن التوحيد مركز في طبعه منذ ولد ، ثم تأيد هذا التوحيد القطري بالوحي الإلهي .

قال باحثنا المستشرق :

« وبعد أن هنك محمد حجاب الوثنية فسكر في أن يحدث لقومه ديناً جديداً »

نقول : قولك « يحدث ديناً جديداً » المحدث هو الله تعالى . أما تفكيره صلى الله عليه وسلم في أن يكون لقومه دين جديد فلم يتعد فيه عن الحقيقة ، لأن نبينا كان يتطلب لقومه منذ صباه ديناً غير الوثنية . فقولك « إنه يصكر » ربما كان فيه إشارة الى آية « ووجدك ضالاً فهدى » ، فإن بعض حذاق المفسرين فسر ضلال النبي بمعنى تردده في أية الطرق يسلك الى هداية العرب ، وإيقاظهم من الشرك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم في حيرة من أمرهم ، وتفكير شديد في إيقاظهم من شقاوتهم ، حتى أراه الله الطريق الى هدايتهم : بأن أوحى إليه دين الاسلام .

قال العلامة : « تعلم محمد بواسطة أسفاره ، ورأى النصارى منقسمين الى طوائف ، كل طائفة تكفر الأخرى ، واليهود حول الأمم L'horreur des nations يدافعون عن شريعة موسى بصاد ، وقبائل العرب غائصين في ظلمات الوثنية » .

نقول : إذا كنت تريد أيها العلامة ان محمدا ارداد في أسفاره علما بما كانت عليه الأمم في عهده من ضلال وشقاء وزناح وتمصب ، وأن علمه هذا حصل بتدبير الله كي تستعد نفسه الشريفة لتلقى الوحي والنبوة ، كان قولك حسنا . أما إذا أردت شعله في الأسفار أنه تعلم علوما لاهوتية استعان بها على دعوى النبوة ، كان قولك باطلا ، لأن سيدنا الرسول نشأ أميا والامية طائق كبير عن طلب العلم وتتبع مسائله وتقييد شوارده ، وكانت أميته هذه حجة على المشركين في صحة نبوته ، ولم يسمع منهم قط احتجاج عليه بالقراءة والكتابة ، كما لم يسمع منهم أنهم قالوا له : إنك تعلمت وتلقنت في أسفارك علوما لاهوتية ، ولو علموا ذلك لاحتجوا

عليه به ، ولننقل اليها ، وكل ما عمله قومه أنه لأول مرة سافر الى الشام مع محمد أبي طالب ، وكان يؤمنذ صبياً ، حتى إنه تعلق بزمام ناقة محمد ، وقال له : « يا عم ! الى من تكلم وأنا لا أب لي ولا أم » وفي عبارته هذه عبقة من الطفولة المقدسة .

ثم سافر صلى الله عليه وسلم في شبابه الى الشام في تجارة خديجة بنت خويلد ، فساوم وباع وبيع وواد ، وكان يهيم في سفره هذه أن رضى السيدة خديجة بحسن تصرف البضاعة ، ووفرة أرباحها ؛ فلا يمكن أن يشغل نفسه بمزاولة العلم والتعلم فلا تعود ترسله مرة ثانية في تجارتها ، وكان هو وعمه أبو طالب حريصين على إرضائها ، كما يفهم ذلك مما قاله علماء السيرة هذه كلامهم على أسباب هذه السفرة .

على أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان فطنا ذكياً ، موحداً بنظره ، محباً للخير والحق والعدل بطبيعته ، فلا يضر إذا قلنا إنه كان يرى في سفره من الشر ما ينافي طبعه فيأب منه وينكره ، كما يرى من الخير ما يلائم طبعه فيرتاح اليه ويقره ، فيكون علمه في سفره علم تحقيق وتطبيق ، لا علم استفادة وتحصيل .

قال خطيبنا الأفرسي :

« وقد أثر في نفس محمد ما شهدته من أحوال الأمم ، فانسحب الى عزلته (في غار حراء) وهياً في نفسه في مدة خمس عشرة سنة طريقة في الدين يمكنه بها أن يجمع بين المسيحيين واليهود والوثنيين » .

نقول : قولك « هياً في نفسه » : المهيء والمرشد هو الله تعالى . أما قوله : « أثر في نفسه ما شهدته من أحوال الأمم » ، فحسن جداً ، إذ أنه صلى الله عليه وسلم كان يشق عليه ما يراه من ضلالهم وحماهم . فقوله هذا ينبغي أن نجعله تفسيراً لقوله الأول « إن عمداً تعلم في أسفاره » ، فلا يكون معنى لعمه إلا أنه استفاد علماً جديداً بشقاء الأمم ، وحاجتها الى نبي يبقدها من ضلالها .

ثم قال العلامة :

« هذا المشروع الديني الذي فكر فيه محمد كان واسع النطاق ، غير ممكن التنفيذ ، فرأى أن الممكن إحداث عقيدة بسيطة ، يقبلها العقل ، وتناسب جميع أمم الأرض ، وهذه العقيدة هي الإيمان بالله واحد ، يعاقب على الرذيلة ، ويكافئ على الفضيلة » .

نقول : ما أحسن ما قلت أيها الشاب الأفرسي الحر ! حقاً إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم تدرج في عرض تعاليم دينه على مشركي العرب : فكان يأتيهم أولاً بالتعاليم السهلة ، ثم بما يحتاج الى دقة وتأمل . لكن عبارتك تفيد أنه فعل ذلك من عند نفسه ، وهو إنما تلقاه بوحى من الله ، كما كان يتلقى ذلك إخوانه الأنبياء السابقون .

قال المستشرق :

« غير أن محمداً لما رأى أن الناس لا يتبعون دينه ما لم يكن هو نبيا مرسلًا من الله ، أضاف كلمة « محمد رسول الله » الى كلمة « لا إله إلا الله » .

نقول : مادامت أيها العلامة غير مسلم فلا يمكننا أن ننازعك في قولك نزاعاً قتيلاً . وكل ما يمكننا ، أن نعاتبك عليه هنا جيلًا .

ترى أن تؤمن بأفبياء التوراة ، مع أن الواحد من هؤلاء الأنبياء قد لا يؤثر عنه من أعمال النبوة وتعاليمها سوى قوله مثلاً : « إن الرب أمرني أن أقول للملك إسرائيل أن يفعل كذا ويترك كذا » . هذا كل آيات نبوته التي تجعلك تؤمن به ، ولا تؤمن بمحمد الذي أتى بتعاليم وشرائع وآداب وقوانين اجتماعية ، ظهر أثرها في إصلاح البشر ، ومهدت بين أيديهم سبل الحضارة والعمران ، وأوجدت لهم ثقافة رافية في كل ناحية من نواحي الحياة . وقد دونت ثقافته هذه وشرحت في ألوف وألوف من الكتب التي لو نفقت لكان في نفاستها من المرائد والمنافع ما هو أجدى على البشر من كثير مما في الكتب الأخرى . وقد تبع محمداً ملايين وملايين من البشر يعملون بشرائعه ، وفيهم ألوف وألوف من العلماء والصوفية والفلاسفة والساسة وقواد الحروب ، ورجال الفنون ، وأساطين الفقه والتشريع والأدب والشعر ، والمصنفين في كل فن ومطلب من مطالب الحياة ، وكلهم يعترفون بأنهم إنما استقوا علومهم من ذلك النبوع الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

فالرجل الذي ابتثقت من روحانيته روحانية الحسن البصري والجنيد والشبلي والسري السقطي وابن عربي وابن الفارض ،

الرجل الذي استقى من علمه علم الصحابة والتابعين وعلم أبي حنيفة والشافعي والاهمري والفزاري وابن رشد والفارابي والرازي .

الرجل الذي اندثقت من عبقريته عبقرية الخليل بن أحمد والرخنبري وأبي العلاء المعري والملاحظ وابن خلدون .

الرجل الذي ابتثقت من فتوته فتوة الامام علي ، وخالد بن الوليد ، وصقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وموسى بن نصير فاتح المغرب ، وقتيبة بن مسلم فاتح المشرق ، والمهلب بن أبي صفرة ، وصلاح الدين الأيوبي .

الرجل الذي أثمر وأنتج كل هذا تبخل عليه بكلمة « نبي » أيها الشاب الحر النصف وتجوود بها على أولئك الذين تعرفهم ويعرفهم التاريخ ؟ !

هذا ما أحببنا أن نعاتب صاحبنا عليه . ونعود الآن الى استماع بقية حديثه في السيرة ،

فنسمعه يقول :

« وبعد أن وضع محمد أساس طريقته الدينية على هذه الصورة أخذ من تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية ما علم أنه أكثر موافقة للعرب سكان البلاد الحارة .

« أما العرب فلم يكن محمد غافلاً عن إدخالهم في مشروعه ، كيف وهو إنما كان يعمل من أول الأمر لأجلهم ؟

« فأخذ يذكرهم بذكرى عزيزة عليهم : تلك الذكرى هي أبوة إبراهيم وإسماعيل ، وبذلك جعلهم ينظرون إلى الدين الاسلامي كأنه دين هذين القديسين .

نقول : ماد مستشرقنا إلى قفته السابقة ، فزعم أن كل ما كان يفعله نبينا صلى الله عليه وسلم صادر من عند نفسه ، وليس الأمر كما زعم ، وإنما هو وحى يوحى ، لما قامت عليه البراهين من صدقه صلى الله عليه وسلم في رسالته .

ثم وصف العلامة الافرنسي ما أوتي نبينا صلى الله عليه وسلم من فصاحة وبلاغة في لغته العربية ، فقال :

« وكان محمد واقعاً على أسرار بلاغة لغته ، تلك اللغة التي هي أغزر مادة وأدق السمع من جميع لغات الأرض . تلك اللغة التي بواسطة تأليف مقاطعها يمكنها أن تنابع الفكر مهما خلق في جو الخيال ، فتصوره أكل تصور . تلك اللغة التي بواسطة تناسب نغماتها تسمعك تارة زفير الأسود ، وطوراً هدير الأمواج ، ومرة قصف الزعود ، وأحياناً هبوب النسيمات . تلك اللغة التي وجدت من يوم أن خلق الله البشر « depuis le commencement du monde » والتي هذبها وحسن ديباجتها الكثيرون من شعراء الجاهلية . بهذه اللغة كان يخاطب محمد قومه ، فكان يعطي حكمه جميع صنوف التأثير السحري ، ويعطي تعاليمه الروعة التي تناسبها ، ويعطي الأمثال المتداولة بين أهل زمانه مسحة من الجمال جعلتها ذات قيمة غير قيمتها الأولى .

نقول : هذا ما وصف به المستشرق لغتنا العربية ، وما هي عليه من قوة التأثير في النفوس ، وصلاحياتها لتقييد أو ابد الأفكار ، فلنحرم من عليها .

ثم قال العلامة :

« ولما حان الوقت لظهور الدعوة استعان محمد على أمره بالسكتان الشديد ، فدعا أولاً أهل بيته وخادمه الأمين (أم أيمن) ، وأثر فصاحته على بعض سادات مكة فآمنوا به ، ولما شعر بقوة ورفع صوته ضد الوثنية ، وما كانت النكبات التي تنزل به ولا التنزيب عن وطنه ، ولا الحكم عليه بالموت إلا لتريد في شجاعته ، وإلهاب همته ، وفي آخر الأمر هياً لنفسه بواسطة مستشاريه السريين ملجأ في بلاط ملك الحبشة لينتهاز إليه حين الحاجة ، ثم ملجأ آخر في مدينة يثرب ، حتى إذا أحكم التدبيرين ، واستوثق من الملجأين ، ظهر في رابعة النهار ، وأعلن مقاصده في طلب المجد والفخار .

لابأس في هذا الكلام الذي قاله خطيبنا المستشرق لو لم ينسب التناذير في نشر الدعوة إلى النبي نفسه ، وأنه من وراء ذلك غرضاً خاصاً به . وقد تقدم ردنا عليه في أمثال ذلك ، فلنكتف بما تقدم .

ثم قال المستشرق :

« قاومه النصارى وقالوا فيه ما قالوا ، وأنكره اليهود ، مستبعدين أن يكون رجل مادي من أهل مكة هو المسيح المنتظر . أما مشركو العرب فقد رأوا أن دينهم الوثني الذي هو أساس سطوتهم قد زعمه محمد وعرضه لازوال ، ففكروا في قتله ، ووضعوا رأسه في المزاد ، ومع هذا فإن جميع هذه الطوائف الثلاث وأحقادهم ونساقهم في مقاومة محمد ما كانت لتخيفه . وقد كان ثباته فوق كل النكبات ، وعبقريته خلقت مستعدة لتذليل كل العقبات . ولما استولى على المدينة سلحها ضد مكة ، وصمم على أن يقهر بقوة السيف والسنان أولئك المكابرين الذين لم تغلغ فيهم قوة الحجة والرهان . كما أنه لما يئس من اجتذاب اليهود والنصارى إلى دينه نسخ الشرائع النافذة إلى مصلحتهم ، وعول في تأييد دعوته على العرب وحدهم : فكان أول ما فعله من هذا التحويل القبلية إلى مكة بمد أن كانت إلى بيت المقدس ، فقبول هذا التشريع من العرب بالتكبير والتهليل ، وعدوه نعمة سبأوية ، أما الشارع فكان يرى في هذا التحويل وسيلة إلى حمل محابته على فتح مكة منبت أسلته ، وهدف رغبته .

« وبعد تحويل القبلة إلى مكة وجه همة إلى أمر أهم : هو توحيد كلمة القبائل المتعادية ، فأنشأ نظام التآخي ، الذي بواسطته أصبح المسلمون أسرة واحدة يتسابق أفرادها إلى إعلاء شأن رئيسها

« ولما تم له كل هذا صمد إلى أعدائه ، فكأهم بذلك الشجاعة النادرة التي اكتسبها في الحروب تحت إشراف عمه أبي طالب ، فأهلته لأن يكون قائداً حربياً كبيراً . ووصية محمد لرجاله بالظفر أو الموت ، وثقتهم . بمعونة الله الموعودة ، وأملهم بالغنائم التي كانت تقسم بينهم بالعدل ، كل ذلك ألهم نفوسهم بالبسالة ، وجعل انكسارهم من رابع المستحيلات

« حارب العرب كلهم ، بأهل المدينة وحدهم ، فكان استيصاله في الهجوم ، واختياره المراكز المنيعة لزول جيشه ، وإضرامه نار الحية في نفوس أبطاله ، كل هذا جعله يتفوق على أعدائه : فكسنت تراه في وسط الحروب الموقدة ، وبين خفقان القلوب الملتبئة ، بارد القلب ، مطمئن النفس ، واثق بالنصر

« وكان دقيق النظر في مراقبة حركات أعدائه وسكناتهم ، حتى إذا بدرت منهم هفوة اغتصمها حالاً ، وعززها بمقدعة حربية ، فيكون النجاح ، ويكون الظفر

« ويوم د أحد » هو اليوم الوحيد الذي خافه فيه الخط ، ومع هذا فقد عرف يومئذ مبلغ ما لمحمد من الملطة على العقول ، وما لمقرينه من المقدرة على استعمال الخدع والمكايد . وكان من أثر ذلك أن المشركين — مع كونهم غالبين — جبنوا عن الاستفادة من غلبتهم ، وأن صحابة محمد المخاويين بقوا متمسكين به ، ولم ينفصل واحد منهم عنه .

هذا الكلام من خطيبنا الشاب الافرنسي حسن ، لكنه مبني على رأيه في أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو نفسه مصدر كل هذه التداير الحربية . أما نحن معشر المسلمين فنعتقد أن الله القوي أرسله هو الذي كان يوحى إليه بها .

على أننا لا ننكر أن له ، صلى الله عليه وسلم ، مع صحابته أحيانا تدابير شخصية ترجع الى الاجتهاد وعمال الرأي وتمس الخدع الحربية وفقا لأية « وأمرهم شورى بينهم » ، وصلا بالحديث المأثور « الحرب خدعة » .

قال خطيبنا الافرنسي :

« أحضع محمد اليهود وجبهة القبائل العربية ، وفتح مكة . وكان يعمل نفسه بالاستيلاء على الملوك المجاورين ، وأن يراهم مؤمنين به . وكان يهيئ الوسائل لهذا الغرض . من ذلك أنه أرسل اليهم رسلا يدعوهم الى الاسلام ، فان أسلموا وإلا اتخذ من عنادهم عذرا الى مهاجمتهم . وكان حسيق النظر جدا في معرفة القلوب البشرية ، فكان عماله وقواده من عتلاء الرجال . وكان طموحه الى المعالي يجعله يحول نظراته الى « سورية » من وقت الى آخر ، ويدكرها بشوق وارتياح ، فانفق ثروم يوما أن هلمتهم سفاتهم على قتل رسول أرسله محمد اليهم ، وكانوا معه في قلب السلم » .

أقول : وهذا الرسول اسمه « الحارث بن حمير الأزدي » كان صلى الله عليه وسلم أرسله الى أمير « نصري » في حوران من بلادنا الشامية ، فقتله الأمير . وبسببه نشبت بين الروم والصعابة حرب « مؤنة » . وكان المسلمون ثلاثة آلاف ، والروم أكثر منهم بأضعاف . وقد قتل في هذه الوقعة أمراء النبي الثلاثة ، على هذا الترتيب الذي رتبهم به : « زيد بن حارثة » ثم « جعفر بن أبي طالب » ثم « عبيد الله بن رواحة » حتى أخذ الراية سيف الله « خالد بن الوليد » فبطش بالروم بطشة كبرى . وقد غصم لنا خبر هذه الوقعة خطيبنا الافرنسي .

فقال :

« قطع خالد بن الوليد رمال جزيرة العرب المحرقة حتى بلغ أرض الروم ، وقال هذا القائد الباسل انتصارا عليهم كان من أعجب الانتصارات التي خلدت ذكره في تواريخ الأجيال . وهكذا كان دم عدة آلاف من الروم كافيا للانتقام من سفاتهم ، ولم يكن طمعا في غنائمهم . ومن ذلك الحين عزم محمد على اقتراع سورية من يد هرقل . وبعد قليل من الزمن رأيناه يمشي

اليها على رأس ثلاثين ألف محارب ، وكان قبل ثمان سنوات ، في وقعة بدر ، لم يمكنه أن يجمع تحت رايته أكثر من ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا . فاحتار الصحاري والرمال المحرقة كالبرق الخاطف ، وعسكر في « تبوك » ومن تلال رمالها أشرف على سورية . وقد كفاه عشرون يوما لاختضاع جميع البلاد التي في طريقه . ولما لم يسلموا وضع عليهم الجزية ، ورجع الى عاصمته منتقلا بالغنائم ، مجلا بالفخار . ثم في ثالث مرة جهز مجد لفتح « سورية » جيشا عرمرر ما يبلغ أربعين ألف مقاتل . غير أن المنية اعترضت سبيله ، وحالت بينه وبين المسير إليها ، فتجلببت المدينة بأثواب الحداد على فقده ، وشملت سكانها كآبة لا توصف ، مما برهن على مقدار ما كان لمحمد من التسلط على العقول .

عبد القادر المغربي
عضو مجمع اللغة العربية الملكية

تناسب الاصحاب

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « الصاحب مناسِب » .
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من صاحب على صاحب » .
وقال بعض الحكماء : « اعرف أخاك بأخيه قبلك » .
وقال بعض الأدباء : « يظن بالمرء ما يظن بقرينه » .
وقال عدي بن زيد :

عن المرء لا نسأل وسل من قرينه فكل قرين بالقران يقندين
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتدري مع الردى
قال الامام الماوردي عقب هذا الكلام : « فلو لم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء السوء ، وبجانب أهل الرب ، ليكون موقور المرض ، سليم المييب ، فلا يلام بعلامة غيره . وهذا قبل التثبت والارتياح ، ومداومة الاختبار والابتلاء ، متمنر بل مفقود . وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره ، وخبت باطنه ، فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا

الاستبصار

الاخلاص (١)

ذكرنا لك في مقالنا السابق نص حديث أبي أسامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الاخلاص، وبيننا بعض ما يتعلق به من فضيلة الاخلاص وحقيقته وحكمة مشروعيته . وبقى الكلام في شرح ما يقتضيه ظاهر ذلك الحديث من حبوط أجر العامل غير المخلص ، والسكوت عن تأنيبه . وهذا هو موضوع كلامنا الآن .

إن الحديث وإن لم يكن فيه تصريح بنفي الأثم عن الذي جاهد في سبيل الله يبتغي الثواب من عند الله والشهرة بين الناس ، ولكن بنفي الأثم مفهوم من المقام حتماً ، لأن السائل قد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر ديني محض وهو معرفة ما يترتب على هذا العمل من خير أو شر في نظر الدين ، فلو كان الرجل آنما لقال له صلى الله عليه وسلم : بل هو مأزور لا مأجور . وظاهر أن السائل كان جازماً بنفي الأثم وإنما هو متردد في أجر العمل وثوابه ، فأقره صلى الله عليه وسلم على سؤاله ، وأجابه بحبوط الآخر . وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الحديث يفيد أن الذي ينفي عمله على سببين أحدهما ديني والآخر دنيوي يحبط عمله فقط بدون أن يكون عليه إثم ، فلا له ولا عليه .

ولكن هذا قد يتناقض أصلاً مع أصول الدين القيمة ، وهو أن الله سبحانه لا يضيع مثقال حبة من عمل الصالحات الصادرة عن المؤمنين ، قال تعالى : « من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وقال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . وذلك لأن الجهاد حمل بر صدر عن مؤمن ، وكونه مبنيًا على سببين أحدهما دنيوي لا ينفى عنه الخير وأما بحيث لم يبق فيه مثقال ذرة من الخير . وإذا كان كذلك فكيف ينفي الحديث أجر ذلك العمل نفياً باتماً ؟ ويمكن أن يحاجب عن هذا من أول الأمر بأن مصدر وصف الأعمال بالخير والشر إنما هو المشرع ، فهو الذي يحكم بأن هذا الفعل فيه مثقال ذرة من الخير أولاً فلا منافاة

بين الآية الكريمة وبين الحديث أصلاً ، لأنه متى ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صرح بأن العمل المبني على سببين أحدهما دنيوي ، لا ثواب فيه ، فإنه لا يكون فيه مثقال ذرة من الخير قطعاً . ولكن الإمام الغزالي قد فصل في الجواب عن مثل هذا تفصيلاً حسناً فقال ما ملخصه :

إن أعمال البر التي قد امتزج بها شيء من حظوظ النفس بأن عملت لغرض ديني وغرض شهوي ، فإنها لا تحسب من أحد أمرين : الأمر الأول : أن يكون السببان الباعثان على العمل متساويين بحيث لا يرجح أحدهما عن الآخر عند العامل . الثاني أن يرجح أحد السببين ويضعف الآخر . فإن تساوى اتقاطعا وضاع الأجر وأصبح العامل لاله ولا عليه . وإن رجح السبب الديني بحيث كان هو الباعث الأصلي على العمل والسبب الآخر جاء تبعاً بحيث لو انعدم لا يترتب على انعدامه انقطاع العمل ، فإن الثواب لا يحبط ، ولكنه ينقص بقدر رغبة العامل في الحصول على ذلك السبب الضعيف . أما إذا رجح السبب الدنيوي بحيث إذا لم يوجد كف العامل عن العمل ، فإن في ذلك حبوط أجر العمل وإثم العامل ، لأنه جعل عبادة الله وسيلة للحصول على لذة ، فإذا كانت تلك اللذة محرمة كانت جنايته أشد وإثمه عظيماً . وأكبر من هذا جرماً من يعمل عملاً دينياً لمحض الشهوة بدون أن يلاحظ أمر الله مطلقاً ، لأنه في هذه الحالة إنما يعمل لهواه ولذته ، مع اتخاذ عبادة الله سلباً يتوصل بها إلى الحصول على لذته ، فهو في الواقع من شر الجناة المناقضين الذين يعملون على عكس قواعد الدين الذي جاء بالتوحيد الخالص وهو عبادة الأوثان .

هذا إيضاح ما ذكره الإمام الغزالي ضمن كلام طويل . ولا ريب أن الحديث الذي معنا ينطبق عليه الأمر الأول وهو تساوى السببين ، لأن السائل ذكر للسبب صلى الله عليه وسلم السببين مع السواء : الأجر من الله ، والشهرة عند الناس ، فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفي الأجر فقط . ويمكننا أن نحمل جميع الأحاديث المائة لهذا على هذا المعنى .

ويؤيد هذا التفصيل الذي ذكرنا أن قواعد الدين الاسلامي تقتضي الترتيب في أعمال البر وتعلم أجر العاملين ، حتى ورد في الصحيح أن من هم بمحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وهذا الترغيب يستلزم أن لا يحرم العامل من أجر عمله قام به . فإن كانت فيه جهة نقص فإنه ينقص من ثوابه بقدرها . نعم إذا كان الباعث له على هذا العمل مجرد الشهوة ، أو كان الباعث الديني ضعيفاً لا يترتب عليه استمرار العمل ، أو كان الباعث الدنيوي مساوياً للباعث الديني بحيث يتوقف عليه العمل ، فإن العامل في هذه الحالة لا يستحق أجره من الله ، لأنه في الواقع لم يعمل لله . ومن سوء الأدب أن يعمل الإنسان لتحصيل شهوة ثم يطلب أجرها من الله . وإلى هذا يشير الحديث الصحيح ، وهو : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمله أحدًا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

فهذا الحديث يقول لمن انبعث الى عمل البر يباعث أشركه مع خالقه : إنه لاحق له في طلب الأجر من الله تعالى ، لأنه لم يعمل له على التحقيق ، وهو سبحانه غنى عن عمله الذي يعمل له مع الشريك ، بل هو غنى عن العالمين جميعا .

وربما يتوهم بعضهم أن هذا الحديث يدل على أن الشريك يحبط أجر العمل مطلقا سواء أ كان قويا أم ضعيفا ، لأنه عام يتناول كل شرك ، ولكن الواقع أن الشركة التي يترتب عليها أخذ الأجر من الشريك لا تتحقق في نظر الدين الذي جاء بالعمل المطلق إلا إذا كان العمل موقوفا على الشريكين بنسبة واحدة ، أما إذا كان أحد الشريكين ضعيفا لا يتوقف على انعدامه الشروع في العمل أو الاستمرار فيه ، فليس من العدل أن يقال للعامل : خذ أجرك من هذا الشريك ، وإنما الذي يصح أن يقال له : لماذا لم نجعل العمل مقصورا على الغنى المطلق لتأخذ عليه أحرك كاملا ؟ ومن أجل هذا قلنا إن السبب الديني إذا كان قويا بحيث لو انعدم السبب الآخر لا ينقطع العامل عن عمله بل يعمى فيه حتى ولو تأملت نفسه لعدم حصول السبب الضعيف ، فإن الثواب لا يحبط ولا ينقص أجره بنسبة ذلك التألم واتقياض النفس على ضياع السبب الضعيف . أما إذا كان السبب الديني ضعيفا فإن الثواب يحبط ويأثم العامل ، لأن السبب في هذه الحالة ينزل منزلة العدم .

وفي قوله : « فإن الله أغنى الشريكين عن الشرك » توبخ لمن يشرك مع الله غيره في أعمال البر ، لأن العامل الذي يطلب الجزاء الحسن على عمله لا يكون ماقلا إذا ترك الغنى المطلق الذي لا يحتاج الى معونة الشريك في منح الأجر ، وعمل المحتاج الذي لا يعطى الأجر إلا بنسبة محدودة وقدر معين .

ولا يخفى أن هذا التفصيل الذي بيناه إنما هو في أعمال الجوارح : من جهاد وحب وصوم وصلاة ونحو ذلك ، وتسمى محمية ولكن بقي من أعمال البر أعمال اللسان وتسمى قولية ، وأعمال القلب وتسمى اعتقادية ، فهل ينطبق هذا البيان عليها أولا ؟ والجواب أن عمل اللسان كعمل الجوارح من كل وجه ، فنارة يكون مبنيا على سبب واحد ، ونارة يكون مبيعا على سببين ، فيحب على كل منكم أن ينشئ كلامه على سبب واحد صحيح وهو مرضاة الله تعالى . فإذا بي قوله لديني على غرض دنيوي محض فإنه يكون آثما لا محالة . مثال ذلك أن ينلو شخص القرآن أو ينطق بالذكر بحضرة من يحب الصالحين ليؤثر عليه بذلك فينال منه مناصبا أو مالا أو حاشا أو ليقال منه إن الرجل لا ينفك لسانه عن الذكر وتلاوة القرآن ، ولولا ذلك ماقرأ ولا ذكر ، فهذه الحالة توجب الاتم ، لأن هذا اتفاق في أعمال البر يستحق عليه فاعله سوء العقاب . ومثل ذلك ما إذا نطق بكلمة حق يريد بها باطلا ، كما إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله ليغري بها ذا سلطان على الوقعة بتمهم برى ، فإنه يأثم بذلك إنما مبيئا .

فإذا بنى الإنسان عبادته القولية على سببين أحدهما دنيوى كان فيه التفصيل الذى ذكرناه من جميع الوجوه . وكما أن الفارغ قد نهى عن بناء العبادة القولية على سبب لا يقره الدين فكذلك نهى عن كل قول تبعث اليه الشهوة والهوى . غرام على كل مؤمن ومؤمنة أن يتكلم بما لا يرضى الله تعالى كأن يمدح ظالما لا يستحق المدح للحصول على غرض دنيوى ، أو يذم شخصا لا يستحق الذم تشفيا وانتقاما ، أو يقول زورا من القول ليقنطع به حقا ، أو ينال به من عرض برئ أو نحو ذلك . ومن يفعل ذلك فإنه يكون من المحرمين الذين لهم سوء المذاب .

وأما أعمال القلب وهى الاعتقاد فإنه لا ينصور بناؤها على سبب مؤقت ، إذ لا يعقل أن يعتقد الإنسان أن الله موجود ليظهر بحال أوجاه حتى إذا ما غفر بذلك زال اعتقاده ، وإنما الذى يتصور فى ذلك أن يظهر ذلك الاعتقاد كذبا كما كان يفعل المنافقون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا يظهرون الايمان بالله ورسوله ليظفروا بالغبية أو ينجوا من بطش المؤمنين ، أو يحاولوا إغرار ضعاف الارادة ليردوهم عن دينهم ، أو نحو ذلك من البواعث الفاسدة والشهوات المضمومة . وذلك هو الرياء فى العقيدة ، وهو من أفتح أنواع الرياء ، بل هو عند الله أكبر من المجاهرة باعتقاد إلهم أحدهما يقرب الى الله زلى ، أو يقوم بمهمة يستحق عليها للعبادة كما كان يفعل المشركون المجاهرون . وذلك لأن النفاق فى العقيدة جناية عظيمة على المجتمع الانسانى ، فإنه أمضى سلاح يستعين به الشرير خبيث النفس فاسد العقيدة على قضاء لباته ، ولولا أن الله سبحانه كان يوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما كان يضره هؤلاء المنافقون من الشر لكان أترم فى محاربة الاسلام والمسلمين يومئذ عظيما ، لأن اختلاطهم بالمؤمنين مكنهم من الاطلاع على مواطن الضعف منهم والكيد لهم وهم لفاعلون . وهانحن أولاء نرى آثار المنافقين الضارة بالجماعات والافراد فى كل زمان ومكان ، فكم من منافق تمكن باظهار العقيدة التى يحبها صاحب السلطان كذبا من التشكيل بالأرياء والقضاء على الحق والعدل ، وكم من منافق أظهر إيمانه للناس فتمكن من الاساءة اليهم فى أغراضهم وأموالهم وهم لا يشعرون .

ثم إن العقيدة تارة تكون متعلقة بالله تعالى ورسوله ونحو ذلك من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة ، وتارة تكون متعلقة بغير ذلك ، فإن كانت متعلقة بالله تعالى فإنه يجب أن تبنى على سبب واحد وهو كونه تعالى موجدا للانسان ، وموجدا للوسائل التى بها يبقى فى الحياة الدنيا بقاء مؤقنا ، وفى الآخرة ناء دائما مستمرا . فالاعتقاد فى أن الله إله واحد واجب الوجود متصف بجميع صفات الكمال لا يصح بناؤه إلا على ما ثبت بالدليل القاطع الذى لا ريب فيه من أنه وحده خالق الانسان وخالق الوسائل التى بها يبقى من سماء وأرض وشمس وقر وماء وهواء وسائر أجزاء العالم ، فلا يستحق العبادة إلا من كان هذا شأنه ، وقد انحصر ذلك فى الله

وحده . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى توبيخا للمشركين « إن الذين يمدحون من دون الله لن يخلقوا دبابا ولو اجتمعوا له » وقوله : « أفئن يخلق كن لا يخلق » وقوله : « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » الى غير ذلك من الآيات التي تدل على ان الذي يستحق أن يكون إلها معبودا إنما هو الخالق الرزاق دون سواء . فن يشرك مع الله في العقيدة إلها آخر لسبب غير الخلق والرزق فهو جاهل بمقام الألوهية ، ولا يليق بالإنسان العاقل أن يعبد من لا يخلق أو من يشرك معه إلها آخر يخلق ويرزق ، فهو أشد جهالة من الأول ، لأن الشرك على هذا الوجه تحد من سلطة كل منهما فلا يصلح أن يكون إلها لأن كلا منهما في هذه الحالة يكون عاجزا عما تعلقت به قدرة غيره ، والاله يجب أن يكون كامل السلطة . وهذا السبب وهو الخلق والرزق دائم مستمر أقره الدين ، فيجب بناء العقيدة في الله عليه . وإن كانت العقيدة منعقدة بالرسول فانه يجب أن تبني على السبب الذي أثبتوا به رسالتهم من البراهين القاطعة ، فلا يصح أن يظهر أحد اعتقاده في الرسول كذبا ليظهر بفرض دنيوي كما كان يفعل المنافقون ، ومن أظهر اعتقاده في الله ورسوله أو في أصل من الأصول الدينية كذبا للوصول الى غرض من الأغراض فانه يكون كافرا بالله ورسوله ، ومأواه الدرك الأسفل من النار .

أما إذا كان الاعتقاد متعلقا بغير الأصول الدينية فان له جهتين : إحداها الكلام في جواز أصل الاعتقاد . فانيهما الكلام في الاخلاص فيه ، فأما الأول فانه لا يحمل لمكلف أن يعتقد في أمر من الأمور إلا إذا أقره الدين على ذلك ، فيحرم أن يعتقد في شخص مرتكب لجرمة الزنا أو مدمم على شرب الخمر أو تارك للصلاة أنه ولي من أولياء الله بناء على أنه قال له كلمة صادفت الواقع أو حمل أمامه أمرا غير عادي في نظره ، لأن الدين الاسلامي لم يجعل هذه الأمور سببا للولاية ، بل جعل سبب الولاية الايمان والتقوى وهي اجتناب ما نهى الله عنه وعمل ما أمر به ، وذلك يستلزم بالضرورة تعلم العلم الديني الذي يشتمل على الاوامر والنواهي . فالولي في نظر الدين هو المؤمن من العالم التي لاغير ، قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشري » . فمن يعتقد الولاية في المجاهدين بالنسبة أو الجملة الذين لا يعرفون الدين والايمان فانه يكون انما بهذه العقيدة لأنه مخالف لقواعد دينه . وأما الثاني فانه إذا اعتقد في العالم التي الولاية وجب عليه أن يبني اعتقاده على سبب واحد وهو مرضاة الله تعالى الذي أمر باحترام المؤمنين الاتقياء ومحبتهم . أما إذا اعتقد فيه الولاية لغرض آخر غير مشروع كأن يشقى له مريضا أو يقمى له حاجة ليس من شأنه قضاءها ، فانه يكون غير مخلص في اعتقاده ، لأنه بناء على سبب غير ديني . ومثل ذلك ما إذا أحب شخصا لصفة ممدوحة في نظر الدين كالمعدل ومكارم الاخلاق والعطف على الفقراء والمساكين ونحو ذلك من الصفات التي يرضى عنها الله تعالى ، فانه إذا بنى حبه وحسن اعتقاده فيه على صفة من هذه الصفات ، كان

مخلصا له ، واستحق على هذا أجر عند الله . أما إذا بنى حبه فيه على غرض خاص مؤقت فإذا قضاء انقطعت محبته أو أظهر له المحبة وهو ييغضه ويحب إساءته فإنه يكون منافقا يستحق على ذلك العقاب ، وعلى هذا القياس .

وبالجملة فإنه يجب على الإنسان أن يجعل أعماله كلها مبنية على الأسباب التي يقرها الشرع في معاملة الخالق والمخلوق ، وبذلك تكون كلها خالصة لله تعالى الكفيل بمجاء العاملين المخلصين وإعطائهم ما تقر به أعيانهم في الدنيا والآخرة . فإذا عزم على الاخلاص ولكن خطرت له خواطر نفسانية تنافي الاخلاص ، فعليه مقاومتها بقدر المستطاع ، فإذا عجز عن ذلك فإنه يعضى في عمله ولا حرج عليه ، لأن الله تعالى لم يكلف الإنسان إلا بما في طاقته ، قال تعالى : وما جعل عليكم في الدين من حرج .

وفق الله العاملين الى الاخلاص في القول والفعل والاعتقاد ، به جميع الدعاء

عبد الرحمن الجزيري

طلب الرزق بالسفر

روى أن عقبة بن ربيعة شاور أخاه شيبة في النخعة فقال : إني قد أجذبت ، ومن أجذب انتجع (أي قصد الى مواطن الغصب) . أخذ هذا المعنى أبو تمام الطائي فقال :

أراد بأن يحسوى الغنى وهو وادم ولن يفرس البث الطلا وهو راض
وقيل لأعشى بكر الشاعر : الى كم هذه النخعة والاغتراب ، أما ترضى بالخفض والدعة ؟
فقال : لو دامت الشمس عليكم لملتموها .

أخذه أبو تمام فقال :

وطول مقام المرء في الحى خلق لدياجتيه — فاعترى تنجدد
فاني رأيت الشمس زبدت محبة الى الناس إذ ليست عليهم بمرمد
وقال المأمون بن الرشيد : لا شيء ألد من سفر في كفاية ، لأنك في كل يوم تحمل محلة لم تحملها ، وتعاشر قوما لم تعاشرهم .

أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

لا يمنعك حفص العيش في دعة من أن تبدل أوطانا بأوطان
تلقى بكل بلاد إن حلت بها أهلا بأهل وإخوانا بإخوان

الإسلام والفلسفة

- ١١ -

ابن رشد

تتمة فلسفته :

يرى ابن رشد أن المشاهد في الكون هو حركة عامة شاملة ، وأن كل حركة لا بد لها من متحرك تقوم به وتحقق فيه ، وأن كل واحد من هذه المتحركات معلول لمحرك يؤثر فيه . وهذا المحرك إذا انصف بالحركة كان كذلك متحركاً معنانياً إلى محرك حتى تصل إلى الطرف الذي يحرك ولا يتحرك ، ويؤثر ولا يتأثر ، وهو واجب الوجود أو علة العلل . وإذا فالموجودات من حيث الاتصاف بالحركة والنتزعه عنها فمجان : الأول هو واجب الوجود الذي تستحيل عليه الحركة المقتضية للتغير والصيرورة اللذين يستلزمان الانحصار والتحدد والامكان وأمثال هذه التحويلات المتعاضدة مع جلال الألوهية ولا محدوديتها . أما القسم الثاني فهو ما عدا واجب الوجود لذاته ، وهذا القسم لا بد له من الحركة الأزلية الأبدية ، أما أزليتها فهي ضرورة لتحقق معلوليتها لبارئ ، وأما أبديتها فلتحقق علبيتها لمعلولاتها من ناحية وسيرها نحو الكمال ، لترضى شوقها الطبيعي من ناحية ثانية . وفوق ذلك فانه لو لم تكن الحركة أزلية وأبدية ، لا نعدم الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، لأن كل صف منها مسبوق بما هو أساسه ومنبعه ، وسابق لما هو نائبي منه ومنعرج عنه ، ومن السلسلة الأولى نشأ الماضي ، ومن الثانية ينشأ المستقبل ، إذ الزمان نتيجة لحركات الأفلاك ، وهي ليست إلا حزم الحركة الكونية العامة . والنتيجة من كل هذا أن الكون سائر في خضوع تحت راية القانون الطبيعي الذي لا يملك أحد التغير فيه حتى أفق نفسه . ويرى ابن رشد من وراء هذا التصريح إلى غاية معينة وهي أن جميع ما يحدث في الكون ينشأ بطريقة آلية نفوذ المعلول من علته التي متى وجدت استحالت تخالف معلولها مهما كانت الحال ، وهو لهذا ينفي القول بوجود ممكن الوجود ، ويخطئ جميع المنكلمين الفائلين به . ويرى ابن سينا حين قسم الكون إلى واجب الوجود وممكن الوجود بأنه إنما كان يسايرهم ليرضهم ، وأن الفيلسوف لا يمكن أن يقول هذا ، لأن معلول العلة الواجبة الوجود يكون واجب الوجود حتماً ، ولا يصبح ممكن الوجود إلا إذا انعدمت علته .

ويرى ابن رشد كما رأى ابن سينا من قبله ، وكما رأى أستاذهما أرسطو من قبلهما ، أن

الموجودات كلها حلقات من السلسلة العامة التي طرفها هو المحرك الأول أو علة العلل أو واجب الوجود ذاته ، وما يليه من الحلقات معلول له ، وعلة فيما بعده ، حتى تنتهي جميعا على هذا النظام . أما بطلان نظرية خلق الله للجزئيات فهو بطله بأنه يلزم عليه أن يكون الإله خالقا لجميع الجزئيات من غير استثناء بطريقة مباشرة ، وهذا يقتضى انعدام الأسباب كلها ، لأنه لا معنى لأن يكون لبعض المسببات أسباب ، والبعض الآخر لا أسباب له ، لأن هذا يلزم عليه ترجيح أحد المتساويات بلا مرجح ، وهو باطل . وإذا ثبت كل هذه المقدمات وجب أن تؤمن بأن الماء لا يبل ، وأن النار لا تحرق ، وإنما الذي يبل ويحرق هو الله ، وأن الإنسان إذا أُلقي حجرًا تنسب الحركة في هذا الالتقاء إلى الله ، وأن الموت كذلك من فعل الله ، مع أن المشاهد عكس ذلك : فالنار تحرق ، والماء يبل ، والإنسان هو خالق حركة الالتقاء ، والجسم يحمل في ذاته بطبيعته عنصر الموت .

فثبت إذاً ، أن لكل شيء سبباً مؤثراً فيما بعده ، متأثراً بما قبله ، إلى أن نصل إلى العلة الأولى . أما نظرية العقول عنده ، فلا تكاد تختلف عنها عند أسلافه ، غير أن كل عقل في رأيه إيجابى بطبيعة وجوده ، أى هو يؤثر في معلولاته تأثيراً مستقلاً منقطعاً عن أية صلة أو أى اعتبار خارج عن وجوده ، وهذه نقطة خلاف أخرى بين ابن رشد وأسلافه من فلاسفة المسلمين الذين كانوا يرون — كما قدمنا — أن لكل عقل جهتين أو جهات ثلاثاً على ما يختلفون في ذلك ، وكيفية اتصال العقل بالبارئ ، وتعلقه إياه ، وهذه تسمى الجهة العليا ، وكيفية تعلقه نفسه ، وهى الجهة الدنيا . فمن العليا يصدر كائن عال محرد وهو العقل الذى يليه ، ومن الجهة الدنيا يصدر كائن أدنى أو غير محرد وهو الفلك المعلوم له ، ولكن ابن رشد قد خالف هذا الرأى وقال بالإيجابية المطلقة . وهو يرى أن أكثر هذه العقول إيجابية وإنما هو العقل العاشر المؤثر في هذه الكائنات الدنيا الأرضية ، لأنه دام العمل . ولا ريب أن رأى الفارابى في هذه النظرية أقرب إلى تعاليم الاسلام من رأى ابن رشد ، لأن الفارابى يقول بالاستمداد من البارئ ، وابن رشد يقطع .

النفس عنده :

ينفق ابن رشد مع الفارابى في عنايته بتقسيم النفس إلى قوى مختلفة وإن كانت كلها متعاونة متكافة ، ويعتبر مذهبه فيها تحديداً في الفيلسوفين : اليونانية والاسلامية ، لأنه أول من قال بأن النفس أو القوة العارفة في الإنسان هي : فيض العقل العاشر الذى تحلى به على السكون المادى فأنحذه طرفاً له وحل فيه فأكسبه كل ماله من قيمة ، كما سيحى في نظرية المعرفة عنده . أما الحية والبار عنده كما عند ابن سينا فهما تمثيلان لفهم عامة لا حقيقة ثان ، لأنه يقول مثله بمقتضى الأرواح فقط ، وهما يمثلان هذا الرأى ، وهو مع البعث بالأجسام بالعلل الآتية :

(أولاً) لأن الأجسام يختلط بعضها ببعض حين تنفتحت وتصور تواباً، فيتغذى به البسات ثم يأكله الانسان فينمو به ويصبح جزءاً من جسمه . فالى أى الشخصين ينسب هذا الجسم الجديد ، وهو بعض من كليهما ؟

(ثانياً) إن الجسم لا يتكون إلا عن طريق طبيعى كتكونه فى المرة الاولى التى طاف فيها بأطوار مختلفة ، ونما أثناء هذه الأطوار بواسطة الاخلاط المركبة من العناصر الأربعة الآتية اليه عن طريق الأفضية ، من طعام وشراب وهواء ، وهذا لا يتيسر فى العالم الآخر ، فالبعث إذاً للأجسام غير ممكن .

والجواب على المنع الأول هو أنه لا معنى لأن يعترف الفلاسفة بقدرة الإامة ثم يستمدون عليه أن يفصل الأجزاء الآتية الى كل جسم من الخارج ، ثم يرجعها الى المصدر الذى أتت منه ، فإن هذا على القادر شئ هين . على أن الشريعة نصت على بقاء قطعة من الجسم وهى عجب القلب ، لتتكون أصلاً للجسم المبعوث . وهناك قول آخر بأن الجسم كله يفتى ، والله يعيده مرة أخرى ، وليس يستعمل على من أنشأ أن يعيد . أما فأميل الى رأى الأول ، لأنه أقرب الى المنطق أن يكون الجسم الذى شاهد الأعمال هو الذى يشاهد ثواب الروح أو عقابها ، ويشهد أمام الله على مارأى . وأما المنع الثانى فيجاب عنه بأنه لا مانع من أن يكون لدى الله وسائل أخرى لإنشاء الجسم من عدم ، أو لاعادة تكوين الجسم البالى من غير اجتماع الاخلاط وتلاقى العناصر التى يقصرون عليها قدرة الله . ومن حيث إن الزمن يوتنا فى كل يوم أن عقائدنا الأولى فى قصر الأجسام على خواص معينة وفى حد الغايات بوسائل خاصة ، عقائد باطلة ، فينبغى ألا يعتمد الفلاسفة على هذا الخيال الواهى ، لاسيما وأن الله هو الذى اختار وسائل جمع الاخلاط لامادة تكوين الجسم ، فليس يصعب عليه أن يختار لاعادة هذا التكوين وسيلة أخرى لم تدور لمولاء الفلاسفة بخلافه .

أما الأدلة النقلية على البعث بالأجسام فلا عمل فيها للشك ، ولا مجال للتأويل ، مثل قوله تعالى : « وقالوا الجلودهم لم تشهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » . وقوله حل شأنه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . وقوله تعالى : « كلما نصحت جلودهم بدلائلهم جلوداً غيرها » . وقوله سبحانه : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . وقوله تبارك اسمه : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . الى غير ذلك مما هو جدير بإسكات أفصح الألسنة وإخفات أقوى الأصوات ، وإخفاء ألصع الحجج وأسطق البراهين . وإذا انضح أن البعث بالأجسام ، ثبت أن الجنة والنار حقيقتان من الحقائق ، لا تمثيلان لأفهام العامة والجاهل كما رأى أولئك الفلاسفة .

والآن بقي أن نقول لم جميعا : إنكم حين ترمون القرآن بأنه لا يقصد الحقيقة وإنما يقصد التمثيل لأفهام العامة الذين لا يدركون المعاني العالية إلا إذا صورت لهم بصورة مادية ، تهمونه بالتمويه والاغراء . ومهما تأولتم في أحكامكم على القرآن وأنتمم بالبراهين السوفسطائية المؤيدة لهذا التأويل ، فلي يحمل كلامكم على غير الاتهام بالتمويه . وهذا هو سر اتهام الامام الغزالي الاولين منكم بالكفر والمروق عن الدين .

نظرية المعرفة عنده :

بسط ابن رشد في كتابه (سعادة النفس) وفي شرحه للكتاب الثالث من النفس لأرسطو نظرية المعرفة بسطا فاق فيه كل الذين تقدموه من فلاسفة العرب ، واستحدث في هذه النظرية أفكارا جديدة لم يسبقه إليها أرسطو نفسه ، إذ نقد المؤلفين الذين شرحوا كتب أرسطو ولا سيما الاسكندر الافروديزي ، ثم أحل مذهبه المستحدث في هذه النظرية محل ما هدمه من مذاهب أولئك الشراح الذين صوروا كلهم في مذاهبهم عن أرسطو ثم اختلفوا في النتائج ، لأنهم بنوها على مقدمات خاطئة .

يرى أرسطو أنه كما أن الانسان مركب من جسم وروح ، وهما جوهران مختلفان ، أحدهما إيجابي والثاني سلبي ، كذلك القوة العارفة مؤلفة من جوهرين متباينين تباين الروح للعادة ، وكذلك أحدهما سلبي والثاني إيجابي كالجسم والروح سواء بسواء . ولا ريب أن الإيجابي عند أرسطو أرفع من السلبي ، لأن الأول فاعل مؤثر ، والثاني منقعل متأثر كما نص على ذلك في فلسفته . ولما رأى الشراح هذا الرأي للمعلم الأول ورواوا كذلك أن الماي الذي كنت فيه القوة أسبق في الوجود الذهني من الإيجابي ، وأن ثبوت هذه الأسبقية للسلبي يناق ما حكم به عليه أرسطو ، صرحوا بأنه يجب أن يبحث عن تحقيق ما حكم به المعلم الأول على هذين النوعين في غير النفس البشرية . وهذا لا يتيسر إلا إذا جزمنا بأن الشق الإيجابي غير شخصي ، وقد قال الشراح بهذا ، ولكنهم وقفوا عند هذا الحد فمقدوا النظرية وأطلقوها ، وتركوا العقول حائرة في توجيه كلامهم عنها . فلما جاء ابن رشد صرح بأن هذا القسم الإيجابي هو نفس العقل العاشر ، وهو أقرب العقول إلينا ، فهو يشرف على المعرفة العامة ويفيض علينا أجزاءها .

ملخص كل هذا إذاً ، هو أن أرسطو حزم أولا بأن هناك شقين ، أحدهما سلبي والثاني إيجابي . ثانياً ، أنه قال بمادية الأول ولا مادية الثاني ، وأن الشراح استخلصوا من هذا أن القسم الإيجابي يوجد خارج النفس البشرية ، وأن ابن رشد وحد بين هذا القسم الإيجابي وبين العقل العاشر .

وقد قال الاسكندر الافروديزي : إن الشق السلبي المادى ليس إلا ظرماً للشق الايجابى الذى هو الحاكم المؤثر . وعلى الجملة : فالقسم السلبي فى الكائن هو ما كان يسمى العرب بالهوى ، والايجابى هو ما كانوا يسمونه بالصورة . أما بالنسبة الى القوة العارفة ، فإن رشد يحزم بأن السلبي هو « هوى » وأن الايجابى هو فيض العقل العاشر ، وأن ما لدينا من معارف خاصة هو بعض هذا الفيض اللامع من العقل العاشر .

وأدوات المعرفة البشرية عند هذا الفيلسوف هى العقل ، وورسلة التى هى الحواس ، والوسيلة الوحيدة الموصلة الى جمل هذه الاداة تؤدى وظيفتها على أحسن وجه هى التنقيف وحده .

ومن هنا يرى مقدار عمق الطابع الأرسطوطالىس فى فلسفة ابن رشد أكثر مما سبقوه من فلاسفة الاسلام ، لأن ابن سينا يقول بوسيلتين للمعرفة ، وهما : الثقافة والرياضة . وهذا هو التأثير بالمدى الذى دس على أرسطو فى العصر الاسكندرى ، وما هو فى الحقيقة إلا مزيج من مذهبي أفلاطون وأفلوطين ، أما ابن رشد فهو يفرّد الثقافة ويختصها بأنها وسيلة المعرفة . وهذا هو نص قول أرسطو : « أنا لا أعرف إلا إنسانين : إنسان مجرب عالم ، وآخر خال من التجربة جاهل » .

أما رأينا فى فلسفة ابن رشد ، فلا يكاد يخرج عن الدائرة التى هاجمنا فيها ابن سينا والقارائى ، لأنهم جميعاً يسجون على منوال واحد وهو منوال أرسطو الذى افتننوا به فعالموا فى تقليده متغالة حالت بينهم وبين النظر فى أفواه الروية فيما يخالف للعقل السليم من مذهبه فراجع ما رددنا به على هذين الفيلسوفين فى مسألتى قدم العالم وتوسط النفوس الفلسفية فى نقل علم الجزيئات الى البارى .

هذا وقد نمود فى فرصة أخرى فمنعحدث اليك عن بعض فلاسفة الاسلام الآخرين الذين لم نتناولهم فى هذه السلسلة ، قالى الملتقى .

الدكتور محمد غموب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

فلسفة ابن رشد

رأيه في قدم العالم

قرأت ما كتبه حضرة الدكتور محمد غلاب في رأى ابن رشد في قدم العالم فلم أراه مطابقا لمذهب ابن رشد المعروف لنا في هذه المسألة، بل ولا لغيره من مذاهب الفلاسفة الأهلين، فرأيت أني آتي بنس ما ذكره ابن رشد في كتابه فصل المقال، وها هو ذا :

قال في كتاب فصل المقال ما نصه : « وأما الصنف الموجود الذي بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء أعنى من الفاعل . وهذا هو العالم بأسره ، والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم . فان المتكلمين يسلطون أن الزمان متقدم عليه أو يلزمهم ذلك ، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الوجود الماضي والزمان الماضي ، والمتكلمون يرون أنه متناه . وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته . وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال في المستقبل ، فالوجود الآخر قد أخذ شيئا من الموجود الكائن الحقيقي ، ومن الموجود القديم ، فن غلب ما فيه من الشبه بالقديم سماه قديما ، ومن غلب ما فيه من شبه المحدثات سماه محدثا ، وهو في الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا . ومنهم من سماه محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته لكون الزمان متناهيا عندهم من الماضي . فالذهاب في العالم ليست تتعاهد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لا يكفر ، انتهت عبارته .

وتوضيح ذلك أنه قسم الموجودات الى ثلاثة أقسام : موجود لا عن علة ولا من مادة وهو الله واجب الوجود الفنى المطلق عن كل ما صداه ، وموجود عن فاعل ومن مادة والزمان سابق على وجوده وهي الأجسام التي تدركها بالحواس كالماء والهواء والاروا الانسان والحيوان والنبات . وهذان القسمان من الموجودات لا خلاف فيهما ، إنما الخلاف في القسم الثالث وهو الذي ذكرنا لك نص عبارته فيه . وبيانها أن مواد العالم التي لا تدرك بالحواس قبل أن تأخذ صورتها الشخصية وما يتعلق بها من الأرواح المجردة عن المواد موجودة من فاعل وهو الله تعالى باتفاق ، ولكن اختلفوا في أنها مسبوقة بالزمان فتكون حادثة ، أو غير مسبوقة فتكون قديمة . أما المتكلمون فانهم يقولون إنها حادثة مسبوقة بالزمان . وأما الفلاسفة فانهم من يسميها محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته . أما كونها محدثة فلصدورها عن الفاعل ، وأما كونها أزلية فلوجودها قبل الزمان المتناهي عنده ، لأن الزمان له نهاية ينتهي عندها في الماضي ، ومادة العالم والعقول موجودة قبل ذلك . ومنهم من يسميها قديمة وهو أرسطو وفرقته ، لأنهم

يقولون إن الزمان وهو مقدار حركة الفلك الأعظم لا أول له، فهو غير متناهية في الماضي، فالعالم لا أول له لاستناده إلى القديم الذي لا أول له. وسنوضح لك مفهومهم في مقالنا الآتي

فإن رشد صرح بأن العالم موجود قبل الزمان، ويسمى محدثا لقبه بالمحدثات الجسمية الصادرة عن التعامل، وقد عدا لشبهه بالقديم الذي لم يتقدمه زمان. وقد قال بعد ذلك في الكتاب المذكور: إن ظاهر القرآن يؤيد هذا، فقد قال تعالى: «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء». فظاهر هذا يفيد أن العرش والماء كانا موجودين قبل الزمان المقارن لحركات الأجسام، ولكنه سكت عن كونه صادرا من الإله بطريق الخلق والابحاد، فيكون له أول وإن لم يسبقه زمان، وهو صادر بطريق التعليل بمعنى أن الإله علة فيه فيكون وجوده مقارنا لوجود الإله في الخارج مقارنة العلة للمعلول بحيث لا ينفكان عن بعضهما، فلا يكون له أول. وفي هذا المعنى الثاني نقص لأنه ينشئ الاختيار عن الإله، ولهذا قام الخلاف بين المنكلمين وبين الفلاسفة الذين نقلت عنهم نظرية المقول وقدمها وقدم المادة. وقالوا إن الذي يقول ذلك الكلام يكفر لأنه سلب عن الإله أخص صفات الكمال وهو الاختيار. فإذا كان ابن رشد يريد أن يوفق بين المنكلمين والفلاسفة فإنه يزعمه أن يقول إن الفلاسفة لم ينفوا الاختيار عن الإله، وأنه لا يلزم من قولهم العالم قديم أنه لا أول له في الوجود كالأله، وإنما هم يريدون أنه غير مسبوق بالزمان المعروف. وهذه النظرية يسلّم بها المنكلمون، وعلى هذا يكون الخلاف لفظيا كما قال ابن رشد.

ولمّا قال الدواني والطوسي إن الفلاسفة لم ينفوا عن الإله الاختيار. وقال بعض علماء الفلسفة إنهم قالوا إن العالم واجب الوجود لغيره بمعنى أن الله تعالى أوجب على نفسه إيجاداً أو تطلعت إرادته به فصار واجبا، فرأى ابن رشد التوفيق بين مذهب المنكلمين والفلاسفة في هذه المسألة، لأنه يقول إن الإله لم يزد عمله عن كونه صانعا يضع التصميم لمادة موجودة حركتها طبيعية فيها، وأنه يصورها بالصورة التي تقتضيها الحكمة كما يصور صانع الآباريق والقلل أو أنبسه من موادها الموحودة أمامه، وأنه لا عمل له في التناسل الجبلي سوى تخليص الأبناء من الآباء، لأن هذا الكلام يفيد ظاهره أن المادة موجودة بطبيعتها غير مستندة إلى الواجب، وأن ليس للإله إلا إفاضة الصور، وهو نقص عظيم في مقام الألوهية ينزه تعالى عنه. فعلى حضرة الدكتور أن يذكر لنا النص الذي يدل على ذلك، أو يقول عبارته بما يجعلها قريبة من مذهبه إن كانت تحمل التأويل، كي لا يكون مثل هذا القول سببا في الحرّاة على مقام الإله. وهذا سنكتب في العدد التالي بياناً لمذهب الفلاسفة وما قبل فيه، إن شاء الله.

عبد الرحمن الجزيري

التشريع المصرى والتشريع الإسلامى

وضع التشريع الإسلامى مصالح الناس المتشعبة فى المنزلة الأولى من عنايته ، فتناول الكلام عن ملائسات النوع البشرى من فائحة أمره الى خاتمة عمره ، ثم عقد علماء الفروع البحوث المستفيضة فى تلك المناحي ، فتناولوا الكلام عن النكاح ومقدماته وأحكامه وتوابعه ، وعن النفقة بأنواعها ، وعن الطلاق فى جميع صوره وأحكامه ، وعن العدة وأحوالها وآجالها ، وعن ثبوت النسب ، والرضاعة ، والوصية والحجروالهبه والموارث . هذا الى أحكام المعاملات وأحكام الوقف ، كل ذلك بما لا مزيد عليه .

ولقد استطاعت المحاكم الشرعية أن تثبت بحلاء فى مدى خمسين عاما تقريبا كفايتها على ممارسة الفصل فى الأحوال الشخصية القائم عليها النزاع بين المتقاضين ، واضطلاعها دون سواها بتلك الاعباء الثقيل ، حتى لقد حدثنى مستشار قدير وهو اليوم وزير أمه وقد كان رئيسا لاحدى الدوائر المدنية فى محكمة الاستئناف العالى كانت ترض عليه قضايا يأتى فى ثناياها مطلب حثيث من أصحابها بفرص تفقه لبعض هؤلاء على لسان محاميه ، ومع أنه كان مقتنعا بضرورة فرضية هذه النفقة على أن لا يزدأجلها عن الضرورة الملابة ، غير أنه من ناحية أخرى كان يرى أن معالجة هذا الباب من محل القاصى الشرعى ، فيجب الأيفات عليه فى أخص شتوه ، والقاصى الشرعى إذا فصل فى باب النفقة بأنواعها مثلا فاقما يصدر عن استهداء بالشهادات ومعالجة للمعاملات وما عرض له من تجاربه فى تطبيق الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانساء ، لا يعورهم إذا ثبتت الحاربه خطأ فى التطبيق أن يتقدموا صفا واحدا الى أولياء الكلمة وأن يطالبوا بادخال تعديل أو تعديلات على ما يجرى به العمل من مذهب أبى حنيفة ، فلا فضاة عليهم أن يطلوا الى أولياء الكلمة بتطبيق مذهب أو مذاهب لأئمة وإن لم يكونوا من الأئمة الأربعة متى كان فى تطبيق هذه المذاهب تحقيق لمصلحة المتقاضين وإثناء على مرافقهم

لكن ما أسرع أن تمحضت حيل الناس فى تطبيق مواد الطلاق ، ومواد النفقة ، واقتناهم فى الحرب من تطبيق الأحكام الشرعية على مذهب أبى حنيفة عن غير القضاة الشرعيين وعدم قدرتهم على تطبيق تلك الأحكام تلقاء ما يبيديه المطلق من أفاير وحيل للفرار من طائلة العقاب ، وما يبيديه المحكوم عليه بالنفقة ، وما يبرز من حيل المحتالين فى ذلك الميسدان المبسط الذى لا يحمده تقنين ، ولا يردع عن العبث به رداع ، فجاء القضاة الشرعيون بالعكوى من فشل هذه التجربة ، وقد شعروا بضرورة البحث فى غير مذهب أبى حنيفة من المذاهب مما يسد حاجة المتقاضين ويفسح المجال للقضاة باعتبارهم المطبقين لأحكام الشريعة والمهيمنين على تنفيذها

في مواد الأحوال الشخصية ناثين في ذلك كله عن ولي الأمر في البلاد، وما يقطع الطريق على حيل المحتالين، وما يفتح عيون الباحثين على ثروة غزيرة من العلم كانت ولا تزال منها ينهل منه المتقاضون وغير المتقاضين، وما يقوم دليلا في كل يوم على أن الفقه الاسلامي كفيلا بمسايرة كل عصر وجيل، وخلق بأن يحمل أمانة البشر في مختلف مرافقه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فوضع مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٠ خاصا بأحكام النفقة وبعض مسائل الأحوال الشخصية مؤلفا من ثلاث عشرة مادة، وهو يتناول معالجة الأحوال التالية :

(١) النفقة (٢) المعجز عنها وما يترتب على ذلك المعجز من الآثار (٣) حكم المفقود وما يترتب عليه قبل الخصوم من حقوق (٤) حكم القاضي بالتفريق للعيب وما يترتب على ذلك العيب من آثار مباشرة وغير مباشرة (٥) الترخيص للزوجة بطلب التفريق من القاضي حال قيام العيب في زوجها وحاجة المجتمع إليه (٦) أحكام عامة متفرقة . ثم درجت المحاكم على تطبيق ذلك القانون بأمانة وتوفيق، ودرج المفتشون القضائيون في وزارة المحاسبة على تتبع تطبيق ذلك القانون، وتبين المدى الذي وصل اليه من إصابة حاجات الجمهور وسد كفاياتهم وإقناعهم بأن في ثنايا الفقه الاسلامي ما يكفل بمش الطمانينة الى قلوبهم وإيصال الحقوق الى ذويها، فلم تحض فترة من الوقت غير طويلة حتى استفاضت تقارير المفتشين القضائيين بأعطر الثناء على ذلك الأثر الطيب الذي تركه قانون سنة ١٩٢٠ في قوس المتقاضين .

وهكذا تحورت عقول طلاب الإصلاح من رتبة التقليد من كل قديم، واقتنعوا بأن تطور الحياة وتشعب مسا لكها وما يجد فيها من أحداث وعبر من أقوى الحوافز على تنس أفضل المناهج في باب التقاضي وكفالة مصالح الناس وودها الى أمثل طريق وأبلغ محبة .

من أجل ذلك اطراد البحث عما يسائر مصالح الناس ويحاشي رغائبهم، وما يدفع عن المجتمع مله وأمراته، فحضر المصلحون مرة أخرى بصراحة حماية الأسر من تلك الأمراض التواتية التي لم يدفعها ما هو مدون منها في لائحة المحاكم الشرعية خاصة بالطلاق والتفريق للنفقة ويدعوى النسب وسن الحضنة وما الى ذلك، فوضع مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ خاصا ببعض الأحوال الشخصية يتألف من ٢٥ مادة، وهو يقع في تسعة أبواب : الباب (١) الطلاق (٢) الشقاق بين الزوجين (٣) التطبيق لغير الزوج (٤) دعوى النسب (٥) النفقة والمدة (٦) المهر (٧) سن الحضنة (٨) المفقود (٩) أحكام عامة .

ولا تزال الأمة في مسيس الحاجة الى وضع قانون موضوعي، فاشير بوضع ذلك القانون، ثم تالفت لذلك لجنة تحت رئاسة فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر، ونعتقد أنها بالغة ما تصبو اليه الأمة من كفايته لمرافقتها وسد عوزها التشريعي .

لنا طلاب الإصلاح الى سن قانون موضوعي يحيط بقدر المستطاع بموافق الناس ويسد كفايتهم القصائية ويحرم العقول من كل تقليد لا يتفق ومصلح الجمهور .

فالقول إذا بعدم مسايرة التشريع الاسلامي في شتى مراحل تطورات الزمن وملازماته واللجوء الى اقتباس بعض الاطحة الأوروبية في معالجة شئونها المتعلقة بالأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان أو في المعاملات القائمة على الحقوق المدنية ، ضلالة من ضلالات العقل ، ووضع شيء في غير مركزه اللائق به . فالتشريع الاسلامي قادر على أن يؤلف من أعماقه الصالحة ونظرياته الخالدة المتشعبة مع كل عصر وجيل لعالم كله قوانينه الجنائية والمدنية والتجارية مما نحاول بسطه في بحوث تالية ؟

عباس طه

تصحيح أخطاء في الجزء الثاني

س	س	خطأ	صواب
٩١	٢٢	طسم	حم
٩٦	٣	ويردن	ويردون
٩٧	٢٧	بالرحمة	بالمرحة

ووضعت أثناء الطبع صفحة ١٤١ مكان ١٤٠

ذخائر الموارث في الدلالة على مواضع الأحاديث :

هو فهرس جامع لأحاديث الكتب السبعة يرشد إلى مواطنها منه طريقة سهلة . وهو فوق ذلك قد جمع مرويّات كل صحابي وصحابة ، وأسماهم ، مرتبة على حروف المعجم ، وعدد الأحاديث المختلفة للمواضيع في تلك الكتب جميعا . قامت بطبعه جمعية النشر والتأليف الأهرية ، ومثمه ستون قرشا .

تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد :

هو مجموع صالح من الأحاديث النبوية للإمام زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين المراقى من أهل القرن التاسع الهجري . قال في مقدمته : « لما رأيت صعوبة حفظ الأسانيد في هذه الأعصار لطولها ، وكان قصر أسانيد المتقدمين وسيلة لتسهيلها ، رأيت أن أجمع أحاديث عديدة في تراجم محصورة ، وتكون تلك التراجم فيما عد من أصح الأسانيد مذكورة إما مطلقا على قول من صححه ، أو مقيدا بصحابي تلك الترجمة ، الخ الخ » ثم أخذ في سرد الأحاديث التي أخذ أئمة العقه منها مذاهيبهم ، وكلها أحاديث صحيحة ، مكنتها يذكر راويها الأول عن الصحابي أو الصحابية . وقد ملق على هذا السفر الجليل فضيلة مصححه الأستاذ محمود حسن ربيع من علماء الأزهر

الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد :

صدر القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الذي يقوم بوضعه وشرحه فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البناء ، وقد جاء على غرار ما سبقه من الترتيب الحسن والطبع المتقن ، وهو عمل جليل يشكر عليه الأستاذ . ويطلب منه بمطقة الرسام رقم ٩ بالغورية .

سنن الله الكونية :

نشرنا المقدمة البليغة لهذا الكتاب في عدد سابق ، ونعود اليوم لتقريره ، وإنه لعمل موفق قام به الأستاذ الجليل محمد أحمد الغمراوي المدرس بكلية الطب والمنتخب لتفريس علم سنن الله الكونية في كلية أصول الدين . فقد جمع فيه جهرة من موضوعات علم الطبيعة كالمادة ،

والحرارة وأحوالها ، والسحاب ، والمطر ، والبرد ، والصوء وآثاره الكيماوية ، مفيضا الكلام في كل منها بعبارة بليغة ، وإطلاع واسع ، وبيان شاف فنشكر لهذا المؤلف النابتة عمله الحابل ، ونرجو أن يوفق للمزيد منه خدمة العلم .

حركة الكشف :

هذه رسالة تبين ماهية الكشف وفرق الكشافة وما يجب أن يتحلوا به من خلال وخصال ، وفوائد هذه الفرق وحاجة الأمم إليها . ثم يلى ذلك تاريخ الكشف في الأمم ، وتاريخ السككفة في مصر ، وختمت الرسالة بمكان الكشف في الاسلام .

وقد كتبت هذه الرسالة مؤلفها الطالب النقيب الشيخ احمد الشرييني جمعه الشرياصى بإدارة طلبية شائقة ، فنشكر له اجتهاده ، ونرجو له التوفيق فيما هو بسبيله من طلب العلم .

القراءة العصرية في تعليم العربية :

وضع هذه الرسالة الأستاذ الفاضل زيدان افندي بدران المصرى عضو دار التربية والتعليم بوزارة المعارف الافغانية سابقا لتعليم الايرانيين والافغانين اللغة العربية . وقد سلك فيها مسلكا تعليميا حسنا يوصل الى الغرض المقصود منها من أقرب الطرق ، وقد طبعها طبعها جيلا . فنشكر له همته في خدمة اللغة العربية ، ونرجو أن يوفقه الله للمزيد .

اختصار علوم الحديث :

هو كتاب جليل القيمة وضعه المحدث المشهور الحافظ ابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤) هـ . وهو لعظم فائدته اختارته لجنة وضع المصاحح في علوم التفسير والحديث ليدرس كله في كلية أصول الدين وأنواع منه في كلية الشريعة . وقد قام بتصحيحه والتعليق عليه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد عبدشاكر القاضى بالحكام الشرعية والعضو بتلك اللجنة ، فجاء غاية في الافادة والتحقيق . وقد طبع طبعاً أنيقاً على ورق جيد . فنحن محبي الاطلاع على علوم الحديث على اقتنائه فانه من خيرة النخائر العلمية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

— ٩ —

المقومات الجثمانية

لقد عنى الاسلام بالمقومات الجثمانية عنايته بالمقومات الروحية والعقلية ، وهذه ميزة لم يشاركه فيها دين من الأديان المنتشرة بين جماعات البشر اليوم . فالذي يعرف عنها أنها تهدر المقومات الجثمانية في جانب المقومات الروحية ، ولكل منها في ذلك أسلوب خاص اشتهرت به في هذا العهد شهرة علمية .

فالبراهمة والبوذيون في الهند وغيرها ، يرهقون أنفسهم عسرا ، ويسومونها التكاليف والرياضات المضنية ، كسرا لطغيان الحسم ، ومساهمة لسلطانه ، تذروا للوصول الى السمو الروحي ، والصفاء الوجداني . ويروى عن خاصتهم في هذا المجال ما لم يروعن سوام من أصحاب المجاهدات النفسية ، من ضروب التعذيب التي يمارسون بها أجسادهم ، طموحا الى هذه المترلة . فثمنهم من يقاتلون من طعامهم وشرابهم الى حد أن يصيروا كالحياكل العظمية هزلا ونحوها ، ومنهم من يضيفون الى هذا إقتال أجسادهم بالسلاسل الحديدية ، بل منهم من يجلسون وينامون على أسنة مشرعة من المسامير ينقذونها من مقاربة من أسفل أمرتهم لتباشر أطرافها المجددة أبدانهم . وأما الاسرائيليون فثمنهم وإن لم يقبلوا بلعنة المادة ، فإن في ديانتهم اوهاقات جسدية لا يتحملها إلا الاتقياء منهم ، وكانت سببا في خروج الكثرة الفقيرة من إسرائيل أوربا عن تقاليدهم في مسألة السبت والعشرون الغذائية ، واتباعهم ما يجري عليه الناس هناك ، فهم كما يقول المسيو (جوليان ويل) حاخام باريس في كتابه عن الديانة الاسرائيلية قد أصبحوا يهود قومية لا يهود مليه .

ونظرا لقداحة التكاليف الجسدية في الديانة اليهودية ، وهجز أكثر الناس عن القيام بأدائها ، قد كلف كل رباني يتقدم إليه رجل طالبا الدخول في هذه الملة ، أن يحاول رده عن قصده حتى لا يرتد بعد تهوده . قال المسيو جوليان ويل المذكور آتقا : « يجب على كل رباني أن يرد كل طالب الدخول في عهد ابراهيم ثلاث مرات ، لافنا نظره الى الصعوبات التي سيصادفها ،

والتكاليف الشاقة التي سيتحملها ، والأخطار التي سيتعرض لها . فإذا أصر على طلبه ، وتحقق الرباني بأن الدوامي التي محدوده لتهود طاهرة وزينة ، فيمكنه أن يقبله في حظيرة البهمة ، ثم قال الحانان المذكور :

« هذا التحفظ في أمر طالبي اليهود دعت اليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذي لا يقصد به إلا الاسرائيلي مادي معاني هذه الكلمة ، وأوجبه كذلك ما في اليهودية من التكاليف الكثيرة التي يستدعي العمل بها نكران الذات والاحشيشان والنبات والشجاعة ، وأحيانا البطولة أيضا » انتهى

أما المسيحية فاتها وإن كانت لا تبلغ شأوا اليهودية في التكاليف الشاقة ، فهي نفس كنهانها وشروح علمائها ، ديانة زهد وتقشف ، وتخلص من علاقات الدنيا ، واعتداد بالروح دون الجسد . أما الاسلام فقد امتاز عن جميع الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فهو لا يتقاضى الآخذ به أن يحرم نفسه من منعة مادية ، ولا ملذة جسدية ، ما دام يتناولها من طريقها المشروع ، وفي حدها المعتدل ، بل لا يمنعه أن يبلغ أبعد شأوا في الغنى ما دام يؤدي حق الله منه ، وحق الله هو ما نص عليه في كتابه من البذل في سبيله ، والاتفاق على عياله ، « الفقراء عيال الله » .

لم يرق الاسلام على هذا الصراط السوي بين الروح والجسد ذهابا منه أهما سواء في الدرجة ، أو أن الحياة الدنيا تساوي الحياة الآخرة . لا ، ولكن لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الدين العام الخالد مبنيا على قواعد العلم ، ونواميس الطبيعة . وقد قرر العلم أن العقل السليم لا يكون إلا في الجسم السليم ، وأن السمو الروحاني لا يتأتى من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات في دائرة الاعتدال ، وأن ذلك السمو ليس في أن يعيش الإنسان حياة صلبية لا أثر لها في الخارج ، ولكن في أن يعيش حياة إيجابية تنفيذ من الوجود علما وحكمة ، وتفيضهما على من يجاورها من المزاملين لها في الحياة .

لعمري إن السمو الروحاني لا يزال بحرمان الجسم من حاجاته ، فإن قصارى من يسلك هذه الطريقة أن ينفق السنين الطوال في ترويض نفسه على الافلال ، ذاذا لها عن التطعم للنعيم المادية ، بادلا في هذا السبيل جميع ما أوتي من مذخور معنوي ، ثم يخرج من هذا الكنفاج المضني غير حاصل إلا على ميرة واحدة ، وهي ضبط النفس عما سوى الضروري من مقومات الحياة ، ولكنه لا يكون حاصله على السمو الروحي الذي يجد وراءه أهل الطموح العالي ، وهو أن يكونوا ما لكيين لقياد أنفسهم يصرفونها فيما يجب من الأعمال ، ومؤثرين فيما حولهم يوجهونهم إلى حيث تستدعيه كرامة الحياة ، وشرف الوجود .

فإذا عمدا هنا إلى التشبيه ، فإن الأولين يشبهون من يريدون كبح جراح مطاياهم بأضعاها

بالمسفة ، تقاديا من تحمل مشاق الترويض على أصوله المقررة ، فلا يحصلون بمد طول العناء منها إلا على أنشاء رازحة . وأما الآخرون فيشبهون من يريدون أن يحملوا من دواهم سوايق تطير بهم إلى الغايات القصية ، دون أن تعرضهم لأخطار الطرق وعقباتها ، فيلجأون إلى أصول الرياضة الصحيحة يسومونها إياها في اعتدال وأناة ومهارة ، فيبذلون ما يريدون منها صلابة عود ودربة ، حتى إذا جد الخد كانت طوع بياهم في الكر والفر ، قوية على كل مكاره الكفاح ، تسخو بنفسها على المعاطب كأنها أدوات مسخرة ، لا كائنات شاعرة .

كذلك الرجال إذا لجأوا في التمثل إلى الأسلوب السلبى في حاجتهم ، والتدبير الازدلى لأجسادهم ، خرجوا من مراسم هذا كخلال هز الا ، وكالجوامد صبرا على الخسف ، فلم يصبحوا أهلا لأن يحموا حمام ، ولا أن يردوا ضيا يراد بهم . فإذا لم تضارهم الدوازل إلى الشك في دينهم ، اضطروا أحلافهم إلى ترك العمل به ، فأصبح فيهم شيحا ذهبيا ، لا دينا عمليا . ومن ينامل في أحوال الدين تدعوم أديانهم لهذا الضرب من الرياضة ، يجد ما تقوله حليا واضحا .

أما الاسلام فقصد من الدين أن يكون دستورا عمليا ، لا خيالا وهميا ، وأن تكون ثمرته لإنشاء أمة تكون مثلا أعلى للأمم في حماية بيضتها ، والدياد عن كرامتها ، والجرى على أكرم أصول العدالة ، وأشرف مبادئ الاجتماع ، لتصل إلى أبعد شأو من المدنية الفاضلة ، والحياة السكاملة ، ويكون آحادها أعلام هدى في كرم الطباع ، ومعمو الأخلاق ، وشرف المقاصد ، وبعد المهيم ، ينصرفون في تحقيق مراد الله من تكبيل الخليفة ، انصراف الزوايا المسخرة ، لانتصدم عنه خاطرة من شهوة ، ولا بادرة من هوى ، ولا ساحة من وهن .

فلا يتهمن منهم بأننا لغترف من الخيال ما ملهى به القارئ ، وتترع من الوهم صورا ليس لها ما يدل عليها من الحوادث . فان الأمة الاسلامية في صدر الاسلام كانت مثالا حيا لما نقول . ألم تناف على أكرم المبادئ ، وأشرف الأصول ، طلبا للحق في ذاته ، لا لدنيا تمهينا ، ولا لسيادة تحصلها ، وكان آحادها من السمو الخلقى ، والأدب النفسى والبطولة الفذة ، بحيث ضربت بهم الأمثال ، وتناقلت سيرهم الأجيال ، فلما اختلطوا بالأمم داخلها من إكبارهم وإعظام شأنهم ، ما حملها على الدخول في ملتهم طوعا لا كرها ؟ فهل عهدت في تاريخ البشر أن شردمة من الناس ، تألفت في أبعد بلاد الله عن الاختلاط وسياسة الشعوب ، تهوى فضائلها مائة مليون من البشر في مدى قرن واحد بدون دعوة غير السمعت الصالح ، والمظهر القانع ؟

أليس ما نقوله هو ما نطق به الحوادث ، وقرره التاريخ ، وشهد به حتى الأجانب ؟ فالاسلام قد رمى بأصوله ومبادئه إلى إحداث مثل هذا الحدث الضخم في العالم ، وما كان لينأتى ذلك جريا على مبادئ رياضة سلبية ، تجرد النفس من أشرف التزاماتها الإيجابية ، وتميت

فيها أكرم غرائزها القلبية ، وتضعف منها أقوى عواملها المعنوية . فخلق الله في الإنسان هذه القوى الغريزية ، والميول الجسدية ، والشهوات البدنية ، عينا ، أو لتتنوع رياضتها وقمها حياة الإنسان كلها ، ثم لا تكون ثمرة هذا الجهاد كله في أمة أو أئم برمتها إلا أن تصبح كالومياوات المصبرة ، أو كالأهباح التي لا حياة فيها ، ولكنه خلق الإنسان على هذه الصورة من تباين القوى ، وتنوع الغرائز ، وتخالف الميول ، ليصل الإنسان بامتلاكها بصيبتها ، وتصريفها فيما خلقت له ، الى مكانة من السمو وعدالة التصرف ، بحيث يصلح أن يكون خليفة الله في أرضه .

الذي يراه الناس اليوم أن الجاهات البشرية قيمان : قسم على المبادئ السلبية ، وهي لا تفرق عن قطعان الماشية في أيدي الأمم المتغلبة ، وقسم على الأصول الإيجابية ، وهي قد حصلت على حظ من القوة والبطش ، بيد أنها قد انحطت الى الإباحة الطبيعية ، التي لا تناسب وكرامة الإنسانية . وأنا لا أقول ذلك نعسا مذهبي ، ولكن الذي يقوله علماءها وفلاسفتها حتى الماديون منهم .

ولو كانت هذه الحالة الإباحية سليمة من جرائم العطب ، لتمكن أنبياءها أن يدعوا أنها هي المثل الأعلى للحياة الأرضية ، ولكنها مبتلاة بجرائم الأمراض الاجتماعية ، ومهددة بقارعة حرب صومية ، لو حدثت لتصححت زهرة المدنية ، وارتكمت الإنسانية لأسوأ عهودها البربرية . وقد ارتكست أئم متعددة مرات عديدة الى البربرية الباحية ، فنها من أتبع لها الخلاص منها ، ومنها من يادت أو فنيت في جثان أمة أخرى .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية الباحية ، أمر يستدعيه الاتزان الاجتماعي ، والاستقرار العالمي ، ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة في تركيب هو غاية في الحكمة غير التعليم الاسلامي .

نعم : قرر الاسلام أن الآخرة خير من الأولى ، وأن الكمال الروحاني هو الغاية التي يجب أن يتجه إليها كل مسلم ، ولكنه أمره أن لا يتقل حظه من الكمال المادي ، حتى تكاد لا تجد في القرآن تخصيصا على منزلة روحية ، إلا مقرونة بتخصيص على نيل مكانة مادية ، قال الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نفسك نصيبك من الدنيا » وقال : « وقيل الذين اتقوا ماذا أنزل وبكم قالوا خيرا ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولهم دار المقربين » . وقال : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحسب له حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون » وقد دلنا على ما يجب أن يكون عليه دعاء المؤمنين من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، فقال : « فمن الناس من يقول ربنا

آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب .

وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة تحض المؤمنين على وجوب العناية بالجسم من ناحية النظافة وحفظ الصحة وعدم إرهاقه بالمشاق ، ولا حرمانه من متع الحياة والذات المشروعة ، فقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » .

مما يجنب لفت النظر إليه في هذه الآية الأخيرة أنه محيى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء ، أى خروجاً عن صراط العدل بين الطبيعتين ، وهذه غايته في غاية الإسلام بالحاجة المادية من الحياة الانسانية .

أما السنة فهي حافلة في هذه الناحية بالحكم الباهرة . من ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد ناهه أنه يفرط في النسل ، يصوم الدهر ويقوم الليل : « يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عمرو : فقلت يا رسول الله . قال : فلا تفعل ، صم وأفطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك (١) عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . قال عمرو : فشدت ، فشدت على . قلت يا رسول الله فأنى أجِدُ قُوَّةَ . قال فصم صيام نبي الله داود ولا تزد . قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال رسول الله : نصف الدهر . فكان عبد الله بن عمرو بعد أن كبر يقول : ليقبى قبلى رخصة النبي صلى الله عليه وسلم .

أرأيت أحكم من هذا ؟ رسول كان يعبد الله حتى تتورم قدماءه ، ويربط الحجر على بطنه من ألم الجوع ، ينهى آخذاً يديه أن يبالغ في العبادة (٢) ؟ أراء كان يصده عن خير ؟ لا ولكنها الحكمة الإسلامية ترشد أهلها إلى أن الكمال الانساني المنشود ، لا ينال بارهاق الاجساد ، ولكن بالعلم والعمل ، ونجوى الحق ، ونجيب الباطل ، وتطهير القلب ، وتهذيب النفس ، والوصول إلى درجة الرحولة الكاملة .

محمد فرير وجبري

(١) زورك أى زارك جمع زائر

(٢) لا يترصد من متص قوله : كيف ينهى النبي صلى الله عليه وسلم الناس عما كان يفعله هو من الباطنة في العبادة ، فإن الشهوة بإصالتها بالعالم الروحاني شأنها غير شأن سائر الناس .

الشيعة

بدء الخلق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » . اه من حديث رواه البخاري يتعلق بشرح هذا الحديث أمور :

(١) بيان معناه (٢) دفع ما عساه أن يوجد من تعارض ظاهري بينه وبين بعض الأحاديث (٣) المقارنة بين العقيدة الإسلامية في بدء الخلق وكيفية صدور العالم عن الإله ، وبين ما نقل من ذلك عن بعض الفلاسفة الأهلين .

١ — فأما معنى الحديث ، فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ، بين لنا به قاعدتين عظيمتين صلت فيهما عقول كثير من الناس :

إحداهما : أن العالم — وهو كل ما سوى الله — حادث مسبوق بالعدم له أول ، وأن الله وحده هو الأزل الذي لا أول له ، فلم يشاركه في الأزلية شيء . وهذا المعنى يدل عليه صراحة قوله : « كان الله ولم يكن شيء غيره » . فكان بمعنى الدوام والاستمرار .

ثانيتها : بيان أول المخلوقات ، وإلى ذلك أشار بقوله « وكان عرشه على الماء » الخ . والذي يدساق إليه الفهم في هذه العبارة أن العالم المادي : قسم إلى قسمين : علوي وسفلي ، وأن أول المخلوقات العلوية هو العرش ، وأن أول المخلوقات السفلية هو الماء ، وذلك مصرح به في قوله . وكان عرشه على الماء ، فإن معناه أن أول المخلوقات عرش على ماء ، وليس المراد أن العرش ملاصق للماء ، بل المراد أن العرش في جهة العلو ، والماء تحته ، كما تقول السماء على الأرض ولكن هل الماء مخلوق قبل العرش ، أو العرش مخلوق قبل الماء ؟ لأنص على هذا في الحديث ، وإنما قد يؤخذ من ظاهر قوله « وكان العرش على الماء » أن الماء خالق أولاً ، على أنه قد ورد في حديث مصحح مرفوع ، رواه أحمد والترمذي : أن الماء خلق قبل العرش ، وقد ورد النصريح بأن الماء أول المخلوقات على الإطلاق في أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة ، وعلى هذا يمكننا أن نقول : إن السنة الصحيحة تفيد أن أول المخلوقات المادية على الإطلاق هو الماء ، وأن العرش أول المخلوقات العلوية ، خلق بعد الماء ، وتسميه الحكماء فلك الأفلاك . أما كون الماء أصل الموجودات كلها

فانى لم أعر على ما يدل عليه في السنة . وقد روى الامام الرازي عن كعب الاحبار أن الله خلق قبل كل شيء جوهره ، ونظر اليها نظر الطيبة ، فارتعدت ، وذابت ، وصارت ماء ، فحصل البخار وظهر على وجهها زيد بسبب الحركة ، وارتفع منها دخان ، فحصل من الدخان الأرض ، ومن الدخان السماء . ولكن يظهر أن هذا مأخوذ من الامراتيليات التي لا تمت لها . ولذا نقله صاحب الموقف عن الملل والنحل بمعنى غير هذا . فقال : إن تاليس الملطي يرى أن الماء قد أبدع منه الجوهر كلها من السموات والأرض وما بينهما ، قال صاحب الملل والنحل : وكأنه أخذ مذهبه من الكتب الالهية ، ففي التوراة أن الله خلق جوهره ... إلى آخر ما نقله الرازي عن كعب .

على أن التوراة الموجودة بين أيدينا لم تذكر ذلك في سفر التكوين ، ولم تشر اليه ، بل التي يستفاد منها عكس ذلك على خط مستقيم . ولا دليل على أنه كان موجودا فيها قبل التحريف ، فلا يمكن التعميل عليه على كل حال . وليس في قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دخان » ما يؤكد هذا الرأي ، لأن مصدر هذا الدخان يحتمل أن يكون نارا لا بخارا منبعثا من الماء كما هو رأي من قال : إن أصل الموجودات هو النار لشدة ساطعتها ، ثم حصل منها الباقي بالنسكاف ، فالماء أصله نار أصاف الله اليها مادة أنقلته ، وخلق فيه الحرارة ، فهو نار منسكافة ، والهواء كذلك ، والأرض كذلك ، وهكذا . وبالجملة فالأراء في أصل الموجودات لا يمكن إثباتها بدليل عقلي أو نقلي يصح التعميل عليه ؛ وكل الذي تدل عليه الأحاديث الصحيحة هو ما بيناه لك من أن أول المخلوقات المادية الماء ، يليه العرش ، ثم من بعدهما خلقت السموات والأرض ، وما بينهما ، وهذا هو معنى الحديث الذي معنا .

فإن قلت : إذا كان العرش والماء مخلوقين كالسموات والأرض ، فلماذا لم يقل : وخلق عرشه على الماء ، كما قال : وخلق السموات والأرض ؟ قلت : إنه عبر بكان في جانب العرش والماء للإشارة الى أنهما أول المخلوقات المادية كما ذكرنا ، فلما قال وخلق عرشه على الماء ، وخلق السموات والأرض ، لا يختلط الأمر على السامع ، فلم يدرك أيهما خلق أولا ؛ على أن هذا مجرد تلميل لا اختلاف العارة وإلا فالحديث صريح بأن العرش والماء مسبوقان بالعدم بلا نزاع . فكان في قوله : وكان عرشه على الماء ، مقابلة لسكان في قوله كان الله ولم يكن شيء غيره ، فهي في الأول بمعنى الدوام ، وفي الثاني بمعنى الحدوث ، واستعمالها في المعنيين مشهور ، وهذا ظاهر ، إذ لا يتصور ما قل أن كان الثانية مثل كان الأولى في الأزلية ، لما في ذلك من التناقض الظاهر في نص الحديث ، لانه قد نفى أن يكون مع الله شيء ما بقوله « ولم يكن شيء غيره » فلا يعقل بعد ذلك أن يقول : وكان معه في الأزل العرش والماء .

بقى في معنى الحديث شيء آخر وهو أنه قال « وكتب في الذكر كل شيء » ، فما هو الذكر ؟ وهل الكاتب هو الله تعالى مباشرة ، أو أمر غيره ليكتب ؟ والجواب عن الأول أن الذكر

هو اللوح المحفوظ ، وهو جسم عظيم خلقه الله من مادة جميلة (درة بيضاء) كما قال ابن عباس ليكتب فيه كل الموجودات . وبعضهم يرى أنه عبارة عن علم الله تعالى ، فهو الذي تعلق بسائر الموجودات كلها وجزئها ، صغيرها وكبيرها . وبعضهم يرى أنه ما يلوح للملائكة ليفهموا منه . ولكن ظاهر الكتاب والسنة يؤيد القول الأول . والخروج عن الظاهر بدون ضرورة لا معنى له ، فإن خلق اللوح ممكن سهل بالنسبة للأجرام الأخرى ، وإثبات الموجودات فيه ليرجع إليها الملائكة عند الحاجة حسن جميل ، فلا شيء يخرج عن الظاهر . أما الجواب عن الثاني فإن الكاتب هو القلم ، ونسبت الكتابة إلى الله لأنه هو الأمر . وقد ورد هذا المعنى صريحا فيما رواه أحمد والترمذي مصححا من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا : « أول ما خلق الله القلم ثم قال اكتب فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

والذي أفهمه في معنى القلم هنا أنه قوة معنوية ، مجردة عن المادة ، خلقه الله تعالى وأودع فيه سرا يدرك به كل معاني الموجودات ، ثم أمره أن يكتبها في اللوح على ما هي عليه . ولعل هذا هو معنى قولهم : إن القلم أمر نوراني ، أي منسوب إلى النور الإلهي ومغمور به ، فلا تكتنفه ظلمات المادة . وظاهر مما بيناه أن اللوح والقلم مخلوقان بعد الماء والعرش . فأنبي صلى الله عليه وسلم بين لنا في أحاديثه الكريمة أول المخلوقات المادية والمعنوية ، وإني لا أرى معنى لانكار المجرى ، وأرى الحق مع الذين يقولون بها من فلاسفة المسلمين ، لأن الأمور المعنوية المعقولة موجودة في الحسوسات التي بين أيدينا يدركها كل عاقل من غير شك .

٣ — أما الأحاديث التي ينوّم أن بينها وبينه تعارضا ، فمنها ما ذكرناه من أن أول المخلوقات القلم ، ومنها ما رواه في المواهب من أن أولها نور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما ورد من أن أولها العقل ، فكون أحد هذه الأمور أول المخلوقات يتعارض مع كون الآخر أولا . ويمكن أخذ الجواب بسهولة مما بيناه ، وذلك لأن كل واحد من هذه الموجودات أول نوعه ؛ فالماء أول كل شيء ، ومع ذلك فهو أول الموجودات المادية السفلية . والعرش أول الأحرام العلوية ، والقلم أول المخلوقات المعنوية ، ونور نبيينا إن كان المراد به وجوده الذي ترتب عليه إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، فيكون معناه أنه صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء الهادين وجودا ، بمعنى أن الله خلق روحه قبل أرواحهم ومنها استمدادوا وجودهم بتوسطها ، فهو أول الأنبياء وجودا ؛ وإن كان المراد نور النبوة الذي انتفع به العالم من أوله إلى آخره ، فهو أول نور خلقه الله تعالى متعلقا بروحه عليه الصلاة والسلام ، ومنه استمدت أرواح الأنبياء نورها وبالجمله فهو أول التبيين خلقا ، ونوره أول كل نور . أما ما ورد من أن أول المخلوقات العقل ، فقد قال الحافظ ابن حجر إنه لم يثبت من طريق يصح التعويل عليه ، وعلى فرض ثبوته فأنى أقول : إن المراد به القلم ، وسمي عقلا لأنه عقل كل معاني الموجودات التي أمره الله بكتابتها في اللوح المحفوظ ، وفهم أسرارها .

٣ — أما المقارنة بين العقيدة الإسلامية ، وبين ما نقل عن شُرذمة قليلة من الفلاسفة الالهيّين القائلين بقدم العالم ، فانه يحتاج أولا الى شرح مذهبهم هذا ، فنقول : قد عرفت مما بيناه لك أن المسلمين يعتقدون أن العالم بأمره سواء أ كان ماديا أم مجردا عن المادة حادث مسبوق بالعدم ، وأن الله فاعل مختار منفرد بالأزلية والقدم ، فلا شيء من الأجسام وصفاتها بقديم ، ولا شيء من المجرّدات عند من يقول بها بقديم . وهذه العقيدة قد اتفق عليها جميع المليين . قال في المواقف : إن جميع المليين من مسلمين ويهود ونصارى ومجوس اتفقوا على أن الأجسام وصفاتها حادثة ، ولكن أرسطو ومن تبعه من الفلاسفة المتأخرين كالفارابي وابن سينا قالوا إنها قديمة بذواتها وصفاتها . أما من تقدم أرسطو من الحكماء فانهم قالوا : الأجسام قديمة بذواتها حادثة بصفاتهما . وتوقف جالينوس من الحكماء الأقدمين اهـ . ملخصا من المواقف .

وتوضيح هذا المقام يحتاج الى بيان أمرين : أحدهما معنى قدم العالم الذي قالت به الفلاسفة . ثانيهما ما الذي حل هؤلاء على الشذوذ في الرأي عن جميع المليين ؟

والجواب عن الأول : أنهم يقولون إن القديم له معنيان : قديم لذاته ، وقديم لغيره . ويريدون من القديم لذاته ، واجب الوجود لذاته ، وهو الله وحده الذي تقتضى ذاته الوجود والكمال المطلق ، فلا يحتاج الى غيره لا في وجوده ولا في كماله التام . أما القديم لغيره ، فهو الممكن الذي لم يسبق بالعدم الى صدر عن الواجب لذاته بطريق التعليل . ولا ريب أن المعلوم مرتبط بعلته في الوجود الخارجى ، فلا يمكن أن توجد العلة النامة الآن مثلا ثم يوجد معلولها بعدها بلحظة ، إذ لو انفك المعلوم عن علته طرفة عين لم تكن علة تامة له ، فواجب الوجود لغيره هو الذي لا ينفك وجوده عن وجود القديم لذاته طرفة عين ، وإن كان القديم لذاته متقدما عليه في التعقل ضرورة تقدم العلة على معلولها عقلا . وإذا أردت أن تعرف مثلا يوضح ذلك فانظر الى أصبع متحركة بها خاتم ، فملك في هذه الحالة تجزم بأن حركة الأصبع وحركة الخاتم مقترنان في الوجود الخارجى ، وتجزم الى جانب هذا بأن حركة الأصبع متقدمة على حركة الخاتم بحسب ذاتها ، لأنه لو لا حركة الأصبع ما جاءت حركة الخاتم . فالعالم قديم عندكم بهذا المعنى ، فهو من حيث ذاته ممكن مستفيد الوجود من الواجب لذاته ، ومن حيث كون الواجب — تعالى عن ذلك — علة فيه قديم . فهذا هو معنى القدم لغيره . وكأن ابن سينا أراد أن يسهل قول هذا الأمر على النفوس فقال في الاشارات مامعناه : إن الواجب لغيره قد يكون من المحدثات الشخصية المنفك على حدوثها من الجميع . وذلك لأنه إذا تطلعت إرادة الفاعل بزيد مثلا ، ووجد ، كان وجوده واجبا لغيره لا محالة لاستحالة عدمه حال وجوده ، فالواجب لغيره نارة يكون دائما مستمرا وهو المعلوم الذي لم يسبق بالعدم ، ونارة يكون مؤقتا وهي الحوادث المسبوق بالعدم . ولكن ابن رشد شنع عليه في فصل المقال وقال إن الممكن المأقوت يستحيل أن يكون وجوده ضروريا وإلا لا تقلب الممكن ضروريا ، ووصفه بأنه رجل مخترع كلامه في غاية السقوط . ولكن الواقع أن

سارة ابن سينا هذه صحيحة ، وأن المتكلمين يوافقونه عليها ، لأن ما تعلقت ارادة الله بوجوده يكون وجوده ضروريا لا محالة . ولكن ابن سينا قد اخطأ خطأ واضحا في اتباع أرسطو في نظرية قدم العالم ، بل قد شط فيها شططا مذهشا لا مبرر له إلا ما تخيله من حجج واهية وأدلة جدلية فارغة كما نعرفه بعد . وبيان مذهبهم . أنهم قد قسموا العالم الى قسمين مادي ، ومجرد عن المادة ، والمادي ينقسم الى فلكيات وعنصريات ، فأما الأفلاك فهي عندهم قديمة باجسامها وصورها التي وجدت عليها كما هي جزئياتها وكلياتها ، فالفلك الحرقي المشخص معلول القديم بشكله وشخصه ، فلا يتغير ، وإنما الحادث فيه هي حركاته وأوضاعه المترتبة على هذه الأوضاع المتغيرة ، فكل حركة منه مسبوقة بحركة قبلها ، فالحرركات الجزئية الشخصية حادثة ، وأما معنى الحركة الكلية الذي يحمل على هذه الأفراد فهو قديم . وكذلك معنى الفلك الكلية فإنه قديم عندهم . وذلك لأنهم يقولون إن الكلية أمر وجودي له تحقق في الخارج ، مثلا زيد الموجود خارجا مركب من الشخص والانسانية وهي الحيوانية والناطقة ، فالحيوانية والناطقة جزء من زيد الخارجي ، وجزء الموجود في الخارج ، وهو في الخارج ، فالمعنى النوعي لزيد ، وهو الانسانية ، موجود في الخارج ، فالأفلاك عند هذه الفرقة قديمة بجزئياتها ومعانيها الكلية وهي أنواعها ، وهذا هو معنى قولهم إنها قديمة بالشخص وبالنوع . وأما العناصر فإنها قديمة عندهم بموادها وصورها الجسمية بالنوع ، مثلا النار مركبة من هيولى ، وهي مادة النار ، وهي لا تعقل وحدها ، وصورة جسمية وهي التي تعقل بها مادة النار ، فعصورة هذه النار الجزئية الجسمية حادثة ، أما معنى هذه الصورة وهي طبيعة خاصة يترتب عليها الاحراق فإنها قديمة بمعنى أن الصور الجزئية تتعاقب على مادة النار فما من صورة إلا وقبلها صورة وهكذا .

ولا يرد على هذا بأن النوع لا يوجد إلا في إفراده فمضى كانت الأفراد حادثة كان النوع حادثا لأن ابن سينا ومن معه يقولون إن الكلية له وجود في ذاته ، غاية ما هناك أنه لا ينفك عن الجزئي في الخارج فلا يوجد خارجا إلا مقارنا للجزئي ، هذا معنى قدم العالم المادي عندهم وأما المجرد عن المادة فهم يقولون إنه قد صدر عن الاله عقل مجرد عن المادة وهو أول الموجودات وذلك لأن ذات الاله واحدة من جميع الجهات لا تتكرر فيها ، فلو صدر عنه جسم لكان منكثرا لأن الجسم مركب من أجزاء فيكون الاله باعتبار كونه الاثر في هذا الجزء غيره باعتبار كونه مؤثرا في الجزء الآخر ، فلا يد أن يصدر عنه عقل بسيط غير مركب يتوسط بينه وبين الموجودات المادية وهذا العقل عندهم مستقل بالتأثير وبالوجود فله وجود مستقل وتأثيره في غيره مستقل وله جهات ثلاث ، وجوده في نفسه ، ووجوده بالغير ، وإمكانه في ذاته ، فصدر عنه من كل جهة واحد ، فباعتبار وجوده صدر عنه العقل الثاني ، وباعتبار وحوه بالغير صدرت عنه نفس متعلقة بالفلك ، وباعتبار إمكانه صدر عنه الجسم وهو الفلك الأول ، وهكذا

في العقل الثاني والثالث إلى أن تكاملت المقول عشرة والأفلاك تسعة . والآخر يسمى
المبدأ الفيض ، هذا هو معنى قدم العالم وترتيبه في الوجود عند أرسطو ومن تبعه .

أما الجواب عن الأمر الثاني وهو لماذا شذوا هذا الرأي ؟ فإما ما اعتمدوا عليه دليلان :
أحدهما ما صرح به ابن سينا في الاشارات من أن كمال واجب الوجود يقتضي أن يكون تاملا
لا معطلا ، فإذا قلنا إن العالم مسبوق بعدم كان الله معطلا بدون عمل . وهذا نقص . لهذا قلنا
إن العالم صادر عنه بطريق التعليل على الوجه الذي بيناه . وهذه حجة تفتج عكس المطلوب ،
وذلك لأن في هذا سبب الاختيار عن الاله ، وحكما بأن العالم صدر عنه بطريق القهر ، وذلك
يستدعي كونه مغلوبا لاحالة ، فكيف يكون إلها غالبا وهو مقهور على إيجاد هذا العالم ؟ على أن
في ذلك غفلة عن مقام الألوهية ، لأن الاله كامل في ذاته من جميع الجهات بقطع النظر عن إيجاد
العالم وإعدامه ، بل الكمال بالنسبة له تعالى أن يوجد العالم متى شاء ويعدمه متى أراد من غير
أن يفيد وجود ذلك العالم كالا وعدمه تقصا ، فهو سبحانه غنى عن العالمين بكل معاني الكلمة
الثاني صرح به أيضا في الاشارات ، وهو أن الفاعل الأزلي يجب أن يكون فعلا أزليا ،
وذلك لأن فعله إذا كان حادثا فلا بد له من مرجح يخصصه بالوقت الذي صدر فيه وإلا لم
الترجيح بلا مرجح . مثلا : تملتق إرادته بإيجاد العالم في زمن آدم فلماذا لم تملتق به قبل ذلك ،
وأى مرجح يرجع هذا على ذلك ؟ فإن وجد مرجح فما الذي يرجع هذا المرجح ؟ وهل حرا
فيلزم التسلسل في الأمور الموحودة وهو محال . وإذا كان فعل الأزلي قديما كان أثره قديما .
هذه هي أقوى أدلتهم وهي سفسطة غارغة ، لأن الله سبحانه قد أوجد حوادث وفتية باتفاق ،
وقد تملتق إرادته بإيجاد زيد الآن فلماذا لم تملتق به قبل ذلك يوم من طويل ، فاما أن تكون
إرادته كافية في الترجيح بدون أمر زائد ، وإما أن يكون زيد موجودا بدون مرجح ، أو يقال
إن المرجح لا يلزم أن يكون وجوديا .

وبالجملة فهذه عقيدة لا قيمة لها ، ولذا قال بعضهم : إن ابن سينا قد اخترعها ليستريحها قول
أرسطو . إن الله كامل يترفع عن الدنيا فلا يصح أن يكون مبدأ لهذا العالم القدر ، بل هو
مشرف مجرد إشراف . فحاول ابن سينا أن يقرر عبارته على هذا الوجه ، ولكن هذه العبارة
لا يمكن إسنادها إلى أرسطو على وجه التحقيق ، ولهذا قال في المواقف : إن ماورد عن الفلاسفة
في هذا الباب من قبيل الرموز التي لا تفصح عن أغراضهم ، وإلا تغير الفيلسوف الذي يقول
هذا أن ينكر الاله وتصرفه في العالم ويكون طبيعيا لا إلهيا . وقد حاول الطوسي أن يبرر رأي
ابن سينا فقال إن الفلاسفة لم يقولوا إن الله غير قادر وإن المتكلمين قالوا إن الله علة في صفاته
فهم كالفلاسفة في هذا الباب ، ولكن ابن سينا ومن معه يلزمه أن يقول إن الله غير قادر
بلاشك لأنه سلب عنه الاختيار ، ومن قال من المتكلمين بأن الله علة في صفاته مخفي لا محالة .

وبهذا تعلم أن العقيدة الإسلامية من أن الله تعالى وحده هو المنفرد بالأزلية ، وأن كل ما عداه مسبوق بالعدم له أول ، هي عقيدة التنزيه حقا ، فالاله الذي يرغم على كذا أو يقال عنه إنه علة تامة في كذا لا يصح أن يكون إلها فالمسلمون إنما يمدون إلها واحدا مجردا عن المواد وملاتقها ليس ككثرة شيء ، وأنه هو وحده الأزل الأبدي وكل ما سواه يستمد منه الوجود ومخلوق من عدم بلا شك ولا ريب ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

دون الشهيد أبر النحل

جاء في كتاب هندي من لم يركب الأهوال لم يزل الرغائب ، ولم يزل الأمر الذي عمله أن ينال منه حاجته مخافة ما لعله يوقاه ، فليس ببائع جسيما . وإن الرجل ذا المروءة ليكون خامل الذكر خافض المنزلة ، فتأبى مروهته إلا أن يستعمل ويرتفع ، كالشمعة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا ، وذو القمل لا يخفى فصله وإن أخماه ، كالمسك الذي يحتم عليه ، ثم لا يمنع ذلك ريحه من التذكي والظهور .
أخذ ابن عبد ربه هذا المعنى فنظمه :

ختمت فأرة مسك	فأبت إلا التذكي
ليس يخفى فضل ذي الد	فضل يزور وبافك
والذي يبرز بالفض	ل غنى من منكي
ربما غم هلال ال	قطر في ليلة شك
ثم حلى وجه النور	و خلى ككل حلك
إف ظهر اليم لا تر	صكه من غير فلك
ونظام البر لا تم	قده من غير ملك
ليس يصفر الذهب الاب	ريز إلا بمد سبك

حاجة الانسان الى الشريعة

وشيء من آيات الله وعظمته

إن النفوس الانسانية تمرض كما تمرض الابدان ، بل هي مستعدة لذلك أكثر منها بمقتضى لطافتها ، وشدة تأثرها بكل ما تراه وتسمعه ، وبقوة انفعالها بألمياها وشهواتها . وإن أمراضها لا أكثر من أمراض البدن على كثرتها . وقد يصل بها المرض الى حد الموت الروحاني بإبطال حاسة الانسانية من العلوم والمعارف والأسرار والآثار ، وإذا لا ينفعها الارشاد ، ولا يجديها التعليم ، ولذلك يقول القرآن - يريد النبي عليه السلام - « ليسذر من كان حياً » . وقد سمى الجاهل الصالح ميتاً فقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه » ، ويقول : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم » كما أثبت لها المرض في آيات كثيرة . وكل ضلال في العالم وكل شر على وجه الأرض ليس منشأه إلا مرضاً من أمراض النفوس . وقد أرسل الله الأنبياء عليهم السلام أطباء لتلك الأمراض : يعالجونها بأنواع العلاج ، ويرممون لها قاتون حفظ الصحة إن كانت موجودة ، بالحماية عن دنس الأخلاق ، ورذائل العادات ، وتعديل الأميال ، ومراقبة التراتب والاهواء ، وردعها إن كانت مفقودة . ومعلوم أن الانسان مركب من أجزاء علوى سبوى وجزء سفلى أرضى ، أو تقول من جزء روحاني ، وجزء جثاني ، وأن الانسان لا يسمى لمطالب الجزء الجسماني من المطعم والمشرب واتقاء الحر والبرد الى غير ذلك إلا من حيث إنه حيوان لا إنسان فان ذلك مشترك بينه وبين غيره من الحيوانات ، وإن كان هو أوسع منها تفهماً يستحق أن يسمى به سيد الحيوانات ، وتعلم - عاكف الله - أنه لا قيمة لما تشاركك فيه الحيوانات ، وأن الانسان لا يكون إنساناً على الحقيقة إلا إذا وجدت فيه خاصة نوعه ، وإلا كان إنساناً بظاهره وصورة لا بباطنه ومعناه . ولذلك يقول القرآن في حق قوم فسد فطرتهم : « إنهم إلا كالاتعام بل هم أضل » .

فلهذا جاءت الشرائع الالهية ترقيك من حضنض الحيوانية الى أوج الانسانية ، وتذيقك شيئاً من حلاوة ذلك العالم الروحاني : عالم البهاء والصفاء ، وتمتعك برياضه المونقة وحياضه المتدفقة ، وتزهك في جمال الملك والملكوت والعظمة والجبروت ، فتنتفع حين بصيرتك لاستطلاع ذلك الجمال الالهي الذي ظهر على صفحات الموجودات ، وتجلى بأروع ما يكون في مرآيات تلك المبدعات ، فتارة تقرأ في خلال تلك السطور من العزة والسماء والعظمة والكبرياء ما تنشرح له الصدور وتبتجج به النفوس ، وتارة تطالع من حكمته تعالى في خلقه وأسراره في أرضه وسماؤه ، ما تتحير فيه العقول وتخجل لعظمته ساميات الأفكار ، وتارة تجول في سعة الملك وعظمة الملكوت فتعرف أن أرضنا هذه جزء من ألف الف جزء وأربعمئة ألف جزء

تقريباً بالنسبة للشمس ، وأن الشمري أكبر من الشمس بأضعاف مضاعفة ، وأن نور الشمس جزء من خمسين جزءاً من نور الشمري ، وأن المشري يقطع في الساعة الواحدة ثلاثين ألف ميل وذهل يسير في الساعة ستين ألف ميل ، وأن الآلات الحديثة والظارات المقربة قد اضمحلت وتلاشت في جنب ذلك الملك العظيم ، والاكتشافات الحديثة على عظمتها وكبرياتها - خرت ساجدة تنادى بالمعز والقصور أمام تلك العظمة القاهرة والقدرة الباهرة . ويعلم الله ما وراء الشمري من العوالم والنيرات « سبحانك ما عرفناك حق معرفتك » ولا يزال استطلاع الأسرار واستفاضة الأنوار ، ومطالعة الجبال غير المنتهى يستول على قلوب بعض عباد الله المستعدين لذلك ، حتى إنهم ليصلون به الى حد النوله في محبة ذلك المبدع العظيم ، والبدله بما يهرم من جمال ذلك القادر الحكيم ، ولا يسارعن الى إنكار ذلك بعض من تراكت عليه الظلمات وأحاطت به الآفات ، فليس من الانصاف أن ينكر الانسان كل ما لم يصل اليه ، بحجة أنه لم يصل اليه .

فما أضعف ذلك احتجاجاً ، واسمجه برهاناً ، فكيف من أشباه كسائيلها غاية الجهل كالميكروبات وغيرها ، ثم تبين أنها عالم لا غاية له « وما يعلم جنود ربك إلا هو » . فكيف يكون الجهل دليلاً على عدم الوجود ؟ ولعل هناك خاصة أخرى باطنية لم تخلق فيك وفي أمثالك .

لعمرك ما هذا بهزة وإنما حديث غريب من بديع الغرائب

ما عرف قدرك أيها الانسان ، فما أنت إلا مخلوق ضئيل في مخلوقاته ، وكائن صغير في جانب مكوناته . وذكنت لست إلا عالماً من عوالم هذه الأرض الكثيرة العدد ، وأرضك - بكل ما فيها - ليست إلا شيئاً يسيراً بجانب الشمس ، وليست الشمس إلا شيئاً يسيراً بجانب الشمري وليس ذلك كله إلا شيئاً يسيراً بجانب بقية العوالم التي لم نعرف لها نهاية ، ولا وقفنا لها على غاية وقد جاء في بعض الكتب الحديثة والمجلات العلمية ، أن أقرب كوكب لنا بعد نظامنا الشمسي يبعد عنا أكثر من ٢٥٠ مليوناً من الأميال ، ومن الكواكب ما يكون بعيداً جداً حتى إن النور الذي يقطع في الثانية الواحدة ١٨٦٣٠٠ ميل يحتاج الى الآلاف من السنين حتى يحىء من الكوكب الى أضيئنا ، والمنظور بالعين المجردة في السماء ست آلاف نجمة . منها ثلاثة آلاف ظاهرة وثلاثة آلاف خفية . ويرى بالمظار المقرب « السكوب » مائة مليون من النجوم .

أليس من المدهش أن نرى كوكباً بأضيئنا وضوءه لا يصل إلينا إلا بعد مائة سنة أو أكثر ؟ وقد عرفت مرة سيرة وأنه يسير في الثانية الواحدة ١٨٦٣٠٠ ميل ، فنأهلي هذه المسافات العظيمة التي لا نستطيع أن نحسبها ، وانظر الى تلك الكواكب التي لا يعلم عددها إلا الله كيف قدرت ، وبأي طريق خلقت ، وبأي علم نظمت ؟ وهل يعقل أن هذه النظامات المعجبة والآيات البديعة تخلق سدى ، ومذهب شعاعاً ، وتكون باطلاً ؟ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فكنا عذاب النار .

وقالوا في محاسن المنظار المقرب « التلسكوب » إنه يربا نحو ١٠٠ مليون من النجوم ولكن المنظر الطينى أظهر ملايين الملايين .

ثم قالوا إن كثيرا من النجوم ضئيلة النور لفرط بعدها عنا ، فلا قبل لنا برؤيتها حتى بالمقرب . وإن الشمري الجمانية تبعد عن الشمس مليون . ضعف بعدها عنا ، وهي تسير في الدقيقة ألف ميل ، وإن ثلاثا من نبات نمش « مايا » ، « الكثرى » ، « ألسيون » يفضعن الشمس ، ويفقنها نورا ونارا ، الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية بأربعمائة وثمانين ، والثالثة بألف ضعف .

أما سهيل فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة ، والسمالك الراح أسطع منها بشمانية آلاف مرة .

فعلى الحقيقة ليست الشمس أم نظاما السيارى ، وما هي إلا نجمة صغيرة بالنسبة لتلك الشمس . وكل حسبها الناس أكبر الاجرام السماوية وأسطعها .

أما السمالك الراح فهو ، على حد معنا ، أسرع النجوم سيرا وأشدّها تالقا وأكبرها حجما تقدر سرعته بثلاثمائة ميل وكسور في الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس وحجمه ثمانون ضعف حجمها .

أما بعده عنا فتخيله لنفسك عند ما تعلم أن نوره لا يصلنا في بضع دقائق كسور الشمس وهي على بعد ٩٢ مليون و ٥٠٠ ألف ميل منا ، بل في سبر كثيرة لا تقل عن مئتين من السنين .

وأما الشمري فنورها الواصل إلينا بعد سفرة طويلة مقدارها ١٦ سنة ، ضئيل جدا بالنسبة الى نورها وما هو إلا جزء من ألفى مليون من نورها الحقيقى .

وأن النجمة المعروفة بعدد ١٨٣٠ « غرومبودج » تسير ١٢٠٠٠ ألف ميل في الدقيقة والسمالك الراح ٢٢٠٠٠ ميل تقريبا في مثل هذا الوقت القصير .

وهناك نجوم بعيدة عنا جدا بحيث تمر آلاف السنين ولا يكاد يظهر أدنى تغيير في منظر القبة الزرقاء .

فلنقل ما قال (المورداو فبرى) في كتابه (محاسن الطبيعة) :

« ليكسر الحاسب قلعه ، وليضرب التاريخى ببراغه عرض الحائط ، وليقف الدهن كلابلا والعقل مخبولا ، وليطلق الخيال في هذا المجال ، ولا يخاله إلا رائدا مردودا » . ولذلك كله قال بعض فلاسفة الأوربيين من عظمة ذلك الملك : « يا الله ما أعظمك وأجلك وما أهر قدرتك وأوسع علمك . ليت شمري من ذلك المجنون الذى اجتراً فسمالك لأول مرة . الله ؟ »

فاذا تكون نسبتك أيها الإنسان الشايع بأنفه ، الجاهل بقدره ، بجانب تلك المخلوقات .

وعلام تتبجح كبرا وتبها وأنت الصغير « وكبير عليك اسم الصغير » أمام عظمة رب الأرض
والسموات ؟

وليت شعري ، بعد هذا ، ما شأن ذلك العرش الذي يصفه القرآن بالمعظمة ولم تقف له على
عين ولا أثر لا بأبصارنا ولا بنظاراتنا . وناهيك أمر يعظمه القرآن .

الله أكبر هذا البحر قد زحرا وهيج الريح موجا يقذف الدررا
سبحانك ، ما عرفناك حق معرفتك ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ؟

يوسف الريحوي
عضو جماعة كبار العلماء

عطف الكبراء على رجال دولتهم

بلغ المنعم بن الرشيد ، وقد تولى الخلافة بعد موت أخيه المأمون ، أن أحد قواد
الدولة « عبد الله بن طاهر » مريض ، فكتب إليه :

أهز على بأن أراك خليلا	أو ان يكون بك السقام زبلا
فوددت أني مالك لسلامتي	فأعيرها لك بكرة وأصيلا
ف تكون تبقى سالما بسلامتي	وأكون مما قد هراك بدلا
هذا أخ لك يشكي ما تشكي	وكذا الخليل إذا أحب خليلا

وكان شاعر يختلف الى يحيى بن خالد بن برمك ويمتدحه ، فغاب عنه أياما لعله عرضت له ،
فلم يفتقده يحيى ، ولم يسأل عنه ، فلما أفاق الرجل من علته كتب إليه :

أيهاذا الأمير أكرمك الله	وأبقاك لي بقاء طويلا
أجيلا تراه أصلحك الله	لكيلا أراه أيضا جيلا
إنني قد أقت منك قليلا	لا نرى منفذا إليك رسولا
أذهب فما علمت سوى المشك	ولما قد أوليقت به جريلا
أم ملالا فما علمتك لعلما	فقط مني على الزمان ملولا
قد أتى الله بالصالح فما أذ	كبرت مما هدت إلا القليلا

فأرسل إليه الوزير يمتدح من آيات :

دفع الله عنك نائمة الدهر	وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وما ذا	ك من العذر جائزا مقبولا
فجعلني لي الى التعلق بالعذ	وسبيلا أن لم أجد لي سبيلا
فقد عينا ما جاد ذو الفضل بالفض	لي وما ساع الخليل خليلا

أعموم الفرائه

الله (١)

— ١ —

تمهيد — معنى لفظ الجملة — أصل — أمر مجمل هو أم منقول ؟
الفرق بين لفظي الله والله — خواص

١ — تمهيد :

إن من يتصدى لقراءة تفسير القرآن الكريم ، وينصب نفسه عادماً لكتاب الله الحكيم ، يمرض له كثير من البحوث المختلفة ، وتتفتح أمامه نواح عدة من الموضوعات المتنوعة ، وتوارد عليه الفكرة تلو الفكرة ، ويبدوله الرأي إثر الرأي ، وكلها جدير بالبحث والدرس ، خلاق بأن يفرد بالتأليف والتصنيف .

ولقد عرض لنا فيما عرض — ونحن نقوم بتدريس مادة التفسير — موضوع الإعلام الموجودة في القرآن الكريم ، وما يتطلبه التعريف بها من جهد ومشقة ، فقد صادف القارئ « علم » من هذه الإعلام ، فيرغب في أن يعرف عنه فكرة صحيحة ، وأن يلم بموضوعه إلماً وافياً ، ثم يلتمس ذلك في كتاب واحد ، أو موضع واحد ، فلا يجد ما يحقق رغبته ، ويقضى طلبه ، بل يجد الكلام عنه مفرقاً هنا وهناك ، ومبعثراً في أشتات الكتب ، وموزعاً في مختلف المقامات ، فإينأ يقرأ ويراجع ، ويفتح وينقب ، وينقل من سفر إلى سفر ، ويستوعب كل حرف وكلمة وسطر ، حتى يستطيع ، بعد الجهد الجهد ، أن يخرج بأفارة من علم من هذا « العلم » الذي صادفه أثناء قراءته .

عرض لنا هذا الموضوع ، ولم نجد — على ما نعلم — من اختصه بالكتابة ، أو أفرد به بالتأليف ، كبحث خاص من مباحث القرآن الكريم ، مستقل بنفسه ، قائم بذاته ، خف ما كل ذلك إلى خوض غمار هذا الموضوع — على ترائي أطرافه ، وتراحم الشواغل ، وقلة الاستعداد — وتحرك في نفوسنا الميل إلى الكتابة فيه على أسلوب ، يلذ القارئ ، ويشبع رغبته العلمية ، ويوفر الوقت على الباحث ، ويعينه عن طول المراجعة ، ويكفيه مؤونة الحسرة والتردد بين أكادس الكتب ، ويعطيه الفكرة سهلة وافية يسيرة .

(١) من « هم الله الرحمن الرحيم » .

ولا ندعى أناسنا في هذا الباب بما لم يسبقنا إليه الأوائل ، أو أننا نسجل فيه من الأقوال ما لم يهتد إليه قائل ؛ وإنما نستعمل فيها نكتب على كسب التاريخ والسير والانساب والتراجم والتفسير واللغة والتصرف ودوائر المعارف والمعاجم وغيرها ، فقرأوها ونستوفيها ونستوعبها ونستقصيها ، ثم نبدي الرأي متخيرا ، ونسوق القصة صحيحة ، ونسرد الرواية معقولة ، ونذكر الواقعة مقبولة ، ونبدل بالفكرة مجردة سليمة .

هذا وإنا نعتبر أن من أكبر أمارات التوفيق والقبول أن يكون أول « علم » تتوج به هذا الموضوع ، ونحلى به هامة ، هو الاسم العظيم الاعظم « الله » .

٢ - معنى لفظ الجلالة :

المأثور في معنى هذا الاسم الكريم ، أنه اسم للموجود الحق ، الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنسوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي ؛ وقيل : معناه واجب الوجود الذي لم يزل ، ولا يزال ؛ وقيل : معناه الذي يستحق أن يعبد . واختلاف التعبير عن هذا المعنى ، وتنوع صيغه ، لا يخرج عن أن المؤدى بها واحد ، كما قال القرطبي في تفسيره .

٣ - أصله :

نسب بعض المفسرين إلى البلخي أنه زعم أن هذا اللفظ ليس يعربى ، بل هو عبراني أو سرياني معرب « لاها » ومعناه ذوالقدرة ، وقال بعضهم : إنهم يقولون : « لها رحمانا ومرحيانا » فلما عرب جمل « الله الرحمن الرحيم » ؛ ثم ذكروا أن ذلك الزعم باطل ، لأنه لا يلزم من المشابهة الحاصلة بين اللفظين الطعن في كون هذا اللفظ عربيا أصليا ، واستعمال اليهود والنصارى لا ينهض دليلا ، لأن احتمال توافق اللغات لا يزال قائما ، ومتى كان هذا الزعم لا دليل عليه ، فلا يصح أن يصار إليه (١) .

والذي عليه الاطابق من العلماء كالشافعي والاشعري والخطابي ، وإمام الحرمين ، والغزالي والرازي ، وأكثر الأصوليين والفقهاء ، وما عليه اختيار الخليل وسيبويه ، والمارني وابن كيسان أن هذا اللفظ عربي ، وقد جعل بعضهم ذلك في رتبة الذي لا يحتاج إلى برهان ، واستدل به بعضهم بأدلة لا تلزم من المناقضة .

٤ - أمر نجعل هو أم منقول ؟

ذهب كثير من العلماء منهم الشافعي ، وأبو المعالي ، والخطابي ، والغزالي ، والمفضل ، والخليل ، إلى أن هذا اللفظ علم مرتجل موضوع لذاته تعالى ، وأنه لا أصل له ، ولا اشتقاق ، حتى لقد قال الغزالي : إن كل ما ذكر في اشتقاقه وتصريفه تعسف وتكلف .

(١) مجلة الارض - للبرية والبرية فرما أدومة واحدة هي الباية فلا يجب من توافق معظم اللغات

وهذا الرأى هو اختيار الجهرة من قدماء المحققين ، وقد أوردوا له عدة وجوه تؤيد صحته ، وثبتت أوجهه .

وذهب جماعة من العلماء الى أنه علم منقول من أصل ، ومنصرف فيه نوع تصرف ، ولكنهم اختلفوا في ذلك الأصل المأخوذ منه هذا العلم على أقوال كثيرة ، منها :

(أولاً) أنه مأخوذ من « آله » كعبدة « الالهة » كعبادة و « ألوهة » كعبودة ، و « ألوهية » كعبودية ، ومنه قرأ ابن عباس « ويذكر والإعتك » بكسر الهمزة ، أى عبادتك .

فلفظ « الله » على هذا أصله « إلاه » على فعال ، بمعنى مفعول ، لأنه مألوه ، أى معبود ، كككتاب بمعنى مكتوب ، وإمام بمعنى مؤتم ، فلما أدخلت عليه أل حذف الهمزة تخفيفاً ، أو لأنها عوض عنها ، أو أن ذلك لمعنى اختصت به أل . ليس في غيرها ، كما قيل بكل ، وروى المنذرى عن أبي الهيثم أنه سأل عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللغة ، فقال : كان حقه « إلاه » أدخلت الألف واللام تعريفاً . فقيل : « إلالاه » ثم حذفت العرب الهمزة استئقلا لها فلما تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها في اللام التي هي لام التعريف وذهبت الهمزة أصلاً فقالوا : « ألالاه » فحركوا لام التعريف التي لا تكون إلا ساكنة ، ثم التقي لآمان متحركتان ، فأدغموا الأولى في الثانية ، فقالوا « الله » .

(ثانياً) أنه مأخوذ من « آله » كفرح ، ياله ، إذا تحير ، وذلك أن العبد إذا تفكر في صفات الله تعالى ، وتحير فيها ، قاله على هذا بمعنى مألوه فيه .

(ثالثاً) أنه مأخوذ من « آله » بالمكان كفرح ، إذا أقام به ، قال الشاعر :

ألمنا بدار ما تبين رسومها كان بقاياها وهوم على اليد
قاله بمعنى آله ، أى دائم وباق

(رابعاً) أنه مأخوذ من « آله » الى كذا ، ياله إليه ، إذا فرغ ، ولذا ، أى لجأ إليه ، لأنه سبحانه المنزع والملاذ الذي يلجأ إليه في كل أمر ، قال الشاعر : ألهت إلينا والحوادث حجة وقال آخر : ألهت إليها والكاتب وقف .

قاله على هذا بمعنى مألوه إليه .

(خامساً) أنه مأخوذ من « آله » التفصيل ، إذا ولع بامه ، وذلك أن الخلق مولعون بالتضرع إليه فيما ينوبهم ، فيكون إلاه على هذا بمعنى مألوه له .

وأصل لفظ « الله » على هذه الأقوال الحجة إلاه ، كفعال ، تصرف فيه على نحو ما ذكرنا أولاً .

(سادساً) أنه مأخوذ من لاء يلوه لوها ، جاء في اللسان (وحكى عن بعضهم : لاء الله الخلق يلوهم ، خلقهم ، وذلك غير معروف

(سابما) أنه مأخوذ من « لاه يليه لها » إذا استمر واحتجب ، أو إذا علا وارتفع ، وهو — تعالى — الذى لا تدركه الأبصار ، والمرتفع عن إدراك العقول . وأصله على هذين القولين — السادس والسابع — « لوه » أو « ليه » على وزن فعل ، بفتح الفاء ، وسكون العين فقلبت الواو أو الياء ألفا تخفيفا ، فصار « لاه » فأدخلت أل ، وأدخمت اللام فى اللام ، فصار « الله » .

(ثامنا) أنه مأخوذ من « وله » كورث ووجل ووعد ، إذا فرح ، أو إذا طرب ، أو إذا تمحير . وأصله على هذا « ولاه » كفعال ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا للوشاح إشاح ، وللوجاح — وهو الستر — إباح ، فصار « إلاه » وأدخلت أل ، ثم جرى عليه من التصريف ما ذكرنا .

هذه خلاصة عمدة المجموع الأقوال التى قيلت فى أصل هذا اللفظ الكريم واشتقاقه ، وقد ذكر صاحب القاموس أنهم اختلفوا فيه على عشرين قولاً ، وذكر صاحب تاج العروس أنهم اختلفوا فيه على أكثر من ثلاثين قولاً .

وقد رجع بعضهم من هذه الأقوال الثمانية القول الأول ، وهو أنه من « إلاه » كفعال وبني هذا الترجيح على كثرة دورانه فى الكلام ، واستعماله فى المعبود بحق ، وإطلاقه على الله تعالى .

ه — الفرق بين لفظي الإله والله :

اختلفوا فى الفرق بين لفظي الإله والله ، فقال السيد هـ علم لذاته ، إلا أنه قبل الحذف قد يطلق على غيره تعالى ، وبعده لا يطلق على غيره سبحانه أصلاً .

وقال السعد : إن الإله اسم لمفهوم كلى ، هو المعبود بحق ، والله علم لذاته تعالى . وقال الرضى : هما قبل الإدغام وبعده مختصان بذاته تعالى ، لا يطلقان على غيره أصلاً ؛ إلا أنه قبل الإدغام من الأعلام الدلالية ، وبعده من الأعلام الخاصة .

وجاء فى اللسان فى الكلام على مادة إله « فإذا قيل الإله ، انطلق على الله سبحانه ، وعلى ما يعبد من الأصنام ، وإذا قلت الله . لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى » .

وقال الخليل : « أطبق جميع الخلق على أن قولنا الله مخصوص بالله سبحانه وتعالى ، وكذلك قولنا الإله مخصوص به سبحانه وتعالى ، وأما الذين كانوا يطلقون اسم الإله على غير الله ، فأنما كانوا يذكرونه بالاضافة ، كما يقال : إله كذا ، أو ينكرونه ، فيقولون : إله ، كما قال تعالى خبراً عن قوم موسى : « اجعل لنا إلهاً ، كما لهم آلهة » .

٦ - خواص :

أطل الصوفية وغيرهم في ذكر خواص هذا الاسم الكريم ، وخواص حروفه الشريفة ، وأكثروا من ذلك إكثاراً عظيماً ، وتوافيه بما نستطيع أن نفهمه ، وبما لا نستطيع أن نفهمه . ولما كان موضوع بحثنا يقتضينا أن نذكر طرقات من ذلك ، آثرنا أن نورد شيئاً من هذا تمهيداً مع ضرورة وفاء البحث حقه .

فما قالوا في خواص الاسم الكريم ، أنك إذا دعوت الله بالرحمن ، فقد وصفته بالرحمة دون القهر ، وإذا دعوته بالعليم ، فقد وصفته بالعلم دون القدرة ، وأما إذا قلت : يا الله ، فقد وصفته بجميع الصفات .

ومنها أنك إذا قلت في كلمة الشهادة : أشهد أن لا إله إلا الرحمن ، أو إلا الرحيم ، أو إلا الملك ، أو إلا القدوس ، لم يكف ذلك في دخول الإسلام ، أما إذا قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، فانه يكفي ، لاختصاص هذا الاسم بهذه الخاصية الشريفة .

وبما قالوه في خواص حروفه : أن الألف مشققة من الالفه والتأليف ، ألف الله به جميع خلقه على توحيده ومعرفته بأنه إلههم وموجدهم ، وخالقهم ورازقهم ، قال تعالى : « لو أنقذت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » . واللام الاولى إشارة الى الملك ، قال تعالى :

« لله ما في السموات وما في الأرض » وقال : « لله الأمر من قبل ومن بعده » وقال : « قل : لله ما في السموات والأرض ؟ قل : لله » .

واللام الثانية إشارة الى لام الملك ، قال تعالى :

« له الملك لا إله إلا هو » وقال : « له ملك السموات والأرض وما بينهما » وقال : « قوله الحق ، وله الملك » .

والهاء هي هاء الإشارة الى مطلق وجود الحق ، وإثبات وحدانيته ، وإحاطته بجميع الأشياء كلها علماً وإرادة وقدرة وملكا ، وذلك بعد حذف الألف واللامين ، قال تعالى : « هو ربنا لا إله إلا هو » وقال : « إنما هو إله واحد » وقال : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » وغيرها وغيرها من الآيات .

هذا أول بحث نبداً به موضوع « أعلام القرآن » ورجاؤنا في الله الكريم أن يمدنا بالعون ، وبكلانا بالتوفيق ، وأن يصرف عنا عوامل التثبيط والتعويق

فكرى بسى
المسحوس بالآزهر

الفقه الاسلامي

والتقول عليه

المصادر :

- (١) دائرة المعارف العلامة محمد فريد وجدي
- (٢) تاريخ الكنيسة العلامة الألماني « موسيم »
- (٣) تاريخ العرب لسيد بو
- (٤) القضاء في الاسلام لعارف الكندي
- (٥) محاضرة في الحقوق للاستاذ سعيد الغزي
- (٦) جهر الاسلام للاستاذ أحمد أمين
- (٧) مجموعة رسائل للاسفر نكاني من علماء ما وراء النهر
- (٨) الأئم للإمام الشافعي

ادعى بعض الباحثين أن الفقه الاسلامي تأثر بالقانون الروماني ، واستمد منه ، ونقل عنه إما مباشرة ، أو عن طريق التلمود الذي أخذ كثيرا من هذا القانون . واستدلوا على هذه الدعوى بالأدلة الآتية :

- ١ — إن اتصال المسلمين باليهود مكنتهم من الأخذ ببعض أقوال التلمود .
- ٢ — وإن المقارنة بين بعض أبواب الفقه وبعض أبواب القانون الروماني تفتح هؤلاء الباحثين بأن هذا الفقه نقل عن هذا القانون ، وأن هناك قواعد نقلت من القانون الروماني نصها . مثل : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .
- ٣ — وإن كلمة الفقه والتقية استعملتا وفقا لمعنى الكلمة المستعملة عند الرومان ؛ فهم يستعملون كلمة « Jurs » وهي تدل على الفهم والمعرفة والحكمة .
- ٤ — وإنه كان في الشام مدارس للقانون الروماني عند الفتح الاسلامي ، وكان هناك محاكم تدير في نظامها وأحكامها حسب القانون الروماني ، واستمرت هذه المحاكم في البلاد بعد الاسلام زمن طويلا ، وقوم كالعرب حين الفتح لم يأخذوا من المدينة بحظ واحد إذا فتحوا بلادا معدنية نظروا ماذا يفعلون ، وبم يحكمون ، ثم اقتبسوا من أحكامهم .

وإذا واجهنا هذه الدعوى وادلتها بالحق ، وجدناها غير صحيحة ، ومنقوضة بأدلة كثيرة نلخص منها ما يلي :

١ — إن الفقه الاسلامي أصوله مدونة ، ومصادره معروفة ، وهي : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس . فلا يصح أن يقال فيه ، بعد ذلك ، وبعد أن بينت طرق الاستنباط من هذه الأصول ووجوه القياس عليها ، أنه فقه استمد من غيره ، أو نقل عن سواء .

٢ — إن التاريخ أحصى العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم ، ولم يذكر أن الفقه الاسلامي أخذ شيئاً عن القانون الروماني ، أو عن التلمود ، أو غير ذلك .

٣ — إن العلوم التي نقلت عن اللغات الأجنبية بقيت عليها مسحة من المعجمة ، وفي ألفاظها مفردات غريبة عن اللغة العربية ؛ أما الفقه الاسلامي فهو عربي في مفرداته وتراكيبه ، وإذا وجد فيه لفظ غريب فهو كما يوجد في العلوم العربية البعثة كالادب مثلاً .

٤ — لو كان الفقه الاسلامي استقى من القانون الروماني لتسرب إليه شيء من الخزعبلات التي كانت تجري في مواطن هذا القانون كمثل محاكمة الحيوان والحكم عليه بالنفي أو بالعذيب أو بالصلب ، وكتل ينثر قبور الموتى ومحاكمتها وإصدار الاحكام عليها ، وهذا ما تعالى الفقه الاسلامي عنه علواً كبيراً .

٥ — إن كلمة الفقه في أصل اللغة العربية معناها العلم بالشيء ، والفهم له ، ثم غلبت على معنى العلم بالدين والفهم له ، وفي هذا المعنى استعملها القرآن الكريم قبل امتزاج العرب بالرومان ، فقال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » ثم غلبت هذه الكلمة على « علم التشريع » لأنه يتطلب فقهاً في الدين ومعرفة بالكتاب والسنة ؛ وهذا شأن العرب في أسماء العلوم ، تكون الكلمات عامة ثم تخصص .

٦ — لم يثر على أي إشارة من فقيه من فقهاء المسلمين إلى القانون الروماني على سبيل النقد أو التأييد أو الاقتباس أو غير ذلك ؛ ولو كان الفقه الاسلامي استمد من القانون الروماني لوجد لفقيه مسلم ولو كلمة أو إشارة في هذا الفقه إلى هذا القانون .

٧ — إنه لو كان الفقهاء تأثروا بالقانون الروماني لكان أولى الناس بالتأثر بهذا القانون الامام الاوزاعي ؛ فاقصد عاش في بيروت - موطن أكبر مدرسة رومانية في العام - وكان أكبر فقيه فيها ؛ ولكنه لم يتأثر مطلقاً بهذا القانون . ويدل القدر المذكور في الجزء السابع من كتاب الامم من مذهبه انه كان من أهل الحديث ، وهي ابعده مظنة من التأثر بالقانون الروماني .

٨ — إن وجود قواعد في القانون الروماني وهي بعينها في الفقه الاسلامي ، ووجود تعاليف في بعض الاحكام والابواب من الفقه الاسلامي وهذا القانون ، يدل على أن القانون الروماني

هو الذي أخذ من الفقه الاسلامي ، وأن الشريعة الاسلامية هي التي أمدت هذا القانون ، وصيرته على الحالة التي هو عليها الآن .

فلقد كان القانون الروماني مشوشا معقدا ، وعلى أنتمس ما يمكن أن يتصوره الانسان كما بسط ذلك المؤرخ الالماني الشهير « موسيم » في تاريخ الكنيسة . وبقي على هذه الحال لم يتغير في أساسه تغيرا يذكر الى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، أي بعد ظهور الاسلام بأربعة قرون ونصف .

وفي أوائل القرن الحادي عشر وجد هريوت الفرنسي — المعروف بين الأخبار الرومانيين بـ « البابا » الذي جلس على كرسي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية — مع إخوان له من أنصار العلم والحق مما يتلقون العلوم في مدارس الأندلس الاسلامية ، وفي جلستها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعة : الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والاجماع ؛ وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم ؛ وبسبب رداة الحقوق عندهم فكروا في أن ينقلوا ما يلائمهم ويوافق محيطهم من أحكام الفقه الاسلامي . وأقنعوا ملوك الجبهة الجنوبية من بلادهم بضرورة ذلك ؛ وبعد أن اتفق رأيهم على ذلك اشترطوا عدم عزو المأخوذ عن الفقه الاسلامي اليه خوفا من نفرة العامة من المسيحيين الذين كانوا ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام مهما كان حسنا ونافعا ؛ ومن أجل ذلك أجمعوا على تسمية ما يأخذونه عن الفقه الاسلامي باسم : « الشرائع الرومانية » « أو القانون المدني » « أو القانون الروماني » ، وأن يعزوه لعلماء الحقوق منهم كنتيجة لبعضهم ودرسهم .

وهذه الحقائق ثابتة من مصدرين أحدهما شرق اسلامي ؛ وثانيهما غربي غير اسلامي فأما المصدر الشرقي الاسلامي فقد جاء في « مجموعة رسائل في شوارد المسائل » للعالم الباحث « مفصل الاسفونكاني » من علماء ما وراء النهر : أن أبا الوليد محمد بن عبد الله قال في تطبيقاته على النهاية شرح الهداية : أن طلبة العلم من الأهرنج الذين كانوا يسافرون إلى قرطبة بالاندالس لطلب العلم اهتموا كثيرا بنقل « الفقه الاسلامي » الى لغتهم ليستعملوه في بلادهم رداة الأحكام فيها خصوصا في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة ، وقد دونوا الفقه الاسلامي كاملا وحوروه الى ما يوافق بلادهم .

وأما المصدر الغربي غير الاسلامي ، فقد قال العلامة المؤرخ الالماني الشهير « موسيم » في تاريخ الكنيسة في كلامه عن القرن العاشر الميلادي : إن هريوت السالف الذكر كان مدينا بمعرفته لكتب عرب الأندلس ومدارسهم ، لأنه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكان تلميذ لعلماء العرب في قرطبة واشبيلية وأثرت سفره في الأوروبيين المتعوقين للعلم ، فقد كان لهم من ذلك الوقت فصاعدا رغبة عظيمة في أن يقرأوا ويسمعوا علماء العرب الساكين في اسبانيا

وبعض نواحى إيطاليا وترجوا كثيرا من كتبهم الى اللاتينية ، فعرب اسبانيا هم أصل ويلبوع كل معرفة برزت فى أوربا فى القرن الماشر فصاعدا ؛ وإن علم القوانين هو من أهم التعاليم والمعارف التى اشتهرت فى أوربا فى تلك الأوقات ، وإن ما أخذوه من القوانين المدنية والأحكام القضائية من الفقه الاسلامى هو ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية ، أو القانون الرومانى .

فظهر من هذا أن دعوى « سانتلانا » و « جولد زيهر » وغيرها بأن الفقه الاسلامى استقى من القانون الرومانى هى دعوى غير صحيحة ، وأن الفقه الاسلامى هو الذى أمد القانون الرومانى وصيره على ما هو عليه الآن .

السيرة عفيفى

بمحكمة مصر الشرعية

اعرف الشر ولا تعمل به

قيل لعمر بن الخطاب : إن فلانا لا يعرف الشر . قال ذلك احرى أن يقع فيه .
وسئل المغيرة بن شعبه عن عمر بن الخطاب فقال : كان واقفاً له فضل يعمه من أن يتخذ ، وعقل يمنعه من أن يتخذ .

وقال اياس : لست بحجب ، والحجب لا يتخذنى .

وكان ماسر بن عبد الله بن الزبير فى غاية الفضل والدين ، وكان حسن الظن بالناس ؛ فبينما هو جالس بالمسجد إذ أتى بمطامع نفسه ، وهو منصرف الى منزله ؛ فلما صار فى بيته ذكره فقال لخادمه اذهب الى المسعد فأتنى بمطامى ، فقال له الخادم وأين نجد ؟ قال سبحان الله وفى احد يأخذ ما ليس له ؟

وقال أبو أيوب : من أحماني من أرتجى بركة دعامه ، ولا أقبل شهادته .

قال ابن عبد ربه صاحب العقد : وكانوا يستحسنون الحسنة لافنى والصبوة للحدث ، ويكرهون الشيب قبل أوانه ، ويذهبون ذلك ببوس الثمرة قبل نضجها ، وأن ذلك لا يكون إلا من ضرر فيها ؛ فأمتع الأخوان مجلساً ، وأكرمهم عشرة ، وأشدهم حذقاً ، وأنهم نسا من لم يكن بالفاطر المنفك ، ولا ازاهد المنسك ، ولا المهاجن المنطرف ، ولا العابد المتعطف .
قال القاهر :

وفتى وهو قد أناف على الخ سين يلقاك فى ثياب غلام

أسواق العرب

ومجتمعاتهم الأدبية

تقضى طبيعة الاجتماع البشرى أن يكون للعرب -- كغيرهم من الناس -- مجتمعات عامة، يتبادلون فيها مصالح الحياة؛ فكانت الأسواق مظهر تلك المجتمعات، وكانت مكة المكرمة لها من القداسة الدينية، موطن تلك الأسواق التي جعلتها مورداً تجارياً خصباً تؤمه القبائل للارتفاق والمباينة؛ وكانت هذه التجارة محدودة في دائرة ضيقة تماثل البيئة الطبيعية والاجتماعية ووسائل التبادل، فلم تكن تلك الأسواق لتقوم على هذا الغرض المادى المحدود، بل إن الطبيعة العربية استطاعت أن تضيف لها غرضاً آخر أعطاها أهمية، وأكسبها نشاطاً وحياة قوية، ذلك أن أصارتها مجتمعات أدبية عامة، فإذا قدمت القبيلة السوق كان في مقدمتها شعراؤها الذين يذيعون مفاخرها، ويباهون بأحسابها، وحطباؤها الذين يتناغون عنها، ويعظمون شأنها وينشرون مآثرها، وعندئذ تنور العصبية وتناول الشعراء والخطباء، وينغلب الأدب على التجارة؛ ولذلك كانت تلك الأسواق مصدر نزوة أدبية عظيمة، تستطيع بسببها أن تسميها «مدارس أدبية» كان لها أثر كبير في تهذيب الأدب وتنقيحه، وتوجيهه وجهة فكرية عامة الأغراض والمقاصد.

ومن أهم تلك المجتمعات العامة وأبلغها أثراً، وأكثرها فائدة للأدب «سوق عكاظ» التي كانت أعظم أسواق العرب، يؤمها كبارهم وصغارهم، ساداتهم وسوقتهم، يتبادلون فيها السلع للمناجزة، ويتبارون ببلغ القول للمفاخرة؛ وكانت كل قبيلة ترد عكاظ لتمد لها من القول هبتها، وتذكر من الفخار ما يرفع بين العرب شأنها، وكان خول الشعراء يردونها ليعرضوا أشعارهم على المحكمين من مقدميهم، فيروى عنهم ما يقولون، ويأخذ طريقه إلى القلوب فيعاقبها ويشتهر، ولعل هذا هو السبب في تسمية القصائد العشر المشهورة المعلقة؛ وأما رواية كتبها في القبايطى بماء الذهب وتعليقها على الكعبة، فلا يسلمها حذق النقاد من أئمة الأدب، قال أبو جعفر النحاس: «إن الرواة لا يعرفون هذا، وأول من جمعها حماد الراوية، وصحاحها المشهورات». وقد مال إلى مذهب التعليق على الكعبة ابن خلدون وابن رشيق، وصرح به ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد حيث قال: «واتع من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن سمحت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القساطل المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة».

وقد تلقى البغدادي في «خزانة الأدب» بين المذهبيين فقال: «ومعنى المعلقة أن العرب

كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ، ولا ينشد أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فحرضه على أندية تربي ، فإذا استحسنوه روى ، وكان نثرا لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه ، طرح ، ولم يعبأ به وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اخبرت من سار الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، ولذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره .

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ما يقوله أبو الفرج في الأغاني عن قصيدة عمرو بن كلثوم : وبنو تغلب تمظلمها جدا وروبوها صفارم وكبارم حتى هجوا بذلك . قال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة ظلمها عمرو بن كلثوم
يفخرون بها من كان أولهم بالرجال لقصر غير مشنوم

ومعها يكن ، فإن التنافس الأدبي جعل « عكاظ » قبلة الشعراء ، وجعل للشعر مكانة لم تكن له من قبل ، ففي « عكاظ » تنق الأعشى بنات الحلق بمدحته . روى ابن رشيق في « العمدة » أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للحلق امرأة عاذلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم وهو رجل مفوه محدود في الشعر ، ما مدح أحدا إلا رفعه ، ولا هجا أحدا إلا وضعه ، فلوسبقت الناس اليه ، فدهوته الى الصياغة ، رجوت لك حسن العاذلة ، فسبق اليه الخلق فأزله ونحر له ، وذكر له بناته فقال الأعشى : كفت أسره ، فأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرفت وما هذا الصهاد المورق وما بي من سقم وما بي مصشق

ورأى الخلق احتجاج الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى أين يرد الأعشى بقوله الى ان سمع :

نبي الدم عن آل الخلق جفة نحيب القوم ولدان من النسل دردد
تري القوم فيها شاربين وبينهم الى ضوء دار بالقاع تحرق
لعمري لقد لاحظت عيون كثيرة وبات على النار الندى والخلق
نشب للقرورين يسطليانها بأسم داج عوض لا يتفرق
رضيحي لبان ندى أم نحالقا كما زان من الهندواني رونق
تري الجوديجري ظاهرا فوق وجهه

فأتم القصيدة ، ولا الناس يفسلون الى الحلق بهنتونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه يحطبون بيته لمكان شعر الأعشى .

وذكر أبو بكر الباقلائي في كتاب « اعجاز القرآن » أن النبي صلى الله عليه وسلم حضر « عكاظ » وسمع فيها كلام قس بن ساعدة ، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن وفد عبد القيس لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيكم يعرف قس بن ساعدة ؟ قالوا :

كلنا يعرفه يارسول الله ، قال لست أنساه بمكاف إذ وقف على امير له أحر فقال : « أيها الناس اجتمعوا ، وإذا اجتمعتم فاصموا ، وإذا صمتم فعوا ، وإذا وعيتم فقولوا ، وإذا قلتم فاصدقوا » وروى المرزبانى فى « الموشح » : أن النابغة الذبياني كان تضرب له قبة حراء من آدم بسوق مكاف ، فتأثبه الشعراء فنعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصارى :

لنا الجففات الغريلمن فى الضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدا بنى العنقاء وابنى عحرق فأكرم بنا خالا واكرم بنا ابنا

فقال له النابغة : أنت شاعر ، ولكنك أقلت حفاك وأسيفك ، ونفرت بمن ولدت ، ولم تقهر بمن ولدت . قال أبو بكر الصولى : فانظر الى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه لقاء كلام النابغة ، وديباجة شعره .

وفى الألفاظ أن الخنساء أنشدت النابغة بعد الأعشى — وكان عنده حسان — قولها :

واب صخرا لتأثم الهداة به كأنه هلم فى رأسه نار
واب صخرا المولانا وسيدنا واب صخرا إذا نفتو لنهار

فقال النابغة : لولا أن أبابصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة ، قالت : والله ومن كل ذى خصيتين ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومنها ، قال : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول : لنا الجففات القراخ .

تحكيم النابغة بين الشعراء فى مكاف مما أجمع عليه الرواة وأئمة الأدب ، وقصته مع حسان والخنساء والأعشى مشهورة ، ولكن كتب الأدب تزويجا بروايات مختلفة « كما وكيفية » وبعض النقاد يشكك فيها ، قال قدامة بن جعفر فى كتاب « نقد الشعر » : ثم إنى رأيت هؤلاء فى وقت آخر يستحسنون ما يردون من طعن النابغة على حسان . بن ثابت رضى الله عنه فى قوله : لنا الجففات القراخ وذلك أنهم يرون موضع الطعن على حسان فى قوله « القرا » وكان ممكننا أن يقول « البيض » لأن الغرة باض قليل فى لون آخر غيره ، وقالوا : فلو قال « البيض » لكان أكثر من « القرا » وفى قوله « يلعبن بالضحى » ولو قال « بالضحى » لكان أحسن ، وفى قوله « وأسيفنا يقطرن من نجدة دما » قالوا : ولو قال « يحرقن » لكان أحسن ، لأن الجرى أكثر من القطر ، فلو أنهم يحصلون مذاهبهم لعلموا أن هذا المذهب فى الطعن على شعر حسان غير المذهب الذى كانوا معتقدين له من الإنكار على مهمل ، والنمر ، وأبى نواس ، لأن المذهب الأول إنما هو لمن أنكر القرا ، والثانى لمن استجاده ، فإن النابغة « على ما حكى عنه » لم يرد من حسان إلا الإفراط والغلو ، وعلى أن من أنتم النظر علم أن الرد على حسان « من النابغة كان أو من غيره » خطأ وأن حسانا مصيب .

فانت ترى قدامة في كلامه لا يثنى برواية الطعن من النابغة على شعر حسان ، ويشير الى ضعفها في موضحين من كلامه ، ثم هو شديد الحرص في الدطع عن شعر حسان لا تأييدا لمذهبه في استجداء الغلو والأفراط في المبالغة ، لأن شعر حسان ينقصه ، ولكن ردا على منكرى ذلك استمسا كما ينقد النابغة .

ولو نظرنا الى القصة كما ترونها كتب الأدب لكان في اختلاف الروايات ، والترديد الذي يلجأ اليه بعض الرواة ، وإضافة التعليقات المسطحة الى النابغة ما يدعوا الى الشك في صحة هذا الاستيعاب ، والتعليل الجزئي في البيت مما لم يعمد في السليقة العربية مثله ، ثم إن هؤلاء الرواة يذكرون أن النابغة قال لحسان : قلت جفانتك مع أن سيويه ، وهو إمام العربية ، استدلل بيت حسان نفسه على أن الجمع بالناء قد يراد به الكثرة . وعبارته في « الكتاب » وقد يجمعون بالناء وهم يريدون الكثير . قال الشاعر :

لنا الجفنت الغري يلعن بالضحى وأسيفتنا يقترن من نجدة دما

فلو كان هذا النقد صدر من النابغة وهو من أفصح من مضغ الشبح والقيصوم ، لما ساغ لسيويه أن استدلل بالبيت على أن الجمع بالناء قد يراد به الكثرة دون أن يثبته على قلته أو شدوذه أو يبين مخرجه ، على أن بعض الأدباء يروى هذا النقد المنسوب الى النابغة من بعض شيوخ الأدب ، فإن الأثير يقول في كتاب « المثل السائر » : وجدت أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي قد طاب على حسان بن ثابت رضى الله عنه قوله : لنا الجفنت الغري الخ ، وقال : إنه جمع الجفنت والأسياف جمع قلة وهو في مقام غر ، وهذا مما يحط من المعنى ، ويضع منه ، وقد ذهب الى هذا غيره أيضا ، وليس بشيء ، لأن الغرض إنما هو الجمع ، فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة .

وهذا القول من ابن الأثير ظاهر جدا في أن الصولي هو العائب على حسان ، وليس لنا بنبغة ذكر ، وليس ابن الأثير مما يظن به عدم الاطلاع والتحصيل ، وأما كان فالفك إنما يتجه الى تفاصيل القصة ، أما أصلها فلا وجه للشك فيه ، لأن الرواة يجمعون على تحكيم النابغة بين الشعراء في عكاظ ، فليس بعيب أن يفضل النابغة شاعرا على شاعر ، وأن يبين عيوب بعض الشعر الذي يمرض عليه ويمل ذلك تعليلا يتفق مع السليقة العربية ، بل لا بد أن يكون قد وقع شيء من ذلك ، وإلا فامعنى هذا التحكيم الذي أجمع عليه الرواة ؟ والذي يقرب أن يكون صحيحا من روايات القصة ما رواه أبو علي الفاي في أماليه حيث قال : « جاء حسان ابن ثابت رضى الله عنه الى النابغة فوجد الخفساء حين قامت من عنده ، فأنشده قوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريض عليهم	يردى يصفق بالرحيق السلسل
يفسبون حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل

فقال : إنك : لشاعر ، وإن أخت بنى سليم لبسكة . وقد يدل اختلاف الشعر على تعدد القصة ، كانت عكاظ منشأ نهضة أدبية أفاد منها الأدب العربي شيئا كثيرا ، وكان إلى جانبها أسواق أخرى لم يكن لها ولا سبيل من الناحية الأدبية ما كان لعكاظ ، فقد كانت أكبر أسواقهم وأعظم مجتمعاتهم ، وأحفل أنديتهم بالأدب وما يدور حوله من نقد وتحييد عما لو تتبعه الرواة وألقوا منه وحدة لكان منه أسفار من العلم والأدب وقوانين النقد . قال أبو الحسن حازم الأنصاري في كتابه « المناهج الأدبية » : لم تكن العرب تستغنى بصحة طباعها عن تصديدها وتقويتها باعتبار معاني الكلم بالقوانين المصححة لها وجعلها ذلك علما تتدارسه في أنديتها ، ويستمدركه بعضهم على بعض ، وقد نقل الرواة في ذلك الشيء الكثير ، لكنه مفرق في الكتب لو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج منه علما كثيرا موافقا للقوانين التي وصمها البلغاء في هذه الصناعة .

صادق إبراهيم عرصونه

في الموعظة الحسنة

قال حكيم : السعيد من وعظ بغيره . وهو لا يريد من وعظه غيره ، ولكنه يريد من رأى سوء أثر المصاحي على غيره ، فاعتبر بها في نفسه .

وقال الحسن البصري : افرعوا هذه النفوس فانها طلمعة ، وحادثوها بالذكرا فانها سريرة الدنور ، وأحصوها فانها إن أطيبت برحت في الشر .

وكان يقول عند ختم مواعظه : يا لها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة .

وكان ابن المبارك يقول إذ فرغ من كلامه : ألسن تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال يخالف .

وقال حكيم : الكلمة إذا خرجت من القلب ، وقمت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .

يريد بهذا أن يقول أن فائد الشيء لا يعطيه ، فن كان يامر بالمعروف ولا ياتعربه ، وينهى عن المنكر ولا ينتهى عنه ، لا يكون لقوله وقع في نفس السامع .

ولكن زيادا يخالف ما تقدم فقد قال : أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا ، أن تفتنعوا باحسن ما تسمعون منا .

باب الاستئذان والفتاوى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاءات الآتية :

تربية الكلاب

- ١ - هل يجوز تربية الكلاب لحراسة الدار وغيرها أو لا يجوز ؟
- ٢ - هل إذا لمس الكلب أحداً أو مسه وهرى مبلول بالماء أو غيره ، ولم يفسل محل اللبس والمس مقلداً للامام مالك رضى الله عنه في طهارته وطهارة ريقه ، ويتوضأ ثم يصل ، ولم يراع مذهب الامام مالك ، بل يتوضأ ويصل على مذهب الامام الحافى ، ويقلد من يجوز التلميق في القضيتين في التقليد ، هل يجوز ذلك أو لا يجوز ؟
- ٣ - هل قول الامام مالك بطهارة الكلب مخالف لدين الاسلام ، وخارج عنه أو لا ؟
راج كلثنين ورئيس المجلس الدينى بجامعة
حكومة كلثنين كوتاهارو

الجواب :

- ١ - تربية الكلاب واتخاذها منفعة شرعية كالصيد وحراسة الدور وغيرها جاز شرماً فقد جاء فى صحيح مسلم وسنن ابن ماجه وأبى داود والسنن أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص فى كلب الغنم والصيد والزرع .
- ٢ - - تلميق المصلى فى الحادثة المستول عنها ، وأخذ من كل مذهب شيئاً من أحكامه فيها جائز على الراجح من مذهب الامام مالك رضى الله عنه .
- ٣ - مسألة طهارة الكلب من المسائل التى ليس فيها نص قاطع ، بل هى من المسائل الفرعية الاجتهادية التى اختلف فيها الأئمة رضوان الله عليهم . فمنهم من رأى طهارة الكلب . ومنهم من رأى نجاسته ؛ وقد ذهب كل منهم الى رأى لدليل ترجح عنده ؛ فلا يصح أن يعتبر قول الامام مالك بطهارة الكلب خروجاً عن الدين ، أو مخالفاً للاسلام .

فى الوقف

جاء أيضا من فضيلة الاستاذ الشيخ موسى البديرى حادم العلم الشريف بالمسجد الأقصى استفتاء من بعض ما اشتمل عليه كتاب الوقف الصادر من (محمد بن يذير الشهير بابن حبيش) وأرجل مع هذا الاستفتاء صورة من كتاب الوقف آنف الذكر . وقال فى استفتاءه : إن الواقف مات ، وآك الوقف الآن الى أولاد أولاد أولاده ، الذين هم الطبقة الثالثة ، وطلب الاجابة عما يأتى :

١ — هل هذا الوقف يعتبر أوقافا متعددة . نظرا لقول الواقف فيه (ثم من بعد كل واحد من ذكور أولادى لو مات يسكون نصيبه لولده ذكرا كان أو أنثى ، وحينئذ فنقتض القسمة إنما يكون بموت كل طبقة من فروع كل ابن) ؟

٢ — كيف تقسم غلة هذا الوقف على الطبقة التى آك إليها الوقف الآن ؟ وهل فى كتاب الوقف ما يستدل منه على أنه إذا مات أحد من أولاد الذكور الموقوف عليهم من ولد يعطى نصيبه لولده ، أو ليس فيه ما يدل على ذلك ، فیرد نصيب المنوفى الى أصل الغلة ، ويوزع على بقية المستحقين الى أن تنقرض الطبقة ، وتسنف القسمة ؟ وهل إذا استوفيت القسمة يقسم الربع على الأحياء والأموات ، فما أصاب الحى أخذه ، وما أصاب الميت أخذه ولده ؟

٣ — إن الواقف بعد أن صدر منه هذا الوقف ، وقف منقولات بكتاب وقف آخر وقد جاء فى هذا الكتاب شروط أخرى لم ترد فى الكتاب الاول ، وقال الواقف : إنها تجرى على الوقف الاول ، لأنه كان ينوبها حين وقف ، فهل يعمل بتلك الشروط فى الوقف الاول مما بينه ؟

الجواب :

تبين من الاطلاع على كتاب الوقف أن الواقف جعل وقفه على نفسه ، ثم من بعده على أولاده ذكورا وإناثا . للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ على أن من يموت من أولاده الذكور يسكون نصيبه لولده ، الى أن ينقرض أولاده أصلبه جميعا ، فيكون الوقف مصروفا ريعه الى أولاد أولاده الذين ينتمون الى الواقف بمحض الذكور ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، ثم إذا انقرضت هذه الطبقة التى هى طبقة أولاد أولاده ، كان وقفا على أولاد أولاد أولاده بالشروط المذكور ، وحينئذ يسكون الوقف فى الطبقة الثالثة التى آك إليها الوقف الآن وقفا واحدا لا تعدد فيه ، موزما بمجملته على أولاد أولاد أولاده .

أما ما جاء فى كتاب الوقف من قول الواقف (ثم من بعد انقراض أولادى لصلى ذكورا وإناثا يسكون وقفا على أولاد أولادهم) فضمير الجمع المضاف إليه كلمة أولاد خطأ صوابه ياء

المنسكلم حتى تسكون المباراة (يكون وفقا على أولاد أولادى) بدليل ما جاء فى كتاب الوقف بعد ذلك من قوله - (ثم إذا انقرضت هذه الطبقة التى هى طبقة أولاد أولادى) .

وأما ما أشار إليه المستفتى فى السؤال من أن الوقف من قبيل أوقاف ممتددة ، كل نصيب ابن منه بمنزلة وقف على حدة ، لقول الواقف فيه (ثم من بعد كل واحد من ذكور أولادى لو مات يكون نصيبه لولده ذكرا كان أو أنثى . الخ ، لأن لفظ كل يقتضى التمدد) فلا أثر له فيما نحن بصدد من توزيع الريع بحملته على الطبقة التى آلت إليها الوقف الآن التى هى الطبقة الثالثة ، إذ لم يرد فى شأن هذه الطبقة تعبير بلفظ كل الذى يقتضى التمدد ، ووجود كلمة كل فى بعض الطبقات السابقة لا يجعل التمدد ساريا على غيرها من الطبقات الأخرى .

وليس فى كتاب الوقف ما يدل على أن من مات من أهل هذه الطبقة عن ولد يكون نصيبه لولده ؛ بل هو ساكت عنه ؛ وحيفئذ يمود نصيب من يموت الى أصل الفلة ، الى أن تمقرض هذه الطبقة بموت آخر واحد فيها ، فننقض القسمة ويستأنف توزيع الريع من جديد على الطبقة التى تليها بالشروط المتقدمة .

وأما توزيع الريع عند نقض القسمة فقصور على الأحياء من أفراد الطبقة التالية دون الأموات ، إذ لا يوزع الريع على الأحياء والأموات إلا إذا كان فى كتاب الوقف نص يجعل ولد من يموت قبل الاستحقاق قائما مقام أبيه فى الدرجة والاستحقاق ؛ وليس فى كتاب الوقف شيء من هذا .

وأما ما جاء فى كتاب وقف المتعولات من الشروط ، فلا يسرى منه شيء على الوقف الأول ولا هرة بنية الواقف ما دام الوقف السابق لم يشتمل على شيء من شروطه ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الغمام

حسن البديهة

قال الشيباني : أقام المنصور صالحا انه ، فتكلم فى أمر فاحسن . فقال شبيب بن شبة .
فانه ما رأيت كاليوم أبين بيانا ، ولا أنرب لسانا ، ولا أربط جاشا ، ولا أبل ريقا ، ولا أحسن طريقا ، وحق لمن كان المنصور أباه ، والمهدى أخاه أن يكون كما قال زهير :

هو الجواد فان يلحق بشأوها تمسلى تكاليفه فتسله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل فتل ما قدما من صالح حبقا

وخرج شبيب بن شبة من دار الخلافة فقيل له : كيف رأيت الناس ؟ قال رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضيا .

التفسير

سورة لقمان

- ٥ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا أَنْتُمْ تُقْبَلُونَ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ » :

من استعمل الآية السابقة « خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألغى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وث فيها من كل دابة ، وأزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم » لم يتردد لحظة في أن ينطلق لسانه قائلاً : هذا خلق الله . فلا يكاد امرؤ عنده مسكة من فطنة وعقل ، يشرح نظره في السماء وكواكبها ، والأرض وهوالمها ، وما بينهما من ماء ينزل من السماء فيختلط بأجواء الأرض ، فتتربو وتربو ، وتثبت من كل زوج كريم إلا ويقر في نفسه ، ويجزم عقله لأول وهلة في النظر أن هذه آثار صدرت عن قوة غيبية لا تحيط بها مداركه وهي تحيط به ، ولا يكتنفها عقله وهي مهيمنة عليه ؛ ومهما جالت به الوسواس ، ولعبت به الزمات ، فلا مناص له أن يعترف من قرارة قلبه فيما بينه وبين نفسه أن هذه آثار شاهدة بوجود مبدعها ووحيداً واحباً ، وأنه هوالمسيطر والمهيمن ، وأنه العليم الحكيم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه الله رب العالمين : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » . وما كان انحراف النفوس الضالة عن الإيمان بالله إلا تخلصاً من بطش الله ، وتخلصاً من تكاليف الله ، وتخلصاً للاطلاق الذي تبغى به نيل مشيئاتها وعدم القيد من حريتها ؛ هذا أمر فطري تدع عن له النفوس بأصل فطرتها ، ولا يحيد عنه إلا نفس انطاعاً نورها ، وحببت بصيرتها ، يشرح ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله :

مجة الازهر — كان مكان هذه المقالة قبل فصل السنة وليكنها وصلتنا متاحة فسرناها ها .

« كل مولود يولد على الفطرة . وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » وقوله تعالى :
« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك
الدين القيم »

من هذا نرى أن قوله تعالى « هذا خلق الله » موقفه مما قبله موقع النتيجة من الدليل ،
فاذا ضم اليه قوله : « فأروني ماذا خلق الدين من دونه » وحدته متنها المراد من الآية
السكرينة وهو قطع دابر الشرك ليكمل التوحيد جملة كاملة بالاعتراف بوجود الباري الخالق ،
ونفى أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في استحقاق الصادة ، وقوله « فأروني »
بعد ما سبق لم أدلة كلها محسوسة مرئية ناطقة بمدلولها أفصح لنطق ، وأوضح دلالة من تمثيل
الخرى والتبكيك والافهام بصورة لا تدع لهم مجالاً للخلوص ؛ ألا ترى كيف أعرض عنهم ،
وصرف الخطاب لغيرهم ، واعتزم كأنهم لا شيء ولا وجود لهم ، ولا يستحقون أن يوجه اليهم
خطاب بعد أن وصلوا الى هذه الدرجة من الغباء ، فقال معبرا عنهم بأسلوب الغيبة « بل
الظالمون في ضلال مبين » .

والإشارة في هذا لما سبق من خلق السموات بغير عمد وما يسمده ، وخلق الله بمعنى
مخلوقه ، وكان التعبير عن المخلوق بلفظ المخلق لأنه يتجلى فيه المخلق والاييجاد أظهر تجل وأكمله
فما كان منها شيء له وجود ما لا عبادته ولا بصورته ، وإنما هي كلها برمتها ناشئة عن خلقه وتكوينه
فهو خلق يتجلى فيها المخلق بأكل معايه . « وأروني » أمر من أرى يرى الرابع . وثلاثيه
رأى البصرية لأنها أدخل في التبكيك ؛ وكأنه يقال لهم قد ضعفت عقولكم ، وانحطت عن
أن تحول في عالم العقليات ، فما أنذا أدخل بكم في باب المحسوسات ، وقد أريتكم ما لا مناس
لكم عن أن تصرفوا فيه أنه حاق الله ، فأروني أتم ماذا خلق غيره حتى أشركتموه معه
في العبادة ؟ ويصح أن تكون من رأى العلمية ، ويكون من باب توسيع المجال أمامهم ، فاذا
وجدوا ما يحس عرضوه ، وإذا وجدوا ما يقبل العقل ، ولو غير محسوس ، أرشدوا اليه . وقوله :
« ماذا خلق » للمعانة فيها وجوه فمنهم من يقول إن ما استفهامية ، وإذا اسم موصول خبرها
أي ما الذي خلقه الدين من دونه ، والجملة معلق عنها الفعل وهو أروني . وهذا ينشئ
على أن أرى علمية . ومنهم من يقول : إن ماذا كلها اسم استفهامي مفعول مقدم للفظ
خلق ، والمعنى على كلا الوجهين : أروني جواب هذا الاستفهام . وبمضمون يقول : إن ماذا كلها
اسم موصول مفعول لأروني ، وجملة خلق صلته ، والسمير عن الشركاء المزعمين بالذبح ، وهي
للعقلاء ، لأنهم لما عبدواهم وألهم فقد أعطوا منزلة العقلاء بل فوق العقلاء ، فالسكلام من باب
عجالة الخضم ، وإرجاء العنان ، حتى يشعر من نفسه بالغلبة ؛ وقوله « من دونه » أصل كلمة
دون لمكان الداني من الشيء ، أي القريب منه ، استعملت بمعنى المغايرة مطلقا ، ولعل

في اختيارها في هذا المقام زيادة في التبكيت لهم ، قال الشركاء الذين يزعمونهم أدنى من الخالق هم أحق بأن يروا ، وترى آثارهم ، فكلمها كان الشيء أقرب كانت رؤيته ورؤية آثاره أجلى وأوضح .

والمراد بالظالمين هم أولئك المردود عليهم ، وهم مغرورون في الظلم من عدة نواح : فقد ظلموا الحقائق ، وأعطوا من لا يستحق شيئا ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، أعظم منزلة ومكانة ، وظلموا عقولهم إذ أرفعوها على عقائد لا تملك عليها حجة ولا بينة ، وظلموا أنفسهم بالتعريض لعذاب المنتقم الجبار ، وظلموا أنبياءهم بالمعاندة والمكابرة ، وظلموا الناس المستضعفين بصدورهم عن سبيل الله ، وظلموا من يماثلهم أو يعظم عليهم بنفخ كبير الحية الجاهلية وذكر الآباء ووجوب التمسك بما كانوا عليه ، تمكيننا لمزتهم ، وصونا لهم عن التشهير بأنهم كانوا ضالين ، فهم الظالمون وهم الظالمون . ولا ظلم إلا ظلمهم ، فلا بدع أن يعبر عنهم بهذا العنوان . وقوله « في ضلال » يفهم أنهم قد أساط بهم الضلال ، واستحوذ عليهم واكتشفهم اكتشاف الظرف لمظروفه ، فلا ينتظر لهم منه فكاك ؛ فهم هذا من لفظي والعدول عن أن يقال مثلا : بل هم ضالون ، والضلال الخيرة ، فما أطرف وصفه بلفظ مبين . وهو وإن كان بمعنى بين فإن اختيار كلمة مبين للإشارة إلى أنه قد بلغ من الظهور في ذاته حدا يجعله كأنه مبين لغيره .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة » قد يخفى عليك وجه اتصال هذه الآية بما سبقها ، ولكبك إذا أعطيتها قسطا من التأمل أدركت أن الثانية من الأولى بسبب متين ، ذلك أن الآية الأولى سبقت للتدليل على وحدانيته تعالى وانفراده بوجود الوجود واستحقاق المباداة ، وأن ذلك من الوضوح وظهور الدلائل بمنزلة لا تسمح لنفس أن تردد فيه ، والآية الثانية لبيان أن من أهل الفطر السليمة من عقل ذلك ، وهذه نظره السليم وعقله الحكيم إلى الاعتراف بوحديانية العزيز الحكيم ، بل الفكرة له على ما خمره به من نعم لا يد فيها لغيره ، أي فالذي أدهوكم إليه ليس بدعا من الأمر بل قبلكم من اهتدى إليه بفطرته ، وعمل على مقتضاه بحكمته وهذا يوافق قول أكثر المفسرين إن لقمان لم يكن نبيا ، وإنما كان حكيما . والحكمة ، وإن تعددت الأقوال في تفسيرها بالمعنى الاصطلاحي العلمي ، فإن المراد منها يكاد يكون جلليا وهو الاعتدال في التفكير والعمل ، أو إتقان الأشياء علما وعملا ، فيكون علمه تابعا لمقتضى التفكير الخالي عن الهوى وعن التطويع في الخيال ، أو التقصير في الاستدلال ، أو التعلق بالحال ، ويكون عمله على وفق ما يظهر للعقل الصحيح أنه الحسن الذي لا يشوبه فبح سواء أو وفق هواء أم خالفه . وفسرها بعضهم بأنها كمال علمي للنفس الإنسانية يحصل لها من اقتباس العلوم النظرية بالفكر الصحيح ، وتسمى الحكمة العلمية ، وعمل يحصل لها من اكتساب الملكة الثابتة على التزام الأفعال الفاضلة على قدر الطاقة البشرية .

ولقد كان ثمان معروفاً عند العرب بحكته يدور على ألسنتهم كثير من كلماته ، فكان اختياره لهم لأن إيمانهم بفضلهم أقرب . وينسب إليه من كلام الحكماء شيء كثير تقتطف منه طرّاً لطرافته .

فمن حكمه : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ . من أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزاً . يالك والدين فانهم بأقبل وذل بالنهار . ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته ، وخفه خوفاً لا يوترك من رحمة . لا تكن حلواً قبلت ولا مرراً قبلت . لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم المطاء . امتنع بما يخرج من فيك فانك ما سكنت سالم ، وانما ينبغي لك من القول ما ينفعك .

ولقد قم علينا القرآن الكريم في الآيات الآتية ما هو أبلغ من هذا وأروع ، وأعظم منه وأهم ، فله الحمد في الأولى والآخرة .

وقوله عز وجل : « ولقد آتينا ثمان الحكمة » :

التعبير بلفظ آتينا لاشعارهم ، حتى في سياق الجدل ، بأنه عز وجل هو المتصرف في الكون وحده لا شريك له ، فكل شيء بأمر منه ، ولا يمكنهم التملل بمثل أن الله لم يؤت ما آتاه . وأمثال ذلك من الترهات ، فاكأنوا يستطيعون أن يجحدوا ما وهبهم الله من عقل واختيار ، وأنهم لو وجها عقولهم نحو الهدى الذي يدعون إليه لترضوا لفيض فضله ورحمته . وقوله (أن اشكره) الشكر بالالحكمة وروحها ، به تبندى واليه تنهى ، فأكأن شيء أجدر بتبنيه العقول والمواظف لعبادة من الشعور بالنعمة التي أفاضها الله عليه وأنها توجب عليه شكر المنعم ، ومهما بذل من جهد ومهل من عمل يقره إلى ربه ويكسبه رضاه فهو سائر في طريق شكره ، وللشكر مقابلة النعمة بما يستحقه المنعم من ثناء وتعميم . وإذا كان كل ما لدى المبد من نعمة فهو من الله حتى نفسه وحتى قواه التي بها يشكر وتوفيقه للشكر ، فهو مهما بذل في سبيل الشكر مقصر عن الشكر ، وفي شعوره بمجزه عن الشكر شكر . وهذه نعمة أخرى تستحق الشكر . وفيه در القائل :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة على له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضل وإن طالت الأجل والوسع العمر

وقد عرفوا الشكر بأنه بذل العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله . والذي خلق لأجله هو ما بيئته الآية الكريمة : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » وهي مرتبة فلما تيسر إلا لمن اصطفاه الله من عباده وأمدّه بتوفيقه ، ولذا قال عز وجل : « وتقليل من عبادى الشكور » فان كلمة (جميع) لاتدع شيئاً من النعم إلا وهو مطالب بالشكر من أجله « وإن تمدوا نعمة الله لا تحصىها » .

وقوله : « ومن يشكر فأعنا يشكر لنفسه » جملة مستأنفة لبيان أن الشكر المطلوب وإن كان مما تقتضيه الأريحية والكمال النفساني ، فإنه يقتضيه أمر آخر لا يتوقف على أريحية ولا طيب عنصر ، وهو أن نمرته مائدة على الشاكر ، فهو المنتفع بالشكر ، وأجره وثوابه مائد عليه ، وأما المشكور فهو أعلى وأسمى من أن ينتفع بشكر الشاكرين أو ينضرر بكفر الكافرين فمن كفر فإن الله غنى عن شكره غير محتاج إلى شيء منه لا في جلب نفع ولا في دفع ضرر وهو حميد في ذاته ثنى عليه آثاره وتنطق بكآله أواره ، فإذا سكنت السنة من أنعم عليهم فقد لظقت ألسن نعمائه وبرزت دلائل آلائه ، وهذا كما قبل .

فعاوجوا فأثمتوا بالذي أنت أهله ولو سكنوا أثمت عليك الحقائق

واختيار لفظ المضارع في بشكر ولفظ الماضي في كفر لأن صيغة المضارع تدل على تجدد الفعل آتافاً ، وهذا شأن الشكر فإنه يتجدد بتجدد السم وهي لا تمنأ فتجدد ، وأما الكفر فهو إعراض مستمر وجحود ساكن ثابت ، فهو من باب الاعداد التي لا تجدد فيها وإنما هي ملازمة لحالة واحدة حاصلة .

وقوله في جواب الشرط الثاني « فإن الله غنى حميد » هو في اصطلاح علماء العربية دليل الجواب وكأن الجواب هكذا : ومن كفر عاد ضرر كفره على نفسه ولا يلحق الله من كفره شيء فإن الله غنى حميد .

سأله جلّت قدرته أن يوفقنا لفكره ومطاعة أمره ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه سميع كريم رءوف رحيم ؟

ابراهيم الجبالي

تحميلني أم أحملك ؟

قال محمد بن يزيد بن صهر بن عبد العزيز خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان ، فقال لي : إما أن تحملني وإما أن أحملك ، فقلت ما أراد ، وأنشدته أبيات بن صرمه :

أوصيكم بالله أول وهلة	وأحبابكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحمدوم	وإن كنتم أهل السعادة فاعدلوا
وإن أنتم أعوزتم فتعففوا	وإن كان فضل المال فيكم فافصلوا
وإن زلت إحدى الدواهي قومكم	فأنفسم دون العشيرة فاجملوا
وإن طلبوا عرفاً فلا تحرموهو	وما حملوكم في الملأ فاحملوا

قال محمد بن يزيد فامر لي بعشرين ألف درهم .

نفحات الاسلام في أوربا

بدأ الأوروبيون يدرسون الاسلام ويعرفون ماهيته ، وشرع كتابهم ينشرون عنه ما تفهم عليه بمحورهم من مبادئ الاصول ، وحكمة التعاليم ، من ذلك ما اطلعنا عليه في المند الصادر في ١٧ ابريل من هذه السنة في جريدة (لافليس) التي تصدر في باريس بتوقيع (مارسيل كابي) والى القراء نمرّب ذلك المقال .

« القرآن كتاب موحى به ، وهو يفوق ما عرف من هذا النوع كثيرا ؛ فان العقيدة الروحية التي يبيّنها تصلح أن ينمّكس نورها على الحياة الاجتماعية . وهذا سر قوة الاسلام وسماحته ووحدة .

« والقرآن باسم الايمان الثابت على وجه الاطلاق ، يحمل الى الناس بدون منسقات بيانية ، ولا خيالات غير طبيعية ، أصول العدالة ، والنظام الاجتماعي الذي يخضع كل فرد لمرأاة أدب الاجتماع ، ويفرض على الجماعة حماية الافراد . وهو بهذا الأسلوب يوافق في جوهره أحدث القواعد الاجتماعية المعاصرة .

« ليس في الاسلام قموس ولا رهبنة ، ولكن فيه ثراما ومفسرين لكتابه .

« وكتابه قد نظم حدود حياة كل فرد وحياة المجموع .

« فهو يتناول الانسان من يوم ميلاده ويتبعه الى يوم وفاته ، مراعى كل صغيرة وكبيرة من حياته : غذائه ، وطرهه ، وصلواته المصحوبة بحركات متناخقة ، وصومه السنوي المطهر في شهر رمضان ، وزواجه ، وطلاقه ، وواجباته البديية ، وواجباته الاجتماعية . أى ما يجب على كل فرد للجماعة ، وما يجب على الجماعة لكل فرد .

« القرآن لا يعنى كثيرا بالدعوة الى التعاطب ، لأن الحب عاطفة متقلبة قد تكون شديدة في تلبها ، ولكنها قد تنطفئ جذوتها بسهولة إذا هبت عليها ريح باردة من قبل المنافع الدانية .

« ولكن القرآن يدعو الى الحق والواجب ، ويحفظ بالحب لله وحده . أما الانسان فيكل أمره للضرورة ، وهو لأجل أن يحمل مسألة هذه الضرورة يفرض على كل جماعة بشرية روحا اجتماعية ونظاما سليما من العال . ولا يوجد نظام اجتماعي سليم إلا بقدر ما تتبادل فيه حقوق الفرد على الجماعة وحقوق الجماعة على الفرد . وفي نظر القرآن أن وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات في المجتمع ، وأخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق ، يعتبر إنكارا صريحا للعقد

الاجتماعي المقرر . وقد قدس القرآن هذا العقد الاسلامي ، وهذا سر بقاءه وتناذه الى اليوم ، رغمهما اعتري جماعات المسلمين من تقلبات التاريخ .

« فلننظر الآن في الروح الاجتماعية التي فرضها القرآن على أهله .

« تأمل في هذا : مائتين وأربعين مليوناً من الانفس تدعى خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة ، فيحيون داعياً ويتوجهون جميعاً صوب مكة ، ويقروءون جميعاً عبارات واحدة ، ويركعون ويسجدون جميعاً على نحو واحد ، ويدبثون جميعاً بعقيدة واحدة ، وشريمة واحدة ، معترفين طراً بالعقد الاجتماعي الذي يرطبهم . وفي وسط هذه الوحدة اليومية الماثلة يشعر كل واحد بأنه تحت نظر الجميع . لأن حارس العقيدة والشريمة والعقد الاجتماعي هو الرأي العام في الاسلام .

« فالمسلم على استقلاله المطلق في حياته الخاصة ، وتفرده بالسلطان في بيته بحيث لا يستطيع أحد أن يرى فيه الوجه المميز عنده ، هذا المسلم نفسه في حياته الاجتماعية مكشوف الحال أمام أهله وإخوانه أجمعين . ولانكار الرأي العام لشيء من الاشياء قوة لا حد لها في جماعة المسلمين . فكل من يناقض هذا الرأي العام ، ويتمردى حدوده ، يمتدح لديهم ملعوناً بأشد معاني هذه الكلمة .

« لا يوجد في العالم رأي عام له مثل هذا السلطان على الناس ، وهذا السلطان يسرى على المجال الادبي والمجال الاجتماعي على حد سوي .

« الاسلام ليس بملك بالمعنى السياسي لهذه الكلمة ، ولم يكن قط حتى في عهد عظمتها الاولى ، ولكنه عقيدة وشريمة ووحدة اجتماعية .

« قلنا ليس في الاسلام طائفة متميزة وطائفة مهملة . فان مبدأ التعاون الاجتماعي مفروض على الجميع . فكل مؤمن مكلف بدفع ركاة عن أمواله للفقراء ، لا بوصف أنها صدقة ، ولكن باعتبار أنها واجب اجتماعي لا محيص من أدائه . فكل من يملك ما فوق حاجته من المال يجب عليه أن يدفع حصة منه للجماعة لتسد بها حاجة المحتاجين . فقد حتم القرآن على كل مؤمن أن يدفع عشر دخله للفقراء وطايرى السبيل وفي الرقاب الخ . (كذا)

« من عادات المسلمين أن للسائلين حقاً في طلب المعونة من الذين اعتادوا ان يعطوهم ما يأتونه أو ما يحصلون به عليه . فإذا أحجم مسلم عن إعطاء سائليه ما اعتاد إعطاؤه لهم ، رفعوا أمره الى القاضي ، فلا يسمعه إلا أن يحكم على الفنى بالاستمرار في أعطياته ، وبدفع ما تأخر منها عنده (١) . وقد دهش الفرنسيون من علمهم بهذه العادة عند احتلالهم للجزائر من بلاد المغرب . وكان الاولى لهم أن يعلموا منه درساً إنسانياً واجتماعياً .

(١) ليس هذا من الشريعة الاسلامية . ولكنه يظهر أنه من العادات العربية كما يدل عليه ما ذكره .

« وقد عني الشرع الاسلامي قبل غيره بأمر الملكية الاجماعية . فقد كان لبعض القبائل مساحة واسعة من الأرض . وكل رجل من القبيلة له الحق في حيازة واستغلال ما يجنيه من مواتها ، مادام قادرا على العمل ، فادامات ورثتها عنه أساؤه . هذه الأراضي لا تباع ولا تؤجر ولا تستبدل ولا ترهن بأي اعتبار من الاعتبارات . وإذا لم يخاف الصلاح وارثا مباشرا ، أو إذا ترك أرضه بورا ، استردتها القبيلة منه وتصرفت فيها بما تراه .

« وما هو جدير بالنظر عادة الوقف المسماة بالحبوس .

« الممتلكات التي كانت توقف عادة في المصور السابقة كانت إما مسجدا أو خانقاه أو مجموعة مساكن لسكنى الفقراء . هذه الممتلكات يمتثلها الشرع الاسلامي ملكا لله ثابتا ومقدسا . لا ينصرف إلا فيما يتحصل منها ، وفي الوجوه التي وقفت عليها . وينفق منها أيضا على صيانتها .

« كان موقوفا على مسجد سيدي عبد الرحمن في سنة ١٨٣٠ تسعة وستون عقارا تدل في السنة ستة آلاف فرنك تنفق أكثرها على توزيع الطعام للفقراء .

« وما كان موقوفا على هذا المسجد قدور نحاسية لامرأة تدعى دومة بنت عبد . وقفت هذه الاواني لتطبخ فيها الاغذية التي تهبأ للفقراء . وشرطت أن تنفق على صيانتها وتبييضها وإصلاحها من غلة دكان تملكه تلك الواقعة . فلما توفيت قام ورثتها بدفع النفقة الضرورية لصيانة هذه الاواني ، لأنها أصبحت وقفا لمصلحة المعوزين ، ويجب أن تبقى صالحة للاستعمال أطول زمان يسمح به الامكان »

محمد فريد وجري

ما قيل في الصديق

قال شاعر .

ليس الصديق الذي إن زل صاحبه	يوما رأى الذنب منه غير مقفور
وإن أضاء له حقا فعائبه	فيه أنه بتزويق المماذير
إن الصديق الذي تلقاه يعذري	ما ليس صاحبه فيه بمعذور

وقال شاعر آخر :

كم من أخ لك لم يلده أبوكا	وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا
صاف الكرام إذا أردت إغاثهم	واعلم بأن أعا الحفاظ أخوكا
والناس ما استغنيت كنت أعظم	وإذا افتقرت اليهم وفضوكا

الاخلاق الفلسفية

- ١ -

الدين وقوة سلطانه على النفوس

تمهيد :

- (١) هل الانسان متدين بفطرته ؟
- (٢) هل الشعوب التي لم يرسل الله اليها انبياء فكرت من نفسها في وجود الله ؟
- (٣) لماذا لم يذر الله الناس على دياتهم الوضعية التي ابتدعوها ؟
- (٤) هل للدين أثر في إسعاد الانسان وهنائه ؟
- (٥) وهل له تأثير على أخلاقه وسلوكه ؟

لنفرض أنفسنا في قارة من القارات التي لم تسمع للدين بخبر ، ولم تقع له على أثر ، أو سمعت عنه في زمن مضى ، ثم نسينه تماما كأوروبا ، أو كصر ، قبل زوح التبيين الجليلين : يوسف ، وموسى عليهما السلام الى أرضها ، ولنتحدث اليك عن هذا الصنف من البشر . أما البلاد التي نبنت فيها النبروت فسنفرض النظر وقتيا عن التكلم في شأنها ، لأن فرصة الحديث عنها لم تكن بعد .

رأى الناس ، في سذاجة وبساطة ، أن فريقا من حولهم يصح ، وآخر يعرض ، وثالثا يقوى ، ورابعا يضعف ، وخامسا يفتنى ، وسادسا يفتقر ، وسابعيا يولد ، وثامنا يموت ؛ ثم رأوا نهارا يعقبه ليل ، وليل يتلوها نهار ، وثمما تشرق ضعيفة هادئة ثم لا تزال تقوى وتعتد حراتها وقسوتها حتى إذا مال ميزان النهار أخذت تعود الى الضعف ، ثم أعقب ذلك اختفاؤها الذي به يسود الظلام ، ويتشر في السماء ذلك العدد الذي لا يتدرج تحت حصر من الكواكب والنجوم ، وهكذا دواليك بلا تأخر ولا انقطاع ؛ ثم هم يحسون في بعض الأوقات بحجارة لاذعة ، وفي البعض الآخر برودة قارسة ، وفي بعض ثالث باعتماد في الجو وصفاء في الطبيعة ؛ شعروا بكل هذا ، فحاولوا أن يطلوا هذه الظواهر المختلفة ، أو يردوها الى أسباب معقولة ، وعلل مقنعة ؛ ولكنهم وقفوا حائرين عاجزين عن تحليل أية ظاهرة من ظواهر هذا الكون الهائلة المربعة ، وسرعان ما اندفق الى قلوبهم الطاهرة ثم الى عقولهم الساذجة إيمان وثيق بأن هناك يدا خفية تحرك هذا الكون حسب مشيئتها ووفق إرادتها ، وأن صاحب هذه اليد لا بد أن يكون مقيما في هذه القبة الزرقاء عند بعض الشعوب ، والقائمة

أو الرمادية عند البعض الآخر، والتي يبرز من أفقها كوكب الشمس المضيء حيناً ، والقمر المنير والسجوم اللامعة حيناً آخر، والتي تنفض أو يفض ساكنها قليلاً في مصر، وكثيراً في أوربا، فتبرق وترعد، وتندّر وتتوعد، وترسل من الصواعق ناراً، ومن وابل السيل مدراراً، غير أنهم، لأمر ما، قد تصوروا أن هذا المحرك الأكبر، لا بد أن يكون له ممثلون في الأرض، وأنهم إذا أرادوا أن يجلبوا رضا هذا الإله، أو يدفعوا سخطه، فلا بد لهم من أن يفتشوا عن هؤلاء الممثلين جهود طاقتهم، حتى إذا عثروا عليهم قدموا اليهم الضحايا والقرابين، وقاموا بين أيديهم بأكبر قسط من الاحترام والاجلال، ثم أخذ كل شعب يبحث عن هؤلاء الممثلين الذين يقرّبونه إلى الله زلفى، ولكن هذا البحث لم يهدأ أبداً إلى نتيجة واحدة، وهذا أمر طبيعي مادام هؤلاء الشعوب يختلفون في طبائعهم وأجوائهم، ومواقع بلادهم الجغرافية التي لها على الثقافة والتفكير أثر عظيم. فافتنع المصريون مثلاً بأن يمثل المحرك الأول لهذه الكائنات هو كوكب الشمس، لما رأوه فيه من فائدة وتنع للأنسان والحياة والنبات، وما تصوره عليه من بطش بجيوش الظلام الشريرة السوداء التي لا تسيطر على العالم إلا حين ينام هذا الممثل الجليل، فإذا استيقظ من نومه، وصرخ صرخة عالية تفرقت شذراً مذر، ومزقت كتائبها كل ممزق، وصرت إلى أعماق طبقات الجحيم حيث تقعى هناك طيلة النهار، أما هو، فإنه يختال في السماء ممجماً، في دل وتيه، بما سكب على الكون من عناصر الحياة والنور والانعاش ولما كانت الشمس هي أكبر الظواهر الطبيعية في مصر، فقد أسندوا قيادتها إلى «رع» كبير آلهة المصريين في أيام التمدد، كما أن اليونان قد أسندوا إلى «زوس» كبير آلهتهم قيادة الرعد والبرق والمطر، لأن هذه الأشياء هي أكبر الظواهر الطبيعية في حوض أوربا الممتلئ بالسحب والغيوم.

ولقد رأى الجوس أن النار هي وحدها الجديرة بنمثيل الكائن الأول، لما فيها من لوعة الانضاج وقوة الاحراق.

وأمن غير هؤلاء بأن الممثل الأعلى هو: فيل، أو بقرة، أو غير ذلك، فسجد كل شعب لما اعتقد أنه الممثل الأكبر لهذا الموجد العظيم، وكما اختلفت هذه الشعوب في تصور ممثل المحرك الأول، اختلفت أيضاً في تصور الروح والخلود والعقاب والنواب في الحياة الأخرى. ونشأ من هذا الاختلاف تباين عظيم في الطقوس الدينية، وفيما ينبغي أن يصنع بالجسم بعد الموت، لتخليد الروح في النعيم المقيم.

ولا ريب أن هذا الاختلاف، أو ذلك التناقض، هو أول الحكم التي من أجلها جاءت الديانات السماوية، لنقض على هذه الفوضى، وذلك الاضطراب الناشئين من تناقض تلك الشعوب في العقائد والطقوس، ذلك التناقض الخاضع للبيئات والأجواء والمواقع الجيوغرافية، ولا هوأه

الرؤساء الدينيين الذين نفأوا في الشعوب القديمة ، فأمرؤا الناس بلباقتهم وبلاغتهم ، وأخضعوهم ببيانتهم لما زعموا أنه الحق المبين ، والنهج القويم ؛ فرأى مدع الكون أن يضع حدا لهذه الحمجية ، فأعلن على ألسنة أنبيائه أن الشعوب لا تملك أن تضع قوانين هذه الديانات ، وأنه لا يمكن أن يكون لهذه العقائد إلا مصدر واحد وهو السماء .

وهما حدثت الانقلابات الهائلة التي لا يتسع المقام الآن لذكرها ، والتي سنفصلها إن شاء الله في فرص أخرى حين نتناول تاريخ الديانات من أول عصور الانسانية الى العصر الحاضر ، ونعرض في شيء من الاسهاب الى زعماء الديانات الوضعية ، وأنطال الديانات السماوية . ولقد بدأ مبدع الكون باليهودية ، ثم نبى بالمسيحية ، ثم اختتمها بالاسلام لحكمة واضحة لا يستعصى فهمها على من درس تاريخ الديانات ، وأحاط علما بعقليات وأحلاق وطباع البيئات التي نشأت فيها هذه الديانات الثلاث ، ودرس ، في تمعن وإتقان ، كيف تدرجت تشريعاتها ، وترقت نوااميسها حسب تدرج العصور ، وترقى العقلية الانسانية .

ومهما تكن الديانات الوثنية مشحونة بالأخطاء والضلالات ، مفعمة بالأكاذيب والأباطيل فإن التزاهة تحتم عليها أن تعلن ، في صراحة ، أن هذه الديانات قد خففت من الجرم ، وقللت من الشرور والآثام ، وكسرت — ولو بعض الشيء — من حدة الشهوات الانسانية . ولو لم يفا الله لتلك الديانات الوثنية أن تأخذ مكانها تحت الشمس ، لسكانت الجرائم والشرور أضعاف ما كانت عليه ، ولقامى الانبياء عليهم السلام في إقحام الشر أساليب التدين والاذعان أضعاف ما قاسوا بمد أن مهنت لهم تلك الديانات سبل القيام بمهنتهم على الوجه الاكل المراد .

ولا ريب أن من يلقى نظرة فاحصة على تاريخ الامة المصرية في عهودها الوثنية ، ويشاهد في تمعن ، مقدار أثر ذلك التدين الوثني في حياة الشعب المصرى الاجتماعية عامة والأخلاقية بنوع خاص تنصح له صحة ما نقول ؛ إذ أنه سيلقى الفضائل العالية من : صدق وأمانة ووفاء وحلم وحياة ومروءة وعدالة وعفة ، الى غير ذلك من جلائل الفضائل ، متغلغلة في النفوس تغلغلا يدل على مقدار ما كان للدين في نفوس أفراد هذا الشعب من أثر قوى ، وكذلك تنضح هذه النظرة جيدا إذا ألقينا نظرة متأملة على تاريخ الهند والصين وپارس في العصور القديمة ، لأنها لا تسكد بلقى هذه النظرة حتى يدع مقدار تأثير البراهمية والبوذية والزرادوشية والمناوية في نفوس هذه الشعوب وقيادتها إياها الى الفضائل السامية ، وإشعارها الأفراد بأن الآلهة تعلم أعمالهم ، وأنها ستحاسنهم عليها إما عاجلا وإما آجلا .

هناك فضل آخر يجب أن نذكره به الديانات الوثنية ، وهو إسماء الشر وهماؤهم بسبب ذلك الامل الذي أرسخته في نفوسهم — ولو عن طريق الخيال — بأنهم سيستمتعون في عالم

الخلود بنعيم لا ينتهى ولا يبديد ؛ فلأ هذا الأمل حياة الانسانية سرورا وغمطة ، وأحال المذئاب والشقاء فى نظر المعذنين والاشقياء الى سعادة نفسية لذينة مادام سيمقيها نهم دائم ، وسرور خالد .

وبعد هذا ، فليس للديانات الوثنية أثر يذكر إلا من الناحية التاريخية حيث تضع بين أيدينا نماذج من عقليات القدماء ، وصورا من تفكيراتهم وإدراكاتهم ، وتبين لنا ما بين الديانات السجوية وبين هذه الديانات من فروق ودرجات .

الآن ، وبعد أن أبنا مقدار تأثير الديانات الوضعية على الأمم القديمة ، فقد وحب علينا أن نبين أثر الديانات السجوية فى الأمم التى اعتنقتها . فإذا فرغنا من ذلك ، أتينا على آراء المحدثين من فلاسفة أوربا الذين يرون مهم وجوب مزج الأخلاق بالدين ، ويؤكدون أن ما فى الدين من أخلاق هو أصلح ما يقود الشعوب الى النجاح والسعادة ، لأنه صادر ممن هو أدرى بصوالهم ، وأقدر على رسم الخطط لهم ؛ ويؤيدون مذهبهم بأدلة فاصمة ، وبراهين قوية . وكذلك سنأتى على آراء خصوم هذه الفكرة وهم الذين يرون استقلال الأخلاق عن الدين ويؤمنون أن الأمم تستطيع الاستغناء عن قيادة الديانات .

وهذا هو ما سنعالجه فى المقال المقبل . قال الفقهاء .
الدكتور محمد غمرب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تدبير المال

قال حكيم : لا خرق ولا عيلة على مصلح ، وخير المال ما أطعمك لا ما أطعمته .
وقال مؤلف كيلة ودمنة : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة .
فأما الثلاثة التى تطلب فالسعة فى المعيشة ، والمنزلة فى الناس ، والزاد الى الآخرة .
وأما الأربعة التى تدرك بها هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجوهه ، وحسن القيام عليه ، ثم التعمير له ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ، ويرضى الأهل والاعوان ، ويمود فى الآخرة نفعه ؛ فان أضاع شيئا من هذه الأربعة ، لم يدرك شيئا من هذه الثلاثة .
فان لم يكنسب لم يكن له مال يعيش به ، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه ، يوشك أن يفتى ويبقى بلا مال ، وإن هو أنفق ولم يشر ، لم ينفعه الاتفاق من سرعة النفاد ، كالسكران الذى إنما يؤخذ منه على المبل مثل الفبارم هو مع ذلك سريع ففاده ، وإن هو اكتسب وأصلح وأحرم ، ولم ينفق الاموال فى أبوابها كان بمنزلة الفقير الذى لا مال له ، ثم لا يجمع ذلك ماله من أن يفارقه ، ويذهب حيث لا منفعة فيه ، كحابس الماء فى الموضع الذى تنصب فيه المياه ، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه تحصل وسال من نواحيه ، فيذهب المال ضياعا .

تاريخ الأدب العربي^(١)

في العصر العباسي

كانت حاضرة الدولة العباسية خلال للقرون الأولى من حكم العباسيين تنعم في حياة ملائمة بأنواع البذخ وضرور العطاء ، مما لم تشهد مثله غيرها من البلدان الإسلامية في أي وقت من الأوقات ، فالتف الشعراء والكتاب البارزون من كافة أنحاء الإمبراطورية العربية حول بلاط الخلفاء ، حتى أصبحت بغداد مركزا ممتازا للأدب العربي ، ووسطا مقطعا للظواهر الحياتية الفكرية والثقافة الإسلامية ، ولم يقع من الأدباء بالحياة الحادثة بعيدا عن بغداد إلا أن آخرتهم الموهبة الأدبية أو استبدتهم الأهواء السياسية ، فاقاموا المقاطعات النائية ، واكتفوا بمدح حكامها من الولاة وخطب ودم .

أبعدت السياسة عن بغداد السيد الجري اسماعيل بن محمد المولود بالبصرة عام ٩٠٥ هـ ، وهو من الشعراء البارزين الذين حلدوا ذكراهم المجيدة بين سطور الأدب العربي في أزهر عصوره ، انضم في شبابه الى الشيعة ، فكان ظهوره بين أفراد هذه الفرقة الدينية السياسية سببا في رحيله عن موطنه وإقامته بالكوفة ، فلما دخلها الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية لم يجد مفر من مدحه ، ولو أنه بقي مخلصا لعقيدته ، تأليا عن بلاط الخليفة بالرغم من جميع أسباب الاغراء التي اجتمعت حول أصحاب السطة الدينية مما تنوق إليه نفوس الشعراء طمعا في الشهرة وجزيل العطاء ، وكانت مواهبه الشعرية تقربه من بشار بن برد وأبي العتاهية ، لسهولة أسلوبه وصدق تصويره ودقة مشاعره ، ولكن أشعاره لم تلاق ما هي جدوة به من الشاء والذبول لما كان ينه فيها من روح عقيدته وفكرته السياسية ، وتوفي بالواسط عام ٩٧٣ هـ .

أما أبو تمام حبيب بن أوس فانه يمثل شعراء الولايات العربية في هذا العصر خير تمثيل ، فكان دائم التطلع الى بذخ الحياة وبهجتها في المواضر ، دأب السعي طول أيام حياته وراء الحصول على الشهرة في حاضرة الملك ومركز الشعر والأدب ، قضى أبو تمام سني حياته الدراسية في حمص عند الشاعر الطائي عبد الكريم ، وكان شديد الرغبة في الانسحاب الى قبيلته ، ورحل بعد ذلك الى مصر ، وحاول عبثا الشهرة والظهور فلم يبلغ ما كان يبتغيه من توفيق ، فعاد الى الشام ، وكان الخليفة المأمون وقتئذ في إحدى رحلاته بدمشق فحاول على غير حدود المثل بين يديه رجاء بلوغ ما يبتغاه من الخطوة لديه ، ففشل فيما سعى اليه وانصرف عنه الخليفة دون

(١) تابع للفتور في العدد السابق (سفر سنة ١٣٥٦) مترجما من الألمانية قلا عن كتاب « تاريخ الادب العربي » فمشرق الألماني الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

ان يابه له ، تنقل بعد ذلك كثيرا في العراق وأرمينية طلبا للشهرة والصيت عند الأشراف والحكام ، فلما بلغه خبر وفاة المأمون سافر الى بغداد عام ٢١٨ هـ ، وتحققت له بعض أحلامه هذه المرة فاستقبله الخليفة المعتصم ، ولكنه لم يكن يرضى بنجاحه البسيط ومرتبته المتواضعة التي أحرزها عنده ، ففضل العودة الى المقاطعات العربية مؤثرا الإقامة عند الولاة بعيدا عن مزاحمة المنافسين من الشعراء ، فتوجه الى خراسان أبعد البلاد الإسلامية شرقا ، وكان حاكما وقتئذ عبد الله بن طاهر قد بدأ بتأسيس ولاية ذات سيادة مستقلة ، ولكنه ما لبث أن قفل راجعا ، فعاثته زواجر الجليد التي تنكسر في هضاب بلاد الفرس المرتفعة ومنعته عن متاعه سفره ، فبقى بهمدان ، وأقام عند أحد هواة الأدب والثقافة العامة ، وكان يملك مجموعة وافرة من مختارات الشعر العربي جعلها أو تمام موضع دراسته وتسلية ، فجمع وهو في هذه الضيافة القهرية أربع مجموعات من صفوة ما أنتجه الشعراء وجادت به قرائحهم ، اشتهر من هذه المجموعات الشعرية الأربع ديوان الحماسة ، وذاع تداوله حتى العصر الحاضر ، فكانت هذه الصدفة التي حيزته بهمدان ، وضيافته بهذا المكان عن غير قصد أو ترتيب سببا في بلوغه ما كان يتوق اليه مدى حياته من الشهرة والصيت ، وهكذا تم له التوفيق فيما كان ينتهجه من النجاح ، وخلدت ذكره بفضل ما جمعه من مختارات الشعر بذوق سليم أكثر من توفيقه فيما أنتجته موهبته الشعرية ، فلما آتم هذا العمل الجليل وأكمل المجموعات الشعرية المختارة التي عصا الترحال ، ولم يعرف منه أوعن إقامته بعد ذلك شيء ، وتوفي حوالي عام ٢٣٠ هـ . وقد قرطه فيما بعد النبريزي قائلا : كان أبو تمام في حماسة أشعر منه في شعره .

جاء من بعده من شعراء الولايات العربية المعروفين الوليد بن عبيد البحتري ، وكانت حياته تشابه من وجوه عديدة حياة أبي تمام ، فقاسمه كثيرا من حظ ، ولد البحتري بمنبج بالشام عام ٢٠٥ هـ ، والتقى بأبي تمام في حمص ، وكان في قمة مجده ، وأخذ منه توصيات لأشراف معرة النعمان ويريف الشام ، فسافر إليها وأقام بها بصح سنين محترفا أشعار المدح ، ولكنه لم يقنع بهذا القدر البسيط من النجاح ، ولم يرض بنصيبه المتواضع في الحياة بها ، فرحل الى بغداد في عهد الخليفة المتوكل ، وكان النجاح حليفه في هذه المرة ، فأقام بها زمنا غير قصير ، إلا أنه عاد بعد ذلك إلى موطنه بالشام حيث توفي عام ٢٨٤ هـ . أبي البحتري إلا أن يسير على نهج أسناده السابق ، فوضع ديوان الحماسة الذي جمع فيه مختارات هامة من الشعر العربي ، وكان موفقا في هذا العمل كذلك أكثر من توفيقه في أشعاره ، فذاع به اسمه وخلدت ذكره ، وهو وإن لم يكن قد بلغ من الشهرة ما بلغه ديوان الحماسة لأبي تمام ، فانه امتاز عنه بما وسعه من المواد وتعدد موضوعاتها وتنوعها ، مما جعله مرجعا قيما جدا لدراسة الأشعار القديمة . وأما شعراء البلاد الإسلامية الغربية فإن أشهر من عرف منهم في هذا العصر هو شاعر البلاط الفاطمي بمصر أبو القاسم محمد بن هاني الأندلسي المولود بأشبيلية ، أتيت له الفرصة

في شبابه لتتصرف بأسراء بلاده والاختلاط بهم ، ونفى وهو في السابعة والعشرين من عمره ، فذهب إلى حوهر قائد الخليفة الفاطمي المنتصور ، فلما تولى الحكم ابنه المزم عام ٣٤٩ هـ أحذه في بطاقته ، واشترك في حملته الموقعة لفزو مصر عام ٣٥٨ هـ ، ولما استتب الأمر لسيدته وولى نعمته واستقرت في يده السيادة على مصر ، رغب في الإقامة الدائمة بها ، وأراد استحضار أسرته ، فلما سافر إلى بلاد المغرب لهذا السبب عاقلته المية بها إذ قتل بركة عام ٣٦٣ هـ . ولم يعرف من أعماله الشعرية سوى قصائد في مدح الخليفة المزم ، ولم تكن ذات قيمة فنية ممتازة .

وفي أواخر أيام الدولة العباسية تنازع الحكام واشتد خلافهم بسبب ضعف الخلفاء العباسيين المتأخرين وعجزهم عن الحكم ، فانقطعت الصلات التي تربط الولاة بدار الخلافة ، فزال عن بغداد بهاؤها وأعمت معالم بهجتها ، وقويت شوكة الحكام وزاد سلطانهم ، فتمنعوا بشبه سيادة مستقلة في ولاياتهم غير تابعين بتأييد الخليفة لحكوماتهم ، وبدهى أن أمثال هؤلاء المتعصبين لم يكونوا يهتموا بالثقافة والحياة الأدبية ، بل ولم يكن وقتهم يسمح لهم بتجديدها لاشتبا بهم المتواصل في الكفاح عن كياناتهم السياسية ؛ ولم يخرج عن هذه الفئة سوى سيف الدولة الحمداني الذي أسس دولة صغيرة في حلب ، دخل بسببها في حروب طويلة مع البيزنطيين للدفاع عنها ، فاجتمع حوله في أوقات فراغه عدد كبير من الشعراء ومحبي الأدب ، ولقد عرف كيف يحتفظ في بلاطه ببعض البارزين منهم .

وأهم من ظهر من الشعراء في ظل حكمه أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي ، وإنما سمى كذلك لادماثة النبوة في مقبل حياته ، ولكن أمير حمص لؤلؤة الأحشيدى سرمان ما اترع منه أحلامه وفرق أتباعه من حوله وأمر بسجنه ، فأفاق من غفلته وعرف قيمته الحقيقية ، فبعد أن أفرج عنه اشتغل بالشعر ، وانضم إلى بلاط سيف الدولة عام ٣٣٧ هـ . فوصل فيه إلى ذروة المجد وبمد الصيت ، وقضى في بطاقته تسع سنوات ممتددا أعماله بأشعار امتازت بالتصوير الجريء والمباراة القضة ، ولكنه اختلف بعد ذلك مع العالم اللغوي خالويه من أقارب سيف الدولة ، فترك حلب ورحل إلى مصر وانضم إلى حاكمها كافور الأحشيدى وهو من أعداء سيف الدولة ، إلا أنه لم يصادف ما كان يرجوه من نجاح ، فرحل غاضبا إلى بغداد ، وكان يجول أحواله ، فأبى أن يمدح الوزير المهلب صاحب السلطان فيها ، فحمل عليه شعراء بغداد بالهجاء والسخرية ، حتى سافر إلى بلاد النرس ، ولكنه لم يجد في بلاط عضد الدولة ما فقد في بلاط سيف الدولة بلحلب من حظ وافر ، فلما أراد العودة إلى بغداد سطا عليه البدو في الطريق وقتلوه عام ٣٥٤ هـ .

أجمع معظم النقاد المعاصرين والمتأخرين على أن المتنبي كان من أكبر الشعراء الذين برزوا في الأدب العربي ، ورعا كان آخر الشعراء الكبار ، ولم يكن هذا الرأي في غير محله ،

فان المتنبي استطاع أن يكلل ما غرسه الشعراء القدماء ، وتمهده كبار شعراء الأمويين بالتطور والتهذيب ، فنا وفضج على يديه ، فاينمت القصائد وازدهرت بفضل جهوده الثمينة في هذه الناحية من الأدب العربي ، حيث تحمل أيمد ما يسمح به ، هذا الفن من تبعات ، فلم يسلم من الوقوع فيما يخالف القوق ، ولم تجرد الفنون البخداوية المشبعة بالروح الفارسية اليه سيلا ، فكان غورا باصه العربي ، كما كان يمتدح سيادة هذه الشعوب الحمجية وصمة عار على الروح العربية الأصلية .

وظهر من بعده من الشعراء المعروفين أبو فراس الحمداني ، ويرجع الفضل في شهرته الى ظروف خاصة أكثر من مقدرة الشعرية . ولد أبو فراس عام ٣٢٠ هـ بالعراق ونشأ يتيماً في ظل رعاية ابن عمه سيف الدولة ، فلما استتب له الأمر في حلب عام ٣٣٦ هـ . جعله حاكماً على منبج على الرغم من صغر سنه ، ودخل كذلك في حروب طويلة مع البيزنطيين الى أن وقع في أسرهم عام ٣٤٨ هـ ولكنه تمكن من الهرب ، إلا أنه وقع ثانية في الأسر فقتلوه الى القسطنطينية زيادة في الضمان ، وبقي هناك سبعيناً أربع سنوات الى أن عاد الى موطنه عام ٣٥٥ هـ ، وبقي به حتى وفاة سيف الدولة ، ثم عاد أن يقتطع لنفسه جزءاً من أملاكه ، ودخل بسبب ذلك في حرب مع ابنه سقط فيها قتيلاً عام ٣٥٧ هـ .

أما أشعاره فكانت عبارة عن مذكرات تبين حياته السياسية ، ولم يكن بليفاً في عبارته التصويرية ، ولم تظهر شاعريته الحقيقية إلا على أثر اعتقاله بالقسطنطينية في رسالة شعرية أرسلها من سجنه الى أمه .

يقع

ما أثر عن الكرماء

قال أبو سويد أخبرني الكوفي قال : اعترض فتى من التجار الفضل بن يحيى بن خالد في وقت خروجه الى خراسان ، وشكا اليه ما سلبه منه قطاع الطريق ، ثم أخذ نعمان دابته وقال : سأرسل بينا ليس في الشعر مثله
يقطع أعضاق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس في كل منزل
أقام به الفضل بن يحيى بن خالد
قال فأمره الفضل بمائة ألف درهم .

وروى العنبي أن مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور رفع الى زبيدة ابنة جعفر زوجة هرون الرشيد قصيدة يمدح بها انها محمد بن الرشيد ، وفيها يقول :

له حرك يا عقيقلة جعفر
ماذا ولدت من العلى والسود
إن الخلافة قد تبين تورها
للساظرين على جبين محمد
فأمرت أن يملأه درا .

محمد صلى الله عليه وسلم

في تقدير قادة الأفكار في أوروبا (١)

للرأة في الاسلام

و لننظر الآن في مذهب الاسلام فيما يختص بالنساء فنقول :

« ما أ كبر خطأ العالم في تقدير نظريات النبي فيما يتعلق بالنساء ! فقد قيل إنه قرر بأن المرأة لا روح لها . فلماذا هذا التجهي على رسول الله ؟ فأعيروني أمعاءكم أحدثكم عن حقيقة تعاليمه في هذا الشأن ، جاء في القرآن : « ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجده من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا » (سورة النساء) وجاء فيه أيضا : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (سورة الاحزاب) وجاء فيه أيضا : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بمصكم من بعض » (سورة آل عمران) .

« وقد زاد النبي على هذا تشديدا في وجوب رعاية حقوق النساء . فقد جاء في القرآن : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ومث منها رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تسمون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » (سورة النساء) وجاء فيه : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعصلوهن لتذهبوا ببعض ما آتينكموهن ، إلا أن يأتيين بفاحشة مبينة ، وعاصروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (سورة النساء) وجاء فيه : « وإذا طلقتم النساء فلهن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لثمتنوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، وإذا كروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم » (سورة البقرة)

(١) هذه المقالة تأليف لما ترجمناه من كتاب لاديان للنشرة في الهدى لجمعية التبصيرية المالية (آي بيرانت)

« ولا تقف تماثيل النبي عند حدود العموميات ، فقد وضع قانونا لوراثة النساء ، وهو قانون أكثر عدلا وأوسع حرية ، من ناحية الاستقلال الذى يمنحها إياه ، من القانون المسيحى الانجليزى الذى كان معمولا به الى ما قبل نحو عشرين سنة . فإ وضعه الاسلام للمرأة يعتبر قانونا نموذجيا . فقد تكفل بحمايتها فى كل ما يملكته ، وضمن لها عدم المدوان على أى حصة مما يرثه من أقاربها وإخوانها وأزواجها .

والآن يمكن أن يقال لنا : وما قولك فى تعدد الزوجات ! هنا محل النظر فى حقوق النساء .

« هذا صحيح ، ولكن على أى طراز يفكر الذين يصدرون مثل هذا الحكم ؟ ألا يرون أن هذا القانون حمل لشعب كان يمرح فى أحط ضروب الإباحة ، وأنه الذى نفسه به مقبدا لا يستطيع أن يتجاوز أربع نسوة ؟ إنى أقرأ فى العهد القديم (التوراة) أن صديق الله الذى يفيض قلبه طباقة لإرادة الله ، كان ممددا لزوجات . وزيادة على هذا ، فإن العهد الجديد (الانجيل) لا يحرم تعدد الزوجات إلا على من كان أسقفا أو شماسا ، فانهما هما المسكلمان أن يكفيا بواحدة . وبلى لأجد كذلك تعدد الزوجات فى الكتب الهندية القديمة . وما ينهون الاسلام إلا لأنه من السهل على الانسان أن ينتفع الميوب فى عقائد الغير ويشهر بها ، ولكن كيف يجوز أن يجرؤ الغربيون على الثورة ضد تعدد الزوجات المحدود عند الشرقيين مادام البغاء شائعا فى بلادهم ؟ ومن يتأمل فلا يجد وحدة الزوجة محترمة إلا لدى نفر من الرجال الطاهرين . فلا يصح أن يقال عن بيثة إن أهلها موحدون للزوجة مادام فيها الى جانب الزوجة الشرعية خدينات من وراء ستار . وأنا بقولى هذا لا أبنى أن أهام أحدا ، ولكنى أرجو فقط أن يمدل الناس فى حكم بعضهم على بعض . فالزواج الصحيح هو ما كان لكل رجل زوجة واحدة ، وكل ماعدا هذا فبيع . ولكن أكثر الناس لم يصلوا بعد الى هذه الدرجة من الطهر . ومضى وزنا الامور بقسطاس العدل المستقيم ، ظهر لنا أن مبدأ تعدد الزوجات الاسلامى الذى يحفظ ويحمى ويغذى ويكسو النساء ، أرجح وزنا من البغاء القربى الذى يسمح بأن يتخذ الرجل امرأة لحض إشباع شهواته ، ثم يقذف بها الى الشارع متى قضى منها أوطاره . صرحوا بأن الأمرين فيباحان ، ولكن لا تسمحوا للمسيحي أن يذم أخاه المسلم بسبب أمر يشتركان فى ارتكابه . فبإخوانى المسلمين إن تعدد الزوجات ليس بالأمر الحسن ، فتذكروا أن نبيكم قال بعدم جواز اتخاذ زوجة ثانية إلا إذا امكن التعمية بين الزوجتين فى الحب والعدل ، فأى إنسان يستطيع أن يسوى فى الحب والعدل بين امرأتين ؟ فان كان هذا ليس فى الامكان ، فان السبى لا يسمح إلا بواحدة . وبلى

أظن أنه قال ذلك ليحل مبدأ توحيد الزوجة على مبدأ التمديد على وجه التدرج، وليزول من دواته هذا الأمر المصيب (١).

«والاسلام يفرس في قلوب الأطفال عاطفة الرماية لوالديهم، ويكتفينا أن تقتبس آية واحدة من القرآن دليلا على ذلك: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» (سورة الاسراء)

«وفي الاسلام آية تعتبر غاية في العدالة والسماحة وذلك فيما أمر به من معاملة الارقاء، فقد جاء في القرآن: «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم، فكاتبوهم (٢) إن علمتم فيهم خيرا، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم». (سورة النور)

«لنشكك الآن عن الواجبات التي تتحتم تأديتها على كل مسلم، فأولها كلمة الشهادة وهي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، والزكاة وهي صدقة يجب القيام بها للأغراب والفقراء واليتامى والأسارى، ويصح أن تكون من الحبوب والفاكهة والبصائع والماشية والبرام. جاء في القرآن: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الزكاة، والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» (سورة التوبة) وجاء فيه: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم، والله بما تعملون خبير» (سورة البقرة) وجاء فيه: «وما تنفقوا من خير فلا تنسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم، وأنتم لا تظلمون». (سورة البقرة)

(١) مجلة الأزهر — لا توافق السبلة الزوجية على أن وجود التعدد أمر مصيب في الحياة الإسلامية. فانها هي قد اعترفت بأن تعدد الزوجات في الاسلام أرجح وروا في قسطاس العدل من مبدأ المحادة الشائنة في أوروبا وأمريكا، وفردت أن توحيد الزوجة لا يصدف إلا عدد من الاطهار في العالم كله. قادا كان العالم لا يزال مصيب الارادة، مطوعا لدواعي الشهوات، لا يطيق كثير من أفراده أن يكتفوا بواحدة، فلا يعتبر بقاء مبدأ التعدد في الشرع الاسلامي حيا فيه بحسب سبادة الى إزالته. فالحكمة تقضي بحسب بقاءه حتى لا يقع الملبسون فيما وقع فيه سواهم من اتحاد الحدييات، ثم تركهن طالة على المجتمع، مجردات من كل حماية ورعاية، ومعرضات لقروب الاحتياجات والامانات.

فادركت لتوقع العثرى ان يصبح كل أفراد اطهارا سقط مبدأ التمديد من نفسه، ولم يعد يصل به أحد، لانه في الشرع الاسلامي ليس يفرض ولا سنة، حق وليس ممنهبل بل مزهدا فيه.

(٢) الكتاب هو المكتبة وهي ان يبيع المول مالا إذا اداه إليه وبقية أصبح حرا، فبده يصل حتى بمحله. وفي الآية تحبيب في مساعده الارقاء المساكين «فأنتهم من اموال الزكاة على التحرر من الاسراو بأن يحط موالمهم شيئا من حجة ما اتفقوا عليه من المال.

« تأمل في جلال هذه العبارات الآتية التي وردت في خطبة من خطب النبي : « كل عمل طيب صدقة : فالمشاشة التي تقابل بها أهلك صدقة ، ونصحك لأمثالك لتعلمهم على الإحسان الفاضلة صدقة ، وهدايتك لغير سبيل ضل عن الطريق صدقة ، ومعونتك لمكفوف البصر صدقة ، وإيمانك عن الطريق الحجازة والشوك وكل ما يسده صدقة ، وما أولئك الماء لمن به صدق صدقة » .

« أما الصلاة في الأوقات الحسنة من المبادات التي تعتبر غاية في الجلال والنبيل .
« ومن الواجبات صيام رمضان ، وحج البيت بمكة ، على شريطة أن يترك الحاج لمن ينخلفهم وراءه ما يكتفونهم الحاجة .
« هذه هي الواجبات الحسنة التي كلف بها جميع المسلمين . أما الحر في عسرة عليهم نحرى ما بنا » .

محمد فريد وهدي

ما قيل في قبول العذر

كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر ما أحسن العفو كله ولا سيما عن قاتل ليس له عذر
وقال أبو تمام الطائي :

البري منك وطالعذر عندك لي فيما أذاك فلم تقبل ولم تلم
وقام عليك في فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
وقال شاعر وقد بالغ :

إذا اعتذر الجاني بما العذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب
ونما نحوه صاحب المقدم فقال :

عذري من طول البكا لوعة الأمل وليس لمن لا يقبل العذر من عذر
ولغيره وقد أجاد :

فهبني مسينا كالذي قلت ظالما فمفو جميل كي يكون لك الفضل
فان لم أكن للعفو عندك عذري أتيت به أهلا فأت له أهل
وقال أبو الطيب :

وإن كان ذنبي كل ذنب فانه بما الذنب كل المحو من جاء فأتيا

المطالب العالية في النفس الناطقة

وصلتها بالإنسان

— ٢ —

عرضنا في بحث من البحوث السابقة إلما بالفرق بين الخير والسعادة ، ثم لمدي الخلاف بين المتقدمين من الفلاسفة وبين المتأخرين منهم في ماهية السعادة ، وهل هي سعادة بالآضافة الى غيرها ، أو هي سعادة مطلقة بقطع النظر عما يضافها من الاعتبارات ، وهل هي من ملائسات النفس الناطقة وحدها . أو أن البدن أيضا من مقوماتها ؟ .

لكن البحث لن يتسق للكشف عن مبلغ آراء فرق الفلاسفة في السعادة والخير . من أجل ذلك نحب أن نعرض - بقدر - في هذا البحث للسعادة في رأي فيثاغورس وأفلاطون وبقراط وهؤلاء من متقدمي الفلاسفة ، ثم نعرض بعد ذلك لرأي أرسططليس ، ثم نقارب بين رأي فيثاغورس وأتباعه وبين جبهة من المثاليين حتى يتسق البحث على وتيرة واحدة ، ويجري على سنن مستساغ :

فن الاتجاهات التي اتجه إليها فيثاغورس وأفلاطون وبقراط ومن اليهم تلقاء النفس الناطقة أن الفضائل الأربع التي هي قوام السعادة وعناؤها حاصلة كلها في النفس وحدها فليس لها مرد من الخارج ولا قوة تصدر عنها سوى النفس الناطقة ؛ ولذلك حينما عرضوا التقسيم قوى النفس في كتبهم اعتبروا كل هذه القوى محصورة في الفضائل الأربع وهي : الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ، على ما عرضنا له في صدر بحثنا الأولى المتعلقة بالنفس الناطقة ثم رتبوا على ذلك الاتجاه أن تلك الفضائل الأربع وحدها كافية لتكون قواما للسعادة في فصولها المختلفة ، فلا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن ومبراته ضرورة أن ذا النفس الناطقة إذا حصل تلك الفضائل بحتممة بلا يفض من سمادته أن يكون سقيما أو فاقدا لبعض أعضائه أو مبتلى ببعض صنوف العلل والأدواء إلا يذ تآثرت تلك النفس بأوصاف البدن وأسقامه فيما يصدر عنها من أفعال كفساد العقل واضطراب التفكير وضعف لروية والخلط بين الآراء ، فإن ارتفعت كل هذه الأعراض مع إصابة البدن بعلة أو وصافه فليس يصير النفس الناطقة في شيء ، وأن يعرض لها افتقار والحول وسقوط المال وجشوبة العيش مثلا ، وكل ما هو خارج عنها فليس ما كان خارجا عن النفس الناطقة بقادح في سمادتها ، وبدهى أن فيثاغورس ومن لف لفة يذهب الى أن السعادة لا تبدو النفس الناطقة فلا تتناول الأبدان ومميزاتها ، ويرتبون على ذلك الاتجاه أن السعادة والخير في مختلف مناحيهما ليس لها إلا مصدر واحد وهو قوى النفس الناطقة وبالتالي الفضائل الأربع وليس للبدن على هذا الاعتبار ، لا مظهر له ، فالنفس مدبرة والبدن لها آلة

أما جمهرة من الرواقين فتذهب الى أن السعادة والخير يصدران من النفس والبدن معا. فإذا صدر الخير من النفس دون تقدير لكفة البدن فإنما يصدر ناقصا بالقياس الى ما يتعاون النفس والبدن مجتمعين في صوغه وإبرازه .

يأتي بعد ذلك أرسططاليس فينحو نحو آخر وهو أن السعادة والخير متخالفان ثم إن السعادة بمد ذلك مقولة بالتشكيك فهي معروضة للمقولات العشر على ما سيجيء الكلام عنه بأسباب في بحث تالية .

ومعلوم أن المحققين من الفلاسفة يحقرون شأن البهت والاتفاق ، وكل ما ليس له صلة بترتيب الفكر وإعمال الروية ، ولا يؤهلون أصحاب هذه الاتفاقات وحملة تلك المصادقات لاسم السعادة ، فالسعادة في أوضاعهم أمر فارغ غير زائل بل هم فوق ذلك يعتبرون كل ما يصل الانسان من غير طريق التدبير والروية ومن غير أن يجري على سنن له مقدمانه ونتائجه ضربا من ضروب البهت ، فهو قابل لعدم لبقاء والذوال والزيادة والنقص والتعديل والتخريج والرفعة والخفض وكل الاشياء وتناقضها . وتابعهم في ذلك كثير من مناخري الفلاسفة أخذوا بنظرية صادقة عدم وهي : من قدمه الاتفاق فقد أخره الاستحقاق . وهنا وقع خلاف ذو شأن بين قدماء الفلاسفة ومتأخريها فيذهب فيثاغورس وأفلاطون وبقراط الى أن السعادة العظمى لا تتحقق للانسان إلا بعد أن تخلع البدن وما يلبسه من غاشيات الطبيعة ، تطبقا لمذهبهم القائل بأن السعادة لا تحصل إلا في قوى النفس الناطقة . ومن أجل ذلك أطلقوا على الانسان أنه جوهر النفس الناطقة دون البدن ، فحكوا بأن البدن ما دام سياجا لها وقصا لا يوائها ، وما دام يخلع عليها غاشيات الطبيعة وأكدارها ولوانها وملائنها فأيست تلك النفس بسعادة السعادة المطلقة الموموفة ، ومبست ذلك الرأي عندهم أن النفس الناطقة لا تستوحى السكال الداني والعقل السوراني ما دامت متصلة بتلك الهيولى التي تحجب عنها العلوم والمعارف الكلية ، إلا إذا طرقت ظلمة الهيولى ولوثة تلك السكدورة ، وحينئذ تقارق الجبهالات المتنوعة فتصفو وتخلص من رقة البدن فتكتب لها الاصادة ويواجهها النور الالهي ، ويترتب على رأى هؤلاء بادي بدى أن الانسان لا يظفر بالفوز الاكبر والسعادة العليا إلا في حياة الجزاء بعد موته .

لكن تأتي بعد ذلك جماعة أخرى من الفلاسفة المتأخرين وأرسططاليس منهم في الطبيعة ، فتذهب الى أن من الشناعة والبعث وتجاهل الواقع أن ينعت الانسان الذي يعمل الاعمال الصالحة ، ويعتق الآراء الصحيحة ، ويجد في تحصيل الفضائل لنفسه أولا ثم لثناء جسمه ثانيا فيلشى " صروحا من الخير متسوعة ويقيم أعماله وما يصدر عنه من الآثار على محبة القلوب وكسب السنة الناس في سبيل إعلاء معالم الفضيلة والحق والصمة ، وتحديق معنى العدالة في أنبل مثلها ، بأنه شق في حياته الأولى وأنه لا يعتبر سعيدا إلا إذا طرقتا وخروج من طبيعتها وملابسها .

فالسعادة في رأى أرسططاليس ومتابعيه تنعقد في الحياة الأولى تطبيقاً لنظرية اشتهرت بينهم، وهى: أن الانسان عندم مركب من بدن ونفس ولذلك يحدون الانسان بالناطق المائت أو بالناطق الضاحك أو ما الى ذلك، وفرعوا على هذه النظرية أن السعادة تحدث للانسان إذا جد في طلبها وسلك اليها الوسائل المؤدية اليها، غير أن أرسططاليس حين رأى أن السعادة قد أشكل فهمها على الناس، واسطربت فيها آراء العلماء والفلاسفة، عقد لها في كتابه المسمى «بفضائل النفس» فصلاً طويلاً الدليل ضايق التناريع حافلاً بالحجج والآراء فقال في فاتحة هذا الفصل «من البين أن الفقير في هذه الحياة يرى سعادته في الغنى واليسار، وأن المريض يراها في الصحة والسلامة، وأن الدليل يتمثلها في الجاه والعزة والسلطان، وأن الخليل يلتمسها في التمكن من الشهورات الخنثانة، وأن النبيل القاضل الكريم يلشدّها في تميم مناحي الخير وإقامتها على مستحقها، والحد من طغيان ذلك الخير حتى لا يشمل غير مستحقه»

ويتحققها الفيلسوف المستقصى لحقائق الأشياء والمستمتع للإبسات التواميس الكونية في أنها إذ تكون مرتبة بحسب تقسيط العقل لها على معنى أن يلحظ فيها وتبها الذى يجب أن تقع فيه، وكما يجب أن تكون وعند من يجب - فهي سمادات متنوعة فما كان منها يراد لشيء يناسبه فذلك الشيء أجدر بأن يطلق عليه اسم السعادة.

ثم كلف بعد ذلك أرسططاليس عن رأي في بسط وإيالة، فقال «مع تصرف في مبناء مع الاحتفاظ بمعناه فقال: قلما يتاح للانسان أن يفعل الأفعال القريفة المرضية دون مادة تقوم عليها كاتساع اليد وكثرة الأعوان وجودة البخت، وينضج ذلك جلياً في مناهضة الملك والرئاسات المختلفة حيث لا يواتيهم توطيد لأركان هذه الزمامة إلا مقترناً بالشرائط المبنية على أن هناك نوعاً من الأعطية هى أعطية الله تعالى جده فى السعادة، لآها عطية منه عز اسمه وموهبة فى أشرف منازل الخير وأعلى مراتبه، وتلك الموهبة خاصة من خواص الانسان الكامل فلا يشاركه فيها من ليست إنسانيته تامة كالصبيان وما يجرى مجرام.

وتلك النظرية تقوم على نظرية أخرى عند أرسططاليس فأرسططاليس يرى أن السعادة تعتبر كذلك بالإضافة الى صاحبها فهى كمال له. فالسعادة على هذا الوضع خير ما، وقد تكون سعادة الانسان غير سعادة القوس وما اليه، فسعادة كل شيء في تمامه وكماله الذى يلائمه. وهنا يفرق بين الخير والسعادة فيرى أن الخير من حيث أنه مقصود للناس جميعاً بالهوى اليه والعمل على تحصيله، طبعية تقصد، وله مفهوم تام يدل عليه وهو الخير المطلق للناس من حيث إنهم كذلك. فالناس بأجمعهم يحسون فيه. لكن السعادة شيء آخر غير الخير عنده فهى خير ما لواحد واحد من الناس، وهى بالإضافة ليست لها ذات معينة، وهى تختلف بالإضافة الى قاصديها اختلافاً يرجع الى مؤهلاتهم وما ركب فيهم من فطر ومعدنات، ومن أجل ذلك يكون الخير المطلق

غير مختلف فيه . وقد يظن بالسعادة أن تقع لغير الناطقين لكن ليس على نحو من أنحاء الناطقين فانها إذا وقعت فانما هي استمدادات فيها لقبول كالاتها الملازمة لها من غير روية ولا تدبير ، وهي بمنزلة الفوق أو ما يجرى مجراه من الناطقين بالارادة .

فما يقع الحيوانات في ما كلفها ومشاربها واستجمامها لا يمكن أن يسمى سعادة ، بل الوضع الصحيح له أن يسمى بخنثا أو اتقا ، وجعل أن العقل بقطرته قد جعل قسمي والحركة والارادة المكتسبة للانسان حداً قتمى اليه ، فلذلك كان من المعلوم أن يوجد خير مطلق لا تأباه طبيعة هذا الوجود ولا يوجد بين الناس خلاف عليه ، فالهيم والصناعات والتدابير الاختيارية المجدية مثلاً ، كلها يقصد بها خير ما لوجه الانسانية على الأقل ، ولا يرتاب أحد في أنها كذلك وأنها تستمر تحتها المرجوة لها فكل تصرف لا يقصد به خير ما كان عبثاً والعقل يحظره ويأباه

فيكون الخير المطلق مقصوداً اليه من الناس أجمعين لكن بقي بعد ذلك أن يعلم ما هو ذلك الخير المطلق ، وما الغاية القصوى منه التي هي غاية أنواعه وأعلى مراتبه ؟ وذلك ما سنعالج تبينه بعد . غير أن أرسطاليس قسم الخير تقسيماً مفصلاً ونوعه تنويهاً يكشف عنه . كثيراً من الاهام الذي وقعت فيه جمهرة من متقدمي الفلاسفة . فعلى ترى أن الخير أنواع وفصول ، فنه ما هو شريف ومنه ما هو ممدوح ومنه ما هو بالقوة ، فالشريف منها ما كان شرفه مشتقاً من ذاته بحيث يخلع العرف على من قام به وهو الحكمة والعقل ، والممدوح منها كالفضائل والأفعال الجميلة الارادية .

أما ما كان بالقوة فكالتهب والاعتماد لقبول الأشياء التي تكون نوماً من هذه الأنواع . ومن الخير ما هو غابة ، ومنه ما ليس كذلك ، ومن الغاية ما هو تام ومنها ما ليس كذلك ، فاما هو تام كالسعادة لأن من بلغ اليها كان في غناه عن أن يكون له وراءه ما مطمع أو مزيد فهو ما هو غير تام كالصحة واليسار ، فان من واته الصحة وواتاه اليسار لم يكن له عن طلب المزيد غناء ، بل ربما كانت الصحة أو اليسار من أقوى الحوافز له على طلب المزيد . أما الذي ليس بغاية منه فكالعلاج والتعلم والرياضة والعمارة والزراعة وما الى ذلك . وجملة القول في الخير على ما حققه أرسطاليس وحكامه عنه قرقور يوس أن من أنواع الخير ما هو خير على الإطلاق ، وما هو خير عند الضرورة . ومنها ما هو خير ولكن ليس من طريق له مقدماته ووسائله كالاتعاقبات التي تنفق لبعض المجدودين من الناس . وإيضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجود وفي جميع الأوقات . ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولها من جميع الوجود . (وبالنسبة) منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في السكم ، ومنها ما هو في السكيف ، ومنها ما هو في الآين ، ومنها ما هو في المضاف ومنها ما هو في الحيز . وعلى الجملة فالخير يمرض للمقولات العشر وتعمل عليه حملاً اصطلاحياً . وقد أفاض أرسطاليس إطنافاً مبسوطاً في تبين هذه المقولات وعروض الخير لها دلالة منه على أن مناهي

الخير غير محدودة ، وأن نعمة الله التي أسبقها على عباده أوسع من أن تضيق بها تلك الرقعة السوداء بل أن آثار الله وآلاءه مبثوثة في كل أجزاء من أجزاء الكائنات ، حتى يبق البرهان القاطع قائما على شيوخ الآيات الباهرة في سائر ماضي تلك المجموعة الشمسية ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد . وقد سلك أرسططاليس في ذلك مسلكا يخالف مسلك المتقدمين من الفلاسفة كأفلاطون وبقرات ومن اليهما — فالفهوم من تفاصيل مذهبه في النفس الناطقة وفي الخير والسعادة التي تفعل بها قوى النفس جلي ، بل إن الخير شيء غير السعادة وأنه شائع بأجزائه في كل مناحي الوجود حتى يرى الخير إلى سائر المقولات فكان سرياه اليها دليلا على ديوحه وانساع الناس به . فالخير في الجوهر وهو ما ليس بعرض يمثل له أرسططاليس بالحق تعالى حده فهو الخير الأول على حد تعبيره ، فإن جميع الأشياء تتحرك بالشوق اليه ، ولأنه يفيض السرمدية والبقاء على الخير الذي كتب له الخلود ، وعلى الآلاء اللانهائية ، وعلى كل ما لا يطرأ عليه القضاء ، وفي الكم يمثل له بالمدد والمقدار المعتدلين ، ويمثل للكيف باللدائد وأنواع المنافع ، ويمثل لمقولة الإضافة بالصدقات والرياسات التي تنبعث عنها صلاحية تطوى على حير الإنسانية ، ويمثل للآين والتي والمكان المعتدل في إنعاده وجوائه ومحيطاته وبالأزمان الأتنيق البهيج المتفتح الاكمام من المرح والسرور . ويمثل لمقولة الوضع بالقعود والاضطجاع والانسكاء الموافق — ويمثل للملك بالأمول والمنافع ، ويمثل للانفعال بالجماع الطيب لشيق وسائر المشاهدات المؤثرة ، ويمثل للعقل برواج الأمر ونفاذ الكلمة وسعة السلطان . وعلى الجملة فأنواع الخير عنده منها ما هو من قبيل المحسوسات ومنها ما هو من قبيل المعقولات مما سنعرض له في بحوثنا التالية بمزيد بسط وإيضاح .

عيسى ط
الحامى الشرعى

فضيلة الحلم

قال رجل للأحنف بن قيس : علمنى الحلم يا أبا بحر .

قال : هو الذل . يا ابن أخى أفتصبر عليه ؟

نقول : يريد بقوله هو الذل أنه كبح للنفس عن مقابلة الجهل بالحلم ، فإن النفس تميل لذلك ، ولكنه يردعها عنه فساكنه يذلها .

وقال الأحنف نفسه أيضا : آفة الحلم ، الذل . وقال : لا حلم لمن لاسفيه له .

وأحسن بيت فيما يناحب هذا المقام لكعب بن زهير :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والغنى أصبت حايما أو أصابك جاهل

حكمة تحريم سؤر الكلب

معجزة علمية للإسلام يكشفها الطب حديثا

في باب الفتاوى من هذا المدد استفتاء من تربية الكلاب ؛ فرأينا أن نلخص في هذه المناسبة مقالا نقله قلم الترجمة لهذه المجلة من مجلة (كوسموس) (Cosmos) الألمانية تحت عنوان « الأخطار التي تنبع عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها » للدكتور (جرارد فنتسمر) فهو يكشف عن إحدى المعجزات العلمية للإسلام . فإليك :

« إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الأخير يضطرها إلى لغت الانظار للأخطار التي تحم عن ذلك ، وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها ، وتركها تلعق فضلات الطعام من أوابها .

« فشكل ما ذكره مع نوبه عن الذوق السليم ، ومناقته للأدب ، لا يتفق وقوانين الصحة فإن الأخطار التي تهدد صحة الإنسان وحياته بسبب هذا التسامح مما لا يستهان به . فإن الكلاب تصاب بدودة شريطية تنعدها إلى الإنسان ، وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل إلى حد العدوان على حياته .

« هذه الدودة لا يزيد طولها عن نصف السنتيمتر ، والجرب الخلفي منها لا يزيد عرضه عن مليمتير ، ويختوى في دور بلوغها على ما لا يقل عن خمسمائة بويضة لا يزيد قطر الواحدة منها عن ٣ / من المليمتير ، فهي لا ترى بالعين المجردة .

« فإذا ما تسربت هذه البويضة إلى أمعاء الإنسان بسبب عدم تحوطه من لعاب الكلاب تمزق عصارتها ففترتها ، فتخرج منها دودة ذات ستة خطافات محددة تندفع في مجرى الدم بعد أن تخترق جدار المصراة وتصبح فيه إلى أن تصل إلى الكبد فتستقر فيه غالبا وتأخذ في النمو وتحدث فيه بشورا لا يريد اتساع البثرة منها عن مليمتير في الشهرين الأولين ، ولكن بعد مرور خمسة أشهر يبلغ اتساع البثرة سنتيمترين . ثم تأخذ في النمو كلما نمادت بها السنون . وهذه البثرات تنقبج وكثيرا ما تولد منها بثرات جديدة . فإذا انفجرت انتقل فيها من عضو إلى آخر وأصيب بما أصيب به العضو الأول ، فأصبح الداء مستميريا ، وعرض حياة المصاب به إلى الخطر .

« أكثر ما توجد هذه البثرات في كبد الانسان ، وقد تنتقل الى الرئتين والطحال والكلى والى تجويف الجمجمة . فيتغير شكلها . فقد يصل حجم البثرة الى نحو قبضة اليد أو رأس الطفل ، داخلها سائل أصفر .

« مما يدعو الى الأسف أن الحالات التي تزول فيها هذه الطفيليات من الجسم دون أن تترك أثرا أو تحدث ضررا نادرة جدا . هذا فضلا عن أن الوسائل الكيميائية لا تأتي بأية فائدة ، فلا بد من لجوء المصاب الى مشرط الجراح ولا كرامة .

« وقد ثبت أن جميع أجسام الكلاب حتى أصغرها حتما لا تسلم من الإصابة بهذه الديدان القرطية .

« وأثبت الأستاذ الدكتور (نولر) من تشريح الجثث بألمانيا أن الإصابات الادمية بقروح دودة الكلاب قد لا تقل عن واحد في كل مائة ، وعرف أن أكثر الأقطار تلوثا بهذه الآفة ، الدانمارك ، وهولندا ودالماسيا ، واسلاندة ، وبلاد القرم .

« وقد رؤى في إقليم فريزلند بهولاندة حيث تستخدم الكلاب في الجر أن في كل مائة منها ١٢ إصابة . ووجد في اسلاندة شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصا من أهلها . وشهد أن هذه النسبة تزيد في استراليا ، إذ ثبت وجود شخص مصاب بها في كل ٣٩ شخصا من سكانها . وثبت كذلك أنها كانت سببا مباشرا لكثير من الأمراض في تركيا وبلغاريا وروسيا وفنلندة ، وفي مناطق من شمال السويد وأفريقيا الشمالية والكلاب وأقطار كثيرة من أمريكا الجنوبية . وقد ثبت من الإحصاءات أنه يموت في المحلقة في الوقت الراهن أكثر من أربعمائة شخص سنويا .

« وقد شوهد أن الحيوانات كثيرة التعرض للمدوى بهذه الدودة من الانسان ، فقد سجل في مجارها أن ٢٠٪ من الأغنام يوجدان مصابين بها ، وأقل من ذلك في الأبقار والخنازير . ولكن هذه النسبة لا تقف عند هذا الحد في أقطار أخرى ، فقد قبل إنها بلغت في مكلنبورج من ألمانيا ١١٪ في الأغنام ، و١٢٪ في الأبقار ، وسجلت مجازرها مكلنبورج ١٨٪ في الخنازير .

قال الأستاذ كاتب هذا البحث :

« لما كان ليس من المستطاع منع الناس عن اقتناء الكلاب فلا مناص من اتخاذ وسائل تحمّل دون سريان دائما المصالح بين الناس . وأول هذه الوسائل عدم السماح بدخولها الى المجازر العامة ، فإذا أصيبت الكلاب بهذا الداء وجب معالجتها لا لقاء عدواها .

« كذلك يجب العناية بامر الذبائح المنزلية ، فقد تكون مصابة بدودة الكلب ولا يعرفها صاحبها ولا المصائب المكلف بذبحها .

« وبما يجب على الناس مراعاة عدم مداعبة الكلاب ، وتعميد الاطفال التوق منها ، فلا تترك تلعق أيديهم ، ولا يجوز انقاء الكلاب بمحال زهة الاطفال ومبادئ رياضتهم .

« ويجب أن لا نعلم الكلاب في الاواني الممعدة لأكل الناس ، وأن لا يسمح لها بدخول مناجر الماء كولات والاسواق العامة أو المطاعم ، وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ماله مساس بما أكل الانسان ومقربه » انتهى .

ما قيل في التعبير

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان فوجده مهنا فقال له : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت قول زهير :

كأنى وقد جاوزت سبعين حجة	خلعت بها عنى عذار لجأى
رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى	فكيف بمن يرى وليس برأى
قاله الشعبي : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد بلغ السبعين :	
كأنى وقد جاوزت سبعين حجة	خلعت بها عنى منكبي ودائيا
ولما بلغ سبعا وسبعين سنة قال :	
بانت نفسي الى النفس موهنة	وقد حملتك سبعا بمد سبعينا
فان تزدى ثلاثا تبلى أملا	وفى الثلاث وظه ثمانينا
ولما بلغ تسعين سنة قال :	

أليس ورأى إن تراخت منيتى	فروم العصا تحنى عليها الاضالع
أخبر أخبار القرون التي خلت	أنوه كأنى كلما قت راكع
ولما بلغ ثلاثين ومئة وحضرته الوفاة قال :	

تمنى ابنائى إن يمشى أبوها	وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فمقوما فقولوا مالتى تعلمانه	ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا صديقه	أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
الى سنة ثم السلام عليكما	ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

تقرير بعثة الهند

تعب حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر وحضرات اصحاب الفضيلة جامعة كبار العلماء ثلاثة من كرام العلماء هم : اصحاب الفضيلة الشيخ ابراهيم الجبالي والشيخ محمد احمد المدوني والشيخ عبد الوهاب النجار فتشوروا الى الهند ودراة أسسوال المسلمين بها ، وما يجب أن يتخذ من الوسائل للدفاع عن الدين وأمانة البديع وإحياء السنن هالكة ، وما يتطلب واجب تنظيم أسلوب الدعوة عليه وفكر كلته ، وكانت هذه البعثة تحت رعاية اولهم ، وعند باب الاستاذ محمد حبيب وكيل كلية اللغة العربية ان يكون كلهم اسرارها ، وحضرة الفاضل محمد صلاح الدين الهندي للتجار مساعد له ، فكانت هذه السنة بما عهد اليها من التنقل في اقاليم الهند وعواصمها ، ومقابلة كبار المسلمين بها ، وزيرة معاهدنا العلمية ومؤسساتها الثقافية ، ولما آتت الى مصر اودعت ما جمعت من المعلومات القيمة تقريرا يقع في اكثر من سبعين صفحة من صفحات هذه المجلة ، ونشرت برفقة لفضيلة الاستاذ الاكبر ، فآثروا ان تشرعوا التقرير القيم تباعا في مجلة الأزهر ، فاعلم يدع صغيرة ولا كبيرة مما يهم المسلمين الاطلاع عليه من احوال إخوانهم المحدثين من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية إلا احصاها . فحضرات رئيس واعضاء هذه البعثة الشكر على ما قاموا به من هذه الخدمة العلمية ، وجزاهم الله عن الحسنة السعاه ما هم اهله وإليك نص ذلك التقرير :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين . أما بعد فان البعثة الأزهرية الى الهند تتشرف برفع هذا التقرير الى حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر .

وإنا لنوجه الى الله سبحانه وتعالى ، في مستهل عملنا ، أن يوفقنا الى إيذاء الرأي وإحصاء جليا لمصلحة الاسلام والمسلمين ، مبتغين فيه وجه الله الكريم ، والله تعالى ولي التوفيق .

نشأة الفكرة :

نشرت جريدة البلاغ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ الموافق ١٣ يونيه سنة ١٩٣٦ مقالا ضافيا عن أحوال طائفة المبوذيين في الهند ؛ ذهبت فيه الى أنهم قد تبرموا بوضيحتهم الدينية والسياسية ، فاجتمع رؤساؤهم مرات متكررة ، ثم قرروا التحول عن الدين الهندوسي الذي يضمهم في أحط الدرجات الى دين يختارونه بمتاز بالغلو من نظام الطبقات حيث يجدون المزة ويتبوءون المكاة اللاتفة بهم . كما ذكرت أن كثيرا من زعماء المبوذيين قد أثروا

على الاسلام خلال خطاباتهم . وان زعماء من زملائهم هو الدكتور أمبيد كار اعلن في جمع حافل أنه لا مناص من تغيير الدين الذي نشأ عليه الى دين آخر لم يحن الوقت لاعلانه .

انجبت الانظار عندئذ الى الأزهر الشريف ، وكل الناس ينتظر منه عملا يشرف الاسلام وينتج صدور أهله . ثم جاءت الكتب تترى الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، كل يدلى بما وصل اليه فكره من رأى يعتقد مجديا في ضم المنبوذين --- وهم خمسون مليوناً --- الى حظيرة الاسلام وكانوا جميعا متواصعين على اقتراح إرسال الوفاة والدعاة الى ذلك القطر الثاني لمداية هؤلاء القوم الى الدين الاسلامي الحنيف ببيان محاسنه والاعراب عن سمو مبادئه والتدليل على أنه الدين الذي يكفل لأهله الحرية والاعاء والمساواة .

وبعد ذلك بأسابيع ، وردت على فضيلة الاسناذ الأكبر عدة رسائل من الهند توافقت فيها الاخبار ، فن قائل بضرورة ايفاد بعثة من المبلغين ، الى قائل بالاستغناء عن ذلك بمونة مالية يرسلها الأزهر للجمعيات التي تقوم بالعمل فعلا . وقد ذهب فريق من المتشائمين الى أن الأزهر لا يستطيع أن يسام بكثير أو قليل في هذا العمل الخطير .

عندئذ محمد فضيلة الأستاذ الأكبر الى الثاني حتى ينجلى الموقف . ثم بعث الى بعض شخصيات الهند البارزة يعالهم رأيهم في الامر .

وما إن نشرت جريدة البلاغ أخبار هذه الكتب حتى انتهالت الرسائل تحدث الى فضيلته عن شئون المنبوذين . وكان من المبادرين الى ذلك السيد عبدالعزير النعماني ، إذ تقدم بتقرير ضاف يبين شأن المنبوذين وما يلافتون من هوان ، ويصف أحوالهم وما يحتاجون إليه ، وما ينبغي أن يقوم به الأزهر من أجلهم . وقد ذهب في تقريره الى أنه لا لزوم لإرسال بعثة لادخال المنبوذين في الاسلام . فإذا لم تكن هناك مندوحة من العمل فليجمع المال لإنشاء المؤسسات لهم من مدارس ومستوصفات وملاجئ ونحو ذلك ؛ وأما البعثة فأنها تكلف المال الكثير دون جدوى . ولما كانت جريدة البلاغ محور الاهتمام المحي بالامر فقد وردت عليها جملة رسائل كانت تنشرها تباعا ، ومن أهمها ما تقدم به الأستاذ حامد المليجي الى فضيلة الأستاذ الأكبر وهو خطاب ورد عليه من محمد زكريا منيار سكرتير أنجومان تبليغ الاسلام بيومى تاريخه ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ يذكر فيه أن إرسال بعثة من الأزهر في الوقت الحاضر مضر جدا وأن الهنادك قد قامت فيهم حركة عنيفة واستعدوا بالمال الكثير لمقاومة البعثة وإحباط مسماها .

ثم قدم السيد عبد العزيز النعماني كتابا --- عدا تقريره السابق --- من أربع صفحات ورد اليه من محمد زكريا منيار نفسه تاريخه ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ يذكر فيه الشيء الكثير عن غنى الهنادك وإحزالم الهبات في سبيل مصالحهم الطائفية ، وأنهم سيقاومون بعثة الأزهر أشد مقاومة لقرط حرصهم على بقاء المنبوذين على دينهم ، وأن بعثة الأزهر سيكون شأنها الاعلان

والنظام مما يرى الهندوس بمقاومتها غاية جهدم ، كما ذكر أن الملايين التي أشاعت الجرائد إسلاميا ليست حقيقية ، وأن جميات التبليغ بالهند عاملة على تهيتة الجو الصالح حتى إذا كان الأوان جاز لبعثة الأزهر أن تسافر الى الهند .

وورد على فضيلة الاستاذ الأكبر كتاب من الاستاذ فضل رحيم الهامى بناجبور يستحث فيه الأزهر على إرسال بعثته . ويبين مزايا هذه البعثة ويشرح طريقة العمل .

عرض الأمر على جماعة كبار العلماء :

إزاء هذا التناقض الغرب ، رأى فضيلة الاستاذ الأكبر أن يرسل بعثة لاستكشاف الأحوال في الهند ، كما رأى الفرصة مناسبة لأن تزيد البعثة في عملها بأن تتصل بالبيئات العلمية الإسلامية ورجال الفكر والشخصيات البارزة في الهند .

ثم عرض فضيلته الأمر على جماعة كبار العلماء مدعما بما ورد اليه من رسائل من دمام ومن الذين لم يدهم الى التقدم برأيهم . ومن أمهات هذه الكتب ما ورد من السيد محمد اقبال شاعر الهند الإسلامية وبلسوقها العظيم .

استعرضت جماعة كبار العلماء ظروف الحال وقررت ماينأتى : —

١ — إرسال بعثة الى الهند لدراسة حال المبوذنين ومعرفة الوسائل الناجمة لهدايتهم الى الاسلام ، وداسة أحوال الجميات الإسلامية وأحوال الطوائف الإسلامية بالهند .

٢ — أن يكون عدد أفراد البعثة ثلاثة ، ومعهم سكرتير يجيد اللغة الانجليزية . ويصح أن يلحق بهذه البعثة بعض الهنود بالجامع الأزهر .

٣ — أن يفوض الى حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الأكبر اختيار أشخاص البعثة ممن يمكنهم الاضطلاع بهذه المهمة ، وأن يفوض اليه كذلك إنفاق المال اللازم على هذه البعثة من أموال الجماعة .

يتبين من هذا أن مهمة البعثة قد انحصرت فيما يلى : —

١ — دراسة حال المبوذنين ، ومعرفة الوسائل الناجمة لهدايتهم الى الاسلام .

٢ — دراسة أحوال الجميات والطوائف الإسلامية بالهند .

وقد قامت البعثة بتوفيق الله تعالى بما كلفته . ثم رأت من المصلحة أن تضيف الى عملها دراسات وأعمالا أخرى اقتضتها المصلحة العامة ، مما هو وارد بهذا التقرير .

وقع اختيار فضيلة الاستاذ الأكبر على أصحاب الفضيلة : الشيخ ابراهيم الجبالى والشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد احمد المدوى من بين المرشحين . أما سكرتارية البعثة فقد

أسندت الى الأستاذ محمد حبيب احمد مدرس التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين . ووقع الاختيار على محمد صلاح الدين المجار افندى لمساعدة السكرتير فى عمله .

قبيل سفر البعثة :

تجهز أعضاء البعثة للسفر ، ثم قابلو فضيلة الأستاذ الأكبر فأسدى اليهم خالى الصبح ، وطلب اليهم أن يتعلموا بطوائف المسلمين وأن يعملوا ما استطاعوا على إزالة الفوارق بينهم ، وأن يكونوا إخوانا متعاضدين تحميقا للوحدة الاسلامية التى قال الله تعالى بشأنها : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . عاذا وفقت البعثة الى ذلك جنى الاسلام فائدة عظيمة كما طلب اليهم أن يعمدوا صلات الود بين معاهد العلم فى الهند والأزهر فى مصر على أساس النفع المتبادل ، وأن يدرسوا عن كتب حال المنبوذين دراسة مستفيضة ليعلموا الى أى حد يمكن للأزهر أن يساهم فى الحركة التى شاعت عنهم إن كانت لها حقيقة ، ثم دعا لهم بالتوفيق وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٥

وفى اليوم التالى قابل أعضاء البعثة مجلس الوصاية الموقر بقصر طابدين ، فأخذ صاحب السمو الملكى الأمير محمد على يظهر ارتياحه وسروره العظيم لسفر البعثة . ثم أخذ سموه يلقي النصائح على ضيوفه ما شاهده فى رحلته الى الهند .

ثم قابلت البعثة بعد ذلك حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء . ولما أن شرحت له البعثة مقاصدها سر من ذلك سرورا عظيميا وأخذ يلقي النصائح ويدهو للبعثة بالتوفيق .

وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٥ الموافق أول ديسمبر سنة ١٩٣٦ غادرت البعثة القاهرة . وقد ودعت فيها وداما حافلا فكان على رأس المودعين فضيلة الأستاذ الأكبر يحف به عظماء القوم من كل من يمت الى البعثة أو أحد أعضائها بعلة . فكان وداعا جمع فأوعى .

ثم استقبلت البعثة كذلك فى نها استقبالها حسا إذ جاء إليها وفد من علماء معهد طباطا يتقدمهم فضيلة الأستاذ (المرحوم) الشيخ محمود الدينارى .

أما بور سعيد فقد كانت حفاوتها بالبعثة عظيمة ، منذ أن نزلت بها الى أن غادرتها على ظهر السفينة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى .

وبعد أن احتازت الباخرة القناة ، ولم تقف فى مدينة السويس ، وردت على البعثة رسالة لاسلكية من أهالى السويس وبور توفيق يحبونها ويرجون لها النجاح فى مهمتها . وقد أحاطت البعثة على ذلك بالشكر تلمزافيا .

كلمة شكر :

وقبل أن نستمر في الكلام على شئون البعثة ، يجدر بنا أن نتقدم وافر الحمد وجزيل الشكر الى الصحافة المصرية على عنايتها بشئون البعثة قبل سفرها وبمده . ونخص بالشكر جريدة البلاغ على عنايتها بالشئون الاسلامية عامة وشئون الهند خاصة . فقد كانت للأستاذ حامد المليحي محرر القسم الشرقى بالبلاغ جهود تذكر بالشكر في تتبع الشئون التي يهم الأزهري الوقوف عليها ، واستطلاع آراء العاملين في هذا الموضوع على اختلاف نزعاتهم مما ألقى على الموضوع ضوءا مفيدا . ولا يفوتنا أن نتقدم بحزب الشكر لجرائد الأهرام والمصري والجهاد على تتبعها أخبار البعثة ونشرها الكثير من الرسائل الواردة عليها من مراسليها بالهند .

كما يجدر بنا أن نتقدم الى جمعية الشبان المسلمين ممثلة في شخص رئيسها الدكتور عبد الحيد سعيد بالشكر على ما بذله من المساعدات الادبية للبعثة .

في عدن :

استقبلت البعثة في ميناء عدن استقبالا عظيما حيث سعد اليها السيد عبد الله هادي الجفري والسيد عبد الرحمن الجفري وكذا بعض أعيان عدن . ونزل الجميع الى البر حيث كان السيد فضل ولي عهد سلطنة لحج قد جاء لاستقبال البعثة والسلام عليها ثم سار الجميع في رتل من السيارات الى مادي الاصلاح حيث أعدت لهم مائدة إفطار جمعت أعيان البلاد وأهل العلم أمثال : السيد عبد الله بن احمد بن محمد بن يحيى العلوي ، وأولاد عمومته ، والسيد الاصبح من رجالات عدن وأهل الغيرة على مصالح المسلمين بها .

ثم انتقل الجميع الى قصر سلطان لحج حيث كان في استقبالهم ولي العهد ومعه حاشيته وهناك التقيوا بالسيد عبد العزيز الثعالبي الذي كان قد سبقنا الى عدن في طريقه الى الهند . وبعد تناول المرطبات بقصر السلطان طادت البعثة الى الباخرة وفي صحبتها ولي العهد وكذلك الشباب الناهض من أهل العلم والأدب ، فشكرت البعثة الجميع على حمائهم . ثم سارت الباخرة في طريقها الى بومباي .

وحدث ، ونحن على ظهر السفينة ، أن اتفقت كلمتنا على النزول بفندق « تاج محل » وهو أعظم فندق في بومباي ، وذلك حفظا لكرامة البعثة والهيئة الموقرة التي أوفدتها ، وحتى تتاح الفرصة لسكن من يريد الاتصال بالبعثة أن يتقدم الى الفندق في غير حرج .

وقبل وصولنا الى بومباي بيومين وردت علينا رسالة لا سلكية من الحاج قاسم علي

شيراز بهاي من كار أهياڻ المدينة ورئيس جمعية « انجومان تبليغ الاسلام » يرحب بالبعثة ويرجو أن تقبل النزول في ضيافته ، فأجبتاه تفرافيا شاكرين له دعوته ، معتذرين بأننا حجزنا في فندق « تاج محل » وقد علمنا بمد ذلك أن تصرفنا هذا كان يردا وسلاما على قلوب الجالية العربية وغيرهم ببومباي إذ رأوا فيه عزة لنا ولهم ورفعة لمقامنا ومقامهم في أمم أهل الهند .

وقد رأينا أن نستعد ، ونحن على ظهر السفينة ، ببيان ندل به الى الصحافة الهندية عند زولنا ، فوضعنا البيان الآتي :

« إن البعثة الأزهرية المصرية قد قدمت الى الهند تحمل بين جنبها صداقة الشعب المصري لسكان الهند كافة ، وقد جاءت الى هذه البلاد لزيارة المؤسسات العلمية على العموم ، والاسلامية منها على الخصوص ، وكذا لتعرف بزعماء المسلمين وقادة الفكر فيهم ، وهي ترحم من وراء ذلك أن تولد علاقات الصداقة بين المسلمين في الهند وإخوانهم في الاسلام بمصر »

فكان ذلك البيان باكورة طيبة لعمل البعثة فشرته كافة الصحف الهندية ، ثم علقته عليه بالترحيب بها راجية لها أن توفق في مهمتها . كما كان قبيان أثر طيب في جميع الدوائر الاسلامية وكذا في الدوائر الحكومية ، مما استطعنا أن نستجليه واضحا خلال مقابلاتنا العديدة مع رجال الحكم في تلك البلاد .

وكان من أثره كذلك أن رغبته الحكومة في تسهيل مهمتنا ، فأوصت الحكومة المركزية في دلهي كافة الحكومات الاقليمية بالبعثة خيرا ، فكان ذلك عونا لنا على القيام بما كلفنا به .

مسألة مصر والأزهر عند مسلمي الهند :

إن بلاد الهند ، مع كثرة المتعلمين والمتقنين من المسلمين فيها ، والحاصلين على أعلى الدرجات العلمية من جامعات انجلترا وألمانيا وأمريكا واليابان ، لا يزال أهلها يكتفون لمصر كل إكبار واحترام ، ويعتبرونها زعيمة الأمم الشرقية في العلوم والمعارف ، وحاملة لواء النهضة العلمية والثقافية في الشرق كله .

أما الأزهر فله في قلوبهم مكانة عظيمة . فهو عند المسلمين ، بلا استثناء ، كعبة العلوم الدينية والعربية ، والمهل العذب لجميع طلاب العلوم الدينية في العالم بأسره ، وعلوؤه قدوة أهل الشرق والغرب في الدين ، وهم الهداة الذين لا يشق لهم قبار .

وكم سمعنا من أفاضل العلماء الاتقياء قولهم والمعبرات تحقهم : (إنكم يا أهل مصر تردون موارد العلم في الأزهر صافية عذبة ، ونحن لا نرد إلا كدرا . لذلك شاع بيننا اختلاف العلماء

وتباين الأهواء وتدار أهل الدين وصاروا شيئا يكفر بعضهم بعضا ؛ أما أنتم فلا خلاف بينكم في الدين ولا اخلاف ، وقد انسمت صدوركم ولم تنعوا زخات المضلين باسم الدين .. الخ .
وليس أدل على ما للأزهر من مكانة سامية من قول الزعيم الكبير محمد علي جناح عندما طلب اليه أن يكتب لاصدقائه داخل الهند بوصيهم بالبعثة ويسألهم معونها الأدبية إن اسم الأزهر عظيم جليل ، وهو اسم سيثق الطريق أمامكم فسيحدا الى جميع أغراضكم التي ترمون اليها ، فإن روعته في القلوب ، واحترامه في النفوس ، كفيلا بذلك .

وقد بلغ من تقدير إخوانا المسلمين في الهند للأزهر وبعثته أن قررت جمعية « إسلام سيفما سماج » في مستهل بعثتنا ، أن تهدي المدالية الذهبية الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، وهي المدالية السنوية التي تهديها الجمعية في يوم عيد الفطر المبارك الى خير من أتى في خدمة الاسلام خلال العام . وقد رأت الجمعية أن العمل الذي قام به الاستاذ الأكبر من إفاد هذه البعثة ، مصافا الى جلائل أعماله في خدمة الاسلام ، يجعل فضيلته خيرا مستحق لهذه المدالية . وقد أهديت مدالية هذه الجمعية في العام الماضي الى حضرة صاحب السمو العالي نظام حيدرآباد . وقد آثرنا أن ننشر فيما يلي فقرات قصيرة عما جاء على ألسنة بعض الخطباء من تقدير للأزهر ومكانته في الهند :

« نحن وإن بعدت الشقة بيننا ، ولم يسبق لنا باللقاء عهد ، فاحمة العلم والأدب تجمعنا . ولحة العلم أقوى من لحة النسب ... ولعل هذه أول التهيزات العربية في العالم الاسلامي منذ قرون حالية . ومزيتكم على جميع الاقطار الاسلامية حلية . ومن ذا لا يعرف فصائل الأزهر الذي كان من أجل مراكز العلم في الزمن الغابر ، وسيكون إن شاء الله من أشرق الجامعات العلمية في العصر الحاضر » . . . من خطاب دائرة المعارف بمحيدو آباد .

« قد زادنا سرورا أنكم ما ركبتم البحار إلا لنا ، ولتوثيق عرى المودة بين المسلمين وتعارف الأزهر وطلابه مع المعاهد العلمية في الهند وطبعتها بالأسمين ، ولاحكام أوامر الرابطة الاسلامية التي لعبت يد الخلدان بأوصالها . فما أسمى حظنا حيث تلقنا بغيرتنا وظهرنا بأمنيتنا ، مذكرك ما كنا نبغى ، فإن المسلمين لن ينجحوا أبدا في حياتهم ولا نظامهم ولا اقتصادهم إلا إذا استمككوا بمرور الوحدة الاسلامية استمساكا ، وعضوا عليها بالنواجذ . نحن الطلبة ، وإن رمتنا الهند ونشأتنا فيها ، جد مولعين بالعلوم العربية والاسلامية ، ولكن من الأسف إن معاهدنا العربية الهندية لم تزل غير كافية لسد ما نحتاج اليه ، وظروفنا ما وسعنا أن ناسقر الى البلاد العربية ونستقي من مساهج علومها العذبة ، لكوننا من أهل بقعة ليس فيها إلا اليؤس والشقاء . فرجاؤنا أن نلقت أنظاركم البيا ، وأن تبذلوا جهودكم لدى مشيخة الأزهر أن تذلل لنا العقبات التي تحول بيننا وبين الارتقاء من مناهل الأزهر العذبة » . . . من خطاب الطلبة في ندوة العلماء بمدينة لسكنو .

« لا ريب أن الأزهر مركزنا العظيم ، وعاصمة العلوم وحضنها ، وأن الأزهر وفرنجي محل بينهما مناسبة عظيمة في نشر العلوم وخدمتها . لا نحسبكم ضيوفا بل أئتم أسانذتنا ومرجع آمالنا خطاب الترحيب في فرنجي محل بمدينة لكونو .
« إنكم أيها السادة تملكون أقدم جامعة في العالم ، كانت ولا تزال منبع العلم والنور ألا وهي الجامعة الأزهرية فأنتم رسل الحق ، والناخبون من طبقات المتعلمين المثقفين في مصر ولقد فتحتم فتمنا جديدا بزيارتكم لأخوانكم المسلمين هنا . جئتم لاكتشاف طرق التعليم . جئتم تعلمون وتسنفدون . جئتم لتروا ما يمكنكم الأخذ به من أساليبنا . كما جئتم إلى بلادنا لتلقوا عليها ولتصلحتم ضوء العلم والعرفان الذي اقتبستموه من جامعتكم العظيمة من خطاب جمعية مسلمي البنجاب بمدينة كرتشي .

« إن زيارة البعثة الأزهرية إلى بلادنا لزيارة ميمونة ، لأسباب في ذلك الوقت الذي ضربت فيه بلادكم السعيدة نسهم وأفر في العلم والسياسة . فإن مصر بموقعها ملتقى ثقافتى الشرق والغرب وهي الحصن الحصين للغة العربية التي هي اللغة الدينية للعالم الإسلامى كافة . وكانت الهند ولا تزال تتطلع إلى بلادكم بحثا عن كنوز الدين وثقافته التي ما برحت مصر تغذى بها العالم أجمع . من خطاب جمعية التاج الإسلامية في نشر بلاهور .

« لقد جئتم إلينا من أقدم جامعات العالم — من الجامعة الأزهرية التي ساخت إلى اليوم من حياتها ألف عام — وإن صيت جامعتكم العظيمة التي هي أثر من آثار الفنى الإسلامى ، ومركز من مراكز الثقافة ، قد جاب الآفاق ، وأصبح دائما في دوائر العلم والأدب في الشرق والغرب . فبينما كانت أوروبا غارقة في محيط الجهالة ، كانت الجامعة الأزهرية العظيمة مبارا يشع بضوءه العلمى المنتشر في كافة الأقطار ، فكان هاديا فاضل في ظلمات النعصب الدينى وضيق التفكير . وإن الأزهر اليوم هو الجامعة الدينية الوحيدة التي تجتذب الطلبة من كافة أنحاء المعمورة ، كما أنها الجامعة التي يزد سائر الجامعات في الاعراب من الرأى الإسلامى العام والمقيدة الإسلامية الخالصة من خطاب حزب الله في ساهول بور .

« لقد شرفتم الأمة الهندية بقدموكم إلى هذه البلاد النائية ، إحياء لذكرى الماضى الذهبى القديم ، وتجديدا لروابط الأخوة الإسلامية . فزأتم بأوضاح محمول رسالة وادى النيل ومصر الشقيقة إلى الهند ومسلميها إخوانكم في الله والدين ، خطاب طلبة السكينة الطيبة بدهلي .

مسكاة مصر الأدبية :

إن الطلبة في الهند ليشعرون من قرارة أنفسهم شعورا أصحقا بما لمصر من المسكاة الأدبية وما لاهلها من قدم راسخة وقدرة فائقة في العلوم والمعارف فكهم رأيا من الطلبة في كافة

أنحاء الهند من يمنون شوقا وتتحرقون شغفا بمصر وأزهرها ، وينظمون الى الارتداد من معين علومها . وكم رأينا ممن تفيض أعينهم بالدمع حزنا على أنهم لا يجدون ما ينفعونه على أنفسهم في مصر إذا هم قصدوها لطلب العلم .

ولقد بلغ من شغف الطلبة ، وشوقهم الى مصر وأهلها ، ورغبتهم في الاطلاع على أحوالها . أنهم كانوا يتقدمون لنا بمبادرين ليأخذوا وعدا من أعضاء البعثة بمحاضرات من شئون مصر في جميع نواحي الحياة ، قائلين : إنهم أحق بذلك من غيرهم لأن أهل العلم بعضهم أولى ببعض . وقد كان لهم في أكثر الأحيان ما أرادوا .

أما تهافت الطلبة على سماع المحاضرات العامة والمحظب الشاملة من أعضاء البعثة فحدث منه . وكم طلب إيسا طلبة الجامعات مقابلات خاصة ليستفسروا منا عن بعض ما أرتج عليهم من أحوال مصر بما لا تنسح له المحاضرات العامة .

وقد اهتم كثير من الجامعات الاسلامية وكذلك المدارس الخاصة بأبناء المسلمين بدعوة البعثة ليعرضوا عليها واحة نشاطهم في ترقية التعليم من ناحيته الدينية والعربية .

فمن ذلك أن الجامعة الملكية بدلهي قد عرضت علينا ما تبذله من جهود في سبيل ترقية اللغة العربية فيها . وقد تذاكرنا مع ناظم الجامعة الدكتور زاكركسين ، وتبادلنا معه المذكرات فيما يمكن أن يقوم بين جامعتي والجامعة الأزهرية من صلات ثقافية .

ومن ذلك أيضا أن جامعة عليكرة طلبت الى البعثة أن تضع لها منهاجا كفيلا بترقية الدراسات الدينية . فوعدت البعثة بأن ترفع هذا الرجا بعد هودتها الى رئاسة الجامعة الأزهرية وذلك لأن الوقت لم يكن كافيا للمناقشة والمداكرة .

ومن ذلك أيضا أن خان بهادور الدكتور محمد حسين قد أنفأ بمدينة دهرادون مدرسة يعمل فيها على إعداد طلبة الهند لبل شهادة كبردج العليا (Senior Cambridge) التي تؤهل الطلبة للانتساب الى الجامعات البريطانية وأسا دون التقيد بمناهج الهند الجامعية التي لا تستغرق الجامعات الانجليزية بمساواتها لمثباتها من الجامعات البريطانية في الدرجات العلمية . وهو بذلك يوفر على طلبة الهند الذين يعتزمون السفر الى إنجلترا ثلاث سنوات أو أربعا من سنى حياتهم . تقدم البنا هذا الرجل فعرض علينا أن نضع له منهاجا للعلوم الدينية والعربية يستطيع به الطالب دخول كليات الأزهر وأسا دون أن نضع له منهاجا للعلوم الدينية في سبيل الطالب الهندى العادى ، وحتى يوفر على أبناء بلده ذلك الزمن الذى يقضونه في الدراسات الدينية التي قد لا تسير مناهج الأزهر . وهو أمر لو تم لكان من أحسن الأمور وأعظمها أثرا وأفعها للاسلام والمسلمين . لا سيما وأن طبقة الطلبة في مدرسته يلتزمون الى أمر طيبة . وللدكتور محمد حسين آمال كبار في أن يخرج من المدرسة التي يشير بها . وما يتلوها

من إكمال الدراسة بالأزهر — طبقة من الوعاظ يعودون الى بلادهم حاملين نواة التبليغ بالدين الاسلامي تبليغا مطبوعا بالطابع الأزهرى . فيكونون أقدر على المع والبعد عن اتخاذ عليهم شباكا لاصطياد المال . وذلك نظرا لطيب محندهم ومحو أخلاقهم . وقد وعدنا الدكتور محمد حسين بأن تبحث هذه الحالة في مصر . ولعله يحضر اليها قريبا للذاكرة والاتفاق .

هذا الى أن معظم الجامعات الاسلامية ، وما دوما من المؤسسات العلمية ، طلبوا الحصول على مناهج الأزهر ليستنبروا بها في إصلاح مناهجهم .

وقبل أن نختم هذا الفصل ، يجدر بنا أن نتقدم بحزب الشكر لآخواننا المسلمين في الهند ، على ما خصونا به من حفاوة . ونعتذر الى كل من لم يتسع وقت البعثة لاجابة دعوته . ولو أجابت البعثة كل الدعوات التي وجهت اليها ، أو سافرت الى جميع المدن التي دعيت لزيارتها ، لاستغرقت البعثة السنوات بدل الشهور .

وقد قضت البعثة في الهند حوالي مائة يوم زارت في خلالها ٥٠ مدرسة وجامعة ، وتحديث في جلسات خاصة مع ٣٠ من رجال الهند الممتازين . وألقى أعضاء البعثة ٣٢ محاضرة عامة كما أحياوا عددا من الدعوات الخاصة والعامة منها : للافطار و ٧ للعشاء و ٣٥ للشاي و ١٦ للمشاء . وكانت كلها بحسب لا لتبادل الرأي خلال التيسر في الحديث . وزارت البعثة ٢٠ مكانا أثريا إسلاميا . ولا يبرر هذه العدد مع كثرة الآثار الاسلامية بالهند ، إلا أن زيارة الآثار لم تكن داخلة في المهمة التي أوكلت من أجلها البعثة الى الهند .

وقد أدى أعضاء البعثة صلاة الجمعة في المساجد العامة اثني عشر مرة في عشرة مساجد في عشر مدن كبرى مختلفة . كما حضرت صلاة العيد في الميدان العام مرة في بمباي والأخرى في كلكتوتا .

لحضرات المشتركين

رغبة منا في تنظيم علاقات وكلاء مجلة الأزهر بقلم جساتها ، رأينا أن نعمل بدل الاتصالات المؤقتة التي يسلونها للمشتركين إيصالات نهائية مذيبة بخاتم لنا خاص بالمجلة ، على الصورة التي يرونها في نهاية هذا الاعلان . وكل إيصال ليس عليه هذا الخاتم لا نعتد به إدارة المجلة بعد تاريخ هذا الاعلان . فارجو حضرات المشتركين ملاحظة ذلك بكل دقة ، ولهم منا الشكر الجزيل .

مدير مجلة الأزهر

سفيان

حول فلسفة ابن رشد :

نشرنا في العدد الماضي مقالا لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري يرد فيه على حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب بشأن ما نشره من رأى ابن رشد في قدم العالم ، فاضطر الدكتور غلاب لتعزيز مذهب اليه فأرسل لنا ردا مستفيضا مؤيدا لكثير من النصوص والأدلة ، مرهدا بذلك أن لا يدع لاحد مجالاً لمريب في صحة ما كتبه عن الفيلسوف الايدلسي ، ولسكى لا نثير هذا الجدل العنيف آثرنا أن نعلق هذا الباب مكتفين بما كتب وفيه غناء .

ديوان حافظ ابراهيم

ليس في الساطقين بالضاد من يجهل مكانة حافظ ابراهيم من القريص ، جزالة لفاظ ، وسمو معان ، وسحر بيان ، لو تيسرت واحدة من هذه الخصائص لشاعر لبني لعنه صرحا في الثرياء فما ظنك وقد اجتمعت كلها لحافظ ابراهيم ؟ وقد عيت جماعة الادب في مصر يدكراه تحت رعاية وزارة المعارف ورأى حضرة صاحب المعالي زكي العراقي بشا وزبرها الجليل أن تكون ثمرة هذه الذكرى طبع الجزء الثاني من ديوان شاعرنا الكبير . وقد تم طبعه وأهدانا معاليه نسخة منه جمعت وحوه الاثقان كله . فنشكر لمعاليه هذه العناية بالادب والآداب ، فبمثل هذه الأريحيات الكريمة يحيا الادب وينشط الآداب .

كتاب الآثار :

هو كتاب حليل القدر لقاضى القضاة الامام أبى يوسف صاحب أبى حنيفة النعمان ، رواه عنه ابنه أبو محمد يوسف ، وهو مسند الامام الأعظم جمعه صاحبه أبو يوسف ، وأضاف اليه مروياته من الحديث في جميع أبواب الفقه . وقد عني تصحيحه والتعليق عليه الاستاذ المفضل أبو الوفا المدرس بالمدرسة النظامية بمحيدرياد الدكن بالهند ، وهو تطبيق عظيم القيمة وقد أشرف على طبعه بالقاهرة فضيلة الاستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان وكيل لجنة إحياء المعارف النعمانية فجاء الكتاب غاية في نظافة الطبع وجودة الورق (عنوانه عطفة الأمير بجوار الأزهري)

أسواق العرب في الجاهلية والاسلام :

من الكتب التي لا غنى لكل أديب ومتأديب عنها كتاب أسواق العرب الذي ألفه الاستاذ الألمى سعيد الافغانى ، فقد جمع فيه أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، وما كان يتناشد فيها من أشعار ، وروى من أدب ، فجاء كتابا أدبيا في شكل جذاب . وقد حلاه بخريطة وفهارس مرتبة على حروف الهجاء للأعلام والآيات . ووضع له مقدمة حافلة بالمعلومات عن تجارة العرب وآدابهم . وقد عني بشرح غريبه ، فجاء سفرنا معجبا بجمل أن تتحلى به كل مكتبة .

تعطفات حضرة صاحب الجلالة الملك

على الجامعة الأزهرية والأزهريين

ما زال حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول منذ من الله على هذه البلاد بإحلاسه على أريكته ملكها ، وهو يرعاها بعنايته ، وعندها بموارفه ، حتى غمر الناس في أية بيئة كانوا من فيض فضله ، ما جعلهم يعتقدون بأنهم تحت رعاية ملك استكمل صفات كبار المياهلة من خلد التاريخ أسماءهم في أكرم مكان من صفه .

وكان للأزهر من تعطفات جلالته القسط الأوفى ، والحظ الأوفر ، على نسبة مكانته من المؤسسات الكبرى ، لاحتصاصه بالجمع بين الثقافتين العلمية والدينية معا .

أول ما ظهر من هذه التعطفات ، وكان إعجاب الناس به عظيمًا ، تقريبه لرجال الدين وشدة عنايته بهم ، وخاصة لصاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي ، فقد تفضل فأسند إليه مهمة مذاكرته في الدين ، فكان هذا من جلالته تشريفًا كبيرًا للعلماء من ناحية ، وايدانًا بأنه يعنى بالثقافة الدينية عناية خاصة . وهي سنة جليلة سنّها جلالته ، أعادها سيرة عظماء الملوك الذين تولوا أمر الأمة الإسلامية وأوصلوها الى أوج عظمتها الاجتماعية من طريق القيام على السقن الالهية .

لذلك كان لزاما على عماء الدين أن يجتمع كبارهم ويوفعوا لجلالته كتابا موقعا عليه منهم ، يشكرون فيه الله على ما تفضل على الأمة بولايته ، ويدعونه أن يحفظ جلالته ملاذا للعلم ، وموثلا لأهله ، وقد فعلوا ذلك وتشرفوا برفعه الى جلالته ، وهذا نصه .

حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء :

أنشرف ببلاغ معاليكم أنه لمباسة المقاد مجلس جماعة كبار العلماء لأول مرة ، إثر تولي حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله مهام ملكه السعيد ، توجهوا الى الله سبحانه بطلب بقاء الذات الكريمة مؤيدة نصر الله وتوفيقه ، عاملة على إحياء دين الله وإعلاء كلمة الله ، وقرروا إرسال تهنئتهم الصادرة من قلوب مخلصه متعلقة بالعرش وبجلالة صاحب العرش ، وطلبوا الى إبلاغ ذلك .

فأرجو التكرم برفع هذا الى السدة الملكية المعظمة ، أدامها الله ذخرا للبلاد .

وتقبلوا بقبول عظيم الاحترام ؟

شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغي

٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦

١٤ أغسطس سنة ١٩٣٧

وما كاد يرفع هذا الكتاب جلالة الملك حتى أصدر إرادته الكريمة بإيفاد رسول من قبله يحمل جوابه عليه الى دار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر بحلوان .

واليك نص ذلك الجواب الملكي :

عزيزي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فقد كان للرسالة التي طلب اليكم مجلس جماعة كبار العلماء إبلاغها الي ، أبلغ الأثر في نفسي .

وإني إذ أعرب لكم ولمجلس الموقر عن خالص شكري وتقديري لدعواتكم الصادقة ، وتمنياتكم المباركة ، أشاركم الاتئبال الى الله بقلب سليم أن يوفقني وإياكم الى العمل على نصرة دين الله وإعلاء كلمته ، إنه ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

تحريرا بسراى المنتزه

فاروق

في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦

وما كاد يمر على هذا الكتاب الكريم أيام معدودة حتى تفضل حلالة الملك حفظه الله فأصدر أمره العالي بفرش الأزهر بالطنافس الثنية على نفقته الخاصة ، فكان لهذا التعطف الملكي العظيم من الوقف في نفوس رجال الدين والمسلمين كافة ما لا يمكن وصفه ، وانطلقت الألسنة بالدعاء لجلالته بأن يحفظه الله ركننا للدين ، ونصيرا لأهله ، وأن يثيبه بما أسدى ثواب العاملين على إعلاء كلمة الله ، والمجاهدين في سبيله . ورأى العلماء أن هذه اليد الكريمة يجب أن تقابل بشكر ياسب قيمتها ، فأجمعوا على أن يشخص وفد من كبارهم تحت رئاسة فضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي لرفع كتاب يضمنونه آيات إحلاصهم لصدته .

فسافر لهذا الغرض وفد منهم الى الاسكندرية وتشرفوا بمقابلة جلالته ، ورافعين اليه كتابا مكتوبا بخط جميل ، ومغلما تغليفا ، ثيقا ، فتقدم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ويده الكتاب قائلا لجلالته . جئنا يامولانا المليك نحن شيوخ المذاهب الاسلامية وأعضاء جماعة كبار العلماء لرفع الى مقام جلالته السامى ، رسالة جماعة كبار العلماء وعلماء الأزهر ، للرعاية الملكية التي تعضنهم فشمتم بها الأزهر والأزهريين قاطبة ، بل العالم الاسلامى أجمع .

فقال لجلالته : أستغفر الله الكريم . ثم أخذ فضيلة الأستاذ الامام في تلاوة هذه الرسالة بين يدي جلالة المليك . وهى هذه :

يا صاحب الجلالة :

إن الأزهر الذي مضى عليه قرابة ألف سنة ليشر اليوم وهو في مطلع عهدكم الزاهر أنه يتقدم وثوبا إلى الإمام كأ أنه يسابق الأيام . إنه ليشر بنهضة مباركة لأن جلالكم قد أوليتموه ساهى رعايتكم ، وأسبغتم عليه نعماء تلو نعماء .

وكتاب جلالكم الموجه إلى جماعة كبار العلماء يتعنى فيه واضحا جليا مبلغ الرعاية والعناية التي تحوّلون بها الأزهر ورجاله .

وإن أمركم الكريم بفرش الأزهر بالسجاد الفاخر ، لهو مكرمة سائفة تحفز علماء الأزهر وطلابه إلى السير قدما إلى الإمام .

يا صاحب الجلالة :

إن الأزهر ذا التاريخ المجيد هو مفخرة مصر بل الشرق كله ، وهو المعقل المنيع للعلم والدين ولغة القرآن الكريم ، والمناطة الرحبة لطلاب العلم من الأمم الإسلامية ، يقدون إليه من أقطار شاسعة ، وبلاد بعيدة ، فإذا ما أوليتموه رعايتكم وأحطتموه بعنايتكم فأعما ذلك رفع لكلمة الدين ، وإعلاء لبنائه ، ورفع لمكانة مصر بين الأمم والشعوب .

وإن جماعة كبار العلماء حين ينتهون إلى الله تعالى أن يثبت بيده عرشكم ، ويكلاً برعايته ذاتكم ، ليرجمون عما تكنه مصر والعالم الإسلامي من المحبة الصادقة ، والولاء الدائم ، والاحلاس العظيم ، والشكر العاطر ، على ما أسديتم إلى الأزهر من نعم وأياد بضاء .

لأزتم بامولانا مؤثلا حصينا للدين ، رافعا أعلامه ، مؤيدا سلطانه ، مثبتا دعائمه وأركانه ، ولا زالت أياديكم الغراء ترى على الأزهر ، حتى يبلغ في ظل ملككم السعيد غاية ما ترى إليه عناية جلالكم ، الموجهة دائما إلى خير الوطن ، وإعزاز كلمة الدين ما

١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦ شيخ الجامع الأزهر
٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٧ ورئيس جماعة كبار العلماء

محمد مصطفى المراغي

ولما انتهى فصيلته من تلاوتها رفعها إلى جلالته الملك ، فتفضل جلالته بتناولها قائلا : « إنى أشكركم كثيرا ، وأرجو من حضراتكم أن تدعوا الله لي كثيرا ليوفقني بهدايته إلى ما فيه الخير لنا جميعا » .

فقال حضرات العلماء : « الله يوفق جلالكم إلى نصر الحق وإعلاء كلمة الله » !

ثم تفضل جلالتة وصالحهم جميعا ، فانصرفوا وهم يلحسون بالدعاء لجلالته .

في الحضرة الملكية :

بعد أن انتهت هذه المقابلة الملكية تكرم حضرة صاحب الجلالة الملك واستبقى حضرة صاحب الفصيحة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى نحو نصف ساعة في حضرته العلية ، مظهرا له من العطف السامى ما الأستاذ الأكبر جدير به .

حفظ الله جلالة الفاروق ذخرا للعلم والدين ، وأهد شوكتته ، ورفع أعلامه ، وشيّد به دولة الحق والعدل ، إنه مميّع عجيب !!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حصة الازهر من الاحتفال بجلالة الملك

لبلوغه سن الرشد

في يوم الخميس ٢١ جمادى الاولى سنة ١٣٥٦ احتفلت الامة المصرية وعلى رأسها الحكومة والبرلمان ببلوغ حضرة صاحب الجلالة فاروق الاول سن الرشد ، فقصد جلالته في موكب حافل الى دار البرلمان حيث كان ينتظر مقدمه الكريم صاحب المقام الرفيع وأصحاب الفضيلة والمآلى والسعادة رئيس الحكومة والاستاذ الاكبر والوزراء والمفتى ووكيل الازهر ورئيس المحكمة الشرعية وأركان الحكومة ، فتفضل جلالة الملك وأدى اليمين الدستورية ، فارتفعت الاصوات ضارعة الى الله أن يحفظ ذاته الكريمة ، وأن يمنعه بصحة كاملة ، وحياة طويلة ، ليؤدي حق الشعب العظيم الذى اصطلح به ، وينتم صرح مجد مصر الذى بدأ فى إقامته أسلافه العظام . ثم شيع بمثل ما استقبل به من الاجلال والاحترام .

وفى مساء ذلك اليوم دعا حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى العلماء والطلاب لتأدية صلاة العشاء بالجامع الازهر ، فلبوا الدعوة محفوزين بما يكونون لحضرة صاحب الجلالة الفاروق من الحب الصميم ، والاخلاص الصحيح ، فأم فضيلة الاستاذ الامام المصلين ، وبعد أن تمت الصلاة سعد المنبر فارتجل خطابة بليغة ذكر فيها صاحب الجلالة بما يعرفه فيه من الخلال الجليلة ، والغصائل الجلية ، والميول النبيلة ، وأعرب عما يحالغ قلبه من التفاؤل بولايته الرشيدة ، وحكمه السعيد .

ثم تلاه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد الابان ، شيخ كلية أصول الدين ، فألقى كلمة قيمة سرد فيها من مناقب صاحب الجلالة ما وسعه المقام . ثم نهض فضيلة الاستاذ الامام وطلب الى هذا الخضم الزاخر من رجال الدين وأقطاب علومه ونجباء طلابه من جميع الآفاق أن يدعو كل منهم لجلالته بما يعلمه عليه شعوره نحو المليك المحبوب ، فضح المسعد بالدعاء والتأمين ، وانصرف رجال الازهر وكلهم ألسنة شكر وتقدير لفضيلة الاستاذ الامام على ماوفق اليه من سن هذه السنة الحسنة التى تتمثل فيها روح الازهر ، وتتميز مكانته من كيان هذه الامة ، ولا ينخيل العقل لبلوغ هذا العرش الشريف عملاً أبلى ولا أولى برجال الدين والعلم من هذا العمل .

كبر العلماء على المأثرة الملكية
كلمة فضيلة الاستاذ الامام بين يدي جلالة الملك
هدية رجال الدين الى جلالته

في يوم الجمعة التالي ليوم بلوغ سن الرشد، وعقب الصلاة بمسجد الرفاعي، قصد حضرات أصحاب الفضيلة الاستاذ الاكرم ومفتي الديار المصرية وشيوخ المساجد الدينية ومفتشيها، ورئيس المحكمة الشرعية، قصر عابدين لتناول الطعام على المائدة الملكية، وكان قد دعي اليها حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى الحاس باشا رئيس الوزراء وصاحب المعالي وزير الاوقاف وكثير من رجال القصر. وبعد تناول الطعام انتقل جلالته ومعه رفعة رئيس الوزراء وفضيلة الاستاذ الاكبر ومعالي وزير الاوقاف الى حجرة أخرى.

ولقد تناول القهوة دخل جلالته الملك الى قاعة الاستقبال، ودعى حضرات أصحاب الفضيلة العلماء لمثول بين يديه، فساروا يتقدمهم فضيلة الاستاذ الاكبر فالتفوا جلالته واقفا والى يساره رفعة الحاس باشا ومعالي وزير الاوقاف ورجال القصر، فتقدم فضيلة الاستاذ الامام وألقى بين يدي جلالته الملك كلمة جمعت على إنجازها من أصول ولاية الأمر في الاسلام، وحقوق الرعية على راعيها، ما يجب على قيم الدين أن يجهر به، وهذا تجديده وفق الله اليه الاستاذ الامام تنويرها بمكان الدين من مقومات الملك، وقد ابتكر لهذا التنوير أسلوباً يلائم كل الأدواق، ويتفق وجميع التقاليد الدستورية.

وهذه هي الكلمة :

مولاي صاحب الجلالة :

اختار الله جات حكمته سيدنا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم مبلغاً وحيه، مبيناً كتابه، موضحاً هديه، وأتم الله بدينه النعمة : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام ديناً ». وفي الحديث الصحيح : « إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها ».

ولقد رأى علماء الازهر نذكراً لمناسبة اضطلاع جلالته بأعباء ملككم السعيد، أن يتقدموا اليكم بهدية ليست من صنع البشر، ولا مما يقدر عليه البشر، بل هي من عند الله سبحانه، وأن تكون مذكراً بما لله صاحب السلطان عليكم من حقوق. لذلك قررنا أن تكون الهدية التذكارية كتاب الله سبحانه، وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم من حديث.

مولاي :

إني وأنا أقدم الى جلالته بهذه الهدية أذكركم بحقوق الله سبحانه وتعالى، وبحقوق عباده :

قله حق الطاعة فيما أمر ونهى ، وحق العمل بما بين وهدى ، والرعية حق العدل بينها ، وتوقير الخير لها وإسماعها . وفي الحديث الصحيح : « من ولاء الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره » . ومن حقوق الله يامولاي حمل الرعية على الاعتصام بالكتاب والسنة ، وإرشادها الى الاصلح النافعة الموصلة الى عزة الامة ورقة قدرها بين الامة ، فقد حرص الاسلام أشد الحرص على العزة ، ولا يوجد في تعاليمه ما هو أشد من هذه التعاليم ، ولا يوجد في غيره من المذاهب ما يقرب منه في الحرص على هذه التعاليم .

أسأل الله أن ينول هديك ووعابتك وعونك ونصرك ، وأن يديم لك حب العباد ، ويلاً قلبك بحب الله وحب رسوله ، إنه نعم السميع المجيب ! بعد أن أتم فضيلة الاستاذ الاكبر إلقاء هذه الكلمة الجليلة قدم الى جلالته مصحفا شريفا وكتاب صحاح الاحاديث للشيباني .

فشكر جلالته الاستاذ الاكبر والعلماء ، وأعجب بالهدية أيما إعجاب ، قائلا : إن هذه هدية يحرص عليها

فدعا حضرات العلماء بجلالته بالنصر والتأييد ، وانصرفوا شاكرين تعطفاته السنية ، ومراعاه المسكينة .

وقد احتفت جمعية الرابطة العربية ببلوغ جلالة الملك سن الرشد ، فنهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام وألقى هذه الكلمة القيّمة :

إن جلالة مولانا الملك فاروق الاول لم يعرفه الشعب من قبل ، غير أن حبه يملك على الناس جميعا قلوبهم . ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا أحب إنسانا أحبه أهله وأحبته الملائكة وأحبه أهل الارض جميعهم .

ولقد أحب الله جلالة الملك فاروق فأحبه الشعب جميعه .

هذا الى أن أخبار جلالة الملك ترامت الى الناس ، فعلموا أنه ملك طاهر القلب ، محب للدين محب للانسانية ، محب للحق والعدل ، يواسي البؤساء والضعفاء والمساكين ، وأنه يعمل هذا دون تكلف . كل ذلك جعلهم يزدادون تعلقا وحبا فيه .

ولقد كان لي شرف الاتصال بجلالته فلدركت عن قرب كل تلك الخصال ، ويحق لي أن أشهد بها أمامكم وأمام الناس .

إن جلالة الملك فاروق ذكي ذكاه فطريا لا يوجد إلا عند أفراد قليلين ، وقد وهب له الله سرعة الخاطر ، والوصول الى الصواب ، ودقة التعليم والعدل .

أسأل الله تعالى أن تستفيد الانسانية بمواهبه وقدرته وفطرته التي فطره الله عليها !

صاحب الجلالة الملك

فاروق الاول

في يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر جمادى الاولى لسنة (١٣٥٩) (١) احتفلت الأمة المصرية أعظم احتفال وأنفعه ببلوغ حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الاول » سن الرشد ، ثمانية عشر عاماً هجرياً . فلم يبق في هذه البلاد رجل ولا امرأة ، من جميع الأسنان في مدنها وقسراها ، وفي حصنها وبدوها ، إلا هلل وكبر إعظاماً لهذا اليوم المبارك الخالد في تاريخ مصر ، استبشاراً بمقدمه ، وتفاؤلاً منهم جميعاً بأن هذا القرع الباسق من الدوحة العلوية الكريمة سيكون مفتتح العهد الذهبي المنتظر لهذه الأمة ، كما كان جده الأعلى من قبل موجود استقلالها ونهضتها ، وباعت حياتها ومدنيتها .

ليست هذه الأمة بمبالغة في تفاؤلها بملكها الشاب ، فإنها مدينة بكيانها الاجتماعي الموحد وبالموامل التي تتصافر على إبلاغها غاية أمانتها ، للبيت العلوي الكريم ، ولقد رأت رأي العين ، رحماً عن الحوادث التي انتابها ، والمطامع التي احتوشتها ، في أدوار مختلفة ، محافظة القائمين من آحاد هذا البيت على حقوقها ، وذيادهم عن حوزتها ، واستبسالهم في المسكلة عن كرامتها . فكم رأت من حادثة اكفر لها الجو ، وافتكت عواصفه الهوج من عقابها ، وزجمرت رعود سحبه لصواعقها ، وثار زواجره تجتاح كل قائم في طريقها ، كانت نجاتها منها في الياذ برشها ، والالئاف حول الجالس عليه ، فكيف لا يقر في نفسها ، وينتشر في صميم قلبها ، أنها وهذا العرش وحده لا يتقسم عراها ، وكل لا يقلل التحرؤ ولا الانحلال ؟

أجل : إن لهذا البيت على مصر فضلاً لا يمكن أن تنساه ما بقي لها عرق ينبض ، ونفس يتردد . فقد كانت مسرحاً لأوزاع من الأفاقين ، توزعوا وواجهوا ، واستعبدوا أهاليها ، وسخروهم لمطامعهم بوجهونهم كما يشاءون ، توجيه الممالك لعبادة ، بل أسوأ مثلاً ، فإن صاحب السندان يتكفل بصرورياتهم ، ويعنى بمخاضاتهم ، ويعمل على إنعاشهم ، ولكن هؤلاء كانوا يجتاحون ثمراتهم فلا يدعون لهم ما يتباخون به ، ويهملون شأنهم فيبيد منهم من يبيد ، ويهاجر من يهاجر ، ويهيم على وجهه من يهيم ، وأخذ عدد يقل عاماً بعد عام ، حتى كادت تقفر البلاد منهم ، وما هي تلك البلاد ؟ هي مصر التي يجري فيها أجل أنهر العالم بركة ، وكانت تؤوى أكثر أمم الأرض عدداً ، وأحفلها نروة ، وأبدعها مدنية .

ولولا أن شاء الحق عز سلطانه أن تبقى هذه الأمة بمنتهى لأقدم أمم الأرض حضارة ،
لمد في عهد تلك القرازم جيلا أو جيلين ، فتصبح بيابا بلقما لا تنجد فيها حيا ، ولا تسمع له زكرا .
فلما أدركها سبحاته بالخلعة الفرنسية «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» ، واقتضت
هذه الخلعة وجود العاهل العبقري مؤسس الأسرة العلوية على رأس كتيبة من الجيش التركي
التي حضر لا تقاذ البلاد من الاحتلال الفرنسي ، كبر على هذا المجاهد الباسل أن يدع مصر
العريقة المجدة ، لماعلى وضم ، بين أيدي مناسم من المفاسرين يذابون على امتصاص دمها ، فعمل
على الحصول على ولايتها . وهذا طريق ملتوي يعتبر نجاحه فيه إحدى الكبر ، ومن أعجب حوادث
القدر . ولما تم له ذلك مذل وسعه لتخليصها من يرثي أولئك الضواري ، وتهيأت له الأسباب
فأبادم ، خلعت مصر من شرم كما يخلص الجسد من جراثيم مرض عضال لا يعقل شفاؤه منه ،
ولكنها كانت من الصعف والهزال بحيث لا تستطيع أن تملك أعضاؤها ، فتولاها مؤسس
هذا البيت بالملاج ، وما زال بها حتى استطاعت النهوض والحركة ، وإذ ذاك دأب على إينائها
بشكل ما تقتضيه حياتها كأمة ، وقسم نواحيها إلى أقاليم ، وحمل على كل منها حاكما من رجاله ،
ووزع أراضيها على أهلها ، وكل مقدر ما يستطيع أن يقوم بخدمته ، ووضع نظاما لحياة المراتب
تجبي باسم الحكومة الرئيسية ، لا باسم أصحاب الالتزامات كما كان جاريا عليه العمل ، وكان مشارا
لشكل ضروب الخط ، ونظم لها شرطه لحفظ الأمن بين أهلها ، ومهد لها سبل التعلم بفتح المدارس ،
وجعل لها جيشا مدربا على النظام الحديث ، وأسس المصانع لإنتاج الملابس والأسلحة والذخائر ،
وافتح مدرسة حربية لاسعافه بالضباط . ثم التفت للأموال المدنية فاستكثر من معاهد العلم ،
ومن المصانع لإنتاج الأمة بمحاحاتها من الضروريات المعيشية ، ولم يدع شيئا مما تحتاج إليه الأمم
في تطورها إلا أنماها به ، وزاد على هذا كله فأرسل شبانا من متعلميها إلى أوروبا ليدرسوا
ضروب المعارف في جامعاتها ، وينقلوها إلى أمتها . فلم تلبث هذه الجهود المبذولة أن أثمرت
ثمراتها ، فولدت الأمة المصرية ولادة جديدة ، وتيقظت جميع غرائزها في حب البقاء ، وتطلب
الارتقاء . وكان هوى أثناء هذه الأعمال يهدف في الحصول على استقلالها حتى حصل عليه مقبدا ،
ولولا التنافس السياسي الدولي لحصل عليه مطلقا .

فكيف تنسى مصر لهذا البيت ما أداها من هذه الخدم الجليلة ، وكيف لا تخلص لمباهله
الاخلاص كله وهي مدينة له بأعاشها من كيوتهن أولا ، ثم بابتنائها مما تحتاج إليه من ضروريات
الحياة الاجتماعية والسياسية ثانيا ، ولا يزال يولها الرعاية بأقصى ما يبلغه الامكان ، وتصل
إليه العزيمة الصادقة ؟

لا يوجد في جميع عوامل النهوض والتطور ما هو أفعل في الأمم من توافق وجهتي النظر
بينها وبين بيوتها المالكة ، وما لجأت بمض الأمم إلى الجمهورية إلا تطلبا لتحقيق هذا التوافق

بين الشعب والهيئة الممثلة له ، والجمهورية كما لا يخفى عيوب جمة ، وطريق للوصول إليها ومرة . فاذا وجد هذا التوافق بين هوى الأمة وهوى بينها الممالك ، بز هذا الشكل من الحكم الشكل الجمهوري ، وخلص من عيوبه ومن صعوبة الوصول اليه . وأكل مثل تقدمه للقراء المملكة الانجليزية ، فان الاتفاق فيها بين ميول الشعب وميول العرش تام من كل وجه ، لذلك كانت حكومتها أكل الحكومات من كل وجه .

فهذا التوافق في الميول بين الأمة والعرش كان حاصل في جميع أحوال تاريخ مصر الحديث ، وسيكون على أكل وجوهه في عهد صاحب الجلالة الفاروق ، فقد ظهرت بوادر ذلك جلية واضحة فيما أبداه الشعب من الاستبشار بولايته ، وما صدر مما يحققه من جلالة .

لقد عرفت الأمة المصرية مليكها طفلا وياقعا ، بما كان ينقل لها من أخباره ، ثم خبرته شابا ، فأنست منه كل ما تحب أن يتحل به مثلها من سمات الرجولة ومظاهر الأدب النفسى ، وصفات النضج العقلى ، والكمال الخلقى ، فكان من أطفاف القدر أن ينولها وهى فى هذا الدور من الانتقال الاجتماعى والدولى ، الذى تحتاج فيه الى مثل أعلى تحتذى شاكلته فى نهوضها القومى ، وتطورها السياسى .

قد حصلت الأمة المصرية بعد كفاح شاق متواصل دام أكثر من نصف قرن على استقلالها الكامل ، وهى فى هذا الدور أخرج ما تكون الى شبيبة قوية الأخلاق ، ناضجة العقل ، سليمة من أدواء النفس ، يقوم على أكتافها صرح الحرية المرجوة ، والأصلاح المنشود ، وهذه صفات لا تنوافر فى الأفراد إلا بالقسوة الطيبة والأسوة الصالحة ، وهى لا تكون إلا من شخصية بارزة ، وقسمية متميزة . فيسر الله هذه القدوة الضرورية لها فى شخص مليكها المقدى ، فكان وجوده بين ظهرانيها فى هذه الآونة من منتهات تطورها الى المكانة التى تطمح اليها بين الجماعات البشرية ، ومن مكمالات العوامل التى لا بد منها لإحسان القيام بمهمتها الاجتماعية .

فاذا كانت الأمة المصرية تقيم المهرجانات احتفالا بولايته أمورها ، فهى مسوقة الى ذلك بعاملين : عامل الواجب الرسمى ، وعامل القبلة الصادقة ، بمن يجمع فى شخصه الكريم المثل العليا التى هى فى أشد حالات الحاجة اليها فى هذا الدور الدقيق الذى تدعى للدخول فيه ، دور العمل لتحقيق الاستقلال فى جميع ضروبه .

فأله أسأل أن يمد جلالة الملك بروح من عنده ، وأن يحوطه فى الاضطلاع بمهامه بسطة من أيده ، وأن يطيل فى مدى حكمه ، حتى تنعم الأمة فى بحبوحة يمنه .

فانيهى الفاروق ملك لا يبل ، وليهينى الأمة مثلها الأعلى !

محمد فرير وجبى

التفسير

سورة لقمان

- ٦ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَلَّةً أُمًّا وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

بيننا في الكلمة السابقة أنه جل شأنه أودع الآيات الدالة على عظيم قدرته وبالع حكمة ، المنبئة لنفردة بالخلق ووحدانيته ، بقوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » . وفي ذلك إشارة إلى أن النفوس متى صمما جوهرها وانجبت إلى تعرف الحقيقة وإدراك الأمور على ما هي عليه ، وأذعن بالعبودية إلى بارئها ومكونها فطر السموات والأرض ، اهتدت إلى أن شكره على ما جبا من النعم هو أول ما ينبغي أن يشغل المعبده ، وأن يصرف كل همه نحوه ، وأن الفكر يتضمن أن يصرف كل نعمة أنعم بها عليه فيما خلقت لأجله ، ليحفظ ما وجد منها ، ويستزيد من النعم ما استعد له ولم يصل إليه .

ولعلك إذا تأملت معنى الحكمة ومعنى الشكر وجدت بينهما من الترابط والاتصال ما يجعلك توفن بأن كل تصرف حكيم في العلم والقول والعمل هو باب من أبواب الشكر ، وأن صرف النعمة فيما خلقت لأجله هو التصرف الحكيم ، فيكاد المرء يجزم بأن كل حكمة في العلم والقول والعمل شكر ، وكل شكر فهو تصرف حكيم ، فلا جرم جاء قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » بالشكر والحكمة مترادفين ، بينهما « أن » التفسيرية .

واعرض ما شئت من أنواع الحكمة في العلم والقول والعمل فانك تجده شكرا . واعرض ما شئت من أنواع شكر المنعم جل شأنه على نعمائه فانك تجده نصرا حكيما .

ففي باب المعرفة إذا نظرت الى استعمال الحواس في تمييز الأشياء وتعرف أحوالها وأحكامها وطرق الاستفادة من نافعها واحتساب الضرر من ضارها ، ألتستجدها نصرا حكيما في باب الحواس ، وهو في الوقت نفسه شكر للمنعم بها ، إذ كان في ذلك استعمالها فيما خلقت لأجله ؟ وفي باب العلم إذا التفت الى التفكير في المعلومات التي حصلتها النفس للوصول الى العقائد الالهية أو النبوية أو استنباط الأحكام الشرعية أو المنافع الدنيوية ، هل ترى ذلك إلا استعمالا للمواهب العقلية فيما خلقت لأجله ، فهو شكر وهو تصرف حكيم ؟ وفي باب الأعمال أعمال الجوارح تجد الأمر جديدا .

وفي باب المعاملات تجده أوضح من أن يحتاج إلا الى لفظة بسيطة تكون بركة من الأغراض والآهواء .

وكذلك الأخلاق الفاضلة التي ترجع في مجموعها الى ضبط القوى النفسية وإجرائها على ميزان الحكمة والاعتدال ، فلا يعطل قوة غضبه وشهوته ، ولا يدرف فيهما فيجاوز حد الاعتدال ، بل يكون بين ذلك قواما . فهذا هو تصرف النعم التي وهبها الله الخيرة وربها في جبابته فيما خلقت له ، وذلك هو الشكر ، وذلك هو الحكمة .

وانظر إن شئت الى ما ذكره علماء الأخلاق من إرجاع متفرقات الى ضبط قوة الشهوة وقوة الغضب وقوة الفكر ، وجعلها بحيث لا تمنطل ولا تسرف ، حتى يحى منها العفة والشجاعة والحكمة ، وينتظم من مجموعها القوة التي يسمونها العدالة ، فانك تجد مصداق ما قلناه لك من توافق الحكمة والشكر حتى كأنهما من معدن واحد ، ويسيران الى غاية واحدة . وإن من درس باب الشكر على وجه الاستيفاء تبين له أن الشكر مجمع الشريعة الفراء ، وأن القيام به على الوجه الأكمل هو التوفيق حقا ، وإن كان استيفاؤه على الوجه الأكمل لا يكاد ينهض به إلا الأصفياء المخلصون الذين صدقوا الله ما عاهدوا عليه ، وقد قال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » .

ترى من هذا أن من أبواب شكر المنعم على نعمائه ما كان من لقمان مع ابنه في وصيته ، وذلك ما قصه علينا عز من قائل في قوله : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » فان نعمة الولد من أجل النعم ، وما غرسه الله في قلب الوالد من المحو على الأولاد من أجل النعم كذلك ، إذ يرتبط به مهارية الكون وبقاء العمران في العالم ، بما يتعمله الآباء عن طيب خاطر في تربية الأبناء وتنشئتهم على الوجه الصالح . فهاتان النعمتان

يمكن أن يحيد صاحبهما بهما عن وجه الحكمة ، فيتخذ الولد للبهاة والاثمات بالأعداء ، ويريه على الشر والعتك والحرام والحرأة ليعتبه وينصر ، وفي سبيل ذلك يحى قلبه من كل ما يؤثر فيه التأثير الصالح ، من مراقبة خالقه وخشية جبروته وارتقاب ثوبته ونحو ذلك ، كما يمكن أن يتخذ زينة ومباهاة ، فيدله ، وينشئه في الخلية مترفا مرفها ، يتنعم بالحلى والحلل ، وينغمس في ملاذ المطعم والمشرّب ، فلا يكون له هم إلا في بطنه وزينته . وكل من هذين المسلكين باعته الرأفة الوالدية والحنو الأبوى ، وما كانت الرأفة والحنو مودعين في قلوب الآباء نحو الأبناء للوصول الى هذه الغاية المقنونة ، غاية الاجرام والدعارة ، غاية المجرور والفسوق ، وإنما أودعت الرأفة والحنو في قلوب الآباء نحو الأبناء ليشعشعوا على الطريق السوى والصراط المستقيم ، وأول ذلك إشعار قلب الطفل لأول تمييزه أن الخالق لا يكون برمته علوه وسفليه صغيره وكبيره ، عظيمه وحقيقه ، جليله وتافهه ، هو الله رب العالمين وحده لا شريك له ، فإذا ظهرت آثار قدرته عن طريق شيء من خلقه فذلك كمال في نظام ملكوته لا دخل له في الخلق والنسكين ، وإنما الخالق والمهيمن والمنصرف في كل شيء هو الله رب العالمين ، فهو المفرد باستحقاق العبادة والتعظيم والتقديس والتبجيل ، ومن عبادته وتمظيمه ومن تقديسه وتبجيله اتباع النظام الذي سنه في خلقه ، وهدانا اليه بمطرتنا أو بتأملنا أو على ألسنة رسله . فلتسبح ماس لنا من نظام من غير أن نخل بأنه هو الواحد الاحد ، الفرد الصمد ، لا شريك له في الملك ، ولا معارض لما شاء ، ولا راد لما اراد .

وإن من امتلاء قلبه من أول نشأته بتوحيد خالقه ، ورد كل أمر إليه ، واعتقاد أنه المنفرد بالابجاد ، كانت تصرفاته كلها منصرفة الى ابتغاء مرضاته والتمسك الرئى إليه . وإذا كان من وسائل رضاه وطريق القرب منه أن يصرف نعمه التي أنعم بها عليه فيها خلقت من أجله ، فإنه سيكون مناسقا الى الشكر وصرف نعمه فيها من أجله وهبت له ، فما أشد التصاق الفكر بالاتباه عن الشرك ، وما أجدر قلبا تظهر من الشرك الظاهر والخبى وشهد أن كل ما في الكون من تدبير الحكيم الخبير ، وأنه تعالى هو المهيمن على هذا العالم المطلق على كل ما يجري فيه ، وأنه هو واضع هذا النظام الذي نشهده ، وأنه كلنا أن تسع أحكامه ونسير على سننه ، ليجرى فينا وفق أحكامه ما جملة سنة لا تبدل ، أقول : ما أجدر قلبا شهد كل هذا وعقله عقلا صحيحا أن يسكون قلبا شكورا !

قال الله تعالى : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بأحد » :

يكثّر في أسلوب القرآن الكريم حين ذكر حالة يراد ترفها وتأملها أن تصدر هذه الحالة بكلمة « إذ » الدالة على الوقت . وكأنه يشار بها الى استحضار ذلك الوقت برمته ليكون تذكّر الوقت وسيلة الى تذكّر ما احتوى عليه ، كأنه يقال : استحضر هذا الوقت لتشهد ما حصل فيه شهودا كاملا .

وقول لقمان لابنه ما ذكر جدير بأن يعنى باستحضاره ، فقد ذكر عنه أنه آتاه الله الحكمة وهي جامعة لقضائل حجة كما شرحنا تفصيلها آتفا . وهو في نظر الجمهور لم يكن نبيا ، فيكون في ذلك إشارة الى أن العقل حين يظهر من رجب الأغراض والآهواء ويكون مستدلا حكما ، يكون ذلك كافيا له في سلوك الطريق الجادة . وهذا في إمكان كل امرئ ، يحل نفسه من دون الزمات الفاسدة . وكون الكلام موجها الى ابنه عنوان على إخلاص النصيح وإعاض الارشاد ، فليس لدى المرء أعز من ابنه يحض له النصيح ويخلص له الارشاد .

وقوله بعد ذلك « يا بني » بصيغة التصغير ، لينعني فيه الحنو الأكمل ، فان الرحمة في حال صغر الابن أوفر منها بعد اكتماله . على أن في صيغة التصغير معنى التلطف والتقريب ، وليس بالزام أن تكون الصيغة لبيان صغر السن أو تحقير المصغر .

أما قوله : « وهو يعظه » جملة حالية تعود على أصل الموضوع بمزيد التقرير ، فان سياق الكلام في مساق الوعظ دليل على عظم العناية بشأته ، فن شأن الواعظ أن يبالغ في اختيار أفضل الأخلاق للموعوظ ، ويتخير لها أجل الأساليب وأوقعها في نفسه . والوعظ : زجر عن الشر مع تخويف ، أو سوق الى الخير على وجه يتضمن ترفيق القلب .

وقوله : « لا تشرك بالله » بدء باسم ما يوصى به على ما سبق من أن تطهير القلب من الشرك الظاهر والخبى أصل كل فلاح ، وأن الاستيقان بأن الله هو المنفرد بكل إيجاد ، وأن بيده مقاليد كل شيء ، هو أكبر البواعث على ضبط النفس ومحاسبتها وتهذيبها

وقوله : « إن الشرك لظلم عظيم » :

أما أنه ظلم فلانه سلب إساد النعمة عن صاحبها وإعطاؤها لمن لا يد له فيها . وأما أنه عظيم فلأن من أعطيت له لا يجوز في العقل مطلقا أن يكون صاحبها ومن سلبها عنه يوانى إغداق النعم عليه بالتوالي حتى في حال كفره بها ، ثم هو مطلع عليه يعلم خائنة عينه وما يخفى صدره ، والكافر بنعمته تعالى هو ومن أعطاه استحقاقها الجميع في قبضة قدرته جل شأنه ، والكل صنعه وخلقه ، فأي ظلم هو أعظم من هذا ؟ قد تسلب الشيء من مالكه فتعطيه لغيره فيجوز العقل أنه ربما كان هذا الشيء كان الأول قد اغتصبه من الثاني فرددته اليه ، أو ربما يؤول اليه بنوع ما من أنواع التصرف ، فيخفف ذلك من معنى الظلم فيه ، أما وصف الالهية والخلق والنسكين فلا يجوز بحال من الأحوال أن يسند إلا الى الله التكبير المتعال .

واعلم أن قول لقمان لابنه « لا تشرك » لا يقتضى أن يكون ابنه مشركا ، ولا أن يكون مسلما ، فيحتمل أن يكون مشركا ويطلب اليه الافلاح عن شركه ، كما يجوز أن يكون مسلما ويطلب اليه ألا يزائل الاسلام وألا يمرض نفسه بشرك ، وتزغات الشيطان تعتري كل إنسان إلا من عصمه الله .

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » :

بين جل شأنه في الآية السابقة مظهر الجود والرأفة وحسن التاديب الذي يلقاه الأبناء من الآباء ، وقص علينا ذلك في مرض امتداحه والثناء على لقمان الذي أخبره تعالى بأنه آتاه الحكمة . وفي هذه الآية الكريمة يبين لنا ما للآباء على الأبناء من حق الرحمة والحنو والتكريم . وقد جمع ما ينبغي لهما في قوله عز وجل : « ووصينا الانسان بوالديه » فإن هذا التعبير مادة يجمع كل صنوف الخير والتكريم . وانظر الى ما يجري على ألسنة الناس في مخاطبتهم العادية إذ يقولون « أوص فلانا بـ » « وصه على » « أنا وصيت فلانا بك خيرا » وأمثال ذلك ، فهي من الكلمات الجامعة لمعان جمة . وأيضا لما ذكر النهي عن الشرك وهو يدعو الى إفراده عز وجل بكل أنواع التعظيم والتبجيل ، بين لنا عز وجل أن إفراده بالعبادة لا يمنع أن يكون لبعض الخلائق على بعض حقوق مكتسبة بسبب ما أجرى الله نعمته على العبد من طريقهم ، ومن هذا النوع الوالدان ، فقد جعلهما الحق جل جلاله طريق مظهر نعمة الإيجاد بما حملاه ووضعاه وغذياه تغذية كانت سببا في بقاءه ، فهما مستحقان لتكريمه ، وأن يعاملهما بالاحسان ، وإن تفاوتت حقوقهما ، فإن الأم قد قامت فيه مالم يقاس الأب ، كما أشار اليه بقية الآية في قوله تعالى « حملته أمه وهنا على وهن » .

وقد يوضح الفرق بينهما ما يحكى عن أبي الأسود الدؤلي أنه اخنضم هو وزوجه في ابن لهما فترافعا الى قاض ، فالتت الأم : هذا ابني حملته ووضعته وغذوته ويريد هذا أن يتنصره مني ، فالتفت القاضى الى أبي الأسود ينتظر جوابه ، فقال : حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وغذوته أكثر مما غذته . فالتفت القاضى الى الأم فقالت : حمله خفة وحملته ثقل ، ووضعته شهوة ووضعته كرها ، وغذاه من ماله وغذوته من دمي . فالتفت اليه القاضى وقال : سلمها ابنها ودعنا من ترهاتك . ولعل الولد كان في سن الحضنة حتى يقضى به لأمه .

والظاهر أن الآية ليست من كلام لقمان ، وإنما هي معترضة بين وصايا استطردها لبيان ما للآباء على الأبناء ، بمد ما بين ما يوجهه الآباء للأبناء من النصح والارشاد . وقوله : « وهنا على وهن » حال من أمه ، أي ذات وهن على وهن ، وذلك وهن الخل على وهن أعصابها بطريق العطرة ، أو هو وهنها المترادف بتقدم الخل ، فإن ضعف الحامل يزداد كلما تقدمت في حملها .

وقوله : « وفصالة في حامين » أي فطامه وفصله عنها وعن مشاركتها في غذائها وامتصاص لبنها الذي هو في الأصل دما ينميا ويزيد في قوتها ، وفيه مع بيان مدة الرضاع شرطا وأنها طامان مزيد تقرير لحقها عليه . ولقد فصل التوصية التي بدأها بقوله : « أن اشكرنى ولوالديك الى المصير » . ودخول الأمر بشكره تعالى في تفسير وصيته بوالديه ، لأن الشكر لهما لا يعتد به شرطا وينال صاحبه أجره من الله عز وجل إلا إذا كان معه شكر الخالق جل وعلا . وأيضا فإنه إذا افترن

الشكران في قلبه كان ذلك أدوم لشكره لهما ، وأعوز على أن يكون شكرا حقيقيا حالصا في الظاهر والباطن ، فانه يعامل من لا تخفى عليه خافية . وقوله « الى المصير » تذييل يعود على الاصل بالمتكئين والتقوية ، فانه اذا حمل ابتغاء من مصيره اليه ، وسماوته وشقاوته لا يكونان الا من لديه ، فان عمله سيقترن بالاخلاص والاقبال عليه .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يقربنا اليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل !

ابراهيم الجبال
عضو جماعة كبار العلماء

التماس الرزق بالعمل

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المائد على أهله وولده كالجهاد المرابط في سبيل الله » . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، وتلا قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

وقال أيضا رضي الله عنه لحفظة القرآن : يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس .

وقال أكنتم بن صبي : من ضيع زاده اتمكل على زاد غيره .

وذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل بالاجتهاد في العبادة والفوة على العمل ، وقالوا صعبناه في سفر فآرأينا بمدك يا رسول الله أعبد منه : كان لا يفتل من صلاة ولا يفطر من صيام . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فمن يحونه ويقوم به ؟ قالوا كلا . قال رسول الله : كلكم أعبد منه .

وقال طاهر بن عبد العزيز : أخبرنا علي بن عبد العزيز قال أنشدنا أبو عبيد القاسم بن سلام :

لا ينقص الكامل من كماله ما ساق من خير الى عياله

وتكلم صاحب العقد عن الرزق فقال : أهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز ، وأهل المجز والكسل يطلبونه بأفحج وجوهه من السؤال والاتكال والخلابة والاحتيال .

الشيعة

اشتراط الولي في عقد الزواج

عن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ وَلَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا » رواه ابن ماجه والدارقطنى ورجاله ثقات .

هذا الحديث يقتضى ظاهره أنه لا يصح للمرأة أن تباشر عقد زواج امرأة غيرها ، كما لا يصح أن تباشر عقد زواج نفسها ، بل لا بد في صحة عقد الزواج من رجل يتولاه ، وهو المراد بالولي في عقد الزواج .

ويتعلق بشرح هذا أمور :

(١) بيان معنى الولي الذى يتوقف عليه عقد الزواج (٢) بيان القائلين باشتراطه والقائلين بعدم اشتراطه (٣) بيان اختصاص الولي (٤) بيان وجه دلالة هذا الحديث وما فى معناه من كتاب أو سنة (٥) بيان وجهة نظر المريقين الاجتماعية .

(١) المراد بالولي فى الزواج هو الذى يتوقف على وجوده صحة العقد ، سواء أكان أباً أم قريباً طامساً كان وأخ وأبن أخ وعم وابن عم ، وهكذا بحيث يقدم الأقرب فالأقرب . على أن الشافعية يقولون إن الابن لا ولاية له على أمه بحال . والحنفية يقولون إن له ولاية على أمه المجنونة ، ويقدمونه على الأب .

(٢) أما القائلون باشتراط الولي فهم الجمهور ، ومنهم المالكية والشافعية والحنابلة . قالوا لا يصح عقد النكاح بدون ولي ، ذكره ، حر ، عاقل ، بالغ ، مسلم إذا كانت المعقود عليها مسلمة . واشترط بعضهم أن لا يكون فاسقاً . فإذا اتنى شرط من هذه الشروط انتقلت الولاية الى الأقرب الذى يليه بدوره ، فإذا لم يكن لها أولياء ، زوجها الحاكم .

على أن المالكية زادوا فى الأولياء نوعين :

السوم الأول : الكفيل ، وهو الذى يكفل امرأة غاب عنها أهلها ومكث يربها مدة

تستوجب شفقتة كأنها بذته . فهذا الكفيل ولي لهذه المرأة لا يصح العقد عليها بدونه ، سواء أ كانت شريفة وهي عندم ذات المال أو الجال ، أم لم تكن شريفة على الراحح .

السوق الثاني : الكفيل بالولاية العامة . ومعنى هذا أنهم يقولون إن الولاية حق لجميع المسلمين ، فإذا باشرها واحد منهم بصفته فردا من المسلمين فقد قام بمحقه . ونظير ذلك فرض الكفاية إذا قام به واحد سقط عن الباقيين . فكل فرد من أفراد المسلمين على هذه القاعدة يصلح أن يكون وليا إذا توفرت فيه شروط الولي . ولكنهم قالوا إن الولاية العامة لا يصح أن تتزوج بها الشريفة وهي ذات الجال أو المال ، بل تتزوج بها من لم تكن كذلك ويعبرون عنها بالدينثة . على أن المالكية يقولون إن الترتيب بين الأولياء ليس ضروريا بل هو مندوب فقط ، فإذا كان للمرأة الدينثة أخ أو عم صح لها أن تتركهما وتتزوج بالولي الأبعد وهو الولي بالولاية العامة ، فتختار لها أي رجل أجنبي يتولى لها عقد الزواج ويكون صحيحا . وهذا معنى قولهم إن المالكية لا يشترطون الولاية في المرأة الدينثة . ولكن يجب أن يلاحظ أن هذا في غير الأب أو وصي الأب بتزويجها عند موته ، فإن وجودها لا بد منه في الشريفة والدينثة .

وحاصل ذلك أن الأئمة الثلاثة اشترطوا الولي في عقد الزواج للكبير والصغير العاقل والمجنون ، واشترطوا أن تكون الولاية المذكور لا للثلاث ، وخالفهم الحنفية فقالوا إن الولي شرط في صحة عقد الصغير والصغيرة ، أما الكبير والكبيرة فلا يشترط فيهما الولي إلا إذا كان بهما جنون مطلق ، فبالغة العاقل أن تتولى عقد زواجها بنفسها بشرط أن تتزوج الكفء المناسب لها في الشرف والدين والحرفة ، وأن يكون قادرا على مبرئتها ونفقتها . ويرى بعضهم أن يكون مساويا لها في الغنى ، فإذا تزوجت غير الكفء كان للولي الحق في الاعتراض وفسخ العقد . ثم قالوا أيضا : لا يشترط أن يكون الولي ذكرا ، بل تنقل الولاية الأنثى عند فقد الذكر العاصب ، فلام أن تزوج ابنتها الصغيرة أو المجنونة عند عدم وجود أحد من قاربها المذكور . وعلى أي حال فلا يشترط أن يتولى العقد رجل عند الحنفية .

(٣) وأما اختصاص الولي ، فهو عند الحنفية منحصر في أمرين :

الأول : تزويج الصغير والصغيرة بدون إذنهما ، ومثلهما المجنون والمجنونة ولو كبيرين . ثم إن كان الولي أيا أوجدا مشهورا بالفسق وسوء الاختيار كان لها حق فسخ النكاح عند البلوغ إذا زوج من غير كفء أو غير مهر المثل ، أما إن كان معروفا بحسن الاختيار فليس لها ذلك . وإن كان الولي غير الأب والجد فلهما حق الفسخ عند البلوغ مطلقا .

الثاني : أنه يختص بالاعتراض على الزواج إن كان غير كفء أو إجازته ، وليس للولي حق وراء ذلك .

وأما الأئمة الثلاثة فقد قسموا الولي الى قسمين : ولي مجبر ، وولي غير مجبر . وحصروا الولي

المجبر في الأب والجد ووصى الأب، أو الحاكم. على أن المالكية قصرها الولي المجبر على الأب ووصيه دون الجد، ولم يمدوا الحاكم وليا مجبرا. والشافعية قصروه على الأب والجد. والحنابلة زادوا الحاكم.

ويختص الولي المجبر بتزويج الصغير والصغيرة، وهي ما كانت دون البلوغ عندهما، ودون تسع سنين عند الحنابلة، والمجننون والمجنونة، والبكر البالغة العاقلة وهي ما لم تزل بكارتها بالجماع، فن زالت بكارتها بمرض أو حيض شديد أو قفز تعتبر بكرا، فهؤلاء يجبرهن الولي المجبر على الزواج بدون استئذان منهن أو رضا بشروط مختلفة محلها كتب الفقه. أما الولي غير المجبر فانه ماعدا هؤلاء، ويختص بمباشرة عقد الزواج بشرط إذن المرأة ورضاها، فالعقد مشترك بينهما وموقوف عليهما معا، فان لم ترض لا يصح العقد، وإن لم يرض لا يصح العقد. وقد يكون الأب وليا غير مجبر إذا كانت المرأة ثيبا، فانه لا يصح له أن يزوجهما بغير رضاها. ورعا يقال إن الولي غير المجبر قد يمتنع عن تزويج المرأة عمدا فيضربها. والجواب أنه إن امتنع كان حاضلا فترفع أمرها للحاكم، فاما أن يجبره على زواجها، وإما أن يزوجهما رغم إرادته، فان تكرر منه المنع كان فاسقا لا ولاية له عند بعضهم.

(٤) أما وجه دلالة الحديث الذي معنا على ضرورة الولي فهي ظاهرة كما أشرنا أولا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن أن تبائر المرأة عقد الزواج سواء كان عليها أو على غيرها. ومثل هذا الحديث ما رواه الزهري عن عائشة، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أبما امرأة تكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» وهذا الحديث أقوى ما استدله الجمهور من السنة على ضرورة اشتراط الولي. وقد أجاب الحنفية عن الحديث الثاني بأنه مطعون فيه، وذلك لأن الزهري نفسه قد سئل عنه فأنكره. وقد أجيب عن هذا بأن عدم معرفة الزهري بالحديث لا تضر مادام راويه، وهو سليمان بن موسى، ثقة. ولا يخفى ما في هذا الجواب، لأنه إذا كان مصدر الحديث الذي أسند اليه لم يعرفه كان ذلك موجبا لرفع الثقة بدون نزاع. على أن الحنفية قالوا إن كل الأحاديث التي يفيد ظاهرها اشتراط الولي في التزويج هي خاصة بالصغيرة التي لا يصح لها أن تتصرف، ومن في حكمها من المجنونة، ويؤيد ذلك قواعد الدين الاسلامي العامة، إذ بما لا شك فيه أن النكاح عقد من العقود كالبيع والشراء، ومعلوم أن للمرأة الحرة المطلقة في بيعها وشراؤها متى كانت رشيدة، فكيف يصح الحجر عليها في عقد زواجها وهو أهم العقود التي تتطلب الحرية لما يترتب عليه من سعادة العيش أو شقاءه، فيلزم أن يقاس عقد النكاح على عقد البيع، وإن ورد ما يخالف هذا القياس وجب تخصيصه بالقياس. وهذه قاعدة أصولية متبعة. فقله: «لا تزوج المرأة المرأة» معناه لا تزوج المرأة الكبيرة البنت الصغيرة عند وجود الولي العاصب المقدم عليها. وقوله: «ولا تزوج المرأة نفسها» معناه ولا تزوج الصغيرة نفسها بدون ولي. فالمراد من المرأة الانثى الصغيرة وهي

وإن كانت عامة تشمل الصغيرة والكبيرة إلا أنها خصت بالصغيرة لما هو معلوم من أن الكبيرة لها حق التصرف في العقود كالبيع ، فيقاس السكاح على البيع ، وذلك جائز في الأصول .

وقد رد الجمهور على هذا البيان بوجود الفرق بين السكاح والبيع ، وذلك لأن المرأة لا عهد لها بمخالطة الرجال حسبما تقتضيه القواعد الشرعية ، فربما خدعها غير الكفء فتزوج بمن تتميز به عشيرتها ويكون شرا ووبالا على سمادتها الدنيوية ، ولذا صح الحجوع إليها في عقد السكاح دون غيره من العقود ، فإن عقد البيع مثلا لا يترتب عليه مثل هذا الشر منها قيل فيه .

وأجاب الحنفية عن هذا بجوابين : (الأول) أنهم قد اشتروا الكفاءة في الزوجية ، فلو تزوجت المرأة غير كفء فلا وليا لها أن يعترضوا هذا الزواج ولا يقروه فيفسخ ولا نصيهم معرة الصهر الذي لا يناسبهم ، فزمام الأمر بأيديهم . (الثاني) : أن المفروض كون المرأة عاقلة حسنة التصرف غير محجور عليها ، ولذا كان من حقها أن تصرف في بيعها وشرائها بدون حجر . فإذا صح أن يقال إنها قد تبني في اختيار الزوج الكفء فكذلك يصح أن يقال إنها قد تبني في بيع سلعة هامة غبنا صارها بها أكثر من الضرر بعقد رواج على غير الكفء ، لأن عدم كفاءته إن ثبتت فرق القاضى بينهما ، أما إذا باعت شيئا له قيمة مالية وغبت فيه غبنا فاحشا وهلك في يد مفلس فانه يضيع عليها ولا يسعها أن تنلأ في ما يترتب على هذا البيع من الضرر . فهذا نهاية البحث بينهما في الأحاديث .

أما القرآن الكريم فقد استدل الجمهور بقوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف (١) » . ووجه الدلالة في الآية الكريمة أن الله سبحانه قد خاطب بها الأولياء ، فنهام عن منع النساء من الزواج بمن يرضونه لأنفسهن ، فلم يكن لمثولاء الأولياء حق المنع لما كان لخطابهم يمثل هذا وجه ، إذ كان يكفي أن يقول للنساء : إذا منعتم من الزواج فزوجوا أنفسكن ، ولا تبالوا بالمنامين .

وقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : إن هذه الآية أصرح آية في الدلالة على اشتراط الولي . ولكن الحنفية قد أجابوا عنها بجوابين :

الجواب الأول : منع كونها خطابا للأولياء ، بل هي تحتمل أن تكون خطابا للأزواج الذين يطلقون أزواجهن ، وتحتمل أن تكون خطابا للمؤمنين عامة . أما الأول فهو الظاهر المتبادر من لفظ الآية الكريمة ، فهو سبحانه يقول لمن يطلقون نساءهم : إذا طلقتم النساء فلا تستعملوا معهن الوسائل الظالمة التي يترتب عليها مضمين من الزواج بغيركم : كأن تهودوها هي أو من يريد تزوجها بقوتكم أو جاهكم وسلطانكم أو نفوذكم إن كان لكم شيء من ذلك ، أو تحاولوا تنقيصها

والخط من كرامتها فتنفروا منها خطيبها أو تؤثروا عليه من أي ناحية ليركها ، أو تمنعوها من حقوقها المالية إن كان لها حقوق لديكم كي لا تتزوج بغيركم ، أو غير ذلك من المؤثرات . وأما الثاني فمعناه : إذا طلقتم النساء أبها المؤمنون وأصبحن خاليات من الأزواج والعدة فلا يصح أن يقع بينكم منعهن من الأزواج سواء أكان ذلك المنع من قريب أم من ذي جاه ونفوذ عليها ، فيفترض عليكم فرض كفاية أن تمنعوا وقوعه فيما بينكم ، بنهي فاعله والضرب على يده ، ولا كنتم مشتركين معه في الائم ، لأن الفضل منكروجرمه الله تعالى ، والهوى عن المنكر فرض على المؤمنين ، وإزالته لازمة على كل قادر كما كان أو غيره .

ولا تمارض بين هذا الذي ذكرناه وبين ما رواه البخاري من أن الآية نزلت في معقل ابن يسار حيث كان قد زوج أخته لرجل فطلقها زوجها ثم أراد الرجوع إليها ثانيا فابى أخوها معقل أن تعود إليه مع كونها راغبة فيه فلما نزلت زوجها إياه ، لأنه يحتمل أن تكون حادثة معقل صادفت زول الآية ، ولكن الآية في ذاتها عامة كما قاله المفسرون في قوله تعالى : «يأبها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (١)» إذ قال الفخر الرازي وهو شافعي : إن الآية عامة ولكنها صادفت حادثة الوليد . ومع ذلك فإذا سلم أن الآية نزلت في حادثة أخت معقل بخصوصها فإن الخطاب فيها يجب أن يكون عاما لسكل من يفضل سواء كان وليا أو غيره ، فليست مقصورة على الأولياء بلا نزاع .

الجواب الثاني : بتسليم أن الآية خطاب لمعقل وغيره من الأولياء بخصوصهم ، ولكن ليس في الآية ما يدل على أن لهم حق الولاية على النساء مطلقا ، وإنما يدل على أن من منع منهم النساء من التزوج فهو آثم لا حق له في هذا ، وهذا المنع لا يلزم أن يكون مترتبا على الولاية بل هو ظاهر في أنه مترتب على ضعف النساء وعدم قدرتهن على استعمال حقهن . وبيان ذلك أن المرأة تستكين عادة لمن يكفلها أو لعاصبها القريب من أب أو أخ ، فتفتى إرادتها في إرادته خصوصا في هذا الباب الذي يقلب فيه الحياء على معظم النسوة المريات ، فلا ترى المرأة لها حقا مع كافها أو عاصبها ، فتتنازل له عن استعمال حقها وهي مكرهة . فالآية الكريمة تفيد أنه لا يصح للرجال أن يستغلوا هذا الضعف فيسلموا النساء حقوقهن الطبيعية في التزوج بالكف الذي يرغب فيه . وهذا يتضمن أن للمرأة الحرية في اختيار الكف الذي تريده زوجها ، لأن النهي عن منعهن من الزواج يتضمن إباحة الحرية لها في ذلك الاختيار بلا نزاع . على أن قوله تعالى : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » فيه دلالة على صحة عقد الزواج إذا باشرته المرأة .

فانه قال : «أن ينكحن» أي يتزوجن بإبائهن ، ولو كانت عبارة النساء لا تنفع في عقد الزواج لقال : فلا تعضلوهن أن تنكحوهن أزواجهن . والحاصل أن الآية إذا كانت خطابا للأقرباء

بمخصوصهم يكون معناها لا تتهروا أيها الأقرباء فرصة كفالكم للنساء وضعنهن فتسلبوا منهن حقهن الطبيعي في اختيار الزوج الكفء ومباشرة زواجهن بأنفسهن فتتحكوا فيهن وتمنوهن من استعمال ذلك الحق ، وليس في هذا المعنى أية دلالة على أن لهم حق الولاية عليها .

وقد يقال : إذا كان اختيار الزوج والمقد عليه حقاً للمرأة فلماذا لم يقل لمن تعالى زوجها أنفسكن واستعملوا حقه؟ غطابه للأولياء بقوله : فلا تدخلوهن ، دليل على أهم أصحاب الحق في ذلك لا النساء . والجواب أن خطاب الأولياء بهذا يدل على معنى دقيق جليل وهو ضرورة احترام الرابطة بين النساء وبين أهلهن السكاكين لمن ، فإذا تمازجت الواحدة منهن عن حقها في هذا الموضوع احتراماً لرغبة أبيها أو أخيها أو نحوها خوفاً من حدوث تصدع في روابط القرابة ، فانه يكون حسايقره الله تعالى ، وفي هذه الحالة لا يصح أن يقال للنساء استعمالوا حقهكن واخرجوا عن طاعة أوليائكن ، فننتطح بذلك روابط المودة ، وإنما كمال البلاغة وجمال الأسلوب أن يقال للأولياء : لا تستغلوا هذه الحالة فتتجاوزوا في سلب حقوقهن للنهائية . والنتيجة المترتبة على الخطأين واحدة ، فان الفرض أن لا تمنع المرأة من التزوج بمن ترغب فيه متى كان كفئاً صالحاً .

(هـ) وبما لا ريب فيه أن لهُذين الرأيين علاقة كاملة بالحالة الاجتماعية في كل زمان ومكان ، فالذين يحجرون على المرأة في عقد الزواج يرون أن النساء مهما قيل في تهذيبهن فإن فيهن جهة ضعف طبيعية بارزة وهي خضوعهن للرجال وتأثرهن بهم من نواح مختلفة ، فقد تنسى المرأة عظمتها ومجدها وفضلها وتندفع في مياها وراء من لا يساوي شراك نعلها ، وربما تمجرها عاطفتها إلى الانقياد لحادها ومن دونه . ويدعى أن ضرر هذه الحالة لا يقتصر على المرأة لحسب ، بل يتمدها إلى الأسرة بتمامها ، لانهم يتعمرون بادخال عنصر أجنبي فيهم لا يدايهم في حسمهم ونسبهم ، وربما جر ذلك إلى مأساة عمزنة . فمن الواجب أن يوكل أمر اختيار الزوج للأولياء الذين يستطيعون أن يختاروا ما فيه خير المرأة وخير الأسرة وهي معصومة بحكمة غير متبذلة ولا منهتكة ، ومع ذلك فانه لا بد من رضا المرأة وإذنها إذا كانت ثيباً عجيبة ، فضلاً عن ذلك فان لها الحق في المطالبة بالكفء عند التشافعية ، وغير ذلك يكون اندفاعاً مع عاطفة ضعيفة يمكن التأثير عليها بوسائل مختلفة ، فيترتب على ذلك شقاء المرأة وتماستها ، وهدم الأسرة ومحطاط كرامتها .

أما الخنفية الذين لا يرون الحرج على المرأة العاقلة البالغة فانهم يقولون : إن قواعد الدين الاسلامي تقضي أمرين : (الاول) إطلاق الحرية لكل قافل رشيد من ذكر أو أنثى بلافراق . (الثاني) : رفع ما عساه أن يحدث من أضرار اجتماعية أو شخصية بسبب التصرفات المترتبة على العقود ، وكلا الأمرين لازم لا بد منه للحياة الاجتماعية ، فالحر على الرشيدة في أمر زواجها ينافي قواعد الاسلام العامة بلا نزاع ، وهذا يترتب عليه ضرر اجتماعي شديد ، وهو التعدي

على العاقل الرشيد في أمره ، والنحكم فيه من حيث لا يريد ، فلو جعل زواج المرأة منوطا بالولي كان حجرا عليها بدون موجب ، خصوصا في حالة تزويجها بدون أخذ رأيها مطلقا وهي بالغ رشيدة ، فان ذلك لا يلتقي مع قواعد الاسلام في شيء ، وقد يكون ضارا في كثير من الاحيان ، إذ قد يكون الولي غير أب أو أخ شقيق ولم تكن علاقته بالمرأة ودية ، فيتعهد معا كسبتها وحرمانها من الكفء ، وليس من السهل على المرأة إثبات عضلة يابها عند الحاكم فانه يحتاج الى وقت يضعف الكفء من بين يديها .

وهذا كثير واقع لا يمكن الاغضاء عنه في التشريع الاسلامي المشهور بدقته وجلاله ، فيجب أن يباط أمر زواج المرأة بها ، ولا يجرى لاحد مطمع في حرمانها من الكفء ، ولكن بشرط أن لا يترتب على تصرفها ضرر يمسها أو يمس أسرته بأن تستدفع وراء شهوتها فتقع على غير الكفء المناسب ، فانها إن فعلت ذلك كانت جذيرة بالحجر عليها ، وكان لوليها حق الاعتراض وفسخ العقد . على أن لها الحق في أن تسكن كل أمر زواجها لمن تغناه ، فإذا كان لها أخ أو أب أو نحوهما من الأقربين الذين يشفقون عليها ويؤثرون راحتها ويتمنون لها سعادة ، كان من اللائق أن تفوض لهم وتترك لهم حقهما لينصرفوا في أمر زواجها كما يحبون ، فلا تخرج عن إرادتهم ولا تحاول إخراجهم عما لا ينفعها بل يضرها بفقد عطفهم عليها .

هذان الرأيان يدلان على أن التشريع الاسلامي آية في الدقة والابداع ، لأن كليهما لازم للحياة الاجتماعية بحسب اختلاف البيئات وتطور أحوال الناس ، فإذا كان أحد الرأيين لا يناسب بيئة وحسب المصير الى الرأي الثاني . وهذا معنى صراحة الدين الاسلامي ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، فكل الرأيين حسن والعمل به مقبول معقول ؟

عبد الرحمن الجزيري

الادب قرابة

قال شاعر حكيم :

ذو الود مني وذو التربي بمنزلة وإخوتي أسوة عندي وإخواني
عصابة جاورت آدابهم أدبي فهم وإن فرقوا في الأرض جيران
وقال آخر في هذا الباب :

إن تفرق نسا يؤلف بيننا أدب أقنائه مقام الوالد
أو تختلف فالوصل منا مأوه عذب تحدر من غمام واحد

الموازنة بين الشريعة والقوانين الوضعية

تعلم رعاك الله أن الشريعة جاءت بمطالب الروح والبدن جميعاً ، وكفى بذلك فرقا كبيرا بينهما . ولكننا نزيدك فروقا أخرى فنقول :

إن القانون لا يطلب إلا حفظ النظام العام ، ولا يعنيه إلا وحدة الأمة وراحة الحكومة ، ولا يهتم بشئون الأفراد الروحية ، ولا من وظيفته إصلاح قلوبهم وتربية نفوسهم ، ولا مراقبتهم في أخلاقهم .

وأما الشريعة فقد تكفلت بإصلاح قلوب الأفراد كما تكفلت بإصلاح الأمم ، فرممت لكل إنسان خطة واضحة يسير عليها في نفسه وفي أسرته وفي جيرانه وفي الناس أجمعين ، وحظرت عليه أخلاقا تعوقه عن كماله ورفقه إلى أحسن أحواله ، قطهرته من الحقد والغل والحسد والشر وسوء الظن الخ ، حتى أمرته أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وطلبت منه أن يكون خيرا محضاً ، وأن تكون سريره أفضل من علانيته ، وعلمته أن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، وأمرته بالرحمة لكل ذى روح ، وعرفته أن امرأة دخلت النار في هرة ، إلى غير ذلك مما لعلك غنى عن بيانه . وقد تعلم رعاك الله أن الأمة لا تصلح في مجموعها إلا إذا صلحت قلوب أفرادها ، وإلا كانت كاللباء المرتفع أمام الانظار من خارجه ، المتفتت الأجزاء في داخله .

وإن شئت فقل ننظر إلى ثروة أمنا المصرية تجدها قد ذهبت ثلاثة أثمانها تقريبا . فإذا بحثنا عن سبب هذا وأردنا أن ن شخص ذلك الله الذي سرى في جسم الأمة سريان السل في جسم الرجل العظيم ، وجدناه راجعا إلى عدة أمور محرمها الشريعة كل التحريم .
فنها الربا الذي ورد فيه الوعيد الشديد في القرآن والسنة .

ومنها الحر التي هي أم الخبائث ومنها المقامرة التي جعلها القرآن من عمل الشيطان ، وناط الفلاح بأجنبنا حيث يقول : « إنما الحر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجنّبوه لعلكم تغفلون » .

ومنها المنازعات التي ما جاء الدين إلا ليستأصل شأفتها من النفوس . ومنها كثرة صرف المال في غير محل الضرورة ولا موطن الحكمة . وقد دم الله المبذرين حتى جعلهم إخوان الشياطين فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » إلى غير ذلك مما يعرفه المستبصر ولا يخفى على الباحث .

فلو أن الأمة تربت تربية دينية وحافظت على شريعتها لحفظت عليها ثروتها ، ولكانت

الآن من أغنى الأمم التي على وجه الأرض ، فإذا أغنى عنها القانون وقد تركت شريعتها فذهبت عزتها الحقيقية (لا الصناعية) واضمحلت ثروتها التي هي أساس مجدها ومناخياتها الصحيحة .

بل يمكننا ان نقول : إن الشريعة أبلغ فيما يريده القانون أيضا من منع الناس عن ارتكاب الجرائم والتعدييات ، فان الانسان لا يخاف القانون ولا يرهب سلطانه إلا إذا لم يكن له وسيلة الى التخلص منه ، وما أكثر وسائل التخلص وأقل بواعث الاخلاص !

فإذا عممنا التربية الدينية فكون قد وطدنا دعائم الامن العام أكبر توطيد بمقتضى ما يغرسه الدين في القلوب من أن الله يعلم السر وأخفى ، وأنه يحاسب على القنيل والقمير ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأن من روع أخاه لم يؤمن الله روعته يوم القيامة ، الى آخر ما جاء في الكتاب والسنة وهو كثير . فلا فرق إذا بين أن يكون الانسان في المواسم حيث متساوول الاحكام بحرأى ومسمع من الحكام ، وبين أن يكون في الصحراء الكبرى حيث لا ديوان ولا سلطان .

فلا خلاصة أنه لا يوجد شيء أنفع للحكومة والامم والافراد في أحوالها الاقتصادية والاجتماعية من التربية الدينية . فن فوائدها للحكومة أنها تردع الناس عن الجرائم لأنها ترجع طمعهم في الدنيا الى الحد المعتدل ، فلا يتهاككون عليها هذا التهاك الشديد .

فالفرق بينها وبين القوانين من هذه الوجهة : أن القوانين لا تخفف محبة الدنيا من القلوب (ومحبة الدنيا كما تعلم أساس المنازعات والمخاصمات ومنشأ التعدي وكل انواع الايذاء حتى أخذ الرشوة والسرقة) ، ولا تطهر النفوس من رذائلها كالحرص والحسد والشره والبغى والحقد والغضب ، الى غير ذلك . ولا يخفى ما يترتب على تلك الرذائل في المجتمع الانساني من الشرور وسوء المعاملة بمقتضى تلك العوامل الخبيثة التي تسوق صاحبها الى هلاكه وهلاك غيره شاء أم أبى .

والفرق الثاني : أن مراقبة الله لا تنمرها القوانين ، فيمكن أن يتقى الانسان غائلة القانون بالتحيل والاختفاء مثلا ، بخلاف الشريعة .

والفرق الثالث : أن القوانين لا تكفل نظام الأفراد ، ولا تعرض لشئونهم ولا لاصلاح حالهم في أنفسهم .

والفرق الرابع : أن الشريعة تعطي الروح حظها من معرفة الله ، وتمتحن القلوب على التزامه في الجلال المطلق الظاهر في الكون كله (الذي لأجله بحثت كل أمة عن إله تعبدته) .

هذا ولا تزال نكرر أن الامة المصرية لو كانت على الدين الصحيح ما ذهب شيء من ثروتها التي كادت تتلاشى بالكلية ، لأنها لم تذهب كما قلنا إلا بالريا والمقامرة والاسراف والتبذير والدخول فيما لا يعي والتفاخر والتنافس ، وكل ذلك يجرمه الدين .

وانظر الى الامة الاسلامية في بدء أمرها حيث سادت جميع الأمم في أقل من قرن بفضل سيرها على تعاليم دينها الذي يقول لها : « علو الهمة من الايمان » . ويعلمهم أنهم يحشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، ويعلمهم أن ينفروا إذا دعوا خفقا وثقلا وجاعات ووحشدا ، وأوجب عليهم الهجرة من أرض الذل ، وأمرهم بحسن المعاملة مع كل أحد ، والاعتدال في كل شيء ، وحذرهم من الاطراط والتفريط ، وحض على طاعة المرء وسين لرؤساء ، ومشاورة الرؤساء للمرء وسين . وقد قال لبيبة عليه السلام : « وشاورهم في الأمر » . بل أمر باحترام الطبقة الدنيا للطبقة العليا عموما ، وبنو القريب الصغير للكبير ، ومعرفة الفضل لذويه ، وبالجملة أمر بآزال الناس منازلهم .

فمل كل ذلك كي تتم المحبة بين الجميع ، وتكون الروابط على أكل وجوها .

بالغ في الحث على التعاون والاتحاد ، وطلب من كل أحد أن يعمل من الخير ما يعود على عشيرته وأمنه ، حتى جعل إمامة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الايمان ، وهو القائل . « ولما نوا على البر والتقوى » . « يد الله مع الجماعة » . وأمر باستعمال العقل في كل شيء ، ونهى عن اتباع الظن ، حتى قال : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولا » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بلبا فنبهوا » . ونهى على قوم سوء حالهم بقوله : « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » . وبني عقائده على صرائح العقول ومقتضى البراهين ، في آخر ما جاء فيه مما شيد صرح بناء الأخلاق ، وجعل الامة كالبنيان يشد بعضه بعضا . ولذلك كان غير قابل للنسخ لأنه لا يثنى أن يجي زمان يحسن فيه ترك الاعتدال ومجاورة الحدود والنباهة عن مكارم الأخلاق .

فلا غرو أن يصبحوا بفضل هذه التعاليم من أمة الأمم وأرفعها ، مع واحة القلوب واطمئنان النفوس ، وابتهاج الأرواح ، والتبريز في كل خير وقضية . فسلمون اليوم وإن كانوا على أفحج صورة ، فالاسلام عند من يعرفه على أجل صورة . ولذلك نقول : إن نقص المسلمين وتأخرهم لنقص تربيتهم الدينية لا لنقص في دينهم .

وعلى الجملة فالترقية الدينية أعظم وسيلة الى توطيد الأمن العام ، وتحسين العلاقات الوطنية والمعاملات التجارية وجميع الشؤون الاقتصادية ، وأكبر معين على حفظ الثروة وترقية الامة وتقوية الروابط الودية فيما بين أفرادها عندما تكون لها تلك النفوس الطاهرة ، فتمكن منها عرا المحبة والاخاء بمقتضى قول الدين : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى

نحايوا . . وإنا لنتمنى تحقيق تلك الأمنية التي لا شيء أبعد للامة منها في هذا العصر الميمون إن شاء الله ، وما ذلك على الله بعزيز .

وأما التربية غير الدينية التي عيت بها الامم المعاصرة الآن فلا تعلق تلك للتيران المناجحة ، ولا تعلق من سورتها ، ولا تحدث مراقبة الله في النفوس ، بل تجعل المترين بها يعتقد أنه اول بالثروة والرفعة من غيره ، فيحتال لذلك بكل أنواع الحيل ، وتغنى نفسه حسدا على كل من سواه . وربما حرته تلك التربية الى الاتحاد ونبذ المعتقدات ، فأصبح لا يعنيه إلا الدنيا ، ولا يهمه إلا التنافس فيها بلا مرافة لله لأنه لا يعرفه ، ولا طمع في الآخرة لأنه لا يؤمن بها .

الكلمة الختامية :

إن مزايا الشريعة لا تسكد تحصى ، ففتان ما بين قانون يضعه رجال لا يعينهم إلا مظاهر الحياة المادية ، وبين قانون يضعه خالق الكون المدبر لكل صغيرة وكبيرة يسكن به للناس سعادة الحياتين .

تلك القوانين تبيح الزنا وشرب الخمر والتلهي بالميسر ، وهي أمهات الشرور كلها ، محافظة على مبدأ الحرية الشخصية . وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حرته فيما يريد . فهل تراك أحسنت إليه ؟

تلك القوانين تمنع دروس الدين من المدارس ، فأول ما تفرس في نفوس النشء بهذا العمل أن الدين في محل الازهال ، فلا ينبغي أن يعنى به أو يلتفت إليه ، وهي طريقة عملية ترك في نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين ، وأهون عقيدة فيه .

واعلم أن فلاسفة أوروبا وعقلاءها يشون من شيوع الاتحاد ، ويتمنون أن يسود سلطان الدين على الأفكار ، علما منهم أن خلو النفوس من الدين منذر بالخراب العاجل أو الاجل . قال فيكتور هيجو من حكماء أوروبا :

« يجب أن يكون التعليم الابتدائي مبني على الدين حتى يكون صالحا ، ويجب أن يساق الى المحاكم من يرسل ولده الى مفوضة لا تعلم الديانة » .

تأمل كيف أوجب سوق من لا يعنى بالتربية الدينية الى المحاكم
وقال فيكتور كوزان :

« إن الشعوب لأشد احتياجا الى المبادئ الدينية منها الى الشرائع المدنية والعلوم السياسية » .
وقال روسو :

« شر الشرور في الممالك أن يكون الله مجهولا فيها ، فان في ذهاب الديانة تقويضا لاركان

الهيئة الاجتماعية . الى غير ذلك من كلامهم ، وهو كثير . وما اصدق روسو فيما قال وأبعد نظره فيما أراد !

وإن أردت مصداق ذلك فانظر الى الامة الاسلامية في يده أمرها حينما كانت أعز الامم على الإطلاق وأرفعها على الإطلاق ، ثم انظر اليها اليوم وقد تقوض بناؤها ، وذبح مجدها ، فأصبحت تتسلى بالشراب عن الشراب ، وبالخيال عن الحقيقة ، وبزخرف الكلام وأضغاث الاحلام عن النظر الصحيح في سنة الله في خلقه ، وما تقتضيه قوانين العالم في ماضيه وحاضره ، وإن في ذلك لعمرة كبرى لتدوى الابدان وأهل الاستبصار .

أسأل الله أن ياملنا بما هو أهله ، ولا ياملنا بما نحن أهله بجمه وكرمه ؟

يوسف المجرى

عضو جماعة كبار العلماء

الطهور لما هو أرقى

قال ابن عبد ربه : مما جبل عليه الحر الكريم أن لا يقنع من شرف الدنيا والاخرة بشيء . مما انبسط له ، أملا فيما هو أسنى منه درجة ، وأرفع منزلة ، ثم قال : ومن قولنا في ذلك :

والحر لا يكتفى من نيل مكرمه	حتى يروم انى من دونها المطب
يسمى به أمل من دونه أهل	إن كفه رهب يستدعه رغب
لذاك ما سال موسى ربه أرنى	أنظر اليك وفى سؤاله عجب
ينفى التزبد فيما قال من كرم	وهو النحى لديه الوحى والكتب
وقال الشاعر تأبط شرا فى ابن عم له يصفه	بركوب الأهوال وبذل الأموال :
وإنى لمهد من تنائى فقاصد	به لا ينهم الصديق فحمس بن مالك
أهز به فى ندوة الحى عطفه	كما هز عطى بالهجان الأوارك
قليل أتشكى للسلم يصيه	كثير التوى شتى الهوى والمسالك
ويسبق وقد الريم من حيث تمنى	بمخرق من شدة المتدارك
يظل بمومة ويمسى بغيرها	وحيدا ويعرورى ظهور المهالك
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل	له كالى من قلب سيجان فائق
إذا هزه فى عظم قرن تهلت	نواجذ أفواه المنايا الصواحك

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

ترجو التفضل بالجواب مفصلا على السؤالين الآتيين بصفة رسمية من دائرة الفتوى ، وهما :
 الأول — فاطمة رضعت مع مصطفى ثلاث رضعات متفرقات ، فهل يجوز زواجهما ؟
 الثانى — محمود يرغب أن يتزوج نادرة ، غير أن جدة نادرة أوضحت محمودا ثلاث
 أو أربع رضعات متفرقات ، فهل يجوز عقد قران محمود على نادرة ؟

اسماعيل عاصم آل ابراهيم باشا
 حلب — سوريا

الجواب :

اختلف الفقهاء قديما فى كية الرضعات التى تستوجب حرمة الزوج ، فالمعتمد من مذهبي
 الشافعية والحنابلة أن الرضاع لا يستوجب حرمة الزواج إلا إذا تكررت وبلغ خمس رضعات
 متفرقات ، فان لم يصل الى هذه الكية فلا يوجب حرمة الزوج .
 وبناء على هذا ترى اللجنة أن عقد القران فى الحالتين المستول عنهما جائز ولا مانع منه
 شرعا عند السادة الشافعية والحنابلة .

أما الحنفية والمالكية فيرون أن رضعة واحدة كافية فى التحريم متى وقعت فى مدة
 الرضاع المقررة شرعا ، وهى حولان كاملان عند الحنفية ، وحولان وشهران عند المالكية ،
 إلا أن الحنفية يرون أن الرضاع محرم فى مدته حتى بعدد طعام الصبي واستغناؤه عن اللبن .
 ويخالفهم فى ذلك المالكية ، فيرون أن الصبي متى فطم واستغنى بالطعام عن اللبن فرضاعه
 بعد ذلك لا يوجب تحريم الزوج ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الصمام

الزهاوى الفيلسوف العراقى

السيد المرحوم جيل صدق الزهاوى شهرة في البلاد الناطقة بالضاد لما نشر من شعره ، وأذاع من كتبه ، وقد وقر في نفوس الناس عنه أنه مشايخ لفلسفة المادية ، شديد التمسك بمقرراتها . إذ يسكاد لا يقع نظر أحد على قصيدة له تخلو من ذكر المدم المحض الذى ينتظر الانسان بعد موته .

ولما زار مصر حوالى سنة ١٩٢٥ أ أكثر فيها من قرض الشعر ، وكانت جريدة السياسة تنشره ما يجوده به فريخته ، فكنت ألاحظ أنه بالغ في نفي النفس الانسانية ، والتشهير بمصيرها الى المدم المحض ، الأمر الذى لم نلاحظه على شاعر غيره عربيا كان أو أجنبيا ، حتى من الذين يعرف عنهم الغلو في المادية . فكان يخيل الى أنه من الذين يؤلم شعورهم أن يقتلوا الى ظلمة المدم بعد تمنعهم بنور الوجود ، وأنهم لو لاح لهم بريق دليل على بقاء النفس بعد الجسد لتلمسوه حيث صادفوه ، فسمحت لنفسي أن أكتب اليه كتابا مفتوحا في حريدة السياسة أدعوه ليساجلنى البحث في خلود الروح ، وذكرت له أن لدى أدلة علمية لا مجال للرأى فيها . فرد على في تلك الجريدة يشكر لى ما عرضته عليه ، ويمتنع عن قبول المساجلة لوشك عوده الى بلاده ، وتفضل فأهدانى مؤلفاته .

لا أظن أن يشغل تارىء ، وأنا أتكلم عن الفيلسوف العراقى هنا ، أنى أريد الخط من قيمته أو نقد أقواله وهو لا يستطيع أن يلتصق لنفسه ، لأن الزهاوى بعد أن نشر من شعره ومؤلفاته ما نشر ، أصبح واحدا من جبهة قلة التكر لا يمكن تجاوزه دون نقد في مجال تمحيص حقيقة من الحقائق الفلسفية ، بل أصبح يقصد بالذكر من خصوم مذهبه ، لكيلا يفتن باقواله من ليس لهم قدرة على تمييز الحق من الباطل من المبادئ . ونحن إنما نقصده بالذكر اليوم لما نشر في بعض المجلات من مذهبه بدون تعليق ، خشية أن تتسرب هذه الكتابة الى النشء فتؤثر في عقليتهم المصطحة المذهب المادى الذى حطمت صرحه اليوم معاول الفتوحات النفسية الحديثة .

يصف بعض الناس الزهاوى بأنه مادى قبح ، وهذا ما يؤخذ من بعض شعره ونثره ، واسكننا نلاحظ عليه هنا أنه لم يقيم على طريقة زعماء المادية من الاعلان عن مذهبهم في صراحة لا تقبل المباحكة ، فقد كان يكتب الشيء ثم يقضه بقول آخر كما فعل في كتابه (الكائنات) . فقد جرى فيه على أسلوب الماديين ، فأنكر فيه الخالق والروح والخلود ، ثم ختمه بكلمة تحت عنوان (إتهال) ، حقر فيها كل الآراء التى قررها في الكتاب ، وذكر أنه إنما جرى فيها على

أسلوب الماديين لبيان مذهبهم ، أما هو فيرا الى الله منهم ومن آرائهم ، ويرجو من يقرأ كتابه أن لا يمتد بما قرره فيه .

هذا أسلوب في الكتابة كل ما يمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ اليه هرباً من تبعة ما قرره من الآراء الاحادية في نفاذ الرأي العام والحكومة ، ولكنه اعتذار غير وجيه ، وكان الأول به أن يتحمل تبعة ما يقول كما فعل جميع الذين تقدموه من ضحايا آرائهم ، أو أن يسكت . وكما جرى على هذا الأسلوب ثرا جرى عليه شعرا ، فقد قال منكرا الخالق :

أنا جهلت من الطبيعة أمرها	وأنت غمك في مقام معل
أثبت ربا تبتغي حلا به	للمشكلات فكان أكبر مشكل

وهو نفسه الذي قال :

قال ماديتك الذي كنت في الدن	جا عليه وأنت شيخ كبير
قلت كان الاسلام ديني وه	و دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذي عبت فقلت	الله ربي وهو السميع البصير

وهو الذي قال أيضا :

أنا ما كفرت كل صم	رى بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنم	ت قلبي المرسل

فهذا الضرب من التلاعب بالمبادئ ليس من صفات الفلاسفة الراسخين ، ولا هو من سمات العلماء المحققين . وهو يدل دلالة صريحة على أنه لم يكن على عرق مما يتظاهر به من صفات المجددين . لأن المجدد يجب أن يكون مثالا حيا لغيره في تحديد مذهب ، وصراحة طبعته . أما الاعتذار عنه بأنه كان يلجأ الى هذا الأسلوب من المروعة لانتقاء شر الحكومات الخائفة للحرية ، فلا يمكن قبوله والاعتداد به . لأن التاريخ قد سجل أسماء عشرات الآلاف من العلماء والفلاسفة المجددين الذين هللكوا في سبيل النصريح بآرائهم ، فان لم يكن قد بلغ مبلغهم من الاخلاص للمذهب ، كان يسه أن يهجر وطنه كما فعل غيره في مجال السياسة ، وأن يجاهر بما يريد أن يقول ، ولا يدع الناس حيازي في معرفة حقيقة ما كان يقول به ويريد أن يدعو اليه .

ومن أغرب وجوه هذه الخيرة أن من الناس من فهم أن الأستاذ الزهاوي كان يعتقد بوجود الخالق ، وأنه فوق ذلك كان متصوفا .

قال الأستاذ اسماعيل أحمد آدم كاتب تاريخ حياته :

« آمن الزهاوي بالملم ونزل عند مقرراته ، ومضى يبحث في الطبيعة مؤمنا بأساليب

العلم فى البحث ، وخرج من دراسته معتقدا اعتقادا لا يوهنه الشك ، ولا ينطرق اليه الرب ، أن لقوانين الطبيعة وحدتها ، وان للعالم وحدة متصلة أسبابها ، غير منفصلة أجزاؤها ، وعاد بالاشياء كلها الى الاثير فهو عنده المرحع فى الاشياء والاثر ، واعتقد أن الالهة حالة فى الكون فنظرها فى الاثير ، حيث بدا له من نظره فى العلم الموضوعى والذاتى — عالم الطبيعة والفس — أن لا انقسام بين السبب والمسبب ، بين العلة والمعلول . وهكذا انساق الزهاوى لايمانه بوحدة الكون وبطبيعة الاتصال بين ذاتنا الشاعرة المفكرة وبين طبيعة الاشياء ، الى الايمان بالله فى الكون ، وبامكان الاتصال بالله عن طريق الكون . وهكذا دلف الزهاوى الى التصوف ، فكان صميما فى تصوفه يؤمن بأن هنالك وراء ذاتنا وأراض الاشياء التى تبدو لنا حقيقة واحدة ، حقيقة نصل بينها وبين الكون ، ولولاها لما أمكننا أن نفكر فى العالم ، وأن نستحيب لاعمالنا به ، ولما أمكن للعالم أن يؤثر فىنا .

يقول الاستاذ اسماعيل احمد آدم هذا القول ، وهو نفسه قد نقل عنه البيتين المتقدمين اللذين ينكر فيهما وجود الخالق ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه المتناقضات ؟

على أن ما استنتجته من كتابات الاستاذ الزهاوى ووصفه بأنه مطابق للتفكير العلمى الحديث ، إن دل على شيء فهو يدل على أن الزهاوى كان يصرف بعض الأمور الافتراضية فى العلم ، الى بناء عقيدة خيالية فى حقيقة الكون وعلاقة الانسان به على أسلوب الجماعة الذين يسميهم الأوريون بالميستيك (mystiques) .

إن الاثير مادة افتراضية ، نواضع عليها العلماء لحل بعض مشكلات الطبيعة ، والعلماء يحاولون على فهم ما لا يستطيعون فهمه بافتراض أشياء قد لا يكون لها وجود ، وقد ثبت وجود خلافا عند ما يصل العلم الى درجة أعلى مما كان عليه ، وتاريخ العلم يثبت هذا الأمر إثباتا لا مجال للشك فيه . فالتصوف الذى وصل إليه الاستاذ الزهاوى على أجنحة الاثير مكتوب عليه الانهيار بانهيار الاثير نفسه ، كما انهارت مذاهب لا عدد لها أغرى الخيالون باحتراعها وزخرفتها فى كل زمان ومكان .

ثم تقول : لا يصح ونحن فى عصر العلم أن يوصف مذهب يقوم على موجود افتراضى بأنه مذهب علمى . ولو ساع ذلك لوحدت مذاهب علمية بمسدد الرؤوس الخيالية التى تفكر على هذا النحو وهى بعيدة عن الروح التى ينفثها العلم فى روع الآخذين به .

ثم نقسأل : ما قيمة هذا التصوف الذى يزعم صاحبه أن الروح الانسانية لا وجود لها ، وأن الانسان صائر الى حيث نصير جميع الكائنات الى العدم المحض ؟

لا يصح أن يوصف القائل بهذا القول بالتصوف على أى احتمال من احتمالاته ، لأنه لا يغرى بالرياضة النفسية ، ولا بالمجاهدة القلبية ، ولا يحجب الانسان فى التأمل إلا فيما يجلب السعادة

الدينية ، والذات البدنية . وإذا كان ذا شعور حتى ربما خفف به الى هوة اليأس فكره الحياة وكره نفسه ، وكره الوجود وما فيه ومن فيه ، ولا يبعد على من تقول حاله الى هذه المأساة أن يصوب مصلحه الى رأسه فينسته نسفا .

هل للاستاذ الزهاوي فلسفة ؟

أما أعترف بأن الاستاذ الزهاوي كان شاعرا ، ولشعره طلاوة وانسجام في كثير من موطن القول ، ولكنني أنكر بأنه كانت له فلسفة ، وكل ما يؤخذ مما كتبه في كتبه أنه افتن بمقررات العلم الطبيعي ، وشغف حبا بالفلسفة المادية ، غلغله عن العقائد الدينية ، ولم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثية فيعلن أنه أصبح ماديا ، فوقف حائرا لا يدري بأي فريق يلتحق : بفريق الذين يؤمنون بالغيب ، أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع ، فاعتراه من الهم ما يعتري كل واقف بين طرفين من الوحشة والدمر . فاذا كان الشعر مظهرا لنفسية الشاعر ، فهذا الذي أقوله يؤخذ من شعره صريحا بغير تأويل ، فقد قال :

رأيت المهدي في الفلك والفلك لا يهدي	كأنني بالظلماء قد كنت أسهدي
فطورا أقول الروح كالجسم هالك	وطورا أقول الهلك عنه على بعد
فياك من شك يبرح بي ولا	يبارحني حتى أوسد في لحدي
وإني لا أدري أرشدني كان في	ضلالى هذا أم ضلالى في رشدي
أأفقد جسمي وحده عند ميتي	أم الروح مثل الجسم يشبه فقدي
أروح وجسم أم هو الجسم وحده	يمحكني فيما يضل أو يهدي
أعذب حواري بما أنا ظاكر	كأنني من أعداء حواري الد

يقول : إنه يعذب نفسه بهذا التفكير حتى كأنه من أعدائها ، وليس هذا من شأن الفيلسوف الذي ليس له عون على حل المعضلات غير التفكير ، فهو لا يبالي بنفسه وإنما يبالي بالحقائق التي يشعر بأنه خلق للوصول اليها . فاذا كان لا بد للفيلسوف أن يشكو فهو يشكو من أنه بلى السير ، قليل الراحة ، قليل التضحية .

على أن الشك ليس بابا في الفلسفة ، بل من الفلاسفة من جعلوه أساسا لمذهبهم كبيرون (Pirron) ، الفيلسوف اليوناني الذي كان موجودا قبل المسيح بأربعة قرون ، فقد كان لا يثبت شيئا قط ، مستندا في ذلك على أن الانسان لا يستطيع لقصور عقله أن يصل الى الحقائق ، وقد بقى مذهبه قائما الى اليوم باسم اللا أدرية (agnosticism) وله شيعه في كل أمة .

فيكون تصريح الاستاذ الزهاوي بأن الفلك قد أضناه دليلا على أنه ليس من طائفة اللا أدرية ، ولكن من القائلين بأن الدرس والتفكير يؤدي الى إدراك الحقائق ، فهو قد أحهد نفسه في طلبها ولم يغز بطائل .

وبينا هو يندب عظمت الحيرة ، ويرى أن الروح ليست إلا حالا من أحوال المادة ، إذا به يثبتها ويؤكد خلودها فيقول :

فيانفس سبرى فى الفضاء طليقة فلا شئ فيه للنفوس معوق
لأنت شعاع طار من مختفئه وكل شعاع بالبقاء خليق
نحيق المنايا بالجسوم كثيفة وأما بأرواح فليس نحيق

إذا به يعود الى شلثته من التناقض فيقول :

يقولون إن النفس حق وجودها فلا ينبغى إنكارها وجعودها
فقلت لهم هذا جيبى وعله خيالات عقل شارد لا أريدها
ولم يكن الانسان إلا ابن غابة على حافة قد أنجيت قرودها

الخلاصة أن الاستاذ الزهاوى لا فلسفة له ، لكن له مجموعة من أقوال يتحدى فيها الاسلوب العلمى قولا ، ثم يقفز الى الفلسفة الخيالية فينتزع منها صورا ليست بخلاصة ولا بثابتة ، لأن العلم لا يبنى على الافتراضات وهو يبنى كل مذهبه على الاثير ، والاثير مادة افتراضية كما قدمنا .

أما شعره فهو صورة نفسية من التشكك والحيرة والمويل ، وهذه صفات يرتاح إليها كل من تأثر قلبه بالشبهات وقصرت همته عن المجاهدة لخلها ، وفي القطعة الشعرية التالية صورة صحيحة لهذه الحالة النفسية ، قال رحمه الله :

سيطفى" بأسمى فى المشيب حياتى وأذهب من نور الى ظلمات
ويحملنى صمبى الى القبر إني به بعد حين لست غير رفات
تقطع أوصالى وتبلى جوانبى وليس بوسى أن أثبت شكائى
وأجل بأيام الصبا ففى لم تكن على القم من دهرى سوى بسمات
ولكن أيام الصبا قد نصرمت ولم تبقى ذكراها سوى الحسرات
وطارقت أيام الشباب حميدة وإن كثرت فى عهدى عنراتى
قضيت شبابى مطمئنا وبعدة أفى الشيب منهوكا من الشبهات

فلا جرم أن من يقضى أيام شبابه مطمئنا على ما يساوره من الشكوك والريب ، ولم يكده نفسه للوصول الى الحقيقة ، تحل به الشيخوخة فلا يجد ما يلبيه عن شبهاته ، فتثور عليه ، فتخور قواه أمامها ، فلا يسمه إلا أن يرى نفسه ويندبها ، كما فعل الاستاذ الزهاوى ، ولسنا نقول عليه ، فهو الذى اعترف بذلك فى عشرات القصائد من شعره .

ومن العجيب أن ينلقف بعض الناس مثل هذا الشعر فيجدوا فيه نظرات صميقة ، وتأملات دقيقة .

أما لا أقصد بقولي هذا الاستاذ الزهاوي ، ولكنني أقصد هذا المذهب في بعض الشبيبة ، فهم يطوون أيام الشباب لاهين لاعين ، متفادين عن الشهات والشكوك التي تساورهم ، حتى إذا اتناهم الشيخوخة وجدوا أنفسهم ضحاة ومجردين حياها من كل سلاح ، فلا يبقى لهم إلا حبال من تمزية وهي أن ينشدوا مثل أبيات الزهاوي : ويتنفسوا الصعداء ، معتقدين أن في الكون شكوكا لم يخلق الله لها حولا !

يقول قائمهم : وهل لهذه الشكوك حلول ؟

تقول : إذا فهم من هذه الحلول أن يلقتها طالبا كما يلقي رقم دار أو اسم شارع ، فلا وجود لأمثال هذه الحلول حتى ولا لأبسط مسألة حسابية أو هندسية . أما إذا فهم منها أنها بحوث مستفيضة ، تتناسب والموضوع الذي تعالجه من فهم حقيقة الوجود ، وتعرف أسراره ، وكشف مساتيره ، وتصور ما خلقه من عالم الروح والكائنات المجردة ، فإن هذه الحلول قد وجدت وهي على أسلوبيين :

(أولهما) أسلوب الفلاسفة الأولين من الاعتداد بالمسلّمات العقلية ، والقضايا المنطقية ، والتسدرج منها إلى إدراك العلل الأولية . وهو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة ، فانهم قد تأثروا بالفلسفة العملية فأصبحوا لا يلبثون إلى المسلّمات العقلية ويتطلبون عليها شاهدا حسيا .

(ثانيهما) أسلوب الفلاسفة الومنيين ، وهي أن تبني المقررات على المشاهدات والتجارب التي لا تقبل العرف والتأويل . وهذا أسلوب المعاصرين .

وقد حاكى الشكوك والشبهات في صدور علماء كثيرين في أوروبا ، ففهم من يتسوا من حلها ، وصرحوا بعدم قبولها للحل ، وهؤلاء هم الماديون ، ومنهم رجال أبعد من هؤلاء هم ، لم يشكهم اليأس من بذل الوسع في البحث ، فدأبوا نحو تسعين سنة على جمع المشاهدات وتدوين التجارب ، فوصلوا إلى حلول لمسألة الحياة والروح والعالم الروحاني لا يمكن أن ينطق إليها وهن ، لأنهم وصلوا إليها على أسلوبهم العلمي القائم على النظر والتجربة ، ودونوا فيها مجلدات . منها جمعية المباحث النفسية الانجليزية ، وقد بلغ عدد مادوته من المجلدات ثلاثة وخمسين مجلدا ، وكل الذين تولوا تجميع ما فيها وتدوينه رجال من أقطاب العلم في انجلترا ما بين أعضاء في المجمع العلمي ومدرسين في الجامعات الكبرى . وفي كل أمة جامعات علمية قامت بمثل هذه البحوث ، في مقدمتها فرنسا والولايات الأمريكية وإيطاليا وألمانيا .

فهذه الثروة العلمية التي لم يسمح بها الدهر لحد من عهود البشر ، تحت طلب كل من يريد الاطلاع عليها بأقل كلفة .

فإذا كان في الناس من تنازعه الشكوك التي انتابت الأستاذ الرهاوي ولا يود أن ينلئ
عنها أيام شبابه ، حتى تحمل به الشيخوخة فيجد نفسه مأجرا حياها ، مثله كمثل من يحكم عليه
بالموت وينتظر يوم التنفيذ في كرب لا وصف له ، فعليه أن يستأنس في ساعات فراغه ببعض هذه
المباحث ، فهي على سحرها وطلاوتها ، تؤتبه بالطمانينة التي لا تنفيس معها ، وبالسكينة التي مات
الفلاسفة الماديون دونها بحسرة .

محمد فريد وجدي

البلاغة في تهنئة الملوك

دخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الأمر فقال : يا أمير المؤمنين
من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها ، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها ، كما قال
الشاعر :

وإذا الدّر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زيننا
وروى ابن أبي طاهر قال : دخل المأمون بغداد فنلقاه وجوه أهله ، فقال رجل منهم
في تحيته : يا أمير المؤمنين بارك الله في مقدمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رهبتك ،
تقدمت من قبلك ، وأنعت من بعدك ، وآيت أن يعاين مثلك . أما فيما مضى فلا نعرفه ،
وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فتحن جميعا ندعو لك ، وثني عليك ، خصب لنا جنابك ، وهذب
قوابك ، وحسنت نظرتك ، وكرمت مقدرتك . جبرت الفقير ، وفككت الأسير ، فأنك
يا أمير المؤمنين كما قال الأول :

مازلت في البذل والتوال وإط للاق العاني بحرمه خلق
حتى تمنى البراء أنهم عندك أسرى في القيد والخلق
ولما تولى أزدشير الملك واجتمع اليه الناس يهنئونه قال منكمهم : لازلت أيها الملك محبوبا
من الله بعز النصر ، ودرك الأمل ، ودوام العافية ، وتعام النعمة ، وحسن المزيد ، ولازلت
تتابع لديك المكرمات ، وتشفع اليك القدامات ، حتى تبلغ الغاية التي يؤمن زوالها ،
ولا تنقطع زهرتها ، ولا زال ملكك وسلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر ، زأئدين زيادة البحور
والأنهار ، حتى تستوى أقطار الأرض كلها في علوك عليها ، ونفاذ أسرك فيها ، فقد أشرق
علينا من ضياء نورك ماعنا عموم ضياء الصبح ، ووصل إلينا من عظيم رأفك ما اتصل بأنفسنا
اتصال النسيم ، فأصبحت قد جمع الله بك الأيادي بعد افتراقها ، وألف بين القلوب بعد تباغضها ،
وأذهب عنا الاحزن والحسائلك بعد توقد نيرانها ، بفضلك الذي لا يدرك بوصف ،
ولا يحد بنعت .

في عيد التاج

كن (الكنانة) في جلالك تاجا
 اوتيته من نور ربك آية
 زل (الأمين) بها تكبر حوله
 خذها مباركة ، وقل : رب اهدني
 وأقم لعمي من كتابك شريعة
 إنا وجدنا الخمر فيه ، فلن نرى
 رفح المهلك ، لو يشاء حماها
 وهدى الشعوب ، فسدت خطواتها
 ودهى المحارم والحقوق بأسرها
 لم يبلغ إلا الفاحشات ، ولم يدع
 يشئ بحكمته من الداء الذي
 يجر يؤلف من هـذاك عياها
 هذب المشارب من محجب ورده

وتلق تاجك مشرقا وهابا
 طلعت على دنيا الملوك سراجا
 زمر (الملائك) ترمي أفواجا
 واجعل لمرشى في حماك سياجا
 واسلك به من هديه منهاجا
 من دونه معدى لنا ومعاجا
 لمسوا القموس ، وصاغوا الأبراجا
 وتنازعت حبل الحياة نجاجا
 ووعى المطالب كلها والحاجا (١)
 إلا الماسم تنقل الأنباجا (٢)
 يمي الطبيب العبقري علاجا
 ويسوق من بركاتك الأمواجا
 وجد الموارد كلن أجاجا

(فاروق) أحييت الزجاء لامة
 ذكرتها دين الحياة ، ولن ترى
 ما اتقك هذا الدين بعد كماده
 قلبت رأيتك في الحياة ، فسلم تجمد
 انظر مبادي الحضارة : هل ترى
 واسأل بحالكها ، فليست بواجد
 ظلموا الحضارة ، إنهم زعموا الأذى
 أرايت أدواء الشعوب وذقتها
 إن الأساة هم الذين يطهيم

أيقظت روح شبابها فاهناجا
 كتماره الحسنى جنى ونتاجا
 حتى أصاب على يدك رواجا
 للشعب يصعد ، غيرة معراجا
 إلا غبارا قائما ومجراجا ؟
 إلا ذكبا تنقى ونعاجا
 خيرا ، ولجوا في الحال لجاجا
 دنيا كأنياب الفجاء (٣) مجاجا
 فسد الزمان طبيعة ومنراجا

(١) جمع حاجة (٢) جمع نيج ، وهو ما بين السكامل الى الظهور . (٣) الحية .

بإباني الاخلاق من إيمانه
وأقم لنا الأركان من قولاده
جسدت آمال البلاد ، فأصبحت
تمشي فرادى حول عرشك هية
لما ملكت من القلوب سوادها
أتم لمصر من الحياة نصيبها
طال الهداج (٢) فسر بها مرع الخطي
واذن بصبح من سنك فانها

خذ من كتابك لبناء رتاجا (١)
إنا ارتضينا أن تكون زجاجا
نهوى إليك وفودها حجاجا
فذا أذنت لها مفت أزواجا
حيقت مودتها إليك خراجا
إنا خدعنا بالحياة خداجا (٢)
إن السوابق لا تسير هداجا
تشكو السرى ، وتمايع الادلاج



ناداك (دستور البلاد) وإنما
سنه لشعب سال من جرائه
فاض يقيم على السوية (٤) حكمه
حسب الجماعة أن يحارب وأبها
لو آثروا الرأي الفطير لما استدوا
ماهل من نسب الحقائق ونحما
إنا للشفاق الزئير ونجسوى (٦)

نادى (حى الدستور) فيك وناجى
ماصان من مهج دما نجاجا
ويجانب الايذاء والاحراجا
من مستبد لا يطبق حجاجا (٥)
ينفون بالثورى له إنضاجا
يشقى بمن قلب الأمور وداجى ؟
عبث الآلى ملأوا العين ثواجى (٧)



(فاروق) ميزت المحامد فانبرت
ولبت تاج الملك نسج جلالة
ضاحكت رونقه بصعة شاعر
مصر الزهوم ، إذا اعتراها مزعج
من ذا تؤمل ، والهموم تحضها

منها المنفايا تدفع الامعاجا (٨)
من صنع ربك يعجز اللماجا
نظم الجانف ، ووصع الديباجا
وجدتك مله خطوبها إزماجا
إن لم تكن لهمومها فراجا ؟



يا مسبح الآمال يحمل فلکها
سقمها على بركات ربك واحدها

لا زال فيضك زاخرا عجبا
ودع الكواكب — أنت أسطع تاجا

أحمد محمد

(١) الباب المظيم للطلق ، والطلاق ما . (٢) ناقصة (٣) الهجاء مشية الشيخ (٤) الانصاف .
(٥) من الحاجة ، وهى الحاجة بالحجة (٦) نكرة . (٧) صياح الذم . (٨) المنفايا ماخلص من
كل شيء . والامشاج الاخلاط .

الفقه الاسلامي والفقه الروماني

لا تأثر بينهما

لقد عرضت البحث في هذه الآونة الشبه التي علق بتبعان مشرعي أوروبا وهي أن الفقه الاسلامي منتق من الفقه الروماني لوجود تشابه كبير بينهما . وقد كتبنا نحن مقالا في هذا الموضوع في المجلد الاول من هذه السنة صفحة ٢٣ وقد لعرفنا في المجلد الثالث محامنا لنضبة الشيخ السيد عتيق ، فاشكها لكل ما يشر في هذا الباب تنقل مقالا فيها نشره حصرة صاحب النضبة الاستاذ الشيخ عبد الله المراهي وجه فيه البحث وجهة جديدة حديرة بالنظر ، وتعتبر مكملة لهذا الموضوع . قال حصرة :

لقد طال الجدل وكثر النقاش من مدة غير قصيرة بين الباحثين في الصلة بين الفقه الاسلامي والقانون الروماني ، فذهب بعضهم الى تأثر الفقه الاسلامي بأبحاث الفقه الروماني ونظرياته مستندا الى سبق تاريخ القانون الروماني وارتقاء النهضة التشريعية الرومانية في عصورها المتعاقبة قبل ظهور فجر الاسلام ، فلما جاء الاسلام وأراد أن يؤسس مدنية وحضارة في جميع نواحي العمران اقتبس النظم التشريعية من القانون الروماني . ويشهد لهذه النظرية أيضا وجود الشبه القوي بل والاتحاد في بعض الاحكام الواردة في القانون الروماني والفقه الاسلامي . وذهب البعض الآخر الى عكس هذه النظرية مدعين تأثر القانون الروماني بالفقه الاسلامي ، وذلك البعض يستند الى أن الفقه الروماني وإن كان سابقا في الزمن إلا أنه في بعض عصوره المتأخرة قد طفر طفرة غير طبيعية لم تكن نتيجة للفقه الروماني الموجود قبلها ، بل كانت هذه الطفرة وليدة التأثر بالفقه الاسلامي لوجود الاتصال بين الحضارة الاسلامية والحضارة الرومانية ، فنقل بعض فقهاء الرومان شيئا من الفقه الاسلامي الى فقههم ، وبذلك وجد التلقيح وتداخلت القوانين . واعتمدوا في إثبات تلك النظرية الى وجود التقايع التام في بعض الاحكام بين التشريعين ، وهذا يحمل أدلتهم في عكس النظرية السابقة ، وخلصوا من ذلك الى تأثر الفقه الروماني بالفقه الاسلامي .

ولما كنت أزهر باطبعي ، وقد ألمت من جهة أخرى ببعض أبحاث الفقه الروماني وتاريخه في عصوره المختلفة ، وجدت نفسي مضطرا الى الكلام في هذا الموضوع . وها أنا ذا ألقى دلوى بين الدلاء ، واصوب مسهمي نحو الحقيقة التي أعتقدها ، راجيا أن أصل بتلك المساهمة الى تركيز هذه الحقيقة في نفسي ، أو المدلول عنها بالدليل الصحيح الى حقيقة أخرى . والى القارئ رأيي بأدلته :

إنني أعتقد اعتقاداً صادقا أن الفقه الاسلامي مالبس ثوبا مستعاراً ، وماسكن داراً بطريق الغتصاب منذ نشأته الى الآن . وأتمنى أن يتم له استقلاله ويتردد رقيه .

ومنشأ تلك العقيدة في نفسى هي البراهين القاطعة التي لو عرضت على المكابر المعاند لأدعن لها وصدق بها ، إذ لو تتبعنا الفقه الاسلامي في تطوراته لوحدناه مصاحبا لقانون الطبيعي بدون شذوذ أو طمرة ، فقدماه سارت بطريقة طبيعية ، ونتيجة حدث حدوثها بدون تعثر أو عيوب . ذلك أن الفقه الاسلامي قد وجد في جزيرة العرب عماده كتاب الله الكريم الذي نزل متجما على وفق الحوادث والتدرج في التشريع ، وقد كان ينزل به الوحي الصادق على النبي المصوم صلى الله عليه وسلم . والقرآن أول مصدر من مصادر التشريع الاسلامي ، لا يستطيع مقل أن ينكر علينا قديسته وعدم اقتسابه لخلوق .

وقد حوى هذا الكتاب المقدس جميع لواحي التشريع من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية وعقوبات وتشريعات للسلم والحرب والمواريث ، وتلك التشريعات نارة كانت واضحة مفصلة عرفت أحكامها ، ونارة أخرى كان بعضها في حاجة الى تفصيل وتوضيح من الرسول الأكرم .

فالمسلمون في بحر الاسلام ما عرفوا فقها رومانيا ولا تشريعا رومانيا ، بل كانوا محصورين في الجزيرة وما جاورها لا يفزهون عند وقوع الحوادث التي تتطلب أحكاما إلا الى رسولهم وكتابهم .

وقد كانت لرسول أفضية كثيرة جمعت في كتب متعددة ، فقد كان منبع الفقه الاسلامي في ذلك العهد من كتاب الله وسنة رسوله .

فاذا بحثنا في الطريقة التي نزل بها القرآن والتي جمع بها والتي وصل بها اليها وجدناها أقوى طريق عرفه البشر في ثبوت الحقائق ، فلا تعدلها نظرية الثبوت عند ديسكارت أو روسو أو غيرها من فلاسفة الغرب والشرق ، فقد تحقق في طريق نقل القرآن التواتر الذي يحيل العقل كذب إخباراته ، ذلك هو هصر النبي عليه السلام .

وكان يرسل هدائه ودعائه الى الجهات التي أذعن أهلها الى الاسلام ، ولا يطلب من رسوله أن يناس تشريعه إلا من الكتاب والسنة ، فإن لم يجد فيها يجتهد ويستنبط . فلم يكن المشرع الاسلامي يعتمد على مدد أجنبي أو مصدر روماني . فأنت ترى الرسول لما أراد أن يرسل معاذاً الى اليمن يستمعيه قبل الارسال ليري خلاصته واستعدادده للقيام بأعباء وظيفته والاضطلاع بمهامها ، فيقول له : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فيجيب المرشح للوظيفة بقوله : أقضى بكتاب الله ، فيقول المرسل : فإن لم تجد في كتاب الله تعالى ؟ فيقول المرشح : أقضى بسنة رسوله ، فيعيد عليه السؤال بقوله : فإن لم تجد في سنة رسوله ؟ فيجيب المرشح بقوله : أجتهد

في رأيي ولا أقصر . فيأخذ المارسل نشوة الفرح والوفوق بكفاءة مرشحة فيقول : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله .

وإذا انتقلنا بعد هذا الى عصر الخلفاء الراشدين نجدهم قد ساروا في التشريع على النهج الذي وضعه مشرعهم الأعظم ، ونرى كبار الصحابة قد أشربت نفوسهم تعاليم الاسلام ، واستعدت عقولهم ، وقويت ملكاتهم على التشريع ، فقاموا به خير قيام ، بل قد تخصص بعضهم في بعض المباحث الفقهية ، كما جاء ذلك في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ قام خطيباً فقال : « ايها الناس من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن القراء فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله جماني له تاسياً وخازناً » .

ونرى عمر رضي الله عنه يرسل أبا موسى الأشعري الى البصرة ويضع له دستوراً عاماً ولائحة للقضاء ويحدد مصادره للتشريع ، فأذهى كتاب الله ، وسنقرسوله ، واجتهاده ، واستنباطه الأحكام للحوادث التي تجد ، وقياسها على الحوادث الماضية المعروفة لديه . وقد عرف عدد كبير من الصحابة والتابعين بالفقه والقدرة على التشريع : كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وسعيد بن المسيب وابن شهاب الزهري والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد وغيرهم . هذا ما كانت عليه الحال في عهد الصحابة والتابعين الى منتهى القرن الأول الهجري .

ثم لما جاء القرن الثاني وجدت فيه ظاهرة جديدة وروح واثابة الى وضع القواعد التشريعية التي تبني عليها المسائل الجزئية ، فقد ظهر أبو حنيفة بالكوفة وتلاميذه أبو يوسف ومحمد وغيرهما ، وأخذوا يؤسسون المذهب الحنفي ، ثم تلا ذلك وجود الامام مالك بالمدينة ، وكان له أتباع وتلاميذ . وبعد ذلك ظهر الامام الشافعي المولود بغزة من أعمال عسقلان سنة ١٥٠ هـ ثم أعقبه الامام الرابع أحمد بن حنبل . وقد أسس هؤلاء الأئمة مذاهبهم على الكتاب والسنة . وظهر في ذلك العهد مصدر آخر من مصادر التشريع وهو الاجماع الذي أثبتوا صحته كدليل من أدلة الشرع بقوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » حيث قالوا إن اتباع غير سبيل المؤمنين هو مخالفة الاجماع ، وبأحاديث متعددة تحرم الخروج على الجماعة . وقد اشتد الجدل وكثر حول القياس وكيفية إثبات الأحكام به . وقد أراد كل إمام أن يضع لمذهبه الضوابط والمقاييس حتى يجمع جزئيات المسائل تحت أصل من الأصول الثابتة .

وبذلك نفا عند الفقهاء فن جديد سمي بعلم الأصول ، وهو الذي جعل أساساً لاستنباط الأحكام الشرعية . وقد دون هؤلاء الأئمة وتلاميذهم الكتب التي جمعت أحكام كل مذهب : قدون أبو يوسف ومحمد مذهب أبي حنيفة في كتب معروفة لا تزال مطبوعة الى اليوم ، ككتاب

المراجع، وكتاب الآتارلابي يوسف، وكتاب السير الكبير، وغيره من الكتب التي ألفها الامام محمد. وقد قام بعض الفقهاء باختصار بعض مؤلفات الامام محمد وجمعها في كتاب واحد، كما فعل ذلك الحاكم الشهيد في كتابه المسمى بالكافي.

وقد وضع الامام مالك وتلاميذه مثل ما وضع أبو حنيفة، فقد ألف الامام مالك كتاب الموطأ وجمع فيه كثيراً من أحكام مذهبه، وألف بعده عبد الله بن الحكم المصري كتاب المختصر الكبير، وألف محمد بن سحنون كتابه المشهور بالجامع، وغير هؤلاء ألفوا كتباً كثيرة في مذهب الامام مالك. وسار الامام الشافعي في جمع مذهبه على هذا المنوال، فقد ألف بنفسه كتاب الامم والجماع لأغلب أحكام المذهب، وألف كتاب الرسالة في أدلة الأحكام، وللبويطي تلييف الشافعي كتاب المختصر الكبير والمختصر الصغير، وكتاب الفرائض، وللدزني أيضاً مختصر صغير وكبير. ولا زالت هذه الكتب معروفة في المصنوع الاسلامي يرجع اليها فقهاء المسلمين ولا يعرفون غيرها.

ولو تبينا نشأة الأئمة وكيف تعلموا العلم ومن أين أخذوه لوجدناهم نشأوا في بلاد لا علاقة لها ببلاد الرومان، وتعلموا على أيدي المسلمين. فالسلسلة التشريعية الاسلامية ابتدأت أول حلقاتها بالكتاب والسنة، ثم امتدت الحلقات بالخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ثم ظهور الأئمة المجتهدين بعد ذلك وما استنبطوه من الأحكام المدونة في كتبهم وكتب تلاميذهم. وقد ظلت هذه الأحكام متناقلة الى عصرنا الحاضر لا يستطيع أحد أن يدعي أنها تأثرت بأي مؤثر خارجي.

ونستطيع أن نخلص من كل هذا الى أن مصادر التشريع الاسلامي هي الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وأن فقهاء المسلمين ما حسوا الى معلم روماني، وما قرءوا كتباً رومانية، لأن التاريخ الصحيح يدلنا على ان الوقت الذي وجدت فيه النهضة التشريعية الاسلامية حتى وصلت الى أرقى درجاتها، لم يكن معاصراً لرق الدولة الرومانية، بل كانت الدولة الرومانية في عهد الاضطراب والنقحر في جميع أجزائها، إذ أن الفقه الروماني قد ضعف بموت الامبراطور جستنيان سنة ٥٢٥ م والاسلام قد بدأ من بعد ذلك بنصف قرن، ولا يستطيع أحد أن يدعي انتقال الفقه الروماني بعد هذا التاريخ الى جزيرة العرب التي نشأ فيها الفقه الاسلامي، بل يجمع المؤرخون على أن الفقه الروماني ظل بعد هذا التاريخ مجهولاً عند جميع الناس حتى عند أهل أوروبا أنفسهم، لأنه في ذلك التاريخ لم تكن الطباعة معروفة، والقوانين ظلت منحصرة في دائرة ضيقة جداً في أيدي مؤلفيها أو ورثتهم، أو في الكنائس وما شابهها. والمقروح به أنها لم تتجاوز محيط الدائرة التي وجدت فيها حتى أوائل النهضة الأوروبية التي ظهرت فيها الطباعة وأمكن بث هذه القوانين والحصول عليها من الأماكن التي كانت مقبورة فيها، وذلك كله كان من مبدأ القرن الخامس عشر الميلادي الى الآن.

عالمدة التي كان الفقه الروماني مجهولاً فيها بالأدلة القاطعة كان الفقه الاسلامي في عصوره القهية ، إذ أن الفقه الاسلامي بدأ في القرن السابع الميلادي واستكمل نموه في هذا القرن وفي القرن التاسع والعاشر الذين ظهر فيهما الأئمة المجتهدون ، ودونت فيه الكتب المبسوطة في مذاهب الأئمة الاربعة . فالنارخ الصحيح يدلنا على أن النهضة الاسلامية جاءت بعد اضمحلال النهضة الرومانية التي انتهت بموت جستنيان سنة ٥٢٥ م

وما نفاً عند بعض الباحثين من اعتقادهم بتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني لأن الفقه الروماني سابق في الوجود على الفقه الاسلامي ، فهذا منشأ خاطئ سببه عدم التعمق في البحث ، فإن السبق في الوجود الزمني لا يجعل دليلاً على التأثير ، فكأن من لاحق يأتي بالعجائب والمبتكرات التي لم تجل بخاطر من سبق . وأقوى دليل على هذا هي المحترقات التي جددت في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا العصر ، فلم يكن عند القرن الماضي أي تفكير في الاسلكي والراديو والمطاطيد والتلفزيون وغير ذلك من المحترقات ، ومع هذا لا يستطيع مقل أن يلسب هذه المحترقات الى أهل القرون الماضية . فالسبق الزمني لا يقوم دليلاً على التأثير إلا إذا وجدنا الاتصال الحقيقي والاستمداد والامتزاج بين السابق واللاحق ، كما حصل ذلك في الدولة التركية ، فانها أخذت قانونها الحديث عن القانون السويسري ، وكما حصل في مصر ، فانها أخذت قانونها المدني عن القانون الفرنسي ، وكما يحصل في العمل بدساتير بعض الدول في دولة أخرى . والفقه الاسلامي لم يكن في تطوره وليد هذا التأثير ، وليس هناك أي مستند صحيح لاثبات التأثير على هذا النحو ، فليس من المسلمين فقيه تفل قانون الرومان على هذه الطريقة ، ولم تكن هناك بعثات أرسلت من جزيرة العرب في القرن السابع والثامن والتاسع الميلادي ، وهي عصور النهضة التشريعية الاسلامية ، فقد نشأت الحضارة الاسلامية التشريعية مستقلة في المكلف والتفكير والتعليم . ووجود الشبه بين المباحث في التشريعين لم يكن وليد التأثير ، وذلك لأن المباحث القانونية التي تناولها المشرعون في البحث هي تابعة لوجود الانسان بحالة نظامية ، فقد عرفت هذه المباحث الفقهية الحديثة مثل الأحوال الشخصية والعقوبات والموارث عند قدماء المصريين وعند الافريقيين والسكندانيين وغيرهم من الأمم التي سبقت الرومان . فوجود المباحث الرومانية في الفقه الاسلامي لا علاقة له بتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني . فالنفاذ اللفاظي في التشريعين لا يدل على أن مدلول تلك الالفاظ يتحد في التشريعين ، لأن المباحث الفقهية الاسلامية كما أصلنا مستمدة من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، فهي قانون محاوي ليس للبشر دخل في تأسيس أصوله ، بخلاف القوانين الأخرى فان أسسها وأصولها قد وضعت بأيدي المشرعين ، وهي قابلة للتغيير في أصولها وفروعها ، بخلاف الأسس الاسلامية فانها لا يعترها التغيير لانها وضعت صالحة للبشر منذ أنزلت الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد يفهم بعض الناس أن أسس الشريعة الاسلامية لا تستطيع أن تجاري الزمن وأن تثبت

أحكاماً للحوادث التي تتجدد، وهذا فهم خاطئ، لأن الشريعة الإسلامية جاء فيها جواز إثبات الأحكام بالقياس والاجماع، وهما كفيلا بإثبات الأحكام على عراzen، فلانجد حادثة في الوجود إلا ويستطيع الفقهاء إثبات حكم لها .

فاذن يثبت لنا مما أسلفنا من البيان استقلال التشريع الاسلامي، وان سبق الفقه الروماني عليه لا يقتضى تأثيره فيه، وأن اتحاد الالفاظ التشريعية بين الفقهاء لا يقتضى اتحاد مدلولها ولا اتحاد واضعها، وبذلك تزول الشبهة التي وجدت عند بعض الباحثين من القول بتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني .

ونستطيع بعد أن ألمنا بتاريخ الفقه الاسلامي وببدا عدم تأثره بالفقه الروماني، ان نلم أيضا بالفقه الروماني ونثبت عدم تأثره بالفقه الاسلامي، فقد اصطلح المشرعون الغربيون على إطلاق الفقه الروماني على القواعد التي عملت بها الأمة الرومانية في العصور المختلفة منذ نشأتها حتى وفاة الامبراطور جستنيان . وقد قسم بعضهم هذه المدة الى ثلاثة أقسام، والبعض الآخر الى أربعة، وبعضهم قسمها الى قسمين، والبعض الآخر الى خمسة، واتفقوا جميعا على أن هذه المدة ابتدأت من سنة ٧٥٣ قبل الميلاد، وهو تاريخ بناء مدينة روما، وانتهت بموت الامبراطور جستنيان سنة ٥٦٥ بعد الميلاد . وكانت وقته قبل ظهور الاسلام بنصف قرن تقريبا، وذن قد وجدت القوانين الرومانية، وأخذت أدوارها المختلفة، وتعددت فيها المباحث الفقهية، ووضعت أحكام الأحوال الشخصية، وأحكام العقوبات، وأحكام الموارث، وغير ذلك من مباحث القوانين التي تناولها فقهاء القوانين الحديثة . وسنقصر الكلام على تقسيم واحد من التقاسيم السابقة وهو تقسيم جيبون الذي قسم تاريخ القانون الروماني الى أربعة عصور، لجعل الأول يبتدىء من تاريخ تأسيس روما وينتهي بتدوين قانون الاثنى عشر لوما، وجعل الثاني يبتدىء من هذا التاريخ وينتهي بعدد الامبراطور سيمرون، وجعل الثالث يبتدىء من هذا التاريخ وينتهي بعدد الامبراطور اسكندر سيفر، وجعل الرابع يبتدىء من هذا التاريخ وينتهي بوفاة جستنيان . وقد جرى في تقسيمه هذا على تقسيم الأدوار الطبيعية للإنسان، لجعل العصر الأول بمنزلة دور الطفولة، والعصر الثاني بمنزلة دور الشباب، والعصر الثالث بمنزلة دور الاستول، والعصر الرابع هو دور الهرم . وعلى كل حال لم يكن غائبا لغيره من أمحباب التقاسيم الأخرى، لاتفاقهم جميعا على أن مصباح التشريع الروماني قد انطلق بموت الامبراطور جستنيان .

وشبهة بعض القائلين بتأثر الفقه الروماني بالفقه الاسلامي ترجع الى أن الرومان لما أرادوا وضع قانون الألواح الاثنى عشر كونوا لجنة لوضعه، وهذه اللجنة اتفق المؤرخون بأنها كانت على علم بالقانون اليوناني، فان كثيراً من القواعد المقررة بقانون الاثنى عشر لوما مأخوذة بعضها من قوانين سولون التي درسها في مصر، وكان للقوانين المصرية تأثير غير مباشر في القوانين

الرومانية . وهذه النظرية على فرض صحتها فإن هذا التأثير لم يكن بين القوانين الرومانية والفقه الاسلامي ، لأن الفقه الاسلامي في هذا التاريخ لم يكن على ظهر الأرض فصلا عن أن يكون في مصر ، فإن قانون الاثنى عشر لوما وضع في القرن الرابع قسمل الميلاد وقبل ظهور الاسلام بتسعة قرون تقريبا .

والطفرة التي ظهرت في تقدم القوانين الرومانية في عهد جستنيان لم تكن كذلك وليدة التأثير بالفقه الاسلامي ، لأن عهد جستنيان كان قبل ظهور الاسلام بنصف قرن ، والتقدم الذي حدث في عهد جستنيان لم يكن طفرة في الواقع بل هو وليد التقدم الطبيعي ، إذ ان القانون الروماني كان في دوره الرابع منذ وجوده ، وهذه المدة التي كانت قد مضت عليه تبلغ أكثر من عشرة قرون ، وهي كافية بوصول المدنية الى أرقى درجاتها .

وحينئذ أستطيع أن أقطع بمدكل هذا بأن الفقه الاسلامي لم يتأثر بالفقه الروماني السابق عليه لعدم وجود الصلة بين مشرعي الاسلام وفقهاء الرومان . وكذلك أستطيع القطع بأن الفقه الروماني وإن تأثر بالقوانين المصرية فإنه لم يتأثر بالفقه الاسلامي لسبق القانون الروماني على الفقه الاسلامي ، كما يعطينا ذلك التاريخ الصحيح ؟

هبة الله المراغى

مضار التكلف

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « وما أنا من المتكلفين » . وقال حكيم : من تطيع بغير طبعه ، زعمته العادة حتى ترده الى طبعه ، كما أن الماء إذا أسخنته وتركته عاد الى طبعه من البرودة ، والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لا تثمر إلا مرارة . وقال غيره : ليس الفقه بالفنقة ، ولا الفصاحة بالنفص . لأنه لا يزيد متريد في كلامه ، إلا لنقص يجده في نفسه .

وقال حفص بن النعمان : المرء يضع نفسه ، فتى ما تبلى يفرج الى العرق (أى متى ما مختاره يستحل الى أصله) .

وقال المرجى :

يأبها المتحل غير سيمته
ارجع الى خلقك المعروف بدينه

وقال آخر :

ومن يتلذذ ما ليس من سوس نفسه
يدعه ويغلبه على النفس خيمها

الأنصار

روى البخاري في صحيحه عن غيلان بن جبر « قال : قلت لانس : أرأيتم اسم الأنصار كنتم تسمون به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله » :

كان الاسلام قبل أن يهدي الله اليه قلوب الأنصار ، ويهيئ نصرته نفوسهم ، مستترا في دار الأرقم ، لا يعلن عن نفسه إلا ههنا ، ولا يستجيب له إلا أفراد ممن اصطفاهم الله ليكونوا دمامة لبناء أعظم دولة عرفها التاريخ ، ولتوطيد أفضل شريعة عرفتها الحياة ، فلما استجاب الأنصار لدعوته دوى صوته في الآفاق ، وطوى الجزيرة العربية ، ومد رواقه على مملكتي الدنيا إذ ذاك ، ونشر لواءه في شرق الأرض وغربها ، وأملى على التاريخ صفحات الخلود ، ومراسيم البطولة ، ووضع للانسانية قوانين الحق والعدل والرحمة في ظل السلام .

هذه الصفات الساطعة في صدر التاريخ الاسلامي ، وهذا الانقلاب التاريخي في حياة الامة العربية ، وهذا الانجاء الجديد في حياة الشرق بل في حياة الالسانية ، إنما هي صدى تأييد الأنصار لدعوة الاسلام ، أولئك الذين نصرُوا الله في دينه ، ونصروا رسوله صلى الله عليه وسلم في دعوته ، فسماهم الله بأشرف الاسماء ، وأنعم عليهم بأنبى الانقياد ، تخليدا لبطولتهم ، وإعادة بفضل أعمالهم ، وتشريفا لتاريخهم .

والحديث عن الأنصار طويل عريض لا تستوعبه المقالات ، ولا تستوفيه الصفائف ، وإنما هذه زهرات تنثرها في حياتنا ليكون لنا من أريجها ما يحيي فينا روح البطولة الاسلامية والخصائص العربية ، وليكون لنا من التأمل في مطاوعها درس يعيد البنا ما فقدنا من مظاهر الرجولة التي ربي عليها الاسلام أسلافنا فسادوا وملكوا ناصية الدنيا باخلاقهم البهيلة ، وأعمالهم الجليلة .

اندفعت موجات القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية بسد سيل العرم الذي دمر مرافق حياتهم مهاجرين في طلب العيش ، وتفرقوا في أرجائها شرقا وغربا وشمالا ، وكانت قبيلة « الأزد » القحطانية إحدى هاتيك القبائل التي ارتحلت ، فأخذ بعضها طريقه الى ساحل الثرات ، حيث مد القحطيون طنبا دولتهم ، واستقر بهم النوى في جوار الفرس ، وعاشوا عيشة استقرار وملك ونظام اجتماعي يتناسب مع بيئتهم ومكائهم ، وجد بعضهم السير الى أقصى الشمال حيث أثنى رجاله في مشارف الشام ، وأسسوا دولة الفساسنة مصابة لروم .

لم يشأ أبناء « قيلة » : الأوس والخزرج من الأردنيين — أن يتابعوا إخوانهم في سيرهم ،

بل عرجوا في طريقهم على « يثرب » حيث رأوا خصبا وحياة استقرارية تعتمد على الشئون الزراعية بما أسس فيها اليهود الذين نزحوا إليها بعد حوادث « مختصر » من مزارع وحقول وبساتين ، ولم يرضق الوطنيون من اليهود هؤلاء القادمين ذمرا أول أمرهم ، بل رحبوا بهم وفتحوا لهم باب الحياة ، وأفسحوا لهم في سبل العيش معهم ، لأنهم وجدوا منهم ممالا ذوى بصر بالحياة الزراعية التي يظهر أنهم كانوا على عهد بها وأنهم حذقوها وصرخوا عليها أيام مقامهم باليمن وجناتها ، فوسعوا لهم في جوارمهم ، وأدخلهم معهم في حياتهم إدخال التبعية ليفيدوا منهم ، ولكن العرب الذين لم يألفوا التبعية المطلقة والخضوع أبت عليهم نفوسهم الآبية أن يستمروا هذه الحياة ، وتطلعوا الى حياة تحفظ عليهم طبيعتهم الاستقلالية ، وتمكن سلطانهم في أرض اتخذوها وطناً لهم ، وهي من صميم جزيرتهم ، ولم يكن هؤلاء اليهود الذين استعمروها إلا قوما غرباء نزحوا إليها فأوتهم ، ولا سيما أن القحطانيين طالبة لا يرون لهم وشيعة تصل نسبهم بنسب اليهود كذلك القرابة التي تجمع بين المدائنيين وبينهم ، فأنهم لم يكد يشند ساعدهم ويتوطد مقامهم ونمود اليهم طمأنينتهم ويتعرفوا شئون الحياة في موطنهم الجديد حتى أخذوا في بناء كياناتهم الاستقلالية الى جانب اليهود ، وشاركهم مشاركة المساواة في حياتهم « اليتربية » وصارت لهم كما لليهود رعوس أموال ومزارع ، ومن ثم دبت ثعابين الفتنة تحف بينهم نافثة مسموما ، فاليهود كبر عليهم أن يكون لهم طارئان هذا المركز في بلدتهم وزراعتهم ، وخشوا على مستقبلهم الاقتصادي أن يتهدم صرحه ، وأبناء « قبلة » من العرب رأوا أن اليهود يريدون استعبادهم والتعالى عليهم ، فأقبلت علاقاتهم الى خصومات دائمة تطاير شررها في مواقف عديدة ، وجعلت « الأوس والخزرج » يدا واحدة على أعدائهم الذين قلبوا لهم ظهر المحن ، وأظهروا لهم الكراهية ، وأضرروا بهم الوقيعة .

كان النضامن العربي قوة لا تغلب ، وأدرك اليهود أثر تلك القوة في نضالهم ، فعمدوا الى الكيد والفتنة وسياسة التفريق ، وسعوا بين الاخوة لافساد أخوتهم وتفريق جماعتهم حتى احتربوا وقتل بعضهم بعضا ، واليهود دائبون في إذكاء نيران الضغينة بينهم ، ولهم من طبيعة العرب العامة ما ساعدهم على الوصول الى مقاصدهم ، ومكن العداوة في قلوب القبيلتين ، وكانت لهم حروب طاحنة وأيام مهلكة ، أدرك الاسلام منها ، وهو لا يزال وليدا يحبو بين المسجد الحرام وقار حراء ، أفساها وأشدها هولا ، وأشهرها يوم « بعاث » وهو يوم تقول فيه السيدة عائشة رضي الله عنها في رواية البخاري : « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤم ، وقتلت سرواتهم ، وجرحوا ، فقدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الاسلام » . وكان الظفر فيه أول الأمر فخرزج على الأوس ، وكانت قائد الأوس وزعيمها يومئذ « حضير الكنائب » فلما رأى هزيمة قومه عقر نفسه برمح ، وأقسم لا يبرح مكانه حتى يخلصه قومه

أويقتل ، فكر الأوس راجعين للموت دون فائدم وزعيمهم ، ونضج العار منهم ، حتى الوثيلين بين القريةين ، فكانت الدائرة على الخزرج ، وكان النصر للأوس ، وراح « حضير » يشي غلته يحرق ويقتل ويهدم ليستأصل شأفة بنى صموته ، فثمة أبو قيس بن الأسلت بدافع العصبية العامة ، ملتفتا الى ماضيهم مع اليهود ، وما كان بينهم من العداوة وسوء الجوار ، طالبا الأبقاء على إخوانه الخزارجة ، لأن « جوارهم خير من جوار الثعالب » .

جاء الاسلام وليس بين قوم من العداوة والشر ما بين « البثرين » من العرب ، ولم يكن لديهم نبأ بما يجري في مكة من فضال شديد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أفراد المؤمنين القلائل الذين يعتمدون على قوة العقيدة وسلطان الايمان بالله القوى القاهرة وحلال الحق ، وبين كثرة قريش التي تجمعت بقضها وقضيضها معصرة بمجبروت العصبية وكبرياتها ، وعنجهية الماضي الموروث ، وصلف الزامة التي لها بمكة ، وللبثرين بمكة ما رُب وشماثر كغيرهم من قبائل العرب ، فهم يحجون اليها لاداء تلك الشاثر وقضاء هذه المآرب ، وهم يتميزون عن بقية العرب بأنهم « حصريون » جاوروا اليهود ومحمسوا أحاديثهم الدينية ، وكان أن قدم جماعة منهم مكة فيهم « سويد بن الصامت » وكان رجلا نبيلًا طافلاً ، ترامت اليه بعض سمرات الأفكار الانسانية الحكيمة ، تلقفها في رحلته أو هثر عليها بما شاء الله ، فرددها لسانه وحفظها قلبه وكنها في صحيفة جمعها عمراء ومعمرة ، فلقبه النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وهو يتحسس قلبا نابضا بالحياة لباقي فيه كلمة الله التي أمره بتبليغها الى الأحمر والأسود ، ودماه الى الاسلام ، فقال « سويد » : لعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال « سويد » : معي عجلة لقمان ، فأصغى اليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصغى منها شيئاً ، فقال المصطفى عليه الصلاة والسلام : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل ، وهو قرآن أنزله الله على هدى ونورا . وأصغى بعض آيات من الكتاب الحكيم . فاحتبس « سويد » ما سمع ، ولكنه لم يجب ، وذهب وفي نفسه أشياء تضطرب ، فلا بد أن يكون قد ساءل نفسه : ما هذا الذي أسمعني هذا المكي القريش ؟ وما بال قومه انصرفوا عنه ؟ وما هذه الأصنام التي تقيم على عبادتها وهي أحجار نتحتنا بأيدينا ؟ وما هذه الصحيفة التي أحل ثقلها ؟ وهل ما فيها من الحكم يقوم على نظام الحياة العام ؟ وهل يصح أن يكون دستوراً إنسانياً ، فأين أثره إذا وبين قوى أودية من الدماء ؟

من الطبيعي أن يكون « سويد » قد ساءل نفسه نحو هذا التساؤل ، ومن الطبيعي أن يكون قد فكر في هذا الكون وعظمته وما يجب أن يكون حاله من جلال وتقديس ، ومن الطبيعي أن يكون قد أتى الى بعض أحصائه نبأ هذا اللقاء للمجيب ، ومن الطبيعي أن يكون قد وجد ترابط في نفسه ، وفي نفس من عسى أن يكون قد حدثه ، بين صاحب

هذه الدعوة الكريمة ، أو بين ما كان يخوفهم به اليهود من بعث نبي يدعو الى التوحيد الذي هو أصل ديانة اليهود ، فيشايهم ويقتل الوثنيين ، ولكن « سويدا » لم يطل مقامه على الأرض بعد هذا اللقاء ، فقتله الخزرج فيمن قتل من وجالات الأوس يوم بعاث ، وإن يكن في أكبر الظن قد خلف بعض هذا الاضطراب الذي كان في نفسه وراءه بين أفراد من قومه ، ولعل في هذا تليلاً لسبق « إلياس بن معاذ » أحد شباب الأوس قوم سويد بن الصامت الى الاسلام ، وكان إلياس قد ذهب الى مكة في وفد « أبي الحيسر » لعقد حلف مع قريش على محاربة الخزرج استعداداً ليوم بعاث ، فاجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ودعاهم الى الاسلام ، وأجمعهم القرآن الحكيم ، فابتدر إلياس القوم وكان أصغرهم : أي قوم ! هذا والله خير مما جئتم فيه ، فنهته إخوانه ، ولكن الايمان كان أسرع الى قلبه من التحذر السيل الى بطون الأودية ، وعاد مع قومه مسلماً يحمل نبأ الدعوة الاسلامية الى « بثر » المتطاحنة بأوفي وأرضى مما حمل إليها « سويد بن الصامت » .

ونظرة في قصة سويد تدلنا على أثر التهذيب الفكري ووداعة الحضر عنده ، وتدلنا على ما انطوت عليه نفس النبي صلى الله عليه وسلم من محو في أدب الدعوة الى الله تعالى ، وتقدير للحكمة والحق أي وجدنا ، فهو قد استمع الى سويد يعرض عليه حكمة لقمان ، وقد استحسن ما سمع ، وقد استطاع بذلك أن ينفذ الى قلب سويد ، وأن يبلغه دعوة الاسلام في هدوء واطمئنان ، وسويد وإن لم يجب صراحة لكنه تأثر بهذه الدعوة ، وعاد الى بلده وقومه بهذا التأثير ، وعرف اليربوعون نبأ مكة ، ونسبوا له ، وتحدثوا به همما ، وكان يغلبهم عليه مام فيه من حروب طاحنة أضقت قوامهم ، وأثمنت فيهم عدومهم ، وجعلتهم يتطلعون الى ما يعيد إليهم وحدتهم ويجمع كلمتهم ، فانفقوا على أن يمصبوا « عبد الله بن أبي » وقد أظلم موسم الحج ، فوفدوا الى مكة ، واجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بنظر منهم كانوا من الخزرج ، ودعاهم الى الاسلام ، فذكروا حديث اليهود عن نبي يبعث ، وذكروا همس سويد بن الصامت بشأن لقاءه هذا الداعي الكريم بمكة ، وذكروا شائ غلام بني الأشهل « إلياس بن معاذ » فلم يترددوا في إجابة النبي صلى الله عليه وسلم الى دعوته ، وأسلفوا جميعاً ، وفتحوا أمام الاسلام باب الحياة بعيداً عن مكة وعمبياتها حتى تخضد شوكتها ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فمسي أن يجمعهم الله بك ، وإن يجمعهم عليك فلا رجل أمر منك ؟

(للبعث بقية)

صالح إبراهيم هرجونه

محمد صلى الله عليه وسلم

في تقدير قادة الرأي في أوروبا (١)

رأنا مضطرين للتحويل إلى موضوع آخر من هذا البحث ، فليس لدينا وقت للتبسط في مسألة انقسام المسلمين الى سنيين وشيعة ، ولا في مسألة الامامية . هذه مواضيع مفيدة بغير مشاحة ، ولكن عجرة على إغفالها لضيق الوقت .

بمد أن عرضنا للتأحية الظاهرية من الديانة الاسلامية بقى علينا أن نعرض لناحيها الفلسفية :

إن في العالم الاسلامي الزاخر اشياء كثيرة يجب إغفالها ، ولكن لا توجد عبارات مهما كانت بليغة توفى ببيان ما كان عليه الاسلام أيام عظمته الفكرية .

قال رسول الاسلام في إحدى خطبه : « اطلبوا العلم فان الذي يطلبه الله يؤدي هملا من أعمال البر ، فالتكلم فيه تسبيح ، والبحث فيه عبادة ، ونشره بين الناس صدقة ، ومنحه لمستحقه قربي من الله . فان العلم يجعل صاحبه يميز بين ماهو منتهى عنه وماهو مرغوب فيه ، ويضئ له طريقا للوصول الى الله ، وهو رفيقنا في السفر ، وأميننا في الوحدة ، وصديقنا إذا حررنا الأصدقاء . وإنه ليرشدنا الى السعادة ، ويقويننا على احتمال المصيبة ، وهو حليتنا ونحن بين أصدقائنا ، وسلاحنا ضد أعدائنا ، به يرتفع الميد الى مستوى الاحسان ، والى أشرف مكان ، فيشارك الملوك في عليائهم في هذه الحياة ، ويصل الى غاية الكمال في أخراه »

وإن للنبي لكلمة قد بلغت الغاية في التأثير ، والنهاية في السموة ، ألا وهي قوله : « إن مداد العالم أعلى قيمة من دم الشهيد » وهذا تصريح لم يكن منتظرا من رسول استشهد الكثيرون من الرجال في سبيله ، ولكنه في الوقت نفسه حق الى أبعد حد .

ولقد تحلى على علي ، حبيب رسول الله وربيته ، مذهب الاسلام ، ونبع منه علمه الفياض . فقد كان يعلم أصحابه في معسكرات المعارك والمكاثفات ، وكان يقف ليعلم الشبان ، وينصحهم بأن يدرسوا ، وبأن يكونوا أئمة للعلم قبل كل شيء . وقد أعطانا المسلمون تعريفا عن العلم يجب أن نذكره هنا وهو : « العلم نور القلب وجوهره ، الحقيقة غرضه وغايته ، والالهام دليله ومرشده ، والعقل مستقره ومهيئته ، والله موحيه وملهمه ، والكلمات الانسانية أداته وآلته » .

(١) تأليف لما ترجم قبل هذا في الاعداد السابقة من كتاب في تاريخ الدين المنتشرة في الهند لجمعية التيوسوفية العالمية .

لا يوجد في التمازيف العلمية التي خرجت من بين شفقي البشر . ما هو اجل من هذا التعريف ، لقد سرحت مائة عام كان تلاميذ على يدرسون فيها العلم وينقبون عن مصادره ، بينما النصف الآخر من المسلمين يناقشون عن الاسلام ويفتحون الأفق . بعد هذه المائة سنة من الدرس والاطلاع في جوم من السلام ، ابتدأت ثمراتهم تظهر وأى عمارات ! من القرن الثامن الى القرن الرابع عشر كانت يد ابن الاسلام تقبض على شعلة السلم والمعرفة . وأينا انتقل المسلمون نقلوا علمهم معهم . ولقد كانوا يفتحون الممالك ، ولكنهم كانوا في كل قطر فتحوه يؤسسون المدارس ، ويشيدون الجامعات . فأقاموها في مصر وبغداد وقرطبة في أقصى غرب إسبانيا استهداء بروح الرسول . وكان أهل أوروبا المسيحية يتدفقون على الأندلس ليأخذوا عن علماء المسلمين أصول العلم الذي أهملوه ونسوه . فقد قاموا بتدريس علم الفلك ، وترجموا كتاب السدذات الهندى وكتبها أخرى ، ووضعوا التأليفات في الفلك والكيمياء والرياضيات . وقد تلى البابا سيلفستر الثانى العلوم الرياضية في جامعة قرطبة في شببته ، وهو الذى تولى البابوية ، واتهم للسبب المتقدم بأنه مبتدع وأنه ابن الشيطان .

وقد اخترع المسلمون ما لم يكن موجودا ، وأى شيء لم يكونوا هم مخترعيه ؟ أخذوا الرياضيات من الهند واليونانيين ، فكتشفوا المعادلات ذوات الدرجة الثانية ، ثم ذوات الدرجة الرابعة ، ثم نظرية المعادلة ذات الحدين ، وأطبقوا في علم حساب المثلثات السيونس والكوزينوس . وقد كانوا أول من اكتشف علم حساب المثلثات الكروى . واخترعوا المنظار المعظم (التلسكوب) ورصدوا به الكواكب ، وحسبوا أبعاد الأرض ولم يحطثوا إلا في درجة أو درجتين ، وكان ذلك منهم بواسطة الأقيسة المأخوذة على سواحل البحر الأحمر ، فإذا كان هؤلاء الرجال الذين درجوا من عرين الاسلام ؟ لقد أسسوا علما جديدا لمن العماره ، واكتشفوا موسيقى غير التي كانت موجودة ، وقاموا بتدريس الفلاحة العلمية ، ورفقوا الفنون الصناعية الى أعلى ما يمكن أن تصل اليه . فهل هذا كل ما عملوه ؟

لا ، فقد بلغوا في الفلسفة الى شأو أبعد من ذاك الشأو ، فانهم في مجالها قد انغمسوا في خضم الكائن الأعلى ، فأعلنوا وجود الواحد المطلق وعلاقات الانسان به وحده ، وقرروا استمداد الروح البشرية من روح الخالق . وحالجوا الكلام عن الفضاء وعن الزمان . وقد وصل المسلمون بسمو استعدادهم العقلى من علم ما وراء الطبيعة ، الى اكتشاف أعجب الحقائق الفلسفية ، أى الى (الفيدانتا) الخالصة بإخواني الهندود ، لأن كل علم ينتهى اليه . وفي هذا المجال يعلو اسم ابن سينا وابن رشد على جميع الاسماء الأخر .

على هذا النحو تفحرت ينابيع العلم في مسمى ستة قرون متوالية بتأثير النبى وتعاليمه . فاذا أراد اليوم إخوانى المسلمون أن يقتنوا آثار آباؤهم العظام ، وأن يترجموا مآثرهم

من ثروتهم العلمية الى اللغات الأجنبية ، وأن يلتقوها لأبنائهم (وهم لا يفعلون شيئا من ذلك) وأن يروم على مبادئ فلسفتهم (وهم لا يهتمون اليوم بها) ، لو فعلوا كل ذلك رفعوا اسم الاسلام الى أعلى مكان بين جميع فلسفات العالم . وكل رجل متعلم في أبناء الاسلام يجب أن ينضلع من الفلسفة الاسلامية ، كما يعرف الهندى (فيدانتاه) ، ويجب أن يكون قادرا على تبين نبيه في نظر العالم العقل بأسره .

قلت إن اسكل ديانة حصة خاصة من العلم الباطنى ، وللإسلام كذلك حصة منه . ولقد كان على في طبيعة هذا العلم لمن أخذ عنه ، وهؤلاء قاموا بنشره بين الناس .

في السنة التي هاجر فيها النبي من مكة تبعه خمسة وأربعون رجلا من الفقراء ، اجتمعوا لاتباع أوامره وسنة رسوله ، وتألفوا الحياة مجتمعين يعملون بالتعاليم الروحية . هؤلاء كانوا أصلا للصوفية ، ومظهرا للناحية الباطنية من الاسلام . ولقد كان شعار صوفية المسلمين « كل من عند الله » ، وكان مذهبهم أن لا شيء خارج عن مدد الله ، وأن الكون كله ليس إلا مرآة ترسم عليها قدرة الله ، وأنه يوجد جمال مطلق ، وأن كل ما هو جميل في هذا العالم ليس في حقيقته غير شعاع من هذا الجمال المطلق ، وأنه لا يوجد غير حب واحد هو حب الله ، وكل حب آخر ليس إلا جزءا من هذا الحب العام ، وأن الموجود يحق هو الله وكل ما سواه عدم محض ، وأن الانسان وهو تفتحة من روح الله يستطيع بواسطة السمو الروحاني أن يرتفع من درجة العدم المحض الى درجة الوجود ويعود الى الله . ألا فأصغوا الى لأممكم كيف تفنى المسلمون بحب الله ، وانظروا أية عبقة من التقوى تنبث من الشعر الفارسي في الاسلام .

قال جامي الصوفي الفارسي في شعره :

أنت الموجود المطلق ، وكل ما عداك خيال .

لأن جميع الكائنات في العالم ليسوا إلا شيئا واحدا .

وجمالك الذي تيم العالم أجمع ، وأجهد الناس أنفسهم لاماطة الثام من إبداعه ، يظهر مطبوعا على آلاف من المرايا ، ولكنه في حقيقته واحد غير متعدد .

وبما أن جمالك يشرق على كل ما هو جميل ، فإن الذي تيم القلوب في الواقع هو جمالك أنت ولا شيء معه .

اللاوجود هو مرآة الوجود المطلق .

وهناك تظهر فكرة عظمة الله وجلاله .

ومنى قبل اللاوجود بالوجود تنشأ في الانسان فكرة عنها .

وتظهر وحدة أحدهما في خلال كثرة الآخر .

وتصبح إذا عدت الواحد وجده متعددًا .
والعد وإن كان أساسه الواحد فانه مع ذلك ليس له آخر .
فيصير اللاوجود في ذلك الحين واضحًا ، ومن هنا يصير الكثر الخفى ظاهرًا .
فردد الآن ما جاء في الأثر « كنت كثيرًا مخفيا »
لتدرك أنك تستطيع أن تتأمل هذا السر المكتوم واضحًا ؟
محمد فريد وهدي

شبيه الشيء منجذب إليه

قال صلى الله عليه وسلم : « صاحب رقعة في الثوب ، فلينظر الانسان بم يوقع ثوبه »
وقال عليه الصلاة والسلام : « امتحنوا الناس باخوانهم »
وقال الشاعر :

فاعتبروا الأرض بسكانها واعتبروا الصاحب بالصاحب
وقالوا : كل إلف الى إلقه ينزع . وقد نظمه شاعر فقال :
والالف ينزع نحو الألفين كما طير السماء على آلافها تقع
وقال آخر :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا نصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل من قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وقال آخر :

اصحب ذوي الفضل وأهل الدين ظلمه منسوب الى القرين
وقال شاعر :

إن النفوس لأجناد مجندة بالافن من وبنامجري وتختلف
فما تعارف منها فهو مؤلف وما تباكر منها فهو مختلف
وقال امرئ القيس :

أجارتنا أنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب لبيب

الاخلاق الفلسفية

- ٢ -

أشرنا في الكلمة السابقة الى ما للديانات الوضعية من أثر على النفوس البشرية ، وأبنا ما أدته تلك الديانات — على بطلانها — الى الانسانية من أهد بيضاء في الرقي الاخلاقي والعمرائي ، ووعدنا بأن نعرض في هذه الكلمة للديانات السماوية ، وأن نبين فضلها الاكبر على البشرية التي أقتضتها من هوى الرذيلة ، وصعدت بها الى حيث هي الآن من عليا الدرجات اللائقة بكرامتها والمميزة لها عن بقية الكائنات ، وقلنا أيضا : إننا سنناول في هذه الكلمة آراء العلماء المحدثين الاوربيين واختلافاتهم الكثيرة حول نظرية « وجوب تأسيس الاخلاق على الدين أو فصلها عنه » وما يدل به كل من المريقين في هذا الشأن من حجج وبراهين تؤيده فيما ذهب إليه . وما نحن أولاء نوفي لك بوعدها فنقول :

رأى الفريق الأول :

ترى هذه الشعبة من الأخلاقيين وجوب تأسيس الاخلاق على الدين ، وتعتقد ان هذه هي الوسيلة المثلى لحاية الفضيلة ورعايتها ، وتصرح تصريحاً طامعا بأن أية وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة سنظل ضئيلة الفائدة ، قليلة الغناء . وحجتها في ذلك ما يأتي :

نحن نعلم جميعا أن أسس الاخلاق الدينية مرتكزة على الوحي الالهي الى الانبياء عليهم السلام ، ونعلم أن الله أوحى إليهم أنه سبحانه أصل الخير والمعارف ، وأبأهم بالعنصر الذي خلقهم منه ، وبطبيعتهم التي كانوا يجهلونها ، وبمصيرهم العام ، وبواجبهم الذي لا يلبغي أن يجحدوا منه قيد أتملة لو أنهم ساروا على الفسق الذي يحبه لهم . وأوحى إليهم كذلك أن عقل الانسان ضعيف ومحدود ، وأنه في حاجة الى المرشد الأعلى ، ليمديه الى سواء السبيل ، وأن مصلحته الخاصة تقضي عليه بأن يطيع ربه مقتنعا بأنه تعالى لا يامر إلا بخير ، ولا يحض إلا على الفضيلة ، وأن هذه الحياة الدنيا ليست إلا قنطرة يمر عليها الانسان الى الحياة الخالدة ، وأن حظه لا ينتهي عند هذا الأجل الدنيوي القصير ، بل سينصل بما قدر له في العالم الآخر الذي سيلاق فيه جزاء عمله إن خيرا نغير ، وإن شرا فشر .

وتمتاز الاخلاق الدينية بأنها مؤسسة على حب الله وإطاعة كل أوامره ، ثم على حب المؤمنين الى حد تسويتهم بالنفس : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ولا ريب أنه إذا أحب الانسان خالقه وأطاع أوامره ، وأحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فقد وصل الى أرقى درجات الكمال .

هناك فضل آخر قد سكبته نور الأخلاق الدينية على بني الإنسان ، وهو أنه ربط وجداناتهم وضائرتهم بالمروءة الوثقى التى لا تنفصم ولا تتحل ، وهى مروءة الإيمان .

أما من الناحية العملية البحتة ، فإن الحقيقة الدينية هى وحدها الحقيقة العليا أو المطلقة . وأما ماعداها ، فهى حقائق نسبية تتصل بتلك الحقيقة الأبدية من قريب أو من بعيد .

وأما أولئك الذين يزعمون أن الدين والعلم متعاديان ، فهم واهمون أو سطحيون ، لأن العقل — وهو الممثل الأعلى للعلم — لم يخرج عن كونه هبة من صاحب الدين .

وإذا ، فيلبنى أن يجتزج الدين بكل أفكار الإنسان وأعماله فى هذه الحياة ، لأن موضوع الأخلاق هو دراسة صلات بني الإنسان بعضهم ببعض . ولا يمكن أن ينظم هذه الصلات تنظيها محكما غير البارئ الأعلى فى قانونه الخالد ، وهو الدين ، ولأن واجب الإنسان نحو أسرته ومواطنيه ونحو أفراد الإنسانية جميعا منبجس من منبع واحد وهو واجب الإنسان نحو ربه : « من اتقى الله اتقى الناس » .

والواقع المحسوس الذى نفاهده كل آن فى الحياة العملية هو أن الإنسان صميم عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية ، وأنه فى أشد الحاجة الى موعنة صوت الإيمان ، ليقوده فى هذه الظلمة الخفيفة التى تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يقود الوجدان البشرى إلا تلك القوة العليا التى تحيط بكل شئ ، وتستطيع كل شئ ؟ ثم أى جزاء هو أكثر رهبة فى نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدى الذى سيلتقى بها فى حياة طويلة لا يدرك مداها ، ولا يعرف منتهىها ؟ وأى جزاء يسلى عن أحزان الحياة وآلامها أعلى من التذكير فى عدالة الله التى ستوفى الصابرين أجرم بغير حساب ؟

هذا كله بالنسبة الى أثر الدين على الفرد ، وأما أثره على الجماعات ، فهو لا يقل أهمية مما تقدم ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يفهمنا احترام الأنظمة المقررة ومعنى الفضيلة الماثلية والاذعان لسلطات الشرعية ، ويعودنا على الصبر واحتتال الآلام وتخفيف وقع منظر الفروق الهائلة بين شقائقنا وسعادة غيرنا على تقوسنا أكثر من الدين ؟

وفى الحق أن حكومة تشعر بأن عليها واجبا تؤديه لأفراد الشعب لا تستطيع أن تؤسس تاليمها الأخلاقية منفصلة عن الدين ، بل يجب عليها أن تشركه على الأقل فى تأسيس هذه الأخلاق إن لم تعتمد عليه اعتمادا كلياً ، وأن تسمح له مكانا عظيما فى مدارسها ومبانيها ومتندياتها ، ليستطيع أن يؤدي مهمته فى تهذيب النفوس كما ينبغي ، لانتا جميعا نعمل على صيانة القوانين الوضعية ، ونسهر على احترامها وحفظها من عبث العابثين ، بل إنها تعمل من تقوسنا أحيانا الى مرتبة الاجلال والتقديس ، فاذا دوت فى المسكن هذه الجملة : « باسم القانون أعمل

كذا» عند ذلك تخفق القلوب ، وتهلع النفوس ، وتحنى الرؤوس ، وتسود المجلس الرهبة ويخيم عليه السكون .

ولا ريب أنما لم نخلع على القانون هذه القداسة إلا لأنه يقر الأمن ، ويصون الحقوق وينشر السلام والاطمئنان ، ولكن من يدقق النظر في أحوال الأمم وظواهرها الاجتماعية ، وخصائصها النفسية ، يتضح له تمام الانصاح أن المتنعين عن الجرائم منهم عشرة في المائة متأثرون بالأخلاق في ذاتها ، وعشرون يخشون القانون ، وسبعون يشجبون الرذائل اتقاء لله وخوفا من عقابه الذي هم موقنون بأنه أشد وأقسى وأطول مدى من عقوبات القوانين الوضعية ، فإذا كان الدين قد نال من النفوس البشرية هذا المنال الذي لم يفز القانون بنصفه ولا بشبهه ، فيجب علينا كوطنيين مخلصين لبلادنا راغبين في صلاح أحوالها الاجتماعية أن نسمى في نفوس الجاهير هذه العقيدة النبيلة ما دام لها على أخلاقهم هذا الأثر الجليل

ومن أهم وسائل تنمية الدين في النفوس دراسته في مدارس الدولة على اختلاف أنواعها ، وفي جميع مراحل التعليم فيها ، ولكن بيئة تتلاءم مع تطور عقول الطلاب ، وتتوافق مع نشوء أفكارهم ورقبها ، فيدرس مثلا في المدارس الأولية في ثوب بسيط سهل بعيد كل البعد عن التعقد والتركيب ، كأن يعلم الطفل أن هناك إلها عظيما جليلا ، وهو الذي خلق كل هذه العوالم ، وهو لا يشاهد ولا يقع تحت الحس ، وهو حير وحادل ومحب للأخلاق السامية كالصدق والأمانة ، والحلم والحياء ، ومبغض لأصداد هذه الصفات من : كذب وخيانة ، وغضب ووقاحة ، وأن أول واجب علينا هو الاعتقاد بوجوده ثم العمل على إرضائه .

وفي المدارس الابتدائية يعلم التلميذ أن هذا الإله القادر اتصل في كثير من الأزمان المختلفة بقوم من البشر قد اختارهم من بين الناس لميزات قد خلقها فيهم ، فأوحى إليهم أن يقوموا على الأرض بتبليغ أوامره إلى الناس ، وأن هذه الأوامر هي اتباع الخير الذي يوصلهم إلى السعادة ، واجتناب الشر الذي يقودهم إلى الشقاء ، ثم يجب على المعلم في هذه المرحلة أن يغرس في نفوس النشء أن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة ، وهي التي تفرق بين الإنسان والحيوان ، والتي يلقي فيها كل شخص جزاء عمله إن خيرا أو خيرا ، وإن شرا فشر ، فإذا انتقل النشء إلى مرحلة التعليم الثانوي ثم العالي ، وجب على الأستاذ أن يتبسط معه في نظريات الدين ، وأن يقوم أمامه بدور مناقشة البراهين ، ومناقضة الأدلة ، وتحليل العلل والبواعث والأسباب .

فإذا درس النشء الدين على هذا النحو المؤسس على العقل والتفكير ، وشب على احترامه وتقديسه ، كان له على أخلاقه العملية أثر لا يحصى إلا من أوتي من الجرأة على تشويه الحقائق خطأ يمكنه من إنكار البديهييات .

الركنور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

٢ - أصل اسم القرآن

آدم^(١)

أصل الاسم واشتقاقه - أولية آدم على الأرض - استخفافه في الأرض - تعليم الاسماء
آدم والملائكة والجنس - أساطير الجنة وانحرابهم منها - الجنة ومظالمها
نبوة ورسالة - وفاته

١ - أصل الاسم واشتقاقه:

للمعاني في لفظ آدم مذهبان: مذهب يقول: إنه أعجمي، وهو عند أهل الكتاب «آدم»
بشباع فتحة الدال، بوزن خانام، ووزنه فاعل، وامتنع صرفه للمجبة والعلمية، وهو مأخوذ
من لفظة «آداما» العبرانية، ومعناها الأرض، إشارة إلى الأصل الذي أخذ منه، قال
العلمي: التراب بالعبرانية آدم، فصلى به آدم، وحذفت الألف الثانية. وقال صاحب
الكشاف: وما آدم إلا اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل (بفتح العين) كأز
وطير وشاخ وطاق وأشبه ذلك.

والمذهب الثاني يقول: إنه عربي، ونسب الجزم به إلى الجوهرى والجوابي، واختلف
في اشتقاقه، فقيل: هو مشتق من أدمه الأرض وأديمها وهو وجهها. وقيل: إنه مشتق
من الأدمه وهي السمرة. وقيل: هي البياض، وأن آدم عليه السلام كان أبيض. وأصله آدم
بهمزتين على وزن أفعول، فأبدلت الثانية ألما لسكونها بعد فتحة، ومنع صرفه العلمية ووزن
الفعل، ويجمع على آدم وأوادم، كتمر وأحاصر.

وقال الراغب الاصفهاني: قيل سمي بذلك لسكون جسده من أديم الأرض، وقيل لسمرة
في لونه. يقال: رجل آدم نحو أحممر، وقيل سمي بذلك لسكونه من عناصر مختلفة وقوى
متفرقة، كما قال تعالى: «أعجاج بننليه» ويقال جعلت فلانا أدمه أهلى، أى خلطته بهم،
وقيل سمي بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه المذكور في قوله «ونفخت فيه من روحي»
وجعل له به العقل والفهم والروية التي فضل بها على غيره، كما قال تعالى: «وفضلناهم على كثير
من خلقنا تفضيلا» وذلك من قولهم: الآدام، وهو ما يطيب به الطعام اهـ

(١) من قوله تعالى: «وعلم آدم الاسماء كلها» سورة البقرة - آية ٣١

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر ، وقيل أبا محمد ، وكنى بمحمد صلى الله عليه وسلم ،
وقيل : كنيته في الجنة أبو محمد ، وفي الأرض أبو البشر .

وذكر ابن سعد في الطبقات أنه سمي إنسانا ، لأنه نسي .

٢ - أولية آدم على الأرض :

ليس هناك خلاف يمتد به على أن الأرض كان يعمرها قبل آدم خلق آخر ، ولكن محل
الغلاف ومبث الفتش في الآراء والأقوال هو تحديد هذا الخلق وتعيين نوعه ، فبعض
المفسرين يروى أنه كان في الأرض قبل آدم خلق يسمون الجن والبن ، أو الطم والرم ، وأكثر
المفسرين على أن الخلق الذين كانوا في الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، وقالوا إن
هؤلاء قد أفسدوا في الأرض ، وسفكوا الدماء ، فأرسل الله تعالى إليهم إبليس في جند من
الملائكة فآمرهم وفرقهم في الجزائر والبحار . وذهب بعضهم إلى أن لفظ « خليفة » الوارد
في قوله تعالى : « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » يشتر بأنه كان في الأرض
صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض ، وأن هذا الصنف الجديد الذي أخبر
الله الملائكة بأن سيجمعه خليفة في الأرض ، سيحل محله ويخلفه .

ونسب صاحب تفسير المنار إلى الشيخ عبد عبيد تعليقا على هذا الرأي قال فيه : « وإذا
صح هذا القول ، فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض ، وإنما كان
أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق ، تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه في الذات
والمادة ، وتخالفا في بعض الأخلاق والسجايا .

ثم علق صاحب التفسير على هذا بقوله : هذا أحسن ما يحل في هذا المذهب ، وأكثر
ما قالوه فيه قد سري إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ... إلى أن يقول : ولكن
تقاليد الأمم الموروثة في هذه المسألة تنفي بأمري بال ، وهي متفقة فيه بالإجمال ، ألا وهو
ما قلناه من أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التي سكنت الأرض اهـ

ونقل عن الإمامية والصوفية أنه كان قبل آدم المعروف أودم كثيرون ، قال في روح
المعاني : وذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبرا طويلا نقل
فيه أن الله تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم ، بين كل آدم وآدم ألف سنة ، وأن الدنيا
بقيت خرابا بعد خمسين ألف سنة ، ثم صرت خمسين ألف سنة ، ثم خلق أبونا آدم عليه السلام .
وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضا أنه قال : لعلك ترى
أن الله لم يخلق بشرا غيركم ، بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم ، أتم في آخر أولئك الأدميين .
وقال الميثم في شرحه الكبير للنهج : ونقل عن عبد بن علي الباقر أنه قال : قد انقضى قبل آدم

الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر . وذكر الشيخ الأكبر قدس سره في فتوحاته ما يقتضى بظاھرہ أن قبل آدم باربعين ألف سنة آدم غيره . وفي كتاب الخصائص ما يكاد يفهم منه التعمد أيضا ، حيث روى فيه عن الصادق أنه قال : إن الله تعالى اثني عشر ألف عالم ، كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين ، ما يرى عالم منهم أن الله عز وجل عالما غيرهم اه .

والأخذ بظواهر هذه الأخبار مما لا يراه الجماعة من الفقهاء والمحدثين ومن وافقهم ، فهم يقولون إنه ليس سوى آدم واحد هو أبو البشر ، وإنه مسبوق بخلق آخرين كالملائكة والجن ، وكثير من الحيوانات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، لا بخلق أمثاله ، وقد غالى بعضهم في التعصب لهذا الرأي فصرح بكفر من يعتقد التعمد .

وكان اليونان القدماء وغيرهم من الأمم كالبربر المحدثين بالامبراطورية الرومانية نحو القرن الخامس ، والترك وشعوب الاوقيانوس الباسيفيكي يعتقدون أن أصل البشر ليس واحدا .

وبعض الذين يذهبون الى أن آدم ليس أول نوعه في الوجود على الأرض وأنه مسبوق بأوامر آخرين ، يؤيدون مذهبهم هذا فيما يؤيدونه به ، بما ذهب اليه بعض الفلاسفة في الرد على الاعتقاديين القائلين بخلق آدم قبل نحو ستة آلاف سنة ، من أن سنين قرنا لا تكفى لاختلاف النوع الانساني فيما بينه هذا الاختلاف البين في اللغات والاديان والاجسام ، فلا بد من فرض وجود الانسان قبل ذلك بعشرات ألوف من السنين ، حتى تكون كافية لاجداث كل ذلك التخالف الجسماني الحاصل بين الأمم المشتقة من أبوين اثنين ، كما يؤيدون مذهبهم أيضا بما يعتمد عليه علم الجيولوجيا في تحديد تاريخ وجود أول إنسان على الأرض من حساب المدة اللازمة لتكوين الطبقة الأرضية التي تفصل أعمق الهياكل الجسمية الانسانية عن سطح الأرض ، واحتياج ذلك الى مدة لا تقل عن ثلاثين ألف سنة .

والذى تميل اليه النفس أن كل ما يقال بشأن تاريخ وجود الانسان على الأرض ، سواء أكان من جانب الاعتقاديين ، أم من جانب غيرهم ، لا يزال غلبا ، فانه لم يرد في القرآن الكريم ، ولا في غيره من الكتب السماوية ، ولا في السنة الصحيحة شيء يختص بتحديد تاريخ وجود آدم على الأرض ، وما ورد على السنة بعض المفسرين في هذا الصدد لا يبعد أن يكون مأخوذا من الاسرائيليات ، وكذلك ما ذكره الجيولوجيون في حساب المدة اللازمة لتكوين الطبقة الأرضية لا يعول عليه كثيرا ، لأن الرواسب الأرضية لا تتكون على نظام واحد في جميع الجهات بل هي تختلف باختلافها ، فلا ينبغي أن يعول عليها في جهة دون أخرى .

٣ - استغلافه في الأرض :

حدثنا القرآن الكريم أن الله تعالى أخبر ملائكته باستغلاف آدم في الأرض ، وحكى ذلك في قوله : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

والذي يتصل بموضوعنا من هذا الخبر القراءنى الصادق ، هو : بيان معنى الخليفة ، ومن هو المراد من خليفة ، والمقصود من الاستخلاف ، والحكمة فى استخلاف الانسان . فالخليفة من يخلف غيره وينوب عنه ، والهاء فيه للمبالغة ، ولهذا يطلق على المذكر . والمشهور بين المفسرين ، والذي عليه ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل أن المراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام ، وقيل : هو وذريته .

ولفظ « خليفة » فى الآية ، يجوز أن يكون معنى فاعل ، وعليه يكون معنى الاستخلاف أنه يخلف من كان قبله فى الأرض من الملائكة ، أو غيرهم .

ويجوز أن يكون بمعنى مفعول ، أى يخلف ، كما يقال : ذبيحة ، بمعنى مفعولة ، وعليه يكون معنى الاستخلاف أنه بمجول خليفة ، ومظهرآ لله تعالى فى حمارة الأرض ، وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، وإقامة سننه ، وإظهار عجائب صنعته ، وأسرار خليفته ، وبدائع حكمه ، ومناقب أحكامه .

أما حكمة استخلاف الانسان ، فهى — على ما ذكرته كتب التفسير — أن الله تعالى خص كل نوع غير نوع الانسان بشئ محدود لا يتعداه ، فنوع الملائكة مثلا ، نعرف من طريق الوحي أن لكل طائفة منه وظيفة محدودة لا يتعداها ، ونوع المعدن والجاد ، نعرف من حاله بالنظر والاحتبار أنه لا علم له ، ولا عمل منه ، وكذلك كل شئ من الاحياء المحسوسة والقيمية ، له استعداد محدود ، وعلم إلهامى محدود ، وعمل محدود ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة .

أما الانسان ، فهو على ضعفه وجهله قد أعطى قوة تصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات ، فيسخرها ويذلها كما تشاء تلك القوة التى هى العقل ، فهى تغنيه عن كل ما وهب للحيوان فى أصل الفطرة ، مما يقيه البرد والحر ، ويتناول به فداءه ، ويدافع به عن نفسه ، ويسطر به على عدوه ، وغير ذلك ، وقد ظهرت آثار تصرفه هذا فى المعدن والنبات والحيوان والبر والبحر والهواء .

وكما أعطاه الله هذه المواهب ، أعطاه غيرها من الأحكام والشرائع ، لتكون ضابطا لأعماله وأخلاقه ، ولتحول دون بنى أفراد وطوائفه بعضهم على بعض .

فالانسان بتلك القوة غير محدود الاستعداد ، ولا محدود الرغائب ، ولا محدود العلم ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراد يتصرف بمجموعه فى الكون تصرفا لا حده باذن الله وتصريفه ، ولهذا كله جعله خليفة فى الأرض ، فهو أجدر المخلوقات بهذه الخلافة .

٤ — تعليمه الأسماء :

تساءل الملائكة من هذا الذى أخبرهم الله تعالى عنه بأن سيجعله خليفة فى الأرض ، وقص

القرآن علينا تساؤلهم هذا في قوله : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، وتقديس لك » .

والسؤال هنا — على ما يقوله المفسرون — للاستكشاف عن الحكمة الخفية ، ومما يزيل الشبهة ، أو لتعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها ، أو يستحلف مكان أهل الفساد مثلهم ، أو مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وقيل استنهام محض حذف فيه المعادل ، أي أتجعل فيها من يفسد فيها ، أم تجعل من لا يفسد ؟

وعلى جميع هذه التقادير ، فالحكمة ليست للانكار ، وإذا لا ترد المزاعم المتعلقة بمعصية الملائكة ، واعتراضهم على الله ، وطعنهم في بني آدم .

ولقد أجاب الله الملائكة عن هذا السؤال بعد إرشادهم إلى الخضوع والتسليم بقوله : « إني أعلم ما لا تعلمون » . ثم أراد أن يبين لهم أن الخليفة الذي هو محل تساؤلهم ، قد أعطاه ما لم يعطهم ، وعلمه ما لم يعلمهم ، فقال : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم خيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

واختلفوا في المراد بالأسماء ، فقيل : صفات الأشياء ونموتها وخواصها ، وقيل : أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وقيل : اللغات ، وقيل : أسماء الملائكة ، وقيل : أسماء النجوم ، وقيل : أسماءه تعالى ، وقيل : إن معنى « علم آدم الأسماء كلها » أودع في نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالمراد بالأسماء المسمايات ، عبر عن المدلول بالدليل لهذه الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر ، وقيل : إنه علمه جميع الأشياء التي في جنة عدن ، وألمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك ، وقيل غير هذا .

وأما كيفية التعليم ، فقيل : خلق فيه بموجب استعداده علماً ضرورياً تفصيلياً بتلك الأسماء ومدلولاتها ووجه دلالتها ، وقيل : خلق من أجزاء مختلفة ، وقوى متباينة مستعداً لأدراك أنواع المدركات ، وألمه معرفة دوات الأشياء ، وأسمائها وخواصها ، وأصول العلم ، وقوانين الصناعات ، وتفاصيل آلائها ، وكيفية استعمالها ، والله قادر على كل شيء .

• — آدم والملائكة وإبليس :

أراد الله تعالى أن يظهر الملائكة اعترافهم بفضل آدم ، واعتذارهم عما قالوا بفان استخلافه ، فأمرهم بالسجود له ، وليس السجود هنا سجود عبادة ، إذ لا يعبد إلا الله تعالى ، وهو وإن كان

غير معروف الصفة ، إلا أن الظاهر من أمره أنه لا يخرج عن معنى التكريم ، ولا يبين معنى
الموجود القوي الذي هو عبارة عن النظام والخضوع والالتقاد .

وقد أطاع الملائكة كلهم أجمعون أمر ربهم ، فسجدوا لآدم ، إلا إبليس ، فلم يحتل
أمر به ترفعا ، ورعا أنه خير من آدم عنصرا ، وأزكى جوهر ، فطرده الله من الجنة .
وستعرض لبيان حقيقة الملائكة عند الكلام على جبريل ، كما ستعرض لبيان حقيقة
الجن عند الكلام على إبليس .

٦ — إسماء الجنة وإخراجها منها :

أمر الله تعالى آدم بسكنى الجنة ، والتمتع بكل شيء فيها ، ونهاه هو وزوجه من الأكل
من شجرة عينها لها .

وقد وقع خلاف في تعيين هذه الشجرة ، فقيل هي الكرم ، وقيل هي السبلة ، وقيل هي
السفلة ، وقيل شجرة الكافور ، وقيل التين ، وقيل الحنظل ، وقيل غير ذلك ، قال القرطبي
في تفسيره : قال ابن عطية : وليس في شيء من هذا لثمين ما يعضده خبر ، وإنما الصواب
أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة غالف هو إليها .

استقر آدم وزوجه في الجنة ، وظلا يرغدان في نعيمها إلى أن استطاع إبليس بكذبه
ومقامته وإغرائه أن يوسوس لها بالأكل من الشجرة ، فأكل منها فبدت لها سوءاتها ،
وأهبطا إلى الأرض . وقد اختلف في الكيفية التي توسل بها إبليس إلى إغراء آدم .

قال الألوسي تعقبا على هذه الاختلافات : وقال أبو منصور : ليس لنا البحث عن كيفية
ذلك ، ولا تقطع القول بلا دليل . وهذا من الانصاف بمكان ، وقال الرازي : إن هذه القصص
مما يجب ألا يلتفت إليه .

وذكروا أن آدم أهبط بسرديب في الهند بمجبل يقال له « بوذ » أو « راهون » وأن
حواء أهبطت بمجدة ، وأن الملتقى كان بمرقات .

بعد هذا تلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب إليه بها ، فتاب عليه ، وأكثرهم على أن هذه
الكلمات هي قوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم نفعزلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .
وقيل المراد بها البكاء والحياة والدماء ، وقبل الندم والاستغفار والحزن .

٧ — الجنة ومكانها :

اختلف علماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم في أمر الجنة ، فالجمهور على أنها جنة المأوى
أخذوا بظواهر الآيات والأحاديث ، وذهب المعتزلة وأبو مسلم الأصفهاني وأتباعه إلى أنها جنة

أخرى خلقها الله امتحانا لآدم ، وكانت بستانا في الأرض بين فارس وكرمان ، وقيل بارض عدن ، وقيل بفلسطين ، ونقل عن بعض الصوفية أنها جنة في الأرض عند جبل الياقوت تحت خط الاستواء ، ويسمونها جنة البرزخ .

ويرى بعضهم أن الأحوط والأسلم هو التوقف في أمرها ، والكف عن تعيينها ، والقطع به . قال الامام أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات : نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيبة من الغياض ، كان آدم وزوجه منعين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها .

٨ - نبوته ورسالاته :

إن من ينظر إلى شأن آدم مع ربه ، واتصاله به ، يجد أن معاني النبوة كلها متمثلة فيه ، وقائمة به ، فهو قد « خاطبه بلا واسطة ، وشرع له في ذلك الخطاب ، فأمره ونهاه ، وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل له رسولا » وليس للنبوة معنى غير هذا .

وأما رسالاته فقد اختلف العلماء فيها . وقد روى عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله : أنبيا كان مرسلًا قال : نعم — الحديث .

وكان رسولا إلى أبنائه ، وكانوا أربعين ولدا في عشرين بطنًا ، في كل بطن ذكر وأنثى ، وأنزل عليه فيما أنزل محريم الميتة والدم ولحم الخنزير .

٩ - وفاته :

اختلف الرواة في مقدار عمر آدم ، فقيل : مائتا ألف سنة ، وقيل : مائتا تسعمائة وثلاثين سنة . وقيل : مائتا تسعمائة وستين سنة .

وليس لدى الباحثين نصوص قاطعة تتعلق بوفاة آدم وفبره ، ولهذا نكتفي هنا بذكر ما ذكره أصحاب الأخبار خلاصا بذلك :

قالوا : إن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوما ، ولما حضرته الوفاة ، جاءته الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه وغيرها ، فقبضوه وغسلوه وكفنوه ، وحنطوه ، وحفروا له وحلدوه ، ثم حضوا عليه ، وقالوا يا بني آدم هذه سلتكم ، ولما تقدموا للصلاة عليه ، قال شيت لجبريل : صل على آدم ، فقال له جبريل : تقدم أنت فصل على أبيك ، فصلى عليه .

واختلف في موضع قبره ، فقيل في مشارق الفردوس ، وقيل في الجبل الذي أعبط به في الهند ، وقيل في جبل أبي قبيس بمكة ، وقيل لما كان أيام الطوفان حمل نوح نايوت آدم في السفينة فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس .

وعاشت حواء بعده سنة واحدة ، ثم ماتت فدفنت مع آدم ، عليهما السلام .

فذكرى يس

المطالب العالية

في النفس الناطقة وصلتها بالإنسان

أسلفنا في البحث السابق في شيء غير قليل طرفا من الكلام عن بعض متعلقات النفس الناطقة وملاساتها كالسعادة والغير وما بينهما من طارق ذي أثر في العوالم الكونية والنواميس الطبيعية ، وما نحاه المتقدمون في أن الغير هو المقصود من كل فهو غاية الغايات ، وأن السعادة هي الغير بالقياس إلى صاحبها فهي على هذا النحو كمال له .

والآن نحاول أن نصل بين أطراف ذلك البحث الطريف ، فلا بد لكل باحث عن أدواره والمدى الذي انتهى إليه أن يقيم أسس بحثه على نظرية صاعدة تجمع بين آراء المتقدمين من الفلاسفة في شتى فرقهم ، وبين أرسطو وأنصاره ومعتنى مذهبه . تلك النظرية على ما حققها القوم في كتبهم هي أن الإنسان ذو فضية روحانية عليا يلام بها الأرواح الطيبة التي تحملها الملائكة ، وذو فضية هيولانية يشترك بها مع الحيوان لأنه مركب منها ، فهو إذن بالخير المتماثل في عالم المادة مقيم في هذا العالم السفلي إلى قدر معلوم ليقوم بعمارته وترتيبه وتنسيقه ، حتى إذا ظفر من هذه المرتبة بالقسط الأكمل ارتقى إلى العالم العلوي البريء من المادة وعلاقتها والطبيعة وقاشياتها ، فيبقى فيه صريدا .

فالسعيد تطبيقا لهذه النظرية هو من يكون في إحدى المرتبتين : إما في مرتبة الهيولانية متعلقا بأحوالها السفلى سعيدا بها ، ملتهنا إليها ، ولكنه مع ذلك يطالع الآه والجليلة والمطالب العالية متحررا لها باحنا عنها مكدا في الحصول عليها متحررا نحوها متبسطا بها ، وإما أن يكون في مرتبة الروحانيات متعلقا بأحوالها العليا سعيدا بها ، مأخوذا بحجاب الله ومراضيه ، هياما إلى القدسية الباقية والسرمدية العتيدة ، ولكنه مع ذلك يطالع الأغراض الهيولانية متخذاً منها أفضل الدلائل على ابتداع الالهة الإلهية وسعة متعلقاتها وآثارها العارضة عنها . فأي امرئ من الناس لا يظفر بإحدى تينك السعادتين فهو كالأنعام بل اضل سبيلا .

وإذن فقد تبين لنا أن السعيد في إحدى المرتبتين دون الأخرى ليس سعيدا على إطلاقه ، فإن من استكمل سعادته القدسية وهنائه السرمدية فقد حرم من ناحية أخرى نعيمه الهيولاني واستمتعاه الجسماني . ومن مكس له في حياته الأولى فاستمتع بلذائذها وذهواتها في مناحيها المختلفة من نعمة الجاه والمال والولد والظفر بالمطلوب ثم نسي نصيبه الأوفى من الحياة الباقية فلم يعمل له ، ولم يخلع على نفسه أهبة الشوق إلى النعيم المقيم فقد خسر خسرانا مبينا . فالسعيد إذن من جمع بين الحالتين ، وأخى بين الصنوين .

لكن يبقى بعد ذلك أن أفضل الحياتين تلك الحياة السرمدية الدائمة ، فإن السعيد هو الذى استكمل نصيبه من الحكمة وهى مخافة الله ، فهو مقيم بروحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منه لطائف الحكمة ، ويستغنى بالنور الإلهى ، ويستوفى من فصائله على مقدار استعداده وقلة هوائفه ، فهو أبدا يرى من الآلام والحمرات . فإذا انقذ في نفسه فيض نور الأمل وحر قلبه بذلك المشهد الإلهى انخلت نفسه عن المادة وملابسها والطبيعة وأغراضها بواسطة ذلك الأنس الذى حل محل الشغاف من قلبه ، فهو مستأنس راض بما كتب له من حياة سرمدية ولعيم مقيم . وتلك المنزلة هى أقصى منازل السعادة على ما حكاه المحققون . وهاتان المرتبتان قد عنى بهما الحكيم الكبير أرسطو في كتابه المسمى بفضائل النفس ، فقد قال مع تصرف يقرب المعنى :

بما لا يحتمل جدالا أن أولى رتب الفضائل تسمى سعادة : كأن يعرف الإنسان إرادته ومحاولاته الى صوالحه في عالم المادة وفي أمور النفس والبدن ، وفيما كان من الأحوال متصلا بهما ومشاركا لهما من الأمور الزمانية على شريطة أن يكون تصرفه في المحسوسات لا ينبو عن الجادة الملائمة لأحواله الحسية ، فهو مطالب بأن يجرى كل مايقع منه من تصرفات على قانون التدبير ونواميس الحكمة والاعتدال ، فلا يخرج به عن تقدير الفكر ، حتى لا يضل في مهمه قمر لا يأتى البصر على أطرافه .

ثم إن المرتبة الثانية تاتى بعد المرتبة الأولى ، وهى أن يصرف الإنسان فيها إرادته ومحاولاته الى أفضل منازلها دون أن يتلبس في سلوكها بشئ من الأهواء والشهوات ، ولا يستجيب لداعية المحسوسات المنغرية بالمطالب والسالكه بطالها سبيل المعايير .

غير أن رتبة الإنسان في هذا الضرب من الفضيلة تزايد عظيم بحسب منازل ومقتضياته ، ذلك لأن الأماكن والرتب في هذا الضرب من الفضائل كثيرة ومتزايدة ، وهذا يدهى الظهور ، أما أولا فباختلاف طبائع الناس . وأما ثانيا فبحسب الماديات وما يقع من الناس من التقاليد والاصطلاحات ، وأما ثالثا فبحسب منازلهم ومواضعهم وأقدارهم من العقل والعلم والمعرفة وفهم الحقائق على أوضاعها . وأما رابعا فبحسب همهم وتوارع قوسهم ومطالبهم التى يطمحون إليها ومبلغ شغفهم بها . وأما خامسا فبحسب شوقهم وعظيم معاناتهم في نيل مقاصدهم ، وإيمانهم في بلوغ مبتغاهم .

ثم إن وراء هذه المنزلة منزلة هى النسق الأعلى للفضائل ، وأعصى بها المنزلة القصوى التى لا يكون فيها ترقب لآت ولا تلفت الى ماض ولا تشيع لحاضر ولا طلب لحظ من حظوظ الانسانية الفاتنة ، ولا ما تدعو اليه الضرورة المذلة من حاجة البدن أو إحدى قواه الطبيعية او قواه النفسانية .

فالإنسان في هذه المرتبة القصوى يتصرف في الخير مستهيدا بعقله وما يستوحيه مفتقا من النسق الأعلى لصنوف الفضائل : كصرف الوقت الى الأمور الالهية ومعاونتها ومحاولة النفس لها . قال الحكميم أرسطو : وهذه الرتبة هي الأخرى تتزايد في الناس تزايدا متفاوتا الفقه بعيد الأثر بحسب المهتم وصنوف الشوق وفضل المعانة والصبر وشدة الجلد وقوة التحيزة وسلامة الثقة وحسن الاستنتاج ، وبحسب مترلة من بلغ هذا المبلغ من الفضيلة في هذه الأحوال التي أسلفنا الكلام عنها أن يكون تشبيه بالعله الأولى واحتذاؤه إياها واقتداؤه بأفعالها .

ثم إن آخر مراتب الفضيلة وأعلاها شأوا أن تكون أفعال الإنسان كلها أفعالا إلهية ، وهذه الأفعال هي خير محض . ويدهى أن الفعل إذا كان خيرا محضا فليس يفعله فاعله من أجل شيء آخر غير الفعل ذاته ، ذلك لأن الخير المحض ما ليس يفعله فاعله من أجل ، لأن الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها ، فهو الأمر المقصود أيضا ، فلا يمكن أن يكون لأجل شيء آخر خارج من ذاته ، وإذن فأفعال الإنسان كلها إذا استحالته إلهية فهي كلها إنما تصدر عن ذاته الحقيقية التي هي في الحقيقة عقله الالهى ، وبالتالي التي هي مدده الالهى ومصدره الأعلى الذي يستلهم العلى الأعلى في كل ما يصدر عنه ، وقد تزول ونعنى سائر طباعه البدنية أو تنحل انحلالا نسبيا أو جزئيا فلا تبقى له إرادة ولا همة خارجتان عن عقله من أجلهما يفعل ما يفعل ويدع ما يدع ، لكنه يفعل بلا إرادة ولا همة ، فلا يكون غرضه بفعله غير ذات ذلك الفعل ، وهذا هو سبيل العقل الالهى ، وتلك الحال هي أعلى رتب الفضائل وجنس أجناسها ، وهي التي يتصل فيها الإنسان أفعالا المبدأ الأولى خالق الكل وبارئ عز وجل ، على معنى أن يكون فيما يفعله بعينه هو غرضه ، أى ليس يفعل من أجل شيء آخر سوى ذات الفعل . ومعنى ذاته هو أنه لا يفعل ما يفعله من أجل شيء غير فعله نفسه ، وذاته لنفسها هي الفعل الالهى نفسه ، وهكذا يعقل البارئ تعالى لذاته لا من أجل شيء آخر خارج عنه ، وذلك أن فعل الإنسان في هذه الحال يكون كما قلنا خيرا محضا وحكمة محضة ، فيبدأ بالفعل لنفس إظهار الفعل فقط لا لغاية أخرى يتوخاها بالفعل ، وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ليس هو على التقصد الأول من أجل شيء خارج عن ذاته ، أعنى ليس ذلك من أجل سياسة الأشياء التي نحن جزء منها ، لأنه لو كان كذلك لما كانت أفعاله الصادرة عنه سبحانه لا تتم إلا بمشارفة الأمور التي من الخارج من أسباب وعلل لأفعاله ، وهذا واضح القبح والشناعة ، تعالى الله عنه علوا كبيرا . الخ هذا جاب من آراء الحكميم أرسطو نقلناه بتلخيص كثير ، مع احتفاظنا بالتعليق على جانب منها في عدد تالى ، فالى الغد القريب

تقرير بعثة الهند

— ٢ —

دراسات البعثة

١ — الحال الاجتماعية والحلقية :

الهند شبه جزيرة من الأرض تاقى نحو الجنوب من وسط آسيا ، يمتد من خط ١٨ الى خط ٣٧ شمالا ، ومن خط ٦٥ الى خط ١٠٠ شرقا . فهي بذلك تشمل ٢٩ درجة من درجات العرض و ٣٥ درجة من درجات الطول . وتبلغ مساحتها ٦٧٩ و ٨٠٨ ١ ميلا مربعا .

فاذا ووزنت الهند بغيرها من البلاد من حيث المساحة بلغت ١٥ مرة قدر مساحة الجزر البريطانية أو أكبر من نصف قارة أوروبا . وإذا وازنا بينها وبين مصر بلغت مساحة الهند حوالى ١٤٠ مرة لمساحة المتررع من القطر المصرى .

فالهند بذلك بلاد مترامية الأطراف متباينة فى أنواع المناخ ، فبينما تشكل الثلوج وهوس الجبال فى الشمال إذا بالآودية الشمالية ذات جوفارى ، شديد الحرارة صيفا ، قارس البرد شتاء ، وإذا ما اتجهنا نحو الجنوب قاربنا المنطقة الشديدة الحرارة فى الصيف والشتاء . وقد كان لهذه المناخات المتباينة أثرها فى طبيعة السكان وأخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ولغاتهم .

وقد قسمت الهند إداريا الى مجموعتين :

المجموعة الأولى : أقاليم يحكمها البريطانيون مباشرة . ولكل إقليم منها حاكم بريطانى يستمد سلطته من نائب الملك . وقد نص الدستور الجديد على أن تقوم فى هذه الولايات برلمانات مستقلة كل الاستقلال فى عملها ، لما لاغيرها من البرلمانات من سلطة ، إلا أن حاكم المقاطعة (الرئيس الأعلى لهذه الدولة الصغيرة) قد أ كسب الدستور حقوقا يستطيع أن يباشرها دون رغبة البرلمان ويقول البريطانيون فى ذلك إن هذا الحق قد كفل للحاكم العام ليستطيعه عند الاقتضاء أن يحافظ على سواحل الأقليات الدينية فى المقاطعة التى يحكمها . وتبلغ مساحة هذا النوع أكثر من ثلثى مساحة الهند . وقد قسم الى ١٥ مقاطعة ، منها ١١ كبيرة تنطبق عليها النظم البرلمانية كاملة ، و ٤ أقل أهمية من هذه ، ولذلك وضعت لها أنظمة برلمانية خاصة .

وفى ما يلى بيان بالمقاطعات الهامة مرتبة وفق مساحتها :

المقاطعة	ميلا مربعا	المقاطعة	ميلا مربعا
برما	٤٩٢ و ٢٣٢	بحار واوريسا	٧٠٢ و ١١١
بومباي	٦٧٣ و ١٥١	بنجاب	٢٠ و ١٠٥
مدراس	٨٧٠ و ١٤٣	بنغال	٩٥٥ و ٨٢
بلوخستان	٦٣٨ و ١٣٤	آسام	٣٣٤ و ٦٧
الولايات الوسطى و برار	٩٥ و ١٣١	مقاطعة الحدود الشمالية الغربية	٣٥٦ و ٣٦
الولايات المتحدة	١٩١ و ١١٢		

وحال هذه الأقسام الادارية دائمة التغير وفقا لمقتضيات الظروف ، من ذلك .

١ — نص الدستور الجديد على أن تستقل برما عن الهند ويمين لها نائب عن الملك .

٢ — قسمت بومباي في العام الماضي مقاطعتين : بومباي ، والسند . ولكل منهما حاكم .

٣ — اعترف باقليم برار لحضرة صاحب السمو العالي نظام حيدر اباد وتديره الحكومة البريطانية بالنيابة عنه لقاء دخل سنوي ثابت تدفعه الحكومة البريطانية لسمو النظام .

المجموعة الثانية : ولايات قد نزلت الحكومة البريطانية عن حكمها لامراء شبه مستقلين ، ونظمت صلاتها بهؤلاء على أحد الوجهين الآتيين :

أولا : أمراء يستمدون سلطتهم من نائب الملك رؤساء وعدد ٣٣ أمراء ومن أم إماراتهم :

(١) ولايات يحكمها أمراء من المسلمين :

١ — حيدر اباد ، ومساحتها ٨٣ ألف ميل مربع ، وعدد سكانها ١٤ مليون ونصف مليون من الانفس ، وتبلغ إيرادات الحكومة فيها حوالي ٨ كورور أي ٦ مليون جنيه مصري تقريبا .

٢ — بهاول پور ، وتبلغ مساحتها ١٦ ألف ميل مربع ، وعدد سكانها ٩٨٥ ألف نفس . وتبلغ إيرادات الحكومة فيها ٤٥ لاك أي ثلث مليون جنيه مصري تقريبا .

٣ — بهوپال ، وتبلغ مساحتها سبعة آلاف ميل مربع ، وعدد سكانها ٧٣٠ ألف نفس ، وإيرادات الحكومة فيها ٨٠ لاك أي ٦٠٠ ألف جنيه مصري تقريبا .

٤ — رامبور ، وتبلغ مساحتها ٨٩٠ ميلا فقط ، وعدد سكانها ٤٦٠ ألف نفس ، وإيرادات الحكومة فيها ٤٩ لاك أي ٣٦٧ ألف جنيه مصري تقريبا .

(ب) ولايات يحكمها أمراء من غير المسلمين :

الولاية	مساحتها بالميل	عدد سكانها	دخل الحكومة
			لاك (١) كورور
ميسور	٢٩,٥٠٠	٦,٥٥٨,٠٠٠	٤٥ ٣
ترافانكور	٧,٦٠٠	٥,٠٠٠,٠٠٠	٤٤ ٢
كشمير	٨٦,١٠٠	٣,٦٤٥,٠٠٠	٢٣ ٢
جوايلور	٢٦,٠٠٠	٣,٥٠٠,٠٠٠	٤٢ ٢
جيبور	١٥,٥٠٠	٢,٦٣٠,٠٠٠	٢٠ ١
بارودا	٨,٠٠٠	٢,٤٤٥,٠٠٠	٦٠ ٢
جودبور	٣٥,٠٠٠	٢,١٢٥,٠٠٠	٤٢ ١
باتيالا	٦,٠٠٠	١,٦٢٥,٠٠٠	٤٥ ١
ديوا	١٣,٠٠٠	١,٥٩٠,٠٠٠	٦٠ —
بودايبور	١٢,٠٠٠	١,٥٧٠,٠٠٠	٦٧ —
اندور	١٠,٠٠٠	١,٣٣٠,٠٠٠	٢٤ ١
كوشين	١,٤٠٠	١,٢٠٠,٠٠٠	٩٠ —
كوهاپور	٣,٠٠٠	٩٦٠,٠٠٠	٧٧ —
بيكانير	٢٣,٠٠٠	٩٤٠,٠٠٠	٢١ ١
كوتا	٥,٠٠٠	٦٨٥,٠٠٠	٥٢ —

ثانيا : وبلى ذلك مئات من الامارات أقل من هذه شانا يستمد معظم أمرائها سلطتهم من الحاكم العام للمقاطعة المناخنة . ويتمتع أمراء هذه الولايات بسلطة أوتوقراطية ، وقد يركن البعض منهم الى استشارة شعبه بين آن وآخر ، عن طريق مجلس يعينه الأمير يسمى مجلس الشورى .

لغات الهند :

لما كانت الهند بلادا مترامية الأطراف متعددة الأجناس ، فقد وجب أن تكون كذلك متعددة اللغات ، إلا أن اللغات في الهند قد تعددت تعددا لا مثيل له في أي بلد آخر على وجه المعمور ، وذلك لأسباب اجتماعية سنوردها في الفصول المقبلة .

وقد تسم اللغات الوطنية في الهند الى ست مجاميع تنفرع من كل مجموعة عدة لغات :
١ — لغات الملاي — وعددها ١٢ لغة ، ويشكلها ٧٥٠,٠٠٠ قس من السكان ، يقطنون برما وآسام وجزائر نيكوبار .

(١) اللاك يساوي ١٠٠ ألف روبية والكورور يساوي ١٠٠ لاک

- ٢ - لغات الهند - وعددها ٧ لغات، ويتكلمها ٤٦٠٠٠٠٠٠٠ نفس في آسام وبنغال وبحار .
- ٣ - لغات التبت - برما - وعددها ١٣٨ لغة، ويتكلمها ١٢٠٩٩٠٠٠٠٠ نفس في آسام وبرما وبنغال .
- ٤ - لغات صينية الأصل - وعددها ٢٨ لغة، ويتكلمها ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نفس في برما وآسام .
- ٥ - اللغات الدرافيدية - وعددها ١٤ لغة، ومن أهمها :
- التاميل ويتكلمها ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في مدراس وميسور .
- الملايالم ويتكلمها ٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في مدراس .
- الكنناري ويتكلمها ١١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في بومباي وميسور ومدراس وحيدرآباد .
- التيليجو ويتكلمها ٢٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في مدراس وحيدرآباد وميسور .
- ٦ - اللغات الأوربية الهندية - وعددها ٢٧ لغة، ومن أهمها :
- ثمان لغات فارسية الأصل، ويتكلمها ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في مقاطعة الحدود وبلوختان وكشمير .
- لغات السدي » ويتكلمها ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في السند .
- لغتان : بنجابي ولندا » ويتكلمها ٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في بنجاب وكشمير والحدود والسند .
- لغتان : ماراٲي وكونكاني » ويتكلمها ٢١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في بومباي والولايات الوسطى وبنار وحيدرآباد .
- ثلاث لغات هندوستانية (اردو) » ويتكلمها ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في الولايات المتحدة والولايات الوسطى والهند الوسطى وبنجاب وراجبوتانا .
- لغة أوريا » ويتكلمها ١١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في أوريسا ومدراس .
- لغة بنغالي » ويتكلمها ٥٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ في البنغال وآسام .

ولما كانت لغات الهند متعددة حتى في الاقليم الواحد حيث يلجأ أهل الديانة الواحدة الى لغة واحدة، في حين يلجأ أهل ديانة أخرى الى لغة أخرى، فقد لزم أن يكون التعليم — الذي تديره حكومة الهند (البريطانية) — بلغة متعددة بين القوم . لذلك لجأت الحكومة الى فرض اللغة الانجليزية كوسيلة لتلقى العلوم بالمدارس الثانوية والعالية والجامعات، كما أصبحت تلك اللغة رسمية في المكاتب الحكومية وغيرها، وهي لغة التجارة أيضا، ثم هي لغة التحدث بين المنقذين اذا ما اختلفت لغاتهم الأصلية . لكل أولئك انتشرت اللغة الانجليزية في الهند، وخاصة في المدن الكبرى وعلى الأخص بين البيئات المتقنة، انتشارا عظيما .

ومما تحسن الإشارة اليه هنا أن لغات الهند المختلفة قد اقتبست على مر السنين من اللغة الانجليزية بحيث أصبحت نسبتها في لغة الاوردو مثلاً لا تقل عن ١٠ ٪ .
كما تحسن الإشارة كذلك الى أن لغة الاوردو هذه ، وهي اللغة التي يشكلها عامة المسلمين في الهند الشمالية على الأخص ، كانت في الأصل لغة الفانجين المسلمين الذين انحدروا الى الهند من الشمال . ولذلك كان فيها كثير من اللغات الأجنبية بحيث قيل لها إن بها من اللغة الفارسية ما لا يقل عن ٣٥ ٪ ومن اللغة العربية ما لا يقل عن ٣٠ ٪ .

أما اللغة العربية فلها تدرس في الجامعات كلفة جامعية (أكاديمية) لنيل الاجازات العليا في الآداب ، على نحو ما تدرس اللغتان القديمتان اليونانية واللاتينية في جامعات أوروبا . مثلها في ذلك مثل اللغة الفارسية في الهند . ويعنى كثير من الطلبة المسلمين الذين يتقدمون لنيل إجازات الآداب (بكالوريوس وماجستير وحقوق والدكتوراه) بدراسة اللغة العربية أو الفارسية للتقدم للامتحان . على أن كثيراً منهم قد عني باللغة العربية باعتبارها لغة القراء الكرم والحديث الشريف . كما عني البعض باللغة الفارسية استقصاء للأدب الفارسي ، وله في الهند مكانة عظمى بين كبار المثقفين ، إلا أن المجال لا يزال واسعاً أمام الأمم التي تتكلم اللغة العربية كعصر وبلاد العرب للشر اللغة العربية ببلاد الهند نشرها يبعثها من سباتها العميق ، ويشير في نفوس إخواننا الهنديين الرغبة في دراستها كلفة كلامية فصلاً عن كونها لغة جامعية (أكاديمية) . وقد شاهدنا من عامة المثقفين في الهند رغبة أكيدة في تعلم اللغة العربية على وجهها الذي تدرس به الآن في مصر ، ولكن نموزم الوسائل ، التي سنفردها بالبحث في هذا التقرير .

ديانات الهند :

كما أن الهند أخلطت من الشعوب واللغات ، فانها كذلك أخلطت من الأديان . والذين في الهند محور أساسي للتقسيم الاجتماعي . وليس أدل على ذلك من أن الديانتين السائدتين في الهند ، وهما الهندوسية والاسلام ، تختلفان اختلافاً جوهرياً في معظم شئون الحياة ، مما حفز الحكومة الى فصل معتنقي هاتين الديانتين في كثير من الشؤون الاجتماعية . ولضرب لذلك مثلاً ما كنا نشاهده في كل محطة من محطات سكة الحديد وهو وجود موردين للماء أحدهما للمسلمين وثانيهما للهندوس ، ومقصفين أحدهما للمسلمين وثانيهما للهندوس ، فضلاً عن مقصف ثالث للجميع لا يتردد عليه مادة إلا السائحون والموظفون البريطانيون في أثناء تنقلاتهم .

ولذلك آثرنا الكلام على ديانات الهند قبل الحال الاجتماعية :

تتكون السكثرة الدينية في الهند من الهندوس ، إذ يبلغ عددهم ١٨٩ مليوناً من الأنفس

بنسبة ٥٤٪ من السكان . يضاف اليهم من الناحية السياسية ٥٠ مليوناً من المنبوذين بنسبة ١٤ ر ٥٪ فتكون نسبتهم مجتمعين ٦٨ ر ٥٪ وهم منتشرون في كافة أنحاء الهند ، ويكونون السواد الأعظم من سكانها .

أما المسلمون فيبلغ عددهم ٧٨ مليوناً بنسبة ٥ ر ٢٢٪ من السكان ، وهم بذلك يكونون أقلية في الهند ، إلا أن نسبتهم تزيد عن النصف في الولايات الشمالية ، فيكونون بذلك كثرة قد تكون فاسدة في بعض الأقاليم ، في حين تتضاءل نسبتهم كثيراً في الجنوب بحيث لا يكونون إلا أقلية ضئيلة .

وفيما يلي بيان بنسبة المسلمين في ولايات الهند المختلفة مرتبة وفق ارتفاع النسبة المثوية للمسلمين :

مقاطعة الحدود الشمالية الغربية	٩١ ر ٨٪	أجمير ومروار	١٧ ر ٣٪
بلوخستان	٨٧ ر ٤٪	الولايات المتحدة	١٤ ر ٨٪
البنجاب	٥٦ ر ٥٪	بهار واورشا	١١ ر ٣٪
البنغال	٥٤ ر ٨٪	كرج	٨ ر ٤٪
دهلي (المقاطعة)	٣٢ ر ٥٪	مدراش	٧ ر ٥٪
آسام	٣٢ ر ٥٪	الولايات الوسطى وبراج	٤ ر ٤٪
جوراند ملن ويكولو بميليج بنغال	٢٢ ر ٨٪	برما	٤ ر ٥٪
بومباي (بما في ذلك السند)	٢٠ ر ٤٪		

أما إمارات الهند فقد أخذت — في الإحصاءات — كجموعة ، ونسبة المسلمين فيها مجتمعة ١٣ ر ٥٪ إلا أن الإمارات الشمالية تكثر فيها نسبة المسلمين كما تكثر في الولايات ، فنها كشمير ونسبة المسلمين فيها ٧٧٪ .

وقد لمت نظرنا الاختلاف الكبير في نسبة المسلمين المثوية بين إقليم وآخر ، ودلت دراستنا في ذلك على أن الاسلام لم ينتشر في الهند مع الفتوحات ، بل إن ملوك المسلمين لم ينصرفوا الى نشر الدين الاسلامي بين الهندوس والبوذيين وغيرهم هملابجيرة الدين التي جرى عليها الاسلام . ومن محبب أن محمداً من بعض زعماء المسلمين في الهند أن الاسلام قد انتشر في الأقاليم التي لم تخضع لحكم المسلمين المباشر بأسرع مما انتشر في الأقاليم التي خضعت لذلك الحكم ، مما يدل على أن الاسلام قد انساب الى القلوب في رفق ولين لا إكراه فيه على الاطلاق . ويتحدث المسلمون في الهند على أحسن الوسائل للانتفاع بكثرتهم النسبية في الأقاليم الشمالية ، ومن خبرة المتحدثين على ذلك السير محمد إقبال ، فهو يقول بضرورة تأسيس مملكة باكستان ، وهي مملكة ستألف من بنجاب وكشمير ومقاطعة الحدود وبلوخستان حيث

تعيد للإسلام مجده في تلك البلاد . كما يتحدث كذلك بإمكان تبادل السكان بين مملكة باكستان وبقية ممالك الهند ، فيهاجر الهنديون المسلمون من المقاطعات التي يكونون فيها قلة الى تلك المملكة الجديدة لقاء أن يهاجر منها الهندوس وغيرهم الى المقاطعات الأخرى . وبؤن كثير من قادة الفكر بالهند بما يراه السيد محمد اقبال .

أما بقية الديانات بالهند فتتكون قلة ضئيلة نلخصها فيما يلي :

البوذون	٣٧٪	المسيحيون	١٨٪
الديانات القبلية	٢٥٪	الشيخ	١٢٪

وقبل أن ننتقل من بحث الديانات ، يجدر بنا أن نذكر أن النسبة المئوية لهذه الديانات لم تكن كذلك في الماضي ، بل طرأ عليها تعديل يذكر في خلال الخمسين سنة الأخيرة . ويدل الاختلاف في نسبة تزايد السكان في كل بيئة من هذه البيئات الدينية على ذلك . فقد كانت نسبة تكثر الهندوس ٢٧٪ في خلال الخمسين سنة الماضية في حين كانت نسبة تكثر المسلمين ٥٥٪ . ويبرزو الاحصائيون زيادة النسبة بين المسلمين عنها بين الهندوس الى عاملين هما :

أولاً — تعدد الزوجات وجوار زواج الأراذل في الاسلام ، في حين أن الديانة الهندوسية تمنع تعدد الزوجات وتحرم زواج الأرملة ، بل إن الأرملة كانت الى عهد قريب تحرق بعد وفاة زوجها ، لجأت الحكومة البريطانية ومنعت هذه العادة ، ولكن غلات الأرملة قضية لا يجوز زواجها . وتدل الاحصاءات الرسمية على أن نسبة الترميل بين الهندوس تبلغ ١٦٣٪ من مجموع النساء ، في حين تبلغ هذه النسبة ١٢٨٪ فقط بين المسلمين ، على أن تقارب النسبة بين الفريقين يعزل بعدم ميل المسلمين بالهند الى تعدد الزوجات جريا على التقاليد القديمة لتلك البلاد . وثمة ظاهرة مهمة يجب تسجيلها في هذا المقام ، هي أن النسبة المئوية للأراذل بين سن ١٥ و ٥٠ هي ١٩٪ بين الهندوس ، يقابلها ١٤٪ فقط بين المسلمين .

ومن الظواهر الاجتماعية في الهند زواج القاصرات . وقد بلغ عدد المطلقات منهن ٥٥ في الألف بين الهندوس ، يقابلها ٣٨ في الألف بين المسلمين .

ثانياً — اهتمام المسلمين بتبليغ الدين الاسلامي بين معتنقي الديانات الأخرى .

أما نسبة التكاثر بين أهل الديانات الأخرى فلا يلتفت النظر منها إلا نسبة التكاثر بين المسيحيين ، فقد بلغت خلال الخمسين سنة الأخيرة ٣٣٨٪ . وهي نسبة لا يبررها إلا نشاط جمعيات التبشير المسيحية المنتشرة في كل مكان من الهند ، والتي تعمل ليل نهار على تحويل الهنود (وخاصة النبوذون) الى الديانة المسيحية . (يتبع)

التربية على طريقة دالتن :

نحن من هذا الكتاب بصدد انقلاب ذريع في نظم التربية ، ومن حسن الحظ أننا أصبحنا نأنس بالانقلابات الفكرية لما ثبت أنها الطريق الوحيد للترقى من حال الى حال في كل مجال من مجالات النشاط العلمي والعمل .

في أمريكا معلمة تدعى من هيلين باركرست ، ابتكرت طريقة في التربية تدابر الطريقة القديمة ، وقد نشرتها في رسالة لقبت رواجاً عظيماً ، وصادفت قبولاً حصناً . ونحن نأثني على أساس هذه الطريقة التي تقول السيدة إنها اقتبستها من فقرتين في كتاب بناء العقل تأليف (ادجار جيمس سويف) وهما قوله :

« إن الطريقة المعقولة هي أن نعمل مع الطلاب ، فنبحث فيهم التشوف الى أن ينقبوا عن الأشياء بأنفسهم ، وأن يصحوا ما يصلون إليه من المعلومات بعضه الى بعض ، ليناقش ويوضح في الدرس . أما الطريقة التقليدية ، فهي طريقة القرون الوسطى . وهي ما برحت تسيطر على مدارسنا الى اليوم ، مع أن الظروف التي هيأت منها المنع قدم عهداً منذ أمد بعيد . والخطوة الأولى في سبيل الخلاص منها هي أن يوسع المدرسون أفقهم العقلي . وعليهم بعد ذلك أن يدرسوا صفات تلاميذهم ، فنصبح قاعة الدرس معملًا للتربية ، ولا يقتصر النشاط على دروس الاشغال البدوية . إننا لم نضع بعد أثر البيئة في التربية موضعه اللائق به . فالعلم يرتبط أن يسم تفكير التلميذ بمجسمه ولكن الغايات التي يبتغيها المرء يمجدها تعقد الحياة البشرية . فالطفل الذي لا تروق صفاته معلمه قد يحمل في أطوائه بذور رجل يقصر دونه أفق ذلك المعلم العقلي »

وهذه هي الفقرة الثانية :

« إن التجارب في التربية حتى اليوم مشتتة ، قليلة الاتصال بعضها ببعض ، فالأشخاص القلائل الذين قاموا بها كانوا مثقلين بأعباء أعمال أخرى تستغرق جل يومهم لحملتهم لايفرغون لها ، أو لا يجدون في أنفسهم من الطاقة ما يعينهم على تدبير الدقائق وخص النتائج ومتابعتها بروح النقد . فكم من حالة دفعتم فيها الحاجة الوقت بهم الى أن يتركوا التجربة قبل استكمالها ، لأنهم لم يقدرُوا خطر العمل الذي يقومون به . وقد كانت التربية الى الآن مشغولة بماضيتها ، فانكفأ المدرسون على (بسنالوزي) و (فرويل) و (هربارت) ، وصدفوا عن التطلع الى شيء جديد . واستتبع ذلك أن وقعت التربية موقف الدفاع عن نفسها ضد تهمة الإبهام ، والجري وراء خيالات وهواطف ، وعدم الكفاية لحاجات الحياة بوجه خاص . والحق أن قانون القصد في الطاقة يصدق في التربية صدقه في علم الميكانيكا . فإذا كانت الكفاية — ويقصد بها نسبة

الشغل النافع الى الطاقة المبذولة في إنتاجه — ثم يدر زيادة القوة وضعف المقاومة ، فان جهود المدرسين قد حبست على بذل القوة لحسب . »

هاتان الفقرتان من كتاب ادجار جيمس سويفت هدا السيدة هيلين باركرست الى وضع طريقها في التربية ، ووضعت فيها هذه الرسالة القيمة التي عنى بترجمتها زكريا افندي ميخائيل خريج معهد التربية ترجمة صحيحة بينة . فان كنا نشئ على المؤلفات واجب أن نشئ أيضا على المترجم المهام ، فانه أهدي معاهد التربية بأثر قيم إن لم يكن يبلغ أن يحدث فيه انقلابا ذريعا فيعاون على تأسيسه على قواعد أكثر منانة مما كان له منها الى اليوم .

النحو الحديث :

الحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ احمد كامل الخضرى المدرس بمعهد دمياط انجاء كريم نحو تمجيد الكتب العلمية القديمة ووضعها في عبارة يفهما المعاصرون ، وطبعها على نحو الكتب الحديثة بحيث يرتاح لمطالعتها المطالعون . فقد سبق له أن وضع كتاب كفاية الاخيار لنسب الدين أبي بكر بن محمد الحنفى في صورة عصرية استوعبت كل ما فيه من الفوائد بصارات جيزة ، وترتيب موفق ، فجاء كأنه من الكتب الحديثة التي يألف مطالعها المحدثون وما هو إلا كتاب مضت عليه عدة قرون .

وقد انجف المطبوعات العربية بسفر جديد في علم النحو سلك فيه المسلك الذي توخاه في تمجيد كتاب الكفاية . فعمد الى كتاب جليل القيمة من المؤلفات النحوية وهو كتاب قطر الندى لامام النحو ابن هشام فصاغه صياغة جديدة جمع فيها كل ما فيه من فوائد وميزات ، ولكنه أبرزه في معرض عصرى يسهل على الكافة الاطلاع عليه والاستفادة منه .

واننا إزاء هذه الجهود الجبارة التي يبذلها هذا الاستاذ الالمى في تمجيد كتب الأقدمين لا يسعنا إلا التنويه بفضلهم والاشادة بذكره ، راجين أن يحفز جميع من يقومون بتدريس تراث الأولين حذوه ، فان أثر ذلك يكون مھلا ضحيا تبقي عليه أكبر نهضة علمية عرفها الشرق الى اليوم .

الآداب الإسلامية :

هذا كتاب وضعه الاستاذ الجليل السيد على فكرى الأمين السابق لدار الكتب المصرية متابعا بذلك سلسلة كتبه النفيسة التي وضعها في التربية والأخلاق والآداب .

موضوع الكتاب : جمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية الى الآداب والأخلاق

وشرحها شرحاً موجزاً مع بيان الحكمة البالغة فيها ، والغاية السامية المقصودة منها . لجاء كتابه حافلاً بما يود كل إنسان أن يراه مجتمعاً لديه في كتاب .

ولا ننسى أن للاستاذ النابه فكري أسلوباً في التأليف يستهوي القارئ ويجذبه للمطالعة ، وكتب الآداب تكون عادةً مملة ولكن ما يكتب على أسلوب هذا الكتاب منها يكون داعياً للمطالعة ، ومحبباً الى العمل بما فيها .

وقد طبع هذا الكتاب بمكتبة عيسى الحايي الكنتي المشهور طبعا أنيقا زاد جمال الموضوع رونقا .

ارشاد البشر الى حقيقة القضاء والقدر :

هذا اسم رسالة تقع في اثنتين وعشرين صفحة وضعها صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم محمد عبد الباقي من علماء الأزهر ، يعالج فيها مسألة القضاء والقدر ، وهي المسألة التي شغلت العلماء قديما وحديثا ، وقد سلك الاستاذ في رسالته طريقا وسطا بين المذاهب كلها محاولا أن يعتمد على البرهان العقلي والنقلى في كل ما يقرره .

فهذه الرسالة التي تقرأ في مجلس واحد قد جمعت من آراء القدماء والآيات الدالة على حرية الارادة ، وعلى عدم منافاة ذلك لقضاء والقدر ، ما يحب كل إنسان أن يراه ماثلا أمامه . فنشكر فضيلته على هذه الهدية .

any of you hath performed his wudû', he may go to sleep in a state of ritual impurity."

Chapter 27.

On a man in a state of ritual impurity through sexual intercourse first performing the wudû' and then going to sleep.

1. We are informed by Yahyâ b. Bukair, who received it from Al-Laith, through 'Ubaidullâh b. Abu Ja'far, through Muhammad b. 'Abdu Rahmân, through 'Urwah, through 'A'ishah, who said :

"When the Prophet (Allâh bless him and give him peace) wished to go to sleep when in a state of ritual impurity, he used to wash his parts and then perform the wudû', as for prayer"

2. We are informed by Mûsa b. Ismâ'îl, who had it from Juwayriyah, through Nâfi', through 'Abdullâh, who said :

"Umar asked the Prophet for his ruling as to whether any of them might go to sleep in a state of ritual impurity. He replied : "Yes, when he hath performed the wudû'".

3. We are informed by 'Abdullâh b. Yûsuf who had it from Mâlik, through 'Abdullâh b. Dinâr, through 'Abdullâh b. 'Umar who said :

"Umar b. Al Khatîb mentioned to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) that his son 'Abdullâh was sometimes in a state of ritual impurity through sexual intercourse during the night. The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said to 'Abdullâh : "Perform the wudû', and wash thy member, and then go to sleep."

أَحَدُكُمْ فَلْيَرْقُدْ وَهُوَ حُبٌّ ،

— ٢٧ —

بَابُ الْحُبِّ تَوَضَّأْتُمْ يَتَامُ

١— حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة قالت :

«كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَامَ وَهُوَ حُبٌّ غَسَلَ فَرْجَهُ وَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ .»

٢ — حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا جويرية عن نافع عن عبد الله قال :

«استفتى عمرُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْسَامُ أَحَدُنَا وَهُوَ حُبٌّ؟ قَالَ : نَعَمْ إِذَا تَوَضَّأَ .»

٣ — حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أنه قال :

«ذكر عمرُ بن الخطاب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تَضَيَّعُ الْجَسَدُ مِنَ اللَّيْلِ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَوَضَّأْ وَاغْسِلْ ذَكَرَكَ تَمَّ .»

"Once the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) met me when I was in a state of impurity. He took me by the hand and I walked with him until he sat down. I then stole away from him, went home and performed my ghusl. After that I returned and found him still sitting. He said : "Where hast thou been Abu Hurairah?" When I told him he exclaimed : "Good gracious, Abu Hurairah ! A true believer can never defile by his contact."

Chapter 25.

On the lawfulness of a man in a state of ritual impurity being in his house when he hath performed the wudū' before the ghusl.

We are informed by Abu Nu'aim, who had it from Hishām and Shaibān, through Yahyā, through Abu Salamah, who said :

"I once asked 'A'ishah whether the Prophet (Allāh bless him and give him peace) used to go to sleep in a state of ritual impurity, and she replied : "Yes, but he performed his wudū' first."

Chapter 26.

On a man going to sleep in a state of ritual impurity through sexual intercourse.

We are informed by Qutaibah, who had it from Al-Laith, through Nāfi', through Ibn 'Umar that :

'Umar Ibn Al-Khattāb asked the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) whether any of them could go to sleep in a state of ritual impurity. He replied : "Yes, when

لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا جُنُبٌ، فَأَحَذَ بِيَدِي فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ فَأَنَسَلْتُ مِنْهُ فَأَيْتُ الرَّحْلَ فَأَغْتَسَلْتُ ثُمَّ جُئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ فَقَالَ: أَيْنَ كُنْتَ يَا أَتَاهِرٌ؟ فقلتُ له، فقال: سُنْحَانَ اللَّهِ يَا أَتَاهِرٌ! إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَجَسَّدُ.

— ٢٥ —

بَابُ كَيْفَةِ الْجُنُبِ فِي الْبَيْتِ إِذَا تَوَضَّأَ قَبْلَ أَنْ يَغْتَسِلَ :

حدثنا أبو نعيم قال حدثنا هشام وشيبان عن يحيى عن أبي سلمة قال :

سَأَلْتُ عَائِشَةَ: أَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْتَدُّ وَهُوَ جُنُبٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَيَتَوَضَّأُ.

— ٢٦ —

بَابُ نَوْمِ الْجُنُبِ :

حدثنا قتيبة قال حدثنا الليث عن نافع عن ابن عمر :

أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدُنَا وَهُوَ جُنُبٌ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا تَوَضَّأَ.

intercourse. "I eluded him", said Abu Hurairah, "and went and performed my ghusl. When I returned, he came up to me and said: "Where hast thou been, Abu Hurairah?" "I was in a state of impurity", replied I, "so I was loth to go and sit in thy company in my state of impurity." "Good gracious!" exclaimed the Prophet, "A Muslim can never defile by his contact. (1)".

Chapter 24.

A man in a state of ritual impurity through sexual intercourse may go out and walk about the market or elsewhere; and 'Atâ stated: "A man in a state of impurity may be wet-cupped, or pare his nails or have his head shaved, even though he have not performed a ritual ablution.

1. We are informed by 'Abdul-A'la b. Hammâd, who had it from Yazîd b. Zurâi', who received it from Sa'îd, through Qatâdah, to whom it was related by Anas b. Mâlik that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to visit his wives in turn in the course of one night, there being nine of them at that time.

2. We are informed by 'Ayyâsh, who had it from 'Abdu l-A'la, who received it from Humaid, through Bakr, through Abu Râfi, through Abu Hurairah, who said :

يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: كُنْتُ جُنُبًا
فَكَرِهْتُ أَنْ أَجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى
غَيْرِ طَهَارَةٍ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ!
إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ.

— ٢٤ —

بَابُ: الْجُنْبُ يُخْرُجُ وَيَمْسِي
فِي السُّوقِ وَغَيْرِهِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: يَحْتَمِمُ الْجُنْبُ
وَيَقْلَمُ أَظْفَارَهُ وَيَحْلِقُ رَأْسَهُ،
وَلَوْ لَمْ يَتَوَضَّأْ:

١— حدثنا عبدُ الأعلى بن حماد قال
حدثنا يزيد بن زريع قال حدثنا سعيد
عن قتادة أن أنس بن مالك حدثه :

« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ فِي اللَّيْلِ الْوَاحِدَةِ
وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ . »

٢— حدثنا عياش قال حدثنا عبد
الأعلى حدثنا حميد عن بكر عن أبي رافع
عن أبي هريرة قال :

1. Muslim doctors hold that this doctrine is true also of non Muslims, and is borne out by the fact that it is lawful for Muslims to marry Christian women and Jewesses, and intercourse with them has no more implications than that with Muslim women.

The Qur'anic words (إِنَّ الْمُرْكُوزِينَ نَجِسٌ) = Idolaters are surely unclean are held to refer to their deeds and not their bodies.

This hadith is confirmed by Abu 'Awānah and Ibn Fudail, as fellow-witnesses with Sulyān, as regards "screening."

Chapter 22.

On a woman having an erotic dream.

We are informed by 'Abdullāh b. Yūsuf, who had it from Mālik, through Hishām b. 'Urwah, through his father, through Zainab bint Abu Salamah, through Umm Salamah the Mother of the Faithful, who said :

"Umm Sulaim the wife of Abu Talhah once came to the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) and said - 'O Messenger of Allāh, verily Allāh is not ashamed of the truth. Is a ghusl incumbent upon a woman if she have had an erotic dream? 'yes', replied the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace), 'if she have observed the substance ejaculated' "

Chapter 23.

On the perspiration of one in a state of ritual impurity through sexual intercourse ;

and on the fact that a Muslim cannot defile by his contact.

We are informed by 'Alī b. 'Abdullāh, who had it from Yahyā, who received it from Humaid, who was told it by Bakr, through Abu Rāfi', through Abu Hurairah that .

The Prophet (Allāh bless him and give him peace) once met him (Abu Hurairah) in a certain street of Al-Madinah, while he was in a state of ritual impurity through sexual

تَابَعَهُ أَبُو عَوَانَةَ وَابْنُ فُضَيْلٍ فِي
السُّتْرِ .

— ٢٢ —

بَابُ : إِذَا احْتَلَمَتِ الْمَرْأَةُ :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة أم المؤمنين أنها قالت :

« جَاءَتْ أُمُّ سَلِيمٍ امْرَأَةً إِلَى طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غَسَلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَعَمْ إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ . »

— ٢٣ —

بَابُ : عَرَقِ الْجَسَبِ

وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ :

حدثنا علي بن عبد الله قال حدثنا يحيى قال حدثنا حميد قال حدثنا بكر عن أبي رافع عن أبي هريرة
« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَهِ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ جُسْبٌ ، فَاحْتَسَتْ مِنْهُ ، فَدَهَبَ فَأَعْتَسَلَ ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ : أَيْنَ كُنْتُ يَا

who said : "While Job was performing his ablutions in a state of nudity etc."

Chapter 21.

On concealing oneself during the ghusl in the presence of other people.

1. We are informed by 'Abdullāh b. Maslamah, through Mālik, through Abu-n-Nadr the freedman of 'Umar b. 'Ubaiddullāh who had it from Abu Murrah the freedman of Umm Hānī bint Abu Tālib that he heard her say :

"When I went to the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) in the year of the capture of Makkah, I found him performing the ghusl as Fātmah was screening him. He said : "Who is this woman ?" And I replied : "It is I, Umm Hānī."

2. We are informed by 'Abdān, who had it from 'Abdullāh, who received it from Sufyān through Al-A' mash, through Sālim b. Abu-L-Ja 'd, through Kuraib, through Ibn 'Abbas, through Maimūnah, who said :

"I once screened the Pophet (Allāh bless him and give him peace) while he was performing the ghusl required after sexual intercourse. He first washed his hands, then poured water with his right hand over his left, and washed his member and any part sullied. After that he rubbed his hand on the wall or the ground and performed his wudū' as for prayer, excepting his feet. Next he let the water flow over his body, and finally shifting his place he washed his feet."

ه نَيْتًا أَيُّوبُ يُعْتَسِلُ عُرْيَانًا .

— ٢١ —

بَابُ : التَّسْتَرِّ فِي الْعُلِّ عِنْدَ النَّاسِ :

١ — حَدَّثَنَا عِدَّةٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أَبَا مَرْثَةَ مَوْلَى أُمِّ هَانِيَةَ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِيَةَ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ تَقُولُ :

« ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يُعْتَسِلُ وَقَاطِمَةُ تَسْتُرُهُ فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قُلْتُ : أَنَا أُمُّ هَانِيَةَ . »

٢ — حَدَّثَنَا عِدَّةٌ قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ أَخْبَرَنَا سَفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ سَلَمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ كَرِيبِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ مَيْمُونَةَ قَالَتْ :

« تَسْتَرْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُعْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ ثُمَّ صَبَّ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ قَرَجَهُ وَمَا أَصَانَهُ ، ثُمَّ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى الْحَائِطِ أَوْ الْأَرْضِ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ غَيْرَ رَجُلِيهِ ، ثُمَّ أَقْصَصَ عَلَى جَسَدِهِ الْمَاءَ ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ . »

perform their ablutions naked in sight of one another, though Moses used to do so alone. So they said : 'By Allāh, the only thing that hindereth Moses from performing his ablutions together with us is that he is afflicted with varicocele. It happened once that when Moses went to perform his ablutions, he placed his garment upon a stone. The stone ran away with his garment, and Moses ran after it saying : 'Stone! my garment'. When the Children of Israel looked at Moses, they said : 'By Allāh, Moses hath no infirmity.' Moses recovered his garment and proceeded to beat the stone severely."

Abu Hurairah added : "By Allāh, his blows on the stone left six or seven scars."

2. It is also related through Abu Hurairah (1) from the Prophet (Allāh bless him and give him peace), who said

"While Job was performing his ablutions in a state of nudity, there settled upon him locusts of gold. When Job began to gather them in his garment, the Lord called unto him : 'Job ! Have I not given thee enough to dispense thee from what thou seest ? 'Yes verily, by Thy majesty,' replied Job. 'But I shall never be able to dispense with Thy blessing.' (2).

This ḥadīth is also related by Ibrāhīm, through Mūsā b. 'Uqbah, through Safwān, through 'Atā' b. Yasar, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace),

عُرَاةً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
وَكَانَ مُوسَى يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا:
وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا
إِلَّا أَنَّهُ آذَرُ، فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ
فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ فَقَرَّ الْحَجَرُ
بِثَوْبِهِ فَخَرَجَ مُوسَى فِي آثَرِهِ يَقُولُ:
تُونِي يَا حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ
إِلَى مُوسَى فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ
نَاسٍ. وَاحِدٌ ثَوْبُهُ، فَطَلَعَ بِالْحَجَرِ
ضَرْبًا . .

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَنَدَبٌ
بِالْحَجَرِ سِتَّةٌ أَوْ سَبْعَةٌ ضَرْبًا بِالْحَجَرِ

٢ — وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«يَمِنَا أَيُّوبُ يُغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرَّ
عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ
يَعْتَصِي فِي ثَوْبِهِ، فَتَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ
أَلَمْ أَكُنْ أَعْسَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ:
بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَسْكَنَ لَا غَيْثَ بِي عَنْ
بِرِّكَتِكَ»

ورواه إبراهيم عن موسى بن عتبة
عن صفوان عن عطاء بن يسار عن أبي
هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

1. With the isnād of the previous ḥadīth.

2. Job was censured by God for being attracted by gold, and not for his nakedness, whence it follows that the performing of ablutions naked is permissible

cloth, but he did not take it, and went away shaking off the water from his hands.

Chapter 19.

On one who beginneth with the right side of his head in the ghusl.

We are informed by Khallād b. Yahyā, who had it from Ibrāhīm b. Nāfi', through Al-Hasan b. Muslim, through Safiyyah bint Shaibah, through 'A' ishaḥ, who said :

"Whenever any one of us was ritually defiled through sexual intercourse, she used to take three handfuls of water and pour them over her head, after which she likewise washed her right side with one hand and the left with the other."

Chapter 20.

In the Name of Allāh the All-Loving the Most Merciful.

On one who performed the ghusl naked, apart in solitude, and on one who covered himself up. To cover oneself up is preferable,

and on Bahz having stated through his father, through his grandfather, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace); "Allāh is more worthy of modesty being observed before Him than any man."

1. We are informed by Ishāq b. Naṣr, who had it from 'Abdu-r-Razzāq, through Ma' mar, through Hammām b. Munabbih, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace), who said :

"The Children of Israel used to

فَلَمْ يَأْخُذْهُ فَاَنْطَلَقَ وَهُوَ بِنَفْسِهِ يَذِيءُ .

— ١٩ —

بَابُ : مَنْ نَدَا بِفِقْرِ رَأْسِهِ
الْأَيْمَنِ فِي الْغُسْلِ :

حدثنا خلاد بن يحيى قال حدثنا
إبراهيم بن نافع عن الحسن بن مسلم عن
صفية بنت شيبة عن عائشة قالت :
« كنا إذا أصابت إحدانا جنابة
أخذت يديها ثلاثاً فوق رأسها ثم
تأخذ يدها على شقها الأيمن ويدها
الأخرى على شقها الأيسر »

— ٢٠ —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَابُ : مَنْ اغْتَسَلَ عُرْيَاناً
وَحَدَّهُ فِي الْحُلُوفِ، وَمَنْ تَشَتَّرَ فَالْقِسْرُ
أَفْضَلُ .

وقال بهز عن أبيه عن جده عن
النبي صلى الله عليه وسلم « الله أحق أن
يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ » :

حدثنا إسحاق بن نصر قال حدثنا
عبد الرزاق عن معمر بن همام بن منه
عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال :

« كانت نساء إسرائيل يغتسلون

ترجمة جامع صحيح البخارى

للمؤلف ابراهيم بن موسى الموصلى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of GHUSL

(CONTINUED)

Chapter 18.

On shaking off the water with the hands, after the ghusl required by the state of ritual uncleanness through sexual intercourse.

We are informed by 'Abdân, who had it from Abu Hanzah, who heard it from Al-A'mash, through Sâhm, through Kuraib, through Ibn 'Abbâs, who stated that Ma'mûnah said :

"I set ghusl-water before the Prophet (Allah bless him and give him peace) and covered his head with a garment. He poured water over his hand which he washed, and pouring water with his right hand over his left he washed his parts. Then striking the ground with his hand he rubbed it and washed it, rinsed his mouth, cleansed his nostrils, washed his face and arms and poured water over his head. Next he let the water flow over his body, and shifting his place he firmly washed his feet. I handed him a

كتاب الغسل (تابع ما قبله)

— ١٨ —

باب : نَقْضُ الْيَدَيْنِ مِنَ الْغُسْلِ
عَنِ الْحَمَامَةِ .

حدثنا عبيد الله بن أبي حنزة
قال سمعت الأعمش عن سالم عن كريب
عن ابن عباس قال قالت ميمونة :

« وَضَعْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
غُسْلًا فَسَرَّهُ بِثَوْبٍ وَحَبَّ عَلَى يَدَيْهِ
فَمَسَحَ مَا تَحْتَ يَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ
فَقَسَلَ فَرْجَهُ فَضَرَبَ يَدَيْهِ الْأَرْضَ
فَمَسَحَ بِمَا غَسَلَهَا فَمَضَى وَاسْتَنْشَقَ
وَوَضَعَ وَجْهَهُ وَذَرَأَ عَيْنَيْهِ ثُمَّ حَبَّ
عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَفَاضَ عَلَى جَسَدِهِ ، ثُمَّ
تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ فَاتَوَلَّى نَوْبًا

مسلمو الزنبر

يهودون حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وساما

إن الأعمال الحليلة التي قام بها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر لمصلحة العلم والاسلام ، في المدة القصيرة التي مضت منذ توليه المشيخة ، قد ترامت أنباؤها الى العالم الاسلامي من أدناه الى أعلاه ، حتى لم يبق قطر من أقطاره إلا وناله حظ يسا به من الإصلاحات التي تمت على يدي هذا المصلح الكبير في مصر .

إذا كان الله قد قدر لمصر أن تكون مثابة للاسلام وعلومه منذ أجيال ، بسبب وجود الجامعة الأزهرية بها ، فإن مكاتها من هذه الناحية متردد لفتا لانظار المسلمين في بقاع الأرض كافة على نسبة نهضتها الدينية والعلمية الراهنة ، ويكون البحث في وسائل تحقيق ظن الشعوب الاسلامية فيها من الأمور التي يجب أن نستوعب تفكير الذين يهمهم أن تبقى لمصر هذه الميرة .

فكان من فصل تقدير الله أن يكون على رأس الأهر في هذه الآونة ، التي تشخص فيها أبصار الجماعات الاسلامية الى مصر ، رجل تمثلت فيه العقيدة الدينية في أكمل مظاهرها ، فقد جمع الأستاذ الامام الى غرارة العلم قديمه وحديثه ، إلما و اسما بأحوال الجماعات وعوامل نهوضها ، وعلل تدهورها ، ومعرفة تامة بأساليب علاجها ، وطرق تنبيهها ، وخصائص تقسية عالية من الحلم والتبصر والتواضع وصبط النفس ، وهي أخص صفات الذين خلقوا ليكونوا قادة للجهير .

وإذا كانت مثل هذه النفسية الثرية في الصفات الحليلة حاجة كل إدارة يرجى لها التطور والتكامل والوصول الى الغاية المنشودة لها ، فإن الجامعة الأزهرية أحوج ما تكون اليها ، لأن عايتها مع العمل للحاضر ، أن ترأب صدوعا تخلفت من المهود الماضية ، وأن تسد ثغرات بقيت آمادا طويلة في بنائها تنافي الحياة الصحيحة ، بل تؤدي الى الانهيار المحقق .

وليس يعزب عن ذاكرة الناس الأحوال المضطربة التي دعى فضيلة الأستاذ الأكبر ليتولى المشيخة فيها . فلا أقول إن هذه الأحوال كانت تكفي لتنبيه أعلى الهمم عن مواجهتها بما يرضى السواحي المتماكسة ، بل كانت تقصى عايتها بالفشل من أول صدمة ، ولكنها العقيدة التي يتحلى بها الأستاذ الامام هي التي وفقت لوجدان حل لكل عقدة ، ومحول لكل عمة ، وعلاج لكل علة ، وتصريف لكل مفاجأة .

وإذا كان العالم الاسلامي كله قد اغتبط وتلج صدره مما تراه اليه من أخبار الإصلاحات في الأزهر، فإن خطب الأستاذ الامام في الظروف المختلفة قد شخصت بتوسع الملل التي انتابت المسلمين في جميع بقاع الأرض، وكانت سببا في تقصيرهم عن متابعة خطى أسلافهم في التقدم المعنى والعمل، وزيادة مجموع الانسانية شمعات جهودهم في المجالات الحيوية المختلفة، ووصفت العلاجات الحاسمة لمادة هذه الامراض العضالة. فتلقى العالم الاسلامي هذه الوصايا الجليلة بما تستحقه من الاكبار والاحلال، وكان لها في جماعته كلها أعمق تأثير. وصيحت مصر، عن جدارة، صاحبة الولاية الدينية على جميع المسلمين في جميع نقاع المعمور.

فلا غرو بعد هذا كله أن تعرب له تلك الجماعات عما تكفه قلوب آحاديها له من الحب الصميم والتقدير العظيم، وقد تبيننا ذلك من الكتب التي ترد لفضيلته تترى في كل بريد.

وقد رأت الجمعية الاسلامية الهندية المسماة (إسلام سينغماج) أن تظهر لفضيلة الأستاذ الامام هذا الشعور بمثال محسوس، فأثرت أن تخصص في هذه السنة بالوسام التي جعلته وقفا على من يقوم للاسلام بعمل عظيم.

وقد أذاعت هذه الجمعية نبذة من تاريخ فضيلته جاء فيها:

« إن فضيلته قام بخدمة جليلة لمصلحة الاسلام أعظمها قيمة الإصلاحات القيمة التي أدخلها على الجامعة الأزهرية الكبيرة البعيدة العهد بالوجود. فإنه س لها مناهج تعليمية توخى فيها الأوضاع الحديثة، وشرع في ترجمة القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة الى جميع اللغات الحية في العالم. وأوفد بعوثا دينية الى جميع الاقطار لشر تعاليم الاسلام، وللدفاع عنه ضد الذين يشوهون تعاليمه من المستشرقين، وقد بذل جهودا مشكورة لتحسين حال المسلمين في تلك الاقطار.

« وفوق هذا كله فقد أرسل فضيلته خطبا الى مؤتمر الآديان الدولي حث فيه على وجوب مكافحة الاحاد الذي ينتشر اليوم في العالم انتشار النار في الخطب.

« وقد ألفت لجنة من العلماء لقيام بحملة ضد البدع والخرافات الدائنة، وأهاب بالحكومة لابطال العادات التي تخالف الآداب العامة مما شاع بين طبقات الشعوب.

« وجدد فضيلته نظام الوعظ والمحاضرات في جميع المساجد والمحلات العامة لجعلها أهم فوائده. أما جهوده في سبيل القضاء على سوء التفاهم بين الفرق الاسلامية المختلفة، والسعى لتوثيق عرى الوفاق والوحدة بينها لتوفير سعادة المجتمع برمته، فهي حسنة بتقدير العالم الاسلامي كله وبشكره.

« فنبتهل الى الله أن يمنحه القوة ليزداد مضيا في خدمة الاسلام، ونطلب اليه تعالى أن يحبوه برعايته في الدنيا والآخرة» انتهى.

هذا وقد أعلنت هذه الجمعية « أن مجلس إدارتها قد قرر في هذه السنة منح وسامها الذهبي لشخصية من الشخصيات الإسلامية البارزة ، من التي تكون قد قامت بعمل مجيد وخدمة نافعة للمسلمين ، فتسحبها هذا الوسام اعترافاً بفضلها ، وقيامها بواجب تقديرها .

« ولما كانت هذه الجمعية قد أهدت في السنوات الماضية وسامها الذهبي الى كل من حضرة صاحب السمو نظام حيدر آباد لتأسيسه مسجداً للمسلمين في لندن وتقديرها لأياضه البيضاء في المشاريع الإسلامية ، والى حضرة صاحب السباحة أمين أفندي الحسيني مفتي فلسطين لمحافظة على الأماكن الإسلامية المقدسة ، والى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر لخدمات جليلة للإنسانية ، فهي ترجو الآن أن يتفضل عليها القراء بترشيح الشخصية التي يرون فيها استحقاقاً لهذا الوسام ، بأن يبعثوا بمعلومات وافية عنها ، مصحوبة بصورته التوثيقية ، وأن يصل الرد الى مجلس الإدارة قبل يوم ٢٩ شعبان سنة ١٣٥٦ . وسيكون أول يوم عيد الفطر المبارك موعداً لإعلان النتيجة وإرسال الوسام مع تelfرافته التهنئة .

بحث في مسألة التاج

زار أحد محرري جريدة المصري حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، لسؤاله عن الحكم الدينى في وضع ملوك المسلمين التاج على رؤوسهم ، لمناسبة ما نشره حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون من مخالفة ذلك للتقاليد الإسلامية . وقد أجابه فضيلته بمجواب أحسن ما يقال عن التاج من الماحية الدينية والناحية التاريخية ، وقد رأينا أن نتحرف قراءنا بهذه الفذلكة الثمينة ، فهي من أجل ما يدخر لفضيلته في هذه المجلة . قال حفظه الله:

اعتاد الناس أن يصوغوا التاج من ذهب ، وأن يرصعوه بالجوهر . أما الجواهر فلا خلاف بين جمهور العلماء في جواز استعمالها ولبسها حتى يقل بعضهم إجماع المسلمين على ذلك .

وأما الذهب فقد حرم جمهور العلماء لبسه ، وأجازه بعض العلماء . وقد كان الامام الشافعى في مذهبه القديم يقول فيه بالجواز مع السكراةة . والامام داود يقول فيه بالجواز . وكذلك بعض أصحاب الشافعى .

على أن مسألة الذهب في التاج ليست ضرورية ، إن أريد التاج واستحسن . فقد وجد معدن آخر أغلى منه وأنفس يمكن استعماله في التاج ولم يوجد فيه خلاف معتبر عند الفقهاء .

فسأله المحرر : ما رأى فضيلتكم في لعادات الإسلامية والتقاليد ؟ فأجابه فضيلته :

إن سمو الأمير من علماء التاريخ ، ولا أشك في أنه ذهب الى المصور الأولى من عصور الاسلام ، فانه لم يعرف استعماله عند العباسيين ولا عند الأمويين ، وإن كان قد عرف أن بعض الخلفاء العباسيين وضع جوهرة في العمامة والعمائم تيجان العرب .

وإذا نحن ذهبنا الى الدولة الفاطمية في مصر وحدنا الخلفاء فيها استعمالوا التاج ، وكان لهم تاج ينعت بالشريف ، ويعرف بشدة الوقار ، وكان يلبسه الخلفاء في المواقب العظام . وفيه جوهرة لا تقوّم بحال لمعاستها ، وحوطها جواهر أخرى دونها ، وكان يلبس بدل العمامة .

هنا سأله المحرر : وماذا كان شعار الخلفاء في غير الدولة الفاطمية ؟ فأجابه فضيلته : كان شعارهم سرير الملك وقبة تضرب فوقه (وكانت أحياناً تسمى التاج) ، والعمائم والبردة والقضيب وثياب الخلافة .

ومن لطيف ما يروى في ذلك أن الملك السعيد اسماعيل أحد ملوك بني أيوب من الجين كان به هوج ، فادعى أنه من بني أمية ولبس ثياب الخلافة ، وكان طول السكّ إذ ذاك عشرين شهراً .

ومما لا شبهة فيه أنه بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم استحدثت أمور كثيرة ، وقد كانت تزيد كلما زادت الحضارة ، حتى كثر العرش يكلل بالذهب ، والعمائم حوله يقفون بمظلات ترفع على رماح فيها سلاسل من ذهب مرصعة بالزبرجد والياقوت .

وكان الخليفة أحياناً يتمنطق بوشاح أو مسطرة مرصعة بالأحجار الكريمة ويضع في عنقه قلادة من الذهب مرصعة بأحجار كريمة .

فسأل المحرر : هذا حال الخلفاء ، وماذا كان حال الملوك ؟ فأجابه فضيلته :

لبس ملوك الاسلام أطواق الذهب في الأعناق ، وأسورة الذهب في اليدين ، وقد كان خلفاء بغداد يرسلون الى ملوك مصر التشريف على أيدي الرسل ، وهو حبة أطلس أسود لطرّاز من ذهب ، وطوق من ذهب وسواران من ذهب وفرس بمرك من ذهب ، وعلم أسود يكتب عليه بالبياض اسم الخليفة .

وقد فعل هذا مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخيه المادل . وآخر من وصلت اليه الخلمة والطوق والتقليد من ملوك بني أيوب ، الناصر يوسف بن العزيز بن السلطان صلاح الدين بن المستعصم سنة ٦٥٥ هجرية .

والخلاصة أن التاج لم يعرف في الدولتين الأموية والعباسية ، وقد عرف في الدولة الفاطمية في مصر ، وأن شعار الخلافة لم يكن شيئاً محدوداً حدده شرع أو عرف ، وأن المادة لم تكن مطردة . انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

— ١٠ —

المقومات الاجتماعية

الاسلام آخر الاديان السماوية نزولا ، وكتابه خاتمة الوحي الالهى للانسانية ، وقد نمن فيه على ذلك في غير موطن منه ، وثبتت الزمان ذلك بعدم قيام دين بعده الى يومنا هذا . اللهم إلا مذاهب لبعض الافراد ادعى أصحابهم أنهم رسل لله ، وبعضهم غلا فاعتبروا زعمهم الخالق نفسه متجسدا . ولكن هذه المزاعم لم تصدقها الحوادث ، فلم تقم لتلك الاديان المزعومة قائمة ، ولو كانت من الله لبزت جميع الاديان في الاتباع ، ولكانت لها دولة وصوله في العالم ، ولم تكن على ما هي الآن ، وقد مضى على بعضها أكثر من قرن ولا تزال مجهولة لا يكاد يعرفها إلا عدد قليل في كل ناحية .

بهذا الاعتبار جاء الاسلام حائرا لمميزات الخواص ، وهي النهايات التي ليس وراءها مذهب ، سواء أكان ذلك في المعتقدات والعبادات والمعاملات ، أم في الاخلاق والآداب وروابط الاجتماع . وبما أننا اليوم بصدد المقومات الاجتماعية فالتنا بسط القول فيها تحت ضوء مقرراتها الرسمية ، فنقول :

كانت الروابط الاجتماعية قبل الاسلام لا تمدد دائرة القوميات ، فكان لكل قوم دعوتهم الضرورة للحياة حياة مشتركة نعمة جسدية قائمة على المصلحة المادية دون سواها . فأفراد هؤلاء القوم كانوا يقبلون الاشتراك في الحياة دفعا لعادات جماعات أخرى ، وتعاونوا على مبدأ تقسيم الأعمال ، والاستفادة من الميول المختلفة في المحاولات الميشية .

على هذا الأساس قامت جميع الربط الاجتماعية السابقة ، لم تصد واحدة منها فتنطلب غرضا أممي من المصلحة المادية ، وهو الى اليوم مدار الدعوة الرئيسية الى الالتفاف حول راية واحدة أو التوجه لنفاية معينة . ولكن هل هذه النعمة القومية هي المثل الأعلى للدعوة الى الاجتماع ، والى التضامن في الحياة ، والتساند في تذليل ما يعترضها من عقبات ؟ اللهم لا ، واليك البيان :

الأم تتطلب اليوم إبطال الحروب لما تمت لها أنها تصيب الغالب والمغلوب على السواء ، بسبب دخول الحياة العالمية في ترابط اقتصادى تام ، فإفساد هذا الترابط أو يخله تقع تبعته على جميع الأمم بلا استثناء. فقد انتصرت الأمم الأوروبية على الألمان في الميدان ، ولكنها تحملت وإيها تبعات تلك الحرب الشعواء ، فإمة منها إلا وقد اضطرب جئانها ، واحتل توازنها ، ورجعت في بعض شئونها القهقرى عشرات من السنين . وإذا تلتها حرب أخرى فستكون نتائجها أعدي على كيانها من الحرب السابقة ، وأشد إخلالا لتوازنها . ولذلك نجد الأمم تتجنب وقوع الحرب جهد طاقتها .

ولكن تحجب الحرب لا يكون مالمضى ، فهو يقتضى تحديد التسليح ، وتكافل الأمم على حل مشاكلها بالتجأكم الى المعدل لا الى السيف ، واتفاقها على كل من يخالف ذلك بالتألب عليه وإلزامه حده بالقوة .

كل هذا لا يكفى فان الجوع كما قيل كافر ، والأمم التى تنمو تحتاج لمادة جديدة لتقوت بها الزيادة فيها ، ولا طاشت الأحلام تحت تأثير الحاجات المادية ، وأحدثت ما لا تحمد عقباه من الاضطراب ، والصمير البشرى أصبح لا يطبق أن يصفط على أمة ويصيق على خناقها لتتوت تحت تأثير حاجة طبيعية لبعضهم منها ، وفى نصيب ، ومقدار يزيد عن حاجتها زيادة عظيمة .

من هنا نشأت فكرة توزيع المواد الأولية العالمية توزيعا عادلا بين الأمم حتى يعدم لطلعها للاستعمار ، والعدوان على غيرها من الأمم . ولكن وصولها الى هذه النتيجة من العسر بمكان ، فان شرارة الهرومين ، وشح المستأثرين ، تمنع من الوصول الى حل وسط .

ولكن الوصول الى هذا الحل أمر لا يحسم منه ، فان الترابط بين الأمم تشتد عراه يوما بعد يوم ، وتداخل المصالح العالمية يزداد شيوعا على نسبة تقدم المدنية ، والمدنية تيار جارف يطنى في طريقه على كل عقبة .

ولسنا ننسى أنه الى جانب هذه العوامل الداعية الى التفاهم بين الشعوب ، توجد عوامل أدبية أشد منها تأثيرا ، منها ذبوع مبادئ الفاسفة بين الناس ، وهى تصور الحروب الشرية تصويرا لا قبل للصمير البشرى بقبوله ، وتلطف الشعور الانسانى الى حد الفجور من كل عمل وحشى ، وسقوط الأوهام التى كانت تبني عليها مجادة الأمم من الانتصار فى الحروب ، واستئصال شأفة الأعداء ، أو تمزيقهم كل ممزق ، وضعف التعصب للأديان الى درجة أنه أصبح يعتبر من مفسدات الشخصية الشرية . وفوق هذه العوامل كلها عامل ذبوع العلم بين الأفراد وقضائه على كل عقيدة باطلة بأدلة لا تحتمل النقض ، وتحليلته للناس العقائد الفطرية من وجود الخالق والروح والخلود والعالم الروحاني بحجج حسية تتلج عليها الصدور ، ويشترك فى الخصوص لها الناس كافة .

من هنا يدرك كل من يتأمل فى أحوال الانسانية أنه لا بد ، تحت تأثير جملة هذه العوامل

المتصافرة ، من توحيد الانسانية في المعتقدات الاولية ، وفي الآداب النفسية ، وفي ربط الاجتماع أيضا .

نعم إن بلوغ هذا الشأو يحتاج لوقت طويل ، ولكن الانسانية متجهة اليه ، ولا يتخيل شيء يصدها عنه ، إذا عرف أن ناموس الارتقاء طبيعي ، وأنه لا محيص من تأثيره . فالروابط الاجتماعية ستنتقش من المادية الباعثة ، التي تفضي الى التراحم والتنازع على العيش ، الى مادية وروحية في آن واحد ، تفرض على الكافة حقا تناسب وترابط مصالحهم ، وتداخل مراقبهم ، ووصولهم الى درجة من السماو الادبي بحيث يستعظمون أن يعيش بعضهم بامتصاص دماء بعض .

فالاسلام الذي جاء بالمثل العليا في جميع الشئون الانسانية ، جاء بالمثل الأعلى في هذه الناحية أيضا ، فلم يدع الى احتياج أساسه القومية ولا الجنسية ، ولم يعبأ بالأواصر القوية ولا التاريخية ، ولكنه تحطى تلك الاعتبارات الخاصة كلها ، ودعا الى المثل العليا للاحتياج الذي ستنهض اليها الانسانية ، وهي الوحدة النوعية ، والاصول الادبية ، والمبادئ الخلقية ، فداء مجتمعه ذا صفة عالمية عامة ، لا قومية خاصة . وأول أساس وضعه في هذا الصرح الاجتماعي العالي قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . فأنت ترى أنه يدعو الناس كافة ولا يدعو قبيلة واحدة ، ولا أمة بعينها ، وقد جاءت جميع آياته داعية الى هذا المبدأ السامي مبدأ الوحدة الانسانية ، بصرف النظر عن جميع الفوارق من جنس ولغة ولون . وهو لأجل أن يوطد أركان هذه الوحدة ويجعلها حقيقة واقعة ، لا خيالا شعريا ، دعا الى الدين الجدير بأن يكون دينا عاما للانسانية ، وهو دين الفطرة الذي يتأدى اليه الانسان محفوظا بمقتضيات فطرته لا تعليم معلم ، ولا بتورث مورث ، فقال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . والفطرة تدعو الى الاعتقاد بخالق الكون ، وبالروح ونفاتها في عالم وراء هذا العالم ، وبترتب أحوالها هنالك على سيرتها في هذا العالم ، وعلى حب الحق ، وكره الباطل ، وإيتار العدل ، ومكارم الأخلاق ، وإقامة دولة الفضيلة في الأرض .

يقول قائل : كل دين يدعو الى هذا فأى مزية للاسلام عليها ؟ تقول : نعم ، والاسلام يقرر أنه ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذي أوحاه الله الى أول أنبيائه ، حرفة الناس وأخروهم عن أصوله ، وتفرقوا فيه ، وذهب كل فريق بما تخيله منه ، يناهذه سواء يستعمل دمه . جاء الاسلام لتنبية الناس الى هذا الخطأ البين ، والصلال البعيد . قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء »

ويهدى اليه من يليب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا عجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا واليه المصير . « إن الذين عبد الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

فالاسلام كما ترى لا يتوجه للام بوصف أنه دين جديد ، ولكن بوصف أنه دين الانسانية كلها ، وإنما أعيد الوحي به تقيا خالصا ليرفع الخلاف الذى أوجده قادة الأديان بغيا بينهم ، ففرقوا الناس أحرا با وشيعا ، كل حرب بما لديهم فرحون . قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » .

فالاسلام يدعو لتوحيد دين الانسانية ، وهو الدين الذى فطر عليه الناس جميعا ، وهو إنما تعددت سورة بفعل الرؤساء الذين اقتضت أهواؤهم أن يستفوا الخلاف بين الناس ، موافاة لمطامعهم ، ومسايرة لمزاجهم .

فالدين فى نظر الاسلام كل لا يقل التجزؤ ، ويشمل ما أوحاه الله الى الناس كافة ، واعتبار كل من أرسلهم اليهم فى جميع العصور والاحيال ، قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون ثؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهيا » .

والاسلام لأجل أن يمد جميع المسارب على التضليلات التى يتذرع بها رؤساء الأديان لخدع الشعوب ، وتفريقهم وحمل بعضهم على معاداة بعض ، أقام العقل حكما يرجع اليه فى التفرقة بين الحق والباطل ، وحمل الدليل وسيلة من وسائل الوصول الى لباب المسائل المتنازع عليها . وزاد الاسلام على هذا ، القضاء على الاعتداد بالموروثات من العقائد والتقاليد ، وجعل كل إنسان مسئولا عن نفسه ، وخلق ما بينه وبين ربه باسقاط الوسطاء الذى انتحلوا لأنفسهم هذا الحق ، فى غفلة العقل ، وفى دور طغوة الانسانية .

فالاديان كما يقول المعترض تدعو كلها الى عقائد واحدة ، ولكنها ملتانة بشوائب الآراء البشرية ، مما لا مناص من التنايد عليه ، ولكن الاسلام يدعو الى تلك العقائد حالصة من شوائب الآراء ، فلا تجد الشعوب المختلفة مانعا يمنعها من الأخذ بها باعتبار أنها دين الانسانية جمعاء لا دين طائفة من الطوائف ، ولا أمة من الأمم . فدين الانسانية لا يجوز أن يكون حاملا طابعا من قومية ، ولا أثرا من عقلية ، ولا شائبة من حالة تسمية . بل أصولا أولية ، ومبادئ كلية ، وآدابا عالمية .

هذه الغاية سينتهى إليها العقل البشرى حتماً ، وإذ ذلك لا تجد الإنسانية في طريق وحدتها حائلاً يمنعها منها ، وعند ذلك تكون الأحوال الاقتصادية العالمية قد استقرت على قرار مكين ، وتكون العلوم قد بلغت شأواً تصلح معه أن تطهر النفوس من دنس الميول الساقطة ، وتحلص المدينة من آفات الموبقة ، فتقوم على سياسة رشيدة في حكوماتها ، وأخوة صادقة بين جميع وحداتها ، وإذ ذلك يتحقق ما وعد الله به في قوله : « سنسريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

فالإسلام بما شرعه من جعل أصول الاجتماع قائمة على الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية والمقائد الفطرية ، قد وضع أساس مجتمع عالمي عام ستقوم عليه البشرية حين تبلغ رشدتها ، وتعرف حدها . وقد حرى في ذلك على سنته من الدعوة إلى النهايات من كل الأمور ، والاهابة إلى الغايات في جميع الشؤون ؟

محمد فريد وجدي

مواطن الصنعة

لا يستطيع الإنسان أن يسع بمعرفه جميع الناس ، فإذا شرح الله صدره للبخل فليتنحّر أن يكون ذلك في موضعه . لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب ودين » . وقال أيضاً : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه في أهل الحفاظ » . وقال حسان بن ثابت الشاعر الإسلامي المشهور :

إن الصنعة لا تكون صنعة	حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا صنعت صنعة فاعمل بها	لله أو لدوى القربة أودع
وقال حكيم : « على قدر المغارس يكون اجتناء الفارس » فأخذ الشاعر وقال :	
لعمرك ما المعروف في غير أهله	وفي أهله إلا كبعض الودائع
فستودع ضاع الذي كان عنده	ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس في شكر الصنعة عندهم	وفي كفرها إلا كبعض المزارع
فرسعة طابت وأضعف نبتها	ومزرعة أكلت على كل زارع
وأحسن من هذا قول الشاعر :	

من يفعل الخير لا يعدم جوازه لا يذهب العرف بين الله والناس

التفسير

سورة لقمان

- ٧ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَالِي (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُومًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . يَا بَنِيَّ إِنِّي إِنَّا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ
فِي صَفَرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) :

قد ابتدأ حل حلاله الوصايا التي أوصى بها لقمان ابنه بالنهي عن الشرك بالله ، وبيان أن
الشرك ظلم عظيم . ولقمان هو الذي آتاه الله الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا
كثيرا . ولا يخفى مقدار التسوية العظيم بشأن هذه الوصية المستعاد من بيان أن آتاه الله الحكمة ،
وبيان أن الوصية صادرة منه لانه ، والابن أعز المخلوقات على الأب ، فالوصية له أعز وأعز
ما يملكه ويبدله المرء ، إذ كانت بذلا لأعز الخلق عليه . ويبر أن هذه الوصية صدرت منه
وهو يعظه ، وفي هذا تنويه جديد بشأنها ، فقد يوصي المرء شخصا في أثناء حديث للتفكير
أو المداعبة أو السر ، فلا يكون لها من جمع الذهن واختيار الامم ما يكون لها وقد سبقت
في مقام الوعظ والارشاد .

ثم أردف حق الله عليه ، وهو لا يشرك به شيئا ، حق أبيه ، إذ كانا الطريق الذي يزر
منه للوجود ، وكانا أعظم من تولى تنشئته وتربيته ، يقاسيان في ذلك أمر السموات ، ولا سيما
أمه حملته وهنا على وهن ، وغذته من دمها ، فلم يتم فصاله إلا بعد عامين ، وفي هذا من تأكيد
حقهما عليه ما لا يخفى ، وقد سبق تفسيره .

ثم استطرد من حقها راجعا الى الحق الذى بدأ به ، وهو التحاشى عن الشرك مهما قويت دواعيه والداعى اليه ، فقال « وإن جاهدك على أن تشرك بى » الخ . فكان الآية هكذا : هذا حق أبويك عليك يؤكده ربك ، ويشرح لك ما قاسياه فى سبيل تربيتك ، وما بذلا من راحة وضحايا من صحة فى سبيل هناءتك ، ولا سيا أملك ، ومع ذلك طدا بذل كلاهما الجهد ليحملك على الشرك ، وطال الجهاد بينك وبينهما فى ذلك ، فلا تطعهما ، إلا أن ذلك لا يمنحك أن تصاحبهما فى الدنيا بالمعروف ، وأن تكرمهما ما استطعت ، على ألا تخل بحق ربك عليك . أما هذا الحق المقدس فاتبع فيه سبيل من أناب الى ، ثم بعد ذلك سترجمون جميعا الى أفت ووالداك ومن أناب الى ومن زاغ عن سبيل فستنبشون جميعا بما عملتم ، يوم لا تنفى نفس عن نفس شيئا ، بل من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

والجهاد فى الأصل بذل كل من المتلاقيين جهده فى سبيل تحويل من يقابله عما هو عليه الى رأيه وموافقته . ولما كان فى المقاتلة فى سبيل الدين بذل أقصى الجهد فى سبيل تحقيق أنفس الاغراس وأنبها وهو الدين الذى هو أساس كل سعادة ، غلب لفظ الجهاد على القتال فى سبيل الدين وإعلاء كلمة الله . ولما كان الغرض من الجهاد هو الحل على أمر خاص ليحققه عدى يعلى كما يمدى (حمل) يعلى ، فقال : « جاهدك على أن تشرك » الخ

ولمك تلح فى التعبير بتشرك الاشارة الى ما فطرت عليه النفوس من الادمان الى القوة القاهرة ، قوة مالك الملك ، قدرة خالق الخلق ، التى أشار اليها عز وجل فى قوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » فكان الآية تدلنا على أن الاعتراف بالخالق القادر على كل شيء لا تنوى نفس على إنكاره ، وكل ما تنورط فيه النعوس الجاهلة هو الاغترار ببعض المظاهر الكاذبة ، فيقصر نظرها عن إدراك مكونها وحالها ، فتنسب اليها بعض ما أجراه الله عن طريقها ، أو ما توهمته صادرا عنها ، فتشركها مع الله فى حقوق العباداة والتعظيم ، وتطلب منها ما لا يقدر عليه إلا القوى العزيز ، فقد تستنصر بما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقد تطلب العون عن ليس له من الأمر شيء .

وقوله « ما ليس لك به علم » عبر فيه بما التى هى لما لا يعقل : إما تهويما لأمرها وإظهارا الى أنها فى هذا الباب سواء أعقلت أم لم تعقل هى بمثابة من لا عقل له ، وإن كان فى بعض المعبودات من يعقل كالملك وأفراد من الاناسى ، وإما لأن القصد فيه الى الوصف ، أى أن هذه المعبودات لم ينظر الى أنواعها أمس العقلاء أم من غيرهم ؟ وإنما القصد الى أنها تجتمع فى وصف شامل لها جميعا ، وهى أنها لم ينسب عنها علم ، ولم تتكشف بها معرفة .

وقوله « فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » . ترتيب فى الارشاد فى منتهى الحكمة والسداد ، فقد أمره أولا بتعطيل نفسه من إغوائهما ، ثم حذره

من أن يطنى في مخالفته لها الى حد إهاتهما أو إيذاهما أو الاضرار بهما إذا لم تكن المخالفة مقتضية لذلك حتماً، ثم أرشده الى السبيل الذى يتبعه بعد أن خلصه من السبيل الذى يتجنبه .

وبعد أن استوفى هذا البيان وجه نظره الى ما ينتظره ، وهو هذا الموقف الخطير ، موقعهم بين يدى ربهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فقال : « ثم الى مرجعكم فأنتبكم بما كنتم تعملون » . وكأن في إنبائهم بما كانوا يعملون أبلغ أنواع الزجر ، لأن ذلك سيعود به الى استقراء ماصدر منه ومحاسبة نفسه عليه ، حتى يبدأ هو بالحكم على نفسه بما تستحقه ، فلا يجد له مخلصاً إلا بالتحنى عن الطريق المموج وسلوك الصراط المستقيم . وغير خاف عليك ما يقيده لفظ « ثم » من أن الهول فيما يليها يستدعى إبعاد النظر فى التأمل والتذكرى . على هذا النحو من تدبر آيات الذكر الحكيم ، بل التأمل فى كلماته ومعداته ، تقرأ من أسرار التنزيل ما يملأ قلبك إعظاماً بأنه تنزيل من حكيم حميد .

هذا وقد روى أن الآية زلت فى سعد بن أبى وقاص إذ أسلم وكان براً نأمة ، فقالت له : يا سعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أولاً آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيرنى فيقال يا قاتل أمه ! قلت لا تعلى يا أمه فأتى لا أدع دينى هذا لشيء ، فكنت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت ، فكنت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد اشتد جبهدها ، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرحت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشيء ، فان شئت فكلى وإن شئت فلا تأكلى فلما رأت ذلك أكلت . فزلت الآية .

ويرى بعض المفسرين أن إسلامه كان على يد أبى بكر رضى الله عنه ، وفسر من أناب الى أبى بكر ، قال : ولذا أرجع الضمير مفرداً ولم يقل من أنابوا الى . ولا أرى فى هذا دلالة ، فالآية مسوقة على العموم ، وزولها فى سبب خاص لا يوجب قصر معناها عليه . فالظاهر العموم ، وإفراد الضمير مراعاة للفظ من .

« يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » :

هذا متصل بقوله : « فأنتبكم بما كنتم تعملون » ، وكأنه يقول : لا تغفروا بأنكم بين أيديكم مخالفطونهم وتعاشرونهم ويعلم كل منكم ما عند صاحبه فتظنوا أن الله غائب عنكم فكيف ينشكم ؟ فاعلموا أن الله محيط بكم وبذات صدوركم ، ومحيط بكل ما قل وجل ، لا تحنى عليه حافية ، فهو قن أن يلبسكم بما كنتم تعملون . وسوقه بطريقة استئناف موعظة جديدة مبدوءة بخطابه لآبائه لا يمنع مزيد اتصاله بما قبله ، فان أجراء الكلام المتصلة أتم اتصال كثيراً ما يعتمد الى أفرادها بالناية تنبيها على أن لها من القيمة فى ذاتها ما يجعلها جديرة بالعمد اليها بالنظر والاتجاه اليها بالقصد .

وقوله : « إنها إن تك » ضمير إنها راجع الى الخصلة التي يعملها المرء ، كما هو ظاهر من السياق . وقيل إن الضمير راجع الى ما سأل عنه ابن لقمان إذ قال : أ رأيت يا أبت لو كانت حبة صغيرة تقع في مفاص البحر : أعلمها الله ؟ فأجابه بهذا . والاول أظهر . وقيل إن الضمير للقصة كما تقول : إن المسألة بما فيها : إن تك متقال حبة من خردل الخ . والاول أظهر وأقرب . وقد ذكرت عوامل الخفاء التي تتوهم كلها ، فأولا : الصغر المتساهى في قوله « متقال حبة من خردل » وهذا متعارف مثلاً في الصغر . وثانيا : الاحتجاب عن العين ، وذلك بقوله « متكى في صخرة » فإن الصخرة بسبب كثافتها وعدم استطرافها للندق ونحوه بحيث يبين ما في داخلها كالعماد ، تعتبر من أ كسف الحجب . وثالثا : في بعد الأقطار والتساع المجاهل ، وهذا في قوله : « أو في السموات أو في الأرض » أي ضلت في تلك الأرجاء المتناهية ، فهما يكن شيء من ذلك فأنها لا تغيب عن علم الله « إن الله لطيف خبير » .

وقوله « يأت بها الله » أبلغ في العلم والاحاطة من : يعلمها الله ، فإن من يقدر على الاتيان بشيء يكون بالضرورة مهتديا اليه ، بخلاف من يعلمه لحسب ، فربما كان طاجزا عن الوصول اليه . ولعلمهم من هنا يستعملون كثيرا لفظ يدرك مكان يعلم .

ووصفه جل شأنه باللطيف مع وصفه بالخبرة ، إما أن يكونا راجعين الى صفة العلم ، ويكون معنى اللطف العلم بالدقائق والحقايق ، وهو ما يناسب « متقال حبة » و « في صخرة » ، ومعنى الخبرة الاحاطة بالمتشعبات الشاسعة ، وهو ما يناسب « أو في السموات أو في الأرض » . وإما أن يرجع الوصف باللطيف الى صفة القدرة ، والوصف بالخبر الى صفة العلم ، ويكون قوله : لطيف مناسبا لآيات بها الله . وفي الحق أن المعنيين يحضران في الدهن عند تلاوة الآية الكريمة . نسأل الله تعالى أن يحيطنا بلطفه ، ويمنحنا توفيقه ، إنه سميع الدعاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالي

الصديق الصدوق

قال علي بن أبي طالب أمير المؤمنين : خير إخوانك من واصلك ، وخير منه من كافاك . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : اللهم إني أعوذ بك ممن لا يلتبس خالص مودتي إلا بموافقة شهوتي ، وممن ساعدني على سرور ساعتى ، ولا يفكر في حوادث غدئ . وقال الشاعر :

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكننا الاخوان عند الشدائد

الشيعة

مهر الزواج

عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة . فرأى النبي صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس ، فسأله ، فقال : إني تزوجت امرأة على وزن نواة . وعن قتادة عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة من ذهب . رواه البخاري في كتاب النكاح .

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) بيان مصاه (٢) بيان مشروعية المهر في الشريعة الإسلامية وحكمة جملة موطأ بالرجل دون المرأة (٣) بيان حده الأدنى وحنة من يقول به لاحد لأقله (٤) بيان حكم المغالاة في المهر خصوصا إذا ترتب عليها صياع الكعب وأزمة الزواج . ١ — لهذا الحديث نكتة يتوقف عليها بيان مصاه ، وقد رواها البخاري في غير هذا المكان ، وإنما لم ندكرها لأنها لا تتعلق لما بها عرض فيما نحن بصدده . وحاصل معنى ما رواه أن عبد الرحمن بن عوف كان من بين المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم عكة ، وفروا بدينهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بعد أن لا قوا من صنوف الاصطهاد ما لا يطيقه إلا المؤمنون حقا . فقد كان المشركون يتعمسون في إيذائهم مستعنيين عليهم بكثرتهم وقوتهم ، فلم يكن لهم مناص من مفارقة وطنهم وترك أموالهم وديارهم ، فرارا بدينهم ، وطلبا لما عساه أن يقاتروهم بمدوم بعد . فلما قدموا المدينة زلوا على الأنصار الذين آمنوا بالله وبرسوله وكانوا ينتظروهم نقارع الصبر ، فكان من الطبيعي في هذه الحالة أن يعد لهم الأنصار يد المونة عن سباحة نفس وغييب خاطر إلى أن يشقوا لهم طريقا إلى الحياة بحسب ما يحتاج لهم ، فمن أجل ذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعهد لذلك بمقد إياه بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل مهاجر أخصا من الأنصار يعمل معه في شئون الحياة كما يعمل أخو النسب مع أخيه .

فكان نصيب عبد الرحمن بن عوف الإخاء مع سعد بن الربيع الأنصاري ، وكان سعد بن الربيع أكثر الأنصار مالا ، فانطلق به سعد إلى منزله فدنا بطعام فأكله ، ثم قال له : لي امرأتان وأنت أحق لامرأة لك فأطلق لك ما تمجبت منهما فإذا انقضت عدتها تزوجتها ، وهلم إلى حديقتي كي أقسمها لصفيين يني ويبيت ، وعرض عليه أن يقاسمه كل ماله . فقال له عبد الرحمن بن عوف :

بارك الله لك في أهلك ومالك ، وحلف أن لا يقبل منه شيئا من هذا ، ثم قال له : دلتني على السوق ، واقترض منه بضع دراهم مباع واشترى ، فربح ما به يمكنه أن يتخذ له زواجا ، فزوج امرأته من الأنصار ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد انقطاعه مدة ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم نشاطه العرس بادية على عبد الرحمن . ومن علامة ذلك أن العرب كانوا يصبغون بعض الثوب بالزعفر ، فيكون به أثر صفرة . ويقول بعض الأئمة : إن ذلك قد نبهني عنه بعد ، فلا يجوز للرجل أن يتعذر . وبعضهم يقول : إن الكراهة خاصة بما إذا كان في البدن دون الثوب . فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحالة سأله : ما هذا ؟ فقال له : إني تزوجت امرأة من الأنصار ، فقال له : كم أصدقتهما ؟ فقال : وزن نواة من ذهب . فقال له صلى الله عليه وسلم : أولم ولو بشاة . هذا معنى الحديث . وأظن أن الذي يتأمله تمتليء نفسه بمظنة أممحاب الرسول صلوات الله عليه ، ويوقن بأن الله قد اصطفى لحل هذا الدين رجالا أصفيا لا يزحزحهم عن إيمانهم مظهر من مظاهر الحياة الدنيا ، ولا تؤثر عليهم زخارفها ، فلا يضنون بذل ما يرض به النشر عادة من مال ولذات متى كان لله ورسوله في ذلك رضا . فلينظر القارئ إلى هذين الرجلين العظيمين : عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، فانه يجد فيهما معنى الانسانية الصحيحة ، ويعرف قدر عظماء الرجال حقا ، ويدرك ما يفعله الايمان الصحيح نفوس المؤمنين .

فهذا عبد الرحمن بن عوف وكان من أكثر أهل مكة مالا وعزا (حتى قدر ما خص نسائه من تركته بأربعمائة ألف دينار ، وهو منها فقط) : قد ترك هذا المال وهذا الميراث ورضى أن يكون في زمرة المهال البؤساء الذين يبيعون الزهد والدين كي يحصل على قوته الضروري إثارة لرضاء الله عز وجل لأنه مؤمن به حقا ، ومؤمن باليوم الآخر الذي لا ينفي نعيمه حقا ، ومؤمن بأن الدنيا لا قيمة لها بجانب رضوان الله عز وجل حقا . ولما عرض عليه سعد أن يشاطره ماله أبت نفسه الكريمة أن يقبل هذه المكربة الواسعة مع كونه في أشد الحاجة إليها ، ولو أن شخصا غير عبد الرحمن ألف العز والثروة عرض عليه شيء كهذا الذي عرضه سعد ، لوجد له مبررا لقبول بعضه على الأقل دفعا للحاجة ، ولو مؤقتا . ولكن نفس عبد الرحمن الكبيرة التي لم تسال بالثروة الطائلة والمال الوفير في سبيل مرضاة ربه ، وقهر شهوته في ميدان العمل النافع ، أبت أن تنتهز فرصة أرحمة رجل حواد وتشاطره ماله ، بل أبت أن تنال منه ماله قيمة يتأثر بها ولو قليلا . ثم أراد فوق ذلك أن يضرب للمؤمنين بنفسه المثل الكامل في التضحية ومكران الذات من أجل العقيدة ، فتزل السوق نائما صغيرا وعاملا يسمى للحصول على قوته ، بصرف النظر عما كان عليه من مال وجاه ما دام ذلك لازما لدينه وعقيدته .

وهذا سعد بن الربيع : بعثه يمانه الصحيح إلى أن يذهب في أخوة عبد الرحمن بن عوف إلى أبعد مما يعمل الأخ الشقيق البار مع أخيه ، فقد أدى به طلب مرضاة الله ورسوله إلى رفع الفيرة الطبيعية عن نفسه ، وعرض عليه أن يتزل له من تعجبه من روحه ، أليس معنى هذا أن الايمان

قد سما بهؤلاء البررة فأخرجهم عن مقتضى اللذات والشهوات الحسائية ، وجعل لذاتهم منحصرة في كل ما يرضى ربه ورسوله ؟

ثم من ذا الذي ترضى نفسه أن يشاطر أجنبيا لم يعرفه ثروته الواسعة ، ويلج عليه في قبولها عن رضا قلب وطيب نفس ؟ إنه كان يمرض عليه نصف ماله وأهله ولم يكن له طمع في جاه أو منصب ، أو منعم من منافع الحياة الدنيا ، بل كان يعتبر ذلك العرض أهون التضحيات التي يقتضيها الدافع عن الدين والرسول حتى الموت ، فما الذي بعته على ذلك سوى إيمانه الصحيح بأن ذلك يرضى الله العلي العظيم الذي أعد للمؤمنين مالا عبي رأت ولا أذن سمعت من نعم خاله لا يفي ؟ ذلك كان حال المؤمنين الذين رأوا الرسول وأشرقت أنفسهم بنور نبوته ، فتدبوا بأدابه ، وتحلقوا بأخلاقه ، فكانوا أهلا للظفر الذي نالوه ، والمكانة التي أحرروها ، وأصنعوا بين عشية وصحاحها أئمة الهدى وسادة العالم ، فهم قدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ويقول إني من المسلمين .

٢ — وبعد . فيؤخذ من صريح الحديث أن عبد الرحمن بن عوف لما قال للرسول في تزوجت ، سأله عن الصداق ، لأن الصداق واجب على الرجل للمرأة ، وليس مع عبد الرحمن مال ، فأجاب بأنه ربح من البيع والشراء زنة نواة من الذهب ، وأنه يستطيع الاتفاق من ربحه ، فأمره الرسول بالولاية المناسبة لحاله لإعلاء الزواج . على أن هذا الحديث ليس صريحا في فرض الصداق للنساء على الرجال ، بل قد فرضه الله تعالى بقوله « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » فصدقاتهن بصم الدال معناه مهورهن ، ومعنى نحلة عطية خالصة ، لا في مقابلة شيء من لذة أو جهاز أو غير ذلك . فهذه الآية صريحة في أن الصداق واجب على الرجل للمرأة من غير أن يتطلع الى مقابل لذلك الصداق . وقد أجمع المسلمون على ذلك .

أما حكمة اختصاص الرجل بالمهر دون المرأة في الاسلام ، فهي أن الدين الاسلامي قد جعل لكل من الرجل والمرأة طبيعة في هذه الحياة ، فلا يصح لاحدهما أن يتعدى وظيفته إلا عند الضرورة التي لا بد منها . فوظيفة المرأة في نظر الشريعة الاسلامية هي أن تكون أميرة على منزلها تقوم بتدبيره حسبما يتاح لها في هذه الحياة ، وأن تكون قائمة على تربية أبنائها وبناتها الصغار تربية صحيحة ، فلا تترك فضيلة من الفضائل إلا عودتهم عليها ، ولا تترك رذيلة من الرذائل إلا حذرهم عنها . فليس من شأن المرأة أن تمشي في الأسواق لتبيع أو تشتري ، وليس من شأنها أن تقوم بتكاليف الحياة والاتفاق على الشؤون المنزلية ، وإنما ذلك من اختصاص الرجل وحده ، فهو المسئول عن مشاغل الحياة ومتاعها ، وعليه وحده أن يصارع الأحوال ويقارع الخطوب ، ويركب الصعب من الأمور عند الحاجة حتى يكفل لزوجته ونسله ما يقوم بأودم ويسد حاجاتهم بحسب ما تهيج له الظروف والأحوال . فلكل واحد من الزوجين عمل خاص في هذه الحياة يناسب طبيعته التي فطره الله عليها .

فأول واجب على الرجل للمرأة أن يقوم بالاتفاق عليها في كل ما تحتاج اليه من مطعم وملبس ومسكن بحسب حالها وحاله ، فأراد الشارع الحكيم أن يشعره بذلك الواجب من أول الأمر ، ففرض عليه المهر وجعله شرطا في العقد بحيث لو اتفقا على العقد بدون مهر أصلا فانه لا يصح ، وبذلك يشعر الرجل بواجبه نحو المرأة من ضرورة الاتفاق ، ويعلم أنه لا مناص له من إرضائها وتطبيب خاطرها بالبذل والاتفاق بحسب حاله وحالها ، كما يشعرها هي ببيعة الرجل من هذه الجهة ، وأنه مكلف بسلوك كل السبل التي توصل الى تحصيل المال اللازم للاتفاق عليها وعلى ما عساه أن يولد لها من ذرية ، فضلا عن ذلك فإن الرجل مكلف بمقاومة كل من يحاول العدوان على عفافها وعرضها ، ومكلف بمقاومة كل ما من شأنه أن يضر المرأة أو يضر نسلها بكل ما يستطيع في هذه الحياة . ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء بما فصل الله به بعضهم على بعض في القوة والحلد والقدرة على مصارعة الأهوال ومنازلة الحداث والاتفاق . فهذه هي حكمة جعل المصداق مفروضا على الرجل دون المرأة .

٣ — أما قدر المصداق فلم يحفل الشارع ببيانه ، بل جعله منوطا بحال الزوجين وقدره الزوج ، لأنك قد عرفت أن غرض الشارع من فرضه هو تنبيه الزوج من أول الأمر الى ما يجب عليه من الاتفاق ، وتنبيه الزوجة الى ما يجب لها من الحق على الرجل لتؤدي له حقه الذي فرضه الله عليها من الطاعة وقصر نفسها عليه ، وهذا التنبيه يحصل بالقليل والكثير . ولكن الأئمة اختلفوا في الحد الأدنى للمهر : فذهب أبو حنيفة ومالك الى ضرورة تحديده ، ولكنهما اختلفا في القدر : فقال أبو حنيفة : أقل المصداق عشرة دراهم . والدرهم يساوي بالعملة المصرية الآن أربعة قروش صافا تقريبا ، فيكون أقل المصداق عنده أربعين قرشا صافا .

وقال المالكية : إن أقل المصداق ثلاثة دراهم . وقال الحنابلة والشافعية : إنه لا حد لأقل المصداق بل يكفي أن يبدل الزوج أى شيء له قيمة ولو ملء كفه برا أو أرزا . بل ذهب بعض الحنابلة الى أنه يكفي أن يعطيها أى شيء ولو ثمرة ما دام الغرض تنبيه الزوج الى أنه الممتع . وقد استدلل الحنفية بحديث « لا مهر أقل من عشرة دراهم » ورواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن . واستدل الشافعية بقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال له : زوجني المرأة التي وهبت نفسها : اتمسك ولو خاتما من حديد ليكون صداقا . فإن الخاتم الحديد لا يساوي ما قاله الحنفية والمالكية . وقد أجاب الحنفية عن هذا بأن الحديث صحيح ولكن يحمل ما ذكر فيه على مقدم المصداق الذي يبني دعه فورا ، أما الحد الأدنى لجميع المصداق مقدما ومؤجلا فهو عشرة دراهم كما في حديث ابن أبي حاتم . أما الامام مالك فقد نظر الى قوله تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات » فرأى أن اليسير من المهر يستطيعه كل إنسان ، ثم نظر الى أقل نصيب يوجب قطع يد السارق فوجد ثلاثة دراهم مائة أو ربع دينار من ذهب ، فمأس المصداق عليه ، ولكن أصحابه

لم يرضوا هذا القياس لأنه يخالف نص الحديث ، وهو ما تأباه قواعد مذهبهم ، ولأن القياس بهذه الحالة لا يقول به مالك ، حتى قال له بعضهم : إنك سلكت في ذلك سبيل أهل العراق ، ومع ذلك فثلاثة دراهم لا يعجز عنها أحد ، وليس معنى قوله تعالى « ومن لم يستطع معكم موطئاً » المعجز عن الصداق فقط بل المعجز عن الاتفاق على الزوجة أيضاً ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع معكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم » فقد فسرنا الباءة بالاتفاق وإعفاف المرأة بالقربات ، ومن لم يستطع الاتفاق ولكسه يستطيع غيره فعلية بالصوم الذي يفقه عن الحرام . ويظهر أن حجة الحنفية في تحديد المهر أوضح لولا أن الحديث الذي استدلوأ به رواه البيهقي بسند ضعيف ، ولكن إذا تم ما ذكره الحافظ ابن حجر من أن هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسند حسن ، فإن الحجة تكون فيه واضحة .

واستدل الحنابلة بما رواه أحمد وابن ماجة والترمذي وصححه عن عامر بن ربيعة أن امرأة من فزارة تزوجت على ثمانين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَرْضَيْتِ مِنْ مَالِكَ وَنَفْسِكَ شُعْلَيْنِ ؟ قالت نعم ، فأحاره . وقد يقال إن الثمانين قد يساويان ثلاثة دراهم على الأقل كما هو رأي المالكية . وقد استدلل بعض الحنابلة بما روى معناه أبو داود عن حابر مرفوعاً وهو : « لو أن رجلاً أعطى امرأة صداقاً ملء يده طعاماً كانت له حلالاً » . ودلالة هذا على غرضهم أوضح . هذا ومن احتياط الأئمة وعدم تعصّبهم لأرائهم الاجتهادية أن المالكية والحنابلة والشافعية قالوا : يس أن لا ينقص المهر عن عشرة دراهم مراعاة للحنفية الذين قالوا ذلك احتياطاً .

وسواء أكان هذا أم ذلك فإن الشريعة الإسلامية لم ترهق الناس بتحديد الصداق إلى الحد المعبر ، فإن العشرة من الدراهم أو الأربعين قرشاً وهي النهاية العظمى التي قال بها أحد الأئمة لا تنفك عقدة في سبيل الزواج في يوم من الأيام . ولكن هل قلة الصداق مشروعة ، والمغالاة في المهور غير جائزة أولاً ؟ والجواب أن بعض الفقهاء قالوا إن المغالاة في المهور غير جائزة ابتداءً ، فيس الناس أن لا يزيدوا في المهور على خمسمائة درهم أو ثلاثة عشر جيبها ونصف حنيه تقريباً ، وما زاد على ذلك فهو مكروه ، وذلك هو رأي الحنابلة والشافعية أما المالكية والحنفية فقد قالوا لا حدلاً أكثر الصداق بل هو منوط بأمرين : قدرة الرجل المالية ، وحالة المرأة وما يليق بها ، فلا يكره أن يعمرها بما يحب . وقد استدلل الشافعية والحنابلة على رأيهم بما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وصححه من قول عمر رضي الله عنه « لا تغلوا في صداق النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى في الآخرة كان أولاً كم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وقد روى مسلم عن عائشة أن صداق النبي على أزواجه خمسمائة درهم ، وهو القدر الذي ذكرناه .

أما الآخرون وهم المالكية والحنفية فقد أجابوا بأن قول عمر لا يفي إلا الغلوى في الصداق

والمبالغة فيه الى الحد الذى يصابق الزوج أو يجره ، وقد اتفق أن الصداق فى عهد الرسول كان المناسب فيه هو القدر الذى ذكره مسلم ، وليس فيه أى تحديد للصداق .

٤ — أما حالة الغلو فى المهور إذا ترتب عليها مصابغة الأكماء والنصارى عن الزواج أو عجزهم عن دفع المهر : فإن ترتب عليها بوار النساء وتعرىض الشباب والشابات لاحتمال الفساد ، أو ترتب عليها نقص النسل واقتراض الرجال العاميين فى الأمة ، أو غير ذلك من المفاسد التى تؤذى المجتمع وتقوض دعائم العمران ، فإنها تكون محرمة بالإجماع ، إذ من الواجب على المسلمين أن يقاوموا المفاسد التى تترك آثارا سيئة تؤذى الأفراد والجماعات . ولعل هذا هو السر فى أن صهر رضى الله عنه أراد أن يحدد أكثر الصداق فى عهده كي لا يتنافس الناس فى المغالاة فى المهور ، فيضموها بذلك الموائق التى تمنع من الزواج ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، فقد قاومته المرأة التى احتجبت عليه بقوله تعالى : « وآتيتهم قطارا فلاتأخذوا منه شيئا » . فان ظاهر الآية أنه يجوز لرجل أن يعطى مهورا ما يشاء ، ولو كان قطارا من الذهب ، فاقنع عمر وعبدل عن رأيه .

على أن هذا لا يساق ما ذكرنا ، فان الآية دلت على أنه لا يجوز لرجال أن يأخذوا من المهور التى فرضوها لأزواجهم شيئا بعد الدخول بهن مهما كانت كثيرة ، ولكن إذا ترتب على كثرة المهر عجز الرجال عن الزواج وبوار النساء ، وكانت نتيجة ذلك ما ترى ونسمع من مفسد ورتائل ، كان تسهيل أمر الزواج الذى يقضى على فوضى الاخلاق واجبا دينيا ، فان الدين الاسلامى مبى على جاب المصلحة ودره المفسدة ، وبذلك تكون المغالاة فى المهور محرمة . وكما أن قواعد الشريعة تقتضى رفع المفاسد وتسهيل أمر الزواج فتنبى أولياء النساء عن المغالاة فى المهور ، كذلك تنهى الرجال عن التطلع لما اعتاده الناس من المبالغة فى أمر الجهار والتفنن فى الزخارف السكادبة التى لا تلبث أن تذهب سدى وتبقى آثارها السيئة يكتوى الولي بنارها ، فان العادات التى ينبوعها الدين الاسلامى جعلت الأزواج لا يقدمون على المرأة التى لا تتحيز جهارا لغيرها ، وجعلت الأولياء يتبارون فى الاستدانة إن لم يكن معهم . وذلك أشد شرا وأعظم أثرا فى أزمة الزواج ، فانه قد يوجد الكفف وقد توجد الزوجة المناسبة له من جميع الجهات ، ولكن يقف فى سبيل اقترانها عجز الزوج عن المهر أو عجز الولي عن الجهار . فلو أن المسلمين استمسكوا بدينهم واتبعوا آراء أئمتهم ، وعلموا أن الغرض من المهر إشعار الرجل بما يجب عليه لمرأة من نفقات ، وأن الله تعالى أمر الرجل أن يدفع المهر بدون أن يفكر فى مقابل يأخذه من المرأة ، طالت المسألة ولم يبق بين الزوجين من الموائق ما يمنع سعادتهما . فانه المستول أن يهدى الأمة الاسلامية الى العمل بقواعد دينها ، إنه سميع الدعاء .

عبد الرحمن الجزيري

مشكلة التوحيد

رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الأهرام مناقشة جرت بينا وبين بعض متعلمي العصر الحاضر لما فيها من القوائد الجمة والمسائل المهمة .

قال ذلك المصري :

أريد أن أسألك عن مشكلة التوحيد ، وأحب أن توسع صدرك وتسمع لي أن أقول كل ما عندي ، ثم تزيل شهيقى ديان بقبلة العقل ويندسرح له الصدر ، ولا فهى شبهة الشبه ومشكلة المفكلات . فقات له : هات ما عندك بلا خوف ولا وجل ، وقل لي ما هى مشكلة التوحيد ؟ فقال : مشكلة التوحيد التى لم أجدها جوابا فى كتاب من الكتب هى أنكم تقولون : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا فى حبة من الجهات . ومن كان كذلك كان معدوما لا موجودا ، فإن كل موجود لا بد أن يتصف بأحد المتقابلات ، ولا بد أن يكون فى جهة من الجهات ، ولا ترتفع كلها إلا عن المعلوم . فقلت له : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء ، فإن ما ذكرت صحيح فى الماديات لا فى غير الماديات . (وأكثر لعقول لا تعرف إلا أحكام الماديات ولا تكاد ترفع عنها إلى ما وراءها) . والمتقابلات أو الجهات التى حبسك الوهم فى محيطها وظننت أنه لا بد من أحدها لكل موجود ، ذلك الحكم فيها مشروط بشرط القابلية لمعرض تلك المتقابلات ، فإذا لم توجد القابلية ارتفعت تلك المتقابلات بل كانت مستحيلة .

ولنقرب لك ذلك بمثال واضح :

نعلم أن الماهل والعلم مثلا متقابلان ، ولا يمكن أن يوجد إنسان إلا وهو متصف بأحدهما ، ولكنك تجدهما مرتفعين جميعا عن الجبر ، فلا يتصف بجبر ولا علم لعدم القابلية . وكذلك نقول : إن ذير المادى ترتفع عنه الجهات كلها لعدم القابلية ، إذ هى من خصائص الماديات المتحيزات . وأما ما لم يكن ماديا متحيزا فيستحيل عليه أن يكون فى جهة . وإذا كانت الفلاسفة تثبت ذلك للجواهر المجردة التى منها الملائكة والنفوس والعقول عندهم لأن لها أحكاما تضاد أحكام المتحيزات — ومن الذى يعطى الأجسام أحكام الأرواح — فما بالك بالبارى عز وجل الذى هو خالق كل شئ وليس كمثل شئ ، ومن الجهل القاضح أن يمتدح الإنسان أن كل شئ خاضع لسلطان عقله ، وأن ما لم يدركه بعقله فهو خارج عن دائرة الوجود .

بل نقول : إن مقتضى العقل السليم أن يكون الله مرها عن مشابهة الأشياء ، متعاليا عن إدراك العقول ، وإلا لم يصح أن يكون إلها « إذا لا تبغوا إلى ذى العرش سبيلا » . فهو محبوب عن العقول كما أنه محبوب عن الأبصار .

وقد قلنا في بعض ما كتبناه منذ زمان بعيد : « إذا كان الملحد لا يؤمن إلا بالله يقع عليه بصره أو يدركه عقله ، فأنا لا تؤمن بالله يحض لسلطان عقلي أو يدخل في دائرة محسوساتي أو ألمسه يبدى أو أصل اليه برجلي أو يمزقه مدفعي أو تلو اليه طيارتي الخ الخ ، فإن هذا لا يصح أن يكون إلها ، بل يجب أن يكون مخلوقا محتاجا لمن يدبره ويوكل أجزائه ويضعها في مواضعها المخصوصة ويقوم بحاجاته ويدفع عنه سلطان النواميس التي تجري على المركبات كلها حتى يتمتع بالوجود ، مع أنك فرضته إلها - هذا خلف » .

وانظر ما ذكره القراءان في وصفه عز وجل : هل تراه منطبقا على الأجسام أو متصورا فيها ؟ يقول عز وجل : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » ويقول : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

ويقول : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . ويقول : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » إلى آخر ما يطول ذكره . فهل يتصور عاقل أن من هذه صفاته يكون جسما من الأجسام ، أو يقاس على أحد من الأنام ، أو يدخل تحت سلطان العقول والأوهام ؟

وهل هذه الصفات العلية تنطبق عليها نواميس الجسمانيات أو أحكام الماديات ؟ ولكن لا بد لنا أن نقول : إنه مع هذا التعالي أظهر من الشمس وأوضح من الحس ، فإن كل ذرة من ذرات مخلوقاته آية من آياته ناطقة ببدیع حکمته وعظيم قدرته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولولا ما تؤمن به من قدرته الباهرة لمعجنا كل العجب عن ينكره وهو أبده البدييات وأوضح الواضحات « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » .

وهل يصدق عقل أن هناك أثرا بلا مؤثر ، أو نظاما بلا منظم ، أو حكمة بلا حكيم ؟ إن هذا لدى العقل السليم يساوق قولنا : الكل أصغر من الجزء والواحد ربع الاثنين وقد يكون أوضح من ذلك ، فإن الحيوان الأعجم إذا ضرب التفت لينظر الضارب لأنه لا يصدق أن هناك أثرا بلا مؤثر افنكر الاله إذا هو أخط رتبة من الممارا

فسبحان من احتجب بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بمظلم إشراق نوره ! ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته . ولولا أن ظهوره سبب خفاءه لبهت العقول ودهشت القلوب ، وتخاذلت القوى وتمازوت

الأعضاء . ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصحت تحت مبادئ أنوار تجليه ذكا
ذكا ، فأني تطيق كنه نور الشمس أنصار الخفافيش « فلما تجلى ربه للجبل جعله ذكا وحر موسى
صعقا » ولا يقدح في هذا الوضوح جهلك لحقيقته ، فانك إذا كنت في مكان مظلم وصمت
صوت رصاصة قوية لم يكن جهلك لشخص الضارب مشككا بإياك في وجوده ! ويجدر بنا
في هذا المقام أن نشهد قول القائل :

تبصر حيث كانت لك التبصر وفي ذات الإله دع التفكير
وإن ترد المهيمس حين تذكر تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
فأنوار المهيمس ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة وانمحات أصول من لجين زاهرات
على أنصاتها ذهب سبيك
شموس في السرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوما سابحات إلى مالت أدري طائرات
يطير له بها الجرم السبيك
رياض مومسات منمحات وألوان لعينك مدححات
وانصاف ترك ناضرات على قصب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

الخلاصة :

والخلاصة أن هما شيئين : شيء أوضح من الشمس وهو وجود خالق برأ هذه المخلوقات
ودبر الأرضين والسماوات ، قام كل شيء في الوجود برهانا عليه ، وساق أبواب العقول إليه
حتى توكلوا عليه ، وانظروا بين يديه « إليه يرجع الأمر كله » وعلموا أنه أقرب إليهم
من جبل الوريد ، وأن ما قام على وجوده من الأدلة لا يمكن أن يكون عليه مزيد « أنى الله
شك فاطر السماوات والأرض » سبحانه لا يحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

أما الشيء الثاني فهو معرفة كنهه سبحانه وتعالى ، وهذا أخفى الخفيات ، كما أن الأمر
الأول أوضح الواضحات . فاعرف الفرق بين المقامين . ولا عجب في هذا فروحك أقرب
الاشياء اليك ، وما أعظم إمدادها لك وأثرها عليك ! ومع ذلك لا تعرف كنهها بل ولا كنه
أفعالها فانت لا تعرف كيف تدرك ، ولا كيف تتخيل ، ولا كيف تذكر مانسيت ، بل هذا
هو شأنك فيما هو أقل من ذلك ، فلست تدري كيف يمثل الغذاء هذه الأعضاء ، وكيف يصير
عييا تبصر ، وما يدرك ، وأدنا تسمع الخ الخ . فليس لنا من الأشياء إلا ظواهرها التي ندرسها

في مدارسنا ، ونعمرها بالتحليل والتركيب في مآملنا . فعرفة الحقائق على ما هي عليه مما احتسب « الحق سبحانه وتعالى » ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

وعلم الطبيعة معترف بأنه لا يعرف كنهه الأشياء ولا أوائلها ولا مصيرها ، وإنما عرف ظواهرها بواسطة التجربة المتكررة . هكذا قال المنصفون واعترف المحققون . وإياك أن تصني لعانف علم الطبيعة الذين لا يقيم لهم وزن بحاب أساطير علم الطبيعة الذين دهشوا من عظمة الخالق العظيم والمدع الحكيم !

وقد قال باكون : من أخذ علم الطبيعة رشعاً بالشعاع كان ماحداً ، ومن شره عما أوصله إلى الخالق .

وقال سبسر . ليس المقصود من دراسة علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التي عرّفها تلامذة المدارس ، وإنما الغرض الأعمى من علم الطبيعة هو أن تقف على ذلك الجسر الذي نستشرف منه ما وراء الطبيعة .

وقال هرشل وهو من كبار أستاذة علم الطبيعة : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لأحد لقدرته ولا نهاية .

فمعاء طمقات الأرض والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم ، وهو صرح عظمة الله وحده . وفيه در القائل :

فَلَذَلِكَ سَاحِي الْقَوْمِ عَرِيدٌ	تَاهِ الْإِنَامُ بِكُرْمِ
سِيمٍ وَلَا الْمَسِيحِ وَلَا مُحَمَّدٍ	تَاهُ لَا مُوسَى الْكَلْبِ
وَالِي عَمَلِ الْقَدَسِ يَصْعَدُ	كَلَا وَلَا جَبْرِيلُ وَهْ
يَطْلُ لَا وَلَا الْعَقْلُ الْجَبْرَدُ	عَلِمُوا وَلَا النَّفْسُ الْبِدُ
لَكَ أَوْحَدِي الذَّاتِ سَرْمَدُ	مِنْ كُنْهٍ ذَاتِكَ غَيْرُ أَذُ
حَرَمٌ لَهُ الْأَمْلَاكُ سَجْدُ	فَلْيُخْضَأَ الْحُكَمَاءُ عَنْ
أَفْلَاطُ قَبْلَكَ قَدْ تَفَرَّدُ	مِنْ أَنْتَ يَا رُسْطُو وَمِنْ
خُبٍ مَا أَتَيْتَ بِهِ وَشَيْدُ	وَمِنْ إِبْنِ سَيْنَا حَيْثُ هُ
شِ رَأَى السَّرَاجَ وَقَدْ تَوَقَّدُ	مَا أَنْتَمُو إِلَّا الْفَرَا
وَلَوْ اهْتَدَى رَشْدًا لَأَلْمَدُ	فِدْنًا فَأَحْرِقْ نَفْسَهُ

وربما عدنا لموضوع مرة ثانية . والله يتولى هداتنا جميعاً بمنه وكرمه ؟

يوسف الربوي

عضو جماعة كبار العلماء

رد شبهات على القرآن الكريم

لم تكن أمة في العالم بكتاب مملوء أو أرضى عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم . ولم يحط كلام إلهي أو بشري بمثل ما أحبطت به آياته من وسائل الحفظ والحماية والتقدير . فقد كانت تنزل الآية منها أو الآيات فتنتشر في صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، فينزلها ساعة نزولها على الآلاف من المحيطين به ، فيسارعون إلى استنساخها ليتلوها تمجداً ويصوبوا بها ، ولا يكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فيأمر كتاباً له بكتابتها ، ويحتفظ بها في داره مع أمثاله .

وقد تم نزول القرآن فكان يحفظه كله رسول الله وأبو بكر ومهر وعثمان وعلي ، ومئات كثيرة غيرهم ، لا يسقطون منه حرفاً . فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وخلفه أبو بكر بادر مهر فطاب إليه أن يأمر بتدوين القرآن في كتاب ، حفظه من السبيل والتحريف ، فكان أبو بكر يأنى ذلك قائلاً : إن شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم لا أفعله أنا . فلما حدثت وقعة اليمامة وقتل فيها من حفاظ القرآن عدد عديد أدرك أبو بكر أصالة رأي مهر ، فاعزز بجميع القرآن ، فحضر حفظه وأخرج إليهم المخطوطات التي عمت على عهد الرسول ، وأمرهم بتدوينه ونشره بين الناس ، فقاموا بذلك على أتم وجه . ولم يرتفع صوت إذ ذاك بأن آية سقطت منه أو كلاماً زيد فيه ، والذين في عتقوان قوته ، وحفاظ القرآن كثيرون ، ومنهم الخليفة نفسه ، ولم تمض على وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر .

ثم مات أبو بكر بعد أن مكث في الخلافة نحو سنتين ، وقام بالأمر بعده عمر ، ولبت يدبر شئون الدولة نحو إحدى عشرة سنة ، فتح في خلالها سورية والعراق وبلاد الفرس ومصر وجزءاً من شمال أفريقيا . وانتشرت المصاحف المكتوبة على هذه ، وأكثر الناس من حفظ القرآن ، فلم ينبس أحد ببنت شفة اعتراضاً على زيادة شيء أو نقصه في القرآن ، ولا يخفى على أحد شدة القاروق في الدين ، وغيره عليه .

فلما توفي رضي الله عنه أسندت الخلافة إلى عثمان بن عفان ، وكان للمسلمين إذ ذاك أمبراطورية مترامية الأطراف ، ودخل في الإسلام ملايين من الناس ، واحتاج المسلمون إلى المصاحف فساكوا يكتبونها بأيديهم لعدم وجود مطابع إذ ذاك . ولا تخفى على أحد أخطاء النسخ ، فإن النسخ مهما كان حريصاً على تحدي الأصل تبدر منه أخطاء لا يفتن إليها ، ولا سيما في عهد لم تضبط فيه قواعد الكتابة ، ولم يوجد في أحرفها نقط ، ولا ألغافها علامات لصبط النطق بها ، وهو ما يعرف الآن بالشكل ، خذت في قراءات الناس خبط ، ورفع

الأمر إلى أمير المؤمنين، فأمر القراء تحت رئاسة زيد بن ثابت — وهو الذي كان عهد إليه أبو بكر بجمع المصحف — بكتابة أربعة مصاحف ونشرها في الآفاق، وأمر باتخاذها مرجعاً لل ضبط وإحراق ما عداها .

فعل عثمان هذا وهو بين ظهراني كبار الصحابة ، وفيهم علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس وغيرهم من الذين قالوا لعمر ابن الخطاب : لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بسوقنا ، فما ظلك بأعوجاج يرتكب صد القرآن ؟ يهول بعض الناس أن عثمان أمر بإحراق ما يخالف مصحفه من المصاحف المنسوخة ، وأي شيء في هذا ؟ أليس الإحراق وسيلة للملازمة للنسخ المحرفة فلجأ إليها الحكومات إلى اليوم ؟ ألم تأمر الحكومة المصرية بإحراق عشرات الآلاف من نسخ القرآن لم يحسن مصححو مطبعتها تصحيحها ، فجاءت مشوية بأخطاء كثيرة ، فعمدت إلى هذه الوسيلة في الزمن الذي نحن فيه ؟ هل كان لعثمان من السلطان ما يستطيع معه أن يقتصب مصاحف كبار الصحابة المعاصرين له فيحرقها ، ويبدلهم منها نسخاً أخرى فيها ما يعتقدون أنه تحريف ؟

أرأيت كيف تتور البراكين فتغمر في حممها المدن ، وتحرق بموادها الملتبئة الحث والنسل ، وكيف تعصف الأعاصير الموحاء فتدك كل بناء ، وكيف تهيج الزلازل فتجعل طلي الأرض سافها ، وتذك شم الجبال ؟ كل هذا كان أهون منظراً إذا حدث جبار نفسه بتحريف القرآن في أمة تعتبره روحها المدير ، ودستورها المهيمن ، ووسيلتها التي تصل بها إلى الله ، وهم رجال وفقى ومقاوير كفاح ، يعتبرون الموت في سبيل الدين حياة دونها كل حياة ؟

وإذا سلمنا جديلاً بأن مصحف عثمان كان يخالف النسخ الصحيحة في بعض المواضع ، فلم يلبث عثمان في الخلافة إلا نحو اثنتي عشرة سنة ، وجاء بعده خليفة من أعلى الخلفاء كعباً في الدين والورع والحفاظ على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم لم يبطل مصحف عثمان وينسخ صورة صحيحة للقرآن وقد كان يحفظه كله ولديه مصحف يتلوه فيه ؟

إن مسألة الزيادة في كتاب أو القس منه لا يعقل أن تحصل في كتاب كالقرآن تنعبد أمة برمتها بثلاوته ، وتصل بآياته ، وتفصل في جميع شئونها بأحكامه ومقرراته . وليس لديها كتاب غيره ، ولم يوكل أمره إلى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها ، ولكنه كان حقاً مدافعاً للناس كافة ، يتولونه بالحفظ والرعاية . فمثل هذا الكتاب إن اعتراه تبديل أو تحريف كانت تتمدد نسخته ، أو تتخالف آياته ، ولا تستطيع أية حكومة مستقبلية أن تبدي جميع ما يخالف هواها من صوره . والحكومة الإسلامية لم تكن استبدادية ، وقد تداول الخلافة في صدر الإسلام أربعة رجال أقرروا كلهم صورة واحدة من القرآن ، ولم يرد عنهم أن بعضهم أطل نسخ بعض ، ولا ورد عن آلاف الصحابة أن واحداً منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها . فهل يآمرت الأمة الإسلامية كلها على التسامح في تحريف كتابها إلى هذا الحد ومكابه منها كما عرفت ؟

حدثنا التاريخ أن الأنابيل قد تعددت حتى بلغت أكثر من سبعين ، فأوعز الإمبراطور قنسططين الى الكهنة أن يرتصوا صورة واحدة له ، فاجتمعوا في مؤتمر وقرروا أن يعتمدوا أربع صور منه هي الموجودة الى اليوم . فهل حدثنا تاريخ المسلمين عن مثل هذا التعدد لصور القرآن ؟

يقولون نعم ، وهي التي أمر بإحراقها عثمان . تقول إن التي أمر بإحراقها عثمان هي النسخ التي أصابها آفة الاستنساخ ، وهذه الآفة لا تزال موجودة الى يومنا هذا ، فما من كتاب يعرض للاستنساخ إلا وقعت فيه أخطاء جمة ، لا دواء لها إلا تحرير نسخة صحيحة للنقل منها وإحراق ما عداها ، كما حدث على عهد عثمان ، وكما يحدث في كل زمان ومكان .

وقد رأيت استحالة استبعاد عثمان بالقرآن على عهد كان أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياء ، وكأولاً أشد ما يكونون اشتغالا بتلاوة القرآن وحملاته . وله حفاظ منتشرون في جميع أرجاء المملكة الإسلامية ، فكيف يعقل أن يكون عثمان قد تمهد تحريف الكتاب في هذه البيئة الخاصة بحفظته وفارثيه ، وكلهم يغدونه بأرواحهم ، وينافخون عن حماه بأشد مما ينافخون عن أنفسهم وأعراضهم ؟

الدواعي التي تدفع لتحريف الكتب السماوية :

إذا وقع التحريف في كتاب مساوي فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بواحد من أربعة أسباب أوبأكثر من سبب منها ، وهي :

(١) ضياع أصل الكتاب

(٢) غلو في الدين يحمل على تأليه صاحب الدعوة ، أو رفع درجة أمرته وأصحابه وحفظته دينه الى ما فوق مستوى الناس ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ليتمكنوا بها من تسخير النفوس لأراداتهم .

(٣) النص على حصر السلطان الروحي في طائفة معينة ، أو تحديد شكل الحكومة وجعلها تيوقراطية تحت تصرف رجال الدين .

(٤) اعتماد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة عليه ، بحيث يفضي ذلك الى زهد النفوس فيه ، وكراهتهم له .

هذه هي الدواعي التي تحمل على تحريف الكتب السماوية ، وكلها ممتنعة بالنسبة للقرآن . امتناع السبب الأول من أسباب التحريف :

أما امتناع السبب الأول ، فإن أصل القرآن كان مكتوباً ومحفوظاً في دار النبي صلى الله

عليه وسلم ، وكان مئات من الناس يحفظونه ، فلما أريد جمعه أتوا بهذه المخطوطات وقابلها الكتاب بما حفظوه في صدورهم وجمعوا ما كتبوه مصحفا ، فاستنسخه ألوف من الناس وحفظوه ونقلوه الى جميع عواصم الملك الاسلامي . فهل توجد في العالم وسيلة تفوق هذه الوسيلة للتحقق من مطابقة صورة كتاب لاصله ؟ انهم لا .

أين هذا مما حدث لما سبقه من الكتب ؟ فقد ضاعت أصولها ، وشتت أهلها في الارض ، ومزقوا كل ممزق . فالنوراة ضاع أصلها الأول ثم جمعت أسفارها من هنا وهناك ، واشتد اختلاف الناس فيها حتى إن تورات النصارى تخالف تورات اليهود مخالفة جوهرية . وكذلك كان حال الاناجيل ، فقد ضاعت أصولها ثم نقلت عن ترجمة يونانية وجدت لها بعد آماد طويلة .

فهذه الكتب يعترف أهلها أنفسهم بأنه قد لحقها تحريف ، ولكنهم يعتفرون عنه بأنه لم يعد على الروح التي أودعها مجموعها . فقد جاء في كتاب (محاور في الوحي) قول مؤلفه : « وليس من ضرورة للاعتقاد بأن جميع ما دار من مخاطبة الله للإنسان ، قد دون في الأسفار : (أولا) لأن البرهان على ذلك متعذر . و (ثانيا) لأنه يكفي الاعتقاد بأنه دون ما فيه كفاية . وهذا الرأي المعروف برأي « الاقتصاد في الوحي » يحل لنا الحقيقة » .

وقال في موضع آخر من ذلك الكتاب :

« إن من تعاليم التوراة ما لا يجوز منه لتلايف جوهرها ، ومنها ما يسبب منه ضررا باختلاف أهمية ذلك الجزء . ومنها ما لا يؤثر فيه المس أبدا حتى إنه وإن حذفت كلماته أو جملة يبقى سليما صحيحا . ومن هذا القبيل الكلمات والعبارات التي سقطت في أثناء نسخ النوراة » .

ولكننا ممشر المسلمين لا نقول بنظرية « الاقتصاد في الوحي » ونرى أن كل ما أوحى الى الرسول بما أمر بتلاوته يجب أن يكون مائلا في المصحف . ولدينا الدليل القاطع على أن كل ما أوحاه الله إليه قد دون وحفظ سليما من كل تحريف الى يومنا هذا ، على أسلوب من التدقيق والضبط لا يعقل أن يكون أبلغ منه في عالم النقل الصحيح .

امتناع السبب الثاني للتحريف :

وأما امتناع السبب الثاني لتحريف القرآن ، وهو الغلو في الدين ، فلا يحتاج لدليل ، فإن نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهاي عن الغلو في الدين . قال الله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

ولم يكتف الكتاب بهذا بل قطع الدرائع دون كل محاولة للغلو ، فذكر أن المرسلين رحل لا يعتازون عن سوام إلا بالوحي : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم » وقال تعالى :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى » وقال تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » الخ .

فالكتاب كما ترى لم يدع متسربا لفساد في ذات الرسول من اية ناحية من النواحي فقال
اكرم نعمت له في صلاة المسلمين أنه عبد الله ورسوله .

وأما عن أسرة النبي صلى الله عليه وسلم فلا توجد آية واحدة في الكتاب تميز من الناس .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اصملي يا طعمة فاني لا أغني عنك من الله شيئا » وقال : « والله لو سرفت طعمة بنت عبد لقطعت يدها » .

وقد أفاد النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه ، فانه لما شعر بدنو أجله جمع الناس وقال لهم :
من كنتم قد أسأت اليه فليأت وليقتص مني .

ولما شكك يهودى عليا كرم الله وجهه ، دعاه عمر أمير المؤمنين ليقتاضيه أمام خصمه ،
فلما أقبل قال له : اجلس يا أبا الحسن . فغضب على ، فسأله عمر : أعضبت لمساواتك بخصمك ؟ قال
لا ولكن لتميذك إياي عنه بشكيتي والتكنية تعظيم ا

أظن أنه لا يوجد في تاريخ العالم ما هو أبلغ من هذا في احترام مبدأ المساواة في الحكم ،
وفي تكرار القات امام هذا المبدأ .

فاذا كانت هذه المساواة واجبة في حق نعت رسول الله وابن صه ، فمن نظن أن ينال هذه
الخطوة بعدها ؟

وقس على هذا معاملة العلماء ، فلم يرفع أحدهم على عامة الناس في حكم ، ولم يستثن من تكليف
بدني أو مالي . بل قد رفعت الدعاوى على أمراء المؤمنين من صفار ومايام أمام القضاة
فلم يحايروهم وحكموا عليهم .

امتناع السب الثالث للتحريف :

السبب الثالث لتحريف الكتب السماوية هو النص على حصر السلطان الروحي في طائفة
معينة من الأمة ، أو في جعل الحكومة أو توقيراطية تحت تصرف رجال الدين .

هذا السبب لا ظل له في الاسلام ، لأن الكتاب نص على خلافه في غير موطن منه ،
لجاءت حكومة المسلمين ديموقراطية حرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « اسمع وأطع ولو لعبد
حبشى كأذن رأسه زبيبة » .

وقد ولي النبي بلالا على المدينة وكان مملوكا حبشيا ، وفيها أجلاء الصحابة وكبار
رجال الأمة .

والاسلام لا يعترف بوجود طائفة في الأمة يجب أن تودع السلطان الروحي دون سائر
الطوائف ، بل ليس في الاسلام سلطان روحي إلا لكتاب والسنة .

لذلك كان الأئمة الأولون الذين يرجع إليهم في فهم الدين ، أكثرهم من الموالى أى الذين كانوا أرقاء أو أولاد آباء كانوا أرقاء . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث همراقى : إن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك قال للامام المحدث الزهرى يوما : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال : بم سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام نعم ، من كان ذا ديانة حققت الرياسة له . ثم سأله الخليفة من الذين ، فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول مولى ، الى أن أتى على ذكر النخعي ، فقال إنه عربى ، فقال هشام ، الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر » ١

من هنا ترى أن الاسلام لم يهب السلطان الروحى لطائفة من الطوائف ، ولكنه دعا الى العلم وزكك حقا شائما بين المسلمين كافة أحرارهم وأرقائهم ، بيشهم وسودهم ، فسبق إليه من سبق ، فلم يسأل الناس عن أصلهم ، وهذا ما ليس له مثيل فى أمة غير الأمة الاسلامية . وقد طبع الله هذا المبدأ السامى بطائع قرآنى على القدر ، فقال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فجعل التفاضل بالتقوى لا بالجنس ولا باللون ولا بالانتساب لطائفة من الطوائف . وبذلك سقط السبب الثالث من أسباب التحريف التى عددناها .

السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية :

أما السبب الرابع وهو تصد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة فيه ، فهذا أكثر امتناها بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة ، فإن الذين جمعوه من المخطوطات ، وقابلوه على محفوظاتهم منه ، كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة فى الدين . ناهيك بقوم آثروا حفظ الكتاب كله فى صدورهم . فهذا الجهد الجاهد لا يكون إلا من نفوس استوعب حب الدين كل شعورهم ، واستولى بحلله على قلوبهم . فلا يقل أن يصدر من هؤلاء تحريف الكتاب بقصد إفساده وتزويد الناس فيه .

ثم إن ما كتبوه عرضوه على أبى بكر وعمر وجميع كبار الصحابة ، فلم يروا فيه ما يسكرونه منه ، وكلهم كان يحفظه أو يثله بدون تقطاع .

فلما استكتب عثمان منه أربع نسخ صحيحة ليوزعها فى الآفاق ، تخرى القراء أن يكون مطابقا لمصحف أبى بكر ، وكان ذلك تحت رقابة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يظهر فى ذلك العهد ما يخالف مصحف عثمان ، وتولى الخلافة بعده على بن أبى طالب فلم يحدث أقل تغيير فيه ، ولو كان ينقص أو يزيد حرفا لما أغضى عنه الامام ولا أغضى عنه احد من الذين أحدثوا الثورة على عثمان .

نسخ الأحكام ونسخ تلاوة بعض الآيات:

زل القرآن نجوما على حسب الحوادث الطارئة ، ولم يتزل دفعة واحدة . ونظرا لأنه ينول تأليف أمة جديدة على نظم وأصول نهائية ، كانت الحاجة ماسة الى مساندة الأطوار التي تدخل فيها ، والتدرج معها في جميع الأدوار التي تبلغها في حياتها الاجتماعية .

من هنا كانت الضرورة قاضية بنسخ بعض الأحكام بقصد تخفيفها أو تشديدها على مقتضى الأحوال . واقتضت حكمة الشارع أيضا أن تبقى تلاوة بعض الآيات الدالة على تلك الأحكام المنسوخة ، وأن ينسخ تلاوة بعضها الآخر . وفي القرآن نسخ لتلاوة بعض الآيات مع بقاء أحكامها معمولاً بها .

وهذه الأمور أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ودون المصحف في عهد أبي بكر مع مرافقها بالدقة .

فمن أمثلة نسخ الحكم دون نسخ تلاوة الآية الدالة عليه قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأرواحهم متاعا الى الحول » فقضت هذه الآية بأن مدة تربص المرأة بنفسها بعد موت زوجها يجب أن تكون حولا كاملا على نفقة الزوج . فلنسخ هذا الحكم وجعلت مدة التربص أربعة أشهر وعشرا كما في قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » .

ومن أمثلة نسخ الحكم ونسخ تلاوة الآية الدالة عليه ، ما روى عن عائشة أن القرآن جاء في الرضاع بعشر معلومات ، ثم نسخ بخمس معلومات . فالمشرع رفوعة التلاوة والحكم جميعا ، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحكم .

ومنها ما روى أن سورة الاحزاب كانت بعمرة السبع الطوال أو أزيد ، ثم نسخت تلاوة آيات كثيرة منها .

أما أمثلة الآيات التي نسخت تلاوتها وبقيت أحكامها فسكاية الرجم وهي : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما آلبتة نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » وما روى من قوله تعالى : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

فهذه الأمور كلها كانت معلومة عند الصحابة ، ومضبوطة الى حد أنه لم يحدث فيها خلاف . ولو كانت تختمل أقل خلاف لحدث ولثنت الأسفار بأخباره .

لم يكن كتاب الاسلام محتكرا في يد طائفة من الطوائف ، فيسهل عليها التلاعب به ، ولكنه كان حقا مشاعا للناس كافة . وقد اختلف المسلمون في كل شيء إلا في هذه المسألة ، فلم كان

ذلك ؟ لأنهم كانوا أكثر عناية بالاشياء الناقصة منهم بالقرآن ، وأنت تعلم أنه كان متعبدون ومستورون ، بل روحهم التي بها يتحركون ؟

أما رأيت الى أي حد اختلف المسلمون في أحاديث رسولهم ، حتى رفضوا منها مئات الألوف باعتبار أنها موضوعة أو ضعيفة ، فهل كان المسلمون أشد اعتدادا بأحاديث رسولهم منهم بكلام ربهم ؟

شبهات خصوم الاسلام على القرآن :

جاء في كتاب (الوحي الجديد) لأحد دعاة بعض الملل قوله في صفحة ٤٤ :
(أولا) إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالي حاويا لجميع ما أنزل ، بل أنه من المؤكد تاريخيا أنه قد ذهب منه جانب ليس بقليل .

(ثانيا) من المستحيل إقامة البرهان على أنه طبق ما نطق به شفقا محمدا تماما بل إنه في آيات عديدة منه اختلافات مدهشة ، ولا يعرف إلا الله ما هو النص الصحيح . انتهى

نقول : أما عن الأمر الأول فإننا معشر المسلمين نعتز بأن المصحف لا يحوى جميع ما أنزله الله على محمد ، ولكن جميع ما سمع بأن ينقل في المصاحف وينتقل تعبدا . فقد هلت في فصل متقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم نبه على أن آيات كثيرة منه قد نسخت تلاوتها فلم تدون . فإذا يكسبه الخضم من وراء إعلانه شيئا هو عند المسلمين من الممارسات الأولية ؟ لعله يريد بذلك أن يؤثر في عقول العامة ، ولكن العامة يلجأون عادة الى علمائهم فيفهمونهم الأمر على وجهه ، فتبطل الشبهة ، ويبقى عارها لا صفا بمن أوردوها .

وأما عن الأمر الثاني فهو يريد به اختلاف القراءات . وهذه القراءات وجدت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأقرها ، وليس فيها ما يوجب اختلاف في العقائد ولا في الأحكام ، وسترى تفصيل ذلك عند كلامنا على ما أورده منها . وإن شيئا وجد على عهد صاحب الرسالة فأقره ، وعنى المسلمون بتدوينه وضبطه ، لا يجوز أن يتخذ اليوم شبهة للتشكيك في عبارات القرآن .

هل اختلاف هذه القراءات تمس جوهر العقائد ، أو أصول العبادات ، أو دستور المعاملات ؟

لم يقل أحد ذلك في الاسلام الى اليوم ، ولم يثر بينهم شقاق ولا جدالا ، ولا كان سببا لتشكك أحد ولا لارتداده فكيف يثار هذا الأمر اليوم على هذا الوح ، ويفهم ذلك الكاتب منه ما لم يقم أمة برمتها في مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، على شدة عنايتها بالقرآن ، وبحث كل صغيرة وكبيرة فيه ؟

ويقول كاتب رسالة (الوحي الجديد) في صفحة ٤٥ :

« إننا نعلم تماماً بشهادة زيد بن ثابت التي لا ريب فيها ، أنه لم تدون جميع السور والآيات التي سمعت من فم محمد ، بل إن كثيراً منها حفظ في صدور الناس ، ومرت سنون عديدة قبل أن امر زيد بتدوينها ، فقلنا على ذاكرة أولئك القراء فكيف تأمن على الحقيقة من ذاكرتهم ؟ »
ونحن نقول إن القرآن كان قد كتب كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمع من فم ، وإن ما كتب حفظ في داره ، وكان مئات من الناس قد حفظوه كله ، ومنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى لم تمض إلا بضعة أشهر حتى دما أبو بكر القراء وعلى رأسهم زيد بن ثابت وأمرهم أن يدونوا القرآن في مصحف ، وسلمهم تلك المخطوطات ليرجموا إليها إن اختلفوا في شيء .

هذا ما شهدت به أمة برمتها ، فكيف يقول كاتب الرسالة إن القرآن لم يكتب كله على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وما معنى قوله مرت سنون كثيرة قبل أن امر زيد بن ثابت بكتابتها ، ولم تمض عليه غير بضعة أشهر ، ولم يحكم أبو بكر الذي كتب القرآن على عهده أكثر من سنتين وأشهرًا . فأين هي هذه السنين الكثيرة التي ذكرها ذلك الكاتب ؟

إن التي مرت عليها سنون كثيرة قبل أن تدون ، هي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي تلى القرآن في الدرجة ، ومع ذلك فقد حدث فيها بين العلماء من الاختلاف ما لا يسع المقام ذكره ، حرصاً على ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم أن تبدل أو يزداد عليها أو ينقص منها ، فهل كان حرصهم على الأحاديث النبوية أشد من حرصهم على كلام الله ، فتركوه يحرف أمام أعينهم ولا يحدثوا حول هذا التحريف شغباً ولا اضطراباً ، ويقروء على ما كتب لا يختلفون فيه ، ولا يسطخبون حياله ؟

هذا أمر لا يسيغه أقل الناس فهما ، فكيف يسيغه كاتب تلك الرسالة ويرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها في شيء ؟

وقال في صفحة ٤٧ :

« إن ابن مسعود هذا ، (وقد نعت به أنه أعلم الناس بالقرآن) ، لم يكن ليخبر نسخة عثمان صحيحة ، وأنه رفض أن يسلمه نسخته ليحرقها ، وأنه أشار على أهل العراق ليكتبوا نسخهم قالوا : « يأهل العراق اكتبوا المصاحف التي عندكم وغلغلوها » . وأنه حذف السورة الأولى (أي الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته ، بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله . »

نقول هنا : يمكن أن يتساءل متفهم : أي مصلحة للذين جموا القرآن أن يضموا فيه ثلاث سور قصار ليست منه في شيء ؟ أرهوا بذلك لغرض من الأغراض التي تحمل النفوس السافلة على التحريف وليس فيها ما يشوه جمال القرآن ، ولا ما يتناقض والحكمة التي أتى بها ؟ وهل يعقل أن يضع الجرمون فاتحة لكتاب ، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين ، في أمة تتعبد

بتلاوة ذلك الكتاب ، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه ، وصحبوا رسولهم في جميع أدواره ؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة ، أو كلمة تقاب المعنى وتوجهه الى ناحية أخرى ، لكان الغلب على العقل ، ولكانت الشبهة تحتاج لشيء من العلاج ، ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة ، في أظهر مكان منه فاسر لا يحتمل النظر فضلا عن الدحض .

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير غضبا ، ولا يهيج غضبا ، ولا يستدعي غضبا ، ويعر كانه لم يكن في أمة دستورها هذا الكتاب وحده ، ومتعبدتها سورة وآياته ؟ وكيف سكنت عنه ابن مسعود نفسه ، فلم يسمع له فيه زئير يدوى في العالم الاسلامي دوى الرعود القاصفة ؟ لعلك تقول خشى باس عثمان . فقد قتل عثمان ، وابن مسعود حي يرزق ، فلم لم ينبه المسلمين الى هذه الجناية ويلجأ الى خليفته ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التي ليست منه ؟

ما الذي حمل المسلمين ، والدين لا يزال في نضرة ، وكتابه مر جعهم في جميع شئونهم ، ومتعبدم في صلواتهم ، على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأسا ؟ ألا هم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة ، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الدين حرقوه ، وقد دالت دولتهم ، وتلتها دولة أخرى على رأسها على أقل ما يقال فيها إنها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة ؟

ما هذا الاجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود ، وهو ينبه الى أمر جلل كان يكفي خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيرانا ؟

يقول خصومنا : إن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم ، ولا يسلوها لعالم عثمان بحجة أنها أصح من نسخته ، وهذا مما أن ابن مسعود كان يحل يستطيع فيه أن يعارض أمر أمير المؤمنين ، وأن أهل العراق كانوا يصرون عن رأيه ، فهل صدعوا بأمره ، واحتفظوا بنسخهم ؟ إن قيل : نعم ، فأين هي ، ولم لم يرو لنا التاريخ كلمة عن مخالفتها لنسخة عثمان ؟ وإن قيل : لا ، فكيف يعقل أن يخرط أهل قطر عظيم كالعراق في كتابهم الى هذا الحد ، ولم تبد منهم أية حركة من مقاومة ؟ أكان أهل العراق من خور العزيمة في هذه الدركة ، وهم الذين انتدبوا ظلم عثمان لحاصروه في بيته ، ثم لما خشوا فتنة تهب من أهل الشام من أجله قتلوه وولوا عليا مكانه ؟

وقد أحصى أهل العراق على عثمان عيوباً جمة ليس منها أنه حمد الى تحريف القرآن ، وكانت هذه الحجة تكفي وحدها في صرف القلوب عنه ، ودفعها لارتكاب أشد ضروب القسوة ضده . وإذا صح أن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن يحتفظوا بمصاحفكم ، فلم لم يفتح أهل المدينة في هذا الأمر ، وهو بين ظهريهم ، وينبهم إليه ، وفيهم مئات من كبار أصحاب رسول الله ؟

وإذا كان فاتهم فيه فهل يثنى أن يجمعوا كلهم على رفض قوله ، وهل يعقل أن لا يكون فيهم واحد يعرف ما يعرف هو من أن الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن فيشاركه في رأيه ؟ لو كان ابن مسعود هذا بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم بحيل أو جيلين ، واكتشف مصحفا أو مصاحف ليس فيها الفاتحة ولا المعوذتان ، ونبه أصحابها على أن الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان زادوها في القرآن وليست منه ، لكان قول ابن عباس يسترعى النظر بعض الاسترغام . أما وهو من أهل الصدر الأول ، وحوله ألوف من أهل ذلك العهد ، فلا يعقل أن يذهب قوله هباء منثورا كأنه لم يكن ، ويقبل الناس كافة نسخة عثمان حتى أعداؤه ، والكارهون لولايته . إن هذه القولة المنسوبة لابن مسعود ، ويمدحها خصومنا شبهة على القرآن ، لا يمكن التسليم بنسبتها إليه ، حريا على أسلوب النقد الاسلامي . فان المسلمين لا يقبلون قولاً منسوبا لنبيهم إلا بعد التحقق من حاله روايته العقلية والنفسية والدينية ، وقد رفضوا مئات الألوف من الأحاديث المنسوبة إليه وعدوها موصوعة ، وقد كذب الناس عليه في حياته ، حتى قال : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . فهل يقبل المسلمون أو المنصفون من غيرهم ، قوله من هذا الطراز تقوم صدها كل ما ذكرناه من المضافات والمشككات ؟

إننا نحمد الله على أن ادعاء الزيادة في القول الممزو الى ابن مسعود جاء خاصا بفاتحة الكتاب والمعوذتين ، وهى السورتان لم يوجد في المسلمين منذ نشأوا الى اليوم من لا يحفظها ويصل بها ، وهى لا تعدو ادعاء بالهداية والتوفيق ، والاستعاذة من الشرور وهوامها المحتشقة ، فأى مصالحة جناها محرف القرآن زيادة هذه الادعية والاستعاذات به ؟

يقول العامة : إذا سرقت فاسرق جملا ، يريدون إذا سمعت لك نفسك أن تحطها الى دركة السرقة فاحمد الى تمن الأشياء وأحلها ، لا الى أسفرها وأحقرها . وهذا الذي سول له كفره . أن يحرف كلام الله لم لم يعمد الى أمر جليل فيدسه على الكتاب الالهي ، واكتفى بوضع فاتحة صغيرة له وحائتين ؟

وهل يعقل أن من يريد تحريف الكتاب الالهي لامة ، بالزيادة عليه ، يضع تلك الزيادة في أوله وآخره بحيث يراها أقل الناس عناية به ، أم يصعبا بحيث تخفى على السواد الاعظم من الناس ؟

وهل يعقل أن المسلمين الأولين الذين كان شغلهم الشاغل القرآن ، يبلغون من الغفلة أن يزداد في أوله وآخره ما ليس منه فلا يدركوه ؟ أو أن يكونوا من قلة الاكثرات بسلامة القرآن بحيث يتكون هذه الزيادة لتشيع في الناس ، حتى يأتي بعض خصوم الاسلام بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا فيلبه أخلاقهم إليه ؟

الهم إن كان قول يصح أن يضحك للشكالي وينسبهم مصابين فهو هذا ، وإن كانت شبهة يكتفى في دفعها أن تورد بدون تعليق عليها فهي هذه !

وقال في صفحة ٤٧ :

« إن ملايين المسلمين في بلاد المعجم يزورون كلا الزيادة والنقص الى عثمان ، ويقولون إنه حذف كثيرا من الآيات في مدح علي ، فضلا عن سورة كاملة تركها تدعى سورة التورين . وقد طبعناها تذيلا لهذا الكتاب . ونحن لا نثبت صحة هذه السورة ، فقط نقول إن أمرا كهذا يبعث على الريبة ويبين ضعف الحججة المشهورة : « فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » . ولا يخفى أن عليا كابن مسمود أبي أن يسلم نسخته الى عثمان لينقصها بحجة أنها كانت كاملة » .

نقول : يدعى الكاتب أن (ملايين) من المسلمين في بلاد المعجم يزورون الى عثمان أنه حرف القرآن . وهذا ادعاء لا دليل عليه . طعن الإيرانيين سنية وشيعية يعتبرون القرآن الكريم منزها عن كل تحريف . ولكن هنالك بقية من الرافضة ، لا يتجاوز عددهم بضعة ألوف ، كان آباؤهم قد غلوا في حق علي حتى ادعوا أن الله حل فيه ، وسجدوا له ، فنهام فلم ينتهوا فأمر بقتلهم . فإذا كان هنالك أخلاف هؤلاء الغلاة فانهم لا يقولون بتحريف القرآن ، ولكنهم يقولون بعض آياته لمصلحة مذهبهم .

فإن كبريات هذه الشبهة في ذلك فليذكر لنا ما قالوه في هذا الشأن من بعض كتبهم المطبوعة ، أما إرسال القول جزاءا بغير دليل فلا يقبل منه .

أما السورة التي ادعى أنها كانت موجودة في القرآن ، وحذفها عثمان ، وقال إنه طبعها في ذيل رسالته ، فيكفيها أنه قد شك هو نفسه في أنها من القرآن ، وهو لم يشك إلا لأنه يعلم أن رجلا من شيعته قد وضعها ليشكك في القرآن . ولبت ذلك الداعي لم يقدم على ما فعل فانه أثبت بدليل محسوس أن القرآن نسيج وحده ، وأن مدعى الاتيان بمثله يضطر للأخذ منه ، وإلا هجز عن محاكاة ولو ظاهرا . وذلك أن تلك السورة ليست بشيء سوى عبارات قرآنية أخذت من سور متفرقة ، وصيغت صياغة مزورة ، فجاءت دليلا محسوسا على أن من أقدم على هذا التزوير قد أقام حجة قاطعة على أن القرآن لا يقلد بحال من الأحوال .

واليك عبارات من تلك السورة وهي تقع في نحو صفحة ونصف صفحة من هذه المجلة :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلهما يتلوان عليكم آياتي ويحقرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم . إن الذين يوفون بم عهد الله ورسوله في آيات لهم جنات نعم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقدفون في الجحيم . ظلموا انفسهم وعصوا لولي الرسول (يريد عليا) أولئك يسقون من حميم .

إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسولهم فآخذتهم بكمهم إن أخذى شديد أليم »

يرى القارىء مما مر أن الذى زور هذه السورة قد آتى عبارات قرآنية وحشر بينها من كلامه ، فكانت من المسخف والتقليل بحيث يتبوعها الطبع ، ويدرك الفرق البعيد بين الكلام الألهى الممجز وكلام البشر الركيك .

والى القارىء نموذجات أخرى من ركازات هذه السورة الملفقة :

« يا أيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون »

« مثل الذين يوفرون بمهدك أتى جزيتهم جنات النعيم »

« وإن علينا لمن المتقين »

« وإن هدوم إمام المجرمين »

« يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من ينوفه مؤمنا ومن ينوله من بعدك

يظهرون »

« ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخاف ، فبغوا هرون ، فصبر جميل »

« فاصبر فسوف يعلمون . ولقد آتيناك الحكيم كالذين من قبلك من المرسلين . وجعلنا

لك منهم وصيا لعلهم يرجعون »

« إن علينا قاتنا بالليل ساجدا يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه ، قل هل يستوى الذين

ظلموا وهم يمداني يعلمون »

« إنا بشرناك بذرية الصالحين . وإنهم لأمراء لا يخلفون »

« وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون »

هذه نموذجات من تلك التلغيمات المضحكة ، فمن يبلغ مرتبتها أن محمدى القرآن لو كان

من هذا الضرب لا استطاع تلاميذ المدارس الأولية أن يأتوا بسورة بل بسور من مثله ؟

ولكن من كانت فى رأسه مسكة من عقل يحجم من مثل هذا الهذر ، ويعرف أن هذا السلاح

المفلول لا يقتل إلا صاحبه المسكين !

ولو كانت معايير البيان عند أصحابنا هو ما رأينا ، فانا نترفع من حوارهم ، لولا أنهم

لا يتصدون إلا للقتل والجاهلين ، فان سكتنا خيل لهم أننا عجيزنا عن رد كيدهم عليهم ،

وما يكيدون إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد قال كاتب الرسالة في شبهته هذه : « ولا يحقنى أن عليا — كابن مسعود — أبى أن يسلم نسخه إلى عثمان لينسخها بحجة أنها كانت كاملة » .

نقول : إذا ثبت أن عليا لم يسلم نسخه إلى عثمان بحجة أنها كانت كاملة ، فعلى كاملة أنها كانت مطابقة للنسخة عثمان من كل وجه ، وإلا فما الذى كان يمنعه أن يحاج عثمان في أمر نسخه التي يدعى الخضم أنها كانت محرفة ؟

لعله يدعى أنه لم يفعل ذلك انتقام بطش عثمان ، فنسلم له ذلك جدلا ، وإن كان عثمان في حاجة إلى حماية على ، ونقول : فما الذى كان يمنع عليا وقد أفضت إليه إمارة المؤمنين أن يأمر بنسخ نسخ جديدة من مصحفه ، إن كان مخالفا للنسخة عثمان ، ويفسرها في الآفاق تخليصا للقرآن الكريم من آفة التحريف ؟

هل كان على وهو أمير المؤمنين قليل الاكتراث لهذا الأمر فأهمله ، ورضى أن يستقر التحريف في القرآن وهو ظن على إزالته ؟

وهل اتفق أن كان جميع خصوم عثمان قليلي المبالاة بالقرآن إلى حد أنهم ، حتى بعد زوال ملكه ، يقررون التحريف الذى أوجده في الكتاب الذى يعبدون الله بتلاوته ؟

اللهم إن هذه محالات عقلية لا توجد معدة في الأرض تستطيع هضمها ، ولا ندرى كيف استطاع أن يهضمها كاتب هذه الرسالة ؟ ١

وقال في صفحة ٤٨ :

« جاء أن عمر كان يقبل كل آية بشهادة شاهدين فكان من الممكن أن ترفض آية صحيحة إذا شهد بها شاهد واحد » وأن تصل آية عرفة إذا شهد بصحتها شاهدان » .

نقول كيف يقبل العقل مثل هذا القول ؟ قد ثبت بالتواتر التاريخي أن القرآن كان يحفظه الخلفاء الأربعة ومئات من الناس ، وكان مکتوبا كله ، ومحفوظا في دار النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أبابكر لما أمر بكتابه ندب لذلك جمهرة من حفظه ، على رأسهم زيد بن ثابت فكتبوه ، فما شأن عمر بعد ذلك في هذا الأمر ؟

هل كان القرآن آيات منشورة مفرقة بين الناس ، يحفظ منها هذا آية ، وذلك أخرى ، فلما أريد جمعه كان الذى يحفظ منه شيئا يأتي فيفضي بالذى عنده ، فيكتب عنه بشهادة شاهدين ، ويرد منه ما لا يشهد به إلا شاهد واحد ؟

إذن ماذا كان يحفظ منه حفاظه ؟ ولم ندبوا لكتابته دون غيرهم ؟ أما كان الأجدى أن يعلن الناس بذلك ، وينادى فيهم : من كان يحفظ شيئا من القرآن فليفض به ، وليستشهد على صدقه شاهدين ؟

شيء من ذلك لم يكن ، وإنما الذى كان هو أن أمير المؤمنين أمر أن يكتب المصحف

من المخطوطات المحفوظة ، ومن صدور حفاظه الفيورين عليه ، وهذا جهد كل من يريد أن يستوعبه كله دون أن يسقط منه حرف واحد . فهل بعد هذا الأسلوب أسلوب أدق منه في جمع كتاب بدون تحريف ؟

فإذا كان الكاتب نقل هذا من كتاب إسلامي فهو مردود على قائله لأنه غير معقول . وهل يهدم قول مقطوع السند كهذا عملا دل التواتر عليه ؟
وقال في صفحة ٤٨ أيضا :

« جاء عن معلم أن أبا موسى الأشعري قال مرة لحسائه من القراء في البصرة : إنا كنا نقرأ سورة بطول السهم وحده ، أما الآن فقد نسيتها ما عدا بعض الآيات » .

نقول . يسوق الكاتب هذه الشبهة على اعتبار أن أبا موسى يأسف على أن ذهب من القرآن مقدار كبير ، حتى إنه كان يحفظ سورة طوية ففسحها إلا بعض آيات منها . وأنا أرجو القارئ أن يلاحظ أنه يذكر ذلك لحسائه من القراء ، أي من حفاظ القرآن .

والحقيقة أن أبا موسى المذكور لو كان قال هذا للقراء فهو يذكر لهم ما نسحت تلاوته من آيات القرآن . وقد رأيت أن ذلك النسخ نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم وحدده بمحددات تاما ، بحيث لم يختلف اثنان من المسلمين في شيء منه . ولو كان أبو موسى يقول ذلك أسفا منه ، فلم لم يهتم بها هو حتى نسيتها ؟ أليس المفهوم بدهاه أنه نسيتها لأن تلاوتها قد نسخت فأهملها ؟ وبما يجب ملاحظته أيضا أن أبا موسى قال ذلك لحسائه من القراء ، أي لحسائه ممن جردوا أنفسهم للقرآن . فإذا يكون وقع هذا الكلام منهم لو كان أبو موسى يقول متأسفا من ضياع بعض الكتاب ؟

لقد علمت أن أصحاب الحديث كانوا يحولون الاقطار العاسعة وراه سماح الاحاديث ممن يحفظون شيئا منها طلبا لجمعها ، وكانوا يبذلون وراه ذلك أنفسهم وثقائهم ، حتى تروى عنهم فيها الاحاجيب التي لم تنفق لجتهدي أمة من الأمم ، فهلا كان يدفع كلام أبي موسى هؤلاء الحفاظ للبحث عن تلك الآيات المفقودة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزالون أحياء ، فكانوا يرحلون الى المدينة وغيرها ينقبون عن حفاظ تلك السورة حتى يجمعوا . شئت آياتها ، أو أكثر تلك الآيات ؟

وكيف يعقل أن أبا موسى لم يلقن الحسائه من القراء الذين قابلهم الآيات التي ما زالت طائفة بذكرته منها ؟ وكيف لم يطلبها منه أولئك القراء ؟

فس على هذا كل ما أورده كاتب هذه الرسالة مما يشبه هذا كما قال في صفحة ٤٩ .

« وروى أبو موسى نفس الحديث عن سورة أخرى كالصيحاح قد ضاعت .

« وروى عن عائشة أن الآية عن الرضاة كانت تقرأ في زمن النبي ولكنها مفقودة الآن

من القرآن (نرجو القارىء أن يلاحظ أن كلمات (قد ضاعت) و (مفقودة الآن من القرآن) من نصير كاتب الرسالة حمد إليها للتحويل .

وقال في صفحة ٤٩ :

« وقال أيضا جلال الدين السيوطي : « حدثنا ابن أبي مريم عن أبي لهيعة بن الأسود عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن (وهي الآن سبع وسبعون آية) .

« وقال ابن جبير قال أبي بن كعب كم تعد سورة الأحزاب ، قال اثنين وسبعين آية أو ثلاثا وسبعين آية . قال كانت تعد سورة البقرة .

« وأخرج البخاري في تاريخه من حذيفة ، قال قرأنا سورة الأحزاب على النبي ففسيت منها سبعين آية ما وجدتها .

« وروى جلال الدين أن عبدا كان يقول حدثنا ابراهيم عن أيوب عن نافع قال : « لا يقول أحدكم قد أخذت القرآن كله ، وما يدري ما كاه ، فقد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقبل قد أخذت منه ما ظهر » .

« وعن مالك أن أول سورة براءة سقط مع البسمة فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها .

« وقال أيضا مسلم إن الآية بخصوص الرجم كانت قبلا في القرآن وكان عمر مقتنعا بصحتها حتى أقسم بالله إنه إنما منع من تدوينها خشية الانهاك .

« فترى مما تقدم (القائل كاتب الرسالة) أنه طرأ على القرآن كثير من الحذف ، وبعبارة أخرى أن كلمة الله قد اعترها النقص « انتهى كلامه .

نقول : إن كل ما جمعه كاتب الرسالة من هذه الأقوال ، يفسرها ما ذكرناه مرارا ، من أن القرآن لسخت منه تلاوة آيات كثيرة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد علم المسلمون الأولون ذلك ولم يختلفوا فيه .

وإذا كانت عائشة قالت ما نقله منها كاتب الرسالة وهو : « كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية ، فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن » ، إذا كانت هي قائلة هذا القول ، وتعني به أن عثمان جنى على القرآن لحذف منه ما كان يجب أن يبقى فيه ، فلم كانت تدافع عن عثمان ، حتى إنه لما قتل خرجت في مقدمة الخارجين على علي ، متهمة إياه بالاعتراف بقتله ، وحضرت وقعة الجمل تحريضا للناس على الثبات في وجه أمير المؤمنين ؟ فهل كانت تريد أن تهيم الناس أن عثمان الذي نقص من آيات القرآن ، يستحق أن تسفك في سبيل الثأر له كل هذه الدماء ؟

ومما رواه كاتب الرسالة عن البخارى أن حذيفة قال : « قرأنا سورة الاحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها ».

هذا كلام يريد أن يفهم منه صاحب ذلك الكتيب أن حذيفة يأسف للنسيان سبعين آية من سورة الاحزاب . ولكن الجلة لا تفسر بأسف وبخاصة من أجل ضياع بعض القرآن ، الامر الذى لو كان لاستمتع من الاحداث ما لا يعلم هوله إلا الله . حذيفة يذكر أنه نسي سبعين آية من القرآن ، كما يذكر أنه نسي قصيدة كان يحفظها لبعض الشعراء .

هب أن حذيفة قال ذلك لبعض الناس ، أفلا سأل ذلك البعض قائلاً : هل تلك الآيات لم توجد فيما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابتها وحفظه من القرآن ؟ وهل نسيها جميع حفاظه ؟ وهل اتفق أن نسيها المسلمون أجمعون ؟ وهل سمى حذيفة للحصول عليها غائب ؟ إننا سمعنا أن بعض جامعى الاحاديث كانوا يسافرون ليلالي وأياما لسباح احاديث معدودة من رواياتها ، فهلا حفزت الحجة بعض المسلمين للتنقل فى الاقطار سائلين عن تلك الآيات ؟

أليست تدل هذه السكينة التى يظهر بها قائلو هذه الأقوال ، والذين يسمعونهم ، على أن أمرها لا يعدو أحد احتمالين : فاما أنها مدموسة على قائلها ، أو أنهم يريدون بها الآيات التى نسخت تلاوتها من القرآن ؟

ثانى قال معترض : لو كان هذا الامر من قبيل الدس لما عجز الدساسون أن يحيطوه بشئ . مما يدل على الاسف والاهتمام .

قلنا : لو فعلوا ذلك خشوا أن يكذبوا فيه ، لأن هذا الاهتمام كان يظهر له أثر كبير فيما نقل اليها من أحوال الصحابة . وقد نقل تاريخهم إلينا أنهم تصاربوا وتسابوا وقاتل بعضهم بعضا . أما وقد سكنت جميع المصادر التاريخية عنها ، فعنى ذلك أنه لم يكن له أثر على الاطلاق . وهذا غير معقول إذا كان قد ضاع شئ من القرآن كما فصلنا ذلك تفصيلا فيما مر من الكلام .

ومن أدل الدلائل على أن هذا الامر لم يكن له أثر فى تاريخ هذا الدين ، سكوت علماء الكلام عنه . فإن هذا العلم الذى عنى بكل صغيرة وكبيرة من الشبهات التى أثيرت ضد الاسلام ، صمت حيال هذه المسألة كل الصمت ولم يشر اليها بكلمة واحدة . وقد أورد شبهات السكمان على وجود الله ، فهل يضمن أن يورد الشبهات على نقص كتابه أو الزيادة فيه ؟

فلو قيل إنهم صمتوا عنها تقاديا بما تثيره من النتائج الخطيرة ، قلنا فكيف تسكت عنه الفرق الاسلامية والخوارج وعددها أكثر من سبعين ، وفى بعضها من الملو والنقصير ما أخرجه عن دائرة الاسلام ؟ فهل هى أيضا خشيت من نتائج الخطيرة وقد قامت تؤيد مسداهها بالسيف والنار ؟

وإن سلمنا جدلا بأن قول الخضم معقول ، فهل هو معقول من بعض علماء اليهود الذين

كانوا في جدال مستمر مع علماء المسلمين؟ فلم لم يتخذوا التحريف الذي يزعم الزاعمون أنه وقع في القرآن من الزلات التي يحصونها على كتاب المسلمين في تلك الأزمان، لاسيما وقد كان المسلمون يرمونهم بتحريف التوراة؟

اللهم إن هذه حجج قاطعة على أن ما يروى من حذف بعض آيات القرآن إنما حصل فيما كان منها منسوخ التلاوة، ولذلك لم ينتطح حوله عتزان.

وقال صاحب تلك الرسالة في صفحة ٥٤ :

« وفضلا عن ذلك إن آيات القرآن الحالية تختلف لفظا حتى انشق علماء الاسلام في تفسيرها الى أحزاب .

« مثلاً قوله في سورة محمد « قتلوا » وفي رواية أخرى قاتلوا ، وكذلك قد اختلفوا في أمر الجهاد ، وكذلك اختلفت القراءة في سورة الحج بين يقاتلون ويقاتلون (بكسر التاء وفتحها) الخ . نقول : يريد الكاتب مما ذكره مسألة اختلاف القراءات . أما وقد انتهى به الأمر إليها ، فأننا نخبره بأن هذا الاختلاف قد حدث على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ورفع أمره إليه ، فأقره بوحى من الله ، ولو كان حدث بعده لكان لا خصم مجال للخوض فيه ، أما وهو على ما رأيت فلا مجال فيه لقاتل كائنا ما كان .

على أن هذه الاختلافات في القراءة لم تحلل حراما ، ولم تحرم حلالا ، ولا هي تتعلق بالعقائد ولا العبادات ولا المعاملات ، ولم تترين المسلمين حربا ، ولا اعتبرها أحد شبهة على الكتاب الالهي . فكل كلام في هذا الموضوع عث محض لا يقام له وزن لا عند المسلمين ولا عند سواهم .

وإذا علم القارئ أن هذه الاختلافات في القراءة حدثت على عهد رسول الله فأقرها بوحى من الله ، سقطت حيرة صاحب الرسالة في معرفة أى القراءات هي التي نطق بها محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أدل الأدلة على أن المسلمين يعتبرون اختلاف القراءات أمرا مشروفا أن قراءة القرآن يرتلون آياته مع مراعاة هذه الاختلافات فيكررون بعض الآيات على ضروب شتى إدلالا على تمكنهم من فهم ، والمسلمون يقاتلون ذلك بالتقدير والاعجاب .

وبعد فقد اتضح للقارئ بأقوى الأدلة وأنهض الحجج أن القرآن الكريم لا يعقل أن يكون قد اعتراه تحريف من أى ضرب كان ، وأنه بقى محفوظا في الصدور والسطور ، وسيبقى كذلك أبد الأبد ، ودهر الدهرين ، مصداقا لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

محمد فريد وجدي

الانصار

كيف استقبلوا الاسلام ؟

« بقية البحث »

دوج الاسلام الى « يثرب » واتقا مطمئنا بمد أن استيأس من مكة التي أخذتها العزة أن تستجيب لداعي الهداية والخلاص من وئنة ضالة بليدة ، تضع من قيمة العقل الانساني ، وتغله بأغلال العصبية والتقليد الأصم ، فاستقبله اليرببون استقبال الظمان في هجير الصحراء لعذب الماء في ظلال دوحة فيحاء ، وأصبح له في كل مجتمع يثربي ذكر ، والى صاحب الرسالة في كل قلب حنين وشوق ، وصار فتى بنى الأشهل « إياس بن معاذ » طلبعة الاسلام الى يثرب يحط أنظار أهلها ، رجالا ونساء ، شيبا وشبابا ، ينظرون اليه نظر غبطة ودهش في شئ كثير من حيرة الأمل الباسم بالمستقبل الطافر ، حتى إذا دارت عجلة الزمان دورة طام في أفق الفلك ، وأقبل موسم الحج الى مكة قدم فيمن قدم اليها من اليربيين اثنا عشر رجلا هدى الله قلوبهم للإيمان ، وانشرحت صدورهم للاسلام ، وكانوا عشرة من الخزرجة ، فيهم « عبادة بن الصامت » وائمان أوسيان ، قدموا يريدون لقيا النبي صلى الله عليه وسلم والاجتماع به ومبايعته على الإيمان برسالته ، ليسبقوا جيرانهم اليهود الذين كانوا ينوعدونهم بظهوره والاستنصار به عليهم ، فلقاهم النبي عليه السلام عند العقبة فبايعهم على أصول الاسلام والعمل بها في خاصة أنفسهم ، ولم يكلفهم في هذه البيعة شيئا يشق عليهم ، ولم يأمرهم إلا بالتوحيد ودعائم المروءة ومكارم الاخلاق . روى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصاة من أصحابه : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرفوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بهتانا تعترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فموجب في الدنيا فهو كفرارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » .

هذه البيعة هي بيعة السلام ، ليس فيها تعاهد على حرب أو قتال ، ولعلها لذلك يسميها بعض كتاب السيرة « بيعة النساء » وهي التي في قول الله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنين يبائسكن على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتانا يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يصيبكن في معروف فبايعهن » .

بعد بيعة السلام هذه عاد الاسلام الى « يثرب » مستعليا ، بعد طام من دخوله الى ربوعها مستخفيا تحمله قلوب جمهرة من رجالها وأولى الرأي فيها ، وارتفع صوته جهورا ، ولكنه

لا يزال في هدوئه ووداعته ، بل في سكونه بعيدا عن فضال مكة وسطوتها ، وترأى الى مسلمي مكة حديث إخوانهم اليربيين واستبشارهم بهذا الدين الجديد ، واطمئنانهم الى عقيدتهم التوحيدية في أمن من الأذى ، فطلعت نفوسهم الى ذلك الجو الهادي الصافي الذي يؤدون فيه شعائر دينهم آمنين على أنفسهم وعقائدهم بما يلاقونه من ألوان التنكيل والغصه ، وودوا لو أنهم استطاعوا اللحاق بإخوانهم الأصفياء في ديارهم ، ولكنهم لم يكونوا يأمنون شر قريش أن يلاحقهم الى هناك ، وأن تؤلب عليهم العرب ، وهي منهم في مكان الزمامة الآمرة التي لا يرد لها أمر ، وماذا عسى أن يفيدهم اليربيون لو تحول هذا الفضال الى حرب ضروس ، وهم لم يأخذوا عليهم عهداً بخوض هذه الحروب ، ولم يبلغ عهد النبي صلى الله عليه وسلم لهم في بيعة السلام الأولى على يدى وفد الانبي عشر أن يكون معاهدة دفاع حربي ، بل لم يتعد أن يكون بلاغا لهم بدعوة الاسلام ، والعمل بشئ من مهمات شرائعه التي كان قد نزل بها الوحي الى يومئذ في خصبة أنفسهم .

كان هذا تسكيرا يدور في نفوس المسلمين ، وظل يضطرب بها وظلت هي بين الاقدام والاحكام ، يدفعها ما تلاقى من بليغ الأذى والصد عن سبيل الله الى العزم على الهجرة الى دار إخوانهم فتعزم عليها ، ويقف أمامها المستقبل القامض في غمرة لا يعتمدون فيها على مال ولا ولد فترجع عن عزيمتها متشحة بالصبر وتوطين النفس على تحمل الشدائد حتى يقضى الله بينهم وبين قريش التي تريد أن تلجئهم الى المهاجرة من مكة وطنهم الحبيب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم في كل ذلك يضرب لأصحابه المثل الأعلى في الصبر والمصابرة ، وصدق العزيمة في سبيل تبليغ أمر ربه ، وكان صلوات الله عليه نظارا الى القرمس المواتية فلا يدعها تغلت دون أن يحملها يحدث من أحداث الانقلاب ، أو نبأ من أنباء الاسلام يذهب في الجزيرة العربية شرقا وغربا ، يعرض نفسه على القبائل في مضاربها ومواسمها ، معنيا أشد العناية بموسم الحج لأنه أعظم مواسم العرب شأنا ومجتمعا ، فإذا رن في ساحته صوت الدعوة تردد له الصدى في آفاق الجزيرة كلها ، وماذا ينبغي النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يهتد بدعوته الأثير فتضطرب بموجاته كل أذن ، ومنه تندفع الى القلوب الواعية مثلة آيات العزة الاسلامية ؟ وزادت أهمية الحج في نظر صاحب الرسالة أنه يرتقب فيه أخبار بيعته لأولئك البفر من أهل « يثرب » وما أمخرته في ذلك البلد الطيب .

حان الموسم ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة ليعرض دعوته وتعرف مدى ما وصلت إليه في أشتات قبائل العرب التي يضربها البلد الحرام في الأشهر الحرام ، وقد بلغه أن جمعا عظيما من اليربيين لاهد للمواسم بمثله قد اقبل ، وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلما ، فيهم امرأتان ، فواعدهم أواسط أيام التشريق . قال شاعر الأنصار كعب بن مالك يمدحنا عن هذه الليلة العظيمة : « لما كانت الليلة التي وعدنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتنا أول الليل مع

قومنا ، فلما استنقل الناس من النوم تسلسلنا من فرشنا حتى اجتمعنا بالعقبة ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع حمة العباس لاغير ، فقال العباس : يا معشر الخزرج : إن محمداً مناجيت علمتم ، وهو في منعة ونصرة من قومه وعشيرته ، وقد أتى إلا الاتقطاع اليكم ، فإن كنتم وافين بما طاهدتموه فأتتم وما تحملتم ، وإلا فتركوه في قومه . فنكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الله مرغياً في الاسلام تالياً للقرءان فأجيبوا بالإيمان ، فقال : «إني أيايكم على أن تحموني بما منعتكم به أبناءكم» فقال البراء بن معرور أحد زعماء القوم : أبسط يدك نبأيك عليه ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثاها كابرا عن كابر . فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان ، وهو ثاني اثنين من الأوس حضرة البيعة الأولى ، قائلاً : إن بيننا وبين يهود عهوداً نحن نألفهموها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أتم مني وأنا منكم ، أحارب من حاربتهم ، وأسالم من سالمهم » فطأن القوم وقاموا إلى البيعة ، فقال لهم عباس بن عباد بن نضلة ، وهو أحد العشرة الخزرجية الذين اشتركوا في بيعة السلام : يا معشر الخزرج : أتعلمون علام تباعون هذا الرجل ؟ إنكم تباعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم تزون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم تزون أنكم وافون له بما دعواكم إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف نخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ! فقال القوم : إنا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فباعوه على ذلك .

كانت هذه البيعة ، على خلاف سابقها ، معاهدة حربية هدفها حماية العقيدة ، والاستعداد لحرب الأحمر والأسود ، فاستوثق النبي صلى الله عليه وسلم بمحضر حمة العباس لنفسه ولدهوته بمن ماهدوه على نصرته ، واستوثق القوم منه على أن لا يدهمهم إذا أظهره الله ، فكانوا أنصاره وحماة دينه ، وكان جميعهم وولهم ، آوى إلى بلدهم فأنخذ وطه ، ومبعث هدايته ، وجعله الله تعالى مقر جثاته الطاهر ، ومركز خلافته ونشر شريعته .

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى هذا الوطن الجديد ، فتلقاه أنصاره بنشوة من الطرب والفرح أخرجت المحدرات من خدورهن ، وكل شخص فيهم يتحرق شوقاً لأن يملأ ناظره من هذا القادم العظيم الذي تنفخ في مدينتهم روحاً لم تشهد مثلها منذ عرفها التاريخ ، وتسبق زعمائهم في التماس شرف ضيافة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فترفق بهم مبتهجا أشد الابتهاج بهذه العواطف النبيلة ، وهذا الحب الذي أقسم كل قلب ، وبدا على كل وجه ، واختار لنفسه منزلاً بؤاه الله إياه ورضى عنه أنصاره وأصحابه ، وحدث « المدينة » إلى هدهوها بعد مظاهرات الاستقبال وأفراس اللقاء ، ولكنها منذ اليوم بدأت تحيا حياة جديدة كل الجدة ، فقد بنى فيها مسجد عظيم تؤدي فيه الشعائر الدينية مستعانة بقوة ، ومنه

انبعثت أصوات الدعوة الإسلامية جبهة متحدة ، وفيه وضع أساس الدولة الجديدة ، وفيه تدير نظم الحياة المستقبلية التي بدأت بهذا الانقلاب الخطير .

كان من الطبيعي أن تنجبه أفكار النبي صلى الله عليه وسلم وأفكار أصحابه وقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وأفكار أنصاره وقد أخذوا على طاعتهم نصرته وتأييده دينه ، أول أمرهم ، إلى مكة وقريش ، وقد أمكتهم الفرصة من الوقوف أمامها ، والطمع في الغلبة عليها ، فلنصادر تجارتها إلى الشام ، ولتقطع عليها طريق المراجعة حتى تلين قناتها ، أو يحكم فيها السيف ، وعمر على قريش في كبرياتها أن تنف من عهد وأصحابه هذا الموقف ، فخرجت في قواها كلها لتفتك بهذه العصاة التي إن تهلك فلن يعبد الله في الأرض ، وخرج المسلمون بقيادة البطل الأعظم للقاءها على شفير « بدر » ، وهناك أخبر الناس جبر قريش ليكونوا على بينة من أمرهم ، ووجه كلامه إلى الأنصار ، فهم عدته وردده قائلا : « أشيروا على أيها الناس » فقال سعد بن معاذ وهو صاحب رأيهم يومئذ والمنكلم لمسانمهم : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . فقال سعد : « لقد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فحقن معك ، فوالذي بيمينك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته غخطناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا نعبر في الحرب ، صدق في الأمان ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

لله هذه العزائم العوارم التي بنت مجد الإسلام شاعها ، وأرست قواعد بنيانه واسخا ، عزائم صنعها الإيمان فأجبت الموت في سبيل العقيدة فوهبت لها الحياة ، أحب الأنصار الإسلام من كل قلوبهم فنصروه نصرا مؤزرا ، فأكرمهم الله ، وآثرهم نبيه صلى الله عليه وسلم ، فجعلهم آية الإيمان ونفضهم آية النفاق ، وقال فيهم : « لو سلكت الأنصار واديًا لسلكت وادي الأنصار ، ولو لا الهجرة لكنت امرأة من الأنصار » . آخى بينهم وبين المهاجرين فقا صوم أموالهم ، وسمحت لهم أنفسهم بالزول عن بعض زوجاتهم ، فدحهم الله وأثنى عليهم بقوله : « والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . تقهقروا في الدين فكان منهم الأئمة والمعلمون ، وكان نساؤهم من خير نساء العالمين عشرة وتدبنا وطاعة وفقها . قالت عائشة رضي الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار - لم يمنهن الحياة أن ينتفن في الدين » .

وبعد . فقد كتب « الأنصار » لأنفسهم في صحائف تاريخ الإسلام صحائف من نور لا تزال صراجا هاديا للقادة والحمد ، ولهم في كل أحداث الإسلام مواقف تجملمهم مثلا عليا للرجولة التي ينشدونها المسلمون في حاضرهم ليستعيدوا مجدهم النابر ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

صادق عمر محمود

الاخلاق الفلسفية

— ٣ —

الدين وقوة سلطانه على النفوس

أشرنا في السكحة السابقة الى الأثر الملموس الذي يحدثه الدين في نفوس الأمم ، وأبنا أن أثر القوانين الوضعية التي تتبع الجرائم وتعاقب عليها ، ومحاولة إبادة أو الإقلال منها ، ليس شيئاً مذكوراً الى جانب أثر الدين ، وأسندنا السبب في هذا الفرق الهائل بين تأثير الدين وتأثير القانون الى أن الأول يتغلغل في النفوس فيقوده في سرها كما يهدبها في علانيتها . أما الثاني فلا تتجاوز سلطته الأجسام ، ولا تنزل عقوبته إلا بعد ثبوت الجريمة في الظاهر باعتراف أو برهان . ولا شك أن هذا الثبوت أمر قد يبلغ من العسر أحياناً الى حد إخفاء كثير من الجرائم وتبرئة مقترفيها ، وهذا هو سر محو تأثير الدين على تأثير القوانين الوضعية . أبنا كل هذا ، وأشرنا الى الرأي الذي يجب اتبعه في تهذيب النشء بالاخلاق الاسلامية ، ومردنا شيئاً من آراء الفلاسفة الذين يؤمنون بهذه العكرة . واليوم سنأتى على آراء المعارضين لهذا الرأي ، لأننا نشاهد أن بعض فلاسفة أوروبا المحدثين يرفعون الصوت عالياً بوجوب فصل الاخلاق عن الدين ، وينشغلون لذلك أعذاراً سنذكر هنا أهمها وأجدرها بالصيانة ، ثم نرد عليها بما يدحضها في نظر المطلق الصحيح . واليك هذه الأعذار :

١ — إن كثيراً من الدول تعتنق كل واحدة منها ديانات مختلفة ، وإن نشر أخلاق دين من هذه الأديان وإهمال أخلاق الديانات الأخرى يعد خطاً لحرية معتنقي هذه الأديان المهمة . ونحن من جانبنا نرى أن هذا الاعتراض واه من أساسه ، لأن الديانات على اختلاف ألوانها وطقوسها لا تتعارض في الفضائل الجوهرية البتة .

فإذا نشرنا أخلاق الاسلام مثلاً في مصر ، فأننا لا نرتاب أقل ارتياب في أن المسيحيين والامراتيليين المخلصين للفضيلة سيستريحون لهذه الاخلاق الاسلامية كل الاستراحة ، وسيجدون فيها أرفع أنواع السعادة الاجتماعية . على أن هؤلاء المعارضين يجزمون بأن الاخلاق الحرة لا تنال الاحترام إلا إذا كانت تقسم لارضاء المؤمنين والمخلصين معا ، وهي بالطبع لا يمكن أن ترضى المؤمنين جميعاً على اختلاف دياناتهم إلا إذا كانت تلتقي مع هذه الديانات كلها عند نقطة خاصة ، وهذا هو عين ما يدعيه من أن جميع الديانات متفقة في الفضائل الأساسية ، وإذا ، فلا معنى للتحوف من أن نشر أخلاق دين بعينه يعدو على حرية الدين لا يعتقونه .

٢ — إن من المشاهد أن بعض الحكومات اللادينية ، كجمهورية فرنسا مثلاً ، وإنه يكون

من التناقض أن تربط هذه الدول « اللادينية » الأخلاق بالدين بعد أن فصلت عنه قوانينها وتشريعاتها وسياساتها .

ويمكن أن يجاب على هذا الاعتراض بأن القياس هنا مع العارق ، لأن القوانين المدنية والساتير السياسية يمكن أن تتبع العصور المختلفة والأمزجة المتباعدة . أما القوانين الأخلاقية فيجب أن تكون ثابتة لا تتأثر بزمان ولا بمكان ، ولا ينبغي لها أن تتبع أهواء الزعماء والمشرعين « اللاديين » ، وإلا لكانت بشرية متناقلة تستحسن اليوم ما استهجنته بالأمس ، ولا ريب أن هذه الصفة تفقدها عالميتها التي هي أكرم لها من الهواء للكائنات الحية . وإذا فهذه العالمية ، وذلك الثبات الضروريان للقوانين الأخلاقية ، لا يتحققان إلا إذا كان المنع ثابتا وخالدا . ومن أكثر ثباتا وخلودا من منشئ الديانات ؟

فكل عاقل تهمه الحالة الاجتماعية العامة يرى وجوب نشر الأخلاق الدينية حتى في البلاد اللادينية ، فكيف يملك كصر يستمد كثيرا من قوانينه المدنية وكل تشريعات الأحوال الشخصية فيه ، من الدين ؟

وفوق ذلك ، فإن العلم يعترف في صراحة بأن أكمل الأسس الاجتماعية ، وأرق الأنظمة العمرانية ، ومدينة بحياتها للدين وحده ، لا لتلك الأحطاء المربعة ، والسقطات المروعة التي امتلأت بها نظريات العلماء والفلاسفة ، كما يعلن أن العقل لا يستطيع أن يصل إلا إلى تلك الحقائق النسبية نحسب ، أما الدين فانه يقرر حقائق مطلقة . وهذا الفرق كاف لرفعته ولجدارته بأن يكون منبعا للأخلاق .

والذي أدعى إلى الدهش والاستغراب هو أن « كانت » كبير الفلاسفة العقلين في العصور الحديثة يعلن أن فصل الدين عن الأخلاق يعد ضربا من الخطأ المخطر على الحياتين : الأخلاقية والاجتماعية معا .

فاذا كان هذا هو رأي « كانت » الذي يعد في تاريخ الحركة العقلية الأوروبية مدرسة بنامها ، ورأي الأكثرية المحترمة من الفلاسفة الروحيين والعقلين ، فما لنا نرى بعض المعاصرين الذين يعالجون هذه الموضوعات في مصر يتكبرون السبيل السوية ، ويشبهون في مهامه التقليد والانقياد وراء هذه الشرذمة المادية من فلاسفة أوروبا الذين حطمتهم أدلة الروحيين وصيرت مذاهبهم خرائب وأطلالا ؟ وإليك شيئا من هذه الأفكار السطحية التي سار فيها بعض مؤلفينا على أنساق بعض فلاسفة الغرب اللاديين دون تأمل ولا روية :

يرى أحد المربين المحدثين أن الواجب في دراسة الدين في المدارس هو الاقتصار على ذكر مآمر الدين من أخلاق وفضائل ، دون تعرض إلى دراسة الدين نفسه ، ولا إلى تحليل نظرياته الفلسفية الجدلية التي لا يعود منها على الطالب إلا إنقال كاهله ، وكدر رأسه ، وإنهاك عقله فيما

لا يقيد، بل يؤود قواه، ويقتل ملكاته. ثم يستمر في نقده فيقول: إذ ماذا يستفيد العقل من معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلية؟ إلى آخر ما قال. وأنا أرى أن هذا الرأي بعيد عن التعمق والدقة كل البعد، ولوعملنا به لأبنا من الأخلاق الدينية خالي الوفاض، صفر الأيدي، ولنتقدما نحو القتل في اتباع تعاليم السماء بخطوات واسعة، لئلا نلحق الأذى إلى السخرية، ولا أبنت على الاستهزاء من شخص يتبع أخلاق دين وينسج على منوال فضائله وهو يجهل أسسه وأصوله كل الجهل، لأن هذا الدين يهدم من رأسه، ويحول الاعتقاد به من ذهنه عند أول عاصفة شك أو إلحاد تهب على هذا الذي لم ينحصن بمعرفة هذا الدين، ولم يدعم إيمانه بالأدلة والبراهين، ومتى زال من قلبه الإيمان، انحسرت من نفسه تلك القداسة العليا التي كانت تعود به إلى الاذعان لما جاء في هذا الدين من فضائل وأخلاق. وليس لهذا كله سبب إلا الجهل بأسس الدين وبراهينه، ذلك الجهل الذي يدعو إليه هذا المربي العصري.

وإذا كان هذا المؤلف يخشى أن يدرس الطلاب الدين فيجدوا فيه ما يتناقض مع العقل فيقبلوه ويتأثروا به وبما جاء فيه من أخلاق، أقول: إذا كان يخشى هذا كما يلح في كتابه، فانا تؤكد أنه دين الإسلام لن يرتفع من هذا التهديد، ولن يتزوى وراء أستار الجهل خوفا من اصطدامه مع العلم الحديث أو مع العقل المنتقف المستنير. وإني لمستأنس لك هنا برأي أحد كبار العلماء الفرنسيين وهو مؤلف كتاب «في الدراسات الدينية» قال حين عرض للإسلام:

«ومن جانب آخر ينبغي أن نذكر أن الدين الإسلامي يخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشاحة التي تسقط من ضربة واحدة، لأن فيه قوة كامنة، وصلابة ومثانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة» إلى أن يقول: «وإني أعتقد أن الشرق إذا تغلب على جهوده وتخلص منه، فإن الإسلام لن يصع أية عقبة جديدة في سبيل التفكير الحديث، أما في أوروبا، فانه إذا أريد التجديد والهوض، فلا بد أن يترك لكل شعب من شعوبها معالجة تلك المهمة البالغة حدا عظيما من الدقة، وهي مهمة التوفيق بين تقاليدها الدينية، وبين حاجاتها الجديدة، وأن يحترم حق الشعوب كما يحترم حق الأفراد في أن تنولي بنفسها في حرية تامة ثورات واقتلابات للعلم والمعرفة»

قد اتضح لك من كل ما تقدم أن دين الإسلام لا يهاب العلم: قديمه وحديثه ومستقبله، ولا يصطدم مع التفكير المنظم، ولا يتناقض مع التحليل الدقيق. وإذا فهمنا تنقف الشبان وأنسجت مداركهم، فلن يلقوا بالدين جانبا إذا كانوا قد درسوه دراسة متينة وافية. وأما الخوف كل الخوف، والويل كل الويل، فمن أن يدرس الشبان الدين والعلم أو أحدهما دراسة سطحية ناقصة، لأنهم يستقنون حينذاك في هوة الشك والارتياب كما قال أحد الفلاسفة الأوربيين:

« إن الأخذ بصيب بسيط من الفلسفة والعلم يسوق الى الاتحاد ، ولكن التعمق فيهما يوطد دعائم الايمان » .

فرأى هذا المربي المعاصر واه من أساسه ، لأن الملة التي يبنيه عليها باطلة .
وإذا فالنتيجة التي حصلنا عليها بعد كل هذه المناقشة ، هي : أن الدين شديد الأثر في النفوس ، قوى السلطان على القلوب ، وأن تأثيره يقوى ويضعف تبعاً لقوة الايمان به وضعفه ، وأن الايمان المتين لا يتحقق إلا بعد الفهم الدقيق لأصول الدين وقواعده فهما مدعما بالأدلة والبراهين .

دكتور محمد غنوي

مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

من قال لا أدري فقد أقتى

افتتح إمام البيان الجياض كتابه البيان والتبيين بقوله : « اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من شر السلاطة والهنر ، كما نعوذ بك من شر الهوى والخمر » .
ودروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » .

وقال حكيم « من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم » .

ولقد أجاد زراة بن زيد حيث يقول :

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملئ أو تناهى فأقصرا
ويخبرني عن غائب المرء فعله كفى الفعل مما غيب المرء مخبرا

والمثال الأبلغ في هذا الباب ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وقد سأله رجل قائلاً :
أي البقاع خير وأي البقاع شر ؟ : « لا أدري حتى أسأل جبريل » .

وقال علي بن أبي طالب : « ما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول :
الله أعلم » !

وقال عبد الله بن عباس : « إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله » .

وقال أحد العلماء : « هلك من ترك لا أدري » .

اختلاط الجنسين

زعموا أن رجلاً أنقذ امرأة البيت الآتي :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فردت عليه المرأة بقولها :

إن النساء رياحين خلقن لكم ولكم يشتهى شم الرياحين

وما يعنينا في هذه الكلمة أن تكون المرأة شيطانة أو ريحانة ، أو شيطانة وريحانة معا ، ولكن الذي يعنينا هو اختلاط المرأة بالرجل ، وقد آثرنا أن لا يكون لنا رأى شخصي في هذا الموضوع ، وأن نكتفي بما فيه الكفاية من كلام ليس لنا فيه من عمل إلا نقله وعرضه على القارئ الكريم .

وقبل كل شيء نريد أن نقرر هنا أن كلمة (اختلاط الجنسين) لم يحدد معناها التحديد الكافي ، فهي شاملة للكثير من أنواع الاختلاط ، كالملحج ، ومالا يمكن التجزئ منه في هذا العصر الذي نعيش فيه . فالطرائف ، والأسواق ، وقطارات (السكة الحديد) وعربات الترام ، والسيارات العامة ، والمتاجر ، والمصانع ، ومزارع القرى ، ومعلمات المدارس ، والطبيبات ، كل هذا يحيط به ألوان كثيرة من ألوان اختلاط الجنسين ، دعا إليه منسك من المناسك ، ودعت إليه الحاجة والصمى وراء الرزق في طرقه الشريفة الشاقة .

وهناك ألوان أخرى من اختلاط الجنسين تراها في المنزهات ، والبارات ، وصالات الملاهي و (الكباريات) ، والحفلات الراقصة . وكثيرا ما تكون هذه الألوان من الاختلاط الجنسي على نعم الموسيقى ونمط تأثير نشوة الراح . وكثيرا ما يقرب القم من القم ، وتلتف الساق بالساق ، والأذرع بالخصور ، وتتلاصق الصدور بالنحور ، فلا ترى إلا أغصانا مشتمكة ضربتها الريح ، وقد تطلعا الأنوار ، فتنتطفئ البصيرة ، وتضل الأبصار .

فهذه الألوان من اختلاط الجنسين لم تدع إليها ضرورة داعية ، ولا حاجة ملحة ، ولا يشفع لها في نظر الشرقي مسلما كان أو غير مسلم أنها من عمل أوروبا ، ولو كان أهل أوروبا من الملائكة المقربين ، وقد آن لنا أن نقيم أوروبا عما أن الشرق أعرق في الانسانية ومساكرم الأخلاق من غمده ، وأنه مهبط الروحيات ، وأنه لوسار على مارسمه له الاسلام لما سار إلا على الصراط المستقيم .

وقد قلنا في أول هذه الكلمة إنا سنكتفي هنا بكلام ليس لنا ، ولكننا ذكرنا ما ذكرنا لتحديد بعض التحديد ما تحوى عليه كلمة (اختلاط الجنسين) من ممان كثيرة ليحكم القارئ

بعد ما سطرده له أى الطريقين خير في كل هذه الألوان من الاختلاط الجنسي . ولا يفوتنا قبل مرد ما سطرده أن نقول إن الكمال في وحده ، وإننا لسنا ملائكة ولنا أيضا شياطين ، وإن كلا من المرأة والرجل عالم يمكن له مناعة ذاتية تحميه من القائنات فان يحميه منه البروج المشيدة ، ولا القيود الفولاذية . ويجب أن لا نهمل خطر الظروف والجسواء التي تحيط باختلاط الجنسين ، من فقر وغنى ، وسبا وكهولة ، وقوة وضعف ، وجمال وقبح ، وأن نلاحظ الأمزجة والمناخ . ولا بأس على القارئ الفاضل أن يستنير في هذا الموضوع أعني موضوع اختلاط الجنسين بالحوادث الكثيرة التي تنجم من اختلاط الجنس الواحد لظروف وأحوال خاصة . والآن نقص على القارئ الفاضل ما أردنا أن نقصه ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق :

قال الله تعالى في كتابه الكريم في سورة يوسف عليه السلام : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ، وشروه بشمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عني أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ثم يقول الله تعالى بعد ذلك : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثوئى إنه لا يفلح الظالمون ، وتقدمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ثم يقول الله تعالى : « فلما رأى قبيصة قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين ، وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكاً ، وأتت كل واحدة منهن سكينة ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا مكر كرم ، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لبيعتن وليكونن من الصاغرين ، قال رب السجين أحب الي مما يدعو نني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين »

ويقول الله تعالى في سورة النور : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلطوا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذنى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلكم أذكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، ولا يبدين بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء ببعولتهن أو أبناءهن ، أو إخواتهن ، أو بنى إخوانهن

أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ماملكت أيمانهن ، أو التابعتن غير أولى الأربة (أى أصحاب الحاجة الى النساء) من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يصبرن بأرجلهن ليملم ما يحققن من زيقتهن »

ثم يقول الله تعالى في هذه السورة : « يا أيها الذين آمنوا ليسأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تصنعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بمعصيكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عالم حكيم ، وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم »

وجاءت صعية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتكف فقام معها ليشيعها فربه رجلان من الأنصار فقال : على رسلكما بما هي صنية (وهي من أمهات المؤمنين وإحدى أزواج الرسول) فقالا : سبحان الله (استبعاداً لظنهما سوء) فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم نكحت أن ينفذ في قلبكما شيئاً فتبهلكا » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى الشابة من النساء عن الاعتكاف في المسجد ، ويرخص في ذلك للمعجزة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة يصف الرجال أمام القلمان ، والقلمان خلفهم ، والنساء خلف القلمان . وكان يقول « خير صفوف الرجال أولها ، وخير صفوف النساء آخرها » ١ وقال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » وقال : « ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه »

وجاء في النجيب متى في الاصحاح الخامس ما يأتي « قد سمعتم أنه قبل للقضاء لارتى ، وأما أما فأقول لكم إن كل من نظر الى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه ، فإن كانت عيناك اليمنى تمترك فاعلمها وألقها عنك ، فانه خير لك أن يهلك أحد أعصائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم »

وللهراء أبيات كثيرة تمت الى موضوعنا هذا بأكثر سبب ، ونحن موردون لك بعضها :
قال أبو العلاء المعري :

لا تنبهن الغايات مما شيا	إن الفواني حمة تمنعها
وإذا اطلعن من المناظر فاهدى	أن لا تارك الدهر مظلماها
ودع القراءة إن ظننت جهيرها	ذكرت به الحاجات مستمعها
فالصوت هدر الفحل يؤس ركزه	ألا فنه فتجيب ممتنعها

وقال أيضا :

ولا ترجع بإيماء سلاما على بيض أشرف مملكات
ولا تمأل أهنأ أم ليس ثوب في النسوة المنحجات
وليس عكوفهن على المصل أمانا من غوارر مجرمات
ولا تحمد حانك أن توافت بأيد لسطور مقومات
لخل مفازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلات
ويتركن الرشيد بفير لب أتقن لمديه متعلات
وما عيب على التفتيات لحن إذا قلن المراد مقرحات
ولا يدنين من رجل ضرر يلقنهن آيا محركات
سوى من كان مرتضا يده ولتته من المستفتات
وما حفظ الخريدة مثل بصل تكون به من المنحمرات
فهذا قول مختبر شفيق ونصح للعباء وللمات

ولأبي نواس :

أمنى إلى جنبها أزاحها حمدا وما بالطريق من ضيق
كقول كسرى فيما تمته : من فرصة اقص ضجة السوق

وله غفر الله له :

وما شقين النف خداهما عند التثام الحجير الاسود
فالتقيا من غير أن يأنما كأنما كانا على موهود
ولولا دافع الناس إليهما لما استفقا آخر المشهد

وله أيضا :

أنا أبصرت يوم النحر رظيا فتت الكبد
عزالا في مصفرة يصيد بطرفه الأسد
فإن زلت أتبعه وأقعد حيثما قصدا

وهذا في الحقيقة نقل وبرود من أبي نواس ، ولا حول ولا قوة الا بالله

هذا ولغير أبي نواس كعمر بن أبي ربيعة ومن لف نقبها حتى من شعراء الجاهلية الشيء الكثير من ذلك .

وحاورنا صاحب العزة الأستاذ الكبير الطون بك الجليل رئيس تحرير الاهرام الغراء في (اختلاط الجنسين) فقال : إن الظروف هي في الغالب التي تملي إرادتها ، ففي القرون الوسطى في أوروبا كان الرجال يضعون المرأة حزاما من الحديد يسمونه (حزام العفة) يشدونه عليها

ويحكمون إغلافه منعا لكل ريبة عنها ، ثم تغيرت الظروف فإذا بالمرأة في أوروبا على حالها التي هي عليها الآن . وهو يرى أن الاعتدال أولى ، وأنه يجب تنقيف المرأة قبل أن تزج بها في تيار الحياة ووضعها في مواقف قد لا تتحملها أعصابها .

أما حضرة صاحب المزة الأستاذ الكبير محمد بك فريد وجدى رئيس تحرير هذه المجلة فهو يقول : إن المرأة يجب أن تحجب عن الرجال بحجب من القول لا ذى وهو لا يسمح لأننى أن تغشى دور السينما على حالها التي هي عليها الآن ، وبعد ذلك تدهوروا في الخلق ، وجباية كبيرة على المرأة والبيت ، وأنه مما لا يتفق وشرف الزوجية القائمة بين الرجل والمرأة .

ونحب أن نختم هذا المقال بنبذة مما جاء في الخطبة الرائعة التي خطبها حضرة صاحب العضية الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، في احتمال هذا العام بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال حفظه الله :

« ولدى الأمة الاسلامية ماض يحمر أنواب الفخر والشرف في كل ميادين الحياة ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضى ، وليس أدعى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التي فيها حقوق الأبناء للأباء ، ونكران الجيل ، وإنكار التاريخ ، وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المنور ، وهل يستطیع قائل أن ينكر أن لنا أسما صالحة قديمة من دين وعلم وتقاليد ومقومات من حقها أن نحافظ عليها ، وأن نعتبرها تراثا عزيزا لا يلبق أن نبدده كما يفعل الوارث السفیه ! » .

وبعد : فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما توفيقى إلا بالله .

محمد المصطفى

كفى بالهوى مضلا

قال الله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »

وقال الشعبي : « إنما سمى الهوى لأنه يهوى بصاحبه » .

وقال أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان -

إذا أنت لم تمن الهوى فادك الهوى الى كل ما فيه عليك مقال

ولم يقل هشام في حياته غير هذا البيت .

بَابُ الاسْتِئْثَانِ وَالْفَتْوَى

الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

(أولاً) فاطمة وضعت مع مصطفى ثلاث رضعات متفرقات ، فهل يجوز زواجهما ؟
(ثانياً) محمود يرغب أن يتزوج نادرة ، غير أن جده نادرة أرضعت محموداً ثلاث أو أربع رضعات متفرقات ، فهل يجوز عقد قران محمود على نادرة ؟
وقد أفتت اللجنة (١) بأن عقد القران فى الحالتين المستول عنهما جائز ، ولا مانع منه شرعاً عند السادة الشافعية والحنابلة .
فهل يجوز عقد القران على مذهب الشافعى ، والمستول عنهم فى الحالتين من أتباع المذهب الحنفى ، أو لا يجوز ؟

اسماعيل طعيم آل ابراهيم باشا

حلب — سوريا

الجواب :

يجوز للمستفتى أن يقلد مذهب الشافعى فى عقد النكاح مع مراعاة الشروط والأركان التى تلزم لصحة العقد على مذهب الشافعى . والتزامه العمل على مذهب أبى حنيفة لا يمنع من العمل بمذهب آخر مع مراعاة ما يتطلبه ذلك المذهب . والله علم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

(١) نشرت هذه الفتوى فى العدد السابق

محمد صلى الله عليه وسلم

في رأى قادة الفكر في أوروبا (١)

وقال الصوفي جامي أيضا شعرا :

إن عدم الكون هو المرأة ، والوجود هو ما انمكس فيها من الصور .
والإنسان هو الشخصية المنسكنة في صميمه ، كما استكنت العين في ذلك الانعكاس .

فأنت عين ذلك الانعكاس ، والله تعالى هو نور تلك العين .

فبواسطة هذه العين ترى عين الله ذاته المقدسة .

فالعالم إنسان ، والإنسان عالم .

وجود تفسير لوجود أوضح من هذا التفسير محال .

فاذا أجدت النظر في أصل الأشياء ،

وجدت أن الله هو الرائي والعين والمرئي في وقت معا . انتهى .

فاستمع الآن الى ما سأقصه عليك لترى كيف كانت الصوفية الاسلامية تفسر مبدأ التطور
في القرن الثالث عشر ، وهو المبدأ نفسه الذي قام بتعليقه دارون في العالم المسيحي في القرن
التاسع عشر . وهو من قول جوهان إى راز :

لقد مت في الجحاد ، ثم صرت بساتا

ومت في النباتات ، ثم استعلت حيوانا

ومت في الحيوانات ، ثم أصبحت إنسانا

فلماذا أخشى أى شيء بعد الآن ؟ هل انحطت عن رتبتي بالموت قط ؟

وفي المرة المقبلة سأموت في الإنسان .

لكي تثبت لي أجنحة الملائكة .

ومنى بلغت هذه الرتبة سأجتهد في أن أرقى الى ما بعدها لانه « كل شيء هالك إلا وجهه »

وسأطير دفعة أخرى فوق مستوى الملائكة .

وسأستحيل الى مالا يمكن أن يدركه النصور .

(١) حاتمة محاضرة رعية التيوصفية المالية «أنبيزانت» التي أشرناها فصولا في أعداد سابقة .

فأتركني إذني أصير لاشيء، لاشيء، لأن وتر القيامة يصبح بي، الحق الذي لا مزية فيه أنا سنموه اليه .

فالتصوف الاسلامي يعلم المريد، كما هو واضح من كتاب (عوارف المعارف)، كيف يجب أن يكون سلوك الطريق . (١)

إن هذا الكتاب مقسم الى ثلاثة أقسام : الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، واليك الصفات المميزة لهذه الثلاثة الأقسام : سأل رجل شيخه ، وهو استاذ روحاني ، عن ماهية هذه المراحل الثلاث ؟ فأجابه بقوله : « اذهب فاضرب كلا من هؤلاء الثلاثة الرجال الذين تراهم جالسين هناك . ففعل الرجل ما أمره به أستاذه . فلما ضرب الأول نهض من فورده على رجله ، وقابل ضربته غلما . فضرب المريد الرجل الثاني ، فأهروجه ، ونحرك ليقوم ، وقبض يديه ، ولكنه كظم غضبه .

عند ذلك ضرب المريد الرجل الثالث ، فلم يكترث له . ثم عاد المريد الى الشيخ . فقال له الشيخ : أما الرجل الأول فهو في مجال الشريعة ، وأما الثاني فهو من سالكي الطريقة ، وأما الثالث فهو من أهل الحقيقة »

يذهب الصوفية أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان المرجع الاسمي للدين ، ولكن يجب على المريد أن يكون له شيخ يهديه الطريق ، وينبغي أن يكون خاضعا وخالصا له الخضوع والاخلاص المطلقين . فعليه أن يطعمه في كل شيء بدون تحفظ ولا تردد ، فقد قيل : « إذا أمرك شيخك أن تمس ثيابك في الخمر ، فافعل ما تؤمر به ، لأن الشيخ يعرف كل ما تعرفه وفوق ما تعرفه » .

ويجب على المريد التأمل الطويل الذي يرفعه درجة بعد درجة حتى يصل لدرجة الوجد والتدله .

إن رابعة التي ذكرها ابن خلسكان في وفياته (١٢١١ - ١٢٨٢) كانت تصعد الى سطح دارها ليلا وتقول : « إلهي لقد خلف هدوء الليل ضوضاء النهار ، وقد صار المحب قريبا من حبيبه ، فليس لي محبوب سواك ، وأنا جدد مغتبطة » .

فأله وحده هو غاية كل صوفي مسلم . وإن الدراويش ليعلنون قولهم : « لا نخاف جهنم ولا نطمع في الجنة » .

ومدار التصوف عندهم على المجاهدة الشديدة ، فتراهم يأملون بصيام أيام كثيرة ، وبأعمال أخرى من الزهادة تشق على النفس . ولكنهم مع هذا كله أشد الناس احتراما

(١) كتب هذا الكتاب في القرن الثالث عشر الميلادي الشيخ شهاب الدين ربيع الحنوجي حافظ في التصوف . وقد ترجمه الى الإنجليزية للأنعام هـ . ويلفورد كلارك .

لحريات الغير . فهم يقولون : « إن الطرق الموصلة الى الله كثيرة فهي تعدد أنفاس نبي آدم » . ولكن ليس لدى من الوقت لأصل في هذا الموضوع الجذاب .

هذا هو حفظ العلم الباطن من الاسلام ، وحبذا لو أدمجه المسلمون فيه ، لأنه لا يوجد لدى المسلمين اليوم . ولو فعل المسلمون ذلك لارتبط هو وسائر الأديان برابط حب أخوي متين . لأن التوحيد المقدس بين العقائد المختلفة التي تنوزع العالم كله ، لا يقوم على مظاهرها الخارجية المتخالفة ، ولا على شعارها المتباينة ، حيث توافق كل ديانة تقسية الشعوب التي نشأت فيها ، ولغتها التي تتكلم بها في توجهاتها الى الله . ولكن توحيد الأديان يقوم على الحقيقة الروحية ، والفكرة الفلسفية ، وفوق كل شيء على المعارف الباطنية التي تعلم الانسان كيف يعرف أنه من نعمة إلهية ، وكيف يجاهد حتى يعود الى مصدره الأول .

إخواني إن أكثر الذين يسمعونني هنا من الهندوس ، وهم ليسوا مسلمين . هذا قليل الخطر . فأنتم تقولون (سوهام) و (توام آشي) ، والصوفية يقولون : أنا الحق ، فكيف تتحالفون إذا كان الله واحداً ؟ (١) فاجتهدوا أن تفهموا هذه الحقيقة ، وهذا الفهم يوحى اليكم الحب . اجتهدوا أن تكتشفوا كل ما فيها من هظمة ، فإذا فعلتم مددتم أيديكم لسبعين مليوناً من المسلمين في الهند ، فاهم جزء من الأمة الهندية ، وبدونهم لا يستطيعون أن يؤلفوا شعباً . فليستعلم أن نحب لا أن نبغض . لنعلم أن نفهم لا أن ننتقد . ولنحب ديننا فوق كل شيء ، ولكن لنعترم أديان جيراننا . فإن محمداً وعيسى وذورواستر وموسى والريشيين والبوذيساتيين كلهم أعضاء الاسر المأجدة ، وهم حفظة النوع البشري والامم ، وليسوا فيما بينهم على خلاف في شيء . أما نحن معشر أتباعهم وأبنائهم المتواضعين فلنحاول أن نستثير بشعاع من حبهم الذي يشمل كل ما في الوجود . فبالحب وحده يمكننا أن نستجلب عطفهم علينا .

(١) بحجة الامر : لا وافق السيدة (أني نيزات) فيما تدعو اليه في هذا الرأي الأخير ، فإن الاسلام ازل ليكون دينا عاما فاس كافة ، وليس عليه أي طابع من أية نسبية بشرية ، فهو يناسب كل الناس في كل زمان ومكان .

أما ما تدعو إليه من اعلان الصوفية على النحو الذي تذكره فهذا شديد المرر على من لا يفهمه ، وعلى من لا يتفوقه . ولو جربنا على ما نقول لسمعنا لكل طائفة تقديس بمجموعة من أوهاهم وصيها لها زماؤها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير كانت سببا في هلاك جماعتها جميعا ، وفي سلوكها في الحياة طريقا لا يناسب كرامة الانسان ، ولا سمو مواهبه . اعتبر ذلك بأن جميع الامم التي تعتبرها السيدة (أني) أما متصرفة قد انحطت الى أسف الهزات ، ونقضت لسلطان أمم مستمرة قاهرة ، ولم تكن عنها صوفيها شيئا .

لست بهذا أسكر على الصوفية قيمتها العالية ، ولكن الصوفية يجب أن يكون أساسها العلم نفسه ، العلم المؤسس على المشاهدات والتجارب ، ولا يجوز أن يكون أساسها خيالات آماس مجردة أنفسهم كتفكير المحسن وليس لديهم مدخود من العلم الصحيح يحجبهم شر الوقوع في الحرافات والاسايل في الاسلام تصوف ولكن من الطراز العلوي الثالث ، ولا يتأذى إليه إلا كل عالم ناصح العقل نير النصيرة ، وهو إذا وصل الى منبع رباني لا يملك خشية أن يضل به من لا يفهمه ، ولا يتفوقه .

ومحمد نفسه لا يستطيع أن يجيء إلى أتباعه ، كما يرجو أن يفعل ، ماداموا لم يخلعوا عنهم هذا الغلو في الدين ، وقصر النظر الذي هم عليه ، ولم يحبسوا الناس كما يحبهم هو أجمنين . إنه نبيكم أيها المسلمون ، ولكنه نبياً أيضاً فاننا نعتقد في جميع الرسل الذين أرسلهم الله إلى الناس ، فنحن نحبههم ونحترمهم كافة ، وننحى أمامهم احتراماً لهم أجمنين . فعسى الله رب جميع الأمم أن يوفقنا معشر أبنائه لأن نبطل النزاع القائم بيننا فيه ، على اختلاف أسمائه تعالى لدينا : ما هاديقاء أوفيشنوه أو الله ، أو أهورا ما زدا ، أو جيهوفا ، أو الآب ، فبئى اسم من أسمائه تحركت شفاهنا نحن معشر أبنائه ، فلا إله إلا هو ، ولا شيء خارجاً عنه ، ونحن له عابدون « انتهى .

محمد فرير وجرى

بالعدل قامت السموات والارض

قال الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »
أى ولا يحملنكم كراهتكم لقوم لما سق من إيذائهم لكم على أن لا تعدلوا في الحكم بينهم ، اعدلوا هو أدنى أن تحشوا الله وتستأهلوا غفرانه » .

وهذا من أعلى وأكمل ما تميز به الاسلام من التجرد عن آثار النفسية البشرية ، والبتة عن الصفات الأرضية . فالخلق يدعو أهله لتجريد العدالة من كل الملاسات التعاملية ، فإذا حكموا بين رجلين أمرهم أن لا ينظروا لما كان بينهم وبينهما من أواصر قومية ، أو سخرام نفسية ، وأن يصدروا أحكامهم على مقتضى العدل الإلهى المستقيم .

ليس فيما بين أيدينا من مجموعات العدالة العالمية ما يبلغ حد هذه العدالة القدسية أو يقرب منها .

حكى أن الرشيد أمر بحسن أبى العناحية الشاعر فكتب على حائط الحبس :

أما والله إن الظلم شؤم	وما زال المسء هو الظلوم
إلى ديات يوم الدين نحضى	وعند الله نجتمع الخلوم
ستعلم فى المعاد إذا التقينا	غدا عند المليك من الظلوم

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي

(لبروكلمان)

لم يكن لندر شأن يذكر في تاريخ الادب العربي في يده ظهور الاسلام لما للقرآن من منزلة مقدسة ، فكان آية السكال التي بلغها النثر أو السجع . ولما كان كتاب الله موضع تبجيل رجال الدين كافة ، وكان هؤلاء هم أول من بدأ النهضة الفكرية في مختلف واهي العلوم والآداب ، فان هذا الصرب من الكتابة كان من الفنون التي حرمت منها الأدبيات العربية . لاسلامية في أول نشأتها ، ولم يجرؤ أحد على الظهور في ميدانه أو النهوض به ، ومضى على ذلك زمن طويل ولم يعرف في تاريخ الادب العربي ما يستحق الذكر في هذا المضمار حتى القرن الثالث من الهجرة ، حيث بدأت المحاولات الأولى في هذا المضمار من فنون الادب باستعماله في مقتضيات الحياة العامة ، إلا أنه بالرغم من ذلك ظل في أول الامر مقصورا على الأغراض الدينية وما تتطلبه من حاجيات ، وكان الاسلام يأمر بالوعظ والخطابة في المساجد العامة في صلاة الجمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالخطابة بنفسه بالمدينة ، وتبعه من بعده الخلفاء في المواسم والحكام في الأقاليم ، فأصبح بذلك الوعظ وخطبة الجمعة من الحقوق الخاصة بالولاة والحكام ، ولكن لم تلبث أن ظهرت فئة الوعاظ المحترفين ، فاحتلوا مكان أصحاب السيادة الدنيوية في خطبة الجمعة ، واقتصروا على ذكر أسمائهم وتأيدهم في الخطبة ، فتنظورت الخطابة الدينية على يد هؤلاء الوعاظ الجدد ، واتخذت صياغة فنية خاصة ، وظهر بها تدريجيا النثر المسجوع .

وأول من ظهر في تاريخ الادب العربي في هذا الميدان الفنى هو ابن نباتة هبد الرحيم ابن محمد المولود عام ٣٣٥ هـ وكانت واعظا في بلاط سيف الدولة ، وتوفي عام ٣٧٤ هـ . وكانت خطبه تذخر بالمسائل الدينية العامة : مثل الموت ، والبعث ، وفناء العالم ، ولم تخل خطبه من الاذكار والحث على الكفاح ضد الكفار ، مؤيدا بذلك سيده في أغراضه الحربية ، وفي هذه الناحية كانت تسنح له القرم لتعداد الحوادث التاريخية مما جعلت مؤلفاته من المصادر التاريخية الهامة ، وكانت الروح الدينية تغلب في خطبه على وجه العموم ، واليه يرجع السبب في إعادة نشرها في الشرق أكثر من خمس مرات .

وأما في محيط الأعمال الدنيوية فكانت مجهودات رجال الادارة ذات أثر بعيد في الصياغة الفنية للكلام المنشور ، فبدأ التغيير يدخل على الأسلوب الجاف الذي جرت عليه أقلام الكتاب في أول عصور الاسلام حتى العصر الاموي ، فأدخلت عليه حكومة العباسيين ببغداد الكثير

من عبارات التلميح ، ويرجع السبب في ذلك الى رغبة موظفي الادارة ، وأكثرهم من غير العرب في إظهار شخصياتهم بارزة في تحرير لوائح والمكاتبات ، وهذا فضلا عن أثر الأدب الفارسي الذي كان قد بدأ ظهوره في هذا العصر ، ووصل هذا الأسلوب المنمق الى أعلى درجاته في رسائل ابراهيم بن هلال الذي يرجع أصله الى القبائل الوثنية القديمة بالشام ، وبقي طوال أيام حياته أمينا على عقيدة آباءه ، ولكنه تمكن بالرغم من ذلك أن يسدج في حياته الادارية بغداد حتى وصل الى مرتبة رئيسية في إدارة الشئون الخارجية ، إلا أن عدم استقرار الأحوال السياسية في القرن الرابع من الهجرة كان سببا في اضطراب حياته ، فانه لما كان في خدمة عز الدولة لم يسلم من عداه منافسه عضد الدولة ، فلما تم له فتح بغداد عام ٣٦٧ هـ أمر بأعدامه ، ولكنه اكنى بسجنه مؤقتا ثم عاد فعفا عنه وطلب اليه أن يضع مؤلفا في تاريخ أسرته على ما يشتهي ، إلا أنه لم يجد في نفسه ما يحجب اليه هذا العمل ، وصرح بعدم ارتياحه اليه ، فوقع نائية في العداوة مع الأمير ، ولم يجد بدا من الحرب مخافة اصطهاده ، وتوفي وهو في أشد حالات العاقة والبؤس عام ٣٨٤ هـ . ولا تزال بعض مؤلفاته باقية حتى العصر الحاضر ، وفي مقدمتها مجموعة رسائل سياسية ذات قيمة تاريخية هامة ، ولو أن المؤلف لم يمن بنشرها إلا لأسلوبها .

ومن ثم بدأت المحسنات اللفظية ذات الأسلوب الضخم والتعصيرات الزانة تدخل في الأدبيات فتمازها بالالفاظ والمبارات المنمقة . ولقد علمتنا الأبحاث اللغوية أن القرن الرابع من الهجرة كان يذخر بالمواد التي أظهر فيها المؤلفون حذقا ومهارة قائمة في المناوشات الأدبية ، ويرجع الفضل الى أبي بكر الخوارزمي في إظهار مثل هذه المناوشات في صورة رسائل أدبية الى شخصيات حقيقية أو مستعارة ، وإعطائها أهمية أدبية تستحق الذكر ، ولد أبو بكر الخوارزمي عام ٣٢٣ هـ من أبوين فارسيين — وكانت أمه أخت الطبري المؤرخ المعروف — بدأ حياته العلمية بدراسة العلوم اللغوية ، واشتغل في بيوت أمراء البلاد الاسلامية الشرقية ، فظهر أولا في بلاط سيف الدولة ، ثم هند بعض أمراء الفرس ، واستقر أخيرا في نيسابور ، ولكنه تمكك بأشعاره على الوزير العتيبي فأمر بسجنه وصادر ماله ، إلا أنه تمكن أخيرا من الهرب الى جرجان ، ولما قتل العتيبي رجع الى نيسابور وأعيدت اليه أمواله ، وتوفي بها عام ٣٩٣ هـ بعد أن رأى ظهور الحمداني وتفوقه عليه .

امتاز الحمداني عن سبقه بأنه جمع بموهبته الفذة بين الفسكاهة في الالفاظ والخيال المبتكر والتصوير الرائع ، فتمكك من ملء هذا الضرب الأدبي الحديث بمواد جديدة مبتكرة ، وبذا كان مبتكرا لظم المقامات ، ولو أن المقامات كانت معروفة في الأدب العربي منذ عهد بعيد بصورة أحاديث جديدة أو فسكاهية تدور بين شخصيتين امتازتا بناحية خاصة يستعملها المؤلف لبيان

معارف القدماء ، أو لاستخدامها في الوصول الى أغراض خلقية أو تهذيبية ، ولكن الهمداني كان أول من طبعها بطابعها الخاص التي عرفت به بعد ذلك في الأدبيات الإسلامية بل وعند مسيحي الشام ويهود الاسبان ، ثم وصلت الى الأدب الأوربي . تمكن الهمداني أن يخلد صورة واضحة عن الحياة الأدبية المشرقة في عصره في شخصية أبي الفتح الاسكندري الذي جعله يحيا حياة ملائكي بالمغامرات والمفاجآت ، وأطلق لسانه بالحكم والمواظ الطريقة مما يشهد له بموهبته في الاشكار وغزارة مادته اللغوية ، ومهارته الفائقة في السيطرة على أصاليب الحديث ، فاستحق بذلك لقبه « بديع الزمان » الذي اشتهر به في تاريخ الأدب العربي . ولد بديع الزمان بهمدان ، وأتم دراسته بها ، وبدأ بالنجوال عام ٣٨٠ هـ . وتقابل في نيسابور مع الخوارزمي فكان منافسا له منتصرا عليه ، ثم تنقل بين أمهات المدن في بلاد الفرس ، وتوفي عام ٣٩٨ هـ ولم يبلغ من العمر سوى أربعين عاما .

ولقد استفاد النثر في أدبيات اللغة العربية في هذا العصر كثيرا بما عرف عن العرب منذ عبور الوثنية الأولى من مواد ، وتضاعفت هذه المواد بفصل المؤثرات الحسية والظروف الملائمة التي كانت تلازم حضارة المدن وثقافة العمران ، وكان العرب منذ القدم يعرفون الكثير من قصص الأبطال الدائمة ببلاد الفرس ، لما كانت تربطهم بهم العلاقات التجارية خصوصا من عهد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل وكثيرا ما كانت تروى هذه القصص على لسان المسكين النضر بن الحارث الذي أقام زمنا غير يسير بالحيرة ، وكانت سببا في اضطهاده لما قد عسى أن تثيره من مفاصلة أو منافسة لقصص الدينية التي جاءت في سيرة رسول الله (١) ، ولكن ما لبث أن ازداد الاهتمام بهذه المواد بعد أن تم لغرب إخصاع الفرس واختلاطهم بهم ، واستمر الاهتمام بها آخذًا في الازدياد ، وكلما ازداد نفوذهم في الحياة السياسية والفكرية خصوصا أثناء حكم العباسيين ، حيث بدأ الشعبان يشعران بمحاجتهما الى التقرب بعضهم الى بعض لطريق التفاهم الأدبي .

وكان البرمكيون — وهم وزراء ورجال الحكم من الفرس في ظل حكومة العباسيين — أول من اهتم بتشجيع نقل قصص البطولة الدائمة في الأدب الفارسي الى اللغة العربية ، وكانوا يعمدون بذلك الى شاعرهم المعروف اللاحقي ، فقام بنقل القصة التاريخية « اردشير وأنوشروان » الى الشعر العربي ، كما قام بترجمة شعرية لقصص عديدة هرفت في أواسط بلاد الفرس مأخوذة من حكايات الهندونم انتقلت في القرون الوسطى حتى ذاعت في جميع الأدبيات العالمية ، وأشهرها كليله ودمنة وسندهاد البحري .

(١) مجلة الأزهر — حادثة الاستناد بروكايين عن النضر بن الحارث توهم انه كان من المسلمين واضطهد بسبب آرائه في بطولة الفرس . والحقيقة ان النضر هذا كان من علاه للتركين بمكة ، فكان يلحق شهاب فريش الشعر في هجومه على المسلمين ويبلغ في احادار ابطال المعجم مما كسبه قد عودا الإسلامية فأسرى وقعة بدر وقتل .

ولكن هذه التراجم الشعرية لم يكن لها في الحياة نصيب كبير ، فاختفت سرىما بعد ظهور التراجم النثرية الرثة التي وضعها ابن المقفع ، فكاتت في مقدمة المؤلفات النثرية في الأدب العربي ، وابن المقفع فارسي الأصل وقد نشأ على دين آباءه الزورواستري وبقي مخلصا لعقيدته سرا بالرغم من دخوله الاسلام (١) وقد أقام بالبصرة على علاقة وثيقة بالخليل مؤسس العلوم الاغوية العربية ، ولكنه اغضب الخليفة المصور بالتحيز الى العلويين فامر بإعدامه عام ١٤٠ هـ ، وأشهر أعماله ترجمة كليلة ودمنة وهي مجموعة القصص الهندية ليبيدا ، وامتازت بأسلوب رشيق فكثرت تداولها ونقلها فلم تصل الى أيدينا إلا بعد تحريف كبير .

ولم يبق الكثير من مؤلفات هذا الكاتب الكبير ، ولو أنها عرفت من الإشارة اليها في بعض فقرات في مؤلفات المتأخرين من الكتاب ، وأكثر هذه المؤلفات كانت ترجع الى القصص الفارسية في البطولة والابطال التي تستند اليها أيضا أنشودة الفردوسي .

ولقد ضاعت كذلك مؤلفات موسى بن عيسى الكسروي الذي كان ينسج من نفس هذه المواد موضوعات نثرية هامة ، جاء ذكرها في مؤلفات الجاحظ ، واليه تمزى قصة سندباد التي أخذت من الرواية الاغريقية .

واهتم غير هؤلاء كثير من الكتاب بالقصة الفارسية ونقلها الى النثر العربي ، وهي وإن ضاعت أصولها أو اختفت أسماء ناقلها من الكتاب المترجمين ، إلا أنه يسهل الاستدلال عليها من مؤلفات غيرهم من العلماء والمؤلفين ، وعلى الأخص الفقيه الشيعي محمد بن بابويه المتوفى عام ٣٨١ هـ فإن كتابه في الأخلاق قد استشهد بالكثير من هذه القصص الفارسية التي نقلها الكتاب النثريون في هذا العصر .

ولم يكن اهتمام المؤلفين بالقصة الاجنبية يباحث على إهمالهم المواضيع القومية ، فان كل ما كان تدور قديما من أحاديث في خيام العرب أو الى جوار موافدهم كانت تجري به ألسنة المحدثين في المدن ودوائر الخلافة ، ولو أن صناعة القصة كانت تضطر الرواة الى إدخال بعض التغيير والتحريف ، وبذلك نشأت في هذا الميدان الأدبي فئة جديدة لاحتراف السمر الذي كان حراً طليقا في أول الأمر في الصحراء ، فوصلنا من أخبار هؤلاء المحدثين الذين احترقوا سمر المساء في بلاط العباسيين الشيء الكثير ، ولم يحمل بعضهم منذ بدء ظهورهم تسجيل مواد حكاياتهم ، فبقى الكثير منها في الأدبيات العربية حتى الوقت الحاضر ، أهمها كتاب خالد بن صفوان يحدث الخليفة أبي العباس .

« يقع »

(١) بحلة الأثر — كلال ابن المنعم محو سيما اسم . وقد ذكر مؤلفو السير للسليبي أنه كان متبعا في دينه وقد قتل لا من جراء هذه التهمة ، ولكن لاعتبارات سياسية كما اعترف بذلك بروكلمان نفسه .

تقرير بعثة الهند

— ٣ —

المسلمون في الهند

حاطم الدينية وتفرقهم الى مذهب وشيع

وقف الاسلام على حدود الهند بعد أن فتح بلاد السند وبلوخرستان على يد محمد بن القاسم النقي ، ولم يتطرق المسلمون الى داخل الهند إلا تجاراً مدة من الزمن .
وأول من فتح بلاد الهند من المسلمين هو عيين الدولة وأمين الملة « محمود بن سبكتكين الغزنوي » ؛ فقد طرق بلاد الهند بمجد وافر من الممرات التي تصل الهند ببلاد الأفغان اليوم ، فكان في ذلك مظفراً منصوراً ، ثم استمر خلفاؤه يغيرون على البلاد الهندية ويفتحون فيها ، ثم جاء الى الهند ملوك من المغول تغذوا الى تلك البلاد من ناحية كشمير ، والسابوا فيها وصاروا ساداتها ، ولكنهم ساروا على عادة الملوك المسلمين من ترك الأمم وما يدينون ، فلم يقهروا الوثنيين على الاسلام ؛ وكانت اللغة الفارسية لغة البلاط المغولي ، وأما سائر المسلمين فكانوا يتكلمون لغة « الارو » ، أي لغة المسكر ولم يطل العهد بالمسلمين في بلاد الهند حتى دبت فيهم عقارب الخلاف والنمصب المذهبي ، وما زالت هذه العوامل تعمل عملها حتى أصبحت بلاد الهند اليوم معرضاً لطوائف المسلمين المختلفة ، وقد تبع اختلافهم تخاذلهم وعداوة بعضهم لبعض .
ولو شئنا أن نصور حاطم تصويراً يقرب من الواقع ، لقلنا إنهم ينقسمون بصفة عامة الى أهل سنة ، والى شيعة .

أهل السنة :

فاما أهل السنة فهم : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والكرثة المطلقة للحنفية . وأهل المذاهب الثلاثة بينهم نزاع ، كل ينتصر لمذهبه وينمصب له .

- ١ — أصحاب القرآن : وقد تفرع من أهل السنة جماعة نشروا على المذاهب ، وقالوا : نحن أصحاب القرآن ؛ وهم لا يقرون إلا بما صرح به القرآن ، وقد أهملوا ما جاء به الحديث .
- ٢ — أهل الحديث : ومن أهل السنة جماعة نشروا على المذاهب الأربعة هم أهل الحديث ، وهم لا يقلدون الأئمة ، وإنما يأخذون أحكام الدين من الكتاب والسنة مباشرة ؛ وقد كان زعيم هذه الفرقة المرحوم « حسن صديق خان » . ورأينا من أتباع هذه الطريقة الشيخ « خليل ابن محمد الخرجي » ببهبال ، و « مولانا آيا الوفاء ثناء الله » في أمر تسار ، وهو يصدر مجلة

تخصصت لهذا المذهب والدفاع عنه ، ولكنه يألم من تفرق المسلمين وتمايزهم في الدين ؛ ومنهم أيضا السيد « عطاء الرحمن » صاحب مدرسة أهل الحديث الرحانية بدهلي .

الشيعة :

أما الشيعة فهم أقسام ، منهم :

(أ) الاثنا عشرية : وإمام مسجدكم في بومباي الشيخ محمد حسن ، وهو أيضا ممن يأسفون لتفرق المسلمين ؛ وينتمى الى هذه الطائفة أغلب أهل إيران والعراق ، كما ينتمى إليها كثير من أهل أجرا ولكنو ، وهم لا يخالفون بقية المسلمين ؛ ولهم في لكسو مدرسة تسمى مدرسة الواعظين ، سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

وتقول هذه الطائفة بانحمار الخلافة في علي ، ثم في ابنه الحسن ، ثم في الحسين ، ثم في علي زين العابدين ، ثم في علي الباقرين علي ، ثم في جعفر الصادق بن عبد الباقر ، ثم في موسى الرضى بن جعفر ، ثم في علي الرضى بن موسى ، ثم في الجواد بن علي الرضى بن موسى ، ثم في الحسن العسكري ، ثم في علي بن الحسن العسكري ، ثم في الامام المنتظر علي بن الحسن العسكري . وهم يقولون بنفضيل علي بن علي سائر الصحابة ، كما يقولون إن أبا بكر و عمر وعثمان كانوا غاصبين للخلافة ، ويقعون فيهم .

(ب) البهرة : وهناك شيعة أخرى يقال لهم « البهرة » أو « البواهر » وهم الاشعاعيلية ، وينقسمون الى قسمين :

الاول : البهرة السليمانية ، وهم أتباع « أغاخان » وهم في الهند وزنجبار والشام ، ولا يعرف أهل الشام منهم بالبهرة ، إنما هم اشعاعيلية ؛ وهم بقية من الطائفة التي كانت تعرف بالقدائيين (الحشاشين) قديما .

وعندهم أن « أغاخان » مقدس وما يحسه من إناه أو غيره يصير مقدسا ، ويتذافرون في اقتنائه ، وله على أتباعه إتاوة ، ولا يردون له أسرا .

والثاني : البهرة الداودية ؛ وهم أتباع « مولانا طاهر سيف الدين » ، ويقومون ببومباي وكراتشي وجبل حراز بالبلخ وبعض جهات زنجبار ؛ ومولانا طاهر سيف الدين صاحب كلمة نافذة عليهم ، وهو عندهم معصوم لا يخطئ ، ولا يسأل عما يفعل . وهو يدير أوقاف الفرقة ويتصرف فيها كيفما شاء ، وله على أتباعه إتاوة معينة ؛ والبواهر يسهمون له في ميراث السموات ، وهو — في فرقته — حاكم متين قل أن يوجد مثله .

السلفيون :

ومن الفرق الاسلامية في الهند السلفيون أو الوهايون . وينظر إليهم أهل الفرق الاخر

شزراً ويكفرونهم ، كما أن الوهابيين يكفرون كل من يقول بجواز التوسل أو الاستغاثة
بمكان القبور .

الأحمدية :

وممن جماعة الأحمدية ، أتباع « مرزا غلام أحمد القادياني » ، وهم فريقان :

١ - فريق يقول إنه رسول يوحى إليه ، وإنه المسيح الموعود بدون تأويل ، وإن
من شك في صحة نبوته ورسالته ومسيحيته كافر ، وإنه قد ألقى الجهاد وأوجب طاعة الحكام
- ولو كانوا غير مسلمين - ومن فعل غير ذلك فهو غير مسلم ولا نجاة له في الآخرة ،
وهؤلاء هم المعروفون بالقاديانية .

٢ - وفريق آخر يقول إنه كان مجدداً مصلحاً ، ولم يكن نبياً بالمعنى الاصطلاحي
قنوة ، ولكنه ملهم محدث ، وإنه كان يتبع دين الإسلام وتعاليمه ، أما النبوة التي ادعاه
فهي النبوة المجازية ، ومع ذلك فلم يكن يتمسك بها ، أما الجهاد فانه أبطله بالمعنى الذي يعرفه
الامة ، وهو أن يخرج الرجل فيقتال المخالف له في غير حرب على سبيل القدر والحياة ،
كما أطل الجهاد الذي يخرج فيه الرجل دون عدة ، وهؤلاء هم الأحمدية اللاهورية .

ومن أعظم خصومهم « السير محمد إقبال » فانه يتهمهم بعدم الاخلاص السياسي .

أثر الاختلاف وحقيقته :

ومع كل هذا الاختلاف بين طوائف المسلمين ، فان زعمائهم فيهم آمالاً كباراً ، فقد قال
ابن الزيم « محمد علي جناح » : إن هذا الخلاف الواقع بين هذه الطوائف ليس إلا ميراً
تاريخياً ورفوه عن آرائهم ، وعن الدعاة الذين أدخلوهم في الدين الاسلامي ، ولكن إذا جد
الجد كان المسلمون يدا واحدة على من سواهم .

والذي نلاحظه أن هذا التفرق الديني بين طوائف المسلمين له اثر غير محمود في حالهم
الاجتماعية والعملية والثقافية ، ذلك بأن تفرقهم بمعهم من أن يتعاونوا على البر والتقوى ، فلا
تعد طائفة من هذه الطوائف يدا الى عمل خيري تم به طائفة أخرى ، مما قد يكون محتاجاً
الى تعاون الأيدي ، والبذل بسفاه .

فلا تشترك هذه الطوائف في مستشفى يعالج الفقراء . ولا في معهد علمي يتقف فيه أبناء
المسلمين تثقيفاً طالياً فيخرج قادة الفكر وأهل الزعامة ، بل يعيش كل فريق في محيط وأفق ،
لا يضآن سواه .

ولو أنهم كانوا يداً واحدة على من عداهم ، متعاونين على البر والتقوى ، متجنبين الامم
والعدوان ، لكان لهم شأن غير ما نرى .

ولم يبعد عن الصواب من يقول : إن هذه الحال تحول دون تشجيع (الهندوس) على دخولهم في دين الاسلام .

الحال الملمية والثقافية :

ما يزال الهند بلدًا متأخرًا في التعليم العام ، إذ أن نسبة من يعرفون القراءة والكتابة — ممن فوق الخامسة سناً — لا يتجاوزون ٨٠ في الألف ، وفق الإحصاء العام لسنة ١٩٣١ ؛ على أن السنوات الأخر كانت سنوات نشاط في ميدان العلم بين كافة البيئات .

وفيما يلي بيان بنسبة التعليم بين البيئات المختلفة على ما كانت عليه سنة ١٩٣١

٢٩٠	في الألف بين البارسي	وهم يبلغون	٤	في الألف من عامة السكان
٢٨٠	» » »	المسيحيين	»	» » » ١٨
٩٠	» » »	السيخ	»	» » » ١٣
٩٠	» » »	البوذيين	»	» » » ٣٧
٨٠	» » »	الهندوس	»	» » » ٩٨٥
٦٥	» » »	المسلمين	»	» » » ٢٢٥

ومما يلاحظ أن نسبة التعليم بين المسيحيين كبيرة فوما ما ، نظراً إلى أن جمعيات التبشير المسيحية تعنى بنشر التعليم بين البيئات التي تدعوها إلى اعتناق الدين المسيحي .

أما نسبة التعليم بين الهندوس — على ما هي واردة في الإحصاء السابق الذكر — فإنها أقل من نسبة التعليم بين الطبقات المتوسطة والعليا من أصحاب هذه الديانة ؛ وذلك لأن الإحصاء قد جرى على اعتبار المنبوذين هندوساً ، في حين أن التعليم بين المنبوذين منوط جداً ، فهم لا يقبلون عليه قليلاً ولا كثيراً ، وذلك لعاملين :

العامل الأول : هو أن الأحوال المتعاقبة من هؤلاء قد نشأت على الآلية ، وقليل من أفلت في الماضي من زمامها .

العامل الثاني : هو شعور المنبوذين أنفسهم أنهم أحط درجة ، بل درجات ، من غيرهم من أبناء البلاد ، ولذلك إذا أرسل أبناؤهم إلى المدارس ، فإنهم يعانون آلام « النبذ » داخل جدران المدرسة .

لذلك عنيت بعض الحكومات الاقطاعية أخيراً — كما عنيت بعض حكومات الهند — بإنشاء مدارس خاصة لتعليم أبناء المنبوذين ، كما قامت بعض الجمعيات التبشيرية المسيحية ، والتبليغية الاسلامية ؛ وغير ذلك ، بإنشاء مدارس خاصة لهم .

على أن القاعدة ليست مطردة في كل مكان ، فقد شاهدنا — في (واردا) مثلا — مدرسة يعلم فيها أبناء الطوائف جميعا ، على قدم المساواة ، لافرق بين مسلم وهندوسي ، ولا بين هندوسي من الطبقات العليا ومنبوذ .

ولكن هذه نهضة حديثة يراد بها إلغاء الفوارق بين أصحاب الديانات المختلفة ، وكذا بين الطبقات المتباينة من أصحاب الديانة الواحدة .

مراحل التعليم :

هذا وتنقسم مراحل التعليم في الهند الى الأقسام الآتية .

(أولا) التعليم الابتدائي : وهو يضاف التعليم الأولي وصدر التعليم الابتدائي بمصر ، ومدته خمس سنوات ، منها سنة تحضيرية والمدارس الابتدائية بالهند منتشرة انتشاراً كبيراً لا يقابلها إقبال من جانب الوطنيين على التعليم ؛ والحكومة والهيئات يحدون في تشجيع الآباء على إرسال أبنائهم ويناتهم الى هذه المدارس . وإذا كانت الإحصاءات الأخيرة قد كشفت عن الإقبال على هذا النوع من التعليم — ولو الى حد ما — فإنها كذلك قد سجلت ميلا من جانب الطلبة الى ترك هذه المدارس قبل إتمام تعليمهم ، يؤيد ذلك أن نسبة الطلبة في السنة التحضيرية تبلغ ٣١ ٪ تقريبا من مجموع الطلبة ، في حين أن نسبتهم في السنة الأولى لا تزيد عن ١٧ ٪ . أي ان عدداً يبلغ ١٤ ٪ تقريبا من الطلبة يترك المدرسة بعد السنة التحضيرية .

ويعزو ولاية الأمر هذه الظاهرة الى عوامل اجتماعية واقتصادية ، ولكنهم لا ينكرون أثر الروح المدرسية في هذا التغير ، فقد ورد في تقرير إدارة المعارف في بومباي أن بعض العلة في هذا النفور يرجع الى أن فصول السنة التحضيرية مكتظة بالطلاب ، ومدرسيها يكونون غالبا من أضعف المدرسين — من حيث مؤهلاتهم — ومن أقلهم دراية بأصول التربية ، ولذلك يسهو الإطعام من المدارس ، ويجدون في أولياء أمورهم استعداداً لاخراجهم منها .

ولا يغوتنا في هذا المقام أن نذكر أن إقبال البنات على هذا النوع من التعليم ضعيف جداً ، إذ أن نسبة البنات في هذه المدارس الى مجموعهن ، لا يتجاوز نصف نسبة الذكور الى مجموعهم ، ويرجع ذلك الى تقاليد البلاد الآخذة بعدم ضرورة تعليم البنات ، وهي تقاليد يؤسفنا أن نقرر أنها شائعة في الشرق . ويقل عدد التلميذات كلما تقدمن في سنى الدراسة ، ويرجع ذلك الى نظام الحجاب المبكر في الهند ، والى نظام الزواج المبكر .

والمدارس الابتدائية منتشرة في الهند ، على الرغم من قلة الإقبال عليها ، ومن قيام مشكلة تعترض نشر التعليم المدرسي في البيئات الريفية ؛ وهي تباعد القرى مع قلة عدد سكان كل قرية ، هذا الى اختلاف جوهرى في العقائد ، قد يمنع أساء القرية الواحدة من الانسحاب الى مدرسة

واحدة ؛ تضاف الى ذلك مشكلة المنبوذين المنتشرين في كل مكان ، بحيث كان لزاماً أن تنشأ لهم مدارس خاصة لتعليم أبنائهم .

وقد قامت حكومة بومباي بتجربة جديدة : هي محاولة الجمع بين أبناء المنبوذين وغيرهم في مدرسة واحدة ، معتمدة في ذلك على أن التعليم لا يجوز أن يفرق فيه — بين الطبقات — هذا التفريق الحاد المألوف ، وإذا استظنا أن نقرر أن التجربة قد نجحت في قليل من الامكنة ، وجب علينا في الوقت ذاته أن نقرر أنها فشلت في الكثرة الغالبة من المدارس . وقد ضرب مفضل التعليم في بومباي لذلك مثلاً بعدد غير قليل من المدارس ، أجرى فيه هذه التجربة فنظر طلبة المدرسة الاصليون ، بحيث إن المدرسة التي كانت تحوى مائة تلميذ لم يبق فيها أكثر من خمسة عشر تلميذاً .

ولوأسلت الهيئات التعليمية نفسها للتقاليد ، لوجب أن ينشأ في القرية الواحدة — التي يحتل ألا يتجاوز عدد سكانها خمسمائة نفس مثلاً — مجموعة من المدارس لا يقل عددها عن ثلاث : واحدة للهندوس ، وثانية للمسلمين ، وثالثة للمنبوذين .

هذه هي بعض العمال في عدم الاقبال على التعليم في الهند ، حتى في أولى مراحلها ، وهي مرحلة التعليم الابتدائي .

ويجوز لنا ان نسجل في هذا المقام ضعف إقبال المسلمين على التعليم في هذه المرحلة ، وكذلك مايلها من المراحل ، ذلك بأن إحصاءات مقاطعة بومباي مثلاً قد دلت على أن ١٤٨ في الألف من البراهمة (الطبقة العليا من الهندوس) ينتسبون الى المدارس الابتدائية ، يقابلهم ٢٨ في الألف فقط من المسلمين ، كما يؤسفنا أن نقرر أن ذلة الاقبال على التعليم بين المسلمين ، لا تعادلها بل لا تقاربها إلا ذلة الاقبال عليه بين الطبقات المتوسطة والدنيا من الهندوس ، بما في ذلك المنبوذون ، وقد كانت هذه البيئات الثلاث سبباً في ضعف النسبة العامة للتعليم ، بحيث كانت ٤٣ في الألف فقط في هذه المقاطعة .

(ثانياً) التعليم الثانوي : وهو يضاهي التعليم الابتدائي وصدر الثانوي بمصر ، وعدد سنواته أربع ، ويسمى بالتعليم المتوسط (Middle School) ، وهو المرحلة التالية للتعليم الابتدائي ، ويعتبر تمكلاً له ، ينطبق عليه من القواعد ما سبق لنا أن قررنا في الكلام على التعليم الابتدائي . ومن أوضح ما يلفت النظر ، ضعف الاقبال على التعليم الثانوي ، فإذا أخذنا إقليم بومباي مثلاً ، وجدنا أن نسبة التعليم الثانوي فيه ، لا تتجاوز ٦ في الألف ، يقابلها ٤٣ في الألف للابتدائي ، وهو بين البراهمة بنسبة ٣٨ في الألف ، مقابل ١٤٨ في الألف في التعليم الابتدائي ، وهو بين المسلمين بنسبة ٥ في الألف ، مقابل ٢٨ في الألف في التعليم الابتدائي .

من ذلك يتضح أن نسبة « ترك المدارس » بين الابتدائي والثانوي واضحة في المسلمين أكثر مما هي في البراهمة .

وإن من المحزن أن نقرر أن هذا الامتاع يصحبه أن الحكومة لا ترضى على البيئة الإسلامية بتشجيع الإقبال على التعليم ؛ فقد حفظت للمسلمين نسبة مئوية خاصة من الأماكن في المدارس ، هي من حقهم كالمطلوب ، كما أنها تقبل ٥ ر ٢٢ ٪ من أبناء المسلمين بالمجان في المدارس الثانوية ، وهذا عدا منافع التفوق التي يصرف عليها من ريع الأوقاف التي رصدها عظماء المسلمين في الهند لتشجيع التعليم بين المسلمين ، وهي أوقاف طائلة ، نذكر منها بعضاً مما يخص المدارس الثانوية في إقليم بومباي على سبيل المثال :

١ — وقفية السير محمد يوسف ، ومقدارها ١٨٠٠٠ جنيه مصري تقريباً ، يصرف منها على ٢٦ طالباً ، بمعدل ٣٠ رويية (٢٢٥ قرشاً) للطالب الواحد في كل شهر .

٢ — وقفية قاضي شهاب الدين ، ومقدارها ١٠٥٠٠ جنيه مصري تقريباً ، يصرف منها على ١٩ طالباً ، بمعدل ١٥ رويية (١١٢ قرشاً) للطالب الواحد شهرياً .

٣ — وقفية السير إبراهيم كريم بهاي ، ومقدارها ١٨٠٠٠ جنيه مصري تقريباً ، يصرف منها على خمسة طلاب في معهد العلوم المدني ، بمعدل ٧٠ رويية (٥٢٠ قرشاً) للطالب الواحد شهرياً ، و ١٢ طالباً بمعدل ٣٠ رويية (٣٢٥ قرشاً) شهرياً .

(ثالثاً) التعليم العالي : وهو بمنزلة النصف الثاني من التعليم الثانوي بمصر ، ومدته سنتان ، وتبلغ نسبة المسلمين الذين يتلقون هذا النوع من التعليم في يومئذ أربعة فقط في كل عشرة آلاف منهم ، يقابلهم ٥٩ في كل عشرة آلاف من البراهمة . وتنتهي هذه المرحلة من التعليم بالتقدم لنيل شهادة الماتريك Matriculation وتمتلى الجامعات عقد الامتحان لاجراز هذه الاجازة ، بحيث تعتبر امتحاناً للقبول بالجامعة .

(رابعاً) التعليم الجامعي : ويبتدى بدراسة سنتين للتخضير للشهادة المتوسطة المعروفة باسم Inter Mediate . وبعد ثلاث سنوات آخر يتقدم الطالب لنيل درجة بكالوريوس علوم ، أو بكالوريوس آداب ، أو ما عاقلها ، وتلى ذلك مرحلة تخصص مدتها سنتان ، ينال المتخرج بعدها شهادة الاستاذية في الحقوق L.L.B أو الآداب M.A أو العلوم M.Sc ولا تليها إلا مرحلة البحث العلمي ، التي ينال الطالب بعدها شهادة الدكتوراه في الفلسفة Ph.D أو العلوم D.Sc أو الآداب D.Lit .

وأخيراً — يسرنا أن نقرر أن عدد المسلمين الذين يواصلون دراساتهم الجامعية بمدنيل شهادة الماتريك ، هو في الواقع عدد مشرف ، يبعث على حسن الاعتقاد بمستقبل التعليم بين المسلمين ، بفصل إرشاد أولئك الذين تعلموا تعليماً جامعياً ، فأدركوا أثر التعليم في تحسين حال بيتهم . وقد دل إحصاء سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ على ما يأتي :

نال شهادة الماتريك ٤٧٧ طالباً
ونال الشهادة المتوسطة ١٠٥

ونال شهادة بكالوريوس ١٠٠ طالب

ونال شهادة الاستاذية ١٣ »

أى أن ٢١٨ طالباً من كل ٤٧٧ طالباً ، يواصلون دراساتهم الجامعية ، بنسبة ٥٢ ٪ .
وهي نسبة مبشرة واثقة للهند .

وتساعد الحكومة طلبة التعليم الجامعى على اخلاف ديانتهم مساعدة لها أثر محسوس ؛
ذلك بأنها تمنح في بومباى مثلاً مجانبات التفوق الآتية :

٤٠	مجانبة مع راتب قدره	١٥	روية شهرياً في كلية الآداب	لمدة أربع سنوات
٣	» » »	٣٠	» » »	الهندسة » ثلاث سنوات
١	» » »	٢٥	» » »	التجارة » ثلاث سنوات
٣	» » »	٢٥ و ٢٠	» » »	الحقوق » سنتين اثنتين

•••

هذا عرض سريع لحال التعليم المدني في بلاد الهند ، ومدى إقبال المسلمين على الأخذ به ؛
وقد حاولت البعثة تفرى الأسباب التى أوجبت قيام هذه الحالة المحزنة ؛ وإنا لموردون هنا
ما استطعنا الوصول إليه فيها :

كان المسلمون الى عام ١٨٥٧ سادة البلاد ، وما يزال الشعب الاسلامى في الهند يتغنى
بماضى مجده القريب ، كما لا يزال كثير من ساداتهم يحملون الى جانب أسمائهم الألقاب
الصفحة ، التى تدل على شرف المحتد ، والانتساب الى بيوت الملك ؛ ولكن كثير من عظماء المسلمين
بالهند ثروات ضخمة اكتفى بها غير المنفقين منهم عن تعليم أبنائهم ؛ وفى ذلك نجس من قدر العلم .
ومما يزيد الألم أن هذه الحال المحزنة بين المسلمين تقابلها حال تكاد تكون معادة
لها فى البيئات الهندوسية ، لا سيما فى الطبقة العليا ؛ إذ أدرك الهندوس قيمة العلم وأثره
فى الكفاح الحيوى ، وخاصة كفاح البيئتين الاسلاميه والهندوسية فى تلك البلاد .

صحيح أن أنظار المسلمين قد انحمت فى السنوات الأخيرة الى تثقيف أبنائهم ؛ ولكن
يخيل إلينا أن النشاط العلمى فى البيئات الهندوسية يغلب على ما يقابله من نشاط بين المسلمين ؛
بحيث يخفى (فى ميدان العلم قبل كل شئ) أن تكون الغلبة قريباً للهندوس ، فلا يثارهم
تفوقهم منازع .

ومما نجب الإشارة إليه أن نشاط الهندوس ، ورغبتهم الجدية فى التفوق ، لا تقتصر على
ميدان العلوم النظرية ، بل إنهم قد ضربوا بسهم وافر من النشاط فى العلوم العملية كذلك ،
ويظهر هذا النشاط واضحاً جلياً إذا ما وازنا بين نشاط جامعة عليكرة العلمى البحث ، وبين
نشاط جامعة بنارس ، الذى يمت الى العلوم العملية بصلة كبرى . (يتبع)

المطالب العالية في النفس الناطقة

وصلتها بالإنسان

نحدثنا في القراء إلحاما في عدد من أعداد هذه المجلة عن مبحث له من جلال الخطر وعظيم الأثر المقام الأول بين أصحاب نظريات العلم الإلهي وأصحاب العلوم الطبيعية بين مستبدلين ومعتبرين ومعتريين ومجيبين ومنبئين وناقين ، وأعلى به مبحث بقاء النفس بعد حراق البدن والحلله .

فمهور علماء الفلسفة الإسلامية وغيرهم على أن النفس باقية بعد فساد البدن فلا تنفى بفنائها ولا تنحل بالحلله ، فهم يرون أن هذه النظرية مدللا عليها مقامة على صحتها الصحيح والبراهين ، جزء غير منفصل من قسم الالهيات من ناحية ، والطبيعات من ناحية أخرى ، حتى إن ابن سينا في قسم الطبيعيات من كتاب الشفاء عرض للتدليل على صحة هذا الموضوع في بحوث متسلسلة الحلقات بأصدق البراهين مما سيحى عنه الكلام في موضعه في بحوث تالية . ومن تحصيل الحاصل القول بعدم وجود رأى إجماعى على ثبوت تلك النظرية ، فقد خالف في ثبوتها الأستاذ الطومسى وغيره من المشتغلين قضايا علوم النفس وأقيستها ، غير أن جمهرة الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم بسطوا القول جدا في التدليل على بقاء النفس بعد فساد البدن .

قال العلامة صاحب المقاصد مع تصرف في المبني واحتفاظ بالمبنى :

« ولما توقف تعلق النفس به على وجودها في نفسها كان ذلك الاستعداد منسوبا أولا وبالذات الى تعلقها وهو وجودها من حيث إنها متعلقة به . وثانيا وبالعرض الى وجودها في نفسها . وهذا الاستعداد من غير شك كاف لفيضان الوجود عليها متعلقة به من غير حاجة في ذلك الى استعداد منسوب أولا وبالذات الى وجودها في نفسها ليمتنع قيامه بالبدن ، فانها من حيث وجودها في نفسها مباينة له ، والشئ لا يكون مستعدا لما هو مباين له كما هو جلي ، وكما جاز أن يكون البدن محلا لاستعداد تعلقها به يجوز أن يكون محلا لاستعداد انقطاع تعلقها به ، ويتجلى ذلك الجواز بصورة واضحة في حالة ما إذا خرج المزاج الصالح عن أن يكون محلا لتدبيرها وتصرفها . لكن لما لم يتوقف انقطاع تدبير النفس على عدمها في ذاتها لم يكن هذا الاستعداد منسوبا الى عدمها في نفسها لا بالذات ولا بالعرض . وحيلته يظهر الفرق جليا لكل باحث بين استعداد الحدوث وبين استعداد عدم ، لأن استعداد الحدوث من ناحية واستعداد عدم من ناحية أخرى ، والشئ الواحد متى اختلفت جهته ارتفع عنه التناقض ، فيجوز أن يقوم استعداد الحدوث بالبدن دون الثاني » .

يبقى بعد ذلك أن الاستاذ الطوسي في بعض رسائله فيما حكاه المصنف قد ذكر على دليل القوم وصالح فيه وجال، وأورد تقييدات وعبهات ليس ردها بالمفادات المبيات، وإن كانت في واقع أمرها مجرد مغالطات، فقد عقب على أدلة القوم فقال: «ما لا حامل لا مكان وجوده وعدمه لا يمكن أن يوجد بعد عدم أو يعدم بعد وجود، فبما عجزنا الذين حكموا بحدوث النفس الانسانية ثم انقسموا في الوقت ذاته عن تجويز فنائها، فإن جعلوا حامل إمكان وجودها البدن فهلا جعلوه حامل إمكان عدمها أيضا، وإن جعلوها مادما حاملا لا مكان العدم كي لا يحوز عدمها بعد الوجود فهلا جعلوها لأجل ذلك بعينه مادما حاملا لا مكان الوجود فيمتنع وجودها بعد العدم في الأصل، وكيف سألهم أن جعلوها جسما ماديا حاملا لا مكان وجود جوهر متفارق مباين المدانيات؟ فلو جعلوها من حيث كونها مبدأ لصورة نوعية لذلك الجسم حاملا لا مكان الوجود، فهلا جعلوها من تلك الحيثية بعينها ذات حامل لا مكان العدم؟ وعلى الجملة ما الفرق بين الأمرين في تساوي النسبتين؟»

ونحنا الامام الرازي نحوا آخر في مناقبة دليل القوم متانة جعلت هذا الدليل في منعة لا ترقى اليها الشكوك والشبهات. فقد حكى في كتابه (الحصول) ما معناه: «لو جاز العدم على النفس لكان العدم مسبوقا بإمكان العدم لا محالة، وذلك الامكان يستدعي محلا، ويجب أن يكون المحل باقيا عند ذلك العدم، ضرورة أن القابل واجب الحصول عند وجود المقبول، والشيء لا يبقى عند عدمه بداهة، والمنطق السليم أن كل ما صح عليه العدم له مادة، فلو جاز العدم على النفس لكانت مركبة من المادة والصورة قطعا، وذلك يذهبى البطلان ضرورة أنها ليست من عالم الاجسام. وعلى هذا التقدير إذ نظر الى الجزء المادى مجده قير قابل لعدم، وإلا لافتقر الى مادة أخرى، ولا محالة ينتهى الى مادة لا مادة لها فيكون ذلك الشيء غير قابل للفساد والعدم، وهى جزء النفس، وجزء النفس لا يصح أن ينافى مقارنة الصور العقلية، وإذا كان ذلك الجزء من النفس الذى يثبت بقاؤه مجردا عن الوضع قابلا للصور العقلية كان ذلك الجزء هو النفس، فالنفس لا يصح عليها العدم».

وقال الشيرازى صاحب حكمة الاشراف في معرض سرد أدلة القوم على بقاء النفس بعد فساد البدن: «إن النفس لو انعدمت لكان انعدامها لانعدام سببها».

والاسباب أربعة: سبب فاعلى، وسبب مادى، وسبب صوري، وسبب فاعلى. وانعدامها لانعدام السبب الفاعلى مستحيل الوجود، فقد ثبت في موضعه أن السبب الفاعلى لها جوهر عقلى مجرد متفارق، وكل ما كان مجردا من جميع الوجوه امتنع عليه العدم. وانعدامها لانعدام السبب المادى مستحيل الوجود كذلك لما ثبت أن النفس ليست بمادية، وذلك لا يختلف فيه اثنان.

ومن المحال أن العدم ناشئ من السبب الصوري ضرورة أن الكلام في انعدام ذلك السبب الصوري هو بعبته في انعدام النفس ، فإن كان للعدم صورة أخرى لزم التسلسل الباطل .
ومحال أيضا أن يكون انعدام النفس ناشئا عن سبب غائي ، فيمتنع مع ذلك عدم النفس إطلاقا .
لكن الصور والأعراض هي التي يجري عليها العدم ، وذلك معقول لصحة جريان العدم على أسبابها القابلية والمادية ضرورة أن حدوثها يأتي تبعا لاختلاف الامزجة وتباين الاستعدادات ، والامر هنا ليس كذلك ، فنبت ما ذهب إليه القوم من التدليل على أن النفس باقية بعد حراب البدن .

بقي بعد ذلك أن المتقدمين من الفلاسفة والمناخرين تصافروا على أن هناك بمخبرين كل واحد منهما مستقل عن الآخر : فأما البحث الأول فهو بقاء النفس بعد حراب البدن وانحلالها ، وأما البحث الثاني فهو أنها لا تبقى بمجرد فناء هذا البدن .
فأما البحث الأول فهو ما عطينا بالكشف عن حقيقته وتفاريحه . وأما البحث الثاني فوجدنا بالكشف عنه مع ما قبله وما هو الحق فيه وما استقر عليه رأي الشيخ الرئيس وتابعه فيه الامام الفخر الرازي بحوث تالية ، إن شاء الله ، فالي نقد القريب .

عباسي ط

اعلان

نعلن إدارة مجلة الأزهر حضرات مشتركها في محافظة القاهرة وصواحبها وسدر الجيزة أنها قررت تعيين حضرة بديع القاضي أفندي وكيلها ومحصلا للمجلة في هذه الجهات فترجو من حضراتهم اعتمادهم وتسهيل مهمته .
وعنوانه ٨٠ شارع قصر الشوق — سيدنا الحسين — مصر

ونعلن إدارة المجلة أيضا حضرات مشتركها بمديرية بني سويف أنها قد اعتمدت حضرة محمود أفندي حسن القاضي وكيلها ومحصلا للمجلة بمديرية « بني سويف » وذلك بموجب إيصالات مطبوعة وموقعا عليها منا .

مدير مجلة الأزهر فترجو من حضراتهم اعتمادهم وتسهيل مهمته .

محمد فريد ومهدي

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم — لأبي محمد عبد الملك بن هشام .

إن أبا محمد عبد الملك بن هشام هو ثاني رجل في الاسلام وضع في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كتابا في القرن الثاني من الهجرة . وأما أول واضع لسيرة المحمدية فهو أبو عبد الله محمد بن اسحق بن يسار المتوفى على الأرجح في سنة (١٥١) . ومما يؤسف له أن سيرة ابن اسحق قد فقدت ولم يبق منها إلا ما استشهد به منها ابن هشام وغيره ، وعلى هذا فيمكن أن يعتبر كتاب ابن هشام هذا بأنه أول كتاب لسيرة النبوة .

ولسنا هنا في حاجة لأن نقول إن هذه السيرة تعتبر أثرا تاريخيا عظيما لمن يريد أن يتلمع سلسلة الروايات الى عهد قريب من النبوة .

وقد عني بمراجعة أصولها ، وضبط غريبها ، وتعليق حواشها ، ووضع فهارسها ، فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محي الدين عبد الحيد المدرس بكلية اللغة العربية ، فأجاد في هذه الأعمال التكميلية ، وجعل للكتاب ميزة على جميع ما طبع من كتب من السيرة من المؤلفات القديمة . وقد عني حضرة الأستاذ العلامة محمد حسين هيكل بك فوضع لها مقدمة جلية له تناسب قيمة الكتاب .

وقد أحسن فضيلة ناشره بإهدائه لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي ، فهو أجدر الناس به .

كتاب قيم في الاسلام :

اعزمت حضرة الأستاذ النابه عبد الرحمن العيسوي افندي صاحب مجلة (العالم الاسلامي) أن يشر كتابا في الاسلام تعترك في كتابته النخبة المفكرة من كبار المسلمين . وقد أطلعنا على أسمائهم وعلى عنوانات مقالاتهم ، فوجدنا ما كتبوه يعتبر أمن مجموعة علمية في موضوع الدين الحنيف من نواحيه الرئيسية ، لم يحنو على مثلها كتاب قبله .

وقد توج هذه المجموعة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي بمقدمة نقله المبدع ، فكان أمن تاج يوضع على رأس كتاب من هذا الطراز المبتكر .

وقد كنا نود أن تأتي على أسماء الاعلام الذين ساهموا في الكتابة فيه وعلى عنوانات كتاباتهم لولا أن المقام لا يتسع لذلك .

فلشكر حضرة الأستاذ العيسوي افندي على اجتهاده في استكتاب هؤلاء الفطاحل ، وليس فيهم إلا من اشتهر في الموضوع الذي تصدى له شهرة الاختصاصي في فنه .

العظات الدينية في الأمثال القرآنية :

ليس في قرائنا من لا يعرف الأستاذ الباب على فكرى أفسدى الأمين السابق لدار الكتب المصرية ، وليس فيهم من لم يطلع على بعض ما كتب . ولستأ في حاجة لأن نذكر أن كتب الأستاذ كلها ممتعة قيمة ولا تعدو الموضوعات التي لها اتصال وثيق بالدين والآداب العامة والأخلاق والحكم .

بين يديا الساعة كتاب جديد له أسماء (العظات الدينية في الأمثال العربية) موضوعه شرح الأمثال القرآنية ، والأمثال النبوية ، والأمثال العربية ، وهي مختارة من كتاب يجمع الأمثال للعبدانى مرتبة على حروف المعجم ، وبلى كل ذلك نبذة في الأمثال العامة ، مطبقة على الآيات القرآنية ، ومرتبة أيضا كسابقها على الحروف الأبجدية ، وطائفة أخرى من الأمثال العامة مطبقة على الأحاديث النبوية .

فهذا كتاب نفيس نضجه الى ما سبق من وضعه ، ونشئ على همنه بقدر ما يذل من جهده ، وارجئ الله له ثواب العاملين المخلصين .

الغرب يترجم آراء عالم مصرى :

ألف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طنطاوى جوهرى كتابا أسماه (أحلام في السياسة للنشر السلام العام) فنصدى لترجمته الى الانجليزية من العربية كاتب غربى من لوكسمبورج يدهى (كرسيتيان) وقد كتب فضيلة الأستاذ كتابا أخبره فيه بذلك ، قائلا إنه بعد أن يتمه سيرسل به اليه . ومما قاله فى كتابه : « إن كتابك عميق التفكير بعيد الغور ، وأما دأى التفكير فيها اشتمل عليه من المعارف العالية فى علوم الفلك والطبيعة والحياة » الخ .

وإننا مع انتظارنا لهذه الترجمة استحسننا أن ننوه بهذا الأمر إيدالا على أن فى أوروبا من الكتاب من تفتبهاوا الاقتباس من كتابات علماءنا .

معهد جديد في شبين الكوم

إن ما أفاضه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى على الجامعة الأزهرية من روح النظام والتجديد ، وما بثه في طلبتها من فضيلة التوفر على التحصيل ، والتنافس فيه ، وظهور ثمرات ذلك جنية ناضرة ، دفعت كثيرا من الشبان لورود هذا المنهل الروى ، فازدجت المعاهد الاقليمية بالطلاب ، وضاعت بهم الدور المتسعة ، فلم يكن هناك من وسيلة لتفريغ هذا الاكتظاظ إلا فتح معاهد جديدة ، وتعميمها في عواصم المديرية كلها سنحت فرصة لتنفيذ هذا البرنامج الحكيم .

يخيل لبعض المفكرين أن العائدة من تعميم هذه المعاهد الدينية لا توازى ما يتفق عليها من مال لكثرة المتخرجين في الدين في هذه البلاد ، واستداد أبواب العمل في وجود أكثرهم ، ولكن هؤلاء المفكرين ينظرون الى المسألة من أهم نواحيها ، أى من الناحية التى يشترك فيها المتخرج في الأزهر والمتخرج في الجامعة المصرية . فإذا صح قولهم هذا على أولئك صح على هؤلاء أيضا ، وتكون النتيجة المباشرة عدم فتح مدارس جديدة للثقافة العامة .

وقد أصابت أزمة العمل أوروبا وأمريكا فلم توصدا جامعاتهما ، ولم تحدا من عدد المنتسبين اليها ، بل جرتا على الاستزادة منها حتى أن الذين يجدون لهم عملا في الحكومة لا تبلغ نسبتهم الى عدد متخرجيها واحدا الى ألف .

ولكن لأن يصبح كل أفراد الأمة ذوى تربية عالية ، خير لهم من أن يبقوا على ما هم عليه من السذاجة العظيمة . فان الجمع بين الفافتين المقيمة والاقتصادية شر ليس بعده شر في العالم الانسانى .

خطب الدكتور محمد علوى باشا رحمه الله في الجمعية التشريعية فذكر في عرض الرد على من يقرحون الحد من عدد المتخرجين في العلوم العالية ، أن بواب العمارة التى كان يسكنها وهو طالب في فرنسا كان طيبا ، فكان فوق وظيفته يطيب بعض سكان العمارة في مقابل ٢٥ سنتيا (قرش مصرى) وكان أهل العمارة يحبونه ويحترمونه .

ولو كان بواب العمارة ممن نالهم حظ من الثقافة الدينية كان ذلك في مصلحة أولئك السكان وأساكنهم ، وليس بعباب على الرجل أن يعمل في أى عمل شريف ، وإنما العيب أن يمكث عاطلا ، والمطل لا سبيل إليه .

أما لا أقصد بهذا أن يتنزل أئمة الدين الى هذا الحضيض ، ولكن الذين يصلون الى درجة

البوغ منهم قد لا يحاوزون في السنة بضعة آحاد ، وهؤلاء ترفعهم مواهبهم الى حيث يتفق وفصلهم معها كانت الاحوال

وليس أعود بالغير على هذه الأمة وهي في ميعان هذه الفتنة الالحادية ، من نشر الثقافة الدينية بكل ما يصل اليه الامكان . وإن في النظام التعليمي الذي وضعه فضيلة المصالح لعظيم ، وفي البرنامج الشامل لجميع مقومات العقلية الانسانية ، ما يكمل أن يكون عماء الدين في مستوى يمكنهم من التفاهم مع كبر المتخرجين في الجامعات الاوربية في المسائل الخاصة بالمعتقدات .

فهذا التوفيق العظيم الذي يحدو فضيلة الأستاذ الامام ، في عهد حضرة صاحب الجلالة الفاروق الذي أمر الله به الدنيا والدين ، لما تسجله مجلة الارهر في أوجه صفحاتها في هذا الشهر الكريم .

مكتب هذا في مناسبة افتتاح معهد ديني جديد في شبين الكوم . وهذه خطبة شيخه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الغيور الشيخ عبد الجليل عيسى يوم الافتتاح :

نص الخطبة

إخواني العلماء ، أبنائي الطلاب :

في هذا اليوم السعيد المبارك إن شاء الله ، تؤمون لأول مرة هذا المعهد الجديد ، فهاهناكم وأرحب بكم زملاء وأنساء ، وأتوكل وإياكم على الله ملهم الصواب ، وأسأله أن يسدد خطانا ، وأن يوزقنا التوفيق الى ما يحبه ويرضاه .

وأستفتح هذا العام الدراسي باسم الله الرحمن الرحيم ، وأوجه إليه مخلصاً أن يكلاً برعايه حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الاول ، الملك الصالح ، الذي يؤدي حق الله عليه ، وينصب نفسه مثلاً على للرحل المؤمن التقى ، ولا يذحرو سماً في كل ما يرفع شأن الدين ورجاله ، وإنشاء هذا المعهد أيها الزملاء والأبناء ظاهرة من ظواهر تقواه ، وأثر من آثار حبه لدينه ، فليس من سبيل لاعلاء كلمة الدين ورفعة شأنه إلا أن يعلم ويتعلم .

أيها الزملاء والأبناء : من حسن حظ هذه الأمة ، ومن حسن حظ المسلمين قاطبة ، أن يتبوأ عرش مصر الآن الملك فاروق الاول ؛ ومن حسن الحظ كذلك أن يكون شيخ الارهر هو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي .

ملك ديني بطبعه ، يحب دينه ، ويقدر العاملين به ، وشيخ هو المثل الأعلى لرجل الدين ، في خلقه ، وفي مظهره ، وفي بوايه ، كل ذلك يفتح حتماً أن يأخذ التعليم الديني مظهره اللائق به ، فيرداد ، وينتشر ، ويتيسر .

وأمامكم إنشاء هذا المعهد المبارك ، في هذا البلد الطيب ، فانه خير دليل على هذا الحظ الحسن السعيد .

أيها الزملاء والأبناء : هذه مظاهر خالدة ، ونعمة كبرى ، تتوجه من أجلها بالحمد الى الله تعالى ، وبالشكر للعليك المحبوب ، وبالنساء على الأستاذ الأكبر . ولا يفوتني وأنا في هذا المقام أن أوه بما كان لحكومة جلالة الملك من فضل في إنشاء هذا المعهد ، وكذلك ما كان لمساعدة مدير الموقفية من الفضل الاكبر في تسهيل صعاب ما كان من الميسور التغلب عليها لولا ما بذله سعاده من جهود مشكورة موفقة .

والآن أحب أن أتهز هذه الفرصة لأتحدث اليكم في شأن من شئونا : ذلك أننا ونحن رجال دين ، يجب علينا أن نكون عند حسن ظن الناس بنا ، فنظهر بالمظهر اللائق برجال الدين ، ولا يصح أن نفعل عن أن أعين الناس تتجه اليها انجاسا خاصا ، لئلا مطالبون أن نكون مثلا صالحة فيما نقول ، وفيما نفعل .

فصهوا ذلك أمام أعينكم ، وليقبل الأستاذ بقلب مخلص على عمله ، والطالب بمجد ونشاط على درسه ، لا يشغله عن ذلك شاغل ، ولا يحول بينه وبينه حائل .

أيها الزملاء والأبناء : الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، كما أعرفه وكما يعرفه الناس جميعا ، رجل يدعو الى الخلق الكريم ، ويقول دائما : « في أفضل أن يبال الطالب نصيباً من الخلق أكثر مما يتال من العلم » . وذلك أن العلم وسيلة للخلق ، والخلق مقصد بذاته ، فكأنوا عند مرضاته ، وساعدوه في إنجاح رسالته ، تلقوا منه عطفا ، وتلقوا منه تأييدا .

وإني وقد شرفني الأستاذ الأكبر باختيارى لهذا المعهد الناشئ ، لن أخسر وسعاً في نشر تعاليمه ، وتبليغ رسالته .

سدد الله خطانا وخطاه ، ووقفنا وإياه لما يحبه ويرضاه .

صورة الرقية التي أرسلها فضيلة شيخ المعهد الى حضرة صاحب المعالي كبير الامماء :

حضرة صاحب المعالي كبير الامماء .

في هذا اليوم المبارك السعيد افتتح معهد شبين السكوم الديني ، وأمه مئات الطلاب ، فرحين مستبشرين بأول معهد ديني في عهد الملك الصالح ، داعين الله تعالى أن يكلاً بعين رعايته حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول ، جزاء على جميل رعايته لرحال الدين ، وشريف انجاسه الى نشر التعليم الديني ، مهذب النفوس ، وغذاء الأرواح .

ويشرفني أن أقوم بالأصالة عن نفسي ، وبالنسابة عن العلماء والطلاب ، برفع أسمى آيات

معهد جديد في شبين الكوم

الاخلاص والولاء وحالص الدعوات ، أن يحرس الله ذات الملك المحبوب ناصرا للدين وعرا له ،
وأنت يبقيه ذخرا وملاذا لشعبه المتمانى في حبه ، ولسائر الشعوب الاسلامية التي تعلق على
جلالته آمالا كبارا في الأخذ بيدها وإسعادها ؟ شيخ معهد شبين الكوم
فورد الى فضيلته الرد التالي من معالي كبير الامناء :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ معهد شبين الكوم :
أشرف بإبلاغ فضيلتكم وحضرات علماء المعهد وطلابه الشكر السامى على ما أعزبتم عنه
لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من الولاء والاخلاص وصادق التهنيتات بمناسبة
افتتاح المعهد ؟ كبير الامناء
وقد رأى فضيلة شيخ المعهد أن يرسل الى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء
هذه البرقية :

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء :
بمناسبة افتتاح معهد شبين الكوم الدينى اليوم ، أقدم لمقامكم الرفيع بالأصالة عن نفسى
وبالنيابة عن العلماء والطلاب أخلص الشكر على ما تعهدتم به هذا المعهد من الصاية حتى تم
افتتاحه فى مدة وجيزة ، مما يدل على جليل عنايتكم بالدين وأهله ؟
شيخ معهد شبين الكوم

وعزز فضيلته هاتين البرقيتين ثالثة أرسلها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وهى :
حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر :
بقلب يفيض بالسرور ، ونفس تتيسه بالفخر ، أرفع لفضيلتكم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة
عن العلماء والطلاب أخلص التهانى بافتتاح معهد شبين الكوم ، الذى هو ثمرة من ثمار برك العلم
والدين ، وأثر من آثار رغبتك الصادقة فى إعلاء شأن الأزهر والأهرين ، ورفع شأن الاسلام
والمسلمين ، بتمهيد سبل العلم وتيسيره .

وإن الله الذى خصك باخلاص ناصع ، وهمة وثابة ، وقلب عامر بأكبر الآمال لخير العلم
والدين ، هو الذى يتولى حراةك بما يحزى به عباده المخلصين ؟
شيخ معهد شبين الكوم

نشر الله الحجر الخفي

لماذا هو ملحد؟

إن انتشار العلوم الطبيعية ، وما تواضعت عليه الأمم المتقدمة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة لمفكرين في كل مجال من مجالات النشاط العقلي ، استدعت أن يتناول بعضهم البحث في العقائد ، فنشأت معارك قلمية بين المنتئين والسايفين تمحصت بسببها حقائق ، وتبينت سرائق ، وآمن من آمن من بيئة ، وألحد من ألحد على عهده .

ونحن الآن في مصر ، وفي بحبوحة الحكم الدستوري ، نسلك من عالم الكتابة والتفكير هذا المنهاج نفسه ، فلا نضيق به ذرعا مادامنا نعتقد أننا على الحق المبين ، وأن الدليل معنا في كل مجال نجول فيه . وإن هذا التسامح الذي يُدعى أنه من ثمرات العصر الحاضر ، هو في الحقيقة من نفعات الاسلام نفسه ، ظهر به أبأؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله . فقد كان يجتمع المتباحثون في مجلس واحد بين سني ومعتزلي ومشبه ودهرى الخ فيتجادلون أطراف المسائل المعضلة ، فلم يزد الدين حيال هذه الحرية العقلية بلاهية في النفوس ، وعظمة في القلوب ، وكرامة في التاريخ .

هذه مقدمة نسوقها بين يدي قد نشرع فيه رسالة ترامت اليها بعنوان : (لماذا أنا ملحد) ، نشرها حضرة الدكتور اسماعيل أحمد آدم في مجلة الامام الصادرة في أغسطس سنة ١٩٣٧ ثم أفردها في كراسة تكميلا للدعوة .

بدأ الدكتور رسالته بقوله : إنه ابن ضابط تركي محافظ على دينه وأمه مسيحية هي «ت البروفسور» واتهموا المشهور . ولما كان أبوه لاشتغاله بالحروب لم يتفرغ لتربيته ، كلف روح عمته أن يهيمن على تثقيفه ، فقام بذلك على أسلوبه ، حتى اضطره لحفظ القرآن .

قال الكاتب في هذا الموطن : « غير أني خرجت ساخطا على القرآن لأنه كلمني جهدا كبيرا كنت في حاجة الى صرفه الى ما هو أحب الى نفسي منه . وكان كل ذلك من أسباب التهميد لثورة نفسية على الاسلام وتعاليمه . ولكني كنت أجد من المسيحية غير ذلك فقد كانت شقيقتاي — وقد ثالثا قسما كبيرا من التعليم في كلية الامريكان بالآستانة — لا تتقلان على بالتعليم الديني المسيحي ، وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والانجيل

ليس صحيحاً ، وكانت تسخران من المعجرات ويوم القيامة والحساب ، وكان لهذا كله أثر في نفسي .

وبين سنة ١٩١٩ و ١٩٢٣ قرأ الدكتور كتاب دارون وخرج منه مؤمناً بالتطور ، ورجع والده الى الاسكندرية وأخذ يقول ابنه بالصلاة ، ويفرض عليه الاسلام والصلاة . قال الدكتور : « إنني ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة ، وقلت له إنني لست بمؤمن ، فأدروني أو من بالشوء والارتقاء ، فكان جوابه على ذلك أن أرسلني الى القاهرة ، وألقى فيها بمدرسة داحية ليقطع على أسباب المطالعة » كل هذا ولم تتجاوز سنة الرابعة عشرة

وفي سنة ١٩٢٧ غادر مصر وشخص الى تركيا والتحق بجامعة ، فدرس الرياضيات ، وأسس مع بعض إخواته جماعة لشر الاتحاد ، فكانوا يصرون نشرات في كل منها ٦٤ صفحة ثم التحق بجامعة موسكو وحصل منها على شهادة الدكتوراه في الرياضيات ، ثم حصل على دكتوراه في العلوم والفلسفة قال : « وكانت نتيجة هذه الحياة التي خرجت عن الأديان ، وتحليت عن كل المعتقدات ، وآمنت بالعلم وحده ، وبالملطق العلمي ، وأشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالاً ، وأكثر اطمئناناً ، من حالتي حينما كنت غالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني » .

المرور الى موضوع البحث :

قال الدكتور في رسالته :

« إن الأسباب التي دفعتني للتخلي عن الإيمان بالله كثيرة ، منها ما هو علمي بحث ، ومنها ما هو فلسفي صرف ، ومنها ما هو بين بين ، ومنها ما يرجع لبيئتي وظروفي ، ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية .

« وقبل أن أعرض للأسباب لابد لي من استطراد لموضوع إلحادي ، فأنا ملحد ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه . فاما لأفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف في إيمانه . نعم لقد كان إلحادي بداءة ذي بدء مجرد فكرة تساورني ، ومع الزمن حصت لها مشاعري فاستولت عايمها ، وانتهت من كونها فكرة الى كونها عقيدة . ولي أن أسأل : ما معنى الإلحاد ؟

« يجيبك لودفيج بنجر ، زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر : (الإلحاد هو الجحود بالله وعدم الإيمان بالخلود والارادة الحرة) . والواقع أن هذا التعريف سلبى محض ، ومن هنا لا أحد بدا من رفضه . والتعريف الذي أستصويه وأراه يعبر عن عقيدتي كله هو : (الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الوجود يتضمنه الوجود في ذاته ، وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم) . ومن مزايها هذا التعريف أن شقه الأول إيجابي محض ، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقم دليلاً على عدم وجود الله ، وشقه الثاني سلبى يتضمن كل ما في تعريف بنجر من معانٍ » . انتهى

نقول : إن قوله إن الأسباب التي دفعته للتجلى عن الايمان منها ما هو علمي ومنها ما هو علمي ، قول لا راه وجبها ، فقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نبي الصالح . وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات ، والحكم بوجود شيء أو نفيه عما وراءها إلا إذا كان له في تلك المحسوسات أثر يستهدى به .

والمحركة القانعة بين العلماء المثنين للصانع والنايين له ، تنحصر في أن الأولين يحتملون بوجود هذا الابداع التكويني والاستدلال به على وجود القدرة المبدعة ، وأن الآخرين يدعون بأن هذا الابداع سببه وجود نوااميس طبيعية منتظمة ملازمة للمادة تكفي لإيصال الكائنات في آمان طويلة الى هذه الدرجة العالية من الابداع ، دون الحاجة الى عقل مدبر سواها . وهذا كما لا يخفى موقف سلبي واهل يحتاج الأخذ به للاعتقاد على تمكيات افتراضية ليست من العلم في شيء .

وأما الفلسفة وهي تناول الأمور بالنظر والتفكير ، فهي كما تكون سببا في الالحاد تكون سببا في الايمان ، ناهيك أن أعلام الفلاسفة أكثرهم مؤمنون .

أما ما هو بين بين فيظهر أنه يريد به الخلط بين العلم والفلسفة ، كما يفعل أصحاب الفلسفة الطبيعية ، وهي لا تصح أن تكون مصدرا (لا يمين لحادي) ، لأن العلم الذي يستندون اليه لا يزال في دور التكمّل ، فقد كانوا يقولون بوجود حواهر فردة مادية ، واليوم ثبت أن المادة تنتهي لقوة . وكانوا يدعون أن الحواس هي أصدق المصادر للعلم ، وقد ثبت أنها لا تكفي لبناؤه على أساس متين . وقد كانوا يقولون بأن أساس الكائنات عناصر أربعة هي الماء والحرارة والهواء والبار ، ففوجئوا قبل نحو مائة وخمسين سنة بأن هذه الكائنات ليست بسيطة ولكنها مركبة ، وأن العناصر التي آلت اليها ربما كانت مركبة هي أيضا . من عناصر أبسط منها .

وكانوا لا يتخيلون وجود أشعة غير ما تتأثر به العين ، فاذا هم حيال أشعة تحترق الأجسام الصلبة ، وتعمل في الأجسام على المواد الشديدة التأثير . حتى إن أشعة الراديو قتلت مكنتشفها الأستاذ (كوري) الفرنسي ، وقتلت غيره من الباحثين فيها ، وأحرقت وحده وصدور عدد كبير منهم .

بقي ما عبر عنه الكاتب بأحوال البيئة والظروف ، وناسبات بيكولوجية . وهذه في نظرنا هي الأسباب الحقيقية في تكوين فكرة الالحاد عنده ، فانه ذكر في تاريخ حياته أن أباه كان مسلما محافظا ، وأن أخته كانتا تلقياه الدين المسيحي ، وفي الوقت نفسه كانتا تهزآن بخوارق الكتب المسيحية ، وبخود الروح في الحياة الآخرة . وأن زوج صمته كان يرميه على الصلاة وحفظ القرآن . فهذه كلها عوامل تقذف بنفسية الطفل من الشذوذ الى مكان بعيد .

هذا رأى العلامة الكيمائى والرياضى الكبير وايم كروكس ، وهو من الرجال القلائل الذين تصطرح بحاربه أن يطلعوا على عمل النواميس كل يوم ، فهم قرب اليها من عدايم من يكتبون ولا يعملون . وقد رأيت أنه يأبى أن يسلم تكفاية النواميس لايحاد الكون وحفظه على ما هو عليه ، فأظهر الحيرة في فهم كنه تلك (الارادة) وذلك (الفكر) الذى يعمل من وراءها . وهو ليس يقول هذا القول متابعة لوجه أو وراثة ذبيلة عمده ، ولكن تجاربه اضطرته اليه ، وقد نص على ذلك نصا في حطبة له في المجمع العلمى ابريل ١٩٥١ ، جاء في صفحة ٨ من مجموع خطبه :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للطواهر الطبيعية ، نبدأ نادرا الى أى حد هذه النتائج أو النواميس كما نسميها ، محصورة في دائرة نواميس أخرى ليس لها أفل علم ؟ أما أنا فان تركي لرأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حدا بعيدا . فقد تقصض عندى هذا النسيج المكبوتى للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، الى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك . إذا كان هذا حال أقطاب العلم من الحيرة براء علل حدوث الكائنات ، فمن أية الآفاق ينتزل (الايمان بالالهاد) الذى يذكره الدكتور صاحب الرسالة على قلب باحث فيه ؟ لانشك في أنه يتسرب اليه من ناحية السداجة العمية ، وقد نص على هذه الحقيقة الرياضى المشهور (هنرى بواسكاريه) الذى يعتد فيه حضرة الكاتب الامامة في العلم ، قال في كتاب العلم والاقتراض صفحة ٩ :

« الحقيقة العلمية في نظر المشاهد السطحي تمتد خارجة عن متناول الشكوك ، وعنده أن المطلق العلمى غير قابل للتقصص ، وأن العلماء وإن أخطأوا أحيانا فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعد والمفاتيح الرياضية في نظره تشتت من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المترعة عن الخطأ ، وهى واحدة ، في ربه ، ليس عليها فقط ولكن على الطبيعة أيضا (تأمل) ...»

ثم قال : « هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، ولانلاميذ الدين يتلقون منادى "علم الطبيعة" وها هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غايتهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مائة سنة أن يمتوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما زوى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستعناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا هل كانت هذه المباني لعامة على شئ من المنانة ، وتحققوا أن صحة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . من أخذ على هذا الوجه (تأمل) صار سطحيا أيضا » انتهى .

فإن أية السبل يأتي الإيمان برأى من الآراء الملحدية لباحث في الطبيعة ؟ فتعريف الدكتور كاتب المقالة بأن الاعمى بوجود سبب الكون في الكون ذاته ، وأن ليس شئ وراء هذا العالم ، تعريف معيب من الناحية العلمية المحضة ، وأدخل منه في العيب قوله : « فأنا لا أفترق من هذه الناحية (يريد ناحية الملحد) عن المؤمنين المتصوف في إيمانهم » . فهذا تعبير لميد كل البعد عن التحوط العلمي . فإن العالم يجب أن لا يكون واقفا هذا الموقف حيال مدرجات يقول عنها مثن (هنرى بوانكاري) إن نقطة واحدة تسكني لحل عالمها ساعلمها ، وتاريخ العلم يبرر هذا التحفظ .

هل لاه الفيلسوف (كنت) ملحد ؟

نقل الدكتور كاتب الرسالة عن الفيلسوف الألماني (كنت) قوله : « إنه لا دليل عقلي أو علمي على وجود الله ، وإنه ليس هنالك من دليل عقلي أو علمي على عدم وجود الله » . ثم قال الدكتور عقب ذلك :

« وهذا القول الصادر عن أعظم فلاسفة المصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية ، يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة . وقول (صمويل كانت) لا يخرج عن نفس ما قاله لوفريتيوس الشاعر اللاتيني منذ أئني سنة » .

وأنا أقول : لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة يجهل تاريخ الفيلسوف الذي يصنف بأنه أعظم فلاسفة لمصور الحديثة ، إن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العمى والفلسفي . جاء عنه في قاموس لاروس ما يأتي :

« شرع الفيلسوف كنت في إصلاح مجموع المعارف الانسانية ، فبدأ عمله على أسوب التشكك ، وبنى عليه الوصول الى الحق اليقين بواسطة العقل العمى ، والناموس الأدبي ، واستنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح » .

وهذا ما تعرفه الفلسفة عنه ، فمن أين أتى حضرة الدكتور بأنه قال إنه لا دليل سواء كان عقليا أم عميا على وجود الله ؟ لا أستطيع أن أقول إنه تقول عليه ، ولكني أقول إنه اقتضبه اختضاها من كلامه فأوهم غير ما يرى إليه الفيلسوف من مراده .

ثم عقب الدكتور على ذلك بقوله :

« الواقع الذي أئله أن فكرة الله فكرة أولية ، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ أئني سنة ، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها في عالم الفكر الانساني لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الاقناعية الفلسفية وإنما يعود لحالة

يسمونها علماء النفس التبرير Racionation ، ومن هنا فانك لا تجد لكل الأدلة التي تقام لأجل إثبات وجود لسبب الأول قيمة علمية أو عقلية . ونحن نعلم مع علماء الأديان والمعتقدات أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية ، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي نخلعها عليها « انتهى » .

ونحن نقول : إن هذا الكلام ليس عليه أقل عبقة من الالهجة العلمية ، كأن كاتبه لم يقرأ تاريخ العالم ولا تاريخ العلم . فإن قوله إن العقيدة بالله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألى ستة ، خطأ عظيم ، فإن هذه العقيدة صحت الانسان منذ نشوئه ، حتى قال المنقون في الحفريات أنهم لم يشاهدوا آثارا تحت الأرض لجماعة من الجماعات المتخلفة في القدم تدل على أنها كانت لا تدين لدين ما . ولكن الأمر على العكس ، فإن كل الآثار التي عثروا عليها تدل على وجود العقيدة لدى تلك الجماعات .

فما معنى قول الكاتب بعد هذا التقرير العلمي إن العقيدة بالله لم تصبح من مستلزمات الجماعات إلا منذ ألى ستة ؟ إن الأحجار المنقوشة في الهند والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمكن أن يكون ، وكان للدين سلطان المطلق عليها حتى كان الحكم فيها قبل نشوء الملكية للكهنة والراهبين

وأمّا قوله : إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها من عالم الفكر لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية ، وإنما يعود لحالة يسمونها علماء النفس التبرير .

فنفرد عليه بأنه إذا كانت العقيدة الإلهية تسلطت على عقول الناس من أقدم العصور ، حتى عقول العلماء وكبار المفكرين ، يمكن أن توصف بأنها مجردة من عناصر القوة الإقناعية ، فأى عقيدة بعد ذلك يتصور أن تكون حاصلة على تلك القوة ؟

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البدايات العقلية ، وأعظمها سلطانا على النفس البشرية ، ويريدها الشهور الوجداني الذي لا سبيل الى عدم الاعتداد به . ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالقطرة : ماذا أنا ، وثى شىء أوجدنى وأوجد هذا العالم ؟ وكل إنسان وجد الجواب العقل والوجداني عقب هذا السؤال كما يأتى : لا بد أن يكون قد أوجدنى موجد قادر وهو نفسه الذى أوجد هذا العالم أيضا .

هذه كانت البدايات العقلية والوجدانية التي لا تعارض ، ولكن الفاسفة منذ نحو ثلثين وخمسمائة سنة هي التي حاولت أن تشكك في هذه البدايات ، حاولت لتليل وجود الخليقة بداتها بغير حاجة لموجد أولى حكيم . ورغمما عمدت تلك الفلسفة المادية منذ تلك القرون من اليهود

الشفافة فانها لم تتوصل أن تفتن إلا عقولا قليلة ، وثقت جماهير الخليقة تحت سلطان تلك العقيدة ، بل بقيت عقول تعتبر من أرقاها طرارا تحت ذلك السلطان معه .

فهل يعقل أن وصعة الفلقة : فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكل من جاء بعدهم إلى المصور الحديثة من صاغة الأصول الأولية ، أمثال يكون واضح الدستور العلمي ، وديكارط مصلح الفلسفة ، وسمانويل كست مقح العلوم الانسانية ، وروسو وفولتير إمامي النقد الفلسي ، وروغسون زعيم الفلسفة الوجدانية في العصر الحاضر ، هل يعقل أن هذه العقول الجبارة كلها لم تدرك أن فكرة الله وهمية باحتة ، وأنها مجردة من عناصر القوة ؟

اللهم إن أحدا لم يجرؤ على اتهام هؤلاء وأمثالهم بالفاوة إلى المخذ الذي يدعمهم إليه صاحب رسالة (لماذا أنا ملحد) .

قال حصرة الدكتور في تلك الفقرة . إن كل الأدلة التي تقام لأجل إثبات السبب الأول ليس لها قيمة علمية أو عقلية .

نقول : كيف يمكن أن يروج مثل هذا القول في العقول ، والبحث عن السبب الأول أمر لا بد منه ، وإثبات وجوده لامعدي عنه في عصر من العصور ، وإن كان بعضهم يعتقد بأن هذا السبب قادر حكيم ، وبعضهم يراه وجودا ماديا محضا . فإن كان مراده أن يقول إن إثبات أن ذلك السبب قادر حكيم ليس له قيمة علمية أو عقلية ، فذلك حكمه الشخصي ، ولكن جميع من ذكرناهم من وضعة الفلسفة ومصلحيها قد رأوا أن لها أعظم قيمة علمية وعقلية ، وأثبتوها في مؤلفاتهم الخالدة . والعقول بطبيعة الحال تنساق وراء كبار الإعلام في هذا الشأن ، وهو نفسه لا يستطيع أن يصفهم بغير هذا الوصف ، فقد ذكر واحدا منهم وهو (صمانويل كست) فوصفه بأنه أعظم فلاسفة المصور الحديثة ، وواضح الفلسفة الانتقادية ، وقد أثبتنا لك بنص تاريخي أنه توصل على أسلوبه القدي إلى إثبات الله وخلود النفس ، وله في ذلك كلام ممتع . وقس عليه سواه ممن ذكرناهم هنا .

وقال الدكتور في تلك الفقرة أيضا إن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية ، وإن الذي ولدها للإنسان الخوف والجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ، وإن معرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها .

نقول : أما أن هذه الفكرة قد تطورت فهذا لا يستدعي المحب ، فإن الجاهل يجمع على تصورات خلة من أوهامه وأهوائه ، وكلما ارداد علما أزال طائفة من تلك الأوهام والأهواء حتى ينتهي إلى إزالتها كلها وتبقى العقيدة خالصة من كل شائبة .

فأي بأس في هذا على قدسية هذه العقيدة ؟ أليس هذا كان حال الإنسان من حبة العلم والحكمة والحق والعدل والشرف والكرامة الخ ، مما يضحي الإنسان حياته في سبيله ؟ فهل

يسقط من قدسية العلم والحكمة أنهما تطوروا في عقل الانسانية من حالات بدائية؟ وهل لهذا لسبب يجب علينا أن نسكّر وجود العلم والحكمة وكل هذه الحالات الكريمة؟
وهل اعلام العلم والفلسفة ممن ذكرناهم، ويطول ذكر غيرهم، لم يدركوا أن تطور فكرة الله تذهب بقدسيته كما أدركها الدكتور كاتب الرسالة، فلم لم يحتقروا هذه الفكرة لهذا السبب وكلمهم فأص في ذكر الأموار التي دحلت فيها على مدى العصور والأجيال؟

هل السبب الأول للظلمات هو الخبط والافاق؟

قال الدكتور كاتب الرسالة: «إن العالم الخارجي - عالم الحادثات - يخضع لقوانين الاحتمال Probability، فالسمة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التي يتخلص بها الساحت من حادثة على ما يعاينها من الحوادث. والسمة العلمية لا تخرج في صميمها عن أنها وصف تجريبي سلوك الحوادث».

ثم ذكر أنه عمل مذكرة بهذا الموضوع لمعهد الطبيعيات الألماني عن المادة وبنائها الكهربائي وقال: «وفي هذه المذكرة ثبت أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمي للذرة، فإذا كان كل ما في العالم يخضع لقانون الاحتمال فاني أمضي بهذا الرأي الى نهايته، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة».

ثم قال: «ولكن ما معنى الصدفة والتصادف؟

«يقول هنري بواسكاريه في أول الساب الرابع من كتابه Science et méthode في صدد كلامه عن لصدفة والتصادف: «إن الصدفة نحى جهلنا بالاسباب، والركون لصدافة اعتراف بالتصور عن تعرف هذه الاسباب».

«والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بواسكاريه في اعتقاده. ثم قال: «غير أنني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا، معنى دقيقاً بث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الانساني في كتابي (Mathematic und physik) ج ٢ فصل ٧»

ثم مثل لنظريته بمثال فقال:

«لفرض أن أمامنا زهر الترد ونحن جلوس حول مائدة، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه. ثم قال: «وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل بحيث إذا رمينا زهر الترد، فاني مبلع الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التي نبحثها».

ثم قال: «فتلأ لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة، أعني نسبة ١ : ٣٦ مرة في الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر الترد وعصى الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية في شيء».

« إذاً يمكننا أن نقول أن الصدفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم ، تعطي حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث يتنظم بعضها مع بعض في وحدات وتتداخل وتتساق ثم تتحل وتتباعد لتعود من جديد لتنظم . . . وهكذا خاصة في حركتها هذه لحالات الأمكان الذي يحددها قانون العدد الأعظم الصدفي ، ومثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف ، وقد أخذت هذه في الحركة والاصطدام ، فتجتمع وتنظم ثم تتساع وتتحلل هكذا في دورة لانهاية ، فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن ، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) ، وكذا (لقرآن) بمجموعاً مصدا مصححاً من نفسه ، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وضعت ستأخذ دورها في ظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهاية ، فإذا اعتبرنا (ح) رمزاً لحالة احتمال و (ص) رمزاً للانهاية ، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات .

ح : ص

« وعلمنا لا يخرج عن كونه كتاباً من هذه الكتب ، له وحدته ونظامه وتمضيده ، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة » انتهى .

ونحن نقول : إذا كان القارئ سواء أكان باحثاً طبيعياً أم عالماً رياضياً قد آانس في كلام الدكتور كاتب الرسالة غرابة وخروجاً عن المؤلف ، ومناقاة لكل مانقل عن أقطاب العلوم ، وركان الرياضيات ، فإن الدكتور نفسه يعترف بذلك ، فهو يقول إن نظريته هذه مبتكرة ظهرت في عالم التفكير لمعى لأول مرة ، فقد قال : « إني من وجهة رياضية أحده للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقاً بث لمرّة الأولى في تاريخ الفكر الاساني في كتابي (mathematik und physik) »

ج ٢ فصل ٧ «

قال ذلك عقب إرواده قول العلامة الكبير (هنري بوانسكاره) الفرنسي وهو قوله : « إن الصدفة تخفي حملنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب »

وعقب على كلمة الأستاذ بوانسكاره بقوله : « والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانسكاره في اعتقاده » .

وهذا اعتراف من الدكتور بأن كل العلماء متفقون على أن لاخبط ولا اتفاق في حوادث الكون ، ولكن الدكتور وحده قد أدرك أنهم كلهم واهمون ، وأن الخبط أو كما يسميه (الصدفة) هي الفاموس الأعظم الذي أوجد الكون ، وهي التي تسود جميع انقلاباته الى اليوم .

ولما كان الدكتور يعتبر نفسه صاحب مذهب جديد في العلم ، فهو لا يخشى أن يعرض للقراء آراء كبار الرياضيين المناقضين له . فنقل عن العلامة المقرئ اينشتاين أكبر أعلام الرياضيات في هذا العصر قوله :

« مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئا ، فلما أخذ في مطالعته وتدرج من ذلك لدروسه ، وبأن له مافيه من أوجه التناقض الفكري ، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضا لا يصل لكتبه ، هذا الشيء الغامض الذي عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه ، فإذا ما ترقى به التفكير ، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقري أبدعه . كذلك نحن إزاء العالم ، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئا غامضا لا تصل إلى إدراكه عقولنا ، هذا الشيء هو الله » .

ونقل أيضا عن العلامة الجليل السير (جيمس هينر) الفلكي الانجليزي قوله :

« إن صيغة المعادلة التي توحد الكون هي الحد الذي تشترك فيه كل الموجودات ، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لبابه . ولما كانت الرياضيات تقصر تصرفات الحوادث التي تقع في الكون ، وتربطها في وحدة عقلية ، فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية ، ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبعث عن عقل رياضي يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون . هذا العقل الرياضي الذي نلص آثاره في الكون هو الله » .

نقل الدكتور هذين القولين وعقب عليهما بقوله : « وثنت ترى أن كليهما (والاول من أساطير الرياضيات في العالم ، والثاني فلكي ورياضي من القدر الاول) عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاصصة لقانون الصدفة الشاملة ، والتي يتبع دستورها العالم ، لا شيء إلا لتقلب فكرة السبب والنتيجة عليهما » .

وقد سبق له أن نقل رأى الرياضي الفرنسي الكبير (هري بوانكاري) في تكرار الخبط والاتفاق (أي الصدفة) .

وعقب عليه بقوله : « الواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه في اعتقاده ، غير أن من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقا بث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الانساني » .

فإذا كان الامر كما ذكر فيكون من لعبت المحض أن نقل اليه آراء رياضي العالم كله في إسكار وجود الخبط في الطبيعة ، وفي أنها قائمة على نظام حكيم ، فلا بد لنا من أسلوب آخر في دحض أقواله .

إن كاتب الرسالة لم يكتف بتخطئة أقطاب الرياضيين الذين ذكرهم في فهم نظام التكوين العالمي ، ولكنه يتبرع فيشرح وجه خطئهم ، فقد قال :

« الواقع أن أينشتاين في مثاله انتهى الى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه لمقل صاحبه مؤلفه والواقع أن هذا احتمال محض ، لأنه يصح أن يكون صاحب الحالة أخرى ، ونتيجة لغير العقل (كذا) ، وملتئاع المطبعة وحروفها ، ويمكن خروج لكتب خصوصاً لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة (كذا) . أما ما يقوله السير جيمس جير ، فرغم أنه خطأ في اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء ، لأن نجاح الوحدة الرياضية في ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية ، بل يدل على أن هناك قاعدة مقولة تصل بين طبيعة الأشياء ، والأشياء هي الكائن الواقع والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة . وبما أنه أخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع ، والواقع يتضمنه الممكن ، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه . ومن هنا يتضح أنه لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي ألفه ، بل كل الغرابة في عدم انطباقها لأن السكك كون رياضيات المحصورة . فكون من ألا كون مربوط بالرياضيات شرط ضروري لكونه كوناً . من هنا يتضح أن السير حينئذ اتفق تحت فكرة السبب والنتيجة كما اساق أينشتاين الى التماس الناحية الرياضية في العالم . وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضي وراء هذا العالم ، وهذا خطأ ، لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع حاضراً لنظام ما هو ممكن ، فهو حالة احتمال من عدة حالات ، والذي يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل » انتهى

يريد كاتب الرسالة مما مر أن يقول إن المنال الذي ضربه بالمطبعة ذات المليون حرف ، وإمكان خروج الكتب منها خصوصاً لقانون الصدفة الشامل بدون الحاجة لمقل ، يكفي لبيان ما يشكل على العلماء في هذا المجال .

فقولهم إن الكون قائم على نظام رياضي شامل لا نسحاه مع العلم الرياضي الانساني ، خطأ محض . فإن ترابط حوادث الكون ، وتصرفها على قانون رياضي لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية كما يقول لأنه بعد أن يتوصل قانون (الصدفة) الشامل في رأيه ، الى إتيان كون من الأكواد يكون ضبطه بالقوانين الرياضية شرط ضروري لكونه كوناً ومن هنا خطأ ، كما يدعي ، أقطاب الرياضيين في اعتبار أن الطبيعة تحرر على نظام رياضي دقيق . والحقيقة أنها تحرر على نظام الخطأ ، ومن هذا الخطأ تتولد الأكواد ذات النظام الرياضية الدقيقة .

هذا مذهب غاي في الغرابة ، فلا عجب أن يعمد بالقول به واحد في الخلق ! ولكن هذا لا يكتفينا مؤنة مناقشته الحساب ، حتى لا ينجح إليه أن العقول تعجز عن بيان خطئه فيه .

مناقشة هذه النظرية الرياضية الحساب :

ليس من الحكمة أن نعتد في مناقشة صاحب هذه الرسالة على يرا آراء علماء الكون سواء

أكانوا رياضيين أم طبيعيين أم فلكيين ، لأنه يترف بأن إجماعهم انعقد على أن للكون نظاما ، ولذا ، وأنه جاء على وتيرة رياضية في جميع أدواره ، وأنه مره عن الخط والاضطراب في جميع مكوناته . ولكن الذي يجدى في هذه القضية هو مناقشته الحاسب في مفهوم نظريته ، وفي الأصول التي أقامها عليها إن كان لها أصول ، فنقول :

(أولا) أن ما يقرره الدكتور من عالم الخيال المحض لا من عالم العلم ، حمله عليه شدة تيهامه بإبطال العقيدة بالخالق ، ولكن تيهام الانسان بنفي أصل من الأصول ، لا يجوز أن يدفع به الى مناهات يتحدر فيها من كل قوايين المنطق ، جريا وراء هوى من الأهواء النفسانية .

نعم إن العالم مع اشتغاله بالواقع المحسوس يُسمح له أن يحترق بحيله ما وراءه ليصل الى السبب الأول الذي لا تاله المشاهدة ولا تبلغه التجربة ، ولكنه لا يسمح لنفسه أن يفعل ذلك إلا مستهديا بما بين يديه من الأصول ، ومحوطاً بما يمكنه أن يحصل عليه من المرجحات .

فإذا كان العالم يرى ببعده الى أنعم ما تعمل اليه قوى التلسكوب فلا يصادف غير نظام قائم على أدق أصول العلم الرياضي ، فلا حق له أن يستنح منه أن العوامل التي صدر عنها الكون لا يسودها غير الخط المحض . لأن سيادة النظام الرياضي الآلى في كل مكان لا يسمح له بذلك ، ولكن يوجب عليه ضده ، وهو أن الكون يجري على نظام محكم تسوده عوامل محكمة النظام الى أقصى ما يتخيله التصور .

وجميع ملاحظة العالم قديما وحديثا بنوا لحادهم لا على أن العامل الرئيسي هو الخط ، لأنهم لم يروه ، ولكن على أنه وليد نظام آلى محض لا يصدر عنه إلا ما هو آلى مستظم كل الانتظام . فقد قال يوحنا إمام الملحدين : « مادما لا ترى في كل مكان غير نواميس منتظمة تصدر عنها كائنات منتظمة ، فلا داعي يدعونا الى افتراض وجود سبب عاقل أوجده » ، وغفل عن أن هذه النواميس مظاهر لسبب عاقل أوجدها . ولكن يوحنا لا يستطيع أن يقول كما يقول الدكتور صاحب الرسالة : « أنه مادما لا ترى إلا نواميس منتظمة فلا مانع يجمع أن تكون هذه النواميس حالة لكون مستظم أوجده سبب أول هو ناموس الخط المحض .

وما الذى يحمله على التجرؤ على هذا الافتراض ، ولم ير في الوجود كله ركنا معزلا يعمل فيه ناموس الخط ، وتنتج منه كائنات منتظمة ، تخرج بحكم نظامها من سيادته عليها وتصبح مستقلة عنه ، توم أنها صادرة من أصول رياضية دقيقة ، ونظام آلى محكم ؟

إن كل ما وصل اليه خيال المتخيلين في أمر الخط من الملاحظة ، أنهم قالوا إن الكون محكوم من أول الأزال لقوانين محكمة الوضع ، وهى دائبة على العمل بغير قصد ، فتارة ينتج عنها كائنات منتظمة وأخرى شاذة ، ولكنها لقيامها على النظام لا تزال بهذه الشواذ حتى تبيدها وتحويلها إلى النظام المحكم ، ولذلك ترى كل كائنات الوجود محكمة الصنع .

إذا تقرر هذا فعلى أى أساس استند الدكتور في تخيل أن السبب الأول للوجود هو الخبط المحض ، وليس في الوجود ما يمكن من الاستدلال به عليه ؟ وكيف يأمل أن يثبت دعوة حيالية محضة لا تستند على أى أصل من أصول العلم ، بل على أى خيال من خيالات أصحاب الفلسفات الاحتمالية ؟ ليس انفراد بالقول الذى أورده ، وهو يعترف بذلك ، يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياح فيه ، بل القذف به الى عالم المحملات ؟

يقول إنه أرسل مذكرة علمية رأيه هذا لمعهد الطبيعيات الألماني في سنة ١٩٣٤ ، ولا عبرة بارسالها فقد مضى عليها ثلاث سنين ولم يتلق عنها تأييدا الى اليوم ، ومعنى ذلك أنهم أهملوا أمرها وعدوها من الخيالات ، ولا فقد كانوا يملأون الصحف بأشاعتها والمناقشة فيها ككل الآراء الجديدة التي يتخيل من ورائها زيادة لمادة العلوم .

(ثانيا) هل تصح تسمية الخبط بالقانون ؟

يعر الدكتور عن رأيه في الخط بقوله : (قانون الصدفة الشامل) فهل تسلم له هذه التسمية ؟ المعروف أن الخبط ، وهو يسميه الصدفة ، هو اللانظام المحض ، والفوضى المجردة من كل قانون وضبط ، فهو يتخيل أن القوى العالمية كانت على حالة تخبط هائل ، فصدر عنها على مقتضى قوانين الاحتمال ، كون منتظم بديع الصنع هو ما نحن فيه ، وما عليه العالم الى أبعد ما يصل اليه التلسكوب . فهل يحق له وقد اعتبر القوى العالمية في حالة فوضى وتخبط أن يتخيل وجود قانون يسيطر عليها ؟ وهل هذا القانون من السكون أم خارج عنه ؟

بن الكاتب قد أكثر من ذكر قوانين الاحتمال ، ولكنها عندنا لم تسم بالقوانين إلا لأنها تطبق على موجودات منتظمة ، وقد اكتشفها الفلكي لابلاس للترجيح لا للجزم ، ورتها على حوادث جارية على النظم الطبيعية المقررة ، لا على حوادث حيالية لا وجود لها . فكيف يطبق حساب الاحتمال العلمى على عالم الخبط المحض الذى لا أثر للنظام فيه ، ولا قيام لكائن منتظم معه ؟ وإذا كان الوصف المميز للخط هو خلوه من كل قانون ، فكيف يلحق به نظام رياضى محض كمساب الاحتمال القائم على قوانين ثابتة ، ونظم مستقرة ؟ من العالم المحسوس الذى يعترف الكاتب بأنه قائم على أصول رياضية ؟

يضرب الكاتب لمراة مثلا بوجوده زهر الطاولة ، ويقرر أن الدش لا بد من مجيئه مرة في كل ستة وثلاثين رمية للزهر . ويفعل عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسى وأعدادها معينة مكتوبة ، وهي مجملتها موجودة في عالم آلى يسوده النظام في كل ذرة من ذراته ، فلا بدع أن تسرى عليه قوانين الاحتمال ؛ ولكن عالم الخبط الذى لا أثر للمسد فيه ، ولا صورة متميزة لشيء من أشيائه ، ولا وجود للقوانين فيه ، كيف يطبق عليه صمل رياضى قائم على أصول مقررة في عالم تسوده القوانين وتحفظه من أى نوع من أنواع الخط ؟

(ثالثا) هل يعقل صدور النظام في الخبط المام بدون سبب خارجي ؟

إن ما يذكره كاتب الرسالة الاحادية من تعليل وجود الكون من طريق الخبط والاتفاق يجب أن يسبقه تصور لثبات العالم .

فاذا أخذ أخذ نظريته وجب عليه أن يعتقد أن العالم محدث غير قديم ، خلافا لرأى جميع الملحدون ، وأن العالم لم يكن فيه غير قوى لا ضابط لها ولا منظم من أى نوع كان ، حتى ولا من نوع النواميس الازلية الابدية التي يتخيلها الملحدون .

فإن قال بوجود نواميس في ذلك العهد لم يصدق على العالم أنه كان عالم خبط واتفاق . فكل هذا المحيط اللاتمائي من القوى النائرة المتخبطة المنحلة النظام ، لا يعقل أن يتولد فيه نظام على وجه الاملاق . وقد لاحظ أقطاب الملحدون هذا الأمر فقرروا أن القوى العالمية مقودة بنواميس أزلية غاية في الاحكام ملازمة لها ، وليست فوضى ولا متخبطة . افترضوا هذا حشية أن يفترض عليهم عمل ما يفترض به على كاتب الرسالة اليوم ، من أن الخبط لا يعقل أن يولد نظاما ، فتبطل حجبتهم ، ويزدرى الناس مذهبهم .

ولكن كاتب تلك الرسالة يقول : بل إن قوانين الاحتمال تسمح أن تتصور صدور الكون المنتظم ، المقود بنواميس حكيمة ، من صميم هذه القوى العالمية المتخبطة .

يقول هذا ويقول أن في قوله قوانين الاحتمال تناقضا لا يسيغه عقل عاقل في الأرض ، فإن افتراضه سيادة الخبط والاتفاق في العالم تنفي وجود أى ضرب من ضروب القوانين فيه .

إنه قال كما نقلناه عنه : « أن العالم الخارجي — عالم الحوادث — يخضع لقوانين الاحتمال » .

فهل غاب عنه أن ما يصدق على عالم الحوادث الطبيعية المنفردة في كل ذرة من ذراتها بنواميس محكمة ، لا يعقل أن يصدق على عالم خبط واتفاق ليس فيه حوادث مترابطة ولا قوانين تسود عليها ؟

وإذا استساع أن يعتقد أن ذلك العالم المتخبط توجد فيه قوانين الاحتمال ، فما الذي يمنعه أن يعتقد بوجود كل ضروب النواميس فيه ؟

فلو سلمنا له جدلا أن قوانين الاحتمال حاولت مرة أن توجد كائنا منتظما ، فهل نستطيع أن نعقل أن القوى العالمية النائرة من حوله تدعه يتكون في هدوء وسكون ، ولا تعدو عليه

فتفسده قبل أن يتم تكونه ؟ ما الذي يمنعه من العدوان عليه ، بل ما الذي يجمع قوانين الاحتمال من توليد كائن آخر منتظم يحواره يناقضه ويحرمه أن يتطور الى أن يبلغ حد الكمال ؟

إذا لم يستطع أحد أن يستوعب تصور هذا ، فهل ينبغي أن تترك القوى النائرة المتخبطة ، حرية العمل لقوانين الاحتمال ، حتى تولد ملايين من مجموعات شمسية عملا فضاء لا حده تسودها

قوانين عامة واحدة ، لا يختل لها نظام في عدد لا يحصى من ملايين السنين ، ولا تعدو عليها فتجعلها حطاما متناثرا في الهواء ؟

هنا يحتاج الآخذ بنظرية الخطيئة العام أن يتحيز أن القوى العالمية كانت في حالة سكون تام لافي حالة ثوران ، فاذا تنضت قوانين الاحتمال أن توجد كونا أو أكواما كثيرة ، تركتها تلك القوى أن تفعل ما تشاء .

ولكن هذا الخيل يؤدي صاحبه أن يمتد بأن القوى في عالم الخطيئة العام مجردة من الحركة والتأثير فيما حولها . وإذا كانت كذلك فكيف يتصور أن تسود عليها قوانين الاحتمال ؟

لقد شبه الكاتب حمل قوانين الاحتمال بحركة زهر النرد ، ولكن غاب عنه أن زهر لرد إذا لم يتحرك فلا يعقل أن يأتي الدش منه في كل ٣٦ رمية مرة واحدة ، بل يبقى على ما هو عليه الى الأبد .

وعليه فلا يعقل أن تكون القوى كانت ساكنة ، فلا بد أنها كانت في حالة حركة لاصابط لها ، ثم يصبح لها صواب متى آلت الى كائنات بواسطة قوانين الاحتمال . وإذا كانت كذلك فكيف لا تعدو القوى المتخبطة العامة على أي جزء منها ، فترفع عنه تأثير قوانين الاحتمال ؟ أي مانع يمنعها من ذلك وهي محيطة بها من كل مكان ؟

وكيف يعقل حدوث نواميس رياضية محكمة ، لكون تولد من قوى مجردة من كل ناموس ، ومن أي ضابط كان ؟

يقول كاتب الرسالة : لا غرابة في ذلك فما دام قد وجد كون فان ضابطه بالرياضيات شرط ضروري لقيامه على حالة كون قائم بنفسه .

تقول في هذا القول تحكم يتبره عن مثله أهل العلم ، فاذا سلمنا جدلا بأن قوانين الاحتمال وجدت مجموعة شمسية ، فما الذي يوجب عليها أن تحملها على نظام رياضي دقيق ، وأن تحميها بجميع النواميس المحكمة التي لا تكفي فقط لتماثل أجزائها ولكن لتجديتها بنواميس أخرى تصلح لتكوين كائنات نباتية وحيوانية عليها ، ولرفع هذه الكائنات للتطور والترقي حتى يبلغ بعض آحادها الى درجة عالية من إدراك الذات والتعقل ؟

وإذا اتفق ذلك لمجموعة شمسية ، فهل يتفق مثله لملايين المجموعات الشمسية السائحة في الفضاء ، وعلى أبعاد لا يصل إليها الوم ، وتكون كل هذه القوانين واحدة فيها ومكافئة فيما بينها الى هذا الحد المخير للعقل ؟

لم هذا التحكم كله ؟ لأجل القول بأن أصل الوجود قوى متخبطة لاصابط لها ؟ وفي فائدة

للإلحاد من هذا الافتراض ، وقد أساغ الملحدون وجود نوايس محكمة ملازمة للقوى المالية من أول الأزال ؟

إن هذه الثمرة الضئيلة لا تساوى أن يتمسف الإنسان هذا التمسف كله ليثبت أمر الإيسيه عقل في هذا العالم .

نعم إن بناء النظريات الجديدة أمر محبب الى النفوس ، تنساق اليه الفطرذات المطامح البعيدة ، ولكن لو كانت هذه الشهوة النفسية تدفع الى مثل هذه المواقف من الخيالات فيحب وقها عند حد ، فلها تصبح مذمومة ، ولا ينجى صاحبها من ورثتها غير الخيبة وسوء القالة .

ولكن يلوح لنا أن الذى حفز كاتب الرسالة لأن يدفع بنفسه الى هذا المسمم من الخيال المحض ، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النوايس الأزلية المحكمة من الإيرادات ، فقد قيل لهم إن ما تقررونه من وجود تلك النوايس الرياضية المحكمة ملازمة للهوى الأولية ، هو مظهر المحكمة الالهية ، وإلا فكيف يعقل وجود قوى منتظمة ، تؤدى الى كائنات غاية في الإبداع ، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها ؟

أراد صاحبنا أن يتق هذه الإيرادات فقفز قفزة خيالية باحتة يرد عليها من الاعتراضات أكثر مما يرد على تلك ، ويكون موقف المنابذ لها أشد حصانة ومناعة من موقفه حيال جميع النظريات الإلحادية مجتمعة .

قصة المطبعة ذات المليون حرف :

قال كاتب الرسالة :

« إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموع من الحوادث يلتزم بعضها مع بعض في وحدات تتداخل وتتناسق ، ثم تنحل وتتباعد ، لتعود من جديد وتنظم ، وهكذا خاضعة في حركتها هذه لحالات الامكان التى يحددها قانون العدد الأعظم الصدق . مثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف . وقد أخذت هذه الحركة والاصطدام فتجتمع وتنظم ثم تساعد وتنحل ، هكذا في دورة لانهاية . فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلونه الآن ، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) وكذا (القرآن) مجموعاً منضداً مصححاً من نفسه (كذا) ، وبمعكنا تصور أن المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية » اهـ .

ونحن نقول ردا على هذا الكلام :

إن من الابتلاء المر أن يضطر الانسان في يوم من الأيام للدفاع عن رأيه بمثل هذه الأقوال

التي تشذ عن كل قاعدة عقلية وعلمية . وقد فندنا كل ما ذكره الكاتب مما سماه قانون لصدفة
الشامل ، وبيننا تناقضها مع قوانين الاحتمال بما لا مزيد عليه .

والآن تصدى لتشبيهه بقانون (الصدفة) وما تخضع له من قوانين الاحتمال بمطبعة ذات
مليون حرف ، لكل من وحدات الأبجدية ، وقد درج الناس إذا اتلوا بأقيسة قاسدة على أن
يقولوا : هذا قياس مع الفارق . ولكننا مضطرون حيال ما نحن لصدده أن نقول هذا قياس
مع كل ما يتخيل من الفوارق .

ككيف يسوغ لناحت أن يشبه حالة القوى الوجودية العارية من كل قانون ، المجردة من
كل ضابط ، كما يفترضها الكاتب ، بألة ميكانيكية كالمطبعة قائمة على أدق قوانين الميكانيكا
والرياضة ، ولها قطع منقوش على ردهوسها حروف تتألف منها كلمات ، وهي مفصلة تفصيلًا
هندسيًا ، بحيث يقوم بعضها إلى جانب بعض فتؤلف منها صحف ، وللمطبعة أسطوانات مكسوة
بالغراء تستمد من بحيرة بجوارها حبرا تنقله إلى الحروف ، بحركات مدبرة تديرها محكمات . وهذه
المطبعة الميثة لا تقنى شيئًا إذا لم يكن لها عمال يحركونها ، ويدبرون دوراتها ، ويراقبون كل
خلل يطرأ عليها أثناء العمل ؟

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى ، بل هو غير جائز أصلاً ، وعجيبته من باحث ينتمى
للرياضيين يريد في غرائته ، ويحمله أطروفة الأعاجيب في عصر المباحث المدققة ، والمقررات
المحررة .

وأدخل من كل ماصر في عالم الآوهام والخيالات ، زعم الكاتب أن المطبعة ذات المليون حرف
تستطيع تحت تأثير قانون الخبط الشامل ، أن توجد جميع المؤلفات التي قام وضعها العقل البشري
الناقص ، أو تترلت من العلم الإلهي الكامل ، فهذا القول لو صدر من جاهل ساذج لاحظ له
من أسط ضروب الثقافة العقلية ، لما اغتفر له بحال من الأحوال ، وعيب عليه لتلفظ به ،
في ظنك وهو صادر من رجل يحمل شهادات علمية راقية ؟

ومن عجب أن كاتب هذه الرسالة اعتماداً على ما قرره في أمر هذه المطبعة الوهمية يناقض
عبافرة الرياضيين ، ويتخيل أنه يلزمهم الحجة ، فيعيب على العلامة الكبير اينشتين تشبيهه
الوجود بكتاب ، وقوله كما أن وراء الكتاب عقلاً أله ، وكذلك الكون يجب أن يكون
وراءه حكيم أوجده ، يعيب عليه هذا القول ويرد عليه بقوله : « الواقع أن هذا احتمال
محض لأنه يصح أن يكون (أى الكتاب) خاضعاً لحالة أخرى ، ونتيجة لتغير العقل ، ومثلما
عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعاً لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة »
المدهش المحير للعقل في هذا الرد أنه يعيب على اينشتين قوله أن الكتاب يدل دلالة قاطعة

على وجود عقل وضعه ، ويدعى أن هذه الدلالة خاطئة ، إذ يصح أن يكون نتيجة لغير العقل ،
أي لقانون الخطيط المحض 11

أقسم لولا أني أنقل عبارات الكاتب لمخيت أن يظن ظان أني أقول عليه . فهل يحتاج
مثل هذا الخطيط الى رد ؟

إننا كنا نستطيع أن لا نرد عليه بحرف ، لأن رسالته تمحصل في ثماياها معاول هدمها ،
معاول لا يستطيع أبلغ فلم أن يأتي بأشد فعلا منها ، ولكننا حينئذ أن يتوهم من لا علم له أن
هذا الكلام فيه أنارة من علم ، لا سيما وهو يقول : إنها تعطى لعالم مفهومًا جديدًا ونجمنا
تنظر له نظرة جديدة غير التي الفناها . ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها ، لأن التغير
الحادث (أي الذي تحدته) أسامي يتناول أسس التصور نفسه .

فكاتب الرسالة لا ينبغي أن كلامه يتعذر فهمه ، ولكن لا لأنه وهمي محض ، بل لأنه يغير
أصول الفهم ، ويتناول أسس التصور نفسه ، فهو والحالة هذه يتناول الى إحداث حدث
عقلي بوضع أسس جديدة للتصور ، بحيث يجعلك لو قرأت كتابا لا تحكم بأن عقلا وضعه ،
لأنه قد يكون (كما يقول هو نفسه) نتيجة لغير العقل ، أي لقانون (الصدفة) الشامل ،
ومعتمده في ذلك ما مثل به من المطبعة ذات المليون حرف 11

وهذه طامة لا بد من مناقشته الحساب فيها ، وإنا لسائلوه : هل يستطيع تغيير أسس
التصور ، وهي ضمن النظام الكوني ، وقامت على ما قام عليه الكون كله من الأصول الرياضية
الثابتة ، والقواعد الطبيعية الركينة ، وقد أفنى العلماء أعمارهم في تأسيسها على ما خلقت له من
المنطق العلمي ، القائم على اليقينيّات العلمية ؟ وإذا أمكن ذلك فهل يرجى خير من قلمها وجعلها
صالحة للأخذ بكل خيال يقدم اليها ، والاعتداد بالافتراضات والاحتمالات التي لا تمت الى العلم
بأوهي صلة ، لتجد كل الخزعبلات والأوهام طريقا لإفساد عقول الناس بالأوهام التي لا تصبر
عن أصل ثابت ، ولا تقوم على أساس صحيح ؟

إن تغيير أسس التصور على هذا النحو يعود بالإنسانية الى العهود المظلمة التي كانت فيها ،
ويقضى على جميع الثروات التي حصل عليها مصاحو العلم والفلسفة ، ويدفع بالناس الى تيهور
من الخيالات لا يجدون فيه حدا يقفون عنده .

إن اليوم الذي يقرأ فيه الرجل كتابا فيتبادر الى ذهنه احتمال أن يكون قد صدر
عن غير عقل ، ولكن بتأثير قانون الخطيط الشامل تحت قيادة نواميس الاحتمال ، وأن يكون خرج
مرتنا مجموعا مصححا من المطبعة ذات المليون حرف ، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور
الإنساني قد انحل انحلالا لا يرجى معه التثام ، ووصل من ظلم الخطيط الى مكان سحيق ؟

محمد فريد وجرى

التفسير

سورة لقمان

- ٨ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

تقدم في وصية لقمان لابنه في الآي السابقة أن بدأها بأمره بالشكر لله ينبيه على ما أغفل عليه من نعم لم يكن له فيها مدخل ، فقد أوحده من ماء مهين ، وكل خلقه بما لا يحيط به علما ، ووجه من نعم العقل والقدرة والارادة ما لا يستطيع أن يزعم بأن له في ذلك عملا ما ، فشكره أول واجب يحظر بباله حين ينظر الى نفسه وما جل عليه ، وما أفيض عليه من نعم لا تحصى .

وأول ما يحب عليه في الشكر تنزيهه عن الشريك ، وإفراده بالتعظيم ، واعتقاد ماله من صفات الجلال والجلال ، فذلك أس الكمال له في نفسه ، فقال : « يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » ، وفي طي ذلك بهبه على عرفان الحق لمن جعلهما الله طريقا لوجوده ، حتى يرى فيه ملكة الشكر ، فيتدرج من شكر المنعم القريب المحسوس الى شكر المنعم الأعظم الذي يصل الى إدراكه بمفله لا بحسه . وضمن وصيته هذه بيان حد شكره لهما ، وهو ألا يعطى ذلك الشكر على شكر المنعم الأعظم ، وهو الذي خلقه وخلقهما ، وأنتم عليه وأنتم عاينهما حيث يقول : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . وأردفه بقوله : « وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من آتاك الله . أي هذا حدكما : أن تحسن إليهما ، وأن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ، وتعرف لهما حقهما ، ولكن لا تتجاوز هذا الحد فتطاولعهما في الاشرار بالله ، بل اتبع سبيل من آتاك الله . ثم تم له العقيدة الصحيحة بإعلامه أن اليه مرجع الجميع ، وأنه عالم بما ظهر وما خفى ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قل أو جل

حتى لو كان « مثقال حبة من خردل » ، وهو مثل في الصغر والدقة التي من شأنها الخفاء « فتكن في صخرة » ، مثال في كثافة الحجاب « أو في السموات أو في الأرض » مثل في التوغل في التيه ، فقال مهمي يكتسب من هذا وأخفى منه قائل الله عليم خير بل لطيف قدير ، فانه يعلمها ويستخرجها ويأتى بها ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا يمحى عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، فإن تذهب بهذا أشركت به ما ليس لك به علم ؟

ولمعد أن أرشده الى تصحيح عقيدته بعدم الاشراف به وبغرس أنه العليم الخبير التقدير المهيمن على كل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء ، أرشده الى تكميل نفسه بالعبادة العملية ، ولا شك أن مرتبتها تلي مرتبة تصحيح العقيدة ، فقال « يا بني أقم الصلاة » والصلاة مع العبادة . وفي هذا إرشاد الى أن الصلاة من الشرائع القديمة وإن اختلفت كيفياتها ، فأساسها الابتغال الى الله ، والخضوع لمعلمته ، واللجأ اليه في تحصيل مطالب المصلي دنيوية كانت أو أخروية ، فهي نتيجة التوحيد ، ومظهر الاحتياج الكامل للمعبود المطلق ، وأمانة الاعتراف بأنه العليم التقدير الفعال لما يريد . وعند ما تتأمل في سرها تجد مصداق ما ورد بشأنها . « الصلاة عماد الدين فمن أضاعها فهو لما سواها أضيع » بل حين تزداد تأملا فيها تدعك أكل الاذعان لقوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . فلا بدع إذا اقتصر في شأن الكمال النفسى في وصيته على الصلاة ، وانتقل بعدها الى وصيته بتكميل غيره إذ يقول : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما كما قال الغزالي : القطب الأعظم في الدين ، والمهم الذي ابتعث الله له لبيين ، ولو طوى لسانه وتهمل أمره لفشت الصلاة وحمت الجمالة ، واستشرى الفساد وهلك العباد وحسبك قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » فانه لم يكتف بالأمر به في قوله « ولتكن » حتى ناط به الفلاح بقوله : « وأولئك هم المفلحون » ، بالصيغة المفيدة للحصر ، مع أنه فرض كفاية كما يفهم من قوله « ولتكن منكم أمة » . وانظر الى ما في قوله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فالك تجده سيق في الآية الكريمة لبيان علة العن المذكور في قوله « لمن الدين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وكذلك قوله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » فقد ناط بخيرية الأمة بهذا الوصف الجليل . ولا يتوهم أن قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يصركم من ضل إذا اهتديتم » مهوول للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فانهم لا يسمون مهتدين إلا إذا قاموا بهما ، فمن اتسكأ عليها في ذلك فقد أساء فهمها .

هذا ومما يراعى شرطا في إنكار المنكر ألا يكون إنكاره موضع اجتهد واختلاف في الرأي بين الفقهاء ، فليس لشافعي أن ينكر على حنفي صلاته بدون تسمية أو ترك الفاتحة وهو مأموم ، ولا لحنفي أن ينكر على شافعي اقتصاره في الوضوء على مسح شمرة من الرأس . وأمثلة ذلك من مواضع الخلاف كثيرة لا يأتي عليها المد . ومن هذا تعلم مقدار الجهل والحق الذي يلحق بعض المتعلمين فيشربون الفارة على من يصلي الظهر بعد الجمعة من الشافعية مشتمين عليهم بأن في ذلك افتياتا في التشريع إذ أوجب الله خمس صلوات في اليوم ، وروى عنهم قد جعلوه سنا ، وهذا منهم إما جهل أو بهتان ، فإنه لم يقل أحد من الشافعي رعم أن الصلوات ست ، وإنما يرى أن الجمعة في البلد الواحد لا تكون إلا واحدة ، لأن هذا هو الذي جرى عليه العمل زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين : كانت الجماعة تتعدد في الأوقات كلها إلا الجمعة فكانوا يقتصرون فيها على جمعة واحدة في البلد الواحد حتى بعد أن اتسعت المدينة وكثر أهلها ، ولأن هذا هو الأوفق بحكمة مشروعتها ، وذلك أن يجتمع أهل البلد الواحد في مكان واحد مرة في الأسبوع يجددون من قوادهم ويشرفون شئون بعضهم البعض ويكمل ارتباطهم ، قال : فإن تعددت الجمعة في بلد واحد فالجمعة لمن سق . فما المسبوق فعليه أن يعيدها ظهرا . وكذلك من شك في أنه سابق أو مسبوق يعيدها ظهرا ، وذلك أن ذمته شغلت بالمريضة يتيقن ، وقد شك في وقوع جمته موقعها ، فينبغي أن يعيدها ظهرا للتبرأ ذمته يتيقن كما شغلت يتيقن .

وليس من غرضنا الآن بيان وجهة نظر الإمام الشافعي في ذلك ، وإنما كشف النقاب عن جهالة أولئك المشتمين المنيرين شغبيا في المساجد يتكرر كل يوم جمعة بحالة لم نرها منهم في إنكار ما أجمع على إنكاره ، فشرط الانكار ألا يكون الفاعل مقلدا لمن يحيز ، فكيف وهم مقلدون لمن يرى الوجوب ؟

وليس من شرط الانكار أن يكون المنكير غير مقترف إنما مطلقا ، وإن زعمه بعضهم استنادا إلى مثل قوله عز وجل : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » وقوله تعالى : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » وقوله عليه السلام : « مررت ليلة أُسرى بي تقوم تقوم شفاهم عقارب من نار قتلت من أتم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأثم ونهت عن الشر ونأثم » . وليس في هذا شهادة لهم لأن هذه النصوص وما أشبهها مسوقة للتفسير من مقارفة الآثام ، والتشجيع عليهم بقيام الحجة ناصمة أمامهم إذ كانوا آمرين وناهين ، فهم معترفون بنقص ما ارتكبوا ، فقيام الحجة عليهم أبلغ ، وإلا فلا يستطيع واحد أن يقول إن من رأى رجلا يحاول قتل رجل أو زنا بامرأة وهو قادر على دفعه ولكمه يعلم من نفسه أنه قد شرب خمر أو اغتاب إنسانا أو حش في عيّن فليس له وليس عليه أن يمنعه من قتله أو من زناه لأنه قد

ارتكب مكرراً مثله أو أقوى إنكاراً أو أضعف إنكاراً منه ، وذلك أن الامتناع عن الذنوب واجب ، والنهي عن المسكر واجب آخر ، والاخلال بأحدهما لا يسقط وجوب الآخر عنه . هذا وما ينبغي مراعاته مراعاة كاملة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة كما قال تعالى . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، وأن يشمل فيه قوله تعالى « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . وقد روى أن رجلاً وعظ أحد الخلق فأغلظ فقال له : يا هذا قد أمر الله من هو خير منك أن يقول لمن هو شر مني غير هذا : قال تعالى : « فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى » ، ولست أنت خيراً من موسى وهرون ، ولا أنا شراً من هرون .

على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غالباً عرضة لتلقى الأذى والمصاعب والمصائب ، ولذلك حسن رداف هذا الحكم بقوله عز من قائل : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » ، أي أن ما ذكر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور المعزومة ، أي المطلوبة طلباً قاطعاً قوياً ، فلا يكن خوف التعرض للأذى مانعاً منها . ويشبه تفسير العزم بما ذكر تفسيرهم الحكم إلى عزيمة ورخصة . نعم قالوا : إذا علم أنه سيصيبه أذى لا يحتمل ، وأن نهي ضائع الفائدة ، لا يجب عليه ذلك ، بل إذا تبين الأذى وضياح الفائدة لا يجوز له . ومثل ذلك ما إذا علم أن إنكاره سيجر إلى ارتكاب ما هو أشد إنكاراً . وأما إذا كان ذلك مظنوناً أو كان ما يناله محتملاً فإنه لا يخلو من مسؤولية الترك ، عملاً بقوله تعالى : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

وعلى الجملة فلهقل والبصيرة مع حسن النية والاخلاص في النصح دخل كبير في تمييز هذه المواقف ، والله ولي التوفيق ما
ابراهيم الجبالي

لا حكم الا بعد الاختبار

قال حكيم : من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الانس ، أثمرت مودته ندماً .
وقال آخر : مصارمة قبل اختبار ، خير من مؤاخاة على اغترار .
وقال شاعر :

لا تحمدن امرأ حتى تجربه ولا تظمنه من غير تجرب
تحمدك المرء ما لم قبله خطأ وضمه بعد حمد شر تكذيب

الشيعة

الرضاع

عن عائشة قالت : « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات بحرم من ثم نسخ بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فيما يقرأ من القرآن »
رواه مسلم :

يتعلق شرح هذا الخبر أمور : (١) بيان معناه (٢) هل يصح الأخذ بما يفيد ظاهره فيقال إن عشر رضعات معلومات و« خمس معلومات » من القرآن ؟ (٣) إذا كانت « خمس معلومات » نسخت ما قبلها فأين هي ، وبماذا نسخت ، ولماذا نسخت ؟ (٤) بيان الأحكام الفقهية التي تؤخذ من هذا الخبر وآراء الأئمة فيها .

(١) معنى هذا الظاهر أن عائشة تقول إنه كان من بين آي القرآن الكريم آية « عشر رضعات معلومات يحرم » . ومعنى معلومات متحققات غير مشكوك فيها . ومعنى يحرم يوجب حرمة الزواج بين الرضيع وبين من رضع منه على الوجه الآتي ، ثم نسخت هذه الآية لفظاً ومعنى ، ونزل بعدها « خمس معلومات يحرم » واستمرت هذه الآية تتلى في كتاب الله إلى قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رفع لفظها وبقي حكمها وهو يقرأ من القرآن بعد وفاة الرسول . ومعنى كونه يقرأ من القرآن بعد وفاة الرسول أنه يذكر على أنه كان من القرآن بعد وفاة الرسول لقرب عهده بالنسخ . وهذا هو المعنى الذي قسره به من احتج به كما ستعرفه قريباً .

فاذا رضع شخص من امرأة أجنبية خمس مرات أصبحت هذه المرخصة كأمة التي ولدها ، وأصبح زوج هذه المرخصة الذي كان سبباً في نزول هذا اللبن لها بحملها منه أباً له كأبيه من النسب ، فيحرم على هذا الرضيع ومن أرضعه التزوج بما يقتاسل منهم من أبناء أو بنات ، وبما يرتبط بهم من أعمام وعمات وحالات وأخوال ، كما يحرم عليهم ذلك مع الأبناء من النسب . وقد صرح بذلك في حديث آخر رواه مسلم ، وهو « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

والذي يحرم من النسب سبع أصناف :

إحداها الأم ، سواء كانت أما مباشرة أو أما بواسطة الأب أو الجد ، فتشمل الجدة وإن علت من جهة الأب ومن جهة الأم ، جدات الشخص محرمات عليه كأمهاته .
ثانيها البنت . والمراد بها بنت الشخص لصلبه أو بنت بنته وإن تزلت ، ومثلها بنت الابن وبنتها ، وهكذا .

ثالثها الأخت ، سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم .

رابعها بنت الأخت وإن تزلت .

خامستها بنت الأخ سواء كان شقيقا أو لأب أو لأم ، وبنت بنته وإن تزلت .
سادستها العمة وهي أخت الأب ، سواء كانت أخته شقيقته أو لآبيه أو لأمه ، ومثلها عمة العمة إذا كانت أختا للعبد .

سابعها الخالة وهي أخت الأم ، سواء كانت شقيقتها أو لآبيها أو لأمها . ومثلها خالة الخالة إذا كانت أختا للجدة لأم ، وإلا فلا تحرم . فعمات العمات لا تحرم إلا إذا كن من جهة الأب . أما خالات الخالات فلهن لا تحرم من إلا إذا كن من جهة الأمهات . وإليك مثالين لعمة العمة ، وخالة الخالة ، لتقيس عليهما :

الأول : فاطمة عمة عمدة أخت أبيه إبراهيم ، ولدها حسنة هاشم من جدته نعيمة ، أو ولد إبراهيم من أم أخرى ولهاشم أخت اسمها ظريفة ، فظريفة هذه عمة فاطمة وعمة إبراهيم والد عمدة حرام على عمدة لأنها عمة حمته لآبيه ، فهي أخت حسنة هاشم . أما إذا كانت فاطمة أخت إبراهيم لأمه فقط جاءت من أب آخر غير هاشم يقال له حامد ولحامد أخت فاتها تحمل لحمد ، لأنها وإن كانت عمة لعمته فاطمة ولكنها جاءت من أب أجنبي ، فليست أختا لجده هاشم .

الثاني : عمدة أمه هاشم لها أخت اسمها نفيسة ولدها جده أبو طالب من زوجته نائلة ، أو ولدت نائلة نفيسة من أب آخر يقال له محمود ، ولنائلة أخت يقال لها خديجة ، فإن خديجة تكون محرمة على عمدة في الحالين لأنها أخت جدته نائلة لأمه . أما إذا ولد أبو طالب نفيسة من أم أخرى اسمها ظريفة ، وظريفة أخت ، فاتها لا تحرم على عمدة ، لأنها ليست أختا لجده نائلة . وعلى هذا القياس ممكن ما يحرم نسباً فإنه يحرم رضاعاً على هذا التفصيل .

ثم إن التحريم يسرى إلى أصول المرضعة وفروعها وما يتعلق بها بدون استثناء ، فأولادها وأولاد أولادها وهكذا ، إخوة وأخوات للرضيع ، ويراد عليهم ما رضع من ثديها مع الرضيع من الأحابس ، فالورضع لطفل وطفلة أجنبيان من ثدي امرأة كانا أخوين من الرضاع ، وسواء رضعا في زمن واحد أو في أزمنة مختلفة . وأمهايتها وآباؤها جدات أو أجداد للرضيع ، وأخواتها

وإخوتها حالات أو أحوال للرضيع ، وأعمامها وعماتها ، أعمام أو عمات للرضيع إذا كانوا أعماما لأمه من جهة الأب كما قلنا ، وأخوالها وأخالاتها أحوال أو حالات للرضيع إذا كانوا من جهة الأم .

ويسرى كذلك إلى زوج المرضعة الذي نزل لها اللبن من حملها بولده ، وإلى أولاده من المرضعة أو غيرها ، وإلى أولاد أولاده وهكذا ، وكذلك إلى آباءه وإخوته وأخواته وأعمامه وعماته وأحواله وأخالاته على التصصيل المذكور ، إلا أنه يحل لهذا الرجل أن يتزوج أم الرضيع من النسب كما حلت له أمه من الرضاع ، وكذلك تحل له جدته وأخته . أما الرضيع فإن التحريم لا يسرى إلا لفرعه فقط وهم أولاده وأولاد أولاده وهكذا . أما آباؤه وإخوته وأخواته وأعمامه وعماته فلمهم التزوج بأم الرضيع وأخواته وإخوته وهكذا . ومثل أمه في ذلك أبوه من الرضاع .

وكما يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب كذلك يحرم بالرضاع ما يحرم من المصاهرة . مثلاً : إذا تزوج شخص بالمرسعة نفسها فانه يحرم عليه أن يتزوج بنتها من الرضاع متى دخل بها ، وإذا عقد على بنتها من الرضاع فانه يحرم عليه أن يعقد على المرضعة التي أوضعها ، وهكذا ، إلا في بعض صور مفصلة في كتب الفقه .

وبما أوردنا هذا هنا ليعلم الناس صعوبة الرضاع وخطورة ما يترتب عليه من آثار في نظر الدين الاسلامي فلا يقدمون عليه من غير ضرورة . وإذا وقع فانه يجب قيده في سجل خاص حتى لا يقع أحد في زواج من لا يحل له زواجها .

ووجهة نظر الشارع في ذلك أن لبن المرأة هو السبب في تكوين الطفل ونموه . ولا ريب في أن اللبن جزء من المرأة ، وقد جاء بسبب الحمل الذي حملت به من روحها ، فقام اللبن مقام جزء الرجل ، فكل طفل يشرب هذا اللبن يكون جزءاً من أمه وأبيه ، فيصبح ابناً لها وإن لم يكن مولوداً منها . وربما يقال إن هذا يظهر فيما إذا شرب الطفل قدراً كبيراً فثبت منه جسمه وينمو به ، أما إذا مص مرة أو مرتين كما يقول بعضهم فانه لا يظهر كونه جزءاً منها . والجواب أن الشارع جعل لهذا اللبن في ذاته حرمة ذاتية في إيجاد هذه الرابطة وتقوية الصلة بين الناس سواء كان قليلاً أو كثيراً وإن لم تحدث به الجزئية بالفعل ، كي يعلم الناس ما للوالدين من حقوق وواجبات ، فانه إذا كانت القطرة الواحدة من لبن ندى الأم تكني في ثبوت البنوة ويترتب عليها احترام الأجنبي للرضعة وروحها ، فما طنك بمن يتربى بهذا اللبن ويدرج بسببه ؟ ولا يخفى أن هذا المعنى يوجب على الناس أن لا يهملوا في شأن الرضاع ، وإن اقتضته الضرورة فإن عليهم أن يختاروا لأولادهم المرضعات الصالحات العاقلات اللاتي يصح أن يكن لهن أمهات .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثاني فإن المسمين قد أجمعوا على أن القرآن الكريم هو ما بين دفتي المصحف المحفوظ في الصدور . وقد ثبت نقله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً عن رسول الله

عن رب العزة بالتواتر الذي لا شك فيه ، فكل ما ورد في الأحاديث الأحاد فإنه لا يقال له قرآن ولا يعطى حكم القرآن باتفاق . وورد على هذا أمران : أحدهما أنه إذا صح عدم اعتباره قرآنا لم يكر له معنى ، وعلى هذا فلا يصح الاحتجاج به على حكم فقهي . ثانيهما أنه إذا لم يكن قرآنا فكيف تصح روايته على أنه قرآن ، أفلا كان ينبغي لرواة الحديث أن يهملوا الروايات التي تشمل على إثبات آية أو حذف آية من كتاب الله ، فإن روايتها تتضمن الحكم بأن هذه الآية من القرآن أو ليست منه ، وهذا الحكم لا يجوز ، فإنه يدخل في القرآن ما ليس بمتواتر ، ويخرج عنه المتواتر ؟

ويمكن الجواب عن السؤال الأول بأن المستدل به على حكم فقهي لا يستدل به على أنه قرآن بل يأخذ منه الحكم الثالث بطريق الظن وهو كاف . أما الاشكال الثاني فإنه وجيه ، ولهذا جرم الفخر الرازي بأن ما نقل عن ابن مسعود من أن المموزين ليستا من القرآن محض اختلاق ، وصرح في المواقف بأنه لا يجوز الحكم على كتاب الله المتواتر بما ليس بمتواتر . وعلى هذا فلا يصح أن يقال إن من بين آيات القرآن التي نسخت عشر رضعات محرمت ، كإلا يصح أن يقال إن من بين آيات القرآن خمس رضعات محرمت . اللهم إلا أن يقال إن قرآنية مثل هذا لم تثبت لدينا ، ولكنها ثبتت لم كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم نسخت ، فتسميتها قرآنا باعتبار ما مضى . وهذا مع ما فيه من تحكم ظاهر فإنه لا يرفع الاشكال الوارد عن من زعم أن المموزين ليستا من القرآن ، فكان لرواة الحديث غنى عن مثل هذه المتواتر الذي لا شك فيه .

(٣) أما الجواب عن الثالث فإن الذين احتجوا بما روته عائشة قالوا : إن آية « خمس رضعات » نسخ لفظها فقط وحكمها بقي على ما هو عليه فلم تأت آية أخرى بمعنى آخر بدلها . وقد أورد على هذا من وجهين : أحدهما أن نص الرواية التي نقلت عن عائشة ليس فيها ما يفيد أن خمس رضعات قد نسخت ، وهذا يعمد لأعداء الدين الطعن في آيات القرآن الكريم فيقال إن هذه الآية كانت موجودة وحذفت من القرآن كما حذفت آية القنوت التي وردت في خبر آخر ، ومثل هذا يوجد الشك في كتاب الله الذي قال الله فيه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . ثانيهما أنه على تسليم نسخ لفظ خمس رضعات إلخ فما فائدة هذا النسخ ؟ وأيضا إذا كان اللفظ قد نسخ فما الدليل الذي يدل على المعنى مع أن المعنى إنما يؤخذ من اللفظ ؟

وقد يجاب عن الأول بأن لفظ القرآن الكريم قد تواتر تواترا جازما لا شبهة فيه ، وليس منه هذه الآية ، ولا يحتمل سقوط حرف واحد منه ، لأن كل ما هو قرآن قد تواتر نقله الينا ، وهو هذا المعروف لنا المحفوظ في صدور المسلمين برواياته المتواترة بدون زيادة حرف أو نقص حرف ، كما يقال إن هذه الجملة كانت في القرآن ثم نسخت في عهد رسول الله لا يصيد

إلا انطق ، فلا يحكى الجزم بأنها قرآن ، إنما يصح الاستدلال بها على حكم فقهي ظني فقط . فما يعرف به بعض الجبهة أو أعداء الدين من حذف آية أو كلمة من القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو خروج على كتاب الله تعالى . ومثله ادعاء أن به ما ليس منه كما نسب إلى ابن مسعود كذبا من أنه قال إن المعودتين ليستا من القرآن . أما الثاني فلا أحد له جوابا حسنا لأنه لا معنى لحذف اللفظ مع بقاء الحكم ولا تظهر له فائدة مطلقة ، اللهم إلا أن يقال إن هذه العبارة لا تناسب الموضع الذي ذكرت فيه أو كان ذكرها غفلا بالمبارات فحذفت لذلك ، وهذا محال على الله تعالى ، لأن نسخ اللفظ على هذه الصورة يستدعي أن اللفظ المناسب لم يكن معروفا من أول الأمر ، وهذا مستحيل في المبارات . أما الأحكام فإن نسخها معقول ، لأنها تتبع أحوال الناس وتطوراتها ، خصوصا في أول التشريع ، فإن الأحكام المؤقتة ضرورية لم لا عهد له بالشرائع . ومع هذا كله فأي دليل يدل على أن لفظ خمس رضعات يحرم من نسخ وفي حكمه معمولا به ؟ إنه لا دليل عليه مطلقا لا في قول عائشة ولا في حديث آخر ، فعلى تسليم أن هذا كان قرآنا في عهد رسول الله فإنه يكون قد نسخ كله في عهده . وهذا هو المعقول .

وبعد : فإن بعض المحققين من العلماء قال إن ما ورد في خبر عائشة هذا وفي خبر عمر ابن الخطاب من أن الرجم كان في كتاب الله ، ليس معناه أنه كان آية في كتاب الله ، بل معناه أن من بين الأحكام التي أوحى الله بها إلى رسوله وأمرنا القرآن باتباعها أن رضاع عشر مرات من ثدي المرأة يوجب حرمة المصاهرة ، واستبدل هذا بخمس رضعات ، وكذلك من الأحكام التي أوحى بها إليه رجم المحصن إذا زنى . أما كونها موحى بها فذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى . وأما كونها مأمورين باتباعها في القرآن فذلك لأنه تعالى قال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فيكون محصل معنى خبر عائشة هذا أنه كان من بين الأحكام التي أنزلت على رسول الله وأمرنا بالعمل بها في القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من ثم نسخت بخمس معلومات ، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يذكرون الحكم الأخير فلم ينسخ . ولو أن القائلين باشتراط الحس في التحريم أوّلوا بهذا فإنه يكون حسنا ولا يرد عليهم شيء . ولكنهم لم يفعلوا مع أنهم أوّلوا آخر العبارة فقالوا إن معنى كونه كان يقرأ بعد رسول الله كان يذكر حكمه .

(٤) أما بيان الأحكام الفقهية التي تؤخذ من خبر عائشة فإن الشافعية والحاملة قالوا إن الرضاع لا يوجب التحريم إلا إذا رضع الصبي من ثدي امرأة لا يقل سنها عن تسع سنين خمس مرات لاشك في عددها بشرط أن لا يزيد عمره على حولين ولو لحظة واحدة . ولكن الشافعية قالوا لا تحتسب الرضعة إلا إذا شبع الصبي وترك الثدي انصرافا عنه . أما إذا ترك الثدي ليتنفس أو نقلته المرضعة من ثدي لآخر فإنها لا تحسب عليه . ومثل ذلك ما إذا قطعت المرضعة

عن الرضاع لقضاء حاجة يسيرة وعادت اليه مرئياً فأنها تحسب رضعة واحدة ، أما إذا قطعت ولم تمد اليه أصلاً فأنها تحسب ولو لم يشبع . أما الحنابلة فأنهم قالوا متى تناول الصبي الثدي وتركه ولو للتنفس فإن الرضعة تحسب عليه . ولكن مذهب الشافعية هو الموافق للغة والعرف ، لأن الرضعة المشعة لا يقطعها ترك الثدي للتنفس أو نقل الصبي من ثدي لآخر . ثم إن الحنابلة قد اشترطوا أن يكون الابن قد نزل للرضعة بسبب الحبل وإلا فلا يعتبر . أما الشافعية فأنهم قالوا متى بلغت المرأة سن الحيمر وهو تسع سنين إلا قليلاً ونزل لها لبن فانه يوجب التحريم بالنسبة لها . هذا هو رأي الشافعية والحنابلة ، وخالفهم في قدر الرضاع الحميمية والمالكية ، فقالوا : إن القدر اليسير من لبن المرأة ولو قطرة يوجب التحريم إذا وصل الى جوف الصبي من الثم أو الأنف ، أما إذا وصل بالحقنة من القمل أو الدبر فانه لا يحرم عند الحنفية ويحرم عند المالكية بشرط أن يكون كمية مفذية .

ووافق الشافعية والحنابلة الحنفية فقالوا : إذا وصل لبن المرصعة الى جوف الطفل بالحقنة فانه لا يعتبر رضاعاً محرماً . على أنهم قد أجمعوا على أنه لا يشترط مع الثدي ، بل المدار على وصوله الى الجوف من الثم ولو بطريق الصب في حلقه أو الأنف .

ثم إن المعتمد عند الحنفية أن مدة الرضاع حولان كاملاً ، فإذا رضع صبي من امرأة بعد سن الحولين فإن رضاعه لا يعتبر . ويعتبر رضاعه أثناء الحولين ولو فطم واستنق عن اللبن باتفاق الثلاثة . وخالف المالكية في ذلك فقالوا إذا رضع أثناء الحولين ولو بعد سنة واحدة وهو فطم مستنق عن لبن الثدي فإن رضاعه لا يعتبر . وخالفوا أيضاً في تحديد مدة الرضاع فقالوا إنها حولان وشهران ، أعنى ستة وعشرين شهراً ، فإذا رضع الطفل في أثناءها وهو غير فطم فإن رضاعه يوجب التحريم .

ومن هذا يتضح أن الأئمة الأربعة اشترطوا في التحريم بالرضاع أن يكون الرضيع طفلاً ، وذهب اثنان الى أن قدر الرضاع يجب أن يكون خمس مرات مشبعات كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الرضاع من المجاعة » . أى لا يعتبر إلا إذا سد جوع الصبي . وهذا هو المقول في تعليل التحريم بالرضاع ، فأنهم قالوا إن علة التحريم هي كون الصبي صار جزءاً من المرأة برضاع لبنها ، وهذا القدر كاف في تغذية الصبي ، لأن معدته صغيرة فينمو به جسمه ويصير جزءاً من المرأة . أما ما ذهب اليه المالكية والحممية من أن القطرة الواحدة تكفى في التحريم فانه يناق ظاهر هذا الحديث مع كونه حديثاً صحيحاً متفقاً عليه . ويضاً يناق حديث ابن مسعود وهو « لا رضاع إلا ما أنشأه العظم وأثبت اللحم » أخرجه أبو داود . فهذا صريح في أن القطرة لا تكفى .

وقد استدلل المالكية والحنفية بقوله تعالى : « وأمهاتكم اللاتي أَرْضعنكم وأخوانكم من الرضاعة » فانه سبحانه لم يقيد الرضاع بأى مقدار . وقد روى عن ابن عمر أنه قيل له إن

ابن الزبير يقول : لا بأس بالرضعة أو الرضعتين ، فقال : قضاء الله خير من قضائه قال تعالى « وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم » فاستدل ابن عمر بهذه الآية فيه رد لمثل هذه الأحاديث بأنها منسوخة . وقد يقال إنه لا دليل على النسخ ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد بين بهذه الأحاديث ما أجملته الآية ، لأن الله سبحانه قال : « لتبين للناس » . ولا فكيف علم الناس شرائط الرضاع وأحكامه بالتفصيل ، وكيف علموا باقي المحرمات بالرضاع مع أن الله لم يذكر سوى الأم والأخت ؟ فظاهر الأحاديث وحكمة التحريم بالرضاع يؤيدان القائلين باشتراط التغذية بلا نزاع .

أما اشتراط الطفولة في الرضيع فقد أجمع عليها الأئمة الأربعة . وحالهم فيه بعض المجتهدين ، فقال : إن رضاع الكبير يوجب التحريم كرضاع الصغير ولو كان رجلا له ولاد . وقد استدلوا على ذلك بحديث صحيح رواه مسلم وغيره . وحاصل معناه : أن ثيا حذيفة زوج سهلة بنت سهيل قد تبني مولى له يقال له سالم ورباه وهو صغير ، فكان بمنزلة الابن الحقيقي بدون فرق ، فلما نبى الله الناس عن التبني بقوله « ادعواهم لآبائهم » وأمر النساء أن يحتجوا عنهم ، شق ذلك على سهلة فشكت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرها صلى الله عليه وسلم أن ترضع سالما ، وهو رجل كبير ، لتصير أمة من الرضاع فلا يحرم عليه النظر إليها . فهذا الحديث لصحيح نص على أن رضاع الكبير يوجب التحريم .

وقد أجاب عنه الأئمة بأن ذلك خاص بسهلة . ولكن لا دليل على الخصوصية . وقد أجاب بعض المحققين بأن رضاع الكبير ينفع في مثل هذه الحالة فقط وهي حالة الضرورة ، لا فرق في ذلك بين سهلة وغيرها ، لأن الغرض من ذلك إيجاد وسيلة شرعية تبيح هذا المحذور الشاق . ورضاع سالم في هذه الحالة ليس بممنوع مع كونه أجنبيا لا يحل له لمس ثديها ، لأنه في الواقع بمنزلة الابن الذي لا يشتهي ، فلا حاجة إلى أن يقال إنها عصرت له اللبن وشربه ؟

عبد الرحمن الجزيري
من علماء الأهر

الخبر في خبايا الأرض

حكى عن المعتمد بالله الخليفة العباسي أنه قال : رأيت على بن أبي طالب في المنام ياولي مسعاة ، وقال : خذها فانها مفاتيح خزائن الأرض :

ولقي عبد الله بن عبد الملك يوما ابن شهاب الزهري فقال له : أدلكني على مال أعالجه ، فأنشأ الزهري يقول :

اتبع خبايا الأرض وادع مليكها لملك يوما أن تحجب فترزقا .
فيؤتيك مالا واسما ذا متانة إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا .

حدث جليل لا يمكن الصبر عليه

فلا والله ما في العيش حير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
بلغنى أنه ظهر في عالم المطبوعات كتاب سحيف يدعو الى الاتحاد عنا بكل أنواع الدعاية ،
ويقول إن هناك جماعة منظمة لبث هذه الدعوة ، ولها فروع . وقد أخذ صاحبه يرسله
الى الصحف والمجلات . وما أدري كيف يكون ذلك في عهد حكومة إسلامية دينها الرسمي
هو الاسلام ، وفي عهد ملك صالح أصبحت تصرب به الامثال في محبة الدين والعلم ! فان كان
كاتبه مفترا بحرية الاعتقاد التي كفها الدستور ، فليعلم أنه أخطأ في فهم الدستور كما أنه أخطأ
في فهم الدين والعلم . فان الدستور كفيل له أن يعتد ما شاء في حاسة نفسه ، لأن يدعو
الناس الى الكفر والخروج على دين الدولة الرسمي ، وانتهاك مقدساتها ونشر الفساد وإثارة
الفتن التي لا يعلم مدى غايتها إلا الله تعالى ، خصوصا في مثل تلك العقيدة الفطرية المتأصلة
في النفوس تأصلا لا يزعه شيء ، بل هو يأتي على كل شيء . وأمامك تاريخ المصور والامم
وأقوال الفلاسفة القدماء والمحدثين في ذلك ، حتى قال ديكارت الفيلسوف الشهير الذي جعل
أساس فاسفته الشك ثم انتهى بعد الى اليقين البالغ ، يقول :

« إن عندي شعورا بوجود ذات كاملة لا يفتقر في الوضوح عن شعوري بأن مجموع زوايا
أي مثلث تساوي زاويتين قائمتين ، إذا فاه موجود »

ويقول في بيان تعجب الله الذي لا قابله : « إن لفظة الله إن لغات لها فاهما ، عنى بها داتا
لا نهاية لها . رؤية دائمة مستقلة عالة بكل شيء ، وقادرة على كل شيء ، وإني أنا وجميع الموالم
الموجودة مخلوقة لها وناشئة منها »

ولا بأس أن نعمل بذكر شيء من أقوال فلاسفة أوروبا الذين هم أساطير العلم لطبيعي الذي
يستند إليه . أولئك الزعاف الذين ليسوا في العير ولا في النهر ، فان علم الطبيعة يرى عما نسبوه
إليه وافتروه عليه ، كما سنيين ذلك بعد أتم بيان . وخذ الآن ما قاله أحد الفلاسفة العظام
في الاستدلال على الله ، يقول .

« لو كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك ، فن أين نشأ
للإنسان الذي خلق من مواد لا عقل لها ذلك العقل والإدراك ، وفقد الشيء لا يعطيه ا
إذا فلا بد أن يكون في الوجود عقل مطلق وإدراك لا حده . ولا مناص لما من تقرير
تلك الحقيقة وهو أنه يوجد في العالم شيء موجود بذاته أبدي لا يدركه تحول ولا يحتره
تبدل ، لأننا إذا فرضنا أنه كان هناك وقت ليس فيه شيء مطلقا أي لا شيء قائم بغيره ولا شيء

قام بنفسه من التقدم لم ألا يكون غير المدم ، والعدم لا يصلح لايجاد شيء ، فلا بد أن تكون تلك الحقائق الابدية التي تدرك بالنظر في الوجود جارية على سنن معينة بلا تحول ولا تبدل هي صادرة من الله .

ويقول الفيلسوف « ليبنتز » الألماني :

« إن الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارا وتتأثر له مشاعرا ، هو من الممكنات ، أي ليس بضروري الوجود ، فقد يوجد أو لا يوجد ، وليس في أحدهما شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها تستطيع أن تقل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالي . إذاً يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذي هو مجموع هذه الكائنات الممكنة ، يجب البحث عنها في الذات التي تحمل معها علة وجودها ، فهي الواجبة الوجود والأزلية .

« يجب أن تكون هذه العلة عاقلة ، لأن الكون الموجود لما كان ممكنا أي قد يكون ولا يكون ، وفي الامكان حدوث دنياوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطة لملاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة فيه ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولا شيء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التي لها .

« هذه العلة الحكيمة يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة والرحمة ، ولما كان الوجود كله مرتبطا ببعضه ببعض ومفرقا في قالب واحد فلا سبيل لفرص وجود علة ثانية معها . إلى آخر آرائهم الفلسفية التي سنلم بكثير منها ومن غيرها بعد ، إن شاء الله .

وما رأيت أمرا أعجب مما نحن فيه ، فإن الناس يأخذون في كل صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف على يدي من ليس يحسنها ولا هو مستعد لها ، فتري كل إنسان ملتزما حده غير مدع ولا متسرع . ولكنك تراه في العلوم العقبية والموضوعات الدينية ينطلق انطلاق الحيوان بلا عقل ولا روية بمقتضى الحرية الممقوتة .

وليعلم أولو الأمر وزعماء الأمم أن فوضى العلم والدين والأخلاق أضرت على الناس من فوضى الصنائع والحرف ، ولا شيء أسقط للأمم من شيوع الاحاد فيها ، ولا أدعى لتدهورها من ضياع الأخلاق وعدم فهم الحرية على وجهها الصحيح . وانظر الى حال الأمة الاسلامية أيام كانت متمسكة بدينها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولم تكن قوالة لا فعالة ، والى حالها اليوم وليس لها من العزة والكرامة إلا دعاوى لسانية وماني خيالية اكتفوا بها اكتفاء الضعيف بالغيالات والأوهام .

فنسأل الله أن يرشدنا إلى الفهم الصحيح ، والاخلاص الصحيح ، حتى لا نسير في تكوين الأمة على غير المعقول ، فنبني الدور الرابع من الحريات المتطرفة قبل الدور الأول من التربية الصحيحة ، واحترام الدين والآداب . وقد قال تعالى : « لمن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يعملون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون » .

وقال صلى الله عليه وسلم . « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم عماؤهم فلم ينتهوا فجالسهم في مجالسهم وآكلهم وشاربهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . ويقول عليه السلام : « ولتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليسلطان الله عليكم شراركم فليستجاب لهم » إلى آخر ما ورد في الكتاب والسنة ، وهو كثير .

وننقل اليوم كلمة موجزة في مقدمة الكلام على هذا الموضوع الذي سنفيض القول فيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، فنقول :

من أسكر وجود الله لم يرد على أن قال عن نفسه إنه محنون ، فاننا إذا رأينا كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم نستطع أن نقول إنها مكتوبة من غير كاتب . فما بالك بهذا الكون الباهر بسماؤه وأرضه ونجومه وأقماره وشمسه وكل عجائبه ! ولكن من عرف أن الإنسان مستعد لكل شيء حتى أقطع أنواع الجنون لم يستغرب ذلك منه .

وقد قلنا في كلمتنا السابقة (مشكلة التوحيد) : إن الحار إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد ضرب بلا ضارب ، فمن تصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ونظام بلا منتظم وأشياء متقنة كل الاتقان بلا صانع حكيم ، فهو أجهل من الحار . ولكننا ننزل فنسمي هذا الصنف من الناس بحمير البشر . وقد أنشدوا قديما :

قال حمار الحكيم توما لو أنصف الدهر كنت أرك

فأنى جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب

وليس هناك غرابة في كل ما تراه من الإنسان أو تسمعه عنه ، فقد قرأنا في تاريخه أن فريقا من الناس أنكر المحسوسات بالمرءية وهم (الموفسطائية) والمحسوسات هي هي وضوحا وحلا . وقرأنا أن من الناس من قال في كل شيء : لا أدري وهم (اللأدرية) . ومعنى ذلك أنهم غير معترفين بوجود شيء حتى أنفسهم ، وشاكون في كل شيء حتى في شكهم .

أما الأولون فجازمون بإنكار المحسوسات وعدم تحققها وقيمون البرهان على ذلك .

ولا أدري كيف لا يجعلون إقامة البرهان منهم برها على وجود الأشياء . ولكن من عرف الإنسان لم يعجب من جهله وتناقضه . وكفى في تاريخ الإنسانية من المصعكات والمبكيات ! ولنتل عليك بعض ما قال الله فيه : يقول الله عز وجل مينا لما حصل عليه . « إنه كان ظالوما جهولا » لجعله جهولا ولم يجعله جاهلا ، وجعله ظالوما ولم يجعله ظالما « إن الشرك لظلم عظيم » ويقول : « وخلق الإنسان ضعيفا » . وعسى أن ضعفه العقلي أكبر من ضعفه الجسمي ، إلا من أهداه الله بنور من عنده . ويقول في حق فريق من الناس . « أولئك كالأنعام بل هم أضل » . ويقول : « وإن تعلم أكثر من في الأرض يصبوك عن سبيل الله ، إن يتمعن إلا القليل وإن هم إلا يخربون »

وكيف لا تعجب من جهله وقد وصل من مهادة البرهان ومصادمة المعاني الى حد ما قال الله فيه . « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فطأوا فيه يرحلون فقالوا إننا سكرت أنصارا بل نحن قوم مسحورون » . ويقول في الآية الأخرى : « ولو أننا زلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا » .

فانظر الى ذلك التعصب في الجهل والعناد أمام آيات الله وتباه الله مع استعداده في الوقت نفسه لأن يضحك عليه بعض المضلين ويلعب به بعض المشعوذين . فكيف لا تقول إن نوع الإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات !

وبعد : فإياك أن تظن أن إحداء الملعدين لضعف في دلالة الآيات أوقوة فيما لديهم من الشبهات ، كيف وقد وصلت الآيات الى حد الحس ، وصارت أبهى لدى العقلاء من نور الشمس ، وقام عليها ألوف البراهين ، ولا شيء أجلى منها لدى من هو مستعد لأنوار اليقين .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

« أم خالقوا من غير شيء أم هم الخالقون »

فليس تلككم من تلكا فيها لشبهة يمتد بها أو يقول عليها ، ولكن لتصور في استعداده وخلل في عقله ، ومزید سلطان الوهم لديه ، وتسلسل جميع الآفات النفسية عليه !

وقد قرروا في الفلسفة أن الوهم سلطانا قويا لاغاية ، حتى إنه ليسازع العقل في البديهيات ويسلم المقدمات ثم ينازع في النتيجة . الى هذا الحد وصل سلطان الوهم على النفوس ، وإلى هذا الحد أثر في الأدمغة البشرية !

عرفنا ذلك كله فيما قرأناه من الفلسفة ، فلا نستغرب شيئا من هذا النوع المذبذب الذي هو أعجوبة الخلق ، ولكن الواجب أن نحذف هذا الفريق المصاب بأنقطع أنواع الجنون

من سجل الإنسانية وحساب العقلاء . وإذا التفتنا إليه وجب أن نعتبره عضوا فاسدا يجب بتره وإجماله مع الاحتياط الواجب لميانة جسم الإنسانية من إصابة عدواء التي هي شر من عدوى الطاعون . وإن من الأعضاء الفاسدة ما لا يفرض إلّا قيحا وصديدا ، فيجب الابتعاد عنه وعدم القرب منه ، وقد عرفت أن القرآن جعلهم أحط من الحيوان فقال : « ثم نحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

فإذا لا غرابة بعد أن علمنا أن الإنسان مستعد لأن يكون أشرف المخلوقات على الإطلاق وأعطى على الإطلاق ، في أن يرى فريقا ينكر وجود الله وهو أوضح من حسه وأقرب إليه من نفسه : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » . ولكنه ليس فيه استعداد لفهم البراهين ولا للتحلي بحلية اليقين ، فهو كالخجاسة أو أشد قسوة ، كما بينه الحكيم المليم . وهذا الفريق جدير بنا أن نسميه حير البشر كما قلنا .

وقد قال بعض الفلاسفة : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » .
ولعل المقدمة لا تحتاج من البيان إلى أكثر من هذا ، وستنعم ما يشفيك ويكفيك
إن شاء الله ﷻ

يوسف الربوي
عضو جماعة كبار العلماء

في ذم الكذب

قال الله تعالى في ذم الكذب : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله »
وروى صفوان بن سليم قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال نعم (أي قد يكون كذلك ولا يمتنع أن يكون مع ذلك مؤمناً) ، قيل أفيكون بخيلاً ؟ قال : نعم . قيل : أفيكون كذاباً ؟ قال : لا .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » أي لا تخطروا الصدق بالكذب .

وقيل في منشور الحكم : الكذاب لص ، لأن الله يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك .

وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب ، وصدق الإنسان أول السعادة .

وقال بعض البلغاء : الصادق مصان جليل ، والكاذب مهان ذليل .

وقال أديب : لا سيف كالحق ، ولا عون كالصدق .

كلمات اجتماعية

في الزواج ووحدة الزوجة وتعدد الزوجات

الزواج حاجة من الحاجات المعيشية غرزها الخالق الحكيم في الكائنات الحية لحفظ أنواعها ، واستمرار وجودها . فإذا لم يحمله حاجة ماسة مرتكزة على أقوى الفرائز النفسية لم يحمل به حتى ، وبخاصة في النوع البشري ، لأن تكاليف الحياة الزوجية شاقة لا يتحملها الإنسان إلا إذا كانت حاجته إلى الزواج ظاهرة .

وإنما لموردون كلاما عاما عن هذه العلاقة الاجتماعية ، ثم مردفوه من الأبحاث بما يقتضيه موضوعه الخطير فنقول :

وحدة لزوجـة :

وحدة الزوجة هو الأصل في الزواج ، وهو أول ما حدث في العالم الانساني ، ثم تلاه تعدد الزوجات لأسباب سنسبها في موضعها .

فصلا عن أن وحدة الزوجة هي الأصل ، فإن هناك أسبابا معيشية واجتماعية تدعو إليها . مثال ذلك الأمم التي يصعب على أحدها الحصول على ما يكفيها من المواد الغذائية ، كالقبائل الساذجة المنتشرة في البرازيل من أمريكا الجنوبية ، فإن قلة الغذاء تجبر رجالها على الاكتفاء بـ زوجة واحدة ، لصعوبة الحصول على القوت . وتجري هذا المجرى عيه قبائل البوشيان في أفريقيا . فأنهم مع سماح شرائعهم لهم بتعدد الزوجات يكتفون غالبا بـ زوجة واحدة لتلك العلة عيها . وقد شوهدت علاقة أكيدة بين وحدة الزوجة وبين شغل القبيلة لسطح متسع من الأرض ، وتعرها عليه . مثال هذا قبائل الفيداء في الهند فأنهم يكتفون بـ زوجة واحدة ، ويتشددون في ذلك لليلة المتقدمة .

ثم أن ميل المتوحشين لحطف النساء بالقوة يدعو إلى توحيد الزوجة ، فإن الرجل لا يتفق له اختطاف امرأتين دفعة واحدة . فكانت وحدة الزوجة سابقة على التمدد لا محالة .

وقد استمر بعض المتوحشين على توحيد الزوجة مدة مديدة مضطرين إلى ذلك بصعوبة حصول الرجل على أكثر من زوجة واحدة إذا كانوا في جهة لا يكثر فيها النساء .

ومع هذا فلم تكن الرابطة الزوجية على شيء من المتانة . لأن الآخرى من المتوحشين كان يمدو على الضعيف فيسبي أمراته . قال العلامة الثوردي أفيري : إن الرجل من قبائل خليج هودسون بأمريكا لا يستطيع أن يحظى بـ زوجة إلا إذا كان صيادا ماهرا ، وقويا مقداما . أما إذا كان ضعيفا طاش عزبا ولا كرامة .

ومن الأسباب الاجتماعية التي حددت وحدة الزوجة ، ارتقاء فكرة الملكية عند المتوحشين وانتظام أمر الأخذ والاعطاء بينهم . وقد قلت حوادث حطف النساء عند ما أعدت القبائل لها عدتها في الدفاع ، فقد كان المتعرض لها يجرد من الصعوبات ما يشي عرمة ، أو يقع أسيرا فيلحق مصروف التعذيب . واستمرت هذه القلة لما بدت الأمم تشتري النساء بالدرهم أو تعطاهن في مقابل عمل يعمله الرجال على سبيل الآخر . ومن دفع لامراته ثمنا أو تحصل عليها لخدمة السنين الطويلة عز عليه أن يسلم فيها إلا بعد جهاد جليل .

ولما كان رجال القبيلة كافة لم يتحصلوا على نسائهم ، لاسئل جهود كبيرة ، فتراهم يتحرون مع كل من يدافع عن زوجته . ونشأ من ذلك اعترافهم لكل منهم بحق صيانة امرأته . وهذا السبب عينه قلل من حوادث الطلاق . فان الرجل متى أدرك أنه لا يستطيع أخذ امرأة غيرها إلا بدفع مبلغ من المال أو بخدمة سنين عديدة ، تمصر في أمر الطلاق وكبر عليه مرد امرأته . ثم إن هذا المبدأ ساد كل الميادين في البلاد حين تساوى فيها عدد الرجال والنساء ، سواء كانت بسبب قلة الحروب المجتاحة للرجال ، أم لغيرها من الأسباب . وفي هذه الحالة ظهر أمام تعدد الزوجات حائل طبيعي شديد . فانه في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يختار الرجل نساء إلا إذا أوجب المزوجة على بصمة رجال . هذه الحالة المخرجة تدعو الرجال لكراهة تعدد الزوجات ، فيتكون رأي عام مضاد لتعدد فيبطل .

وقد روى العلامة (لاو) إن هذه الحالة حدثت في قبائل الدياكس من جزيرة بورنيو بالاقيانوسية ، فاتها بعد أن كانت معددة للزوجات رجعت الى مبدأ التوحيد . حتى إنه كان الرئيس منها إذا عدد زوجاته فقد مكانته في أمة قومه .

ومن فوائد وحدة الزوجة في مثل هذه الحالة أنه متى تساوى عدد الرجال والنساء في مجتمع ، كان ذلك أدعى لكثرة النسل وحفظه . والسبب الطبيعي في ذلك ما شوهد أن عدد الذرية يكون أكثر لسيا في المجتمعات التي لكل رجل منها زوجة واحدة ، من عدد الذرية في المجتمعات التي يكون لكل رجل منها أكثر من واحدة من النساء .

تعدد الزوجات :

تعدد الزوجات موحود في كل قارات العالم ، ولدى جميع الأجناس البشرية ، فهو منتشر لدى الفويجيين من أمريكا والأوستراليين والتسمانيين ، وفي كاليدونيا الجديدة وتانانغاوا وإيروانجي وليغو ، وعند قبائل المالبوبوليزيين وتاييتي وجزائر ساندويتش وجزائر توننجار وزيلاندة الجديدة ومدغشكر وسومترا . وشائع لدى قبائل أمريكا المتوحشة جنوبا وشمالا ، وعام عند أهل أفريقيا كافة ، وعند أكثر أهل آسيا ، ولا نجد بأسا من أن نقول وأوربا أيضا . والفارق بينه عند هذه الأمم وبينه عند أهل أوربا أن الأولين يعترفون به في قوانينهم ،

والأوروبيون لا يعترفون به ، ولكنهم يأتونه باسم المخادنة . فان من الشائع هناك أن يحتاز الرجل من النساء عددا تقدر ما يستطيع الاتفاق عليهن ، ولكن خارج نطاق القانون ، بحيث لا يكون لأولئك النسوة أدنى حق يطالبن به الرجال إذا مجروهن أو استولدوهن أطفالا ولم يعترفوا بهم ، وقد أصبحت هذه العادة من أعقد المسائل الاجتماعية لديهم .

وتوجد أم تسمح قوانينها بتعدد الزوجات ، ولكن تحول الناقة بين أحادها وبين العمل بهذه الرخصة . كما هي الحال لدى قبائل الجوندس والاوستياك والفيدياء بالهند .

فاذا سمحت الأحوال في بعض البيئات للدماء بالحصول على قوتهم بمحض كدهن وكدهن ، فلا تمنع الناقة السائدة في مثل تلك القبائل من تعدد الزوجات ، كما هي الحال عند الأستراليين والفويجيير .

ولا يذهبن أحد القارئ عند ذكرنا للأستراليين الى أننا نقصد الانجليز المستعمرين لها . فان هؤلاء لا يحتفون في عاداتهم ونظمهم الاجتماعية عن إخوانهم في بيئتهم الأصلية ، ولكننا نقصد بهم القبائل العائشة في أستراليا ، وهم على حالة توحش تام ، ولا يقبلون أن يدخلوا في المدنية بحال من الأحوال .

يبالغ بعض السياح في انتشار مبدأ التعدد عند جميع الرجال في البيئات التي تسمح به ، وهذا غير معقول ، فانه يلزم منه أن يكون النساء في تلك البيئات أكثر من عدد الرجال اضغافاً كثيرة ، ولا نرى لذلك سبباً علمياً ، فان الخالق جل وعز جعل عدد الإناث بقدر عدد الرجال مع تفاوت يسير ، فتارة يريد عدد النساء تضع عشرات من الألوف ، وتارة ينقص بذلك القدر ، فلو كان ما يقوله أولئك السياح صحيحاً لكانت للبيئات المتوحشة سنة خاصة ، وليس ذلك بصحيح . فقد أثبت الرواد العلميون أن تعدد النساء في تلك البيئات قاصر على الأغنياء ولقادة دون سائر الأفراد . فان أهالي جاوه وسومترا تسمح قوانينهم بالتعدد ، ولكنه قاصر على الملوك والرؤساء . وقد شوهد مثل ذلك في جميع الأمم المعددة للزوجات .

لتعدد الزوجات أسباب متعددة :

ليس الداعي لتعدد الزوجات ينحصر فيما يتبادر للأذهان من حب الاستكثار من الشهوات ، ولكن توجد أسباب توحه على الآخذين به في كثير من البيئات .

من ذلك : أنه قد يمتاز رجال في كل قبيلة بقوتهم العضلية وحيلهم العقلية ، فهؤلاء يعتبرون من كبار المحاربين ، وقد يرتقون الى درجة الرياسة في قبائلهم . هذه الميزة تمكنهم من اختطاف عدة نساء سواء : كن من قبيلتهم نفسها أم من قبائل أجنبية . ومن هنا اعتبر اختطاف المرأة من علامات المفاخر والمجد . وكلما تعددت النساء عند رجل كان فخاره أعظم وشجاعته أسمى للعجب . فنشأ مبدأ الاستكثار من النساء قائماً في أكثر الحالات على طائفة حب الظهور بمظهر

الممتارين من الرجال . فقل الرحالة (كلا فيجيرو) أن ملوك المكسيك بأمریکا كانوا يفتقدون أنهم لا يستطيعون أن يحفظوا مكائهم إزاء الناس إلا إذا أكتروا من النساء والسراري . وقد أكثر أهل الوجاهة في جزيرة مدغشكر من اختيار النساء ، استراة من الوجاهة ، حتى اضطرت حكومتهم للحظر على غير الرؤساء باختيار أكثر من اثنتي عشرة امرأة . وروى الرحالة (بورتون) أن الفخر باقتناء النساء بلغ لدى بعض قبائل أفريقيا حد الإفراط فرأى أن لبعضهم نحو ثلاثمائة امرأة .

وانتقل مبدأ التفاخر بعدد النساء الى أوربا ، فروى المشرع (مونتسكيو) الفرنسي المتوفى سنة (١٧٥٥) أن ملوك الأسرة الميروفنجية التي حكمت فرنسا من القرن الخامس الى سنة (٧٥٢) كانوا يعتبرون من المفخر استكنارهم من النساء .

وهناك أسباب اقتصادية نشت على تعدد الزوجات ، منها : أن المرأة كانت تفتنى لتشتغل في الحقل وفي البيت . وقد اعتاد رؤساء كاليدونيا الجديدة بالاقياوسية أن يتزوج أحدهم من عشرة الى ثلاثين امرأة بقصد تشغيل في الحراة والسقاية .

هذا السبب الاقتصادي أدى أهل أفريقيا أجمعين الى تعدد الزوجات ، فان عمل النساء هناك السروح الى مساوق شاسعة لطلب الخشب والماء ، وأرواجهن يجبرونهن على الزرع والحصاد . وعند أهل الكفقر وهو قطر من أفريقيا الجنوبية يشغل الرجل امرأته في أشق الأعمال وأقساها . وهو يعتبرها بقرة له . وقد كلم الرحالة (شور) الانجليزى أحد الكافرين في شأن تشغيل امرأته . فقال له كيف لا أشغلها وقد اشترتها بمالى ؟

وبناء على هذا ، فان كثرة النساء عند هؤلاء الاقوام هى بمثابة كثرة الأرقاء والخدام . وبما ساعد على انتشار تعدد الزوجات ، اعتبار هذه العادة من الصالحات الدينية . وقد دلت أحوال قبائل (الشيوى) على أنهم يعتبرون المعدد للزوجات محترما عند الروح الأكبر وهو معبودم الأقدس .

وكذا كان الشأن عند قدماء المصريين . فان تعدد الزوجات عدم كان لا ينافى الاخلاق انفاضة ولا التعاليم العالية . وما حلفوه من الآثار يدل على أن الله بارك في رجال كانت لهم أزواج عدة ، وسرار كثيرة .

ومن الغريب أن هذا الاعتبار لمبدأ تعدد الزوجات ليس خاصا رجال ، ولتلك القبائل ، بل بنسائهم أيضا . فقد شوهد أن نساء قبائل الكوش من أمريكا الشمالية لا ينظرن لتعدد الزوجات بمن الكراهة ، ولكنهن يعتبرنها أمرا حسنا . والسبب في ذلك أن المرأة لما كانت معتبرة كالهيمة هى تحب أن يكون معها شريكات لتخف عنها الأعمال . وقد روى الرحالة ليمحسون الانجليزى أن نساء قبائل الما كولوس من أفريقيا عدم ما ممن بأن الانجليز لا يمددون الزوجات

صحن قائلات : انهن لا يستطعن أن يفهمن كيف أن النساء الانجليزيات يرضين بهذه العادة ، فان الرجل الفاضل يجب عليه أن يعند زواجه إدلالا على غناه وصماحته .
هذه الآراء كما يقول الرحالة المذكور آتفا سائدة لدى القبائل النازلة على طول نهر الزامبيز من أفريقيا الجنوبية .

ومما شوهد عند السود أنه ليس لديهم حب ولا عطف على المرأة غير الميل البهيمى المعروف . فقد روى مونتيرو الرحالة الذى مكث فى السودان سبعين كثيرة أن الأسود لا يعرف الحب للنساء ولا الفيرة عابهن ، وليس فى لغتهم ما يعبر عن هذه المعاني .
وذكر اللورد أفبرى الفيزيولوجى الانجليزى أن قبائل الهوتدوت من أفريقيا ليس بين رجالهم ونسائهم تعاطف ، حتى ليظهر أنهم يجهلون الحب جهلا تاما . وذكر مثل ذلك عن أهل الكفمر من جنوب أفريقيا . وقال أن فى (ياربا) من السودان يتزوج الرجل بالمرأة ولا يتم بذلك إلا بقدر ما يتم بقطع سنبل من سنابل القمح ، ولا يشاهد عليه أقل علامة للسيل إليها .
وليس هذا يعبى تعدد الزوجات ، ولكنه عيب الجهل إذ أنه يوجد بين القبائل الموحدة للزوجة أيضا .

ومما يجب لفت النظر اليه أن نقيحة هذه الجفوة المتبادلة بين الرجال والنساء تظهر بأفظم مظاهرها فى سن الهرم ، لأن الرجل لا يكون قد غرس فى قلب امرأته حباً فى صباه يحملها على العناية به فى كبره ، فتهمله أو تقصر فى خدمته فيموت على أسوأ حالة .

متنفضات أخرى لدى للتوحشين :

لا يتأتى لباحث أن يجد قانونا تسير على موجه أحوال المتوحشين ، وذلك يرجع لأن الانسان لم يطعم كما طعم الحيوان على أوضاع واحدة من الحياة ، بسبب ما جعل عليه من الحرية فى تصرفاته .

فبينما ترى كثيرا من المتوحشين لا يابهنون برابطة الزواج ، ولا يشعرون بأقل عطف على نسائهم ، ترى قبائل أخرى تخالفهم فى هذه الميول كل المخالفة . مثال ذلك أمة الفيداء من بلاد الهند فانها تقدر الرابطة الزوجية الى أقصى حد ، فلا تسمح لزوجين أن يفصل أحدهما عن الآخر لأى سبب من الأسباب ، مقررين أنه لا يجوز أن يفترق بين الرجل وامرأته إلا الموت . وهذا مستغرب من قبائل لا تزال فى الدرجة الأولى من سلم الاجتماع

هل صادف الباحثون علاقة بين قوة أو ضعف الروابط الزوجية وبين الأخلاق ؟ لم يشاهد شئ من ذلك فهذه قبائل التلة كليس مع احترام رجالها لانسائهم ، وحسن معاملتهم ، ومع أن نساءها شديدات المطف على أزواجهن ، ومطيمات لهم ، تخدمهم من ناحية أخرى أكذب خلق

الله السنة ، وأشددم لموصية ، وأقسام قلوبا . فتجدهم يشلون بأسرام تمثيلا مريعا لمبا
ولهما ، ويقتلون ارقاهم قسوة وتوحشا .

كذلك حال قبائل الشاسان فيينا تصادهم يقتلون النفس بلا أقل حرج ، ويكذبون كذبا
لا حدة ، تجدد نساءهم من أفضل نساء الأرض محافظة على الاخلاص الزوجي .
وعلى شاكلتهم سكان جزائر فيجي ، فيينا هم على غاية ما يكون من القسوة والفظاعة ، تجدهم
يحفظون عهد الزوجية حفظا لا مذهب بعده .

ومن متناقضات المتوحشين أن المرأة في قبائل كوتياحاس ما دامت بلا زوج لها أن تعمل
ما شاءت من الحرى وراء هواها ، ولكن متى تزوجت حافظت على عفتها حفظا ليس لئلا
مري . ويجرى مجراها نساء قبائل كوماناس .

وعند أهل بيرو من أمريكا الجنوبية لا يهتم الأب بالهيمنة على سيرة ابنته ، ولا تعاب
لدى قومها أن يكون لها أصدان كثيرون . ولكنها متى تزوجت راعت أدق شرائط العفة ،
وأصبحت مثالا في الاخلاص للرابطة الزوجية . وقبائل السيشاس لا يهتم رجالها أقل اهتمام
بسيرة نسايم قبل الزواج ، ولكنهم يحاسبونهن حسابا عسيرا على مراعاة الاستقامة بعد
الزواج ، ويتأثرون من خرقهن سياج العفة تأثرا يخرجهم من حدود الاعتدال .
العوامل التي تؤثر في تحسن حالة النساء :

الذي شاهدته المستقرون لأحوال النساء عند المتوحشين أن المرأة في القبائل الحربية
تكون أكثر عبودية للرجل ، منها في القبائل التي بدت فيها حياة صناعية ، لأن الحياة الحربية
تجعل بين عمل الرجل وعمل المرأة حدا فاصلا ، خلافا للحياة الصناعية ، فانها تحدث بين الجنسين
شبه تمازج لا اشتراك السكافة فيها ، فتنشأ للرجل فكرة المساواة وتنصلح حالة المرأة .

من أصرح الأمثلة على ما تقدم ما يشاهد في أحوال القبيلتين المتجاورتين في بولونيزيا وهما
الفيحيون والساموان ، فالاولون يشتغلون بالحروب والغارات ، وحكومتهم استبدادية مطلقة ،
وفي أفرادهم خشونة تبلغ حدود الهيمنة . وللزوج على امرأته من الحقوق ماله على الحيوانات
الصحى ، فيستطيع بيعها أو ذبحها والتغذى بلحمها إن شاء .

أما لدى الساموان الذين نشأت فيهم مبادئ الصنائع ، فقد وصلوا في غلال السلام الى حالة
حسنة في حكومتهم وآدابهم ، وحسنت حالة المرأة عندهم الى حد أن الرجل لا يحملها من الأعمال
إلا ما تطيق ، ويترك ما لا تطيقه لنفسه . وإذا حدث أن الرجل فارق امرأته بعد معاشرتها سنين
ترك لها شطر ماله لتعيش به .

هذه لمحة من أحوال المرأة في البيئات المنحطة لاغنى لباحث عن الألبام بها ليدرك فضل
الديانة الاسلامية ومكانها من تقويم أحوال البشر ما
محمد فرير ومجدي

الأخلاق الفلسفية

— ٤ —

الضمير وقوة سلطانه على النفوس

ينقسم الضمير الى قسمين : ضمير نفسى ، وضمير أدبى أو أخلاقى . فأما الأول فهو إدراك ما يجيش فى نفوسنا من الانفعالات والاحساسات ، والأفكار والتأثرات . وأما الثانى فهو حال للنفس تحكم بواسطتها على الخير والشر من الأعمال والنيات . فالأول لا يمثل فى علم الأخلاق إلا دوراً ثانوياً وهو دور الشاهد أو المنبئ بأثر تلك الاحساسات ، وهو لهذا يوجد فى الحيوانات . أما الضمير الأخلاقى ، فهو واسطة العقْد وبيت القصيد ، لأنه هو القاضى المسموع بالحكم ، ولأنه يستطيع أن يتعدى نفوسنا الى نفوس غيرنا ، فكأنه يأمرنا بالخير وينها عن الشر قبل العمل ، ويستريح للفضيلة ويؤنب على الرذيلة بعد الوقوع ، كذلك يستطيع أن يحترم الغير لفصيلته ، ويحتقره لرذيلته دون أن يشعر ذلك الغير بهذا الحكم الذى أصدره له أو عليه فى الخفاء .

نستطيع إذاً أن نقسم مهمة الضمير الأخلاقى الى قسمين : قسم إيجابى وهو قبل وقوع الفعل من الانسان ، والقسم الآخر سلبى أو عاطفى ولا يظهر أثره إلا بعد الوقوع . فأما القسم الأول فيشتمل على دورين :

(١) تمييز الخير من الشر وإيضاح الفرق بينهما .

(ب) استمرار المناداة بنهج سبيل الأول ، وبالبعد عن الثانى والحذر من الوقوع فيه .
وأما القسم العاطفى الذى هو بعد وقوع العمل ، فهو الى السلب أقرب منه الى الإيجاب ، لأنه لا يحتوى إلا على انفعالات عاطفية ، مثل الاستراحة والغبطة بعد عمل الخير ، وكالتأنيب والتوبيخ بعد عمل الشر ، وهذه الأعمال وإن كانت سلبية إلا أن لها فى كثير من الأحيان آثاراً بارزة ، فهى التى تحمل المذنب على الاعتراف بجريمته ولو لم يحمْ حوله شكوك الاتهام ، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم هذا المذاب الداخلى الذى هو أسرع الى أكل ذبالة الفؤاد من نار السموم ، وهذا التأنيب هو الذى يدفع الأثمين الى الدم والتوبة .

هناك فرق آخر بين الصميرين النفسى والأخلاقى يجب الاعتناء به ، وهو أن الضمير النفسى مستمر للعمل ، لأنه يتأثر بكل إحساسات الحياة وهى لا تنقطع . وأما الضمير الأخلاقى ، فهو لا يتحرك للعمل إلا حين يوجد الحكم بالخيرية أو الشرية على عمل الانسان أو على بيته المطلقة ، فهو لهذا يعمل حيناً ويقف حيناً آخر .

آراء العلماء في الضمير :

اختلف الفلاسفة وعلماء الأخلاق والتربية في الضمير اختلافات كثيرة ، وتشتمل فيه آراؤهم تشعات شتى تمت كل شعبة منها الأساس الجوهري لمذهب صاحبها في الفلسفة ، إذ ليس من المعقول أن يكون رأى التطوريين الفائلين يتناسل الانسان من الحيوان متفقاً في تعريف الصمير مع مذهب العقلين الذين يؤمنون بوجود السر الرباني في النفوس الانسانية ، ولذلك نرى من الواجب علينا أن نلم هنا ببعض هذه الآراء في شيء من الإيجاز ، ثم نعقب عليها بما نعتقد أنه الحق المبين ، غير ملتفتين الى النظام التاريخي بين هؤلاء العلماء :

(١) يرى « كانت » (١) الفيلسوف الألماني المعروف أن الصمير هو شعاع نوراني هبط من لدى القوة العليا المطلقة الغير المحدودة الى القوة المقيدة المحدودة ، فهو هاديها الى الصراط القويم ، وقائدها في الطريق المعتدل ، ومبهد ظلمات الحياة التي تغل فيها لو حادت عن نصيحته وشرشاده قيد أنملة .

ولقد قسم « كانت » العقل الانساني الى قسمين ، فسمى القسم الاول بالعقل النظري ، أو لنظر الفكري ، وهو القسم الخاص مدراك عالم الظواهر والمحسوسات والحكم عليها . وجوز « كانت » أن ينخس هذا القسم من العقل ويضل ، لأن رسله وهي الحواس التي تبلغ اليه هذه المدركات كثيرا ما تصل وتضلغ . ولا ريب أن الأحكام المؤسسة على صلال تكون ضلالا . ولقد عانى « كانت » في هذه المسألة الفلسفية مغالاة أدخلت كتبه في غلام حالك وغموض عميق حدوا بتلميذه « شوبنهاور » الى الاعتراف بأنه لا يفهم كثيرا منها ، ودفعها كثيرا من علماء القرنين الى إثارة حملة ضد غموض « كانت » وإيهامه . ومما قاله « كانت » في هذا الصدد : « لو أخذت حواسنا صورة غير الصورة التي هي عليها الآن لتغير الزمان والمكان اللذان هما ظروفا كل شيء في هذه الحياة ، ولتغيرت بتغيرهما أحكامنا على كل شيء من هذه الموجودات ، إذ هذه الأحكام ناشئة عن هذا النوع من الادراك بخصوصه ، وإذا بهذا القسم من العقل لا يعتمد عليه في كل ما يقول » .

أما القسم الثاني فقد سماه كانت بالعقل العملي ، أو المظر العملي ، وقال عنه : إنه هو الذي يدعو الى القيام بالواجب ، وهو في هذه المهمة مغموم من الخطأ ، بعيد عن الانخداع ، لأنه غير خاضع للحواس الضميمة المعرضة للضلال ، وهو مستمد من النور الأعلى . ولا شك أن هذا المذهب يتفق في جوهره مع رأى أخلاقي المسلمين تمام الاتفاق ، فلو رجعنا مثلا الى ابن

مسكويه (١) لربناه يوزع المجموعة الانسانية على ثلاث قوى مختلفة : الاولى الساطقة أو العاقلة . الثانية السبعية أو الغضبية . الثالثة الشهوانية أو البهيمية . ويحزم بأن الاولى هي شعاع نوراني قذف به الخالق حل وسما الى المص الشريفة ، وحمله فيها مناط الامر والتكليف ، وسلب العقاب والثواب ، ومصدر التفكير والتحير ، ومأثي الاستراحة للخير ، والألم من الشر ، وصرح بأن الاصل عند هذه القوة هو الانمطاف نحو كل خير وجمال ، والفور من كل شر وقبح . فاذا وقع العكس من الانسان ، كان ذلك ناتجا من تغلب إحدى القوتين الأخريين : الشهوانية أو المحجومية على إرادته بدرجة حملتها لا تصاع الى أمر هذا الصوت العوي الجليل . فانت ترى أن ابن مسكويه قد سبق « كات » الى هذا الرأي القيم نحو ثمانمائة سنة ، وقد امتار عه بوضوح الفكرة وجلالها ومهولة العماره وسلاسة الأسلوب ، وإن كان « كات » قد اتفرد بتقسيم هذه القوة الناطقة الى عقليين : عملي ونظري ، وأسند الى كل منهما أعمالا اختص بها دون الآخر

وأما أميل الى هذا التقسيم بالرغم من أن كثيرا من علماء أوروبا قد وجهوا اليه سهام النقد والتفريع ، وسكوا عليه حامات السخرية والاستهزاء لسببين :

الاول : هو الظلمة والتعقد . الثاني : هو أنهم لم يستطيعوا أن يستيفوا أن للانسان عقليين مختلفين . وأنا أوافق هؤلاء النقاد في النقطة الاولى ، لأنني لم أر فيها رأيت من كتب الفلسفة والأخلاق أعقد من كتب « كات » أسلوبا ، ولا أنهم عبارة ولا أنمض مرمى ، ولا أخفى فكرة . أما فيما يتعلق بتقسيم العقل البشري الى قسمين ، فأمامه على وفاق تام ، وإن كنت أسمى القسم الاول بالذهن المدعن للحواس ، الخاضع لتأثيرات الحياة المختلفة . والثاني بالضمير أو الصوت الخفي الأعلى .

(٢) ويرى « جان جاك روسو » (٢) أن الضمير هو قوة نورية سكنها الخالق جل حاله في وسط ظلمة هذا الجسم الكثيف الضال ، فأحالت ظلامه نورا ، وبدلت ضلاله هدى . وهو عده يفاير العقل ويمتاز عنه بالمصمة والنبات . والضمير هو في رايه الفارق الأوحد بين الانسان وبقية الكائنات الأخرى ، أما العقل فهو لا يكفي في نظره لتحقيق الفرق بين الانسان والحيوان ، لأنه يحوز عليه الصلال والاختداع . واليك ترجمة شيء مما قاله في الضمير : « أيها الضمير ، أيها القوة الفطرية ، أيها المميز الأدنى الخالد ، أيها الصوت السجاوى ، أيها الهادى الموثوق بهديته ، أيها القائد الأعلى لذلك الكائن الجاهل المحدود ، أيها القاضي المعصوم والحكم الذى لا يضل ولا ينخدع في تمييز الخير من الشر ، والذى يحقق وجود الصلة

(١) يوسف مسلم واخلاق كبير توفى سنة ٤٢١ هـ . (٢) مربي وادعائي فرنسي ولد في سنة ١٧١٢ وتوفى في سنة ١٧٧٨

بين الآله والانسان ، أيها الضمير : إنك أنت الجوهر الأعلى الموجود في طبيعة الانسان ، وإنك عصر الفضيلة في أعماله ، ولولاك لما شمرت بما يرفقني عن صفوف الحيوانات إذا استثنيت تلك الميزة المحزنة التي تنقاني من خطأ الى خطأ ومن ضلال الى ضلال ، وهي أداة الفهم المرعرة أو العقل الذي لا ثبات له .

ولقد أثرت تعاليم « جان جاك روسو » في معاصريه ومن أتوا بعده تأثيراً ظهرت صورته فيما كتبه تلميذه « جاك كوفي » الألماني عن الضمير ، فقال : ما هو الخير ؟ إنه لا يوجد شيء أسهل من الجواب على هذا السؤال ، لأن كل فرد من أفراد بني الانسان يحوى في داخل قلبه وحياً صادقاً معصوماً يلهمه الاجابة عليه في حلاء ووضوح وهو الضمير .

(٣) يرى زعماء المدرسة « الاسكتلندية » أن الضمير هو حاسة في الانسان يمر بها الخير من الشر كما يميز المرئيات والمسموعات والملموسات سواء بسواء . وقد تقد هذا الرأي كثير من العلماء ، واعتصوا عليه بأن اعتبار الضمير حاسة من الحواس يوقع أنصار هذا المذهب في الحيرة والارتباك ، لأن الحواس كثيراً ما تخطئ وتضل . وإذا فالضمير على هذا الرأي يجب أن يخضع لقانون الحواس مادام واحداً منها . وعلى ذلك تكون أحكامه صائبة تارة ، ومخطئة تارة أخرى ، ويجب على الانسان أن يتردد في عمل ما يأمر به الضمير وألا يندفع وراءه في كل ما يريد ، وإلا لكان معرضاً للسقوط بين براثن الشر والضلال في كثير من الأحيان . وفوق ذلك ، فإنه يلزم على رأيهم هذا أن يكون للحيوانات ضمائر تستريح للخير وتؤنب على الشر ، لأنهم لا يستطيعون طمعا أن يدعوا اختصاص الانسان بهذه الحاسة دون غيرها من الحواس ، بل المنطق يقضى عليهم بأنه — ماداموا قد جعلوا الضمير حاسة — يجب عليهم أن يجوزوا عليه كل ما يجوز على الحواس ، وألا يعزوه عنها شيء ، غير أننا نلاحظ أن المشاهد هو عكس ذلك كله . وإذا فممكننا أن نجزم بأن رأى المدرسة الاسكتلندية غير صحيح ؟

الدكتور محمد فخر

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

النفس عن النفس

قال بعض الحكماء : من رضى عن نفسه ، أسخط عليه الناس .

وقد بين الشاعر ابن كشاجم ، سبب هذا الإسقاط فقال :

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها	ورضى العني عن نفسه إغصابها
ولو اننى عنها رضيت لقصرت	عما تزيد بمنته آدابها
وتبيت آثار ذاك فأكثر	عذلى عليه فطال فيه عتابها

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

آلة القصاص

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

جرت مملكة بهوبال الإسلامية «لمد في الأزمان الماضية على إعدام القاتل بالسيف خاصة، وكان لدى المملكة سياف ماهر حذق مهنته ، فكانت لا تنبو ضرباته ، ولكن مات هذا السياف فعينت المملكة حلفاءه لم يكن في حراة السياف الأول ولا مهارته ، فحدث أن قدم له محكوم عليه بالإعدام لينفذ فيه الحكم فضربه بالسيف صربة لم تجهز عليه ، مما كان له أثر في مضاعفة عذابه وألمه .

لذلك كلفني سعادة السيد شعيب فريش وزير المهام الخاص بحكومة بهوبال أن أقدم الى فضيلتكم بالأسئلة الآتية راجيا التفضل بالاجابة عليها :

- ١ — ما حكم الشرع الشريف فيمن قتل نفسا وثبتت عليه الجريمة بالادلة المقبولة شرعا ؟
- ٢ — هل يشترط أن يكون إعدام القاتل بنفس الطريقة التي حصلت بها الجناية ، أم يجوز بأية آلة حادة كالسيف ، ثم بأية آلة أخرى كالجلوتين «المقصلة» أو الكرسي الكهربائي أو غيرها من الوسائل ؟

٣ — ما معنى لفظة القصاص في هذه الحال ؟

محمد حبيب أحمد

المدرس بكلية أصول الدين

وسكرتير البعثة الأزهرية الى الهند

الجواب :

- ١ — من قتل عمدا نفسا معصومة الدم شرعا وكان عاقلا بالغاً وليس بينه وبين المقتول ما يورث شبهة تسقط القصاص وثبت عليه ذلك عند الحاكم ، وجب أن يقتص منه إلا إذا عفا ولي المقتول .

٢ — ورد في السنة « لا قود إلا بالسيف » وقد أخذ الحنفية من هذا الحديث أن القصاص لا يستوفى إلا بالسيف وإن كانت الجناية قد حصلت بغيره ، وقد ألحقوا بالسيف كل

ما يكون مماثله في سرعة إزهاق الروح وعدم تخاف الموت عنه كالرمح والحجر والمصل وكل معد يقتل به مادة ويمضى الى الموت من غير تخلف ، فأباحوا استيفاء القصاص به ويرى الشافعية أن حناية القتل إذا كانت قد وقعت بالسيف فاستيفاء القصاص من القاتل لا يكون إلا بالسيف ، وإن وقعت الجناية بأداة أخرى كفرت بهما غليظة أو محرقت أو غير ذلك مما يقتل به عادة ، فلو أن أمر المقتول الخيار في أن يكون استيفاء القصاص بمثل الآلة التي قتل بها المقتول أو بالسيف ، وعطوا حواز استيفاء القصاص بالسيف في هذه الحالة مع أن الجناية وقعت بغيره بأن السيف أسهل وأسرع في إزهاق الروح .

واللجنة ترى تمثيلاً مع التعليل الذي ذكره الحنفية في إلحاق غير السيف بالسيف ، ومع تعليل الشافعية حواز استيفاء القصاص بالسيف فيما لو وقعت الجناية بغيره - أنه لا مانع شرعاً من استيفاء القصاص بالمقصلة والكرسي الكهربائي وغيرهما مما يفصل الى الموت بسهولة وإسراع ، ولا يتخلف الموت عنه عادة ، ولا يترتب عليه تمثيل بالقاتل ، ولا مضاعفة تعذيبه .

أما المقصلة فلاها من قبل السلاح المحدد . وأما الكرسي الكهربائي فلا أنه لا يتخلف عنه الموت عادة مع زيادة السرعة وعدم التمثيل بالقاتل دون أن يترتب عليه مضاعفة التعذيب .
٣ - بناء على ما تقدم يكون معنى القصاص في هذه الحالة مجازاة القاتل بإعدامه وإزهاق روحه ، ولا يلزم أن يكون إعدامه بمثل الآلة التي حصلت بها الجناية . والله أعلم ؟

تربية الكلاب - وتعليم الصلاة

وورد أيضاً على لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

- ١ - هل يجوز أن تربي الكلاب كالقطط لحراسة البيت مثلاً أو لا يجوز ؟
- ٢ - هل يجوز أن نلعب الكلاب وندأبها بعصا ومسكها بأيدينا ونضعها على الفراش في البيت وهي مبلولة على مذهب الامام مالك رضي الله عنه أو لا يجوز ؟
- ٣ - إذا لحس الكلب بدن المصلي أو ثوبه تطل صلاته ، وهو يقلد الامام مالك رضي الله عنه ، أو لا تبطل على مذهبه ؟
- ٤ - هل يجوز في ديننا الاسلامي أن نعلم التلاميذ الباقين كيفية الصلاة عملياً من القيام والركوع والسجود وغيرها من الأركان خارج أوقات الصلاة المفروضة ، لينتروا على ذلك أو لا يجوز ؟
راج كلنتي سمو ولي عهد دولة كلنتي
ورئيس المجلس الديني بكلنتي - كوتا بهارو

الجواب :

- ١ — مذهب مالك رضى الله عنه أن اتخاذ الكلاب في البيوت جلب منفعة أو دفع مضرة جائز .
- ٢ — إن حسد الكلب ولعابه ومخاطه وعرقه — كل ذلك طاهر مادام حيا . وعلى هذا إذا جس الكلب على السرير ، ولاس الشخص ، فإنه لا ينحسه ، ولا يجمع ذلك صحة صلاته وعبادته المتوقفة على طهارة كالطواف بالبيت الحرام ، وسواء أكان جسمه مبتلا أم غير مبتل .
- ٣ — إذا لمس الكلب بدن المصلى أو ثوبه ، فإن ذلك لا ينحسه ولا يطل صلاته .
- ٤ — إن تعليم التلاميذ كيفية الصلاة قبل الدخول فيها بالكوع والسجود جائز شرعا ، بل قد يكون واجبا إذا كان البيان بالقول لا يكتفى في تعرف كيفيةها ، وأدائها على الوجه المطلوب شرعا ، والله أعلم .

في الميراث

وجاء أيضا الاستفتاء الآتي :

توفيت امرأة عن أخت شقيقة ، وعن أخوين لأبها ، وعن أربع أخوات لأبها . فالى من تؤول التركة ؟ وما هو نصيب كل وارث ؟
عبد الحميد البرادعي

الجواب :

تؤول التركة الى الأخت الشقيقة ، والى الأخوين والأخوات لأب ، ونصيب الأخت الشقيقة النصف ، والنصف الباقي للأخوين والأخوات لأب ، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، والله أعلم ؟
رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد اللطيف النعمان

الإسلام في الهند

مما يجب أن يلم به دعاة الإسلام في العالم ما يقوله عنهم ماعزروم من دعاة الملل الأخرى ، ولا حرج علينا في نقل أقوالهم حتى ولو كان فيها ما لا يتفق والواقع وقد اطلعنا أخيراً في جريدة (المسيحية في القرن العشرين) التي تصدر بباريز تحت العنوان المذكور آتفا على ما تعربه :

« قد اعتبر بعضهم الإسلام في الهند قوة في حالة تدهور ، وهذا خطأ محض . فقد دلت الإحصاءات الأخيرة أن بالهند اليوم أكثر من سبعة وسبعين مليوناً ونصف مليون من المسلمين ، وهذا العدد يفوق عدد السكان المسلمين في بلاد العرب والمعجم والترك ومصر وسورية وفلسطين عجمية . وقد زاد عدد مسلمي الهند في السنين العشرة الأخيرة مليونين ونصف مليون نسمة . والعمل التبشيري المسيحي لم يبلغ حده المرجو بين هؤلاء المسلمين ، رغم أن القرص مواتية لنا فيها أكثر من مواتها لنا في أي مكان آخر ، بسبب أن المرتدين من الهنود لا يجازون بالقتل . ومنذ أكثر من عشرين سنة يبت الهنود المسلمون دعوة قوية للإسلام خارج البلاد الهندية . وطلبة العلم منهم يمررون مئات من المحلات منها عدد كبير يكتب باللغة الانجليزية ، ومنها ما يكتب بالفرنسية والالمانية . والهند هي البلاد الوحيدة التي ترسل دعاة الى أوروبا وأمريكا وأفريقيا ، ويستطيع دعاؤها أن يباهوا انقراضهم بأنهم كانوا سبباً في إسلام شخصيات مشهورة كاللورد هيدلي وغيره . والمسلمون الهنديون هم الذين حملوا على إقامة المساجد في برلين ولوندره واستراليا والبرازيل والتركيبتيه . وقد ترجموا القرآن الى الانجليزية والالمانية والهولندية والصينية واليابانية ولغة أفريقيا الجنوبية ، وحلوا كل ماعمة من هذه الترجمات بشروح وافية . ولكن الدعوة للمسيحية لم تقف معقولة الانسان أمام هذه الدعوة الاسلامية . فقد ترجمت التوراة الى جميع اللغات التي يتكلم بها المسلمون من الهنود . ووضعت مؤلفات دينية عديدة بتلك اللغات .

« وغير هذا فان الكنيسة الهندية المسيحية التي يبلغ عدد أتباعها اليوم (٥٩٦١٠٠٠) يزداد شعورهم يوماً بعد يوم بالتبعات الملقاة على عواتقهم حيال المسلمين . وقد نجحت الدعوة المسيحية فيهم فتشعر منهم عدد عديد . ففي الهند الجنوبية وحدها يوجد أكثر من مائتي قسيس انجيلي ومعلم كانوا فيما سبق مسلمين . وهذه الدعوة للمسلمين ترداد العناية بتنظيمها على الدوام . ومن ذلك إصدار كتب جديدة لهم سنوياً ، وإعداد مبشرين خاصين بهم منحلين بكل ما يجعلهم صالحين لمهمتهم هذه . وقد ثبت قبل كل شيء أن المسلمين المتنصرين يبذلون قصارى جهدهم في استالة إخوانهم السابقين في الدين الى المسيحية » .

هذا ما جاء بتلك الجريدة التبشيرية ، ومنه يتضح مبلغ اهتمام دعاة المسيحية بتبصير الشعوب الاسلامية ، وما يعتمدون عليه من الوسائل في إنجاح مقاصدهم . وقد نلت نظرا فو لهم إنهم إنما يعتمدون على منتصرة المسلمين في تفير عقائد إخوانهم السابقين في الدين ، وقد سافوا في عرض الكلام أن عدد المنتصرة من الهنود قد بلغ ستة ملايين نسمة إلا قليلا . وهو نجاح لهم عظيم إذا قيس شمات أصماهم في جميع بقاع الأرض .

وما كنا لكثرت لهذا السحاح الذي أصاوه لولا أن هدفهم تنصير المسلمين هنالك ، وهذا أمر يوجب الأسف الكبير ، ويدعو الى تعرف أسبابه والعمل على وضع حده .

فن أهم أسبابه الجهالة الضاربة بحراهما بين المسلمين في تلك الأصقاع ، فهم لا يعرفون من الاسلام شيئا يمتد به ، ولا يساوون في هذه الجهالة بدينهم حتى الوثنيين . وهذه الجهالة تعود النبة فيها على المنعدين منهم . فان هؤلاء لا يهتمون بأمر العامة إلا إذا أقبلوا إليهم في المساجد مصليين ، ولكن يوحده بجانب كل مائة من مقيمي الصلاة ألوف لا يؤمنون بجماع المؤمنين ، بل لا يحفظون فاتحة الكتاب . ف هؤلاء صرعى خصب لدعاة الملل يسلطون عليهم مهرة أعوانهم من منتصرة المسلمين فيوحدون إليهم زخرف القول غرورا ، ويفرونهم بكل ما تتوق إليه أنفسهم ، حتى يوقموا قرا منهم في حياتهم ، وهلم جرا ، لا يكون ولا يملون . لأن المال يدر عليهم من جميع الجهات ، والطريق ممهدة لهم في كل بقعة من بقاع الأرض ، والحماية مبسوطة عليهم في كل مكان .

ومما قرأناه في هذه البذرة وكنا نعرفه من قبل ان قرأها ، أن للهنود ولوما حاصا نشر الدعوة الاسلامية في البلاد الأجنبية ، وهم ينفقون في ذلك أموالا ، ويقفون عليه أعمارا ، وهذا عمل شريف يشكرون عليه ، ولكن أولى منه بالاهتمام ، العناية بأبناء ملتهم الذين سبب جهلهم قد وقعوا في وثنية لا تفرق عن أية وثنية في الهند ، وقد انتشرت بينهم باسم الدين عادات وتقاليد سافطة لا تنتشر بين قوم ، لا أوردتهم موارد الهلكة ، وقضت عليهم بالندهور الى حضيض المهانة .

فلو أن هؤلاء القادة ومماهم ممن يهرعون الى العواصم الأوروبية بحجة نشر الاسلام ، يمتنون بإخوانهم في الدين فيسقطون لهم البعوث يرشدونهم ويعلمونهم ، ويجمعون لهم من فضل ما لهم ما يؤسسون لهم به مدارس أولية لتنقيف عقولهم ، وتنوير أذهانهم ، وتقويم قلوبهم ، لكانت ثمرة هذا على الهنود خاصة ، وعلى المسلمين عامة أعظم قدرا ، وأبقى أثرا ، من الثمرة التي يصلون إليها من إدخال عدد محصور في الاسلام من أبناء أوربا وأمريكا .

نعم على المسلمين أن يدعوا العالم كافة الى الاسلام بكل لغة وبكل بيان يصل إليه الامكان ، ولكن لا يجوز أن ينسبهم هذا واجباتهم نحو أبناء ملتهم ، وقد أصبحوا من انقطاع مدد

الهداية عنهم يرمعون في حاة العادات والتقاليد التي تنافي الاسلام من كل وجه . فن المناقض للمسطق أن يترك هؤلاء على ضلالهم ويرحل الى البلاد الأجنبية لدعوة أهلها الى الاسلام .

إن الكتاب الغربيين الذين تنالم من قراءة ما يذشرونه من التهم التي يوجهونها الى الاسلام ، إنما يصدرن في كتاباتهم عن حالة عامة المسلمين لا خاصتهم . فتى أقيم مولد من الموالد في بلد هرع إليه كل من يوحى في ذلك البلد من مراسلى جرائدكم ، وكتاب أناصيصهم ، ومن سياحهم ، فإذا يرون في هذه الاحتفالات غير ضروب الفجور تقام لها سوق رائجة حوالى المسجد ، وأوراع من الغرفاء متوزعة على حالة حنقات للذكر يصيحون ويتأيلون ، ومن تلك الحلقات ما يقوم بينها رجال يزمرون أو يضربون الساجات أو يغنون ، وهذه الصروب من الرقص والصباح لا توجد إلا في بلاد المتوحشين ، فيحكم أولئك الأوربيون بأن هذه الطامات من الاسلام نفسه ، ويزيدم اعتقادا أنه من الاسلام ما يرونه من سماح البوليس بها ، ومن تردد معمين يشبهون علماء المسلمين عليها ، أو مرورهم غير منكرين ولا متبرمين بها .

وإذ كان الأمر على ما ترى فكيف لا يطمع دعاة الملل في هداية هؤلاء الجاهليين الى ملهمهم ، وهم يعتقدون عقيدة راسخة أنها توصلهم الى خير مما هم فيه ؟

إن الاسلام دين أعلى مدنية يمكن أن ينخيلها الانسان تخيلا ، وقد طالب أهله بالقيام على سنة الكمال الذى ليس بعده مرمى لرام ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمح لصاحب من أصحابه أن يرتكب ما يتنافى هذه السنة في موقف خطير . ذلك أنه وهو مهاجر الى المدينة كبر أحد أصحابه عند مارأى معالمها بصوت جدير ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم على ما فعل ، وقال له إن الذى تدعوه ليس بأصم ولا غافل ، إنه أقرب إليك من رأس ركابك فهل تسمح بحن ، ونحن في القرن العشرين ، ونحت أعين النقاد والمناظرين ، أن يرتكب باسم الدين ما لو حدث في صدر الاسلام لقوتل مرتكبوه أو يعودوا لصراطه المستقيم ؟

إذا صدقت العزائم ، ونشطت الهمم لنشر الاسلام في العالم ، وجب على المنتهدين لذلك أن يطهروا البيئة الاسلامية من أرحاسها . هذا في ذاته واجب ديني أولى ، فان كان فساد هذه البيئة يعطل في الوقت نفسه الدعوة الاسلامية وجب أن تضاعف الهمم لآرائه لأن ضرره أصبح مزدوجا . وقد أزل الله إلينا آخر الأديان وكلفنا أن ننشره في العالم كافة ، فيجب علينا أن نتخذ كل ما يجب من الأهب للقيام بهذه المهمة على وجهها الأكمل ، ومن أوليات هذه الأهب إزالة كل ما يرتكبه المسلمون باسم الدين مخالفا له كل المخالفة . وقد تمهد لنا الطرق لاجداث هذا الإصلاح الجليل ، فان العوس كلها تنوق الى اليوم الذى نجد فيه مواطن الاسلام مثلة لجلالة أصوله ، وبعد مراميه ، حتى يصدق عليها قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » محمد فريز وجرى

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي

النثر الفني (١)

لم يظهر في ميدان القصة في هذا العصر من المؤلفين من هو أقدر من عمرو بن بحر الجاحظ الذي استطاع أن يسيطر على المواد العربية القديمة، والمواضيع الأجنبية، ويجمع بينها وبين جميع العلوم الدينية والفلسفية المعروفة في هذا الوقت، وعرف كيف يصوغ معلوماته الواسعة ومعارفه الكثيرة في أطيب الأشكال وأقربها للتناول. لم يعرف بالضبط القومية التي كان يتبع لها الجاحظ بالنسبة إلى أهله، ولكن من المؤكد أنه لم يكن عربياً أصيلاً؛ وضع أساس حياته الدراسية كابن المقفع بالبصرة، حيث كانت العلوم القديمة والعلوم الثغوية والنحو في أزهى أوقاتها، بل وكانت تزدهر بها أيضاً علوم العقائد الحرة التي أشطت في هذا العصر بفضل الآراء والأفكار المأخوذة عن الفلسفة الإغريقية، انكب الجاحظ بكلياته على هذه الدراسات وأسس له مدرسة دينية لم تلبث أن اختفت تحت ضغط الظروف السياسية، كما تلاشت جميع علوم العقائد الحرة في هذا الوقت، وبني الجاحظ شهرته الأدبية على ما اكتسبه في الساحة العلمية التي ظهرت فيها موهبته الممتازة في اجتماعات كانت تمتد بأحد الجوامع الكبيرة بالبصرة، ولولأن أول نجاح أدبي صادفه في حياته إنما يعزى في الواقع إلى أحد مؤلفاته الدينية السياسية عن الإمامة، اكتسب بها رضا الخليفة المأمون، وكانت سبباً في استدعائه إلى بلاطه، وبقي كذلك في ذروة مجده في عهد الخليفة المعتصم والوفاق من بعد المأمون، حائزاً لرضا وزعماء ابن الرويات وتأييده، وكان يقيم الجاحظ بين آونة وأخرى في بغداد، وفي مقر الخلافة الصنفي «مر من رأي»، وتنقل كثيراً في غرب البلاد الإسلامية حتى وصل إلى دمشق وإنطاكية، فلما ولي المماليك الخلافة على المسلمين، وعزل جميع وزراء الخلفاء السابقين وأمر بإعدامهم، أصبح الجاحظ مهدداً في حياته لما عرف عنه من إخلاص لأولياء نعمته، ولكنه تمكن من اكتساب ثقة أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة، فأمنه على نفسه ووقاه شر الانتقام، ثم استطاع أن يكتسب له ثقة الخليفة ورضاه عنه، إلى أن رضى به مريباً لأولاده، ولكنه عدل أخيراً عن رأيه، وقضى الجاحظ بقية حياته في موطنه بالبصرة، وطاش حتى رأى ثلاثي مدرسته الدينية التي أسسها، وتقلب السنة عليها، وأصيب أخيراً بإشال نصفي توفي على أثره عام ٢٥٥ هـ. لم يصل إلى أيدينا شيء من مؤلفات الجاحظ الدينية السياسية، ولكننا نعلم أنها كانت تعالج النعالم الإسلامية من الناحية التاريخية في أغلب المواضع، واشترك في المناقشات الأدبية

(١) تكملة المقال المنشور في العدد السابق مترجماً من الألمانية نقل عن كتاب «تاريخ الادب العربي» لمشرق الألماني الكبير الأستاذ الدكتور «روتلان».

التي أثبتت في المعاصرة بين الأعجام والعرب ، فوقف مدافعا عن العرب ، كما كتب في مدح مزاي الأتراك لما رآه من قوة الحرس الاجنبي الاسيوي الذي كان يكثر ببلاط الخلفاء في عهده ، وكان يعتبرهم حماد الخلافة ، وكان كثير الاهتمام بوصف الشعوب مما جعله يضع مؤلفا هاما في البلدان ، كما وضع كتابا آخر في الحيوان يعتبر أهم مؤلفاته التي بقيت حتى العصر الحاضر ، وامتاز هذا الكتاب — فضلا عن كونه يعني بالناحية العملية — بأنه يبين علاقة الانسان بالحيوان مستشهدا بشعراء العرب القدماء ، ولم يقتصر في كتابه هذا على وصف الحيوانات الندية الكبيرة بل إنه كان كذلك كثير الاهتمام بوصف الاحياء الصغيرة ، مستشهدا بها على المعتقدات الدينية . ومن مؤلفاته الهامة التي تسترعى اهتمامنا على وجه خاص ما كتبه عن طبقات الهيئة الاجتماعية ، ولم يبق من هذه المصنفات إلا ما وضعه عن البحلاء ، فلما بفصل هذا الكتاب استطعنا أن نكسب فكرة قيمة عن أحوال الحياة في المدن الكبيرة . وكانت تظهر مقدرته في أسلوب الكتابة الرشيق في كثير من مؤلفاته الصغيرة ، كما كانت هذه الرسائل تثبت براعته الممتازة وموهبته الفاتحة في التحدث الى القارئ في مواضيع مسلية تتم عن معرفة غزيرة . وفي أواخر أيام حياته وضع طريقة خاصة في قواعد البلاغة ، أو ضحها في كثير من الأمثال الشعرية والثرية . لم تكن شهرة مؤلفات الجاحظ وجمالها بسبب إحكام التنسيق وترتيبها وتنظيم أبوابها وموضوعاتها ، بل إنها كانت في الغالب على عكس ذلك بالمرّة من هذه الناحية التي بلغت عدم النفاية بها درجة الإهمال ، وإعنا يرجع شغف الناس وتعلقهم بها ، الى كثرة موضوعاتها وتعدد موادها وتفصيلها ، مما يدعو القارئ الى التفكير ويزيد من تسلينه ، وكانت على العموم على جانب عظيم من المعلومات المفيدة والمعارف النفيسة ، وكما نسب الجاحظ لبعض مؤلفاته الأولى باعترافه الى مشاهير العلماء القدماء ، فإن كثيرين من تلامذته ومقلديه قد نسب الكثير من مؤلفاتهم اليه ، خصوصا ما كان منها يشبه تعاليمه وانجازاته الفكرية ، وأشهر هذه المؤلفات كتاب « المحاسن والاضداد » وفي هذا الكتاب كان يدور البحث حول بعض المسائل التاريخية والأدبية والخلقية من ناحيتين متضادتين ، ولقد ذاع هذا الضرب من الكتابة والتأليف بعد ذلك ذبوا واسعا في ميادين الأدب المتأخرة ، ولقد بقي حتى العصر الحاضر أحد المؤلفات القديمة التي تشبه هذا الكتاب في كثير من الوجوه وطرق البحث في موضوعه وضعه ابراهيم بن محمد البيهقي في عصر خلافة المقتدر عام ٣٠٨ هـ .

كان الجاحظ يمتاز في مؤلفاته بمقدرته الفاتحة على الجمع بين العناصر التعليمية والروائية والدينية وربطها جميعا برباط وثيق ، دون أن تتأثر إحداها بالأخرى ، ولقد تمكن معاصره الأصغر أبو بكر بن أبي الدنيا من محاكاته في هذا المضمار ، وأفلح الى حد اميد جدا ، إلا أن الناحية الدينية كانت تغلب على غيرها في الظهور في مؤلفاته ، ولد هذا الكاتب عام ٣٠٥ هـ وكان من أنصار الامويين ، إلا أنه استطاع كسب رضا العباسيين وعفوم ، وتدرج في أعماله

الأدبية إلى أن اتخذ مدرسا خاصا للخطبة المقتدر ، وتوفي عام ٢٨١ هـ ، وله مؤلفات هامة ، إلا أن أهم أعماله وأشهرها مجموعة القصص الروائية الدينية التي تعالج بعض المسائل الخلقية .
 نسج على منواله من بعده ، بما يقرب من مائة عام ، محسن التنوخي المولود بالبصرة عام ٣٢٧ هـ ، وكان أبوه من القضاة الذين اشتغلوا بالأدب ، فاحتار له طريقه في الحياة ، إلى أن شغل مركز القضاء في نواح عديدة من العراق وبلاد الفرس بعد أن قضى مدة مرانته ببغداد ، وتوفي عام ٣٨٤ هـ ، ونسجت من مؤلفاته مجموعات عديدة لخواص وعكاهات العباسيين ، وقصة روائية في الفرج بعد الضيق ، ولقد جالج ابن أبي الدنيا هذا الموضوع من قبله ، وكتب فيه كذلك من قبله المؤرخ المشهور الميداني ، واشتهر هذا الموضوع من بعد ذلك شهرة واسعة ، فكان مادة غنية للمؤلفين المتأخرين ، كما كان الحال في المؤلفات التي تسعت المسائل من فاحيتها المتضادتين .

والى جانب هذه المؤلفات الروائية التي عرف أشخاص واضعها في ميادين الأدب ، ظهرت ناحية أخرى في الأدبيات العربية ، زاخرة بالقصص والحكايات الخرافية التي حاكبتها أفلام قصصيين محترفين ومحدثين مجهولين في عالم الكتابة والتأليف ، وللأسف لم يسبق من أغلب هذه المؤلفات مباشرة حتى العصر الحاضر سوى أبحاثها ، وكانت من السهل تمييز القصص والحكايات التي ترجع إلى أصل فارسي أو هندي من تلك التي اشتقت من الحياة العربية ، أو أخذت من حكايات العرب القديمة من بين تلك المؤلفات القصصية العديدة ، على المواد الأجنبية — وعلى الأخص إلى القصة الفارسية — ترجع مجموعات الحكايات المعروفة باسم ألف ليلة وليلة ، وما لا شك فيه أن الصيغة التي نراها الآن في النسخة التي بين أيدينا ترجع إلى عصور متأخرة عن ذلك العهد ، وإلى هذه القصص الأجنبية ترجع حكايات مغامرات البحار والأسفار الجميلة التي تمثلها حكاية السندباد البحري التي صمت فيها بعد إلى قصص ألف ليلة وليلة .

وأما القصص العربية التي لا شك في أصلها أو اشتقاقها من المواد العربية القديمة أو المواضيع الحديثة ، فهي القصص الغرامية العديدة ، كذلك التي رويت عن الناجر الكوفي علي بن آدم وجاربه منهل ، وقد بقي جزء من موضوع هذه القصة معروفا حتى العصر الحاضر . ومن الموضوعات التي اهتمت بها القصص والحكايات العربية الأصلية ، تمجيد حياة الثقل وعدم الاستغفار ، ولقد بلغت في المقامات أعلى درجات النضج ، واشتهرت كذلك بين القصة العربية حكايات البغدادى أبي القاسم الخيمى ، التي وضعها أبو المظهر الأزدي في القرن الثالث للهجرة .

انتشرت هذه الحركة الأدبية حتى صمت غرب البلاد العربية ، فظهر في القيروان بشمال إفريقية ابن الرقيق ، ووضع مؤلفاً في الخرح يبين فيه ما للحمر وما عليها مستشهداً بالأشعار والفكاهة .

وكان يمثل هذا الاتجاه في الأدبيات العربية ببلاد الأندلس أحمد بن عبد ربه المولود

بقرطبة عام ٢٤٦هـ، ووضع كتاباً اسمه المقدم الفريد، عبارة عن مجموعة جريئة شاملة لجميع مواد النصر ومواضيع التسلية، دون ذكر مصادرها الحقيقية. وقد توفي سنة ٣٢٨هـ.

وأما في شرق البلاد العربية فكانت مقامات الهمذاني هي المثال الأعلى الذي اتخذته أغلب كتاب النثر في الأدبيات العربية، وعليها اعتمد النثر الفني في تطوراته في نواح عديدة، فظهرت مقامات الحريري التي طغت سابقتها فنا وعائها ففكرة، فكانت هي الأساس الحقيقي الذي بنيت عليه الشهرة العالمية للمقامات؛ ولد أبو عبد القاسم الحريري عام ٤٤٦هـ بالمعرة، وورث عن أبيه ضيعة تحيل بحوار موطنه، كفته عنه السكب بطريق الأدب وكفلت له حياة علمية حرة. وضع الحريري كل اهتمامه في الدراسات اللغوية، فأنتجت مواهبه كتاباً شعرياً في النحو والعربي، ورسالة في غلطات كلام العامة، ثم وضع بعد ذلك من المقامات خمسين، شهدت له بموهبة ممتازة، وسيطرة فائقة على أساليب اللغة ودقائقها، حدثنا فيها عن أبي زيد السروجي وكان ملماً بفنون اللغة، محيطاً بطرائقها الفكاهية، فسرّد حياته ووقائعها الخداعية في أشعار جميلة، وعبارات رشيقة.

لم يكن الحريري في منزلة الهمذاني في الابتكار، والتغلب على المواقف الخرجة بالفكاهة الطريفة، وإنما فاقه في تعدد التعبيرات وتلوينها بما يناسب الذوق الفني الجميل.

وقد بلغ أثر الحريري في تطور الأدب العالمي في هذا العصر، بلغاً كبيراً، وتسابق الكتاب إلى تقليده والنسج على منواله، ولم يكن كتاب اليهود بإسبانيا، وكتاب المسيحيين بالشام، أقل تسابقاً إلى تقليده من كتاب البلاد الإسلامية على اختلاف لغاتهم، وتوفي الحريري عام ٥١٨هـ.

ومن يستحقون الذكر في هذا المقام، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي، فكان أستاذاً يقنن أثره في بلاغة أسلوب الرسائل، وكان في أول أمره وزيراً في حكومة الفاطميين ولكنه انضم إلى صلاح الدين، واستطاع أن يحتفظ بمركزه في الوزارة، وفي أثناء حملة الشام، نصب حاكماً على مصر، وتوفي عام ٥٩٦هـ، ولا زالت بعض رسائله باقية حتى العصر الحاضر.

وأما في بلاد الأندلس فكان أكثر ظهور الأسلوب البليغ في الرسائل والخطابات، وأول من ظهر من كتاب هذه البلاد في ميدان النثر الفني، أحمد بن زيدون، الذي جعل كل اهتمامه في إدخال هذا الأسلوب على الرسائل الخاصة، على عكس التطور الظاهر في شرق البلاد الإسلامية من إدخال هذا الأسلوب أيضاً على المكاتبات والوثائق الرسمية. ولد ابن زيدون بقرطبة عام ٣٩٤هـ، وكان يعمل إلى الأدبيات، وكان أبوه من أثرياء المدينة مما أتاح له الفرص في شبابه لمعايشة الطبقات العالية، فعرف بأبنة الخليفة الأموي المستنقفي بأهـ «ولادة» وأولع بحبها، فكانت علاقته بهذه الأسرة - بعد قتل الخليفة عام ٤١٦هـ - بما وضعه موضع الريبة عند جمهور

الحاكم الجديد ، فأمر باعتقاله ، فبعث من سجنه إلى ابنه رسالة يرجوه التوسط لدى أبيه للمفو عنه ، فكانت هذه الرسالة تمودبا رائعا في النثر الفنى ، واليها يرجع الفصل الاول في شهرته الادبية .

ولكنه لم ينل ماطمح فيه من المفو ، وتمكن بعد ذلك من الحرب ، فلما ولي ابن جمهور خلفا لآبيه استدعاه وأسلم اليه الوزارة ، ولكن لم تدم سعادته قرطبة طويلا ، إذ انزعج للأمير علاقته المريبة بحكام ملقة ، فذهب الى المعتضد فى اشبيلية ، فأسند اليه الوزارة وولاه رئاسة الخنود ، وتمكن من الاحتفاظ بمنصبه فى عهد خليفته المعتمد ملك الشعراء الى أن توفى عام ٤٦٣ هـ ، ومن آثاره الشعرية التى تستحق الذكر قصائده الاندلسية التى يدهو فيها المسلمين الى الجهاد ضد الكفار لتحرير إسبانيا من سيادتهم .

كانت الجهود الادبية فى هذا العصر ، حافلة بالمجموعات والمختارات التى تبين النواحي المختلفة فى الحياة الانسانية بواسطة رواية القصص والحكايات ، والاستشهاد عليها بالأشعار الجلية ، كما كان يفضل الجاحظ وابن قتيبة ، فاذا قدرت قيمة هذه المؤلفات وفصلها على الادب لوجدنا أنها قليلة فى ذاتها ، حيث إن المؤلفين كانوا فى أغلب الأحيان يكتبون بوضع مواد من سبقهم فى ترتيب جديد ، فاذا كانت عملهم هذا سببا فى ترك بعض المؤلفات القيمة القديمة ، فالتنا بالزعم من ذلك مدينون لهم بالشكر لانقاذهم موضوعات هذه المؤلفات وموادها . وبعض هذه المؤلفات الجديدة - التى بلغت فى هذا العصر عددا كبيرا - يعتبر مثالا لأعمال هذه الطبقة من الأدباء ، وأهمها المجموعة التى وضعها أبو بكر السراج المتوفى ببغداد عام ٥٠٠ هـ ، وكانت تجمع الاشعار والاحبار عن الحب والمحبين ، فى صورة القصص التى كانت معروفة فى عصر الأمويين ، وأوائل العصر العباسى ، ولقد حازت هذه المجموعة شهرة واسعة ، وذاعت ذيوها كبيرا ، فنرى بعض الأدباء المتأخرين إعادة إخراجها ونشرها بعد ذلك فى عصور مختلفة .

ولقد سار على نهجه من بعده محمد بن زفر المتوفى بدموطنة فى صقلية عام ٥٦٥ هـ ، نشأ بمكة وبها أتم دراساته ، ورجع الى صقلية حيث قضى بقية حياته ، وأهم أعماله الادبية المعروفة كتابه المهدى الى محمد بن أبى القاسم القرشى حاكم صقلية ، وهو عبارة عن مرآة الامراء فى خمسة أجزاء يبين فيه المؤلف واجبات الحكام الهامة بناء على أحكام القرآن مستشهدا بأقوال الشعراء والقصص الخرافية ، وله مجموعة أخرى أهداها الى الأمير نفسه جمع فيها كثيرا من الفسكاه والوداد الطريفة المنقولة عن الرواية الفارسية .

تحاكم الشعراء

تحدثت في مقال سبق عن مجتمعات العرب العامة وأسواقهم التي كانت مدارسهم الأدبية ، وما كان لها من الأثر في تهذيب الشعر العربي ، وإثارة التناقض بين الشعراء ، والآن سأحدث من نوع من التحاكم الخاص لا يقل أثره عن المجتمعات العامة ، وهو فوق ذلك مظهر من مظاهر النقد الأدبي القائم على بداهة السليقة الفنية دون أن يرجع إلى قواعد علمية ثابتة :

للأسواق والأندية العربية أوقات مخصوصة ، وأمكنة معينة ، يجتمع فيها الناس تبعاً لمقتضيات الأحوال ، ولكن الاحتكاك بين الأدباء والشعراء مصغر لا ينقطع ، وتأثر لا يهدأ ، فقد يجتمع شاعران أو عدة شعراء وتلج بينهم الخصومة ويشد التزاع في أشعر الشعراء ، وأجود بيت قائله العرب ، ونحو هذا مما يدور حول النظرات الخاطفة ، فتدعو الحاجة إلى حكم فيعمل يقضى في ذلك التزاع ، فيحتكون إلى ناقد أدبي ، وحاذق بصير يذهب قوله في الناس حجة لا تنقض ، وقد حفظ تاريخ الأدب العربي من هذا النحو شيئاً كثيراً .

ومن أشهر شواهد في العصر الأول قصة « أم جندب » زوج امرئ القيس ، فقد محاكم إليها - فيما تقول الرواية - زوجها امرؤ القيس ، وعلقمة بن عبدة المشهور بعلقة الفحل ، قال المزياني في الموشح : تنازع امرؤ القيس بن حجر وعلقمة بن عبدة في الشعر : أيهما أشعر ؟ فقال كل واحد منهما : أنا أشعر منك ، فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكماً بيني وبينك ، لحكماها ، فقالت أم جندب لها : قولاً شعراً تصفان فيه فرسبكاً على قافية واحدة وروى واحد ، فقال امرؤ القيس :

حليلى مرا بى على أم جندب لنقض لبابات القواد المصذب
وقال علقمة :

ذهبت من المجران في كل مذهب ولم يك حقاً طول هذا التجنب

فأنشداهما القصيدتين ، فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك ، قال : وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فلسوط ألحوب والساق درة ولزجر منه وقع أخرج مهذب
جهدت فرسك بسوطك في زجرك ، ومرثته بساقك فأنعته ، وقال علقمة :
فأدر كهن ثانياً من عنائه يمر كمر الرايح المنحلب

فأدرك فرسه ثانياً عنانه ، ولم يضربه بسوط ، ولم يتعبه . فقال امرؤ القيس : ما هو بأشمر مني ، ولككك له عاشقة .

هذه قصة طريفة تحلوها المسامرات في مجالس الأدب الخفيف ، ولكن البحث العلمي في تاريخ الأدب يقف أمامها موقف الشاك ، بل موقف العجب والدهشة ، لأن « أم جندب » هذه التي زعموا أنها حكمت بين هذين الشاعرين المحلين لا يعرف عنها تاريخ الأدب — فيما أعلم — شيئاً غير هاته المحاكمة الغريبة التي لوصحت لكات من أسطح الأدلة على وجود النقد الأدبي بعنانه الفني في أواخر العصر الجاهلي ، وهذا ما لم يذت تاريخياً ، ولو وصحت لكات دليلًا قاطعاً على أن « أم جندب » هذه من أنقد وأعلم العرب رجالاً ونساء ، كيف وليس لها في الأدب العربي ذكر أو أثر معروف غير هذه الحكاية ؟

ومما يوهن أمر هذه القصة أمام البحث ، ما تضمنته من توجيه فني للنقد ، وما اشترطته على الشاعرين من توحيد الغرض والقافية والروي حتى تتم الموازنة بين المعاني والأسلوب والرين الموسيقي ، وهذا مما لم تألفه السليقة العربية في أواخر هذا العصر لدى ذوى النهى من رجالات العرب وشعرائهم ، فضلاً عن أم جندب التي يضمن عليها تاريخ الأدب وضعها في غمار أدبيات العرب وشواعرهم فما بالك بنقادهم ؟ وقد أبنا سابقاً ما روى من هذا النحو في قصة التابفة وتحكيمه في سوق عكاظ .

على أن رواة الأدب يختلفون في صحة هذه المباراة بين امرئ القيس وعاشقة ، بل في صحة نسبة الشعر إليهما ، فصاحب الموشح يقول : إن عبد الله بن المعتز ذكر هذا الحديث فيما أنكر من شعر امرئ القيس ، وقال بعض الباحثين من أساتيدنا : وينيفك باختلاف الرواة في شأن هذه المباراة أن أحمد بن عبيد يقول : كان ابن الجصاص وحماد يرويان .

ذهبت من المجران في كل مذهب لا امرئ القيس ، وكان المفضل يرويها لعاشقة

وهذا ابن منظور في لسان العرب تعرض للموازنة بين الشعريين ولم يشر إلى قصة أم جندب أية إشارة ، وأبو هلال العسكري في الصاعتين يقول : ومما أخذ على امرئ القيس قوله : قللسوط ألحوب الخ ، فلر وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك ، والجيد قوله :

على سابع يعطيك قبل سؤاله أأناين جرى غير كز ولا وان

وما سمعنا أجود ولا أبلغ من قوله : أأناين جرى ، وقول عاشقة الفصل : فأدرك ثانياً من عنانه الخ ، فأدرك طريقته وهو ثاني من عنانه ، ولم يضربه بسوط ، ولم يمر به بساق ، ولم يزجره بصوت .

فأين هي أم جندب في هذا الحديث ، فهل من المقبول أن يكون هذا النقد لها ولا يشير أبو هلال الى ذكرها أية إشارة ؟ والواقع أن امرأ القيس أشهر في وصف الخيل ، فهو أجدر بقصب السبق من صاحبه ، وبينه الذي صافه أبو هلال يعطينا صورة لاقتدار هذا الشاعر على الابداع والسبق في هذا المضمار .

ومن مظاهر النقد الأدبي الذي يتضمن مع السليقة العربية ما رواه الأصمعي أن رجلا أتى الأبيرد بن المعذر الرياحي وابن عمه الأحوص الشاعرين يسألها قطرا يهنا به إليه ، فقالا له : على شريطة أن تنشده سحيم بن وثيل الرياحي هذا البيت :

فإن يدهاقى وجراء حول لدوشق على الحطم الحرون
وغرضهما أن يستظلما ما بقي من قوته على حمل الشعر ، فلما أنشداه أخذ سحيم عصاه وانحدر في الوادي يقبل ويدبر ، وجعل يهجم بالشعر ، ثم قال : اذهب فقل لهما -
فإن علاني وجراء حول لدوشق على الضرع الظنون
أنا ابن العرب من ساني رياح كنصل السيف وضاح الجبين
أنا ابن جلا وطلوع النشاي متى أضع الهمامة تعرفوني
وإن مكاتنا من حميري مكان الكيث من وسط المرين

في أبيات كثيرة ، فلما بلغها شعره أتياه فاعتذرا إليه ، فقال : إن أحذكم لا يرى أن يصنع شيئا حتى يقيس شعره بشعرنا ، وحسبه بحسبنا ، ويستطيف بنا استطافة المهر الأذن . فقال له : فهل الى التزع من سبيل ؟ فقال : إنما لم نبلغ أسابنا .

فانظر الى قول سحيم : حتى يقيس شعره بشعرنا نجد به ضربا من ضروب الموازنة ، وهي من فنون النقد الأدبي ، وهي هنا موازنة إجمالية تتناسب مع السليقة ، بعيدة عن التفصيلات المنطقية التي تخرجها عن سذاجتها . ومن ثم اختلفت أجوبة النقاد القدامى عن السؤال الواحد ، روى محمد بن سلام الجحى أن سائلا سأل الفرزدق : من أشعر الناس ؟ قال : ذوالقروح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وقام جدم يبنى أيهم وبالأشقين ما كان المقاب
وسئل مرة من أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبي خازم ، قيل بماذا ؟ قال : بقوله :
وهين بلى وكل فتى سبيل فشق الجيب وانتحي انتحاي
وروى أن الخطيئة قال : أخبروا أهل الشماخ أنه أشعر الناس بقوله :
إذا انبض الرامون فيها ترممت ترنم شكلى أوجمتها الجنائز

ثم قال : أخبروا أهل ضابئ أنه أشعر الناس حيث يقول :
 لكل جديد لذة غير أنفى وحدث جديد الموت غير لذيذ
 ثم قال : أخبروا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب بقوله :
 فيالك من ليل كأن نجومه بكل مفار القتل شدت يبدل
 ثم قال : أخبروا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :
 ينشون حتى ما تهر كلاهم لا يسألون من السواد المقبل
 وشأن هذا الاتجاه في الاستحسان كثير في الأدب العربي ، ولا سيما في عصوره الأولى
 قبل أن تدون فنون النقد وعلوم البلاغة ، ولعل منشأ دعة الاحساس بمكان الجدل من البيت ،
 أو يكون المعنى أصاب من الناقد المستحسن موافقة داخلية كان يتطلب التعبير عنها قلدا وحده
 لغيره فضله وارتفع به عن جميع ما سواه ، أو هم يقصدون أن صاحب هذا البيت أشعر الناس
 في هذا المعنى ، ولا يريدون أنه أشعرهم إطلاقاً
 صاوه إبراهيم عرموه

سياسة الاخوان

قال حكيم : لا تكثرن معاتة إخوانك فيهن عليهم سخطك .

وقال منصور الخري :

أقل عتاب من استربت يوده ليست تنال مودة بعتاب
 وقال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
 وإن أنت لم تشرب مراراً على القدي طمئت وأى الناس تصفو مشاريه
 فعض واحداً أوصل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومحابه
 وأنشد ثعلب :

إذا أنت لم تستقل الأمر لم تجد بكفيك في إدباره متعلقا
 إذا أنت لم تترك أخاك ورلة إذا زلها أو سكتما تنفردا

هذا القول من الحكمة بمكان ، فإن كل إنسان لا يخلو من نقائص خلقية تبدر منه بغير
 تكلف ، فإذا وقف لها صديقه بالمصاد فعاتبه على كل بادرة منها ، اضطر الآخر أن يتريص به
 الحفوات مما يصدر منه ولا يظن اليه ، فيكثر بينهما التلاحي ، فلا يلبثان أن يتفرقا .

المطالب العالية في النفس الناطقة

وصلتها بالإنسان

لعل القراء قد تبينوا على هدى النظريات التي اقترنت بالبحث السابق مبلغ الخلاف القائم بين القوم ومعارضهم من أصحاب المذاهب الأخرى في بقاء النفس بعد فساد البدن أو عدم بقائها. وقد أسلفنا أن أصح النظريات العلمية ما اعتنقه القوم من بقاء النفس بعد خراب البدن وفساده مما لا يجهد الباحث المتعمق عنه غنى .

واليوم نحاول أن نعرض لنظرية تكثر من منمات هذا البحث ، وهي :

هل النفس مدركة لكليات والجزئيات جميعا ، أو أنها مدركة للكليات دون الجزئيات ويكون مدرك الجزئيات على هذا الرأي إنما هي الحواس ؟

إن المحققين من الفلاسفة والحكماء اختلفوا مع جبهة من المتأخرين منهم في أن النفس مدركة للكليات والجزئيات جميعا أو أنها مدركة لكليات ومدرك الجزئيات إنما هي الحواس . فقد ذهب الحكماء إلى أن النفس مدركة لكليات والجزئيات ، إلا أنها تدرك الكليات بنفس ذاتها لا بألة من غيرها ، وتدرك الجزئيات بواسطة ألتها . وعليه فيكون مدرك الجميع هو النفس وقد استدلوا عليه . بوجوه كثيرة نجتزئ بأولها بالرماية وأحدها بالتقدير :

قالوا أولا : لا خلاف بين المصوم في أن كل أحد من الناس لا يشك في أنه واحد ، وأنه هو الذي يسمع الأصوات ويبصر الألوان والأشكال ، ويدرك الوجدانيات والمقوليات ، فلو كان لكل نوع من المحسوسات مدرك ولكل نوع من المعقولات مدرك آخر لم يكن ذات المدرك المشار إليه بأنا مدركا لجميع ، وذلك خلاف للمشاهد بل خلاف ما يجده كل واحد من نفسه

وقد نوقش هذا الدليل بأن التقرير على هذا الوجه لا يثبت أن الحواس هي المدركة ، فهي تدرك المحسوسات ثم تؤدي ما أدركته إلى النفس برماية وأمانة طبيعية للعلاقة القائمة بينهما ، ضرورة استحالة إدراك النفس للمشاهدات والمعقولات من غير وسائلها المؤدية إليها . وأيسر ما يترتب على انجاء الحكماء تعطيل تلك الآلات وعدم صلاحيتها كوسيلة مؤدية إلى النفس كل في حدود وظيفته . وحينئذ يحصل للنفس الشعور بجميع ما أدركته السامعة والباصرة وسائر الحواس .

لكن فريقا من المتقدمين دفع هذا التعقيب بأن النفس بعد أن تتلقى المعلوم بواسطة الحواس إن أدركت ذات البصر وذات السمع وكذا ذات ما تدركه سائر الحواس ، لم

عن ذلك أن يكون إدراكنا للجزئى المقول إدراكين ، وإبصارنا لزيد مثلا إبصارين ، وكذا سائر المقولات والمحسوسات ، والضرورة تشهد بخلافه ، وتؤكد ما ذهبنا إليه . وإن لم تكن نفسه هي المدركة بل تدرك أن الحواس مدركة فلا يكون واحد منا مبصرا وسامعا بل آلاته ، مع أننا نعلم بدهاة أن كل واحد منا مبصر وسامع حقيقة لاتأولا ، وعليه تقوم المشاهدات الكونية ، والدلائل العالمية ، وأخبار الكتاب والرسل والأنبياء صلوات الله عليهم فأتمه على وصف النفوس الساطقة بالتعقل والرشد والتدبر ، ويظهر ذلك في قوله سبحانه وتعالى : « ونفس وما سواها فألهمها جوارها وتقواها »

قال الامام الرازى في كتاب المباحث المشرقية : المقلاد بدهاة فطرح يعلمون أنهم يسمعون ويبصرون ويألمون ويلتذنون ، فان جاز إنكار هذا العلم الاوى جاز بالتالى إنكار المحسوسات والمشاهدات . فثبت أن جوهر نفسك الذى هو أنت وأنت هو سامع ومبصر ومألم وملتذذ وحافل وقام ورشيد ، وذلك مما لا منازعة فيه .

ثانيا : إنا نحكم بدهاة بالسكى على أى جزئى مندرج تحته : نحو زيد إنسان . وكذا نحكم بصلب كل جزئى سواه أكان محسوسا بأحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة عن جزئى آخر كحكمنا على زيد المبصر مثلا فى أنه فى حقيقته مغاير لهذا الطعم فى كذا من المأكولات ، وغير هذا اللون فى كذا من المرثيات ، وغير هذه الرائحة فى كذا من المشبومات ، بل غير شخص تركب من صورتى اللسان والفرس ، وغير العداوة أو المحبة القائمتين به . فلا بد فينا من مدرك للسكى وجميع الجزئيات كما هو ظاهر ، ولا يمكن أن يكون ذلك قوة جسمانية اتفاقا بين الخصوم ، وبالتالي لا يمكن أن يكون ذلك كله من متعلق الحواس وداخلها فى حدود مددها ، فثبت أنها هى النفس دون الحواس ، فثبت المطلوب وهو أن النفس تعلم بذاتها السكليات والجزئيات .

ثالثا : إنه من المقرر فى الأذهان أن كل نفس متعلقة ببدن جزئى يقابلها تعلق التدبير والتصرف . وغنى عن البيان أن تدبير البدن الجزئى موقوف على العلم به من حيث إنه جزئى . وعلى العلم بفعل جزئى من حيث إنه جرمى يكون تدبير البدن والتصرف به من جهة ذلك الفعل ، ضرورة أن الرأى السكى نسبته الى جميع جزئياته على السواء ، فلا يمكن على هذا الاعتبار أن يكون هذا السكى مصدراً لبعض دون البعض الآخر ، فتكون النفس حينئذ مدركة للجزئيات كما هى مدركة للسكليات ، وإلا كان إدراكها للسكليات دون الجزئيات محكما ليس له من المنطق مسوغ ، ولا من العقل موجب .

وقد نوقش هذا الدليل أيضا من الخصوم بأنه يكفى فى تدبير البدن الجزئى تعقله وتعقل أفعاله الجزئية على وجه كلى متعبد بكليات عامة بحيث لا يكون ذلك السكى مطابقا فى الخارج إلا لذلك الجزئى ، لكن تلك المناقشة ليس فيها جدوى متبعة ضرورة أن المحققين من الحكماء

قد تضافروا على أن الحق أن النفس مدركة للكليات والجزئيات جميعا ، لا أن إدراكها للجزئيات يكون «ارتسامها في آلة من آلاتها» ، وهي إحدى الخواس التي تتأذى بها بخلاف الكليات فإن تعقلها إياها إنما يكون «ارتسامها فيها من غير واسطة تلك الآلات» . والفرق بين مذهب الحكماء وبين حصومهم من المتأخرين واضح الظهور . وقد أمسب المعتنقون من الحكماء المتقدمين لهذا المذهب إسمها مستفيضاً ، فعقدوا لتدليل على مذهبهم فصولاً وأبواباً بسطوا فيها القول بسطاً لا يدع صرلاً لمائل ولا قولاً لقائل ، لكن الباحث المستقصي لا بد أن يكون بصيراً بذيعة كل بحث ، ملماً بحقيقة كل موقف على حدة . من أجل ذلك لم نشأ أن نجعل أدلة الشيخ الرئيس ومتابعيه في بحث واحد ، ولم نشأ أن نعرض لما هو الحق بالدليل وما هو غير الحق بالدليل من تلك الآراء إلا بعد أن نجعل من كلا الفريقين تراثاً صالحاً نضعه بين يدي القراء ، ثم نتولى بعد ذلك المقارنة ثم التمهيس ثم ما هو الصواب منها وما هو غير الصواب ، فإن لهذه البحوث صلة وثيقة بعالم التجردات من جهة ، وبالعالم المادية من جهة أخرى . ولا بد لنا في خاتمة تلك البحوث إن طال بنا المدى أن نفرض لأعلى تلك المطالب العليا من قسم الالهيات مما سيبيحه القارئ خير تراث مثمر . على الأعداد التالية ، إن شاء الله .

هباس ط

نزاهة العلماء

كان أهل العلم من سلف هذه الأمة يرون أن كرامة العلم تقتضي أن يترده أهله عن المطامع المادية ، والرفائ الجسدانية ، لأن العلم في ذاته ملك لا يبلى ، وذخر لا ينفد ، يستصغر بمحابه كل مطلب ، فإذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة كان ذلك دليلاً على أنه حمل العلم ولم يتكيفه ، فإذا لم يعطه الناس حقه من الاعظام فلا يلزم إلا ضمه . وقد أوجز القاضي علي بن عبد العزيز صفات أهل العلم فقال من قصيدة :

يقولون لي فيك انقباض وإعما	وأورجلا عن موقف الذل أحجما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما	بدا طمع صيرته لي سلما
إذ قيل هذا منهل قلت قد أرى	ولكن نفس المر تحمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي	لاخدم من لا قيت لكن لاخدما
أشقى به غرساً وأجنيه دلة	إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا	بحياء بالأطماع حتى تجهما

تقرير بعثة الهند

— ٤ —

الحياة الجامعية في الهند

لقد تقدمت الهند في خلال العشرين سنة الأخيرة تقدماً باهراً في حياتها الجامعية ؛ إذ أنشئت في هذه السنوات القلائل — في حياة الأمم — اثنتا عشرة جامعة ، كما نظمت الجامعات الست القديمة تنظيماً حديثاً ، مكن الطلبة من إجراء الأبحاث العلمية والأدبية لثيل الدرجات العليا (الدكتوراه) في الجامعات الهندية ، بدلا من السفر الى الخارج . ويقابل النمو الجامعي بارتياح في الدوائر الوطنية في الهند ؛ إلا أنه لا يخلو من نقد مر ، يوجه اليه كثير من الأجانب ، إذ يقررون أن الحياة الجامعية في تلك البلاد تدرج بأسرع من حاجة البلاد نفسها ، ويدللون على صحة مذهبهم بانتشار التعطل بين متخرجي الجامعات ، وكذلك بضعف المستوى الجامعي في الهند .

ويجب المنتقون في الهند ، وولاة الأمر المسئولون عن الحياة الجامعية ، على هاتين الملاحظتين : بأن التعطل بين خريجي الجامعات ليس بدعاً في بلادهم ، بل هو أمر يندل على رسوخ قدم التعليم الجامعي فيها ، ومما قليل تحل هذه المشكلة باقبال المتخرجين على بعض الوظائف الصغرى ، التي لا تسيفها نفوسهم في الوقت الحاضر . وقد ألفت لجان حكومية لبحث مشكلة التعطل بين المتعلمين ، فأسفرت بحوثها عن بعض العيوب في تنظيم الجامعات ، وولاة الأمر آخذون اليوم في معالجة الحال .

على أن عدد المتعلمين ليس من الكثرة بحيث يدعو الى كل هذا الذعر ؛ فقد دل إحصاء المتعلمين في سنة ١٩٣١ على أن عددهم لا يزيد عن ٢٠٤٣ متعلما من حائزي الدرجات ، وهم موزعون على الوجه الآتي :

١١٣	أستاذية آداب	٤٢	بكالوريوس علوم
٢١	بكالوريوس زراعة	٤١	أستاذية علوم
١١١	بكالوريوس تجارة	٤٢	بكالوريوس هندسة
١٥٤	حكاه شرقيون	١٣٧٠	بكالوريوس آداب
		١٤٩	إجازة الحقوق

من ذلك يتضح أن معظم المتعلمين ، هم من خريجي كليات الآداب ، وهذه حال لها ما يقابلها في معظم دول العالم .

ولا بدنت النظر في حال التمثل هذه إلا كثرة المتعلمين من خريجي كليات التجارة . وعلى ذلك أن البلاد لما تعود أن تستخدم هؤلاء في المرافق الوطنية الخاصة ؛ ولم لذلك لا يجدون عملاً إلا في المعارف وأمثالها . ومما لاشك فيه أن البلاد سائرة في طريق إدراك حاجتها إلى هؤلاء .

أما المتعلم بين الأطباء (الحكماء) فإنه يبدو غريباً لمن لا يعرف الهند ؛ ذلك بأن الطبيب المعنى هنا ، ليس هو الدكتور الذي نعرفه في مصر مثلاً ؛ فالطب في بلاد الهند نوطان : أحدهما غربي ينتسب الطالب إلى كلياته يمثل ما ينتسب إلى كليات الطب بأوروبا ومصر ، ويدرس فيه العلوم العليا ، ويصير بعد نيل درجته (دكتوراً) ؛ أما الآخر فهو الطب اليوناني أو (الطب الشرقي) كما يسمونه هناك ، وينقطع له الطالب بعد نيل شهادة المدرسة المتوسطة ؛ وقد ينتسب إليه من لا يعرف اللغات الأجنبية ممن تعلم في المدارس الوطنية . وفي هذه الكليات الطبية يتلقى الطلاب علوماً نافعة فلهند ، أساسها العلاج بالمقايير المستخرجة من الأعشاب الهندية ، ويقوم إلى جانبه طب آخر هو « طب الفيدا » المأخوذ من الكتاب المقدس عند الهندوس ؛ وقد يجمع إلى كل من هذين بعض مبادئ الطب الغربي ، ولا سيما التشريح والأقرباذين .

وخريج هذه الكليات يسمى طبيباً (حاكماً) . ولا تستخدمه الحكومة إلا فيما ندر ، وفي غير ما تخصص له ، ولذلك يعيش معظمهم على العيادات والصيدليات الملحقة بها ، يتناولون أحراراً بسيطاً عن تشخيص الداء ، وتقرير الدواء ، ثم يدهون الدواء للمرضى من صيدلياتهم . وظاهر أن التمثل جائز بين هؤلاء ، وذلك على الرغم من الخدمات الجليلة التي يؤدونها لبلادهم ، حيث توجد ملايين من المرضى لا يستطيعون دفع أجر طبيب على الطريقة الغربية .

هذا عن مشكلة التمثل بين المتخرجين . أما عن ضعف المستوى العلمي في الجامعات ، فقد أسفرت لجان التحقيق عن اكتشاف عيب جوهري في الحياة المدرسية في الهند : هو قلة المدارس الفنية المتوسطة التي يستطيع الطالب أن يلتحق بها إذا لم تساعد مواهبه على الاستمرار في الدراسة حتى المرحلة الجامعية . وهي حالة شاذة تكاد تنفرد بها الهند من بين بلاد العالم التي عرفت التعليم الجامعي ، فليس العيب إذاً من الحياة الجامعية ، بل العيب في نقص فرع من فروع التعليم ، هو التعليم الفني المتوسط . وقد أدركت ذلك بعض الحكومات - وفي مقدمتها حكومة حيدر آباد - وهي لهذا جادة في تلافى هذا العيب بإنشاء المدارس الفنية المتوسطة .

على أن الهند قد أخرجت من جامعاتها طبقة من فطاحل العلماء ، هم نحر الحياة العلمية اليوم ،

نذكر منهم على سبيل المثال : « السير جاجاديش يوس » الذى أدهش علماء الغرب ومفكره ، واكتسب احترام الجميع ، بمكتشفاته العلمية ، ومنهم « السير رامان » الذى يهر أنظار العالم بدعوته المعروفة بنتائج (رامان) ، ومنهم كذلك « الدكتور ساهو » وهو ثالث هندی نال درجة زميل في الجمعية الملكية البريطانية .

وإن نرس لا نفس في ميدان الأدب : « السير رابندرانات تاغور » وما أحدثه من أثر رائع بكتاباتة الأدبية وفلسفته العقلية ، كما أحرز شهرة عظيمة في الهند ، كل من « الدكتور حكيم أجمل خان » ، و « الدكتور أنصاري » .

ولغة العلم في معظم جامعات الهند هي اللغة الإنجليزية ، نظرا لتعدد اللغات واللهجات ، وقد سبق القول أن بالهند اليوم ٢٢٥ لغة ، ترجع في أصلها الى ستة أصول لقوية ، فكان من المتعذر أن توجد لغة الدراسة ، مما ساعد الحكومة على فرض اللغة الانجليزية كوسيلة للتعليم ، لأنها تعتبر وحدة تنتظم الجميع ، يتعلمونها من السنة الثالثة بالمدارس الابتدائية .

على أن نزعة قد ظهرت في الهند حديثا ، ترمي الى تعليم العلوم باللغة الوطنية ، فمقررت جامعة بنارس أن تكون اللغة الهندية (Hindi) لغة التعليم ، ولكنها لما تستطع أن تخطو خطوة عملية في هذه السبيل ، لأن الطلبة يتلقون علومهم في المدرستين : المتوسطة ، والعالية ، باللغة الانجليزية ، فليس من السهل أن يعدل عنها في مرحلة التعليم الجامعي ، مع ميسر الحاجة الى المراجع - وكلها مؤلفة بالانجليزية - لذلك ترمى الجامعة الى تشجيع التعليم في المدرستين : المتوسطة والعالية باللغة الهندية ، وتجدد في الوقت نفسه في إصدار مؤلفات أو مترجمات بهذه اللغة ، لحل محل المراجع الانجليزية في المرحلة الجامعية ، وقد نجحت الى الآن بعض النجاح .

أما الجامعة التي نجحت فعلا في هذه السبيل ، فهي الجامعة العنابية التي تديرها حكومة حضرة صاحب السمو العالي « نظام حيدرآباد » . فقد فرضت - منذ إنشائها - لغة الأردو لغة للعلم في الجامعة ، وأعدت العدة لذلك ، بأن جعلتها لغة المدارس المتوسطة والعالية ، وأنفقت إدارة للتأليف بها والترجمة إليها من اللغات الثلاث : الانجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، ويسرت لطلالبيين سبيل الحصول على هذه المؤلفات ، حتى تنتشر ، فتمم فائدتها .

وتقسم الجامعات في الهند الى ثلاثة أنواع :

جامعات حكومية : تديرها وينفق عليها من الميزانية العامة ، والانتساب إليها مباح لكل الطبقات ، والدراسة فيها لاتمس الدين لا في قليل ولا كثير ، إلا أنه يجوز لأية طائفة دينية أن تفتي كلية خاصة تتبع الجامعة في إدارتها ، ويتقدم طلبتها الى الجامعة في امتحاناتهم ، وتكون لادارة هذه الكلية الحرية في إدخال العلوم الدينية في مناهج الدراسة ، بشرط ألا تتأثر بها العلوم الأصلية ، التي يمتحن فيها الطالب أمام الجامعة ، وفي مثل هذه الحال ، ترى الجامعة

أن إنشاء هذه الكلية وأعمالها يخفف الضغط عن الجامعة الأصلية ، وبمحل إشكالات الاشكالات المعقدة ، هو اختلاط الطلبة المختلfi اللغات ، وما يجر إليه من مشكلات ، فتدفع الجامعة إبانة لهذه الكلية ، تساعدنا على أداء رسالتها مع الاستقلال .

وقد شجع على إنشاء هذا النوع من الكليات ، اتساع مساحة البوادر التي يشملها نفود الجامعات ، ففي جامعة البنجاب مثلا ، نرى أن نفوذها يمتد من بشاور وكشمير شمالا الى بها ولبور جنوبا ، ولذلك أصبحت الجامعة مكونة من ٥٣ كلية ، يبعد بعضها عن بعض مسافة قد يقطعها القطار في يوم وليلة .

ومما يذكر للمسلمين فيشكر ، عناية أهل الشمال منهم بإنشاء هذا النوع من الكليات ؛ الكلية الإسلامية في بشاور ، والكلية الإسلامية في لاهور ، وكلية صديق إيجرتون في بها ولبور ، وكلية إسماعيل باندھيري ، كلها تؤدي للمسلمين أحسن الخدمات في الثقافة ، الى جانب الامام باصول الدين الاسلامي ، وتشجيع الطلبة المدينين على العناية بدينهم ، وتعويدهم أداء فروض الاسلام ، الى جانب العناية باللغة العربية وتشجيع الطلاب على اتخاذها مادة من مواد الامتحان . وإنما نرجو أن ينتشر ذلك في كثير من أرجاء الهند .

وكما اختص المسلمون ببعض الكليات ، اختص الطوائف الدينية الأخرى ببعض أيضا ؛ فنرى كثيرا من الكليات قد تأسست وأكثرت بمعظم المال اللازم لإدارته الهندوس والسيخ . ومما يؤسف له أن وقت البعثة قد قصر عن زيارة هذه المؤسسات ، بعد أن وردتها دعوات من بعضها ، ولذلك يكاد يكون من المنعذر أن نوازن بين الحياة العملية في الكليات الإسلامية ، وبين ما يمثّلها في الكليات الأخرى .

ومن الجامعات الحكومية ، الجامعة البنجابية بمحيدر آباد ، أمر بتأسيسها حضرة صاحب السمو العالي « النظام » ، وهي لا تختلف عن الجامعات الحكومية إلا في أن لغة (الأردو) هي واسطة التعليم فيها كما ذكرنا ، ونعمة غارق آخر ، هو أن بالغ عناية سمو النظام ورجال حكومته بالدين الاسلامي ، قد قيضت لهم أن ينشئوا كلية دينية يتخصص فيها الطلبة ، في علوم الدين الاسلامي من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك ، مما يلزم لطالب العلوم الدينية .

ويشترط فيمن ينسب لهذه الكلية أن يكون حاصلًا على شهادة الماتريك — شأنه في ذلك شأن بقية طلاب الجامعة — ولكن بشرط أن تكون اللغة العربية إحدى مواد الامتحان في شهادته ، حتى ينسب له الامام باصول الدين وغيره من البحوث الإسلامية التي لا يستطاع تحصيلها إلا بعد الامام باصول اللغة العربية وقواعدها .

ومما يسرنا تسجيله أن قوام التدريس في هذه الكلية مجموعة من الاساتذة والمحاضرين ، أتم حلهم دراساته العالية في مصر ؛ منهم من تخرج في الأزهر الشريف ، ومنهم من تخرج في دار

العلوم العليا ، ومنهم من تخرج في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ومنهم من جمع بين اثنتين أو ثلاث من شهادات هذه المؤسسات .

جامعة عليكرة الإسلامية : ولقد كان من آثار اهتمام المسلمين بمستقبل أبنائهم ، أن قامت في الهند منذ سنة ١٨٨٧ « جامعة عليكرة الإسلامية »

وقد نادى بضرورة تأسيسها المغفور له « السيد أحمد خان » ، وكان رحمه الله من قادة الفكر ، فرأى بنافذ فكره أن مستقبل الجيل الاسلامي في تلك البلاد يستدعى طريقا خاصة لتعليم المسلمين ، طريقا تجمع بين الحصول على الشهادات الرسمية للحكومة ، وإحراز قسط وافر من علوم الدين ؛ لذلك دعا الى تأسيس جامعة إسلامية تقوم على تربية النشء من أولاد المسلمين تربية جامعية ، مع الاهتمام بأصول الدين الاسلامي . وبما امتازت به هذه الجامعة ، قسم اللغة العربية والدين الاسلامي .

أما اللغة العربية ، فهي مادة اختيارية ، ولكن الجامعة تشجع على دراستها بمختلف الوسائل . وأما الدين الاسلامي فقد جعلت له حصص قبل بدء اليوم المدرسي ثم بعد انتهائه يحضرها من يشاء من الطلبة ، ولكنهم لا يؤدون فيها امتحانا .

وبالجامعة مسجد كبير يؤمه الطلبة للصلاة ، كما أن لكل مسكن من مساكن الطلبة مسجدا خاصا يؤمه طلبة المسكن للصلاة ، عند ما يكون الوقت غير ملائم للذهاب الى المسجد الكبير . وقد استقبل « السيد أحمد خان » في الاتفاق على هذه الجامعة الاسلامية ، حتى ليقال إنه مات فقيرا بعدما لم يترك لأولاده إلا الذكرى ، ولم يكن ليترك بابا من أبواب سراة المسلمين ، بل من أبواب فقرائهم ، إلا طرفه مستنديا الأكف لهذه الجامعة . وهما ذى الجامعة اليوم في الهند ، تشيد بذكر مؤسسها الكبير ، ووضع نواة الإصلاح ثبينة الاسلامية .

ولا تستطيع أن تغمر وأنت تزور جامعة عليكرة ، بما لها من أثر اجتماعي خطير في الهند ، إلا أنك لانكاد تخرج من الجامعة حتى تلقى شباب الهند المثقفين ، الذين احتلوا بحق أهم مراكز الحكم والحياة العملية ، وهم يتغنون ويفخرون بأنهم « عليكريون » ، فتشعر بالآثر السحري الذي كان لهذه الجامعة في تخريج عدد من الرجال ، هم زهرة شباب الهند الاسلامية اليوم . وإذا كان كثيرون منهم قد تخصصوا بعد ذلك في « كبرج » أو « اكسفورد » ، فانهم لا ينفون بذكر ذلك بقدر ما يفتخرون بالمفاخرة بأنهم من خريجي جامعة عليكرة .

والرابطة العليكرية قوة تفوق ما يمانها من قوى في الهند ؛ فلقد روى لنا أن الشاب إذا تخرج في هذه الجامعة ، فاعليه إلا أن يطرق باب عظيم من عطاء المخرجين فيها ، فتفتح له أبواب العمل ، ولا يصعب عليه أن يحتل مركزا ، لا يلبث أن يكون فيه عظيما .

هذه هي جامعة عليكرة ، وهي وإن كانت لا تؤدي للدين من الخدمات بقدر ما تؤديه

الجامعة الثمانية مثلاً ، أو المدارس الدينية المنتشرة في أنحاء الهند (والتي سنتناولها الآن بالكلام) إلا أنها تعتبر حجر الزاوية في ربط الشباب الاسلاميين المنتمين بعضهم ببعض ، وإن باعدت بينهم الاقامة وظروف الاصل .

جامعة بنارس : وقد كانت جامعة عليكرة وما أصابت في الماضي من نجاح صار مضرب الأمثال ، حير حافظ هيئة الهندوسية لأن تقنّدى بها ، فتؤسس لها جامعة هندوسية في بنارس ، تؤدي لها ما تؤديه جامعة عليكرة للبيئة الاسلامية .

فجامعة بنارس قد خرجت فكرتها الى حيز التنفيذ في سنة ١٩١٧ ؛ أي بعد جامعة عليكرة بنحو ثلاثين سنة ، وهذا أتتحت الفرصة لذلك أن تتفادى مآتافيه هذه من نقص . ففي نظام الابدية : كانت جامعة عليكرة كلها استطاعت الحصول على قطعة من الارض بنت إحدى المؤسسات . أما جامعة بنارس فقد ابتاعت الارض كاملة ، ثم رسمت لمبانيها خطة تجرى حتى اليوم على تنفيذها بالتدريج ؛ لذلك نرى المباني في بنارس أحسن تنسيقاً منها في عليكرة .

أما عن حال الدراسة : فإن جامعة بنارس قد اقتنست نظمها من أحدث جامعات العالم ، وعلى الأخص من أمريكا ؛ لذلك ترى نزعة الحياة فيها أقرب الى العملية منها الى النظرية . في حين أن جامعة عليكرة — نظراً لقدم تأسيسها — تنحى نحو الحياة النظرية ، أكثر مما تنحى نحو الحياة العملية .

وكأن الرجال المسئولين عن جامعة بنارس ، قد أدركوا ناحية من نواحي الألم في جامعة عليكرة ، وهي تضخم رواتب الأساتذة والمحاضرين ، فأعدت لهذه الحال عدتها ؛ بأن وضعت أسانذتها ومحاضريها — منذ البداية — في مستوى أقل من مستوى أمثالهم في عليكرة ، من حيث الرواتب ؛ وبذلك لم تستهدف في الازمة المالية الطاحنة الماضية لما استهدفت له عليكرة من الاضرار لا تقاس رواتب المدرسين .

على أن كلا من الجامعتين : عليكرة وبنارس ، يعتبر مثلاً أعلى فيما يجب على الشعب أن يقوم به في سبيل تثقيف أبنائه تثقيفاً وطنياً متحرراً من القيود الحكومية ، فإن الشعب يكتب لكل من هاتين الجامعتين بالمال الكثير في كل عام .

ويكفي ان نعلم أن ميزانية جامعة عليكرة تربي على ١٢٠ ألفاً من الجنيهات ، لاندام فيها الحكومة إلا بمقدار ٢٠ ألف جنيه فقط ، في حين تبلغ ميزانية جامعة بنارس حوالى ٨٠ ألف جنيه ، تدفع الحكومة منها قدر ما تدفع لجامعة عليكرة .

وبعد : فإن مقياس النفع الذي تؤديه كل من هاتين الجامعتين للعهد ، لا يقاس بميزانيتهما

السوية ، ولا بمقدار ما تسام به الحكومة في تلك النفقات ، بل أجدر من ذلك أن يقاس عما نشهده من نشاط وطني في كل من هاتين المؤسساتين .

مدارس المنبوذين :

وقبل أن نختتم الكلام على التعليم المدني ، يجدر بنا أن نشير الى الجهود التي تبذل في الهند لتعليم أبناء المنبوذين تعليما مدنيا .

فقد أنشأت الحكومة طم مدارس خاصة ، عنيت بأن تجمع في كثير منها : بين تعليم القراءة والكتابة باللغة الوطنية ، وبين صناعة لا تحتاج الى رأس مال كبير . وقد ساهمت الجمعيات التي تعمل على رفع مستوى المنبوذين في افتتاح عدد غير قليل من هذه المدارس الابتدائية — سواء في ذلك الجمعيات التي ولدتها حركة زعماء الهندوس لاصلاح حال المنبوذين ، أم الجمعيات التي نشأت في بيئات المنبوذين بفعل زعمائهم .

ومما يجب أن يعتبر به المسلمون أن للبشرى المسيحيين جهودا في نشر التعليم بين طبقات المنبوذين ، الى جانب التبشير ، وهي جهود جارية يقوم بها المبشرون منذ عشرات السنين . وتقوم بعض جمعيات التبليغ بالدين الاسلامي ، بافتتاح مدارس ابتدائية في أحياء المنبوذين ، حيث تلقن العلوم الابتدائية الى جانب مبادئ الدين الاسلامي . على أن بعض هذه المدارس يلتن هؤلاء الصغار مبادئ العلوم دون المساس بالدين ، حتى لا يتفر المنبوذون الذين دخلوا هذه المدارس ، على أن أصحاب النظرة الثنائية يأملون أن يتمكنوا من التلويح الى المواضيع الدينية ، حينما يحسون ارتياحا لها : لدى الطائفة من ناحية ، وأولياء أمورهم من ناحية أخرى . وقد شاهدها في حكومة « حيدرآباد » عددا من المدارس ، خصص لإنشاء المنبوذين ، يسلمون فيها العلوم باللغة الوطنية ، والى جانبها بعض الصناعات الأولية ، ومع أن معلمي هذه المدارس من المسلمين ، فانهم لا يعرضون لبحث المواضيع الدينية مع الأمتثال ، حرصا على ألا يقال إن الحكومة تقوم بعمل « تبليغي » عن طريق التربية والتعليم .

المدارس الدينية الاسلامية :

لما كانت المدارس الابتدائية والمتوسطة والعالية — التي تديرها الهيئات الحكومية — ممنوعة من تعليم الدين ، ولما كانت العقيدة الاسلامية المتمكنة من نفوس المسلمين ، لا تسمح لهم بإهمال هذه الناحية من تواحي تكوين الشباب وهي الدين ، فقد نذيت لا كفا في عامة أنحاء الهند بالتبرعات لانشاء مؤسسات علمية دينية خالصة لوجه الله ، لا يبتغي منها مشورتها إلا وجه ربهم الكريم .

فأينما سرت في بلاد الهند ، سواء أكان الاقليم منطقة لقلة إسلامية ، أو لكثرة إسلامية ، وجدت هذه المدارس الدينية . وقد يطول بنا التفرع إذا حاول أن ندل على إحصائها ، أو وصف مسهب لحالها العامة ؛ إلا أننا نتناول بالبحث أهم ما شاهدناه منها :

تنقسم مراحل التعليم في هذا النوع من المدارس أربعة أقسام ، تقابل أقساماً أربعة . شرحناها في الكلام على التعليم المدني ؛ وهي : الابتدائي ، والمتوسط ، والعالى ، والجامعى .

التعليم الابتدائي

انفرد المسلمون في الهند بهذا النوع من المدارس الابتدائية ، وهي مدارس يعلم فيها التعليم المدني تقريباً ، يضاف الى ذلك . الإلمام باللغة العربية عن طريق إقراء القرآن الكريم أو تحفيظه ؛ وهذه المدارس في حالها اليوم ، أشبه ما تكون بالكتاتيب التي كانت معروفة في مصر قبل مشروع التعليم الأول ، وينفق على هذه المدارس أفراد ، وتدينها في بعض الأحيان المجالس البلدية . أما في الامارات التي يحكمها أمراء من المسلمين ، فإن الدولة هي التي تنفق عليها . ومن أمثلة هذه المدارس : المدرسة الميمنية في بيروت ، حيث شاهدنا أطفالاً دون النامنة من أستانهم ، يمجودون القرآن الكريم تلاوة من المصحف الشريف ، وفيهم حفاظ قليلون ، ومدة الدراسة بهذه المدارس خمس سنوات تنتهى بنيل شهادة « مؤدب »

التعليم الثانوى :

فاذا ما انتهى الطلبة من القسم الابتدائي ، ألحقوا بالقسم الثانوى ، حيث يزداد إلمامهم بعلوم الدين الاسلامى ، فينلقون الحديث الشريف ، ثم الفقه على المذهب الذى تختيره إدارة المدرسة ، ثم يزداد إلمامهم باللغة العربية ، فيقرءون الكتب الاولى فيها .

وكثيراً ما تجمع المدرسة الواحدة القسمين : الابتدائي والثانوى ، ومن أمثلة ذلك : المدرسة الامينية بدلهى ، ومدرسة مظهر العلوم بكراتشى . أما المدرسة الرحمانية بدلهى فهي من هذا النوع ، ولكنها تعنى بدراسة الحديث واستنباط الفقه منه ، غير متعبدية بمذهب من مذاهب الفقهاء الاربعة ؛ ومدة الدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات تنتهى بنيل شهادة « مولوى عالم » .

(يتبع)

رسالة لإصابة السهام والأسنة في محور منكري كسب أهل السنة :

هذه رسالة وضمها حضرة صاحب الفصيلة الأستاذ الموقر الشيخ عبد العزيز الدباغ محمد عبد الماحد من أعيان علماء السودان بأم درمان وهي كما يدل عليها اسمها تؤيد مذهب أهل السنة في إثبات الكسب للإنسان ، ومذهب أهل السنة وسط بين الجبرية والقدرية . فالمؤلف يبين كلا المذهبين بتحقيق دقيق ، وتحليل قويم ، ويثبت مذهب أهل السنة في إثبات الاختيار والكسب للإنسان .

فنشكر لحضرة المؤلف ما قام به من الخدمة العلمية ، ونرجو أن يوفقه فيما وقف له حياته من خدمة الدين ، وحياته من الدرع ، ونصرة شيعة الحق .

جمعية منع المسكرات :

لو تصدينا لتعداد ما تقوم به هذه الجمعية من ضروب المحاولات في محاربة الخمر لاحتجنا لصحف كثيرة ، وكلها تروى لمة الأستاذ الجليل الناب أحمد غلوش أفندي رئيسها العامل ، فهو لا يذخر وسعاً في بث دعوته ، والتذكير بمعرفته ، في كل مناسبة حتى أشبه من هذه الناحية رجال الدعوات الإصلاحية من الأمريكان والانجليز ، ويصعب علينا أن نمجده ضرباً في مصر . لقد استكمل الأستاذ غلوش جميع صفات الدعاة من الثبات والافتاء والبشاشة وحسن اللقاء واهتبال الفرض وعدم إضاعة مظنة من مظان النجاح إلا بإدراك إليها في غير تاهوق ولا لزق . ولو كان لدينا من أمثاله في كل جمعية تقوم بدعوة لكان لذلك أثر كبير في البيئة المصرية .

نقول هذا في مناسبة ذكر تقرير الجمعية عن أعمالها من يونيو سنة ١٩٣٥ إلى مايو سنة ١٩٣٧ وقد صدره بصورة بديعة لحضرة صاحب الجلالة الملك وحضرة صاحب السمو الأمير الكبير محمد طوسون وحضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا . وجعل في أول مقدمته صورة لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وكتب تحتها هذه الأسطر :

« حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم الأمة العظيم الذي تم على يديه إلغاء الامتيازات الأجنبية في مصرنا العزيزة ، والذي وعد وفد الجمعية بالاهتمام بتحقيق مطالبها التشريعية بعد أن ينحقق للبلاد ما تصبو إليه من إلغاء تلك الامتيازات وإطلاق يد الشارع المصري فيما ينبغي سنه من القوانين الكفيلة بسعادة الوطن وما كنيه » .

فندعو للأستاذ الجليل غلوش أفندي بالفوز بما يرى إليه من هذا الإصلاح العظيم ، وبأن يمد الله بالقوة والعون والتوفيق .

وكيل المجلة بالفيوم

قد عيننا حضرة سعيد معوض أفندي وكيلاً لمجلة الأزهر بمدينة الفيوم وضواحيها . فنرجو اعتماده في تحصيل قيم الاشتراكات .

Al-Aswad, through his father, through 'A' ishaḥ, who said :

"When any of us was in her courses, and the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) wished to touch her, he commanded her to gird on a lioncloth as soon as her menstrual flow began, after which he touched her."

"But", added 'A' ishaḥ, "which of you can master his passion as the Prophet (Allāh bless him and give him peace) did?"

This hadith is confirmed by Khālid and Jarir, as fellow-witnesses with 'Alī b. Mus-hir, through Ash-Shaibāni.

3. We are informed by Abu-n-Nu'mān, who had it from 'Abd-ul-wāhid, who received it from Ash-Shaibāni, who was told it by 'Abdullāh, b. Shaddād, who heard Mamūtuah say :

"When the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) wished to touch any of his wives, he used to command her to gird on a lioncloth if she was in her courses."

This hadith was also related by Sufyān, through Ash-Shaibāni

الأسود عن أبيه عن عائشة قالت :

« كانت إحداثا إذا كانت حائضاً فأرَادَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُبَاشِرَها أمرَها أن تَتَوَرَّعَ في فَوْرِ حَيْضَتِهَا ثُمَّ يُبَاشِرُهَا،

قالت وَأَنتُمْ يَمْلِكُ إِرْبَهُ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَمْلِكُ إِرْبَهُ، إِرْبَهُ، إ »

تابعه خالد وعجير عن الشيباني .

٣ — حدثنا أبو النعمان قال حدثنا

عبد الواحد قال حدثنا الشيباني قال

حدثنا عبد الله بن شداد قال سمعت

ميمونة تقول :

« كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَاشِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَمَرَهَا فَاتَّوَرَّعَتْ وَهِيَ حَائِضَةٌ،

وَرَوَاهُ سُفْيَانُ عَنْ الشَّيْبَانِيِّ .

We are informed by Al - Makki b. Ibrâhim, who had it from Hishâm, through Yahyâ b. Abu Kathîr, through Abu Salamah, who was told it by Zaynab the daughter of Umm Salamah that her mother ¹ said to her :

" Once while I was lying with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) under one bed-cover, ² my courses came upon me. I stole out of bed and put on my menstruating - gown, when he said : ' Have thy courses come upon thee ? ' I replied that it was so. He then called me, and I lay down with him under the bed-cover "

Chapter 5.

On contact ³ with a menstruating woman.

1. We are informed by Qabisah, who had it from Sufyân, through Mansûr, through Ibrâhim, through Al-Aswad, through 'A' ishah, who said:

" I and the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to perform the ghusl from one and the same vessel, when we were both in a state of ritual impurity through sexual intercourse ; and when I was in my courses, he used to order me to gird on a lion-cloth, after which he touched me ; and when he was in his retreat, he used to hold out his head to me and I washed it although I was in my courses."

2. We are informed by Ismâ'îl b. Khalîf, who had it from 'Alî b. Mushîr, who received it from Abu Ishâq Ash-Shaibânî, through 'Abdu r-Rahmân b.

حدثنا المكي بن اراهيم قال حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلة أن زينب ابنة أم سلة حدثته أن أم سلة حدثتها قالت :

« بَيْنَمَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعَةً فِي حَمِيضَةٍ إِذْ حِضْتُ فَأَسَلْتُ فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضِي ، قَالَ : أَتُفْسِدُ ؟ قُلْتُ نَعَمْ ، فَدَعَانِي فَأَضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الْغَمِيضَةِ . »

— • —

باب : مباشر الحيض :

١ - حدثنا قبيصة قال حدثنا سفيان عن منصور عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة قالت :

« كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَمَا وَاللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كَلَانَا جُنُبٌ ، وَكَانَ يَأْمُرُنِي فَأَتَرَّرُ فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائِضٌ ، وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُتَكَبِّفٌ فَأَغْبِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ . »

٢ - حدثنا اسماعيل بن خليل قال أخبرنا علي بن مشير قال أخبرنا أبو اسحاق ، هو الشيباني ، عن عبد الرحمن بن

1. A wife of the Prophet. She was a widow when he married her.

2. Or—a square-shaped black cloak of wool or silk with a fringe, حَمِيضٌ being synonymous.

3. Any form contact being permissible except sexual.

consider a trifle ; and any woman in either condition may serve me, without there being any harm in it to anyone. 'A'ishah informed me that she used to dress the hair of the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) when she was in her courses, at a time when the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) was in a retreat in the Mosque, - holding his head towards 'A'ishah when she remained in her apartment - and dressed his hair while in her courses."

Chapter 3.

On the Qur'ān being recited by a man leaning on his wife's lap while she is in her courses ;

and on Abu Wā'il having sent his maid, when in her courses, to Abu Razīn to bring him a Qur'ān, and her holding it by the cord of its cover.

We are informed by Abu Nu'aim Al-Fadl b. Dukain, who heard it from Zuhair, through Mansūr b. Safiyyah that his mother told him that 'A'ishah transmitted to her the tradition that :

The prophet (Allāh bless him and give him peace) used to lean on her lap when she was in her courses, and then recite the Qur'ān.

Chapter 4.

On one who useth the word proper to puerperal bleeding for menstruation. *

هَيْسَ، وَكُلَّ ذَلِكَ تَخْدُمُنِي وَلَيْسَ
عَلَى أَحَدٍ فِي ذَلِكَ بَأْسٌ، أَخْبَرَنِي
عَائِشَةُ أَنَّهَا كَانَتْ تَرْجُلُ نَبِيَّ رَأْسَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ
حَائِضٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
حِينَئِذٍ مُجَاوِرٌ فِي الْمَسْجِدِ يُدْنِي لَهَا
رَأْسَهُ وَهِيَ فِي حُجْرَتِهَا فَتَرْجُلُهُ
وَهِيَ حَائِضٌ.

— ٣ —

بَابُ : قِرَاءَةِ الرَّجُلِ فِي حُجْرَةِ
امْرَأَتِهِ وَهِيَ حَائِضٌ،
وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ يُرْسِلُ خَادِمَتَهُ
وَهِيَ حَائِضٌ إِلَى أَبِي رَزِينٍ فَنَاتِيَهُ
بِالْمُصْحَفِ فَيُمْسِكُهُ بِعَلَاقَتِهِ :
حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ
سَمِعَ زُهَيْرًا عَنِ مَنصُورِ بْنِ صَفِيَّةٍ أَنَّ
أُمَّهُ حَدَّثَتْهُ أَنَّ عَائِشَةَ حَدَّثَتْهَا :
« أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
يَتَّكِي فِي حُجْرَتِي وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ
يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ».

— ٤ —

بَابُ : مَنْ سَمَّى النِّفَاسَ حَيْضًا :

1. 'A'ish's apartment being contiguous to the Mosque, the Prophet would stand in the doorway holding his head towards 'A'ishah.
2. Al-Bukhārī, being unable to find a hadīth dealing with puerperal bleeding satisfying his criteria of genuineness, cites this hadīth in which puerperal bleeding is used for menstruation — from which it can be inferred that the same ruling applies to both.

but the pilgrimage to *Makkah*. When we reached Sarif¹ my courses came upon me, and when the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) entered my tent I was in tears. He said: 'What aileth thee? Have thy courses come upon thee?' 'Yes,' replied I, 'This is a matter which hath been allotted by Allāh to the daughters of Adam', said he, 'so perform whatever a pilgrim should do, save that thou do not circumambulate the Ka'bah'.

The Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace)—added 'A 'ishah — sacrificed oxen on behalf of his wives."

Chapter 2.

On a woman in her courses being permitted to wash her husband's head and to dress his hair,

1. We are informed by 'Abdullāh b. Yūsuf, who was told it by Mālik, through Hishām b. 'Urwah, through his father, through 'A' 'ishah, who said :

" I used to dress the hair of the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) while I was in my courses."

2. We are informed by Ibrāhīm b. Mūsā, from Hishām b. Yūsuf, who received it from Ibn Juraj, who was told it by Hishām, through 'Urwah, who stated that he was asked .

" May a woman in her courses serve me? And may a woman approach me when she is in a state of ritual impurity through sexual intercourse? "

" All that, " replied 'Urwah, " I

كُنَّا بِسَرِفٍ حِضْتُ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي، قَالَ مَا لَكَ أَفْقِيتِ؟ قُلْتُ نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى نِسَاءِ آدَمَ فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ،

قَالَتْ: وَضَعَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نِسَائِهِ بِالْبَقَرِ، .

— ٢ —

بَابُ: غَسْلِ الْحَائِضِ رَأْسَ زَوْجِهَا وَتَرْجِيلِهِ :

١ — حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسُفَ قَالَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

« كُنْتُ أَرْجِلُ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا حَائِضٌ » .

٢ — حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى قَالَ أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يَوْسُفَ أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ أَخْبَرَنِي هِشَامُ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ سُئِلَ :

« أَتَخْدُمُنِي الْحَائِضُ أَوْ تَدْنُو مِنِّي الْمَرْأَةُ وَهِيَ جُنُبٌ؟ » ،

فَقَالَ عُرْوَةُ: « كُلُّ ذَلِكَ عَلَى

1. A place about ten miles from *Makkah*.

In the Name of Allāh the
All-Loving the Most
Merciful.

BOOK VI.

On Menstruation.

And on the word of Allāh (be-He exalted) : "And they question thee on menstruation, say : 'It is pollution, so keep apart from women during their courses, and do not have intercourse with them until they have purified themselves ; and when they have done so go in unto them in the manner which Allāh hath ordained unto you. Verily Allāh loveth those who turn unto him with repentance, and He loveth those who purify themselves.' " 1

Chapter I.

On how menstruation first began ; and on the words of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) : "This is a thing which Allāh hath allotted to the daughters of Adam" ;

and on the fact that some have said . "The children of Israel were the first upon whom menstruation was sent."

Al-Bukhārī states, however, that the Prophet's hadith (Allāh bless him and give him peace) is more comprehensive.

We are informed by 'Alī b. 'Abdullāh, who had it from Sufyān, who heard it from 'Abdu-r-Rahmān b. Al-Qāsim, who heard it from Al-Qāsim, who heard 'A' ishah say :

"We set out with no other aim

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب السادس

كتاب الحيض

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : « وَيَسْأَلُكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلُوبٌ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » .

- 1 -

بَابُ : كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْعِيضِ ،
وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ ،
وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَانَ أَوَّلُ مَا أُرْسِلَ الْخَيْضُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ،
فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ : وَحَقِيقَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرُ :

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا سَفِيَّانُ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْقَاسِمِ قَالَ سَمِعْتُ الْقَاسِمَ يَقُولُ سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ : « خَرَجْنَا لَا نَرَى إِلَّا الْحَجَّ فَلَمَّا

ejaculating, *what should he do?*" The Prophet replied : "He must wash the part that hath been in contact with her, and then perform the wudû" and pray."

Al-Bukhârî stated that ghusl is the safer, since such was the latest ruling, but he recorded the various hadiths to show the divergence of opinion among the companions.¹

الْمَرْأَةُ فَلَمْ يُتَزَلْ ، قَالَ : يَغْتَسِلُ
مَامَسَ الْمَرْأَةَ مِنْهُ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّيُ ،

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : الْغَسْلُ أَحْوَذُ
وَذَلِكَ الْآخِرُ ، وَإِنَّمَا بَيَّنَّا لِحْتَلاَقِهِمْ .

The end of the Book of Ghusl.

اتمهي كتاب الغسل

1. The controversy arose among the Companions as to whether the ghusl should be performed after mere contact or necessarily after ejaculation. When they discussed this question before 'Umar, one party being in favour of الغسل (ghusl after mere penetration) and the other of الماء من الماء (ghusl after ejaculation), the question was referred to 'Ash'ab who decided in favour of the former. Thereupon 'Umar declared that he would punish anyone who dared to say after that الماء من الماء (Al-'Aini in loco).

Chapter 29.

On a man's washing away the defilement secreted by a woman's organ.

1. We are informed by Abu Ma 'mar, who had it from ' Abd - ul - Wārith, through Al-Hussain, who received it from Yahyā, to whom it was related by Abu Salamah, who was told it by 'Atā' b. Yasār, to whom it was narrated by Zaid b. Khālid Al-Juhani, who stated that he asked ' Uthmān b. 'Alfān :

"What dost thou consider should be done if a man have connection with his wife without ejaculating ?" "He must perform the wudū' as for prayer, and wash his member," replied 'Uthmān. "This I have heard from the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace)."

Zaid added : "I asked the same question of 'Aī b. Abu Tālib, Az-Zubair b. Al- 'Awwām, Talhah b. ' Ubaidullāh, and Ubayy b. Ka 'b (Allāh be well pleased with them), and they gave the same ruling."

Yahyā also stated that he was informed by Abu Salamah, who had it from 'Urwah b. Az-Zubair, who heard it from the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace).

2. We are informed by Musaddad, who had it from Yahyā, through Hishām b. 'Urwah, who received it from his father, to whom it was related by Abu Ayyūb, who was told it by Ubayy b. Ka 'b, who said to the Prophet :

"Messenger of Allāh, if a man have connection with a woman without

— ٢٩ —

بَابُ غَسْلِ مَا يُخْبِئُ مِنْ
فَرْجِ الْمَرْأَةِ :

١ — حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ حَدَّثَنَا
عَبْدُ الْوَارِثِ عَنِ الْحُسَيْنِ قَالَ يَحْيَى وَأَخْبَرَنِي
أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ
رَيْدَ بْنَ خَالِدٍ الْجُهَنِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَأَلَ عُثْمَانَ
ابْنَ عَفَّانَ فَقَالَ :

« أَرَأَيْتَ إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ
امْرَأَتَهُ فَلَمْ يُنْجِ ؟ قَالَ عُثْمَانُ :
يَتَوَضَّأُ كَمَا يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ وَيَغْسِلُ
ذَكَرَهُ ، قَالَ عُثْمَانُ : سَمِعْتُهُ مِنَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي
طَالِبٍ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَطَلْحَةَ بْنَ
عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَبِي نَضْرَةَ كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ .

قَالَ يَحْيَى وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ عَنْ
عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٢ — حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ
هَشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ
أَخْبَرَنِي أَبُو أَيُّوبَ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبِي بْنُ
كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ :

« يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للمؤلف ابراهيم بن الموصى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Chus (CONTINUED)

Chapter 28.

When there is contact of the circumcised parts. ¹

We are informed by Mu'adh b. Fadalah, who had it from Hisham; we are also informed by Abu Nu'aim, through Hisham, through Qatadah, through Al-Hasan, through Abu Rāfi', through Abu Hurairah, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace) who said :

"When a man lieth in a woman's embrace, ² and then penetrateth her, the ghusl is obligatory."

This hadith is confirmed, as fellow-witness with Hisham, by 'Amr b. Marzuq, through Shu'bah to the same effect;

Musa also stated that he was informed by Aban, who had it from Qatadah, who received it from Al-Hasan to the same effect.

كتاب الغسل (تابع ماقبله)

— ٢٨ —

باب : إِذَا التَّقَى الْخِتَانَانِ :

حدثنا معاذ بن فضالة قال حدثنا هشام، وحدثنا أبو نعيم عن هشام عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعْبَيْهَا الْأَرْبَعِ
ثُمَّ جَهَّزَهَا فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ » .
تابعه عمرو بن مرزوق عن شعبة
مثله ،

وقال موسى : حدثنا أبان قال حدثنا
قتادة أخبرنا الحسن مثله .

1. Circumcision is a sunnah or commendable practice in the case of men, and is practised by the Arabs in the case of women for the sake of continence.

2. Literally, "Between her legs and arms."

شهر رمضان

رياضة النفس على فضيلة الصبر

جرت الأهرام في السنتين الأخيرتين على أن تستكتب أقطاب العلماء في شهر الصيام فيما يريدون أن يدلوا به إلى الناس من التعاليم الحكيمة ، وأول من يفتتح الكتابة في هذا الباب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وقد اعتدنا أن نلتقط ما يكتبه فضيلته . وحريا على هذه السنة ننقل إلى القراء ما كتبه فضيلته في هذا الباب لنفاسته ومعمو موضوعه ، وهاهو :

ندع لغيرنا الحديث عن فوائد الصوم وأنه يصلح البدن وينقيه وينفع لمعالجة بعض الأمراض . كذلك ندع الحديث عن طريقة التغذية التي يجري عليها الناس في شهر رمضان في الإفطار والسحور ، فذلك من حق سعادة الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا وأضرابه من أساطين الطب ، ونمرض لناحية من نواحيه وهي ناحية التهذيب الروحي .

ومن المعروف أن الصوم إمساك عن الذات البدنية من الطعام والشراب ونحوها . هذا تعريف الفقهاء . وهو في نظرنا أعمق من ذلك : إمساك عن أذى الخلق ، وكف عن الآثام جميعها ، على أن يقصد بذلك وجه الحق سبحانه .

ومما لا يحتاج إلى توضيح أن في الصوم على هذا النحو ترويضاً للبدن ، وترويضاً للنفس ، وتنمية لخلق الصبر الذي هو نصف الإيمان ، ومن نتائجها العطف على الفقراء واليتامى ويروم ، وبذل المال في سبيل إسعادهم ، وحسن المعاشرة للجماعة الانسانية .

كل شيء في الحياة ممكن : الفقر بمد الخلق ، والمرض بمد الصحة ، والذل بمد العز ، وفقد الأهل والعشيرة بمد الثراء منهم ، والزواج عن الأوطان بمد الطمانينة والاستقرار ، وتغلب الأعداء بمد التغلب عليهم وقهرهم ، إلى غير ذلك مما يعرض للإنسان في حياته ، لا يفترق فيه واحد عن واحد ، ولا أمير عن سوقي .

وعروض هذه المكافأة على نفس مترعة مدلة تنام في موعد وتستيقظ في موعد ، وتأكل بقل ، وتمرح في الذات بين الأهل والعشيرة والأصدقاء — قد يصدمها صدمة تودي بها ، أو تورث الجزع وتسوق إلى اليأس ، وقد توقعها في أمراض قاتلة .

ويجب لا لقاء عواقب المفاجآت في هذه المكافأة أن يمرن البدن وتمرن النفس وتقوى رياضة بدنية روحية في كل عام مرة على الأقل ، فيقلب لها نظام الحياة ، وتمنع من الشهوات

واللذات ، وتعود الحرمان من المحبوبات ، فيكون الإفطار في المساء بعد أن كان في الصباح ، والعشاء في السحر بعد أن كان في المساء ، ويشقى بجانب ذلك نظام النوم ونظام العمل ، وتستدام مرافقة الله جلّت قدرته .

الصبر على هذا الحرمان والطاعة فيه يسهلان بلا مرء الصبر والطاعة على ما هو أقل من ذلك . فالصبر على ترك ما كان مباحاً شق من الصبر على ترك ما كان محرماً . والذي لا يسأل بالسعة وهو حاضرة في يده امتثالاً لأمر الله ، يسهل عليه احتمال زوالها والرضا بما قدر الله .

وكل إنسان في حاجة إلى الصبر . المعلم محتاج إلى الصبر على الدرس ، والمعلم في حاجة إلى الصبر حتى يفهم المتعلم ، والزارع في حاجة إلى الصبر حتى يتقى فلاحه أرضه ويحسن ربه وما يلزم ذلك ، والتاجر في أشد الحاجة إلى الصبر على تعلم طرق التجارة وعلى أخلاق من يعاملهم ، وكل واحد في حاجة إلى الصبر على معاينة الأصدقاء والأعداء .

بذلك كان الصوم نصف الصبر ، وكان الصبر نصف الإيمان ، وكان صوم رمضان إيماناً واحتساباً لله سبحانه سبباً من أسباب الثمران .

وأسأل الله لأخواني المسلمين توفيقاً ورحمة وهباً ، وعراً ومجداً وسؤداً .

لقد وفق الله فضيلة الأستاذ الامام لبيان حكمة للصيام من أعظم الحكم في عهد أئمة أئمة ما يكونون إليه فيه ، فقد بلغ سلطان العادات عليهم حد الاستعباد الذي لا يرضى به إلا كل ضعيف النفس ، منخوب القلب ، فسكل ما يعرف أفراداً لو تأخر عنهم الطعام عن مواعده فأصابهم الجوع ، ساءت أخلاقهم ، وضاعت صدورهم ، وطاشت أحلامهم ، وأشعوا خداهم سباً وتمنيماً ، وربما تجاوزوا ذلك إلى الضرب والادى ، ويكون الناظر إليهم وهم على تلك الحال يحيل إليه أنه حيال مظاهر إصابات عقلية تنافي جلال الرجولة وجمال الإنسانية . وقد يكون سلطان المسكيات من القهوة والشاي والتبغ والتبناك والشوق أشد من سلطان الطعام على أئمة ، فإن الذي لم يعود نفسه الحرمان منها إن اتفق له عدم الوصول إليها يوماً كاملاً أو بعض يوم ، اشتد الأمر عليه إلى درجة يتركها كل من يراه ، فإن كله عقلاً أن ينجو من رشاش من إقذاعه لأوهى الأسباب .

فهؤلاء يعتبرون مستعبدين لبطونهم وأعضائهم ، فأنين في شهواتهم وماداتهم ، فإذا اضطروا في حين من الزمان إلى تغيير سيرتهم في معيشتهم كما يحدث في أيام الحروب الطاحنة ، لم يستطيعوا تحمل هذا التغيير فيهلكون أو يقيمون في أمراض عسالة .

قال هؤلاء وأمثالهم ممن يسيئون فهم المدنية ، ويحسونها ترفاً محضاً ، يساق ما ذكره فضيلة الأستاذ الامام في عجائله الحكيم من رياضة النفس على فضيلة الصبر .

الدروس الدينية

في حصة صاحب الجلالة الملك

لقد وفق الله حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول الى سنة حسنة ابتكرتها فطرته العالمة ، وهي أن يلقي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر في كل أسبوع درساً دينياً في أحد المساجد الكبرى ، يتفصل حضرة صاحب الجلالة بحضوره في جمهور كبير من رجال دولته ، ورؤساء حكومته .

فبدأ فضيلة الأستاذ الامام بالدرس الأول في جامع الأستاذ البوصيري في أوائل رمضان بالاسكندرية ، وجعل الدرس الثاني في مسجد الامام الحسين رضي الله عنه ، والدرس الثالث في مسجد أبي العلاء ببولاق ، وسيكون الدرس الرابع في أحد كبار المساجد بالقاهرة . وقد تكرم جلالته الملك بحضور جميع هذه الدروس وحضرها معه عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين ، فكان أثر ذلك في نفوس الناس عظيماً ، وثمرته في إعزاز الدين ، وإكبار شأنه لا يقدر .

حقاً إن هذا التجديد الملكي قد جاء في الوقت المناسب له ، فإن انصراف الناس عن الدين قد بدأ ينتج نتائج في المجتمع من انتشار المسكرات والمخدرات وضروب الملهيات وما تجر اليه من التلاهي والتضايغ والاقتماد على الحرام ، ولا يوجد سبيل الى نعت الناس الى ما يحميم من تعاليم الدين ووصاياه غير أن يعتمد القائم بالأمر الى إكبار شأن الدين ورفع مكانته الى الحد الواجب له ، والوصول الى هذا الغرض لا يكون بمجرد الدعوى وإلقاء الخطب كما كانت عليه الحال قبل هذا العهد ، فلا بد من اللجأ الى وسيلة عملية ، وليس يطوف بخيال أحد أحسن من هذه الوسيلة الكريمة التي يمد إليها حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ، فانها ترفع من شأن الدين في نظر الناس ما لا تستطيع حمل عشر غيره الخطب الطنانة ، والدعوات الخارة .

ومن كمال التوفيق أن يكون الأستاذ الذي تسند اليه هذه المهمة هو الأستاذ الامام الشيخ المراغي ، فانه بالقائه البديع المتد ، وعباراته البليغة المنتحلة ، واطلاعه الواسع الشامل ، وبصيرته النافذة النيرة ، يجلي من حكمة الاسلام ، ويكشف من فضائله وحسناته ، ما لا كان يخفى في بال الذين يتخيلون أن الأديان قد انقضى عهدها ، وأن ليس فيها ما يأخذ أبناء العصر الحاضر عنها . ولا أدل على ذلك من إلحاح القراء علينا في وجوب نشر هذه الدروس بمجلة الأزهر ، ومن عجب أن أشد من إلحاحنا المتعلمون تعلمها عالياً .

إن هذا التجديد الموفق من جلالته الملك ، واتفاق وجود فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي في دست المشيخة لتنفيذه في هذا العهد ، سيكون له أكبر الآثار وأعمها في نعت أقطار

المسلمين الى جمال دينهم ، وسعيد للروح الاسلامية الشريفة شخصيتها الضالعة بعد أن طلعت عليها الفلسفة المادية حتى كادت تسودها في عقر دارها .

فنتقدم بالشكر لجلالة الملك على ما قدم من عمل سيخلده له تاريخ مصر في أوجه صفحاته ، ونهني* حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام على ما وفق له من الابداع فيما أسند اليه من تنفيذه ، راجين الله أن يلهم المسلمين الاستفادة من هذه السنة الحسنة بمنه وكرمه ؟

محمد فريز وجري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الناحية الفلسفية

في حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إن لحياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نواحي شتى ، دينية واجتماعية وسياسية الخ ، ولعل من أحفلها بالطرافة ناحيتها الفلسفية ، وللمسفة معاييرها في تقدير المواهب النفسية ، والملكات العقلية ، وطرقها في التنقيب عما يسطوي في أعمال العاملين من البواعث الدالة على مميزاتهم الأدبية ، وسماتهم الروحية .

ونحن إن تأملنا في حياة عمر وما رمى اليه من غايات ، وما بدت عليه من صفات في مضطرب الحوادث ، ومزدهم الاقطابات التي طرأت على جماعة المسلمين على عهده ، تبين لنا أنه لم يكن رجلا عاديا ، ولكنه كان عبقريا .

تقول عبقريا وزيد من هذا اللفظ معناه الفلسفي لا معناه العامي . فإن العبقرية في العرف الأخير تعني بلوغ درجة ممتازة في الذكاء ، ومكانة عالية من العقل ، ولكنها في الاصطلاح الفلسفي تعني موهبة لا يمكن اكتسابها بالعلم ولا بالتجربة ، تؤهل صاحبها لأن يلهم إلهاما فيها هو بصده حتى يبلغ درجة الابداع فيه ، بدون أن يعمل فيه فكرا ، أو ييذل للوصول اليه جهدا . هذه حالة استثنائية يحجبها بعض الأفراد مسحا ، ولا يستطيع أحد الوصول اليها بالاستكثار من العلم ، ولا بالتسحر في المعرفة . قالت دائرة معارف (برينانكا) لسنة ١٩٢٩ :

« العبقرية شيء غارق للعادة على وجه الاملاق ، وأرق حتى من المقدرة العلمية الفائقة . وإنما لتعترف في النوع احتلافا يبا عن الألفية الممتازة ، فهذه تعتبر درجة عقلية سامية ، ولكن ينقصها تلك الموهبة الغدة التي لا تقبل لتفسير المحصورة في كلمة عبقرية » .

هذه هي العبقرية التي تحكم بها لثاني الخلفاء الراشدين . ومن العجب أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم له بها في حديث كريم هو :

« إن من أمي ملهمين ومحدثين وإن عمر منهم »

فالملهمون هم الذين يلهمهم الله الأعمال الممتازة ، والابداعات الفائقة ، بدون إجابة روية في سبيل الحصول عليها ، والمحدثون هم الذين تحدثهم الروحانيات العلية ، وتهديهم الى أقوم سبل التمتع فيها ثم تصدده . فمصر بمن هذا الحديث كان عبقريا بالمعنى العلمي المقرر .

في هذا التطبيق فائدة علمية طريقة ، وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم عرف العبقريّة بحدها الفلسفي ، قبل أن يوجد لفظها العربي .

نشأ عمر وكبر في الجاهلية ولم يظهر عليه شيء من سمو الذي ظهر به في الإسلام ، فكل ما اشتهر به الشدة وقوة الإرادة ، والتصميم الذي لا يعرف هواناً .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وبدأ يدعو إلى الله سرا ، بلغه أن أخته قبلت الإسلام ديناً ، فغضب لذلك أشد الغضب ، وراح في دارها ليولمها على ما جنت وترك دين آبائها . فلما جلس إليها وشرع في تأنيبها ، أسرعتنا فناولته صحيفة فيها شيء من القرآن . فلما قرأها (وكان من الأفراد القليلين الذين يقرءون) وقع في قلبه من سمو الإسلام ما جعله على أن يجمع برسوله ، فلما لقيه عرض عليه الرسول الإسلام ، وتلا عليه آيات من القرآن ، فأمن به لساعته .

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا الله وهو في شدة الحنة ، ونوعه الاضطهاد ، أن يعز الإسلام بأحد العرب : عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل . فلما أسلم عمر كان هو الذي اجتأه الله لا عزاء الإسلام . وكان أول ما عمله في إسلامه أن قال : يا رسول الله علام نخرج ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فأجابته رسول الله : « يا قليل وقد رأيت ما لتبصرا » . فقال له عمر : والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس حلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان ! فلقبه النبي بالفاروق من ذلك اليوم . ومعناه البليغ في التفرقة بين الحق والباطل . فلم يزل عمر يحجر بالإسلام ولا يتعرض له أحد ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجرة ، فهاجر جميع الصحابة مستخفين ، إلا هو فإنه خرج مجاهداً ولم يتبعه أحد من المشركين .

كان عمر عبقرياً في الحكم

قرر علماء النفس أن العبقريّة لا تقتصر على العلوم والفنون والحروب ، ولكنها قد تكون في الحكم أيضاً . ولستأ نشك في أن عمر ، وقد خلف أباً بكر ، كان عبقرياً ، لما ظهر من ثمرات أعماله المجادة ، وما بقي من آثار سيرته الخالدة ، في مدى حكمه الذي لا يبلغ اثنتي عشرة سنة . لم تكن الأداة الحكومية في منتصف القرن السابع للميلاد على شيء من التركيب الآلي ، بحيث لا تتأثر ما جريات الشؤون الاجتماعية ب وفاة أهل وقيام أهل آخر . ف كانت الحكومات كلها من الضرب الاستبدادي الذي ترجع فيه الأمور إلى نفسية القائم بالامر وخصائصه العقلية .

والحكم في الإسلام وإن كان حاصل على جميع الأصول التي تدعو إلى إقامة أداة محكمة للحكم ، يكون من صلبها تمثيل الأمة في مجلس نيابي أو مجلسين ، وتقسيم السلطات على هيئات خاصة ، وضمان استقلال كل منها ، فإن الحوادث لا يمكن أن تسبق أمرتها ، فكان الحكم في الإسلام موكولاً لمثل تراه الأمة أهلاً لإقامة تلك الأصول ، اجتهدوا من تلقاء نفسه . وقد دلت الحوادث على أن عمر هذا قد حقق الظن فيه ، وبلغ من إقامة الأصول الإسلامية مبلغاً رفعه إلى درجة العبقريّة .

ليس من السهل في دور الشكل الاستبدادي للحكومات ، أن يقيم القائم بالامر جميع المنزل العليا للتعالم التي يصدر في أعمالها عنها تمثيلا كاملا ، مهما حرص على ذلك ، إلا إذا كانت من الملهمين .

لأنه كيف يتسنى لعقل عادي في أول عهد القرون الوسطى ، أن يفهم مغزى أصول مثالية لم يفهمها نحن اليوم إلا تحت ضوء العلوم الحديثة ، ولم ندرك مراميها البعيدة إلا بعد ظهورها للعيان عقب انقلابات عالمية عظيمة ؟

نعم إن كلمات حق وعدل ومساواة الخ ، كانت تعرف مدلولاتها منذ القدم ، ولكنها كانت مدلولات تنقص أهم مؤديتها المطلقة ، حتى إن واضح الديموقراطية أرسطو أمير الفلسفة ، لم يفهم مؤداها المطلق ، فقرر في بحوثه السياسية وجوب حرمان المال والأرقاء من الحقوق المدنية من الناحية السياسية ، الأولين : باعتبار أن نفوسهم ليست من نوع نفوس الأحرار ، والآخرين : لاستغفالهم بالمهن اليدوية ! فشتان بين ديموقراطية أمس وديموقراطية اليوم . وقس على ذلك سائر الكلمات الضخمة التي تكثر في فلسفات الأقدمين مقيدة لا مطلقة ، كما يريد الإسلام ويدعو إليها بهذا الاعتبار .

فنبوغ رجل كعمر يدركها وأمثالها على الوجه الذي أراده الإسلام مطلقة وخالصة من كل شائبة بشرية ، فوق ما كان يدركه منها فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع على عهده وبعد عهده بأحبال ، أمر يستوقف النظر ويدعو إلى الحيرة ، ولا يخرج منها إلا تنعيلها بالعنصرية في الحكم .

كل ما في الإسلام من التعاليم الاجتماعية لا تخرج عن إقامة الحق ، ومراعاة المساواة بين الخلق ، والحكم بالعدل ، واحترام حرية القول والعمل ، والرجاء إلى الشورى في الأمور الجامعة ، فكان عمر مثلا أعلى في تطبيق هذه الأصول السككية ، وله في كل منها مواقف وكلمات نابغة ، بقيت أعلاما منصوبة لها إلى اليوم .

فن أمثلة اعترافه بسلطان الأمة عليه وخصومه لرقابتها قوله من خطبة : « أيها الناس إذا رأيتم في أعوجاجا تقوموه » . فقام إليه رجل من الحاضرين وقال : « والله يا عمر لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا » .

فلو كان عمر اكتفى بسماع هذه الكلمة ونجاوز عن مؤاخذه قائلها لعد ذلك منقبة له يتناقلها الناس ويعدونها دليلا على وفور عقله ، وسعة حلمه . ولكنه أجابه بقوله : « الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم أعوجاج عمر بسيفه » !

هذه الإجابة لها مغزى اجتماعي خطير الشأن ، وهو تبريره العمل على إزالة الجور ، وهذا من مملك عظيم فاية في احترام الأوضاع المقررة ، ولستنى المعتمدة ، لو فاز عنها شعب

من الشعوب المستميتة في تأييد سلطان الأمة على لسان ملك عظيم من جنسها لأقامت لكلمته هذه نصبا في أكبر ميادينها ، ولينت له صرحا من الشاء الخالد على الدهر .

التسليم برقاة الأمة يقتضى الديموقراطية ، فهل كان عمر ديموقراطيا بالمعنى الذى كان يفهمه خطباء الثورة الفرنسية ؟

نعم ، فقد قال كعب الاحبار :

« نزلت على رجل يقال له مالك ، وكان جارا لعمر بن الخطاب ، فقلت له : كيف بالدخول على أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس عليه باب ولا حجاب ، يصلى الصلاة ثم يقدم فيكلم الناس ! » وعن الحسن البصرى قال :

« كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام ، فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمر المؤمنين اتق الله ؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم تقلها ! »

تأمل في قوله . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ! إنها كلمة من سبع الكلمات الاجتماعية ، وهي كما تدل على مبلغ احترام عمر للمعارضة ، وهي ركن من أركان الحياة السياسية ، تدل أيضا على تجسرد الأمة التى تهيب هذا الركن من الخير . وقوله : « ولا خير فينا إذا لم تقلها » تقرير بأن الحكومة التى لا تطبق المعارضة تكون مجردة عن الخير أيضا . لذلك تجدد في كل مجلس يباين فئة من غير حرب الحكومة تقوم بالمعارضة فيه ، ويحترم رئيسها ويهتم به الحرب صاحب الكثرة .

مثل عليا في الديموقراطية :

أبلغ من كل ما مر في الدلالة على فهم عمر للديموقراطية الصحيحة ، أنه لما دعى الى بيت المقدس ليتفق والمدافعون عنها على التسليم ، كما شرط عليه ذلك ، شخص اليها على بعير كان يتعاقب عليه هو وسائسه في الطريق ، ولما شارفوا المدينة كان الدور لاسئس فكان راكبا وأمير المؤمنين أخذ بمقود البعير . فقال له خادمه : لورلت أنا وركبت أنت حتى لا تقابل الناس على هذه الحال ! فلم يجبه . أمير المؤمنين الى طلبه ، وقدم على مستقبله راجلا يقود البعير لخادمه . فكانت مفاحة محيرة ، ولكن أحدا لم يمس بكلمة لهم من هو عمر وما هي ديموقراطيته .

وأبلغ مما مر في الدلالة على فهم عمر للديموقراطية ، كما يريد بها الاسلام مطلقة ، أنه لما كان في بعض انتقالاته بعلسطين عرضت له نخاسة ، فنزل عن بعيده وحلج نعليه فأمسكها بيده ، فغاض الماء ومعه بعيده . فقال له أبو عبيدة كبير قواده : قد صنعت يا أمير المؤمنين صنعا عظيما عند أهل الأرض . فصكه عمر في صدره وقال : « أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! انكم كنتم

اذل الناس ، وأحق الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالاسلام ، فهي تطلبوا العزة بغير الله يدلكم الله ! » .

وأعظم محاسن وأخفله بالمعاني التي لا يدركها إلا الآحاد ، مارواه الفضل بن حميرة : أن الأحنف ابن قيس قدم على عمر بن الخطاب في وفد من المراق ، قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجر بمبابة (أي ملتف بها) ، بينما يميرا من أهل الصدقة ، (أي يدهبه بالهيتاء وهو القطران) .

فقال عمر : « يا أحنف دع ثيابك وهلم فاعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من أهل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين . (الأحنف هذا سيد بني حنيفة ، وهو الذي قيل فيه : إذا غضب غضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب) .

فقال رجل : يفتخر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة يكفيك هذا ! فقال عمر : « يا ابن فلانة وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، يحب عليه لهم ما يحب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » !

إن عمر رضى الله عنه بقوله : من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، ويتولى عملا هو من مهن العبيد ، وبدعوته الأحنف ليعمل معه فيه ، قد ضرب الأرسطوقراطية ضربة لن تقوم بعدها لها قائمة في المسلمين باسم الاسلام قط . وقد تتبعنا سير جميع الملوك النابيين فلم نثر على مثال في الديموقراطية يشبه هذا المثال . وهكذا نمرات المعترية تأتي على غير مثال سابق .

ولما أقل سفراء بيت المقدس لمقابلة أمير المؤمنين عمر ، سألوا أين هو ؟ فأشاروا لهم اليه ، وكان قائما على الأرض في ظل شجرة ، فهاهم مارأوا وأبوا أن يتمقوا مع من هذه حالته ، استنكروا لها ، حتى يستأنسوا برأى كبرائهم . فلما رجعوا وقصوا عليهم مارأوا قال لهم بطريقهم : ارجعوا أخرجكم إنه طلبتنا ، وهذه حالته في كتبنا .

نقول ليس هذا من سقوط الهمة ، ولكنها الديموقراطية يصع عمر بيديه أركانها ، ويقوم بقدوته بنيانها . وإذا كان المظلمة ممى يرى بالعين ، فهو ما رآه الناس من أمثال هذا في سيرة عمر عظمة عبر عنها الاستاذان الفرنسيان (أمس وكوتان) في تاريخهما العام بقولهما . « إن هذا العاهل الذي كان يلبس ثوبا مرقعا كانت ترتعد فرائص الملوك عند ذكر اسمه » .

وخطب الثاروق يوما فقال : « يا أيها الناس إني والله ما أرسل عمالا اليكم (أي ولاية) ليضربوا أبقاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولا كنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ،

ويقضوا بيسكم بالحق ، ويحكموا بيسكم بالعدل ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى ،
فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه »

فوقف عمرو بن العاص قائم مصر وواليتها فقال : « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل
من أمراء المسلمين أدب بعض رعيته إليك لتقصنه منه ؟ »
فقال الفاروق :

« أي والذي نفس عمر بيده إنى لأقصنه منه ، وكيف لأقصنه منه وقد رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ »

إذا تبحرت أمة بأنها تقيم مبدأ المساواة بين الناس فلتكن من هذا الطرز المطلق ، وإلا
فهي صورة ناقصة لها كأكثر ما نسمعه عنها وما نراه منها .
الديموقراطية تسوى بين السادة والعبيد :

من أمثلة المساواة التي كان يقيم عمر حكمه عليها ما رواه الحسن البصري قال :

« حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب في نفر من
قريش من تلك الرؤوس ، وصهيب وبلال من تلك الموالي (أي الذين كانوا أرقاء أو أبناء أرقاء)
الذين شهدوا بدرًا ، فخرج ذن عمر لهم وترك أولئك .

« فقال أبو سفيان (وكان من سادات قريش) : لم أر كاليوم قط : يأذن هؤلاء العبيد ويتركنا
على بابهم لا يلتفت إلينا !

« فقال سهيل بن عمرو ، وكان رجلاً عاقلاً : أيها القوم إنى والله أرى الذي في وجوهكم ،
إن كنتم غصبا فاغضوا على أنفسكم ، دعي القوم ودعيتم ، (يريد دعوا إلى الإسلام) فأسرعوا
وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ »

ومن أجل ما صدر عن الفاروق في تنفيذ مبدأ الديمقراطية المطلقة قوله ، وهو يجود
بنفسه ، وقد دعي لأن يمهّد بالخلافة لمن يثق به : والله لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً ما جعلتها
شورى . أي أنه كان يمهّد إليه بالخلافة ولا يحيلها إلى الشورى ، وسالم هذا كان مملوكاً
لأبي حذيفة .

هنا لا نجد عبارة تصور إكبارنا لهذه الديمقراطية التي تحمل روح الإسلام في أبداع
وأروع صورته .

وشكا أحد أهل مصر إلى الفاروق ابنه لعمر بن العاص واليها مدعياً أنه ضربه قاتلاً له :
أنا ابن الأكرمين . فلما ثبت لعمر أنه صادق في دعواه ، أعطاه درته (أي عصاه) وقال له :
« اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ! ثم التفت للناس وقال لهم : متى استعبدتم الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! »

إن الفارق لم يرد بما فعل أن يذل ابن أحد ولاته ، ولكنه يرفع علم المساواة الى أعلى ما يمكن أن يصل اليه ، وليس بمد هذا غاية .

العدل المطلق لا يتأتى النظام :

ومن أمثلة حرص عمر على حفظ النظام ما رواه أبو ساعدة الهذلي قال : « رأيت عمر ابن الخطاب يضرب التعار بكرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق ، (أي يبيعونه) ، حتى يدخلوا سكك أسلم (حتى بالمدينة) ، ويقول : لا تقطعوا علينا «ابلتنا» .

أليس هذا يعنيه ما تكلف به الشرطة من تنظيم حركة المرور في المواسم اليوم ؟ فلو كنت (كونستانلا) لباهيت بوظيفتي التي وضع أساسها أكرم ملوك الأرض في أعظم أمة .

قال المسيب بن دارم : « رأيت عمر بن الخطاب يصرب جمالا وهو يقول : حملت جمك ما لا يطيق ! »

فن لي بمن يبلغ جماعات الرقيق بالحيوانات أن عمر بن الخطاب سبقهم الى سن هذا النظام قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

وبعد : فإن هذه السيرة التي تتجلى فيها المثل العليا تحكم في غاية أنها ، وتطبق الى أقصى حدودها ، لا تتأتى إلا إذا كان القائم بها عبقريا .

نعم : إن عمر لم يعمل أكثر من أن تخذ الأصول التي دوت في الكتاب ، والسنة ، ولكن تتميزها على هذا النحو الباهر لا يتأتى إلا من طريق العبقرية ، فهي وحدها التي تلهم صاحبها المواقف الموفقة في كل ما يعرض له من الشؤون ، ولشئون مآرم لا يفتنى فيها مجرد التشدد في تطبيق حرفية المثل العليا ، فلا بد فيها من تصرف وجداني يضع الأمور مواضعها ، وهناك مجال فسيح للعبقرية .

وإلا فـ لم قرر علماء النفس وجود عبقرية للحكم ؟ أليست أصول الأحكام القويمة مقررة مرسومة ؟ نعم . ولكن تطبيقها على الحوادث ، وتحويل المآجريات الى سبلها القيم ، واستغلال الظروف لمصلحة الجماعة دون الاحلال بسلطان تلك الأصول ، والاستفادة من مرونتها في حدودها المقررة ، وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقتها المناسبة ، كل هذه محالات تتفاضل فيها النفوس ، وتجد العبقرية مكانها العالي منها .

وإنه مما يوجب تفاؤلا أن يكون أول ملك مصري مستقل سميا لعمر بن الخطاب في أخص ألقابه . وإنما نرجو أن يكون جلالتة أشبه الناس به في أحص صفاته أيضا . وقد بدت غايل ذلك على جلالتة على قرب عهده بالعرش . أعز الله به مصر والمصريين ، كما أعز بسميه الاسلام والمسلمين !

محمد فريد وجدي

التفسير

سورة لقمان

- ٩ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَآغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » :

كانت الآية السابقة في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على ما يلقاه الأمر الناهي من مصائب هو متعرض لها ولا بد ، وفي بيان أن الأمر والنهي المذكورين من عزم الأمور ، أي الأمور المصمة التي لا هوادة فيها ولا تراخي . ومعلوم ما يشعر به الأمر السامع من العزة وعلو النفس إذ يرى نفسه مرشداً مريياً مؤدباً ، فيشعر لنفسه بحقوق الرامة والرياسة ، وأنه ينبغي أن تدب له النفوس وتخصم ، إذ كانت ناقصة فأكملها ، معوجة فقتومها ، ضالة فهداها وأرشدتها . وهذا لا بد أن ينفخ الشيطان في منخريه تمحة العزة والكبرياء فيلحقه من الصلف والته ما يقلب عليه الحال ، ويصيره أولى بأن يوعظ وينتبه إلى ما وقع فيه أو شارف الوقوع ، فكان بمس الحاجة إلى هذا التنبيه ، فجاءت الآية الكريمة في وقت الحاجة الشديدة إليها ، حتى تنقذه من زلة هو يشرف التردى فيها ، فقال عز من قائل : « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »

ومعنى التصعير : الميل المشرب بالاعراض كما هي سحنة المتكبرين . وأصله من الصعر وهو داء يعترى البعير فيلوى له عنقه ، استعير لهينة المتكبر لمشاركته له في الشكل مع التلويح بالاستنكار لهذا الشكل ، فإن أبغض الهيئات هيئة المتكبرين ، فلا بدع أن يختاروا لها من الأشباه ما يستند إلى المرض البقيض ، قال الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خده ألقنا له من ميله فتنقوما

وإن ذم الكبر والتعير منه غير محتاج إلى إطالة القول ، فكفى بكلمتين وجيزتين فيه ، إحداهما تنسب لملي كرم الله وجهه ، وهي « وما لابن آدم والكبر وإنما أوله نطفة مذرة » ، وآخره جيفة فذرة ، وهو بين ذلك يحمل المذرة « ! وقريب منها قول بعضهم : « كيف يشكبر من يعلم أنه خرج إلى الدنيا لمدامر من مجرى البول مرتين ، ويمس القفر في نفسه كل يوم مرتين أو أكثر من مرتين » !

والثانية قول الإمام الغزالي رحمه الله « لو أن الرجل كان عالما جوادا ثم كان متكبرا لمفقه الناس وألفوضه ، يقولون يستغنى عن علمه لعلم غيره ، ويرفقنا الله بلا حاجة إليه . ولو كان جاهلا بخيلائه ثم كان متواضعا لأحبه الناس ومالوا إليه . فناهيك بفصيلة غطت رذيلتين ، ورذيلة غمطت فضيلتين » ، أعاذنا الله من شر الكبرياء والتكبرين .

وحسبك قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد : « إن أحكم إلى وأقركم منى منازل يوم القيامة أحاسكم أخلاقا ، الموثون أكنافا ، الذين يلقون ويؤلقون » .

واللام في قوله « للناس » لام الأجل ، أى لا تله من أجل الناس استخفافا بهم وإعراسا عنهم وكبرياء عليهم ، فليس معها مثل ما في قولك : أملت جانبي له ، بمعنى عطف أو حنوت عليه ، وإنما معناها الصلف والأعراض ، فهى كقولهم : قلب لم ظهر الجبن . وكقول العامة : قلب لى صفحة وجهه ، أى أشاح وأعرض . وبعضهم يقول « ولا تصمر خدك للناس » : أى لا تذلل وتخضع . وهو إذا صح في نفسه فليس يمتنع مع السياق .

« ولا تمش في الأرض مرحا » :

في المرح معنى التفرح والخفة والرق ، وكلها ينبو عنه الوقار والسكينة والرياسة التي هي شعار المؤمن ، ولا سيما من نصب نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن النفوس لا يطيب لها الإدمان لمى كان بعيدا عن سمات الوقار والسكينة وضبط النفس . وهذا ان النيهان « ولا تصمر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا » وإن كانا مطلوبين من كل إنسان فهما من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آكد طلبا .

« إن الله لا يحب كل مختال فخور » :

تعليل للنهي السابق ، كأنه قيل : ولماذا نهينا عن هذين ؟ فكان الجواب ما ترى . والمختال من الخيلاء ، وهى مشية فيها تبغفر ومباهاة ، كأنها تنشأ عن تحميل المرء في نفسه ميزة ليست في غيره . والفخور : الكثير الفخر ، وهو تمداد ما أوتي من نعم بقصد الاستعلاء على غيره . وقد قالوا إن في هذا التعليل لهما على غير ترتيب البشر ، فإن الخيلاء تناسب المشى مرحا ، والفخر يناسب التكبر وتصغير الخد ، وسلك هذا المسلك وهو عكس الترتيب الأول مراعاة للفاصلة . وأرى أن المعنيين متقاربان ، فلا يمشى مشية المرح إلا الفخور غالبا ، كأنه لا يبالى

بمقادير من أمامه . وكذلك من شأن المتكبر المصغر حده للناس أن يختال في مشيته . فجميع الوصفين والخلقين متناسبان .

بقي أن مثل هذا التركيب يكثر في التنزيل الكريم ، وهو تقديم أداة النبي في قوله « لا يحب » على أداة العموم وهي لفظ « كل » . وقد اشتهر بينهم أن هذا يفيد نفي العموم ، أي أن محبة الجميع غير حاصلة فلا يتأى أنه قد يحب البعض ، فتكلف بعضهم حريان هذا المعنى هنا وقال : إن الله لا يحب جميع المختالين وإن كان يحب بعضهم كالاختيال في صفوف القتال إظهارا للقوة أمام العدو ، وكالاتخار نعمة الايمان والتوفيق مثلا . والذي أراه ما عليه الجمهور من صرف هذا التركيب الى معنى استغراق نفي المحبة لجميع أفراد المختالين الفخورين ، وكأنه قيل : وكل مختال محور لا يحبه الله ، فإن المقام مقام التفسير من هاتين الصفتين التسميتين ، وليس يحسن في مثله أن يقال لهذا التعليل إن الله يعض بعض المختالين ولا يعض الآخرين ، فذلك مما يأنه مقام الزجر والتفكير . وما ذكروه من المثالين يؤخذ استثناؤه من دليل آخر بحيث لا يمس المقصود من السياق .

هذا وإن السرف في أن المختال الفخور لا يحبه الله ، أن اختياله ونفزه نتيجة شعوره بكمال نفسه ، ومن ماله هذا الشعور فلما بلغت لتدرك نقصه أو تسمية كماله ، فقد قالوا أول درجات الشروع في الكمال الشعور بالنقص ، فمن لم يشعر بحجة نقصه لا ينتظر أن يسمى في مراتب الكمال ، والكالات الانسانية لا تقف عند حد ، فاما كمال إلا وعند الله أكل منه أعد له النفس الانسانية ، ونأهيك بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليران على قلبى فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » .

وفي التعبير بفخور خروج مما يتوهم من معارضة قوله تعالى « وأما نعمة ربك فحدث » فالفخور الكثير الفخر ، أما تعداد النعمة بدون تلك الكثرة فلا حرج فيه ، بل إذا قصد بذلك إظهارها ليكون ذلك أدعى لشكرها وحث الغير على النظر لنعمة ربه ليقبل عليه شاكرا فهو مقصد حسن يصلح أن يكون مأمورا به لا منهيأ عنه .

« واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الخمر » :

القصد في المشى : التوسط والاعتدال فيه . لما نهى عن المشى مرحا كان ذلك مظنة أن الهوادة الشديدة بل المشى مشى المتأوتين مطلوب شرعا ، جاء الأمر في هذه الآية الكريمة منبها على الاحتراز من ذلك أيضا ، فالقصد والاعتدال في كل شيء هو الحسن المطلوب ، والافراط أو التفريط كلاهما مذموم :

فلا تقل في شيء من الأمر واقتصد كلا طريق قصد الأمور ذميم

وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى كأنما يتحط من صعب . وروى أن عمر

رضي الله عنه رأى رجلاً يمشي مشية المتأوت، فقال له : لا تحت عليا ديسا ! ورأى رجلاً مطأطأاً رأسه فقال له : ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض ! ونظرت عائشة إلى رجل كاد يموت متخافتاً ، فقالت : ما لهذا ؟ فقيل إنه من القراء ، فقالت : لقد كان عمر رضي الله عنه سيد القراء وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قل أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وظاهر أن المراد بالأسراع ما فوق مشية المتأوتين .

« وانخفض من صوتك » :

النفس من الشيء تقصه والتقصير فيه ، يقال غص لصره أي كفه نوهاً ما ، لم يحبسها تماماً ولم يرسله ممتداً ، وكذلك الأمر هنا : طلب ألا يطلق الصوت على جهارة المرعجة ، وألا يحبسها . وفي قوله : « من صوتك » إشارة إلى هذا ، فكأنه يقال : انقص بعض صوتك ولا ترسله بجهارة مرعجة . وهذا يدل على التوسط فيه على نسق ما فهم في أمر المشي . وقوله « إن أنكر الأصوات لصوت الخير » مفيد للتعميل مثل ما سبق في قوله تعالى : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » . وأنكر الأصوات أقبحها ، من مكر كقبح وزناً ومعنى ، وفيه زيادة على القبح معنى الصموية والشدة المؤدية إلى الاشتزاز . والخير تضرب مثلاً في الدم من جهات عديدة : كالبلادة ، وإزعاج الصوت ، ودلة التسخير . ولذلك أكثر ما يستعمل مكنياً عنه ، إلا في مقام الدم ، فانه يصرح به لأنه أجلى في التقييح مثل ما هنا وما في قوله عز وجل « كمثل الحمار يحمل أسفارا » في التصريح باسمه عون على التفسير والتقييح ، وهو المقصود في مقام الدم .

هذا وإن بعض الناس يحملهم الصلف والفطسة على إطلاق صوتهم اغتراراً واعتزازاً حتى كان بعضهم يمدح بذلك ، كما في قول الشاعر :

جهير الكلام جهير المطاس جهير الرواء جهير العم

ولكن ما من شك في أن صبط النفس والغص من الصوت والرائة أدعى إلى الاصغاء وحسن الاستماع ، بل ربما كانت أوجب للمهارة . على أن الجهارة قد تنحلو من فطاعة لصخب المسقوت فلا يوجب ذلك المدح برفع الصوت رفماً فظيماً ، ولكن الخروج عن تخافت المتأوتين . هذا وإنك لتجد في أسلوب القرآن الكريم في الارشاد إلى الأخلاق الفاضلة والتربية الحسنة من الأمر وانتهى مطلقين بمثلها المؤثرة في النفوس ، ما لا تجده في التقسيات الفلسفية التي يطوح بها المتشدقون ، إذ يقسمون القوى النفسية ويشرحون لها أحوالاً نظرية لا تترك في النفس أثراً حليماً ، وإنما تقيم على بسط القول واتساع الكلام ، فأما الانتاج الفعلي فلا تسكاد تجده إلا في الذكر الحكيم . فآلهم اهدنا إليك الصراط المستقيم ؟

ابراهيم أبو بلي

الشيعة

الطلاق

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مرءة فليراجعها ثم ليسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يحبس ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور - (١) بيان مصاه (٢) هل طلاق الحائض ومن في حكمها حرام أو مكروه ؟ (٣) هل للزوج أن يطلق زوجته في غير زمن الحيض والنفاس بدون سبب أولاً ، وما رأى الأئمة في ذلك ؟ (٤) ما حكمة النهي عن طلاق الحائض ومن في حكمها ؟ (٥) هل قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : مره فليراجعها ، أمر لابه عند الله أولاً ؟ (٦) هل الحديث يبيد لهي عن الطلاق مرتين أو ثلاثاً أولاً يفيد ؟ وما رأى الأئمة في ذلك ؟ (٧) هل يعتد بطلاقه إذا طلق حال الحيض والنفاس فيحسب عليه أولاً ؟

١ - معنى هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طلاق في حالتين . إحداهما أن تكون المرأة حائضة ، فأيتهما أن تكون ظاهرة من الحيض ولسكن زوجها أم أنها في هذا الطهر ، لأنه عليه الصلاة والسلام حيره بين إمساكها وبين طلاقها في الطهر قبل أن يحبسها . وقد جاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قد غصب من تطليق عبد الله زوجته حال حيضها . وسبب غصبه فيما يظهر أن الطلاق حال الحيض قد نهى الله عنه بقوله : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لمدتهن » . وما كان لعمر وإنه يخفى عليهما ذلك الحكم مع ما لها من المصلحة العلمية الرفيعة في الدين . أما كون عبد الله قد فعل ذلك عمداً لعدم استطاعته ضبط نفسه وهو عالم بالحكم ، فهو بعيد ، لأن عبد الله بن عمر كان شديد التمسك بأحكام الدين معروفاً بالورع والتقوى والقدرة على ضبط نفسه . ومعنى قوله تعالى « فطلقوهن لمدتهن » لوقت عدتهن ، أي طلقوهن عند حلول وقت العدة لاقبيلها بحيث تشرع المرأة في العدة عقب الطلاق بدون فاصل .

وظاهر أن الطلاق في الحيض يعوق المرأة عن الشروع في العدة ، فإن الحيض الذي طلق فيه لا يحسب لها من العدة باتفاق من يقول إنها تعتد ثلاث حيض ومن يقول إنها تعتد ثلاثة أطهار . أما الثاني فظاهر . وأما الأول فلأن الحيضة التي وقع الطلاق في حلالها لا تحسب ، إذ الشرط عندهم أن تكون الحيضة كاملة بعد وقوع الطلاق ، فلا يعتد بالقصة ولو لحظتها .

وظاهر هذا التعليل يؤيد الشافعية والمالكية الذين يقولون إن المرأة تعتد بالطهر لا بالحيض . فإذا طلقها في الطهر الذي لم يجامعها فيه فإنها بذلك تشرع في العدة عقب الطلاق مباشرة ، وذلك لأن الطهر الذي طلقت فيه يحسب لها من الأطهار الثلاثة التي تنقضي بها العدة ولو بقيت منه لحظة واحدة . مثلاً إذا طلقها قبل طلوع الشمس تخمس دقائق وهي طاهرة ثم حاضت بعد طلوع الشمس ، حسبت لها الحس دقائق طهراً كاملاً ، فإذا كانت ممن يحصى كل خمسة عشر يوماً مرة حاضت مرة ثانية وظهرت حسب لها طهر ثان ، فإذا حاضت بعد خمسة عشر يوماً مرة ثالثة ثم ماهرت حسب لها طهر ثالث وتنقضي عدتها بمجرد زوال دم الحيضة الرابعة ، وعلى هذا القياس .

أما الحنفية والحنابلة الذين يرون أن المرأة تعتد بالحيض ، وأن الحيضة التي يقع الطلاق في أنسابها لا تحسب لها من الحيض الثلاث ، فإنهم يقولون إن الغرض من الآية الكريمة إنما هو الأمر بطلاق المرأة في الوقت الذي تستقبل فيه عدتها بلا فاصل ، فإذا طلقها في الطهر الذي لم يجامعها فيه فإنها بذلك تستقبل أول حيضة تحسب لها من العدة ، وليس الغرض أن تشرع في العدة عقب الطلاق فوراً لأن ذلك مما لا لزوم له . ولكل من الفريقين أدلة يؤيد بها رأيه محلها مباحث المدة .

ومع هذا فإنهم متفقون على أنه لا يجوز للرجل أن يطلق زوجته وهي حائض أو نفساء ، كما لا يجوز له أن يطلقها وهي طاهرة إذا جامعها في هذا الطهر كما سيأتي . وهذا هو صريح الحديث الذي معنا . وقد بين به رسول الله صلى الله عليه وسلم آية « يأبى الله البه إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » .

ثم إنهم قد اصطالحوا على تسمية الطلاق الذي يحصل في هذه الحالة طلاقاً بدعياً ، وتسمية ما يقابله وهو ما إذا طلقها في طهر لم يأتها فيه ولا في الحيض الذي قبله طلاقاً سنياً .

ثم إذا طلق زوجته وهي حائض أو نفساء فإنه يفترض عليه أن يراجعها إذا لم تكن مطلقة ثلاثاً عند الحنفية والمالكية . وقال المالكية : يحجر على مراجعتها بالضرب والسجن إذا لم يرض ، فإن امتنع راحمها القاصي بذله وتكون راحة له بهذه المراجعة ، ثم يمسكها حتى تطهر من الحيضة التي طلقها فيها ثم تحيض حيضة ثانية وتطهر ، فإن شاء طلقها في ذلك الطهر الثاني من قبل أن يمسه ، وإن شاء أمسكها . وهذا هو ظاهر الحديث . أما الشافعية والحنابلة فإنهم يقولون إن الرجعة سنة لا فرض .

وهذا كله في المرأة المدخول بها غير الحامل إذا كانت من ذوات الحيض أما إذا أراد أن يطلق زوجته قبل المدخول فله أن يطلقها وهي حائض لأنها لا عدة لها . وإذا أراد أن يطلق امرأته وهي حامل فله أن يطلقها بعد الوطء لأنه عالم بحملها فلا يتقدم لفراق ولده . وإذا أراد أن يطلق امرأته التي لا تحيض لصغر أو كبر فإن له أن يطلقها بعد الجماع لأن عدتها تنقضي بالأشهر لا بالحيض .

٢ — أما الجواب عن السؤال الثاني : فقد أجمع الأئمة الأربعة على أن طلاق المرأة وهي حائض أو نفساء معصية محرمة . ويقال له بدعي ، منسوب للبدعة المحرمة بخلاف طلاقها في الطهر الذي حرمها فيه ، فإن المالكية قالوا إنه مكروه لأحرام . ولكن الحديث الذي معناه لم يظهر منه فرق بين الحائض ، فمن أين تأخذ أنه في الأول حرام وفي الثاني مكروه ؟ ولعلمهم يفرقون بين الحائضين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب لما قال له عمر بن عبد الله طلق امرأته وهي حائض ، وعصب النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أنه معصية ، أما في الحالة الثانية فإنه بين الطريق التي تتع نفيها بين أن يحكمها وبين أن يطلقها من قبل أن يحكمها ، ولا دليل في هذا على التحريم إذا طلقها بعد أن يحكمها ، غاية أنه يكره .

٣ — أما الجواب عن السؤال الثالث : فبالسلب ، فلا يجوز للرجل أن يطلق امرأته بدون سب ولو كان طلاقه سنياً . وقد أجمع الأئمة الأربعة على أن الأصل في طلاق المنع ما عدا المالكية فاتهم قالوا خلاف الأولى . ثم إن الشافعية والحابلة قالوا إنه مكروه . وظاهر عبارات الحمية تميد كراهة التحريم . وعلى هذا فلا يحل للزوج أن يطلق زوجته إلا لحاجة تقتضي الطلاق ، وذلك لأن الطلاق يقطع عقد الزواج ، وقد شرعه الله لضرورة التماس الذي لا بد منه لبقاء العمران إلى الأجل الذي أراده الله وقصاه ، تعلق من أجل ذلك الزوجين وجعل بينهما مودة ورحمة ، فطلاق الزوجة من غير سب سفه وكفران لنعمة الله ، فصلاً مما فيه من أذى يلحق الزوجة وأولادها إن كان لها أولاد .

فما يفعله بعض الشهابيين الذي لا خلاق لهم من تطليق زوجاتهم بدون سب ، لا يقره الدين الإسلامي ولا يرصاه ، ولا بد أن ينتقم الله من هؤلاء في الدنيا والآخرة . ولا يبرر جنائهم على زوجاتهم الفاعلات المحلصات وأبائهم المصاعف ما يريه لهم بعض السفهاء من جواز الحصول على كبر قسط ممكن من الذات المباحة ، لأن العدوان على الزوجة المحلصة يجعله حراماً لا مباحاً ، فلا يصح للإنسان أن يؤدي الناس من أجل أن يتلذذ ، وإلا كان هو والحيوان المفترس سواء . على أن الذين يعتقدون أن علاقة الزوجية منحصرة في الاستمتاع والتلذذ بالمرأة بدون أن يتجاوزوه إلى معنى آخر ، فيدفعون وراء شهواتهم كالبهم بدون حساب ، محطون كل الخطأ ، فإن علاقة الزوجية لها من التقديس والاحترام فوق هذا الذي يظنون . كيف لا وهي أساس بناء العمران وسبب وجود الإنسان ، إذ لو لا ما أوجده الله من الرحمة والمودة

بين الزوجين وتودعه في كليهما من لعطف الذي يدفع كل واحد منهما الى التعلق بالآخر ، لما وجد النوع الانساني . حرام على الرجل أن ينظر الى زوجته نظر مهانة واحتقار ، فيظن أن فائدتها مقصورة على المدة والاستمتاع بدون تدبر للسب الحقيقي الذي جمعهما الله من أجله . أما الأسباب التي تعرض للطلاق فإن بعضها يرجع الى الزوج ، وبعضها يرجع الى الزوجة . فالأسباب التي ترجع الى الزوج تنقسم الى قسمين : قسم يجعل الطلاق عرضاً عليه لا مباح له من إيقاعه ، وقسم يحمله محرماً فوق تحريره في ذاته . والقسم الأول يمكن حصره في أمرين : أحدهما أن يعجز عن إعفاف المرأة وصيانة عرضها عما يفعله الرجال مع النساء : كأن كان عينا طبيعته قبل أن يأتي بها ، وفي هذه الحالة يحرم على مطلقها باتفاق ، أو عرض له ما أفنده عن إتيانها من مرض وشيخوخة وهي شابة لا ترعى به ولا تستطيع الصبر على الرجال ، وفي هذه الحالة يجب عليه أن يطلقها من تلقاء نفسه ، ويحرم عليه إمساكها ، فراراً بعرضه وكرامته ، لأن إمساكها على هذه الحالة يترتب عليه فساد أخلاق وانتهاك حرمانات ، وصياع أعراض . وكل ذلك شرويل يجب اجتنانه والقضاء عليه بكل الوسائل .

على أن بعض الأئمة يرى أنه يفترض قضاء أن يأتي الرجل امرأته كل أربعة أشهر مرة على الأقل ، وإن عجز مطلق عليه القاضي ، وهو مذهب الحنابلة . أما المالكية فأنهم يقولون إن للمرأة الحق في مطالبته بهذا الأمر قضاء في كل أربعة أيام ليلة ، ولكنه إن عجز لا يطلق عليه القاضي إذا كان العجز عارصاً لمدة الاثنيان . وعلى كل حال فإن المعقول الطبيعي أن الرجل الذي يرضى بإهمال زوجته في هذا المعنى حتى تشكوه ، لا يعرف للعرض قيمة ، فيجب عليه أن يطلقها فوراً .

ثانيهما أن يعجز عن الاتفاق عليها . ويذهب أن العجز عن الاتفاق على الزوجة له من الأثر السيئ مثل ما للعجز عن إعفافها ، إذ لا مباح للمرأة في هذه الحالة من الحصول على قوتها ومسكنها وملبسها وما يتعلق بذلك من ضروريات الحياة ، فتضطر للحصول عليها بأي وسيلة من الوسائل ، فتساق مكرهة الى التمريط في عرضها والقضاء على شرفها ، ثم تصبح بعد ذلك من الساقطات المؤذيات للمجتمع ، خصوصاً إذا كانت شابة مرغوباً فيها ، فيفترض على الزوج أن يطلقها فوراً ليتزوج ممن يصون عرضها بالقدرة على الاتفاق عليها . ولذا أجمع ثلاثة من الأئمة على أن الرجل يحرم على تطبيق زوجته إذا تركها بدون إتفاق ، ويطلقها عليه القاضي إذا بقي . ولم يخالف في ذلك سوى الحنفية . ومع ذلك فأنهم يقولون بضرورة تمييز الزوج حتى ينفق أو يطلق .

فهذان السببان هما اللذان يوجبان الطلاق على الزوج . فتي كان قادراً على إعفافها والاتفاق

عالمها ولم يقصر معها فيما يجب عليه من ذلك ، فإنه لا يتصور وحوب الطلاق عليه بعد ذلك لاقضاء ولا ديانة عند الجمهور .

ولكن الشافعية قالوا إنه يجب عليه الطلاق أيضا فيما إذا قصى به الحكمان حال الشقاق ، فإذا استحك الشقاق بينهما إلى حد أنهما عجزا عن تسوية أمورهما وبعث إلى الأمر حكما من أهله وحكما من أهلها للإصلاح بينهما فقصى الحكمان بالطلاق فإنه في هذه الحالة يجب على الزوج أن يطلق تنفيذا لحكم الحكّمين . ولكن الواقع الذي لا ريب فيه أن الشقاق مهما اشتد أمره فانه قابل للروال ، فلا يجب عليه تطبيقها بسبب الشقاق إلا إذا وصل إلى حد يوجب الفساد : كما إذا ترتب على شقاقهما كره طبيعي يسوق المرأة إلى الانصراف عن زوجها إلى غيره وخيانتة في عرضه ، أو نحو ذلك من المفاسد الخلقية والاجتماعية التي تقضى على الأسرة وتخل نظامها ، فانه في هذه الحالة يجب التفراق . ولعل الشافعية يريدون بهذا المعنى ، فثم قيدوا ذلك بالمصلحة ، فإذا قصى الحكمان بالطلاق بدون مصالحة ظاهرة فلا يجب عليه أن يطلق .

وأما القسم الثاني وهو ما يعرض فيه السب من قبل الزوج : فانه يمكن حصره في أمرين أيضا . (الأول) أن ينشأ عن طلاقها ظلم لها . و (الثاني) أن يترتب على طلاقها محرم . مثال الأول : أن يكون تحت أكثر من روجة فيعطى كل واحدة ما تستحقه من القسم والمبيت حتى إذا حلت نوبة إحداهن مطلقا قبل أن يعطيهما حقها ، فالطلاق في هذه الحالة حرام باعتبار أنه ظلم للمرأة ، وهو غير جائز في ذاته ، فيؤاخذ عليه الشخص من حيثين ، فإذا طلقها طلاقا بدعيا مع هذا فإنه يؤاخذ من ثلاث جهات . ومثل الثاني : أن تكون الزوجة عفيفة مستقيمة وله فيها رغبة ويخشى على نفسه الزنا إذا طلقها لعدم قدرته على الحصول على غيرها ، فانه في هذه الحالة يحرم عليه تطبيقها كالأول سواء بسواء . وقد مثل بالنال الأول الشافعية ، وبالتالي المالكية ، وكلاهما حسن ، لأن التشريع الاسلامي منى على حذر المفاسد بكل ما استطاع .

فهذه هي الأسباب التي ترجع إلى الزوج ، وبها يجب عليه الطلاق أو يحرم .

أما الأسباب التي ترجع إلى الزوجة فأنها تارة تكون متعلقة بعرضها ودينها ، وتارة تكون متعلقة بعدم صلاحيتها للاستمتاع . فالأول كما إذا ارتاب الرجل في سلوك امرأته ، أو اعتقد أنها لا تحتفظ بعرضها ، أو كانت لا تنص ولا تصوم ، وفي هذه الحالة لا يجوز له إمساكها بإجماع الأئمة . ولكنهم اختلفوا في عدم الجواز ، فقال بعضهم : إنه يحرم عليه إمساكها ويجب عليه طلاقها ، وهو الامام أحمد . وبعضهم قال إنه يكرهه لا يحرم فیس له طلاقها . ويظهر أن الذين قالوا بالكراهة فقط نظروا إلى ما عساه أن يترتب على تطبيقها من شر وفساد قد يصيبان الزوج فتضطرب حياته ويفسد خلقه ، إذ ربما يكون متعلقا بها فلا يستطيع أن يسلوها

فيضطر الى إثباتها بالحرام ، أو يكون غير قادر على ضبط شهوته وليس له مال يتزوج منه غيرها فيقع سبب طلاقها في الزنا ، أو يكون له منها أولاد لا يمكنهم أن يعيشوا بدونها فتسوء حاله . وهذه الأمور تحتاط لها الشريعة الاسلامية كل الاحتياط .

فليس من محاسن التشريع الاسلامي المشهور بدقته أن يحمل فراقها حتما لازما ، لأن النفوس تتفاوت وحاجات الناس تختلف . فمن كان قسوى الارادة داغيرة فان الشريعة تشجعه على طلاق فاسدة الاخلاق ، وتقول له : إنك عليه أحرأ . ومن كان ضعيف الارادة يؤذيه طلاق زوجته فانها لم تحتم عليه طلاقها بل له إمساكها مع الكراهة . وهذا يعدل الموازين وأصلحها .

أما أنا فأميل الى ما ذهب اليه الإمام أحمد من أن المرأة فاسدة الاخلاق إذا عجز زوجها عن تقويمها ، وعلم أنها غير مصونة العرض ، فإن طلاقها يكون واجبا وإمساكها يكون محرما ، إذ الرضاء بها معناه الرضاء بتكوين أسرة فاسدة تضر المجتمع الانساني ، لأن المرأة الفاسدة لا يقتصر ضررها عليها وحدها ، ولكنه يتناول أولادها ومن يتصل بها . ومثل هذه يجب على الناس كلهم أن يبذوها ولا يتخذوها أمما لأولادهم ولا مربية لابنائهم وبناتهم . وهذا هو الذي تؤيده قواعد الدين الحنيف ، ودين الآداب والاخلاق ، فقد حثت السنة على الغيرة على الأعراض وأوحيت الدفاع عنها في كثير من المواضع ، ورجرت التي يرضى بالفساد زحرا شديدا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدا : الديوث ، والرجلة من النساء ، ومدمس الخمر . فقالوا يا رسول الله : أما مدمس الخمر فقد عرفناه فما الديوث ؟ قال : الذي لا يأتى من دحل على أهله . قلت : فما الرجلة من النساء ؟ قال : التي تتشبه بالرجال . رواه الطبراني . وروى مثله النسائي والحاكم وقال صحيح الاسناد . وقد روى البخاري أن سعد بن عبادة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربت بالسيف غير مصفح » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني ! »

فاذا كانت قواعد الاسلام مبنية على الذيرة على الأعراض ، واحتقار الديوث ، وجرماته من رضوان الله ، فكيف يكون طلاق فاسدة الاخلاق مندوبا فقط ؟ لاشك أنه واجب ، وإمساكها محرم . وليس من الشهامة أن يصبر الانسان على عضو فاسد حتى يفسد جميع بدنه خوفا من التألم الذي يلحقه عند بتره .

أما إذا كان السبب عدم صلاحية المرأة للاستمتاع بسبب عيوب قائمة بها ، أو كره ، أو نحو ذلك ، فانه يباح للرجل في هذه الحالة أن يطلقها . على أن الشريعة في هذه الحالة تنظر الى الآثار المترتبة على إمساكها أو تطليقها ، فان كان الرجل في غنى عن إثبات النساء وليس له أمل في ذرية

فانه يترجح إمساكها ، خصوصا إذا كان طلاقها يؤذيها ويعرضها للبؤس والشقاء ، فإن الرحمة والشفقة من الضروريات في نظر الشريعة . وإن كان إمساكها يترتب عليه فساد الرجل كما هو مشاهد في بعض الشبان الذين يتروحون المجاز طمعا في ما لهم لينفقوه على الشهوات المحرمة فإن إمساكها يكون حراما .

٤ — أما حكمة النهي عن الطلاق البدعي وهو طلاق الحائض ومن في حكمها : فقد بينها الفقهاء ، فقالوا : إن الحكمة في النهي عن طلاق الحائض والنفساء هي عدم تطويل العدة عليهما لأن أيام الحيض والنفاس لا تحسب لها كما تقدم .

والحكمة في النهي عن الطلاق في العاهر الذي حامها فيه هي أنها ربما تكون قد حملت منه من حيث لا يدري وهو لا يرغب في فراق ولده ، فيبدم ، بخلاف ما إذا كان حملها ظاهرا فانه عالم به فلا معنى لندمه بعد . ومع هذا فقد أجمعوا على أن المرأة إذا رضيت بتطليقها وهي حائض أو تنفساء فانه لا يقبل منها ، لأن المسألة ليست حقا وحدها ، لا في المصلحة على مال ، فإن الشافعية والحنفية يجبرونه حال الحيض والنفاس . ومثله بعض أمور أخرى لا يسعها المقام . أما المالكية فانهم يعمنون كل فرقة إلا فرقة المعتد الفاسد ، وفرقة الأيلاء . والظاهر أن الحكمة ليست مقصورة على هذا ، بل الشريعة الإسلامية لم تشرع الطلاق جذفا وإنما شرعته لحاجة المجتمع الإنساني إليه ، فوضعت له من القيود ما يلفت الناس إلى خطورة أمره ، كي لا يتخذوه لعبة في أهواهم كما يعمله سعة الناس الذين لا يعبأ الله بهم .

ولو أن الناس قد أدركوا ما انطوت عليه هذه القيود من أسرار وصلوا بها لنحووا من شرو عواقب الطلاق بدون حساب ، فحكم من أناس ساقطهم الغضب وثوران النفس إلى طلاق زوجاتهم طلاقا ثانيا ثم ندموا على ما فعلوا فاحزنوا يمتثلون على الرجوع بالفتاوى الملفقة والحيل الفاسدة وكثير من أهل الاحتياط فحصى بأمر شيء لديه فسمح بالحل وهو كاره . كل ذلك يمكن الاستئناء عنه بالتريث في الأمر والتمسك بما أمر الله به ورسوله . فإن المرأة لا تتخذ حالها غالبا من أن تكون حائصة أو تنفساء أو طاهرة ولكن زوجها قد نالها في طهرها ، وفي هذه الأحوال يحرم عليه أن يطلقها ، فإذا علم ذلك وأمسك عن الطلاق حتى يمضي الزمن المنهى عنه انكشف له الحال بعد أن يذهب غيظه ، فإن وجد سبب للطلاق فعل وهو راس ، وإلا فإن المياه تعود إلى مجاريها ، وبذلك يرضى الله ورسوله ونفسه وزوجه .

٥ — أما قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : مر عبد الله فايراجعها ، فإن معناه بلغ عبد الله هذا الأمر ، فهو أمر لعبد الله بلا زاع . أما قولهم إذا أمر شخص بأن يأمر الآخر فلا يكون هذا الأمر أمرا للشخص الآخر كقوله عليه الصلاة والسلام : مروا ، ولادكم بالصلاة لسبع ، فإن هذا ليس أمرا للآلاد ، فحله إذا لم يكن المأمور الثاني مكلفا ، ولم يكن الأمر

الأول مشرعا ، ولم يكن الحكم متعلقا بالمأمور الثاني ، إذ لا شبهة في أن المقصود بالحكم هو عبد الله لا امر ، وهو مكلف رشيد ، فلا نزاع في أن الأمر متعلق به ومطلوب منه .

٦ — أما الجواب عن السؤال السادس : فإن الحديث لا يفيد النهي عن الطلاق مرتين أو ثلاثا . ولكن الجمهور على أن الطلاق الثلاث بدعي محرم ، فإذا أراد أن يطلق زوجته فليطلقها طلقة واحدة ثم يتركها حتى تنقضى عدتها ، فإذا طلقها في العدة طلاقا ثانيا كره له ذلك عند المالكية والحنابلة . والحنفية يقولون : يكره إذا طلقها فثنتين في آن واحد ، أما إذا فرقها في كل طهر طلقة ، أو في كل شهر طلقة إذا كانت تعتد بالأشهر ، فإنه لا يكره ، بل لو طلقها ثلاثا متفرقة فإنه لا يكره . وخالف الشافعية في المسألة من أصلها فقالوا : إن عدد الطلاق لا يدخل له في البدعي ، فله أن يطلقها ثلاثا في آن واحد ، ولكن الأولى عندهم أن يفرق الطلاق . وظاهر الحديث يؤيد الشافعية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أباح لعبد الله الطلاق في الطهر الذي لم يجامعها فيه مطلقا . نعم إن الحكمة التي ذكرناها للطلاق تؤيد الجمهور ، لأن طلاقها ثلاث مرات يقطع عليهما باب الأمل في الرجوع فيندمان أشد الندم . وطلاق المرتين تضييع لحق بدون فائدة ، فإن الرجل يملك ثلاث طلقات ، فيكفي واحدة في الانفصال ، ويبقى له الاثنان ، فيكره له أن يضيع منهما واحدة

٧ — أجمع الأئمة على أن الرجل إذا طلق امرأته طلاقا بدعيا يحسب عليه . وخالف بعض الباحثين في ذلك ، فقال إنه لا يحسب . ولكن الجمهور قد استدلوا بأن عبد الله بن عمر نفسه صرح بأن طلاقه حسنت عليه ، وأن التحريم لا ينافي الصحة بلا نزاع .

عبد الرحمن الجزيري

التلطف في الإهداء

أهدى أبو الحسن بن طباطبا المولى الى بعض العلماء وكتب اليه :

لا تنكرن إهداءنا لك منطلقا منك استفدنا حسنه ونظامه
فانه عز وجل يشكر فعل من يتلو عليه وحيه وكلامه

وأهدى أحمد بن يوسف هدية الى المأمون قيمتها مائة ألف درهم وكتب اليه معها هذين البيتين :

على العبد حق فهو لا بد فاعله وإن عظم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نهدي الى الله ما له وإن كان عنه ذا غنى وهو قائله

هذا تعليل فاسد ، ولكننا نرى أن إهداء الملوك لا يجوز أن يكون كبير القيمة وإلا اعتبر عطية .

حدث جلك لا يمكن الصبر عليه

- ٢ -

أبنا فيما كتبناه قبل أن منكر وجود الله مصاب بأفطع أنواع الجنون ، وأن الواجب حذفه من سجل الإنسانية ، ويجب أن تتحاما كما تتحامي المصاب بالجدام ، ولا نفتر بصورته لظاهرة فإيه في الحقيقة غير إنسان . وقد قال تعالى في حق أولئك الذين يشبهون الإنسان ولا يسوا منه في شيء : « ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجنى والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . » . « وإن تدعهم إلى الهدى لا يسموا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »

ولنف بما وعدنا به في مقالنا السابق فنقول :

إن وجود الله ضروري عند كل عاقل ، فإليك إذا رأيت بناء شامخا على أحسن وضع وأتم نظام ، قد نسقت أشجاره ، ودرت أنهاره ، وهيئت مساكنه على ما تقتضيه الحكمة وتوجه الحاجة ، فهل يمكنك أن تصدق أن هذا البناء بلا بان ، وذلك النظام بلا منظم ؟ فإذا حوزت أن يوجد بناء بلا بان ونظام بلا منظم ، خرجت من رمرة العقلاء ، وسقطت عن رتبة الخطاب والمكاملة .

وقد قلنا إن الحيوان إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ، ولكن الإنسان قد يفسد حتى ينحط عن درجة الحيوان ، فيكون في أسفل سافلين من الانحطاط الذي لا يشاركه فيه مخلوق ، وقد خلق مستعدا لذلك كما أبناه في مقالنا السابق .

ولو ملك علماء الكلام مسلک القرآن في الاستدلال على الله تعالى لقربوا الطريق ، وهزوا القلوب عما أودع في العطر وغرس في النفوس حتى التحق بالدهيات التي لا تحتاج إلا إلى الالتفات إليها وانتباه النفس لها .

وانظر إلى قوله تعالى : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » : « دمج كل ما أطالوا به في قوله « فاطر السموات والأرض » وهو في غاية الخلاء ونهاية الوضوح ، ويقول : « ثم خلقوا من غير شيء ، ثم هم الخالقون » . ويقول : « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » . « فلي نظر الإنسان ثم خلق » . « في أي صورة ما شاء ركبك » . « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . « آمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » . « آمن خلق السموات والأرض ، ونزل لكم من السماء ماء فابتننا به أحداثك ذات بهجة ، ما كان لكم

أن تمتوا شجرها إليه مع الله ، بل هم قوم يعدلون . أمن حمل الأرض قراراً ، وحمل خلاها أنهاراً ، وحمل لها رواسي ، وحمل بين البحرين حائزاً ، إليه مع الله ، بل أكثرهم لا يعصون .
 إلى آخر ما جاء في القرآن مما يملك النفوس ، ويستولى على القلوب ، وهكذا شأن القرآن الكريم ، لا يتمصف في التعبير ولا يتفلسف في الاستدلال . ومن شئت فانظر حججه على البعث وإعادة الخلق مرة أخرى حيث يقول بأوحز عبارة وأوضح قياس : « كما بدأكم تعودون » . « قل يحيبها الذي أنشأها أول مرة » إلى آخر ما يهر العقول ، ويدهش المشاعر .
 ولتعلم أن الاستدلال يختلف باختلاف الناس ، فمنهم من يكفيه أقل شيء لسلامة فطرته وعدم فسادها . ولذلك يروى عن الأئمة وغيرهم شيء كثير من هذا ، حتى إن بعض العارفين لما قيل له : إن الامام الرازي أقام على وجود الله ألف دليل ، قال : ومتى فاب حتى يستدل عليه ؟ فهذا مشاهد أغناه العيان عن البرهان .

ومن ذلك قول الامام على كرم الله وجهه : « لو كشف عني الغطاء ما اردت يقينا » .
 ومن ذلك قول بعضهم : إن الله قد تجلى لي في كل شيء ، فليت شعري كيف يكون تجليه في القيامة عند ما يكشف الحجاب عن البصائر ! وهل بقي شيء من الظهور حتى يتجلى به هناك ! وقد قيل لبعضهم : بم عرفت الله ؟ فقال : عرفت الله بفسخ العرائم ، وحل العقود .
 ومن الاستدلال الطريف قول أبي حنيفة رضي الله عنه لمن تكلم معه من الملحدين :
 ما تقولون في رجل يقول لكم : إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأثقال ، قد احتوشتها أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجرى مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متمهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجرى في البحر مستوية من غير متمهد ولا عجم ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتفسير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ فافروا جميعاً وقالوا : صدقت .

وسئل رضي الله عنه مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس ، فدل ذلك على الصانع .

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل حيث يقول . « يصوركم في الأرحام كيف يشاء » لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

ومنها تمسك أحمد بن حنبل رضي الله عنه بقلمة حصينة ملساء لافرحه فيها ، فظهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابيض ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلمة حيوان سميع بصير ، فلا بد من الفاعل . (عنى بالقلمة : البيضة ، وبالحيوان : الفرج) .

ومنها أن هارون الرشيد سأل مالكا رضى الله عنه عن ذلك، فاستدل باختلاف الأصوات وتعدد اللغات، وتفاوت اللغات. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: «ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم».

وسئل أعرابي عن الدليل فقال: «البركة تدل على البعير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على الصانع الحكيم العليم القدير؟» وقال آخر:

عرفته نحلة، فأخذ طرفها يعمل، والآخر يلسع — والعسل مقلوب اللسع.

ويروى أن واحدا قال عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إني أتعجب من أمر الشطرنج: فإن رقعة ذراع في ذراع، ولو لعب الإنسان ألف مرة فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد. فقال سيدنا عمر رضى الله عنه: ها هنا ما هو أعجب من هذا، وهو أن مقدار الوحه شبر في شبر، ثم إن مواضع الأعضاء التي فيه كالخاضعين والمبينين والأنف والتم لا تتغير البتة، ثم إنك لا تجد شخصين في الشرق والغرب يشبهان في الصورة. فإعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التي لا حد لها!

وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال في بعض خطبه:

«سبحان من نصر بشعم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم».

ويقول بعضهم في الاستدلال على الله:

إن غرار الفطرة لا تدعو إلى باطل. وقد وجدنا فيها شعورا لا تحيته المميتات ينطق بوجود الخالق. (ولكن الضرر في أن العوالم السفلية تطلب أن تكيف لأنها لا تعرف غير المكيف المحدود، ويجب أن لا تعرفه لأنه مابين لها كل المبينة وغير متناه وهي متناهية).

ومنهم من يقول بسعة رزق النبي دون الدكي، فانه ضيق ورقه. إلى آخر الاستدلالات التي لا يأتي عليها العد. ولذلك قالوا: لله طرائق تعدد أنفاس الخلائق.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لبعضهم: كم لك من إله؟ فقال لي في الأرض آلهة كثيرة، ولي في السماء إله واحد. فقال: من تعدد لشدة تك، وتضرع إليه عند النوائب؟ فقال: إله السماء، قال: فاعبده ولا تشرك به شيئا. فالتفت الرجل وأسلم.

ومن ذلك ما قاله جعفر الصادق رضى الله عنه لذلك الغريق نجا: هل كنت يائسا من النجاة عندما انكسرت بك السفينة؟ فقال لا بل كنت أرجو النجاة. فقال له: إن الذي كنت ترجوه في باطلك لنجاتك ولا تعرفه هو الله المحيط بكل شيء القادر على كل شيء.

فأمن الرجل عند ما أيقظ منه ذلك الوجدان وحرك ما كان كامسا في فطرته . وكم في المفطرة من كنوز تحتاج الى من يستثيرها حتى تخرج من الكون الى الظهور ، ولكن الناس عنها غافلون وبها جاهلون .

ولنختم هذا المقال بقول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه	وذا الكون سفر واضح وهو كتابه
يشكون والایمان ملء قلوبهم	ويدون ماتك القلوب تكذبه
فأى امرئ في الجوى يرسل طرفه	إذا ما بدت آثاره وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده	وهنى حواشيه وهنى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة	إذا راقب الأزهار وهي تراقبه
عجائب ربي في الآفاق عظيمة	ولكن جهل المرء لاشك غالبه

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

الشبث في حالتي الزمان

قال عبد العزيز بن زوارة الكلبي :

تقد عجبت منه القبال لأنه صور على عضائه تلك اللال
إذا نال لم يرح وليس لنكبة ألت به بالجاشع المتضائل
وكتب عقيل بن أبي طالب الى أخيه علي بن أبي طالب عليه السلام يسأله عن حاله : فكتب
إليه على رضى الله عنه :

فأني تسألني كيف أنت فأبى جليد على عض الزمان صليب
عزى على أن ترى بي كآبة فيفرح واش أو يساء حبيب

وقال حكيم : من عز بإقبال الدهر ذل بأدباره . وقال غيره : من أبطره الفنى أذله الفقر .
وقال عارف بأسرار النفوس : من ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها ، ومن ولى ولاية
يرى ولايته أكبر من نفسه تغير لها

وقال يحيى بن حيان : الشريف إذا تقوى توسع ، والوضيع إذا تقوى تكبر .
وقال كسرى : هو شروان : احذروا صولة المكريم إذا جلع ، والهنيم إذا شبع .

الاخلاق الفلسفية

- ٥ -

الضمير

نقطة آراء الملاسفة فيه :

يرى « باسكال » (١) الفيلسوف الفرنسي أن العقل والحواس هما الطريقتان الطبيعيان لأدراك الحقائق الخارجية ، ولكنه يصرح بأنهما يتبادلان الخداع ، فالحواس تخدع العقل ، والعقل يخدع الحواس ، وإذا ، فهما ليسا قادرين على تمييز الحقائق المطلقة ، ولا على إيضاح الفروق بين الخير والشر ، ولا على تفهم الدين ، لأنهما عاجزان عن أن يتطاولا إلى سماء هذه الحقائق العالية . وقرر « باسكال » أن في داخل النفس البشرية قوة أخرى أقوى بكثير من قوة العقل ، وهي لا تضل ولا تخدع ، وسماها بالقلب أو الشعور ، وقال : إن الظهير المدرك بدونها ليس ثابتا نظرية ، وإن الدين المعتقد بدونها لا يوصل إلى النجاة ، فهو يتفق مع « كانت » في أن لدى الإنسان قوة تمييز أخرى هي أصدق من العقل المتأثر بالحواس ، ولكنه يخالفه في اتصال القوتين ، ويرى أن بينهما بعدا شديدا وخصاما عنيفا .

ويرى الفيلسوف الإنجليزي المادى « هوبس » (٢) أن الاحساس الإنساني ما هو إلا حركة من حركات المخ تشبه الاحتكاك الكهربائي فيتولد منها الشعور . وإذا صادقت هذه الحركة مسالكها الحيوية الطبيعية نشأت منها اللذة التي هي مصدر الرغبات البشرية ، وليست الإرادة إلا وليدة لتلك الرغبات . وعند هذا الفيلسوف الزايم أن السبب في استراحة النفس بعد إتيان عمل وتأملا بعد إتيان عمل آخر ، هو أن الحركات التي كانت الأولى جرت في مسالكها الطبيعية ، وأن التي كانت الثانية انحرفت عن دورتها الخاصة بها ، فاختلفت الشعور بعد وقوع هذين العملين لا أكثر ولا أقل . ولا شك أن هذا الفيلسوف هو أحد الذين يترلون بالإنسان إلى درجة الآلة البخارية التي تسير بقوة الحيوية المكونة من الحرارة الموحودة في داخل الجسم ، ومن الاحتكاكات « الأتوماتيكية » الناشئة من تلك الحرارة . غير أنه من حسن الحظ أن مذهب الماديين هذا قد تحطم أمام أدلة الروحانيين الناصعة التي كان في مقدمتها التنويم المغناطيسي والوسيط الذئاني أو ضحا الصبح لدى عيني .

أما « كارليل » (٣) الفيلسوف المؤمن بالإنجليزى ، فهو يرى أن الضمير غريزة إنسانية

(١) ولد في ١٨ يونيو سنة ١٦٢٣ وتوفي سنة ١٦٦٢ (٢) ولد في سنة ١٥٨٨ وتوفي سنة ١٦٧٩

(٣) ولد في سنة ١٧٩٥ وتوفي سنة ١٨٨١

فطرية تدرك الواجب وتشعر به شعورا حقيقيا ، وقد وجدت عند الانسان منذ اللحظة الاولى لوجوده ، وهي لا تحتاج في إدراكها الواجب الى شرائع ولا الى قوانين ، وهي أبدية لا تصل ولا تتخلع .

ويرى « استوارت ميل (١) » الفيلسوف الانجليزي أن الانسان حين كان يعيش منفردا لم يكن له ضمير ولا شعور بالواجب ، ولم يكن يعرف الفضيحة ، فلما تكونت الهياكل العمرانية سنت قوانين تلتئم مع حياتها الاجتماعية ، واصطلحت بها بينها على أن هذا خير وذاك شر ، وقررت في تلك القوانين إثابة عامل الصنف الاول ومعاقبة مرتكب البوع الثاني . فأخذ الناس يتسابقون الى الخير رغبة في اللذة الناشئة من مكافأة فعل الخير ، ويقاعدون عن الشر دفعا للآلم الذي سيصيبهم من جراء فعله ، ولم يصدروا في كل ذلك إلا عن أنانيتهم ومحبتهم لأنفسهم وجريا وراء سمادتهم التي لا تتحقق إلا بحلب أكبر قسط من اللذة ودفع مثله من الألم .

لما طال الزمن بهذه الأفعال تناسى الناس الأسباب الحقيقية التي دفعتهم اليها حتى أحفوا معالمها نهائيا ، ثم زعموا أنهم يأتون الخيرات ويتجنبون الشرور حبا في الاولى وبغضا في الثانية لذاتهما ، ثم أخذ هذا الزعم يقوى ويثبت شيئا فشيئا حتى صار عقيدة راسخة في كثير من النفوس البشرية .

ومن هذه العقيدة نشأ ذلك الذي يسمونه بالضمير ، وتولدت العاطفة الأدبية ، ووحد الشعور بالواجب ، وتكونت القوانين الأخلاقية .

ولا شك أن هذا المذهب واه من أساسه ، مزعزع الدعائم والأركان أولا ، لأننا نستطيع أن نسأل صاحبه عن هدى أول مقضى الجمعية البشرية الى الخير والشر ، ثم لماذا نرى بعد هذه الاحيال الطويلة الخيرات والشرور الأساسية كما كان يراها الجيل الأول دون تبدل ولا تغير ؟ ثم لماذا نرى اختلاف البيئة الاجتماعية عند الشعوب المتباعدة ظاهر الأثر في تغير جوهريات القوانين الوضعية ؟ ولكننا نرى الأسس الجوهرية لقانون الأخلاق واحدة في كل العصور ولدى كل الشعوب لم يعد عليها مرور الأزمان ولا تباين الأمكنة والأصقاع .

أما « سبسر (٢) » فيرى أن الضمير يحدث في الانسان مثل « استوارت ميل » ولكنه يختلف معه في سبب ما تراه ، فيعتقد أن غريزتي حفظ الذات والتوسع دعما الانسان الى تكوين الهياكل الاجتماعية التي تمكنه من الاحتفاظ بذاته ونوعه . ولقد كان الانسان بطبعه أنانيا مفرطا في الأنانية ، غير أن القانون الطبيعي لا يسمح ببقاء الفرد المنفرد في المجتمع إلا إذا تلاهم مع البيئة التي يعيش فيها تلاؤما يسمح له بالبقاء بينها . ولا شك أن هذا التلاؤم يكلفه بمعاومتها في الانجبايات والدفاع عنها في السلبات ، وهذه المعاونة وذلك الدفاع يتطلبان منه أن يحس

(١) ولد في سنة ١٨٠٦ وتوفي سنة ١٨٧٣ (٢) ولد في سنة ١٨٧٠ وتوفي سنة ١٩٠٣

باحساسها ويفكر في سعادتها ولو تفكيرا ضئيلا الى حاب تفكيره في منفعته الشخصية التي ندفعه اليها الأناية الطبيعية، ثم يزداد هذا التفكير في مصلحة الجماعة شيئا فشيئا حتى يخفف من وطأة الأثرة ويحولها الى إيثار يتقوى مع الزمن الى أن يدفع بصاحبه الى التصحية، وهكذا نشأت الغيرية وحب الجماعة من الأناية وحب الذات، ثم تكوّن لدى الإنسان بعد ذلك. وتعا لهذا القانون الطبيعي مجموعة من العواطف الأخلاقية أطلق الناس عليها فيما بعد اسم قانون الأخلاق، ونسبوها الى شيء سموه بالصميم، وما زالت هذه العواطف تقوى وتزداد عند الناس بالوراثة حتى تثبتت دعائمها وأصبح الكثيرون يتصورون أنها فطرية، وأنها تعمل لقادتها.

ونحن لا نريد أن نوجه الى « سينسر » من سهام النقد إلا ما وجهناه الى « استوارت ميل » بالذات، لأن المذهبين يتماثلان في الاضطراب والبعد عن المطلق المستقيم.

أما « داروين » (١) فيسير طبعا في الضمير على منهاج نظريته القائلة بالتطور أو بتناسل الانسان من الحيوان، فيقول:

إن الضمير يرجع الى أبعد مما يظن أولئك الأخلاقيون، وإذا أردنا أن نعرف أصله، فلنبحث عنه عند الحيوان الذي هو سلف الانسان، وحين ذاك يتبين لنا أن الغريزة الاجتماعية التي أرغمت كل فصيلة من فصائل الحيوانات على الانصواء تحت لواء واحد هي التي أوجدت لدى الحيوان المسمى الى هذه الفصيلة أول درجة من درجات وخز الضمير يقوى ويترقى يرق هذه الفصائل حتى وصل الى الحالة التي كانت عند الانسان الأول القريب الشبه من الحيوان، ثم سارت في طريق التطور حتى بلغت من الرق هذا الحد الذي نشاهده. وكما أن الضمير ليس واحدا عند الانسان والحيوان، هو كذلك مختلف عند الأمم المتباينة في الرق، بل هو مختلف عند الأمة الواحدة في الأزمان المتفاوتة. ثم يضرب لذلك الأمثال فيقول:

إن بعض الأمم كان يذبح شبانها مسنّها من رجال ونساء نحاها من ثقافتهم ومتاعهم في الحياة، والبعض الآخر كان يبيع قتل كل أحسن، مع أننا نستقطع هذا في الوقت الحاضر تمام الاستقطاع، والبعض الثالث كان يبيع الانتحار مع أننا نصده الآن جريئة. وهكذا كلما تقدمنا ارتقت ضمايرنا وسمت أخلاقنا تعا لهذا الارتقاء.

وإذا، فليس الضمير غريزا فطريا، ولا هو قوة أجبية جاءت من غيرنا، وإنما هو ضرورة من ضرورات حياتنا تختلف باختلاف أزماننا وممكناتنا وبيئاتنا الاجتماعية، وأحوالنا العمرانية، وحظوظنا من الثقافة والمدنية.

ولاريب أن الرد على « داروين » في هذه النقطة هو رد على نظرية النشوء والتطور من أساسها،

وليس في هذه الفصول الأخلاقية مجال يتسع لمناقشة هذه النظرية الباطلة التي دلل الروحيون والانسانيون من الفلاسفة على عساقها بأصعب الأدلة وأروع البراهين حتى ألجأوا تلاميذ « داروين » إلى محاولة تبرئة أستاذهم منها ، وإلى تأويل ألفاظه وتحويل تيارات جملة إلى نواح تقرب من الروحية بمصر الشيء . وربما عرضاً لتنفيذ هذه النظرية فيما بعد بأدلة بعضها للعلماء الطبيعيين المحدثين ، والبعض الآخر لفلاسفة العقلين ، وقد اجتمع لدينا والحمد لله القدر الكافي لنحضر هذا المذهب الواهن .

ومن الغرب المذهب ، بل من البغيض المنجمل أن شذمة من الطبقة المستنيرة عمدنا قد أخذت تنصير لهذه النظرية القديمة وتزوج لها في مصر بعد أن أبلاها بالتفكير الحديث ، وهلهتها سهام القد التي سددها إليها كبار الفلاسفة الروحيين وأعلام المفكرين الانسانيين في أوروبا . وهكذا شاءت لهم كرامتهم أن يتباهوا عجباً وتبها بالنياب الخلقية الزنة المهملات التي نبذها أصحابها خجلاً منها وترفعاً عن نسبتها إليهم . ومن هذا ما يقوله أحد مؤلفي كتب الأخلاق الحديثة في مصر من أن اضطراب الكلب عند مرقته شيئاً هو جرثومة الضمير عند الإنسان ، فإذا رقى الكلب أصبح ضميره هو ما نشاهده في الإنسان .

وبما أن هذا الكاتب وأمثاله هم من المقلدين لمذهب « التطور » فلا تحسن معهم المناقشة ، ولا يجمل معهم الجدل ، وإنما يجب أن نجعل مناقشتنا مع أصحاب المذهب الاساسيين أنفسهم فنقول لهم : إن الكلب لا يشعر بالاضطراب إجابة لصوت الضمير أيها السادة الفلاسفة ، وإنما لنا شعوره هذا من ذكريات حوادث قديمة كانت تتبعها أن فاز هذا الكلب من الصوت والعصا بنصيب بقيت آثاره عنده إلى هذه اللحظة التي ظهر عليه فيها الاضطراب من مثلتها .

ويقول هؤلاء المقلدون لمذهب التطور - إن العقل هو الهادي الوحيد للضمير ، ولذلك نرى صائراً اليوم ما استقبلته أمس ، وتستريح - بعد أن نزلت عقولها - لما كانت تشعر من عمله بالخوف الشديد أثناء التأخر والجهل . ولما كنت قد أوضحت لك آراء « كانت » و « باسكال » في العقل الخاضع للحواس وما يشمل من ضعف وقصور وانحدار ، فلا أرا في الآن في حاجة إلى التعليق على رأي هؤلاء المقلدين للعاديين ، وإن كنت أرى أن العقل يقوم في مساعدة الضمير بنصيب وافق ضد القوة الشهوانية التي تحارب الضمير وقد تنقلب عليه إن كان هو القائم بالنصال وحده ، ولكن إذا انضم إليه العقل المثقف استطاعاً معاً أن يقهر هذه القوة الغاشمة وأن يفوز بالغلبة التي يترتب عليها انتصار الفضيلة ، لأن العدو القشوم إذا حارب خصماً يكون انهزامه أكثر تحقفاً مما لو حارب خصم واحد ، وهذا هو كل ما يستطيع العقل أن يؤديه للضمير من خدمات .

على أنني لا أستطيع أن أفهم كيف يعد عصيان الضمير أو التردد في أوامره ضرباً من ضروب

الزيلة عند هؤلاء انقوم مع أنهم يعترفون بأنه كثيراً ما يخطئ ، وكثيراً ما يصل ، والمسطق كان يوجب عليهم أن يبيعوا عصيان من يحتمل الخطأ ويجوز عليه الصلال ، أو يبيعوا التردد في أوامره على قدر تقدير ، ولكنهم مع ذلك يحاولون أن يتحكموا بالروحيين فيقولون . إن فاعل الشرعية الخير يعتبر خيراً ، لأن المسطور اليه هو البوايا الدافعة الى الأعمال لانتاجها . ولا ريب في أن هذا تناقض مهم واضطراب ، لأن العقلية المادية يجب ألا تعب إلا بالنتاج المحسوسة في الخارج وإلا فهي متمردة على نفسها ، غارحة على قابوها الطبيعي . وإذا فستطيع أن نستدل بهذا التناقض في آراء الماديين ومقلديهم على أنهم غير متثبتين من مذهبهم . أما ما يسوقوه إليها كراهين على اختلاف الوجدان تبعاً لتغيرات الأرمنة والامكنة فلسا ترى شيئاً أسهل من الرد عليه بقولنا . إن الرغبات المختلفة والأهواء المتباينة هي التي تقوى وتسمو عند الأفراد والجماعات حتى تتغلب على صوت الضمير الذي لا يكف عن الهتاف بالفصيلة والخط من قدر الرذيلة حتى ينتهي الأمر بأن يخفى هذا الصوت العلوي الى جانب صلصلة أجراس الشهوات العنيفة ، وتصيح الرذائل من الأمور السهلة لعادية ، ولا يعود الانسان يسمع من أعماق نفسه هذا الصوت الذي كان يسمعه في الماضي . وهنا ينجح الى ذلك الماديين ، أن الضائر نفسها هي التي تختلف وتتغير ، وما هم في ذلك إلا واهمون .

فعلى ذلك ، وبعد كل هذه الآراء التي قدمناها نستطيع أن نجزم بأن الضمير هو ذلك الشعاع النوراني ، والنسر الرماني الذي ألقاه مبدع الكون في داخل النفوس البشرية ، وأنه من عالم الخلود لا يصل ولا ينحدر ، ولا يخضع للتأثرات الخارجية ولا يستعين في إدراك حقائق الخير والشر بالمثل أو بالعرف ، وإن كان يتخذ الأول عموماً له على محارة الشهوة أحياناً ، وأنه واحد لدى كل الأمم والأفراد ، وإن كان تعلب الأهواء على ظهور صوته يختلف باختلاف العقليات والبيئات والثقافات ؟

وكنوز محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

ما قيل في المراح

قال النبي صلى الله عليه وسلم : نعت بالخنيفية النعمة . وقال إني لأمرح ولا أفول إلا حقاً .

وقد رويت عنه صلى الله عليه وسلم عبارات من المراح تعتبر مثلاً علياً في هذا الباب . وقال أبو الفتح البقي :

أفد طبعك المكدود بالمراحة
ولكن إذا أعطيت المرح فليكن
يراح وعظه شيء من المرح
بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

النثر الفني

وأطواره في الأدب العربي

يستطيع الباحث في سهولة ويسر أن يساير النصوص الأدبية مسيرة بحث واستقراء في جميع مراحل الأدب العربي في عصوره المختلفة قبل النهضة الحديثة التي بدأت في أول عهدها بثورة جامعة على الأدب العربي واصطبغت بصيغة غربية استشرافية ، فانه لا يكاد يمر على نص أدبي يسمعه فائتات هذا التعبير « النثر الفني » أو « النثر الأدبي » فهو تعبير مصطنع مرور لا يقوم على حجة سوى التقليد لمنهج البحث عند جماعة المستشرقين ، أرسله أصحابه إرسالاً لا يعتمد على تحديد علمي في معناه ومدلوله التركيبي ، ولا يرتكز على قانون « فني » في موضوعه وأغراضه التي يرمى الى تحقيقها .

ولو حاولنا أن نتعرف له معنى محدد ، أو غرضاً خاصاً قائماً بنفسه عند أصحاب نظريته ، ومن استحدثوه في تاريخ الأدب العربي ، لما انتهينا الى شيء يطهر المسطق اليه . فبعض الداحنين يرى أن النثر الفني هو . الكلام الأدبي الذي يعتمد على العقل والتفكير ، وهو بهذا المعنى يقابل الشعر الذي هو لغة العاطفة والخيال . وهو تحديد غامض أشد الغموض ، لأننا نجد كثيراً من النثر الأدبي الجيد ما يكون تعبيراً عن لعاطفة وصدى للوجدان وترجمة عن الخيال . وأقرب شاهد يحضرننا على ذلك في الأدب القديم الرسائل الاحوابية ، وكثير من فن المقامات والمطارحات ، وفي الأدب الحديث جهرة الأدب الروائي . وكذلك نجد كثيراً من الشعر الرصين ما هو آية من آيات العقل والتفكير في حدود المسطق المستقيم ، ونجد شواهد عليه في شعر ابن الرومي والمتنبي ، وفي الغلاء المعري وأبي العتاهية ، فليس ذاك كل نثر أدبي يعتمد على العقل والتفكير بعيداً عن الخيال والعاطفة ، وليس كل شعر جيد يقوم على العاطفة والخيال يريثنا من التفكير الصحيح والمسطق المستقيم .

على أننا إذا حارينا أصحاب هذا المذهب في حمل النثر الفني مقابل الشعر ليقسني لهم تحديد به ذلك المعنى ، وجدنا أن النثر الفني بهذا الاعتبار يتسع مداه فيشمل الخطب والرسائل بأواعها ، والوصايا والمحاورات ، والامثال والحكم ، وكل ما يقابل لشعر المقيد بالوزن والتقفية من أنواع النثر الممتاز عن لغة التخاطب في أمور العامة ، ومن ثم يكون ضرورياً أن نجعل أول أطوار النثر الفني في الأدب العربي يتمثل في النثر الجاهلي ، ولكن أصحاب هذا المذهب يرفضون هذا الاستنتاج ويأبون على العصر الجاهلي أن يكون قد عرف النثر الفني بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ولا يزال ذلك المعنى الدقيق ، وذلك النوع الخاص من الكلام ، الطليق من قيود

الوزن والتقفية، الحذر باسم « النثر الفني » غير تبين ولا مفهوم . وبعض الباحثين يتوسع قليلا في توضيح موضوعات النثر الفني ، ويرى أنه « أظهر ما يكون في تقرير الحقائق ، ورسم النفوس ، والاحتجاج » ويرى أن « ذلك ليس من طبيعة العربي في بلاغته ، لأن العربي مرتجل لطبيعته ، ميل الى البديهة والارتجال ، والبديهة والارتجال لا يصلحان لعمل النثر الجيد المبني على الفكر والتعقل » .

ويحاول بعض الأدباء أن يدخل الزحرف العفوي والسميق والكتابة والنظام الانشائي عناصر في النثر الفني . ولا نفهم كيف جاء هذا الاصطلاح ، ولم يخرج النثر الأدبي بها قيل فيه عن كونه نوعا من الكلام المتناثر بمجودة عبارته وسمو معناه ، يقصده إصابة الحادة وبحكام القول ، وهو ما تتجه اليه أفكار الناس ، فإذا كان العرب قد آتاهم الله سرعة البديهة الصائبة والارتجال المحكم فيكون هذا سببا في الحكم عليهم بأنهم لا يعرفون النثر الأدبي ، والفني كما يقولون ؟ نعم نحن لا نكر أن « أظهر ما يكون النثر الأدبي في تقرير الحقائق ورسم النفوس والاجتماع » ولكن نقسأ أي مقياس نتخذه لمعرفة الحقائق التي تقرر بهذا النثر والنفوس التي ترسم ، والاجتماع الذي يطبق ؟ هل هي واحدة في كل الجماعات لبشرية ، أو تختلف باختلاف الطبائع والبيئات والثقافات ؟

أو ليس من المعقول أن لكل أمة مذهبا في الكلام وطبيعة لا يصح أن تطبق عليها مذهب وطبيعة أمة أخرى في حقائقها ونفوسها واجتماعها ؟ وهل من المعقول أن نطبق حقائقنا ونفوسنا واجتماعنا في هذا العصر على العرب في عصورهم الأولى ؟

العرب أمة لها طبيعة خاصة ، ولها تفكير خاص ، ولها اجتماع خاص ، وكان لها نثر أدبي يمثل طبيعتها وتفكيرها واجتماعها ، ويلائم بيئاتها ، وقد ضاع من هذا النثر شيء كثير ، ولا نستبعد أن يكون كثير من الرسائل الأدبية كان لدى العرب وضاع فيما ضاع من ثراها لأسباب أشرنا إليها في مقالاتنا السابقة .

وبعض الباحثين من أدبائنا يؤكد تأكيذا قويا وجود النثر الفني عند العرب في عصرهم الجاهلي ، ولكن التوفيق يعوزه فيما اتخذ سنداً لدعواه ، ونحن وإن كنا لا نستسلم للتسليم المطلق بصحة هذا النثر المقول الينا معزوا الى عرب الجاهلية ، غير أننا لا نجاري الشاكين على الإطلاق ، ونعتقد أن كثيرا جدا من هذه الخطب والأمثال والحكم والوصايا والمحاورات صحيح النسبة الى العرب قبل الاسلام ، وبدلنا على ذلك تلك الخطب التي قام بها زعماء الوفود في عصر النبوة ، وهي لم تكن مفتجرة افتجارا ، والخطب شقيقة الرسائل . قال أبو هلال السكري في كتاب الصنائع : « وأعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يحق وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والقوافي ، فألفاظ الخطباء

تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والمذونة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشاهدها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة في أسير كلمة . بل إن صاحب « صبح الأعشى » يرى أن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها .

فكيف صح لأنصار مذهب « الشرائع » تحريد العرب منه ؟ وماذا يرى الباحث حين يقرأ هذه المحاور التي يقول عنها ابن الأثير « إنها من الكلام الجامع للحزلة والرفة » ويقدمها بقوله : ويكنى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه المغوى في دم أبيه فقال له : « إنك في المحل الأرفع والقدر من المعرفة تصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه وتنقل أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعد ، ولا تصير من محرب ، ولك من سؤدد منصفك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محدد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية ، لا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي صمت رزيتة زاراً والحين ولم تخصص بذلك كعدة دوناء ، للشرف البارح كان لحر ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بمداه لما بخلت كرامتها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أحراه على أولاده ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن احترت من بني أسد أشرفها بيتاً ، وأعلها في ثناء المكرمات صوتاً ، فقدنا إليك بنسبة تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل مغنيمته إلا بمكنته من الانتقام ، أو فداء عما يروح على بني أسد ، فهي ألوف تجاوز الحسة ، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أحفانها لم ترددها بليط الاحس على لنزاه ، وما وادعنا إلى أن تضع الحوامل فتسدل الأزهر ، وتمقد الحر فوق الرايات .

قال فبكي امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال : « لقد علمت العرب أنه لا كمؤ لحجر في دم ، وأنى لي اعتاض جلا ولا ناقة ما كتسب به سبة الأبد ، وقت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون سبياً لعطبا ، وستعرفون طلائع كعدة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنقا ، وفوق الأسنة علقا

إذا ما جالت الحرب في مازق تصافح فيها المنـايا النفوسا

أنقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا بلى تنصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذية ، وحرب وبلية . ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لعلك إن تستوخم الورد إن عدت ككائننا في مازق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس : لا والله ، ولكن أستمذه ، وريدا ينفرح لك دجاها عن فرسان
كمدة وكتائب حير ، ولقد كان ذكر غير هذا فى أولى إذ كنت نازلا يربى ، ولكنك
قلت فأوجبت ، فقال : هو ذاك .

قال ابن الأثير : فلتنظر الى هذا الكلام من الرجلين قبضة وامرى القيس ، حين يدع
المتعمقون تعمقهم فى استعمال الوحش من الألفاظ ، فان هذا الكلام قد كان فى الرمن القديم
قل الاسلام بما شاء الله .

أفليس هذا من أروع النثر الأدبى الذى يقرر حقائق ، ويرسم نفوسا ، ويطبق احتما ،
ويتمدد على العقل والتفكير الصحيح والمنطق المستقيم ؟ بل إنه لشر فنى يحمل فى ثناياه حجة
الأدبية على وجوده وتعارفه عند العرب ؟

صاوى ، إبراهيم عربونه

ضرر الحسد

قال بعض الحكماء : أزم الناس كآبة أربعة : رجل حديد ، ورجل حسود ، وخليط
الأدباء وهو غير أديب ، وحكيم محترئى الأقوام .

قال على بن بشر المروزى كتب ابن المبارك هذه الأبيات

كل البداة قد ترجى إيمانها إلا عداوة من عاداك من حسد
فان فى القلب منها عقدة عقدت وليس يفتحها راق الى الأبد
إلا الاله فان يرحم يحللها وإن أباه فلا ترحوه من أحد

وسئل بعض الحكماء : أى أعدائك تحب أن يعود لك صديقا ؟ قال الحاسد الذى لا يرد
إلا زوال نصقى .

وقال سليمان التيمي : الحسد يصعب اليقين ، ويسهر العين ، ويكثر الهم .
وقد صلى الأحنف بن قيس على حارثة بن قدامة السهمى فقال - رحمتك الله كنت لا تحمد
غنيا ، ولا تحقر فقيرا .

وكان يقال : لا يوجد الحر حريصا ، ولا الكريم حسودا .
وقال شاعر :

حسدوا النعمة لما ظهرت فرموها بأباطيل الكلام
وإذا ما الله أسدى نعمته لم يصرها قول أعداء النعم

حكمة الصيام في الاسلام

يمر لنا شهر رمضان من كل عام فيستقبله المسلمون في مشارق الارض ومقاربها عما هو
أهله من الاحتفاء والاحتفال ، وينتدب كبار الكتاب لتحرير المقالات الصافية الديول في بيان
مسامحه في العقول والأبدان ، وفوائده للقلوب والأرواح ، وإياه لقمن بكل هذه العناية الجليل
أثره في النفوس ، لو قامت به على وجهه الصحيح ، ولم تتحول عن صرامه السوي .

ذكر العلماء للصيام حكما كثيرة ، وعندما أن أولى تلك الحكم بالبيان ، أثره على الانسان
في رياضة النفس ، وثمرته في تخليصه من سلطان المادة .

الانسان جسد وروح ألف الطالقي الحكيم بينهما على تخالف طبيعتهما الى أمد محدود ؛
فن الناس من تتسلط كدرة المادة عليه فتقلب فيه الصفات البهيمية ، حتى إنك لتراه في مظهره
إنسانا مستكلا جميع صفات التقويم الحس ، فإذا اطلعت على دخيلة حاله تبين لك أنه يحمل نفس
حيوان ضار ، لا يملك في غير رعباته الجسدية ، وشهواته البدنية ؛ ولا يبالي في سبيل الوصول
اليها أن يرتكب كل دنية ، أو فعله وحشية ؛ ومثل هذا لا يمش إلا ليأكل ويتوسع في توفية
شهواته ، وما هي إلا سنون حتى يدركه الهرم ، ويقعد به الضعف ، فيموت ميتة الحيوان الأجهم ،
لم يحصل من جهاده الديوي نورا يرجع به الى العالم الذي خلق ليتحول اليه .

وقد ثبت علميا أن تمرد الانسان لاتباع شهواته المادية ، وإغماره لمميزاته الروحانية ،
يجر عليه وعلى نسله نوعه أكبر الحرائر ، ذلك أنه لم يخلق كالحوان محدود المطالب ، محصور
الغائب ، حتى يكون ما يحصله من حظ ' الدنيا كافيا لسد مطامعه ، ولكنه خلق مطلق
القوى ، بعيد مدى الغايات ؛ فهو لا يكتفى بإلباس وطعام يوفى بهما حاجات حتماته ، بل لو حصل
الدنيا كلها وحملها في قبضته وجد في منخور قواه مددا لا حد له بمكسه أن ينقته وراء أي
مطلب من المطالب التي يجد نفسه مدفوعا اليها ، فإذا لم يتدارك الدين الحق مثل هذه الشخصيات
انغام بالتهذيب والتلطيف ، اجتمع منها في الأمة الواحدة عدد كبير لا يستطيع تزويجهم وإدخالهم
في حظيرة حكومة صالحة .

فشرع الله الصيام رياضة للنفوس ، ليتمكن بواسطته وبواسطة الصلاة تحويل القوى الأدبية
العظيمة القدر في الانسان ، الى ما ينقله من حضيض الحيوانية التي هو فيها ، الى أرقى درجات
السمو الروحاني الذي خلق ليصل اليه .

فكيف يحقق الصيام هذه الرياضة ، ويدفع تيارات القوى الأدبية الانسانية الى وجهة
تصلح معها للحياة الملكية ، بعد أن كانت تزيد هذا التحويل حيوانية على حيوانية ؟

إن الاسلام يفرضه الصلاة والصيام على ذويه قد حلام بأقوى الوسائل لإحداث أعجب ضروب التطور في النفس البشرية ، بحيث تصلح لجذب أمة من طرف الى طرف في فترة من الزمان لا تكفي لإحداث مثل هذا الأثر الخطير في فرد واحد .

فالصلاة عمل قلبي وعضوي لو أدى على وجه الصحيح لأحدث في مؤدبه انقلاباً تدريجياً يشبه ما يفعله المغناطيس الحيواني في تعديل الطباع ، وتهذيب الأحلاق ، وفتح باحات روحانية للنفس تتصل معها بعالم الروح ، وتستمد منه حياة علوية ، وقوى أدبية .

تبدأ الصلاة شكيرة الاحرام : الله أكبر ، فلو استشعر المصلى وهو يذكر هذه العبارة معناها الصحيح ، صغرت في عينه جميع الأغيار ، ومحقت جميع الصور ، وشعر بأنه مائل أمام القادر الذي أبدعه . هذا الشعور وحده يخلقه من عالم المادة ويدخله عالم الروح ، فإذا قرأ فاتحة الكتاب ، وتأمل في معانيها ، واستشعر الى ما تشير إليه من طلب الهداية الى الصراط المستقيم ، كان كل ذلك منه يشبه ما يسمى في عالم النفس بالايحاء الذاتي (Auto-suggestion) فتكيف به نفسه من طريق الاستهواء ، وتندفع لتحقيقه بكل ثبات ومثابرة . كل هذا على شرط أن يكون الدخول في الصلاة بتحرير النفس لها من جميع الأغيار .

فإذا انصمت فريضة الصيام الى الصلاة في كل عام شهراً ، بلغت خاصة الایحاء الذاتي أشدها ، وأثمرت أعظم ثمراتها .

وهذا على شريطة أن يكون الصيام كما سنه الاسلام ، لا كما حاولته اليه العادات .

إن شهر الصيام الآن يعتبر شهر قصف ولهو ، وسهر وسحر ، وهو في حقيقته شهر زهد ورياضة وورع . وهو على ما تؤدبه عليه من التوسع في المأكول ، وإحياء الليالي بالمبهيات ، والنوم الى ساعات متأخرة من النهار ، يعتبر من أشد الضربات على الصحة الجسدية والصحة النفسية معاً . فالتقانون الصحي لا يسمح بأن يجمع الانسان نفسه طول النهار ، فإذا جاء المساء أكل أكل المسموم المحروم حتى لا يستطيع التنفس ، ثم حاول الكثرة بعد بضع ساعات باسم السعور ، فحشر الى معدته كل ضروب المخطورات الغذائية ، وشرب على كل ذلك ماء غزيراً . لا جرم أن من يرتكب مثل هذا العبث يخرج من رمضان متعب الجسم والعقل معاً .

ولكن الصيام في الاسلام هو على النحو الذي كانت يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقد كانوا يفطرون على تمرات ، ثم يقومون لصلاة المغرب ، فإذا أدوها عادوا لإتمام الطعام ، وهو لا يتمدى لقيات كانوا يقيمون بها أصلاهم ، ثم جلسوا يتحدثون حتى يأتي موعد النوم العادي في ناعثة الليل ، تلك الآونة الحافلة بالاشعاعات المهدئة للأعصاب ، ومنهم من كان يستيقظ في المزيغ الأخير من الليل للتهجد ، ومنهم من كان ينام الى ما قبل صلاة الفجر

بقليل فيصيب قليلا من الطعام ، ثم يتوضا ويقنفل حتى يؤذن المؤذن بالفجر فيصلون الصبح .
ثم منهم من كان يظل يظلا الى المساء ، ومنهم من كان تأخذه بعد الفجر سنة من النوم ، ثم يقومون
الى أعمالهم لا يتخلفون عن عاداتهم في شيء .

الصيام على هذا النحو يعتبر عملا رياضيا له تأثير كبير على جسم الانسان وروحه ، يدخل فيه
في كل عام مرة ، ويخرج منه وقد تطهر قلبه ، وتزكى ضميره ، وتنقى دمه ، وتقوت أعصابه ،
وفوق ذلك كله ، هبطت عليه من عالم القدس نفحات روحانية ، وإشراقات ربانية ، لا يتصور
العقل مبلغ ما تفعله في ترقيته الى مراتب الكمال .

هذه الرياضة إذا أضيفت الى الصلاة ، أحدثت بين الانسان وعالم الروح أوثق الصلات ،
ونقنته من عالم الحيوانية الذي هو فيه الى وجود سام تتبسط فيه أكرم غرائز النفس ، وأشرف
عواطفها . وهذا وحده يفسر لنا حدوث ذلك الانتقال الحير للعقل في نفسية عرب الجاهلية
فقتلتهم طغمة من حياة وحشية حافلة بالميلو البهيمية ، والمقاصد المدوانية ، والاباحة الحيوانية ،
الى حياة مدنية آهلة بالمعالي الشريفة ، والنيات السكرية ، والغايات النبيلة ، حياة أوصلتها
الى خلافة الله في الأرض ، وهي درجة لم تنلها في تاريخ الانسانية كله إلا أمة معدودة ، نالتها
الامة الاسلامية في أقل من ثمانين سنة ، فوصلت الى ملك لم تصل اليه أكبر دولة في الأرض
في ثمانمائة سنة ، وأحدثت في العالم من الآثار العلمية والعملية والفنية ما لا تزال الأمم عيالا
عليه الى اليوم .

هذه آثار المبادات الاسلامية على الأمم ، إذا أدبت على وجهها الصحيح لا على ما آلت اليه
اليوم : صلاة صورية ، وصيام اتخذ وسيلة لإثارة القرم ، والتوسع في النهيم .

بصّرنا الله بديننا القويم ، وجعلنا ممن قال : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك
المصير » !

محمد فريد وجدي

من نوابغ الكلم

قال علي بن الحسين رضي الله عنهما : « لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة ،
وجملة الحال في فضل التبيين ، لأعربوا عن كل ما يتلجلج في صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين
ما يغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن درك ذلك كان لا يعدمهم في الأيام
القليلة المدة ، والفكرة القصيرة المدة ، ولكنهم ما بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ،
ومعدول بالهوى عن باب الثبوت ، ومصروف بسوء المادة عن فضل التعلم .

٣ - أعلام القراءة :

إبليس^(١)

أصل اللفظ واشتقاقه — خلق إبليس — حقيقة الجن — إبليس قبل المعصية
إبليس وآدم — إنظاره — موته ووقته

١ - أصل اللفظ واشتقاقه :

قال الزجاج : هو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للمعية والمعصية ، ووزنه فمليل ، قال البستاني في دائرة معارفه : وهذا هو الصواب ، فانه معرب « ذيفوليس » باليونانية ، وهو علم جنس للشيطان ، ومعناه فيها بالحصر موقع الخلاف ، وبالتعميم تمام أو مشتت كاذب . وقال صاحب تاج العروس بعد قول القاموس : أو هو أعجمي ، ولنا قيل : انه لا يصح أن يشتق إبليس ، وإن وافق معنى أبلس لفظا ومعنى ، وقد تنوع المصنف الجوهري في اشتقاقه ، فغلطوه ، فليقتبه لذلك .

وقال أبو عبيدة وغيره : إنه عربي مشتق من الابل اس ، وهو الإبعاد من الخير ، أو لباس من رحمة الله ، يقال أبلس من رحمة الله ، أى يئس وندم ، وفي التنزيل العزيز : « يومئذ يبلس المجرمون » وإبليس مشتق منه ، لانه أبلس من رحمة الله ، أى أؤس ، ومنع من الصرف حينئذ لكونه لا نظير له في الأسماء ، أو لانه شبيه بالأسماء الأعجمية ، لكونه لم يسم به أحد من العرب ، فصار خاصا بمن أطلقه الله تعالى عليه ، وكأنه دخیل في لسانهم . وقيل : إن اسمه بالعبرانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، أما كنيته فأبو مرة .

٢ - خلق إبليس :

تتوقف معرفة خلق إبليس على معرفة النوع الذى هو منه ، وذلك أنهم اختلفوا فيه : أهو من الملائكة ، أم من الجن ؟

فذهب جماعة الى أنه من الملائكة مستدلين بحملة أدلة ، منها :

(الأول) ظاهر الاستثناء في قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر » والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل ، أو لصح دخوله ، وذلك يوجب كونه من الملائكة .

(١) من قوله تعالى : « وإدنا فلانكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان

من الكافرين » . سورة البقرة — آية ٣٤

(الثاني) أنه لو لم يكن من الملائكة لما كان قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » متناولاً له ، ولو لم يكن متناولاً له ، لاستحال أن يكون تركه للسجود إباء واستكباراً وممسية ، ولما استحق الدم والعقاب ، وحيث حصلت هذه الأمور ، علمنا أن ذلك الخطاب يتناولُه ، ولا يتناولُه ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة .

وذهب جماعة آخرون إلى أنه من الجن مستدلين أيضاً بعدة أمور ، منها :

(الأول) قوله تعالى في سورة الكهف : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، فسقى عن أمر ربه » .

(الثاني) أن إبليس له ذرية ، لقوله تعالى في صفته : « أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو » وهذا صريح في إثبات الذرية له ، وأن الملائكة لا ذرية لهم ، لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى ، والملائكة لا أنثى فيهم ، لقوله تعالى : « وحملوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنا ، أشهدوا خلقهم ، سنكتب شهداتهم » . أسكر على من حكم عليهم بالأنوثة ، فإذا انتفت الأنوثة ، انتفى التوالد لا محالة ، فانتفت الذرية .

(الثالث) أن الملائكة معصومون ، وإبليس لم يكن كذلك ، لأنه قد استكبروا الملائكة لا يستكبرون .

(الرابع) أن إبليس مخلوق من النار ، والملائكة ليسوا كذلك — وستأتي الأدلة على هذا في بيان حقيقة الجن .

ولم نسلم أدلة كل من الفريقين من المناقشة والتصحيح والتأويل .

وقيل : إنه لا من الملائكة ، ولا من الجن ، بل هو خلق مفرد ، وأنه مخلوق من النار .

٣ — حقيقة الجن :

الجن نوع من الخلق ، سموا بذلك لاجتنانهم عن الانصار ، ولأنهم استجنوا من الناس فلا يروون ، قال الراغب : « أصل الجن (بفتح الجيم) ستر الشيء عن الحاسة ، يقال جتته الليل وأحتته ، وجن عليه لحيه : ستره » إلى أن يقول : « والجن (بكسر الجيم) يقال على وجهين : أحدهما الروحانيين المستترين عن الحواس كلها بإزاء الإنس ، فملى هذا تدخل الملائكة والشياطين ، فكل ملائكة حس ، وليس كل جن ملائكة ، وعلى هذا قال أبو صالح : الملائكة كلها حس ، وقيل : بل الجن بعض الروحانيين ، وذلك أن الروحانيين ثلاثة . أخيار وهم الملائكة وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم أخيار وأشرار وهم الخس » اهـ

وقد أخبرنا القرآن الكريم ، وجاء في السنة الصحيحة أنهم عالم قائم بذاته ، وأنهم قبائل وطوائف ، وأن منهم البار والفاجر ، وأنهم يأكلون ويشربون ويتناسلون .

قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » وقال : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشاد فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا » وقال : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا » وقال حكاية عنهم : « وأما منا الصالحون ، ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا » وقال : « وأما منا الماسون ، ومنا الفاسطون » .

وقد رويت أحاديث كثيرة في هذا المعنى ، فروى أنهم مروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي يصاحبه بطن نحلة من أرض مكة ، فوقفوا فاستمعوا لقراءته ، ثم اجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة كاملة ، فسألوه عن أشياء أمرهم بها ، ونهاهم عنها ، وسألوه الزاد ، فقال لهم : كل عظم ذكر اسم الله عليه تجددونه أوفر ما يكون لحما ، وكل روثة علف لدوابكم . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستنحي بها ، وقال : إنها زاد إخوانكم الجن .

أما ما خلقوا منه ، فقد ذكره القرآن الكريم في قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » وخلق الجن من مارج من نار » وفي قوله : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » والجن خلقناه من قبل من نار السموم » .

وذكره الحديث الشريف في رواية مسلم من طريق الزهري عن عروة عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

واختلفوا في هل كان من الجن رسول ؟ فالأكثر على أن الجن ليس لهم رسول منهم وإنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم رسولا للإنس والجن ، وأن منهم منذرين فقط ، قالوا : وإنما قال الله تعالى : « يأمُر الجن والإنس » ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا » والرسل من أحد الفريقين ، كما قيل : « مرج البحرين يلتقيان » ثم قال : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح دون العذب منهما .

وأما التشكك في وجود الجن ، كما يقع من بعض الناس ، فلا محل له ، فقد ثبت وجودهم بسم القرآن الكريم ، ومن طريق الأحاديث النبوية الصحيحة ، وورد ذكرهم في جميع الكتب السماوية ، واعترف بوجودهم كثير من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروايات ، وأكده كثيرون ممن لا يشك في صلتهم أنهم رأوا الجن وكلمهم . ثم إن وجودهم في ذاته لا يخفى العقل ، ولا يخالف سنن الخليقة .

٤ — إبليس قبل المعصية :

ليس هناك خبر تطمئن إليه النفس ، وتقوم به الحجة على تعيين الحالة التفصيلية التي كان

عليها إبليس قبل معصية ربه بانه السجود لآدم ، وليس من اليسير على الباحث الحريص على استكمال نواحي بحثه أن يهمل مثل هذه الناحية الهامة في ترجمة إبليس دون أن يتحدث عنها بكثير أو قليل ، فإنه إن أهمل وصف بالتقصير ، وإن تحدث بما لم يؤيده نص ديني ، أو يعضده مصدر تاريخي وثيق ، وصف بالقصور ، وإذا فليعذرنا حضرات المطلعين إن نحن أوردنا شيئاً في هذا الموضوع مما رواه شيوخ العلم ، وأئمة المؤلفين ، ونسبوه إلى أجلاء من الصحابة وغيرهم رضوان الله عليهم : كابن عباس ، وابن مسعود ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير .

ونحن لا نورده هنا على أنه أخبار مسمة ، وروايات مقطوع بها ، بل لنبين أن هذا هو كل ما ذكروه ونقلوه ، والمهدة عليهم فيه .

قالوا : كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل ، وكان له سلطان السماء الدنيا ، وسلطان الأرض وما بينهما ، وكان خازن الخنة مع اجتجاده في العبادة ، وكثرة علمه ، فأعجب بنفسه ، ورأى أن له بذلك الفضل ، فاستكبر .

وقيل : إن الجن لما أفسدوا في الأرض ، وسفكوا الدماء ، وقتل بعضهم بعضاً ، بعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة ، فقاتلهم وشردم إلى الجزائر وأطراف الجبال ، فلما فعل ذلك اغتر في نفسه ، وقال قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد .

وقيل : كان قاضياً بين الجن ، فلم يزل يقضى بينهم بالحق حتى صمى حكماً ، فتمتع وتكبر ، وألقى بينهم المداوة والبغضاء ، فافسدوا في الأرض ، وسفكوا الدماء ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقهم ، فلما رأى إبليس ما نزل بقومه من العذاب عرج إلى السماء ، فأقام عند الملائكة يعبد الله مجتهداً في العبادة ، فلم يزل كذلك حتى خلق الله آدم ، فكان من أمر إبليس ومعصيته ربه ما كان . وقيل غير ذلك .

• — إبليس وآدم :

أسلفنا شيئاً من الكلام على موقف إبليس من آدم عند الكلام على « آدم » . ونحن ذا كرون هنا ما لم يكن موضع ذكره هناك :

يؤخذ من الآيات القرآنية الكريمة التي وردت في خلق آدم عليه السلام ، أن الله تعالى اختصه بمزايا أهمها :

(الأولى) تليمه الاسماء كلها .

(الثانية) أمره الملائكة بالسجود له .

ولقد كان هذا الاختصاص سبباً في حسد إبليس لآدم ، وقد جملة هذا الحسد على الاستكبار

والعماد، مبررا ذلك بأنه أفضل من آدم، فعاقبه الله على ذلك بالطرد من الجنة، وما بذاره بأنه من أهل النار.

ويحكى لنا القرآن الكريم ذلك في نظم رائع، وأسلوب معجز: قال الله تعالى: «ولقد خلقناكم، ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك» قال أما خير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين.

ويقول: «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي، استكبرت أم كنت من العالين، قال أما خير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين، قال فاحرح منها فاك رجيم، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين» وغير ذلك من الآيات.

٦ - إنظاره :

أراد إبليس أن يجد له مسحة في الاغواء، وأن يكون له من طول الحياة ما يرحى له العنان في الجري وراء الاساد الذي جبل عليه، فسأل ربه عز وجل أن ينظره إلى يوم الدين، لإشباع نهمته من هذه الناحية.

قال تعالى حكاية عنه: «قال أنظرني إلى يوم يبعثون» قال إنك من المنظرين، قال فبما أغويتني لأفعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا يحيدوا أكثرهم شاكرين.

وقال: «قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتسب ذنبيته لا قليلا، قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا، واستغفر من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدم، وما يمدحهم الشيطان إلا غورا، وإن عادى لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلًا.

أما الحكمة في إنظاره ذلك الزمن الطويل مع ما هو عليه من الاساد، فقد بينه العلماء: قال ابن كثير في البداية والنهاية - إن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة، محبة لعماده، واختبارا منه لهم، كما قال تعالى: «وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وربك على كل شيء حفيظ» وقال تعالى: «وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرحي، في كفرت بما أشركتمون من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم» اهـ

٧ - موته ووقته :

ذكر أصحاب الأخبار كيفية موت إبليس، فنقل الألوسي في تفسيره عن كتاب «البحر

الآخرة « لسفار بنى خيرا مرفوعا الى ابن مسعود رضى الله عنه ، أن إبليس يموت بقتل الدابة له عند خروجها ، ولكن الألوسى شك فى نسة هذا القول الى ابن مسعود ، وإذا طالسألة موكلة الى علم الله تعالى .

وأما وقت موته ، فقد حكى فيه الرازى قولين . الاول ، أنه تعالى أنظره الى النفخة الاول ، لأنه تعالى قال : « إنك من المظرين الى يوم الوقت المعلوم » ، والمراد منه اليوم الذى يموت فيه الأحياء كلهم ، والثانى أنه تعالى لم يوقت له أجلا بل قال : « إنك من المظرين » . وقوله فى الآية الأخرى : « الى يوم الوقت المعلوم » المراد منه الوقت المعلوم فى علم الله تعالى ، وقال بعضهم غير ذلك . والله أعلم ما فكرى يسر

(مجلة الأزهر) : تستبعد بعض العقول أن يكون لإبليس وجود حقيقى ، ولكنهم لو أجادوا الروية لأدركوا أنه لا مانع من وجود روح خبيث أرصد لاستدراج الناس الى الشر ، لا لأن الشر مرغوب لذاته ، ولكن لأن النفوس البشرية لا تتجرد من كدور الطبيعة المادية إلا باستخراج كل ما أكنته من دواعى السوء فى جبلتها ، ويتمرنها على عصيان تلك الدواعى والنووة عليها .

والانسان إنما قذف به الى هذا العالم ليتزكى ويترقى ويخلص من علائق المادة التى قضى عليه أن يصاحبها فى مرحلته هذه . فإذا لم يسلط عليه ما يشير كوامه ، ويلهب غرائزه بقى جامداً وخرج من الدنيا على ما جاء اليها .

هنا يمكن أن يقال إن الشهوات البدنية تكفى وحدها فى إحداث هذه الاثارة ، ولا موجب لافتراض وجود روح خبيث يدفعه اليها .

ولكننا لنسألهما بصدد التدليل على كفاية الشهوات البدنية للاثارة أو عدم كفايتها ، بل بصدد القول بأنه لا مانع عقليا ولا علميا من وجود روح خبيث لا يغواء بنى آدم ليبتلوا فى حياتهم الدنيا .

وكيف يوجد مانع والعالم الروحاني مشحون بالروحانيات المختلفة من جميع الأنواع ، وقد ثبت ذلك علميا فى العصر الحديث ، فلا وجه لا مستبعد وجود روح خبيث من بينها أعوان كثيرون من جنسه أرصدوا للاغواء والتسويل ؟

مسألة في الطلاق

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأجل الشيخ يوسف الدجوي .

تحية واحتراما : وبعد فأرجو من أريحيتمكم الطاهرة ومكارمكم المالية إفادتي عن الآتي :

تنازع رجل مع زوجته فقال لها : إن كرهت أطلقك ، فقالت : كرهت ، فقال لها : أنت طالق ، فأعادت مقالتها ، فأعاد مقالته ثلاث مرات . مع العلم بأن الكراهة عندنا مستعملة في البراءة من مؤخر الصداق وثقة المدة ، فهل بانت بالطلاق الأولى فلا يلحق ما بعده على مذهب السادة المالكية ؟ أميدونا مأجورين . وندعو لفضيلتكم بمز الحياتين وسعادة الدارين ؟

محمد محمد العدوي

رئيس مكتب تل المارة

الجواب :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

ليست الكراهة في مذهب مالك براءة ، فالطلاق المعلق عليها رجعي ، وحينئذ فالطلاق الثاني والثالث لاحقان للزوجة لأنها رجعية . وعلى ما ذكر السائل من أن الكراهة براءة فيكون الطلاق باثنا عنده . فذهب مالك أن الطلاق الثاني والثالث لاحقان أيضا لأنها زوجة عنده وبأئمة عند الغير ، فيكون نكاحها كالمختلف فيه ، والسكاح إذا اختلف فيه ولو في مذهب الغير يلحقه الطلاق . في فتاوى الشيخ عlish ما نصه :

ما قولكم في نازلة وهي أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقا مختلفا فيه في المذهب أو غيره بالبينونة أو الرجعة ثم بعد ذلك أوقع الثلاث ، فهل يلحق به نظرا للمخالف كمن طلق في نكاح مختلف فيه ويكون محل قولهم : البائن لا يرتد عليه غيره ، إذا كان متفقاً عليه ، أولا ؟ فيبدوا الجواب . فأجبت بما نصه :

نعم يلحق به نظرا للمخالف واستحصانا واحتياطا للعروج إذا كان الاردا في المدة . وقولهم : البائن لا يرتد عليه غيره إذا لم يكن نسقا ، مخصوص بالمتفق فيه على البينونة ، ففي ابن سلعون ما نصه :

واختلف فيه أي قول الزوج لزوجته أنت طالق طلاقا واحدة تملكين بها أمر نفسك دوني على ثلاثة أقوال : فقيل : إنه يكون طلاقا رجعية كمن قال أنت طالق واحدة لا رجعة لي

عليك فيها ، وهو قول أشهب ومطرف . والثاني : أنها تكون البتة كى قال أنت طالق واحدة بائنة فاتها ثلاث ، وهو قول ابن الماجشون وابن حبيب . والثالث : أنها مطلقة واحدة بائنة ، قال ابن القاسم وحكاه القاضي أبو محمد عن مالك وبه القضاء : وكان ابن عثاب رضى الله عنه يفتى بأن من أرا زوجة هذه المبرأة ثم طلقها بعد ذلك في المدة ، أوف الطلاق يردف عليه استحسانا ومراعاة لقول من يراه رجعة اهـ والله أعلم ؟

يوسف الرموى

عضو جماعة كبار العلماء

العقل اكرم المواهب

قال ابن عباس دخلت على عائشة رضى الله عنهما فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أرايت الرجل يقل قيامه ، ويكثر رقاؤه ، والآخر يكثر قيامه ويقل رقاؤه : أيهما أحب اليك ؟

قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني فقال لى : أحسنهما عقلا .

قلت : يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما .

فقال : يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما ، إنما يسألان عن عقولهما ، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الجنة مائة درجة ، تسعة وتسعون منها لأهل العقل ، وواحدة لسائر الناس .

وروى البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لكل شيء وثيقة ومحجة واضحة وأوثق الناس مطية ، وأحسنهم دلالة ومعرفة بالحجة الواضحة ، أفضلهم عقلا .

وقال الحسن بن علي رضى الله عنهما : إني لأعجب ممن رزق العقل كيف يسأل الله معه شيئا آخر .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أفلح من جعل الله له عقلا .

وقال مطرف : ما أوتي العبد بعد الايمان بالله تعالى أفضل من العقل .

وقال الأصمعي : لو صور العقل لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار .

وقال بزرجمهر : العقل كالملك إن أخطأته عبق ، وإن بته نفق .

وقال شاعر :

له در العقل من رائد وصاحب في العمر واليسر

صفحة من الابداع الالهى

الاشعة ذوات الالوان وفوائدها للانسان

يعلم الانسان الآن أنه في وسط عالم كله أسرار ، وأنه لم يكتشف منها إلا جزءا إن قيس بما بقى مجهولا منها لما بلغ قطرة بحباب القاموس الأعظم (١) .

أدرك هذه الحقيقة جميع الذين لهم صلة بالعلم ، فأصبحت من البدايات الأولية لديهم ، بيد أن بعض الذين قشوا بعض المعلومات العامة يتخيلون أنهم قد بلغوا من العلم ما لا مرمى بعده . وإذا أراد القارئ أن يدرك مبلغ تقدير العلماء لمدى الرق الانساني في المستقبل ذكرناه بما قاله العلامة الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى الفرنسى وإمام الفسيولوجيا فى العصر الحاضر قال : « سيأتى زمان يكون الفرق فيه بيننا وبين أهله كالفرق بين الحيوانات النعاهة وبيننا نحن الآن »

الحق لو صدر مثل هذا القول من رجل عادى لظن أنه يهذى ، أو يلقيه على عواهنه ، ولكن نسبته الى قطب من أقطاب العلم المصرى تعطيه وزنا عظيما ، وتدعو الى التأمل فيه . كيف لا يكون الأمر كما ذكر وفى العالم من المساتير والقوى الكامنة ما لو كشف لنا لأحدث انقلابات خطيرة فى آرائنا وأفكارنا ، وفى طريقة معيشتنا ، ووسائل حياتنا ، ويدفع بنا حتما الى سلوك سبيل فى الآداب يكون مناسباً لتلك المسكاة العلمية ، فيتحقق حلم المتعائلين الذين يدعون أن الانسان سيبلى من الكمال الخلقى ما يصل به الى درجات الصديقين .

تقدم هذه المقدمة فاتحة للكلام عن جهاد العلماء الطبيعيين فى مسألة واحدة من مسائل العلم التى يسهر عليها ويحاول كشفها ألوف منهم فى جميع البلاد المتقدمة . تلك هى مسألة النور وما يتألف منه من الأشعة ذات الالوان المختلفة .

استقر رأى العلماء على أن النور ليس شئ غير ذبذبات ذات عدد خاص فى الاثير المائى* للكون . وقد شاهدوا أن هذا النور ليس على اللون الذى نعهده عليه إلا إذا كان مؤلفا من جميع وحداته الاشعاعية ، ولكنه لو حلل بدت فيه ألوان أصلية عددها سبعة ، ولها تصل الى أكثر من ذلك ، أو يثبت أن تلك الألوان التى نزع منها أصلية مؤلفة من ألوان ثانوية . عرف الطبيعيون أشعة فى الطبيعة حمراء اللون ونفسجية ، قرأوا أن الأولى تحدث

(١) القاموس : البحر . وفى إبدع وضع فيه غورا . ووسط البحر ومقطعه . وقد سمي البروز بآدى معجمه بانقاموس برده به البحر . فظن الناس أن كل معجم يسمى قاموسا .

من ذبذبات فى الأثير أبطأ من التى تسبب حدوث الثانية . وإذا قلنا أبطأ فلا يتخيلان القارئ أنها أقل من بصع مئات ترليون ذبذبة فى الثانية الواحدة ، وهى سرعة يصاب الانسان بالدوار قبل أن يتصورها .

قالوا وتوجد أشعة تستدعى ذبذبات أبطأ مما تستدعيه الأشعة الحمراء هى الأشعة التى فوق الحمراء ، وأخرى تستلزم ذبذبات أسرع مما تستلزمه الأشعة البنفسجية هى الأشعة التى فوق البنفسجية .

وقد تمكن علماء الطبيعة من توليد هذه الأشعة ، وتمكسوا من دراسة خصائصها ، فرأوا أنها تعقم المياه الملوثة بالميكروبات تعقيمًا عظيمًا ، وتطهر المخلّلات تطهيرًا ليس يعدلها فيه أى مطهر غيرها . وقد دهشوا حين رأوا أنها تنشط الهضم للانسان تنشيطًا كبيرًا . ورأوا أن من خواصها شعاع السرطان وغيره من الادواء العضالة .

يظن بعض الناس أن الشمس هى مصدر النور دون سواها . ولكن ثبت أن فى أعين بعض الحيوانات نورا ذاتيا غير مقتبس من نور الشمس كما هو الحال فى آحاد القفصيلة البحرية فانه ينبثق من أعينها نور يكفى لأن ينير طريقها فى الظلام الدامس .

وقد كان الناس يظنون ان الحياة فى البحار لا توجد بعد عمق أربعائة متر لعدم سريان الأشعة فى كتلة الماء الى أبعد من هذا المقدار . ولكن تبين للعلماء خطأ هذا الظن ، وثبت وجود ضوء وحياة الى أبعد الأعماق .

قال المؤلف الكبير (ساج) الفرنسى فى كتابه (منطقة الحدود) :

« إن زيادة أعماق البحار قد هدمت كل هذه الآراء كما هدمت تأكيدات العلماء الأقدمين الذين كانوا ينكرون وجود السمكتين ، لأنهم لم يكونوا يدركون وجود أنامى أحياء يعيشون ورءوسهم الى أسفل ، حتى أثبت لهم علم الطبيعة أنه ليس فى الوجود فوق ولا تحت . وفى الواقع أن ما نسميه نحن بتحت هو ما يكون تحت أقدامنا بسبب جذب الأرض إيانا كما تجذب إليها جميع الأجساد على السواء ، وما نسميه نفوق هو ما فوق رؤوسنا .

« وإنه لتوجد فى جميع الأعماق البحرية الى بعد سبعة آلاف متر حركة نشطة للحياة . وفيما تحت خمسمائة أو ستائة متر تعيش الحيوانات البحرية فى حالة حماية تامة ، ولكن ليس لأن الضوء معدوم فى هذه الأعماق ، ولكن لأن أشعة الشمس وإن كانت لا تنزل الى أبعد من تلك المسافة فإن الكائنات هناك تكون مضيتة بذاتها . من هذه الكائنات ما هو قار ثابت ويضئ ما حوله على مثال المنارات الى مسافات بعيدة ، بحيث إن تلك الأعماق البعيدة لا تكون مضيتة لحسب ، ولكن لمستارها ألوانا محمية لا يوجد لدينا شئ يعطينا فكرة عنها . وإنه ليجد فى تلك الأعماق من زهرق الاليريس والبوليبييه ما لها من النور ما يكشف نور عشرين مباراة

بحيث لا يحتاج الغواصون هنالك الى ضوء . وقد جلب الغواصون بعض تلك الازهار المصينة الى بعض المعامل العلمية ، فلما أحدث الظلام ظهرت منها أضواء كانت ذات منظر لا ينفد التعجب منه .

« وقد اعتقد العلماء مدة طويلة أن جميع الكائنات الحية فى حاجة الى الهواء لتعيش ، ولكن تبين الآن أن من الحيوانات ما ليست فى حاجة الى الهواء بل منها ، كالحیوانات المسماة (أنايروبي) ، ما يقتلها الهواء .

« وكانوا يتخيلون أن الأسماك لا تعيش إلا فى الماء ، ولكن الباحثين قد اكتشفوا حديثا فى رمال الصحراء الافريقية نوما من السمك يعيش فى خلال الرمال كما يعيش السمك المعروف لنا فى لجج البحار . وقد رثى أن البدوين يصطادون هذا السمك الرملى بالسارية والطعم . مع أن العالم فى حاجة اليها على حد سوى ، لأنها تفتح لعقولنا آفاقا جديدة لفهم الوجود الذى نعيش فيه على حقيقته ، وتعد أرواحنا بما هى فى حاجة اليه من نفحات الجمال المعنوى .

ومن المجيب أن بعض الناس يتوهمون أن التوغل فى العلم الطبيعى يوقع صاحبه فى الالحاد لا محالة لما يبينه من علل الموجودات ، وتسلسل وجودها ، ورجوعها كلها الى علة واحدة هى القوى الطبيعية الخ الخ .

وهذا وهم عظيم على التقليل فيما يتعلق بالعصر الحاضر ، فإن علماء الطبيعة اليوم بعد ثبوت تحال المادة وفنائها ، وبعد قيام الدليل على أن المادة ليست بشئ غير دهبذات ذات عدد معين فى الاثير ، وبعد تحطم جميع المدركات القديمة على الجوهر الفرد والمذاهب التى حاول بها أصحابها تحليل وجود الكون ومافيه الخ الخ ، بعد هذا كله فقد الالحاد أقوى أركانه وأصبح لامرتركز له من العلم يقوم عليه .

وقد حدث فى مدى هذه الحسین السنة الأخيرة من التطور العقلى فى هذه السبيل مالا كان يتمور حصوله فى قرون كثيرة . ناهيك أنك لا تستطيع أن تصادف واحدا من أقطاب العلم يهزأ بالمعتقدين فيما وراء الطبيعة ، أو بالمقيمين للدين على شرط أن لا يكونوا من المنتظمين .

هذه الحالة العقلية سترداد رسوخا وذيوها بين الناس ، وهى مقدمة لتطور آخرى فى بعد حين ، وهو الذى سيبلغ فيه الأدب المعنى أرفع ما قدر له ، وفى هذا العهد تتحلل الحقائق الالهية ويصبح كل ما فى العلم أدلة لها ، لا شبا عليها ، وليس هذا العهد بعيدا

محمد فريد وجدى

حفظ النفس والاهل من الهلاك

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليهم الملائكة غلاظ شداد لا يعمون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون » :

تعاليت ربى ما أسمى حكمتك ، وأعظم رحمتك بالإنسان ! أوجدته فى هذه الحياة ليؤدى فيها رسالة الخير والعمل الصالح ، وإن أمرها لجد حطير ، يتطلب منه عزيمة واستقامة وحزم رأى ، فسيته كى يؤدبها على أحسن وجه الى محاطر الحياة الوعرة ، وفتنها المهلكة ، ليأخذ حذرته حتى لا ينقطع عن القافلة السائرة فى طريق الحياة . فسجت له بشريعتك السمعة درعا من الخلق الكريم والشيم الصالحة يقيه من لبسه عوادي الأيام ، وأتت له من هديها مسارا يضيء له فى دجى الحوادث بحجة الخير وسبيل الرشاد .

أقرا هذه الآية فيأخذنى جلالها ، ويتجلى لى الكرم الإلهى فى حسن عنايته تعالى رب الأسرة ، فهو منها بمثابة أصل الشجرة من الأغصان إذا سلم سلمت معه ، وعنايته بتلك الرعية الصغيرة (الأسرة) حيث أمره بحفظها ودفع الخطر عنها ، وهل الأمة إلا الأسرة مجتمعة وبصلاحها تصلح ؟ قالوا الحكيم ينادينا بوصف الإيمان — ومن ثمراته الحكمة واليقظة والحزم وتقدير المسئولية والعمل لفد — أن نحفظ أنفسنا وهى وديعة لله عندنا ، وكأعضاء فى جسم الأمة فيجب أن تكون صحيحة قوية عاملة للخير الخاص والعامة ، وأن نحفظ أهلينا وهم قرابتنا فى الرحم الخاصة رحم النسب ، أو الرحم العامة رحم الدين ، أو الأعم من ذلك كله رحم الانسانية . يأمرنا أن نرى هذه الأرحام جميعا بأن نقيها ونحفظها من السار نار الدنيا : الأمراض وضنك العيش ، ونلأيا الحياة المتولدة من الآفات الاجتماعية والأخلاق الذميمة التى تودى بصاحبها فى درك الشقاء العاجل . ونار الآخرة التى أعدت لمن أهمل النظر والتقدير والعمل بالمفاد « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . وقد قالوا إن الأمر بالشئ أمر بتحصيل أسبابه ونهى عن سده ، أملا نكون إذا مامورين بأن نحصل لأنفسنا وذويتنا ما يسعد الجميع من الخير والآداب والفصائل ، ومنهين عما يقوض بناء الأمم والأفراد ويهدم كيان الشعوب من المفاسد التى تحمل فى طيها عوامل الفناء ، فيستخلفنا الله فى أرضه ، ويمكن لنا ويدافع عنا « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »

إن واجب الرأية للأسرة فى حسن تربيتها وكفالتها ودفع الفوائى عنها لا يقل عن واجب النفس ، فالمصلحة متضامنة والمقايمة مشتركة ، فهناؤه بهنائها ، والصد بالصد فى الأولى والآخرة .

وفي السنة النبوية « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول ، كلهم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .
وإن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظه أم ضيعه . اللهم لك الحمد : لقد أبنت طريق الخير ،
وأرشدت وحذرت من سواء ونصحت ، فلا عذر لمن ذهب بعد ضحية الاقراط والتفريط .

لقد تقع عينك على مريض الزهري أو السيلان صريع الزنا ، وترى مفلساً يبيع متاعه ،
وعقاره ضحية الاسراف الموقع في أحضان الدين أو عدم الاستقامة ، وتصر فاقده العقل والصحة
ضحية الخمر والمخدرات قد أضاع وراءه عائلة وتركها مائسة محزونة ، وتعلم بشخص طريد المجالس
يتسوق الناس الاحتجاج به لافساده بينهم بالجميمة أو لسكده بحياته وسوء طويته ، وتسمع
بآخر يشكو عقوق أولاده وفسادهم كباراً وقد أهلهم ودلهم صفاراً ، وتغيرهم بين مستفيها
من وقوع شريكته في أحابيل المفسدين بعد ما ترك لها الحبل على الغارب محسناً بها انظن .

وأمثل هؤلاء التعماء كثيرون ، فتهتم أن ترثي لحاطم فلا تلبث أن تسمع نداء الصمير قويا
حالياً : إنه القصاص الإلهي الحق نزل بهم ، فما ظلمهم القدر ولا غبنهم المجتمع « وما ظلمهم الله
ولكن كانوا أنفسم يظلمون » . وإنه لتصدق للحكمة القائلة « إن كل ساعة تمر بنا تحمل معها
جراً عادلاً لما نحن فيه » . وتوارد عليك الآيات السريعة « وقمنا من افترى » « إنه لا يفلح
الظالمون » « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » .

ويحسب كلمة الامام للغزالي « إن الشهوات والمعاصي أفاع مهلكة ومموم قتالة » وإن نهى
الشارع لنا عنها كنهى الوالد ولده عن الوجود بشاطئ البحر خوفاً عليه من الغرق . هذا مثل
مما يحل في الدنيا بمن خالف أمر ربه ، ولم يق نفسه و أهله من الهلاك الحسي والمسموي ، ولعذاب
الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

وفي كلمة موحدة أحب من شناسا أن يرفعوا عن أنفسهم غشاوة الهوى والطيش والجهالة ،
فيسيروا على مبدأ خافي قويم لأنفسهم وأسرهم والمجتمع ، فيؤدوا الواجب ويرون الفضيلة
والذيلة بصورتها الحقيقية ، فيندرون العاقبة ويختارون ما هو أجدر بالشرف وحسن المسأل
وما فيه إرضاء ربهم ورفع أنفسهم وذوهم وأمتهم ، ويتعففوا عن الدنيا معرضين عما فيها
من لذة متوهمة عاجلة انتفاء لوخيم العاقبة ، ذاكرين كلمة سيدنا عمر الخالدة « رب شهوة
ساعة أودنت حزناً طويلاً » . وليحذر أن تجرته عليها بيئة فاسدة أو يباحة لا رقيب عليها ،
فقد ورد « طوبى للغرء » أى المصلحين بين قوم مفسدين . وفي القرآن الكريم « وأما من
خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى »

عبد الواحد إبراهيم

الواعظ العام لمركز الصف

تاريخ الادب العربي

في أواخر الدولة العباسية (١)

بلغت علاقة النهضة الأدبية وارتباطها بالثورات السياسية في البلاد الإسلامية درجة لم تعرف من قبل في جميع الممالك المتعددة ؛ وبدى أن الأدبيات الشعبية لم تكن تتأثر الى هذا الحد تعاليم الرضاة الأمراء وشبهوات الحكماء ، بل إنها ازدهرت مستقلة بصدده عن المؤثرات السياسية ، ولكن مثل هذه الأدبيات الشعبية لم يصلنا منها مما يرجع الى العصر القديم إلا القليل اليسير ، ولم تظهر لنا تعبيراتها وأفكارها إلا في العصور المتأخرة ، ولم تكن طلبة الشعراء وحدهم هم الذين يتبعون بلاط الأمراء ، بل شاركهم في ذلك طبقة العلماء الذين اضطرتهم الأسباب المادية الى الانجلاء الى أصحاب السلطان ممن اجتمعت لهم أسباب السلطة والنفوذ ، فكان عدم وجود تجارة منظمة للكتب سببا رئيسيا للأدباء والعلماء يلجأون الى بلاط الأمراء ودوائر الحكماء ، يستظلون بمظلتهم ، حرصا على أسباب الحياة المعاشية .

فلما ولت الخلافة من بغداد في القرن الرابع من الهجرة وزالت تبعات ذلك أهميتها السياسية ، وأخذ الحكماء في الولايات الإسلامية المتعددة في تأسيس إمارات مستقلة ، بدأت كذلك الحياة الفكرية تنقذ مركزيتها ، وكما تعددت نواحي هذه الحياة وتلوت أشكالها الخارجية كلها فقدت من قوتها الداخلية ، لجأ على أثر الشعراء البارزين الذين ظهروا في القرن الثالث من الهجرة طبقة أخرى من الشعراء المقلدين الذين برعوا في صياغة الأسلوب ولكنهم كانوا بلا شك افقر تفكيريا وأقل ابتكارا . النصف أمثال هؤلاء الشعراء حول بلاط الأمراء مستبدلين بإنتاج قرائح الشعراء السابقين ما جرى به العرف في المدح في هذا العصر ، ولكن ما لبث أن قامت تيارات فكرية معارضة لهذه الحركة الخاطئة في تجديد فنون الأدب ، وكان أول ظهورها في غرب البلاد العربية ، محاولة تمهيد أوضاع الشعر الشعبي في أشكال فنية خاصة ، ولكن ضاعت مجهودات القائلين بأمر هذه النهضة سدى ، ولم يكتب لها من النجاح الا قدر يسير بسبب إغراض جماعة الأدباء عنها وعدم إدراكهم صراميتها وانجهايتها .

أما الأدبيات النثرية فكانت في بدء هذا العصر واقعة تحت تأثير النثر الفني ، الذي بلغ أعلى درجات التوفيق في المقامات ، ولو أنه وجد طريقه من قبل أيضا الى المؤلفات الجديدة مثل

(١) تكملة المقال المنشور في الجزء الرابع (ربيع الثاني سنة ١٣٥٦) مترجما من الألمانية تنالا من كتاب « تاريخ الادب العربي » المستشرق الألماني الكبير الأستاذ الدكتور « بروكلمان »

كتاب المقدسي في علوم تقويم البلدان ، فلما أدخل الآن على المكاتبات الرسمية والرسائل الحكومية ، زالت من أمامه العقبات الكثيرة ، وظهر في مؤلفات التاريخ التي كثرت فيها التراجم وسير الحوادث التاريخية الهامة التي تتلاءم معها عبارات المديح المقصود .

أما اثره العلمي فقد أمكن إيماده عن هذا الطريق الضال ، ولكن قيمته الحقيقية في جوهرها لم تتماثل مع القدر الضخم الذي ظهر منه في هذا العصر ، فلم يخرج أغلب المؤلفات التي ظهرت فيه مما عرف عن القدماء من علوم ومعارف ، واقتصرت مجهودات المؤلفين على تحويلها وإظهارها في أشكال أقرب تناولا وأسهل مأخذا ، دون زيادة أو تعمق ، ولم يزد في ذلك سوى الغزالي في العلوم الدينية ، فكان كثير الاستقلال في أفكاره ، ولو أنه كان يرى غاية رسالته في التوفيق بين آرائه الفلسفية وتعاليم السنة القديمة .

ابتدأ الشعر في هذا العصر أبو العلاء المعري وهو آخر لحول الشعراء الذين يمثلون العصر الذهبي من حضارة الشام ، فكان حداً فاصلاً بين عصرين متباينين . ولد أبو العلاء بمدينة البمان عام ٣٧٣ هـ وفقد بصره في طفولته ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بدراسة العلوم اللغوية وفنون الشعر في موطنه وفي مدينة حلب ، وكان يجتهدا كل الاجتهاد ، فأنكب على متابعة الدرس ومواصلة البحث والتنقيب بسكياته ، وفي عام ٣٩٨ هـ رحل الى بغداد ، وكانت تعد أبرز مدن آسيا الصغرى في الحياة الفكرية فلم يصادفه نجاح كبير في أول الامر ، إلا أنه استفاد من هذه الرحلة بمعاشرته كبار رجال الفلسفة وأخذ عنهم الآراء الفلسفية الحرة التي كانت دائعة في هذا الوقت ، ولكنه بنى بالرغم من ذلك غامد الذكر في الحياة الفكرية في حضرة البلاد ، فآثر الانعقاد عن الحياة الظاهرة في مقر الخلافة ، وصم على الرجل خصوصاً بعد أن بلغه خبر مرض أمه ، فلم يبلغ موطنه حتى كانت فارقت الحياة ، ومنذ هذا التاريخ عاش منعكفاً في بلدته الصغيرة بالشام بعيداً عن الناس مكتفياً بشهرته المحلية الى أن توفي عام ٤٤٩ هـ . ولما كانت مؤلفات المعري باقية تقريباً كاملة حتى هذا العصر ، فإن هذا الشاعر يتمتع الآن بشهرة لحول الشعراء البارزين ، ولو ان هذه الشهرة في الحقيقة إنما ترجع في الأكثر الى أن معرفتنا به أكثر من معرفتنا بغيره من الشعراء ، وهو لم يحل كثيراً عن متوسط طبقة الأدباء الكثيرين في هذا العصر ، ولم تخرج أشعاره في مقتل حياته عن محاكاة للشعر القديم ، ولم يبلغ الشهرة من ناحية جمالها الشعري بقدر ما قصدها باستعماله التعبيرات النادرة والتراكيب الصعبة ، كما لجأ إليها من قبله مواطنه المتنبي ، الذي وضع أبو العلاء تفسيراً كاملاً لديوانه ، وكان يضطر في بعض الاحيان الى تفسير أشعاره بنفسه لكثرة ما فيها من الاسهام والتعقيد ، كما كانت موضع بحث ودراسة علماء اللغة المتأخرين ، وأما أشعاره المتأخرة فامتازت بالمحسنات العظيمة ، وكانت تتم عن فلسفته وآرائه الحرة ، التي جمعت عقيدته الدينية موضع شك الكثيرين من علماء الاسلام .

وفي الواقع كان أبو العلاء الممرى لا يتقيد كثيرا بتعاليم الاسلام وأوامره ، وليس أدل على ذلك من محاولته محاكاة القرآن ، وهو عمل لا يرضى به مسلم بل يعده كفرا وسبا في الذات الالهية ، وكان كثيرا التناقض في فلسفته كما ينضح ذلك في مجموعة مواعظه المنعددة في الزهد والنسك ، ومن مؤلفاته الهامة رسائله التي وضعها بالثر المسحوق موجهة الى الشخصيات البارزة في الادب والسياسة معالجها بها بعض العلوم اللغوية والتاريخية ، وامتازت هذه الرسائل بدقة بحثها وصعوبة موضوعاتها مما يدل على سعة اطلاع مؤلفها ويشهد له عووبة فائقة .

ولم تقتصر بلاد الشام الى غيره من الشعراء من أمثاله خصوصا وأنه نشأت بها عدة مراكز أدبية وسياسية تحت ظل حكم الأيوبيين ، وأشهر من عرف من شعراء هذا الفصل الصالح هو عبد الملك التنوخي المتوفى عام ٦٤٣ هـ ، وترجع شهرته الشعرية الى أنه خرج على ما جرت به أقلام الشعراء من معاصريه ، فآخذ أبا نواس مثالا له في فنه مقتفيا أثره في قصر شعره على الحريات .

وفي إيران بدأت الروح الفارسية الوطنية تدب في ميادين الادب المختلفة بعد أن استعادت البلاد استقلالها السياسي في أوائل القرن الرابع الهجري ، ومنذ ذلك العهد والشعر العربي ينزل في هذه البلاد منزلة الضيف الغريب ، في بلاط محمود الغزنوي الذي اشتهر لعلاقته بالفردوسي ، ظهر الشاعر المطبوع أبو الفتح البستي فذاعت قصائده الدفينة في الإصلاح والتهديب ولاقت انتشارا كبيرا ، وتوفى عام ٤٠١ هـ

وأما الدولة السلجوقية التي اضطلعت بأعباء الوصاية على خلفاء بغداد من بعد نبي بويه ومم لها بذلك السيادة على بلاد الفرس والعراق ، فقد خلفت معها في تاريخ الشعر مؤلفات الحسن ابن علي الأصفهاني الطبراني ، وكان وزيرا للسلطان مسعود بالموصل ، فلما انتصر عليه أخوه محمود عام ٥١٥ هـ وقع الطبراني في أسره وأمر بإعدامه ، وبقيت من مؤلفاته حتى العصر الحاضر مجموعة من أشعاره في مدح سيده وولي نعمته ، وكذلك في مدح العباسي المشهور نظام الملك وبعض وجهاء الدولة الآخرين ، ولكن أشهر أعماله الأدبية هي بلاشك القصيدة التي وضعها عام ٥٠٥ هـ ببغداد راثيا حاله وتقديرات الأيام وعسوف الزمان ، وكانت هذه القصيدة تشبه من ناحية النظم قصيدة الشنفرى ، ولذا سميت مقابلة لذلك بلامية المعجم .

واشتهر كذلك من معاصريه أبو يعلى محمد بن الهيثمية المتوفى عام ٥٠٤ هـ وكان من بطانة الوزير نظام الملك ، وأكثر ما امتاز به هذا الشاعر هو تحريره مما جرى به العرف في الشعر في هذا العصر والترمه الشعراء من قواعد وقبود ، ومن أعماله الأدبية الخالدة نظم حكاية كليله ودمنة وصياغتها في شكل جديد ، فتخيل رحلة له ليلية استمع فيها الى جدل جرى على لسان

هندي وفارسي في المعاضلة بين شعبيهما وكل منهما يدلي بقصص يدعم بها حجته . ومن مؤلفاته التي حفظها لنا التاريخ أشعاره الساخرة من أحوال الزمان ، وارجوزة شعرية في لعب الشطرنج .

وأما شرق بلاد العرب فكانت موطن علي بن مقرب بن منصور الازهبي ويلتقي الى العمونيين من نسل فضل بن عبد الله الذي استوطن البحرين وآلت اليه بالانقطاع تحت حكم العباسيين بعد زوال دولة القرامطة عنها ، وبها أقام هذا الشاعر في بلاط أحد أحفاده المسمى محمد وأنه مسعود ، فكان شاعراً المخلص بمديحهم ، ولكنه ما لبث أن اختلف مع الأخير فاضطر الى الفرار ، فرحل أولاً الى الموصل وتلقى بسدر الدين لؤلؤ الأتابك ، ثم الى بغداد حيث لجأ الى بلاط الخليفة الناصر لدين الله وبه أقام بقية أيام حياته الى أن توفي عام ٦٢٩ هـ .

وأما مصر فكانت تزهر في هذا العهد بخير عصورها من ناحية السياسة والثقافة في ظل حكومة صلاح الدين ، وأشهر من رزى بها في ميدان الأدب في هذا العصر هو أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك ، وولد عام ٥٤٥ هـ ، ودخل مبكراً في خدمة الحكومة الى أن وصل الى أعلى الدرجات ولقب بالقاضي السعيد ، وتوفي عام ٦٠٨ هـ ، وقد حفظ التاريخ لنا مجموعة من اشعاره في مدح صلاح الدين وتمجيده في أسلوب تقليدي مألوف ، واليه يرجع الفضل في إدخال الموشحات في فن الشعر في مصر بل وفي الشرق عامة ، وأخذ هذا الطراز الأدبي الجديد من الأشعار الشعبية وأثار اهتمام الأدباء من قبل في غرب البلاد الاسلامية وخاصة في الأندلس ولاقى من الشعراء قبولاً حسناً ، والموشحات ضرب خاص في فنون الشعر لا يتقيد بما يتقيد به الشعر المسمى من قيود القمط أو النظم ، وإنما يعطى الشاعر مجالاً فسيحاً تظهر فيه شخصيته حرة طليقة ، ولكنه من حيث جوهره ومفرد لا يدل على التقدم . ولا زالت باقية له كذلك حتى هذا العصر مختارات من الرسائل نظمها ونثرها بمعهامته ، والبعض الآخر من القاضي الفاضل وابنه الأشرف .

وظهر في بلاط صلاح الدين من الشعراء المعروفين أبو الفضل زهير بهاء الدين ، ولو أنه لم يكن من الشعراء المبكرين إلا أنه أظهرهم اسماً وأكثرهم شهرة .

وامتازت مصر في هذا العصر بارتداد اشعار الدينية ونحوها ، فظهر فيها أكبر شاعرين دينيين عرفا في الاسلام ، وهما عمر بن الفارض والبوصيري ، ولد الأول بالقاهرة عام ٥٨٦ هـ ، وأقام زماناً طويلاً بمكة ، ثم عاد الى موطنه حيث توفي عام ٦٣٢ هـ ، وبلغ ديوانه الذروة القصوى التي وصلتها الاشعار الصوفية في البلاد العربية عامة ، وتعتبر أشعاره في مرتبة أشعار حافظ في بلاد الفرس ، بل إنها امتازت عنها بمعنوية خالصة وحاسة منقذة وطامعة معتدلة ، وابن الفارض إن أشد الخمر الصوفية في إحدى قصائده ، فان تمجيده لها كان بلاشك في المرتبة الثانية بعد العاطفة المدينية نحو الذات الالهية .

جاء من بعده شرف الدين البوصيري وكان أشهر من اختص بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولد البوصيري عام ٦٠٨ هـ وتوفي عام ٦٩٤ هـ ، فوضع قصيدة البردة التي اختصها المسلمون بميزة دينية ممتازة .

وفي شمال أفريقيا نرى أنه انتظم في سلك خدمة الاسرات المالكة في هذا العصر فريق كبير من شعراء المدح ، ونكتفي في هذا البحث بذكر حازم القرطاحي المنوفي بتونس عام ٦٨٤ هـ ، ووضع في مدح المستنصر بالله قصيدة مشهورة غنية بالتلميحات التاريخية .

وبدخول الاسلام والحضارة الاسلامية في صقلية ، ابتدأ الادباء بالاهتمام بمحاولة الشعر العربي ، فبرز في هذا الميدان في أواخر القرن الرابع من الهجرة الشاعر أبو محمد عبد الجبار ابن هديس الاردي الصقلي ، ولكنه لم يصل الى ذروة مجده في موطنه ، فانه ما كاد النورمانيون يغزون صقلية ويحتلون بها حتى فر هاربا الى أشبيلية ودخل في بطانة الملك المعتمد وكان من الشعراء السابقين ، وفي بلاط هذا الملك ظهرت موهبته الشعرية وتلقى نخبه ، فما غلبه على نعمته على أمره ووقع في أسر المرابطين عام ٤٨٤ هـ ذهب معه الى منفاه في أفريقيا ، وتوفي بعد أن عمر طويلا عام ٥٢٧ هـ .

ولاقى الشعر في بلاد الأندلس في هذا العصر منبعا خصبا وحياة زاهرة ، ولقد عرفت هذه المستعمرة القصبة من المحتللات العربية منذ بدء الفتح الاسلامي بالاهتمام بالادب والعناية بالفنون ، ولكن المقادير السيئة التي اعترضت الثقافة الاسلامية بعد ذلك كانت عاملا رئيسيا في ضياع معالم بدايتها الأولى ، ولم يحفظ التاريخ منها سوى النذر اليسير ، ولم يظهر لنا فن الشعر العربي الأندلسي في ضوء البحث إلا في القرن الرابع من الهجرة .

بدأت في هذا العصر دوائر الامراء المخنماة في هذه البلاد في التنافس على تمهيد الفنون وحمايتها ، وأكثر ما امتاز به شعراء الأندلس عن زملائهم في الشرق هو تحررهم من قيود الشعر القديم ، ولو أن ذلك لم يمنع عددا كبيرا منهم من تقليد هذا الأسلوب ، وامتازت هذه البلاد كذلك بنشأة طرازين شعبيين جديدين في فنون الشعر وهما الموشحات والزجل فظهرا لأول مرة في تاريخ الادب ، ولو أن معلوماتنا الحاضرة تقصر عن معرفة هذه نشأتها ، وأول من رفع قيمة الموشحات الأدبية عند بعض المؤرخين هو ابن عبد ربه المنوفي عام ٣٢٨ هـ ، ويليه في الشهرة بقرطبة يوسف بن هارون الرمادي المنوفي عام ٤٠٣ هـ ، ولم يتمكن المؤرخون من نقد أشعاره في الموشحات إذ أنه لم يبق منها شيء محفوظ حتى الآن ، ولكن من المعروف أنه لم يتقيد بما رسمه القدماء من قيود وقواعد .

ووصلت الموشحات بعد ذلك الى أعلى درجات الكمال على يد عبادة المنوفي بملقه عام ٤١٩ هـ ، وكان شاعرا في بلاط كل من بني حمود بقرطبة وبني طاهر في بلنسية ، وبقيت من مؤلفاته

حتى الوقت الحاضر موشحتان ، اتخذ ابن سناء الملك إحداها مثالا في إحدى مؤلفاته ، ولقد اهتم كثير من الأدباء منذ ذلك العهد لهذا الطراز من الشعر ، فاشتغل به فضلا عن الشعراء المحترفين رجالات الأدب على اختلافهم من أمثال ابن بادجه العيلسوف وابن عربى العالم الصوفى الكبير .

أما ثانى الطرازين الجديدين فى النظم وهو الرجل ، فجاء متأخرا من الموشحات فى بلاد الأندلس ، ويذهب بعض الباحثين فى تاريخ الأدب الى أنه كان النموذج الذى نسج على منواله الغرب فى التمثيلات الشعرية التى عرفت فى أوروبا بعد ذلك ، والشبه القريب بينهما يحملنا على الاعتقاد بالعلاقة القوية التى تربطهما ، جاء الرجل وكانت الموشحات قد تم لها تحطيم قيود الشعر القديم ، فظهر فى عالم الأدب منذ أول نشأته برداء اللغة العامية ، وأول من ظهر من الأدباء الذين احتفظوا بهذه اللهجة العامية فيما خلده من النظم القمى هو محمد بن قزمان ، وبعد أول شعراء العربية العامية ، وكان يعنى منتقلا محترفا المدح ، وتوفى بقرطبة عام ٥٥٥ هـ ومن رجال الشعر القمى البارزين ببلاد الأندلس ممن يستحقون الذكر فى هذا العصر هبة الجعيد بن عبدون المتوفى عام ٥٢٩ هـ ، وكان حاكما جابرة صمرين أفضى بخصه بعنايته وعطفه ، فلما ولي الحكم بعد وفاة أخيه يحيى بن منصور عام ٤٧٣ هـ أسند اليه إحدى الوظائف العامة ، فلما غلبه المرباطون على أمره واستولوا على مملكته بعد إعدامه عام ٤٨٥ هـ انضم ابن عبدون الى خدمة هؤلاء الأعداء المنتصرين ، فاتخذ على بن تاشفين عمرا كفى كانا لأسراره . وشهرته الأدبية ترجع فى الغالب الى قصيدته التى نظمها فى رثاء أولياء نعمته الأولين من بنى حفص وتدهور دولتهم ، وكانت هذه القصيدة ملأى بالمليحات التاريخية ، التى قام بعد ذلك بتفسيرها بالتفصيل ابن بدرون حوالى عام ٥٦٠ هـ . وهى تمتد حتى الآن من أهم المصادر فى تاريخ الأندلس العربى .

وأما أهم شعراء الأندلس الدينيين فهو أبو زيد عبد الرحمن الفراءى ، وكان كاتما للسر عند كثير من الحكام ، فلما جاء الموحدون أمر المأمون بنفيه ، ولكنه تمكن فى منفاه عمرا كفى من اكتساب رضاء ذلك الأمير وعفوه ، إلا أنه توفى بعد ذلك بقليل عام ٦٢٧ هـ . وأهم أعماله الأدبية مجموعة من تسع وعشرين قصيدة فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومميت بالمشرقية لتشابه بداية كل عشرين بيتا منها ، وذاعت هذه المجموعة فى السودان ذيوفا كبيرا ، فحسبها المأمون هناك بالتبجيل ولا زالت تحتفظ بينهم بعزتها الدينية الممتازة .

نظام القضاء في الاسلام

وتطوره بالقياس الى تطور حاجات البشر

لعل القارئ على ذكر مما ألقنا إليه في بعض أعداد سابقة من هذه المجلة منمعلقا بالولاية القضائية للمحاكم الشرعية ، إثر صبيحة اوقعت من جمهرة من الناس حين وضعت المادة ٢٩٣ من قانون العقوبات الجديد تطبيقا لمبدأ المساواة بين التشريع المصري والتشريع الاجنبي على أحدث الأساليب وأعقبا ، استهزاء باحكام المبادئ الحديثة وقضاياها كما يقولون .

لكن رجال الدين من قضاة ومحامين يرون أن في وضع هذه المادة غضا من قيمة المحاكم الشرعية واقتطاعا لجزء كبير من كيانتها وطبيعة تصرفاتها وإجراءاتها ، حتى لقد صرح مسئول كبير في القضاء الشرعي العالي بأن تطبيق هذه المادة يقتطع من قضايا المحاكم الشرعية حوالى أربعين في المائة . وبهذه أن المادة ٣٤٧ من القانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ الخاص بترتيب المحاكم الشرعية تقول في صراحة وجلاء :

« إذا امتنع المحكوم عليه من تنفيذ الحكم الصادر في النفقات أو في أجره الحضنة أو الرضاعة أو السكن يرفع ذلك الى المحكمة الجزئية التي أصدرت الحكم أو التي بذارتها محل التنفيذ ، ومتى ثبت لديها أن المحكوم عليه قادر على القيام بما حكم به وأمرته ولم يعتزل ، حكمت بحبسه ، ولا يجوز أن تزيد مدة الحبس عن ثلاثين يوما ، أما إذا أدى المحكوم عليه ما حكم به أو أحضر كفيلا فانه يخلى سبيله ، وهذا لا يمنع من تنفيذ الحكم بالطرق الاعتيادية . »

وهي صريحة في تنفيذ الأحكام في مواد النفقات بأنواعها الثلاثة طبقا لأحكام الشريعة السمحة ، وقد كانت الولاية القضائية للمحاكم الشرعية في أزهى عصور الاسلام عامة شاملة ، على معنى أنها كانت هي المحاكم المنفردة بالفعل في قضايا سكان البلاد على اختلاف ملابهم ومحلهم وتنوع حاجاتهم ورغباتهم لا فرق في ذلك بين أن تكون الخصومة في مسألة من مسائل الأحوال الشخصية أو متعلقة بمعاملات مدنية أو تجارية كما كان مما يدخل في حدود اختصاصها يومئذ دون سواها الفصل في مواد القصاص بأنواعه ومواد التميزر بأنواعه الذي قد استحال الآن مملا من أعمال قانون العقوبات . وهذا التصرف من غير شك أملى على المجتمع فترة طويلة من الزمن أقطع الأدلة على صلاحية الشريعة السمحة لكل عصر وجيل ، وقدرتها على مسايرة المتغضيات والملازمات التي تتمخض عنها حاجة البشر في مرافقه المختلفة ومعالجتها المتنوعة .

ولقد كانت تلك الصلاحية البارزة في كل ناحية من نواحي الشريعة الاسلامية من الحوافز

القوية في كل زمن على تلمس ما تمس إليه حاجة المجتمع ليمسى جزءا من قانون إسلامي يصبح بتنازع الأيام مجموعة من الأحكام الشرعية التي تطبق على سكان البلاد .

نقول : إن تلك الصلاحية البارزة ما فتئت في تقدير المصلحين في كل عصر هدف كل حافل ومرمى كل فاعل ، غير أن الأسباب لم تنسق بعد لتحقيق ذلك المطلب الاسمي .

لذلك أخذت الولاية القضائية المحاكم الشرعية تتخلص رويدا رويدا وبخاصة بعد إنشاء المحاكم الأهلية على غطها الحديث بحيث استعانت الولاية المحاكم الشرعية ولاية استثنائية لا يدخل في اختصاصها إلا ما كان متعلقا بعود الأحوال الشخصية حتى إن أولياء الكلمة يوم وضعوا أول لائحة لترتيب المحاكم الشرعية وقفوا من هذه اللائحة موقف البار بها الحذب عليها ابتغاء التوسيع في تناول نصوصها وأحكامها واتقاء لما يقف في سبيلهم من عقبات مستعصية واعتراضات غير مواتية ، فقد كانت هناك سلطة المستشار القضائي في وزارة الحفانية مرهوبة الجانب لا يمكن تجاهلها والغض من تقديرها ، فاعترض على إدخال باب الوقف وباب الهبة والوصبة في مواد الأحوال الشخصية لما يبدو من فرق كبير بينها وبين تلك الأحوال المتعلقة بذات الإنسان .

غير أن الولاية القضائية المحاكم الأهلية وقد أصبحت ولاية شبه عامة قد أقامت وزنا لعمل المحاكم الشرعية تلقاء ما كان يبدو من رغبة متوثبة عند أولياء الأمر نحو المحاكم الشرعية حتى أشاروا بوضع المادة ١٦ من قانون ترتيب المحاكم الأهلية ، وتلك المادة تجمل مواد الهبة والوقف والوصية داخلة في اختصاص الولاية القضائية الشرعية .

وقد ظلت المحاكم الشرعية تمارس اختصاصها في حدود ولايتها القضائية بما في ذلك الفصل في قضايا غير المسلمين من المتقاصين الذين ليست لهم طوائف ملية تفصل في قضايا أحوالهم الشخصية ، وقد كانت سلسلة التجارب خلية بأن تبرز بين كل فترة وأخرى من الزمن أحداثا جديدة تتطلب من المشرع المصري تقديرا ورعاية ، حتى أن الأمر قد اختلط كثيرا في بعض العهود على كثير من القضاة الشرعيين في دائرة محكمة مصر الشرعية ومحكمة الاسكندرية والمصورة ، فلا يدرون طريقة تترممونها في معاملة الطوائف غير الاسلامية معاملة قضائية تكفل إيصال الحقوق إليهم ، وتبعث الطمينة الى قلوبهم ، فكاتب بعض حضرات القضاة الشرعيين الى وزارة الحفانية يستوضحها المنهاج الذي يسير عليه في التقاضي لبعض الطوائف غير الاسلامية ، ولائحة ترتيب المحاكم الشرعية رقم ٧٨ واللائحة التي سبقتها سنة ١٩٠٩ ليس فيها ما يكفل بعث الطمينة الى الطوائف غير الاسلامية وبخاصة لائحة سنة ١٩٠٩ فقد نظرت في مجلس شوري القوانين نظرة محلي لا تتفق وما لمواد تلك اللائحة من الخطورة وشديد مساسها بمصلحة الجمهور ، وإن وقع ذلك من المجلس يومئذ مقترنا بحسن النية اعتمادا على اللجنة التي وضعت تلك اللائحة بوزارة

الحقانية، وقد كان قوامها أثباتا في الفقه الاسلامي وأثباتا في الفقه الوضعي المعاصر وأثباتا في الاجراءات المتعلقة بتنفيذ الاحكام، فبمقتى وزارة الحقانية بمنشور رقم ٥٠ بتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٩١٤ وزعته على المحاكم الشرعية المنبثة في أنحاء القطر بشأن الطوائف غير الاسلامية التي هي الارثوذكس والبروتستانت والكانوليك وجعلها محنمة بالفصل في قضايا الاحوال الشخصية لغير المسلمين من هذه الطوائف الثلاث، وحظر على المحاكم الشرعية أن تنظر في قضايا أحوالهم الشخصية ما عدا قضايا الميراث إلا إذا اتفق الخصوم عليها.

ومن ذلك الحين أخذت الطوائف الثلاث لغير المسلمين تنظر في قضايا الاحوال الشخصية للأفراد التابعة لها طبقا لأحكام قوانينها الثلاثة الصادرة بأوامر مالية في تواريخ مختلفة، وهذا من غير شك إجراء إن دل على شيء فإنه يدل على أن الشريعة السمحة كفلت حرية الناس وطمانيتهم حتى تركت لأصحاب النقايد الكنسية الطريقة التي يختارونها لتكون منهاجا لتقاضيمهم ما دامت الظروف غير مواتية لتكون الولاية القضائية العامة في المحاكم الشرعية. تطورت بعد ذلك التواريخ الاحوال واستعمال الحال فنشأت مشاكل عن تنفيذ ذلك المنشور بين الطوائف غير الاسلامية، وهبت طوائف لها مجالس مالية قائمة تفصل في قضايا الأفراد التابعة لها وفي أحوالها الشخصية، غير أن وزارة الحقانية لم تعترف بها، فلجأ بعض المتقاضين من الطوائف غير الاسلامية وغير الطوائف الثلاث المعترف بها الى المحاكم الشرعية تستصحبها في بعض مواد أحوالها الشخصية، فوقف القضاء غير مستهدين بما يكشف عنهم هذا اللبس وذلك الإهمام أيقضون لهذه الطوائف غير الاسلامية وهم من غير الطوائف الثلاث المعترف بها، فهذا يقتضي تعليقات تصدر إليهم من الجهات المختصة، أم يقصون بعدم اختصاص المحاكم الشرعية لأن منشور رقم ٥٠ إنما كان خاصا بطوائف معينة، وهؤلاء المتقاضون ليسوا من تلك الطوائف، فكان القضاء بين موقفين متعارضين لا يدرون أيهما أجدى على سير العمل في المحاكم الشرعية ولا أكثر مساسا بمصلحة المتقاضين من غير المسلمين، فكتبوا بذلك الى قلم التفتيش والمراقبة القضائية الشرعية في وزارة الحقانية، فتولى كبير المفتشين كتابة مذكرة برأيه في مثل تلك الحالة المبهمة ورفعها الى وزير الحقانية، ثم صدر بعد ذلك منشور رقم ٤ وزع على المحاكم الشرعية بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٩٢٣ بتعيين اختصاص جهة التقاضي لغير المسلمين من رعايا الحكومة المحلية إذا اتحد الخصوم مذهبا.

تلك معلومات لا تسهل الاطاحة بها، لا بعد عناء ومراجعة للحموعة الرسمية وغيرها قد أسديناها الى إخواننا المحامين الشرعيين وكثير من القضاة الشرعيين وغيرهم. وسنعالج هذه البحوث في روح الشريعة ومداها والمقارنة بينها وبين قانون المرافعات في المحاكم الأهلية الأعداد المقبلة إن شاء الله.

عيسى ط
المحامى الشرعى

تقرير بعثة الهند

— ٥ —

المعلوم في الهند

التعليم العالي :

وباتهاء الطالب من مرحلة التعليم الثانوي ، ينتقل الى المرحلة التي تليها وهي التعليم العالي ، حيث يتبحر في العلوم العربية والدينية ، ويصبح أهلاً لتلقي علوم أعلى من مستوى التعليم الثانوي .

ومن أمثلة ذلك : المدرسة الاحمدية في بهوبال ، ومدرسة طابوري في دلهي ، وسلطان المدارس في لكنو . ومدة الدراسة في هذه المرحلة ثلاث سنوات ، يتقدم في ختامها الطالب الى امتحان تجريه الحكومة لنيل شهادة دينية إسلامية « مولوي فاضل » تعادل شهادة « الماتريك » في مناهج التعليم المدني ، وتؤدي الى حصد ما « شهادة » تمام الدراسة الثانوية في الأزهر .

التعليم الجامعي :

ثم تلي ذلك مرحلة التعليم الجامعي ، وفيها يتوسع الطلبة في العلوم العربية وعلوم الدين ، حيث يدرسون سنتين لنيل الشهادة المتوسطة ، ثم ثلاث سنوات تنتهي بشهادة « علامة » ، وهي تقابل درجة « بكالوريوس » في التعليم الجامعي المدني ، ثم تليها مرحلة تخصص : في التفسير ، أو الحديث ، أو المأثور ، أو التشريع الاسلامي ، أو الأدب والتاريخ ، أو التبايع .

ومن الجامعات التي تجري على هذا النظام : دار العلوم بديو باند ، وندوة العلماء بلسكنو ، والجامع العباسي ببهاولبور ، على أن ثمة فوارق كبيرة بين هذه المؤسسات الثلاث :

فدار العلوم بديو باند : تجري على ما كان الأزهر يجري عليه منذ مائة سنة تقريباً ، لم يدخل على مناهجها أي تعديل ، وهي جامعة على النسق القديم ، وإن كنا قد آتسنا في رحاها استعداداً للأخذ بالجديد ، كما ورد ذلك في خطبهم ، إلا أن الروح العامة في هذه الجامعة الدينية ، ما تزال غير آخذة بالأساليب العصرية ، في الجمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، ورجال هذه الجامعة من الطراز القديم أيضاً ، يعيشون في عزلة عن العالم ، شأنهم شأن علماء مصر في القرن الماضي .

ويلحق خريجو هذه الجامعات بالوظائف التي تتطلب مثل صفات هؤلاء المتخرجين ؛ وتكاد الصلة تكون منقطعة بينهم وبين خريجي الجامعات المدنية ؛ ويعتبر رجال ديوباند مثلاً حياً لبعده عن رجال الدنيا .

ولا ينجو رجال الدنيا من لز هؤلاء العلماء وغموزم ، والتعليق على سلوكهم ، بل تهادى بعضهم فتمت هؤلاء بالكفر لمدم أخذهم بمذهبهم في الدين ؛ ويسى خريجو هذه الدار بـ « الديوبانديين » .

أما الجامع العباسي ؛ فهو مؤسسة أنشأها سمو « نواب بهاولپور » ، لتكون أزهر جديداً في بلاده ؛ وينسب سمو النواب إلى الدولة العباسية ، ولذلك ظهر شغفه باللغة العربية وتعلمه بكل ما هو عربي إسلامي . وقد تعرف شئون الأزهر في مستهل القرون العشرين بواسطة وزير المعارف « الميجر شمس الدين » ، ووزير المهام الخاص « الكولونيل قريشي » ، وعمل بمشورتهم ، فأنشأ هذه الجامعة العباسية ؛ ومناهجها أقرب ما تكون إلى مناهج الأزهر قبل القانون رقم ١٠ .

ولسمو النواب ورجال حكومته عناية كبرى بهذه المؤسسة ، ويرجون أن تؤدي لبلادهم ما يؤديه الأزهر لمصر من خدمات ؛ ولكن رئيس هذه الجامعة رجل من رجال المدرسة القديمة . أما ندوة العلماء في لكتو : فهي أزهر حديث جمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، على نسق ما يفعل الأزهر اليوم ، ورجال هذه المؤسسة من أنصار القائلين بأن علماء الدين لا يستطيعون القيام بخدمة الدين خدمة صحيحة إلا إذا استألفوا إلى جانبهم علماء الدنيا واختلطوا بهم . وهم يجمعون بين التقافتين على أحسن ما يستطاع ، والاشراف على شئون هذه الدار عمائل للاشراف على شئون الجامعات المدنية ، فتديرها ثلاثة مجالس :

١ — أراكن انتظامي . ويتكون من ٧٤ عضواً ، بعضهم من خريجي الندوة الذين يحتلون المراكز الكبرى في مختلف أنحاء الهند ، والبعض الآخر ممن ترى الدار فائدة من ضمهم للاستشارة بأرائهم العلمية أو الادارية ، أو بنفوذهم الديني أو السياسي ، أو غير ذلك .

٢ — المجلس الانتظامي . وهو الهيئة التنفيذية ؛ ويتنخب أعضاؤه من بين أعضاء المجلس الأول ، وهو الذي يشرف الاشراف الكامل على أمور الجامعة بين فترات انعقاد « أراكن انتظامي » ، ويتقدم إليه بأعماله .

٣ — ويتنخب من بين أعضاء المجلس الانتظامي عدد من النظام . فهذا ناظم الندوة « الدكتور عبد الملى » قد نيظت به إدارة الجامعة ؛ وهذا ناظم المالية قد نيظت به الاعمال المالية ، وهكذا ؛ ولا يتناول هؤلاء النظام ولا غيرهم أجوراً مما يؤديونه لهذه المؤسسة من خدمات .

وندوة العلماء قد خرجت اليوم عدداً لا يستهان به من العلماء ، يعيزهم من غيرهم - من خريجي المعاهد الأخر - إلمام بثئون الدنيا ، واتساع في الأفق العلمى . وللدكتور عبدالملى رأى فى أعمال التبليغ زجىء عرضه إلى حين .

ومن فطاحل خريجي هذه الجامعة : السيد سليمان الندوى ، وهو من قادة الفكر بين المسلمين ، ويدهش فى مدينة « أعظم جار » ، ويتتبع سير الأمور فى العالم الإسلامى بمساية ، ويعرف من الأزهر ونهضته ما لا يعرف كثيرون .

ومنهم : السيد هاشم الندوى ؛ وقد وقع عليه اختيار صاحب السمو المالى « نظام حيدر آباد » لإدارة دائرة المعارف العثمانية ، وهى مؤسسة جديزة النفع ، تسهر على نشر العلوم والمعارف الدينية والعربية ، بنشر الكتب القديمة فى الدين والأدب بها . ويطوف السيد هاشم الندوى طوافاً منتظماً بكافة المكتبات العامة والخاصة بالهند ، لاختيار المخطوطات التى يراها لازمة لطلاب الدين الإسلامى واللغة العربية ، وطبعها ونشرها على نفقة الدار .

أما « فرنجى محل » : فمدرسة دينية طالية يديرها جماعة من العلماء على نسق أهل ديوبند ، وهم يعتبرون بأنه لم يطرأ عليهم ما طرأ على غيرهم من أساليب المدنية : كندريس العلوم الحديثة واللغة الأجنبية ؛ كما يفتنون باستقلالهم عن الحكومة فى التعليم . وقد اتخذوا « فرنجى محل » اسماً لمدرستهم ، لأن الحى الذى تقع فيه ، كان موطن الأوربيين قبل أن يخرجهم منها الملك « أورانج زيب طالمجير » .

وبلاهور جمعية خدام الدين ، وتسمى مدرستهم « تاسم العلوم » وهى مدرسة على نسق ديوبند أيضاً ، وقد أصدروا طبعة للمصحف الشريف باللغة العربية ، وعليها ترجمة لفظية بلغة الأوردو .

مدرسة الواعظين : ومن أهم أقسام التخصص فى الدين الإسلامى مدرسة الواعظين للشيعة . تتكون هذه المؤسسة من ثلاث فرق ، وتبتدىء الدراسة فيها بمد نيل الطالب درجة عالم ، وقد حدد عدد الطلاب بأربعة لكل فرقة ، ينخصصون فى وسائل الوعظ والإرشاد ، ويعينون بعد تخرجهم وظائف ومرشدين فى الهدى وخارجها .

إلا أن العناية بالتبشير فى الأقطار الأحيانية قد أصبحت محور اهتمام هذه الجماعة ، إذ يؤخذ على طلاب الانتساب إلى هذه المدرسة تمهد بالخدمة فيما وراء البحار مدة ما ، بالارائب الذى محدد لهم الجماعة ، وقد تخرج من هذه المدرسة إلى الآن ٣٢ شيخاً ، منهم ١٧ شيخاً يعملون فى جنوب أفريقيا وجزر الملای .

واللغة العربية ، وإن كانت لغة المؤلفات والمراجع التى تقوم عليها الدراسة بهذه المدارس الدينية ، إلا أنها لا تعطى ما تستحقه من العناية ؛ فالكتب التى تستعمل ، كلها من الكتب

القديمة التي بطل استعمالها في مصر، والتي تزيد بصعوبتها عن مستوى أفهام الطلاب، كما أنها ليست لغة النحاطب، ولا لغة الشرح، فالمدرس يتلو المتن العربي من الكتاب، ثم يشرحه بلغة الأردو، فكانت نتيجة ذلك ضمما عاما في هذه اللغة بين المتخرجين، ولهذا لا يتكلمون بها إلا بصعوبة كبرى، هذا القليل منهم ممن يكون قد انكب على دراستها بعد التخرج، أما قدرتهم الكتابية، فما يشكر لهم، إذ يكتبون بلغة عربية تكاد تكون لغة فصيحة، ولكثير منهم مؤلفات بها، بل إن الأستاذ مسعود عالم الندوي، يصدر مجلته «الضياء» باللغة العربية.

ولأنهم الحكومة في نفقات هذا النوع من التعليم، إلا إذا كانت اللغة الانجليزية من بين ما يدرس من اللغات كما هي الحال في دار العلوم، وندوة العلماء، وسلطان المدارس للشيعة بلكنو، وبذلك حرم معظم هذه المدارس الدينية الامانات الحكومية.

وقبل أن نفرغ من الكلام على جهود المسلمين في نشر الثقافة الدينية بين أبناء المسلمين، نذكر الجامعة المليية في دلهي:

الجامعة المليية: هيئة قد اقتضى وجودها ذلك العامل الذي اقتضى وجود جامعة عليكرة منذ خمسين سنة، وهو السهر على نفع الشباب المسلمين الذين يريدون الجمع بين الثقافتين: المدنية، والدينية، ولكمهم لا يريدون التخصص في أمور الدين الاسلامي، بل لا يريدون الانقطاع عن تيار التعليم المدني الذي يؤهل للوظائف الحكومية وغيرها.

اجتمع لعيف من قادة الفكر المسلمين، وفكروا في حال المسلمين في الهند، فوجدوا أن جامعة عليكرة لا تؤدي لهم الخدمة الاسلامية كاملة، إذ أنها تعنى بمسيرة الجامعات الاخرى في نزعاتها المدنية، بحيث أصبحت علوم الدين فيها اختيارية، لذلك فكروا في إنشاء هذه الجامعة مترصين فيها خطوات من أنشأوا جامعة عليكرة، أول مرة.

ولقد تحدثنا الى «الدكتور ذاكر حسين» حميد هذه الجامعة، فأقنيناه ذات شعور فياض بمشولية رجال الوقت الحاضر أمام رجال المستقبل؛ ولذلك جمع حوله عددا ممن يشاركونه الرأي، وساروا بهذه الجامعة مستبسلين، ورسموا لهم خطة قائمة على النفاذ في سبيل واحبهم مع تصحبة صوالهم المادية من أجل الصالح العام؛ فلا يتناول المدرسون أحورهم الضئيلة إلا إذا غافرت لديها الموارد. ومن أغرب ما يذكر لهذه الجامعة: أنها وفقت أخيرا لبعض المال، فبدل أن تدفع منه رواتب المدرسين المتأخرة، ابتاعت به بناء على موافقتهم مساحة من الأرض، لنشئ عليها دارا للجامعة، مستوفية كل الشرائط الصحية والنظامية، تكون نواة لهذه الجامعة الفنية.

وتعنى الجامعة المالية بتدريس المواد باللغة الوطنية (الاردو) ، ويكلف الاساتذة بتأليف الكتب ونشرها ، ولهم عناية خاصة باللغة العربية والعلوم الدينية ، التي تعتبر من أمهات العلوم بالجامعة .

وفي رأينا أن هذه الجامعة المالية وغيرها من المدارس الدينية ، تستحق عناية خاصة من الأزهر

نواحي النشاط في البيئات الاسلامية :

إن من أهم نواحي النشاط في البيئات الاسلامية في الهند : تلك النزعة التعاونية القائمة على البر والتقوى . وبما ساعد على نشوء هذه الجماعات ، الاستعداد القطري - الذي ملك على كبار المسلمين كل نواحي تفكيرهم - للاستبسال في نشر مبادئ الدين الاسلامي الحنيف .

ويشجع المسلمون في الهند لئلا هذه المؤسسات بسخاء لا يناظره سخاء ، فكم رأينا من مبان شاهقة وقف ريعها على أعمال البر منذ سنوات ، ناهيك بذلك المؤسسات التي تستمد العون من أوقاف لا حصر لها ، منذ أيام الملوك المسلمين في تلك الديار .

وبما يحسن بنا ذكره في هذا المقام ، أنه إثر ثورة سنة ١٨٥٧ ، صادرت الحكومة البريطانية كثيراً من هذه الأوقاف وباعتها بأبخس الأثمان ، ولكن المسلمين ما لبثوا أن استعادوا أكثر ما أخذ منهم ، إما بمصالحة الحكومة البريطانية ، وإما بالشراء من جديد .

وتتقسم هذه المؤسسات الاسلامية الى قسمين :

(١) جمعيات تعمل على إحياء مجد الاسلام بالعلم والثقافة العامة والتعاون ، فمن ذلك : جمعيات الشبان المسلمين ، وهي منتشرة في أنحاء الهند في بومباي ، وأجرا ، ودلهي ، ولاهور ، وكراشي ، وكلكتا ، وناجبور ، وهي تعمل على تكوين الأخلاق بالدين والثقافة العامة ، ووسيلتها في ذلك إلقاء المحاضرات العلمية ، وهذه الجمعيات حديثة الوجود بالهند .

معهد البحوث الاسلامية بومباي : ومن الجمعيات المنظمة الأثر أيضاً « معهد الأبحاث الاسلامية بومباي » ، ويقوم بالعمل فيه شباب ناهضون من المسلمين المنفقين ، وقد اتصلوا بنا وذاكرونا في نواحي نشاطهم ، وهم وإن كانوا من شباب طائفة الاسماعيليه ، إلا أنهم يبحثون عن حقيقة الاسلام وروحه السامي ، ولا ينقيدون في بحشهم بحلة خاصة ، وهم يعملون على إظهار كل مكنون علمي من تراث المسلمين بترجمة الكتب النافعة في علوم الكون : كالتاريخ ابن خلدون وغيره .

وقد تقدم لنا بعض أعضاء هذه المؤسسة بالرغبة في أن توجه إليهم الدعوة لحضور العيد الآتي للأزهر .

جمعية اسلام سيفا سماج : ومن تلك الجمعيات جمعية « اسلام سيفا سماج » وهي جمعية حديثة للتكوين ، عدد أعضائها محدود ، ولها سكرتير ، وهم يتفوقون على جمعيتهم من حرم أموالهم نحو عشرة آلاف روبية في كل عام (٧٥٠ جنيتها مصريا) ، ومن برنامجهم لزيادة أعضاء الجمعية أن يضم كل عضو من أعضائها عدداً محدوداً من أصدقائه ، على تبعته ، وأن يقسم كل عضو أغلظ الأيمان على أن يكون عمله لأجل الاسلام لا لشهرة أو كسب مال ، ثم يضم كل واحد من هؤلاء أصدقاء جدد بنفس الطريقة السابقة .

ومن عمل هذه الجمعية : تشجيع العمال الممطلين المسلمين ، وقد وظفت في خلال العام الماضي ١٨٠ شخصاً منهم عند تجار مسلمين . وهي تسكن العمال بما يقصه من التعليم ، حتى يتعبأ له أداء ما يطلب منه من الأعمال : كالحساب التجاري ، والكتابة على المكتب والاحتفال وغير ذلك .

وهذه هي الجمعية التي تقدمت الى فضيلة مولانا الأستاذ الاكبر بالمداية الذهبية ، كما ذكرنا في مقدمة هذا التقرير .

جمعية أنجمن اسلام - ومن هذه الجمعيات أيضاً جمعية « أنجمن اسلام » في بمباي ، وهي جمعية قديمة جداً ، أسست بأموال المسلمين ، ومن أغراضها نشر التعليم الاسلامي بين طقات الطلبة الذين يتجهون في دراساتهم اتجاهاً مديناً . وقد ظلت هذه الجمعية سنوات طوالاً تحقق هذه المبادئ ، الى أن منيت في شئونها المالية بما لا يحل لذكره الآن ، فأعانتها الحكومة وتدخلت في أمورها .

جمعية أنجمن حاية الاسلام : ومن هذه الجمعيات جمعية « أنجمن حاية الاسلام » بـلاهور ، وهي جمعية قوية تضم معظم شباب البنجاب المسلمين المنقذين ، ورواس مجلس إدارتها اليوم « السير محمد إقبال » شاعر الهند وفيلسوفها العظيم .

وقد ساهمت في إنشاء كلية للأدب من وحدات جامعة البنجاب ، وهي تعنى بالدراسات العربية والدينية ، ومعيد هذه الكلية اليوم هو الأستاذ « عبيد الله يوسف علي » من موظفي الحكومة الهندية القداماء .

وتدير الجمعية مدرسة ثانوية للبنات ، وتعزم أن تضم إليها كلية عليا ، وهي اليوم في صدد وضع مناهج لهذه الكلية . ولقد تقدمت إلينا هذه الجمعية بالرغبة في أن نضع لطلبك منهاجاً خاصاً في علوم الدين . وقد اجتمعنا مع حضرات الأعضاء ، وتذاكرنا في هذا المشروع ، حتى جمعنا معلومات تصلح أساساً لوضع المنهاج الديني الذي يناسبها ، ووعدناهم بعرض الأمر على رئاسة الأزهر

أما الكلية الإسلامية في بشارور ، فهي كذلك من المؤسسات التابعة لجامعة البنجاب ، عمل على تأسيسها مسلمو مقاطعة الحدود بزامة « السير عبد القيوم خان » من أعيان هذه المقاطعة ورئيس وزرائها الآن . وهي تعنى بالغة التربية والعلوم الدينية ، الى جانب المناهج المدنية .

جامعة حزب الله : وفي هاولبور جماعة « حزب الله » وهم يتزبون بزي الجند ، ويقومون بما تقوم به جمعيات الشباب المسلمين عادة .

جمعية أنجمنان مسلمانى نجاتى : وفي كراتشى جمعية « أنجمنان مسلمانى بنجابى » وهي مكونة من أهل البنجاب المقيمين في هذا النفر ، وقد نصبت نفسها لمعاونة حجاج بيت الله الحرام ، وتسهيل السبيل الى الحج ، وما الى ذلك من مساعدة فقراء المسلمين .
 جمعيات تحميط القرآن : ويوجد في بعض أنحاء الهند جمعيات لتحفيظ القرآن ، وتجويد تلاوته وقراءته بالروايات ؛ وقد شهدنا من هذه الجمعيات جمعية القراء بدلى ، حيث عقدت حفلتها السنوية في « جمعة مسعد » تحت رعاية البعثة ، فاستمعنا الى كثير من الخريجين يتلون القرآن الكريم .

جمعية الخلافة : أما جمعية الخلافة ، وهي تلك الجمعية الدائمة المصبت في أنحاء العالم الاسلامي ؛ فقد كانت منذ سنوات ذات نشاط يجذب الأنظار ، ولقد جمعت من كافة أنحاء الهند من المال ما لم يجمعه جمعية أخرى ، ولكن روى لنا أن تضاؤل شأن الخلافة العثمانية تضاؤلاً أدى الى رواها ، أبأس الكثيرين ممن اعتادوا البذل لهذه الجمعية ، حتى إنه كاد ينقطع ندى الأكف عنها ، وهامى ذى اليوم قائمة في مركزها العام في (بومباي) يدير شئونها « مولانا شوكت علي » ، ويقوم بأعمال السكرتارية فيها « مولانا عرفان » ، ولكنها غير باقية للنشاط في هذه الأيام .

هذه أمثلة فقط من نواحي نشاط المسلمين التماوني ، وقد ذكرنا بعضاً من تلك الجمعيات المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، ولو حاولنا حصرها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً .

(ب) جمعيات تقوم بتبليغ الاسلام بين الطوائف غير الاسلامية :

أهم هذه الجمعيات وأعظمها نشاطاً هي « أنجمنان تبليغ الاسلام » بأمبالا ، وهي جمعية عظيمة النشاط في أعمال التبليغ ، ولا يقتصر همونها على إقليم البنجاب الذي ظهرت فيه ، بل يمتداه الى معظم أنحاء الهند .

ولها في حركة إسلام المنبوذين نشاط يذكر ويشكر ، فقد ساهمت بوسط واغر من النشاط والمال في « ترافنكور » ، وأسست مركزاً من مراكز التبليغ له شأن عظيم في « فاجبور » .

ومن أهم شخصيات هذه الجمعية : الأستاذ غلام بهيج نيراج ، وهو محام أمام المحكمة العليا في لاهور ، وعضو في الجمعية التشريعية المركزية في دلهي ، وهو حركة دافعة لا يستقر في مكان واحد بصحة أيام ، ويجوب بلاد الهند من أقصاها إلى أقصاها مرات في كل عام ، وهو شخصية لا يقوم بينه وبين الحكومة المركزية عدا .

الجمعية الاحمدية : أما الجمعية الاحمدية اللاهورية ، فهي من أنشط الجمعيات دعاوة للإسلام في خارج بلاد الهند ، ويقول مؤسسوها إنهم يدعون الناس إلى اعتناق الدين الاسلامي ، مع عدم التمييز بين مذهب وآخر ، ولكنهم في داخل الهند يبشرون بعبادتهم الاحمدية اللاهورية ، فيستهدفون لغضب الجماهير وسخطهم .

نواب محمد يار حنج : وفي حيدرآباد رجل يعمل بمفرده ما تعمله الجمعيات ، هو « نواب محمد يار حنج » الذي يقوم بالتبليغ بين المنبوذين في القرى ، ومع قصر عهده بهذا العمل الخليل ، فقد أبلى فيه بلاء حسنا . ويعتبر عمله في حيدرآباد قاعدة لأعمال التبشير المستعدة إلى المال ، وهو يبذل بسخاء في هذه السبيل من ماله ، وما يرد إليه من المومنين الخيرين .

محمود فاندريمان : ويقوم إلى جانبه مبلغ خطير الشأن هو « محمود فاندريمان » . كان مسيحياً وأسلم بعد أن كان أباًؤه وأجداده من المبشرين المسيحيين . وقد ورث عنهم التفنن في أعمال التبشير ، فيطبق العلم على العمل بمهارة جعلته محط أنظار الكثيرين ، ولهذا فإن عمله منظم ، ويصلح أن يكون نواة لعمل كبير ، لا في بلاد حيدرآباد وحدها ، بل في غيرها من أنحاء الهند أيضاً .

أما ناجبور ، فإنها مركز من مراكز العمل المنج ، يقوم فيها ثلاثة من كبار الدعاة للإسلام بين المنبوذين :

١ - « فضل الحق صاحب » ، ويقضي أوقات فراغه في مناطق المنبوذين حيث افتتح مدرسة لتعليم أبنائهم ، وهو شديد الفيرة على الاسلام ، وله عقلية منظمة ، ويستطيع أن يبتلع إنتاجاً مضاعفاً إذا وجد تشجيعاً من أي نوع كان .

٢ - الأستاذ « فضل رحيم » الهامى ، وهو كذلك من المعنيين بشئون المنبوذين ونشر الدين الاسلامي بينهم ، وله علاقة طيبة بزعماء المنبوذين في هذه المنطقة ، ولكنه أنفق كل ما كان مدخراً لديه على قلته في هذا العمل ، وأصبحت موارده أضيق من أن تساعد على الاستمرار ، لا سيما وأن حاله النفسي قد تطرق إليها الملل من سلوك الدكتور أمبيدكار ، الذي كان فضل رحيم يعلق على إسلامه أهمية كبرى .

٣ - « أرمار أحمد » ، وهو حكيم من خريجي ندوة العلماء ، ذهب إلى ناجبور مدرساً بمدرستها الإسلامية ، ولكنه ما لبث أن عي بشئون الدعاة الإسلامية ، وله صلات طيبة بأكابر

القوم ، ويرحى منه النفع العميم ، إلا أن موارده الآن تضيق عن القيام بما نذب نفسه له من عمل خطير .

هذا قليل من كثير من نواحي النشاط في أعمال التبليغ ، ولكنك أننا تسير في الهند نحمد الكثير من هذه الجمعيات .

إلا أن التعامل مع بعضها ، وخصوصا الصغيرة منها ، يستلزم البقطة والحد ، إذ ما من عمل من هذا النوع ، إلا وقد دخل فيه المحترفون ، والذين يملكون عن أنفسهم ، ويقولون أكثر مما يفعلون .

أعمال البعثة :

١ — العمل على التوفيق بين علماء الدين والعلماء المدنيين :

ما كدنا ننزل الى بلاد الهند حتى نجلبت لنا الفرقة المؤلفة بين علماء الدين والعلماء المدنيين ، وقد حاولنا أن نرجع هذا الخلاف الى أصوله فانضحت لنا الحقائق الآتية :

التعليم الديني والتعليم المدني منفصلان إحداهما عن بعض أهم اتصال ؛ ذلك بأن الحكومة قد قررت — نظراً لتعدد الأديان في الهند تمديداً لا منيل له في أية بقعة أخرى على سطح الأرض — ألا يدرس الدين في المدارس بكافة أنواعها ؛ فإذا خرج الطفل الى المدرسة وجب على ولي أمره أن يختار له إحدى طريقتين : إما تعليم مدني لا يعرف في ثيابه شيئاً عن الدين ، وإما تعليم ديني يبعد به كل البعد عن وظائف الحكومة .

ويدهى أن اختيار معظم أولياء الأمور يقع على النوع الأول من التعليم ؛ حتى طال الزمن على ذلك ، فتولى شئون الحكم في الهند طبقة من خريجي الجامعات المدنية التي لا تحت الى الدين بهالة ، وبقي خارج كراسي الحكم أولئك الذين تخرجوا في الجامعات والمدارس الدينية ، واستحوذ الفريق الأول على النفوذ الزماني ، وحين استحوذ الفريق الآخر على النفوذ الروحي . وكان من رعايا الفريق الأول عامة من تربطهم بشئون الحكم رابطة ، أما رعايا الفريق الثاني فهم عامة الشعب .

عندئذ دب التنافس بين الفريقين ، وحقد كل منهما على الآخر ، فاستحكمت العداوة بينهما ، ثم تولدت البغضاء بانصراف كثير من رجال الفريق الأول عن شئون دينهم العلمية : كالتردد على المساجد ، وأداء فريضة الحج وغير ذلك ، فاستهدفوا لطمع الفريق الثاني الذي تمادى في التشهير بالفريق الأول ، حتى دعى الكثير من رجاله بالكفر والزندقة .

ثم نشأت الأجيال الجديدة بعد ذلك على ما يبقينه رجال العلوم الكونية لتلاميذهم

من الحقد على رجال الدين ورميهم بالقصور وضيق الفكر ، كما نشأ على أيدي العلماء الدينيين حيل أشرب كراهة الطلبة المدنيين ، لظاهر انصرافهم عن شئون الدين .

ولو حاولنا أن نتتبع أدوار هذا الجدل العنيف بين الفريقين لطال بنا البحث . على أن بعضا من عقلاء المعسكرين رأى أن العلاج الوحيد لهذه الحال لا يأتي إلا بأن ينشأ جيل جديد يكون وسطا بين الفريقين ، وذلك بأن يعطى طلبة الجامعات المدنية بعضاً من علوم الدين ، وينشأوا على القيام بواجباتهم الدينية في السر والعلانية ، وأن يلبسوا كذلك في الجامعات الدينية نظام يجمع فيه الطالب الى علوم الدين بعضاً من العلوم المدنية ؛ وقد تحقق المقصد الثاني في « دار العلوم ندوة العلماء » في لكتو .

ولما وصلت البعثة الى الهند ، وهالها ما رأت من التفرقة بين الفريقين ، رأت أن تكون يا كورة أعمالها إلقاء المحاضرات والتحدث في المجالس الخاصة على الضرر الذي يصيب الاسلام من هذه التفرقة ، وأنه من صالح كل من الفريقين أن يصالح الفريق الآخر بالتساهل معه .

ومن أشد ما لا يقيأه من هذه الصمويات أن الرجال المدنيين يرمون علماء الدين بأنهم منقسمون على أنفسهم شيعاً يكفر بعضها بعضاً ، وأنهم هم السب الاساسي فيما أصاب المسلمين من تفرق ، كما قالوا لنا إنهم مستعدون لمصالحتهم إذا صفت نفوسهم ، وظهر استعدادهم بالتعاضى عن الصغار .

أما العلماء الدينيون فقد كنا نظهر لهم مزايا هذه المصالحة ، ونذل لهم على أنه لا غنى لطالب الدنيا عن الدين ، ولا غنى لعالم الدين عن جهود عالم الدنيا .

وإنا لنعتقد أننا قد نجحنا في هذا بقدر ما اتسع له وقتنا ، وفي رأينا أن الأزهر إذا فكر في إرسال مبشرين الى الهند - سواء أ كانوا لأعمال التبليغ أم لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامي في بعض المدارس والجمعات - فأول واجب يقع على طاق هؤلاء ، هو أن يبشروا بهذا الرأي الذي كان نراس الجامعة الأزهرية في حياتها الجديدة .

٢ - العمل على إزالة التفرقة بين طوائف المسلمين :

وثمة ظاهرة أخرى في الهند حليمة بالنفكير ، تلك هي التفرقة السائدة بين علماء الدين بعضهم وبعض . وقد سبق الكلام على المذاهب والشيع في الهند ، ومقدار ما للترعة المذهبية من أثر في تكوين عقليات الجماهير وطرق تفكيرهم ، حتى إن أصحاب كل ملة أو نخلة لا يمدى أتباعهم ومريديهم إلا الطعن على أصحاب الملل والنحل الأخر ، كائناً من كان معتقها . وقد حاولنا استقصاء الأسباب المؤدية الى ذلك ، فها هنا ما سمعنا والعهد على الرواة :

يقولون : إن وظيفة « مولوى » في الهند تمود على صاحبها بالخير الجزيل والرزق الوفير نظراً للاستعداد الفطري عند العامة للوجود بما ملكت أيماهم من طيب حاطر لأول طالب يطلبه باسم الاسلام ؛ لذلك حاول هؤلاء المولوية الاستئثار باتباعهم خالصين لهم ففروهم من المولوية الآخرين بالطمع في الشيعة أو المذهب المخالف ، وبذلك أصبح الاسلام في الهند مجموعة من المذاهب لا تربطها رابطة .

هذا ما رواه لنا الرواة ، أما ما أسفرت عنده محادثتنا مع من ظننا من هؤلاء المولوية ، فتصغير لشان هذا الخلاف وتكذيب لما ترمى إليهما من أنبائه ؛ إلا أن الظواهر قد دلت على أن الخلاف قائم لا محالة ، وهو من التركيز بحيث يصعب على أمثالنا ممن لهم وقت محدود أن يعملوا فيه عملاً حاسماً .

وأقرب ما يحضرنا من أدلة على هذه التفرقة المشثومة ، ما رأيناه في مدرسة « السد » الاسلامية بكراتشي ، وهو وجود مسجدين داخل أسوار المدرسة : أحدهما للشيعة ، وثانيهما لأهل السنة .

وقد قال لنا ناظر المدرسة ، وهو انجليزى ، عند ما تحدثنا إليه في شأن هذه الفرقة في دور العلم ، التي يجب أن تعمل على وحدة التفكير بين طلبتها ومدرسيها : « إن وجود مسجدين في دار هذه المدرسة ، كان تنقيداً لأرادة الواقفين ، وإن الطلبة يعيشون مع بعضهم في سلام ووثام ، لا يفصلهم إلا وقت الصلاة وتنوع المساجد » .

غير أننا ما أردنا أن نضيق الفرصة ، فاضمنا مجلس مع فريق من هؤلاء إلا ضربنا له الأمثال بما جدت عليه بلادنا المزينة من تسامح بين أصحاب المذاهب ، وكم من مرة أشدنا بذكر طريقة تدريس العقيدة في الأزهر الشريف ، وكيف أن طلبة الجامعة الأزهرية على اختلاف مذاهبهم تضمهم صلاة جماعة واحدة ، ويؤمهم إمام واحد ، بل كم كان حبيلاً أن نذكر لهم أن فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وهو سنى بالطبع ، قد استقبل الشيخ عبد الكريم الزنجاني ، وهو من أئمة الشيعة ، فأكرم وولده ، وعنى به العناية كلها ؛ بل عندما كانت تقوم الصلاة كان أحدهما يصلي مؤتماً بالآخر ، لا فرق بين سنى وشيعة .

وقد تقدم إلينا كثير من ذوى الرأي ، بأن مبعوثي الأزهر إلى الهند في المستقبل ، يجب أن يركزوا جهودهم في تنوير الجماهير عن عدم وجود فارق جوهري بين المذاهب على النحو الذي يبثه المولوية الحاليون ؛ ففي ذلك لجمهور المسلمين خدمتان : الأولى دينية بمجته ، وهي رد الاسلام إلى أصوله في نفوس الجماهير ، أما الثانية فوطنية ، هي لم الشعث وتكوين الصفوف بما يعود على الأمة بالمائدة .

٣ - تنظيم البعثات الهندية الى الأزهر :

وقد كان من ام ماعنيا به محادثة زعماء البلاد ، وقادة الحركة العلمية فيها ، ورجال الحكومة ، بشأن البعثات الهندية الى الأزهر . وقد دات تحرياتنا على أن كثيرا من خيار الناس في الهند ، كانوا يجهلون أن بلادهم تطلب في الأزهر ، في حين كان آخرون يقولون إن هؤلاء يسافرون الى مصر ، ويعودون الى بلادهم ولم يطبعوا بطابع خاص من الثقافة ؛ على حين كان آخرون يألمون من أن الطلبة الذين يقدون الى الأزهر تطول إقامتهم فيه لغير سبب ظاهر .

أما نحن فقد أطلعناهم على جلية الأمر بشأن هؤلاء الطلبة ، وكيف أن كثيرا منهم لا يستفيدون من الدراسات الأزهرية ، نظرا لضعف استعدادهم العلمي ؛ كما أن البعض منهم ينصرف عن شؤون الدراسة الى غيرها ، نظرا لضعفهم اللغوي ؛ في حين أن فريقا ثالثا يعتقد أن مقامه بالأزهر الذي يدر عليه بعض الاعانات الشهرية ، خير له من العودة الى بلاده التي يحتمل ألا يجد فيها عملا يعيش منه .

هذا الى أن الكثرة المطلقة من الطلبة الغريباء يختارون لدراساتهم نظام « الغريباء » وهو نظام فلما يكفل للتقريب الأزهرى الكامل .

وبعد محادثات شتى ، استقر الرأى على ضرورة تنظيم هذه البعثات ، وهنا عرضت علينا مجموعة الآراء الآتية :

(أ) أن يوكل الى بعض رؤساء المؤسسات الاسلامية العلمية بالهند فرادى ، تزكية طلاب الانتساب الى الجامعة الأزهرية ، على أن يوضحوا عددا يحدد بالاتفاق بينهم وبين الأزهر ، وعلى أن يعلن عن التسهيلات التي يمنحها الأزهر هؤلاء الطلاب ، وعن المستوى العلمى المطلوب . بهذا يتسنى للأزهر أن يحصل على طبقة من الطلبة أنفع من الطلبة الحاليين ، وكذلك تنفع الهند بأعمال هؤلاء عند عودتهم الى بلادهم .

(ب) أن يقع اختيار الأزهر على عدد من كبار رجال التعليم في الهند ؛ فيكون من بينهم لجنة تسمى « لجنة الترشيح للأزهر » ، وعلى هذه اللجنة أن تتلقى طلبات الراغبين فى الانتساب الى الأزهر ، فتفحص هذه الطلبات وتزكى من أصحابها من نشاء .

(ج) أن يشترط فى طالب الانتساب الى الأزهر الحصول على توصية كتابية من رجل من رجال الفكر فى الهند ، عن قامت بينهم وبين الأزهر صلة عن طريق هذه البعثة ، وألا ينظر الأزهر فى طلب ليس مشغوعا بمثل هذه التزكية .

(د) أن يوكل الى الحكومات الاقليمية فى الهند ، أن تكون واسطة الاتصال بين

الأزهر وطلاب الانتساب إليه ، ففي ذلك أمان الأزهر من أن يرد إليه من يعتبرون خطراً على النظام العام .

وفي رأينا أن الأزهر يستطيع بعد أخص هذه الاقتراحات أن يصل الى قرار في هذا الشأن ، يكون من ورائه فائدة لكل من الأزهر والهند .

٤ - تأسيس علاقات صداقة بين الأزهر ورجال الهند المتنازعين :

وقد كان سفر البعثة الى الهند فرصة سانحة لتأسيس علاقات الود والصداقة بين الأزهر من ناحية ، وبين رجال الهند المتنازعين من ناحية أخرى ، فقد مدت البعثة يد الصداقة الى زعماء الحركة الفكرية والعلمية في تلك البلاد ، فأكست منهم إقبالا على صداقة مصر يجدر بنا أن نعني به أشد العناية .

وإذ نتشرف بأن نالحق بهذا التقرير كشفا بأسماء هؤلاء الأصدقاء ، راجين أن تدوم المراسلات بينهم وبين الجامعة الأزهرية .

وحبذا لو عينا ، كلما حضروا الى مصر ، بإطلاعهم على الأزهر في ثوبه الجديد ، وما يقوم به من خدمة شاملة للدين واللغة ، وفي ذلك توطيد لعلاقات الود التي بدأتها البعثة ، ومساعدة على نشر الثقافة الدينية في الأقطار الاسلامية .

ومن بين هؤلاء فريق من رجال العلم يجدر بمصر على العموم ، والأزهر على الخصوص أن يقتنع بالأيام التي يقيمونها فيها ، فيدعوا لالقاء المحاضرات على الطلبة المصريين في شئون الهند ، مما يعود على كل من البلدين وأهله بالخير .

هذا ولا مندوحة عن القول بأن الهند ومصر لمدان يشتركان في كثير من الشئون ، والاسلام صلة رحم بينهما . ولا يستطيع إنسان مهما يكن له من سعة الاخلاص وبعد النظر ، أن يتكهن بالنتائج الثقافية والدينية التي تنعشها هذه الصداقة ، ولنا فيما تقوم به الجامعة المصرية نحو ضيوفها الأجانب من الغربيين خير مثل على صواب ما نذهب إليه .

وحبذا لو استطاع الأزهر الشريف أن يمنح درجة العالمية الفخرية لفريق من رجال الهند المتنازعين ، فإن في ذلك تقوية لأواصر الصداقة بين الطرفين ، وحفراً لثمة من أفاضل الهندين للاقبال على هذه الصداقة ، وإن مثل هذا التصرف النبيل من الأزهر أثره في عواطف الهندين عامة ، ورجال العلم منهم خاصة .

(يتبع)

إمساكية شهر رمضان للمعظم :

أهدانا حضرة الوجه النابه الشيخ على حسن عاصي من دمنهور إمساكية لرمضان هذا العام بديعة القروش مذهبة الجداول كأحسن ما وقعت العين عليه من نوعه مما يدل على ارتقاء صناعة الطباعة والتلوين بمصر . وقد جعلها كراسة مصدرة بأحاديث شريفة ، وجعل على رأسى صحيفة الشهر آية الصيام مكتوبة بخط أبيص جميل على سطح أروق يروق البصر . جزى الله نافرهما أحسن الجزاء .

أنشيد دينية :

نشر حضرة الشاعر الألمى المطبوع محمود افندى أبو الوارسالة في ٢٥ صفحة ضمنها قصائد دينية بهذه العنايات ، المنشيد لدينى لحالة الملك فاروق الأول ، المنشيد الأول : الله ، والثانى : الصلاة ، والثالث : الصيام ، والرابع : الزكاة ، والخامس : ليلة القدر ، والسادس : الحج ، والسابع : الهجرة ، والثامن : مولد النبى ، والتاسع : الاسراء ، والعاشر : العروبة . وقد أحسن شاعرنا الرقيق بما صنع كل الاحسان ، فليس لدينا من الاناشيد الدينية إلا ما عمله بعض من لا يحسنون القول ، فجاء عملهم مشوهاً بالخرافات فى قوالب تعتبر وصحة على اللغة العربية ، ولكن الاناشيد التى نحن بصددھا قد خلت من كل شائبة خرافة أو غلو ، واستوعبت ما يجول فى الصدور من شئون الدين الكبرى ، وصيغت فى قالب يستثير العاطفة الدينية ويملاً الصدور حينئذ الى السماء ، وتهياما بعالم الروح . ويحسن بنا أن نعطى القارئ نموذجاً مما قاله فى الصوم :

الصوم يزكى ألقنا هيا بالصوم تزكيا

الصوم ينقى ألقنا هيا بالصوم تنقيها

تزكيا

فيحـررها حتى تأبى ريق المتع

ينقيها

فبطـرها من ميل النفس الى الطمع

وعلاج النفس من الطمع يشفى أمراض المجتمع

الصوم أتى للبشرية ليقوى فيها الحيوية
ويهيئها لحرية

شرع قد جاء به الله ليقول لنا ما معناه
حرية نفسك معناها أن تحك نفسك وهوها

الصوم يذكى أنفسنا هيا بالصوم نزيها
الصوم ينقى أنفسنا هيا بالصوم تنقيا
يذكيا

ويعلمها طوع الأمر
ينقيا

فيقوينا ويعودها حسن الصبر
عظماء الدنيا ما سادوا إلا بالصبر على المر

تسويد النفس على الألم وعلى الحرمان يقوينا
الدنيا تشكو بالنهم هيا بالصوم نذاوينا
صوموا صوموا نفث الدنيا مما فيها

الصوم دوا الانسانية من ضعف النفس البشرية
الصوم يقوى الحيوية ويهيئها لحرية

الماضي الحى - أو : بيروحات :

هى قصة تحليلية تأليف القصصى المشهور (حى دومو باسان) نمد من أحسن ما كتبه ،
وهو معروف بدقة التعبير ، وحسن الإيجاز ، والبيان الساحر ، وهو من طائفة الكتاب
الواقعيين كاميل زولا وأشباهه .

وقد وقع اختيار مجلة الهلال على هذه القصة فجعلتها ملحقا لها ، وقد أحسنت فى الاختيار
فإن هذه الرواية شائقة ذات حوادث أخاذة تعقول تسحر المطالع وتلهه . فشكر لدار الهلال
هديتها ، ونرجو لها النجاح فيما هى تصدده من نشر العلم والآداب الرائعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

في النفس البشرية

- ١٠ -

المقومات التعاملية

تتألف الجماعات البشرية من طوائف مختلفة ، من طبقات شتى ، ومنها ما يدين بأديان غير دين السكثرة ، وتحتاج في إقامتها الى مؤسسات لتأدية العبادة ، وإلى معاهد لتربية النائة ، فلم نر في الأمم أمة جرت من هذا التخالف على صمت يرضى الانصاف والعدل ، ويوفى حق الانسانية والمروءة ، غير المسلمين ، من أول ما خلق الله الخلاف بين الناس الى اليوم .

بدأ الناس حياتهم الاجتماعية لا يطبقون من يخالفهم ، فكانوا يقتلون الاجنبي كائناً من كان ، وقد دفعهم هذه الضراوة الى قتل كل غريب عنهم كما يقتلون الموام السامة ، وقد بقيت هذه العادة الى عهد الرومانيين ، وقد قامت دولتهم قبل الميلاد بنحو سبعة سنة . فكان الاجنبي أو المتشعر لا يستطيع أن يصعب قدمه في أمة بقعة من بلادهم المترامية الأطراف إلا إذا دخل تحت حماية وطنى روماني ، وإلا قبض عليه وقتل ولا كرامة .

فاذا كانت أمة من عاداتها أن لا تسرف في إراقة الدماء ، اكتفت بأسر من ليس منها ، وحملته من التكاليف ما يهون عليه الموت في نظره .

أشد ما لقيت الجماعات بعضها من بعض ، إذا كانت متعالفة في الدين ، فإن هذا التحالف لا يهونه شيء في عرفها ، حتى ولا توقع الخطر على وحدوها ، فهي لا تفتأ تتور على مخالفيها في العقيدة وإن كانوا من بني جلدتها ، غير مراعية عدلا ولا مرجحة . وهذا يرجع الى نوع التعاليم الدينية التي تسلفتها ، وإلى روح الحقد الذي يبثه القائمون على عقائدها في روع العامة ضد الآخذين بالأديان الأخرى .

أما الاسلام فقد حسم مادة هذه الرعة الجاهلية بعلاج لا يتصور أحكم منه . ذلك أنه صرح بأن الله لو أراد لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه حالف بينهم في الميول والعواطف والمذاهب والمقائيد لحكمة بالغة ، فقال تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »

فالمسلم إذا قرأ هذه الآية وعلم أن هذا التخالف مراد الله تعالى سكنت نفسه إلى الحق ، وسلم لتخالف فيما أراد ، وسلك حيل هذه المسألة مسلك الحكيم الذي لا تدفعه أهواؤه إلى مجاوزة العدل .

فاذا تلا قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤم وتصلحوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، أدرك أن الحروب الدينية إنما شرعت في الاسلام للدفاع عن الحوزة ، وللحصول على الحرية التامة في تأدية الشعائر ، ولم تشرع لإبادة الأمم المخالفة واصطلامها ، كما حدث من الأمم غير المسلمة .

فاذا قرأ ما جاء عقب هذه الآية مباشرة من الكتاب الكريم وهو قوله تعالى : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ، عرف أن الحسكة في هذا الهمى مادية كل العدل ، فليس مما يعقل أن يتخذ قوم قوماً أولياء وهم يقاتلونهم من أجل دينهم ، وقد أخرجوهم من بلادهم ، وأعانوا على إخراجهم . فالحسكة في مقابلة عدوانهم بمثل ظاهرة بحيث لا يختلف في حقيقتها اثنان في هذا العالم .

أما في غير هذا الموطن فإن المسلمين عاشوا مع غيرهم من أهل الملل والحل المتباينة على صفاء ووثاق في أنضر عصور الاسلام ، فكان يسكن المسيحي واليهودي والمجوسي بحوار المسلم فيتراوون ويتهادون لا يفصلهم إلا المسجد والكنيسة أو البيعة . كان غلام لابن عباس يذبح شاة فقال له يا غلام : لا تنس جارنا اليهودي ، ثم كررها حتى قال له الغلام : كم تقول هذا ؟ فقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه . فابن عباس بنص هذا الأثر كان محاورا لليهودي ، وكان يهتم بالاهداء اليه كما يهتم بسواه مراعاة لحزمة الجوار . ومعنى ذلك أن الاسلام لا يفرق في مكارم الاخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأى مخالف كان ، فالسكل في نظره سواء .

فهذه العدالة في تقدير حقوق المتعاشرين ، تؤسس المعاملة على قرار ثابت ركين ، ولا تدعها عرضة لزعزاع ، فيسوء على المتعاشرين ، ويدبت بعضهم لبعض شر ما يوسوس به الحقد الدفين . إن الذين يبتنون معوم التفرق بين الناس فلسفة خاصة ، أساسها سوء الظن بالمخالفين في الدين ، وقد تروج نظرياتهم في أذهان السامعين ، وتبتسى على ذلك حوادث خطيرة تذهب فيها أرواح بريئة ، وتأسس على هذه الحوادث ضغائن لا يخبو سعيها ، يتوارثها الأبناء عن الآباء في الأمة الواحدة ، فتكون ماثرا لاضطرابات عنيفة .

لقد اتقى الاسلام على كل هذه القلاقل التي لا تناسب مدينة فاصلة لامة كريمة ، فوضع للمعاملات أصولا ، وللمعاشرة آدابا ، لا تسمح بحال من الأحوال للامة التي تأخذ بها أن تثور

على طائفة من طوائفها تأخذ بدين غير دينها ، أو تحيف على طبقة من طبقاتها الضعيفة . وقد دل تاريخ المسلمين على هذه الحقيقة . ففي عصر الصحابة رأينا أن النظام الذي وضعه الاسلام يسمح للمخالف في الدين ، أن يقاضى أرفع رأس في المسلمين وأن ينتصف منه ، وشاهدنا أن ذلك النظام نفسه يمنح للمستضعفين ، من الأرقاء والمحرومين ، أن يطالبوا بحقوقهم من الكبراء والأعاليين ، فسمما أن يهوديا شكوا على بن أبي طالب فحكم بينهما عمر بن الخطاب ، وأن أرقاء شكوا ساداتهم فحكم لهم عليهم .

فهذه الروح الاجتماعية المطمئنة ، لامة اختارها الحق لتطبيق العدل المطلق الطبيعي ، وبناء صرح الاجتماع العالمي ، ثمرة التعاليم الاسلامية الحكيمة ، والسيرة النبوية القويمة .

أما التعاليم الخاصة بهذا الشأن ، فمنها الآيتان اللتان اقتبسناهما آنفا ، وفيهما نص على وجوب معاملة الأجانب عن ديننا بالعدل ، وإسداء البر ، والبر فوق العدل ، فهو لا يأتي إلا من العطف والحنو وإرادة الخير . فلا يقل أن نسيء أمة إلى طوائف أمرت أن تعاملها بالعدل ، وأن تزيد عليه فتسدى إليها البر .

ومن تلك التعاليم الحكيمة قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في طمين ، أن اشكر لي ولوالديك ، إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم فأننكم بما كنتم تعملون » . في هذه التوجيهية يسوى الحق سبحانه وتعالى بين الوالدين المؤمنين والوالدين المشركين ، في وجوب الاحسان إليهما والبر بهما . ولا يصادف مثل هذا السمو التعليمي في أي مصدر على غير القرآن ، ولا في أي مذهب اجتماعي سوى الاسلام .

ومن تلك التعاليم الكريمة قوله تعالى : « ولا تعبدوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلنا ولهم واحد ، ونحن له مسلمون » . في هذه الآية الشريفة يتجلى سمو الاسلام في أكل مظاهره . فإن الاسلام ينهى عن محادثة أهل الكتاب إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرائق ، أي مع مراعاة البر والعطف ، وملاحظة أصول الأدب والظرف ، ويستثنى الذين ظلموا منهم بالاقراط في التعدي ، فأولئك يعاملون بما يناسبهم على مقتضى قواعد العدل ، كما وصى بذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى : « ولا يجرمكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أي ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على أن لا تعدلوا معهم ، كلا ! اعدلوا حتى مع أعدائكم فإن العدل من خلق أهل التقوى .

ومنها قوله تعالى : « اليوم أحل لكم الطيبات » وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ،

إذا آتيتهم من أحورهن محصين غير مساكين ولا متخذين أخدان ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، ، وليس فوق المؤاكلة والمصاهرة من داعية للتحاب وحسن المعاشرة ، والاحلاص في المعاملة .

وأما السنة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي أنه كان يواد أهل الكتاب ، ويؤرم ويقبل زيارتهم ، وكان يحصر ولائهم وما آثمهم ، ويشيع جنازاتهم ويعود مرضاهم ، ويكرمهم ، حتى قيل إنه لما زاره وقد نصارى بجران فرش لهم عاءنه وأمرهم بالجلوس عليها . وأمر من كان له أب أو أم أو قريب أو زوجة منهم أن لا يجمعهم إقامة شعائهم ، والتردد على كائهم ، وأن لا يرهقهم بتشكيكهم في ماتهم . وهذا نهاية ما يستطيع أن يقرره مشرع مدني . فإذا كان الاسلام منع تزويج المسلمة بغير مسلم ، فذلك لعدم وجود مثل هذه الوصايا من التسامح في سائر الأديان ، بل فيها ما يدفع الى ضده . فأى قاض في أية محكمة ملية يحكم على زوج بالسماح لاسرائة في التردد على كبيتها ، ويعاقبه إن لم يسمح لها بذلك ، كما تفعل كل محكمة شرعية إسلامية ؟ وما دامت هذه الضمانات غير موحودة في تشريعات الأديان المختلفة ، فلا حرج على المسلم أن يرضى بانيته على أهل مله يرون البر كل البر نادياتهم أن يمنعوها من تأدية شعائرها ، وأن يفتنوها في عقائدها .

هذه فذلك من مذهب الاسلام ، في إقامة المعاملات على أصول راسخة من الحكمة ، وسعة الصدر ، وبعد النظر ، والاعتداد بمصلحة الجماعة ، وقد اخترنا أن نأتي بها في حق المخالفين في الدين ليكون ببلغ في الدلالة على سمو تعاليم الاسلام ، وأصالتها في الحرية .

أما ما قرره الاسلام من الأصول التي تقوم عليها المعاملات على وجه عام بصرف النظر عن اختلاف الأديان ، وتساين المذاهب ، فهي مما لا تنسح لتفصيل الكلام فيه مقالة في مجلة ولا مجلة برمتها . فإن منها ما يتعلق بحسن الزمالة لخلق كافة ، وبالقيام بحقوق الآخرة لمؤمنين خاصة ، ومنها ما يتعلق بتحديد حقوق النفس وحقوق الغير ، وما يختص بالاستقامة ، والعدل ، والتفضل ، والرحمة ، والاحسان ، مما يقيم المعاملات على أساس محكم بحيث يصبح مع الزمن طبيعيا في الجماعة الآخفة بالاسلام .

وقد دل تاريخ المسلمين من أول نشوئهم الى اليوم ، أنهم كانوا من ناحية المعاملات في حدود المثل الأعلى ، ليس فيما بينهم فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الأتانب عنهم ، فقد قدسوا مبدأ حسن المعاملة حتى قرر حكائهم أن الدين المعاملة . وهذه كلمة لم تؤثر عن غيرهم من الأمم .

وقد عايش المسلمون في جميع أدوارهم أصحاب الملل المختلفة ، فلم يرو عنهم أنهم اضطهدوهم ، أو تهمضوا حقوقهم لحلمهم على الاسلام ، أنهم إلا فلتات من قادة متحمسين ، خطاهم ونفى عليهم سيرتهم علماء الدين نفسه ، وكانت مدتهم كسحابة صيف لم تلبث أن انقضت ، وقد لقي المسلمون أنفسهم منهم أكثر مما لقيه سواهم من الأجانب عنهم .

ناهيك أن جماهير من أهل الملل هاجروا الى بلاد المسلمين هرباً بأديانهم من الأمم الأجنبية ، فأكرم المسلمون وقادتهم ، وعلى رأسهم حلفاؤهم وقادتهم ، وقربوا علماءهم واتحدوا منهم المترجمين ونقلوا العلوم الى العربية ، وحملوا منهم أطباء خصوصيين لهم ، وأغدقوا عليهم الأموال والجوائز ، حتى كانوا يصارعون أمراء المسلمين في معاليشهم . ومحموا لهم ببناء الكنائس والبيع ، وعاملوهم والمسلمين على حد سوى .

وفي الصين المتأخرة كانت طوائف من اليهود تلجأ الى بلاد المسلمين ، هرباً من المذابح التي كانوا يتعرضون لها في بلاد المتعدين ، فسكانوا يحدون من محيرهم كرماً وحسن رعاية ، حتى غصت بممالكهم بمئات الألوف منهم .

هذه الخصلة من حسن المعاملة ، هي معيار الحياة المدنية في الأمم ، والمظاهر الحقيقي لسمو نفسياتها ، ورسوخ ثقافتها . فاما إتقان الصنائع والفنون ، وكثرة المكتشفات والاحتراعات ، التي يتخيل بعض السطحيين أنها حقيقة المدنية ، فليست منها في شيء إن لم يصحبها نصيب معادل لها من المعاملة الحسنة والرفق والرحمة .

فهذه الميزة التي يتحلى بها المسلمون بفصل دينهم ، يحجب عليهم المحافظة عليها ، وعدم الصوء عنها الى خصال من التقاطع ، والتراحم ، والآناية ، مما يحدونها في بعض الأمم الراقية ويظنونها من أخص معاني المدنية ، فاذا كانت شيء يربط بين أحاد الأمم يربط لا ينحل ، ويجعل من مجموعهم وحدة لا تنقسم ، ويؤهلها لسمو الذي كتب للانسانية أن تصل اليه ، فهو حسن المعاملة ، فان لم يوجد أوشك أن ينهار بناء المجتمع ، ولا تغنى عنه العلوم العالية ، ولا الفنون الباهرة ، ولا القوى المدخرة .

محمد فريد وجردي

الشرف يتبع صاحبه

قال خالد بن صفوان : كان الأحف بن قيس يفر من الشرف والشرف يتبعه .

وقد جمع عبد الله بن خلد خصال الشرف فقال :

يامن يؤمل أن تكون خصاله	كحصول عبد الله أنصت واسمع
أصدق وعف وبر وأصف واحتمل	واكفف وكاف ودار واحلم واشجع
والطف ولن واشتد وارفق وانتد	واحرم وجد وحام واجمل وادفع
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي	وهديت للنهج الأسد المهيح

السنة

الدعوة إلى الله تعالى وأهل الفترة

روى البخاري : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب في غزوة خيبر : على رؤسك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من نحر النعَم

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) هل تفرض الدعوة إلى الله بالقول . والبرهان قبل المنارلة بالسيف (٣) ما حكم من لم يبلغه الدعوة إلى الله فهل هو ناج في الآخرة أولاً .

(٤) هل أبو النبي صلى الله عليه وسلم وأمه وأجداده ، من أهل الفترة الذين لم يبلغهم الدعوة إلى الله أولهم حكم خاص بهم ، وما معنى النصوص الواردة في هذا المقام ؟

(١) معنى الحديث ظاهر . وحاصله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر في السنة السابعة من الهجرة ، وكانت خيبر مدينة عظيمة قريبة من مدينة يثرب يقطنها سراة اليهود ورءوسهم يومئذ ، وكانت محصنة يحصون تناسب ذلك الزمان ، فلما هاجها المسلمون بدأ المعركة أبو بكر رضي الله عنه ولكنه لم يتمكن من حصونها ، فهاجها في اليوم التالي عمر رضي الله عنه فلم يتمكن من فتحها أيضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . وفي الصباح طلب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقلوا له يا رسول الله : إنه أرمد يشتكي مرض عييه ، فدعاه الرسول فشفاه الله تعالى ، فأعطاه الراية ، فقال يا رسول الله : أقاتلهم حتى يَكُونُوا مثلنا ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : على رؤسك — أي على مهلك — حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وبيّن لهم ما يجب عليهم فانهم إن اقتنموا بذلك وهبناهم الله تعالى على يدك كان خيراً من قتالهم ، وكان لك من الأجر ما تقر به عينك وتصبو إليه نفسك . وحرر النعم معناه الأبل الحمر ، وكانت عند العرب من أحب الأموال ، وقد تطلق النعم على البقر والغنم أيضاً .

(٢) أما الجواب عن الثاني فهو أن الدعوة إلى الله بالقول والحجة الواضحة قبل استعمال العنف أمر لازم لا بد منه ، فيفترض على كل من يتصدى لمصرة الدين الإسلامي أن يدعو المخالفين

الى الايمان بالله واليوم الآخر ، والا لضمان الخالص بأنه واحد منزّه عن التركيب والتخيز ، ومنزّه عن مماثلة خلقه وعن كل ما لا يليق به ، وأنه قد أرسل لعباده رسلا مبشرين ومنذرين يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ولا يسألونهم على ذلك أحرا ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين قد جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل في كل زمان ومكان ، ثم يبرهن لهم على ذلك ببيان قواعد الدين الحكيمه وأحكامه القويمة بالاطقة بأنه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

باب أبوا إلا الاصرار على الباطل ومهاضنة الدعوة ووضع المقصات في سبيلها ، كان من الضروري مقابلة هذه الحالة بما يصون الدعوة ويحميها من العبث بها والقضاء عليها ، وإلا لما قامت لها قائمة . على أن الدين لم يحصر وسائل حماية الدعوة في القتال ، بل اكتفى بأحد أمرين : إما النطق بالشهادتين ولو ظاهرا لأن علم القلوب عند الله وحده ولا سبيل الى التأثير على القلب بالإكراه كما قال تعالى « لا إكراه في الدين » ، وإما دفع ضريبة خاصة تدل على خضوع الخالف وتسمى الجزية . وذلك كان حال النبي صلى الله عليه وسلم في جميع حروبه ، فلم يبدأ أحدا بالقتال إلا بعد أن يتأكد من عناده ، ويتحقق أنه وصلت اليه الدعوة فهاهنا . وبجمل القول في هذا المقام أن للنبي عليه الصلاة والسلام مع خصومه حالتين :

الحالة الأولى : الحيلولة بينهم وبين مقاومة الدعوة الى الله ، وحماية تلك الدعوة بكل الوسائل التي تقتضيها النظم المناسبة لحال هؤلاء الخصوم لعرف النظر عما في قلوبهم ، فخيرهم الله بين أمرين : الجزية ، أو النطق بالشهادتين . فمن فعل ذلك كان له - في هذه الحياة الدنيا - ما للفاسقين وعليه ما عليهم ، وإنما شرع الله ذلك لما فيه من بث الطمأنينة في نفوس حماة الدعوة من جهة ، ولتكون عهدا بينهم وبين خصومهم من جهة أخرى ، بحيث لا يجوز لهم أن يمتدوا عليهم بعد ذلك ، فإن أبوا كان القتال ضروريا .

ومن المغالطة الواضحة أن يقال : إن القتال هو الذي أرغمهم على الايمان ، فإليك قد عرفت أن الايمان ، وهو التصديق القاي ، لا يمكن أن يوجد بالقوة ، فإن المسكره قد يقول بلساه : آمنت ، وقلبه ممتلي كفرا ونفاقا . وإنما القتال مكن للدعوة الى الله لصد المشركين عن مقاومتها والقضاء عليها .

أما الحالة الثانية : فهي القيام بالدعوة الى الله تعالى وتبليغ ما أمره الله به بالحجة والبرهان ليصدق الناس بقلوبهم بدون إكراه أو قتال . ولو أن المشركين تركوا رسول الله وشأنه فلم يقاوموا دعوته ولم يضطهدوه هو وأصحابه لما وقع بينه وبينهم قتال مطلقا ، لأن البراهين القاطعة والحجج الدامغة التي أيده الله بها خصوصا معجزة القرآن كانت كافية في هداية الناس جميعا بدون شدة أو ضعف . ولكنهم قد اضطهدوه هو وأصحابه في مكة اضطهادا مرارا حتى

أخرجهم من ديارهم وموالمهم . وما كان ضرر اليهود بالمسيحية وشرهم على الدعوة الى الله أقل من ضرر المشركين عكس ، فانهم لم يتفكروا عن التأمر على إيذاء المسلمين سرا وجهرا حتى بلغت بهم الحيرة الى التأمر على اغتيال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاضطر رسول الله هو وأصحابه الى أن يدافعوا عن أنفسهم بعد أن أذنهم الله بالدفاع ، قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » .

من هذا كله يتضح أن الشريعة الاسلامية تجعل مدار بث الدعوة الى الله ونشرها على الحججة والبرهان ، وإعما شرعت القوة لحماية الدعوة من شر المعتدين عليها .

(٣) أما الجواب عن الثالث . فهو أن الذين لم تبلغهم الدعوة الى الله ناجون في الآخرة ، كما أنه لا يحل استعمال القوة معهم في الدنيا قبل دعوتهم الى الله ، فكذلك لا يستلزم الله في الآخرة إلا إذا بلغتهم الدعوة . ولكن للأئمة في هذه المسألة رأيان مختلفان : فأبو حنيفة يقول : إن شرط نجاتهم في الآخرة أن لا يشركوا مع الله غيره لأن معرفة الله الواحد يكفي فيها للعقل وإن لم ترسل الرسل . وهذا هو رأي الماتريدية . وقال المالكية : إن أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة ناجون وإن عبدوا الأوثان . وهذا هو رأي الاشاعرة . ولكني أعتقد أن الأدلة تؤيد الثانيين إن أهل الفترة ناجون ، لأن الله تعالى قال : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وحمل الرسول على العقل بالنسبة لتوحيد الإله خروج على الظاهر المعقول بدون ضرورة ، فإن الرسول إذا أطلق في لسان الشرع كان معناه « الانسان الذي أوحى الله اليه نشرع وأمره بقبليته » . والقرآن من أوله الى آخره على هذا . قال تعالى : « لنلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . وقال : « ثم أرسلنا رسلا تدرى » . وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وهكذا . فإن استطاعوا أن يأتوا بكلمة رسول في القرآن على غير هذا المعنى كان لهم بعض المعصرة . وذلك هو المعقول المطابق لسنن الله في خلقه ، فإن الله سبحانه قد أرسل الرسل من بدء الخلق الى أن استقرت الشرائع وختمت بالشريعة الاسلامية التي لا تقل الروال ، بل قد جعل الله في طبيعتها ما يجعلها تنمو وترداد كل تجديد الزمان لمساخفة الوثنية وتوحيد الإله . وليس من المعقول أن نقول إن الله قد أرسل الرسل لتسليغ الشرائع الفرعية وتبليغ أحوال الآخرة فقط ، أما معرفة الله الواحد المنزه عن كل ما لا يليق به فواجبة على الناس لطبيعتهم فعليهم أن يعرفوا ذلك من غير الرسل وإلا كانوا معذبين . إن مثل هذا الكلام غير معقول ألته لأنه ينقضه الواقع ، فإن أول شيء أهتم به الرسل هو توحيد الإله ، بل كان كل همهم في التوحيد . ولولا ما أودعه الله في الرسل من أسرار وقوى مؤثرة فوق طبائع البشر لما وجد على ظهر الأرض موحد ، اللهم إلا أفضاد يعدون على الأصابع أمثال زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وكنار فلاسفة العالم . فهل يعقل أن الله العظيم

نطباع خلقه يكلفهم بالتوحيد بدون إرسال رسل ؟ إن ذلك يكون قصرا لتعبه على أفراد قلائل من خلقه ، وأين هذا من كرم الله ورحمته بعباده ؟ أين هذا من قوله « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ؟ وأي دليل يخصص الآية بغير توحيد الإله ، فإن الله سبحانه جمل للناس الحجة عند عدم إرسال الرسل سواء أكان ذلك في العقائد أم في غيرها .

ومن القريب في هذا المقام أن مقاومة الرسل ما كانت إلا في توحيد الإله ، إبراهيم وموسى وعيسى وعهد لوط وهود وصالح وشعيب وغيرهم لم يضطهدهم قومهم إلا من أجل التوحيد ومعرفة الإله ، ولم يظهر جهادهم إلا في توحيد الإله . ونظرة واحدة الى كتاب الله الكريم تبين مقدار عنايته بمحاربة الوثنية ، فقد ملأ بالادلة الكونية ، وصرح الأمثال المحسة والجمع القطعية على وجود الإله ووحدانيته ، ومع ذلك كله فقد كانوا من أشد الناس عدادا وبصرارا وغفلة عن الإله ووحدانيته . فهل مثل هؤلاء كانت عقولهم كافية في معرفة الإله ؟ ولم تكن أمة موسى أمثل من هؤلاء ، فإنهم بعد رؤية المعجزات المخارقة قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وهكذا في كل الأمم .

فالحق أن أهل الفترة ناجون في الآخرة كما يقول الأشاعرة والمالكية ، وبعض محقق الحنفية كالكمال بن الهمام ، وإن عبدوا الأوثان .

هذا وقد أول بعض علماء الحنفية قوله تعالى : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » بوجه آخر فقال : إن المراد بالعذاب عذاب الاستئصال في الدنيا ، ومعنى ذلك أن الله لا يهلك الأمم في الدنيا إلا بعد أن يرسل لهم الرسل ، فيضطهدوهم ولم يصدقوهم ، وعند ذلك يهلكهم الله في الدنيا ، أما عذاب الآخرة فإنه يقع على من مات مشركا ولو لم يرسل الله له رسولا . أما ما أقول : إن الآية تدل على عكس ذلك على خط مستقيم ، وإليك البيان :

قال تعالى : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » فإله سبحانه قد قصر هداية الشخص وضلاله على نفسه ، وظاهر أن المراد قصر ما يترتب عليهما من نفع وضرر ، فشكل ما يترتب على هداية المرء من منفعة ، وكل ما يترتب على ضلاله من ضرر ، مقصور عليه وحده . وإذا كان كذلك فهل يتحقق هذا المعنى في الدنيا فقط أو في الآخرة فقط أو فيهما معا ؟ أما فلا أهم إلا إنه يتحقق في الآخرة فقط ، وذلك لأن منافع هداية الناس واستقامتهم ليست مقصورة عليهم وحدهم في الدنيا ، بل تمتداهم الى أبنائهم وأهلهم وعشيرتهم ، بل تمتداهم الى المجتمع ، وهذا واضح . وكذلك مضار الضلال ليست مقصورة على الضالين فقط ، فكم صرع المضلون غيرهم وأوردوهم موارد الهلاك والعناء . وشر الضلال واضح في تربية الأبناء والأهل ، وآثاره ظاهرة في المجتمع . وكذلك إذا قصرنا المنافع على ما يسوقه الله من خير ، فإن الخير الذي يحصى

سبب الصالحين لا يقتصر عليهم بل يعم غيرهم ، والشر الذي ينزل بسبب الضالين لا يقتصر عليهم ، ولهذا قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومن هذا يتضح أنه لا يفهم في الآية إلا أن المراد بالمنافع الثواب الآخروي ، وبالضار العذاب الآخروي ، ولذا قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فهو تعالى يقول : كل واحد ينال جزاء عمله من خير أو شر . قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » فلا يعطى أحد ثواب عمل الآخر ، ولا يحمل أحد عقاب وزر صاحبه ، وكل هذا في الآخرة بدون نزاع ، أما في الدنيا فإن صلاحها من أجل الصالحين يفيد غيرهم من الفاسقين والكافرين ، ومصادها بالخراب يؤدي أهلها سواء أ كانوا صالحين أم فاسدين . ثم بعد أن قرر الله ذلك أراد أن يظهر منته على عباده فقال عز وجل « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فلا يؤاخذ الله الناس في الآخرة بصلاتهم ، ولا يعذبهم على عقابهم وأقوالهم وأعمالهم التي لا يرضاهم إلا بعد أن يرسل لهم رسلاً « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فإن لم أن يقولوا إننا لا نعلم أن هذه العقائد أو هذه الأقوال أو الأعمال لا ترضيك ، فتسكون لهم المَعذرة ، ولا يكون لله عليهم الحجة البالغة . ومن هذا يتضح أن أهل الفترة ناجون ، وأن الدليل قائم على نجاتهم من كتاب الله ، وأن تأويل القرآن على أي وجه يدل على أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل .

(٤) أما الجواب عن الرابع فهو أن أبوى النبي وأجداده من أهل الفترة بلا نزاع ، وهم عباد مكرمون عند ربهم بلا نزاع ، أما ما نقل عن أبي حنيفة من أنه قال إن أبوى النبي غير ناجين فذلك منى على ما رآه من أن أهل الفترة غير ناجين . وقد عرفت أنه ضعيف ، وأن الدليل قائم على خلافه .

ومع ذلك فإنه لم يثبت كون أبوى النبي وأجداده غير موحدين ، بل بالعكس قد نقل كثير من الثقات أنهم كانوا يعرفون وحدانية الله تعالى من شريعة إبراهيم ، وكانوا يدينون بها ، وما قيل من أن هذا النقل ورد عن الرافضة وحدهم فهو غير صحيح ، لأن كثيراً من الباحثين الفصلاء نقل أنهم كانوا موحدين . وعلى فرض أن هذا القول بسبب لبس الرافضة فإنه لا يضر ، لأن هذه مسألة تاريخية يؤيدها النقل والمنطق السليم . فقد ورد أن نور النبي صلى الله عليه وسلم كان ينتقل في الأصلاب والأرحام الطاهرة حتى وصل إلى عباده وآمنه . وقد قص الله على أن المشرك نجس قال تعالى : « إنما المشركون نجس » فكيف ينتقل نور النبي في الأصلاب التي حكم الله بأنها نجسة كعباسة الخنزير . وأيضاً فقد ذكروا أن أمة كانت تزعم الملائكة ، وأن نور النبي كان يشرق في جبين أبيه عبد الله . فهل المشركون تحفهم الملائكة وينزل الله عليهم من فيصه ما لم ينله أقرب المقربين ! إن هذا تناقض واضح لا يليق . والذي أيدهم هذه الشبهة العاسدة مارواه مسلم والبخاري

من أن رجلا من المسلمين سأل النبي عن أبيه الذي مات مشركا فقال له الرسول : إنه في النار ، فامتعض الرجل وانصرف ، فاستدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : إن أبي وأباك في النار . ونص الحديث هو « أن رجلا قال يا رسول الله أين أبي ؟ قال : في النار . فلما قضا دعاه فقال بن أبي وأباك في النار » . ولا أدري كيف يفهم معكر من هذا الحديث أن المراد أبواه عليه الصلاة والسلام ؟ لأنه يقول لرجل الذي جزع لا تجزع لأن الذي لا يجيب دعوتي ولا يؤمن بي ويموت مشركا يدخل النار ولو كان أبا لي . وهو صلى الله عليه وسلم يريد بذلك أيا أحب لأنه يطلق على العم أب ، وقد أخبره الله تعالى بأن أبا أحب في النار قطعا . وليس من المقول المناسب أن يخبر بأن أبوه في النار ومما لم يمارضه في دعوته ولم يرضا ما جاء به ، لأنه لا فائدة فيه للناس ، وإنما فائدة هذا الإخبار زجر المشركين الذين يمارسون دعوته ويقاومونه ، فأبو أحب وهو أقرب الناس إليه عذبه الله بالنار لأنه شرك بالله وقاوم الدعوة الى الله .

هذا هو اللائق بفهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا فاذنبت أبيه وأمه حتى يخبر عنهما أنهما في النار بدون فائدة ؟ فإذا ورد حديث صحيح يجب أن يفهم فهما مطابقا لكتاب الله تعالى المؤيد بالعقل والمنطق ، ومن لم يستطع تأويله تأويلا مقبولا يجب عليه أن يستمسك بكتاب الله ويقف مع الحديث موقف المفوض الذي يحجز عن التأويل . والله يعصتنا من الزلل ، إنه صميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيري

من خير الأعمال التفتيس عن المكروب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرح الله عنه كربة من كرب الآخرة ، والله في عبده ما دام العبد في عون أخيه » .
ويقال : من كفارات عظام الذنوب إغاثة الملهوف والتفتيس عن المكروب .
وقيل : أفضل المعروف إغاثة الملهوف .

ومن الأخبار التي تؤثر في هذا الباب ما روي أن حاتم الطائي مر بأرض غزاة فناداه أسير يا أبا سغانة أكلني القيد والأسار والقفل . فقال له ما أبا بأرض قومي وقد أحطت إدنوحت باسمي ، ولا ممي ما أفديك به . ثم قال للذي هو في يده : خل عنه سبيله واجعلني في القيد مكانه ، ففعل ، وبعث الى قومه فاتوه بما فدي به نفسه .

حدث جلك لا يمكن الصبر عليه

- ٣ -

كثرة البراهين على وجود الله

لعلك عرفت مما كتبناه ردا على ذلك الملحد أن وجود الله لدى العقل سليم أوضح الواضحات ، فإن الأشياء الناشئة في الوجود يعكسك أن تقيم عليها دليلا أو دليدين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة ، ولكن وجود الحق سبحانه وتعالى لا تقف الأدلة عليه عند حد ، فلا يقال إن له مائة دليل أو ألف دليل أو عشرين ألف دليل ، فإن كل شيء في الوجود دليل عليه وموصل إليه .

وقد قال أبو العتاهية :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقال بعض العلماء في قوله تعالى « وهو بكل شيء عليم » : إن علينا هنا بمعنى معلوم ، فيكون المعنى : إن الله معلوم بكل شيء من الأشياء ، فإن كل شيء يعطيك العلم به والدلالة عليه . وإذا كان وجوده تعالى أوضح الواضحات ، وكانت براهينه قد ملأت الأرضين والسموات ففرحت عن الحد والمعد كان مكرو وجوده أعظم المجابين ، وأخط المساكين ، يرثى له ويبكى عليه ، فإن من صادم برهانا واضحا حكما عليه بالاحتلال والاعتلال ، فكيف من خالف مالا يحصى من البراهين ، فضلا عما تنادي به فطرته التي أهدى صوتها وأمات ضميرها ؟

يشكون والایمان ملء قلوبهم ويدون ما تلك القلوب تكذبه

« أفى الله شك فاطر السموات والأرض » . « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ، ولكن هؤلاء محبوسون في سجن الماديات قد أحاطت بهم الظلمات ، فلا يعرفون إلا المكيفات ، ولا يعترفون إلا بالمحسوسات . وكان عليهم أن يشكروا وأرواحهم فانها ليست بمحسوسة ، ولا يصدقوا عقولهم فانها ليست بمحسوسة ، وكل عالم يقع عليه الحس عند عدم ميسر عوحد (فلا أدري كيف يواصلوننا بما لا وجود له عديم ، وكيف ينقرون تلك العقول وهي لا تنتمى إلى المادة بنفس ولا تمت إليها نسب !) . فإن المادة في ذاتها بريئة من الحياة فضلا عن العقل والادراك ، وفقد الشيء لا يعطيه . فمن أين جاء العقل والادراك وليس هناك إلا المادة الصماء البكماء العمياء على ما يزعمون ؟

ولقد صدق باكون أحد أساطير علم الطبيعة حيث يقول - من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شربه عيا أوصاه إلى الخالق .

فهل يصح بعد ما يقول العلم كله في تكوين هذا العالم الفسيح من قوى كهربائية قهرها الله بقوته العالية ، فالتحدث ما اتخذت من أشكال وألوان ، وحملت ما حملت من خواص كان لها أثرها في الحياة العالمية نباتها وحيوانها وإنسانها ، هل يصح بعد ذلك كله وبعد نظر الإنسان في نفسه وما ركب فيه من أعضاء نيط بكل عصب منها وظيفة خاصة (تمت له بها الحياة العالمية حتى صار أرقى المخلوقات) وما فيه من الكريات البيضاء والحمراء ، وما لها من عمل في الجسم الانساني ، وما فيه من غدد إبّان العلم الحديث ما لها من آثار وما فيها من أسرار ، الى آخر ما في هذا الكون الباهر من ليل ونهار وشمس وقمر ، وأرض وسما وماء وهواء . هل يمكن من ينظر نظرة بسيطة في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، أن يفكر قدرة خالقه العظيم ، أو حكمة صانعه الحكيم ؟

انظر الى وقوف الأرض في نقطتها المخصوصة ، ولو جعلها بعيدة من الشمس لعدّها من سات نعيش مثلاً ما انتفعت بفضائها وحرارتها ، وما ضروريان للنمو والحياة ؛ ولو جعلها قريبة منها حداً لاحترق كل ما عليها من نبات وحيوان ، ولأصبحت طبقة من طبقات جهنم . فسبحان الحكيم العليم . الى آخر ما لا يحصى المد ولا يأتي عليه البيان .

ألا إن طريق الحق قد بانت معاملة واضحة جليلة ، وهل بعد الحق إلا الضلال ، وبعد الرشداً إلا الخبال !

إني لأعجب والله كل المعجب كيف يسوغ لإنسان فيه ذرة من العقل أن ينكر وجود الله الذي خلق الأكسجين والادروجين ثم ألف بينهما بقوته العالية قصير منهما ماء ملاه ثلاثة أرباع الكرة الأرضية . وليت شعري هل يستطيع أحد أن يقدر القوة التي أتت بهذا العمل الذي كان من نتاجه هذه المحيطات الهائلة وهذه السحب التي تراها في كل حين وفي كل صقع تنزل ونحوي موات هذا الكون الفسيح !

إني أعجب والله ، لولا إيماني بالقدرة الباهرة ، كيف تنسى لعقول قوم من بني آدم أن تقبل إنكار وجود الله وما هو إلا إنكار أنفسهم بل إنكار كل شيء في الوجود !
أصبح إنكار الله الذي كوّن الأحياء من الأرض الميتة ، ثم كوّن الهواء والماء لعله أنه لا بد للأحياء منهما ؟

أينكر الله الذي يدير الأرض في حركة يومية وسوية ، وينقل القمر من المشرق للغرب ، ويمسك الكواكب أن تقع على الأرض . هل في إمكان العقل تقدير تلك القوة التي فعلت ذلك كله ، وتلك الحكمة التي نطقت على مر الملايين من السنين .

وكأنني بلسان الحضرة الإلهية يقول لأولئك الملحدين : إني سخرت لكم الأرض ودلت لكم البقر تحرثون وتزرعون ، فإذا فرغتم منه ورفعتم أيديكم عنه قولته دونكم وأتم قيام

تنظرون ، فرة آتية بالحر ومرة بالبرد حتى أبلغه أوان حصاده ، وسخرت لكم الحديد لتحصدوه به ، والريح تذرونه به ، ولو أمسكته عنكم فضلا عن غيره لتحيرتم وما صنعتكم شيئا . فكيف تكفرون ولا تشكرون !

انظر الى ملايين الحوم وما بينها من الأبعاد الشاسعة ، وما لها من الأجرام الكبيرة التي تدهش العقل ، وما قدر لها من الدوران المعيب أمره الخفى سره ، وما بينها من الاختلاف في الأضواء والخواص ، تعالى الله عن أن يحيط أحد علما بكالاته ، أو يصل الى تحديد كنه صفاته . لعلم إن الأمر لا يوضح من الشمس وأظهر من الحس . ولكن الذي يتكلم بغير عقل ولا علم لا يصلح لهدياته أحد ولا ينفع فيه أي رهان : « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل التي يتخذوه سبيلا » . والانساني جمع العجائب والغرائب . فليقر من الميدان خعلا أولئك الذين اشتروا الصلاة بالهدى بعد أن أماتوا ضماثرهم وضغطوا على شعورهم حتى ذهب منهم كل وجدان ، فأصبخوا وقد وجب إسقاطهم من سجل نوع الانسان « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » !

وما أشبههم بالخفاش الذي لا يستطيع أن يحدد في نور الشمس لما في أعصابه من ضعف وفي نصره من خلل ! وإلا فهذه آثار ناطقة بمظنة لا تدركها العقول ولا تصل إليها الأوهام ، ولكن الانسان كما يتنلى بأفطع الأمراض الحسية كذلك هو قائل لأن يتنلى بأفطع الأمراض العقلية . ولعمري إن الجاهل يمكنه أن يفهم أكبر فياسوف من الملحدين بما رآه من حوادث المعارب المتواترة عندهم لا يمكن تكذيبهم ولا الشك في خبرهم ، وهي تحرق كل نواميس المادة التي عبدوها ولم يعرفوا شيئا سواها . ولعلنا نمرض لشيء مما شاهدته علماء الاسبرتزم (استحصار الأرواح) وهم من أكبر أساتذة أوربا وعلمائها . أما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء فلا نمرض لها لعدم إيمان الملحدين بها ، وإن كانت متواترة والمتواترات لا سبيل الى تكذيبها ، ولكن هؤلاء قدسوا نواميس المادة التي عرفوها ، وخرقوا نواميس العقل والمنطق التي جهلوها .

والخلاصة أنه تعالى أظهر من كل شيء لدى العقول ، ولكن لما كانت النفوس مجذولة على الجهل لأنها لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تفزع فيما تريد إلا لما علمته من طريق الحواس ، خفي عليها ما لا تحسه ، ولكنها جهلت أن الإله يجب ألا يقاس على ما تعرف من المحسوسات ، وإلا وجب تطبيق النواميس الطبيعية عليه .

ثم نقول باحتصار لأولئك الملحدين : هل الموجودات كلها انحصرت فيما نعلمون وصارت قاصرة على ما نحسون ؟ إن كنتم تعتقدون أنه لا موجود إلا ما أحسستم ، ولا شيء في العلم إلا ما علمتم ، فأنتم أجهل الجهلاء وأحق الحق .

ولنعتم هذا المقال بقوله من قال يخاطب الحضرة الالهية :

هوت الشاعر والمداد	رك عن معارج كبرياتك
يا حي يا قيوم قد	بهر العقول سنا بهائك
أنتى عليك بما علم	مت فأبى على من ثنائك
فظهرت بالآثار فال	برهات باد في جلائك
عجبا خفاؤك من ظهور	رك أم ظهورك من خفائك
ما العكون إلا ظلمة	قبس الأشعة من ضيائك
وجميع ما في الكون ظا	في مستمد من بقائك
بل كل ما فيه فقد	ير مستميع من عطائك
ما في الموائم ذرة	في جنب أرضك أو ممائك
إلا ووجهتها إليه	يك بالافتقار الى غنائك

يوسف المجهوى

عضو جماعة كبار العلماء

صفة من كملت مروءته

دخل عبد الملك بن مروان على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فسلم ثم جلس ، فلم يلبث أن قام . قال معاوية لعمرو : ما أكل مروءة هذا الفتى !

قال عمرو بن العاص : إنه أخذ بأخلاق أربعة ، وترك أخلاقاً أربعة : أخذ بأحسن البشر إذا لقي ، وبأحسن الحديث إذا حدث ، وبأحسن الاستماع إذا حدث ، وبأيسر المؤنة إذا حولف . وترك مزاح من لا يشق لعقله ، وترك مجالسة من لا يرجع الى دينه ، وترك مخالطة للناس ، وترك من الكلام كل ما يعتذر منه .

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟ قال خالد : إن شئت يا أمير المؤمنين أخبرتك بخلة واحدة ، وإن شئت بثلثين ، وإن شئت بثلاث .

قال الخليفة : فما الخلة ؟ قال خالد : كان أقوى الناس على نفسه . قال هشام : وما الثلثان ؟ قال خالد : كان موقى الشر ، ملقى الخير . قال : فما الثلاث ؟ قال خالد : كان لا يحسد ولا يبخل ولا يبنى .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

في الميراث

جاء الى لجنة الفتوى الاستفتاءان الآتيان :

توفي شخص عن زوجة ، وأم ، وأخت شقيقة ، وأختين لأب ، وأربعة إخوة ذكور لام .
وقد ترك مبلغا من المال قدره ٨١ جنيها . فمن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل وارث ؟
ستيقنه أم سيد

الجواب :

جميع من ذكروا في السؤال يرثون : فلزوجة الربع ، وللام السدس ، وللأخت الشقيقة النصف ، وللأختين لأب السدس ، وللأخوة الأربعة للام الثالث ، يقسم بينهم بالسوية .
ونظرا لان مجموع هذه الأنصبة يزيد على الواحد الصحيح كما هو واضح ، تقسم التركة الى سبعة عشر سهما : فيكون للزوجة ثلاثة أسهم ، وللام سهران ، وللأخت الشقيقة ستة أسهم ، وللأختين لأب سهران لكل منهما سهم ، وللأخوة لام أربعة أسهم ، لكل منهم سهم واحد .
وهذه من المسائل التي يدخلها المول عند الفرضيين ، وهو يقضى بتوزيع القس بنسبة واحدة على أنصبة الورثة ، حتى تقسم التركة للجميع . والله أعلم ما

في الرضاع

طفل اشترك مع بنت في الرضاع من أمها ، ولنفرض أن الطفل يسمى محمد احمد عبد الله ، وأن البنت اسمها خديجة بنت مصطفى السيد ، ثم كبر الطفل المذكور حتى ررق بنتا ، ولنفرص أن اسمها عيوشة ، فهل يسوغ لمصطفى والسيد خديجة أن يتزوج بعيوشة بنت محمد احمد عبد الله ؟
محمد احمد عبد الله

الجواب :

لا يسوغ لمصطفى السيد أن يتزوج بعيوشة ، لأنه يعتبر جدا لها من الرضاع ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الضمام

التفسير

سورة لقمان

- ١٠ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّا أَنْزَلْنَا سَخْرًا لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْنَخَ عَلَيْكُمْ نِعْمَتَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمَنِ النَّاسُ مَنِ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عِلْمَهُ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابَ مُنِيرٍ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَسْبَحُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَنْدَعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » :

جرت عادة القرآن الحكيم أن يسلك في تربية النفوس وتغذية العقول أسلوباً بديعاً محكماً مفيداً ، فيمزج العقيدة بالدرهان ، وينتقل إلى الموعظة والحكمة ، ويستطرد في بيان الأحكام وتفصيل مكارم الأخلاق ، ثم يعود إلى العقيدة بفن جديد من أدلتها المرشدة إلى صحتها المثبتة القلوب على استيقانها وهكذا شأن التربية الصحيحة . ينتقل الربى بمن يتبعه من حالة إلى حالة حتى يكون في الانتقال استرواح له من ناحية ، وملاحقة أنواع النقص لتكليفها من ناحية أخرى ، فصلاهما في التنقل من طرد السامة ومجهد الأعداد بقول واستعداد ونشاط .

ولقد فصل لنا في أوائل السورة الكريمة نوعاً من براهين وحدانيته ، متضمناً الإرشاد إلى باهر قدرته ، في قوله عز من قائل : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » إلى قوله : « هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » . ثم انتقل إلى ذكر لقمان ووصاياه منبهاً على ما ينتهه العقل السليم من التعليم الحكيم والإرشاد العظيم ، ليدهم على أن ما أرشدهم إليه لو أنهم نظروا النظر الصحيح واستعملوا عقولهم بلا تعسف ولا اعوجاج في التفكير ، ولم تلعب بهم الخرافات وقبيح العادات ، لوصلوا بأنفسهم إلى الاعتراف بوحداية خالقهم وباهر قدرته وحكيم إرادته ،

وردت هذه الفقرة متأخرة فلم تأخذ مكانها التي كانت تلغى من الجهة

وواسع علمه ورحمته . وساق في وصايا لقمان ما ساق من بديع الحكم والوصايا بعد الوصية العظمى ، وهي « يا بني لا تشرك بالله »

ثم عاد بهم يلفت نظرم وينبه شعورهم الى ما غمروهم به من عظيم النعم التي لا يستطيعون سبيلا الى إنكارها ، ولا يجرؤون على نسبتها الى غير مالك الملك العزيز القدير ، فقال جل وعلا : « ألم تروا أن الله سخر لکم ما فی السموات وما فی الأرض وأسبغ علیکم نعمه ظاهرة وباطنة » وهو دليل ناصع وبرهان قاطع يحجب ريق المعاندین ویهتون وینبھرون دون أن ینفکر أحدہم فی نسبة شیء من ذلك الى غیر الله القادر القاهر . من ذا الذي یضح نفسه فیغوه لسانه بأن ذلك الصنم المحرقى هو الذي خلق الشمس والقمر والجوم والكواکب ؟ من ذا الذي تطاوعه وقاحتہ على الزعم بأن إلهًا من آلهتهم هو الذي خلق الأرض وث فيها من کل دابة ، ودرأ فیها من کل من النبات والحيوان زوجین ضما لتسلل أنواعہما ، وجعل کل ذلك مسخرًا للانسان فی نعمه ینفع به بكل ما وصلت الیه قدرته ؟ من ذا الذي يتناول فیقول إن إلهًا من تلك الآلهة التي ضلوا بها هو الذي یکور الیل على النهار ویکور النهار على الیل ، وخلق الکواکب والأفلاك وجعلها کلها مسخرة لنفع الانسان ؟

أجل : إنه لدلیل قاطع وبرهان ساطع على باهر الفسدة والتفرد بالالهية ، واستحقاق العبادة والتخصوع والطاعة له والزلی الیه ، فضلا عما تصمنه من التنبيه على باهر النعم وواسع الکرم ، وبإفاضة هذه المنن الجسيمة والرحمات العمیمة ، فاهیک تسخير السموات والأرض وما فیہن ، تقیص الکواکب من الضوء والحرارة والاهتداء بها فی ظلمات البر والبحر ما لا تدحل فوائده تحت حصر ، وتنتج الأرض وما یرث فیها من حیوان ونبات لنفع الانسان ما لا یقی به بیان . هو الخالق لها جمیعا ، وهو المنعم بها جمیعا ، أبایات الله تحجدون وبآلائه تکفرون !

انتقلوا الى أنفسکم وتفکروا فی نعم الله التي أفاضها علیکم فی أنفسکم من نعم ظاهرة وباطنة ، وقولوا ما تحس به قلوبکم وما تقتنع به عقولکم ، أکنتم واهبها لأنفسکم وأنتم فی حیز العدم ؟ إذا فهل تستطيعون أن تمسکوها وقد حصلت وأنتم فی حیز الوجود ؟ بک لا یجد أبله ولا متمننا يستطيع أن ینفوه بهذا مما یلفت فحته . إذا فهو معترف قهرا عنه أن یذعن أنه قد وهبها له واهب ، فهل هذا الواهب وهبها وهو غیر عليم بها أو وهو أحرر عن إيجادها وإيجاد غیرها ، أو وهو سبیء التصرف فی تدبیره وإحکام مصنوعاته ؟ هل يستطيع عاقل أو أبله أن یرغم شیتا من هذا ! اللهم لا ، إذا فالتی وهبکم تلك النعم هو القدير العليم الحكيم العزيز الرحیم . بقی شک فی هذا الذي تأخذونه من أنفسکم ومن نعم الله التي أسبغها علیکم فوق ما أخذتموه مما یرہکم من صنع الله فی ملکوت السموات والأرض ، وكيف سخر کل ذلك لکم تنفعون به أنى شئتم وكيفما قدرتم ؟ اللهم لا .

وإن تعجب فمعجب لهم أنهم مع وضوح هذه الآيات البينات والدلائل الساطعات يقوم فريق منهم فيجادل في الله بغير علم استفادة من عقله ، أو هداية جأته من رسول أو شدة ، أو حير علمه ، أو نور رباني في كتاب منزل من الله استضاء به في محادثته ، فهم لا يقتصرون على الإياء عن الرحمة وقسوطها ، بل يريدون على ذلك فيسرون مسلك سوء الذي اختاروه لأنفسهم ، ويجادلون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير في شأن الله الذي خلقهم ووجههم من انعم السماوية والأرصية والنفسية ما لا يستطيعون حدوده ، فلا يزال يخامرهم الشك في قدرته ووحدانيته وأمه وحده الحقيق بالصودية له والإخبارات إليه . لقد غمركم بما علمتم من جزيل النعم فما لكم إذا قيل لكم اتبعوا ما أنزل الله لكم على لسان رسل منكم إيماناً لنعمته عليكم وتعميماً لرحمته بكم تأييم وأيتيم ، وأعرضتم عن النعمة والرحمة التي رسلها إليكم صاحب الفضل الميم عليكم ؟

فإذا قيل لكم اتبعوا ما أنزل الله فلتن من تتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فمن آباؤكم ؟ أليسوا أفراداً مثلكم لا ميرة لهم عليكم إلا بسبق زمانهم في زمانكم ؟ فقد كانوا مثلكم أجنة في بطون أمهاتهم ثم انحدروا إلى هذه الدنيا لا يعلمون شيئاً فوهب الله لهم السمع والبصر والعقل لعلمهم يهتدون فهموا في غيهم يعمهون ، فما بعدوا عن الجادة وطمسوا الطريق على أنفسهم وعليكم من نعمهم تدارككم الله برحمته فأرسل إليكم رسلاً بهدياته ليرشدوكم إلى صحيح شريعته ، وذلك حلقة من سلسلة رحمته بكم ، أفتعرضون عن هذا وتقولون بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ولو كان آباؤكم قد ضلوا واتبعوا الشيطان عدوهم وعدوكم وقد دعاهم إلى عذاب السعير ؟ لو أنكم خلقتهم بلا عقول أصلاً لو سمعوا النور الذي يسع الهائم ، ولكن ما الخلل وقد وهب لكم النور فاعمضتم أنصاركم عن أن تستصينوا به إجماعكم برسلكم بالبينات ووهبكم الله عقولاً تميزون بها الحسنات والسيئات ، ولقمت نظركم ونهيت عقولكم إلى ما تسلسل عليكم من ربكم من أنواع الرحات ، ومع ذلك أيتيم أن تستمعوا إلى الداعي ، وأعرضتم عن الصالح ، وتغلبكم الاعتزاز بآبائكم والاعتزاز بما كانوا عليه فاتبعتموهم ، أفتبعونهم في كل شيء حتى ولو دعاهم الشيطان إلى عذاب السعير ؟

هذا ولقد جرننا الكلام في ربط الآية بالآيات السابقة إلى الكلام في بيان محصل معناها التركيبي ، ولا نرى بأساً أن نعود إلى الكلام على مفرداتها ، وإن كان المتبادر أن يسبق الكلام على المفردات بيان المعنى التركيبي ، إلا أن ما يبياه هنا لا يتوقف على شرح مفردات الآية الكريمة ، وفي بيان تلك المفردات مزيد بسط وتقرير لما قدمناه .

فقوله تعالى « ألم تروا » استفهام تقريرى يراد به حملهم على الإقرار والاعتراف بما سئلوا عنه ، إذ يرجعون إلى أنفسهم وإلى ما يحيط بهم ويشتمكون فيمن خلقه وأنشأه وسخره لهم فلا يجدون من يمكن أن ينسب إليه ذلك كله ، أو لبعضه إلا الله ، فيعرضون على الاعتراف به .

فغائدة السؤال إرغامهم على استخراج ذلك من مكنونات ضمائرهم وما أودع في طيات قلوبهم ، وهو أمكن طريق في الاستدلال والافتناع . وتسخير الشيء : سوقه الى تأدية الغرض المقصود منه بدون اختيار له في ذلك ، أو تهيئته للانتفاع به والاستفادة منه ، سواء أحصل الانتفاع أم لم يحصل . والتسخير تارة يكون بجعل الشيء المسخر منقادا لإرادة من سخر له ، كما في تسخير الدواب والآلات ، وتارة تتضمنه فائدة ينتفع بها المسخر له كما في تسخير ما في السموات من كواكب ونجوم ، ففيها من الضوء والنور والحرارة وأمثالها ما ينتفع به الانسان وإن لم تكن خاضعة لإرادته . فكلما القسمين يسمى مسخرا له حتى ما لا يدخل تحت إرادته ولا يتقاد له كسير الكواكب ، فيكنى في أنها مسخرة له أنه يمكنه الانتفاع بآثارها . وعلى ذلك تكون اللام في سخر لكم ، لام التعدي : صلة لسخر .

ومنها من يجعلها لام العلة ، أي جعل ذلك مسخرا لأمره لأجلكم ، فتسخيرها إنما هو لأمر الله ، وهذا التسخير من أجل منفعتكم . ونظيرها قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعا » إذ ليست اللام للتملك بل هي لام الأجل ، أي خلقها لأجل منفعتكم ، أي مكسبكم منها لتستفيدوا أعظم ما تصل اليه قدركم من منافعها .

« وما في السموات » من الأفلاك والكواكب والنجوم تيسر بمقدار معلوم ، فيوقتون بها مصالحهم ، ويضطون بها شئون معاشهم ومعاملاتهم وعباداتهم ، وتشرق عليهم فتبعث من ضوئها وعظيم آثارها ما يعود عليهم بالخير والنفعة ، وتغرب عنهم فيسكنون ويستريحون . « وما في الأرض » من نبات وحيوان ومعادن وقطع متحاورات تصلح للأنبات ، أو تستمد لاتحاد البيوت والحجرات ، وما في الأرض المياه التي سلكها ينابيع في الأرض ، فمنها العذب ومنها الأجاج ، ولكل منفعة وفائدة ، وما في الأرض أي على سطحها أو في السماء أي في العلو الرياح المسخرات ، فمنها البواقي ، ومنها ما يسوق الماء الى الأرض الخرز ، ومنها ومنها مما لا يحيط به الحصر .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » أي محسوسة ومعقولة ومعروفة لكم وغير معروفة ، أو حلية وخفية . فمن الأولى الوحود والجوارح والحواس ، ومن الثانية القوى الباطنة من العقل والفهم والتوفيق الإلهي . أو لظاهرة ظهور الاسلام والانتصار على الأعداء ، والباطنة الامداد بالملائكة . أو الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة ستر السيوف . وقد ورد شيء من هذه التفسير في المأثور . والآية عامة تتسع لها جميعا ولغيرها . فما ورد في المأثور مما يقتصر فيه على بعضها محمول على التمثيل لا على الحصر .

هذا وإسبغ النعم إفاضتها ، من قولهم : ثوب سابع أي طويل ضارب . والنعمة ما ينعم به العبد وينتفع ويستلذه ويستطيعه . وأصله على ما قيل هيئة التمتع ، شأن صيغة فعلة (بكسر التاء) كجمله ، سمى به ما يحصل تلك الحالة والهيئة ، ثم غلب على ذلك .

وقوله : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم » مسوق للمعجب من حالهم هذه مع ما سبق من اعترافهم ولو بلسان الحال بما أسخ الله عليهم . فالواو في قوله « ومن الناس » واو الحال ، أى سحر لهم وأسخ عليهم والحال أن منهم من يجادل الخ . وكأن قوله « ومن الناس » لتقرير التعجب ، أى المعجب كل المعجب أن يكون هذا من عداد الناس ومحشور في ذمتهم ، وهو جدير بأن يكون في عداد المعصيات بل أصل ، بما عطل من عقله وأهمل من الهدى الذى حباه الله إياه . والمجادلة المناقشة ، وهى إما من حذل الحبل أى فتله كان كلا من المتجادلين يقتل صاحبه ويلويه عن رأيه ، أو كان كلا منهما يحكم رأيه بطرق القتل والتقوية ، من فوئك جدلت الحبل أى لويته على الأول ، أو جدلته أى أحكمت فتله وقوته على الثانى . وإما من الجدالة وهى الأرض الصلبة ، كأن كلا منهما حريص على أن يصرع خصمه ويلقيه على الأرض .

والجدال فى ذاته بقصد المغالبة وإظهار التفوق ذميم ، فكيف إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ قالوا : والمراد بقوله « بغير علم » أى استنصار ويقى مأخوذ من دليل عقلى . « ولا هدى » أى إرشاد مستفاد من هاد ومرشد من رسل الله وصفوه . « ولا كتاب منير » أى كتاب منزل من الله يتق به العقل وقطعت إليه النفس . وإذا بطلت هذه الثلاثة لم يبق إلا التقليد ، وتقليد من ؟ تقليد آباءهم الذين لم يمتازوا عنهم بشئ فى الصلال بل السكل فيه سواء ، أفيتبعون آباءهم وإن قادوم إلى العذاب الذى دعاهم إليه الشيطان ؟ فالهجرة للانكار ، أى ما كان ينبغى ذلك من قوم عقلاء ، والواو للحال أو العطف على محذوف ، وجواب لو مستغنى عن التصريح به بما سبق ، أى ولو دعاهم الشيطان يتبعونه ، أو هى غير محتاجة الى جواب . والسعير من قولهم استمررت النار أى اشتد لهايبها .

ومن هذه الآية أخذ بعضهم عدم صحة إيمان المقلد . والمراد بالمقلد الذى لا يصح إيمانه هو من ليس فى قلبه أكثر من قوله : وجدت الناس يقولون قولاً فقلته ، فإذا رجع من تبعه رجع تبعاً له . وما الذى إذا سأله أجابك بما يدل على اقتناعه فى نفسه بما يعتقد كأن يقول لك مثلاً : من ذا الذى خلق هذه الدنيا ؟ ونحو ذلك ، فلا يكون مختلفاً فى إيمانه وإن عجز عن تقرير الدليل ودفع الشبهة عنه بالطرق الفنية .

اللهم احفظ عبيداً يعاننا ، واكفنا شر ما أئمننا ، وارفع مقتك وغضبك عنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، إليك عفو كريم غفور رحيم آمين
أبراهيم الجبالي

النثر الفني

بعد الاسلام

تحدثنا في المقال السابق عن الحقيقة التي يصح أن تكون مدلولاً اصطلاحياً لعبارة « النثر الفني » التي خلقها المنهج الحديث في البحث خلقاً جديداً لا يعتمد على أساس لغوي معروف في نصوص الأدب ، ولا يقوم على أصل تاريخي ، ومن ثم اختلفت عبارات الباحثين في تحديد معنى النثر الفني . وقد عرضنا بعض آراء المتأدين ، واتيسا الى أن مصدق هذه العبارة في الأدب العربي واسع المدى يشمل كل كلام انطلق من قيود الوزن والقافية في أسلوب يسمو بذاته عن لغة التخاطب العامة ، ويسمو بفكرته الى معالجة شئون الحياة الفكرية والاجتماعية دون أن يخصص لشيء آخر من قيود الصعقة الانشائية كالكتابة والتدوين ، أو الإخرف اللفظي ، والترتين السديعي ، أو غير ذلك مما لا يدخل في تكوين النثر ، وإن رعم كثير من الباحثين أنه مقوم من مقومات النثر الفني .

وقد عرفنا أن كثيراً من شيوخ النقد الأدبي القدامى يرون أن الخطابة بجميع فنونها من أول ما يدخل في مفهوم النثر الأدبي ، وهي أخت الكتابة وقرينتها ، فإذا وقع اتفاق المحدثين من المقاد على اعتبار الكتابة بأنواعها نثراً فيا لأنها تقوم على التفكير المنطقي ، فكذلك المحاورات والوصايا وغيرها من فنون النثر الأخرى لا تقل أثراً في التفكير المنطقي ورسم النفوس وتطبيق الاجتماع عن الكتابة والخطابة ، فهي نثر أدبي فني بهذا الاعتبار ، وكلها كانت معروفة عند العرب في العصر الجاهلي ، إلا أن الكتابة كانت قليلة الى جانب غيرها ، وكانت تدور حول أمكار خاصة ودائرة ضيقة ، لا تسوغ إدخالها في طور النثر الفني الأول ، بل إن ذلك الطور لا يشمل إلا في الخطابة والمحاوراة والوصايا والحكم والأمثال .

أما الطور الثاني للنثر الفني فيبدأ باشتراق شمس الاسلام في أفق الحياة العربية ، لأن أوضاع الحياة تغيرت عن مألوف العرب ، فتغير تبعاً لذلك أسلوب التعبير عنها ، فالقرآن الكريم وهو أول ما يلفت النظر في هذا الباب بفخامة أسلوبه وروعة تعابيره ، وحلال معانيه وصمو صراميه ، أحدث رجة في البلاغة العربية دفعتها الى الوجود حياً في كثير من الدهشة البالغة ، فكانت صدمة قوية على الملكات البيانية أصابها بما يشبه العمى الأدبي ، وهو وإن يكن له الاعتبار الأدبي الأول لكى أخرج من إطلاق اسم « النثر الفني » عليه ، لأن الفنية قد تشمر بالعمل والصنعة ، والقرآن كتاب الله الحكيم يجب أن يتره عن كل ما يشعر بشيء من ذلك ولو من طريق بعيد ، وهذا لا يمنع أن يرى أنه مهج أدبي جديد جعله الأدباء

وخول البلاغة الغاية التي تنتهي عند سفحها آيات الراعة والبيان ، لجمه لخصائص بلاغية ونكات بيانية لا يمكن أن يجمعها كلام سواء . وهذه ناحية من نواحي إعجازه يدور حولها البحث الفني لعلماء البلاغة وأئمة النقد الأدبي ، بل لأجل شرحها قامت علوم البلاغة العربية ، وبها تفرد كشاف الرعشري في نهجه وأسلوبه البياني القويم ، وبها اتجه البحث الأدبي في هذا العصر اتجاهها جديدا ، واتخذ النثر سمنا حديدا ، ظهر فيه أثر الأسلوب القرآني ظهورا بيّنا نفسه بأدنى نظرة ملقبها على سبيل المواراة بين كلام الجاهليين في خطبهم ومنون ترم ، وكلام خول الأدباء في صدر الاسلام ، فذلك السجع المتمثل الذي كان يجري عليه أسلوب الجاهلية أصبح سقيا لا يحفل به خطيب أو متكلم في صدر الاسلام . ولو أن باحثا عرض الى خطبة جاهلية في موضوع يقرب من الموضوعات الاسلامية كالخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة ، وهو خطيب مفوه يضرب به المثل ، وعرض الى جانبها كلمة لخطيب إسلامي ، لرأى الفرق شاسعا ، ورأى أثر الأسلوب القرآني في كلام المسلمين ارتفع به عن السجع الأخوف الى أسلوب مفعم بالروح القوى والمعنى السري والحيوية الخصبية .

أي أثر يبعث في نفسك إذا أنت قرأت قول قس بن ساعدة في خطبته المشهورة : « من طاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر وسات ، مهاد موضوع ، وسقف صرّوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور الخ ؟ » لا أثر يحرك كوامن النفس ويوقظها الى ظواهر الوجود وعبر الحياة ، ولكن انظر الى ما يبعث في نفسك من الاحاسيس حين تقرأ قطعة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فانها تحلى لك من معاني الحياة كثيرا مما كان حافيا عليك ، وتفتح أمام فكرك أبوابا من التأملات تنفذ منها الى خير كثير ، فاسمعه حين يقول : « إن من صرحت له العير مما بين يديه من المثلثات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، ألا وإن بليتكم قد عادت كمثنتها يوم نعت الله نبيكم صلى الله عليه وآله ، والذي نمته بالحق لتبلس بلبلة ، وتغرمل غرلة ، ولتسامل سوط القدر حتى يمود أسعلكم أعلاكم وأعلاكم أسعلكم ، وليستقن سابقون كانوا قد قصروا ، وليقصرن سابقون كانوا ستقوا . ألا وإن الخطايا حيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجها فتقحمت بهم في النار ، ألا وإن التقوى مطايا دلل حمل عليها أهلها وأعطا أرمثها فأوردتهم الجنة ، حق ومائل ، ولكل أهل ، فلتن أرم السائل لقد دعا فعل ، ولئن قل الحق فلعنا ولعل ، ولقلما أدير شيء فأقبل »

فأنت تلح في الكلام الاسلامي أثر الروح القرآني ظاهرا في الفكرة والمعنى والأسلوب الذي لم يلتزم فيه السجع ، ولم يحل منه ، ولكنه جاء حين استدعاء المعنى ، فاء حلو الحرس ساحر الرنين ، جميل الوقع متماوفا مع المعنى في قرن واحد ، على خلاف ما نرى في القطعة الجاهلية من رصف ألفاظ في جمل مستوية لا تعدو الاذن الى القلب .

الواقع أن النثر الاسلامي اتخذ القرآن إماماً له ، فتهذبت حواشيه ، وصقلت مبانيه ، وراقت أفكاره ومعانيه ، الى ما كان من أثر البلاغة النبوية التي استقت من منابع القرآن وأشرقت عليها أنواره فكانت من أجل مظاهره وأبلغ آثاره ، بل ربما كان أثر البلاغة النبوية في النثر الاسلامي أبين وأكثر ، لأن البلاغة السوية على سمو مقامها وبلوغها الحد الأعلى في البلاغة الادبية لم تعد أن تكون كلاماً بشرياً تطلع النفوس في محاذاته ومشاكلته ، وتعرف نهايات ما اشتمل عليه من الخصائص البلاغية والنكات البيانية ، ومن هنا يمكن اعتبار الكلام النبوي أول صورة للنثر الفني الاسلامي ، جمع عناصر الفنية التي اتفق عليها القدامى والمحدثون من الباحثين ، لانه قائم على الفكر المسطقي والمقل ، وقد يحل بشيء من الزخرف اللفظي والترتيب لبدئي إذا انساق مع المعنى ، وليس يشك أحد في أن الكلام النبوي يقرر حقائق فكرية ويرسم نفوساً ويلتصق اجتماعاً ، وتلك هي عناصر النثر الفني في نظر الباحثين .

وإذا كان قد استوى للنثر الفني في هذا العصر شرائط الكمال من ناحية موضوعاته التي أحدثها الاسلام ورسمها القرآن الكريم في التشريع والسياسة والاحلاق والتهذيب النمسي والقصاص والوصف ، والترغيب والترهيب ، وتحديد علاقات الفرد بالجماعة ، وعلاقات الجماعة بالفرد ، فانه قد اتخذ في اتجاهه التصويري مظاهر متعددة إن لم تبلغ درجة الكمال فهي بلا شك شديدة المغايرة لما كان معروفاً عند الجاهليين ، فالخطب الاسلامية وجدت من العناية والدقة ما جعلها أشبه بالرسائل المنمقة ، وظهرت الكتابة وحررت بها الرسائل في المعاهدات والمعاملات والدعوة الى الدين ، ونصح العامة وإرشاد قواد الجيوش الى واجبه ، وتحديد مماملة الولاة للرعية بالعدل والرأفة وإقامة الحدود وحماية الثغور . وفي رسالة عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري منحه للسياسة الشرعية وشرح وظيفة القضاء وواجب القاضي وطريق الدعوى وإثباتها ، مما هو صادر عن فكر مسطقي يقرر حقائق ويرسم نفوساً ويلتصق اجتماعاً . وفي عهد أمير المؤمنين علي أبي طالب الى الأشتر النخعي حين ولاه مصر آية بيضاء على استواء أسلوب النثر الفني في هذا العصر .

وإذا جاوزنا عصر صدر الاسلام الى ما بعده من عصر الدولة الأموية وجدنا الأمر يتسع تبعاً لشئون الدولة ، فقد نظمت الدواوين واتخذت نظم للرسائل والمكاتبات ، وانضات الى الخطابة عناصر جديدة تراها في خطب زياد بن أبي سفيان والحجاج وعبد الملك وغيرهم حتى عهد هشام الذي عهد بنظام الانشاء الى مولاه سالم الذي تتلمذ عليه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وانتقلت به الكتابة الى صنعة قائمة المعالم مستقلة المناهج ، وتبحرت فيها الأساليب ، وظهر أمثال ابن المقفع وأحمد بن يوسف والمحاظ ومن اليهم من فطاحل كتاب الدولة العباسية التي ظهر فيها النثر الفني ظهوراً بيناً يرى المحدثون من المقاد أنه أحق ما يصدق عليه

اسم النثر الفنى ، لما داخله من الصنعة والحذق والعظم الأجنبية التى نقلها المترجمون عن الأمم الأخرى العريقة فى هذا النظام ، وما يرال النثر يدرج فيرتفع ، ثم يهوى فينخفض حتى مادت اليه ديباحته فى الهضبة الحديثة ، وتجدد له رواؤه ورواقه ، وجمع بين رصانة القديم وحنة الحديث .

صاوى ابراهيم عمر جود

من يعتمد فى المشورة

قال حكيم : لا تدخل فى مشورتك بخيلا فى عطاء فيقصر بك ، ولا جنانا فى حرب فيغفوك ، ولا حريما فى بدل فيصدك ، فإن البخل والجبن والحرم طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن بالله .

وروى أن زيادا ، وكان من كبار الولاة فى القرن الاسلامى الاول ، استشار رجلا فى أمر ، وكان متحفظا ، فامتنع من إبداء رأيه قائلا له : حق المستشار أن يكون ذا عقل وأمر ، واختبار متظاهر ، ولا أراى كذلك .

وقال حكيم : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المقل حتى يجد ، ولا الراغب حتى ينصح .
وقال شاعر :

خصائص من تشاوره ثلاث	نفذ منها جميعا بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل	ومعرفة بحالك فى الحقيقه
فمن حصلت له هذى المعانى	فتابع رأيه والزم طريقه

وقال شاعر غيره :

وإذا الأمور عليك يوما أشكلت	فاعمد لراى أخ نصيح مرشد
واحفظ نصيحة من بدا لك وده	وبرأى أهل الخير جهدك فاهتد

وقال آخر :

فما كل ذى ود بموليك نصحه	ولا كل مؤث نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد	غشق له من طاعة نصيب

الاخلاق الفلسفية

— ٦ —

(ب) الضمير

سلطانه على النفوس:

إن سلطة الضمير التي يفرضها على بني الانسان واحدة وثابتة لا تتغير ولا تتخضع للظروف ولا تتحى أمام صرورات الحياة ، فاللغة التي ينطق بها الضمير حين يامر بالخير وينهى عن الشر هي واحدة في كل زمان ومكان ولدى جميع الأشخاص ، لا فرق في ذلك بين السيد والمبد ، والغنى والفقير ، والشاب ولشيخ ، والعالم والجاهل ، وإنها لغة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، وإنها لغة أمر قوية قاسية لا تعرف الرجاء ولا تألف الموادة واللين . ومنشأ هذه الوحدة في السلطة واللغة والقوة هو أن الضمير ينطق بصوت الله ويتكلم بلسانه ، ويمر عن أوامره ونواهيه . ولو أنه يتكلم بصوت أحد المحدثين القايين ، لاستطاع الانسان أن يسكته كلما أثقل عليه الأوامر وضيق على شهواته الخماق . نعم إننا نستطيع أن نعصيه ، ولكننا لا نستطيع أن نسكت صوته ، ولا أن نقطع هتافاته المتواصلة .

الأدوار التي يمثلها معنا الضمير :

إن أول دور يمثلته الضمير معناهو دور المكتشف المميز بين الطريقتين . المستقيم ، والمتنوى كما قدما ، فإذا أبرز نتيجة اكتشافه ، انتقل الى الدور الثاني وهو دور الناصح الأمين ، فإذا أتم مهمته ووقع العمل من الانسان بالفعل ، انتقل الى مرتبة القاضي العادل ، ثم الى مرتبة السلطة التنفيذية التي تتولى توزيع درجات المكافأة والعقاب ، فيمنع تقصداً وامر من الغبطة والسعادة على القاعين بالواحب والمستمكنين بالفضيلة ، ويحيل الدنيا في نظرم الى جنة واحة الظلال ، دانية الثمار ، لا يرى الانسان فيها ، لا يورا وجمالا وغبطة وسعادة ، ويعلاً قلوبهم بالأمل والتفاؤل والميل الى الاستراة من الخير . وهكذا كل فضيلة تتولد مما قبلها حتى تصبح أعمال الشخص سلسلة فضائل لا تفصل حلقاتها رذيلة واحدة ، ولكن الانسان إذا اقترف رذيلة ، فإن فكرة قاسية حادة تشتعل في داخل نفسه كأنها شعلة من نار لا تزال تأكل في فؤاده حتى تفضى عليه قصاءها الأخير ، أو هي كما يقول أحد الأخلاقيين الفرنسيين : « إنها تجلس بالليل الى جانب وسادته ، لتجمل نغاسه سلسلة اصطرايات ومفردات ، فإذا استيقظ تولت تمذييه بقسوة ومن غير انقطاع ، وتتبع خطواته حتى في ساعات العمل الشاغل وفي لحظات التسلية والسرور ، وإن مثلها كمثل المنة تمزق أجزاء الفؤاد بلا شفقة ولا رحمة »

جوامع كلم :

لما كان الفلاسفة الأوربيون قد وصفوا الصمير في جل صغيرة قيمة يصح أن تسمى بجوامع الكلم ، فقد أردت أن أترجم لك شيئاً منها
(١) سئل سقراط يوماً : من الرجل الذي يمكن أن يحيا سعيداً ؟ فأجاب : « إنه هو الذي لا يعمل ما يستوجب تأنيب الضمير » .

(٢) إن الصمير هو أصدق وأجل كتاب نملكه ، فيجب أن نترشد بصفحاته ، ونستمع بحمله وكلماته كلما حزيننا مهمة من مهمات الحياة « بأسكال » .

(٣) اذهب الى حيث شئت ، فانك ستجد ضميرك أمامك .

(٤) إن كل القضية معرضون للخطأ ما عدا قاضي القلب فانه معصوم .

(٥) ليس حكم الغير هو الذي نخشى ، وإنما هو حكم الوجدان « فيسيو » .

(٦) لا توجد سلطة أخرى تصدر أوامرها بحرية غير سلطة الضمير « جولي سيمون » .

مذهب بعض الأخلاقيين الفائيين بمحراز تغير الضمير ووجوب تربيته :

صرحنا أكثر من مرة بأننا نرى أن الضمير لا يربى ولا يهذب ، لأنه لا يفسد ولا ينحط ، وإنما الإرادة والخلق هما اللذان يتغيران رفعة وانحطاطاً ، ولكنا رأينا بعض الأخلاقيين يقول بمحواز تأثر الضمير بمقاسد الشهوات الحيوانية تأثراً يفقده هذاه ، ويحول بينه وبين الاستقامة والرشاد . وعندما أن الحيولة بين الصمير وبين هذا الفساد لا تتم إلا بالتربية والرقابة . وإني لموحز لك هنا رأي أحد هؤلاء الفلاسفة القائلين بإمكان انحطاط الضمير ووجوب تربيته ورقابته ، فاذا أتيننا على هذا الرأي وذكرنا لك وسائل تربية الصمير عند هذا الفيلسوف ، سندنا اليه بعد ذلك ما لدينا من سهام النقد في هذا الموضوع . واليك ترجمة هذا الرأي في شيء من التلخيص :

« إن حواسنا قد ربطتنا مع العالم الخارجي برابط بلغ من الدقة والاحكام الى حد أن افقتطنا لهذا العالم الظاهر اسما من كلمة « الحواس » فسميناه بالعالم المحس ، ولكن الخير والشر والفضيلة والرذيلة والطيبة والخبث والحب والبغض والاحترام والاحتقار ، كل هذه الصفات تكون لها علما آخر غير العالم الاول يسمى بالعالم المعنوي أو المعقول . ولكي نستطيع أن ندركه ونقدر قيمته ونحكم عليه ثم نستفيد منه كما استفدنا من العالم الخارجي ، قد منحنا الخالق قوة داخلية جذيرة بأدراكه ، وهي ما نسميه بالحاسة الخلقية أو الصمير أو الوجدان . فليس الضمير إدأ شيئاً جديداً يكتسب بالخبرة أو المران ، وإنما هو في داخل نفوسنا منذ

اللعظة الأولى لوجودنا ، لأنه لا يخرج عن كونه إحدى حركات النفس الناطقة التي هي المميز الوحيد للنوع الإنساني مما عدها من الأنواع .

والصمير هو القاضي الذي أجلسه البارئ على منصة القلوب الانسانية ، ليتولى إصدار الحكم على سلوك الحياة وأفعالها . غير أن الإنسان لا يكون ممصوما من الوقوع في ضلال الأحكام الأخلاقية أو من السقوط في هوة الخلط بين الرذيلة والفضيلة ، لا إذا كان وجدانه على لقطرة التي خلقه الله عليها بحيث لم تستطع القوات الأخرى أن تلوي عنه إلى ناحية لشر فتصبح أحكامه حائلة وسيرة موجاء ، وتسلب منه الدقة فيمسي ولا أسهل عنده من الانخداع بالظواهر وتفضيل الأدنى على الأعلى ، وتدثر منه معالم الهدى والرشاد فيصبح ولا شيء يهيم سوى المصالح المادية التي تعظم في نظره شيئا فشيئا حتى تصير هي مقياس الخير والشر المبسوط الذي لا يقام لغيره وزن .

أما الوجدان القطري الذي يتمهده صاحبه يدفع شرور النفس عنه ويتعود على طاعته والعمل بأوامره ولا يهمل فيه جانب الدقة والقسوة المتأصلين في طبيعته ، ويسير على ما يشرع له من قواعد ومناهج فيتلقى سرور وسعادة ما يصدره إليه من أمر بالخير ، وينظر ببغض وارتباغ إلى ما يوصمه أمام عينيه من صور الشر الكريهة ، فهو الوجدان الصالح المستقيم .

تربية الوجدان عند هذا الفيلسوف :

قرر هذا الفيلسوف فيما سلف أن الوجدان في أصله حير ومستقيم ، ولكن طوارئ الحياة المادية تستطيع أن تغيره ، فلتنبعث فيما عساه أن يؤثر فيه ، ثم لننظر بعد ذلك في وسائل الهدى . فأما المؤثرات السيئة على الوجدان فهي تلخص كلها في عامل واحد ، وهو أن يدع الإنسان غرائزه الحيوانية تسير في حرية لا حدها ، ويطلق العنان لشهواته المادية فيطغى تيارها الحار على كل عوامل الخير وأقباس السور الحائمة في نفس الإنسان فيبددها ويحجبها إلى ظلام دامس ، ويسلم القيادة العليا لتلك القوة الحيوانية ، فتسوء الحال ، ويصح الوجدان ضالا غير قادر على تمييز أي شيء . وهنا يمسي الإنسان ممرى من كل خير ، مجردا من كل فضيلة ، لا يكثر إلا بالمصالح والشهوات ، ولا يحترم إلا المصالح المادية المنتجة الموصلة إلى هذه الشهوات الحيوانية .

وسائل التربية والإصلاح في رأيه :

هناك وسيلتان لا ثالث لهما لتربية الضمير وإصلاح ما فسد منه بسبب طغيان تيار الشهوات عليه ، وهما : (١) الدين (٢) المدنية الصالحة . فأما الدين ، وهو القانون السماوي الطاهر

المعصوم الذي لا تستطيع الشهوات أن تطغى عليه ، هو يمين مقدار ما للشهوات الجسدية من سلطان يقفها عنده ، ولا يسمح لها بأن تتخطاه ، ثم يمد إلى الضمير سلطته الأولى وقوته البائدة . وأما المدينة الصالحة ، فمن لا تصعد بها إلا الثقافة والعلم واستنارة الذهن وتغرين العقل على معاون الضمير في مغالبة الشهوة وكبح جماحها .

وعندى أن الكائنات تنقسم بالنسبة إلى الضمير إلى الدرجات الآتية : (١) الجاد ، وهو مفقود الحيوية والإحساس . (٢) النبات ، وهو متمتع بحياة فقط . (٣) الحيوان ، وهو متمتع بحياة وإحساس ، ولكنه إحساس مادي محدود لا يشتمل صاحبه أنه موجود ، ولا بأن عليه دورا في الحياة يجب تحمله . (٤) الإنسان الناقص ، وهو متمتع بحياة وإحساس وشعور بوجوده وتمثيل دوره في الحياة لحسب . (٥) الإنسان الكامل ، وهو ما يشمل على كل مميزات الناقص ويزيد عليه بالضمير الأخلاقي المربي الذي لا يجدر بهذا الاسم إلا إذا توفرت له تلك التربية التي تمكنه من إصدار الحكم الحق على الأشياء ، وإلا فهو ضمير نفسى وهو يوجد عند الإنسان الناقص .

ومن الغريب أن هذا الأخلاق الذي يميز انخداع الضمير وضلاله ، ويوافق على تربيته وإصلاح ما فسد منه يمود فيقول عنه ما ترجمته : « إنه لصوت داخلي يلهمنا ما يجب أن نعمل وينذرنا بما ينبغي أن نتق وتنعيب ، وإنه ليس شيئا آخر غير جزء من العدالة الإلهية . إنه لنور خالد ينبسط فوق أعمالنا فيكشفها لنا بوضوح وجلال ، وإنه ليس إلا شعاعا من النور الأعلى » .

ولست أدري كيف يتصور هذا الأستاذ ومن هم على شاكلته من الروحانيين أن جره العدالة الإلهية أو شعاع النور الخالد يفسد وينحط إلى حد أن يجوز عليه الضلال والانخداع ؟ أنا لا ألوم الماديين ولا « القرديين » أصحاب نظرية التطور على ما يقولونه من جوار فساد الضمير وضلاله ، لأنه في رأيهم لا يزيد عن كونه حرافة حلفتها الصلوات الاجتماعية ، أو مادة دعت إليها المسافع العمرانية ، ومصالح الهيئة الاجتماعية . وإذا ، فلا لوم عليهم إذا آمنوا بجواز فساده وانخداعه ماداموا قد أرجعوا أصله إلى هذا العصر الوضع ، وأيقنوا بأن خالفه وما نمحه كل هذه القوة الوهمية إنما هو الإنسان ، ولكن الذي لا أستطيع أن أستسيغه ولا أن أفهمه هو تناقض هذا البعض من الفلاسفة الانسانيين والأخلاقيين الروحانيين الذين كانوا يستطيعون أن يحفظوا مذاهبهم من الخلط والاضطراب ، وأن يجعلوها مستقيمة مقربة لو أنهم قرروا أن الضمير لا يفسد ولا يصل ، وإنما يتغلب عليه ضجيج الشهوات فيحول بين الإنسان وبين سماع صوته ، فإذا حفت هذا الضجيج الشهواني وهذأت ثورة الرغبات المادية ظهر هذا الصوت العلوي واضحا وإن لم يكن قد سكنت لحظة واحدة ، وإنما كان السلطان لتغيره في أثناء هذه الثورة

كما قررنا ذلك مرارا . ولكن قد يقول لنا قائل : إذا كان الضمير من عالم الخلود فكيف استطاعت الشهوة أن تغلبه على أمره ؟ ونحن نجيبه بما أسلفناه غير مرة ، وهو . أن مدع الكون قد حدد اختصاص الضمير ، وقصر سلطته على الحكم والأمر والنهي والإنذار وإظهار الغلبة للطائعين ، وصب جامات السخط والتقريع على العاصين ، ولم يمنحه سلطة القضاء على كل شهوة ومحو كل رذيلة ، ولو أنه جلت حكمته فعل ذلك لقضى على نظام الكون الذى لا يمكن أن يكون على صورة أخرى غير التى هو عليها الآن ؟

دكتور محمد غنيم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

كلمات نابغة في العقل

قال ابو هريرة رضى الله عنه : لو ازدادت كل يوم منقال درة من عقل ما باليت ما فاتنى من أنواع التطوع .

وقال وهب بن منبه : مثل العقلاء فى الدنيا مثل الليل والنهار لا تقوم الدنيا إلا بهما ، فكذلك المرء فى الدنيا لا حظ له إلا إذا كان عاقلا .

وقيل لاثو شروان ملك الفرس . أى الناس أولى بالسعادة ؟ قال أنقصهم ذنوبا . قيل فى أنقصهم ذنوبا ؟ قال أنعمهم عقلا .

وقال حكيم : إذا كان العقل فى النفس اللبىة ، كان بمنزلة الشجرة الكريمة فى الأرض الذميمة يستفيع ينهرها على خشب المغرس ، فاحتد ثمر العقل وإن أذاك من لثام الناس .

وقال سعيد بن جبیر . لم تر عيسى أفضل من فصل عقل يتردى به الرجل ، إن انهكسر جبیره ، وإن صرع أنفسه ، وإن ذل أمره ، وإن اعوج أقامه ، وإن عثر أقاله ، وإن افتقر أغناه ، وإن عرى كساه ، وإن غوى أرشده ، وإن خاف أمنه ، وإن حزن أفرجه ، وإن تسكلم صدقه ، وإن أقام بين ظهراى قوم اغتسلوا به ، وإن غاب عنهم أسفوا عليه ، وإن بسط يده قالوا جواد ، وإن قصصها قالوا مقتصد (أى معتدل) ، وإن أشار قالوا عالم ، وإن صام قالوا مجتهد ، وإن أظفر قالوا معذور .

وقال شاعر :

ما وهب الله لاسرى هبة أشرف من عقله ومن أدبه
ها حياة النقى فان عندما كان فقد الحياة أجمل به

سيرة الزبير بن العوام

نسبه رضى الله عنه :

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في قصي ، وعدد ما بينهما من الآباء سواء . وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي ، فتجتمع مع أمها وزوجها في قصي ، وعدد ما بينها وبين زوجها من الآباء سواء . ولما ولدته أمه أطلقت عليه اسم وكية أخيا الزبير بن عبد المطلب ، وكان يكنى بأبي الطاهر ، وبقي معروفًا تلك الكنية حتى ولد له ابنه عبد الله ، وهو أول مولود ولد له هاجر بن المدينة المنورة بأوار السبي صلى الله عليه وسلم ، فكان بعد ذلك يكنى بأبي عبد الله .

مولده ونشأه :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة ، ونشأ بها في وسط متحضر متدين ، لأن مكة كما وصفها الله كانت أم القرى ومثابة للناس وأماناً ، يعد إلى كعبتها كافة الشعوب على اختلافهم في اللغات وتفاوتهم في الأخلاق والمعادات ، فصلا عن أنها في وسط عربي متحضر كينى تقيف بالطائف ، وبني الأوس والعنزة بالمدينة ، وبنى غسان بالشام ، وكل هؤلاء وأمثالهم يؤمونها دائماً لأداء نسكهم ، وعرض محاصيلهم وثمرات أفكارهم في سوق الأدب والتجارة . فنشأ الزبير في تلك البيئة أكسبته الأخلاق الفاضلة والمواطف النبيلة ، إلى ما فيه من كرم الأرومة وشرف العشيرة وكمال الفروسية التي نالت إعجاب النبي وتقديره العالي ، حتى قال له صلى الله عليه وسلم يوماً « فداك أبي وأمي » .

حياته وصفته :

كانت حياته رضى الله عنه في الاسلام كلها ممتلئة بعمل الخير ، والحد والسهر على نصرة الدين وجماعته ، وإعلاء كلمة الحق ، فكم قاتل في الله وكم بارز وكم قارع ، وكم خاطر بنفسه امتثالاً لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد نوه الله بشأته فأنزل الملائكة يوم بدر على صفته . وهو أحد العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولم يتخلف قط عن مشهد من مشاهد الخير . أسلم رضى الله عنه بدمية أبي بكر ، وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة ، وقد نال شرف الحجرة مرتين : مرة إلى الحبشة ثم عاد منها إلى مكة وبقي بها حتى هاجر إلى المدينة المنورة . وكان رضى الله عنه أسمى اللون ، رعة القامة ، معتدل اللحم ، خفيف اللحية .

شرفه ومنزلته في قومه :

حدث ما شئت عن شرفه من ناحية أبيه وأمه . فأمه حمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وخديجة خير أمهات المؤمنين حمة . هذا الى ما ثبت في المراجع المعتبرة من كتب السير أن عمر ابن الخطاب لما قتل استدعى ستة رجال من عتله قومه وسرواتهم وهم الذين توفى النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، فعهد اليهم بانتخاب أحدهم لخلافة ، وأوصاهم أن لا يمضوا اليوم الرابع إلا وعيهم أمير منهم ، فكان الزبير أحد هؤلاء الزعماء الستة . وحدثنا البخاري في صحيحه قال : أصاب عثمان رافع شديد سرة الراف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش قال استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال نعم ، قال : ومن ؟ فسكت . فدخل عليه رجل آخر فقال استخلف ، فقال عثمان : وقالوا ؟ فقال نعم . قال : ومن هو ؟ فسكت . قال فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال نعم . قال أما والذي نفسي بيده إله خير مما علت ، وإن كان لأحدهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد مدحه أمير الشعراء حسان بن ثابت الأنصاري فقصه على سائر الصحابة ، فمن ذلك قوله :

أقام على عهد النبي وهديه	حواريه والقول بالفعل يعمل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حبها	بأيض سباق الى الموت يرقل
فما مثله فيهم ولا كلف قبله	وليس له في الدهر قرين بمائل

كرمه ووفائه :

روى أنه لما نزل قوله تعالى في القرآن الكريم : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » قال الزبير : يا رسول الله : ونبي نعيم يسأل عنه وإعماها الا سودان البحر والماء ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إنه سيكون » . وقد حقق الله وعده نبيه الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، فقد ثبت في كتب السير الصحيحة أنه كان لازبير ألف مملوك يؤدون اليه خراجهم ، فكان يتصدق بكل ما فضل عنه ولا يدخر منه شيئا في بيته .

وروى عن هشام بن عروة أنه قال : أوصى الى الزبير سبعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان رضى الله عنه يتفق على أولادهم من ماله الخاص ويحفظ عليهم ماله . وأما قول : إن هذا منتهى الورع ، لأن الورع هو ترك الشهوات خوف الوقوع في المحرمات ، فكيف بمن يترك المباحات خوف الوقوع في الشهوات ؟ ومعلوم أن الزبير قد أحل الله له الاتفاق على أولادهم من أموالهم ولكنه احتاط لنفسه فجعل بينه وبين الحرام حصنين : الشهوات ، وبعض المباحات . ومع هذا السخاء النادر فقد مات رضى الله عنه عن ثروة عظيمة ، قال ابن عسبر في كتاب العقد المرید : أخذ عبد الله بن الزبير لولده الثالث من تركته أبيه بوصية منه ثم قسم الباقي . وكان

لوزير أربع نسوة فأصاب كل امرأة ربع الثمن ألف ألف ومائة ألف . وأنا أقول سنداً لهذه الرواية : إنه لا غرابة في ذلك ، فقد كانت أنصبة المجاهدين من الغنائم تكني لتكوين أعظم ثروة لسروات أمثالهم ، فقد ذكر بدر الدين العيني على شرحه للمعاري أنه قد أصاب كل واحد من فرسان المجاهدين في واقعة اليرموك على عهد أبي بكر أربعة وعشرين ألف مثقال من الذهب ومنها من القصة ، وهذه موقعة واحدة في خلافة أبي بكر ذات المدة القصيرة فكيف بالغنائم التي أخذوها أيام عمر وعثمان ؟ وقد أدرك الوزير رضي الله عنه زمن عمر وعثمان وصدرأ من خلافة علي ، رضي الله عنهم أجمعين .

فروسیته وشعاعته :

هو أول من سل سيفاً في الله عز وجل ، وذلك أنه شاع مكة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذه الكفار فأقبل الزبير رضي الله عنه عند ذلك يشق الناس بسيفه ، وكان النبي حينئذ بأعلى مكة فلما رآه قال له مالك يا زبير ؟ قال : يا رسول الله أحبرت أنك أخذت فعند ذلك صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ودعا له ولسيفه .

وحدثنا البخاري في صحيحه قال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب : من يأتينا ببحر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ، ثم قال : من يأتينا ببحر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال ابن لسكر بنى حواري وحواري الزبير » .

وحدثنا البخاري أيضا في صحيحه قال : « قال عبد الله بن الزبير : كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمرو بن أبي سلمة في النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مهتين أو ثلاثا فلما رجعت قلت يا زبنتك تختلف . فقال أو هل رأيته يا بني ؟ قلت نعم . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من يأتي بني قريظة فيأتيهم بخبرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جم لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال : فذاك أبي وأمي . »

وناهيك بموقف واحد من مواقفه المشرفة صدقيته وحده جيش الكفر جميعه : حدثنا البخارى في صحيحه قال : « إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للزبير يوم اليرموك : ألا تشد فندد منك ! فقال : إني بن شدت كذبتهم . فقالوا لا تفعل ، فعمل عليهم الزبير حتى شق صفوفهم فأوزم وما معه أحد ثم رجع مقبلاً ، فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربه يوم بدر . قال عروة : كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير .

ومن مفاحره أن عمر بن الخطاب قد عده بألف رجل في الجيش الذي أرسله إلى مصر مدداً لعمر بن العاص حيث كتب إليه يقول : « إني قد أعددتك بأربعة آلاف على كل ألف رجل مقام ألف » ، وكان الزبير رضي الله عنه أحد القواد الأربعة ، وكان جيش المسلمين إذ ذاك

بجانب جبل لمقطع، وجيش الروم داخل حصن منيع حوله خندق محكم الأبواب، فلما طال المقام وأبطأ الفتح وضع الزبير سلما إلى جانب الحصن وصعد عليه وتبعه كثير من المسلمين، وكان ذلك ليلا، فلما صاروا داخله كبر الزبير وكبر من خلفه ووضعوا السيف في حايته، وفر الباقيون من أمامهم، ونم لهم فتح الحصن على يد الزبير بعد أن مكثوا حوله سبعة أشهر تقريبا.

مقتله رضي الله عنه :

روى أنه شهد وقعة الجمل مع عائشة أم المؤمنين مقاتلا لأمي بن أبي طالب، فناداه على أن يفراد وقال له : أتذكر إذ كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى وجهك وضحكت، فقلت أنت لا يدع ابن أبي طالب زهوه، يعني كبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزده ولتقاتلنه وأنت له ظالم؟ فتذكر الزبير ذلك، فانصرف في الحال عن القتال وزل بوادي السباع ليصلي. فجاءه عمرو بن جرموز الجاشعي فقتله غدرا، ثم جاء سيفه إلى على فاستأذن فلم يؤذن له. ولما تناول على سيف الزبير نظر إليه مايا ثم قال : رحم الله الزبير لطالما هرج به السكرب عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم! ثم قال بشروا ابن جرموز بالنار فاني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : بشروا قاتل الزبير بالنار.

ولما مات رثته امرأته بقولها :

غدر بن جرموز بأشجع فارس	يوم الهياج وكان غير معدد
يأصمرو لو نهته لوجدته	لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
تكلتك أملك إن قتلت لسلما	حات عليك عقوبة المتعمد

وقال جرير ينعي على القاتل جرمة :

إني تذكرني الزبير حماسة	تدعو بطى الوادين هديلا
قالت قريش ما أذل مجاشعا	جارا وأكرم ذا القتيل قتيلا
لو كنت حرا يا ابن قيس مجاشع	شيعت ضيفك فرسخا أو ميلا

وكان مقتله رضي الله عنه يوم الخميس لعشر مضت من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين من الهجرة، وصره سبع وستون سنة. وقبره ناحية البصرة بوادي السباع. والله أعلم.

سيد أحمد متولى الشيخ

من علماء الأزهر برشيد

التطبيب في الاسلام

بدأت جميع الأمم عهد التطبيب بالخلط بين هذه الصناعة والعقائد الخرافية ، إلا الأمة الإسلامية ، فقد بدأتها على ما هي عليه اليوم من الاستقلال الفنى ، والدستور العلمى . وهذه ميزة من ميزات الأمة الإسلامية الكثيرة ، وهى من أكبرها شأنًا فى رأينا نظرا لاجتماع الأمم القديمة على الخلط بين الطب والروحانيات والشعوذة .

نعم إن عامة الأمة الإسلامية فى عصور بعيدة وقرية أخذوا إحدًا الأمم الأخرى فى هذا التخليط من طريق العدوى ، ولكن خاصتهم ظلوا أوفياء لدينهم فلم يقموا فى هذا الوم . ولما كان هذا الموضوع شأنًا من جهة أنه يرينا ناحية من نواحي العقلية الانسانية فى سذاجتها الأولى ، رأينا أن نلم بتاريخ الأمم حيال هذه الصناعة الكريمة .

الطب عند المصريين القدماء :

كان للطب عند المصريين القدماء شأن عظيم ، وكان له أقطاب صرفوا العمر فى دراسته ، والتنقيب عن أسرارهِ فى الهياكل والمعابد . وقد وصل إلينا شيء كثير منه مدونًا على ورق البردى . وقد عنى بأمره الباحثون فى قراءة الخط الهيروغليفى ، وترجمه إلى العربية العلامة الأثرى أحمد كمال باشا رحمه الله .

قال العلامة كليمان الاسكندرى ، وهو ممن لم اطلاع واسع على معارف المصريين القدماء : إن العلم المصرى كان مدونًا فى دائرة معارف رسمية تقع فى اثنين وأربعين مجلدًا ، وكانت الستة الأخيرة منها خاصة لعلم الطب ، وكانت عناوينها هكذا : تركيب الجسم الانسانى ، الأمراض ، الأعضاء ، العلاجات ، أمراض العين ، أمراض النساء . وقد ضاعت هذه الكتب ولم يبق منها شيء .

أما ما وجد من أوراق البردى فهما مجموعتان ، إحداها بيرلين وكانت موضوع بحث دقيق من العلماء هنالك . وثانيتهما أوراق العالم (إيبير) وعدد صفحاتها ١٠٨ ، وقد ترجم منها صاحبها نفسه جزءا . أما الدكتور جوهاشيم فقد ترجمها كلها وجعل عليها تعليقات . من هذه الأوراق ما كتب نحو سنة ١٥٥٠ قبل عيسى عليه السلام ، ويؤكد الأستاذ إيبير أن أوراقه هذه هى الجزء الرابع من دائرة المعارف المصرية القديمة ، وهى عبارة عن مجموعة وصفات علاجية ، ولكن الباحثين فى العلوم المصرية يخالف أكثرهم إيبير فى اعتقاده هذا .

أصل الطب فى اعتقاد المصريين : وحى إلهى ، أو علم ملكى ، فيقولون : إن (توت) أى

(هرمس) الذي يشبه اسكولاب عند اليونان ، هو الذي أوحى العلوم ، ومنها علم الطب ، الى المصريين ، وكان يعرف بانه مستودع الاسرار السحرية .

كان فراعمة مصر كلفين بتعلم الطب ، فان الملك (نيتي) ابن الملك مينيس عرف بتأليفه كتابا في علم التشريح ، وهو من ملوك الأسرة الاولى . واشتهر الملك نيفوروقس من الأسرة الثالثة بوضعه رسالة في الطب .

كان جمهور أطباء المصريين من طائفة الكهنة ، كما كان الشأن فيما يتعلق بعلم الملك والشرعة وغيرها . وكان الطلبة ياحذون العلم من المعابد ، وأشهرها معبد منفيس وطيبة وسابيس وشينو . وكانوا يحملون المرضى الى الهياكل لأجل العناية بهم هنالك .

كان للأطباء المصريين امتيازات مثل إعفائهم من الضرائب ، وكان الناس يحملون اليهم هدايا بدل الأجور . وكان منهم من هو موظف في الحكومة تنقده أجرة في كل شهر ، وكان الناس يستشيرونهم بدون أجر . ولكن عدم إمكان الطبيب المصري تخطي ما في الكتب المقدسة من الأصول ، تفاديا من عقوبة القتل ، كان حائلا دون تقدم علم الطب عما وصل اليه عند تدوينه في الكتب .

كان علم التشريح متأخرا جدا عند المصريين القدماء ، وبراعتهم في تصوير الجثث لم يكسبهم كبير شيء في معرفة أعضاء الجسم الداخلية . فان المشتغلين بهذه الصناعة كانوا محترقين جدا في نظر مواطنيهم ، وكان عملهم لا يتعدى استخراج أحشاء الجثث المبيعة للتصوير . وهذا لا يفيدهم شيئا من حقائق علم التشريح .

كان المصريون يعتقدون ، كسائر الأمم في عصرهم ، أن أسباب الأمراض أرواح شريرة تستولي على الأحساد فتمرضها . وكانت مرامي الطب عندهم إخراج العامل المرضى من الجسم ثم إصلاح ما فسد منه ، ولذلك وصف لهم خواص النباتات ودعائم لتعاطيها .

أما الرقى فقد كانت أهم ، وكان الطب لا يبعد الأرواح الشريرة عن الجسم .

الطب عند الكلدانيين والآشوريين والبابليين :

يوجد تشابه كبير بين الطب عند هذه الأمم وبينه عند المصريين ، فقد كانت الرقى والتعزيمات أساس الطب عندها ، كما كانت عندهم . ولكن هنالك دلائل تدل على أن الطب عندها لم يكن مقصورا على الطرق السحرية فقط . فقد روى هيرودوت أن المريض عند البابليين كان يعرض على جمهور الناس ليصف له من يكون أصيب بمثل مرضه العلاج الذي شفى به . ولكن ظهر فيما بعد أن كلام المؤرخ هيرودوت خطأ ، فإنه كان لدى البابليين والآشوريين أطباء من غير هؤلاء ، كما كان لدى المصريين .

أما الأطباء الكلدانيون فكانوا من طائفة السحرة ، وكانت قوتهم كلها تنحصر في هذه

الصناعة ، فكان جل اهتمامهم موجهاً الى معالجة المريض الملقى ، ولكنهم مع هذا كانوا يصنفون له تعاطي بعض الأعشاب .

كانت عقيدة الكلدانيين أن الناس محاطون بالآرواح من جميع الجهات منهم الطيب والخبث ، وكانت الطائفتان في حرب مستمرة ، وكانت جميع الأمراض تعزى للآرواح الخبيثة .

الطب عند الصينيين واليابانيين :

يقول الصينيون : إن الطب ظهر عندهم من زمان بعيد جداً ، فانهم يزعمون أنه كانت لهم حداائق لتربية النباتات الطبية قبل المسيح ثلاثة آلاف سنة . ويقولون بأن الامبراطور (هوانغ تى) ألف لهم كتاباً في الطب حوالى سنة ٢٦٠٠ قبل المسيح . وهذا الكتاب باقٍ عندهم الى اليوم فيما يدعون .

وقد استفاد الأوروبيون من معارفهم الطبية ، فذكر القس (دوهالد) الاطباء الصينيين وأثنى عليهم ، وذكر (القس حروزيه) بأن العالم (بور دو) أخذ مباحثه في النبض من الكتب الصينية .

كان أكثر اهتمام الصينيين موجهاً الى إتقان علم المادة الطبية . وكتابهم المسمى (بنتاو) يذكر ١١٠٠ مادة ويسرد خصائصها العلاجية ، وهو يعتبر كنز المادة الطبية لديهم .

أما الطب عند اليابانيين فقد كان مقتبساً من طب أهل الصين ، وكان مختلطاً بالعقيدة في تأثير الآرواح الشريرة في أجساد الناس .

الطب عند الهندين :

كان الطب عن أهل الهند بيد الكهنة البراهمة ، وقد عرف اليونانيون القدماء أيام مدنيتهم بأن الطب الهندي أرق من طهم ، ولكنهم لم يبينوا وجوه هذا الرق ، فقد تكلم ابقراط كثيراً عن علاجهم ، وكان تيوفراست اليوناني يذكر أعشاباً طبية أخذها عنهم .

كان الطب عند الهنود بيد رجال الدين كما قلنا ، وكانت أركانهم قائمة على قواعد وهمية ، وكتبهم الدينية تشهد بذلك ، فهي مملأة بالتعزيمات والرق والوصفات السحرية .

وفي كتابهم المسمى (ريخفيدا) تنويه بخصائص شفائية لأعشاب كثيرة ، وتجدد بجانبها دعوات تتلى لازالة كثير من الأمراض ، وهذه الدعوات يجب أن توجه لآلهة الشفاء ، أو الى الملائكات نفسها .

ثم ظهر لديهم العلم الطبى بمعناه الصحيح على يد جماعة البراهمة أنفسهم . أما زمن ظهور هذا العلم عندهم فما لا يستطيع تعييه ، ولكنه مع ذلك لم يخل قط من الاحتلاط بعقيدة الآرواح الشريرة ، فان عنها فصولاً مطولة في أكبر الكتب الطبية هناك .

الطب عند الاسرائيليين :

كان الطب عندهم محترماً لرجال الدين، ولم يكن لعلم التشريع عندهم من اعتبار، فإن الاسرائيليين كان يستمكرون بشرح جنة لتحريم الدين عليه ذلك ، بل كان لا يستطيع أن يلمس جنة إنسان أو حيوان ، وإلا اضطر أن يتطهر .

أما عقيدة اليهود في الأمراض في العهد الموسوي ، فكانت أنها عقوبة مرسلة من الله تعالى . فإذا انتشر الطاعون بينهم ظنوا أن ذلك نتيجة عصيانهم للأوامر الالهية . وكان بعضهم ينذر بعضا بنفثوا الأمراض كل نافثوا الناموس الالهي ، وكان ذلك يقوم في نظرم مقام الانذار بالمعذاب الاحروي الذي كانوا ينوّهون به في مواضعهم .

ومع هذا فقد كانوا يعمرون بعض الأمراض لأسباب طبيعية ، كتراكم الصفراء أو فساد الهواء أو تغيرات الجو أو عصيان قوانين الصحة أو حلول غفريت بالجسم لا دواء لآخره إلا الرقي والتعزيحات .

وقد وجدت في التلمود ، وهو كتاب الشرع اليهودي ، مبادئ علمية طبية لسير الأمراض وتشخيصها وأزماتها وغير ذلك .

الطب عند الفرس :

يصعد تاريخ الطب عند الفرس الى نحو القرن الرابع قبل المسيح عليه السلام ، وأصوله الأولية المذكورة في كتابهم المقدس المسعى زندا فستا ، وهذا الكتاب أحدث عهداً من كتب الفيدا الهندية المقدسة . والذي يختص بالطب من كتاب زندا فستا في الطب هو الفصل الذي عنوانه فندهداد ، وخاصة تحت عنوان فرجاد .

كان الطب عند الفرس خليطاً من التعزيحات والرقي وشيء من المبادئ الطبية العلمية . وعندما أن إلى الشرافريمان أطلق جميع الأمراض وسلطها على الناس ، وعارضه ارموزد إله الخير وعلم الناس جميع الأدوية الضرورية لحفظ صحتهم .

الطب عند اليونان :

لم يبدأ الطب عند اليونانيين بحياة أبقراط ، فقد كان موجوداً قبله ، بدليل أن أبقراط نفسه كان ينقل عن مؤلفات سابقة عهده ، ولكن فضل أبقراط ينحصر في تخليص هذا العلم مما كان اختلط به من الشعوذة والمقائد بالأرواح الشريرة .

الكتب التي أنفت قبل عهد أبقراط معدومة الآن ، فليس لنا أقدم من كتب هذا الطبيب .

والذى تعلمه أن الطب قبله كان في أيدي كهان اسكليبياد في هيكل اسكولاب، ولكن كان بجانب هؤلاء أطباء من غير طائفة الكهان ساعدوا على نشر صناعة الطب .

كان الطب في مبدأ تكونه عند اليونانيين سحريا وسائله الرق والتعزيمات، فكان من الصناعات السرية التي يحرم عليها رجال الدين . وكان المريض ينقل الى المعبد فيزوره فيه الاله في رعمهم ، ويرى ليلته تلك من الرؤى ما يدل تعبيرها على دائه ودوائه .

ثم لما نبغ الفلاسفة من أمثال أناكزيماندر وباراميد وهيراكليت وغيرهم، نظروا في طبيعة الانسان وتناولوا الكلام على صحته ومرضه ، وما يصلح له من الاغذية والاهوية والاحوال وما لا يصلح .

فلما جاء فينا غورس اشتغل بالطب، ويطن أن الفيلسوف أمبيدوكل كان طبيبا أيضا، ولكن لم يبق لنا من كتبه شيء .

ثم توالى فلاسفة بذلوا لعل الطب معظم أوقاتهم ، فبحثوا في خواص الاعشاب وتأثيرها على الجسم ، وفي آثار الاهوية ، ولم يهتموا النظر في أدوار الامراض ومضاعفاتها حتى بلغوا شأوا بعيدا ظهر بأجل مظاهره في مدرسة الاسكندرية التي أسسها بطليموس الاول والثاني ملكا مصر من اليونانيين ، وكان أبغ طبيب طهر منها جالينوس .

الطب عند الرومانيين :

لما قامت الدولة الرومانية انتقلت الطب اليوناني مختلطا بكثير من الخرافات . أما الطب العلمى فلم يصل الى الرومانيين إلا على يد الطبيب اليوناني أركاجاوس بن ليراياس سنة (١٩٢) قبل المسيح ، فقوبل باحتفاء كبير ، ولكنه لم يلبث أن سقط الى الخضم لخطئه في بعض الأعمال الجراحية . ولكن جاء بعده أصباء آخرون من اليونانيين أيضا فثبتت أصول الطب العلمى وأزهر فيها .

الطب عند العرب الجاهليين :

لم يكن العرب محصورين في شبه جزيرتهم قبل الاسلام ، ولكنهم اتصلوا بالتصفيين وسكان آسيا الصغرى والجزيرة ، وهاجر اليهم يهود من قطار مختلفة كانوا على صلة بالعلوم . فتعلم الطب من الجاهليين أفراد إشباطا لشهوة علمية ، ولكنهم لم يستطيعوا نشر ما عرفوه في أمتهم لانصرافهم عن غير ما ألفوه ، منهم الخثر بن كلدة ، كان تعلم الطب في بلاد الفرس .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وحسن العرب على التعلم والأخذ بأسباب النهوض والارتقاء ، لم يدعوا شيئا بعد قيام دولتهم يمكن تعلمه إلا أخذوه وحذقوه وزادوا عليه .

فلم ينته القرن الثاني حتى كانت بلادهم مطمح أنظار المستعبدين في كل فرع من فروع العلوم ،
ومنه الطب الذي برروا فيه وأوصلوه الى درجة من السمو لا يزال معها محل إعجاب الأطباء
المعاصرين .

ولو كما هنا تعدد الاتيان على تاريخ الطب لديهم لبيّنا مبلغ ما وصلوا اليه من إتقان هذه
الصناعة ، ويكفي في الدلالة عليها أن ملوك أوروبا وكبراءها كانوا يقصدون عواصم المسلمين
للتطبيب فيها بواسطة أطبائها .

ولكن الذي ينبغي أن الدين الاسلامي ، خلافا لما يروى عن سائر الأديان ، هو الذي جرد
علم الطب من خرافاته للأخذين به ، وأن أنتمه الأولين حروا على هذا لست فلم يخلطوا بين
الماديات والروحانيات فيما يتعلق به .

نقد عرض الله على الآخذين بدينه جميع الأصول التي يعتبرها الطب الرسمي اليوم القواعد الأولى
التي تصلح لدفع جميع الأمراض البدنية ، كالنظافة الجسمية ، وتجرى الطبييات في المأكل والمشرب
وترك الخبائث ، وعدم الاسراف في تناول الطبيات نفسها ، وعدم تعريض النفس للهسكة ،
والاعتدال في جميع المطالب الجسمية ، والأخذ باليسر حتى في العبادات ، وكل هذه الأصول
تعتبر قواعد مقررة لحفظ الصحة .

ولم يتوّه الكتاب الكريم في أي معرض من معارض الشئون الى الأسباب الرومانية ،
إلا في ناحية الإغراء على الشرور والآثام ، ولكنه ناط علاجها بقوة الإرادة الانسانية فقال
تعالى : « إن الذين اتقوا إذ مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » أي تذكروا
أوامر الله ونواهيه فأنصروا فضيل الشيطان فأقلعوا عنه . أما ما أمر به من الاستعاذة بالله ،
فذلك باعتبار أنه مصدر كل قوة ، والحق اليه يحده منها فيقوى على وسوسة الشيطان . ففرج
الانسان في كل هذا موجه لإرادته الشخصية لا لخاصة سحرية في الألفاظ . وليس في الكتاب آية
واحدة تشير الى اللجوء الى التمريمات والرق لدفع الأمراض ، بل فيه ما يشير الى اللجوء الى بعض
المواد لدفعها ، فقال عند ذكر المسمل : « فيه شفاء للناس » .

أما السنة ففيها كل البيان في هذا الشأن : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تداووا أيها
الناس فإن الله لم يخلق داء إلا خلق له دواء » . وهذا تصريح بأن المرض لا يلجأ فيه إلا الى الدواء
لا الى المعزمين والرافقين . ولما مرض أبو بكر مرضه الأخير قالوا له : أئلتمس لك طبيباً ؟ ولم
يقولوا له أئلتمس لك راقياً ؟

ومما فطرف به القراء هنا أن الاسلام أول من وجوب التمييز بين الطب المقرر
المستمد من العلوم والتجارب ، وبين الدجل الذي يدعيه بعض الناس لاستدوار أموال الناس
بالباطل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من قطب ولم يعلم منه طب فهو ضامن » أي مطالب

عما يحدث من ضرر بالمرضى ، وهذا بلا شك مبدأ يستمد إليه في تحريم مزاوله الطب على غير الذين درسوه في كلياته الرسمية .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توصيات بتعاطي بعض الفقير كالمسل وريت الزيتون والشونيز وغيره ، ولم يرو عنه شيء في سمعة الرقي والتزيمات .

نعم : إنه كان يرقى الأملال ، ورفياه لا يخرج عن الدعاء لهم وتلاوة شيء من القرآن تركابه ، باعتبار أنهم كانتات ضعيفة لا إرادة لهم ولا قوة . ولكن لم يوجد فيما كان يرقى به اسم لشيطان أو ملك أو مناجاة لروح كوكب .

وليس الأمر في الاسلام واقفا عند هذا الحد ، بل حرم النبي صلى الله عليه وسلم لبس الطلاس والتأثم ، حرصا منه على مبدأ عدم التمويل ، لا على الأسباب المعروفة ، وابتعادا عن وساوس الأقدمين وخزعبلاتهم .

فالطب ولد في الاسلام على الطريقة المثلى التي قام عليها في المهود العلمية ، لذلك عول المسلمون إيان نهضتهم على كتبه المقررة ، فترجوها الى لغتهم ، وأخذوا بما فيها وزادوا مادتها .

نعم قد أخذ المسلمون من لدن القرن الثاني والثالث إخذة الأمم الخالية في التمويل على التعاويذ والطلاسم والتأثم ، سرى اليهم ذلك مما ترجوه من كتب السريان والكلدانيين والأنباط وغيرهم ، ولكن ما اقترفوه من ذلك ليس من الاسلام ، وقد ذاقوا مرارته بما ابتقى على ذلك من انتشار الدجاجة وفنكهم بالناس بأساليبهم المصلحة ، والحكومات الاسلامية جادة اليوم في الأخذ على أيديهم ، ولا يشيننا وجودهم ، ماوربا وأمريكا لا تخجلون من أمثالهم مع بلوغ علم الطب فيهما أوجه الأعلی ؟

محمد فريد وجدي

ما يصفو به ود المتوادين

قال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : ثلاث يصفو بها ود أحيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه اليه .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وقال أبو المتاهية :

أحب من الاخوان كل موأى	وكل غضيف الطرف من عثرأى
يوافقنى فى كل أمر أريده	ويحفظنى حيا وبعد ممأى
ومن لى بهذا ليت أئى وجدته	فقاسمته مالى من الحسنات

الدروس الدينية

خطوة موفقة في سبيل التوفيق بين المذاهب

إن السعة الكريمة التي منها حضرة صاحب الحلالة الملك الفاروق في الاستماع الى الدروس الدينية ، تعتبر بحق حادثا حثلا في العالم الاسلامي الحديث ، سيكون من آثارها المباشرة نقطة العاطفة الاسلامية في نفوس الأمم الآخذة بهذا الدين ، والرغبة في استعلاء روحه الصحيحة ، وأصوله العالمية القويمة ، ولفت الرجال الذين تضلعوا في علومه الى القيام بواجباتهم الاجتماعية ، وتقريب مسافة التباعد بينهم وبين الذين يتربون تربية دنيوية . ولما كان هذا لا يمكن أن يكون إلا من طريق التناصب العقلي ، والترابط الدمى بين الفريقين ، فسينمر هذا الجهد انقلابا خطيرا في وسائل العلم ، وطرائق تجلية الأغراض الاسلامية ، ودفعها دحما فلسفيا يستهوى عقول المستمعين ، ويستنزل إلهابهم واستحسانهم . والأصول الاسلامية متى حليت على هذا النحو أسمرت النفوس ، وبهرت الألباب ، واستولت بسموها على الميول والمواطف ، ولا يكون لتيارها حد يقف عنده ، وخاصة في هذا العصر حيث وهت التعضبات المذهبية ، واسترحت عرى المعتقدات الوراثية ، وتطلعت الأرواح لعقيدة سامية يتأجج عليها الصدر ، ويشهد لها العلم .

وكان من فضل الله أن وافقت رغبة حلالة الملك في سن هذه السعة الكريمة عهد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغي ، فلقطام من هذه الناحية بما اعتبر تحديدا باهرا في حسن البيان ، وجمال الأداء ، وحلال الموضوع ، فكان عند عمل الناس بملوكبه في المعارف الدينية ، وسعة اطلاعه في العلوم الاجتماعية . وكان أثر هذا كله أن افتتحت الناس قاطبة بهذه الدروس وعلى رأسهم كبار العلماء وشيوخ الكليات والطلبة . ولم يروا بدامس أن يولوا وجوههم لغير الأستاذ الامام طاليس اليه الاستمرار في إلقاء هذه المحاضرات .

جال الأستاذ الامام في دروسه في نواحي شتى مما يهيم النفوس من أسرار الدين ، وأصوله العلمية ، وفيما له صلة بالعالم الانساني ومراميه الأدبية ، فتأدى من ذلك الى اختلاف المذاهب ، ونشوء الفرق ، وما ابتنى على ذلك من انقسام وحدة المسلمين ، ووقوع الشقاق بينهم ، فبين فضيلته الأسباب التي دعت الى ذلك ، والبواغث التي أوجبت ، ورأى أن هذا التحالف يمكن تداركه الآن ، أو على القليل حصره في دوائر ضيقة لوتولى أمره مجمع شرعى يؤلف خصيصا لهذا الغرض من أعلام الدين ، وحفظة ديناته .

مطلب تحليل القدر ، بميد الآثار في جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد وجهاتهم ، وتعيين غاياتهم ، وإعداد نفوسهم لفهم مرامي الاسلام ، وتحقيق مقاصده ، وحسم ذريع الخلاف

التي لا يصح أن توجد إذا راعى المسلمون الأصول العلمية والفلسفية التي فيها الحق في كتابه ،
وطالب الناس بالأخذ بها .

إن الذين يعرفون تاريخ الاسلام يدركون أن هذا الخلاف الذي وقع فيه المسلمون من لندن
القرن الأول للهجرة جر حروبا سالت فيها الدماء أنهارا تحت اسم حروب الخوارج . ولو أنعمنا
النظر في الخلافات التي أدت الى كل هذه المحارر ، وحدابها خلافات سياسية ، تولدت من اختلافات
في وجهة النظر فيمن هو أحق بالخلافة : أبو بكر أم علي ؟ وفي مسألة التحكيم بين علي ومعاوية .
هل يصح أم لا يصح ؟ وقد انقسموا الى ستة مذاهب رئيسية ، وم الأراقة والتجذبات
والصغرية والمحاددة والاماضية والشمالية ، وهي أسماء منحوتة من أسماء زعمائها . وقد انقسمت
هذه الفرق الى فروع كثيرة ، يحجمهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلي ومن كل مرتكبي الكبائر
من المسلمين . ومن الغريب أن الحوادث التي اقتضت ظهور هذه المذاهب قد انقضت ولم تنقض
المعادلات حولها بين المسلمين ، وكثيرا ما جانتهم على تحكيم السيف بينهم وإزهاق الأرواح البريئة .
أليس مما لا يتفق وأسط أحكام المنطق أن يعصى على أبي بكر وعلي رضى الله عنهما أكثر
من ألف وثلاثمائة سنة ، ولا تزال الأحقاد متأججة في صدور أنصار كل منهما ؟ ألم يقرأ الناس
بين حين وآخر أن قتالا قد حدث في الهند بين الشيعة وأهل السنة فخرج من الطرفين وقتل كذا
وكذا ؟ هل هذا من الاسلام ، بل هل هذا من العقل ؟ ألم يقل الكتاب وقد ذكر الانبياء
السابقين : « تلك أمة قد حلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ؟
فلو كان لدينا هيئة شرعية مؤلفة من كبار أئمة الدين كما يرتثيه فصيحة الاستاذ الامام لتبنت
أولئك المتعصبين الى حطهم ، ووقتهم شر ما يحنون على أنفسهم ودينهم .

ثم جاء دور علم الكلام من لندن القرن الثاني للهجرة فأدى الى انفراج في الآراء ، وخلافات
في وجهات النظر ، اشتغل بها أهلها أجيالا ، ودعت الى نشوء أكثر من سبعين فرقة ليس بينها
وبين ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصغر صلة ، جمعت كل ما يمكن أن يطوف
بالمقول من الخزعلات ، حتى إن منها من زعم أن طول الخالق سبعة أشرار ، وأنه جالس على عرش ،
وأن العرش لبسط من تحته . ومنها من وصل الى الإباحة الصرفة الخ الخ .

هذه المذاهب إن لم يكن لها أشباع ظاهرون في مصر ، فهي موجودة في بقاع أخر لا تزال
تعمل على إفساد عقلية المسلمين الى اليوم .

مقت المذاهب الفقهية ، وهذه لا غار عليها ، أسسها رجال كانوا مُسْلِمًا في العلم والورع ،
وهي التي تتوزع المسلمين اليوم في جميع أقطار العالم ، ولكنها مع سلامة جوهرها من كل شائنة
أدت الى فتح بين أشباعها في أدوار شتى ، وسالت بين أهلها دماء غريبة في بقاع كثيرة من الأرض ،
وقد كان حصص مصر منها موفورا ، فكثيرا ما أدى الجسدال بين الشافعية والحنفية ، وبينهم
وبين الحنابلة ، الى معارك سالت فيها الدماء . فإذا كانت قد هدأت هذه الثائرة بينهم منذ

نحو جيل فما ذاك إلا بسبب التطور الذى حدث فى العقول فى مدى القرن الأخير . وهذا التطور نفسه هو الذى يلهم النفوس اليوم وجوب تضيق مسافة هذه الخلافات . ولو تَعَرَّفْنَا حقيقة هذه الحاجة النفسية لوجدناها تعنى المطالبة بالعمل بمحضتنا من النظر فى أمور الدين ، كما عمل أسلافنا بمحضتهم منه . فإذا كانوا قد عملوا به فرادى جريا مع سنة العصر الذى كانوا فيه فبلغوا غايات بعيدة من الإصابة والتحقيق ، فحس نرجى أن نعمل به مجتمعين حريا على سنة عصرنا الحاضر ، ليكون عملنا أدعى الى الرضاء العام ، وأقفل فى الوصول الى الحقائق الاجتماعية . فإذا لم نستطع أن نحصل على توحيد المذاهب فالتساو نستطيع أن نصيق شقة الخلاف بينها كما يقول فضيلة الأستاذ الامام .

الاسلام دين مبنى على النظر المستقل ، والرأى الحر ، فهو يكره التقليد وينهى على التقليد ، ويطالب كل جماعة بالعمل فى حدود الأصول العامة التى رسمها لها ، وقد صرح جميع الائمة بأنه لا يجوز للقادرين على النظر وتقدير الأدلة أن يأخذوا بما قالوه تقليدا دون نظر ولا تمحيص . فإذا يعنى بعد ذلك إهمالنا لذلك كله ، وتمطينا أشرف موهبة وهبها الله للناس وهى النظر والتأمل ؟ هل يعنى شيئا غير أننا نزيد أن نعنى أنفسنا من القيام بنهيينا من إقامة صرح الدين ، لنكون مالة على من تقدمنا ، فى عصر لا يفتر لامة فيه أن تقوم على هذه الحالة ، اللهم إلا إذا كانت تريد من وراء هذا الإهمال أن يصبح الدين ، بسبب ما قسرب إليها من الشك فيه ، أثرا من آثار أسلافها ، لا عنصرها عاملا فى تكييف وجودها ؟

إن كل شئ فى الأمم الحية يحتاج للتجديد ، إن لم يكن فى جوهره ففى أسلوبه ، وفى عرضه ، وفى لهجته ، وفى أدلته ، وقد بدأنا نأخذ حظنا من هذه السنة فى لغتنا وآدابنا وماداتنا ووجهاات نظرنا ، أفهمل هذا بالنسبة لأشرف حاجات النفوس وهو الدين ؟ وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأن التجديد من طبيعة الاسلام ، فقال : « إن الله يرسل على رأس كل مائة من يجدد لهذه الأمة دينها » . وكيف يحصل هذا التجديد إذا لم يكن بالنظر فى كل ما تركه لنا الأولون ، والعمل على توحيدهِ وتليقه وتقوية أدلته وتدارك ما جد بما لم يكن له وجود على عهدهم ؟

ومن الذى يستطيع هذا كله غير جماعة تقوم عليه تختار من أعلم الناس بالدين وعلومه من جميع الشعوب الاسلامية ؟

هذا ما أراده الأستاذ الامام فى أحد دروسه الدينية ، وأقسم أنه لم ترتفع دعوة إصلاح فى جِواء العالم الاسلامى فى أى عهد من عهوده أرفع من دعوة فضيلته هذه ، فعلى المسلمين أن يدركوا ما تمنيه هذه التزعة الشريفة ، وليعلموا أن هذه الدعوة إن لم تنمر ثمرتها اليوم ، فستحقق غدا ما دام المسلمون يريدون أن يبقى دينهم حيا ، يحفز الى المسكانات العلى شعويا حية ، وهو جدير بذلك وهم يشهدون .

محمد فريد وجدى

وفد علماء كلية الشريعة عند الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر :

عقد علماء كلية الشريعة ، صبيحة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ اجتماعاً في دار الكلية ، ضم طائفة من حصرات أصحاب الفضيلة أعضاء جماعة كبار العلماء ، وتباحثوا في الموقف الذي يصح أن يقفه علماء الأزهر حيال استمرار فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في إلقاء الدروس الدينية في المساجد العامة التي افتتحها فضيلته في شهر رمضان المبارك ، ورغب جلالة الملك في حضورها .

وقد ألقوا وفداً وضع التماس يتضمن رغباتهم ، وقصد الوفد إلى إدارة المعاهد الدينية ، حيث قابل أعضاؤه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام شيخ الجامع الأزهر راجين أن يتفضل برفع شكرهم لحضرة صاحب الجلالة على ندائه الكريم للمسلمين يوم أول رمضان حثاً لهم على القيام بفريضة الصيام ، وعلى حضوره الدروس الدينية .

وعلى أثر تقديم التماس وقف فضيلة الأستاذ الشيخ محمد هلال الأيسري عضو جماعة كبار العلماء وألقى كلمة مستفيضة استهلها بتعداد ما أصاب الأزهر والأزهريين من مختلف الولايات والمصائب حتى كاد الأزهر يتردى في الهاوية ، لولا أن قيض الله له إماماً رفيع المصانة عظيم القدر . وأعقبه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الطيف السبكي وألقى كلمة في مثل هذه المعاني .

كلية فضيلة الأستاذ الإمام :

حضرات الإخوان :

أحييكم أطيب التحية . وبعد : فانه يسرني جداً أن أرى فيكم هذا الشعور ، شعور الاعتراف بالجميل ، وإن كنت أعتقد أنني فيما أحمله وما عملته إلى الآن لم يكن إلا القيام بالواجب على كل مسلم أن يقوم به ، ومع ذلك فهو إلى الآن لم ينتج ثمره الذي يريجه المسلمون .

نعم : أعتقد أننا في بداية الطريق . وأقول لكم إن القيام بواجب نشر دين الله لا يكفى فيه المجهود الفردي ، وإنما يحتاج إلى تضافر جهود المسلمين وأولى الرأي جميعاً ، وإنه ليسرني منكم هذا الشعور الذي جعلني أعتقد أن مهمة نشر الدين تحمل المحل اللائق بها ، وأنها آخذة في الازدياد .

ولقد سمعت من خطبائكم ما يفيد أن ما لا يسرهم قيام المسلمين بنشر دينهم ويغفون شيوخ الروح الدني بين المسلمين .

وأنا لم يلبثني هذا من طريق موثوق به ، فذلك فاني على فرض حصوله أنجاهله ولا أفرض وجوده ، لأنني لا أفهم أن مسلماً يسوءه نشر دين الله فضلاً عن أن يقيم المراقيل في طريق ذلك .

إن لكل شيء مهمة في هذه الحياة عليه أن يؤديها ، تلك هي طبيعة الوجود ، فإذا وجد شيء لا يقوم بتلك المهمة كان من الواجب أن يزول .

والأزهر كائن حي ، عليه واجب ، وله مهمة عليه أن يؤديها ، ولقد تلقى عن السلف الصالح ميراثا هو نشر كتاب الله ولقنته وسنة رسوله ولقنتها والعمل على إحيائهما . فإذا لم يتم بذلك وجب أن يزول من الحياة وكان من العيب بقاؤه .

واختتم فضيلته كلمته بقوله : إن مولانا الملك حفظه الله يسره ، ويرى من أجل أمانيه ، أن يكون الخادم لدينه ، والشديد المطف على أهله . وإني أبتهل الى الله أن يحفظه ذخرا للدين وعاملا على إحيائه . وإني أشكر لكم هذه الزيارة وهذا الشعور الطيب .

وفد كلية أصول الدين في رياسة الأزهر لشكر جلالة الملك

خطبة جامعة لفصيلة الأستاذ الامام

وفد الى رياسة الأزهر بعد ظهر ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٧ وقد من أصحاب الفضيلة علماء كلية أصول الدين بياضة عن علمائها لرفع شكر العلماء وولائهم لصاحب الجلالة الملك .

وكان الوفد برئاسة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي وكيل الكلية فالتقى كلمة عن الدروس الدينية ، وعن المواطف الدينية الشريفة التي يبديها جلالة الملك ، وعن واجب الأزهر في الدعوة الى دين الله وتنقية عقائد المسلمين مما يماق بها من البدع والخرافات ، ويظهر دين الله على فطرته الاولى من الحق .

وألقى بعد ذلك فضيلة الأستاذ الشيخ على محمود المدرس بالكلية كلمة أشاد فيها بمنافق جلالته الملك ، وانتقل الى الحديث عن فصيلة الأستاذ الاكبر وذكر ما كان يقوم به السلف الصالحون من الواقعين في عصور الاسلام :

ثم قدم الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي التماس كلية أصول الدين موقعا عليه من خمسين عالما خطبة فضيلة الأستاذ الاكبر :

تحدث خطباؤكم عن صاحب الجلالة الملك فاروق ، ومن حقنا جميعا أن نتحدث بشكره وأن نشيد بفضله .

فلقد جاء جلالته ونعوس المسلمين في مصر وغيرها منبهة لليقظة وللإستعادة ، وقلوبهم متوثنة مستعدة للعمل لحير دينهم وأنفسهم ، معتقدين أن ما حاق بالمسلمين من عسف ودل وهوان لم يكن سبيله إلا البعد عن الدين وعن العمل به .

حاشا الملك طارق في هذا الوقت والنفوس متهيئة لذلك ، فقاد هذه الحركة قيادة رجل ماهر حكيم بقط ، قيادة جاءت عن طمع فيه ، وعن سحرة أشاء الله عليها ولم يتكلمها . فهو ملك خبير طبيب ، مؤمن بالله وبدينه ، وبى في الاسلام من حمال وجلال وحق . هذه السجاية الشرفية التي لا كلفة فيها ، وهذا الاخلاص لله ولدينه ، سيجعلنا بقوة الله نصل الى ما نريده من توفيق وسعادة .

الدروس الدينية ودوامها :

أما الدروس الدينية فاني أعتقد أن إخلاصكم لى ومحبتكم لى أكبرت من شأنها عندهم بأكثر مما تستحق . فهذه الدروس كانت شرعا لبعض الآيات الكريمة ، قصدت به أن يكون في المستوى الذي يفهمه الجمهور لا في المستوى الذي يستفيد منه العلماء . فإذا قابل الجمهور بالحمد والاطمئنان والرغبة في الزيادة فاني أصدق ذلك وأحمد الله عليه وعلى أنهم أفادوا منه . أما إذا سمعت منكم أن هذه الدروس كانت محل إفادة للعلماء فهو ما أحمله على الظن وعلى محمل رضاكم وإخلاصكم ومحبتكم لى ، وأحمد الله على ذلك أيضا .

وإذا كان الجمهور متمطيا مثل هذه الدروس فبيكم والحمد لله كثرة من أهل الفضل والعلم والقادرين على ذلك ، فيكم كثيرون ممن يستطيعون أن يوردوا الجمهور المسلمين ما أداه الشيخ المرأفى وما لا يستطيع أن يداوم عليه لمشاغله التي تعملون بعضها ويحرق عنكم كثير منها .

ولذلك أرحوكم وأطلب اليكم أن تقوم كل قادر منكم بواجبه خدمة العلم والجمهور ، وخدمة هذا المعهد القديم . أرجو هذا منكم كأخ لكم وكشيخ للأزهر ، لا معتمدا على القانون ، بل معتمدا على تقاليد الأزهر لإفادة المسلمين ، وأترك لكم أن تملكون طريق هذه الإفادة الى الناس بما ترون من إلقاء الدروس أو المحاضرات أو المواعظ في المجتمعات أو في المساجد أو أمام المذابح .

وإني لا أتخلف عن أداء واجبي في ذلك مادمت قادرا عليه .

أيها العلماء :

ما دمنا جميعا نشعر بروابط المحبة والألفة بين قلوبنا ، ونشعر نفوسنا كلها وقلوبنا كلها وإخلاصنا كله بالتوجه الى الله وإلى خدمة دينه والإخلاص لمسلمين فنحن واصلون الى ما نبغى إن شاء الله .

المذاهب الاسلامية :

وبعد أن انتهى فضيلة الأستاذ الأكبر من كلمته السابقة تحدث الأستاذ الشيخ الجبال (١) عن المذاهب الاسلامية وماتأوله بعض الناس في كلام الأستاذ الأكبر عنها قائلا : إن هؤلاء

(١) كان الشيخ الجبال رئيس هيئة الأزهر الى الهند .

المثاولين لو شاهدوا ما شاهدنا من الخلافات بين طوائف المسلمين في الهند لراعهم ما راعنا ولا حزنهم ما امتد به حزننا على وجود هذه الخلافات بين أبناء ديننا حتى لتسيل الدماء بينهم في الشوارع لانتفه الأسباب ، وحتى ليكفر بعضهم بعضا .
فقال الأستاذ الأكبر :

إن وجود المذاهب واختلاف الآراء شيء ضروري لا بد منه ولا ضرر فيه ، ولكن الضرر كله والشركه من التعصب للرأى والمذهب . وصممتم وصممنا ما قاله الأستاذ الجبائي عن الخلافات المذهبية في الهند .

وقد جاء في كتاب من العالم الكبير السيد عبد الكريم الزنجاني كبير علماء لنحيف الأشرف ، شرح في فيه ما يرى من ضرر هذه الخلافات والخصومات بين المسلمين عن أشياء ما كان يجب أن يوجد عنها خصام .

فهذا الشعور بضرر التعصب للمذاهب والآراء يشترك فيه جميع العقلاء والمصلحين المخلصين في كل بلاد الاسلام ، وعلى الأزهر واجب عظيم يطلبون منه أن يقوم به .

الانصاف العلمى :

تصوروا أيها العلماء الخلاف الذى وقع بين الشافعية والمالكية عن البسمة وهل هي جزء من القرآن أو ليست جزءاً منه .

تصوروا لو أن هذا الخلاف وقع في هذه الأيام فادا تكون الحال ؟

كان أقل شيء يقع هو أن يكفر المختلفون بعضهم بعضا .

هذا خلاف عن القرآن والتواتر ، ومسكرهما كافر . وخلاف يتعلق بالصلاة وهي فخر الاسلام . ولكنه حدث وقام بين السلف فلم يكفر بعضهم بعضا ، ولم يمنع أحدهم من الصلاة وراء مخالفه .

ذلك لانهم كان رائد هم جميعا الانصاف العلمى والاخلاص للحق . فكان المخالف يرى أن صاحب الرأى الآخر يبنى ما رآه على دليل قام عنده أو أثر صح لديه ، ولا يخطر له أنه حالف لشهوة أو غرض . وهذا الانصاف والاخلاص للعلم والحق هما الذى سمي إليه ، فاختلاف مع الانصاف لا يجر الى التفرق . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا وتوجه الى قبلتنا فهو منا » .

طريق الوحدة :

أمامنا أيها العلماء طريق سديد الى الوحدة : هو أن نعرض آراء المذاهب والفقهاء

على الكتاب والسنة ، وأتم تعرفون أن كل إمام كان يقول به إذا صح حديث لم يكن يصح عنده فذهب ما يقضي به الحديث الصحيح .

فإذا فعلنا نحن ذلك وعرضنا ما نجد من آراء الفقهاء والمذاهب على كتاب الله والسنة الصحيحة ، فسنجد بعد حين أن المختلفين قد اتفقا في ساحة الأمان والتوحيد .

كان الإمام ابن حنبل يقول : إذا كان أمامك مقت واحد فاعمل برأيه ، وإذا كان أمامك مفتيان فلا تتبع أحدهما مقلدا ، بل اعرض الأمر على قلبك ، فأيهما أحسن قلبك منه الراحة فاتبعه . وهذا هو أسلوب القرآن ، وهذه حكمته ، في إعمال الفكر والنظر والرجوع إلى موهبة الله بالعقل والبصيرة . والإمام ابن حنبل يجعل راحة القلب قائمة مقام الرأي والدليل عند من لا يعطينهما . وهذه كما ترون حكمة سامية من حكم التشريع والعبادات في الإسلام .

الإسلام دين يكره التقليد ويدعو إلى النظر ، ولكن هناك مسألة تستحق أن تعرض لها لأفادة الناس هي تقليد العوام من مقلدة المذاهب ، فأنا أرى أن المقلد لا يجوز له أن يتحول عن مذهب إمامه في المسائل التي قلده فيها بالتفعل بل عليه الالتزام بها .

فمن كان شافعيا مثلا : يصل ويتوضأ على مذهب إمامه ، فلا يجوز له أن يعمل عن مذهب إلى مذهب آخر في الصلاة ، بل يجب عليه الالتزام ، حتى لا يكون متابعاً للرخص .

أما في المسائل التي لم يعمل بها على مذهب إمامه فله أن يقلد فيها مذهباً آخر إذا رأى أن داليل هذا المذهب في هذه المسألة أرجح من دليل مذهب . ففي المثل السابق يستطيع هذا الشافعي أن يحج على مذهب آخر على الشرط الذي شرطناه .

بجمع تشريعي للمسلمين :

هذه أيها العلماء مسائل في الفقه الإسلامي مما لم يترك سلفنا الصالح صغيرة ولا كبيرة فيه إلا وناها بختنا .

ولكن هناك مسائل كثيرة حدثت على حياة الأمم والأفراد لم تكن موجودة في عصور التشريع القديمة ، فلم تعرض لها الفقهاء ، ولم يبحثها الأصوليون . ومن رأيي أن مثل هذه المسائل وهي كثيرة هامة ، لا يصح أن تتركها للرأي الفردي ، بل يجب أن تعرض على هيئة من العلماء كجمع تشريعي لمستطيع أن نسن لها تشريعا ، وأن ندخلها في نطاق القواعد الأصولية ، وبشكل بها ما يحتاجه المسلمون الآن في حياتهم الخاصة والعامة .

مادام إيماننا في كل ما نعمل هو الانصاف العلمي الذي ذكرناه والذي كان ديننا السلف الصالح ، فنحن نستطيع أن نعيد المسلمين ، وأن يصلح الله بسميتنا وصفاء قلوبنا ما هو فاسد الآن من أحوالهم .

تاريخ الادب العربي

قبل الاسلام (١)

تحيط البحار ببلاد العرب من ثلاث جهات ، وتفصلها صحراء الشام عن بلاد آسيا الصغرى وحضارتها القديمة ، ويتألف داخل البلاد من سطح مرتفع يبلغ مساحة غرب أوروبا ، وتحيط به الحمال التي تعمق المرور الى البحر ، وأما السواحل فقليلة التعاريج ولا تسمح باتخاذ المرافئ الهادئة للملاحة البحرية إلا في الجنوب .

والهضبة الداخلية محرومة من الأنهار دائمة الجريان ، فكانت زراعتها تحت رحمة الأمطار القليلة التي تجود بها السماء في أزمان متقطعة بغير انتظام ، ولذلك نرى أن المحصولات الزراعية لتفاتها لم تستدع الاهتمام والعناية بها إلا في مناطق ضيقة في الغرب والجنوب ، وأما الجزء الأكبر من البلاد فلم يكن ليجود بأكثر مما تعيش به الابل ، وهي أكثر حيوانات البدو قناعة ، وأفدرها على التنقل ، فاهتم العرب بتربيتها حتى أخذت في حياتهم المرة الأولى . وكان البدو يحتقرون مواطنهم من سكان الأقاليم الخصبة الذين استهوتهم المعيشة الآمنة المطمئنة مؤثرينها عن مخاطر الصحراء والحياة الحرة بها .

وافترقت جزيرة العرب كذلك الى المراكز التي تجتمع بها الأهالي أفواجا فنقوم بينهم حياة مدنية مشتركة ، فلم يوجد من هذه المدن سوى ما عرف في السواحل الغربية والجزيرية ، ولم ترق هذه الحواضر سدا لحاجة البلاد ، وإنما نشأت تبعاً لمقتضيات التجارة العالمية التي تنقل محصولات الهند الى بلاد الغرب ، وكانت هذه التجارة في أيام ازدهارها سبباً في قيام حضارة عظيمة في جنوب جزيرة العرب ، تدهورت في القرون الأولى من التقويم الميلادي بدون أن يحفظ لنا التاريخ عنها شيئاً من التراث الأدبي . وأما المدن التي على السواحل الغربية واشهرها مكة ، فكانت أقل روتقا ولكنها أثبتت قدراً ، فانها لم تنشأ بسبب موقعها الطبيعي ، بل بفضل جاذبية الأماكن المقدسة بها التي يهرع الى مواسمها البدو من كل ناحية ، حيث يجتمعون آمنين في حرمة المكان ، ويتبادلون الزائد من محصولهم بمنتجات الحواضر الخارجية . ولقد استطاع رجال هذه المدينة من آل قريش بسياستهم الحكيمة أن يخضعوا الاسواق الأخرى المجاورة لسلطتهم ، حتى تمت لهم السيطرة على مجاراتهم .

(١) مترجمة من الألمانية خلا من كتاب « تاريخ الادب العربي » لمستشرق الألماني الكبير الأستاذ

الدكتور « بروكلمان » .

ولم يكن لسكان الحضرة على البدو من امتياز إلا في البادية المادية ، أما الصحراء فكانت موطن الجزء الاسمي من الأمة العربية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يمثلون الشعور الوطني على قدر ما تسمح به الحياة وقتئذ . وأما سكان المناطق الشمالية من بلاد العرب فكانوا يتمتعون بحياة بلغت درجة عالية في أنظمتها السياسية لمجاورتهم الإمبراطوريتين العظيمتين في آسيا الصغرى : الإمبراطورية الفارسية ، والرومانية الشرقية ، واحتكاكهم المتواصل بهما ، وبمؤسسات الولايات التابعة للفرسان والفرسيين في دمشق والحيرة لصدد تيار البدو الجارف .

لم يكن الخلاف في اللغة بين سكان بلاد العرب على تفاوتهم البائن ، بقدر ما يتوقعه الباحث في تاريخهم الأدبي بالرغم من اتساع البلاد التي جاءها البدو وتراعى أطرافها ، وفضلا عن تفرق قبائلهم وتعدددها ، فانما نجد أن لغة واحدة صمت جميع البلاد من أقصاها الى أقصاها ، اللهم إلا بين أهل الجنوب حيث نشأت مع حضارتهم الممتازة طرائق خاصة للكلام فرقت بينهم وبين سكان الصحراء . وغنى عن البيان أنه كانت هناك لهجات متباينة يسهل على الباحث الآن استنتاجها دون الجزم بصحتها ، ولكن هذه اللهجات لم تكن بعيدة الأثر ، ولم تقو على فصل قبائل العرب بعضها عن بعض ، خصوصا أن حياة البدو الدائمة النقلة كانت تجمع بين قبائلهم ، وتوثق صلاتهم من آونة لأخرى .

ويستدل من الأنباء التي ترجع الى القرن السادس من الميلاد ، وهو أبعد عهد لنا بالرواية ، على أنه كانت هناك لغة فوق اللهجات المتعددة ، اشترك للسواد الأعظم ، وخاصة السادة ، في التفاهم بها ، تلك اللغة هي العربية على وجه الإجمال . والباحث اليوم لا يستطيع أن يعرف عن أصل نشأتها إلا ما يستند على الفرض والتخمين ، ولما كانت معلوماتنا عنها تقتصر على معرفتها لغة للشعر لحسب ، ولا علم لنا بها كأداة لقضاء حاجات الحياة ، فانما نفترض تكونها وتطورها مع ظهور الشعر ونشأته الأولى ، وبما أن جميع القبائل على اختلاف لهجاتها اشتركت في قول الشعر ، فإن الأغلب على الظن أن اللغة العربية تفذت من جميع هذه اللهجات ، فأخذت منها ما راق سامعيه واتفقوا على قبوله ، أسوة بما جرى على الشعوب الأولى حيث نشأت فيها لغة للأغاني فوق الخصائص المميزة لقبائلها .

ولنه الأغاني العربية القديمة تكونت مع كل من اللغتين القحطانية والأمهرية ، الفرع الجنوبي للغات السامية ، وتأخذ بينها جميعا المنزلة الأولى بدون جسد ، وهي وإن سبقها غيرها من اللغات السامية في قدم العهد على الاطلاق ، أو في بعض التفاصيل ، فانها كانت بلا شك أقدرها جميعا على التطور ، وأكثرها توسعا وإلما بالخصائص والمميزات المشتركة ، مع احتفاظها بالوضوح والجلالة التام .

ويرجع تاريخ الشعر في جميع الشعوب الى عصور قديمة لا يذكرها التاريخ ، ولم تثبت الرواية ، ولا يأمل الباحث في تاريخ الأدب العربي أن يعرف شيئا عن أصل الشعر ونشأته عند العرب ، إلا ما يرجع الى التخمين بطريق المشابهة والمماثلة على وجه العموم .

وقد ثبت لعلماء النفس أخيرا أن الكلام المنظوم المقفى ذا الأوزان الثابتة نشأ في مختلف الشعوب مع الحركات الجسمانية المنتظمة التي يفرضها العمل على الانسان ، كملاج تقصافى منما للتعبد والاجهاد ، وقياسا على هذا رأى ذهب بعض المؤرخين الى أن بدء الشعر العربي يرجع الى الحركات المنتظمة في وقع أقدام الابل ، وأن نشيد الرحاة يحتفظ حتى اليوم بالبذور الأولى للشعر العربي ، وما يؤيد هذا رأى أن شعراء الأغاني الفنية في العصور التاريخية الأولى في الأدب العربي كانوا ينقلون بخيالهم الشعرى لتصوير حياة الانسان العائش في البادية .

وبدئى أن هذا رأى هو إحدى وجهات النظر لبيان العوامل التي دفعت العرب الى المقال الموزون المقفى ، ولكن هناك من التأثيرات النفسية ما هو أبست للانسان على التعبير من مشاعره وأفكاره ، فقد كانت العاطفة الجسمية من أهم التأثيرات النفسية عند أغلب الشعوب ، وكذلك كانت الحال عند العرب ، ولو أن الغزل والتشبيب بالنساء لم يظهر في الأدب العربي إلا متأخرا بالنسبة الى الحزن والحسرة على فراقهن بسبب رحيل قبائلهن ، إذ كانت تجتمع القبائل المختلفة صيفا حول المراعى والمروج التي تكثرها الابل ، فيتخلص الأعرابي من همه ويرتاح من متاعب الحياة فيحاول له التقرب من النساء والتعجب إليهن ، حتى إذا ما أجدبت الأرض من حشائشها ، تفرقت القبائل وقطعت العلائق القريبة العهد فتتمزق الاوصال الرقيقة ولا تترك سوى آلام الحب وشجونته التي ظهرت في أشعارهم الأولى .

وأما عاطفة الحب نحو الأقرباء ، فلم تظهر في الشعر العربي إلا بعد تقدم ، ففي المراثى نجد كذلك أقدم مصادر الشعر العربي ، وكانت في أول أشكالها — النجيب والعويل — محتكرا لنفساء ، ولذا فانا نراهن بعد التطور المعنى لهذه الناحية من الشعر ، قد فزق أيضا بالنصيب الأكبر ، فكان عدد الشعراء منهم في هذا الميدان يفوق بكثير الشعراء من الرجال الذين ظهروا فيه . ودل تاريخ الأسرة العربية على أن حق الرءاء كان في أغلب الأحوال من نصيب الأخت دون الزوجة . واقتصرت المراثى قبل كل شيء على إظهار التوجع ومدح المنوفى وذكر شيمائه .

واعناد العرب كذلك إظهار البغضاء والضغينة بالكلام المقفى تعريجا لصدورهم وإيذاء لغرمائهم ، وكانوا يرون في الهجاء ، فضلا عن إهدار كرامة العدو وتلم شرفه ، قضاء على مستقبل حياته ، ولذلك نرى أن طبقة الشعراء ممن برزوا في هذه الناحية من الشعر ، قد زادت عند الأعداء رهيبتهم ، وبالنسبة الى الأصدقاء في إكرامهم .

والى جانب الحب والبغض كانت تمجيش في صدور العرب من التأثيرات النفسية الرغبة في المغامرة بالذات أو الاستدعاء أو المشائر ، ولقد امتازت عبارتهم في هذه الناحية من الشعر بأنغم الألفاظ وأكثرها مقالة ، وامتد ولهم بالفخر الى مدح رفيق الصحراء والنخى بحاسنه ، فنالت الابل من أشعارهم الوصفية جانبا كبيرا ، وبلغت حماسهم في هذه الناحية درجة يتعذر على غيرهم من الأجناس إدراكها ، وذلك لقيمة الابل للمعظمة في الحياة البدوية . وأما أشعارهم في وصف الظواهر الطبيعية وأحوال الجواء فكانت أقرب الى إدراكنا اليوم ، وكانت رحلاتهم الطويلة في جوف الصحراء هي الباعث لهم في أغلب الأحوال على قول الشعر في وصف الطبيعة ومظاهرها المتعددة .

والأصقاع العربية القاحلة وقفارها الموحشة لم تدع للتغيير في مناظرها سبيلا ، وكانت حيوانات الصحراء القليلة هي وحدها التي بعثت الحياة في خيال البدو ، فظهرت في أشعارهم في وصف الصيد والقنص ببراعة فائقة ودقة بالغة .

وتلك كانت أهم البواعث النفسية التي غلبت في أشعار العرب القديمة التي حفظها لنا التاريخ حتى اليوم ، وقد يستعزى النظر أن الرواية لم تأت بشيء من مشاعرهم الدينية ، على أنه يمكننا القول على وجه اليقين بأن العرب لم تستعبد دياناتهم كما استعبدت من قبل غيرهم من الشعوب السامية كالبابليين مثلا ، خصوصا أن احترامهم لأفئدتهم وتبجيلهم لمعبوداتهم كما قد أخذوا في النقصان الى حد الزوال في القرون السابقة للإسلام ، ولم يبق لهم من العقائد الدينية إلا فكرة فناء العالم البشري ، وكانت هي عزاءهم الوحيد في مناصب الميأس ومعقات الحياة ، ومع ذلك لا يبعد كذلك أن كانت لهم أشعار دينية لم تصل إلينا لا بسبب عدم اهتمام الأجيال الوثنية الأخيرة وقلة أكثراتهم بالثغور الدينية لحسب ، ولكن - وهذا أكثر ترجيحا - يحتمل أن تكون بنفلة رجال الإسلام قد امتدت إليها ، وحرمت تاريخ الأدب العربي من روايتها .

ويختلف عادة المقال الذي يعبر به الانسان عن مشاعره القوية عن الكلام العادي ، بما يتطلبه أولا من تمديدات صوتية في الالتقاء ، ثم بما يدخل عليه من محيزات خاصة في الألفاظ ، فانقسم المقال الى أجزاء لم يراع في أول الأمر التماثل في تركيبها ، ولكنها تنشد الانسجام في الجال الدوق بواسطة تقرب التجانس بينها ، وأول حلية أدخلها العرب عليها هي السجع ، فنشأ بذلك النثر المسجوع الذي استطاع بعد ذلك أن يحتفظ بكيانه بعد تقدم تعبيرات اللغة الفنية ، وكان النثر المسجوع يلزم دائما أبدا الحالات الخطيرة والمناسبات الزهية أو الطقوس والحفلات الرسمية ، ولم يقصده بعد التسلية أو إدخال السرور على النفوس ، وإنما قصد به وقتئذ الاحتيال على قلوب السامعين وسحر أفتدتهم ، فاستخدمه المراقون والكهنة وشعراء الهجاء .

وتدرج العرب من اثر المسجوع الى وزن تعبلي بسيط بعد أن سيطرت على مشاعرهم القافية والتوقيع، بفضل الاسباب والتأثيرات الخارجية، وتطور هذا الوزن بعد ذلك الى أشكال فنية عديدة، ولم يبق له أثر إلا في بعض الأشعار الشعبية.

أعددت بعد ذلك صور الأشعار العربية واحتلت أشكالها دون زيادة ظاهرة في الجوهر أو البواعث، فعادت نفس المواعيل السابقة الى الظهور في المجموعات الشعرية الكبيرة التي عرفت بالقصائد، ولم يشذ عن ذلك إلا أشعار الرثاء والهجاء التي استطاعت المحافظة على نوعها المستقل. وعلى تعاقب الأيام أخذت هذه القصائد تنسبنا ثابتا، فبيدوها الشاعر مادة بذكر نوعه على فراق حبيبته، ثم ينتقل فجأة بعد أن يرى عقم ما يندب من حفظ ضائع الى وصف مطبته، وتعاقب بعد ذلك صور مشاهد الطبيعة وأنباء الكفاح، وأخيرا يختتمها بالأشعار التي تعين قصده منها. ولذا سميت قصيدة - وهي مادة في المأهاة أو المقاهرة لصيرته أو مدح ولي أمته ممن يرجو عفو أو يأمل عطيته.

ويغلب على الظن أن هذا التماق في البواعث الشعرية كان من المستحدمات المرغوبة في ذلك العهد الذي ترجع إليه القصائد التي لدينا، وقد يرجع الأصل فيه الى أحد الشعراء الأولين. ولم يتعد الرواة في تحديد ترتيبها، خصوصا أن العلاقة بين أجزاء القصيدة كانت مفككة كل التفكك.

لم تكن الكتابة في شمال بلاد العرب أو في أواسطها في ذلك العهد مبهولة، ولو أن استعمالها لم يكن منتشرا انتشاره في البلاد المجاورة في الجنوب والشمال، ولكننا لا نظن أن الكتابة كانت تستعمل في تلك العصور المتقدمة كأداة لتدوين الشعر، بل إنه كان يتمد في نقله على الرواية الشفوية، فكانت منزلة الشاعر بين قبيلته واهتمامهم بأشعاره مما وحدهم العاملان اللذان تتوقف عليهما درجة حفظ أشعاره وانتشارها، وكثيرا ما اتخذ كبار الشعراء من هواة هذا الفن من المبتدئين رواية يلازمونهم حرصا على إنتاج قرائهم وصيانة لبنات أفكارهم.

والرواية الشفوية، مهما افترسنا فيها أمانة الراوي وخلوص ذاكرته، لا يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كلياً، خصوصا أنه لم تعرف وقتئذ حقوق شخصية للشاعر في أعماله، بل وثبت لنا اليوم أن القوم لم يعرفوا لذلك حرمة، فاحترعوا عليها بالاستعاضة عن بعض عبارات الشعراء بعبارات أخرى مرادفة لها، وما أغنى اللغة العربية بها.

فإذا كانت النصوص الأصلية لم تصدق الرواية في نقائها فإلى أخرى أن يدخل الشك في صحة ترتيب أبيات الشعر في القصائد الكبيرة، لاسيما وأن الشعراء أنفسهم لم يعنوا كثيرا بترتيب أجزائها.

ولكننا على الرغم من اليبس الشائع في هذه التفاصيل ، نجد في الرواية الأخيرة التي حفظها لنا التاريخ صورة صادقة من فن الشعر القديم ، على أنه يتعذر جدا أن نرى اليوم بواسطتها مميزات كل شاعر على حدة ، كما يصعب علينا أن نخلص هذه المجموعات الشعرية على وجه اليقين من الزوائد المخيلة عليها .

ويوجع الفضل في حفظ الأشعار العربية القديمة الى النهضة الأدبية التي قامت في القرنين الثاني والثالث من الهجرة ، حيث بدأ هواة الشعر في جمعه فوجدوا فيها خلق بأذهان البدو كموزا لا تقنى لم يبق منها حتى الوقت الحاضر إلا جزء يسير بسبب عدم اكتراث علماء الاسلام المتأخرين بكل ما لا علاقة له بالدين ، فكانوا إذا لم يبيدوا شيئا من آثار الوثنية فانهم لا يهتمون ببحثه ودرسه ، ولقد أتت غزوات المغول بمد ذلك على أكثر دور الكتب في آسيا الصغرى ، وعلى الأخص بالعراق مركز الدراسات العربية القديمة ، فصاع أغلب أعمال الشعراء ولم يبق منها كاملا إلا لنفر قليل منهم .

واجتهد المتأخرون بمد ذلك ، كل على حسب ذوقه ، في جمع مختارات من دواوين الشعراء ، وكانوا يأخذون لها إما قطعاً شعرية كاملة ، وإما أجزاء منها ، واشتهر بين هذه المختارات مجموعتين : الأولى وهي المعلقة ، جمعها راو محترف هو حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، والثانية وهي الخماسة ، جمعها أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

والمجموعة الأولى عبارة عن سبعة قصائد ملوأل ، وصميت بالمذهبات لما احتمل اسم المعلقة من تفسير خاطئ ، ذاع عنها في كتب التاريخ ، من أنها كانت مختارة في العصور الوثنية ومعلقة على الكعبة ، والرواية الأصلية لهذه المجموعة تشمل قصيدة لكل من امرئ القيس وطرفة وزهير وليبد وعنترة وعمر و والحارث .

وأما الخماسة فسميت كذلك تبعا لأول موضوعاتها وأطولها ؛ وبليه تسعة أبواب في المراثي وفي الأدب وفي التشبيب وفي الهجاء وفي الأضياف والمدح وفي الصفات وفي السير والسماس وفي المملح وفي مدح النساء . وعنى أبو تمام فيها بجمع نماذج من الشعر لكل من عصرى الوثنية ولجى الاسلام في أغلب البواحي التي ظهرت في الشعر العربي على وجه العموم .

أما انثر فانه لم يكن له مظهر أدبي خاص بالنسبة الى حالة العرب المدنية قبل الاسلام . على أن التطور الذى صادفه بعد ذلك يكشف لنا عن بذور نشأته في العصور الوثنية ، وإليها ترجع قبل كل شيء مجموعة الأمثال والحكم التي ظهرت منذ أزمان بعيدة ، وفيها تنعكس صور حياة البدو ، وترجع نشأتها الى مناسبات وأحوال خاصة في الحياة القديمة ، جعلها الرواة الأولون وبقي معظمها محاطا بالاهام ، وتعدر على المفسرين المتأخرين تفسيرها على وجه اليقين .

ولم تخل كذلك الحكايات التي رويت عن دواهي الأشعار القديمة ، وذاعت بين القبائل المختلفة من بذور ساعدت على نمو النثر وتطوره بعد ذلك ، ولو أن أغلب هذه القصص التي لدينا عن الأشعار القديمة قد استبطلها المتأخرون بالاجتهاد من الأشعار نفسها ، إلا أن البعض الآخر يحمل الطابع القديم الذي لا يدعو الى الزية في حقيقة أصله .

على أنه كانت هناك أيضا في العصور الوثنية القديمة قصص عديدة ذاتمة عن أعمال القبائل وبعض الأبطال ، وإن كنا لا نتوقع فيها كل الصدق والأمانة التاريخية ، فإنها تدلنا على روحهم الشعبية على وجه المموم ، وقد تسمرت الى البدو بجانب هذه القصص مواد أخرى مما عرفت في العصور الوسطى وكانت جزءا هاما في الأدب العالمي حينذاك ، إلا أنهم استطاعوا تعريبها الى حد بعيد .

« يتبع »

أحسن ما قيل في وصف الفاقة

وفي الصبر عليها

قال أبو العير الهاشمي الشاعر :

فتمت نفسي بما رزقت	ونظمت في العلى همي
ولبست الصبر سابعة	هي من قرني الى قديمي
فاذا ما الدهر عاتبنى	لم يجدني كافر النعم
لا أقول الله يظلمني	كيف أشكو غير متهم

وذكر شاعر آخر للفقر حكمة فقال :

الحمد لله ليس لي فرس	ولا على باب منزلي حرس
ولا غلام إذا همت به	بأدر تحوى كأنه قيس
ابني غلامي وزوجتي أمتي	ملكتهما بالملك والعرس
غنيته باليأس واعتصمت به	عن كل فرد بوجهه عيس
فما يراني يساه أبدا	طلق الحيا صمغ ولا شرس

ولكن الحق أن الفقر مكروه ، فمن أصابه وجب عليه أن يسعى لتحسين حاله من حيز الوجوه ، وأكفله بصيانة كرامته ، لا أن يقعد مع القواعد منتحلا لنفسه المعاذير . ولقد قيل : رب حسب دفنه الفقر .

وقال شاعر :

الفقر يزوي بأقوام ذوي حسب وقد يسود غير السيد المال

السلطان الدينية والديوية

يراهما الاسلام

ليس في الاسلام سلطتان تتنازعا ان القلب كما هو الشأن عند غير المسلمين ، وإنما هي سلطة واحدة ذات ناحيتين إحداهما دينية والأخرى دنيوية . فالأولى هي التي تنظم علاقة الانسان بربه في عباداته ومعاملاته الظاهرة والباطنة . والسلطة الدنيوية هي التي تنظم علاقة الانسان بالانسان وترسم لتلك العلاقة حدودا في المعاملات بشقي ملائمتها . وتتألف هذه السلطة من سلطات ثلاث : التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية . وبدهى أن الاسلام دين روحي زمني ينظم في أبلغ أوضاعه حمل الدنيا والآخرة ، فهو بطبيعة وجوده مصدر يصل بين حياتي المعاش والمعاد ، ويكفل الى المضطلمين باعباء الحكم أن يستمدوا قوايته ومبادئه من مستقر جميع الأصول الكاملة وهو القرآن .

فلو أغفل الاسلام الناحية الروحية لكان مزيحا من أخلاق متدافعة ومادات متنافضة ، ولكان قصارى جهده معتقيه أن يخضعوا لواميس هذا المجتمع في علله وأوصابه وتدافع أسبابه ، وأن تكون القلبية فيهم للقوى العاتية ، وأن توحد القروق بين الطبقات والاسر . من أجل ذلك امتزجت الناحية الدنيوية في الاسلام بالناحية الدينية في نظام الحكومة ، على معنى أن نظام الحكومة كان مستهديا في جميع أذواره بنور القرآن .

حمل الاسلام فيما حمل من أممي المبادئ مبدأ الشورى ، لتكون أساسا الحكومة الصالحة ، ودعامة تتلاقى عندها سائر الرغبت والأمانى ، لأن الشورى في أبسط أحكامها خير من رأى الفرد ، فهي وليدة آراء مستخلصة من قوة الجماعة لا يراد بها غير إسماع المجموع وإشعاره بمبدأ العدالة والمساواة حتى يظل آمنا في سربه حصينا في أقراضه ومراميه ، وإن لم تكن الشورى القائمة بيننا الآن في الشرق والغرب هي التي تعنيها مبادئ الاسلام . فالشورى التي تعنيها مبادئ الاسلام هي المستخلصة من قوة الجماعة كما قلنا ليس فيها أنارة من تشيع لهوى أو أخذ بحيرة أو إسقاء الى ضنح في سائر مرافق الدولة .

الناحية الدنيوية ترسم شكل الحكومة ومقاصدها الخنيفة ، وتؤسس الأنظمة المتنوعة للأفراد والاسر والجماعات والقبائل والأمم ، وتضع أحكام الحرب والسلام وسياسة القضاء والادارة ونواميس الاجتماع ، ثم هي تنساب بعد الى الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان فتنشئ علاقة زوجية صالحة بين الرجل والمرأة ، وترتب عليها حقوقا قبل المرأة وحقوقا قبل الرجل ، ثم تتناول أحكام الارث فتوزع الانصاء من تركة الميت على ذويها توزيعا قائما على أدق أنواع

الرعاية وأحكم مراميها ، ثم تتمهد الحاكم بالوصايا الجامعة حتى لا يندوا عن شريعة الحق ولا تصنى قلوبهم الى شوائب الهوى ، ثم تهيب بالحكومين الى السمع والطاعة فيما أمر الله . وبهذا التساند بين الهيئتين ينتظم الأمة والحكومة عدل قائم على الاخلاص المتبادل ، وتسودها روح طيبة في مرافق البلاد وحيويتها .

لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية ، فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض في تاريخ البشرية ، وأسس للانسانية العامة أفضل المناهج في الحكم حتى طامت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة . ولا أدل على ذلك من أقوال الرسول وأفعاله وما ينزل به الملك من الآيات منجمة بحسب الوقائع ، سواء أكان ذلك متعلقاً بأمر من أمور المعاش أم المعاد ، إذا استثنينا بعض مسائل تقليدية تافهة لا يتصل وجودها بقانون الحكومة أو الاجتماع ، ثم درج من بعده خلفه على قدمه صلى الله عليه وسلم فكانوا نعم الخلف لنعم السلف . وناهيك بعمر الفاروق الذي كثرت على يديه الفتوحات الاسلامية مؤسسة على الكتاب والسنة وهدى الرسول الأعظم ، فاستندام بذلك الباموس المساوي أصلح الطرائق في أنواع الحكم ، وأهدى السبل في إسعاد الافراد والجماعات والأمة . إن الشريعة الاسلامية المساوية هي شريعة الخلود والبقاء ، لأنها جمعت بين حلقات الزمن من دابر وحاضر ، فوضعت لكل عصر وجيل أحكامه وطرائقه ، فكانت شريعة الاسلام خير للشرائع وأمثل القوانين .

وغنى عن البيان بعد هذا التقرير أن الدين يتولون بضرورة فصل الدين عن السياسة قد جهلوا حقائق الاسلام أو على الأقل تجاهلوا نظام الحكم فيه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهد خلفه من بعده ، أولئك الفر الميامين الأطلهار الذين حكموا دينهم في الدولة فسادوا ، لأنهم قصروا بهذه السياسة المالية أوطار الافراد والجماعات ، وحققوا لهم كل رغبة صالحة ، ثم اجتاحت لومة الوثنية ومستهمعن الماديات في عهود الجاهلية .

ولعل النمط الذي جرى عليه توزيع الزكاة والصدقات وإقامة الولاية في الدولة ورسم الحدود ووضع الخطط التي ينتهجونها في أمثل حكومة ماذلة بواسطة برامج تكشف لهم حقيقة حكم الشعوب الداخلة في الاسلام وأخذهم بالهوادة في موضعها وتيسير الأمور عليهم حين لا يصيق عنهم التيسير ونوع معاملة أولئك الولاية للزميين والمعاهدين والمحاربين والمدي الذي توزع به السلطات بين شئون الرعية - آية الآيات على أن الاسلام في حقيقته دين يقوم على أهدي السبل وأعدل المناهج ، وأنه الوارث لجميع الأوضاع البشرية « ولنعلمن ناه بعد حين » .

عيسى طه
الحامى الشرعى

تقرير بعثة الهند

- ٦ -

٥ - العيد الألفي للأزهر :

وها هي ذى فرصة ذهبية تتيح للأزهر أن يخطو خطوة عملية في هذه السبيل ؛ فبعد سنوات معدودات يحتفل الأزهر احتفالاً عالمياً بعيد الألفي ، وما لا شك فيه أنه سينقدم للجامعات الأوروبية والأمريكية بالدعوة لحضور هذا العيد؛ فهل يتاح لنا أن نرى في مصر ممثلي جامعات الهند ورجال الفكر فيها ؟

أكبر ظننا أن الأزهر الشريف ، وعلى رأسه حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، لن تغفل من بين يديه هذه الفرصة ، لاسيما وأن كثيراً من رجال العلم والفكر في تلك البلاد قد طالبونا برقيبتهم في أن يتاح لهم حضور هذا العيد الذي يجب ألا تمتأثر به مصر وحدها ، خصوصاً وقد أعلنت أن الأزهر جامعة عالمية ، لكل مسلم على وجه الأرض حق فيها .

٦ - مشروع تفسير القرآن الكريم :

وقد عنيت البعثة عناية كبرى بالتحدث الى زعماء الهند ، ومحاضرة الطلبة خاصة ، والمتقنين عامة ، على مشروع تفسير القرآن الكريم ، الذي يقوم به الأزهر الآن ؛ وقد شرحنا الضرورات التي استلزمت هذا التفسير الحديث ، كما أشدنا بالحكمة التي تجلت في تأليف اللجنة من حيث إنها جمعت بين رجال تتقنوا ثقافة دينية كاملة ، ورجال آخرون ساهموا في الثقافتين الدينية والمدنية ، وتلقنوا العلم على أحسن أساتذته بالجامعات الأوروبية ؛ فأئسنا من الجميع ارتياحاً عظيماً الى هذا المشروع الذي يرجى منه للإسلام فوائد تفوق الحصر .

وجميعهم يتوجهون بالفكره تعالى ، أن هيا للأزهر تلك الفرصة التي مستمكنه إن شاء الله من أداء خدمة كبرى للإسلام ؛ وكم من خطيب قام يعلق على خطبنا بأجزاء جزيل الشكر الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، لصائب تفسيره وثاقب نظره .

ولما أن طرقتنا بالحديث الى مشروع ترجمة هذا التفسير الى اللغات الأجنبية ، طوّلنا بأن نرفع الرجا صادقا ، الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، أن تكون اللغة الاردية من بين اللغات التي تترجم إليها تفسير القرآن الكريم ؛ فانها لغة عامة المسلمين في الهند . وقد بلغ تشوقهم الى ذلك

المشروع أن طلبوا ألا يرجىء الأهر للترجمة حتى ينتهى من التفسير ، بل الأوفق أن يترجم كل جزء تنتهى المحنة من تفسيره .

وبما يذكر لحكومة صاحب السمو العالى « نظام حيدر آباد » بالشكر والثناء : ماورد على لسان معالى وزير المعارف عند ما سمع بمشروع الترجمة ، فقد قال : إنه يسره كثيراً أن يعلم تفاصيل ذلك المشروع ، حتى يتسنى لحكومته أن تسام فى مشروع الترجمة الى لغة الأردو ، وأظهر استعداد الحكومة للقيام بمشروع هذه الترجمة لحسابها الخاص ، وكذلك بطبع عشرات الألوف من نسخ هذه الترجمة .

أما السيد « روس مسعود » وزير معارف ممبو « نواب بهوبال » ، فقد أبدى ارتياحاً عظيماً للفكرة ، وطلب الاطلاع على تفاصيلها ؛ لأنه يرجو أن تبذل حكومته مساعدة تذكر فى هذه السبيل ، ولكنها لا تستطيع تحديد موقفها قبل أن تطلع على التفاصيل .

وقد أبديت إلينا بشأن هذا التفسير فكرة تستحق البحث ، هى أن الأزهر يجدر به أن يشرك بعض علماء الهند فيه ؛ ولكننا أجبنا على ذلك بأن ما يحق للهند يحق لغيرها من الدول الاسلامية ، فإذا اتسعت دائرة المفسرين هذا الانساع تعرض المشروع للعطل الناشئ من الجدل والنقاش ، ثم عن عدم تكامل الأعضاء ؛ ورأينا أن الأجدر من ذلك بالنظر ، هو أن يسمح بالحضور فى لجنة التفسير لاثنتين أو ثلاثة من العلماء الهنود ، ليكونوا عوناً لقسم الترجمة الى الأردو ، إذا خرج المشروع الى حيز التنفيذ .

ولما أن تداركنا هذا الأمر مع « نواب مهدى يارجنك » وزير معارف حيدر آباد ، أظهر استعداد حكومته لأن توفد العالمين اللذين يقع عليهما الاختيار على نفقتها تمهيداً لمشروع ترجمة التفسير .

٧ - مجلة الأزهر :

وقد كان لمجلة الأزهر نصيب من نشاط البعثة ولكنه محدود ؛ ذلك بأن المجلة غير دائمة فى الهند الدبوع الذى يسمح للقوم بأن يتنبهوا حديثنا فى شأنها ، ولسكن « السيد سليمان الندوى » وهو من كبار علماء الندوة ، ذكر لنا أنه يقرأها بانتظام ، وقد كونه رأيه فيها بأنها ينبغي أن تكون أرق من حالها اليوم ، لتناسب ما للأزهر من مكانة سامية .

وقد شاعت الظروف أن يفتح باب الكلام فى هذا الموضوع قبيل سفر القطار بحيث لم تتسع لنا فرصة لتفصيل الحديث ، على أنه وعد بأن يكتب إلينا فى هذا الشأن .

وفى رأينا أن المجلة يجب أن ترسل الى كثير من الامكنة فى الهند ، فانها خير مذكر للقوم بالأزهر ورسائله ، وهى الكفيل بأن يسنم الاتصال الروحي بين القطرين ، وحبذا لو عنت

إدارة المجلة بأن تطلب إلى بعض عظماء الهند . أمثال السيد سليمان الندوي ، ومولانا أبي الكلام آزاد — أن يوافوها بالمقالات بين آن وآخر .

٨ — دور الكتب الدينية والعربية :

بالهند كثير من دور الكتب الدينية والعربية ، يحتوي عدد منها مؤلفات لا يستهان به ، ومن أهمها مخطوطات يرجع عهدها إلى العصر الإسلامي في تلك البلاد ، وكثير منها استورده ملوك المسلمين من بلاد فارس .

ولم ينسح وقت البعثة لبحث مستفيض في هذه الكتب ، غير أننا كنا فكرة عامة عنها ، ويمجد بالأزهر ، الذي يمتزج تنظيم مكتبته ، وتوسيع الانتفاع بها ، أن يعنى بدور الكتب التي أشرنا إليها . وحبذا لو فكر فضيلة الأستاذ الأكبر ، في أن يوفد أحد المتخصصين في شئون المكتبات ، يكون له إلمام بما في المكتبة الأزهرية من المخطوطات ، زيارة دور الكتب التي سنذكرها هنا ، عسى أن يجد فيها ما يكمل بعض المخطوطات ، أو يلقى بعض الضوء على تاريخها ، وإلا فلا أقل من أن يكلف بعض المصريين الذين يسمون إلى الهند ، في شئون الثقافة الإسلامية ، بأن يطوفوا بتلك الدور طواف الناحث المدقق ، على أن يوافوا الأزهر بما يرون . وما أسفنا له أن كثيرا من هذه الدور ، لم تطبع لها فهرس منظمة ، ولذلك ما جاءت البعثة إلا بما استطاعت أن تحصل عليه من هذه الفهارس .

وفيما يلي بيان بهذه الدور :

١ — مكتبة بهو بال

٢ — مكتبة رامبور (وفيها أكبر عدد من المخطوطات) .

٣ — مكتبة جامعة البنجاب بلاهور .

٤ — مكتبة الأستاذ محمد شفيق مدير الكلية الشرقية بلاهور .

٥ — مكتبة الكلية الإسلامية في بشاور

٦ — مكتبة بها ولبور الخاصة بسمو النواب .

٧ — المكتبة الأصفية بمحيدر آباد .

٨ — المكتبة السعيدية بمحيدر آباد .

آراء في الثقافة الإسلامية :

لا شك في أن مصر بلد اعترف له بالإمامة الثقافية بين أمم الشرق قاطبة . وقد شهدنا بأعيننا

في الهند ما يدل على سمو مكاتبا بين هذه الأمم ، مما عرضناه في فصول سابقة من هذا التقرير ، غير أننا نسير هنا بوجه خاص الى ما تنتظره الهند الاسلامية من مصر في عهدها الجديد ، ذلك بأن تسام مصر في رفع مستوى اللغة العربية في المدارس والجامعات الهندية ، بحافظة منها على هذه اللغة التي تصل بين أمم الاسلام في العالم كافة .

فما قصدنا الى مؤسسة علمية ، ولا تحدثنا الى شخصية كبيرة ، دون أن يرد ذكر هذا الأمر . وهم ينظرون الى مصر ، لأنها القطر الوحيد الذي يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل اليوم .

وفيا بل بيان بما وصلت إليه البعثة في هذه السبيل :

أولا : في إمارة بهوال الاسلامية : عند ما كنا في زيارة إمارة بهوال الاسلامية ، وكان سمو النواب متفيا ، تحدثنا في هذه الشئون الى « السيرروس مسعود » وزير المعارف ، فقال : « إن البلاد هنا في ميس الحاجة الى طبقة من العلماء المصريين ، يجمعون بين علوم الدين وبين العلوم الحديثة ، مع التمكن في اللغة العربية وآدابها والطرق الحديثة لتدريسها ، وتقريب علومها الى الأذهان ، ولو استطاعت مصر أن تستغني عن واحد أو أكثر من هؤلاء ، لاستخدمتهم حكومة بهوال . ولكن الحكومة تشتري فيمن يبعث إلينا أن يكون مثالا ماليا للاسلام ، في حياته العملية والعلمية ، وأن تكون حياته نبراسا يهتدى به العامة في حركاته وسكناته » .

وقد قل السيرروس مسعود أيضا : إن الحكومة على استعداد لأن تمنح مثل هذا المبعوث كل التسهيلات اللازمة ، الى راتب يناسب مؤهلاته . وظهر من خلال الحديث أنهم على استعداد لدفع راتب شهري قدره أربعون جنيها مصريا ، مع حق الإقامة في منزل تعده له الحكومة في حي كبار الموظفين ، فضلا عن امتيازات أخر يستطيع المبعوث الحصول عليها ، بما يكون له من مزايا ، تكون موضع تقدير ولاية الأمر بعد حضوره .

ولما دعبنا لمقابلة سمو النواب في أخريات أيام رحلتنا في الهند ، فتح سموه الكلام في نفس الموضوع ، ثم قال : إن حكومته قد تحتاج الى اثنين أو ثلاثة من هؤلاء ، بالشروط التي تكلم عليها السيرروس مسعود ، وإنه يرجو أن يعنى الأزهر بهذا العرض ، وقد صرح سموه بأنه قوى الأمل في ألا يعرض عام واحد قبل أن يتحقق هذا المشروع ، كما أبدى سموه الرغبة في أن يعمل الأزهر على إعداد طبقة من علمائه البارزين للخدمة فيما وراء البحار ، فإن هذا أفضل مما يستطيع الأزهر أن يقوم به لتدعيم أواصر الصلات العلمية والدينية بين مصر والأقطار الاسلامية الأخر .

ثانيا : في جامعة عليكرة : عندما كنا في زيارة جامعة عليكرة عرضنا مع الدكتور ضياء الدين ، حال قسم اللغة العربية بالجامعة ، ومن ثم قال الدكتور إنه يوافقنا على ما ذهبنا اليه ، ويرى أن

الطريق الوحيدة للسير بهذا القسم الى الامام ، هو الاعتماد على الازهر في تدريس اللغة العربية ، والاخذ بالوسائل الحديثة التي تتسع في تعليمها بمصر ، وفي تشجيع الطلبة على التخطيب بهذه اللغة ، وهذا لا يثنائي إلا إذا كان بهذا القسم واحد أو اثنان من المدرسين المصريين ، وإن الجامعة على استعداد لأن تدفع راتب أستاذ واحد ، فإذا رأى الازهر أن يرسل اليها اثنين ، وقبل أن يكون راتبهما مناصفة بين الازهر وجامعة عليكرة ، فإن الجامعة يسرها أن تتقدم بينها وبين الازهر المحادثات في هذا الشأن .

ثالثا : في الجامعة المالية : لما كانت الجامعة المالية كما ذكرنا مؤسسة تقوم على تدعيم الدين الاسلامي واللغة العربية فيها ، ربطاً للهند الاسلامية بكافة الأقطار الاسلامية الاخرى ، فقد عنيت الجامعة بالدين واللغة معاً ، ولكن مواردها ، كما ذكرنا ، لا تساعدها على التوسع . لكل هذه الاعتبارات ، تقدم اليها الدكتور « زاهر حسين » عميد الجامعة ، بوجه أن يسام الازهر في هذا العمل الجليل ، فيقرر إيفاد مدرس أو مدرسين — على نفقته — لتعليم اللغة العربية والدين الاسلامي بالجامعة .

وتوسيعاً للانتفاع بهؤلاء المبعوثين ، يقترح الدكتور زاهر حسين ألا ينحصر عملهم في التدريس بالجامعة المالية ، بل يصح أن يتفق مع الجامعات والمؤسسات الاسلامية الاخرى على أن يزورها المبعوثون زيارات دورية ، لإلقاء المحاضرات وتشجيع الاهتمام باللغة العربية والدين .

رابعا : في إمارة رامبور : زرتنا مدرسة للعلوم الدينية والعربية تديرها حكومة ممور السواب ، ولما تحدثنا على هذه المدرسة الى السيد « بشير الزيدى » رئيس الوزراء ، ألقينا منه استمدادا لإصلاح أحوالها وفق ما يشار به ، ثم تحدثنا على حاجة المدرسة الى مدرس مصري من خريجي الازهر يقوم بالإشراف على شئونها ، فيساعد الرئيس الحالي ، على أن يحل محله حين ترى الحكومة إحالته الى التقاعد نظراً لكبر سنه .

خامسا : في الجامعة العباسية : سبق أن تحدثنا على الجامعة العباسية في بهاولبور ، فذكرنا أنها تريد أن تماشى الازهر في أحدث تطوراتها ، غير أننا لم نتحدث الى رجال الحكومة هناك عما يمكن الازهر أن يسام به في هذه السبيل . وفي رأينا أنه إذا عرض على الحكومة أن تستعين بواحد أو بأكثر من خريجي الازهر ، في تدريس العلوم العربية والدينية ، أو الإشراف على شئون الدراسة في هذه الجامعة ، أو الالتحاق بوزارة المعارف للتفتيش على المدارس الدينية ومساعدة القائمين بالأمر فيها ، فإن حكومة ممور السواب قد ترحب بهذا المقترح .

سادسا : في إمارة حيدر آباد : رأينا حركة شاملة في صالح اللغة العربية والدين الاسلامي في إمارة حيدر آباد ، وأحسننا من جميع من حادثنا شعوراً طيباً وميلاً ظاهراً نحو تأسيس

علاقات الود والصداقة بين مصر وبين تلك البلاد . وقوام اللغة العربية والدين الاسلامي فيها طائفة من الاساتذة تخرجوا جميعاً كما ذكرنا في المدارس والمعاهد المصرية على اختلاف أنواعها ، ويعتبر هؤلاء تربة خصبة لإثراء علاقات الود بين حيدر آباد ومصر .

وقد تحدثنا الى وزير المعارف هناك في شؤون شتى ، تقتصر منها هنا على ما اقتصرنا ، وهو أن تمام حكومة حيدر آباد في نفقات إنشاء قسم لتدريس لغة الأردو بالأزهر الشريف ، فتدرس فيه هذه اللغة كما كانت تدرس اللغة اليابانية في « تخصص الوعظ والارشاد » بكلية أصول الدين ، او على مقياس أكبر من ذلك .

وهنا أدلى لنا معالي الوزير برغبته في ان يكون إنشاء هذا القسم وإدارته على نفقة صاحب السمو العالي النظام ، وأن يسمى « كرسى حيدر آباد لتعليم الأردو » ، وقال : إن الحكومة مستعدة للتحدث في الموضوع على هذا الأساس .

وفي رأينا أن القسم اذا افتتح وعين له أساتذة من أساتذة الجامعة العثمانية الذين يعرفون اللغة العربية ويقومون بتدريسها ، أو بتدريس بعض علوم الدين هناك ، فإن الأزهر يستطيع هندئذ أن يوضح أحد خريجه ليشغل الوظيفة التي نحدو في الجامعة .

ولا نظن أن الاعتبارات المالية تحول دون تنفيذ هذا المقترح ، ولا سيما من ناحية حكومة حيدر آباد .

تقرير عن حال المنبوذين :

مقدمة :

يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام على المنبوذين ، أن نشير الى أن استقصاء أحوالهم ، قد أحاطت به ظروف محلية وملازمات كان من شأنها أن تضطر البعثة الى التاني في هذه الدراسة ، وأن تعتمد ، في بعض الأمكنة ، الى الانكشاف ، حيث لا نجد الجوّ صالحاً لهذه المباحثات ، كما تعتمد في أمكنة أخرى الى بحث الموضوع في غير حيدر ، عند ما نجد الجوّ صالحاً لذلك .

ولا نرى مندوحة من الإشارة الى أن وصول البعثة الى الهند ، قد أحاطت به ظروف شائكة ؛ فقد نشرت الجرائد الهندوسية ، بل بعض الجرائد الاسلامية أيضاً ، أن البعثة قادمة للقيام بحركة بين المنبوذين ، بغية تحويلهم الى الاسلام ، فقامت القائمة ، وتكهرب الجوّ ، مما دعا البعثة الى إصدار بيان للصحافة ، قد أشرنا إليه في صدر هذا التقرير .

وبهذه المناسبة تتقدم البعثة بحزب الشكر الى جميع من أمدّها بالمعلومات ، والى من ساهموا في البحوث ، ونخص بالشكر « السير محمد إقبال » الذي ضحى بالكثير من وقته وصحته في هذه

السبيل ، وكذلك ترحى الشكر الى الأستاذ الكبير « غلام بهيج نيراج » الذى كان له أكبر قسط من النشاط فى هذا العمل الجليل ، والذى عى بأن يجيب البعثة على كل ما وجه إليه من الاستشارات ، وكذلك الأستاذ « فضل رحيم » ، والطبيب « أسرار أحمد » ، و « نواب محمد يارجنج » ، والأستاذ « محمود فاندرومان » ، وغير هؤلاء ، ممن لم تسع الذاكرة أسماءهم . وتتقدم البعثة كذلك بجزيل الشكر الى حضرات من ساهموا بقسط وافر من العمل ، لإنجاح البعثة فى مهمتها ، ثم شامت ظروف خاصة ألا تذكر أسماءهم فى هذا التقرير .

إحصاء عام عن المنبوذين :

يبلغ عدد المنبوذين — وفق آخر إحصاء رسمى صدر منذ ست سنوات : ١٩٥٠ ر ٧٧٠ ر ٥٠ نسمة ، أى بنسبة ١٤ فى المائة من مجموع سكان الهند ، ونسبة ٢١ فى المائة من تعداد الهندوس العام ، وتختلف نسبتهم الى عامة السكان ، ثم الى الهندوس ، بين إقليم وآخر ، وفيما يلى بيان ذلك :
أولاً : فى الهند البريطانية :

الاقليم	عدد المنبوذين	نسبتهم للهندوس	نسبتهم العامة
الولايات المتحدة	١١٣٢٢٠٠٠	٢٨ فى المائة	٣٢ فى المائة
مدراس	٧٢٣٤٠٠٠	١٨	١٥
بنغال	٦٩٠٠٠٠٠	٣٢	١٤
بهار ، وأوريسا	٥٧٧٤٠٠٠	١٩	١٥
الولايات الوسطى ، و برار	٢٨١٨٠٠٠	٢١	١٨
آسام	١٨٢٩٠٠٠	٣٧	٢١
بومباى	١٧٥٠٠٠٠	١١	٨
البنجاب	١٢٨٠٠٠٠	٢٠	٥
دلى	٧٣٠٠٠٠	١٨	١١
أجير ، ومروار	٦٧٠٠٠٠	١٨	١٤
كرج	٦٥٠٠٠٠	١٧	١٥
بلوخستان	٥٧٠٠	١٤	١
مقاطعة الحدود	٥٥٠٠	٤	٠
جزر أندمان ، ونيكوبار	٥١٠	٨	٢

ثانيا : في الامارات :

نسبتهم العامة	نسبتهم لهندوس	عدد المنبوذين	الاقليم
١٧ في المائة	٢٠ في المائة	٢٤٧٣٠٠٠	حيدر آباد
٣٥	٥٦	١٠٧٧٠٠٠	ترافانكور
١٤	١٦	١٥٦٥٠٠٠	راجبوتانا
١٥	١٧	١٠٠٠٠٠٠	ميسور
١٢	١٤	٧٨٠٠٠٠	إمارات الهند الوسطى
١٩	٢١	٦٧٨٠٠٠	جوايالور
١٤	١٥	٦٣٢٠٠٠	إمارات بھار، وأوريسا
٩	٢١	٣٩٣٠٠٠	إمارات البنجاب
٣	٩	٣٤٩٠٠٠	إمارات بومباي
٨	١٠	٣١٨٠٠٠	إمارات الهند الغربية
١٠	١٤	٢٥٣٠٠٠	الولايات الوسطى
١٧	٢٢	٢٠٩٠٠٠	الولايات المتحدة
٨	٩	٢٠٣٠٠٠	بارودا
٥	٢٣	١٧٠٠٠٠	كشمير
١٠	١٦	١٢٥٠٠٠	كوشين
١٤	١٦	٦٥٠٠٠	إمارات مدراس
٣	٥	٣١٠٠٠	إمارات بنغال
٢	٤	٢٠٠٠	سخيم
—	١	١٤٠٠	إمارات آسام
١	٤	٥٤٠	إمارات الحدود
—	—	٢٠	إمارات بلوخمثان

يستنتج من ذلك أن نسبة المنبوذين الى عامة السكان ، بل أن نسبتهم الى الهندوس ، متفاوتة تفاوتاً كبيراً باختلاف الاقليم ؛ وقد حاولنا أن نصل الى قاعدة لتوزيع المنبوذين بين الهندوس فلم نتمكن ، مما يدل على أن عوامل كثرتهم أو قلتهم لا ترجع الى طريق معيشتهم ؛

أو الى مدى استعدادهم ، أو مدى اعتمادهم على بقية الهندوس أو غيرهم ، في كسب قوتهم ، بل إن أكبر الظن أن توزيع المنبوذين على المقاطعات والولايات لا يخضع لقاعدة ما ، بل يستمد كيانه من الوراثة حسب .

ولما كنا ندرس أحوال المنبوذين لغرض خاص ، هو الاطلاع على مدى استعدادهم لتغيير دينهم ، في الآونة الحاضرة ، أو في المستقبل القريب ، وكان التعليم من أهم العوامل التي تدهو القوم لتبصر في أحوالهم العامة ، وإدراك ما هم عليه من شقاء تحت نظامهم الحالي ، بحيث يصح القول إجمالاً : إن استعدادهم لتغيير دينهم يتناسب تناسباً طردياً مع نسبة انتشار التعليم بينهم ، لذلك رأينا أن نقف القارئ على نسبة التعليم بينهم في الولايات المختلفة :

١٤٩ في الألف	في ترافا نكور
١٢٩	» إمارات آسام
١٠٣	» إمارة بارودا
٦٩	» بلوختان
٥٠	» بنغال
٤٨	» إمارة كوشين
٣٦	» مقاطعة الحدود
٣٥	» إمارات ملواس
٣١	» آسام
٢٨	» بومباي
٢٨	» إمارات بومباي
٢٥	» إمارات بلوختان
٢٢	» أجمير
١٩	» إمارات الهند الغربية

وتلى تلك مجموعة من الولايات والامارات تتضاءل فيها نسبة التعليم بين المنبوذين ، حتى تصل في بعض منها الى ٢ في الألف فقط .

وسنرى فيما يلي من تاريخ ثورة المنبوذين على الديانة الهندوسية ، بأسبابها ، ونتائجها ، والحال الحاضرة فيها ما يبعث على الاعتقاد بصحة هذا القياس .

الأصل في الطبقات النبوة :

يرجع أصل حركة « اللبذ » الى تقاليد الديانة الهندوسية منذ أقدم العصور ؛ ويرجمها عامة الكتاب الى عاملين : أحدهما تاريخي ، وثانيهما ديني

الأصل التاريخي :

يروى لنا المؤرخون أن الجنس الآري قد استوطن منذ أقدم عصور التاريخ الهضبة الآسيوية الوسطى ، فقد هاجر منها في حقب مختلفة من التاريخ الى أوربا وإيران والهند . وقبل قدوم الآريين الى الهند ، كانت البلاد آهلة بأجناس مختلفة ، ضرب بعضها بسمهم وأفر في المدنية ، مما يستدل عليه بأثارهم العمرانية التي كشف عنها التنقيب في أنحاء مختلفة من الهند . وقد ظل الآريون ينوغلون في الهند رويداً رويداً ، متغلبين على كل ما صادفهم من عقبات ، حتى يقال إنهم لم يسكنوا بالتحالف على سكان البلاد الأصليين وإخضاعهم لسلطانهم الزماني لحسب ، بل جردوهم من كل مملكتهم ، ورلوا بهم الى مستوى أحط من مستوى الأرقاء . وقد لجأ كثير من أفراد العنصر المغلوب الى الغابات والجبال المنيعه ، حيث لا يزال أحفادهم على قيد الحياة يعيشون حياة المتوحشين الأقدمين ؛ في حين لجأ فريق آخر ، بمن جردوا من منازلهم وضياعهم ، الى معيشة التجوال ، ومنهم نشأت القبائل الرحل التي لا تزال تجوب أنحاء الهند لا تلوى على شيء . وقد اتخذ كثير من هؤلاء على مر الأيام السرقة والخطف مهنة يلتمسون الرزق من سبيلها . ولا يزال ذكر هؤلاء يرد حتى اليوم في الإحصاءات الرسمية باسم « القبائل الاجرامية » ، ويرصد البوليس حركاتهم ويتتبع أحوالهم . وقد أنشأت الحكومة ادارة خاصة بقصد الحسد من تصرفاتهم الاجرامية ، أما البقية الباقية ممن ذكرنا فقد ركنوا الى الإقامة بالقرب من المدن الكبرى في حالة فقر مدقع ، يلتمسون الرزق من أحقر السبل كالزبالة ، والشحاذة ، واقتناص القردة وتدريبها على الرقص والمعب أمام جمهور محدود من النظارة يتصدق عليهم ببعض الحبوب أو بضعة قطع من العملة النحاسية . وإلى هذا الفريق ينسب عامة الحواة الذين يلعبون بالثعابين ؛ والراقصون على الحبل و (البهلوان) ؛ وقد دفعتهم الفاقة الى التهام كل ما يقع تحت أيديهم ، فاذا أعورهم الطعام فتسكروا بالثعالب وأبناء آوى والفيران ، وقد ياكلون الثعابين ؛ ويعيش معظمهم على الجيف ؛ أما ملابسهم فبالية قذرة ، إلا من عاش منهم في المدن ، فإن ملابسه قد تكون أحسن قليلاً ؛ ويوجد ببلاد الهند من هذه الطبقات الوضيعة حوالى ثلاثمائة صنف .

الأصل الدينى :

يوجد فى تقاليد الديانة الهندوسية قانون قديم جداً ، يعد مرجعاً من أهم مراجعهم ، ويعتقدون أن واضع ذلك القانون كان شخصاً عظيم الودع ، واسع العلم ، اسمه « مانو Manu » ، كما يعتقدون أنه وضع ذلك القانون شريعة لهم ، ولذلك لم ينكر سلطته بل لم يناقشها أحد من المتأخرين .

ولقد قسم « مانو » الهندوسيين بل عامة الجنس البشرى (إذ يظهر أنهم كانوا يعتقدون أن الهند هى كل المعمور ، وأن سكانها هم عامة الجنس البشرى) قسم هؤلاء الى أربعة أقسام :

أولاً : البراهمة :

وهم من خلقوا من فم الإله ، وكانت وظيفتهم الوراثية ، هى العلم بكتائهم المقدس (الفيدا Vidas) . ولم أن يمارسوا كل شئون العبادة ، فهم بذلك قساوسة الهندوسية ، وكانوا يعتبرون من أرقى مراتب الجنس البشرى ، وواجب على كل من لم يكن برهياً أن يخصهم بأعظم قسط من الاحترام والتقدير ، وأن يتقدم إليهم بكافة أنواع الهدايا ، ولا يصح القيام بأى واجب دينى إلا على أيديهم ، أو بمباراة أدي : زمام قد احتكروا الوساطة بين الانسان وربّه .

ثانياً : الشارى :

وهم من خلقوا من أذرع الإله ، ولذلك كانوا هم رجال الحرب والقتال ، ويبدى صولجان الحكم الأسمى ، يتوارثون الوظائف أباً عن جد .

ثالثاً : الفاشا :

وهم من خلقوا من نخدى الإله ، وينتمى الى هذه الطبقة : التجار ، ورجال المال والزراعة .

رابعاً : السودرا :

وهم من خلقوا من أقدام الإله ، وتشمل هذه الطبقة الخدام الذين كتب عليهم - بالوراثة اللانهائية - أن يخدموا الطبقات الثلاث السالفة الذكر ، وأن يعيشوا مميشة كلها خضوع وعبودية ، يحيط بهم الفقر ، ويلزمهم الامتهان .

ويستطيع الجتهن فى قانون مانو ، وغيره من كتب الهندوس ، كما يستطيع المتتبع للسوابق التاريخية فى هذه الديانة ، وكذا من يبحث أمور أصحاب هذا الدين فى حاله الحاضرة ، أن يستنتج أن تقسيم النشوع البشرى الى أربع طبقات ، قصد به أن يكون وراثياً ، فأبناء البرهمى

وأحفاده ، لا بد لهم من أن يكونوا برهمة كما كان آباؤهم وأجدادهم ، وكذلك الحال في كل من الطبقات الأخر .

ولكن العصر الحديث قد انجلى عن حملات شعواء ، يشنها المسلمون والمسيحيون على نظام الطبقات ؛ ولذلك نشأ من بين الهندوس جماعة من المنقذين والمفكرين ، يقولون بأن هذا التقسيم لم يقصد به أن يكون وراثياً ، بل إنه تقسيم قد دعت إليه الكنفابات ؛ فالرجل المنصف الورع قد يكون برهماً ، كما أن الجندي الهنك قد يكون (شاتريا) ، أما من اتجهت به مواهبه الى التجارة أو الزراعة فيكون (فايشا) ، ثم تبقى بعد ذلك طبقة من الشعب ، تكاد تنعدم فيها المواهب السائفة الذكر ، وهؤلاء هم السودرا .

ويعتقضي هذا الرأي ، يجوز أن ينحدر ابن البرهمي الى أحط دركات المجتمع ، إذا لم يكن له من المواهب ما يستطيع أن يؤهل به نفسه لأحدى الطبقات الأخر ، كما يشمل أن ينشأ ابن السودرا ، وقد وهبته الطبيعة المقدرة على إحراز المعرفة واتمسك باهداب الورع ، فبرقع بذلك الى درجة البراهمة ؛ وقياساً على ذلك يجوز لابن الشاتري أو الفايشا أن يرقى الى درجة أعلى من درجته ، أو أن ينحط الى طبقة أدنى من طبقته ، وفق مؤهلاته . على أن الرأي الذي نافذ به هذه الطبقية من المفكرين لم يعدو أن يكون رأياً نظرياً ، لا تؤيده السوابق التاريخية ، ولا تصرّفات الجيل المعاصر .

وتنقسم « السودرا » بعد ذلك الى قسمين : قسم يجوز لمسه ، وقسم يحرم لمسه ؛ فن الطريق الأول حمالو الماء ، والخدم المكلفون بتنظيف الآواني ؛ ويجوز لهؤلاء أن يلمسوا أجسام الهندوس من الطبقات التي تلوهم ، كما يجوز للهندوس لمس أجسامهم ، دون أن يسبب هذا التلامس نجاسة ، ولكن مواد السودرا يمسدون أنجاساً ، لا يسمح لهم بلمس أجساد الهندوس من الطبقات العليا ، بل لا يجوز لهم أن يلمسوا « السودرا » من الطبقة الأولى ، كما لا يسمح لأولئك بأن يلمسوا « السودرا » من الطبقة الأولى .

« يتم »

رسالة أبي الربيع محمد بن الليث :

هذه رسالة كتبها أبو الربيع محمد بن الليث عن لسان الخليفة هرون الرشيد الى الاميراطور قسطنطين ملك الرومان لمعهده ، يدعوهم وقومه للاسلام ، وقد طبعها في رسالة على حفتها حضرة الاستاذ الالمى النابى أسعد لطفى حسن مؤلف كتاب الاسلام . ولست أرى أبلغ في تقديم هذا العمل الحليل الى القراء من نقل كلمة حكيمة توجه بها حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى . قال فضيلته حفظه الله :

« اطلمت على كتاب الاسلام الذى ألفه حضرة الاستاذ أسعد لطفى حسن فوجدته كتابا يوضح مناحى الدين ، ويأخذ بحظ وافر من الأخلاق ، ويضرب لمهم غير متور من الأدب والاحتياج ، بمبارة سهلة وأسلوب يشوق النفس ، تثريه الأفهام ، وتشتيه الانفس الطيبة ، وقد أورد فيه من النصوص القرآنية ما فيه بلاغ لقوم يعقلون .

« وبعد أن أتى على ما أراد من هذه السواحى أورد رسالة من انشاء أبي الربيع محمد بن الليث كتبها عن الخليفة الخامس هرون الرشيد الى قسطنطين ملك الروم لمعهده يدعوهم وقومه فيها الى الاسلام ، وهى في أسلوبها وجزالة ألفاظها ، وحسن تنسيقها ، ومسحة تأليفها ، تشبه ما كان يتعاطاه لحول الكتاب في ذلك المهد كسهل بن هرون وتلميذه الجاحظ . فهى وما كتب في مشاورة المهدي كأنما يمتحان من قلب واحد ، إذ منشئهما واحد ، استلها بمحمد الله بحامده والثناء بآلائه ، ثم انتقل الى بيان ما يحمل من أمانة وجوب تبليغ الدين والاعذار الى من لم تبلغه دعوة الاسلام ، وأنه يريد أن يحيط عنه نقل الامانة بتبليغه الاسلام على الوجه الذى يدعو الى النظر ، اقتداء برسول الله وامثالاً لأسر الله ، ورجاء أن يكون ممن قصد بقوله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وحمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

« ثم أخذ يجول في ميادين الدعوة ، ويتنقل من برهان الى برهان آخر ، ومن حجة الى حجة ، بإسقاط ذلك كل البسط بالأدلة القوية المثينة .

« ثم تصدى لتوحيد الذات الالهية وبعدها من التركيب ، وتعرض للمقيدة النصرانية بالأدلة العقلية ، وأتى من ذلك على ما شاء ، وما امتد به نفس القلم ، وكان من أواخر ما ورد من هذه الرسالة قوله :

« وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده ، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدى الجربة التى دهاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قبلك عليها ، رحمة للضعفاء الذين لا ترجمهم ، وتوجعاً للساكين ممن لا تتوحد منهم لهم ، من الجلاء والسبأ والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء

الفقراء المساكين ، لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون في الرحمة لهم ،
والتمطف عليهم أدب المسيح إياكم ، وقوله في الكتاب لكم : « طوبى للذين يرحمون الناس
فإن أولئك أصفياء الله ونور بني آدم »

« أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب سامعه وقارئه ، وأن يهدي به ، ويشيب مؤلفه ،
إنه جميع الدعاء »

التهذيب في علم العقيدة :

لا يزال حصرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد كامل الخصري يوالى عمله العظيم
في إبداء صوغ الكتب العلمية الأزهرية في قوالب عصرية ، وهو عمل سبق لنا أن قلنا عنه
إنه وثق صلة يمكن أن يتوصل بها للتقريب بين الناس وكتب الدين ، واستفادتهم منها كما
يستفيدون من جميع مصادر العلم . وقد أجمع الأستاذ في مشروعه هذا نجاحا عظيما . فقد وصل
إليها من فضيلته أحيرا كتاب (التهذيب) وهو تهذيب كتاب (النهاية) للإمامة ولي الدين
البصير رحمه الله ، وهو شرح للكتاب (غناية الاحتصار) ، ولم يكن مبروطا بل ولم يسبق طبعه .
قال الأستاذ وقد ذكر أنه عهد إليه تدريسه :

« فرأيت من واجبي أن أنامع خطي فأجمع كتابا يشتمل على ما في النهاية بالأسلوب الذي
درجت عليه في (تهذيب الكفاية) من تحرير الأحكام ، وتجميع المسائل ، وزيادة الفوائد ،
وحسن التبيين ، ومهولة التراكيب ، وتخريج الأحاديث » .
وقد وفي فضيلته بكل ما وعده ، وزاد بأن طبع كتابه على ورق جيد بحروف جديدة ،
لجزاء الله خير ما يجزي به العالمين العاملين .

الفتح الرباني :

لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني .

لا يزال فضيلة الأستاذ المفضل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساماني يتابع جهوده في طبع
ما وفق لعمله من ترتيب مسند الإمام أحمد مع شرح وضعه له ، وقد أتم طبع الجزء السابع منه .
إن مسند الإمام أحمد يشتمل على جميع الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي صلى الله عليه وآله
وسلم إلا عددا محصورا منها أتى به الأستاذ في المباحثات وهو بصدد الشرح ، وهذا يعتبر
من أضخم الأعمال ، يقوم به فرد واحد بهمة لا تعرف السكال .
وقد سار على توزيع هذا الكتاب كرايس وأجزاء ، فترجو لكتابته الانتشار ، ولعمله
التوفيق . وعنوانه بمطبعة الرسام رقم ٩ بالنورية بالقاهرة .

تأدية حضرة صاحب الجلالة صلاة الجمعة

في الجامع الأزهر المعمور

أبدي حضرة صاحب الجلالة الملك رغسته في تأدية صلاة الجمعة في اليوم الثاني عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٦ في الجامع الأزهر المعمور ، فأخذت وزارة الأوقاف أهبتها لذلك ، وأم المسعد في ذلك اليوم أصحاب الفضيلة والدولة والمعالى العلماء والوزراء وأركان الحكومة من ملكيين وعسكريين ، فامتلا المسعد على رحبه بهم حتى لم يبق فيه متسع لقادم . وعندما أزفت ساعة التاذين قبل جلالة الملك في ركه الحافل ، فاستقبله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر يحيط به جمهور من أعلام الشيوخ ورجال الدولة . فلما انتهى الى مكانه من الصف الأول صلى ركعتين تحية للمسجد وجلس . ولم أذن واذن الظهر وفي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المنبر وألقى خطبة أعاد بها الى الأذهان تلك الخطب المغفلة التي كانت يمز بها ثبابة النهضة الاسلامية أعواد المنابر في أشهر العواصم الاسلامية . وإن الخطبة المصماء التي ألقاها فضيلة الأستاذ الامام لمي من ذلك المورد العبد الذي كيّف به الهداة الاولون نفسية هذه الأمة ، ودفعوها بها لطلاب زمامة العالم حتى حصلوها ، ووالوم بامثالها ليحفظوها .

والذي شهد هذه الصلاة الجامعة في الأزهر المعمور والأستاذ الإمام يفيض ببيانه السلسال على المنبر فيضا ، كان يقر في نفسه أن الاسلام لا يزال في أوج عظمته ، وأنه لا يقنا ينجب الانفذاذ من جملة أمانته ، وأن العقول حتى في مثل هذا العصر المادي لا تزال تخضع لأدلته الساطمة ، وبياناته الباهرة ، وأنه لو احتكرت المنابر لأصحاب الألقاب العالية ، والثقافات الراقية ، لاستعداد المسلمون محدم الاثبل ، ولاستردوا سلطانهم الأدبي على الأمم كافة . فإني كان إيمانا قويا في مستقبل الإسلام ، فلقد أصبح أقوى مما كان عليه على عهد حضرة صاحب الجلالة القاروق ، وفي إنان نهضة رجال الدين هذه تحت قيادة الإمام العبقري صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي .

إليك الآن نص هذه الخطبة الجليلة .

الخطبة

الحمد لله العلي القادر ، العزيز القاهر ، الحكيم الذي لا يضل ، الخبير الذي لا ينسى ،
سبحانه الكبير المتعال .

نحمده حمداً به نستأهل غفرانه ، ونستمنح عطفه ورضوانه .
ونشهد أن لا إله إلا الله توحيداً بالربوبية المطلقة ، وتقرراً بالجلال والعمرة ، وبرأ الخلق
بقدرته ، وأمدح بأحسانه ورعايته .

ونصلّي أفضل الصلوات وأعما على أفضل الخلق ، وكلمهم ، من حتم الرسالة ، وأدى الامانة ،
وحاهد في الله حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه
عليه ، وعلى آله وأصحابه الذين حلوا من بعده علم الهداية ، فدانت لهم الأمم ، وحضت
لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيماً .

أما بعد فيقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه
سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » . ويقول
الله تعالى : « من عمل صالحاً حسن ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجيناه حياة طيبة ، ولنجزينهم
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

على هذا الاساس شب الاسلام عزيزاً لا يعرف النذل ، كريماً لا يقبل الصميم ، وحمله كرام
بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به في الآفاق نافذاً السلطان رفيع المكان ،
ثم خلف من بعدهم خاف فتنوا بمرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا
الامر مقام تقسم ، وأسلاباً تورع ، ودياراً مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومحون ،
وطال عليهم الامد في ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الاهواء عن الهدى الالهى فسادت
حالمهم ، وصبروا على النذل واطمانوا اليه .

تحللوا من أصول الاسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدن عار ، وأن الصلاة
والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ،
ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يستمسك بها الرجل المتمدن الذي عرف معنى
الحياة وما فيها من لذة ومتعة .

سول لهم الشيطان أن التدن عار ، وأن الحر والميسر والاسترسال في الشهوات والانغماس
في الاباحية نوع من الحرية ، وخاصة من حواص المدنية .

سول لهم أن التدين عار ، فتركوا دينهم ، ونبذوا كتابهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح ، واخلقوا الفاضل ، فصاروا نهباً للامم ، ومثلاً للذلة .

توالت عليهم التنذير فلم يتدبروا ، وتتابع امامهم العبر فلم يعتبروا ، فحققت عليهم السكينة ، وأدبوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يحاف الله فيهم « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنهم الله فأدناها الله لئاس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

بهذا أصبح الإسلام في حاجة والمسلمون في حاجة ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ، ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : إن الإسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة والرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولاهله في ذلك قوانين تنظمها وحرائد ومجلات تعمل عنها . دين يبيح الكذب والزور ، والرشوة والفجور ، والفوضى في النظام ، والجور في الأحكام . دين يتغنى في الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والالحاد . بهذا ونحوه من الآثام والردائل التي صارت بين المسلمين معروفة مألوقة ، وهي عند العقلاء وفي دين الإسلام منكورة مبغوضة ، يصوّر الإسلام أحداً من حالة جمهور يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام .

أليس هذا أيها المسلمون جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقصاً لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ، ولا يحسن تأمة تزيد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟
« إن هي إلا فتنتك تصل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاقم لنا وارجعنا وأنت خير الغافرين » .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تحشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ؛
أيها المسلمون ! اسمعوا في دينكم قول الله الحق وقول رسوله الكريم :

يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحشكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . ويقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » .

يقرر القرآن نفي الإيمان ممن لم يرض بأحكام الله وصا يزيل الحرج عن صدره ويملا قلبه استسلاماً وطاعة ، ويصف بالمتناق من يصد عن الداعي إلى الله ورسول الله .

ويقول في آية أخرى : « قل من حرم ربة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟

قل هي للدين آمنوا في الحياة الدنيا حالمة يوم القيامة ، كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون .
قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا
بإله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون .

إن الدين أيها المسلمون مهيا امتدت آفاقه وتناول فيه المتأولون ، فهو لا يحتمل هذه
البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه الإباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التي لا تقف عند حد .
وإنما يحتمل مدينة فاصلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزيينة
الله وما هيا لعباده من طيبات ، يفرم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم
عليهم الخبائث .

هذا هو الاسلام أيها المؤمنون . فساوعوا الى مغفرة من ربكم ، وأنقذوا الناس من سباب
الدمار والتهلكة . واعلموا أن الله أهلك الأمم الذابرة لأقل من هذه الشرور والآثام .

خطوا للفضيلة طريقا واضحا ، وضموها لها نهجا مستقيما ، وقوموا على حراسته كما أمر الله
بالمعدل وقوة السلطان : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقا علينا نصر المؤمنين .
أيها المسلمون ! إن الله وضع قواعد الحكم الصالح في هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله
يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالمعدل ، إن الله نعما
يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى
الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ،
ذلك خير وأحسن تأويلا » .

والأمانة ما تجب المحافظة عليه . فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالم أمانة ،
وقول الحق في الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة ، والمعدل
في الأحكام والأفعال والأقوال أمانة .

كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين
بما لا يخالف نصا في الكتاب ولا في السنة قانون ، والرد عند التنازع الى قواعد الدين العامة
وأحكامه الكلية قانون . وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ،
وأُنزل عليكم في حكم كتابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم
وأنتم تعلمون » .

أيها المسلمون ! اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمته :

« شر ما في الرجل شح هالع وحن هالع . لن يزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له
النار ، ومن كتم شهادة دعي إليها كان كمن شهد الزور .

«الدين النصيحة . قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : الله ورسوله ولاة المسلمين وعامتهم — المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا (يشير الى صدره) كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه .

« من ولي من أمر المسلمين شيئا فأثر عليهم أحدا بمحاربة عليه لمة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يخطئه النار .

« اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم ، وإياكم والخيانة فإنها بثت البطانة .

« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكفه الله الى الناس .

« اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وفقى الله وإياكم الى التمسك بدينه ، والعمل على مرضاته ، والتخلق بأخلاق بيته الكريم !

الزفاف الملكي الكريم

أراد الحق أن يكون الفاروق ملكاً عظيماً ، فجعل كل ما يتصل به عظيماً ، وقد تجلّت هذه العظمة في زواجه الكريم الذي تم في الثامن عشر من شهر ذي القعدة ، فكان مهرجاناً ضخماً ، لم تر مصر له شبيهاً ولا في أيام فراغتها الأولى ، لا من ناحية ما افتن فيه مقيموه من ضروب الزينات ، وصنوف الشارات ، وكثرة الأنوار ، ومواكب الأهرار ، وحركات الجنود ، وحقوق البنود ، فشكل ذلك قد يوجد الطول والحول ، ولكنه يز جميع نظرائه فيما كان يصاحب كل تلك الحبات المتلازمة من حبات القلوب ، وما يحاط تلك التيارات الضوئية من تيارات العوس . فلئن كانت شوارع القاهرة وميادينها تموج بمئین الألوف حتى لا يكاد يجد المحتفون إليها مكاناً لتقدم ، فقد كان جوها مشعاً بروح من الحب الخالص لا نعرف حدوث مثله في حق مملك قديم أو حديث .

وقد اشتركت كل مدينة وكل قرية ، بل كل أسرة في هذا المهرجان ، حتى اتصلت صيحات الابتهاج بعضها ببعض من منابع النيل إلى مصبيه ، وتحطت مصر إلى العالم كله ، فلم تصدر حريدة ولا مجلة في تلك البقاع السائية إلا ووقفت أوجه صفحاتها لنقل أخبار هذا الزواج الكريم ، وطلّح فيها مئات الملايين من القارئین أخبار هذا المهرجان الفخم على الصور ، فكانوا كأنهم شاهدوه . فكيف تستطيع أن تعد من عياهل العالم من اهتمت البشرية قاطبة بزفافه كل هذا الاهتمام ، وتوسعت في قراءة تفصيلات حفلاته كل هذا اتوسع ؟ هذا أثر الروح العالية من النبيل والكرامة التي يتمتع بها حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، وثمرة الصفات الممتازة التي أودعها قلبه الكبير .

ومن توفيق الله جلالة الملك أن وقع اختياره على عقيلة من أكرم عقائل الأمة المصرية ، توافرت فيها جميع الصفات الفاضلة التي يحب أن تتحلّى بها ملكة مصرية ، فقد شهد كل من تشرفوا بمهرقتها أنها مثال كامل للأدب العالية ، والمحامد السامية ، ونموذج صالح للتربية الزاكية . ومن مميزات هذا القران المبارك أن يكون متونى عقده رجل أشعرت نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أنه ماعث روح النهضة الإسلامية ، ومديرها بأعماله الإصلاحية ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام المصلح الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فلا يسع مجلة الأزهر في هذه الظروف الجليلة إلا أن تمنى لجلالة الفاروق العظيم هداة خالصة من الشوائب ، وأن يكون عهد فاتحة عظمة لمصر ، ورعاة لاهلها ، وأن يقيه محوطاً بعناية الله وإمداده عمراً طويلاً بمنه وكرمه ؟

محمد فريد وجدي

الزفاف الملكي الكريم

بك عاد للإسلام عهد شبابه يا غفر شيخته ، وزين شبابه
لما طلعت على الحى ، سعد الحى وأتى صريح المجد من أبوابه
عرش أناف على الججرة رفعة واحضرت الآمال تحت سحابه
الدين والدنيا لديه تلاقيا هذى بزيتها ، وذا بكتابه
فى موقف ضئى الخلود جلاله بالحق ، لا بطيمانه ورضابه
لم يحوه كسرى الملاك وقصر فى زهو ملكهما ، ولا سمابه
طاروق أبسه مطارف عزة بالشمس قد وصلت عرا أنسابه
ملك أصاب على فضاة عوده فى الملك ما أعيى على أقطابه
المعوم من آدابه ، والبذل من آرابه ، والمسل من ألقابه

النيل حين بدأ سنا إملاكه غنت عنادله على أعنابه
وتطاول الهرم المسدل بنفسه وازداد إعجابا على إعجابه
والأزهر الثاوى بقنة مجده سطمت مباحجه على محرابه
فتح السرور به ، فهو رجلاه من شيخه الأعلى الى طلابه
واستبشر الشرق الكريم بأسرة طبعت خلايقها على آدابه
أنعم بتاج حاز خير فريدة زانت تقاسمتها ككريم نصابه
حن الجلال الى الكمال ، فضمه والشئ منهجذب الى أضرابه
إسلاك طارق الملك سمادة لبس الزمان بها ربيع شبابه
فشماع هذى الشمس من أنواره وأريج هذا الروض من أطيابه
والبدر أفرط فى السمو لانه فى نغمه قد عد فى أترابه

فاروق : شعبك في زفافك سابع
 وقفت ببابك أمّة وثابة
 إخلاصها الساعى أجل هدية
 من مبلغ اليت المحجب أنه
 أربى وزاد ؛ فمذه أعلامه
 والقاب تنحصر المطامع دونه
 حاطته حبات القلوب غاطها
 ومما بها صعدا الى مقسم
 نغربه الفاروق سلسل مجده
 فلينعن الوادى للسعيد وأهله
 كلية اللغة العربية

في يمن طالعه ، وفي إطرابه
 فياضة ، كالسيل في تصغابه
 لأجل من وقف الوفود سابه
 في شبله قيد عاش خلف حجاب
 ملء الربا ، والنصر طوع ركابه
 من ذا يهيج غضنرا في غابه ؟
 وأعرها جنت على أطنابه
 أعيت مطالعه على طلائه
 وأضاف أحسابا الى أحسابه
 في ظل رايته ، وخصب جنابه
 عيد الجواد رمضان

مدرس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحج

في هذه الآونة ياخذ الذين أسعدهم الله بأزمار الحج الى بيته المحرم في السفر لاداء هذه الفريضة الجليلة ، ومنهم من يادر به ليطيل مكثه بتلك البقاع الطاهرة . وما يرى من هذه الحركة هنا يوجد منها في كل بلد إسلامية من مطلع الشمس الى مغربها ، ونحن إذ كنا على بعد ثلاثة أيام من تلك البقاع الشريفة بحرا وبضع ساعات جوا ، فإن من المسلمين من لا يكفهم الشهر في قطع هذه المسافات المترامية بينها وبين بلادهم برا وبحرا ، وقبل قرن من الزمان كانت لا تكفيهم السنة يتعرضون فيها الى إخطار لا يقوى على تحملها إلا كل من كتب له طول البقاء .

هذه العاطفة القوية التي كانت ولا تزال تهيب بالنفوس الى زيارة بيت الله بيبكة ، لم تضعف بضعف العاطفة الدينية في هذا القرن المادى ، ولكنها ازدادت قوة ، فأصبح اليوم يحج من لا كان يرد له الحج ببال ، من الرجال المثقفين والنسوة المتعلعات ، والفضل في ذلك يرجع الى قوة نية هذا الدين ، وازدياد تأثيره في النفوس بازدياد ترقى العلم والحكمة . فانه بينما يشكو العالم كله من مجاعة المتعلمين للأديان ، يزداد متململو المسلمين تقربا من الاسلام وإقبالا عليه . ولا يمكن أن يعمل هذا الأثر بفعل الوراثة ، ولا بدافع التقليد ، فانهما لا يعتمدان حدود الجود العقل الى الأعمال العاطفة التي تكلف الانسان مالا وانتقالا .

الحج في ذاته ليس خاصا بالاسلام ، فقد كان أهل الجاهلية يحجون ، واليهود والنصارى يحجون ، وكان أهل الهند والصين والبونانيون القدماء وغيرهم يحجون الى معابد وهياكل مقدسة لديهم ، ولكن ليس الحج في واحدة من هذه الأمم يشبه الحج في الاسلام . فتلك أم اعتبرت الحج غاية فكانت تؤديه لذاته ، ولذلك اعتقدت أنه كلما كان شاقا مرهقا كان ثوابه أكثر ، وعائده أوفى ، ولكنه يعتبر عند المسلمين وسيلة لما ينتنى عليه من الفوائد الأدبية والمادية ، وذريعة لما يتولد عنه من العوائد الروحية والاجتماعية . ولذلك شرط الله له توافر الاستطاعة المالية والبدينية ، واستكمال أسباب الراحة الجسمية والانتقالية .

فالْحج في الاسلام عسوق ما هو عليه من الصبغة العسادية ، تلارمه صبغة اجتماعية واضحة ، وهو كجميع المبادات الاسلامية تمازج فيه هاتان الصبغتان بحيث لا يعرف الحد الفاصل بينهما ، وهنا موطن قوة هذا الدين الذي أدهش بها العالم ، وعلة حياته في قلوب أهله حياة قابلة للتجدد على مر الأيام وتوالي الحوادث .

فيصح والحالة هذه أن تقول إن الحج يلزمه قيام مؤتمر عام للمسلمين في كل عام مرة . ومن يتأمل في جزئياته يرى أن عناصر ذلك المؤتمر ماثلة فيه على أكمل وجه . فإن المسلمين في أول الاسلام كان يحج بهم أمير من اختصاصاته أن ينفهم إذا اجتمعوا في صعيد واحد ما كلفته السلطة العليا أن ياقمهم إياه بماله اتصال وثيق بأمر دينهم ودنياهم والدين والدينا في نظر الاسلام مترابطان ، ترابط الروح والجنان في الانسان . فإذا كان الدين يمد الروح بالإيمان الصحيح ، والآداب والأخلاق ، فإن أمور الدنيا تمدد بأسباب البقاء ، ودواعي الارتقاء ، وإتقان خلافة الله في الأرض .

هذا وضع جليل في نظر علم الاجتماع ، لا يعقل أن يتكرر باني دولة أصلح منه لتوثيق روابط أمة من الأمم ، وإسماعها بالتقوية كلما أدركها ضعف أو أثاره من انحلال .

ثم إنه من ناحية أخرى ، إن روعيت جميع شروطه ، وسيلة عملية لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم الى مصادر الحياة الصحيحة ، بما يقتضيه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر مما يكونون قد هُندوا اليه دون غيرهم ، سواء أكان ذلك في عالم العلم أم العمل . ولا يخفى ما في استمداد الضعفاء من الأقوياء من خير يعود على الطرفين جميعا .

ويقع هذا أيضا ناحية ليست تقل خطرا عن الأول إن لم تكن تفوقها قيمة ، وتكبرها أثرا ، تلك هي الناحية الاقتصادية . فإن لكل شعب من الشعوب الاسلامية صناعات ، ونبوغا في بعض ضروب المحاولات ، وللدائم منتجات لا توجد في غيرها ، فانه بوساطة هذا المؤتمر العام يمكن إبرام اتفاقات على تبادلها فيما بينهم ، وإن مثول أصحابها في مجتمع عام يسهل عليهم تدارس الوسائل المختلفة لتسهيل أمر ذلك التبادل وحمله أمرا واقعا ، بتذليل ما عسى أن يقوم أمامه من العقبات .

هذا بعض ثمرات الحج من الوجهة الاجتماعية ، فهل يقوم المسلمون عما يحققها استكمالاً للناحية الدينية من هذه الفريضة ؟

كل تجديد في شأن من الشؤون البشرية يجب أن تسبقه حاجة ماسة اليه ، فهل أشعرت نفوس المسلمين الحاجة الى الاستفادة من الحج لمصالحهم الأدبية والمادية ؟

ليس لدينا من شك في حدوث هذا الشعور منذ نحو نصف قرن ، وقد كتب في حكمة الحج من الناحيتين الروحية والاجتماعية عدد كبير من الباحثين ، ولكن كان يحول بين المسلمين وتحقيق هذه الامنية سيادة الجهالة والامية في سوادهم الأعظم ، والصعوبة العظيمة التي كان يعاينها الخاصة في شخوصهم الى الاماكن المقدسة ، خلوها من ضروريات الإقامة ووسائل الانتقال . ولا تزال هذه الحوائل قائمة وإن كانت في طريق الزوال . فالمسلمون اليوم يعملون جادين على قشع غياهب الامية عن عقول عامتهم ، وقد تسهلت وسائل الانتقال بحرا

وجوا ، وتأسست فنادق كاملة العتاد هنالك ، فتيسر لكثير من رجال التفكير العالى زيارة البيت وتلك المشاهد الرائعة ، وادادوا علمانان الاستعانة من هذه الفريضة لمصلحة الاسلام والمسلمين يتناول أكثر مما أشرنا اليه . فقد رأوا أنه كما يتناول توحيد وحبة المسلمين وغايتهم ، قد يمتد فيتناول توحيد لغاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وإزالة بدعهم وخرعبلاتهم . وصنوبر هذه الاصلاحات والتجديدات من البيئة نفسها التى نشأت فيها أول نواة لهذه الأمة ، ومنها استمدت عناصر حياتها ، وروح وجودها وعظمتها ، يطبمها بطابع التقديس فتخضع الرقاب لها صاغرة ، وتنحنى الرءوس أمامها خاشعة . ويزيدها هيبه وتأثيرا أن تلك القناع أصلح لتمثيل جميع المذاهب الاسلامية من كل بقعة فى الأرض ، فيكون لتماليم والوصايا التى تصدر منها صفة الاجماع ، فلا يقوى على الخط من شأنها متلاعب مبتدع فى أى بيئة من بيئات العالم .

هذه الأقوال ليست بالأمانى التى يتعمى بها المفكرون ، ولكنها حقائق لا بد من تولدها من فريضة الحج ما دامت مقامة لدى المسلمين ، وما دام هذا الجئان الصعج من شعوبهم وجماعاتهم قد كتب له أن يعيش .

ومما يحسن بنا أن لا نختتم هذه المعجالة حتى نستزل عجب القارى من هذا النظام البديع الذى انبى عليه الاسلام مجتمعه العظيم ، فقد وضعه على أسلوب وإن كان لا يمنعه من طروء الضعف عليه إذا قصر أهله فى أداء واجباتهم نحوه ، فإنه يحميه عوادي التحلل والعناء فى غيره . فإن صروب المناجات المبثوثة فى بنيته ، وصوف الحوافظ المحيطة به ، لها تحار فيها العقول القوية ، وتدهش منها البصائر النافذة .

لقد وصلت بعض جماعات المسلمين وخاصة فى اليهود الأخيرة الى حالة من الضعف أصبحت معها حرضاً يرمى له ، نسبت معه كل شىء حتى وجودها ، ولكنها لم تنس شيئاً واحداً وهو دينها ، فلم تزل تحبه وتحترمه وتعلق عليه آمالاً كباراً . فـكان الناظر اليها يمد ذلك منها جوداً ، لأنه فى قصر نظره وجهه بحقيقة الاسلام كان يظن أن ما هى فيه هو جناية هذا الدين عليها ، فأكثرها فيها من الدماء الملهم ، ونشوا فيها روح النور من عقائدها ، ولوحوا لها بما ينتظرها من المقاومة الكريمة ، والمكانات العلى إن صيأت عنه الى غيره ، ولكنها ظلت وفية له لا ترجو من حياتها إلا شيئاً واحداً وهو أن تموت عليه .

لا نقول إن هذا الثبات من آثار الجود على التقاليد ، والاستقامة فى الصرع على الموروثات ، لأن شعوباً كثيرة غير إسلامية صيأت عن أديانها فى عهود كثيرة من التاريخ ولم تصل الى مثل ما وصلت اليه بعض الجماعات الاسلامية من الضعف وسوء الحال ، فعدم حدوث هذه الظاهرة الاجتماعية فى هذه الجماعات خلافاً لسواها يدل دلالة قاطعة على أن فى نظام الاجتماع على الأسلوب الاسلامى حوافظ خاصة ، ومناجات قوية ، تحمى شر التحلل والتلاشى فى جماعات أخرى .

ونحن وإن كنا نرى أن هذا الموضوع جدير ببحوث مستفيضة ، وتدقيقات عظيمة ، فأننا نستطيع أن نتمجّل فنقول : إن فرصة الحج واحدة من حوافظ الاجتماع للشعوب الإسلامية . وقد فطنت لذلك أمم استعمارية فعملت على تحريم الحج على الشعوب الإسلامية الخاضعة لسلطانها سنين كثيرة ، ولكن وجود غير الحج من الحوافظ والمناغات في نية الجماعات الإسلامية أبقاها حافظة لتناسكها في وجه جميع المغريات التي صبت عليها من مستعمرها الذين اضطروا في النهاية أن يرفعوا هذا الحجر عنها .

واليوم توجد أمم تتطور في اتجاه المدنية الأوروبية ، وتتقمص العقيدة الغربية عن اعتقاد راسخ بأنها إن لم تفعل ذلك لا تستطيع أن تلاحق الدول المعاصرة في توثباتها الحيوية . وكان كل متأمل في تطور هذه الأمم في هذه الوجهة يظن أن الإسلام سيلاقي منها ما لقي كل دين سواه لدى الذين سلكوا مثل هذه السبيل من قبل من الجماعات الأجنبية ، ولكن هؤلاء المتشائمون ما لبثوا أن رأوا هذه الأمم تزيد تملقا بالإسلام ، وتشدّد محافظة عليه . فاجدها أصبحت أكثر حفولا بالمصلين ، ومواسم الدين صارت فيها أظهر مما كانت عليه . ولو امتدت بك حياة إلى نحو ربع قرن آخر لترى رأي العين أن حوافظ هذا الدين وجواذبه قد عطفتهم إليه من أسمى ما يؤثر على شعورهم ، وأخفى ما يتسلط على عقولهم .

ولقد بدأت هذه القوى الظاهرة والخفية في الإسلام تنتج آثارها فيهم ، فقد قاموا بترجمة القرآن إلى لغاتهم ، فيقول قصار النظر هذه مقدمة لإلقاء نيره عن عوائدهم ، والحق أنهم ترجموه لشدة تعلقهم بكتابهم ، وحبهم زيادة الفهم عن ربهم . فأن من يريد التخلص من سطوة كتاب على قومه ، يدعه على لفته التي لا يفهمونها ، ويزيد من إيهامها بأنه مما لا تجوز ترجمته ، فلا يعصى عليهم عهد حتى تزول معالمه من أذهانهم فلا يمدون يتمسكون به .

الخلاصة أن للإسلام حوافظ ومناغات من ضروب شتى قد يخفى كثير منها على المتأملين السطحيين ، وهي في الواقع ترتكز على أحل قوى النفس ، وأخفى غرائزها ، كما يرتكز ظاهره على أظهر مواطنها ، وأوضح مراميها ، فليس لها على الحاليين محيد صه : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » ؟

محمد فريد وجرى

السنة

كيف كان يجتهد الرسول وكبار الصحابة

في الأحكام الشرعية

عن ابن عمر أنه قال : « لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساله أن يعطيه قبضه يكنن فيه أباه فأعطاه ، ثم ساله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : تصلي عليه وقد نهاك ربك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنما خيرني الله فقال : « استغفر » لم أولاً تستغفر ؟ لم إن تستغفر لم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (١) » وسأزيده على السبعين . قال عمر : إنه منافق ! قال : فعلى عليه رسول الله ، فأرسل الله « ولا فصل » على أحد منهم مات أبداً ولا تقسم على قبره (٢) » . رواه الشيخان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) هل يدل الحديث على أنه يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهد في الأحكام الشرعية قبل نزول الوحي ؟ (٢) وإذا جاز له الاجتهاد فما قايده مع اتصاله بالوحي . ألم يكن الأول أن يتلقى الأحكام كلها عن الوحي ؟ (٣) يؤخذ من الحديث أن عمر قد خالف الرسول في اجتهاده ، فهل لأحد أن يخالف الرسول في حكم شرعي ، وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٣) » ؟ (٤) قد صرح الحديث بدليل الرسول الذي بنى عليه اجتهاده فقال : إنما خيرني الله الخ فالدليل عمر الذي نبى عليه نبى النبي عن الصلاة عليه ؟ (٥) قد أقر الله اجتهاد عمر في الظاهر حيث قال للرسول : « ولا فصل على أحد منهم مات أبداً » فما هو السر في ذلك ؟

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فهو بالإيجاب ، وذلك لأن الحديث صريح في أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فعلاً في حكم شرعي . أما كونه حكماً شرعياً فظاهر ، لأن حواز الصلاة على المنافق المتوفى وعدم جواز حكم شرعي بلا ريب . وأما كونه صادراً عن الرسول باجتهاده لا بالوحي فذلك لأن عمر قد خالفه فيه ، ولو كان صادراً عنه بطريق الوحي لما جاز

لعمري أن يخالفه فيه كما ستعرفه بعد ، فهذا دليل واضح على أن النبي صلى الله عليه وسلم أن يجتهد ، لأنه قد اجتهد فعلا ولم ينه الله عن الاجتهاد .

على أن بعض علماء الأصول قال : ليس للرسول أن يجتهد . وقد استدلل من قال ذلك بدليلين : (أحدهما) أن رأى المجتهد يحتمل الخطأ والصواب ، ولهذا لا يجب على الناس أن يتسلطوا المجتهد ، وهذا المعنى لا يتحقق في الرسول لأن الله تعالى أوجب علينا اتباعه في كل الأحكام التي يحيى بها بحيث لا يجوز لأحد مخالفته فيما يأمر به أو ينهى عنه .

(ثانيهما) أن الرسول قد تمت لبيلع الأحكام عن ربه ، فيجب أن تكون شريعته كلها بنصوص من عند الله ، لأن الشأن في المبلغ أن يقتصر على ما يوحى إليه ، ومتى اجتهد يخرج عن وظيفة التبليغ الى وظيفة الاجتهاد التي لم يبعث لها .

وقد أجيب عن الدليلين بأن النبي صلى الله عليه وسلم متصل بالوحي ، فلو أخطأ في اجتهاده فإن الله لا يقره على الخطأ بل يوحى إليه بالصواب الذي يجب العمل به . ولهذا كان اتساعه في كل ما جاء به من الأحكام واجبا ، بخلاف غيره من المجتهدين فالرسول وإن كان يوصف بالاجتهاد في بعض الأحكام في أول الأمر ولكن بعد أن يقر الوحي اجتهاده يصبح رأيه في الحكم صوابا حتما لا يحتمل الخطأ كالنص الموحى به بدون فرق . وبذلك تعلم أن الرسول لا يخرج باجتهاده عن وظيفة التبليغ ، لأن اجتهاده بعد إقرار الوحي إياه يكون كالنص الموحى به بلا فرق .

على أن هناك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن للرسول أن يجتهد .

منها قوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم (١) » . ولا يخفى أن البيان ما يتناول ما كان بطريق الوحي وما كان بطريق الاجتهاد . بل لو قصرناه على ما كان بطريق الوحي لم يكن له كبير فائدة ، لأن البيان بطريق الوحي مأمور به ضمن الآيات الأخرى

ومنها قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولي الأبصار (٢) » . وليس من المعقول إخراج الرسول من أولي الأبصار المأمورين بالاعتبار أعني الاجتهاد ، لأنه سيد أولي الأبصار وأحقرهم بالنظر والاعتبار .

ومنها قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر (٣) » فإنه لو لم يكن له رأى فاصل في الأمور لم يكن لأمره باستشارتهم معنى ، فإن الذي لا يملك الت في أمر يكون مانعا إذا شاور غيره فيه . ولا يصح أن يقال إنها شورى ظاهرية يقصد بها تطييب خاطرهم فقط لأن ذلك مما ينزه الله عنه ورسوله وأجلاء الصحابة ، فانهم إذا علموا أن الشورى لا فائدة لها مطلقا تهيج حسواطهم

لا تطيب . وأيضا لو صح هذا لما كان لخالفهم إياه معنى ، مع أنه قد ثبتت مخالفتهم إياه في كثير من الحوادث ، وقد أقرهم الله على رأيهم في كثير منها . وهذا الحديث الذي متنا شاهد صدق على أن النبي قد اجتهد فعلا وحالته عمر وأقر الله اجتهد عمر في الظاهر ، ولم ينه الرسول عن الاجتهاد . ومثله كثير في السنة ، بل وفي كتاب الله تعالى .

ومنها قوله تعالى : « ما كان لشي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض (١) » الآية . وحاصل ما قيل فيها أن المسلمين قد أسروا في معركة بدر سبعين أسيرا ، منهم العباس عم الرسول ، وعقيل بن أبي طالب ، وسهيل بن عمر ، من فصحاء مكة وخطبائها اللقاء . فاختلف المسلمون في أمر هؤلاء الأسرى ، فكان من رأى الرسول صلوات الله عليه وأبي بكر ومعهما بعض الصحابة إطلاق سراح هؤلاء الأسراء نفدية مالية ينتفع بها المسلمون . وكان من رأى عمر وسعد بن معاذ ومعهما بعض المسلمين قتلهم . وظاهر هذه الآية يؤيد عمر ومن معه ، ولكن الواقع أن الله قد أيد الفريقين .

يبان ذلك : أن وجهة نظر عمر رضي الله عنه قد يقال فيها إن المسلمين كانوا في بدء قوتهم فن واحبهم أن يستمسكوا بكل ما يزيد في هذه القوة التي يتوقف عليها نشر الدعوة الى الله كي يرهبوا أعداءهم الذين يترصون بهم الدوائر ، ويريدون القضاء عليهم وعلى الدعوة الى الله في مهدها . فالسياسة الحربية يومئذ تقضى استئصال المخربين وعدم إطلاق الأسرى في نظير نفدية مالية ، خصوصا إذا كان الأسير ذا جاه ونفوذ ، فإن إطلاقه في نظير نفدية من المال في وقت ضعفهم قد يترتب عليه شر عظيم لا يوازيه مال كثير ، فلذا رأى عمر قتلهم لما فيه من إرهاب المشركين ، وقطع دابر بعض أئمة الكفر الذين أخرجوهم من ديارهم وأسواهم وأذوهم شر إيذاء .

وأما وجهة نظر الرسول عليه الصلاة والسلام وأبي بكر ، فقد يقال فيها : إن قتل هؤلاء لا فائدة فيه ، بل قد يثير أحقاد من وراءهم بحالة عنيفة ، فيتألبون على المسلمين قبل أن يقوى جانبهم وتشتد ساعدتهم ، فتموء الحال ، وأن الدين الاسلامي يرتكز في الواقع على قوة البرهان لا على البطش والارهاب ، وكثير من هؤلاء الأسرى مستعدون للإدراك الصحيح ، فلا بد أن تؤثر فيهم قوة البرهان القاطع ، فيؤمنوا بالله ورسوله ، ويكون للدين بهم قوة ، وذلك هو الغرض من الدعوة الى الله تعالى ، فضلا عن أن المال الذي يأخذونه فداء يمكنهم أن يؤسسوا به قوة ترهب الأعداء أكثر مما يرهبهم قتل هؤلاء الأسرى ، والمسلمون وقتئذ كانوا في أشد حاجة الى المال .

وقد تحققت وجهة نظر النبي صلى الله عليه وسلم في عاقبة الأمر من جميع جهاتها ، فقد دخل

معظم هؤلاء الأسرى في الاسلام ، وكانوا من أشد أنصاره وأقوى أساطينه . روى أن عمر قال لرسول الله : إن سهيل بن عمرو قد آذى المسلمين بخطبه وفصاحته فيحسن أن تنزع بعض أسنانه التي يمتلئ بها لسانه فيستحي من أن يقف موقف الخطيب الفصيح . فقال له رسول الله : عسى أن يقوم مقاماً تمده عليه . وأطلقه بالمدينة بدون أن يؤذيه ، فدخل سهيل الاسلام وكان من أقوى أنصاره ، ولمعات رسول الله عزم بعض ضعاف الايمان على الردة فقام سهيل هذا فيهم خطيباً خوّلهم عن عزيمتهم ، وذلك هو الموقف الذي مدحه عليه عمر . وبذلك تحققت سياسة الرسول كاملة عليه الصلاة والسلام .

فهذا بعض ما قد يقال في توجيه الرأيين ويؤخذ من لحوى تعليل كل واحد من الفريقين لرأيه . أما الله عز وجل العليم بأحوال عباده وبما يؤثر فيهم ، فقد أيد الفريقين في الواقع ، وذلك لأن الله قد أقر سياسة النبي في إطلاق الأسرى وأخذ الفدية منهم ، ولو كان يريد قتلهم وعدم أخذ الفدية لأوحى به الى الرسول قبل أن يأخذ منهم شيئاً وقبل أن يطلقهم ، كما وقع ذلك في بعض الحوادث ، فإن النبي لما أراد أن يتفق مع بعض كبار المشركين على أن يقضى من محله بعض ضعاف المؤمنين حرصاً على إيمان هؤلاء الكبار ، وأراد أن يكتب لهم بذلك صكاً ، نزل عليه الوحي في الحال ونهاه عن ذلك ، فلم يفعل . وما ذاك إلا لأن الله تعالى عليم بخير بما قد يترتب على إطلاق هؤلاء الأسرى في النهاية من الخير العظيم ، إذ لو لم يكن فيه سوى إسلام العباس وعقيل وسهيل وأمثالهم من أساطين المسلمين الذين أبلوا في سبيل نصرته الاسلام البلاء الحسن لكفى . ولكن هذه النهاية لا يعلمها إلا الله عز وجل ، فلذا لم يمنع الرسول من تنفيذ اجتهاده ، ولو شاء لأوحى إليه بالمنع . فضلاً عن ذلك فقد أباح سبحانه للمسلمين الانتفاع بالمدينة ، وفي ذلك إقرار لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في الواقع ، ولكن هذه الحالة خاصة بالرسول المتصل بالوحي ، فهو الذي يمكنه أن يقدم على تنفيذ اجتهاده هذا وهو آمن مما يترتب عليه من شر ، راجح لما يترتب عليه من خير . أما غيره من المسلمين فليس لهم أن يفعلوا هذا . فن أجل ذلك خاطب الله رسوله بقوله « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » الآية . ومعنى الآية : ما كان ينبغي للنبي أن يتسامح مع الأسرى فيأخذ منهم الفداء ويطلق سراحيهم من قبل أن يغزو المشركين ويثخنهم قتلاً حتى يخضعوا للدعوة الى الله ويمز الاسلام ، فإذا عظمت قوة المسلمين وقويت شوكتهم وأصبحوا آمنين على الدعوة الى الله وعلى أنفسهم من بطش المشركين ، كان لهم أن يفعلوا ذلك ، بل كان لهم أن يطلقوا الأسرى بدون فدية أصلاً . وهذا هو الذي وقع فعلاً ، فإن الله خيرهم بعد في أمر الأسرى فقال لهم : « فإما منّا بمدة وإما فداء (١) » فأباح لهم إطلاق الأسرى بدون مقابل تما منا عليهم .

ولا يخفى أن ذلك تأييد لاجتهاد عمر ومن معه في الظاهر ، فكان الله سبحانه يقول :
 إن سياسة الرسول وأبي بكر ومن معها حسنة في ذاتها ولكونها سابقة لأوانها ، ومع ذلك
 فإذا فعلها الرسول فإنها لا تنصر ، لأنه قد يترتب عليها فائدة في المستقبل ، ولكن هذه الفائدة
 غير عادية ، فلا يعلمها إلا الله الذي لا يجمع رسوله منها إن كان فيها خير . أما سياسة عمر ومن
 معه فهي المطابقة للسنة الطبيعية ، وهي التي ينبغي للمسلمين أن يفعلوها . ففي خطاب الرسول
 بهذه الآية إشعار للمسلمين بما يجب أن يكونوا عليه في مثل هذه الحالة .

والحاصل أن حال المشركين يومئذ كان يستدعي أن يظهر المسلمون بمظهر البطش والقوة ،
 لأن المشركين كانوا كثيرين أقوىاء بالمال والرجال ، والمسلمون كانوا أقلية ضعيفة ، فلم يشعروا
 بشدة بأسهم وقوة بطشهم فأنهم لا يبالون بهم ، وهذا ما كان يراه عمر ومن معه ، وهو
 ما يجب على كل عهده ينظر في شئون المسلمين الدينية المتعلقة بالمصالح العامة والخاصة . فواجب
 على المجتهد أن ينظر إلى الظروف المحيطة به ، ويبقى اجتهاده على الحقائق الثابتة ، لا على ما عساه
 أن يقع ، خصوصاً في الأمور الحربية ، فأنها تستدعي الشدة والمحيطه من جميع الوجوه . وأما قوله
 تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمستكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١) » فعناه أن الله قد
 كتب على نفسه أن لا يؤخذ المجتهدين على خطأ مما عظم . بل قد ثبت أنه تعالى يثيب المجتهد
 وإن أخطأ .

وبعد : فإن كل هذا واضح الدلالة على أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتهد في أحكام شرعية
 لم ينزل بها الوحي ، وقد خالفه أصحابه في بعضها ، وأقر الله اجتهادهم ولم ينههم عنه ، بل قال لهم
 إنه كتب على نفسه أن لا يؤخذ المجتهد على خطأ . فهل بعد ذلك من دليل على صحة قول من يرى
 حواز اجتهاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟ فهو إمام المجتهدين ، ومرشد الماعظم بلا نزاع .

(٣) أما الجواب عن السؤال الثاني وهو : ما فائدة اجتهاد الرسول مع اتصاله بالوحي الخ ؟
 فهو : إن له فوائد كثيرة : أهمها أن في اجتهاد الرسول وكبار أصحابه أسوة حسنة لمن بعدهم
 من المجتهدين ، ومثلاً كاملاً لما يصح أن يختلف فيه المجتهدون ، فإن كل المسائل التي اختلفوا
 فيها سواء كانت متعلقة بالمعاملات كما في أسرى بدر ، أو بالعبادات كما في الصلاة على المسافر
 المتوفى ، كان مدار اختلافهم فيها على أربعة أمور : أحدها توخي المصلحة العامة التي كان
 يمتد كل فريق إليها إلى جانه . ثانياً : التمسك بالأدلة الواضحة التي لا تصف فيها ولا خفاء
 في مقدماتها بحيث لا يرتاب من صريح الحجة في أنها صادرة عن قلب مخلص بعيد عن الهوى
 والشغب . ثالثاً : عدم التعصب لرأى ، والبعد عن التشبث بالجدل متى وضع الحق وظهرت

النتيجة . رابعها : أنهم ما كانوا يجتهدون إلا عند عدم النص ، أما إذا وجد النص فانهم كانوا يعمدون الى المعنى المتبادر منه ويعملون به .

وبما لا ريب فيه أن الاجتهاد المبنى على ذلك لا غنى عنه للمسلمين في جميع الاحوال ، لأن رسول الله مرسل للناس جميعا ، ولا بد من تجديد الحوادث وتفاوت المصالح بحسب تفاوت الأزمنة والبيئات ، ولا بد من تطبيق ما يتجدد من ذلك على نصوص الدين الخاصة إن وجدت ، أو النصوص العامة إن لم يوجد نص خاص ، ولا بد من تفاوت أفعال الناس واختلاف أنظارتهم ، فكان من اللازم الضروري أن يجتهد الرسول وأصحابه ليكونوا قدوة حسنة للمجتهدين من بعدهم . ومن أجل ذلك تركهم الله يجتهدون بدون وحى ليعلموا من بعدهم ، ثم حكم الله في اجتهادهم ليبين للمجتهدين وجه الصواب الذي يجب عليهم أن يتصروا به بكل ما في طاقتهم ، وليرشد الناس الى أن الاجتهاد ليس من الأمور الهيئية ، فإن الرسول وهو أرق الناس ذكاء وفطنة حميت عليه بعض العلل ، فيجب أن يكون المجتهد قادرا على استنباط الاحكام ، وليعلمهم أنه يجب عليهم أن يتبعوا الرأي الصواب مهما كان مصدره ، وأنه يجب أن لا يحد العظم في نفسه غصاصة إذا أخطأ هو وأصاب غيره ، وليشجعهم على الاجتهاد وترك التقليد ، لأن المجتهد لا يؤخذ على الخطأ متى بذل الجهد وتمسك بكل الوسائل اللازمة .

فهذا هو اجتهاد الرسول وأصحابه ، فهل رأيتم اختلافوا في أصل من أصول الدين ، أو في عقيدة من العقائد ، أو في نص من نصوص كتاب الله الواضحة الجلية ؟ وهل رأيتم ينتحلون في اختلافاتهم دليلا وأهنا أو معنى لعمدا كي يصلوا بذلك الى غرض شخصي أو شهوة كامنة أو اعتقاد باطل ؟ وهل رأيتم واحدا منهم يتمصب لرأي أو يحاول الظهور بين الناس بالعلم والذكاء والقدرة على إخماد مناظرة ؟ وهل رأيتم أحدا منهم يصحى في اجتهاده المصلحة العامة طمعا في الحصول على مصلحة خاصة ، أو رأيتم جميعا في اجتهادهم على العكس من ذلك : لا يجتهدون إلا للمصلحة العامة التي يترتب عليها إعزاز دينهم ووطنهم ، فلا ينفون بها بدلا ولو قطعت رقابهم ، وزهقت نفوسهم ؟

نعم : إنهم كانوا كذلك وأكثر من ذلك لم يتأمل ، فكانوا خير قدوة لمن بعدهم من المجتهدين الذين درجوا على نهجهم ، وساروا في طريقهم ، واتبعوا آثارهم فلم يخرجوا عنها قيد شعرة . فخرام الله عن دينهم وبنبيهم أحسن الجزاء .

أما الذين أصلهم الله وأعمى أبصارهم فانهم قد اختلفوا في أصول الدين ، واختلفوا في العقائد التي نهى الله ورسوله عن التفرق فيها ، فاصبحوا بذلك خارجين على دينهم وبنبيهم وهم مسلمون اسما ، فكان جزاؤهم عذاب النار ، كما أخبر بذلك الرسول صلوات الله عليه ، فقد قال : « ستفرق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة كلها في النار ، إلا واحدة وهي ما أنا عليه وأصحابي » .

قال صاحب المواقف : وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم حيث وقع ما أخبر به . ثم عد الفرق المذكورة في الحديث واحدة واحدة . فمن أراد معرفتها فليرجع الى المواقف .

فالتلجى من هذه الفرق هو ما كان اجتهداه كاجتهاد رسول الله وأصحابه ومن على سنتهم ، يستمسون بالنصوص الشرعية متى وجدت ، ويعتمدون الى ما هو المتبادر الظاهر منها بدون تمسك أو تكلف ويطبقونها على مصالح العباد . فإذا لم يوجد نص فإنه يعمل بالتقريب الصحيح . على أنه لا مانع من تفاوت الأفهام في النصوص .

قال في اعلام الموقعين :

« إن النصوص الشرعية تشمل جميع الأحكام في جميع الأزمنة والأمكنة ، فلم يحدث جديد إلا ويمكن أخذ حكمه من نص شرعي ، ولكن النص معنيان : معنى أصلي وهو الذي يقصده الشارع من اللفظ ، ومعنى إضافي وهو الذي يفهمه السامع . وبديهي أن الناس متفاوتون في الإدراك والفهم ، وللكلام نواح وحجرات متعددة يختلف بسببها ذلك الإدراك ، ولهذا قد اختلف الناس في فهم النصوص في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يرجعون إليه فيقرر لهم المعنى الذي يريد الله تعالى ، ولم ينههم عن الفهم الذي يخالف مراد الشارع من اللفظ . وهذا التفاوت في الإدراك يظهر جلياً عند الفتاوى في الحوادث واستنباط الحكم ، فمن الناس من يهديه ذكاؤه الى استنباط حكم صريح حتى على غيره خفاء تاماً ، كما وقع لعل مع عثمان رضي الله عنهما ، فإن عثمان قرر أن المرأة التي ولدت لستة أشهر زانية وأراد رجها ، فراحمه على ، وقال له . كلا إن المرأة قد تلد لستة أشهر ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً (١) » . ووجه الدلالة أن الله تعالى قال : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين (٢) » فإذا طرحن الحولين — أربعة وعشرين شهراً — من ثلاثين كان الباقى ستة وهي مدة الحمل ، فافتنع عثمان بهذا النص « اهـ ملخصاً .

ومما يلفت النظر اقتناع عثمان بمجرد أن ظهر له معنى الدليل واضحا ، فلم يحاول أن يرد عليه أو يجادل فيه بأى حذل ، فذلك هو المثال الكامل في الاجتهاد .

إن هذا المعنى الذي كتبه هو ما فهمته من درس الأستاذ الأكبر الامام المراغى بمسجد أنى العلاء في شهر رمضان ، فانه حفظه الله قال ما معناه : إن الله قد أوحى الى رسوله بأصول الشرائع التي أوحى بها الى من قبله من كبار النبيين ، وهذه الأصول لا ينبغي لأحد أن يختلف فيها لأنها غير قابلة للاختلاف ، ومن يختلف فيها فهو في شك حريب من دينه . ثم نبى على الذين يختلفون ويتفرقون في دينهم على هذا الوحي الذي ذكرناه ، أما ما وراء هذا من المصالح التي تتطور بتطور الأمم وتختلف باختلاف الأحوال فإنها تتبع الدليل ، فان وجد نص فانه

يجب الرجوع اليه بدون تعسف أو تكلف . وإلى هذا أشار الله بقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١)

(٣) أما الجواب عن السؤال الثالث وهو مخالفة عمر للنبي صلى الله عليه وسلم في الاجتهاد ، فانه لا منافاة بين هذه المخالفة وبين قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول » الخ ، وذلك لأن هذه المخالفة كانت بامر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأبي بكر وعمر : قولوا فإني لم يوح الي في هذه مثلكما . وعلى هذا يكون المراد من الآية النص من الموحى بها أو المجتهد فيها بعد إقرار الوحي . أما قبل إقرار الوحي فالاجتهاد فيها مطلوب ، فإن النبي كان يبحث أبا بكر وعمر على الاجتهاد .

(٤) وأما الجواب عن السؤال الرابع ، وهو دليل عمر على منع النبي من الصلاة على رأس المنافقين ، فالظاهر أنه قول الله تعالى « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربة من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢) فقد فهم عمر أن النبي عن الاستغفار نهى عن الصلاة عليهم من باب أولى .

وقد يقال في بيان وجهة نظر الرسول أنه عليه الصلاة والسلام فهم من آية التوبة أنه لا يجوز له أن يستغفر لمن ثبت موته مشركا . ولا يثبت الشرك إلا بأحد أمرين إما بالوحي كما هو الحال في أبي لهب ، فإن الله تعالى قد أخبر نبيه بأنه لا يؤمن ؛ وإما بطريق إعلان الكفر كما هو الحال في المشركين الذين أعلنوا شركهم . أما المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاملهم معقتضى الظاهر كما هي القاعدة الاسلامية . وم وإن كانوا قد جاهروا في بعض الأحيان بمحاربة الله ورسوله إلا أنهم قد أظهروا الايمان وتبرءوا من الاحمال التي نسبت اليهم ، فكان الرسول يعاملهم معاملة المؤمنين العاصين ، فيستغفر لهم رجاء أن يغفر الله لهم ذنوبهم ويصلح حالهم .

والله لم ينه الرسول عن الاستغفار لشخص إلا إذا تأكد أنه من أصحاب الجحيم كما هو نص الآية ، فانها صريحة في النهي عن الاستغفار بعد التحقق من أن الميت من أصحاب الجحيم ، وهذا لا يتأتى إلا إذا مات وهو معلن للكفر ، أو يوحى الى الرسول بأن فلانا لا يؤمن . أما المنافقون فقد خيرهم الله في شأنهم بقوله « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » .

وحيث إن عبد الله بن أبي قد أظهر الايمان ، وقد ورد أنه استشفع بانه ليأنيه بقميص الرسول ويكفنه فيه ، وطلب من الرسول أن يصلي عليه ، فإن كل ذلك يجعله مؤمنا في الظاهر . أما كونه كافرا في الباطن فذلك لا يمكن الجرم به إلا بالوحي . فاجتهاد النبي من هذه الجهة هو الظاهر المعقول ، بل لا يمكن أن يفهم سواه ، والله سبحانه لم يعب عليه هذا الفهم أو هذا

الاجتهاد مطلقا ، لأنه قال له بعد ذلك « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » . ومعنى هذا أن الله قد أوحى إليه بأنهم ماتوا وهم على كفرهم ، وقد عر عنه بالتسليم لأنهم كانوا في الظاهر يظهرون الاسلام ، وبديهي أن الذي يموت كافرا لا تصح الصلاة عليه ، أما موتهم على الكفر فهو موقوف على الوحي حتى ولو علم الرسول الحقيقة ، لأنه في هذه الحالة بمنزلة القاضي الذي يحكم بما يظهر له ، فكل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يكون مسلما ولو كان يبطن خلاف هذا .

أما اجتهاد عمر رضي الله عنه فقد كان مبنيًا على علمه بالقرائن القاطعة أنه مات وهو منافق ، فمما كان يعتقد أنه قد مات على الكفر ، ويعتقد أن الرسول لا يخفى عليه حال الرجل ، فالصلاة عليه في هذه الحالة فيها مخالفة للنص ، وهو قوله تعالى « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم رد على عمر فقال له . إن هذه الآية في المشركين الذين أعلنوا الشرك وماتوا عليه ، أما الذين أظهروا الإيمان وهم المنافقون فلم ينه الله عن الاستغفار لهم بل خبرني فيهم فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، الخ ، وحيث إن لي الخيار فاستغفر له وأزيد على السبعين الذي قال الله إنه لا يغفر لهم بها . ولا يخفى ما في هذا من إصباح جبيل . فاقنع عمر بهذا وسكت ، ولكن الله تعالى قال لنبيه بعد ذلك : إنه لا أمل في إيمان من بقي من المنافقين ، فهم سيموتون كفارا ، فلا تصل عليهم بعد ذلك . وليس في هذا رد لاجتهاد الرسول أو لدليله كما ذكرنا ، وإنما فيه إعلام له بأنهم سيموتون كفارا ، فمن مات منهم فلا تصل عليه بعد ذلك . وبذلك تبين له أنهم من أصحاب الجحيم .

ومن هذا البيان يتضح لك أن لكل من اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم واجتهاد عمر وجهة لا تعارض الأخرى ، وأنه عندما اطلع عمر على وجهة نظر النبي اقتصع بها . وليس في قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم » رد لاجتهاد الرسول وإقرار لاجتهاد عمر كما فهم الناظرون ، بل غاية أن الله تعالى أسرع بتنفيذ سياسة عمر بإخبار النبي بأنهم كفرون وماتوا وهم كفرون .

والحاصل أن هاهنا أمورًا ثلاثة : أحدها : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار لمن تبين له أنه من أصحاب الجحيم بموته كافرا . ثانيها : الاستغفار للمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ولكن يبدو في أقوالهم وأفعالهم ما يدل على نفاقهم ، وهؤلاء لم ينه الله رسوله عن الاستغفار لهم بل خيره فيهم . على أنه قال إن الاستغفار لا ينفع من مات منهم كافرا . ثالثها : الصلاة على من مات منهم على حاله ، وهذا إن جاء الوحي بأنه مات على الكفر فإنه يعامل معاملة الكافرين ، وإلا عومل معاملة المسلمين فيصلى عليه .

(٥) أما الجواب عن السؤال الخامس ، وهو : لماذا أقر الله سياسة عمر في الظاهر ؟ فذلك يتوقف على بيان وجهة نظر اجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام . ويفهم من سيرته أنه

كان على أكبر جانب ممكن في النوع الانساني من العطف والرحمة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للموع الانساني في التخلق بالاحلاق الكاملة ، ولذا مدحه الله عز وجل بقوله : « وإليك لملي خلق عظيم » (١) وقال له : « ولو كنت مطا غليظ القلب لانقصوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » (٢) وقال : « ورحمة للذين آمنوا منكم » (٣) فاجتهاده عليه الصلاة والسلام في هذه القصة وأمنائها كان مبدئيا على رحمته وعطفه ، ورغبته في هداية النوع الانساني الى سواء السبيل ، وحرصه الشديد على بخلام الناس لهم ليظفروا بمَرْضاته فتم لهم السعادة الخالدة . ولاريد في أن هذه القصة تصور لنا شيئا من رحمته ، فان عبدالله بن أبي المنافق قد أدى النى بكل ما يستطيع من صروب الابداء ، فكان دائما يعمل في الخفاء على كل ما يقصى عليه وعلى الدعوة الى الله ، وكان يسمى دائما لا تارة لفتن والخط من كرامة المؤمنين كلما سمحت له فرصة ، وكان يجاهر برأيه في بعض الأحيان فيصل علم ذلك الى الرسول ، فاذا وقف أمامه وحلف له أنه لم يقل ولم يفعل فانه يتركه ، ومع ذلك كله فقد غلبت عليه الرحمة والعطف فأخذ يجاهد من أجله ويتأول ما نزل عليه من ربه رجاء أن يغفر الله له ذنبه (على ظن أنه مات مؤمنا) ويرفع عنه العقاب الآخروي ، ويجعله من المممين ببجائه .

فمعاملة عبد الله بن أبي بهذه المعاملة تدل على ما تكنه نفسه الكريمة من الرحمة بعباد الله والشفقة عليهم وحب الخير لهم ، حتى ولو أساءوا الى شخصه الكريم وأذوه في سبيل الدعوة الى ربه ، وتتأذى كل عاقل منصف بأن من كان هذا شأنه فانه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ عدوا أو يشك في نصحته أو يرتاب في صدقه ، لأن الذي يتصف بهذه الصفات العالية يجب أن يكون منزها عن الكذب والخديعة وتصليل عقول الناس وإرادة الشر لهم وبديهي أن ذلك كان له أحسن الأثر في نشر الدعوة الى الله . على أنه قد ورد في هذه الحادثة أن عبد الله بن أبي لما طلب أن يكف عن قبيص النبي صلى الله عليه وسلم ورأى ذلك أتباعه من الخرج أسلم منهم ألف ، وكفى بذلك مدحا لسياسة الرسول واجتهاده .

أما اجتهاد عمر وسياسته فهي مبنية على الظروف الوقتية المحيطة بالمسلمين يومئذ ، فإن صرهم كان عظيما ، إذ هم يتمكنون بإظهار الاسلام من الاطلاع على مواطن الضعف من أنفس الضعفاء ، فيحاولون التأثير عليهم وتشكيكهم في إيمانهم وإفساد أخلاقهم . وأيضا فانهم يحكمهم أن يوشدوا الأعداء المحاربين الى خطط المسلمين فيعرضونهم لأشد الأخطار والمخس ، فكان من رأى عمر استعمال القوة معهم الى بعد مدى . أما معاملتهم بالرحمة ، وتفهم الناس أن الله قد يغفر لهم فإن فيه تشجيعا للمنافقين ، وحللا للناس على الاستهانة بالفاق .

ومن يتامل في هاتين السياستين يجد أن كلا منهما لازم ، وذلك لأن سياسة عمر وإن كانت

وجبهة في بعض الظروف فانه قد يقال فيها أيضا إن الشدة المتناهية قد يترتب عليها استمساك المنافقين بما هم عليه ، فيزداد حقدهم على الرسول ، ويتضاعف بغضهم لدينه ، فلا يبارق البفاق قلوبهم ، ويعمسون في السكيد المسلمين بالطرق الخفية للضارة بهم وهم عافلون .

أما معاملتهم بالرفق واللين ، واستعمال الرأفة بهم وإسداء المعروف اليهم المرة بعد المرة ، فإنه قد ينزع الحقد من أنفسهم ، ويقلل من بغضائهم لله ورسوله ، فيتوبون عن النفاق ، لأن النفوس الانسانية مهما كانت جامحة فإنها لا بد أن تلين وتخضع بموالاتة الاحسان وتكرار العطف والمغو .

والواقع الذي لا ريب فيه أن طبائع الناس في ذلك تختلف كل الاختلاف ، فبهم من يصلحه المغو ، وبهم من يطفيه ويغريه على التهادي في الشر . فالواجب أن ينظر المجتهد في الأمرين كي لا يفوته شيء منهما . ولذا قلنا إن كلتا السياستين هاهنا لازمة بحيث ينبغي استعمال كل منهما في الطرف المناسب لها ، فسياسة الرسول صلوات الله عليه قبل أن يزل عليه قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » كانت هي المناسبة ، لأنها بعثت المستعدين للادراك الصحيح الى نبذ النفاق والتسك بالايمان الصحيح .

أما من بقي من المنافقين بعد ذلك فقد ران على قلوبهم ، وأصبحوا غير مستعدين لسباع الحق ولا للإيمان ، فلا فائدة حينئذ من معاملتهم بالرفق والرحمة ، فلهذا أوحى الله الى نبيه بأنهم سيموتون كفارا ، فلا تصل على أحد منهم .

هذا التفصيل الذي ذكرناه إنما هو بالنسبة لنبى صلى الله عليه وسلم المتصل بالوحي ، لأنه يمكنه أن يتقى شر المنافقين بالوحي ، فانهم إذا حاولوا محلا يضر المسلمين فإن الله يطلع عليه نبيه فيحبطه ، كما وقع ذلك فعلا ، فان الله تعالى كان يوحى الى الرسول بما يعملون ، قال تعالى « قل لا تعبدوا لن تؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم » (١) وقال مهددا لهم « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم » (٢) فسياسة الرسول مع المنافقين حسنة من جميع الوجوه . أما إذا لم يكن وحى ولا رسول فإن الواجب على المجتهد أن لا يأمن المنافق الذي ثبت ثقافه مطلقا ، بل يعامله بمنتهى الشدة والقسوة ، لأنه أضر على الدعوة الى الله من المشرک الذي يعلن الشرك ، اللهم إلا إذا ترتب على معاملته بالرفق إيمانه وإيمان غيره ، فانه يعامل في هذه الحالة بالرفق مع الاحتياط التام . وهذا هو السر في إقرار سياسة عمر في الظاهر ، لأن الأصل في معاملة المنافق هي الشدة ، ولا فائدة في معاملتهم بالرحمة بعد ذلك ، فتزل قول الله « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » .

والذي يتأمل في كتاب الله تعالى فانه يتضح له هذا المعنى الذي ذكرناه . فان الله سبحانه

لم يبه نبيه عن استعمال الرحمة بالمناققين ، بل امتن على المناققين بما للنبي من الرحمة بهم ، فقال : « ورحمة للذين آمنوا منكم » . أى وهو رحمة للذين أظهروا الايمان منكم أيها المنافقون . وفى هذا مدح له عليه الصلاة والسلام بالرحمة بهم . ثم إنه لم يفته عن الاستغفار لهم بطريقة جازمة ، بل أبان له أن الاستغفار لن يقبله الله لمن مات منهم كافرا . أما الاستغفار لمن يظهر الايمان فى الدنيا فانه لم يفته عنه ، قال تعالى : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (١) . ومعنى الآية أن الله لا يمنكم من قبولهم والرضا عنهم لأنكم إنما تنظرون الى ظاهر أمرهم ، أما الطيم بقلوبهم فانه لا يرضى عنهم ، وهم كاذبون فى إيمانهم منافقون بقاوسهم . وفى هذا تهديد لغير المحصلين مع عدم إغلاق الباب فى وجوههم لانه قد أباح لهم الاختلاط بالمسلمين ومشاركتهم فى المباحث الدينية ، والنظر فى البراهين القاطعة التى أتى بها الله ورسوله . وفى كل ذلك فرصة لهم فى النظر الباعث الى الهداية الحقة والايان الصحيح . وفى هذا من دقائق التشريع الاسلامى والحث على الاجتهاد فى المصالح العامة ما لا يحصى . والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

(١) التوبة : ٩٦

جود عثمان بن عفان

أصاب الناس قحطاً فى خلافة أبى بكر حتى بلغ بهم الجهد ، فشكوا أمرهم الى أمير المؤمنين فقال لهم : أصبروا لعل الله أن يفرج كربكم . فلما كان آخر النهار ذاع فى المدينة أن هيراً لعثمان جاءت من الشام محملة قمحا وزيتا وزبيباً . فلما أصبحوا أقبلت العير وأتاحت بباب عثمان رضى الله عنه ثم أدخلت الى داره . وكان قد بلغ ذلك التجار فاقبلوا إليه ليشتروها منه ، قائلين له : إنك لتعلم حاجة الناس إليها فى هذه الآونة .

فأجابهم : حبا وكرامة ، مكم تربحوني على شرائى ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال لهم أعطيت زيادة على هذا . قالوا له : أربعة . قال لهم أعطيت زيادة على هذا . قالوا له خمسة . قال لهم أعطيت أكثر من هذا .

قال التجار : يا أباصرو مابقى فى المدينة غير ما فى الذى أعطاك هذا الخس ؟ قال لهم عثمان : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا .

قال عثمان : فانى أشهد الله أنى جمعت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين ا

حدث جلك لا يمكن الصبر عليه

— ٤ —

رجاء للحكومة لمصلحة الحكومة

لرجى* الكلام في أدلة التوحيد مؤقتنا ، وسنفيض القول فيه بعد . على أن مسألة ثبوت الصانع جلت قدرته كادت من وضوحها أن تحيى ، وأوشكت من مزيد حضورها أن تغيب . وليس لدى منكريها سوى المكافئة بالوم والخيال ، ومقابلة اليقين بالاحتمال « معارضة الشراب بالشراب » . وكل من تكلم في هذه المسألة التي هي أظهر من الشمس وأوضح من الحس بالانكار ، فقد أحيا جهله ، وأمات عقله ، وقتل وحدانه ، وأخذ إحساسه ، وخنق شعوره . فهي لدى العقلاء من أوضح الواضحات ، وإن خفيت على أعمام البشر الذين يجب إسقاطهم من سجل الانسانية وصهم الى صفوف البهايم : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

ولنوجه كلمتنا اليوم لحكومتنا الإسلامية ، وما يجب أن تعرفه من حال الملحدبن وتقويضهم لبناء العمران ، وأثر دعايتهم على بنى الانسان . فإوحدوا في أمة إلا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ، وصاعقة محتاجة لخير أممهم ، وصدعا متفاقا في بنية حيلهم ، يمتنون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم في الأرواح بأرائهم ، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم . فما رزئت بهم أمة ولا منى شرهم حيل ، لا انتكث قتله ، وسقط عرشه حين تبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها . وكيف لا وهذه الطائفة الملعونة تحمل في طيات تعاليمها ونوايا مبادئها الاجرام الخلق ، والتهتك العلى ، والمطاعن الهوجاء في الديانات ، والسخرية الجهرية بخالق الأرض والسموات ، ولز المتعقدات المقدسات .

إن الحكومة تعاقب من يشكك في الوزارة بما يحس شرفها أو ينقص من كرامة أشخاصها ، أو يمس القانون والدستور ، فما لها لا تهتم هذا الاهتمام ، أو شيئا من هذا الاهتمام ، بحماية دين الدولة من طعن الطاعنين وسفه الجاهلين ؟ وهل حماية الدستور أعظم في نفوس الأمة من حماية دينها ؟ وهل الطعن في الدستور ألد لعاطفها وأدى لقلوبها من إهانة الدين والكلام في نبي المسلمين ورب العالمين ؟ ولنا نقول لا تحفظوا الدستور ولكن تقول : احفظوا الدين أيضا كما تحفظون الدستور الذى تفنخرون بصيانه ، فليس الدستور أضمن لسعادة الأمة من الدين .

يأبى الرعاه العظام والوزراء الفخام . إن لم تعملوا لديكم فاعملوا لديكم ، فإن الملحدين الطاعنين على الأديان ما طهروا في أمة من الأمم إلا أفسدوا أخلاقها ، وأوقعوا الخلل في عقولها ، وتخطفوا قلوب آحادها بأنواع من الخيل ، وألوان من التلبس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها ، وتخطر بناؤها ، واعتالها ردائل الإحلاق . من الأثرة وعبادة الشهوات ، والجراة على ارتكاب الخيانات ، ولا يزال الفساد يتغافل في أحشائها حتى تصمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عايبها الذلة والصغار ، ويحلد أنوارها في الفقر والمبودية .

وانظروا الى الأمة الإسلامية أيام تمسكها بدينها كيف كان مجدها ورفعتها ، ثم انظروا حالها اليوم عندما ظهر فيها الماديون وكثر فيها الماهلون الملعدون وقل فيها المفصلون ، الى آخر ما لا يحكمسا شرحه في هذه المقالة .

هل لا تحمون تلك العقائد المقدسة التي بسمل على ذوبها أن يذولوا وجودهم في سبيلها ؟ ! عقائد هي أقوى دافع للام الى التساق لغايات المدنية ، ومضى الأسباب الى طلب العلوم والتوسع في الفنون والابداع في الصنائع . وإنها لأبلغ في سوق الأمم الى مازل الملا ومقامات الشرف من كل شيء سواها « ولا تموا ولا تحزنوا وأتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » .

أما هؤلاء الملحدون الداعون لمحو الأديان فما مقصدهم ، لا وضع أساس الاباحة والاشترك في الأموال والانضاع بين الناس عامة . وقد كسحوا لاجراء مقصدهم هذا وبالغوا في السمي اليه ، وتلونوا لتلك في ألوان مختلفة ، وتقلبوا في مظاهر متعددة ، وكلما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها ، وأنزلوها من علياء مجدها الى حضيض الذلة والمهانة ، حيث يكونون بالحيوان أشبه منهم بالإنسان . ولهذا كله اجتمعت جميع الدول على مطاردة الشيوعيين ، علما بما تقول اليه مبادئهم من الفساد الذي تأباه سن الله في حليقته ، وتمقته الشرائع السماوية كلها ، ويقضى العقل بمجافاته للحق ومنافاته للصواب .

ولنقل مرة أخرى لزمائنا وحكامنا . إن لم تعملوا لديكم فاعملوا لديكم . أما حرية الأديان والمعتقدات التي يستند إليها الجاهلون فعنها أن كل أحد يمتقد ماشاء ، ويتدين عما أراد ، لأنه يجرح القلوب ، ويطن في العقائد ، ويسفه الأحلام ، وينشر الفسرات ، ويؤلف المؤلفات ، ويهيئ الجمعيات والدعائيات كما فعل اسماعيل آدمي المعترف بذلك كله في كتابه . فأين هذا من ذاك يارجال القانون ؟ !

وإن شئت فقل منظر العقل الى قوم لا يمتقدون بشيء ، ولا يقولون بحلال ولا حرام ، ولا حساب ولا عقاب ، ولا رب ولا كتاب . بل ينظرون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات جده القرد أو الكلب . ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنيا والدلائل ، والى أي حد تصل بهم الشرور ، ونأي منزلة من الدماء تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط الى الحيوانية يقف بمقوله عن الحركات الفكرية والأذواق الوجدانية والمقامات الروحانية .

وبعد . فهذا الدين الذى نطالبكم بحمديته ، وبطالسمك الدستور أيضا بحمديته ، هو الدين الذى فتح أبواب الشرف ووجوه الأنس ، وكشف لها عن غايتها ، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، وأسا كل ذى لطق بوفرة استمداده لآى منزل من منازل الكرامة ، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لاغير . فالتناس فى نظره إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة « إن أكرمكم عندنا أتقاكم » لا فصل لمربي على مجبى ولا أحر على أسود إلا بالتقوى .

والخلاصة : أن من أشرت هذه العقيدة عقيدة التوحيد قلبه ، ينمى بحكمها وينسق نورها وقوة روحها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف لصافية ، فلا يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ، ثم ينصرف همه لابرار ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والمخاوص الخلية باستمائها فيما خلقت له ، فيسحق كماله من عالم الكون الى عالم الظهور ، ويرتقى من درجة القوة الى مسكنة الفعل ، فهو يتفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يسله التقصير فى تقويم مسكانه النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة ، متنكبا عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والخيلة ، معرضا عن أبواب الرشوة ، مترعفا عن الملق الكلي والخداع الثعلبي الذى لا يعرف هؤلاء غيره ، ثم ينمى ما كسب فى الوجه الذى يليق ، وعلى الوجه الذى ينبغي ، وبالقدر الذى ينبغي ، لا يأتى فيه باطلا ، ولا يفعل حقا علما وأخفا ، يعمل لدينه كأنه يعيش أبدا ، ولاخرته كأنه يموت غدا .

فهذه العقيدة أحكم مرشد ، وأهدى قائد للانسان الى المدنية المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم .

هذا الاعتقاد أنجح الدرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ، إذ لا عقد لها إلا مراعاة الصدق ، والمقصود لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات

هذا الاعتقاد نعمة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسالمة ، فإن المسالمة عمدة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة رهر الأخلاق والسجيا الحسنة . وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيها من مناهة الشقاء وتعماسة الجسد ، وترفعه الى غرف المدنية الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتحيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة ، فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واحتلاس ، كما يشاهد ذلك فى كثير من مسلمينا الآن ! وكفى نفسى فطرك من مشاهد الحرم والشره والغدر والاعتتيال وهضم الحقوق والجidal ! وكفى تحس فيه من جفاء للعلم وغشوة عن نور المعرفة !

وإن مسألتنا مسألة نشر ما يثير الفساد ويوجب الاحقاد ، ويحقر دين الدولة الذي يحترمه الدستور وتقدسه الأمة .

ولا يردع هؤلاء الطغمة إلا العقاب الصارم الذي يخرس ألسنتهم ويأخذ على أيديهم :

تمادوا في الصلال بلا متاب ولومحموا صليل الميف تابوا

ولكسا في زمان يضيق التعبير عن وصفه وبيان عقلية أهله :

ألا إنها الأيام قد صرر كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولا يزال لنا بقية أمل في القاعين بالأمر ، أن يشفقوا على أمتهم من عت العابئين وإفساد المفسدين ، وأن يحفظوا الأمانة التي جعلها الله في أعناقهم للدين والوطن .

نسأل الله أن يرزقنا الرشد والبصيرة ، حتى لا نأتي ما يصحك الشكلى ، وبكى الحليم ، بحه وكرمه ؟

يوسف المرموى

عضو جماعة كبار العلماء

الشدائد ولا الهوان

قال شاعر ألمى في هذا المعنى :

حلفت لأن ألقى الشدائد كلها وما لى بأن ألقى الهوان يذان

تذكرت أنى هالك وابن هالك مهانت على الأرض والتقلان

مدح كل شيء خالف العزم إنه سيكفيك جدان ممتلجان

وما يدرك الحاجات مثل منابر ولا طاق عنها النجح مثل توان

وقال شاعر آخر فيه أيضا :

على كل حال فاجمل الحزم عدة لما أنت باغيه وعونا على الدهر

فان نلت أمرا نلته عن عريضة وإن قصرت صك الخطوظ فمن عذر

وقال غيره :

يا إبنة القوم ما تريدن منى صارى منطقي ووجهي مجنى

ما يزور الكرى جفوني إلا جموه الطائر الذى لا يثنى

فعلى إذا استقل لعزم لم يعرج بليتى ولوانى

الحسبة في الاسلام (١)

طلب الى عزيز لدى أن أكتب كلمة في ذلك الموضوع الخطير « الحسبة في الاسلام » تجلوا حقيقتها وتشرح أغراضها ومقاصدها في الدين الاسلامي غائم الايدان المعاوية ، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان . فأجسته لبتيك وسمدتك ، فال موضوع شائق ، والبحث عنه فيه متعة . شائق لأنه يمت بصلة الى التاريخ الاسلامي في تلك الحلقبة من عصور الاسلام الأولى ، الى ماله من رحم وشيجة بحكمة التشريع الاسلامي . وفيه متعة لأنه يدلى بسبب الى شرعة التعاون والتناصر بين بني آدم ، وم تلك السلائل التي ورثت آدم خليفة الله في أرضه ، يستمتع بها هو ومنوه ، ويستعمرونها في المدى الذي قدر لبقاء العالم في تلك الحياة الدنيا .

وإننا لنطرق في كلامنا المباحث الآتية :

عناصر البحث :

الحسبة لغة . الحسبة شرعا . قيم كانت الحسبة أولا وإلام صار أمرها أخرا . سبب إحداث الحسبة . الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى القيام بهما . المحتسب . أصناف المحتسب . الفرق بين المحتسب وقاضي المظالم « القاضي الجنائي » وبين قاضي الحقوق « القاضي المدني » . شروط المحتسب . أعمال المحتسب . الفرق بين المحتسب المولى والمحتسب المتطوع . هل للحاكم أن يسرع على الناس في الاسواق . حكم الفندق والحمام والمخبر . التدليس في الدين وحكمه . أعمال أخرى للمحتسب . الوظائف الدينية في عصر العاطميين . الوظائف الدينية في الدولة الايوبية وعصر المماليك عصره . العقوبات الشرعية . عقوبة التمرير . عقوبة الحد والفرق بينهما . التمرير بالعقوبات المالية . حواز التصديق بالسلع المخشوشة على الفقراء . الأصل في المنوبة والعقوبة في التشريع الاسلامي .

الحسبة في اللغة :

الحسبة لغة كما في لسان العرب : اسم من الاحتساب وهو البدار الى طلب الأجر وتحصيله بالأخذ بأنواع الخير والقيام بها على الوجه المرسوم فيها ابتغاء الأجر المرجو منها . وفي حديث عمر : أيها الناس احتسبوا أعمالكم فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته . واسم الفاعل المحتسب ، أي طالب الأجر .

(١) هذه بحث قيم لمسألة اجتماعية هامة امرد بها الاسلام ألتأه حضرة صاحب الفعيلة الامتاز الدابة الشيخ احمد المراعي واتممت ، بحجة الارمر . واما لنقشره شاكرين له هذا الايتار . اكثرت الله من امثاله .

وفي القاموس : واحتسب عليه الأمر إذا أنكره عليه ومنه المحتسب . فظاهر عبارة اللسان تدل على أن المحتسب مأخوذ من احتسب الأمر عند الله إذا طلبه ، وصريح عبارة القاموس ترشد الى أنه من احتسب عليه الأمر إذا أنكره عليه . ومن اليبين أن المناسبة حلية في أخذه من المعنى الأول ، كما أشار اليه صاحب اللسان . إذ طلب الأمر أسبق في الفكر لدى المحتسب من إنكار عمل غيره ومنعه من فعله ، وإن كان هذا يحصل تبعا وعرضا لا قصدا أو ليا من العمل معنى الحسبة شرعا :

أصل الحسبة الشرعية : مشاركة السوق والطر في مكاييله وموازيه ، ومنع الفش والتدليس فيما يباع ويشترى من مأكول ومصنوع ، ورفع الضرر عن الطريق بدفع الحرج عن السابلة من الغادين والراحين ، وتطهير الشوارع والحارات والأزقة ، الى نحو ذلك من الوظائف التي تقوم بها الآن المجالس البلدية ، ومفتشو الصحة ، ومفتشو الطب البيطري ، ومصلحة المكاييل والموازين ، وقلم المرور ، ورجال الشرطة الموكلون بالمحافظة على الآداب العامة ، الى غير ذلك . ثم انسمت أهمها فيما بعد حتى كانت من أهم الشئون التي عني بها الخلفاء والسلطين وصار لها ولاية خاصة (مصلحة خاصة) شملت كل أمر معروف ونهى عن منكر : كإقامة الصلاة في مواقيتها ، والطر في أحوال أئمة المساجد والمؤذنين ، وإزاهم بأداء وظائفهم على حسب مقتضى الشرع . ومن ثم قال بعض العلماء : الحسبة أمر بمعروف (١) ظهر تركه ، ونهى عن منكر ظهر فعله ، وإصلاح بين الناس .

وأول من أحدثها في الاسلام عمر بن الخطاب ، فقد ولي عبد الله بن عتبة على النظر في الأسواق ، والتفتيش على المكاييل والموازين ، ومنع الفش فيما يباع ويشترى . وقد كان الخلفاء والولاة في الصدر الاول يباشرون أهمها بأنفسهم ، ويتفتنون إصلاح الرعية ، ويرحون جزيل الثواب . فقد كان عمر يقوم بوظائف المحتسب ، ويشارف السوق ، ويراقب المكاييل والموازين ، ويأمر بالمطلة الأدي عن الطريق . روى المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب حبالا ويقول حملت جملك ما لا يطيق « مفتش قلم المرور الآن » . وفي كبر المال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال : دخل عمر رضي الله عنه السوق وهو راك فرائى دكانا « دكة » قد أحدث في السوق فكسره .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : دعامة من دعائم الدين ، وبه بعث الله النبيين أجمعين . ولولاها لنشطت الصلاة وعمت الجاهالة ، وانتشر الفساد ، وخربت البلاد ، وهلك العباد .

(١) المعروف : كل عمل أو قول أو قصد حسن شرعا . والمنكر كل فعل أو قول أو قصد قبح شرعا . والاسكار في ترك الواجب وفعل الحرام واجب ، وفي ترك المنسوب وفعل المكروه مندوب .

وإنا لنعلم الآن الناس بعد أن استولت على القلوب مدهانة الخلق، ومحيت مراقبة الخالق، قد استرسلوا في الشهوات، وركنوا إلى الدنات، وقل أن تعبد مؤمتنا صادقاً لا تأخذ في الله لومة لائم. فمن شمر عن ساعد الجد وسد هذه الثغرة، وأدى عمل الحسبة ابتغاء مرضاة ربه، أو قلد وطيفتها وقام بأعمالها مراقبه، فقد قام نقط وأمر في خدمة دينه، ونال رضوان ربه « ورضوان من الله أكبر ».

سبب إحداث الحسبة :

السبب في إيجاد الحسبة في الاسلام أن الناس لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع والتعاون على جلب المنافع، والتناصر على دفع المضار، ومن ثم قيل : « الإنسان مدني بطبعه ». وبالاجتماع لا بد لهم من أمور يفعلونها يحبون بها الخير لأنفسهم، وأمور يجتنبونها لمخافته من الضرر عليهم. ولا بد لهم من طاعة الأمر بالمنافع الناهية عن المفاسد، كما قال تعالى في صفة نبيه : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ». وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكلها إلا موضع لينة (طوبى) فكان الناس يطبقون بها ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللينة إنا ما تلك اللينة ».

وقد وصف الله الأمة الإسلامية بما وصف به نبيها فقال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال عز اسمه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر ». وقال عز من قائل : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ». وقال : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ». وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : من خير الناس يا رسول الله ؟ قال : « آمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأتقاهم وأوصلهم الله ». وقال عليه السلام : « مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانتهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله ». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسباب المنافقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين، ومن أنفض الفاسق وغضب الله غضب الله له. وقال أبو الدرداء لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يحل كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستغفرون فلا يغفر لكم، وتستصرون فلا تصرون. وقال عليه السلام : « إياكم والجلوس في الطرقات؛ قالوا : ما بالبدء، يا أبا محمد؟ قالت تحدث فيها. قال : فإن أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقه. قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر، ورد

السلام، وأمر معروف ونهى عن منكر». وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسه، فإن لم يستطع فقلبه وهو أضعف الإيمان».

وروى الحسن البصري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أفعل شهيداً أمى رحل قام إلى إمام حائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك، فذلك الشهيد، منزلته في الجنة بين حمزة (صه) وجعفر (١) (ابن عمه أخى علي)».

الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى القيام بهما:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أفضل القرب وأكثرها ثواباً وقبولاً عند الله تعالى. وله شروط، إذا لم تتوافر لا يفتح الثمرة المطلوبة:

(١) أن يعمل الواعظ بما ينصح، لا أن يكون قوله مخالفاً لفعله، وإلا دخل في الذم وكان ممن يصدق عليه قول الله تعالى: «أأمرون الناس بالبر وتنهون أنفسهم». وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت ليلة أُسري بي رجلاً يقرض شفاهم بالمقاريض فقلت من هؤلاء يا حبري؟ قال: خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينهون أنفسهم».

(٢) أن يكون العمل طاعة لله ورسوله، وهو العمل المشروع المأمور به إيجاباً أو استحباباً، وضده المعصية والفجور والظلم والسيئة.

(٣) أن يكون خالصاً لوجه الله، فإنه لا يقبل من الأعمال إلا ما يرد به وجهه، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو كله للذي أشرك». وهذا هو أساس الاسلام والعمود الذي عليه بني الدين، خلق الله على عباده أن يعبده ولا يشركوا به شيئاً. ومن ثم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وإذا كان العمل خالصاً نثر الله عليه رداء القبول، وصادف التوفيق، وقدر تعاظه في القلوب مهابة وجلالاً، وتقبل الناس قوله بالسمع والطاعة.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من أرضى الناس بسخط الله وكفاه إليهم؛ ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه شرم؛ ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس؛ ومن أصلح سيرته أصلح الله علانيته؛ ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه».

(١) يلقب بحمر الطيار، ويسبىون إلى علي عليه السلام قال [وجعفر القتيبي وأصحب بطير مع الملائكة، ن. امي]

وبما يؤثر في هذا الباب أن أمانتك سلطان دمشق طلب محسبها ، فذكر له رجل من العامة فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : إني وليتلك أمر الحسبة على الناس . فقال له : إن كنت تريدني لما تقول فقم عن هذا الفراش وارفع هذا المتكأ فانهما من حريمي ، واجلس هذا الخاتم فانه من ذهب ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : هذان حرامان على ذكور أمتي حل لأئمتها ! فقال السلطان : نعماً وطاعة ! ونهض عن الفراش وأمر برفع المتكأ وخلع الخاتم من أصبعه وقال : وقد ضمنت إليك أمر الشرطة (حكمدار بوليس) فما رأى الناس محسباً أهيب منه .

(٤) أن يأمر عن معرفة وعلم وفقه بالدين ، وإلا كان العمل جهلاً وصلالاً واتعاباً للهوى ، كما قال عمر بن عبد العزيز : من عبد الله بغير علم كان ما يصعد أكثر مما يصلح . وكما قال معاذ ابن جبل : العلم إمام العمل والعمل تابعه .

(٥) أن يكون النصيح بالرفق والتؤدة حتى يؤتى ثمرته المرجوة ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا مائشة عليك بالرفق فانه ما كان في شيء إلا راته ، ولا كان العنف في شيء إلا شأنه » . وقال أيضاً : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف » . ومن نوادر المحسبين وبارع قصصهم : أن رجلاً دخل على المأمون وأمره بمعروف ونهاه عن منكر وأغلظ له في القول ، فقال له المأمون : يا هذا إن الله أرسل من هو خير منك لمن هو شرمي ، فقال لموسى وهارون : « فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى » . ثم أعرض ونأى بجمانه .

(٦) أن يكون الباصح حلياً صبوراً على الأدب ، إذ العادة قد حرت بأن يناله الأدب من حراء عمله ، فإن لم يحلم ويصبر كان الضرر أكثر من النفع ، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : « وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأصر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . ومن ثم أمر أنبياءه ورسله وهم القادة الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر بالاعتصام بالصبر ، كما قال تعالى لنبيه في بدء رسالته : « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تخن تستكبر ، وربك فاصبر » . فاختتم الأمر بالإنذار وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطلب الصبر منه . وقد جاء هذا الطلب في مواضع عدة كقوله تعالى : « وأصبر لحكم ربك فانك ناعينا » وقوله « وأصبر على ما يقولون واهجرم هجر أحميلاً » . وقوله « فاصبر كما صبر أولو الزم من الرسل » وقوله « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » وقوله « وأصبر وما صبرك إلا بأنة »

لجميع الأمر بالمعروف ثلاثة : علم قبله ، ورفق معه ، وصبر بعده . وهذا معنى ما يروى عن بعض السلف : لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حلياً فيما يأمر به ، حلياً فيما ينهى عنه .

(٧) ألا يتضمن الامر بالمعروف فوات ما هو أكثر منه نفعا ، أو حصول مكر فوفه ؛ وألا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أسكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه . ولا حل هذا سكت النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن أبي وأمثاله من ثقة التفائق والفجور لما كان لهم من الاعوان ، ولو أزال المنكر بمقاب هؤلاء غضب قومهم وأخذتهم الحية حية الجاهلية فينفرون منه حين يسمعون أن محمدا يقتل أصحابه . والمشاهدة التي أراها الله إياها في الآفاق وفي أنفسنا تدل على أن المعاصي سبب المصائب ، والطاعة سبب النعمة ، كما قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وقال عز اسمه : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . وقال : « إن الذين تولوا منكم يوم الئتي الجمعان بما استنزطهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » . وقال : « أو لم تأصابتكم مصيبة فقد أصبتم مليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » . وإذا كان الفسوق والعصيان من أسباب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة من الناس ويسكت الآخرون عن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيكون ذلك محسوبا عليهم من ذنوبهم ، أو يسكرون عليهم إنكارا منها عنه فيكون ذلك من ذنوبهم أيضا ، وبسبب ذلك يحصل التفرق والفساد ، وذلك من أعظم الشرور والفتن في القديم والحديث . وإن من تدبر ما وقع من الفتنة بين أمراء الأمة وعلماؤها علم أن منشأ ذلك اتباع الأهواء والشهوات ، والميل إلى البسع والفجور .

الحقاسب :

الحقاسب من نصيبه السلطان أو نائبه للنظر في أمور الرعية ، يأمرهم بما يوافق الشرع وينهاهم عما يخالفه ، في أمثالهم الدينية والدنيوية ، مما ليس من اختصاص القضاة والولاة والجبلة . وهو داخل في باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فله النظر في كل ما يهيم المسلمين في أسواقهم ومجتمعاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ، ويمين من يراه أهلا لذلك من الاعوان . فهو يبحث عن المنكرات ويمزر عليها ، يعاقب بحسب أهميتها ومقدارها ، وعلى حسب منزلة مرتكبها ، كما سيأتي تفصيل ذلك بعد .

وشرط المنكر الذي يكون لمحتاسب التعرض له : أن يفعل علانية على مرأى من الناس ومسمع . من ارتكب معصية خفية في داره وأغلق عليه بابه لا يجوز للمحتاسب أن يتجسس عليه ، إلا أن يكون ذلك في انتهاك محرم بدى في الشروع فيه ولم يتم بعد ، كما إذا أجبره من يثق بصدقه أن رجلا حلا مارأة ليزنى بها ، فيجوز له حينئذ أن يتجسس ويبحث ، حفرا من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات .

أصناف المحتسب :

المحتسب صماني :

(١) محتسب يمينه السلطان أو مائه لانظر في شئون الرعية والكشف عن أمهاتهم ، فيأمر بما يوافق الشرع وينهى عما يخالفه ، كما تقدم ذلك .

(٢) محتسب متطوع يرى مسكرا فيسكره ، أو يأمر بمعروف يرى الناس قد تركوه .
وبينهما فرق من جهات عدة :

(أ) أن الأمر والنهي فرض عين على الأول بحكم ولايته ، وفرض كفاية على الثاني ، فإذا قام به غيره سقط عنه المخرج والامم : كصلاة الحسابة ، ورد السلام على غيره .

(ب) أن قيام الأول به من واجبات عمله التي لا يجوز أن يتشاغل عنها بغيرها ، وقيام الثاني به من النوافل التي يجوز أن يتشاغل عنها بغيرها .

(ح) أن الأول له أن يتخذ على الاسكار أعواما لأنه عمل هو له منصوب وإليه مددوب ، وليكون أقدر على القهر والغلبة ، وليس كذلك الثاني .

(د) أن الأول له أن يمرر في المسكرات الظاهرة نصرب ومحوء ، ولا يتجاوزها بحيث تصل إلى الحدود الشرعية المقدرة ، وليس لثاني ذلك .

والفرق بين المحتسب والقاضي :

أنه لا يجوز للمحتسب النظر في الدعاوى الخارجة عن ظواهر المسكرات . فلا ينظر في العقود والقروض ونحو ذلك ، إلا إذا كان ممترقا بها . أما ما يدخله الاسكار والجحد ويحتاج إلى البينة أو شهادة الشهود ، فهذا وظيفة القاضي لا وظيفة المحتسب .
ويزيد على القاضي معه وجوه عدة :

(أ) أن له أن يتعرض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يحضر خصم يطلب منه ذلك . وليس للقاضي أن يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يشتكى ، ولو تعرض لذلك خرج عن حدود وظيفته .

(ب) أن له من القوة والخبوت ما ليس للقاضي ، لأن الحسبة موضوعة على الرهبة والنخوف ، فإذا أغلظ المحتسب في القول وكان سليط اللسان لا يمد هذا منه خروجاً عن عمله .

(ج) أن له أن يبحث عن المسكرات التي ترتكب علانية ليقوم بأداء وظيفته بإسكارها ، وليس ذلك لغيره .

ويوافق عمل القاضى من ناحيتين :

(١) أنه يجوز تقديم الشكوى اليه وسماعه دعوى المشتكى في حقوق العباد التى تتعلق ببخس في ثمن أو تظفيف في كيل أو وزن ، أو تدليس في بيع أو ثمن ، أو تأخير دين مستحق مع إمكان دفعه .

فهذه كلها منكرات ظاهرة وظيقت إرالتها ، إذ من أعمال الحسبة يصل الحقوق الى ذويها والمعونة على استيفائها .

(٢) أن له أن يلزم المدهى عليه بدفع الحق الذى وجب عليه باعتراف أو إقرار مع وجود اليسار ، لأن في تأخيرها منكراً ، لقوله عليه السلام : « مطل الغنى ظلم » .

والفرق بين المحتسب وقاضى المطالم (القاضى الجنائى) : أن النظر في المطالم يكون فيما يعجز عنه القاضى ، والحسبة فيما يرقه (١) عن انقاض . ويشتركان في أن عمل كل منهما مبنى على الزهمة المستمدة من سلطان الحكومة ، وأن كلا منهما لا يتعرض إلا لعدوان ظاهر لاخفاء فيه ؟

« يتبع »

محمد المرافعى

(١) دله عت : وسع وحفف .

من أخبار الفصحاء

دخل المأمون ديوانه يوماً فر نللام وسيم الطلعة ، حسن البزة ، فاحجبه شكله . فقال له : من الشاب ؟ مقام وقال : لاشئ في دولتك ، المؤمل لخدمتك ، والمتقلب في نعمتك . الحسن ابن رجا . فاستحسن المأمون جوابه وأمر له بجائزة .

يقال إن أبا العباس السماع لام يوماً خالد بن برمك وزيره على كثرة عطائه وصلاته ، فقال له خالد : لم أر شكرى يحيط بنعم أمير المؤمنين ، فاستعنت بألسنة الناس عليها .

وقف المنذر ملك العراق على مجوز من العرب ، فقال لها بمن أنت ؟ قالت : من طيء . فقال : ما منع طيء أن يكون فيهم مثل حاتم ؟ قالت : ما منع الملوك أن يكون فيهم مثلك .

فمجب المنذر من سرعة جوابها وأمر لها بصلة .

موقف الدعوة الإسلامية

من الشعر والشعراء

يحاول بعض الباحثين من المتأدين المصريين أن يُلصق بالإسلام دعوى مسافرة للأدب من الوجهة الفنية، ولا سيما الشعر، استناداً إلى موقف الدعوة الإسلامية من فريق من الشعراء والشعراء على عهد البعثة المحمدية. وهي دعوى لا تجد لها دليلاً من التاريخ ولا شبهة من الواقع، وإنما دفعهم إليها ما رأوه من عناء الإسلام القوية بالأخلاق الكريمة، وإحاطتها بسياج من الحصانة التي كان من لوازمها مقاومة البسداء والتفحش في المعاش، والكذب والافتراء في المدح والاستجداء، والامانة الداعرة في الغزل والتشبيب، فالإسلام سلك للفن الأدبي طريق الفضيلة ليقيم للناس حياة فاضلة خشيعة لا تشوهها تلك المقائس النفسية والمعايب الخلقية. وإذا كان الإسلام قد اشتد بعض الشيء أمام نوع من الشعر وفريق من الشعراء كان لا يرى للاخلاق وزناً مغل في ذلك عذره الباصح، إلى جانب أنه شجع نوماً من الشعر وفريقاً من الشعراء جملوا فنهم مطية للكرام الأدبية.

كان الشعر — كما يقول عمر بن الخطاب — علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه، وكان الشعراء عند العرب هم أهل الخندق والثقافة الذين يصلون في ميادين الأمكار وتسجيل الآراء، واليه يركن الناس في الاحتجاج لهم والذب عن أحسابهم ونشر فضائلهم، وقد كانوا شاعرين بهذه المنقبة لهم في نفوس الجماهير مدلين بها عليهم، فترى الأعشى يمين على مدحوه بقوله:

قلدتك الشعر يا سلامة ذا فاشئ والشيء حينما جملاً
والشعر يستزل الكريم كما ينزل رعد السحابة السبلاً

فلما جاء الإسلام بتعاليمه التي أشعرت العرب بحياة جديدة كل الجدة، لم تألفها نفوسهم ولم يتعودوها مجتمعاتهم، وكانت تلك التعاليم أشد وقفاً على نفوس الشعراء والمترجمين، لأنها تحمل في ثناياها ما يذهب كبريائهم ويقوض سلطانهم، ويؤذي بمواضعهم، فاشتدت المحسومة بين الدعوة الجديدة والماكنين على التقليد، وانتفض شعراؤهم لمناهضة القرآن الكريم الذي هتك ستر بلاغتهم، ووضع بسمو براعته ونصاعة بيانه من قيمة فصاحتهم، ورصد قوم منهم أنفسهم لهجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأفزع في هذا أمية بن أبي الصلت، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره، فيما يقول الرواة، وكان طبيعياً أن يجد الإسلام في أنصاره السنة حداداً ترد كيد المعتدين في تحورهم، وكان هؤلاء الأنصار يمجنون من النبي صلى الله عليه وسلم ورضاء واغتراباً، لا بل أمراً وتحريضاً، فقد روى أصحاب السير عن جويرية

ابن أسماء قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فثنى وأثنى . وعن حابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال : لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بفيظهم لم ينالوا خيرًا قال النبي صلى الله عليه وسلم من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب رضى الله عنه : أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة : أنا يا رسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ، قال عليه السلام . نعم أجمعهم ، أنت فانه سيعيدك الله بروح القدس . ومن مواقف حسان رضى الله عنه التي نافع فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رده على الزرقان بن بدر شاعر وفد بني نعيم الذين رل فيهم قول الله تعالى : « إن الذين يبادونك من وراء الحدرات أكثرهم لا يعقلون » فقد حرج اليهم النبي صلى الله عليه وسلم واستمع الى خطيبهم الأقرع بن حابس وشاعرهم الزرقان ، وأمر خطيبه ثابت بن شماس فرد على خطيبهم ، وأمر شاعره حسان بن ثابت فقام فأشدد عيدينه المشهورة ، وهي من رائع شعره ، وفيها يقول :

قد بينوا سنة فتناس تتبع
تقوى الآله وبالأمر الذى شرعوا
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نعموا
إن الخلاق — طعلم — شرها البدع
عند الطمع ولا يوهون ما رفعوا
فكل سبق لأذى سبقهم تبع
لا يطمعون ولا يزدى بهم طبع
ولا يحسم من مطمع طمع
إذا الزائف من أظفارها خشموا
وإن أصيبوا فلا خور ولا جزم
أسود ييشة فى أرساغها قلع
ولا يكن هك الأمر الذى منموا
سما يخاض عليه الصاب والسلع
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فيا أراد لسان حافظ صنع
إن حدة بالناس جد القول أو سمعوا

إن الثواب من فخر وإخوتهم
يرضى بها كل من كانت سريره
قوم إذا حاربوا صروا عدوم
سحبة تلك فيهم غير محدة
لا يرفع الناس ما أوهت أكتفهم
إن كان فى الناس سباقون بدمهم
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم
ولا يضمنون عن حار فضلهم
يسمون للحرب تبدو وهى كالحدة
لا يفرحون إذا نالوا عدوم
كأنهم فى الوحى والموت مكنتهم
خذ منهم ما أتوا عفوا وما غضبوا
فإن فى حربهم — فترك عداوتهم —
أكرم بقوم رسول الله قائمهم
أهدى لهم مدحى قلب يؤازره
وأنهم أفضل الأحياء كلهم

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر من شاعرنا ، وخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ، ثم قال : أعاننى يا محمد ، فأعطاه ، فقال - زدنى ، فزاده ، فقال : اللهم إنه سيد العرب !

فنحن نرى في هذا الضرب من المحاورات الكلامية، والمناطرات الأدبية، ما يدلنا دلالة صريحة على أن صاحب الدعوة الإسلامية جمل الأدب بمض أسلحته في تأييد دعوته، بحجة لما كان عند خصومه من هذا القبيل، فلما فلح عليهم أبوا إلا الجأ في العناد حتى شاموا سيوفهم في وجه الدعوة، فأبى الله إلا نصرة دينه القويم .

ومن الشبه التي يتمسك بها هؤلاء المتنادبون آية في كتاب الله تعالى تصف الشعراء بالصلاة والبهتان، وقد ردها على إخوان لهم من قبل صاحب العمدة فقال : « فأما احتجاج من لم يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : « والشعراء يقيمهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأهمهم يقولون ما لا يفعلون » فهو غلط وسوء تأويل ، لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهتاء ، ومسوء بالأذى ، فأما من سوام من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استناب الله عز وجل ونبه عليهم فقال : « إلا الذين آمنوا واصلوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانصروا من بعد ما ظفروا » يريد شعراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين يلتصقون له ويحيون المشركين عنه »

على أننا إذا نظرنا إلى التاريخ الأدبي في هذه المرحلة وجدنا من القصص والحوادث النادرة ما يثبت اعتزاز الإسلام بالأدب وخاصة الشعر، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قام لحسان منبرا في مسجده وقال له : « احمهم — أي المشركين — فوائدهم لهماؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام » . وقصة كعب بن زهير مشهورة ، فقد أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول منيم إثرها لم يند مكبول
وفيها يقول بعد أن تخاض من القمل — على عادة الشعراء — إلى المديح والاعتذار
نبئت أن رسول الله أوعدني والفقو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ال
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
إن الرسول لنور يستضاء به
فرضى عنه النبي صلى الله عليه وسلم وأثابه برده . وهذا أيضا التابفة الحمدي : وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته الرائية :

خيل لي عوجا ساعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أوزرا
أثبت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالجرة يبرا
أقيم على التقوى وأرصى بفعلها وكنت من النار الخوفة أحذرا
إلى أن قال فيها مفتخرا بنفسه وقومه :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرحو فوق ذلك مظهرنا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أين المطهر يا أبا ليلى ؟ » فقال : الجنة يا رسول الله ، قال : « أجل ! إن شاء الله » فلما بلغ قوله :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له لواء تحمي صفوه أن يصكروا
ولا خير في جهل إذا لم يصكرك له حلبي إذا ما أورد الأمر أصدرا
قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « تحدث لا يفرض الله فاك » .

وروى أن الزبير بن العوام رضى الله عنه مر بمجلس لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدون وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره ، فقال : مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن القريظة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحس استماعه ويجعل عليه ثوبه ولا يشتغل عنه إذا أنشده ! ولعل هذا هو السبب في مدحة حسان للزبير التي يقول فيها :

أقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يمدل
وقد مر عمر بن الخطاب بحسان وهو ينشد لشعر في المسجد فقال له أرفأه كرفأه
البكر ؟ فقال حسان : دعني عليك يا عمر ، فوالله بك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد
من هو خير منك فما يغير علي !

وذكر الشيخ عبد القاهر أنه بروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول لي : « أبيتك » فأقول .

ارفع ضعيفك لا يحرك بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو ينهي عليك وإني من أنبي عليك بما فعلت فقد جزي
ومما اشتهر عنها أنها كانت تحفظ شعر لبيد جميعه . ودخل عليها حسان بعد ما كان
من أمره في شأنها معتدرا فأأنشدها قوله :

حصان رزان ما تزن بريسة وتصح غرثي من الحسوم الفواعل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم فلا رفعت سوطي إلى أنامل
فإن الذي قد قيل ليس بالألط ولكن قول اسرى بي ما حل

ولو شئت أن تتدع الحوادث لما اتسع المقام لسردها . وهكذا بحمد الإسلام في شخص
نبيه الكريم وأعيان أنصاره وحسوده ، اعتر بالآداب وآحاه ، بيد أنه لم يرض أن يمد لغواة
الشعراء في حل الضلالة ، بل حصرهم في رفق تارة ، وفي صلاة تارة ، عن مزالق الشر والافساد
في الأرض ، وفتح لهم أبوابا من التفصيل والخير . والحق لو أنهم اتخذوها مناهذ الى مظاهر
الوجود لكان الأدب العربي الآن ناموسا من نواميس الاخلاق الفاضلة ، كما أنه الساموس
الاعظم في البراعة والبيان .

صاحب البرهم عربونه

الدعوة الى الله

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

—

الدعوة الى الدين وتثبيت اليقين وإرشاد الناس ليخرجوا من الظلمات الى النور ، هي في الأصل حمل الأنبياء والمرسلين ، يخلفهم في ذلك صفوة عباد الله ممن احتارهم وقربهم اليه . ولقد كان لها في سلفنا الاول المقام الاول ، فكان يايها كبار الصحابة والتابعين ، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر . وكان الناس لا يزالون يذكرون ما كانوا عليه من جاهلية جهلاء وخطئة عمياء ، ركبوا فيها السف ، وتباهوا بالجبروت والظلم ، حتى صمتهم الفوضى ، وساءت بهم حال الحياة . فكانت ذكرياتهم عنها أكبر عون لمسارعتهم الى الجادة التي رحمهم الله بها « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فلما طال عابهم الأمد ونسى الماضي السيئ ، واستقر بهم للعيش ، وأنتهم الحياة الطيبة بما نعموا به من الشريعة السمحة ، حسبوا ما غنموه من هذه الثمار حقاً لازماً لا يخشى عليه ضياع ولا يحتاج الى حراسة ، فسكروا بلذة النعيم ، وانغمسوا في شهواتهم لاهين ساهين ، وجر الشهوات لا ساحل له . وقد كان ذوو النفوذ والسلطان والجاه والثراء أوغر الناس قسطاً من الاستمثار والاندفاع في تيار الذنائد ، واقتدت بهم الدهماء حتى تعرضوا لوعيد الآية الكريمة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ففسقوا فيها حتى عليها القول فدمرناها تدميراً » . فكم من أمة من الأمم الاسلامية سقطت من شاخ رفتهما ، وذلت بعد عزتها ، وانقرعت من ملكها وسطوتها ، وتحكمت فيها أم كان أعز أمانيتها أن تكون من حاشيتها . ولولا ما وعد الله به هذه الأمة الكريمة من بقاء الخير فيها الى يوم القيامة لكان ما انغمست فيه كافياً للقضاء عليها ، ولكى الله اللطيف الخبير كان يتداركها على تعاقب الأحوال بمن يجدد لها أمر دينها .

وإن من أكرم ما يوجه القلوب الى الله بالحمد والشكر ، ما نراه في هذا العصر من نعمة الله على مصر ، بما جباها به من ملك صالح ، بوأه عرشها ، وسلمه زمانها ، وقد نشأ في عبادة ربه وتملى بحلبة الدين من أول تلشنته ، وآتاه الله من الحكمة والحزم ونور البصيرة وقوة العزم ما ظهرت آثاره جليلة في توجيه أمتة الى سعادتها ، وإرشادها الى التمسك بدينها ، والدين مدعاة الفضائل جميعها ، وفي التمسك بالفضائل من أمانة وصدق وحسن عشرة وعدل واستمسك بمزة وحياة ، في هذه الفضائل صون الكرامة ، وعلو المكانة ، واكتساب الاحترام ، والجدارة بالثقة .

شهدت به مصر عهداً طويلاً تمتته وسألت الله أن يحققه لها ، فاستجاب لها ربها ، فكان أول ما بدأها به الحكامات الطيبة بوجهها إليها مشافهة ، يهنئها بشهر الصوم ، وينبئها الى ما فيه من فرصة اغتنام الخير ، وما بين يديها من سعادة تغتنمها بإقبالها على أحكام دينها وطاعة ربها ، فتحرز بذلك سعادة الدنيا والآخرة ، تفتحت له قلوبها بالحجة ، وتطلعت إليه عقولها لتستلم الرشاد من نصحه ، وكبرت فيه مظاهر الدين تتوالى عليها .

وكان من أكبرها وأجملها : أن عهد الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المصلح الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر ، بإلقاء دروس في تفسير آي الذكر الحكيم ، بحيث ينفع بها الخاصة ، ولا تملو على فهم العامة . وتفصل بحضورها والاستماع لها ، فأقبل عليها العطاء يقسايقون ، وتبعهم الجماهير مثلهفين . وساعدت وسائل الاذاعة على نشرها لآوساط الأمة ، فكانوا يتلقفونها ما استطاعوا ، فكان السمع بها عظيماً ، والتطلع إليها أعظم . وحسبك بدروس دينية يحضرها الملك الصالح نفسه ، وينوه بشأنها ، ويعلم من قدرها . فكان في هذا من تنبيه الشعور الديني ما نحمد الله فيه على نعمة التوفيق ، ونسأله جل شانه منه المزيد .

ولقد سمعنا من غير واحد من العطاء الخافا في طلب المريد منها والمداومة عليها ، يقولون : إن في عنق الأزهر حقاً وأمانة للأمة في هذا التذكير الذي جذب أرواحنا ، وأشبع قلوبنا ، وذكرنا بواجبنا ، والذكرى تنفع المؤمنين ، فلا يصح أن يهمل الأزهر هذا الأمر وهو الأدرى بقيمته عند الله . وإنا نرجو أن تحجب هذه الرغبات الشريفة إن شاء الله .

نقبت كلمة لا مد من الاملاخ إليها بإشارة وجيزة :

تلك أن بعض صغار الاحلام أساء فهم كلمات وردت على لسان فضيلة الأستاذ الأكبر ، فبدلاً من أن ينعم النظر فيها ، ويتأمل سابقها ولا حقها ، أطلق لنفسه عنان الطيش ، وراح يرسل الكلمات في غير ما روية ، ويقول : إن فضيلة الأستاذ الأكبر ينكر على الأئمة احتيادهم في مذهبهم .

يا للمحب العجيب ! لم ندر كيف يحطر هذا الوهم في نفس رجل له فهم ؟ وكيف يستقر عند من يزعم أنه من أهل العلم ؟ وكيف يجرى على لسانه ولا يتوارى خجلًا من نفسه ! أليس هذا الذي تزعم عليه أنه ينكر الخلافات المذهبية هو الذي يتعهد دروس الفقه على المذاهب الأربعة ، ويطلب طلاب الجامعة الأزهرية وجميع المعاهد الدينية أن يحفظوا أحكام مذهبهم ، ويطلبهم بتقرير أدلتها وبيان حكمة التشريع فيها ، ورنط مصالح المجتمع بما يدرسون منها ، كل على حسب درجته في التعلم ؟ ولا يسمح لواحد من الطلاب الذين وضع الله أمامهم في عنقه أن ينتقل من سنة الى سنة أو أن يجازي في النهاية باجازه التدريس والارشاد ، إلا بعد أن يكون قد أجاد فهم مذهب إمامه ومن انتصبوا لتقريره وبسط أدلته وتوجيه قواعده ؟ !

فكيف ينكر شيئاً هو دائب على تعهده وتنميته ، وحريص كل الحرص على أن يبلغ غاية السكال والاتقان ؟

هذا في مركزه الرمبي فإذا فاته التنبيه إلى هذا فكيف يعقل عما جاءت الآية التي يفمرها فضيلته لتقريره ؟ ألم يكن سياقها في مذاهب الأمم الماوية من أهل الكتاب وغيرهم ، وأنها ابتدأت مذاهب مختلفة ثم تطورت إلى أن صارت أديانا يكفر كل أهل مذهب منهم من خالفه في مذهبه ، ويعتبره خلافاً في الدين لا اجتهاداً مذهبياً ؟ أليس من واجب حراس الدين أن ينهوا للعذر من هذا الاختلاف الذي وقع لمن قبلنا حتى لا يصيبنا ؟

لعلك تقول : ومالنا نحن وهذا التنبيه ولم نصّب بمثل ما وقعوا فيه ؟

ونقول لك : إن التنبيه على الخطر لا يتوقف على الوقوع فيه بالفعل ، بل يجب التحذير من الضرر قبل التردى في هاويته ، حتى يكون التحذير مفيداً ، فإن أبيت إلا أن ترى الضرر قد حصل بالفعل حتى يصح التعرض للتحذير منه ، لماذا تصنع في فائدة ما قصه علينا القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأولين !

على أن الذي تزعم نفيه عن الأمة الإسلامية وأن لا داعي للتعرض له ، قد وقع فيه الكثير من الطوائف في غير مصر . فكم ترى من افتراق طوائف مسلمة افتراقاً أشبه ذلك الافتراق الذي حصل لمن قبلنا من أهل الكتاب . وإذا كان الله قد نجى منه الأمة المصرية وله الحمد والمنة ، فقد ارتكست فيه طوائف في غير مصر يكفر بعضهم بعضاً ، والجميع من أهل القبلة يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ والبحث إن شئت في مصرك محمد جماعات تعمل دأبة في مصر على حفية منك ، تعمل على تكفير غيرها . ولو اطلمت على ما تدعو إليه لاسرعت بتكفيرها . وكم من فئة عمزق من الأمة ما جمعه الله ، فأنما الله !

وبعد : فلم يخل المصلحون في زمن ما من التعرض لهم بالهز والتأويل وشقي الأفاويل ، فإن كانوا يعملون ليقال عنهم ، فترت همتهم ، وإن كانوا يعملون لله ولرسوله وليرصوا ضميرهم ويرضوا ربهم ، لجأوا إلى قوله عز وجل : « فأنما الزهد فيذهب حفاة ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

هذا ولقد رأى جبهة من أهل الرأي وتقدير الأعمال عما تستحقها : أن يكون النفع بهذه الدروس حاماً وأبناً مستقراً ، فاقترحوا على فضيلة الأستاذ الأكرم أن يأذن لطبعها لينفع بها من فاته فرصة استماعها ، فتفضل حفظه الله وأذن بذلك .

وإننا نرجو أن تكون باكورة لثمار بستان يؤتى أكله كل حين بإذن ربه ، وأن تكون بداية طيبة لنفع متصل .

وإما إذ نتوه بهذه الآثار الجليلة التي هي في غنى عن تنويعها ، نغتنب أنم الاعتبار بان تكون هذه الآثار على يد ملك اصطفاه الله لسكناته ، ووأه ملك مصر التي جمع الله لها من مرايا العلم وحراسة الدين ما لم يحصمه لغيرها ، وعرف لها أم الإسلام من جليل الآثار ما جعلهم يحولونها محل القيادة الدينية العامة ، ويعلقون آمالهم بها يرجون أن يكون بها جمع كلمة المسلمين على التمسك بفضائل الدين ، حتى يحرزوا ما هم أهل من احترام الشعوب ومحبة الأمم ، والثقة الكاملة لدى العالم أجمع .

ولقد تذكر عجيء هذه الآثار على يد جلالة الملك الصالح المحبوب الموفق الملك فاروق الأول ، ما روى لنا عن محبة الفاروق ثاني الخلفاء الراشدين : من أن إسلامه كان بده الجهر بالدعوة الى الإسلام ، وقد كانت قبل ذلك سرا ، فسماه عليه السلام بالفاروق ، فرق الله به بين الحق والباطل .

وكذلك في عصرنا هذا نستقبل مصر عزة دينية ، ويجهز رجال الدين بالدعوة الى الله في حضرة الملك ويتشجعه . فإن كان ملكنا حفظه الله فاروقا الأول في ملوك مصر ، فهو أيضا فاروق الثاني فيمن أعلى الله بهم كلمة الدين .

فاللهم أيد الإسلام بتأييده ، وأعل كلمة الحق بأعلاء كلمته ، واجمع القلوب على الخير بمجمعها على محبته — آمين !

ابراهيم الجبالي

عمر يقص من نفسه

حكى أبو الحسن الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية عن ابراهيم النخعي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء ، فرأى رجلا يصلي مع النساء ، فصره بالدرة . فقال : والله إن كان صلى هذا حسنا لقد ظلمتني ، وإن كان سيئا فما علمتني .

فقال عمر : أما شهدت عزمتي ؟ فقال : ما شهدت لك من عزمة ، فألقى اليه عمر الدرّة ، وقال له اقتص . قال لا أقتص اليوم . قال عمر : فاعف عني . قال لا أعفو ، وافترقا على ذلك .

ثم لقيه من الغد فتغير لون عمر . فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين كاني أرى ما كان مني قد أسرع فيك . قال عمر : أجل . قال الرجل : فاشهد أنني قد عفوت عنك . (من كتاب السميع الواعظ) .

أمر القرآن في تحرير الفكر الإنساني

أول ما واجه الإنسان على الأرض كان جاهلا بكل الجبل ، وكان معجبه بهذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الأمم السابقة على التاريخ ، فلم تشاهد جماعة من جماعات محرومة من دين ساذج يناسب حالة العقلية التي كانوا عليها . ولا تزال توجد في الأرض قبائل متوغلة في النوحن تمطينا مثلا محسوسا على ما كان عليه الإنسان في أول وجوده . وما هو محقق أن الخلق سبحانه وتعالى لم يحرم الإنسان وهو في ذلك الدرك الأسفل من وجوده من رسل يهدونه إلى الحق بالقدر الذي يطيقه عقله . ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لأوامره فيؤثره قوى الطبيعة ، أو يتخيل وراء ظواهرها روحا أو أرواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه ، وتقذفه بالشر متى سخطت عليه ، فكان يستجلب رضاهما عليه بما تزينه له عقليته الباقصة ولو بتضحية قلقة كبدته لاسترضائها . ولا شك أنه كان يصدر في كل ذلك عن رجال نحوا أنفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة . فكان يدين بما يوسوسون له به غير طالب على ما يقولون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم خصب ، ولكن لأنه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ، فكل شيء كان عنده صحيحا ما دام يصدر عن المهيمنين على ديانتهم .

فما حصل للإنسان بعض العلم بالوجود الذي يعيش فيه ، وأخذت قواه العقلية تشعره شعورا ساذجا بأن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل ، ازداد تمويلا على قادته ، وتمسكا بما يفضون به إليه ، وتسليا منه بأن الحق لا يمدو ما يؤثرونه إياه على أية حال .

انتقل الإنسان درجة بل درجات في باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه الأدبية ، واستعدت للقيام بمحنتها من حياته العقلية ، فلم يؤثر هذا في خضوعه لأولياته ، لأنهم بما انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه إلى التطور فيومونه حاجته من الغذاء العقلي ، فكان يضطر للانقياد لهم ، إذ يصادف لديهم كلها حفزته الحاجة إلى المزيد منه ، فيظل أسيرا في قبضتهم .

تتابعت القرون والأجيال ، والناس جميعا على هذه الحال ، حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونخ بين أحضانها رجال وفر في أنفسهم أن من حق عقولهم عليهم أن يناقشوا رجال الدين فيما يدلون به إلى الناس من عقائد ، فكان جزاؤهم القتل ، وأكبر من ذهب منهم ضحية لهذه التهمة الميلسوف سقراط عمدة الفلسفة اليونانية .

ولكن ما لبث هذا الحجر على الفكر أن خفت وطأته ، وتمكن فلاسفة كثيرون من الانصاء بمذاهبهم إلى الناس ، وفي بعضها ما يخالف عقائد مآمتهم ، بل منها ما يفضي إلى المادية الباحثة .

ولكن هذا العهد لم يدم طويلا ، فانه لما سمت الديانة المسيحية أوروبا أصبح لحفظتها من السلطان وتقاد الكلمة مائيس للملوك المتوجين ، فوضوا حدودا للنظر لا يسمح لاحد بتعديها ، فوقفت حركة الفكر أكثر من ألف سنة لم ينش في أنثائها على ما يقول المؤرخون عالم واحد في أي فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الاوائل مكدسة في المكتبات ترعى فيها الحشرات .

فكان العالم لا يخلو في أثناء تلك القرون الراكدة من نبوع عقول نيرة تبحث في بعض اشئون الكونية ، وتأتي بما يمدد القائمون بالامور الحقيقية زينا ، فكان هؤلاء المفكرون يحاسبون على ما أتوا به حسابا عميرا ، فيستتابون ويمررون إن كانت حريجتهم هبة ، فان عادوا لمثل ما أخذ عليهم جزاؤهم كان القتل على أبعس حالة .

هذه الشدة المتناهية في القسوة لم تمنع العقول القوية من الظهور آونة فآونة ، فكان حفظة العقائد يلتقطون أصحابها واحدا واحدا ويحصدون أنفاسهم ، حتى لا تسرى عدوهم لسوهم . ظلت الحال جارية على هذا النحو حتى بلغ عدد ضحايا الفكر الحر أكثر من ثلثائة ألف ، أحرقوا بالنار ، أو ألغوا في البحار ، أو ماتوا وخزا بالسفايد المحمأة الخ .

ومن عجب أنه كلما ارداد عدد هذه الضحايا كثر المترصمون لخطواتهم ، وكلما أمعن رجال الدين في عداهم ، استسل رجال الفكر في جهادهم ، وتيقظ الناس من سباتهم ، وبعد أن كان النزاع محصورا بين رجال الدين ورجال العلم ، تعداهم الى رجال الدين أنفسهم ، وما هي إلا فترة حتى انصدعت وحدتهم ، فأعلن جمهور كبير منهم عزلتهم ، مؤسسين مذهبا جديدا للمسيحية باسم البروتستانتية ، فيها تسامح كبير إزاء رجال العلم ، وبحال فسيح للفكر الحر والرأى المستقل ، وكان ذلك في القرن السادس عشر ، أي بعد ظهور الاسلام بنحو ألف سنة .

الناظر في هذه السلسلة الطويلة من التنازع يظلمها تطورات أدبية عملية ، والحقيقة أنها تتصل بالنهضة التي أحدثها القرآن في الشرق اتصالا وثيقا ، فإن المسلمين اتصلوا بأوروبا من جهة غربها منذ أواخر القرن الثامن الميلادي بفتحهم للأندلس ، فأسسوا فيها دورا للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأى على ما يقضى به الدستور القرآني ، فتأدوا الى مدى بعيد من المعارف والعقول ، وصارت جامعات قرطبة واشبيلية مثابة لطلاب العلم القريين ، فنهلوا من معينها الصافي ما لا يصلون الى مثله في بلادهم ، وصرخوا على الأسلوب الذي كان يجري عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال ، فتشبعت به نفوسهم ، وارتاحت إليه عقولهم ، فلما عادوا الى بلادهم أخذوا يبنون في مواطنهم هذه الروح الجديدة ، فسرت في أذكيائهم سريان النور في الظلام ، وفتحت أمامهم آفاقا من النظر ، ووقفتم على مواطن الفساد من نظمهم التعليمية ، وسلطاتهم الاستبدادية . ومتى أشمرت النفوس بتقصصها اندفعت مضطرة بفراؤها لتكليه ،

فانتدب أفراد منها للتفكير والنظر، غير معتمدين بالحدود التي أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها، فحدث من جراء ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا .

أما دخول العلم الاسلامي الى أوروبا من طريق الأندلس وطريق إيطاليا فأمر قد اعترف به مؤرخوهم ، وأما استمدادها روح نهضتها من النهضة الالامية فحدث لا يمكن المراء فيه ، لا إجماع مؤرخيها أن علوم المسلمين وآدابهم هي التي أيقظت أهلها من سباتهم ، ودفعتهم للولوج هذا الشأن من المدنية التي هم عليها اليوم . ولست أحب أن أطيل الكلام بإيراد الشواهد من كتب مؤرخيهم ، فانه أصبح معلوما من الناس أجمعين ، وقد أذكرنا من ذكره في جميع بحوثنا السابقة .

أما بيان الأسلوب الذي تمكن به القراءان من كسر القيود العولادية التي كان يرسف فيها الفكر الانساني في مدى سين ممدودة ، بعد أن لبث عليها قرونا كثيرة ، فإن في بيانه عبرة للسائلين ، وآية للناس أجمعين .

أنزل الله القراءان والناس على ما تعلم من عبادة الأهواء ، والجود على تقليد الآباء ، والطاعة العمياء للزملاء ، فلو كان جرى على الأسلوب البشري في بحث هذه العقليات الخاطئة ، وتنبية هذه النفوس الخاملة ، لاستدعى ذلك قرونا وأحيالا . ولكنه أتى في هذا الموطن بأية سيرفعها الناس الى أعلى من مستوى إحياء الموتى ، حين يعرفون أن نقل النفوس عما ورثته طرفة ، دونه نقل الجبال للشحم من أما كتبها .

تصدى الاسلام لتحرير العقلية الانسانية من طريق غير مباشر ، فجاءها من الناحية التي يشتد شعورها بها ، وهي ما ستؤول اليه بعد الموت ، فأغاض في ذكر العذاب الذي ستلاقيه النفوس الكافرة الجاحدة إغاضة لم تؤثر عن مساواة ، وبالع في تهويله على ضروب تسخّل لها القلوب وترتعد منها الفرائس ، مؤكداً أن الانسان وهو في تلك الحالة لا تجد فيه شفاعة شفيع ولو كان ملكا مقربا ، ولا قرابة قريب ولو كان رسولا مكرما ، بل لا يجد من يتطوع لانجاده من أب أو أم أو صديق ، لاشتغل كل امرئ بنفسه : « يوم ينصر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغيبه » « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل جيم جيم ، يمشرونهم ، يود الجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بيبه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الارض جميعا ثم يسحبه » « ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » « إذ تبرا الذين اتسموا من الذين اتسموا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » « وقالوا (أي أصحاب النار) ربنا إنا أظننا سادتنا وكبرنا فأضلوا السبيلا » « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أمر الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » الخ الخ .

الناظر في هذه الآيات ، وفي الكتاب عشرات من أمثالها ، يعجب من كثرتها ، ولكنه لو أدرك أن هذا كله تمهيد لأعظم إصلاح تم حدوثه في الأرض ، وكان فاتحة لكل الإصلاحات التي تنبأ بها ، بعد ذلك الإصلاح الذي رعى لأن يرفع عن النفوس البشرية نير العبودية للأوهام والتقاليد التي أمسكتها في الظلام أجيالا طويلة ، تبين له وجه الحكمة من الاكثار من هذه الروايع .

ألا ترى أن النفوس متى تحققت أنه لا ينحيا من عذاب الآخرة شيء غير مهملها الثاني ، انبأقت للنظر في وجه خلاصها ، وما دام لن ينفعها شعاعة شفيعة ، ولا قرابة قريب ، ولا اتباعها لمن تحيل فيهم الهداية ، وتتوهم منهم الوساطة ، كرهت الجود على الموروثات ، ومقتت التقليد للأباء ، وأيقظت في نفسها خاصة النقد والتحريض في كل ما يمرض لها من العلم ، فلم تعد أسيرة أحد فيما تعتقده وما تأخذ به ؟ وهذا هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأي الذي سمي لأقامة دولتيهما العباقرة أجيالا متطاولة ، وبدلوا في تشييدها دماءهم رخيصة ، وأقامها الاسلام في سنين معدودة ؟

وقد رأيت أن الاسلام قد جاء بهذا الإصلاح للآخذين به طفرة ، « مؤسسا إياه على أرسخ غرائز النفس ، وأعمق تحايرها ، فنشأت أمة تنظر وتفكر ، وتدعو كل فرد منها ليفكر لنفسه ، ويسئل لها ، وقد خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الاصل بكلمة من صميم العلم الالهي ، وهي قوله لا بنته : « اصملي يا فاطمة فاني لا أغني عنك من الله شيئا » .

وقد نشأ في هذه الامة عدد لا يحصى من العلماء والحكماء فلم يقل واحد منهم : خذوا بما أقول لا تنظروا فيه ، بل قالوا كلهم كما قال مالك : « ما من أحد إلا وهو ما اخوذ منه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

محمد فريد جبري

ما قيل في حفظ اللسان

لا تكشفن من مساوي الناس ما ستروا	فيكشف الله سترنا من مساويك
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا	ولا تعب أحسدا منهم بما فيك
وقال شاعر آخر :	
إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى	ودبتك مرفوور وعرضك صبي
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة	فلنفس سواآت ولنفس ألسن
وعينك إن أهدت إليك مساويا	لقوم فقل : يا عين لنفس أعين
فعاشر بالصف وكن متوددا	ولا تلق إلا بالتي هي أحسن

الاخلاق الفلسفية

- ٧ -

(ب) الضمير

السريّة :

يرى بعض الأخلاقيين تعدد السريّة واحتلاف أوصافها ، وتباين أفعالها ، فيقسمها الى سريّة صادقة وهى ما توافق أفعالها القانون الأخلاقى ، وسريّة ضالة وهى ما ترى الخير شرا والشر خيرا ، وسريّة موسوسة ، وهى ما تحظر المباح ، وسريّة مترددة ، وهى ما تنحيز فى إصدار الحكم على الخير والشر

ولست أدري ما هى الترويق التى صحت عند هذا البعض من الأخلاقيين فيزوا بها السريّة من الضمير ، وحملوا الأولى متعددة ، والثانى واحدا لا يختلف ولا يتغير ؟ ثم لا أدري كذلك ما هو المرجح الأخير الذى يلحون إليه فى الحكم بين هذه السرائر المختلفة حتى يتبينوا الصادق والكاذب منها : أهو العقل ، وقد علمنا مقدار ما يكتنفه من ضعف وانخداع بسبب خضوعه للحواس ؟ أم هى إحدى السرائر تتولى الحكم على بقية أحوالها ، وقد عرفنا أن تفضيل أحد المتساويين على الآخر وحمله حكما عليه بلا مبرر تحكم وخروج على ناموس العدالة ؟ أم هو القانون الأخلاقى ، وقد أصبحت نقتنا فيه ضئيلة تافهة ، لانا بدأنا نرتاب فى مشرعه وهو السريّة ما دمنا نوقن بأنها متعددة متغيرة خاضعة لظروف الحياة وطوارئها ؟ وليس أدعى الى الارتباب ولا أبلت على فقدان الثقة من هذه الحال المضطربة . وإذا فرأهم هذا مردود ، ولا يستطيع التسليم به عقل يسير على نظام المنطق المستقيم ، ولكن الرأى عندى هو أن الضمير والسريّة شئ واحد لا يتعدد ولا يتغير ، ولا يكذب ولا يوسوس ولا يتردد ولا يشك ، لانه من عالم الأبدية كما قررنا ذلك مررا . وأما ما نشعر به أحيانا من تردد وارتباك فصدره هو نشوب حرب داخلية بين هذا الضمير الصادق والناصح المثبت من رأيه ، وبين إحدى القوتين الحيوانيتين الموجودتين فى النفس البشرية . وأما ما نشاهده من ضلال فى أعمالنا وسقوط فى هوى الشر والذيلة ، فما هو إلا تغلب إحدى هاتين القوتين على ذلك الصوت الأعلى . وليس معنى هذا أن الأساس أثناء النصال الداخلى بين ضميره وشهوته يكون مرتدبا ثوب السريّة المترددة ، فإذا انتصر الضمير نزع هذا الثوب واستبدل به ثوب السريّة الصادقة ، وإذا كانت الغلبة للقوة الشهوانية ، ارتدى ثوب السريّة الضالة ،

فإذا تعلم أو تهذبت أخلاقه عاد فألقى بالسريرة الأولى جانباً وتدنر تغيرها . ولو كان الأمر كذلك لكانت السرائر شيئاً تاماً لا يكلف المرء تغييرها إلا عناء استبدال القفاز كما يقولون ، ولكن الواقع أن التردد والشك والهوى والصلال ليست إلا حالات للنفس البشرية تعرض لها من تنازع القوى الثلاث التي تسيطر عليها ، وأياً كانت لها الغلبة فهي صاحبة الحكم والسلطان . أما إذا كان هذا البعض من الأخلاقيين يقصد بالسريرة الخلق ، فإننا نوافقه على تغييره وتحسنه بواسطة الرياضة والثقافة والدين وتتبع سير العظماء والمصلحين ، ولا نخالفيه في أن هدى الخلق وضلاله مقرونان بالبيئات التي تحوط الإنسان ، وبالعناصر التي تتكون منها ثقافته ، وبالعوامل التي تسام في تربيته ؛ ولكننا لا نسلم مطلقاً بأن الصوت الأساسي الخلق يعتوره تغير أو نقص أو ضلال ، لأنه هو البرهان الأول على رعمة الإنسان وحدارته بالاتصال بخالقه ، وعلى إمكان وصوله إلى المثل الأعلى . فإذا جاز أن تتعرض هذه القوة العليا للتغير والنقص ، فقد سقطت قيمتها المسبوبة ، واندثرت نتائجها المترتبة عليها ، وانقلب كل ما في السكون من حقائق وعقائد وفلسفات ، لأن وجود هذه القوة في الإنسان ، وثبات عصمتها من الخطأ والضلal ، والاستيقان بأنها هي الصلة بين المطلق والمحدود ، لا كبر دليل وأصدق برهان على وجود الله وصدق الأنبياء وخلود الروح ، والعودة إلى حياة أخرى تجري فيها العدالة مجراها ، وإن كما لا ندعي استقلال هذا البرهان بآثبات كل هذه العقائد ، وإنما نحن مسلمون بأنه يستعين ببراهين أخرى ، واسكنه هو بيننا قطب الرحى وبيت القصيد .

المواطف الأخلاقية :

أشرنا عند تحديد أفعال الضمير الأدبي إلى أن الأعمال السلبية للضمير ، وهي ما تعقب لفعل ، تسمى بالمواطف الأخلاقية ، وقلنا : إن هذه المواطف تنقسم إلى قسمين : قسم يعقب القضايل والخيرات ، وهو السرور والغبطة والاستراحة ، والآخري وقوع الرذائل ولشور ، وهو وخر الصمير والألم والتندم ، وهذه المواطف بقسميها درجات ، فكأن فاعل الخير يشعر على أثر هذا الفعل بالرضى عن عمله ثم بالغبطة ثم بالسكينة التامة والسعادة الشاملة ، كذلك فاعل الشر يشعر على أثر جريمته بتقريع من الصمير دونه وخر الأبر ، ثم يحس بالألم ثم بالتندم الذي يقود إلى التوبة والامانة .

ولما كان بعض الفلاسفة الفرنسيين يرى أن المواطف الأخلاقية سلسلة متصلة الحلقات فقد قال : أول مراتب الفوز يرضى الله تأنيب السريرة . ولكن « كانت » لا يوافق على أن المواطف الأخلاقية تبتدىء بعد الفعل ، بل هو يؤكد أنها تبدأ على أثر الحكم بخيرية الشيء أو شرهته فيقول : « إن الشعور بالالتزام يصحبه حتماً إحساس بالاحترام » . والذي حدا « كانت » إلى هذا اليقين بساكنة المواطف الأخلاقية إنما هو إيمانه بكمال الحرية في داخل النفس البشرية .

ولا ريب أن هذا رأى حكيم يسير مع المنطق الذى تخلف عنه « أفلاطون » حين زعم أن الإنسان خير بقطرته ، وليس للشر فى نفسه نصيب ، فأفقدته بهذا حرته وإرادته وحدارته بالاحترام ، لأن الشخص لا يعترف له بالانتصار إلا إذا خاض معمدان الحرب بالفعل وخرج منها ظفراً على أعدائه الأشداء ، وإلا لحد الشخص على ما لم يفعل ، وعدد منتصرا على غير عدو . وإذا حاول شرائط المسؤولية الادبية هى الحرية المطلقة ، والكسب الاختيارى المستقل ، كما سنبين ذلك فى حينه .

المثل الأعلى :

يمتاز الانسان عن بقية أصناف الكائنات الحية بجمله الدائم الى الصعود والرقى ، وبشفقه الذى لا يفتر ولا يكل الى الرفعة والعلو ، ومحاولة الحقوق بالمثل الأعلى . وهذا دليل آخر يسوقه « كانت » على وجود الروح فيقول : « إن انفراد الانسان بهذا الشغف يدل على أن فى داخل نفسه عنصراً سامياً حكم عليه مبدع الكون بالسجن وقتاً ما فى دائرة الجسم الضيقة ، ولكنه أباح له حرية التغلب على هذا الكائن الحيوانى فجعله يحيل دائماً إلى الرفعة التى لو انتهى إلى آخر حلقة من حلقاتها ، لالتحق بأصله ، وهو العالم الأعلى . قيل الانسان إذا الى المثل الأعلى فطرى فى نفسه الناطقة لا يزال يصبو اليه حتى يلتحق به فى حياته ، أو ينقضى عمره وهو فى طريق السير اليه . غير أن هذا المثل الأعلى يختلف باختلاف الظروف والأحوال . فمثلك الأعلى بينك وبين نفسك هو أن تكون خيراً ، وبينك وبين الناس أن تكون غيراً مضحياً ، بأحنا عن سعادة البيئة التى تعيش فيها ما استطعت الى ذلك سبيلاً ، وبينك وبين ربك أن تعرف له حقه ، وتقدر عليك فضله ، وتذمن لأوامره ونواهيه ، لا رغبة فى جنة ، ولا رهبة من نار ، ولكن لأن خالقك يجب أن تكون كذلك .

وهذه المناسبة رى لزاماً علينا أن نشير هنا الى مرمى به بعض أخلاقى الغربيين الاسلام من ظاهرة النفعية والتجارة فى أخلاقه . وقد استشهدوا على هذه التهمة بما يرد دائماً فى القرآن من أحكام الصلة بين الفضيلة والجنة وما فيها من متع حسنية ولذات مادية ، وبين الرذيلة والنار وما فيها من عذاب وتكليل ، وعلقوا على ذلك بقولهم . « إن ديننا هذا شأنه من المادية لا يمكن أن يكون نفوساً عالية تعمل نظير لذاته ، وتحب الفضيلة لأنها فضيلة وكفى لا لغاية أخرى تسعى وراءها » .

ولكننا إذا أنعمنا النظر ملياً فى هذه المشكلة ألفينا قول أولئك الفلاسفة منبياً على أسس سوفسطائية ، إذ أنه حين زل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم كانت الحياة الاخلاقية والاجتماعية عند العرب منحلة انحلالاً لا يعكس معه لامة من الامم أن تسير الى الامام ،

فرائى البارئ جلّت إرادته أنه من الحكمة أن يفسح في الشريعة الاسلامية مكانا عظيما للأخلاق
وتمجيد الفضائل ، والحط من شأن الرذيلة بكل الوسائل الممكنة ، واستعمل لذلك أحكم
أساليب الترغيب والترهيب اللذين هما ضروريان للحماهير . وليست الأخلاق الاسلامية ، كما يرعم
بعض أخلاقيي أوروبا ، مؤسسة على التحارة والتفعية الموجودتين في الجمة التي ألح عليها القرآن
ووصفها كثيرا واتخذها وسيلة لنشر الفضيلة ، وإلا فإذا يقولون في تلك الحكمة المحمدية
العالية : « نعم العبد صهيبي : لو لم يخف الله لم يمسه » ، أو في تلك الجلة المنسوبة الى الامام
أبي حنيفة رضى الله عنه : « اللهم اشهد أنى لا أعبدك رهبة من تارك ولا رغبة في جنتك ،
وإنما حبا في رسالك عى ، وطمعا في تقربى الى نورك الأعلى » !

وإذا فالأخلاق الاسلامية مؤسسة على رضا الله والقرب منه ، لأنها دينية قبل كل شىء ،
ولكن الاسلام قد بدأ مهمته الاخلاقية بالتبشير للفضيلة العملية كما قدمنا ، لأن البيئة التي
نشأ فيها هذا الدين لم تكن تحمل أكثر من ذلك النموذج الذى رسمه القرآن الكريم وسارت
عليه السنة الغراء .
« يتبع »

الدكتور محمد غنوب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

وصايا أمراء المؤمنين لرجالهم

قال معاوية بن أبى سفيان لمسلم بن زياد لما ولاه خراسان . إن أباك كعك أخاه عظيما ،
وقد استكفيتك صغيرا ، فلا تتكلن على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منى
قبل أن أقول إياى منك ، فان الظن إذا أخلف منى فيك ، أخاف منك فى " وأت فى أدنى
حظك ، فاعلمب قضاء ، وقد أتعبك أبوك فلا تردى نفسك

وكان الرشيد فى بعض غزواته فألح عليه الثلج ليلة ، فقال له بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين
أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ، ووعناء السفر ، والرعية قارة وادعة نائمة ؟
فقال له أمير المؤمنين الرشيد : « اسكت فلرعية المنام ، وعلينا القيام ، ولا بد لراعى
من حراسة الرعية ، وتحمل الأذية » والى هذا أشار مادحه فقال :

غصبت لغضبتك الصوارم والقنا لما نهضت لنصرة الاسلام
ناموا الى كنف بعدك واسع وسهرت تحرس غفلة النوام

هل أقام سيدنا عمر بن الخطاب

الحمد على ولده في الزنا ؟

نشرت بعض المجلات الاسلامية المصرية لبعض كتابها قصة مطولة تتلخص في أن فتاة أقبلت على عمر رضى الله عنه بينما هو جالس في المسجد والباس حوله ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ورحمة الله . فقالت : كنت مارة في بعض الأيام بمحاطة بنى النصارى إذ بولدك أبى شحمة يتمايل سكرآ ، وكان قد شرب عند نسيكة اليهودى ، فراودنى عن نفسى ثم جذبنى بقوته ونال منى ما ينال الرجل من المرأة ، وقد أغشى على فكنت أصرى من عمى وحيرانى حتى أحسست بالولادة ، فخرجت الى مكان كذا فوضعت هذا الفلام وحممت بقتله ، ثم ندمت على ذلك وأنتيتك لتحكم بحكم الله بينى وبينه . وأن عمر رضى الله عنه أمر بذلك مناديا أن يادى فى الناس ، فأقبلوا الى المسجد يهرعون ثم أتى بانه الى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وقال : صدقت المرأة . وأقر أبو شحمة بما قالت . ثم أمر بضربه فضرب سبعمين وهو يستغيث ، ولما بلغ التسعين انقطع كلامه وضعف ، واستمر الضرب حتى إذا كان آخر سوط سقط ميتا ، فجعل عمر يهدر كالبعير ، ويقول : محص الله عنك الخطايا ثم جعل رأسه فى حجره وأخذ يبكي ويقول : بأبى من قتله الحق .. الخ

وهي بطولها قصة مكذوبة ساق حفاظ الاسلام متنها عن شيوخه الديلمى بسنده الى مجاهد عن ابن عباس ، وهم فى ذلك ما بين مطيل ومختصر ، وأبانوا وجه كذبها ووضعها .

ولا يبعد أن يكون الحامل على وضعها صاحب التناء على عمر رضى الله عنه وعذله . ولو ناب الواضع الى رشد ، وعقل سوء عمله لعلم أن الكذب على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرب من الكذب على رسول الله ، وذلك من أكبر الكبائر فى الدين ، وأقطع الحلال عبد جميع المسلمين ، وأن عمر رضى الله عنه غنى بمتركته وعلمه ، وورعه وأخلاقه وجلال أعماله ، عن التعلى بهذه الأقوال المكذوبة .

والذى لفت نظرى الى كتابة هذا الرد على هذه القضية المزعومة ، قراءة بعض المتسقين للمعرفة والفهم لها ، ووقوعها منه الموقع المقبول ، وحله بعض أصحابه على قراءتها والتلذذ بها ، فقلت سبحان الله : إذا خدع بهذه القصة المكذوبة من ينسب للعلم والمعرفة فغيره أجدر وأحرى ! لهذا بادرت بكتابة هذه الكلمة راجيا نشرها على صفحات مجلة الأزهر الغراء ، خدمة للحق ، ووفاء بالمعهد الذى أخذ الله تعالى على خدمة دينه — كيئبينته للناس ولا يكتفونه — وصونا لجلالة قراء مجلتكم الزاهرة أن ينتشر بينهم ما يخالف الحقيقة . والله المسئول أن يتولى هدايتنا أجمعين .

الرد :

قلت : إن حفاظ الاسلام ذكروا هذه القصة ما بين مختصر لها ومطول ، وأبأنوا أنها قصة مكذوبة ، وقضية مزعومة ، لا ينبغي الاعتداد بها ولا يصح نشرها إلا لبيان حقيقتها . وإلى لقارىء نص عباراتهم في ذلك :

قال الحافظ ابن الحوزي ، ووافقه على ذلك الحافظ السيوطي في آليته بعد أن ساق هذا الحديث مطولا : حديث موضوع فيه مجاهيل ، قال الدارقطني : حديث معاهد عن ابن عباس في حديث أبي شحمة ليس لصحيح ، وقد روى من طريق عبد القدوس بن الحجاج عن صفوان عن عمر ، وعبد لقدوس كذاب يفتع ، وصفوان بينه وبين عمر رجال ، والذي ورد في هذا ما ذكره الزبير بن نكار وابن سعد في الطبقات وغيرهما أن عبد الرحمن الأوسط من أولاد عمر ويكنى أبا شحمة كان بمصر غازيا فشرب ليلة نبيذا ففرج إلى السكر فجاء إلى عمرو بن العاص فقال : أقم عني الحد ، فامتنع . فقال له : إني أخبر أبي إذا قدمت عليه . فصر به الحد في داره ولم يخرج . فكتب عمر يومه ويقول : ألا فعلت به ما تفعل بجميع المسلمين ؟ فلما قدم على عمر ضربه ، واتفق أنه مرض فمات أ هـ .

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة ج ٤ ص ١٠٤ : أبو شحمة بن عمر بن الخطاب : جاء في خبر واه أن أباه جلده في الزنا فمات أ هـ .

وقال في ج ٣ ص ٧٧ : ذكر ابن عبد البر أبا شحمة في ترجمة أخيه فقال : هو الذي ضربه عمرو بن العاص في الحر ثم حمله إلى المدينة فصر به أبوه وأدب الوالد ثم مرض فمات بعد شهر . كذا أخرجه معمر بن الزهري عن سالم عن أبيه ، وأما أهل العراق فيقولون إنه مات تحت السياط ، وهو غاط أ هـ .

وقال الحافظ ابن تيمية في تفسير سورة النور : عاش عبد الرحمن بعد حد الشرب مدة ثم مرض ومات ، ولم يمض من ذلك الجلد ، ولا ضربه بعد الموت كما يزعمه الكذابون أ هـ .

وقال الحافظ أبو العرج ابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٣٨ بعد أن ذكر قصة الشرب ولم يذكر قصة الزنا أصلا ، مانعه :

قلت : ولا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر ، وإنما شرب النبيذ متأولا وأن أن ما شرب منه لا يسكر ، فلما خرج به الأمر إلى السكر طلب التطهير بالحد ، وقد كان يكفيه مجرد الندم على التمريط ، غير أنه غضب لله سبحانه على نفسه المفرطة فأسلمها إلى إقامة الحد . وأما كون عمر أعاد الصرب عليه فليس ذلك حداً ، وإنما ضربه غضبا ، وتأديبا ، وإلا فلحد لا يكرر . وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدوا فيه وعادوا ، فتارة يجادلون هذا

الولد مضروبا على شرب الخمر ، وتارة على الزنا (تأمل) ويذكرون كلاما مرققا يبكي العوام لا يجوز أن يصدر من مثل عمر . وقد ذكرت الحديث بطرقه في كتاب الموضوعات ونزهت هذا الكتاب عنه اهـ .

هذا ما عثرنا عليه من نصوص حفاظ الاسلام أثبتناه هنا ، وفيه غنية وكفاية لمن أنصف وتدبر .
 محمود ياسين
 الرئيس الثاني لجمعية الهداية الاسلامية بدمشق

العظمة للنفس لا للجسم

نظر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب الى الأحنف بن قيس وهو في وفد بين يديه وقد التف بمباعدة ، فترك الخليفة الوفد ووجه اليه الخطاب ، فأجابه بكلامه البليغ المصيب ، وذهب فيه مذهبه المحيب ، فلم يزل عنده في القدوة العليا الى أن عقد له من الرئاسة على نعم ما كان له ثابتا الى أن غارق الدنيا .

هذا الرجل الذي قيل فيه : إنه إن غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه دينا غضب ، كان كما قال عبد الملك بن حمير : أصابع الرأس ، متراكب الأسنان ، أشدق مائل الذقن ، نأى الجهة ، حاحظ العينين ، خفيف للمراضين ، أحف ، ولكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه جميع العيوب .

خرج عثمان بن عفان وهو الخليفة الثالث من داره يوما ، فرأى عامر بن عبد قيس على بابه وقد ألقى رأسه بين ركبتيه ، وكان شيخا دحيا ، فأسكره وأسكر مكانه ، فقال له زاريا به : يا أمراؤي أين ربك ؟ قال : بالمرصاد . فيقال إن عثمان لم يفحه أحد غيره .

وقال أبو عبيد البكري في لآله : وكان كُنْزٍ كان لا يبلغ طوله صرورع الابل لقصره ، ولم يمنعه ذلك أن يلحق السكك الأعزل بجزيل شعره ، وجليل أدبه .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

في الطلاق

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :
 صدرت مني الألفاظ الآتية ، وهي : « على الطلاق بالثلاثة لا بأكثر والذي طول حياتي ،
 مع العلم بأنني ماقد المقدم فقط ، ولم أدخل بزوجتي إلى الآن .
 فأرجو إفادتي : هل هذه المبين يمكن ردها ، أولا يمكن ؟ وإذا كان يمكن فبأية طريقة ؟
 محمد صادق

الجواب :

اختلف الفقهاء في مثل هذه المسألة . ومذهب الإمام علي وطاوس وشريح وداود وأصحابه
 عدم وقوع الطلاق ، ولو حصل الخلف عليه . ووافقهم على ذلك كثيرون من فقهاء المذاهب .
 وقد صدر مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ باتباع هذا المذهب .
 ومن المقرر شرعاً أن ولي الأمر إذا أمر بأمر في غير معصية وجبت طاعته ، وتنفيذ أمره .
 وعلى هذا لا يقع الطلاق في هذه الحادثة ولو حاضراً الخالف والدته . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى
 محمد عبد اللطيف العمام

الميراث في الجاهلية والاسلام

وحال الناس منه الآن

نظام توريث المال بين الأقارب من النظم الاسلامية الهامة ، المؤسسة على خير الاسس الصالحة لكل الأزمان ، الموافقة لحاجات الجماعات والبيوت والشعوب ، لأنه تشريع الله الذي يعلم من أمر الخلق ما لا يعلم الخلق من أمر أنفسهم ، فإذا كان قد ران على بعض القلوب جهود حجبها عن الحقيقة ، وحجبت الأبصار غشاوة حالت بينها وبين النور ، ووصلت الى العقائد أثاره من الإلحاد والشك ، بعدت بها عن الرجوع الى حيز الإيمان الثابت واليقين الصادق ، والطريق القويم ، مما أدى الى شيوع روح التمرد من بعض الذين يكن في طبائعهم التمرد والجوهر على الدين ، والى ذبوع البحث في هذه القاعدة الهامة من قواعد الدين الاسلامي بين كثير من المسلمين وغيرهم ، بحثا تعدوا فيه حدود الله ، وخرجوا على ما افترض ، وناقضوا ما وصى به — فأتى أجلو الحقيقة في نظام توريث المال في الجاهلية والاسلام ، لعل أحول بين هذه القلوب وبين الجحود والظلمة والشك والإلحاد :

لقد كان أهل الجاهلية يتوارثون بشيئين : أحدهما النسب ، وثانيهما العهد ، أما توريثهم بالنسب فلم تكن تقتطعه المساواة الحققة بين الذكور والإناث والصغار ، فأنهم ما كانوا يورثون الصغار ولا الإناث ، وإنما كانوا يقصرون الميراث على الرجال الذين يشنون الغارات ، ويقودون المعارك ، ويظفرون بالغنائم والأسلاب . وأما العهد فن ناحيتين : الخلف والتبني . أما الأول فقد كان الرجل في الجاهلية يقول لصاحبه : دى دمك ، وهدى هدمك ، وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك . فإذا تعاهدا على هذا الوجه فأيهما مات قبل صاحبه كان لحي ما اشترط من مال الميت . وأما التبني فأن الرجل منهم كان يتبنى ابن غيره فينسب اليه دون أبيه من النسب ، فإذا مات مدعى البنوة ورثه الابن المتبنى . والتبني نوع من أنواع التعاهد .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن الدعوة للإسلام بين الجاهليين لم يكن نظام الميراث بالشئ الذي يوضع له للتشريع قبل تصحيح العقائد ، وإعداد النفوس ، فترك نظام التوريث على ما كانوا عليه في الجاهلية . ورأى بعض العلماء أنه لا مانع من أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقرم على ذلك ، لقوله تعالى : « ولعل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » ، ولقوله : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » ، إذ المفهوم من الآية الأولى التوارث بالنسب ، ومن الثانية التوارث بالعهد .

وقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم هوراة بين المسلمين الاولين نظاما وقتيا مبنيا على الهجرة والمؤاخاة .

فأما الهجرة فقد كان المهاجر يرث أخاه المهاجر ، على شريطة أن يكون كل منهما مختصا صاحبه بمزيد الخالطة والمخالصة . وأما المؤاخاة فقد كان المتأخيان اللذان يؤاخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يرث أحدهما الآخر .

واستمر الحال على هذا السوال فى الميراث الى أن استشهد سعد بن الربيع رضى الله عنه وترك ابنتين وزوجا وأخا ، فأخذ الأخ المال كله . فجاءت زوجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد ، وإن سعدا قد قتل ، وإن محمها أخذ مالها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارجعى قلعل الله سيقضى فيه » . وبعد فترة من الزمن عادت باكية الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فتزل قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم كذا كمثل حظ الأسنين » ، فان كن نساء فوق اثنتين قلبن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولا يورث لى واحد منهما السدس » الى آخر آيات التوارث . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمها وقال له : أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقى فهو لك . وهذا أول ميراث وقع فى الاسلام . وقضى الله على التوارث بالثنى بقوله جل شأنه : « ادعوم لأبائهم هو أقسط عند الله » ، فان لم تعلموا آبائهم فاعخوانكم فى الدين وموالىكم » . وأبطل التوارث بالهجرة والمؤاخاة أيضا بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تعملوا الى أوليائكم معروفا » ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا . بهذه الآيات بطل نظام التوارث فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وقام النظام الجديد مقامه ، وهو المعمول به بين المسلمين الى اليوم .

وصية الله ووجوب تنفيذها :

فنظام توريث المال بين الأقارب كما قلنا أعدل نظام وأحكم دستور ، لأنه من صنع خالق البشر ، والمسيطر على القوى والقدر ، والعليم بحاجات الأسر ، وما يتركز فيها من عناصر النفع والضرر ، ولذا فقد صدره الله بكلمة الوصية فقال جل شأنه : « يوصيكم الله فى أولادكم » الآية ، وختم هذه الوصية بقوله : « تلك حدود الله » ، ومن بطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتمدد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين . وفى هذا بيان للناس أن التمرد على هذا النظام ، والخروج على قوانينه ، تمرد على المشرع الأعظم ، وخروج على وصيته التى دأب بها الآباء نحو أبنائهم ، وفرضها على أولى الأرحام بعضهم نحو بعض .

النسا كون في هذا النظام مع المادون :

ليس من شك في أن الذي يمتل هذا القانون إنما يتعدى حدود الله التي حدها ، ويخرج على شريعته التي اشترعها ، سواء أكان أبا أو ابنا ، فالآباء الذين يحبسون أموالهم على آبائهم الذكور ، والابناء الذين يحملون آباءهم على حبس المال عليهم ، خارجون على وصية الله ، معطلون لأحكامه .

الاسلام أنصف المرأة في الميراث :

يخطئ كثيرا أولئك الذين ينقمون من الاسلام حكمه بين الرجل والمرأة في الميراث ، ولو تجردوا من تعصبهم وراموا الاقتناع والخضوع للحق ، لايقنوا أن الاسلام أكرم المرأة بهذا التشريع وأغدق عليها من الفضل ما تستحقه ، يقول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أفقوا من أموالهم » ، هذه القواماة التي للرجال على النساء إنما راعى فيها الشارع أصل الطبيعة البشرية ، فإن الرجل أكل من المرأة في الصفات الخلقية والعقلية ، وأصلح منها للاضطلاع بالوظائف العامة ، وأقبل منها على البذل في المشروعات الكبيرة والمرافق الهامة ، وأقدر منها على تحشم المشاق في سبيل إسماع أسرته وأمنه . ونصيب المرأة من الميراث سبيله الادخار والجمع ، ونصيب الرجل موزع على زوجته وأولاده ، فالرجل مكلف بالمرأة وليست المرأة مكلفة بالرجل ، فإذا جعل الاسلام نصيبها على النصف منه فقد أكرمها وساعدها ، ورفق بها وأسمدها .

عدل الاسلام في الميراث يتجلى في حظره المفاضلة والمحاباة فيه ، كما يؤخذ من الأحاديث الصحيحة المأثورة من صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم .

١ — فمن النعمان بن بشير قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

٢ — وعن جابر قال : قالت امرأة بشير : انحل ابني غلاما وأشهدني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلاما . فقال النبي : له إخوة ؟ قال نعم ، قال : فكلمهم أعطيت مثل ما أعطيتهم ؟ قال بشير : لا . قال : فليس يفلح هذا وإني لا أشهد الا على حق » رواه أحمد ومسلم وأبو داود . ورواه أبو داود من حديث النعمان بن بشير ، قال فيه : « لا تشهدني على جور ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم »

انقسم أولو الرأي في النظر الى هذه الأحاديث وفهمها وتحرى وجه الحق فيها إلى قسمين : يجوزون للمفاضل ، وما نعين له ، أما المجوزون فقد سلكوا مسالك في التأويل والتخريج سدها

المانعون عليهم بما أوضح الحق، وبين المعالم، وترجم عن الروح الحقيقي الذي قصد اليه الشارع، وقضى فيه بالنصر والظفر والسلامة من الضعف والتعصب.

طنبان المادة على العقيدة في هذا المصير قد ولد حالة اجتماعية يذكرها الاسلام :

إن الذين تحرروا من قيود التعصب المذهبي أو الطائفي أو الجنسي من العلماء والباحثين، ليعتقدون عن حق لأمرية فيه أن الترفيات المادية التي تمت في هذا العهد الأخير قد زجت بالناس في حالة من الشذوذ والانحراف، واخرجوا على العقائد ومقومات الاخلاق، تجعلهم عرضة للفوضى الطاغية، وقذفت بهم الى مصابي من التراحم والتناحر لا تتفق وشرف الانسانية، ولا المدنية الفاضلة، هذه الحالة الشاذة التي خلقها التنازع على المال قد طالجها الاسلام بنظامه المالي القيم، لجعل أمتة متكافلة متعاونة في الاستفادة والافادة من الثروة العامة، وسن للوراثة قسمة عادلة لا يستطيع المنمردون على الدين أن يحدوا فيها عوجا ولا حيفا.

على أن الاسلام لم يعتبر المال كل شيء في الحياة، ولم يجعله الثمرة الشبهية، والنتيجة الطبية لهذه الحياة، بل إنه نظر اليه كقوام للحياة يدور به دولابها، ويتقدم به سيرها، وينال به ما فيها من منافع وعرض، وآمال ورفائب ومطالب، ولكن الاسلام جعل العقيدة والعمل الصالح الجواز الذي يوصل الى السعادة الحقيقية، والخلق الكريم العامل المهم في الدنيا والآخرة. ولما كان مجال التورث يمكن أن يتسرب منه شر مستطير، وضع الاسلام له نظاما محكما وحظر على أهله تمديه، فالذين يحبسون أموالهم على بعض أولادهم، والذين يستكثبون آباءهم في الأيام الأخيرة لم يستأثروا بأموالهم، أو يزوروا عليهم وثائق، أو يطمعوا في أحوالهم يعمنونهم النصب الذي قدره الله لهم، إنعام خارجون على وصية الله وحكم الله في الأموال، مسيئون الى الانسانية، مقطعون أرحامها، عادون على قوانينها ونظمها، راجعون بها الى جهود البداة والغارات، هادمون لدعائم المجتمع، لما يترتب على ذلك من حقد القلوب، وحنق الصدور، وتقطيع صلوات المودة والقربى، وشيوع العداء بين الأمر والجماعات.

ولقد بين القرآن الكريم أن إينار يعقوب عليه السلام ليوسف بالحلب والحنان، قد دفع إحوه يوسف عليه السلام الى الجرأة على أبيهم وعقوقه حتى قالوا: «إن أبانا لفي ضلال مبين»، وديروا القتل لأخيه، فكيف بالتفصيل المادى في أمة ملكها حب المال، وجعلت إلهها هوأها، وأسرفت في المتاع والشهوات؟

وكذلك فإن الدولة الاسلامية الأولى، وحياتها الاجتماعية، وما قام عليه الناس على عهدها من المثل العليا والسمو الروحي وما جبلت عليه قومهم، وامتلات به قلوبهم من الانسانية الرشيدة المعرضة عن لئام الجسد، ومطامع النفس، وزخارف الدنيا، وسواوس الشيطان، كل ذلك

ليقوم دليلاً على أن الأمة الإسلامية الأولى ، ورائدها كتاب الله وشرع رسوله ، لم تعبد المال كما يعبد أهل هذا العصر ، بل قصرت عبادتها على الله ، ولم تحكم بالمال كما يحكم به أهل هذا الجيل ، بل حكمت بكتاب الله ، ولم تشرع لأنفسها تباً لها كما يشرع أهل هذا العهد لأنفسهم ، بل ارتضت وأذعنت وصدقت بشرع الله ، ولذلك مكن الله لها في الأرض ، وسلّم لها كل عناصر الحياة وأساليبها ، وارتبطت كلها برباط واحد هو حب الله تعالى .

على أننا وقد أذن الله لمشيخة الإسلام أن يلها إمام مصلح صادق الإيمان هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، تؤمل كثيراً أن يسترجع الإسلام صالفاً لهذه ، ويصل إلى سابق مجده ، ويكون الحكم بين الناس كتاب الله وسنة رسوله ، مما يكفل لأصول الدين الإسلامي التمسك والتدبوع ، ولنظمه الأذمان والقبول والرضا ، ويقف من أوتوا المال عند قسمة الله له ، ونظامه في توزيعه ، ووجوب التعديل بين أصحاب الحقوق فيه ؟

محمد مصطفى صادق

حد الجود والبخل

قال الحكماء : حد الجود أن يبذل الرجل ماله حيث يحب البذل ، ويحفظه حيث يمكن الحفظ . ومن بذل مكان الامساك فهو مبذر ، ومن أمسك مكان البذل فهو بخيل . وقالوا : من الحزم أن تعلم أن مالك لا يسع الناس كلهم ، فتوَّخَّ به أهل الحق عليك ، وأن كرامتك لا تسع المتقلين ، فاخصم بها أهل الفصل والمروءة ، ومن غمه الحاجة إليك . والاعطاء بعد المنع ، أجل من المنع بعد الإعطاء .

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا تجبد بالاعطاء في غير حق	ليس في منع غير ذي الحق بخل
إنما الجود أن تحمود على من	هو لبذل منك والجود أهل

وقال شاعر غيره :

لمرك ما المعروف في غير أهله	وفي أهله إلا كبعض الودائع
فمتودع صاع الذي كان عنده	ومتودع ما عنده غير صائع
ومائتاس في كفر الأيادي وشكرها	إلى أهلها إلا كبعض المزارع
فزرعة أجدت فأضعف زرعها	ومزرعة أكدت على كل زارع

مشاهداتنا في الهند

دائرة المعارف بحيدرآباد

الحضرة صاحب السمو العالي نظام حيدرآباد الحكيم ضاية عظمى وجهود موفقة في ترقية شئون بلاده وإعلاء شأن أمته بين الأمم الهندية في جميع مرافق الحياة : من عمرانية ، واقتصادية ، وثقافية ، وغيرها . وللناحية العلمية والدينية أكبر قسط من توجيه ضايته . وقد تجلّى ذلك فيما أنشأه من الجامعة العثمانية الكبرى التي ضمت بين جنباتها الكليات المتعددة من طبية وهندسية ودينية وغيرها ، وقد أنشأ بها قسماً للترجمة نقل الكثير من أمهات الكتب العلمية العظيمة النفع ، من الإنجليزية وفرنسية وفارسية وغيرها ، الى لغة البلاد اللغة الاوردية ، مراعاة للحكمة القائلة : إن تعليم العلم بلغة الامة معناه نقل العلم الى الامة ، وتعليمه لغة أخرى معناه نقل الامة الى العلم . وواضح أن الفائدة في الطريقة الاولى أعم وأجدي ، بينما الثانية تعاقب فيها الامة من التخبيل والتذبذب بين قديعها وبين ما يراود تقلها إليه صعوبات لا حد لها ، والفائدة مع ذلك تكون ضعيفة مقتصرة على فئة قليلة منها ، ولا سيما إذا كانت العلوم التي يراود بها في الامة مقسمة بين لغات شتى ، حيث يتعذر نقل الامة الى عدة أمم . لذلك كان لإنشاء علم الترجمة بالجامعة العثمانية بحيدرآباد فائدة أي فائدة .

ومع عنايته بنقل العلوم الكونية الى لغة بلاده ، قد وجه اهتماماً عظيماً الى ترقية الشئون الدينية ، وأعطى علوم الدين أكبر قسط من التقدير . ولما رأى أن علوم الدين قد تركزت في اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأن اللغة العربية مفتاح لكنوز عظمة من التراث العلمي الذي خلفه المصدر الاول من الاسلام والقرون التي تليه ، اتجه انجاسها خاصاً نحو إحياء اللغة العربية ، وشجع المشتغلين بها بكل أنواع التشجيع ، وأرسل الى مصر نخبة من نجباء الطلاب ، فدرسوا بالازهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وعادوا الى بلادهم بعد إتمام دراستهم هنا ، يساهمون في إحياء اللغة العربية والعلوم الدينية بحيدرآباد .

ولقد شهدنا ونحن هناك أن انتشار اللغة العربية وفصاحة الدلق بها بحيدرآباد يفوقان ذلك في الأنطار الهندية الأخرى .

ومن المآثر التي امتازت بها حيدرآباد منشأة دائرة المعارف التي تقوم بإحياء أمهات الكتب النافعة الجليلة في الحديث والرجال وعلوم الآداب واللغة وغيرها ، تنقب عنها في مختلف دور الكتب ، ومتى ظفرت بكتاب قيم أحضرت منه نسخة وعرضته على أمهاتها يهجمونه ويدرسونه ، حتى إذا استقر الرأي على عظم نفعه وجدارته بالشر ، جدوا في البحث والاستقصاء

في مكاتب الأنظار المختلفة حتى يثروا على نسخة منه أو عدة نسخ ، ليحكموا أمرهم في التصحيح والتحري ، ويخرجوه على أصح ما يتيسر له الا مكان ، ثم طمعه ووزعه على الديار الاسلامية بأثمان لا تزيد كثيرا على تكاليف طبعه ، ينتفون بذلك توسعة أفق العلم الديني والعربي . ومما النظام من ورائهم يشد أزرهم ويمينهم بما يحتاجون إليه . فهي من هذه الناحية تشبه دار الكتب المصرية في انتقامها الكتب الأدبية والدينية النافعة وطبعها ، تعميا للثقافة وتوسعة لدائرة العلم . ولقد شهدنا من عنايتها بكتب الحديث والرجال ما يستحق كل إعجاب .

ولرجال دائرة المعارف مكانة محترمة في نظر ممو النظام وبين الدوائر العلمية في الهند ، وفي العالم الاسلامي . ولهم ولع شديد بقتمية أواخر المودة بينهم وبين الهيئات العلمية في معظم البلاد الاسلامية .

ولقد كان من أثر ذلك أنه عند ما وصل إليهم نبأ زيارة البعثة الأزهرية للهند أخذوا يرسلونها مستفسرين عن موعد زيارتها لحيدرآباد ، ليرتبوا حفلات استقبالها ويعدوا برنامجا وما يلقي فيه من قصائد وخطب ترحيب ، وبخاصة شرح الجهود العلمية التي يقومون بها ، علما منهم أن هذا العمل الأخير هو أعظم ما يحكم العلاقة بينهم وبين البعثة الأزهرية . ولما وصلنا الى حيدرآباد كان أول حفلة لاستقبالنا هي حفلة دائرة المعارف تحت رئاسة حضرة صاحب الدولة أكبر حيدري رئيس وزرائها . وقد تفضل بممو النظام فارسل نطقا ساميا تلاه باسمه حضرة صاحب المعالي وزير المعارف يشرح فيه عناية بممو بترقية الشئون العلمية ممثلا في هذه الدائرة ، وكأن بممو حفظه الله أراد أن يبالغ في تكريم البعثة فلم يجد أحب إليها من شرح عنايته العظمى بالعلوم الدينية ونشر أنوارها ، فاعتبرت البعثة ذلك من أعظم صنوف التكريم وأجلها مفزى .

ولقد وردت علينا نسخة من النطق السامي ، وتريبه نشره فيما يلي .

ترجمة البلاغ السلطاني :

الى جمعية دائرة المعارف والعلماء والمستشرقين لصاحب الجلالة سلطان العلوم مير عثمان على خان نظام الملك آمهجاه السابع ملك الدولة الآصفية ، خلد الله ملكه وسلطانه .

عرض على أعتابنا المنية أن نبعث بمناسبة الترحيب بالبعثة الأزهرية بكلمة نافعة يذكرها تاريخ العصر الحاضر بطسان التضر :

علماء الأزهر يشاهدون دائرة المعارف إحدى المؤسسات العلمية القديمة في مملكتنا ، ذاع صيتها العلمي والأدبي في مشارق الأرض ومقاربها ، وشيدت مطبوعاتها النافعة وتحقيقاتها الجديدة بناء عليها لمملكتنا شاهقا .

فتقدر هذه الخدمات العلمية حق قدرها، ونجعل خزان الكتب والعلماء والمؤلفين الهذين
أفادوا دائرة المعارف بنفائس مكنوناتهم، وتدعو الله أن تقمع جمعية دائرة المعارف مجال أعمالها
العلمية في المستقبل، رامية إلى مقاصد طالية وفائات سامية، وكذلك تنظر بعين الاستحسان إلى
مسائر الإدارات العلمية المؤسسة في الهند والملاذ الأخرى لأحياء العلوم والفنون، لأن نشر
العلوم والمعارف من أهم ما جعلناه نصب أعيننا .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ألقاها صاحب المعالي وزير المعارف والسياسة الثواب مهدي يارجنك بهادر بالنيابة من
جسالاته في مؤتمر الدائرة المنعقد في ٢٤ من شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٥ هـ الموافق ٨ مارس
سنة ١٩٣٧ م احتفالاً بالبعثة الأزهرية

ابراهيم الجبالي

عزة النفس مع الحاجة

قال محمد بن الحنفية (هو ابن علي بن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء) : « ما كرمتم
على عبد نفسه إلا هانت عليه الدنيا » .

تقول : هذه كلمة نافعة ، فإن في كثير من الأحوال قد لا يصل الإنسان إلى مرغوبه إلا
بالقساح في كرامته ، والتذرع بالملق والتفاق وما اليها . فإذا كانت نفسه كريمة أثبت عليه أن
يشترى أعراض الدنيا بتدليس نفسه بهذه الصفات ، فيدعها راضياً بما هو فيه من الخول
وشطف العيش متمتلاً بقول الشاعر :

الحر حر عزيز النفس حيث نوى كالشمس في أي برج ذات أنوار

وهذا البيت في تصويره الواقع ، مكانه من الإبداع مستوى الحكمة السابقة ، فقد شبه
النفس الخافلة بالفضائل ، انثريه في العلم ، بالشمس المشرقة ، فكما لا يضير الشمس أن تكون في أي
برج من السماء ، كذلك لا يضير الإنسان عزيز النفس أن يكون في أية طبقة من طبقات
الهيئة الاجتماعية .

وقال شاعر وقد أجاد :

لا أستعين بأخواني على الزمن	ولا أرى حساً ما ليس بالحسن
ذل السؤال وذل الشكر ما اجتماعاً	إلا أضرا بماء الوجه والبدن
له الشراء ولي عرض أوفره	عنه ويقنعى قوت يباغنى

الحمامة قديما وحديثا

أول من أحيا طرائقها من الأمم — تطورها في الأمة اليونانية
نجاحها في الجمهورية الرومانية — تقاليد وأخلاق — أثرها في المجتمع الانساني

مقدمة وتمهيد :

يقترن حق الدفاع عن النفس والغير بأول حلقة من حلقات هذا الوجود للانسان .
فالانسان مفعول على حب الخصامة والمجادلة تطبيقا لقوله سبحانه عز من قائل : « وكان الانسان
أكثر شيء جدلا » . ولقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « رب إني قتلت منهم نفسا
فأخاف أن يقتلون ، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي رداه يصدقني إني أخاف
أن يكذبون » .

كان الناس في بدء الخليقة يتقاضون بأنفسهم مستعينين أحيانا بأصدقائهم وذوي قرابهم ،
فكان الخصم يحاط بأهل وده وأقربائه ، ويتراخون عنه بالنماقب تبعاً لاتفاق القاضي معهم
على الطريقة الواجبة الانباع في مثل هذا الدفاع .

ثم تطور الأمر تطورا بمثل عليه ملائسات كل جيل ودعت اليه مقتضيات كل عصر .
فكان لليهود في زمن موسى عليه السلام رجال يفتخون بما يشبه حرفة الحمامة اليوم أمام
القضاء . وأظهر ظاهرة في عصرهم حل المشاكل التي كانت تقوم عليها الخصومات بين الناس
وفض ما بينهم من منازعات . وكانوا في حملهم هذا لا يتقاضون ممن يدافعون عنه أجرا لأن
حكومة ذلك العصر كانت قد جعلت لهم جمالة يتقاضونها من بيت المال على اعتبار أنهم
عنصر قوى في السلطة القضائية . فقد كان القضاء يفتخبون من بينهم بعد أن يمضى على الواحد
منهم زمن يكفى لتكوين أهلية قضائية فيه ، وقد وجد عند المصريين والهنود والكلدانيين
والفرس وأهل بابل رجال من أهل العلم والدكاء يلجأ الناس اليهم في المشورة القضائية ، فكانوا
أعلام تلك البلاد ومنارها إذا سميت السبل على الناس .

كان فيهم الخطيب القوي يجلب الالباب بسحر بيانه ، وفيهم البليغ الذي يدخل كلامه
على القلوب بلا استئذان . وقد ظل الحال كذلك في تلك الأمم حتى اخترع الفينيقيون فن
الكتابة لتكون أداة للتخاطب وسبيلا الى التفاهم .

فكان بدهيا أن يججروا على أولئك الرجال من هذا الصنف الرشيد أن يترافعوا
في الخصومات في ساحة القضاء إلا بالكتابة . وههنا ذلك الحجر أنهم خشوا أن المترافع يحتجب

ألباب القضاة بسلامة منطقته وقوة بيبانه ، وانساق حبيته وبرهانه ، وجهورية صوته واتزانته ، حتى أن البعض كان يذرف الدموع سخية ويرسل الصوت متهدداً إذا عن له أن يأخذ على القاضي سبيل تكفيره ، إرادة أن يوجهه في سبيله ، وأن يقبده بذلك المؤثرات التي قد لا يجيد القاضي فهمها مقرا ولا حولا . ولما كانت الكتابة قد لا تنهياً أسبابها لكثير من الناس وكان في البلاد حاميون وأنصاف حاميين وأنصاف الانصاف ، أوجبت الضرورة الملحة أن كل من يجهل القراءة والكتابة يستعين بمن يجيدها ويحدثها . ثم انتقل هذا الفن بعد ذلك من المصريين إلى اليونانيين ، فأزهر فيها كما أزهرت جميع فروع العلم ، فانه ما من دولة تبغ فيها العدد الكثير من الفلاسفة والحكام المشترعين مثل الذين نبغوا في دولة اليونان .

وقد بلغت التشريعات المسنونة لديهم مبلغاً حفز الجمهورية الرومانية في ذلك العهد إلى أن تبعث من لديها بعوثاً إلى البلاد اليونانية لتقتبس منها هذه الأنظمة وتلك القوانين في مختلف مرافق الحياة العامة ، لتستفيد بأسسها وطرائق تفننها في وضع قوانينها ، وكانت الفصاحة مهمة عند سواد الأمم ، فعنى بها اليونان وأضحت ذات أصول وقواعد ورواد في مختلف أنحاء البلاد لا تتأثر إلا بالتقليد ، ولا تعرف حدودها ورسومها إلا بالمدرسة والعلم . وغدت لهم أستاذة يرزوا فيها وبزوا قرنائهم في الأمم الأخرى ، واتخذوا الخطابة منابر يرقون إليها ، ثم يتساحلون فيها بينهم الكلام والحجة ، ويتقارضون أبدع الأساليب وأملكها للقلوب وأفعلمها بالنفوس . ودرج المخصوص على أن يستعينوا أمام محكمة تلك المدينة العظمى وسائر المحاكم المنبثة في أنحاء البلاد ببعض مشاهير الخطباء ليؤدوا بهؤلاء حججهم في ادعائهم ودفاعهم .

وقد بدأ هؤلاء الخطباء المحامون في ساحة التقاضي عملهم بإلقاء الخطب بأنفسهم أمام المحاكم ، وكان الغرض من ذلك أن يستولوا على مشاعر القضاة بمد أن يكونوا قد مهدوا الموضوع خصومتهم بذلك المقدمة الرائعة التي تمسك بمشاعر القاضي وتوجهه توجيهها خاصاً . وأحياناً يقف القاضي من إبداء رأيه إذا كان في القضية خطيبان متناظران في القوة والدليل ، فهو يسمى حاراً بين طفيان موجتين متقابلتين يجحد الباطل بينهما مدى فصيحا وأملا رجيعاً . هكذا كان الخطباء الكبار من المحامين ، والأساتذة المشتهرون (ينمستوكل وبركليس وأرستين) . كذلك كان أول من كتب مرافعة موكله لينلواها ذلك الموكل بنفسه هو الأستاذ (أنطيفون) وتبعه في ذلك الأستاذ ليزيلس وإزوكرات وديموستين ، وهذا لا ينبغي أن يكون هؤلاء أيضاً خطب بليغة جداً يلقيونها بأنفسهم في معرض الدفاع عن موكلهم ، وقد جمعوا بين فن الخطابة والكتابة . وقد اشتهر الأخيران وهما الأستاذ (إزوكرات وديموستين) شهرة مستفيضة . غير أنهما مع الأسف البائس لم ينجوا من ملام للآعين على ما اقترفا في صميم مهنتهما ، فكثيراً ما حوكم (إزوكرات) أمام المحاكم التأديبية في اليونان على مخالفته لقوانين شرف المهنة . وكان أظهر تلك

المخالفات أن الحكومة عثرت على وسائل كتبها الى بعض موكليه يشير عليهم فيها أن يتخذوا وسائل غير شريفة في الاتصاف على خصومهم ، وأولى تلك الوسائل أخذ الخصوم غيلة ، فلما تتابعت عليه الأحداث وتكشفت للناس أساليبهم المتنوية وكثرت حيلة في كسب القضايا ، امتنع عن مزاوله صناعة المهامة ، واثر أن يقيم في بيته . وأما زميله الأستاذ (ديموستين) فانهم لأموه أشد الملام ، وانتصفوا منه لعدالة أبلغ انتصاف ، حين أخفوا عليه أن كتب دفاعين لخصمين في قضية واحدة .

هذا وسنوالى لخصرات القراء ايراد سطر غير يسير عن تاريخ المهامة وكرامتها وشرفها منذ التقدم حتى الآن ، لنصل حلقة الماضي بحلقة الحاضر استتماما لأجل القوائد ، واستجماعا لأنبل الشوارد ، وخدمة لعدالة والمصلحة والقانون . فالى الغد القريب ؟ « يتبع »

عيسى طه
الحامى الشرعى

كسب المال وبذله

أوصى قيس بن معد يكرب بنيه فقال : يا بني عليكم بهذا المال فاطلوه أجمل الطلب ، ثم أخرجوه فى أجمل مذهب ، فصلوا به الارحام ، واسطنوا به الكرام ، واجملوه جنة لا هراضكم ، ووسيلة تصلون بها الى أغراضكم ، تحسن فى الناس مقاتلكم ، فان بذله تمام الشرف ، وثبات المروءة ، وإنه ليسود غير السيد ، ويقوى غير الأيد ، حتى يكون فى الناس نبلا ، وفى القلوب مهيبا جليلا .

وقال محمود الوراق الشاعر :

كمنع بمالك قبل الممان	والأفلام مال إن أنت منا
شقيت به ثم خلفته	لغيرك ، سعقا وبعدا ومقنا
يجود عليك بزور البكاء	وجدت له بالذى قد جمعنا
وأوهبته كل ما فى يدك	وخلاك رهنا بما قد كتبنا

وقال أبو الطيب المتنبي :

وأحسن شيء فى الورى وجه محسن	وأعس كف فيهم كف منعم
وأشرفهم من كان أشرف حمة	وأعظم إقداما على كل معظم
لمن نطلب الدنيا إذا لم ترد بها	سرور محب أو إساءة مجرم

تقرير بعثة الهند

— ٧ —

المنبوذون

إذا لمس جسم رجل من هندوس الطبقات العليا، أو لمست ملابسه، جسم رجل من المنبوذين أو ملابسه، أصبح جسم الهندوسي نجساً وكذلك ملابسه، ووجب عليه أن يطهرها جيماً، وأن يقتل هو، بل يجب عليه في بعض الأحيان أن يذهب إلى حمام معترف به، على شاطئ الكنج المقدس، فيقتل رسمياً وفقاً للتقاليد.

ومن المنبوذين طبقة لا يجوز الاقتراب منها، كما يجب عليهم أن يبتعدوا بأنفسهم عن هندوس الطبقات العليا مسافة محدودة (عشر ياردات أو أكثر) حتى لا تلوث أنفاسهم الهواء الذي تستنشقه الطبقات العليا، وحتى لا يلمس الهواء الملوث بملابس المنبوذين، ملابس الطبقات العليا فياوتها، فإذا خرج منبوذ من هذه الطبقة عن هذه العادات، واقترب من هندوسي من الطبقات العليا، فإنه يلوّثه، ويماقب المنبوذ على ما فعل عقاباً قد يكون صارماً. ويوجد هذا الصف من المنبوذين في جوبى الهند غالباً، والواقع أن المنبوذين يكثر في الجنوب، ويقلون نسبياً في الشمال، كما تختلف القسوة في المعاملة، فتزيد في الجنوب، وتتناقص في الشمال.

لماذا احتمل المنبوذون هذا المصنف ؟

ظل المنبوذون يعانون هذا النوع من المعاملة المجحفة عصوراً لا تحصى، وقد كان من أثر مبادئ « مانو » أن سار هندوس الطبقات العليا وفق تعاليم دينهم، فعاملوا المنبوذين باحتقار، واعتبروهم أنجاساً، ونحاشوا الاتصال بهم وقد شاعت مبادئ مانو كذلك. ألا يتعلم المنبوذون، وأن يطاولوا على جهاتهم الأدبية، حتى لا تنطرق إلى بيئتهم اليقظة التي تدهوم إلى النزوع لتحسين حالهم، كما فرض مانو مجموعة من العقوبات القاسية على كل منبوذ يحاول أن يسل قسطاً من التعليم، وتفضي مبادئه أيضاً بأن يصب الرصاص المصهور في أذن المنبوذ الذي يسمع — ولو من غير قصد — نصوص « الفيدا » وهي تنلى.

يظهر من ذلك أن الفكرة كانت متجذرة إلى اعتبار « الفيدا » كتاباً بلغ من قدسيته أن أصبح مجرد استماع المنبوذ لتلاوته إهانة للكتاب نفسه، لا يجوزها إلا صارم العقاب.

ولكن النية الحقيقية كانت تنطوي على أن يظل المنبوذون في جهل مطابق وأمية لا يخرج منها . على أن الجاهل قد يستطيع في وقت من الأوقات أن يظم ثورة ، ولذلك كان من الضروري أن تبتكر أساليب أخرى لإخضاع المنبوذين ؛ فابتكر البراهمة مبدأ تناسخ الأرواح ، فدفعوا الناس بذلك إلى الاعتقاد بأنهم ما ولدوا أغنياء أو فقراء ينتمون إلى بيتات عليا أو دنيا ، إلا جزاء وثاقا لما كانوا عليه في الحياة التناسخية السابقة ، من خير أو شر ؛ وخير لرجل الذي يعيش اليوم — بدلا من أن يحسد صاحب مال أو جاه ، أو أن يحقد عليه — أن يتحمل المصاعب والامتهان بصبر وجسده ، وأن يحاول أن يعيش عيشة راضية ، فوامها الاستقامة والاستسلام ، عسى أن يولد مرة جديدة في مستوى أحسن من مستواه الحالي .

وخلاصة القول أن المنبوذين قد قموا بحظهم من الحياة للأسباب الآتية :

١ — حالة الفقر المدقع الذي يمانون ويلاته ؛ والفقر أكبر عامل على العجز .

٢ — الجهالة اللانهاية التي يعيشون في كنفها .

٣ — اعتقادهم بتناسخ الأرواح .

٤ — شهورهم بالخنوع ، وجنوحهم إلى الاستسلام .

وقد ظل المنبوذون على هذه الحال ، إلى أن دخل المسلمون الهند فاتحين .

المنبوذون في خلال الحكم الاسلامي :

إن لاعتناق الدين الاسلامي ، وحمود المسلمين في هذه السبيل بالتبليغ ، قصة قائمة بذاتها ؛ فمن المعتقد أن أول من أسلموا في تلك البلاد كانوا معاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام ؛ وتروى في (مالابار) قصة قديمة جدا ، تذهب إلى أن أحد ملوك الهند (راجا مالابار) قد شاهد معجزة شق القمر ، وأنه بدأ يتساءل عن سر تلك الظاهرة ؛ فقال له الفلكيون في بلاطه : « إن شخصية عظيمة قد ظهرت في جزيرة العرب ، وإني قد أدت بالمعجزات » ؛ وقد أيد أقوال هؤلاء الفلكيين تجار من العرب ، كانوا يترددون على الشواطئ الجنوبية من الهند للتجارة . كما تذهب القصة إلى أن الراجا أرسل بعض من يثق بهم إلى بلاد العرب لينتقصوا صحة النبأ ، فذهب هؤلاء إلى الجزيرة ومثلوا بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم مادوا فقصوا على الراجا ما حدث ، فاعتنق دين الاسلام .

كما تذهب قصة أخرى إلى أن بعض التابعين — رضوان الله عليهم أجمعين — وفدوا على (مالابار) فأسلم على يديهم حم فقير ، ومن هؤلاء التابعين مالك بن دينار ، وحبيب بن دينار . وسواء أصبحت قصة من هاتين القصتين أم لم تصح ، فما لا شك فيه أن المبشرين من المسلمين قد ظهر نشاطهم الاسلامي في بلاد الهند منذ أقدم المصور ، وقبل أن يقوم المسلمون بفتح البلاد

بالسيف . وإن دخول الهند في دين الله أفواجا ، يعتبر من أقدم الأمور في تلك البلاد . وكل ما يعكس أن يقال إن سرعة دخول الناس في ذلك الدين ، قد تفاوتت بين زمن وآخر ، ولكن مما لا شك فيه أنها لم تقف في يوم من الأيام .

وقد قام بالدعوة للإسلام على مر الأرمة مشايخ الطرق ، والصوفيون . وفي مئات من الأمكنة المختلفة في الهند ، لا تزال مقابر هؤلاء قائمة ، تشهد بما أبلوا في سبيل الإسلام ، ولا يزال الهنديون يحتفلون بموالدهم .

وقد كان دخول الناس في دين الله في بعض الأمكنة ، بحيث إن قبائل بأكلها كانت هندوسية فاعتنقت الإسلام ؛ ولا تكاد نجد اليوم واحدا من رجال هذه القبائل على ديانة أجداده الأول من الهندوس .

أما القبائل الهندوسية الأخرى ، فقد أسلم منها البعض ، وبقي البعض الآخر على ديانته القديمة . ولم تقتصر « عملية الإسلام » على طبقة من الهندوس دون طبقة أخرى ، بل شمت جميع الطبقات من البراهما إلى السودا .

وبعجود أن أسلم هؤلاء ، وكانوا منبوذين في الديانة الهندوسية ، ارتقوا إلى مرتبة غيرهم من المسلمين على قدم المساواة ، بحيث لا يستطيع اليوم أحد أن يميز بينهم وبين غيرهم ، بل إن كثيرا منهم يدعون اليوم أن أجدادهم جاءوا من بلاد العرب فزحين أو فائحين ؛ ولا ينمض مسلم كائنا من كان إلى تقضى هذه الدعوى .

وثمة أمر واحد لا شك فيه ، هو أن المسلمين لم يحاولوا قبل العصر الحديث ، أن يدخلوا المبوذنين خصيصا في الإسلام ؛ ولو عتوا بذلك في وقت من الأوقات ، لأسلم المبوذون كافة منذ أجيال .

بعضات التبشير المسيحية :

وفد المبشرون المسيحيون على الهند ، قبل أن تتخذ الدول الاستعمارية أية خطوة في سبيل الحصول على نفوذ سياسي ، ففي عصر الأمبراطور المغولي « جلال الدين أكبر » (١٥٥٦ — ١٦٠٥) ، تشرفت بعثة تبشيرية مسيحية بحضور حفلة البلاط . وقد اهتم الملك أكبر خان بالإنجيل ، وأمر بترجمته إلى الفارسية ، وتزوج زوجا مسيحية ، بنى لها كنيسة بالقرب من حاصمة ملكه في أجرا ، ولا تزال الكنيسة قائمة إلى الآن بالقرب من مقبرة الامراتور في سكندرا . حدث بعد ذلك أن وفد على الهند كثير من الأوروبيين للتجارة ، واستوطنوا كثيرا من الأمكنة فيها ، فوجد المبشرون الفرصة سانحة ، وهدوا يوطنون أنفسهم على الإقامة ، ثم مالبت صوالم الأوروبيين الاقتصادية أن تلاطمت ، فتحوالت إلى مسارك سياسية ، فانهدمت سياسة

الهلنديين رأساً على عقب ، وانسحب البرتغاليون من الميدان ، ولم يفوزوا إلا بمستعمرة صغيرة على الساحل بالقرب من (جوا) . أما المعركة السياسية بين الانجليز والفرنسيين فقد ظلت قائمة زمناً طويلاً ، استطاع البريطانيون في نهايته إجلاء الفرنسيين بعد نزاع دموي طويل ، فتموا بعده مضطرين بركة من الأرض على ساحل خليج بنغال (بندشيرى) ، وبشر صغير اسمه (ماهو) على ساحل (مالابار) في الجنوب الغربي ؛ وبذلك آلت هذه البلاد الشاسعة الأماراف الى البريطانيين .

وبينا كانت الدول جادة في إحراز النفوذ السياسى ، كان المبشرون يمكنون لأنفسهم في مختلف بلاد الهند ، فأبشروا المدارس والكليات والمستشفيات ، وبنوا الكنائس ، وأصبوا مرا كز للتبشير ، وتوجهوا الانجيل الى معظم لغات الهند ، ووزعوا الملايين من نسخة ، فكانوا واسطة الثقافة لمئات الألوف من الوطنيين رجاء أن يحولهم الى المسيحية ، وقد نجحوا في اجتذاب قليل من الناس الى حظيرتهم ، وعلى الأخص من هندوس الطبقات العليا ، ولكن المنبوذين كانوا هم الهدف المقصود ، ولذلك ركز المبشرون جهودهم في هذه الساحة . ويصح أن يقال : إن بعثات التبشير المسيحية قد جنت ثمرة طيبة في كماتها الطويل بين المنبوذين .

على أن كل ما يعيننا من ذلك هو أن إدخال أساليب المدنية الغربية على يد المبشرين قد أحدث نقطة عامة بين طبقات المنبوذين ، إذ أتيت لهم الفرصة — لأول مرة في التاريخ — أن يتلقوا تعليماً وتثقيفاً ، فوضع المبشرون بذلك ، الأساس الذى يستطيع المبلغ الاسلامى أن يعبه عليه ما يريد .

حكومة الهند وتعليم المنبوذين :

وبتأسيس الأمبراطورية البريطانية في الهند ، انتشر للتعليم الغربى ، إذ قامت الحكومة بإنشاء المؤسسات العلمية في شتى الأمكنة ، فكان تقعها أهم من تقع مدارس المبشرين . ولما أتيت الفرصة للمبشرين ، لدخول هذه المدارس والكليات ، ازداد تنفع أهليهم ، وبدوا يشعرون بسوء حالهم في الماضي ، وأنهم قد سلبوا حقوقهم الانسانية قهراً . وقد اقتنعوا بأن ما أصابهم على مر العصور والأجيال من الخن ، كان السبب فيه هندوس الطبقة العليا ، وأنهم لايزالون يزحون تحت هذا العبء الثقيل ، ولذلك لم يقتنعوا بحظهم من الحياة . وقد هدد كثير منهم — في مناسبات شتى — بأن يهجروا الديانة الهندوسية ، ولكنهم كانوا يقتنعون كلما استرضاهم الهندوس بأقل منحة .

دعاة إصلاح الحال بين الهندوس :

إزاء هذه الحال ، بدأ بعض الهندوس من رجال الطبقات العليا ، بمن تنقفت عقولهم تثقيفاً

سياسياً ، يدركون الخطر الجاثم ، وهو أن المنبوذين قد يتركون حظيرتهم للارتقاء في أحضان المسيحية أو الاسلام ؛ وبذلك يضعف مركز البيئة الهندوسية من الساحة السياسية ، إذ ينقص عددهم بخروج المنبوذين من حظيرتهم .

لذلك قام هؤلاء بتمثيل « دور » المصلحين ، وبدعوا يعملون على رفع مستوى المنبوذين ؛ وقد بذل المستر « غاندى » جهوداً عظيمة في هذه السبيل ، فعمل المؤتمر الوطنى (كونجرس) على أن يجعل من بين مبادئه : إلغاء التمييز ، وجرى حملة كبيرة لهذه الدعاية .

وكان من بين ما يعمل له هؤلاء المصلحون ، أن يحصلوا للمنبوذين على حق دخول المعابد ، وقد اتخذت في هذه السبيل الخطوات الآتية :

١ — قدم للمجلس التشريعى فى دلهى مشروع قانون ، لو وافق عليه المجلس لاصبح مع المنبوذين من دخول المعابد جرعة يعاقب عليها القانون ؛ وقد قام الهندوس من الطبقات العليا ، فأحدثوا ضجة كبيرة ضد هذا المشروع ، اضطر ممها مقدمه الى سحبه من المجلس ، وبهذا فشل المشروع .

٢ — جرد المنبوذون حملة تلو أخرى لاقتحام معبد « راما » فى بلدة « نازك » بإقليم « بومباى » ، ولكن أفضلت أبواب المعبد فى وجوههم ، وكان البوليس يحمل على المنبوذين ويقصمهم عن أبواب المعبد ، ولما استمرت حملات المنبوذين أشهراً دون جدوى ، عدل عنها ، ثم قامت حملة أخرى من نوعها لاقتحام معبد « شى كام » بإقليم « توافسكور » ، وكانت النتيجة أن ضرب المنبوذون وطرودوا بعيداً عن أبواب المعبد .

٣ — قام المؤتمر الوطنى بدعاوة واسعة النطاق ، لحل مشكلة المنبوذين والمعابد ، ولكن بغير جدوى أيضاً .

مؤتمر المائدة المستديرة :

حدث فى خلال الحرب الكبرى ، أن أدركت الحكومة البريطانية احتمال قيام صعوبات فى الهند بشأن التوحيد وجمع المال ، إذ أن بعض زعماء المؤتمر الوطنى هددوا برفض مساعدة المحتلترأ جزاء عدم اهتمامها بمطالبهم الخاصة بالحكم الذاتى ؛ وفى سنة ١٩١٧ أعلن المستر مونتاجيو - وكان وزير الهند فى الحكومة البريطانية إذ ذاك - أن الهند ستمنح نظام حكومة ذاتية مستقلة ؛ ووفاء بذلك العهد ، منحت الهند فى سنة ١٩١٩ بعض امتيازات دستورية ، كما وعدت بأن تمنح امتيازات أخر بعد عشر سنوات ؛ وطلب الى الهند أن ترسل الى لندن مندوبين يمثلون كافة الطبقات والبيئات ، لمقعد مؤتمر المائدة المستديرة ، لبحث ما يمكن أن يمنح لبلادهم من الحقوق السياسية بعد ذلك ؛ وقد وقع اختيار حكومة الهند على نائبين

من طبقات المنبوذين ، كان أحدهما « الدكتور أمبكار » المحامي في بومباي ، وحضر « المستر غاندى » المؤتمر نائباً وحيداً ومقوضاً عن المؤتمر الوطنى ، وقد طلب ممثلو الأقليات أن يحتفظ لكل من البيئات بعدد خاص من المقاعد فى المجالس النيابية ، وأن تجرى الانتخابات على أساس طائفى .

وقد مارس « المستر غاندى » فى كل من الفكرتين ، وكانت كل آماله ألا ينفصل المنبوذون من بقية الهندوس ، وأن تبقى حقوق الجميع مشتركة ، وقد طال الجدل والنقاش لحل هذه المعضلة ، وأخيراً اتفق الزعماء على تحكيم « المستر رمزى مكدونالد » رئيس الوزارة البريطانية إذ ذاك ، فكانت نتيجة هذا التحكيم : أن قرر المستر مكدونالد نظام التمثيل الطائفى ، وحدد عدد المقاعد التى تعطى لكل طائفة ، كما قرر مبدأ الانتخاب الطائفى ، فغضب جمهور الهندوس لهذا القرار ، واعتزم « المستر غاندى » أن يصوم حتى الموت ، إذا لم يُلغَ قرار التفرقة بين المنبوذين وبقية الهندوس ، لأنه اعتبر قرار المستر مكدونالد منطوياً على شرط الطائفة الهندوسية شطرين .

ولما بدأ غاندى فى تنفيذ قراره بالصيام فى (بونا) ، هرع زعماء الهندوس من كافة أنحاء الهند إليها ، وجمعوا زعماء المنبوذين - ومنهم الدكتور أمبكار - وتوصلوا إليه بكافة الوسائل أن يوافقوا على إدخال تعديل على قرار مستر مكدونالد ، الذى عرف باسم « المنحة الطائفية » ، وأخيراً وصل الجميع الى ما يسمى « عهد بونا » ، وهو القائل بأن يزداد عدد مقاعد المنبوذين فى المجلس زيادة طائفة ، فى مقابل أن تكون انتخاباتهم فى بعض الأماكن مستقلة بهم ، وفى البعض الأخرى مشتركة بينهم وبين الهندوس ، وعندئذ أفلح غاندى عن صيامه ، ونجى من الموت . على أن الهندوس مازالون غير قانعين ، وهم الى اليوم حاقدون على المنحة الطائفية .

جمعية خدام المنبوذين العامة :

سبق القول بأن مستر غاندى بذل جهداً عظيماً للقضاء على التمييز فى الهند ، محاولاً تحسين حال المنبوذين . ويجدر بنا أن نذكر : أنه قام بسياحة جمع فى خلالها نحواً من ٢٥ لاک روبية (١٩٠ ألف جنيه تقريباً) لتحسين حال المنبوذين . وقد أنشأ إذ ذاك « جمعية خدام المنبوذين العامة » ، كما أنشأ لها فروقاً فى معظم مدن الهند الهامة . ومن برنامج هذه الجمعية : إنشاء مدارس مجانية لتعليم أبناء المنبوذين القراءة والكتابة ، ومبادئ الحساب ، وبعض الصناعات ، وكذلك إنشاء مستعمرات « محلات » يهودون فيها المعيشة الطائفة .

ومن مبادئ هذه الجمعية أيضاً : مساعدة الكبار من المنبوذين على كسب قوتهم ، ومساعدة شبانهم الذين يتفوقون العلم فى المدارس والكتليات .

وقد شجع مستر غاندى بعض أصدقائه الأغنياء على إنشاء المصانع بإرشاده ، لتشغيل

المنبوذين المعاملين ؛ ومعظم هذه المصانع من النوع الذى لا يحتاج الى رأس مال كبير ، عندما يفكر المصانع فى الاستقلال بالعمل . وقد زرتنا بعض منها فى (واردا) ، فشاهدنا صناعة الورق والغزل والتسيج .

مؤتمر يولا :

وإذا كان المنبوذون قد نالوا حقوقا تشريعية — أشرنا إليها سابقا — فإن حالهم الاجتماعية والاقتصادية ظلت على ما كانت عليه من سوء ؛ ولا يكاد يمضى يوم حتى يحدث ما يذكره بشديد الاحتقار الذى يكنه لهم الهندوس .

فإن أمثال ذلك ما حدث فى سنة ١٩٣٥ ، إذ انتخب الدكتور أمبيدكار — وهو من كبار المحامين ، ومن خيرة المثقفين — مميدا لكلية الحقوق فى بمباى ، فثارت ثورة الهندوس ، لا لشيء إلا لأنه منبوذ ؛ وليس هذا إلا مثالا واحداً من آلاف مما يحدث فى كل يوم ، وفى كل مكان ، مما يطول بنا ذكره .

عندئذ أدرك المنبوذون أن موقفهم يتلخص فيما يلى :

- ١ — حاولوا لدى الهندوس ، أن يماثلوهم كأدبيين ، ولكن بغير طائل .
- ٢ — طالبوا الحكومة مرة تلو مرة بتحسين حالهم ، ولكنها لم تكن لتتدخل فى مسألتهم ، إذ اعتبرتها مسألة دينية .
- ٣ — حاول المؤتمرون الوطنى الهندى ، بكل الوسائل الممكنة ، أن يقضى على التمييز فلم يستطع .
- ٤ — أخفق الزعماء المصلحون من الهندوس ، فيما أخفق فيه المؤتمر .
- ٥ — حاول المنبوذون أن يصلوا بالطريق الايجابية الى دخول المعابد ، فاستمدقوا لاغظع أنواع الإهانات ، ومع ذلك لم ينجحوا .

عندئذ دفعهم المشل فى كل هذه الوسائل ، الى الحزم بأنه لا بد من عمل يقوم به المنبوذون ، لا يتقاع أنفسهم من هذه الحال المميبة ، ففكروا فى تغيير دياتهم .

فى اكتوبر سنة ١٩٣٥ عقد مؤتمر المنبوذين فى مكان يسمى « يولا » بالقرب من « نازك » فى إقليم « بومباى » حضره عشرة آلاف منهم ، وتولى رياسته الدكتور أمبيدكار ، وألقى خطابا شاملا ، طلب فيه الى الحاضرين أن يتبعوا الطريق الوحيدة لعلاج مرض « التمييز » المزمن ، ألا وهى ترك الديانة الهندوسية بتاتا ، وقد وافقه على ذلك الحاضرون بالإجماع .

فلما أن نشرت الجرائد للسيارة هذا القرار ، اضطرب له الهندوس أيضا اضطراب ، وانتهالت

الرسائل من كافة الزعماء ، يطلبون الى الدكتور أمبيدكار التآفي في غير غضب ولا عجلة ، إذ أن حال المنبوذين محتسح قريباً جداً . أما بقية طباقتهم فقد توالى الاجتماعات بينهم في كافة أنحاء الهند ، وأخذ من الحاضرين تأييد إجماعي لرأى الدكتور أمبيدكار .

وقد كان من شأن هذا القرار ، أن بعث النشاط في نفوس زعماء الديانات الأخرى ، فأرسل بعض الزعماء المسلمين الى الدكتور أمبيدكار ، يدعونه الى اعتناق الاسلام ، ويطلبون إليه أن ينصح لكافة المنبوذين بأن يحدوا حدوه ، وقد اجتمع بعض زعماء المسلمين به شخصياً لهذا الغرض ، كما حاول المسيحيون أن يؤثروا فيه لصالح ديانتهم ، في حين حاول جماعة « السيخ » ان يضموه الى حظيرتهم .

وفي ديسمبر سنة ١٩٣٥ دعا مهرابا باتيالا (وهو من أتباع ديانة السيخ) الدكتور أمبيدكار لتقديم عليه ، والتزول في ضيافته ، وهماك اتصل بزعماء السيخ ، ودخلوا معه في مفاوضات ، فاتفق على أن ترسل بعثة من مبشرى السيخ الى أقاليم المنبوذين للعمل بينهم ، واكتب السيخ بمبلغ ٣ لآك روبية (٢٢٥٠٠ جنيه تقريباً) ، ولوسلت بعثاتهم التبشيرية الى الولايات الوسطى والهند الجنوبية . وفي ابريل سنة ١٩٣٦ تضخم رصيد السيخ لتحويل المنبوذين الى دينهم ، حتى صار ٧ لآك روبية (أى ٥٢٥٠٠ جنيه تقريباً) . وقد اتصل بنا — بعد عودتنا الى مصر — أن نشاطهم بدأ واضحاً في إقليم ناجبور ، في شهر ابريل الماضى .

الحركة في جنوبى الهند :

يطلق اسم « كيرالا » على رقعة من الأرض في جنوبى الهند ، تشمل « مالابار » و « كوشين » و « ترافنكور » ، ومعنى « كيرالا » : أرض جوز الهند . وفي هذه البلاد جالية من المنبوذين تسمى (إزهاڤا Ezhavise) يقال إنهم يبلغون ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة ، ومنذ اثنتى عشرة سنة أعلن زعيم هذه الطائفة أن طائفته اعترمت تغيير دينها لتتبعو من التبذ ، فمقدت لهم مؤتمرات ، ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة ، ومنذ خمس سنوات قام فيهم زعيم جديد ينادى بتغيير دينهم للاحول في دين الاسلام ، ولكن مرعان ما أخفت صوته .

فلما ارتفع صوت الدكتور أمبيدكار ينادى بتغيير الدين ، وأصبحت الحركة عامة في بينات المتعلمين من المنبوذين — في كثير من أنحاء الهند — نشطت قبائل الجنوب التى ذكرناها ، فمقدت في فبراير سنة ١٩٣٦ مؤتمراً من منبوذى « ترافنكور » ، قرر ترك الديانة الهندوسية ، وقد أيد هذا القرار بأخر أصدره مؤتمر جديد في مايو سنة ١٩٣٦ . وفي هذا المؤتمر الأخير خطب عطيان من مسلمى البنجاب : أحمددا الاستاذ « خالد لطيف جابا » وقد كان خطابه أثر عظيم . وقد طاف بأنحاء ترافنكور ، يصحبه الدكتور طايل Dr Thail

زعيم المنبوذين هناك ، نخطب في كثير من الامكنة ، وهياً جواً مناسباً للإسلام . وكان الدكتور طايل نفسه مبشراً بالإسلام ، فأعطى الاستاذ جابا بياناً ليبشره في صحف الاقاليم الشمالية ، فلما أن نشرت الصحف هذا البيان ، وقرأه المهنيون بشغف في الهند ، تقدم الاستاذ غلام بهيج نيرانج ، فكتب الى الدكتور طايل ، ثم ذهب الى الجنوب برفقة بعض ذوي المكانة من المسلمين (وكان ذلك في أواخر يولييه سنة ١٩٣٦) وهناك قابل الدكتور طايل وقضى معه أياماً عدة ، كان لها من الأثر أن صمم على إعلان إسلامه ، وتم ذلك فعلاً في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ . وقد أسلم اثنان وثلاثون من منبوذي الجنوب ، بعد إسلام الدكتور طايل الذي سمى نفسه « كمال باها طايل » ؛ وبعد إسلامه طاف مع الأستاذ « نيرانج » بكوشين ومالابار طوافاً خلق جواً مناسباً للإسلام . ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يدخلون في دين الله بين آن وآخر . ولا تزال جمعية « أنجيومان تملينغ الاسلام » بأம்பالا ، جادة في تنظيم أعمال التبليغ في الجنوب .

راحا ترافتكورت بأمر بدخول المنبوذين في المعابد :

راح الهندوس في هذه الامارة انتشار الاسلام بها حديثاً ، فحدث في ديسمبر الماضي — بينما كانت البعثة في طريقها الى الهند — أن أعلن الراجا ، وهو هندوسي ، جواز دخول المنبوذين في المعابد التي تديرها الحكومة (تاركا المعابد التي تديرها أشخاص أو هيئات) . وقد امتدح زعماء الهندوس — ذوو الخبرة السياسية في كافة أنحاء الهند — ذلك التصرف وطلبوا الى الحكام الهندوس ، في غير هذه الامارة ، أن يقتدوا براجا ترافتكورت ، ولكن الهندوس المتعصبين دفعوا الصوت طالياً بالاحتجاج على ما جرى ، ولا تزال المشكلة متفاقية ، ولكن يبدو لنا أن هذه الحركة التي قصد بها الى مصالح المنبوذين والهندوس قد كتبت لها الفضل ، وسيحكم الزمن وحده فيما إذا كانت أبواب المعابد ستفتح على مصراعها أم لا ، وفيما إذا كان مجرد حق دخول المعابد سيقتنع المنبوذين وينسبهم عن ترك الديانة الهندوسية أم لا .

الدكتور أمبدكار :

لقد اشتهر الدكتور أمبدكار بأنه أول زعيم ذى مكانة بين المنبوذين ، استطاع أن يمان أن لامندوحة لهم من ترك الديانة الهندوسية واختيار دين آخر يكفل لهم الحرية والاخاء والمساواة ، وقد ذاع صيته — بهذه المناسبة — حتى تجاوز حدود الهند الى مصر وأوروبا وأمريكا ، وحتى لقد أصدرت مجلة تبشيرية شهيرة عدداً خاصاً ، على خلافه صورة للدكتور أمبدكار ، ولقبته « لتكولن الهند » أي محرر الهند ؛ واشتمل هذا العدد على ترجمة لحياته ، وتفنن بمدحه ، بأسلوب بارع .

على أننا قد سمعنا الكثير على الدكتور أمبدكار ، فقال قائلون : إنه يتلاعب بصوالح المنبوذين فيساوم عليها بين أصحاب الديانات المختلفة ، ولا يصرح تصريحاً حاسماً بالدين الذي اختاره لهم ، بل يسلك في ذلك سلوك الوسطاء المحترفين .

ومن الشواهد التي رويت لنا على ذلك : أنه عند ما ذهب في سياحته إلى الجنوب لعقد مؤتمر المنبوذين ، أضافه وجماعته موظف مسلم كبير ، ثم ذهب به في سيارته إلى مقر المؤتمر ، وهو يعلم أنه سيعلم إسلامه فيه ، فإذا بأمبدكار يفاجئه بالاعتذار من إعلان اختياره دين الإسلام ، ويعلم ذلك بأنه يخشى إفلات المنبوذين من يده ، إذا جردهم بهذا الإعلان قبل أن تنضج الفكرة عندهم . وحدث أن ذهب الدكتور أمبدكار إلى المؤتمر العام للبشرى السيخ ، حيث رفعوا من شأنه ، وتوطدت علاقته بهم ، وخطب في مؤتمريهم ، فقال عن ديانتهم : إنها ديانة لا طبقات فيها ، وعندئذ كتب إليه نيرانج خطاباً ألحق به بعض مقطوعات من الجرائد عما كتبه السيخ ، مثبتاً أن ديانتهم لم تنج من نظام الطبقات ، شأنها في ذلك شأن الديانة الهندوسية سواء بسواء .

وزاد الأستاذ نيرانج على ذلك ، فدلل الدكتور أمبدكار على أن السيخ أنفسهم ليسوا إلا هندوساً ، وأن نظام النبذ منتشر بينهم ، ولكنه لم يحظ برد على خطابه .

وقد قرر لنا الأستاذ نيرانج أن الدكتور أمبدكار عقد عهداً سرّياً مع زعيم هندوسى ، هو الدكتور منجى ، على ألا يتحول المنبوذون إلا إلى ديانة السيخ ، إذا أصر الهندوس على حرمانهم من الحقوق السياسية التي نالوها بالمنحة الطائفية .

وقد اعترض المستر غاندى وغيره من زعماء الهندوس على هذه الاتفاقية ، في حين قام زعيم من المنبوذين هو د. م. ك. راجا ، ففشر على الملأ المكاتبات السرية الخاصة بهذا الموضوع ، وهنا انكشفت سياسة الدكتور أمبدكار ، ويقال إن شأنه قد قل في نظر الجمهور وخاصة المنبوذين . هذا وإن نشاطه قد تضاءل في الأيام الأخيرة ، ويعمل بعضهم ذلك بالحرب الانتخابية التي أخذت على الجميع نشاطهم في إبانها .

الحركة الانتخابية وأثرها :

لقد أثرت الحركة الانتخابية في الحركة أيما تأثير ، ونلخص ذلك فيما يلي :

١ — رشح كثير من زعماء المنبوذين أنفسهم للانتخابات الإقليمية ، ولذلك وجب عليهم أن يقفوا أوقاتهم وجهودهم ، ونشاطهم لها .

٢ — صعوبة قانون الانتخاب الخامس بمقتضى الطبقات المنبوذة ، ذلك بأن المنبوذين وحدهم يرشحون عدداً منهم عن الدائرة الواحدة (٤ أو ٥) ، وبعد ذلك تدور الانتخابات العامة لانتخاب واحد فقط من هؤلاء ، وفي هذه الانتخابات يحق للهندوس ، بمقدار ما يحق

لمبوذين ، أن يعطوا أصواتهم . ونتيجة ذلك أن المرشح المبوذ — إذا لم يفز بالتركية — يظل محتاجا الى تأييد الهندوس ، وهم لن ينتخبوا مرشحا يعلمون عنه أنه من أنصار الخروج على الديانة الهندوسية ، لهذه الأسباب تقاعس كثير من زعماء المبوذين عن حركة تغيير الدين ، ولا يسام فيها الآن إلا من لا تههم عضوية البرلمان . وعلى ذلك يمكن أن يقال إن المعركة الانتخابية قد أضرت — ولو الى حين — بالحركة التي يرمى بها المبوذون الى تغيير دينهم .

على أن معركة الانتخابات قد أسفرت عن نجاح كثير من زعماء المنسودين الذين كانوا في نشاط جم في حركة تغيير الدين ، كما أسفرت عن فشل البعض الآخر . ولما كانت مدة النيابة خمس سنوات ، وكانت الكراسى البرلمانية موزعة توزيعا طائفيًا ، فإن أولئك الذين نجحوا ، يمتثل كثيراً أن ينصرفوا عن حركة تغيير الدين ، لئلا تسقط عنهم عضوية البرلمان التي يعلقون عليها أهمية كبرى .

أما أولئك الذين لم ينجحوا في الانتخابات ، فقد كتب عليهم — وفقا لتقاليد بلادهم — أن يندفعوا في حركة تغيير الدين ، إذ حلاهم الميادات بخروج منافسين لهم الى دوائر البرلمان ، وبذلك كسبت الحركة وخسرت في وقت واحد (يتبع)

الى حضرات المشتركين

بمناسبة انتهاء السنة الثامنة للمجلة ترحب إدارة المجلة حضرات المشتركين بماوتها على ضبط حساباتها بأداء بدلات اشتراكهم الى حضرات وكلائها ، وتامل أن يجمد وكلاؤها منهم مثل ما وجدوه في السنين الماضية من عناية ووفاء . وقد نشرنا أسماء حضرات الوكلاء في الصفحة الثالثة من الغلاف .

كتب قيمة

فؤاد الأول :

وضع حضرات الاساتذة الاجلاء: عبد المزين الازهرى افندى، وعلى عبدالله سرحان افندى، ومحمد مجاهد افندى، تاريخاً مطولاً لملك مصر العظيم فؤاد الاول يقع في نحو ٤٥٠ صفحة، وإنه لعمل عظيم القيمة، فإن من يعلم أن جميع ما حصلته مصر من النظم الدستورية، وكل ما دخلت فيه من التطورات السياسية، ثم في عهد هذا العاهل الكبير، يدرك أن الكتاب الحاوى لتاريخه يشتمل على تاريخ جميع هذه التطورات الاجتماعية. وبما زاد هذا التاريخ قيمة أن حضرات واضعيه لم يرضوا بالتوسع في إياد تواريخ هذه الشئون الهامة. فجاء كتابهم تاريخاً حياً لوطنهم، في عهد يعتبر بمثابة حقبة لمصر الحرة المستقلة.

أعدل الموازين في تبيان حقوق الوارثين :

إن مسألة الوراثة من المسائل التي تهتم الناس كافة، ويهم أكثر الناس أن يكونوا على علم بها لما تتصل بحياة أسرهم وأصلاً وثيقاً، وأتى لهم هذا العلم إذا راموا استمداده من الكتب الفقهية، فتجدهم يضطرون أن يسألوا أهل العلم عنها، وقد يتفق أنهم لا يصادفون بها خبيراً. فانتدب فضيلتنا الاستاذين الجليلين الشيخ محمد حسين النجار والشيخ أبو زيد شاذلي المدرسين بمعهد أسيوط الدينى بعد هذه الحاجة العلمية، فوضعا فيها رسالة في نحو ٢٨ صفحة جملا فيها القواعد الفقهية الواردة في الوراثة في أقطر، والتطبيقات خارجها، فجاءت رسالة حاوية لجميع حالات الوراثة يجد حاجته منها كل مستطلع بدون تكلف. ولو حمد العلماء الى كل مسائل الفقه فوضعوها أمثال هذه الجداول، لأصبح العلم على طرف النمام من طالبه. فرحى لهذين العاملين العاملين صرحى !

السمير الواعظ — علم . أدب . أخلاق . تاريخ . وعظ . اجتناب . قصص

هذا كتاب يقع في ٢٨٥ صفحة لفصيلة الاستاذ التاج الشيخ محمد يوسف إمام مسجد الريدانية دقهلية . كتب في مقدمته ما يأتى :

« وبعد فإنى أقدم الى القارىء الكريم بذلك السفر الجامع لثغرات ما تفرق في بطون الكتب، والذي سيرى منه مورداً عذباً، وأنياساً له في وحدته، وسميراً واعظاً في غفلته، ورفيقاً مواسياً في غربته .

« بذلت في حمله زهرة الشباب، وجمعت فيه ما قد وطأ به، وسهرت فيه طوال الليالى،

وراجعت من أجله أمهات كتب الأدب والدين والأخلاق، حتى برز والحمد لله إلى عالم الوجود طرفة نفيسة وكتاباً قيماً .

وقد وفي الاستاذ بما ذكره ، فله الشكر على ما صنع .

جمال الدين الافغانى باعث النهضة الفكرية في الشرق :

هو أحفل كتاب بتاريخ حياة هذا الفيلسوف الاسلامي الجليل . وضعه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد سلام مذكور الطالب بكلية الشريعة . فقد جمع فيه كل ما كتب في جمال الدين من البحوث والتعليقات ، واستوعب كل ما حدث له من الحوادث ، وكل ما عمله في حياته الفلسفية والسياسية ، فلم يدع لمن يريد التوسع في معرفة مسيرة هذا الرجل النابغة حاجة إلى المزيد . فنرجو لهذا الكتاب الرواج العظيم .

إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي .

إن لهذا الكتاب من الشهرة المستفيضة ما يتفق ومحمو موضوعه ، وحسن أساليبه ، وسطوع أدلته ، ولا غرو فهو تأليف من أجمع أهل العلم على تسميته بحجة الاسلام ، وهو لقب لمن يتأمل فيه عظيم . ولقد رنت مؤلفات ، وأحلفت أساليب ، وابتذلت عبارات ، وخاصة في نظر المقول المنمردة في العصر الحديث ، ولكن هذا الكتاب لا يزال في جده الأولى حجة دامغة لسمو النماذج الاسلامية ، وصلاحياتها لكل زمان ومكان ، معتقدات وعبادات ومعاملات .

كان هذا الكتاب لا تزال تتولاه المطابع الأهلية بالطبع ، فكان المصريون لا يقبلون عليه ، ولكن لجنة الثقافة الاسلامية تولت طبعه على الطراز الشائق الحديث ، مضافا اليه تخريج الحافظ العراقي ، جاء رائعا في موضوعه ، جيلا في طبعه ، معجبا في وضعه . ثم طبع سبعة أجزاء منه ، والهمة مبذولة في طبع الباقي . تخاير في الحصول عليه (لجنة نشر الثقافة الاسلامية) بشارع الناصرية رقم ١٣ بالقاهرة .

تاريخ الفن للمصري القديم :

اشتهرت مجلة الهلال باصدار ملاحق تفتيحها من عيون الموضوعات العلمية والفنية . وقد أصدرت أخيرا منها ملحقا بالعنوان المتقدم ، تأليف الاستاذ النابه محرم كمال الأمين المساعد بالمتحف المصري . وقد تصفحهناه فوجدناه يأتي على تاريخ الفن المصري تفصيلا ، على الصور البديعة . فهذا الكتاب في نفسه يعتبر قطعة علمية فنية لا يجوز أن تخلو منه مكتبة مصرية . فنشكر مجلة الهلال على هذه الخدم المتوالية قلم ، ونرجو لها المزيد .

الفهرس العام

للسنة الثامنة (١٣٥٦ هـ) منه مجلدان

المقالات

صفحة	بسم	الموضوع
		(١)
٥٧٢	حضرة الاستاذ مدير المجلة	الابداع الالهى - صفحة منه
٢٢٩١١٧	الدكتور محمد غلاب	ابن رشد
٢٣٤	فضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	ابن رشد - فلسفته
٣٦	حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب	ابن سينا
٧١٧	فضيلة الاستاذ الشيخ محمود ياسين	أبو شحمة بن عمر - هل حد في الزما
٤٦	حضرة الاستاذ مدير المجلة	الأنثى
٦٧٧	فضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	اجتهاد الرسول وكبار الصحابة
٤٣٠	محمد الأسمر	اختلاط الجلسين
٢٢٣١٢١	عبدالرحمن الجزيري	الإخلاص
٣٦٢١٢٨٢		
٤٩٨٤٢٦٦		
٦٢٦١٥٥٢١	حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب	الإخلاص الفلسفية
٧١٣		
١٣٤١٦٨		
٤٤٠٢٨٦٦		
٥٧٧٤٥٠٨	فلم الترجمة	الادب العربى
٦٥٠		
٩٠	فضيلة الاستاذ الشيخ محمد محي الدين	أصحاب الحجر النبوية
١٠٥	حضرة الاستاذ مدير المجلة	استحضار الأرواح فى أوروبا

العدد	الموضوع	الصفحة
١١٧٤٣٦/٢٢٩	الاسلام والفلسفة	حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب
٢٧٩	الاسلام في أوروبا — شعائره	» » مدير المجلة
٥٠٥	الاسلام في الهند	» »
٢٦٦	أسواق العرب ..	فضيلة الاستاذ الشيخ صادق مرجون
٣٦٥٤٣٥٧/٥٦٤	أعلام الثقراءن	» » فكري يس
٤٢٢٤٣٥٤	الانصار	» » صادق مرجون
(ب)		
٢٤٦	بدء الخلق	فضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزري
٣٧٥٤٣٠٢	بعثة الهند — تقرير
٥٢٠٤٤٤٤/٦٥٩٤٥٨٦		
٧٢٢		
٧٢٦	بعثة الهند — مشاهدات ..	فضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي
(ت)		
٥١٣	محاكم الشعراء	فضيلة الاستاذ الشيخ صادق مرجون
٢٣٦	القشريع المصري والقشريع الاسلامى ..	» » عباس طه
٦٣٥	التطبيب في الاسلام	حضرة الاستاذ مدير المجلة
١٧	التفسير	فضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى
٢٧٤٤٧٩	تفسير سورة لقمان	» » ابراهيم الجبالي
٣٩٠٤٣١٩/٥٣٦٤٤٧٦		
٦١٧		
٢٨	التونب لهوض الفقهي	صاحب العرة عبد السلام ذهني بك
٤٠٠	التوحيد — مشكله	فضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى
(ح)		
٦٧٣	الحلج	حضرة الاستاذ مدير المجلة

العدد	الموضوع	العدد
٥٤٨٤٨٧ ٦٨٩٦٩٢	حدث جليل	٦٨٩٦٩٢
٦٩٣	الحسبة في الاسلام	٦٩٣
٥٧٥	حفظ النفس والأهل	٥٧٥
	(٥)	
٦٤٢٥٢٩	الدروس الدينية	٦٤٢٥٢٩
٦٠٦	الدعوة الى الله تعالى وأهل الفترة	٦٠٦
٧٠١	الدعوة الاسلامية — موقفها من الشر والشراء	٧٠١
٧٠٥	الدعوة الى الله تعالى	٧٠٥
٣٦٢٢٨٢ ٤٢٦	الدين وقوة سلطانه على النفوس	٣٦٢٢٨٢ ٤٢٦
	(ز)	
٦٣١	الزبير بن العوام — سيرته	٦٣١
٣٣٨	الزهاوي الفيلسوف المراقى	٣٣٨
٤٩٢	الزواج — وحمة الزوجة وتعدد الزوجات	٤٩٢
	(س)	
٦٥٧	السلطان الدينية والديوية	٦٥٧
٤١	السليقة العربية	٤١
	(ش)	
٧٣	الشبان المتعلمون في مصر — مشكلة	٧٣
٢٥٣	الشرية — حاجة الانسان اليها	٢٥٣
٣٣٢	الشرية والقوانين الوضعية — الموازنة بينهما	٣٣٢
٥٢٩	شهر رمضان	٥٢٩
	(ص)	
٥٦١	الصيام في الاسلام — حكم	٥٦١

صفحة	بسم	لموضوع
		(ض)
٥٥٢، ٤٩٨ ٦٢٦	حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب	الصمير
		(ط)
٥٤٠	فضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	الطلاق
		(ع)
		العام المحمري الجديد :
■	..	كلمة حضرة الاستاذ مدير المجلة .
١٠		كلمة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر
١٢	فضيلة الاستاذ الشيخ عبدالجواد رمضان	كلمة — شعر
١٤	حضرة الاستاذ احمد محرم	كلمة — شعر
٥٩	» » محمد النعراوى	العلم والدين
٥٢٩	» » مدير المجلة	صبر بن الخطاب الناحية الفلسفية .
٣٤٥	» » احمد محرم	عيد التاج — قصيدة ...
		(ف)
٣	حضرة الاستاذ مدير المجلة	فاتحة السنة الثامنة
٢٦٢، ١٠٣	فضيلة الاستاذ الشيخ سيد عتيق	الفقه الاسلامى
٣٤٧	» » عبدالله المرافعى	الفقه الاسلامى والفقه الرومانى
		(ق)
١٣٠	فضيلة الاستاذ الشيخ عباس طه	قانون العقوبات الجديد
٤٠٤	حضرة الاستاذ مدير المجلة	القرآن الكريم — رد شبهات عليه
٧٠٩	» » »	القرآن — أثره فى تحرير الفكر
٥٨٣	فضيلة الاستاذ الشيخ عباس طه	القضاء فى الاسلام — نظامه ...
		(ك)
٢٩٩	فلم الترجمة	الكتاب — حكمة محرم مؤوده

الوضوع	بسم	سبعة
كلمات اجتماعية	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٤٩٢
كلمة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر في وفود الكليات	٦٤٥
(ل)		
لماذا هو ملحد	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٤٥٧
(م)		
المنهج — حياته	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محي الدين	٤٩
الحاماة قديما وحديثا	» » » عباس طه	٧٢٩
محبة الله عز وجل	» » يوسف الدجوي	٨٤
محمد صلى الله عليه وسلم	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٢٩٠١٩٥ ٤٣٦٣٥٨
المذاهب الفقهية — جمعها	» » »	٢٣
المرأة في الاسلام	» » »	٢٩٠١٣٩
المطالب العالية للنفس الناطقة	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه	٢٩٤٥٥ ٤٥٢٣٧٢ ٥١٧
الملك :		
احتفال الأزهر ببلوغ جلالة من الرشد	٣١٣
تمطعات جلالة على الجامعة الأزهرية	٣١٣
صاحب الجلالة الملك فاروق الأول	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣١٦
مهر الزواج	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري	٣٩٤
المولد النبوي :	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفه	٢٠٢
أساس الرقي في الاسلام	١٤٥
خطبة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٢١٥
دراسة في حياة محمد صلى الله عليه وسلم	صيلة الأستاذ السيد عبد القادر المغربي	١٥٥
دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد	فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبال	١٤٩
ذكرى المولد النبوي الكريم	» » احمد شفيق	

الموضوع	بسم	صفحة
ذكرى المولد الشريف	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	١٥٠
ذكرى الرسول الأعظم	حصرة الأستاذ أحمد محرم	٢٠٦
ذكرى الميلاد النبوي	فضيلة الأستاذ الشيخ فكري يس	٢٠٩
عظمته صلى الله عليه وسلم	» » يوسف الدجوي	١٦٠
في ظلال الاسلام	حضرة الأستاذ الدكتور زكي مبارك	١٩٦
كيف نحكي المولد النبوي	فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولي	١٩٩
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم	» » عبد الحليم عيسى	١٧٥
محمد صلى الله عليه وسلم	» » محمود شلتوت	١٨٢
محمد خاتم النبيين	» » محمد أحمد العلوي	١٨٧
من نقحات النبوة	» » صادق عرجون	١٩١
مولد محمد خاتم المرسلين	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٤٥
ميلاد الرسول	فضيلة الأستاذ محمد الاسمر	٢١٣
الميراث في الجاهلية والاسلام	» » محمد مصطفى شادي	٧٢١
(ن)		
النثر الفني	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٦٢٢١٥٥٧
النقد الأدبي في صدر الاسلام	» » » »	٩٩
(و)		
الوقف لاهلي — من ينفي ؟	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٣٦
الولي — اختراعه في عقد لزواج	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري	٣٢٥

الفتاوى

سنة	بسم	للموضوع
٥٠٢	لجنة الفتوى	آلة القصاص
٤٣٥٤٣٣٧ / ٦١٦ ١	» »	الرضاع
٥٠٣	» »	الصلاة -- تعليم للتلاميذ كيفيتها عمليا .
٧٢٠	» »	الطلاق
٥٧٠	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي	الطلاق -- مسألة
٥٠٣١٢٧١	لجنة الفتوى	الكلاب -- تربيتها وطهارتها ..
٦١٦٥٥٠٤	» »	الميراث
٢٧٢٠١١٥	» »	الوقف

الخطأ والصواب

صواب	خطأ	س	س
حم	طسم	٢٢	٩١
ويريدون	ويريدون	٣	٩٦
بالرحمة	بالرحمة	٢٧	٩٧
خلق	خلق	١٢	٥٦٦

and on the manner of her performing the ghusl, and taking a perfumed rag ¹ to wipe the last traces of blood

We are informed by Yahyā, who had it from Ibn ʿUyaynah, through Mansūr b. Safiyyah, through his mother, through ʿAʾishah that :

A woman ² once questioned the Prophet (Allāh bless him and give him peace) about the manner of her performing the ghusl after her courses. He prescribed to her the manner in which she should wash herself, adding: "Take a perfumed rag and purify thyself with it." "How am I to purify myself with it?" replied she. "Purify thyself with it," said he. "How?" asked she again. "Good gracious!" replied he, "Purify thyself."

I accordingly drew her aside to me, and told her to wipe away the last traces of blood with it. ³

تَطَهَّرَتْ مِنَ الْمَحِيضِ ،
وَكَيْفَ تَغْتَسِلُ وَتَأْخُذُ فِرْصَةً
مُمَسَّكَةً فَتَسْبِغُ أَثَرَ الدِّمِ :

حَدَّثَنَا يَحْيَى قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ
مَنْصُورِ بْنِ صَفِيَّةٍ عَنْ أُمِّهِ عَنْ عَائِشَةَ :
وَأَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنَ الْمَحِيضِ ،
فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ : خُذِي
فِرْصَةً مِنْ مَيْسِكَ فَتَطَهَّرِي بِهَا ، قَالَتْ :
كَيْفَ أَتَطَهَّرُ ؟ قَالَ : تَطَهَّرِي بِهَا ، قَالَتْ :
كَيْفَ ؟ قَالَ : سَبِّحَانَ اللَّهَ تَطَهَّرِي
فَاجْتَنِبِي نَهْأِي إِلَى قُلَّتِ تَلْبَسِي بِهَا
أَثَرَ الدِّمِ .

1. مَسْكَةٌ has also the meaning of old or worn.

2. The woman in question was Asmā' bint Shakal, who was known as the spokeswoman of her sex (حطية النساء) . The prophet's reticence was due to embarrassment as will be seen in the following hadith. ʿAʾishah, in her capacity as teacher of the faithful women, took upon herself to draw the woman aside and explain matters to her.

3. For its elucidation, this hadith should be compared with Muslim's fuller narrative which details the manner of ghusl as well as the rubbing of the head. Al-Bukhārī does not adopt it for his Collection as it fails to fulfil his criteria of genuineness, though he takes his title from it—his practice being to accept titles taken from hadiths that were not up to his standard of genuineness. His reason for rejecting the fuller narrative accepted by Muslim is that it was transmitted by Ibrāhīm b. Muḥājir, whose reliability as a narrator was impugned. He accordingly preferred for his text the abridged form, which — in spite of its greater authenticity — does not completely elucidate the title, to the other fuller but less reliable narrative.

Chapter 12.

On the use of perfume by woman performing the ghusl after her courses.

We are informed by ‘Abdullāh b. ‘Abdul-Wahhāb, who had it from Hammād b. Zaid, through Ayyūb, through Hafsah (or—states Al-Bukhari—Hishām b. Hassān, through Hafsah), through Umm ‘Atiyyah, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace). She said :

“We were forbidden to be in mourning for the dead more than three days, except for a husband, when the mourning period was four months and ten days — during which we were not to use kohl or perfume, nor wear a dyed garment unless it were of ribbed Yamānī cloth. We were permitted when any one of us was performing her ghusl after being clear of her courses to use a pinch of Zafār costus.¹ We were also forbidden to follow funeral processions.”

Hammād² stated that this hadīth was related by Hishām b. Hassān through Hafsah, through Umm ‘Atiyyah, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace).

Chapter 13.

On a woman rubbing herself when purifying herself after her courses ;

— ١٢ —

بَابُ الطَّيْبِ لِلْمَرْأَةِ عِنْدَ

غُسْلِهَا مِنَ الْمَحِيضِ :

حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن حفصة (قال أبو عبد الله : أو هشام بن حسان عن حفصة) عن أم عطية عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت :

« كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُجِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى رَوْحِ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ وَغَسْرًا وَلَا نَكْتَحِلُ وَلَا نَطِيبُ وَلَا نَلْبَسُ ثَوْبًا مَصْبُوغًا إِلَّا ثَوْبَ عَصَبٍ ، وَقَدْ رَخَّصَ لَنَا عِنْدَ الطَّهْرِ إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا فِي بُدَّةٍ مِنْ كُنُسَةِ أَظْفَارٍ ، وَكُنَّا نُنْهَى عَنْ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ . »

قال رواه هشام بن حسان عن حفصة عن أم عطية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

— ١٣ —

بَابُ ذَلِكَ الْمَرْأَةِ تَغْسِلُ نَفْسَهَا إِذَا

1. The commentators prefer زعفران an Indian aromatic herb imported through Zafār in Yaman, used as incense. Although perfumes were forbidden then during mourning, they were allowed the use of incense after their courses.

2. According to Al-Karmānī this statement was made either by Al-Bukhārī or Hammād, though Ibn Hajar and Al-Aīnī are in favour of the former.

2. We are informed by Qutairbah, who had it from Yazid b. Zurai^o, through Khâlid, through 'Ikrimah, through 'A'ishah, who said :

"One of the Prophet's wives (Allah bless him and give him peace) once joined him in a spiritual retreat, when she actually saw blood and a yellowish liquid which she caught in a basin under her while she was praying."

3. We are informed by Musaddad, who had it from Mustamir, through Khâlid, through 'Ikrimah, through 'A'ishah that :

One of the Mothers of the Faithful once went into a spiritual retreat while she was afflicted with constant extra-menstrual discharge.

Chapter 11.

Should a woman perform her prayer in a garment which she hath worn during her courses ?

We are informed by Abu Nu'aim, who had it from Ibrâhîm b. Nâfi^o, through Ibn Abu Najih through Mujâhid, who stated that 'A'ishah said :

"Each one of us had only one garment¹, which she wore during her courses, so that if it was slightly soiled by blood she moistened the place with her saliva and rubbed it with her finger-nail."

٢ — حَدَّثَنَا قَتِيْبَةُ قَالَ حَدَّثَنَا يَزِيْدُ
ابْنُ زُرَّيْعٍ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ
عَائِشَةَ قَالَتْ :

« اِعْتَكَفْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً مِنْ أَزْوَاجِهِ
فَكَانَتْ تَرَى الدَّمَ وَالصُّفْرَةَ وَالطُّسْتُ
تَحْتَهَا وَهِيَ تُصَلِّي . »

٣ — حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ
عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ عَائِشَةَ :
« أَنَّ بَعْضَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
اعْتَكَفَتْ وَهِيَ مُسْتَحَاضَةٌ ، »

— ١١ —

بَابُ : مَنْ تَوَضَّعَ الْمَرْأَةُ فِي
تَوْبٍ حَاضَتْ فِيهِ ؟

حَدَّثَنَا أَبُو ثَعْمَانَ قَالَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ
ابْنُ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ
قَالَتْ : عَائِشَةُ :

« مَا كَانَ لَنَا إِلاَّ تَوْبٌ وَاحِدٌ
تَحِيضُ فِيهِ ، فَإِذَا أَصَابَتْ شَيْءٌ مِنْ دَمٍ
قَالَتْ : يَرْيِقُهَا فَصَعَتَهُ بِظَفَرِهَا . »

Jahsh. Ibn Al-Jauzi, however, holds that the woman in question was not one of the Prophet's wives mentioned, but a connection, and names Umm Habibah bint Jahsh the Prophet's sister-in-law, and Zainab bint Umm Salamah the Prophet's step-daughter. This view is refuted by the two following narrations of the same hadith which both state clearly that she was one of the Prophet's wives.

1. This was the case only in the early days of Islâm when poverty and hardship were the rule; but later, as Umm Salamah's hadith shows, separate garments were kept for menstruation.

menstrual blood? 'If the garment of any of you is soiled with menstrual blood', replied he, 'let her rub it between her knuckles, and then rinse it with water, after which she may pray in it.'

2. We are informed by Asbagh, who had it from Ibn Wahb, who received it from 'Amr b. Al-Hārith, through 'Abdur-Rahmān b. Al-Qāsim, through his father, through 'A'ishah, who said :

"When one of us had her courses she used to rub the blood-stains off her garment with her knuckles on purifying herself, then wash them and rinse the whole garment. After that she performed her prayer in it."

Chapter 10.

On the spiritual retreat of a woman subject to constant extra-menstrual discharge.

1. We are informed by Ishāq, who had it from Khālid b. 'Abdullāh, through Khālid, through 'A'ishah that :

One of the Prophet's wives (Allāh bless him and give him peace) once joined him in a spiritual retreat when she was in a state of constant extra-menstrual discharge, actually seeing the blood—so much so that she placed a basin under her, presumably to catch the blood.

'[Krimah stated that 'A'ishah, seeing a safflower-like¹ juice said : "I suppose this is what such and such² was discharging."

1. The simile is chosen here because the safflower plant yields a thin reddish liquid like the more tenuous blood of the post-menstrual flow.

2. This seems to have been Saudah bint Zamrah, or Ramlah Umm Habibah, or Zainab bint

الدَّمُ مِنَ الْحَيْضَةِ كَيْفَ تَصْنَعُ؟
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
إِذَا أَصَابَ ثَوْبَ أَحَدَاكُمْ الدَّمُ مِنَ
الْحَيْضَةِ فَتَغْرِصْهُ ثُمَّ لِيَتَصَحَّ بِمَاءٍ
ثُمَّ لِيُصَلِّي فِيهِ .

٢ — حَدَّثَنَا أَحْبَبُ قَالَ أَخْبَرَنِي ابْنُ
وَهْبٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ عَنْ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ
عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

وَكَانَتْ إِحْدَا نَا تَحِيضُ ثُمَّ تَقْتَرِصُ
الدَّمَّ مِنْ ثَوْبِهَا عِنْدَ طَهْرِهَا فَتَغْسِي
وَتَصْنَعُ عَلَى سَائِرِهِ ثُمَّ تَصَلِّي فِيهِ .

— ١٠ —

بَابُ الْإِعْتِكَافِ لِلْمُسْتَحَاضَةِ:

١ — حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ قَالَ حَدَّثَنَا خَالِدُ
بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ يَحْيَى عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ عَائِشَةَ :
أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَكَفَ
مَعَهُ بِمَنْزِلٍ يُسَمَّى وَهْنَى مُسْتَحَاضَةً
تَرَى الدَّمَ ، فَرَبَّمَا وَصَفَتِ الطَّلَسَتْ
تَحْتَهَا مِنَ الدَّمِ
وَرَزَعَمَ أَنَّ عَائِشَةَ رَأَتْ مَاءَ
الْعُصْفَرِ فَقَالَتْ : كَانَ هَذَا شَيْءٌ
كَانَتْ فَلَانَةٌ تَجِدُهُ .

which Allāh hath allotted to the daughters of Adam' said he, 'so perform whatever a pilgrim should do, save that thou do not circumambulate the Ka'bah until thou hast purified thyself.' "

Chapter 8.

On constant extra-menstrual discharge.

We are informed by 'Abdullāh b. Yūsuf, who had it from Mālik, through Hishām b. 'Urwah, through his father, through 'A' Ishah, who said :

"Fātimah bint Abu Hubaish once said to the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) : 'O Messenger of Allāh, I am never in a state of ritual purity, *through constant extramenstrual discharge*. Am I then to give up prayer ? 'That is only blood oozing from a vein', replied the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace, 'so when the time of thy courses cometh give up prayer, and when their period passeth wash the blood from off thee and perform thy prayer.' "

Chapter 9.

On washing away stains of menstrual blood.

1. We are informed by 'Abdullāh b. Yūsuf who had it from Mālik, through Hishām, through Fātimah bint Al-Mundhir, through Asmā' bint Abu Bakr, who said :

"A woman once asked the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) : 'O Messenger of Allāh, what dost thou consider any one of us should do if her garment is soiled with

شئ من كسبة الله على بنات آدم، فافعلني ما يفعل الحاج غير أن لا تطوئي بالبيت حتى تطهرى . "

— ٨ —

باب الاستحاضة :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت :

« قالت فاطمة بنت أبي حبيش رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إني لا أطهر ، أفأدع الصلاة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما ذلك عرق وتيس بالحيضة ، فإذا أقبلت الحيضة فارتدي الصلاة ، فإذا ذهب قدرها فاغسلي عنك الدم واصلّي . »

— ٩ —

باب غسل دم الحيض :

١ - حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت :

« سألت امرأة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله أرأيت إحدانا إذا أصاب ثوبها

the letter of [the Prophet (Allāh bless him and give him peace), and when he read it he saw in it the words : "In the Name of Allāh the All-Loving the Most Merciful. O ye people of the Book, come to the call of a word which is common to us and you etc ;" ¹

*Atā² related through Jābir : "A³ ishah, although in her courses, performed all the rites of the pilgrimage except the [circumambulation of the Ka'bah and the prayer ;" ²

Al-Hakam said : "For my part I slaughter animals when I am in a state of ritual impurity, mentioning the [name of Allāh, for He saith : 'Eat ye not of things over which the name of Allāh hath not been mentioned.' " ³

We are informed by Abu Nu'aim, who had it from 'Abd-ul-'Azīz b. Abu Salamah, through 'Abd-ur-Rahmān b. Al - Qāsim, through Al - Qāsim b. Muhammad through 'A⁴ ishah, who said :

"We set out with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) with no other aim but the pilgrimage to Makkah. When we reached Sarif, my courses came upon me, and when the Messenger of Allāh (Allāh bless him and give him peace) entered my tent I was in tears. He said : 'Why art thou weeping ?' I replied : 'I wish by Allāh that I had not undertaken the pilgrimage this year !' He said : 'Have thy courses perchance come upon thee ?' Yes', replied I. 'This is a matter

عليه وسلم فقرأ فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم وَيَأْمُرُ الْكِتَابَ نَعَالُوا إِلَى كَسِيَّةٍ ... الآية،

وقال عطاء عن جابر : حاضت عائشة فلتسكت المتأبئة كلها غير الطواف بالبيت ولا تهللى،

وقال الحكم : إني لأذبح وأنا جنب، وقال الله : ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .

حدثنا أبو نعيم قال حدثنا عبد العزيز ابن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت :

« خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا نذكر إلا الحج، فلما جئنا سريفة طمئت فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، فقال ما يبكيك؟ قلت : لو رددت الله أني لم أحج العام قال : لتعلك نفست؟ قلت نعم، قال : فإن ذلك

1. See Surah 3 : 64. The point of this passage is that although Heraclius was, as a Christian, presumed in a state of ritual uncleanness, there was no objection to his touching the Qur'ān and reading two verses from it. This fact is the basis of the Companions' inference that one or two verses might be recited by one in a state of janābah.

2. The distinction must be observed between the صلاة (prayer ritual) and the دعاء (the saying of prayer or the making of invocation)—the former not being permissible to a menstruating woman or one in a state of janābah, and the latter being permissible at all times.

3. Surah 6 : 122.

husbands. I have never seen anyone more apt to make a resolute man lose his reason than one of you womenkind who are imperfect in intellect and faith.'

'What is the imperfection in our intellect and faith, Messenger of Allāh?' asked they.

'Is not the testimony of a woman equal to half that of a man?' replied he.

'Certainly', said they.

'Then', added he, 'that is due to the imperfection of her intellect. Must she not cease to pray and fast when menstruating?'

'Certainly', said they.

'Then', added he, 'that leadeth to the imperfection of her faith.'¹

Chapter 7.

A woman in her courses performeth all the rites of the pilgrimage except the circumambulation of the Ka'bah; Ibrāhīm declared that there was no harm in her reciting one verse of the Qur'ān;²

Ibn 'Abbās saw no harm in a verse or two being recited by one in a state of ritual impurity through sexual intercourse;

the Prophet (Allāh bless him and give him peace) used to praise Allāh on every occasion of his life;

Umm 'Atiyyah said: "We were commanded to send out women in their courses on the Feast day, so that they might say the takbīr with the Faithful and make invocation;

Ibn 'Abbās stated that he was informed by Abu Sufyān that Heraclius called for

أَذْهَبَ لِلْبَّيْتِ الرَّجُلِ الْحَزِيمِ مِنْ
إِحْدَاكُنَّ.

قُلْنَ: وَمَا تَقْصَانِ دِينَنَا وَعَقْلَنَا
يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ
نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟

قُلْنَ: بَلَى،
قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ تَقْصَانِ عَقْلِهَا،

أَلَيْسَ إِذَا أَحَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟
قُلْنَ: بَلَى،

قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ تَقْصَانِ دِينِهَا.

— ٧ —

بَابُ: تَقْضِي الْحَائِضِ الْمَنَاسِكَ
كُلُّهَا إِلَّا الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ،

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا بَأْسَ أَنْ تَقْرَأَ آيَةً،
وَلَمْ يَرِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْفَرَائِغِ

لِلجُنُوبِ بَأْسًا، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانٍ،

وَقَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ: كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ
يَخْرُجَ الْحَائِضُ فَيُكَبِّرُ بِتَكْبِيرِهِمْ

وَيَدْعُونَ،

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَفْيَانَ
أَنْ هِرَقْلَ دَعَا بِكِتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

1. The interruption in prayer and fasting necessitated by a woman's weakness places her at a disadvantage with a man, whose religious exercises are subject to no such interruption.

2. An isolated verse may be recited, preferably being begun but not completed—as is expounded in a hadith narrated by this Ibrāhīm.

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للمؤلف ابراهيم بن موسى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

L. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Menstruation

(CONTINUED)

Chapter 6.

On a woman in her courses not keeping the fast.

We are informed by Sa'îd b. Abu Mar'âm, who had it from Muhammad b. Ja'far, who received it from Zaid b. Aslam, through 'Iyâd b. 'Abdullâh, through Abu Sa'îd Al-Khudri, who said :

"The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) once went out on the Feast of the Courban Sacrifice—or that of the Breaking of the Fast¹—to the open air mosque.² When he passed by the women he said: 'O ye women! Give alms, for indeed it hath been shown me that ye form the greater part of the inhabitants of hell-fire.' 'What for, Messenger of Allâh?' asked they. 'Ye are instant in cursing', replied he, 'and ye show ingratitude to your

كتاب الحيض (تابع ماقبله)

— ٦ —

باب : ترك الحيض الصوم :

حدثنا سعيد بن أبي مریم قال أخبرنا محمد بن جعفر قال أخبرني زيد بن أسلم عن عياض بن عبد الله عن أبي سعيد الخدري قال :

« خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرِ إِلَى الْمُصَلَّى ، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أَرَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ، فَقُلْنَ : وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : تَكْثُرُنَّ اللَّفْنَ وَتَكْثُرُنَّ الْعُسْرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَائِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ

1. Doubt on the part of the narrator.

2. A place in the cemetery where the Feast-prayer was performed.